

المختصر المفيد

في

تفسير القرآن المجيد

محمد علي التسخيري - محمد سعيد النعماني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

سورة الفاتحة

١: بـ«اسم الله» يبتدئ كل شيء ومنه ينطلق الخلق ويقتضي رحمته. فهو مملوك له ومستند إليه، يمدّه بالبقاء والاّ كان أبتر ـ كما ورد ـ وبهذا تعطى اول لبنة لبناء التصور الإسلامي، فيرتبط الكون بالحق تعالى، وتنتفي كل الالهة الوهمية. و(الله) هو اللفظ الموضوع للذات المستجمعة لكل الصفات الكمالية.

المنعم نعمة وافرة شاملة للجميع دائمة لا تنفك عنه، وان الرحمة هي احد المبادئ الكبرى للتصور الإسلامي عن العالم.

والبسملة جزء من هذه السورة، ومن كلّ سورة قرآنية إلا سورة (براءة) كما هو موجود في المصاحف القرآنية وتؤيده روايات أهل البيت(ع) وغيرهم، وهي أعظم آية في القرآن الكريم لأنها تتحدث عن قاعدة عامة في التصور الإسلامي القرآني.

٢: الثناء المتواصل له، والالف واللام للجنس، فالحمد المطلق لله، يلجأ إليه الإنسان بمجرد تصوره لرحمته. وهو اما بملاحظة كماله تعالى، أو بالنظر إلى نعمه، أو بالرغبة والرهبة.

الرب: المالك والسيد والمربي، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مضافا كرب الدار. وبهذا تنتفي كل الربوبيات المصطنعة. العالمين: ويمكن ان يراد بها كل عوالم المخلوقات، كما يمكن ان تعني اصناف الإنسان.

وتربية الله للانسان تكوينية باعطائه مواد التكامل من غرائز وعقل وغيرها، وتشريعية بهدايته إلى النظم التي تسيِّر حياته. والمربّي بالخلق، والتكوين، هو المربي بالتشريع والتنظيم لا غير.

٣: بيان لمنشأ اختصاص الحمد به، واسباغ لجو الرحمة على عملية التربية.

٤: الدين: الجزاء والحساب. وفي هذا تأكيد على حقيقة المنتهى حيث يقوم الناس لرب العالمين. ولهذا التصور الموسع للحياة أثره في مجال حمل المسؤولية والترغيب والترهيب والتوفيق بين المصالح الذاتية والاجتماعية.

٥: حيث نتحرر من كل العبوديات الزائفة، ونعبدك وحدك ولا نستعين بسواك. وتغير الاسلوب إلى الخطاب تأكيد على الحضور الحقيقي للمعبود لدى العابد. والعبادة الشاملة لكل نواحي الحياة والاستعانة بالله تمنح الإنسان طاقة واطمئناناً كبيرين بعد ان كان هو الغني القادر على كل شيء. ولا ينافي ذلك الخضوع والطاعة للمخلوق والاستشفاع به بأمر منه تعالى.

٦: صراط الإيمان بالله والتكامل وهو الإسلام المتمثل في تعاليم القرآن ومنهج الرسول(ص)، واهل بيته(ع).

٧: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اما المغضوب عليهم فهم كل من عرف الحق وعانده ومنهم غالب اليهود. واما الضالون فهم الذين تاهوا عن الحق ومنهم غالب النصارى.

فثمة طريقان: طريق الإسلام، وطريق الانحراف باصرار أو ضلال. وبهذا تضمنت هذه السورة خلاصة المفاهيم القرآنية كلها.

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة البقرة

مرّبنا الحديث عن البسملة.

١: من الحروف المقطّعة التي ذُكرت اوائل بعض السور، واختُلف فيها على وجوه، منها: إنها مجرّد تنبيه السامع إلى ما بعدها، أو للإشارة إلى أن القرآن مؤلّف منها ومن أمثالها ولكنه يتحدّى الانس على أن يأتوا بمثله، ويؤيّده ذكر القرآن بعد هذه الحروف والتأكيد على صفته الخالدة. أو هي رموز بين الله والرسول تناسب مضامين السور وربما مبانيها وألفاظها، ولعلّ التدبُّر في السور المشتركة بحروف متشابهة يؤكد ذلك، وتوقف بعض فيها، وجعلها آخرون من المتشابهات.

٢: اشارة إلى وعد الله لرسوله بإرسال الكتاب الهادي للبشرية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو يعلو ولا يعلى عليه، لأنه الحق والهدى فلا يرتاب المنصفون في مضامينه.

فهو يهدي كل الناس للتي هي أقوم، وإنما خصّت الهداية بالمتقين لاستعدادهم النفسي لترك الضلال والإهتداء إلى الحقيقة مما يشكل استعداداً للتأثر وتقبل الهداية القرآنية التي تزيدهم هدى، وتلك حقيقة مهمّة ركز عليها القرآن في مواضع عديدة، فالذين يتقون آثار الضلال يؤمنون بالقرآن لأنه لا ريب فيه فيقودهم نحو السعادة الدائمة.

٣: الصفة الأولى للمتقين هي: اليقين بعالم أوسع من عالم الحس، والتعلق بالله الحق سبحانه، والإيمان بالوحي والآخرة وأمثالها، وذلك عن وعي ودليل، مما يحقق للإنسان إنسانيته، ويلقي آثاراً كبرى على حياته، وينقذه من الوهدة المادية إلى السمو المعنوي والكمال.

والصفة الثانية لهم هي إقامة الصلاة، وأداؤها أداءً كاملاً والخروج بها من مجرد حركات وطقوس إلى استيحاء مداليلها التربوية في الشعور والعمل وتحقيق الصلة بين العبد وخالقه.

اما صفتهم الثالثة، فهي الانفاق من عطاء الله، إذ رزقهم المال والعلم والحياة، فراحوا يشكرون ذلك بالانفاق لتقوى الروابط الإنسانية، وتسد الثغرات الاجتماعية، ولا ريب في أن الانفاق يعبّر عن تقوى خالصة وإيمان بالغيب عميق، وقيام بالواجب الإنساني وحق التكويني، حيث نجد الإنفاق صفة عامة للموجودات.

٤،٥: وصفتهم الرابعة أنهم يصدقون بالقرآن العظيم ومفاهيمه وتشريعاته، ويصدّقون بكل الكتب السماوية السابقة كما أنزلها الله، وهذه الصفة الرابعة تُشعر بوحدة المسيرة المؤمنة، مما يمنح المؤمن شعوراً كبيراً بأنه وارث خط النبوّات عبر التاريخ.

أما صفتهم الخامسة فهي أنهم يعتقدون اعتقاداً نافذاً إلى الأعماق، ومالئاً للوجدان بعالم الآخرة الذي يشكل المرحلة العليا للحياة الإنسانية الهادفة، واليقين بشيء لا يجتمع مع نسيانه مما يبعد المؤمن عن الذنوب، وبالتأمل يتضح الترابط الطبيعي بين التقوى وهذه الصفات المترابطة فيما بينها أيضاً. وهكذا يكون المتقون — دون غيرهم — هم الذين حظوا بالهداية الإلهية فاستحقوا الفلاح الدائم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٦،٧: وهؤلاء يقفون في قبال المتقين إذ لا يتلقون هداية القرآن، ويتساوى لديهم الإنذار وعدمه، بعد أن أعماهم العناد المتناهي، فجعل الله حاجزا حاجبا لقلوبهم عن نفوذ الإيمان، وللسمع عن نداء الحق، وللأبصار عن رؤية آيات الله الساطعة.

٨،٩: وهذه هي الطائفة الثالثة القلقة التي تشكل نموذجاً للمنافقين عبر العصور، فهم يحاولون التقنع بقناع الإيمان لضرب الإيمان والمؤمنين، متخذين من إيمانهم جُنة، ومحاولين بذلك خداع الله والتمويه على الرسول والمؤمنين ـ جهلاً منهم وغباءً ـ وهم لا يخدعون إلاّ أنفسهم التي ستصيبها عاقبة السوء.

وفي هذا تثبيت لقلوب المؤمنين، وكشف لخطط المنافقين، واضعاف لقواهم واجهاض لآمالهم.

١٠ـ فالكفر والشك يتردد في قلوبهم، ويستفحل ويشتد كلما استمر جو العناد، حيث يتحول النور الهادي فيه بأمر الله إلى ظلام دامس. كما تشتد وطأة هذا المرض كلما عظّم الله شأن النبي(ص)، وانتصرت رايات الإسلام فهم في مرض وألم بالإضافة إلى ما سيلقونه من العذاب الأليم لتكذيبهم بالحق.

١١،١٢: وهذه صفة أخرى لهم إذ يلبسون لباس الإصلاح والبناء وهم في الواقع مفسدون في الأرض يبعدون الناس عن هدى القرآن، ويمزقون القوى باسم تجميعها وإصلاحها.

١٣: وإذا طلب منهم ان يتبعوا سبيل العقلاء من الناس راحوا يصفونهم ـ جهلاً وعدواناً ـ بالسفهاء.

أي الذين اضاعوا رشدهم وطاشت عقولهم. وهي صفة أخرى تعبر عن تذرعهم المقيت وتعاليهم الزائف على من عداهم، بما سوّلت لهم أنفسهم، فوصفوا الواعين بالسفاهة وهم أجدر بها لسلوكهم المشين، وتعاملهم المخاتل مع المسلمين وأعدائهم ظانين ذلك فطنة ودهاء وما هي إلاّ الخسة والدناءة والجهل المعقد والتخبُّط.

١٤: فهؤلاء يظهرون بوجهين، ويتكلمون بلسانين. يقولون للمؤمنين: آمنا (وربما كان المراد: آمنا بانطباق الصفات الواردة في التوراة على الرسول). فإذا التقوا سراً بشياطينهم الذين يوحون لهم ويحركونهم قالوا نحن معكم وعلى عقيدتكم، وما تعاطفنا مع المسلمين إلاّ إستهزاء بهم.

١٥: يفسح المجال لهم كي يعمهوا ويترددوا في طغيانهم فتزداد مساوؤهم وتنكشف خططهم على الملأ فلا يجدوا إلاّ الخسران وفوز المؤمنين الذين يستندون إلى الله فيمدّهم بالنصر بعد أن يصيب عدوهم بالبوار.

١٦: إنهم خاسرون حينما فضلوا العمى على الهدى الذي فطروا عليه والإسلام الذي جاءهم ليسعدهم، فلا هم انتفعوا بعطاء الدين، ولا هم استطاعوا إيقاف مسيرته الصاعدة، وهنا يذكر القرآن لهؤلاء مثلين، أولهما:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

١٨،١٧: فهم كمن عمل على إيقاد نار يستضيء بها، فلما أضاءت جاءتها ريح فاطفأتها فراح يتخبط في غياهب الظلام، وهكذا حال المنافقين، إذ أنهم سلكوا طريقاً يحاولون به الاستفادة من خير المؤمنين وتحقيق مقاصدهم تحت ظل الإيمان، إلاّ أن الوحي يكشف خططهم فيتمزق القناع الواهي وينطفئ الضوء الموهوم، فإذا هم لا يسمعون نداء، ولا يقدرون على نطق، ولا يبصرون سبيلاً للخلاص. وعاقبة هذا انهم لا يرجعون إلى مأمن الهدى بعد أن تمزق جمعهم وضاعوا في تيه الضلال.

أو أن هؤلاء استوقدوا نار الإسلام ليستفيدوا منها دون أن يقوموا بواجبهم تجاهه. فذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات جزاء إعراضهم.

وهذا المثل ينطبق على الأمم التي اعتنقت الإسلام ولكنها ترددت بين شريعته والنظم الوضعية الأخرى فابتليت بظلام الانحطاط.

٢٠،١٩: ومثلهم الثاني: الإنسان الحائر الذي قطره السماء بشدة، ويغطيه الظلام الحالك، وتقصفه الرعود والبروق فلا يجد مهرباً من ذلك إلاّ أن يلجأ ببساطة إلى وضع أصابعه في أذنيه ليحتمي من غضب الله المحيط به، وربما حاول أن يستضيء بالبرق الخاطف ليمشي خطوات ثم يفاجئه الظلام مرة أخرى فيقف متردداً حائراً، ولو شاء الله لأفقده السمع والبصر من الأساس فهو القدير على كل شيء.

والمنافقون ـ عبر هذا المثل ـ حيارى يضربهم مطر الإسلام فلا يصيبهم منه إلاّ العقبات والانذار والجهاد القوي ضد خططهم مما يتركهم في قلق شديد لا يمكنهم التخلص منه بالتستر الكاذب، وربما حاولوا أن يستفيدوا من نور الإسلام وسماحته شيئاً لينفذوا خططهم ولكنها لحظات ثم يعود الظلام والحيرة القاتلة. تلك هي حال المنافقين ولو شاء الله لسلبهم كل ما يملكون من قدرة على أي شيء.

٢٢،٢١: وبعد الإشارة إلى الأصناف الثلاثة، دعا الله الناس جميعاً إلى الانضمام تحت لواء المتقين بعبادة الله الواحد الخالق لهم وللذين من قبلهم، وإقامة حياتهم على أساس توجيهاته وحده، إذ هو الذي أنعم عليهم بعد الخلق بأن هيّأ لهم كل الظواهر التي تيسر لهم حياتهم من أرض ممهدة كالفراش، وسماء تعبّر عن بناء متناسق، وأنزل من السماء ماء يحيي كل شيء فأخرج به نباتاً يقيم لهم أود الحياة.. ان هذا التناسق في الكون يكشف عن الخالق المنظم الواحد لكل ذي عقل وفطرة سليمة فلا معنى لجعل الانداد والشركاء له تعالى.

٢٤،٢٣: تعلن هذه الآية التحدي الإسلامي للجميع في أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لتثبت لهم انه معجزة فوق طاقة الانس والجن، وتؤكد صدق النبي والاطمئنان بما يأتي به من عقائد وتشريعات. وقد عجز العرب وهم فرسان البيان أمام التحدي فلجأوا للقتال وتركوا المعارضة البيانية.

وهناك ـ بالاضافة للاعجاز البياني ـ جوانب اعجازية أخرى في القرآن، كإخباره بالغيب، ومنه ما تؤكده هذه الآية من عدم قدرتهم على الاتيان بمثله، وكذكره للحقائق العلمية التي اكتشف الإنسان بعضها بعد زمن طويل، وكذلك اشتماله على اروع نظام متكامل للحياة يفوق كل ما عداه بما يستحيل أن يجعله نتاجا بشريا!

ويمتاز الاعجاز القرآني على سائر المعاجز بأنه لا يمكن ان ينفصل عن جانب الهداية فيه، فالقرآن معجزة هادية تربي الإيمان في النفس تربية متأنيّة، بالإضافة إلى أنها معجزة معنوية خالدة.

وإذا لاحظنا جوانب الإعجاز القرآني، والاثنينية الواضحة بين الموحي والموحى إليه (عبدنا)، والوعي والإخلاص النبوي، عرفنا بطلان نظرية الإيحاء النفسي وأن القرآن نتائج لعبقرية النبي.

وجعل الكفار هنا إلى جنب الحجارة يؤكد هول النار كما يؤكد كون الكافرين بمنزلة الحجارة بعد ان لم يعملوا مواهبهم العقلية.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

٢٥: هنا بشارة للذين آمنوا، وانعكس إيمانهم في سلوكهم بأن لهم النعم العظمى؛ من جنان تجري من تحتها الأنهار، وثمار يرون أنهم رزقوا مثلها من قبل إلاّ أنها فوق ذلك بكثير وهي متشابهة جودة ولذة، وازواج مطهرة تجمع معاني الجمال، وخلود في النعيم. وهو أعظم أمل محرك يتصوره الإنسان وفره الإسلام للمؤمنين العاملين، وعجزت عن توفيره المبادئ المادية.

٢٦: ضرب الله من قبل مثلين. وربما كان من اعداء الإسلام انكار واستهانة بالتمثيل، فجاءت الآية تؤكد على أن الله لا يرى نقصاً في ضرب أي مثل يؤدي غرضاً حقاً، سواء كان ببعوضة أو ما هو أكبر منها بعد أن كانت المخلوقات جميعاً تحير العقول بصنعة الله التي يتملاها المؤمنون حين علموا أنه الحق من ربهم. أما الجاحدون فيقعون في حيرة متسائلين عن الهدف فيرد القرآن عليهم بأن هذا التمثيل يؤدي إلى هداية كثير من الناس. أما الذين يضلون به فهم الذين جرّوا أنفسهم إلى الفسق وهو الخروج عن الإنسانية المتقومة فطرياً بارتباطها بالله وطاعته.

٢٧: والفاسقون ـ بعصيانهم ـ نقضوا العهد الإلهيّ والمواثيق التكوينيّة التي أخذها عليهم عندما غرس في وجودهم العقل والدوافع الفطريّة للسير نحوه وطاعته. فقطعوا بذلك الصلة بينهم وبينه تعالى، كما قطعوا الصلة بما أمر الله به أن يوصل، من قرآن يوجّه حياتهم ـ وهو الثقل الاكبر ـ وقيادة معصومة ينشدُّون إليها بالحبّ والطاعة ـ وهي قيادة النبي(ص) وأهل بيته(ع) ـ وهم الثقل الاصغر ـ وأرحام تقوي الأواصر الاجتماعية وغيرها، ومن الواضح أن الذي يعيش حالة التمزق هذه سوف يخسر كل شيء.

٢٨: استنكار للكفر بالله رغم كل الآيات الدالة عليه، ومنها ظاهرة (الحياة) و(الموت) التي يعايشونها ويدركون ان لكل من الحالتين خصائص مختلفة، والإنسان يمر بهما دون أن يملك ارادته تجاههما، مما يعبر عن محكوميته لقدرة عليا، خلقته وطوّرته وسوف تعيده إليها لتحاسبه على مسيرته. وهذه الآية قد تشير إلى المراحل التالية: (ما قبل الحياة الدنيا ـ الحياة الدنيا ـ الموت ـ البرزخ ـ القيامة)، كما أنها ربما ارادت الانتقال من الموت الى الحياة الآخرة.

٢٩: اشارة إلى الظواهر المتناسبة الكثيرة التي تخدم الإنسان وحياته في الأرض، مما يعبّر عن العناية الالهيّة، وعن الكرامة الإنسانية التي تجعله سيداً حاكماً لا محكوماً للمادة.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٠: تعرض هذه الآية وما بعدها حواراً يخبر تعالى ملائكته فيه عن جعل الخليفة في الأرض، فيتساءلون عن سرّ ذلك مع علمهم بأن هذا المخلوق مفسد سافك للدماء، وهذا الموجود الارضي مكون من عقل وعاطفة وغرائز تجره إلى الفساد فلماذا يُجعل خليفة مع وجودهم الذي يقدس الله ويسبّح، فيأتي الجواب الإلهي بأنه يعلم مالا يعلمون من امتلاك هذا المخلوق الجديد للقدرة على التطوير والابداع والتربية التي قد توصله إلى ما هو اسمى من درجات الملائكة بكثير.

٣١،٣٢،٣٣: امتحان إلهي للملائكة، ليؤكد لهم علمه اللامحدود من جهة، وقدرة الإنسان على استيعاب العلم بشكل لا يعهدونه من جهة أخرى، إذ يعلّم الله آدم أسرار الخلق وعجائبه وموجوداته السامية فيستوعبها، ثم يعرضهم على الملائكة فيقفون عاجزين مسلّمين معترفين باكتساب العلم منه تعالى فهو العليم الحكيم، فيطلب الله تعالى من آدم أن ينبئهم باسمائهم، فلما أنبأهم بذلك جاء التأكيد الإلهي على علم الله المطلق الذي يتساوى لديه الظاهر والباطن.

٣٤: أمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم تكريماً له ولما في صلبه من نور الأنبياء والأوصياء(ع)، وتعظيماً واعترافاً بافضليته، فجاء التسليم الكامل من الملائكة في حين تجلت المعصية والجهل في أبليس الذي كان يعاشرهم وليس منهم، فكان النموذج الأعلى للكافرين ويستفاد هنا: ان الإنسان يمتلك قدرة على ارتياد المجاهيل ولا يحتفظ بانسانيته إلا إذا أعمل هذه القدرة، وهو بذلك يحصل على مقام كريم تؤمر الملائكة بالسجود له وكل ذلك في أطار من التسليم الكامل لله ورفض أسلوب الشيطان المتكبر المعاند للحق.

وهذا التسليم الكامل يتم بطاعة الله كما يجب أن يُطاع، ولو كان السجود لإنسان مادام ذلك بأمره تعالى مشروعاً، فلا يبقى ريب في مجال طاعة القادة المعصومين وحبهم بعد أن كان ذلك مرضياً لله وتعظيماً وطاعة له تعالى.

٣٥: والحديث هنا عن تجربة الإنسان الاول في الجنة، والتي هيّأته لأن يقوم بحمل خلافة الله في الأرض ويشعر بمسؤوليتها، فقد هيّأت له ولزوجه في الجنة أسباب العيش الرغيد ثم كُلّفا بعدم القرب من شجرة ما، وحذّرا من أن قربهما منها يؤدّي إلى ظلم النفس بحرمانها من النعم المتوفّرة، وهذا تمرين على امتلاك ارادة الثبات على عهد الله، والتي هي قوام انسانية الإنسان.

٣٦: ولكنّ الوسوسة الشيطانيّة حرفتهما عن الخطّ الطبيعي للإنسان، فأخرجتهما من سعادة الثبات عليه، وكانت النتيجة ان أخرجا من الجنة لتبدأ مرحلة مواجهة في الأرض ـ ذات التمتع المحدود ـ بين الإنسان والشيطان وهو رمز الأذى والعداء للإنسان والممثل لحالة التمرُّد والعصيان والتكبر والاغواء، ولا ريب في دور هذه المواجهة بينهما في دفع الإنسان للسير في طريق التكامل وتفجير طاقاته البنّاءة.

٣٧: إلاّ أنّ الرحمة الإلهيّة أدركت الإنسان عند كبوته الأولى، وفتحت له طريق الرجوع بأن علّمته أسلوب طلب المغفرة والتوسُّل بكلمات شريفة تفتح له أبواب الأمل، ليشرع في مرحلة جديدة... ثم شملته الرحمة ثانية عندما قُبلت توبته.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢: وهنا يأتي الخطاب الإلهيّ بالنزول إلى ميدان حمل الخلافة واطاعة تعاليم الله التي يبعثها عن طريق الأنبياء لتحقيق الأهداف العليا والخلاص من حالات الخوف والحزن والقلق المدمرة للسعادة، ليتمّ التكامل في جوّ من الاطمئنان بالنتيجة التي ضمنها الله على أيّ حال.

اما الكفر والتكذيب بآيات الله فلا يؤدّي إلا إلى العذاب الخالد.

هذه هي قصة التجربة الإنسانيّة الأولى يعرضها القرآن بكلّ وضوح ونقاء وارتباط بينها وبين أهداف الإنسان، وتتجلّى عظمة هذا العرض بالمقارنة مع الصور الهزيلة التي عرضتها الكتب المحرفة السابقة بما فيها من خرافات وتناقضات ونسب باطلة إلى الله كالتجسيم والجهل والحسد وابعاد الإنسان عن منابع المعرفة والخير وأمثالها، في حين يجعل القرآن معرفة الإنسان سرّ كرامته وخلافته، والملاحظ ان الزلل قد مُحي بالتوبة فلا حاجة لنظرية الفداء المسيحية.

ينتقل الخطاب هنا إلى بني اسرائيل الذين كلّفوا بحمل الرسالة قرونًا، لأجل تذكيرهم بنعم الله الكبرى التي سيستعرضها القرآن بعد هذا، وهي تتطلّب منهم الوفاء بالعهد المأخوذ عليهم بطاعة الله، والسير العملي على هداه، والعمل بارشادات كتبهم التي بشرت بظهور النبي محمّد(ص) ورسالته التي تمثل الصورة التامّة لدين الله، والتي تطابق ماجاء في كتبهم من اصول التعاليم والبشارات.

إن شكر النعم والوفاء بالعهد يدعوهم للمبادرة إلى التصديق بالرسالة، لا المبادرة إلى المعارضة، ترجيحاً للمنافع المصلحية المادية وخلطا للحق بالباطل، واخفاء متعمداً له كما هو ديدنهم حيث نجدهم يُلبسون المبادئ الهدامة لبوساً علمياً ودعائياً زائفاً.. والقرآن إذ يوبّخ بني اسرائيل على نكولهم عن العهد إنما يوضح للمسلمين خصائص اليهود التاريخيّة كالعناد والتهافت على المادة، والتلبيس وخلق الشبهات وكتمان الحقيقة، ليحذرهم المسلمون، وليجنّبوا أنفسهم مغبة الاتصاف بهذه الصفات.

٤٣، ٤٤: أدخلوا في صف المسلمين العابدين لله باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والتسليم الكامل بالركوع مع الراكعين.

ويتوجّه الخطاب إلى زعمائهم الدينيّين الذين كانوا يأمرون أتباعهم بالتمسّك بالتوراة وما فيها من بر وتعاليم، وهم لا يلتزمون بالعمل بها، وهي تؤكد ـ فيما تؤكد ـ لزوم الإيمان برسول الإسلام، ولكن الخطاب عام في نهيه عن اتخاذ الدين حرفة وسبيلاً للغايات الرخيصة، مما يؤدي إلى التشكيك في الرسالة وحَمَلتها. وقد أكد قادة الإسلام المعصومون (ع) لزوم التطابق بين الفكر والعمل كقول الباقر(ع): (إن أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره)[1].

ولما لم يكن التنافر بين الفكر والسلوك أمراً طبيعياً فهو يوجد القلق والاضطراب، وقد تؤدّي الإساءة العملية إلى التكذيب النظري.

٤٥، ٤٦، ٤٧: بيان لاسلوب التغلّب على حالات الضعف أمام الاغراء المادي، وذلك باعتماد عنصرين:

أحدهما: (الصبر) أي امتلاك الارادة القوية، وتحمّل المشاكل وتخزين الطاقات بروح الرضا، وأهمّ محققاته الصوم .

وثانيهما: (الصلاة) والارتباط بالخالق العظيم.

إلاّ أن هذا الاعتماد أمر شاق ثقيل لا يتم إلاّ عند الخاشعين الذين نفذ الإيمان إلى أحاسيسهم وعلموا بلقاء الله ورجوعهم إليه تعالى.

يبدأ القرآن بتفصيل نعم الله عليهم وأولاها تفضيلهم على الأمم بمنحهم شرف حمل خلافة الله ورسالته، الذي يبقى مادامو عاملين بمقتضاها.. وتذكيرهم بهذا اشارة للكرامة الرسالية لهم ودفع لقبول الموعظة والاهتداء والتقوى.

٤٨: نفي لبعض التصورات اليهودية الباطلة وتأكيد على أنه في يوم القيامة لا تتحمل أي نفس تبعة نفس أخرى فلا تنفع الأنساب ولا يقبل منها شفاعة ووساطة وفداء فلا ناصر لها من دون الله.

وبهذا نفى القرآن التصوّر اليهوديّ ـ المسيحيّ للشفاعة حيث تصبح مسوّغة لاعمال الاجرام في حين ان القرآن والروايات أكدا وجود الشفاعة بمعناها الصحيح لبعض المقربين بإذن الله وبمقتضى رضاه وفي المحل المناسب حيث ينعدم الكفر والعناد. وبهذا ينفتح باب عظيم للأمل ولا يسمح باستغلال الشفاعة بعد أن كانت مشروطة ولا يعلم أحد تحقق شروطها فيه.

---

١ - بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٨٧.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٤٩: وهنا تذكير بنعمة انجائهم من آل فرعون بعد أن جشّموهم العذاب المستمر بذبح أبنائهم وابقاء نسائهم على قيد الحياة لاستخدامهن، وكل ذلك أي العذاب والنجاة يمكن أن يشكل امتحاناً عظيماً لهم بالصبر على ظلم الطواغيت والاعتبار من النجاة.

٥٠: وكذلك انعم الله عليهم بشق الطريق لهم في البحر ليعبروا ويغرق فرعون.

٥١،٥٢: وكذا أنعم عليهم بالعفو عنهم رغم ظلمهم وعبادتهم العجل أثناء غياب موسى لأربعين ليلة.

٥٣: وهذه نعمة الوحي الذي آتاهم التوراة مقياساً لتمييز الحق من الباطل.

٥٤: كانت عبادة العجل ـ أثناء غياب موسى ـ سابقة اجتماعية خطرة جداً، خصوصاً بعد كلّ الآيات التي رأوها حسّاً، ولذا أعلن لهم موسى(ع) أنهم قد ظلموا أنفسهم بهذا العمل، وان عليهم التوبة النصوح إلى خالقهم، والتي تنسجم مع عظم الانحراف وهي ان يقتل بعضهم بعضاً لكي يطهروا من رجس الشرك. ولتبقى ذكرى هذه التوبة شاخصة أمام الاجيال تمنعهم كما تمنع غيرهم من التورط في هذا الإنحراف الهائل. وإذا افترضنا عمومية العقوبة فإنها نتيجة طبيعية لسكوت بعض الناس عن عصيان الآخرين.

ولكنّ رحمة الله تداركتهم قبل أن يفنوا عن آخرهم فتاب الله عليهم وهو التواب الرحيم.

٥٥،٥٦: ذنب عظيم آخر ورحمة واسعة أخرى حيث سأل المنتخبون الذين أخذهم موسى معه للميقات سؤالاً عظيماً، متأثرين بانغماسهم في المادة والحس فقالوا له: أرنا الله عياناً، وهذا طلب للمستحيل عقلاً لاستلزام الرؤية التجسيم والتركيب والمحدوديّة للمطلق تعالى، ولذا جاء العذاب السماويّ رداً على عنادهم، ومنعاً لهم من تكرار أمثال هذا السؤال، وقد تمثّلت الرحمة في رجعتهم بعد موتهم إلى الحياة ليشكروا الله تعالى على نعمه.

٥٧: ومن تلك النعم تظليل السحاب عليهم صوناً لهم من لفح الشمس التي واجهوها وهم تائهون في الصحراء كما أن منها انزال «المن» ولعله صمغ الأشجار الحلو كالعسل، أو الكمأة ـ كما ورد ، ومنها انزال السلوى الذي قيل أنه طائر السماني الذي توفّر لهم وصار في متناول أيديهم.

إلاّ أنهم هنا ـ أيضا ـ لم يشكروا الله بل ظلموا أنفسهم فقط ولن يصيب ظلمهم الله تعالى كما يقول الإمام علي(ع): (لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه). (نهج البلاغة/خ١٩٣،ص٣٠٣، صبحي الصالح).

وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا
وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم
وسنزيد المحسنين ﴿٥٨﴾ فبدل الذين ظلموا قولا
غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا
من السماء بما كانوا يفسقون ﴿٥٩﴾ ۞ وإذ استسقى موسى
لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه
اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا
واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿٦٠﴾
وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك
يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها
وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى
بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم
وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من
الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون
النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴿٦١﴾

٥٩،٥٨: قد يكون المقصود من القرية هنا هو «بيت المقدس» حيث أمروا بالدخول ساجدين خاشعين، وأن يقولوا: حطّة، طالبين بذلك حطّ أوزارهم، مستغفرين لذنوبهم، ولكنّهم تمردوا أيضا، فلم يفعلوا ما امروا به، وقالوا غير ذلك، فجاءهم العذاب من السماء، لخروجهم عن خطّ الطاعة وعدم دخولهم باب حطّة الذي هو باب الغفران. هذا وقد وردت الروايات الكثيرة المعتبرة عند المسلمين وهي تؤكد جعل مثل أهل البيت(ع) في هذه الامّة كباب حطّة في بني اسرائيل باعتبارهم السبيل الأقوم إلى مغفرة الله وطاعته.

٦٠: وقد أنعم الله عليهم أيضاً بأن فجّر لهم من الحجر ـ بدعاء موسى(ع) ـ اثنتي عشرة عيناً بعدد قبائلهم المنتسبة لاسباط يعقوب، فاختصت كل قبيلة بمشربها وذلك رزقاً من الله، وفضلا يجب أن يشكر الله عليه، لا أن يعاث في الأرض بالفساد.

٦١: عرض آخر لعناد اليهود ولجاجهم وكفرهم فهاهم ينعمون بالمنّ والسلوى وتتفجر لهم العيون كي يستمروا في سيرهم نحو الغاية التي خرجوا من أجلها من مصر فيحملوا بالتالي مهمّة الرسالة. لكنّا نراهم يرفضون بعناد وبطر هذه النعم ويكفرون بها، طالبين استبدالها بالبقل وهي الخضر، والقثاء، وهو نوع من الخيار، والفوم وهو الثوم أو الحنطة، والعدس والبصل.

فيستنكر ذلك نبيهم موسى مذكّراً إيّاهم بسوء اختيارهم واستبدالهم الذي هو خير بالأدون، أما لو أصرّوا على ذلك فإنه يمكنهم أن يدخلوا أيّ بلد شاءوا وقد يكون المقصود الرجوع إلى مصر التي خرجوا منها خلاصاً من الهوان.

وهذه حقيقة قرآنية كبرى يعرضها كسنة إلهية في التاريخ وهي ان العصيان والإنحراف والقضاء على الأنبياء والمصلحين على الرغم من العلم بدورهم الإيجابي الكبير، يؤدي في النهاية إلى الذلة والمسكنة والخضوع وفقدان مظاهر الحياة الإنسانية الكريمة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾

٦٢: ردّ لدعاوي اليهود العنصرية في كونهم وحدهم شعب الله والمغفور لهم سلفاً. فيقرر القرآن ان باب السعادة والقرب الإلهي مفتوح لجميع الناس على اختلاف قومياتهم وانتساباتهم، سواء كانوا مسلمين عاملين باسلامهم أو يهوداً أو نصارى أو صابئين ـ وهم أتباع بعض الأنبياء ـ إذا كانوا قد آمنوا بالله واليوم الآخر واتبعوا الشريعة التي كلّفوا بها في زمانهم. أما بعد ظهور الإسلام فإن القرآن يقرر بأن من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه.

وهكذا فإنّ أية أمّة إذا اتبعت سبيل الحق والرشاد فقد نفت عن كيانها الخوف والذلّة والحزن بعد أن أوكلت أمرها وقيادتها إلى الله عزّوجل.

٦٣،٦٤: ويتحدث القرآن عن موقف أخذ الله فيه العهد على بني اسرائيل في حمل رسالة الله وجعلها حية في نفوسهم بتطبيقها على شؤون حياتهم بكل قوة وإرادة وثبات.

ويؤطّر هذا الموقف بآية كونية هائلة هي قلع الجبل من مكانه ورفعه على رؤوسهم، أما لضرب عنادهم وتحميلهم المسؤولية التي تضمن سعادتهم، وأمّا لإراءتهم آية حسية كبرى تقوي من ايمانهم وتؤكد لزوم القيام بأعباء الهدى والشريعة.

ولكنّ هؤلاء خانوا عهدهم وميثاقهم، وانحرفوا بعد رؤية كلّ تلك الآيات، واستحقوا العقاب. إلاّ أن فضل الله عليهم ورحمته صار سبباً لنجاتهم من الخسران الكامل.

٦٥،٦٦: كان العمل يوم السبت محرماً على اليهود ليفرغوا فيه إلى العبادة، وليتدربوا على الحد من طمعهم، ويمتحنوا فيه صلابة الارادة. إلاّ أنّ طائفة منهم تجاوزت المنع وراحت تصطاد من البحر مستحلة لذلك، أو أنها كانت تخطط لعدم فرار السمك الذي كان يكثر يوم السبت امتحاناً لهم، وكان جزاء تحدّيهم لأوامر الله أن أخرجوا أذلاء خاسئين من الإطار الانساني بالمسخ والانضمام إلى فصيلة القردة المعروفة بنزواتها وشهواتها.

فكانوا بذلك عبرة لمن رآوهم في زمانهم ولمن جاء بعدهم، ليمتنعوا عن الخروج على حدود الله، وليتّعظ بها من يطلب الحق ويخشى الله.

٦٧،٦٨،٦٩،٧٠: استعراض لحادثة عميقة الأثر في حياة بني اسرائيل، وفي مطلع الاستعراض نجد موسى(ع) يبلغهم الأمر الإلهي لهم بذبح بقرة، وكان عليهم ان ينفّذوا هذا الأمر بلا اعتراض، تسليماً لله تعالى، ولكن طبيعتهم المعاندة دفعتهم لاتهامه بأنه يهزأ بهم، فيستعيذ موسى بالله من الهزء والسخرية في أوامره تعالى، لأن ذلك من صفات الجاهلين، ويستمرون في لجاجتهم فيتساءلون عن صفات البقرة مع شيء من الاستخفاف في تعبيرهم ادع لنا ربك المتكرر ثلاث مرات.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

٧١: فأجابهم موسى بأن الله يصفها بأنها بقرة لا فارض (كبيرة) ولا بكر (صغيرة) وانما هي عوان (وسط بينهما) فلينفّذوا ما أمرهم به، غير أنهم يسألون ـ مرة أخرى ـ عن لونها فيجيبهم بأنها صفراء حسنة اللون شديدة الصفرة تسرّ الناظرين إليها. فيعودون للسؤال بطلب المزيد من التوضيح بادعاء اشتباه البقر عليهم فيقال لهم: انها (لا ذلول) أي لم يذللها العمل في اثارة الأرض وحراثتها ولم تتدرب على سقي الزرع وهي سالمة من العيوب، ولا بقع فيها تخالف لونها.

وبعد كل هذا اللجاج والتشديد الذي أعقبه التضييق والتشديد عليهم، قالوا: الآن جئت بالحق، وكأنهم كانوا يشككون في أقوال نبي الله من قبل، وأخيراً أقدموا على ذبحها، وما كادوا يفعلون ذلك لصعوبة التنفيذ عليهم، إذ كانت البقرة ملكاً لولد برّ والده فأهداه إياها لينتفع بها، فاستفاد الولد من احتياج بني اسرائيل إليها فغالى في ثمنها مما أجبرهم على الرضوخ واعطائه ما يريد من الثمن.

ولعلّ أمرهم بذبح البقرة اشارة إلى أنها مخلوق مسخر لصالح الإنسان فلا يستحق أن يعبد من دون الله كما فعلوها من قبل.

٧٢،٧٣: وهنا يوضح القرآن سرّ الأمر بذبح البقرة، إذ كانوا قد عثروا على قتيل، واشتبه عليهم أمر القاتل، وراح كل يدرأ التهمة ويدفعها عن نفسه، مما أوجد خلافاً شديداً بينهم، فكان الأمر بذبح البقرة وضرب القتيل بجزء منها، لينهض حياً ويكشف عن قاتله، وليوضح الله الحقّ بعد كتمانه من قبلهم، وليكون هذا المشهد آية ساطعة على إحياء الموتى بإذن الله، وتثبيتاً لإيمانهم لعلّهم يعملون عقولهم في سبيلها الصحيح بعد أن رأوا جزءاً من حيوان ميت يضرب به قتيل فيحيى بإذن الله.

٧٤: كانت الآيات السابقة تدعو للخضوع والخشوع لله تعالى وتحريك العاطفة في سبيله إلاّ أن قلوب بني إسرائيل قست فكانت كالحجارة بل هي أشد، إذ الحجارة قد تفيض بالخيرات والرحمة، حيث قد تتأثر بالماء الكثير فتتفجر منها الأنهار، وبالماء القليل فتتفطر وتنبع منها العيون، وان منها لما يهوي من خشية الله كما اندكّ الجبل حينما تجلى الله له، في قصة موسى(ع) ولكن قلوبهم المتحجّرة لم تتأثر بآيات الله المتجلّية عياناً وانعكست قسوتها على أعمالهم. ولكن الله لا يغفل عما كانوا يعملون. إن هذا التقريع لبني اسرائيل على ذلك يركّز على لزوم اتصاف المؤمنين بالرحمة وامتلاك العواطف الواعية المتصلة بالله. وقد قال تعالى في موضع آخر: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ»[1].

وقال النبي(ص): (ان أبعد الناس من الله القاسي القلب)[2].

كما ورد عن علي(ع) قوله: (ما جفت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب)[3].

٧٥: لقد تصور المؤمنون سرعة استجابة اليهود للدعوة لأنهم موحدون، وقد خاب ظنهم في ذلك. فجاءت الآية تنكر هذا الظنّ، وتذكّرهم بصفات اليهود، وتهوّن من قيمتهم لئلا ينظر اليهم نظرة اجلال وتعظيم، فتعرض تاريخهم الأسود، وعملهم على تحريف كلام الله عمداً بعدما سمعوه ووعوه. وإذا كان ذلك شأن أحبارهم ونخبتهم فكيف بالعامّة والجهلة منهم.

٧٦،٧٧: كان بعض اليهود يحدثون المسلمين ببشارات التوراة بالنبي(ص) فإذا اجتمعوا فيما بينهم وبّخ بعضهم البعض الآخر المحدّث على الأمر الآنف واعتبروه خلاف الفطنة إذ تسلم الحجج بيد المسلمين ضد اليهود مع انها مما فتح الله به عليهم، ولكنهم يغفلون عن ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، فالاحتجاج عند الله انما يكون بالواقع لا بما كشفه هؤلاء من الواقع.

---

١ ـ الرعد/ ١٦.
٢ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٨٠، انتشارات ناصرخسرو.
٣ ـ وسائل الشيعة، ج ١٦ ص ٤٦.

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

٧٨: ومن اليهود فريق جاهل مستغل لا يعرف من الكتاب إلاّ مجرد تمنيات بالخلاص بفعل تحريفات كبارهم. وهؤلاء لا يتوقع لهم الرجوع عن جهلهم. ان الاماني إذا لم يدعمها العمل لتحقيقها لا قيمة لها. يقول الامام الباقر(ع): (وابلغ شيعتنا انه لن يُنال ما عند الله إلاّ بالعمل)[1].

٧٩: وعذاب للكبار المستغلين الذين يكتبون ما يحقق لهم مصالحهم من آراء ثم ينسبونها لله لتكون مقدسة. فهم اذن يبيعون الحقّ في قبال مصالحهم الرخيصة، وكلّ ثمن في قبال الحق قليل. ويصف الامام الصادق(ع) المستأكل بدينه بأنه (الذي يفتي بغير علم ولا هدى من الله ليبطل به الحقوق طمعاً في حطام الدنيا)[2] وعاقبة مثل هؤلاء الفقر والهلاك.

٨٠: غرور يهودي يشكّل أحد أمانيهم بادّعائهم أنهم لا يعذّبون بالنار جزاء أعمالهم إلا أيّاماً معدودة، ولكنّ القرآن ينكر عليهم ذلك، فلم يحصلوا على وعد إلهيّ مسبق به، وإنّما هو تقول على الله بغير علم.

٨١: ذكر لحقيقة قرآنيّة عامّة تردّ الدعوى السابقة؛ وهي أنّ من كسب السيئات وأحاطت به الذنوب فصاغت حياته وسلوكه، وسدّت عليه طرق الهداية، لابدّ وان يخلد في النار يهوديّا كان أو غيره.

٨٢، ٨٣: أمّا المؤمنون الملتزمون بالنهج القويم فهم أصحاب الخلود في الجنّة. وقد سبقت الإشارة لهذا الميثاق المعبّر عن وحدة الدين عبر التاريخ في أصوله وسننه، وهو يعطي التوحيد اساساً عقائدياً للدين بما فيه من تصورات ونظم للحياة، ومنها الاحكام التي تشد الجوانب الاجتماعية في إطار عاطفي واع كالاحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، كما ان منها القول الحسن الذي يشيع المعروف والثقة في المجتمع.

وقد ورد عن الامام الباقر(ع) في تفسير هذه الآية: (قولوا للناس احسن ما تحبّون ان يقال لكم)[3].

كما ان منها إقامة الصلاة بشرائطها، وايتاء الزكاة لتحقيق التكافل والتوازن الاجتماعيّين، إلاّ أنّ بني اسرائيل نكثوا هذا العهد واعرضوا إلاّ القليل منهم، ولا تخلو أمّة من المخلصين.

---

١ – الكافي، ج ٢ ص ٣٠٠.
٢ – معاني الأخبار، ص ١٨١، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٤٢.
٣ – وسائل الشيعة ج ١٦، ص ٣٤١.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

٨٤: ومن المواثيق التي أقرت بها اليهود وشهدت عليها أن لا يريق بعضهم دماء بعض وان لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

٨٥: تركيز على التناقض العملي لليهود المعاصرين لبدء الدعوة الإسلامية، إذ كانوا فرقاً متنازعة ـ في المدينة ـ وربما حالف بعضهم غيرهم من قبائل العرب لضرب بعضهم الآخر، واخراجه من دياره ظلماً وعدواناً، ولكن إذا وقع بعضهم في الأسر عملوا على استخلاص اسراهم بالمال حتى ولو كانوا من الفئة المعادية وذلك عملاً بما جاء في التوراة من انه: (لا تجد مملوكا من بني اسرائيل إلا اخذته واعتقته) وهنا يبدو التناقض بين تمسّكهم بالتوراة في مفاداة اسراهم ورفضهم لها في مجال قتل بعضهم واخراجهم وهو أهمّ من المفاداة.

إنّ القرآن ينكر عليهم هذا التجزيء والعمل بقسم من الكتاب مع الكفر بالآخر وتركه. وهذا الاستنكار لا يخصّ اليهود بل يعم الأمم المؤمنة، فإنّ الشريعة كل مرتبط لا يؤدّي إلى ثماره المرجوّة إلا بالتطبيق الكامل لكلّ نظمه في كلّ مناحي الحياة الفردية والاجتماعية. ومّما يؤسّى له أن نجد البلاد الاسلاميّة اليوم تجعل الإسلام أحد مصادر التشريع في دساتيرها، رغم انه يجب أن يكون المصدر الوحيد للتشريع.

ولاريب في أنّ جزاء من يجزّئون تعاليم الله في مقام العمل هو الانحطاط والتأخّر والخزي في هذه الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة باعتبار أنّ نوعيّة العمل في الدنيا تحدّد نوعية الجزاء في الأخرى.

٨٦: باعوا أخراهم بدنيا رخيصة محدودة النفع والحياة، فجزاؤهم العذاب الشديد الذي لا هوادة فيه من دون أن ينصرهم أحد فيدفع عنهم العذاب، وبطلان قولهم السابق لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة.

٨٧: تتابعت الرسل على أثر موسى(ع) حتى بعث الله عيسى(ع) في بني إسرائيل بالآيات الواضحات، وأيّده بالروح المقدّس وقيل هو جبرئيل أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. وقد جاء الأنبياء لتربية البشريّة والتسامي بها وتذكيرها بواجبها وتفجير طاقاتها. يقول الامام علي(ع): (فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم انبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول)[١].

فلا مجال لبني اسرائيل بعد تواتر الرسل فيهم أن يعتذروا بنسيان وطول أمد، ولكنهم أرادوا أن تستجيب الشرائع لهواهم ونزواتهم بدلاً من اتباعها المفروض لتسمو نفوسهم على أهوائها، والشرائع فوق الأهواء، وحينما واجهوا صمود الأنبياء في الحقّ وضعوا العقبات في طريقهم، فكذّبوا بعضهم كموسى(ع) وعيسى(ع) وقتلوا آخرين كيحيى(ع). وهكذا تجدهم يتّبعون الهوى ويحكّمونه في الشريعة، وما فازت أمة حكّمت آراءها الشخصيّة وميولها في شريعة الله.

٨٨: وقد ادّعوا ـ بكل عناد واستهزاء ـ أنّ قلوبهم مغشّاة فلا ينفذ إليها نداء الإسلام وتعاليمه وحججه، ولا بد لهم في ذلك، فردّت عليهم الآية بأن أفهمتهم أن هذه الحالة الوضيعة نتيجة طبيعية لغضب الله بعد الكفر به والابتعاد عن مظان الهدى. لذا لا تجدهم يؤمنون إلا إيماناً واهياً أو لا تجد بينهم إلا القليل من المؤمنين.

---

١ ـ نهج البلاغة، خ ١، ص ٤٣، د. الصالح.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

٨٩: ولما أنزل الله القرآن مصدقاً لما معهم من بشارات التوراة وتعاليمها الرئيسة كفروا به على الرغم من أنهم كانوا قبل بعثة النبي(ص) يهددون اعداءهم من العرب بظهوره، وربّما سألوا الله النصرة بحقّه فلما ظهر كفروا به بغياً وحسداً لأنه كان في غيرهم، ولذا فقد استحقوا اللعنة الإلهيّة.

٩٠: باعوا أنفسهم في قبال الكفر والمتع الباطلة، وذلك بغياً وحسداً للنبيّ(ص) بما أولاه الله من نعمته وفضله. فعادوا بالخسران المبين والغضب الإلهيّ المضاعف، والعذاب المهين المذل. فما أخسر صفقتهم هذه إذ باعوا أثمن شيء في قبال الهوى الرخيص. ولقد قال أمير المؤمنين علي(ع): (انه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنة فلا تبيعوها إلا بها)[1].

٩١،٩٢: كان اليهود إذا دعوا للايمان بما أنزل الله تعالى على محمد(ص) ردّوا بكلّ مكر وتحايل بأنه يكفيهم ان يؤمنوا بما أنزل عليهم من التوراة إلاّ أن القرآن يفضحهم حينما يقرر أنهم لا يلتزمون بما وراء التوراة من مقتضيات ولوازم كالايمان بالنبي(ص) والقرآن وهو الحق الذي صدّق ما معهم وطابق ما فيه. كما يفضحهم ـ مرة اخرى ـ حينما يواجههم بقتلهم الأنبياء من قبل، رغم أنّ التوراة تنهاهم عن قتل أنفسهم بله الأنبياء المخلصين، ممّا يكشف عن عدم إيمانهم بها وأن قولهم مجرّد خداع.

ثم يكشف زيف ادعائهم الإيمان فيذكرهم بكفرهم بموسى الذي جاءهم بالآيات الواضحات، ولكنهم عبدوا العجل ظلماً بعدما ذهب الى ميقات ربه.

٩٣: تكرّر هنا ذكر الميثاق لتأكيد الحجّة وتذكيرهم العهد الذي قطعوه على أنفسهم عندما ارتفع الجبل فوقهم، وطلب إليهم ان يحملوا العهد بقوة وثبات، وان يسمعوا تعاليمه، غير أنهم نكلوا عن ذلك، إذ بينما كانت أفواههم تعلن الاستجابة، كانت أعمالهم تعلن العصيان. وقد تغلغل حبّ العجل (المعبّر عن الشهوات) في اعماق قلوبهم، وامتزج بها بسبب كفرهم وتماديهم في العناد.

وقد طُلِبَ إلى النبي(ص) أن يوبّخهم على قولتهم تلك، مؤكّداً ان الإيمان الحقيقي يدفع للأعمال الصالحة لا لمثل هذه الأعمال القبيحة الصادرة منهم، فبئس الشيء يأمرهم به إيمانهم المدّعى إن كان يعني قتل الأنبياء وعبادة العجل.

---

١ – نهج البلاغة، الكلمات القصار ص ٥٥٦، انتشارات دار الهجرة قم.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

٩٥،٩٤: ادّعى اليهود أنّهم شعب الله المختار، وانه لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، فطلبهم القرآن للمباهلة وتحدّاهم بطلب الموت من الله ليثبت كذبهم في مدعياتهم، لأنه يعلم بأنهم لن يقدموا على هذا بعد الذي فعلوه من المعاصي. وعدم اقدامهم يبطل دعواهم وإلا فإنَّ من اطمأنَّ إلى مستقبله في الآخرة اشتاق إلى الجنة كما كان الأمر عند المجاهدين الأولين.

٩٦: اتصفت اليهود بالحرص على الحياة حتى لو كانت حقيرة بعيدة عن رضا الله فضلا عن عدم استعدادها لتمنّي الموت. بل هي أحرص على الحياة من جميع الناس حتى من المشركين الذين لا يعتقدون بالآخرة، لأنها تتوقّع العذاب الشديد جزاء لأعمالها، غافلة عن أنّ طول حياتها لن يبعدها ولو قليلا عن المصير المحتوم.

٩٨،٩٧: أبى اليهود ـ عناداً ـ أن يؤمنوا بالإسلام بحجّة أنَّ الملك الذي أوحاه هو عدوّهم (جبرئيل) ملك العذاب والجهاد ـ بزعمهم ـ دون (ميكائيل) الذي يعتبرونه ملك الرحمة. وهذا الحقد حمق لا مسوّغ له؛ فجبرئيل ملك مطهّر يفعل ما يؤمر، وقد أمره الله أن ينزل على قلب الرّسول(ص) القرآن المصدّق لما قبله من كتب الأنبياء، والمنير قلوب المؤمنين بالهدى وبشرى الفلاح. واليهود إذ يعادون ملائكة الله أو رسولاً من رسله فهم يعادون الله، والله عدوهم يعاملهم معاملة الكافرين لأنّهم ظلموا أنفسهم بتكذيب آياته.

٩٩: لقد أنزل الله قرآناً يحوي الآيات الساطعة والتعاليم التي تحيي البشريّة وتهدي من يريد الحقّ. أمّا الّذين فسقوا وخرجوا عن مسيرتهم الفطريّة فليسوا مؤهّلين لتقبُّل النور والهدى.

١٠٠: توبيخ واستنكار لصفة يهوديّة أصليّة في وجودهم وهي نقضهم للعهود، فقد نقضوا عهد الله عند رفع الطور، وخالفوا بشارات التوراة، وخانوا معاهداتهم مع النبي(ص). إذن ليحذرهم المسلمون لأنَّ أكثرهم لا يملكون أيماناً يردعهم عن نقض العهود.

١٠١ وعندما جاءهم الرسول الاكرم(ص) المصدّق لما معهم والمحقّق لبشارات التوراة، راح فريق من هؤلاء اليهود يتمادى في العصيان فلا يلتزم بكتابه بل ينبذه وراء ظهره، وكأنّه ـ لجموده وتكبره ـ لا يعلم أنه كتاب الله وعهده. والملاحظ أنّ القرآن يعبّر بنبذ الكتاب عن نبذ بعضه، وربما كان ذلك مشيراً إلى وحدة تعاليمه ولزوم تطبيقه الكامل.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

١٠٢: وهؤلاء ـ بنو اسرائيل ـ حين نبذوا الكتاب والقرآن وما فيهما من الآيات والهدى، استبدلوها بالأساطير الوهميّة وصناعة السحر التي نشرتها الشياطين في عهد النبيّ سليمان(ع)، وقد أتهمه اليهود بأنّه انحرف عن خطّ النبوّة وتقرّب إلى الأصنام وأقام ملكه على أساس السحر الذي هو كفر بالله، لا ستلزامه التصرّف المستقل بالكون، إلاّ أن القرآن يبرّئ سليمان عن ذلك، فهو عبد صالح آتاه الله العلم والحكم، أمّا الكفر فهو صفة الشياطين الذين علّموا الناسَ السِّحر .

وقد أُنزلت على الملَكَين (هاروت وماروت) اللّذين كانا في (بابل) علوم تقي الناس مفعول السِّحر وتبطله، ولـذا كان الملكان لا يعلّمان أحداً حتى يحذّراه ويقولا له: ان هذا امتحان وابتلاء من الله تعالى، فيجب ان تُصرف هذه العلوم في مجالها الصحيح، ولما أُنزلت من أجله، إلاّ أنّ اليهود المنحرفين استغلوها أبشع استغلال في قطع الروابط الاجتماعية والتفريق بين الزوجين، ممّا يكشف عن حقدهم على كلّ ما هو انساني.

وهناك خرافات نُسجت حول هذه القصة لا تنسجم مع العقل السليم وإنما هي من الاسرائيليات.

والسِّحر استغلال لروابط كونيّة وخصائص طبيعية للتأثير في الآخرين وإيهامهم بوجود قدرة لدى الساحر خارقة لقوانين الكون، وربّما كان شعبذة ووهماً، وعليه فهو طاقة تسخّر لتخريب البشريّة وقطع صلاتها وإغرائها، وهو محرّم في كل الكتب السماويّة ومنها التوراة. وقد قررت التوراة أن ما تعلّموه من السحر كفر لا نفع فيه أبداً بل هو ضار بمجتمعهم، عائد عليهم بالوبال دنيا وآخرة.

وأن من تعاطى السِّحر بدلا من العمل بكتاب الله ليس له في نعيم الآخرة نصيب، وما أبخس الثمن الذي باعوا به أنفسهم فخالفوا علمهم السابق بعملهم السيء، فكأنّهم لا يعلمون.

١٠٣: ولو اتبع هؤلاء طريق الهدى لنالوا سعادة الدارين، ولا يُقاس ثواب الله إلى منافعهم الموهومة من السحر، فما أجهلهم بمصالحهم الحقيقيّة.

١٠٤: حاول اليهود التنفيس عن حقدهم بسبّ النبي(ص) سبّاً خفيّاً عند نطقهم بكلمة (راعنا)، وكان أصحاب النبي يطلبون بها منه (ص) أن يمهلهم حتى يعوا كلامه، فحرّرها اليهود حتى بدت لديهم تعبر عن سبه وشتم بالعبريّة آنذاك، أو تعطي معنى الرعونة أو الوصف بالرعي، فأمر الله المسلمين أن يغيّروا التعبير إلى كلمة (انظرنا) المشابهة لـ (راعنا) في المعنى لئلا يستغلّها أعداؤهم لما امروا بالسماع الواعي المتقبل.

ونفهم من هذا، دعوة قرآنية لعدم فسح المجال لأعداء الدعوة بتشويهها إذا نحن استعملنا في مجال إعطاء المفاهيم الصحيحة بعض الألفاظ المشتركة الموهمة كالاشتراكية والقوميّة والوطنيّة والديمقراطية والحرية وأمثالها ممّا اقترن بمداليل يرفضها الإسلام.

١٠٥: إنّ أعداء الإسلام من أهل الكتاب والمشركين لا يريدون للمسلمين أيّ خير ينزله الله عليهم، وأفضل الخير القرآن بتعاليمه وتشريعاته، ولكنّ الله فوق أهواء الأعداء فهو يختصّ برحمته من يشاء تعبيراً عن فضله العظيم.

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿١٠٦﴾ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿١٠٧﴾ أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴿١٠٨﴾ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴿١٠٩﴾ وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير ﴿١١٠﴾ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴿١١١﴾ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١١٢﴾﴾

١٠٦: ربّما كانت الآية تشير إلى حادثة تحويل القبلة التي استغلّها اليهود وعابوا عليها الإسلام، أو إلى نسخ آية قرآنية بأخرى برفع حكمها أو محو رسمها من القلوب أو تأخيرها لوقتها عملا بالمرونة ومقتضيات المصالح وتغيرها، أو تشير إلى تبديل علامة أو حجّة إلهية بأخرى، وعلى أيّ حال فالله أن يبدل آية بمثلها أو بأحسن منها وفقاً لدواعي الحكمة. فهو على كل شيء قدير.

١٠٧: الآية تخاطب النبي(ص) وتريد المسلمين مذكرة إيّاهم بقدرته تعالى، وأنّ له أن يتصرّف في الكون وينسخ أو ينسي أو يثبت ما يشاء فيه، لأنّه ملكه وليس لهم من دون الله ولي ولا ناصر ومعين، فلتثبت قلوبهم على الهدى ولا يعبأوا بأراجيف اليهود وإشاعاتهم.

١٠٨: تحذير للمسلمين من التأثر بسنّة اليهود باقتراح الآيات تشهياً، إذ يعني استبدال الكفر بالإيمان وعاقبة ذلك الضلال والإنحراف عن السبيل القويم.

١٠٩: بيان لما يضمره أهل الكتاب من حسد شخصيّ خبيث للمسلمين على نعمة الإسلام، على الرغم من علمهم بأنه الحقّ المنطبق مع بشارات كتبهم، ولكنّ الحسد أعماهم فلاهم يتّبعون الخير، ولاهم يريدون للمسلمين خيراً باتباعه، فيعملون على سلب المسلمين عزمهم العقائدي بشق السبل من شبه واغراءات مختلفة. وقبال ذلك يأمر الله المسلمين بأن يعفوا ويصفحوا ـ وإن كانوا قادرين على الرّد ـ وينتظروا وعد الله حيث يأتي بأمره، ويقرّر الموقف النهائي من أعدائهم.

١١٠: بعد الأمر بالصفح وانتظار وعد الله يأمر الله المسلمين بإقامة الصلاة لتقوية روابطهم بالله، ورصّ بنيانهم الاجتماعي والعاطفي بإعطاء الزكاة، وذلك ليشتدّ أمرهم استعداداً للموقف الحاسم، وليعلموا أنّ عملهم إنّما هو لخير أنفسهم وسعادة مستقبلهم، وسيتبعه جزاء وافر من الله العالم بكلّ ما يقومون به.

١١١: والقرآن هنا يردُّ على بعض دعاوي أهل الكتاب الباطلة، ومنها قول كل فريق بأنّ الجنّة مقصورة عليه دون غيره، وبالتالي فلا مكان فيها لغير اليهود والنصارى فلا يؤهل لها غيرهم، وهذه مجرّد أمان واهية يطالبهم في قبالها بالحجّة والبرهان. وأنّى لهم ذلك؟ وفي الآية تدريب على اتخاذ الموقف الواعي الطالب للحجّة تجاه أيّة فكرة.

١١٢: فالمقياس الحقيقيُّ للفوز بالجنّة والاطمئنان النفسيّ وعدم الخوف من العاقبة السيّئة هو: التسليم المطلق لله والاحسان بالعمل الصالح البنّاء.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١١٣: عرض لتراشق الاتهامات بين اليهود والنصارى والمشركين، فكل يرى الآخر بعيداً عن الحقّ، أمّا أهل الكتاب فعناداً وتعصباً بعد أن عرفوا وحدة التعاليم الدينيّة بتلاوتهم للكتاب، وأمّا المشركون فجهلا وسفاهة، إلاّ أن أمر الجميع إلى الله فهو العليم بما عليه كلُّ فريق.

١١٤: ومن هو أشدُّ ظلماً ممّن وقف في وجه حركة التوحيد في الأرض، فمنع ذكر اسم الله في أماكن عبادته وهي المساجد، وسعى في خراب بنائها أو تعطيلها من المتعبّدين وجرّ الناس إلى ما يشغلهم عنها؟! ولربّما نظرت هذه الآية إلى خراب الروم لبيت المقدس، أو سعي اليهود لمنع المسلمين من الاتجاه للكعبة، أو عمل المشركين على خراب مساجد المسلمين في مكة بعد الهجرة، أو منعهم النبي (ص) من البقاء في مكّة المعظّمة وفي البيت الحرام.

وكان المفروض أن لا يدخل هؤلاء المانعون المخرّبون المساجد إلا خائفين خاشعين لله كما يليق بشأنها، أو خائفين من قوة المسلمين. وربّما دعت الآية المسلمين إلى العمل على عدم تمكينهم من الدخول والوقوف بوجههم، فلا يدخلوا المساجد إلاّ خفية أو طلباً للأمان. وأخيراً توعّد الله هؤلاء المفسدين المعتدين بالخزي الدنيويّ والعذاب العظيم في الآخرة.

١١٥: وإذا منع المؤمنون من الصلاة في مسجد معيّن فليصلّوا في أيّ مكان، وليتجهوا أنّى شاءوا، فالأرض كلّها لله وروح المسجد تسري لكل مكان وقد جعلت الأرض للرسول، مسجداً وطهورا، وليس له تعالى مكان وجهة خاصّة لأنه فوق المكان والزمان، وقد وسع ملكه الكون، وهو العليم بما يفعل عباده اينما كانوا وحيثما اتجهوا.

١١٦: أدّعي الضالّون أنّ لله ولداً؛ كعزير عند اليهود والمسيح عند النصارى والملائكة عند المشركين. وهي دعوى يكذّبها العقل والمنطق السليم حيث تعني تصور التحديد والاحتياج والتركيب والتشبيه في ساحة الله ـ تعالى وتلاؤه عن ذلك ـ وكلُّ ما يوجد في السماوات والارض مملوك ومخلوق ومحتاج وخاضع له تعالى. فكيف يجتمع هذا مع تصور البنوّة لله الغني المطلق؟

١١٧: جواب آخر على ادّعاء البنوّة له تعالى بذكر حقيقة خلق الله للأشياء وإبداعه لها على غير مثال وحالة مسبقة تقتضيها البنوّة وانما ابتدع الاشياء لا من شيء فإذا أراد إيجاد شيء وُجد.

١١٨: أي الذين ليس لديهم كتاب فيعلمون، وهم المشركون الذين شابهوا أهل الكتاب في عنادهم ـ والكفر ملّة واحدة ـ فراحوا يطلبون أن يكلّمهم الله أو تأتيهم آية إلهيّة على الرغم من أنّ الله قد بيّن الآيات مسبقاً بما يكفيهم لو كانوا مستعدّين لقبول الحقيقة وتحصيل اليقين.

١١٩: ثبّت الله نبيّه على الحقّ وبيّن أنّ مهمّته هي الدعوة إلى الله وتبشير العاملين بالفوز وإنذار العاصين بالخسران، وأن لا داعي للتألّم على مصير المنحرفين فمسؤولية ذلك تقع على عاتقهم وحدهم.

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

١٢٠- تؤكّد الآية أنّ الكافرين من اليهود والنصارى لن يرضوا عن النبي(ص) إلاّ برفع اليد عن دعوته ـ وهي الحقّ ـ واتباع ضلالتهم. فالمعركة اذن معركة عقائدية بين الحقّ والباطل.

الإسلام هدى الله، وهو العالِم بما في الكون ومصالحه، والمنزّه عن الهوى الشخصي، فالإسلام هو الهدى الحقيقي، وما سواه ضلال وهباء.

فلا ميل عن خط الإسلام ـ بعد العلم بحقيقته ـ إلى سبل الكفر والأهواء الشخصيّة التي تقود إلى الفناء. والخطاب وان توجّه للنبي(ص) إلاّ أنّ المراد به تحذير الأمّة من الأفول الحضاري إذا توجّهت للنظم الوضعيّة الناقصة حتماً.

١٢١: إن الواعين الذين آتاهم الله الكتاب يتلونه حقّ تلاوته بقلوب واعية فهم المؤمنون به حقّاً. مما يوفقهم للايمان بالاسلام وتلقي مواهبه الخيرة في حين يخسر الكافرون ذلك. يقول الامام الصادق(ع) في تفسير الآية:

(يرتّلون آياته، ويتفقّهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه. ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سوره ودرس اعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وانما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ..﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته[١]﴾[٢]

١٢٢،١٢٣: بعد أن ذكّر الله بني إسرائيل بنعمه المتوالية، أعاد قوله في مطلع التذكير السابق، فذكّرهم بتفضيلهم على الأمم ومنحهم مهمة حمل رسالة الله وخوّفهم من التكول عن ذلك لئلا يصيبهم العذاب يوم القيامة حيث لا شفيع لهم ولا ناصر.

١٢٤: بعد ذلك اللجاج من بني اسرائيل، انتقل القرآن إلى الحديث عن ابراهيم(ع) وهو النبي المعترف به من قبل اليهود والنصارى والعرب ليعطي الشخصية الحقيقية له وليؤكد ان المسلمين هم ورثة رسالته وان بني اسرائيل فقدوا تلك الاهلية بظلمهم، وليمهد لمسألة تحويل القبلة إلى البيت الذي بناه ابراهيم(ع). فقد امتحن ابراهيم بكلمات، والمراد منها ـ كما يظهر ـ الابتلاءات المتوالية عليه من أمره بذبح ولده، وترك عائلته في صحراء مكة والهجرة من أرض المشركين، وكسر الاصنام، والإلقاء في النار وغيرها.

وكان هذا الامتحان ضرورياً لوصوله إلى مرحلة سامية من مراحل التكامل الإنساني هي (الإمامة) العظمى التي نالها بجدارة بعد أن كان نبياً رسولاً من قبل. وهي تعني القيادة الإلهية الفعلية لإيصالها إلى الكمال الحقيقي في مجالها التكويني والمعنوي. وهذا المقام ناله بعض الأنبياء والرسل، وخاتمهم الرسول الأكرم(ص) كما ناله الأئمة المعصومون من أهل البيت(ع) في اطار نبوة النبي(ص) ورسالته.

بعد أن مُنح ابراهيم ذلك المقام العظيم، راح يسأله لأبنائه، حرصاً منه علي هداية البشرية وبقائها على خطه، فجاء الجواب سنّة تاريخية عامّة هي ان الامامة المجعولة من قبل الله لا تُعطى للظالمين أيّاً كانوا، وأيّاً كان ظلمهم: أكان انحرافاً عقائدياً أم عملياً، ومتى كان الانحراف فليس هؤلاء مؤهّلين لقيادة حركة التوحيد والتسليم عبر التاريخ، لأن القائد يمثل النموذج الأعلى ـ فكراً وعملاً ـ لانّه فيجب أن تخلو صحيفته من أي انحراف مسبق قد يظهر ـ ولو لا شعورياً ـ على تصرفاته فيحرف الأمّة عن أهدافها مما يوضح لزوم العصمة في الإمام.

١٢٥: تمهيد لتحويل القبلة بالتذكير بجعل البيت الحرام محلاً للعبادة، ومرجعًا وموضعًا لطلب الثواب، ومأمنًا للعابدين واللاجئين، وقد أمر المسلمون باتخاذ مقام ابراهيم محلاً للصلاة التي تشدهم مع أبيهم في مسيرة عبادة الله، ثم يذكر القرآن أمر الله ابراهيم واسماعيل بتطهير بيته تطهيراً حسيّاً ومعنوياً، وقد نسبه لنفسه ليكون موضعاً حسياً ورمزاً لاتجاه الكون لله وعملاً للطائفين والمقيمين والراكعين والساجدين.

١٢٦: دعا ابراهيم ربّه وطلب إليه أن يجعل البيت مركزاً آمناً يجتمع فيه الناس بلا مشاكل ولا خوف، كما طلب أن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات فاجيب بأن الرحمة تشمل الكافر أيضاً بمتاع دنيوي قصير ثم يضطره إلى عذاب النار وبئس المصير.

---

١ - سورة ص / ٢٩.
٢ - ارشاد القلوب، ج ١، ص ٧٩.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

١٢٨،١٢٧: وحين يرفع ابراهيم واسماعيل أركان البيت يدعوان بدعاء المسلم فيطلبان من الله رضاه وقبوله لأنه مقياس صحّة العمل، كما يطلبان توفيقهما للتسليم، ثمّ يدعوان الله أن يجعل من ذريّتهما امّة مسلمة، وأن يعلمهما أعمال الحجّ، وهي تمثّل تشريعات الحياة. وأخيراً يلجآن إليه تعالى طالبين التوبة والغفران.

١٢٩: ثمّ يطلب ابراهيم واسماعيل ـ وهما يرفعان قواعد البيت ـ إلى الله أن يبعث في تلك الأمّة المسلمة رسولاً منها، عاش معها وتأمّلت سلوكه الطاهر، فإذا هو (الصادق الأمين) ليكون لها نموذجاً بشرياً أعلى يهديها سواء السبيل. يتلو عليها آيات الله ثم يفهمها مضامينها الحيّة. وأخيراً يزكّيها من انحرافات العقيدة والأخلاق والسلوك. فيعيّن لها المنطلق والهدف والطريق بينهما وكيفية سلوكه. هذه هي أهداف الأنبياء في التاريخ أجملها ابراهيم واسماعيل (ع) في دعائهما واستجاب الله ذلك. فكانت الأمة المسلمة وقائدها النبي محمد(ص) تحقيقاً لذلك الدعاء وحاملة لرسالة التوحيد والتسليم الابراهيميين، فهي أذن اولى بابراهيم وبالبيت الحرام من غيرها.

١٣١،١٣٠: إن ابراهيم هو نموذج القائد الإلهي، وشريعته هي شريعة التسليم، فلا يعرض عنها إلاّ من سفه وافقد نفسه توازنها العقلي، لأن ابراهيم مختار من قبل الله الحكيم قائداً في الدنيا، وهو في موازين الآخرة من الصالحين الفائزين، بعد أن أعلن ـ بلا تردّد ـ إسلامه الكامل استجابة لنداء الله ربّ العالمين.

١٣٢: وتركها ابراهيم(ع) وصية لأبنائه بالثبات على خطّ التسليم، وكذا فعل يعقوب(ع)، إذ أكدا أنّ الدين صفوة الله وخيرته فعليهم أن يتمسكوا بتعاليمه حتى الموت، ولكن اليهود الذين يدّعون حمل تعاليم يعقوب وابراهيم انحرفوا عن ذلك وكفروا بهذه الوصايا الخالدة.

١٣٣: يفنّد القرآن مزاعم اليهود بأنهم يحملون وصايا يعقوب، فيجيبهم بأنهم لم يكونوا حاضرين حين احتضار يعقوب(ع) وهو على فراش الموت، إذ سأل أبناءه عمن يعبدون بعده ليستوثق منهم، فأجابوه بأنهم يعبدون إلهه وإله آبائه ابراهيم شيخ الموحدين، واسماعيل جد العرب، واسحق جد بني اسرائيل، وهو الإله الواحد، ثمّ أكدوا إذعانهم لرسالة الله وتسليمهم له.

١٣٤: افتخر اليهود بآبائهم وما عملوه، فردّتهم الآية بأنّ أسلافهم أمة قد مضت تحمل معها ما عملت، وانهم اليوم مسؤولون عن أنفسهم وما يعملون، ولا يفيدهم عمل أجدادهم عن لزوم الحقّ والعمل به. فليس للانسان إلاّ ما سعى.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

١٣٥: كان كلّ من اليهود والنصارى يحاول التأثير على المسلمين ليجرّهم إلى عقيدته المنحرفة، محتكراً الهدى لنفسه تعصباً ومكراً، فركّز القرآن الكريم ـ في معرض الرد عليهم ـ على ملّة ابراهيم (ع) الحنيف المائل عن الضلال والشرك إلى الهدى والتوحيد.

١٣٦: يتوجّه الخطاب لكلّ المؤمنين بالالتزام بالاصول العامّة للدعوة الالهية وهي: الإيمان بالله وما أنزله من القرآن وكتب الأنبياء والمرسلين بلا تفريق بينهم، لأنهم يستقون من مَعين واحد، ومن ثمّ التسليم الكامل لله.

ولا ينافي هذا لزوم الإيمان بالاسلام لا غير كونه ناسخاً لكلّ الرسالات التي نسخت بعض تعاليمها. والأسباط في الآية هم أنبياء قبائل بني اسرائيل.

١٣٧: فإن آمن الآخرون بمثل ما آمن به المسلمون فقد اهتدوا، وان أعرضوا فهم معاندون للحقّ، ولا يهمُّ المؤمن الصامد على الحق أن يُعرض عنه غيره، لأن الله سيكفيه المكر والتآمر وهو السميع العليم.

١٣٨: إنّ الإيمان بالله والتسليم له نابع من الواقع الذي فطر الله الانسان عليه، لكي يعينه في مسيرته التكامليّة. وهو صبغة الله التي لا أروع منها تصبغ المسلمين بالعبوديّة الكاملة لله. ولا وزن بعد هذا لخرافات أهل الكتاب من التعميد وغيره فهي صبغات مزيفة.

١٣٩: ادّعى اليهود انهم أحقُّ بالدين لكثرة بعث الأنبياء فيهم، فردّهم القرآن بأن الله ربُّ الجميع، ولا اختصاص له بشعب معيّن، وان الاخلاص والعمل هما مقياس التفاضل عند الله، وهما يتجسدان في المسلمين.

١٤٠: يتابع القرآن الردّ على أهل الكتاب في ادعاءاتهم، ومنها أنّ ابراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط الذين مرّ ذكرهم كانوا يهوداً أو نصارى، فيؤكّد أن الله أعلم بحقيقة إسلامهم وبراءتهم من الخرافات المدّعين، الذين يعرفون ذلك ويخفونه مقترفين بذلك اكبر الظلم، وما الله بغافل عما يقترفون.

١٤١: يعود التأكيد ـ مرة أخرى ـ على مسؤولية كلّ أمّة عن أعمالها، فلا ينبغي التشبث بالتاريخ الماضي وترك العمل في الحاضر.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾

١٤٢: كان استقبال المسلمين لبيت المقدس في صلاتهم في أوائل تاريخ الرسالة موضعاً لفخر اليهود وادعائهم تبعيَّة المسلمين لهم في ذلك.

ولمّا كان تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة سيصيبهم بصدمة قاسية إذ يفقدهم مسوّغ دعواهم كما يمنح المسلمين شخصيتهم المميَّزة، فقد كان المتوقع من هؤلاء السفهاء الطائشين رأياً وأخلاقاً أن يعترضوا على هذا التحويل بالتساؤل عن سببه، وإشاعة بعض المزاعم حوله، ولكنَّ الله يردُّ عليهم بأنَّ الجهات كلها له تعالى وهو الأعلم بالمصالح، فهو يوجّه من يشاء إلى أية جهة شاء، فإذا وجَّهه نحو اتجاه معيَّن فذلك حقّاً هو الصراط المستقيم.

١٤٣: وصف مهم للأمَّة الاسلاميَّة يعرفها موضعها من الأمم، وأنها الامَّة الوسط العدل، والطليعة الحضارية التي تفيض على العالم هداها، ويقاس إلى تقدمها تقدمُ الأمم وتأخُّرها، لأنّها تحمل الرسالة الوسط التي توجد التوازن في التصوّر والعلائق، رافضة تطرّفات أهل الكتاب والمشركين التي مزّقت البشريَّة ولا زالت.

والرسول شاهد على هذه الامَّة بحمله رسالة الله لها على خير وجه، فعليها ان تقتدي بهداه وتحمل رسالته لباقي الأمم، وتشهد وتتابع مسيرة الأرض نحو الله فتهديها إلى الصراط المستقيم.

ولا ريب في أن النخبة الممتازة هي التي تمثّل الأمة في هذه المهمة الكبرى. وقد وردت روايات عن أهل البيت (ع) تؤكّد ذلك[1].

بعد أن اخبر القرآن عما سيشيعه السفهاء وبطلانه، ووضع للمسلمين مركزهم الطليعي، بيَّن أنَّ الاتجاه إلى بيت المقدس لم يكن إلا تربية للمسلمين على متابعة الرسول ومغالبة الهوى، لأنهم كانوا من قبل ذلك متجهين إلى البيت فوجَّههم الله إلى بيت المقدس ليفصلهم عن المشركين وليكشف ضعاف الإيمان. وكان الامتحان عسيراً إلا على المهتدين المنقادين.

فاؤلئك الذين اتبعوا الرسول وآمنوا وسلّموا بما قال لا يضيع الله إيمانهم وصلاتهم بل سيجزيهم الجزاء الأوفى.

١٤٤: كان (ص) قد وُعد بأن تكون الكعبة قبلة المسلمين الخاصَّة فكان ينتظر ذلك شوقاً وتخلّصاً من أذى اليهود، وربطاً للأمّة بأبيها ابراهيم باني البيت، فتحقَّق ما انتظره وأمره الله بالتوجُّه إليها، وكذلك أمر المسلمين لئلا يفسَّر الحكم بخصوص النبي(ص).

ثبّت الله المسلمين على هذا الحكم، وأخبرهم بأن أهل الكتاب يعلمون أن هذا الأمر حق، لوجوده في كتبهم، وما الله بغافل عما يخفونه عناداً.

١٤٥: تأكيد على عناد أهل الكتاب بحيث لا تنفعهم كلُّ آية في مجال اتباع قبلة المسلمين، ولكن النبي على بيّنة من ربه في توجُّهه للكعبة فكيف يتَّبع قبلتهم؟! ثمّ إن أهل الكتاب أنفسهم متنازعون لا يتبع بعضهم قبلة بعضهم الآخر، وما كان لرسول الله(ص) أن يتَّبع أهواءهم وشطحاتهم بعد ما جاءه من العلم الالهي، وإلاّ كان ذلك ظلماً عظيماً وحاشاه من ذلك.

وتوجُّه الخطاب إلى النبيّ (ص) فيه إيحاء إلى عموم الحكم، وتحذير شديد للمسلمين.

---

١ - انظر الكافي، ج ١، ص ١٩٠ و ١٩١.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝

١٤٦: فإن أهل الكتاب يعرفون صدق النبي(ص) مما نعتته به كتبهم فشخصوه بوضوح كما شخصوا ابناءهم، وهل ينكر الإنسان ابنه؟ إلاّ أن قسماً منهم يكتمون الحقّ عامدين عالمين.

١٤٧: ماجاء منه تعالى هو الحقّ لا غيره، فاثبت عليه بلا تردُّد.

١٤٨: ليس الاختصاص بقبلة بدعاً. فقد كانت لكلّ قوم قبلة يتوجّهون إليها.. فدعوا المماراة والجدل والجهوا متسابقين إلى الخيرات، وسيجزيكم ربُّكم عندما يجمعكم من شتى أماكنكم بقدرته فإنه على كلّ شيء قدير.

١٤٩: تأكيد للحكم بالتوجُّه للقبلة وشموله لكلّ المسلمين في كلّ أمكنتهم لتشكّل الكعبة متّجه الأرض ومركز وحدتها على طريق الله.

١٥٠: تأكيد آخر للحكم وعمومه وثباته على الجميع بلا تردُّد، ثمّ بيان لعلّة ذلك، فربما اعترض اليهود بأنّ كتابهم يصف النبيّ(ص) بأنه يصلي للقبلتين وكذلك ربما اعترض المشركون بأنه كان الاحرى بمن يريد احياء شريعة ابراهيم أن يتجه إلى البيت الذي رفع قواعده، ولكن ثبوت المسلمين على اتجاههم نحو الكعبة يكفّ ألسنة الناس. اللهم إلا الظالمين منهم فإنه لا ينفعهم شيء بسبب عنادهم، ولا ينبغي التخوّف منهم بل الخوف الحقيقي إنما هو من الله تعالى لا غيره.

كما أن من فوائد الثبات عليه التمتع بمزاياه حيث يمنح المسلمين شخصيّتهم المتميّزة، ويوحّدهم على طريق الهدى لتتمّ النعمة وتتحقق الهداية الكاملة.

١٥١: فإنّ نعمة تحويل القبلة سبقتها من قبل نعمة أكبر حيث بعث الله في الأمة رسولاً منها، عاش معها وعرفت أخلاقه المثالية ثمّ جاءها استجابة لدعوة ابراهيم، يتلو عليها آيات الله ويطهّرها من رجس الوثنية وأخلاقياتها المنحطّة، ومن ثمّ يفهمها مداليل الكتاب المحيي لها ويوجهها صوب الحكمة والتأمُّل في مختلف المجالات ويفتح لها أبواب التقدُّم العلمي بما يشهد له التاريخ، إذ انتقلت من أمّة ضائعة في الجهل إلى امّة رائدة تحمل إلى العالم مشاعل العلم والمعرفة.

١٥٢: فلتذكروا الله دائماً لتكونوا مؤهّلين لتلقّي عطائه. ولتشكروا نعمه بالقيام بحقّها وإعمار الأرض، وعدم الكفر بها لئلا يصيبكم ما أصاب من سبقكم من الأمم من الزوال والانحطاط.

١٥٣: استعينوا بالارتباط بالله وذكره عن طريق الصلاة، وبالصبر وتقوية الارادة للقيام بمقتضيات شكر نعم الله والتضحية في سبيله، وفي الآية تهيئة نفسية لخطوات الجهاد الآتية.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

١٥٤: إن الجهاد يستلزم التضحيات وتقديم الشهداء الذين ينتقلون إلى حياة برزخية بين الدنيا والآخرة، وهي أسمى من الحياة الأولى، يغمرهم فضل ربهم ويحصلون فيها على ما تشتهيه أنفسهم من نعم الله ورضوان منه أكبر، وهذه هي الحقيقة فلا يقال لهؤلاء الشهداء انهم أموات، كلا.. بل هم أحياء عند ربهم يرزقون وإن لم يشعر بهم الآخرون.

١٥٥، ١٥٦، ١٥٧: البلاء والامتحان يربّي النفوس الإنسانية ويصقلها ويبدي جوهرها المكنون، وبه تعلو على شهواتهاالرخيصة وارتباطها المادي في سبيل هدف أسمى وعقيدة أغلى. ومن هنا امتحن الله الأنبياء والمؤمنين بأنماط من البلاء ليؤهّلهم لحمل رسالته. ولن يفوز في النهاية إلا الصابرون على البلاء، الثابتون على الحق رغم الأهوال، الموكلون أمرهم إلى الله، القائلون: إنا لله وإنا إليه راجعون، لا بألسنتهم فقط وانما بعمق وجودهم وشعورهم بأنهم ملك لله، وانهم إليه راجعون. وحينذاك يرون ثمار أعمالهم صلوات وتكريماً ورحمة شاملة وسمة كبرى هي سمة (المهتدين) بعد أن لم يبذّروا بطاقاتهم وانما أعدوها للمستقبل الذي صنعوه بالحق.

١٥٨: إن جبلي الصفا والمروة في مكّة من شعائر الله ومعالم دينه. ويشكل السعي بينهما أحد مناسك الحج والعمرة في الإسلام، وقد تحرّج بعض المسلمين من السعي بينهما ـ لأنّ المشركين كانوا قد وضعوا على كلّ منهما صنماً ـ مبالغة في الابتعاد عن كلّ ما هو جاهلي، فعرّفهم القرآن أن لا إثم في ذلك بعد أن جعل الله هذين الجبلين من شعائره، فلا مانع منه في حجّ أو عمرة واجبين، ومن تبرّع وأزاد فذلك خير يشكره الله عليه بأن يمنحه رضاه وعطاءه. والمسلم إذ يسعى بينهما يشعر بتضحيات العائلة الابراهيمية المسلمة كما يشعر بلزوم التحرك النشط ضمن حدود الله في حياته كلّها، وانه يتذكّر انطلاقة الدعوة العلنية إلى العالم من على الصفا.

١٥٩-١٦٠: استحقّ احبار اليهود غضب الله بكتمانهم التعاليم المادية والبشارات الواضحة في التوراة، فانصبّت عليهم لعنة الله ولعنة الإنسانية التي أوهموها ولعنة التاريخ الذي حرّفوه.

اما من ندم منهم وتاب وأصلح أمره وتدارك الخطأ فبيّن الحقّ للناس ـ إذ أنّ التوبة ندم نفسي واصلاح عملي ـ فهؤلاء يرجع الله عليهم بالرحمة ويقتضي لطفه العميم.

والآية مطلقة تحذّر كلّ صاحب علم نافع راح يكتمه أو يستغلّه لصالحه الضيق وما أحوج البشرية البائسة إلى الإسلام الناصع الأصيل المنزّه عن البدع والإنحراف والأهواء؟

١٦١،١٦٢: إذا تأصّل الكفر في وجود الإنسان، انصبّت عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين، فخسر دنياه وراح مخلّداً في مظهر اللعنة «جهنم» في الآخرة فما أجراه على الله وما أشدّ عذاب الله له.

١٦٣: التوحيد هو أساس الإيمان، وعليه تبتنى كلّ تصورات الإسلام وتشريعاته. أمّا الرحمة فهي الصفة الإلهيّة التي بمقتضاها انطلق الكون، وخُلق الإنسان ومنح الهدى.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

١٦٤: في هذه الآية دلائل على ما ذكر من (وحدانية الله ورحمته) في الآية السابقة.. ومن هذه الدلائل: الترابط الكوني الهائل بين الأرض والأجرام السماوية التي قد تبعد عنها ملايين السنين الضوئية والذي يهيئ الأجواء للحياة الانسانيّة، ومنها تعاقُب الليل والنهار المؤثّر على تكامل الأحياء، ومنها أيضاً: جريان السفن في البحر ـ طبق قوانين طبيعيّة مترابطة ـ وهي تحمل معها ما ينفع الناس، ومنها كذلك: هذا المطر الذي يحمل الرحمة والبركة للارض فتحيى به أنواع الاحياء الدابة المنتشرة عليها والضروريّة لحياة الإنسان، ومن هذه الدلائل اختلاف اتجاه الرياح الذي يؤثّر في حركة السحاب الذي سخّره الله لصالح الإنسان يحمل الأمل والخير لمناطق الجفاف.

إذنْ كلُّ هذه الظواهر الطبيعيّة العظمى المترابطة المنسجمة مع الحياة الإنسانية تكشف ـ لكلِّ من فكّر وتأمّل ـ عن وحدة الخالق ورحمته بهذا الإنسان المعد لخلافة الأرض، كما أن لهذا الاستعراض الكوني أثره الباهر في تحريك الطاقات الفكريّة لديه ليستكشف أسرار الكون ومجاهيله.

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧: أمّا من لا يعقلون ولا يتأملون فانهم في جهلهم وانحطاطهم تؤثّر عليهم بعض مخلوقات الله فيتخذونها من دون الله آلهة مطلقة التأثير «ومن هذه الآلهة الوهمية: النجوم والشمس والقمر، والملائكة والأصنام وبعض الحيوانات، والقبيلة والآباء، والجنس والهوى، والقوة والاقتصاد، والعلم والتجربة، والوطن والقومية، والحكّام المستبدون كفرعون، وكل من يشرّع من دون الله فيطاع».

ومن ثمَّ يوجّهون حبهم الفطري لله تعالى إلى هذه الموهومات التي تشكّل بذلك قيداً على نمو الذهن الانساني وتقدُّمه. اما الذين آمنوا ووعوا تلك الدلائل على الوحدانية والرحمة فيتّجه حبهم وجهته الصحيحة ويتعلّق بالمطلق الحقيقي(الله) الذي يحبونه أكثر من كلِّ شيء، فينعكس ذلك على سلوكهم الفردي والاجتماعي، وتشكّل علاقة الحب بين الله وعباده أحد معالم التصوُّر الإسلامي.

ليت اولئك المشركين يشهدون يوم القيامة عذاب الله الشديد ليعرفوا سخف ما تصوّروه من قوة لأنداده الوهميين. وهناك حين تبدو الحقائق يتبرأ المتبوعون من الذين اتبعوهم جهلاً ووهماً، فيرون العذاب المحيط بهم وتتقطّع وسائل النجاة، فيتمنى هؤلاء التابعون أن يعودوا إلى الحياة الدنيا ليقابلوا آلهتهم الوهميّة بالبراءة منها، ولكنها مجرد حسرات تحولت إليها أعمالهم وهي لاتنقذهم من عذاب النار.

١٦٩: يطلب القرآن في هذه الآية ان تستثمر خيرات الأرض الطيبة التي أبيحت لصالح البشرية ومسيرتها التكامليّة، وأن ترفض أساليب الشيطان لاستدراجها ودفعها نحو الكفر بالنعمة واشاعة الخرافات التي تحرِّم الاستفادة من بعض ثروات الطبيعة، أو إشاعة العمل بالسيّئات المعيقة للتقدّم، والدفع نحو الفحشاء أي الخروج عن الصراط السويّ، وكلها تقولات على الله تعالى تعني التحليل والتحريم المعتمدين على الاستحسانات التي لا تغني من الحقِّ شيئاً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

١٧٠: من خطوات الشيطان استغلال الربط العاطفي بين السلف والخلف، ليصنع من الأوّلين أصناماً وهميّة تصوغ عقيدة الآخرين وسلوكهم، وتحرف عقولهم عن المنطق السليم، وتقيّدها عن التفكير الحر النزيه، وتلقيها في هوّة التقليد الأعمى بلا دليل. والقرآن ضمن علاجه لكل قيود الفكر الموضوعي يفند هذا الاسلوب بسؤال يوقف المقلدين على خطئهم وهو: هل كنتم ستتّبعون آباءكم لو ثبت لكم جنونهم؟ والجواب الطبيعي هو الرفض. أذن فليتنبه المقلدة إلى أنّ المقياس هو الحق المؤيّد بالبرهان. ولا ينافي هذا تقليد العامّة للمجتهدين العدول في أحكام الشريعة بعد ثبوته بالدليل.

١٧١: تقريع لهؤلاء المقلدة، بتشبيههم ـ كما قيل ـ بالأغنام السائمة التي لا تسمع من نداء الإنسان إلاّ صراخاً لا تعي مضمونه، والظاهر انه تشبيه لحالهم وتبعيتهم التي تستجيب للراعي بمجرد دعوته دون أن تفهم مضمونها، وانّما تتبعه ـ لاعتيادها ـ سواء سار بها للرعي أو الذبح، بل هم أسوأ حالاً من الأغنام، إذ منحهم الله أداة التفكير فعطّلوها وعادوا: صُمّاً لا يسمعون الحقّ، وبُكماً لا يقدرون على النطق به، وعُميًا لا يبصرون الآيات.

١٧٢: بعد الخطاب السابق الذي أباح الطيّبات واستثمار خيرات الطبيعة وعدم تعطيلها ـ بفعل الأساطير ـ وتحسين الانتاج يأتي هذا الخطاب المبيح للطيّبات وفق أوامر الله الأعلم بالمصالح، وتحقيقاً لشكر هذه النعم والقيام بحقّ العبودية الكاملة لله.

١٧٣: بعد طلب استثمار الخيرات ذكرت الآية الخبائث التي يجب اجتنابها وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، وما ذُبح ولم يُذكَر عليه اسم الله وحده، أمّا الثلاثة الأول فقد جاءت الروايات تشرح مضارّها وأيّدها العلم، وأما الأخير فلتطهير المؤمنين من الشرك وتمييز ذبائحهم عن غيرها وقد استثنيت حالة الإضطرار الذي لم يسبقه ظلم، فللمضطر غير الظالم أن يتناول من هذه المحرّمات بقدر الضرورة للإبقاء على حياته، ولا يتعدى ذلك.

١٧٦،١٧٥،١٧٤: نزلت في علماء اليهود[١] ـ كما يُروى ـ إلاّ أنها تحذّر كلّ حامل علم يكتم ما أنزل الله، لاستغلاله لمصالحه الرخيصة مهما غلت، إذ انها أخسّ ثمن في قبال تحصيل رضا الله. وما يأكل هؤلاء إلا ناراً سيجرهم إليها عملهم، وفوق ذلك عذاب شديد يوم القيامة يتمثّل في اعراض الله عنهم وعدم تطهيرهم من دنس أعمالهم، وذلك لاستهانتهم بعقولهم وأوامر ربهم، واستبدالهم الهدى بالضلال والمغفرة بالعذاب. فيا لشدّة صبرهم على النار! وما أعظم جرأتهم عليها! كل ذلك لعنادهم المتأصّل، واختلافهم في الكتاب بعد أن نزل من الله بالحقّ ليكون الهدى والمقياس.

---

١ ـ انظر مجمع البيان، ج ١، ص ٤٦٠.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

١٧٧: جاءت الآية لتوقف الجدل حول القبلة، وتعلن أنّ الاتجاه إلى وجهة معيَّنة في المشرق أو في المغرب ليس كلّ البر، وانّما البرّ الكامل هو: الإيمان (بالله) ويشكّل الأساس في التصور الإسلامي عن الكون والحياة، و(بالآخرة) كتعبير عن العدل الإلهيّ والحياة الممتدّة للانسان، و(بالملائكة) كجزء من الإيمان بعالم الغيب، و(بالكتاب) المعبِّر عن الوحي المربّي للبشريَّة، و(بالنبيِّين) كقادة للحركة الموحِّدة لدين الله.

ثم بإعطاء المال ـ غير الزكاة ـ تحرُّراً من الحرص وسُموّاً على المادة وذلك لذوي القربى لدعم الروابط العائليَّة، واليتامى والمساكين وابن السبيل المنقطع عن أهله وبلاده، والسائلين المحتاجين، واعتاق العبيد لتحقيق مقتضيات التكافل والاخوّة.

كما يتقوَّم بإقامة الصلاة وأدائها الكامل ووعي معطياتها، وإيتاء الزكاة لتسوين عملية تحقيق التوازن والارتفاع بالمستويات الضعيفة إلى حدّ (الغنى) والوفاء بالعهد لاشاعة الثقة، والصبر في البأساء وهي الشدَّة والفقر، والضراء وهي المرض، وحين البأس وهو اشتداد الحرب، وهذه المواطن من أشدّ الحالات على الإنسان. ولذا يطلب الصبر عليها للتقوّي على باقي الجوانب. وقد نُصب لفظ (الصابرين) لتركيز المدح عليهم بتقدير (اخص)... فإذا جمع المسلم هذه الصفات الحميدة فهو الصادق في ايمانه والذي انعكس تقواه على مجالات حياته، وقد جاء عن النبي(ص): (من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان)[1].

١٧٨: رفض الإسلام سنّة الثأر الجاهلية الممزّقة، وأعلن مبدأ القصاص والمساواة في القتل العمد: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والانثى بالانثى. ولكن المرونة الإسلامية فتحت مجال رأب الصدع للحفاظ على العواطف الأخويَّة والطاقات الانسانيَّة، فشرعت العفو مع الدية (وهي مال يدفع لأهل القتيل) وبدونها، وربّما حبَّذت الآية العفو بتعبير (أخيه) فإذا عفى أولياء الدم عن شيء من حقّهم فإن الأخلاق تقتضي منهم مطالبة القاتل بالدية المتعارفة بلا عنف، وتقتضي من القاتل أداءها بلا تهاون أو إنقاص.

وهذا الحكم تسهيل من الله ورحمة بالقاتل والمجتمع، فإذا تم العفو فلا مجال للتراجع باعتداء العافين على القاتل، وإلاّ أصابهم من الله العذاب الأليم.

١٧٩: تُعدُّ هذه الآية من أبلغ التعابير العربيَّة وأثراها رغم إيجازها. فهي تعلن أن الحياة الاجتماعيَّة متوقِّفة على تشريع القصاص لردع الجناة إذ ربّما توقَّف تكامل المجتمع ـ كأيّ كائن حيّ ـ على قطع العضو الفاسد لئلا يأتي على الكيان كلّه كما يمكن ان يؤدي لشفاء الغليل لأولياء القتيل فلا يقومون بالانتقام. وقد أخطأت بعض النظريّات الحديثة إذ رفعت هذه العقوبة، فوقعت في جحيم الاجرام ممّا دعاها للتفكير بالعودة إليه، بعد أن كانت تتّهمه ـ ظلماً ـ بالقسوة والوحشيَّة. أما السجن فلا يؤدّي دور القصاص والحدود ان لم يشجع على الإجرام، وقد ذكر فقهاؤنا ـ تبعاً للأدلة ـ أن الرجل إذا قتل المرأة فلأوليائها المطالبة بقتله قصاصاً بعد دفع نصف ديته وذلك لأسباب اقتصاديَّة.

١٨٠-١٨١: حبّذ القرآن للمتّقين أن يوصوا ببعض أموالهم لأبويهم ولذوي قرباهم بشكل متعارف ومناسب، قياماً بحقوق الابوّة والقرابة. ولا تنفذ الوصية إلا في الثلث من التركة إلا بإذن الورثة، والعمل بها بعد ثبوتها لازم، فمن بدّل ما أوصى به الموصي كان آثماً، والله سميع عليم.

---

١ ـ بحار الانوار، ج ٦٦، ص ٣٤٦.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝

١٨٢: بعد الحكم بعدم جواز تبديل الوصيّة تعرضت الآية لحالة يميل فيها الموصي عن المتعارف، فيضرّ بنصيب الورثة ـ وهو الجنف ـ أو يوصي بأمر غير مشروع ـ وهو الإثم ـ فللوصي، وربّما لغيره، التدخّل لارجاع الموصي إلى حدّ الاعتدال، أو لحلّ الخلاف بين الموصى له والورثة بعد الموت وكذلك لعدم تنفيذ الوصايا غير المشروعة، فليس تبديله إثماً.

١٨٤،١٨٣: كتب الله الصوم على هذه الأمّة كما فرضه على سائر الأمم، ممّا يوحي بضرورته للبشريّة التي تحمل هدفاً سامياً. والتشابه هو في الوجوب دون الخصوصيّات. ويعني الصوم كفّ النفس عن لذّات معينة في أيام معدودة قربة لله. وله تأثير كبير في مجال تربية الإرادة الواعية وتعميق الا خلاص له تعالى والشعور بقيمة نعمه، والتحسّس بآلام الفقراء، وبالتالي الشعور بالمسؤوليّة الداخليّة والعمل على تكوين مجتمع المتّقين، هذا بالإضافة إلى فوائده الصحيّة.

ويبدو اللُّطف الإلهيّ في توجيه الخطاب للّذين آمنوا ليعملوا بمقتضى إيمانهم، ثمّ التخفيف عن ثقل الصوم بذكر اشتراك الأمم معهم وأنّه يتم في أيام معدودة، وأنه ضروري لإيصالهم إلى هدفهم وهو التقوى، وأخيراً استثناء بعض الحالات.

فيجب صوم شهر من السنة وهو رمضان، أمّا المريض والمسافر فيجب أن يفطرا بلا رخصة في الصوم ـ كما يبدو من الآية وروايات أهل البيت(ع) [1] وعليه جمع من الصحابة ـ وعليهما القضاء بعد ذلك.

أما الذين يطيقونه أي يتحمّلون مشقّة غير عادية في الصوم فلهؤلاء الإفطار، وعليهم ـ حينئذ ـ اطعام مسكين فدية، وهي تعبّر عن وجه اجتماعي لنظام العبادات.

والتطوّع هو العمل برغبة، وقد دُفع المؤمنون ليصوموا رغبة وطواعية فذلك خير. وتؤكد الآية أفضليّة الصوم لمن يطيقونه.

١٨٥: إنّ ظرف الصوم وهو شهر رمضان اكتسب أهمّيته من نزول القرآن فيه، وهو يحمل للعالم الهدى والفرقان المميّز بين الحقّ والباطل، ممّا يوحي للامّة بعظم مهمّتها واحتياجها إلى الارادة والتضحية والاخلاص الّذي يحقّقه الصوم. وقد نزل القرآن تارة على قلب النبيّ(ص) جملة واحدة، لتربية القائد ونزل تارة اخرى تدريجاً خلال مراحل الدعوة لتربية الأمة. وهناك آراء أخر في هذا الخصوص.

تركيز على عموم الحكم الواجب واستثناء المريض والمسافر إذ يقضيان الصوم في أيّام أُخر، وتوضيح لدور مصلحة التسهيل على العباد في التشريع الإسلامي.

إنّ الهداية الإلهيّة للسبيل القويم تستوجب تعظيم الله ـ جلّ وعلا ـ وشكره والقيام بلوازم الشكر.

١٨٦: الدعاء رحمة إلهيّة تفتح أبواب الأمل البنّاء، وتشعر الإنسان حسّاً بضعته أمام خالقه ولطف خالقه به، إذ يمدّه بالعزم والسكينة والثقة بالمستقبل. وقد علّم أهل البيت(ع) الامّة أساليب الدعاء، ومضامينه بشكل يربيّها أروع تربية. هذا وقد عبّرت الآية عن جوّ الرحمة الإلهيّة بذكر كلّ من ضمير المتكلّم (الله تعالى) وضمير المخاطب (العبد) مرّات للمبالغة في الربط.

وربما تفهم ـ من الآية شرائط التأكيد في استجابة الدعاء ـ لو كان فيه مصلحة ـ وهي العبوديّة، وحصر الأمل بالله دون غيره، والعمل بأوامره.

---

١ - تهذيب الاحكام، ج ٤ ص ٢١٦، ح ١، ٢، و٣، ص ٢١٧، ح ٤، ٥، ٦، ٧، و٢١٨ ح ٨.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞

١٨٧: كانت السنّة النبويّة قد حرّمت على من نام ليلة الصيام مباشرة الزوجة وكذا الأكل والشرب، وقيل إنّ حرمة المباشرة كانت تعمُّ شهر رمضان بلياليه، إلاّ أن بعض المسلمين كانوا يخونون أنفسهم ويخالفون أمر الله في ذلك، وقد نزلت هذه الآية لتنسخ حكم السنّة، مجوزة المباشرة إرفاقاً ويسراً موضحة بلفظ (اللباس) معاني الحنان والستر عن المعاصي والتلاقي والترابط بين الزوجين، وقد أخبرتهم عن توبة الله عليهم، وأكّدت جواز المباشرة وطلب الولد أو اشباع الغريزة من خلالها، كما أباحت الأكل والشرب، وإن كان بعد النوم، إلى أن يتميَّز بياض النهار عن سواد اللّيل، إذ يبدأ الصوم. أما ختامه فهو دخول الليل بذهاب الحمرة المشرقيّة أو غروب الشمس ـ على رأي ـ.

الاعتكاف، هو البقاء في أحد المساجد الجامعة ثلاثة أيّام مع الصوم نهاراً، وله أحكام ذكرت الآية منها حرمة مباشرة النساء، ولعل ذلك لأنه لو كان الاعتكاف في رمضان فإنه تحرم المباشرة في لياليه دون ليالي رمضان الأخرى. ثمّ ذكرت الآية أن الأحكام الواردة فيها هي حدود الله التي يجب أن لا يقربها الناس حتى يتسنّى لهم بلوغ درجات التقوى.

١٨٨: قرّرت الآية احترام الملكية الخاصة المؤطّرة بالصالح العام، حيث أضافت الاموال لضمير الجماعة، وقد منعت التعدّي وانتقال الأموال بالأسباب الباطلة شرعاً كالغصب والظلم وغيرها، وخصّت ذكر الرشوة بإعطاء مال أو هديّة لإغراء الحاكم بالجور ممّا يشكّل خطراً على العدالة.

وقد قدّم أحدهم هديّة للإمام علي(ع) متوقّعاً ميلاً لصالحه فقال له ـ ضمن مقال ـ :

(هبلتك الهبول أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟... والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته). (نهج البلاغة، خ ٢٢٤، ص ٣٤٧، د. الصالح).

١٨٩: سأل بعض الناس رسول الله(ص) عن علّة خلق الأهلّة وكمالها ونقصها فجاء الجواب موضحًا ارتباط حالاتها بحياة الناس، فهي مواقيت مضبوطة واضحة للجميع، تنفعهم في تمشية أُمورهم ومعرفة وقت واجباتهم كالحجّ. ولم يتعرّض للاجابة المباشرة امّا لعدم إمكان تفهيمهم الواقع الطبيعي، وأما لخروج ذلك عن مهمّة القرآن ككتاب تربية للبشريّة، تاركاً كشف الأسرار الطبيعيّة للفكر.

اعتاد الجاهليّون ـ كما قيل ـ عند الاحرام أو الرجوع من سفر دخول البيوت من ظهورها وغير أبوابها فردَّ القرآن ذلك مؤكّداً أن البرّ هو سلوك الطريق الطبيعي إلى كلّ شيء لحفظ الموازين، دون اضاعتها بسلوك السبل الملتوية، ومن ذلك السؤال عن الأهلّة، كما أنّ منه محاولة معرفة الشريعة من غير السبل التي عيّنتها هي.

١٩٠: تشرّع الآية ـ لأوّل مرة ـ قتال المشركين، في سبيل اعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته وازالة الطواغيت، وهي مسوّغات القتال في الإسلام دون الأطماع والشهوات، على أن القتال إنما هو للظالمين دون المسالمين كالشيوخ والأطفال فإنه يعد اعتداء ، ممّا يوضح إنسانية الإسلام حتى في قتاله.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

١٩١، ١٩٢: أُمِرَ المسلمون بملاحقة المشركين أينما ثقفوهم (وجدوهم)، وإخراجهم من ديارهم جزاء اخراج المسلمين من مكّة.

توضيح لجوّ الأمر بالقتال، وتأكيد لحقيقة انه ـ لو كان في مكّة ـ أهون من شرك المشركين وصدّهم عن المسجد الحرام وقيامهم بشق الأساليب ضدّ تنامي حركة الإيمان في الأرض.

استثناء للمسجد الحرام من الأمر السابق بقتال المشركين حيثما وجدوا، وذلك تأكيد لحرمته وجعله أمنا للناس، اللهم إلا أن ينتهك المشركون حرمة البيت ويستغلّوها ضد الإسلام، فانه يجوز قتالهم حتى ولو كانوا متحصّنين فيه، اما إذا كفّوا عن القتال ورفعوا أيديهم عن الكفر فإنّ الله سيشملهم بالعفو والرحمة.

١٩٣: القتال في الإسلام لا يستهدف إلا تحقيق المجتمع العابد لله، السائر وفق مقتضيات فطرته، وإزالة الموانع والطواغيت من طريقه، فلا تبقى فتنة (شرك وإغواء)، وبهذا تندفع شبهات أعداء الإسلام، إذ ليست الكف التي تحمل السيف لتنشر العدل كالأخرى التي ترفعه لاستعباد البشر واستغلالهم.

امّا لو امتنع المشركون عن القتال والتحريض، وعادوا إلى جادة الصواب، فلا عدوان عليهم (أي عقوبة) بل العقوبة مختصّة بالظالمين المعاندين.

١٩٤: على الرغم من حرمة القتال في الأشهر الحرم ـ رجب، وذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم ـ إلاّ أن الاستفادة من هذه المزية مخصوصة بمن احترمها ولم يعتد فيها وإلاّ اعتُدي عليه (أي جوزي) بمثل اعتدائه. لأنّ الحرمات قصاص ومقابلة، مع وجوب مراعاة الاعتدال في الردّ عليهم.

١٩٥: إنّ الانفاق في سبيل الله يوفّر للمقاتلين الدعم الماديّ المطلوب، كما يوفّر للمجتمع التكافل والتوازن، وبدونه فإنّ المجتمع سيلقي نفسه بنفسه في مهوى الهزيمة والفقر والهلاك. وختمت الآية بالحثّ على التسامي والاحسان وكمال الانفاق والاعتدال فيه وفي أيّ أمر آخر، وينبغي الالتفات إلى أنّ المسلم يجب أن يوازن دائماً بين ما يقدمه من تضحيات بالنفس أو المال، وما يحصل عليه من نتائج.

١٩٦: تطلب الآية اكمال الحج والعمرة قربة إلى الله وحده، فإن منع الحاج مانع من مرض أو خوف عدوّ فلم يستطع الإكمال فعليه إرسال ما يمكنه من الأنعام ثمّ يصبر، فلا يحلّ احرامه بحلق رأسه حتى يبلغ الهدي (الأضحيّة) محلّ نحره وهو مكّة أو منى وإلا فمكان الصد، ولو اضطرّ المضطرّ المشروع لحلق رأسه ـ لأذىً فيه أو مرض ـ فعليه الفدية وهي صيام ثلاثة أيّام أو إطعام ستّة فقراء أو نسك (ذبح شاة) كما تبين الروايات ذلك.

وامّا في حال الأمن ففرضُ غير أهل مكّة هو حج التمتع حيث يأتون فيه بالعمرة أولاً ثم يحلّون من الاحرام ويستمتعون بما أحلّ الله من الطيّبات والنساء، وبعده يحرمون للحجّ الابراهيمي وله أركانه وواجباته ومنها ذبح الهدي في منى فإذا لم يجد فعليه صيام عشرة أيام ثلاثة منها في أيام الحج (السابع والثامن والتاسع من ذي الحجّة) وسبعة عند رجوعه ليكون المجموع عشرة أيام كاملة.

والواضح أنّ الآية نص في تشريع عمرة التمتع وحجّه وتؤيّدها الروايات الكثيرة ولا يمكن لأحد أن يجتهد في قبال النص.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

١٩٧: أشهر الحجّ معيّنة وهي شوال، وذوالقعدة، وذو الحجّة. وتختص بعض أعماله بأيّام مخصوصة من ذي الحجّة. فإذا أحرم الإنسان ولبّى نداء التوحيد، وانخرط في مسلك جنوده، وجب أن يجنّب نفسه الرفث (أي التمتع الجنسي والجماع)، والفسوق (وهي المعاصي ذكرت هنا تأكيداً لحرمتها) والجدال (أي المناقشة مع اليمين والمؤدّية للاغضاب).

وعليه أن يراقب نفسه بدقّة ويشعر أنه بحضرة الله العليم بما يفعله من الخيرات ليستزيد منها ليحصل على أفضل زاد دنيوي وأخروي، وهو التقوى التي تهفو إليها الألباب (العقول) وتدفع إليها الفطرة.

١٩٨: كان بعض الناس يتحرّج من التجارة في موسم الحج لأنه موسم العبادة والذكر، فرفعت الآية الحرج في الإكتساب من فضل الله، وربّما كانت الفائدة الاقتصاديّة مقصودة أيضاً في الحج.

يذكر ـ سبحانه ـ هنا بعض مناسك الحج وهما الوقوفان: اما الوقوف بعرفة فيجب من ظهر التاسع إلى غروبه، ويمتدُّ للمضطرِّ إلى طلوع فجر العاشر، وتتجلّى في هذا الموقف الروحي الرائع معاني الافتقار الجمعوعي لله وذكره والتحرُّر من براثن المادة، والمساواة والوحدة والتراص، وغير ذلك.

واما الوقوف بالمشعر فيتم بعد أن يفيض الناس (أي يندفعون بكثرة) إليه حيث يبقون فيه من طلوع الفجر إلى طلوع شمس العاشر من ذي الحجّة، ويذكرون الله كثيراً ويتحسّسون عطاءه وهداه بعد فترة من الضمور والضلال، كما يحسّسهم الموقف بمواقف القيامة الرهيبة.

١٩٩: كانت قريش تميّز نفسها عن الباقين بالوقوف في خصوص المزدلفة باعتبار أنّها من الحرم، وان قريشاً أهله بينما يقف باقي الناس في عرفات، فجاءت هذه الآية نافيةً للتمايز آمرة الجميع بالوقوف في عرفات، ثم الإفاضة إلى المشعر في حركة جموعيّة واحدة مستغفرة طالبة التوفيق من الله.

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢: كانت العرب تتفاخر بعد الحجّ بأنسابها وآبائها، فجاء القرآن يغيِّر الموازين ويجعل ذكر الله فوق كل شيء، والارتباط به فوق كلِّ ارتباط، لأنه واهب كل شيء. وقد خطب رسول الله(ص) أيام التشريق فقال:

(أيها الناس: الا إنّ ربَّكم واحد، وان أباكم واحد، ألا لافضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلاّ بالتقوى)[1].

تربية للناس على الدعاء الكامل، واعطاء للتصوّر الصحيح عن الدنيا والآخرة، فينبغي أن لا يركّز الحاج على طلب الدنيا أيا كانت فلا يكون له في الآخرة خلاق (نصيب) وانما يطلب الأمر الحسن في الدنيا وكذلك في الآخرة ليتحقّق التوازن في شخصيّته وموقفه منهما، ثم يدعو الله أن يخلّصه من عذاب النار. ولا ريب في أنّ الدعاء يستلزم اندفاعاً لتهيئة الأرضيّة المساعدة للاستجابة، فإذا عمل لذلك فقد حصل على حصّته ونصيبه الذي سعى إليه، والله سريع الحساب والجزاء.

وقد كتب الإمام أمير المؤمنين(ع) إلى محمد بن أبي بكر واليه على مصر، يصف مجتمع المتّقين:

(إعلموا إن المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم. سكنوا الدنيا بأفضل ماسكنت، وأكلوها بأفضل ما اكِلَت... أصابوا لذّة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا تردُّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذّة)[2].

---

١ - الدر المنثور.

٢ - نهج البلاغة الرسالة ٢٧، ص ٣٨٣، د. الصالح.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

٢٠٣: الأيّام المعدودات هي أيّام التشريق - ١١، ١٢، ١٣ - من ذي الحجة وينبغي فيها ذكر الله المتواصل، وروي انه التكبير المخصوص[١]. وقد خيّرت الآية الحجاج بين التعجيل بالبقاء يومين منها في منى والتأخّر إلى الثالث عشر، ويختص التخيير بمن اتقى، أي احترز من كلّ محرمات الاحرام أو خصوص الصيد والنساء. ثم توجّهت للمسلمين - في ختام الحديث عن الحج - ليتصفوا بالتقوى كحصيلة لعملية الحج التربوية الكبرى التي ذكّرتهم بيوم الحشر الاكبر مما يساعد على تحقّق خشية الله وتقواه.

٢٠٤،٢٠٥: عرض لنموذج المنافق من الناس حيث تجد في كلامه المعسول ما يعجبك من الإطراء والاستقامة والحديث عن الخير والحق والاخلاص للمبادئ ومصالح الأمة، وقد يحلف بالله ويشهده على مكنون قلبه، والله يعلم أنه مملوء حقداً ونفاقاً وانه الد (أشد) خصوم الحقيقة، وبمجرد ان يحتلي منصباً ويربح سلطة يسعى في الأرض بالفساد والقضاء على موارد الأمة الاقتصادية بالغصب وسن التشريعات الفاسدة، وعلى البشرية بالقتل والاضطهاد، في سبيل مطامعه الرخيصة، ومثل هذا الصنف بعيد عن رحمة الله الذي لايحبُّ الفساد. وقد ابتليت الأمة الاسلاميّة - كغيرها - بهذا النمط من القيادات المنافقة التي أذلّت الأمة وجرّتها إلى الاضمحلال والضياع.

٢٠٦: إن تكبُّره وعناده بنسيانه غضب الله فإذا ذكّر به أخذته العزّة الظاهرة التي اكتسبها بالاثم فاستعظم ذلك، ولكن الغضب الإلهيّ سيقهر هذا التكبُّر بنار جهنّم وبئست مهاداً (محلاً) للمتكبّرين.

٢٠٧: وعلى العكس من النموذج السابق، يعرض القرآن هنا نموذج الفدائي المؤمن المضحّي لا لشيء إلا لتحقيق رضا الله وهو أسمى غاية، وقد تجلّت رأفة الله في هذا الشخص فمنحته هذه الروح العالية، كما تجلّت في الامّة إذ قدّمت لها هذا النموذج مثلاً سامياً تقتدي به.

وفي الروايات إن الآية نزلت في علي(ع) عند مبيته على فراش رسول الله(ص) ليلة الهجرة[٢].

٢٠٨: دعوة للمؤمنين للدخول الجماعي تحت لواء التسليم المطلق لله، والإسلام الكامل لأوامره التي تتكفّل حلّ كلّ المشاكل الإنسانيّة، وعدم اتّباع الهوى والظنّ، والحذر من خطوات الشيطان الماكرة التي قد تجزئ الإسلام وتفصل أحكامه عن بعضها فتشوّه حقيقته وكماله، أو تحبّذ الدعوات الضالة وتلبسها أقنعة مختلفة مثل أقنعة الإصلاح والوطنيّة والسلام العالمي وأمثالها.

٢٠٩،٢١٠: استنكار وتهديد لموقف المعاندين للحق بيوم يأتي فيه عذاب الله وأمره في غمام يظللهم فيظنونه رحمة وفيه العذاب الاليم تصبه عليهم ملائكة الله.. انه الأمر الّذي قضاه الله ولا رادّ لقضائه حيث ترجع امور الخلق إليه فيحاسبهم الحساب الدقيق.

---

١ - الكافي ج ٤، ص ٥١٦، و ٥١٧، ح ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥.
٢ - نور الثقلين، ج ١، ص ٢٠٤، و ٢٠٥ ح ٧٥٧ - ٧٦٢.

سَلْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

٢١١: ذكر لنموذج من نماذج العناد والزلل بعد وضوح الآيات ليكون درساً لهذه الأمة. فقد آتى الله بني اسرائيل البيّنات، ولكنهم بدّلوا نعمة الله كفراً وتمرّدوا على أوامره فكان عقاب الله شديداً، وهذا سنّة إلهية عامّة في الأمم.

٢١٢: صنفان من البشر: صنف تافه الهدف رخيصه لا يبغي إلا متاع جسد، وشبع بطن، زينت له الدنيا امتحاناً فكانت أسمى مقصد لديه وهي وضيعة. أما الأهداف السامية حقاً وأصحابها فهي عنده موضع للسخرية، وصنف فوق ذلك في هدفه؛ أنه يعيش لله وللمجتمع الله ولا يلقي بالا لسخريات الآخرين، لأنه في موازين الآخرة فوقهم مادة وروحاً، وذلك عطاء إلهي لا يحدُّ.

٢١٣: كانت البشريّة تعيش حالة فطريّة موحّدة، وفي الفطرة نوازع وطبائع لتشكيل التجمّع الذي لا يتكامل الإنسان إلاّ في اطاره. ولا ريب في ان المجتمع ـ أيّ مجتمع ـ يحتاج إلى قانون تشريعي يوازن بين حاجات أفراده، ويحقق التلاؤم بين المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعيّة، ويشيع العدالة، ويكون مقياساً لحلّ أي اختلاف وتصادم. وهذا النظام لا يمكن أن يوضع إلاّ من قبل الله الخالق العليم بكلّ ذلك والمنزّه عن الأهواء. ومن هنا فقد بعث الله الأنبياء المعصومين يحملون رسالته إلى البشريّة التي كان عليها أن تسير وفق هداه تعالى. إلا أن بعضاً من حملة الدين المزيّفين أدركهم الحرص والطمع وحبُّ الرئاسة فراحوا يحرّفونه لصالح أهوائهم المختلفة بغياً وظلماً. فنشأ الاختلاف في الدين نتيجة الظلم. اما الرعيل المؤمن المستعد للتسليم المطلق لله فقد هداه الله إلى السبيل القويم.

والملاحظ أنّ الآية تؤكد الوحدة الفطريّة بين الناس، وأصالة الدين التاريخيّ، وأن المشرّع الحقيقيّ هو الله العالم المنزّه عن الميل دون الإنسان الجاهل المائل. وان الدين هو الحكم الوحيد للمسيرة الإنسانية يسير مع تعقد الاحتياجات مربيا إيّاها حتى تصل لدور النضج فتأتيها الرسالة الخاتمة. يقول الامام أمير المؤمنين(ع):

(فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم أنبياءه، ليستهدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسيَّ نعمته، ويحتجُّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول...)[1].

٢١٤: جرت سنة الله بتمحيص المؤمنين وإعدادهم لتحمُّل المسؤوليات، والايمان فكرة يراد لها أن تنظِّم شؤون العالم وتقوده، ولن تكون كذلك حتى يحملها المؤمنون ويقتحموا في سبيلها العقبات ويلاقوا البأساء (أي الشدّة في غير النفس كفقدان المال) والضراء (وهي الشدّة في النفس كالجرح) ويزلزلوا ويضطربوا، حتى يصل الأمر بالرسول والمؤمنين إلى التساؤل عن أوان نصر الله وكأنهم يستبعدونه لشدّة الهول، وحينذاك يأتي النداء الإلهيُّ معلناً أن نصر الله قريب، ولكن لمن صبروا فكانوا أهلاً لذلك النصر.

٢١٥: ان الإنفاق (وهو حالة إيمانية فردية واجتماعية) إنما يتم من المال الحلال الخيّر ولأهداف خيرة. والآية تركز في موارده على الوالدين (ضمن العائلة الصغيرة) والأقارب (وهم العائلة الكبيرة) واليتامى والمساكين وابن السبيل المنقطع عن ماله (في إطار المجتمع الكبير) مما ينتج الترابط ويشيع العواطف الخيرة. ولما كان الله عليماً بكل ما يفعل من خيرات فإن الجزاء الأوفى هو النتيجة المرجوة.

---

١ - نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٢، د. الصالح.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

٢١٦: تدفع الآية المؤمنين للقتال والجهاد، وهي تعالج حالة من الكراهية للقتال ناتجة من المشقّة الطبيعية له، أو من تقدير خاطئ بأنه يفني الوجود الإسلامي الفتيّ آنذاك، أو كتعبير عن الرحمة العامّة التي ربّاها القرآن في النفوس، وقد عالجته بالتذكير بحكمة الله وعلمه بالمصالح التي كثيرا ما تخفى على الإنسان، فقد يحبُّ شيئاً وهو في غير صالحه، وقد يكره شيئاً وفيه الخير الكثير.

٢١٧: روي أنّها نزلت في سريّة عبدالله بن جحش التي أرسلها النبي(ص) لترصّد حركة قوافل المشركين، ولكنها التحمت مع العدو في الأشهر الحرم بقتال لم تكن قد أمرت به، وعادت تحمل الغنائم والأسرى، فكبر ذلك على الكثيرين، وثار التساؤل عن حكم القتال في الشهر الحرام، فجاء الرد القرآني يؤكد أنّ أصل القتال فيه أمر مستنكر وكبير الوقع، ولكنّ فتنة قريش وشركها وصدها الناس عن الإسلام بالتعذيب الشديد والاضطهاد، وكذلك كفرها بالله وصدها عن المسجد الحرام، واخراجها المسلمين منه، كل ذلك أشد فظاعة من القتال في الأشهر الحرم، إذ الفتنة عقبة في وجه الرسالة المنقذة الهادية التي تحمل العدالة والسعادة للبشرية جميعاً، ويتأكد هذا إذا لوحظ العناد الشديد للمشركين واصرارهم على تحيُّن الفرص لقتال المسلمين والقضاء عليهم وارجاعهم إلى حضيض الجاهلية التي أنقذهم الله منها.

ونظراً لخطورة الموقف يتوجه التحذير الشديد للمسلمين بالبقاء على الحقّ وعدم الارتداد عنه إلى الكفر والضلال، إذ يفقدون ـ بذلك ـ الحصول على نتائج أعمالهم الحسنة الماضية ويخسرون سعادتهم في الدنيا والآخرة، فالموت على الكفر يحبط الأعمال ويبطل آثارها على حياتهم، وان قبول العمل متوقّف على بقاء الإيمان حتى الموت.

وهذا التحذير الإلهي يجد له موقعه في كلّ حين، فإغراءات الكفر قائمة، وأبواب الدعوات الضالّة مشرعة مغرية، فيجب أن يحذرها المسلم ويحصّن نفسه تجاهها لئلا يحبط عمله.

٢١٨: إنّ الذين انعكس الإيمان على واقعهم العمليّ فهاجروا إلى الله وجاهدوا في سبيله، هم الراجون حقّاً رحمة الله، وليس الرجاء مجرّد تمنّ خادع لا أثر له، فإذا أخطأ المؤمن المجاهد أحياناً ـ كما أخطأت السريّة المذكورة آنفاً ـ فإنّ الله سيعفو عنه لحسن نيّته.

٢١٩: قيل بدلالة الآية ـ وهي مدنيّة ـ على تحريم الخمر والميسر (القمار) لاثباتها الاثم فيهما والإثم محرّم من قبل في آية مكّية، وهذا هو الظاهر، وقيل إنها لا تدلّ عليه بل هي تمهيد للتحريم بعد ذلك، حيث بيّنت هنا أن لهما أضراراً عقليّة واقتصاديّة واجتماعيّة كثيرة تفوق المنافع المصوَّرة فيهما، وقد تدرّج الإسلام في تحريم الخمر كبعض الأحكام الأُخرى لتأصّلها في الوجود الاجتماعي آنذاك، فعالجها بمرونة وتهيئة عقائديّة ونفسيّة وقضى عليها، في حين فشلت أعظم الدول الحديثة الّتي جنّدت كلّ طاقاتها لحرب الخمر.

تذكر الآية أنّ الانفاق المطلوب هو (العفو) والظاهر أنه الزائد عن المؤونة والحاجة حتى المستقبلية منها.
وبعد هذا يدفع القرآن المسلمين للتفكر في أحكام الله وحكمها وآثارها على حياتهم الدنيويّة والاخرويّة وذلك للحصول على أداء واع لها ولنتائجها، كل ذلك في إطار التسليم الكامل لله.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

٢٢٠ـ بعد نزول الآيات الناهية عن أكل مال اليتامى، تحرّج بعض المسلمين من أموالهم ولربّما تخلّوا عن كفالتهم ومخالطتهم احتياطاً، مما أضرّ بهم، فوضح القرآن أن العمل على اصلاح أمورهم خير من ذلك التحرج، وان لا مانع من مخالطتهم ورعايتهم على أساس الاخوة الاسلاميّة، وذلك أنّ الله أعلم بالنوايا الحسنة منها والسيّئة. وهذا حكم يسهّل على المسلمين امورهم، ولو شاء الله لأعنتهم (كلفهم وألزمهم) المشقة بلزوم رعاية اليتامى مع الاحتياط الكامل، ولكنّ الدين دين يسر وسماحة.

٢٢١: الاسرة هي الوحدة الأساس لبناء المجتمع العام عند الإسلام، وجوُّها الرحمة والتآلف والترابط وهو لا ينسجم مع الاختلاف العقائدي الاساس، ومن هنا حرم الزواج بين المسلمين والمشركين، ورغّب الرجال في الزواج بالمسلمة ولو كانت مملوكة فهي أفضل من المشركة ـ أياً كانت ـ ولو أعجبتهم بثروتها وجمالها، وكذا نهى عن تزويج المشركين ـ وان كانوا أحراراً ـ وأمر بترجيح المسلمين عليهم وان كانوا مملوكين، ذلك ان الوحدة لا يمكن افتراضها بين اتجاه موحّد يدعوه الله إلى الجنة والمغفرة، وآخر مشرك أهوج يدعو إلى النار. وهكذا يوضح الله آياته لتتضح المسيرة الصالحة.

٢٢٢: المحيض هو العادة الشهرية عند النساء، وهي حالة غير عادية وتشكل أذى للنساء، وقد نهي المسلمون عن مقاربتهنّ جماعاً أثناءها، فوازن الإسلام بذلك بين افراط بعض اليهود والمشركين في التجنب التام لها، وتفريط النصارى بعدم التجنب مطلقاً، ويرتفع المانع من الجماع بطهارتهن حيث يجوز إتيانهن ضمن الحدود التي قررها الله. اما من تجاوز هذه الأحكام فان أبواب التوبة مفتوحة له ليتطهر وليتكامل، وليكون مشمولاً برحمة الله المعبرة عن حبه.

٢٢٣: إنّ الإسلام واقعي يعترف بالغرائز ولكنه يهذّبها ويصرّفها التصريف الصحيح، والآية تفسح المجال للأزواج للتمتّع كيف شاءوا بالنساء وشبه المرأة بالحرث باعتبار أنها تثمر بقاء النوع الانساني، ثمّ طلب أن تؤطّر العمليّة بإطار الله حيث تجعل تقدمة للنفس ومواصلة للأجيال التي تتابع سيرها التكاملي في ظل تقوى الله ولقائه، وليبشر المؤمنين الذين وعوا أحكام الله وطبّقوها التطبيق الكامل الموصل للخير والسعادة.

٢٢٤: النهي إمّا عن جعل الحلف بالله تعالى على ترك البرّ والتقوى والاصلاح مانعاً من القيام بهذه الأمور، ولذلك ينبغي التكفير ثمّ القيام بها، وإمّا أن النهي هو عن جعل لفظ الجلالة (الله) في معرض الحلف كثيراً ولو لغرض البر والتقوى والإصلاح، لأنه يُفقد الثقة بالحالف فلا يحقّق الهدف بالاضافة إلى كونه مخالفاً لاحترام هذا الإسم العظيم.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٢٢٥: إذا كان الحلف بالله لغواً غير مقصود للحالف لسبق لسان أو عادة سيئة، فإنه لا ينعقد، ولا يؤاخذ الله الغفور الحليم به، أما اليمين المؤثّر فهو ما كان حلفاً بالله تعالى لا غير مع القصد القلبي.

٢٢٦-٢٢٧: الايلاء هو: الحلف على عدم مقاربة الزوجة غضباً واضراراً لها، فإنّ للزوج تربُّص الحاكم به وانتظار أربعة أشهر، فامّا أن يفيء (يرجع) الزوج إلى حقّ الزوجية ويكفّر عن يمينه ليغفر الله له، وامّا أن يصمّم على الطلاق، وإلاّ فإن الحاكم الشرعيّ يرى رأيه في الموضوع.

٢٢٨: اعتبر الطلاق في الإسلام من أبغض الحلال لأنه يهدم الكيان العائليّ، وان كان ضروريّاً أحياناً، ومن هنا جاءت الأحكام تنظّمه وتمنع من تأثيراته السلبيّة قدر الإمكان، ومنها حكم (العدّة) حيث تنتظر المطلّقة ثلاثة قروء (القرء فترة الطهر بين حيضتين ظاهراً) وربّما كان الغرض من ذلك امتحان بقاء الحالة التي استوجبت الطلاق، فلعلّها عارضة تزول في أثناء العدّة ويرجع العش الزوجي إلى الانسجام. كما أنّ من فوائدها حفظ الأنساب وعدم اختلاطها، لأنّ الحمل لو كان لظهر أثره خلال العدّة، وهنا لا يحلّ للمطلّقة المؤمنة بالله والآخرة أن تكتم ما أوجده الله في رحمها، وللزوج إرجاع زوجته في العدّة إن كان يريد الإصلاح لا الايذاء والاضرار.

يضع التشريع الإسلامي الحقوق بإزاء الواجبات ليحقّق التوازن. يقول الامام علي(ع): (الحقّ أوسعُ الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلاّ جرى عليه، ولا يجري عليه إلاّ جرى له)[1].

والقرآن هنا يصرّح بأن للمرأة من الحقوق ما يقابل واجباتها طبق المعروف، وبذلك يرفع قدرها ويمنحها مكانتها الإنسانية، ولكن التشريع الحكيم لاحظ الاختلاف الطبيعي والوظيفي بين الجنسين فمنح الرجل حقّ قيادة العائلة لأنّه أضمن استقامة وتعقلاً.

٢٢٩: كان الرجل في الجاهليّة يستغل مسألة الرجوع في العدّة ليكرّرها ماشاء، اضراراً بالمرأة وانتقاماً منها، ولكنّ الإسلام رفع هذا الحيف والظلم بأن جعل الطلاق القابل للرجوع مرّتين، وبعدها فاما أن يرجعها بقصد الالتئام والاصلاح، وإما أن يسرحها ويخلي سبيلها بأن يطلّقها ثالثة بإحسان وبدون تعنيف وظلم، ولا يجوز أن يستولي على شيء مما جعله لها من مهر أو غيره.

إن كانت المرأة طالبة للطلاق خوفاً من عدم قيامها بالواجبات العائليّة، فلها أن تبذل للزوج مالاً ليطلّقها، وله أن يأخذه في قبال الطلاق، وهذا هو طلاق الخلع.

والآية تدلّ على أنّ هذا الحكم (وهو عدم امكان الرجوع) لا يتم إلاّ بتكرار الطلاق والرجوع، فلا يقع بلفظ الثلاث في مجلس واحد، ولا مجال للاجتهاد في قبال النص، وكلّ هذه أحكام إلهيّة لا تقبل تغييراً وتحويلاً ولا يتعداها إلاّ الظالمون.

٢٣٠: فإن طلّق الزوج زوجته طلقة ثالثة لم يمكنه الرجوع لها في العدّة أو العقد عليها بعدها. نعم إذا تزوّجت زواجاً دائميّاً، حقيقيّاً لا صوريّاً من شخص آخر، وجامعها، ثم طلّقها برضاه، جاز للزوج الأول أن يعقد عليها برضاها إذا رأيا أنهما سينشئان حياة عائليّة صالحة ملتزمة بحدود الله. ولعلّ من حِكَم هذا التشريع ردع الزوج عن الطلاق الثالث.

---

١ – نهج البلاغة، خ ٢١٦، ص ٣٣٢، د. الصالح.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٢٣١: إذا طلّقت المرأة وقاربت انتهاء عدّتها، فالزوج مخيّر بين أن يرجعها لإقامة الحياة الزوجية الصالحة أو يتركها بالمعروف أيضاً لتنقضي عدّتها فتنفصل عنه.

وبهذا حارب القرآن أولئك الذين يُرجعون زوجاتهم في العدّة للاضرار بهنّ وايذائهنّ، واعتبر ذلك ظلماً لأنفسهم، وربّما كان ذلك لأنّ وجدانهم سوف يعذّبهم، أو لأنّ البشريّة جسم واحد، أو لأنّ عملهم سوف يؤدّي إلى تنفير الناس منهم في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة.

إنّ التشريع الاسلاميّ قائم على أساس من علم إلهيّ تام وحكمة نافذة، فهو النظام الأصلح للبشريّة، يهديها سواء السبيل، وعليها أن تعمل على تطبيقه الكامل، شاكرة خالقها المشرّع، متّقية إيّاه تعالى، لا أن تكفر وتستهزئ به كما يفعل هؤلاء المستغلون لحكم الرجوع في العدّة لإيذاء النساء وإهانتهنّ والقضاء على كرامتهنّ الانسانيّة.

٢٣٢: للمرأة المطلّقة بعد انتهاء عدّتها أن تتزوّج من جديد بزوجها السابق، أو من تشاء إن رضي كلّ منهما بالآخر في إطار أوامر الله، وليس لأحد ـ حينئذ ـ أن يعضلها (يمنعها) تحكّماً، سواء كان زوجها السابق أو وليها. وفي هذا الحكم إعطاء للمرأة حقّها الانساني في اختيار شريك حياتها بحريّة.

لابدّ من أن يستند التشريع الواقعي إلى أرضيّة عقائديّة تنبع منها مفاهيم أساس وعواطف واعية تمكّن التشريع من أن يجد طريقه للتطبيق الكامل، والتغلّب على كل العقبات الداخلية والخارجيةأمام المؤمن المعتقد بأنّ الله هو العالم بالمصالح كلّها دون غيره وهو الرؤوف بعباده، فلا يشرع لهم إلاّ ما يزكّيهم ويطهّرهم ويقودهم إلى السعادة الحقيقيّة.

٢٣٣: ذكرت هنا بعض أحكام الرضاع ومنها أنّ إرضاع الطفل حقّ للام لا تُمنع منه ـ وإن كانت مطلّقة ـ ومدّته سنتان كاملتان إن أرادت كمال الرضاعة، وعلى الأب أن ينفق على الأم المرضعة بالمقدار المتعارف الّذي يتيسّر له، وليس له أن يضرّ بالوالدة فيمنعها من رضاع ابنها وحضانته ورؤيته ويضيّق عليها في النفقة وما يشبه ذلك، كما أنه ليس للوالدة الاضرار بالوالد بالتشدّد في مقدار النفقة أو منعه من رؤيته وأمثال ذلك، وعلى ورثة الوالد ـ لو توفّي ـ تأمين نفقة الرضاعة للولد.

هذا ويمكن للوالدين أن يتفقا ـ عن رضا و تشاور ـ على تقليل مدة الرضاعة، أو فصل الولد عن الام باعطائه إلى مرضعة أخرى، وكذا الحال لو ردّت الأمُّ الولد إلى والده، أو عجزت عن إرضاعه فله أن يسترضع المرضعة الأخرى ويعطيها أجرة الرضاع المتعارفة كما يمنح الأمُّ ما تستحقُّه لقاء رضاعها السابق ـ إن وجد ـ وهذه أحكام تتحدَّث عن علاقات بين الأبوين تتخللها حالات نفسيَّة مختلفة، ممّا يتطلَّب تقوى ومراقبة إلهيّة تدفع الوالدين للاهتمام الشديد بالطفل عبر التشاور والتراضي لتحقيق الجو الصالح لنموّه وتربيته.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

٢٣٤: الحديث هنا عن عدّة المتوفّى عنها زوجها وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقد ذكرت الروايات أن عليها أن تلتزم حالة الحداد فلا تتزيّن احتراماً للمشاعر الزوجيّة. وتبدأ العدة من حين العلم بالوفاة، وبانتهائها يكون للمرأة حرّيتها في اختيار من تتزوّجه وفق أوامر الشريعة. وبهذا قضى الإسلام على مجموعة من الخرافات التي كانت تكبّل المرأة قبل ظهوره.

٢٣٥: إذا كانت المرأة في عدّة الوفاة، ورغب شخص في الزواج منها بعد ذلك، فلا إثم في هذه الرغبة النفسيّة التي يعلمها الله، وإبقائها مكنونة في النفس، ولا مانع من التصميم على الزواج منها وإخبارها بهذا التصميم كناية وتعريضاً بلا تصريح ولا مواعدة سريّة، ولعلّه لاحتمال أداء المواعدة إلى الحرام. ولا يجوز له أن يعقد عليها حتى تنتهي أيام العدّة المكتوبة عليها.

ولمّا كانت هذه الأحكام تتدخّل فيها نوازع نفسيّة فقد حذّرت الآية من مخالفة هذه التشريعات الإلهيّة، لأنّ الله يعلم ما في الأنفس.

٢٣٦: لا مانع من تطليق الزوجة قبل الدخول بها وكذلك فيما إذا لم يعين في عقد الزواج مهر فإذا لم يعين في العقد، وأراد الزوج أن يطلّق زوجته قبل الدخول بها، فإن عليه أن يهدي لها شيئاً من المال أو غيره تتمتّع به، والعرف هو الذي يحدّد ما يناسبه من العطاء موسعاً (غنياً) كان أم مقتراً (فقيراً)، وهذا الإهداء حق فرضه الله على المحسنين.

٢٣٧: أما لو عيّن المهر في العقد وطلّقها قبل الدخول بها فلها نصف المهر، إلا أن تعفو الزوجة البالغة الرشيدة أو وليها ـ ان لم تكن كذلك ـ أو أن يعفو الزوج عن نصف المهر الآخر فيدفعه كله لها. ذلك ان العفو من كليهما أقرب للتقوى وربّما كان بلسماً للعواطف المجروحة عند الطلاق، إذ لا ينبغي أن يؤدّي الطلاق إلى نسيان الفضل بين المؤمنين والنفور وتقطّع العلائق الاجتماعيّة والعاطفيّة.

حافِظوا عَلَى الصَّلَوٰتِ وَالصَّلَوٰةِ الوُسطىٰ وَقوموا لِلَّهِ قٰنِتينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِن خِفتُم فَرِجالًا أَو رُكبانًا فَإِذا أَمِنتُم فَاذكُروا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُم ما لَم تَكونوا تَعلَمونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذينَ يُتَوَفَّونَ مِنكُم وَيَذَرونَ أَزوٰجًا وَصِيَّةً لِأَزوٰجِهِم مَتٰعًا إِلَى الحَولِ غَيرَ إِخراجٍ فَإِن خَرَجنَ فَلا جُناحَ عَلَيكُم في ما فَعَلنَ في أَنفُسِهِنَّ مِن مَعروفٍ وَاللَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلمُطَلَّقٰتِ مَتٰعٌ بِالمَعروفِ حَقًّا عَلَى المُتَّقينَ ﴿٢٤١﴾ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم ءايٰتِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَم تَرَ إِلَى الَّذينَ خَرَجوا مِن دِيٰرِهِم وَهُم أُلوفٌ حَذَرَ المَوتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ موتوا ثُمَّ أَحيٰهُم إِنَّ اللَّهَ لَذو فَضلٍ عَلَى النّاسِ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَشكُرونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقٰتِلوا في سَبيلِ اللَّهِ وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذي يُقرِضُ اللَّهَ قَرضًا حَسَنًا فَيُضٰعِفَهُ لَهُ أَضعافًا كَثيرَةً وَاللَّهُ يَقبِضُ وَيَبصُۜطُ وَإِلَيهِ تُرجَعونَ ﴿٢٤٥﴾

٢٣٨: على الرغم من أن الآيات السابقة واللاحقة تتحدث عن الشؤون الزوجيّة فقد وقف القرآن عند الصلاة هنا ليذكّر المسلمين بالصلة الأساس بالله تعالى التي تضمّ كلّ علاقاتهم الاجتماعية في اطار عقائدي عام. وفي الأمر بالمحافظة دفع لتعاهد الصلاة دائماً والإتيان بها كاملة مؤدّية لغرضها المنشود وهو الارتباط القوي بالله والانتهاء عن الفحشاء والمنكر. أما الصلاة الوسطى التي أكّد عليها فقد جاء عن أهل البيت(ع) انها صلاة الظهر، ولعلّ توسّطها في قلب المشاغل اليوميّة هو الداعي للتأكيد عليها.

٢٣٩: ان الصلاة لا تترك بحال، اهتماماً بشأنها وتأثيرها العظيم في حياة المسلمين وسعادتهم عندما تؤدّي بوعي وخشوع، فحتى لو كانوا يعيشون حالة الخوف في حرب أو غيرها فانّ عليهم أداءها سواء كانوا مترجّلين (ماشين) أو راكبين، وان كان ذلك يفقدها بعض شروطها كاستقبال القبلة والطمأنينة وغيرها، فإذا عاد الأمن لزم أداؤها وفق شرائطها المقررة.

٢٤٠: تطلب الآية من الأزواج أن يوصوا بابقاء زوجاتهم بعد موتهم في بيوتهم حولاً (سنة) مع الانفاق عليهنّ وعدم اخراجهنّ، فإذا خرجت المرأة أثناء الحول أو بعده فلا إثم على الوصي فيما فعلته بنفسها من معروف.

والظاهر ان الآية منسوخة بآية عدّة الوفاة السابقة وبآية ميراث الزوجة. وقيل بعدم النسخ وانها تبيّن تعليماً عاماً يطلب للزوج أن يوصي بابقاء المرأة في داره والانفاق عليها إلى عام احساناً منه لها، فإذا اختارت الخروج فلا حرج على الوصي في قطع النفقة عنها.

٢٤١: حكم عام للمطلّقات يحبّذ إعطاءهنّ هديّة مالية أو غيرها ولعلّها لمراعاة الحالة الشعوريّة عند الطلاق. وتجب هذه الهديّة لمن طُلّقت قبل الدخول بها مع عدم تعيين المهر في العقد ـ كمامر ـ

٢٤٢: إنّ القرآن الكريم يدعو للتدبّر في الآيات التكوينيّة والأحكام التشريعيّة ليرتبط القلب بالله ويخشع في محراب عظمته ويسلم لأوامره الهادية.

٢٤٣: يرجع القرآن إلى إعداد المسلمين للقيام بمهامّهم القياديّة الكبرى بعرض نموذجين مربّيين: الأول: نموذج الألوف الذين خرجوا من ديارهم ـ بعد أن أصابهم البلاء ـ خوفاً من الموت، ولكن شاء الله أن يميتهم فلا ينفعهم الهرب. ثم شاء تعالى أن يتفضّل عليهم بالحياة ليشعروا أنّ الموت والحياة بيده وحده، وأنّ عليهم أن يشكروه ويسلموه قيادهم، وان كان أكثر الناس غافلين عن هذه الحقائق لانسياقهم وراء إغراءات الحياة الدنيا.

٢٤٤ وهنا يدفع القرآن المسلمين إلى الجهاد في سبيله، مذكّراً إياهم أنهم بعين الله، يسمع دعاءهم ونجواهم، ويعلم ما يقومون به، ممّا يمنحهم الصلابة والثبات على الحقّ.

٢٤٥: وعلى الرغم من ان التصور القرآني يجعل الإنسان مجرّد مستخلف على مال الله وان عليه أن يصرفه في شؤونه التي يريدها تعالى، إلا ان اللّطف الإلهيّ يتجلّى هنا بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله لصالح المجتمع الإنساني نفسه والتعبير عن هذا بأنّه إقراض لله تعالى وسوف يرجعه للمقرضين بأضعاف كثيرة. هذا والله هو قابض الرزق وباسطه، كل ذلك لأهمية الانفاق والترغيب في توجيه الملكيّة الخاصّة توجيهاً حسناً لصالح دعم حاجات المجتمع للتكافل والتوازن من جهة والدفاع عن وجوده وحمل رسالة الله إلى الآخرين من جهة أخرى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)

٢٤٦: وهذا هو النموذج الثاني لتربية الأُمة، فقد ابتلي بنواسرائيل بالضياع والتشتت فحركهم بصيص العقيدة للجهاد والخلاص فلجأوا إلى نبيّ لهم يطلبون منه تعيين ملك عليهم يجاهدون تحت قيادته، فامتحن النبي صدقهم متسائلا عن امكانيّة نكولهم عن الجهاد عندما يفرض عليهم، مما حرّك حماسهم ودفعهم للتأكيد على اصرارهم عليه بعد كلّ ذلك الهوان الذي أصابهم من الأعداء بابعادهم عن ديارهم وابنائهم، ولكنّ التجربة العمليّة كشفت فشلهم وظلمهم لأنفسهم عندما فُرض القتال فلم يثبت منهم إلاّ القليل.

٢٤٧: وعندما أخبرهم نبيهم بأن الله قد اختار لهم طالوت ملكاً وقائداً لخلاصهم، تجلّى عناد اليهود وروحهم المادّية المتعالية، فاعترضوا بأن طالوت ليس من سلالة ملوك اسرائيل ولا يمتلك ثروتهم، فردّ عليهم نبيهم بانه يكفي أن يكون الله قد اختاره وليست مقاييس الله كمقاييسهم الوضعية. فطالوت كفء مزوّد بقدرة جسميّة وعقليّة تؤهلانه للملك، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

٢٤٨: بعد الاعتراض السابق والردّ عليه ببيان كفاءته، تطلّب الموقف معجزة تطمئنهم على ان تنصيب طالوت ملكاً عليهم إنما هو من الله،وكانت المعجزة مجيء الملائكة حاملة التابوت وهو صندوق يحوي مقدّسات بني اسرائيل وآثار أنبيائهم، وبه تنبعث السكينة والطمأنينة من الله في قلوبهم لينطلقوا للقتال في سبيله بعد إيمانهم بواقعيّة الأمر الإلهي وبكفاءة القائد.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٢٤٩: اراد الله ان يمتحن طاعة جنود طالوت له واخلاصهم لقضيتهم ويعوّدهم على احتمال المكاره وتحمُّل أعباء الرسالة، فاخبرهم طالوت أنهم سيلاقون نهراً وعليهم الاّ يشربوا منه - رغم تعبهم وعطشهم - فمن شرب منه حتى ارتوى فليس مؤهلا للسير مع جنود الله في مهمَّتهم الكبرى، إلاّ من اغترف غرفة واحدة بيده، وكان الامتحان عسيراً حيث شربوا منه سوى فئة قليلة أطاعت الأمر فلم تشرب، أو شربت قليلاً، ففازت بكرامة الاستمرار في السير مع طالوت الذي انطلق بها لمقابلة جيش العدو الضخم، وهنا كان امتحان آخر حيث سيطر الرعب على مجموعة من جيشه - قيل هم الذين اغترفوا من الماء قليلاً - فيئسوا من النصر وقالوا لا طاقة لنا بجيش جالوت (قائد العدو) في حين تجلّت في نفوس القلّة المؤمنة معاني الإيمان بالله، والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة، والشوق للقاء الله ورحمته، فقالوا بعزم وثبات: كم من فئة قليلة تسلّحت بالعقيدة والصبر فنصرها الله على فئة كثيرة العدد خاوية من الإيمان والهدف المقدَّس.

فالعقيدة هي النبع الدفّاق يملأ وجود المقاتل إقداماً وثباتاً، ويمدُّه دائماً بالعزيمة، ويركّز أقدامه على الطريق مهما كان شاقاً وهو يعلم أنه سيلاقي احدى الحسنيين: النصر أو الشهادة والجنّة.

٢٥٠: إنّه دعاء المؤمن الملتجئ لله، يستمدُّ منه الصبر الغامر لوجوده، وثبات القدم على الطريق والنصر على العدوّ، بعد أن يقدّم كلَّ ما لديه من امكانات. يقول أمير المؤمنين علي(ع) لولده محمَّد يوم الجمل: (تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تِد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم ان النصر من عند الله)[1].

٢٥١: وكان الانتصار نتيجة طبيعية للجهاد العقائدي مهما كانت قوى العدو الكافر، وهنا يظهر دور (داود)- الفتى المغمور الذي انطلق بكل ايمان إلى قائد الكفر (جالوت) فقتله، ثم حباه الله بموهبة الملك والحكمة وهي النبوَّة، وعلّمه مما يشاء من العلوم ومنها صناعة (الدروع).

إنَّ الصراع بين الحقّ والباطل ضروريّ لنموّ الطاقات المؤمنة، ومحو الظواهر الفاسدة من المجتمعات البشريَّة، وبدون المقاومة العقائديَّة ستكون النتيجة سيطرة الشرّ والباطل وخمود الحقّ وضياع الهدى. ففتح باب الجهاد والقتال فضل إلهي على الانسانيَّة جمعاء.

٢٥٢: قصص القرآن تكشف عن قدرته تعالى ونزاهة أنبيائه وعثرات الأمم السالفة، وهي بنفسها شاهد بالحقّ على كون القرآن من الله أنزله على رسوله الكريم.

---

١ - نهج البلاغة، خ ١١، ص ٥٥، د. الصالح.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٢٥٣: الرسل هم حاملو هدى السماء وتختلف درجاتهم في الفضل باختلاف خصائصهم النفسيّة ومهامّهم القيادية. وأفضلهم رسول الإسلام(ص) الذي جاء بالرسالة الخاتمة. وقد كلّم الله موسى إكراماً له كما آتى عيسى بن مريم البينات والمعاجز وأيّده بروح القدس (جبرئيل حامل الوحي) وبهذا أوضح القرآن وحدتهم، ونفي التصوّرات الباطلة حولهم وخصوصاً عيسى(ع) حيث نسبه إلى مريم وابطل الدعاوى الفارغة بألوهيته... هذا ولكن المصالح الضيقة والبغي جرّت أتباع الأنبياء للخصام فاقتتلوا ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكنّه شاء للإنسانية أن تختار مصيرها، وعيّن لها سبل الخير وسبل الشرّ لتتحمّل المسؤوليّة.

٢٥٤: خوطِبَ المؤمنون ودُعوا نحو الإنفاق من أموال الله التي رزقهم إيّاها، وذُكّروا بأنّ ذلك ينفعهم في يوم القيامة حيث لا خلّة (صداقة) ولا بيع ولا شفاعة لمن لم يأذن الله في الاستشفاع لهم من البخلاء الكافرين بأوامر الله الظالمين لأنفسهم.

٢٥٥: إنّ (آية الكرسي) هذه مما أكّدت الروايات كثيراً فضلها وسموّ معانيها، إذ تحوي أُسس التصوّر الإسلامي وتنفي الترهّات حول الحقيقة الإلهيّة، فالله هو الذات الواحدة المستجمعة لصفات الكمال والجلال، المعبودة دون غيرها، وهذا ما تؤكّده عبارة (لا إله إلا هو) وهو (الحيّ) الّذي له الحياة الحقيقيّة بلا شوب موت أو احتمال فناء.

والحياة الإلهيّة هي عين القدرة والعلم اللا محدودين. وهو (القيّوم) الذي يقوم ويشرف ويمدّ كلّ شيء، ويتعلّق به كلّ شيء، فهو الغنيّ وما عداه فقير إليه. وهو منزّه عن الغفلة عن الكون، فلا تستولي عليه سنة (نعاس) أو نوم. وله الملكيّة الحقيقيّة المطلقة، وقد استخلف الإنسان على بعض الأشياء والأموال، ليعمل فيها بما يشاء ويأمر به.

وسيجازي الخلقَ على ما عملوه يوم القيامة، والأمر كلّه له ولا أحد يشفع لأحد إلاّ بإذنه تعالى، إذ الشفاعة طلب واستدعاء من الشفيع، ولا يتمّ الطلب ولا يؤثّر إلاّ إذا أذن الله تعالى.

فالعلم الإلهي المطلق لا يختلف لديه الماضي والحاضر والمستقبل، اما علوم الإنسان فهي محدودة وبتعليم ومشيئة منه تعالى. وقيل إن المراد هو ان الله يعلم كلّ الظروف التي تخفى على الشفعاء إلاّ ما علّمهم هو تعالى منها.

لقد وسع علم الله وملكه وسلطانه السماوات والأرض وليس يؤوده (أي يشقّ عليه) أن يحفظهما بقدرته، وهو العلي على كلّ قدرة والعظيم ذو الجبروت والسلطان المطلق.

٢٥٦: لا يمكن تحميل العقيدة بالضغط والإجبار، لأنها اطمئنان نفسي له سبله الخاصّة. وقد أعلن الإسلام بواقعيّته حريّة العقيدة في اطار ضمان أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد ـ كما عبّر أحد المفسّرين ـ فبدون التوحيد لا قيمة للإنسان.

وإذا فرض الإسلام الجهاد فإنما هو لصالح البشريّة في رفع الظلم عنها وتنظيم شؤونها وفق تعاليم خالقها.

بيّن الله للانسان سبيل الرشد والحقّ وسبيل الغيّ والضلال، ومنحه فكراً مميّزاً وارادة فاعلة، فإن كفر بسبيل الطاغوت (الشيطان والأهواء المنحطّة وكلّ معبود سوى الله) وآمن بالله وحده فقد فاز بالسعادة الحقّة واشتدّ بقوة إلى ركن وثيق لا تنفصم عروته، وسار بثبات على شريعة الله السميع العليم.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

٢٥٧: إنهما مسيرتان: مؤمنة يقودها الله برعايته وحنانه وينقذها من وهدة الجهالة والنظم الفاسدة إلى نور الهداية والاسلام، وكافرة: يسوقها أولياؤها المتعدّدون من الطواغيت فيخرجونها من نور الهدى الفطري إلى ظلمات الجهل والشقاء، وأخيراً إلى عذاب الخلود في نار جهنّم.

٢٥٨: مشهد من مشاهد الجهاد من أجل التوحيد بالحجّة الواضحة والبرهان القاطع ضدّ الطواغيت والمستغلين، فهذا بطل التوحيد ابراهيم(ع) يقف في وجه طاغوت عصره (نمرود) الذي كفر بنعمة الملك الذي آتاه الله إياه فاستغلّه بادّعاء الالوهيّة فواجهه ابراهيم(ع) بظاهرة الحياة والموت كدليل على وجود الله ووحدانيّته وقدرته، ولكنّ الطاغية يغالط ويوهم السذّج الرعاع بأنه هو أيضا يحيي ويميت بأن يحكم بالموت على شخص مثلاً، أو يعفو عنه، ويترك القرآن للقارئ الرّد على هذا المنطق الملتوي. إلاّ انّ ابراهيم يوضح لهذا الجبار أن ربّه الذي يحيي ويميت هو الّذي نظّم هذا الكون أروع تنظيم ومنه طلوع الشمس من المشرق فهل لنمرود أن يغيّر هذا النظام فيأتي بها من المغرب؟ وما كان جواب نمرود إلاّ الحيرة القاتلة إذ بهت حين تخلّت عنه هداية الله التي لا يؤهّل لها الظالمون.

والقرآن بهذا العرض يربّي المسلم على الحجاج المنطقي القاطع البعيد عن المراء والجدل العقيم.

٢٥٩: قصة أخرى محورها الإحياء والإماتة تظهر رأفة الله وحرصه على هداية الإنسان، فها هو الرجل الصالح يمرّ على قرية خاوية متهدمة سقطت سقوفها وتبعتها الحيطان، وباد أهلها فيقف معتبراً متسائلاً: أنّى (كيف) يحيي هذه الله بعد موتها؟ فيأتي الجواب عملياً بأن يميته الله مئة عام ثم يبعثه حياً فيسأله: كم لبثت (بقيت)؟ فيجيب: إنّه قد لبث يوماً أو جزءاً من يوم، إلاّ انّ الله يخبره بأنّه قد لبث مئة عام، ثم يأمره بأن ينظر إلى طعامه وشرابه الذي لم يتغيّر خلال هذه المدّة، ولينظر إلى حماره الذي توزّعت عظامه وتلاشت كيف تركّبها القدرة الإلهيّة وتكسوها لحماً، وأمام هذه الآيات الباهرة التي جعلها الله عبرة للأمم يخضع العبد الصالح معترفاً بقدرة الله على كلّ شيء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

٢٦٠: هذا موقف آخر يركّز على ظاهرة الموت والحياة إذ يسأل فيه ابراهيم ربّه تعالى عن كيفية الإحياء فيسأله الله: أولم تؤمن؟ ليجيب بأنه يطلب ذلك لتحقيق الاطمئنان القلبي وإلاّ فهو مؤمن به، وواضح ان الإنسان يتأثر بمحسوساته أكثر من تأثره بمعقولاته.. وقد عمل الإسلام كثيراً على تقريب المفاهيم المعقولة إلى حيث يحسّ الإنسان بفعولها إحساساً مباشراً.

وهنا يُطلب الى ابراهيم أن يأخذ طيوراً أربعة ويقطّعها ويخلط أعضاءها ثم يوزّعها على جبال يضع على كل منها جزءاً ثم يناديهن ليأتين إليه ساعيات أحياء بقدرة الله وهكذا هو الحال في الاحياء فإذا شاء الله جمع الموجودات ـ بقدرته ورحمته ـ يوم القيامة.

٢٦١: الانفاق يرتفع بالمحرومين ليصلوا إلى حدّ (الغنى) كما قرّره الإسلام وهو حدّ مرن متغيّر بتغير الظروف ومقياسه القدرة على ممارسة حياة كريمة متعارفة. وفي قبال هذا يقرّب الإسلام الأغنياء في معيشتهم إلى هذا المستوى بتحريم الإسراف وتفتيت ثروتهم بالانفاق الواجب والمستحبّ وغير ذلك، وبهذا يحقّق المجتمع المتوازن المتعاطف. وفي الآية ترغيب في الانفاق وتوحيد لمصلحتي الفرد والمجتمع، فلا يخسر المنفق لصالح المجتمع شيئاً، بل سيضاعف له الجزاء سبعمئة مرّة وفوق ذلك فضل عظيم.

٢٦٢: وسبيل الله يجد مصداقاً له في خدمة مصالح المجتمع الذي يطبّق رسالة الله، فينبغي الانفاق فيه برغبة واحساس بالمسؤوليّة، ودون أن تتبع ذلك منة باظهار التفضّل على المعطى أو أذى واهانة، فإذا كان الإنفاق كذلك فإنه ينتهي إلى أجر إلهيّ عظيم، وحياة مطمئنّة بعيدة عن الخوف والحزن.

٢٦٣: إنّ الانفاق يتبع التمكّن، ويتمّ في اطار أخلاقي،فإذا لم يستطع المسلم ذلك ردّ طلب الطالب برفق وقول معروف، كالدعاء له بغفران الذنب وسد الحاجة وأمثال ذلك، فإنّ ذلك خير من أن يعطي صدقةً ويتبعها بأذى.

٢٦٤: تأكيد آخر للانفاق برغبة وأخلاقيّة سامية، وعدم المنّ بعد التصدّق، لأنه يبطلها ويُفقدها مفعولها النفسيّ، وهنا يمثّل القرآن لحالة الصدقة المرفوضة لاتباعها بالمنّ بالشخص الذي قسا قلبه وفقد قصد تحقيق رضا الله، فراح ينفق لا عن عقيدة وعاطفة انسانيّة بل عن رياء ومصالح ضيّقة، فهو إذن كحجر صلد أملس (صفوان) كان عليه شيء من التراب الذي أصابه وابل غزير فمحا أثره، وانكشفت قسوة الحجر وأنه لا ينبت زرعاً ولا يثمر معروفاً، ولا يمكنه أن يستثمر عطاء الله في مجاله الصحيح، وكذا الغني المرائي في انفاقه لا يمتلك قابلية تقبل الهدى الإلهي والاستفادة من عطاء الله لاسعاد نفسه والمجتمع، وأنّى يهدي الله من كفر فأفقد نفسه قابليّة الهدى والتكامل.

يقول أمير المؤمنين في نهج البلاغة: (إضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلاّ فقيراً يُكابد فقراً؟ أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً؟ أو بخيلاً إتخذ البخل بحقّ الله وفراً؟ أو متمرداً كأنّ بأذنه عن سمع المواعظ وقراً؟)[1].

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩، ص ١٨٧، صبحي الصالح.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

٢٦٥: وأما مثل المنفقين في سبيل رضا الله وتثبيت النفس على صراط الخير والسعادة فهو كمثل جنّة (بستان) على ربوة (تل) يحسن منظرها، ويطيب هواؤها، وكثر عطاؤها، فإن أصابها وابل (المطر الغزير) أعطت أُكلها (ثمارها) كثيراً مضاعفاً، وان أصابها الطلُّ (المطرُ الخفيف) فهي مورقة تنبت بمقدار ذلك ليستفيد منها الناس، وهكذا النفوس الخيرة تنفق بمقدار مالديها من سعة ولا تخسر شيئاً من ثواب الله، لأن الله بصير بحالها ونيتها.

٢٦٦: مثال رائع لإبطال الصداقات بالمنّ والأذى، إنها كالجنّة (البستان) التي يبذل الإنسان جهوده لتعميرها، وتكثير أشجارها وجريان أنهارها، ليحصل على نتائجها وثمارها المتنوعة، ويحقّق بها آماله عند كبره، ولتكون سنده المادّي في حالة ضعفه وكثرة عيلته، ولكنه يجدها تحترق بعد أن أصابها إعصار (ريح شديدة) فيه نار شديدة حارقة، قضت عليها وعلى آماله العريضة، في وقت لا يمكنه أن يجدّد مسعاه في إحياء جنته وتعميرها، وكذا الصدقة التي تُدَّخر ليوم العوز والحاجة في الآخرة حيث لا ينفع مال ولا بنون، ولكن المنّة والأذى يمحقان أثرها ويبطلان أجرها وثوابها، ولربّما أشارت الآية إلى ان عمل الآباء ينعكس خيراً أو شراً على أبنائهم وحياتهم في المستقبل.

وهكذا فالأمثال القرآنيّة آيات مبيّنة لتفكير الإنسان وتدبُّره في طبيعة مسيرته وأعماله ونيّاته وتعامله مع الآخرين.

٢٦٧: يطلب القرآن من المؤمنين ان ينفقوا من طيبات مارزقهم الله من تجارة (كسبوها) أو زراعة ومعادن (أخرجها الله لهم من الأرض) ولا يتوجّهوا ويعمدوا (بتيمّموا) نحو الخبيث الرديء والمشتبه من أموالهم فينفقوه ويقدّموه في سبيل الله، رغم أنّه لو أُهدي اليهم ما قبلوه ولا رضوابه إلاّ مع الاغماض فيه والكراهة والحياء، فكيف اذن يقدّمون لله مالا يقبلونه لأنفسهم؟ هذا وانَّ الله عندما طلب الانفاق فقد أراد به خير المجتمع وصالحه وإلاّ فهو غني عن الانفاق والطاعة، وحميد يجازي المنفق للطيّبات بأفضل الجزاء.

٢٦٨: نفي لجذور البخل والطمع وعدم الانفاق الذي يأمر الشيطان به وبالفحشاء (الخروج من الحدود الالهية التي فيها صلاح الإنسان وسعادته)، وهل يقف الوهم الموعود به من قبل الشيطان في قبال وعد الله الصادق والقادر الحكيم بالمغفرة لعباده المنفقين في سبيله ثم بالفضل العميم في الدنيا بالرقي والسعادة، والتوسعة في الآخرة بالجزاء الأوفى؟!

٢٦٩: الحكمة هداية إلهيّة لمن يستعدُّ لها تمكّنه من تمييز سبل الخير والقصد في المعيشة ونفي وساوس الشيطان وتقبُّل إيحاءات الرحمن، ولا ريب في أن من أُوتي الحكمة فقد أُوتي الخير الكثير، وقرب من واقعه الإنساني وانضم إلى أُولي العقول الذين يذكّرهم كلُّ شيء بواقعهم وواجبهم.

وهذه الملكة تحتاج إلى عطاء إلهي متواصل وارشاد يسير به الإنسان بوعي كامل.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

٢٧٠: انّ الله عليم بما ينفقه المؤمن، من زكاة أو صدقة مستحبّة أو ما تعلّق به نذر، فانه لا يضيع في حساب الله شيء. أمّا أولئك الّذين كفروا بأنعم الله، وخالفوا أوامره فيما خوّلهم من مال، وظلموا اخوانهم بعدم اعطائهم حقوقهم فليس ينجيهم من عذاب الله أحد.

٢٧١: إنّ الصدقة رغم كونها وظيفة دينيّة وأخلاقيّة على المعطي، تستتبع إحساساً بالضعف لدى الآخرين، ومن هنا كانت صدقة السرّ أجل وقعاً وأحسن ثواباً، وأدعى إلى غفران السيئات، وأبعد عن الرياء والأذى، وأحفظ لكرامة الفقراء، وان كانت صدقة العلن نعم العمل وأمراً حسناً في نفسه، يؤجر عليه الإنسان، وربما كانت أفضل من صدقة السر أحياناً، كما لو أريد ترغيب الآخرين ونشر روح التبرع وإعظام شعائر الزكاة الدينية.

٢٧٢: لعلّ المراد هنا هو فسح المجال للانفاق المستحبّ على غير المسلمين استجابة للعواطف الانسانيّة، على أن لا يؤدّي إلى تقوية جبهة العدو، وإلّا حرم، فيأتي الخطاب له(ص) بأن الله هو الّذي يهدي من يشاء فلا يمنعك كفرهم من الانفاق عليهم. وربّما كانت الآية تقصد التخفيف من حزنه(ص) بعد مشاهدة شيء من التقاعس والرياء والمن في المجتمع المسلم. وبعد هذا أعلنت الآية ان الانفاق سيعود بالخير على المنفق بسعادة مجتمعه وهو عضو فيه، والفوز في الآخرة بالجنة التي فيها ما تشتهي الأنفس، كلّ ذلك إذا كان الهدف خالصاً لوجه الله وحده.

٢٧٣: دعا القرآن لانفاق الخير على الّذين افتقروا نتيجة وقفهم قواهم على الاعداد للجهاد، أو التفقّه في الدين والقرآن أو العمل على تحقيق مصالح اجتماعيّة ضروريّة أخرى. فهؤلاء أولى بالانفاق من غيرهم خصوصاً وأنهم متعفّفون عن السؤال والاصرار عليه حتى يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من شدّة التعفّف، وان كانت ملامح الفقر والتعفّف تلوح على وجوههم.

٢٧٤: نزلت هذه الآية ـ كما في مختلف الروايات ـ في الامام علي(ع) حيث أنفق ماله ليلا ونهاراً، سرّاً وعلانية، بكلّ إخلاص وحسن نية، مما جعل منه نموذجاً عالياً للمسلمين في الانفاق في كلّ وقت وبأيّ حالة، وتقديم اللّيل على النهار والسرّ على العلن يُشعر بأفضليّة صدقة اللّيل والسر.

انّ هذه الروح العالية تستوجب أجراً إلهيّاً كريماً وحياة مطمئنّة هانئة بعيدة عن الخوف والحزن.

> الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

٢٧٥: في قبال الانسانيّة المنفقين لوجه الله تواجه هنا الحيوانيّة الماديّة المجسّدة في المرابين الّذين يأكلون الربا بنهم، ويفقدون بذلك قدرتهم على إقامة حياة متوازنة، بل يتخبّطون فيها كما يتخبّط المصروعون الذين مسّهم الشيطان بجنون، فهم يتساءلون عن الفرق بين البيع والربا، رغم أن البيع عملية انتاجية ومال في قبال عوض، والربا استغلال وشره وكسب بلا عمل ولا عوض يرفضه الإسلام في نظريّته العامّة لتوزيع الانتاج البشري. إن المسلم إذا اتّعظ بمواعظ الله العالم بمصلحته، ورفع يده عن الربا بعد تشريع حرمته فانّ له تملك الربا السابق على التشريع، ذلك ان الشؤون والأموال كلّها بيده تعالى. أمّا من عاد مرة أخرى إلى الرّبا فهو مهدّد بالخلود في النار.

٢٧٦: إنّ الربا بآثاره السلبيّة في الأخلاق والاقتصاد يخلق النفور والتفكّك والجريمة وهذه أمور يعود ضررها على المرابي، الذي يكفر بأنعم الله، ويأثم بأذى عباده، في حين تنشر الصدقة المحبّة والتوازن والعواطف الحسنة في المجتمع، وبهذا يعطي الإسلام الجوّ الصالح لتحريم الربا والدفع نحو الصدقة.

٢٧٧: يُرجع القرآنُ المسلمَ إلى ايمانه ومقتضياته من عمل للصالحات وإقامة للصلاة التي تربط حياته بالله تعالى، وابتاء الزكاة لنفي الفقر ومحو أرضيّة الربا، ومن ثمّ يذكّره بالأجر العظيم والحياة السعيدة التي ستعقب ذلك.

٢٧٨، ٢٧٩: تهديد خطير بترك عملية الرّبا من الآن، وعدم مطالبة المقترضين به، فذلك من شروط الإيمان، وإلاّ فإنّ الله بكلّ عظمته ووسائله الطبيعية وغيرها سيحيل حياة المرابين جحيماً من الخوف والحزن والقلق، أمّا لو تاب المرابي فإنه لا يُظلم بل يُعطى رأس ماله، في نفس الوقت الذي لا يجوز أن يظلم بأخذ أي زيادة مهما كانت قليلة.

٢٨٠: فلو كان المقترض فقيراً لا يمكنه ارجاع رأس المال فإنّ الإسلام بمقتضى أخلاقيته يوجب إمهاله حتى يقدر على ذلك، في حين يحبّذ لصاحب المال الصدقة والتبرع فهو خير وإن جهله الكثيرون.

٢٨١: وكعادة القرآن في مختلف الشؤون نجده هنا يجعل التقوى هدفاً للمسلم وإطاراً يطبّق فيه أحكام الله. انها تقوى الله، وتقوى يوم الله يوم القيامة حيث تُوفّى كل نفس جزاء عملها بلا ظلم.

وهكذا وجدنا القرآن يحارب الربا حرباً مستعرة، ويشير إلى آثاره الهدّامة للحياة الاجتماعية. ولاريب في أنّ تحريم الربا يحقّق القضاء على اختلاف المصالح بين المرابين والتجّار ـ أولاً ـ ويدفع المال المعدّ للربا إلى ميادين الانتاج وان كان طويل الأمد ـ ثانياً ـ على أن للربا آثاره الكبرى في المجال الأخلاقي، إذ يوجد الطمع والجشع والهدفية المادية الرخيصة، كما أنه يؤدّي إلى انحصار الأموال والنفوذ في يد المرابين الذين يستغلّون نفوذهم في تخريب العلائق البشريّة وتمزيقها واستعمارها. وها نحن نشاهد التكالب المالي في الحضارة الغربية والأزمات الدورية، وانحصار الأموال عند فئة من أعداء الانسانيّة، التي تعمل على إشاعة الفاحشة والظلم، وتسلب حتى شعبها حقّ رؤية طريقه ورقيه.. وهي من نتائج الربا والإنحراف عن هدى الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

٢٨٢: في أطول آية قرآنيّة، يُنظِّم الإسلام المعاملات ويجعلها في مسيرتها الصحيحة، تخدم التداول وتسدُّ الإحتياجات في إطار من الثقة والإطمئنان، بعيداً عن أيّ نزاع أو سوء تفاهم. فالمجتمع الإسلامي المفروض عادل، متعاون لإحقاق الحق، لا كما نجده اليوم من فقدان ثقة ونزاع بين أفراده وجماعاته.

والأحكام الواردة في الآية، هي:

إذا تعامل المسلمان بدين: وهو: كلُّ معاملة فيها تأجيل لدفع أحد العوضين، فالمستحسن لهما كتابة وثيقة التعامل بما لا يدع مجالاً للنزاع في كيفيّة التعامل ومقدار الدَّين، وليكن الكاتب شخصاً عادلاً (مطبقاً لأحكام الله) فلا ينحاز إلى أحد الطرفين، ولا يتعدّى الحدود والحقوق، ولأنَّ صفة الكتابة والعدالة وفقه المعاملة من عطاء الله وفضله، فالمفروض أن لا يمتنع عن قيامه بهذا العمل.

وليكتب الكاتب وفق ما عليه ويقرّره المدين (من عليه الحق) ليكون ذلك إلزاماً مكتوباً يضاف إلى الإلزام الشرعي بالوفاء.

وعلى المدين أن يتّقي الله تعالى، فيتحرّى الصدق، ولا يبخس (ينقص) ممّا عليه شيئاً. ولو كان المدين ناقص الأهليّة مثل (السفيه) الذي لا يمكنه إدارة ماله وشؤونه بحكمة، و(الضعيف) وهو ناقص العقل، وغير القادر على الإملاء والتقرير كالأخرس والغائب، فإنّ الوليَّ (بمختلف مراتبه) هو الّذي يملي ويقرر بالعدل والإنصاف.

وينبغي استشهاد رجلين عادلين ممّن يرتضي المسلمون دينهم على المعاملة، تأكيداً للثقة، وسداً لكلّ أبواب النزاع، ويكتفى برجل وامرأتين تشهدان معاً، إن لم يكن هناك رجلان. ولعلَّ السرَّ في جعل إمرأتين في قبال رجل واحد، هو الطبيعة العاطفيّة للمرأة، وقلّة تثبُّتها، فإذا أخطأت إحداهما ذكّرتها الأخرى.

وليستجب الشهداء إذا دُعوا للشهادة، إقامة للحق، وحسماً للنزاع، ثمَّ يحث القرآن على كتابة الدَّين ـ قليله وكثيره ـ بلا تكاسل، لأنّه أقرب لحصول العدالة، وأضمنُ لإقامة الشهادة، وأجلبُ للإطمئنان وانتفاء الشكوك. وهذا كلُّه بالنسبة إلى المعاملة المؤجّل فيها أحد العوضين، دون المعاملات النقديّة التبادليّة بلا تأجيل، فإنه يمكن الإكتفاء بالتبادل بلا كتابة، ولا مانع من كتابتها لزيادة الوثوق، وإن كان ينبغي الإشهاد فيها على العقد.

وقد نهت الآية عن أيّ إضرار أو أذى يمكن أن يصيب الكاتب أو الشاهد ممّن عليه الحقُّ (ويمكن أن تقصد الآية نهي الكاتب والشهيد عن الإضرار)، واعتبرت ارتكاب ذلك فسوقاً وخروجاً عن جادّة العدل.
وأخيراً أعطى القرآن هنا أيضاً للأحكام سنداً عقائدياً من التقوى ولزوم تبعية التعاليم الإلهية، والخشية من تضييع الحقوق، ومراقبة الله لأنه بكل شيء عليم.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

٢٨٣: وإن لم تمكن الكتابة ـ كما في السفر ـ فليعط من عليه الحق رهناً للدائن باعتباره وثيقة على إرجاع الحقّ حين حلول الأجل. وعلى المسلم أن يؤدّي الحقّ الذي عليه إذا ائتمنه الطرف الآخر ووثق به. وأخيراً دعت الآية الشهود للتدخّل واظهار الحقّ، وإلاّ أثمت قلوبهم التي كتمت الشهادة.

٢٨٤: كلُّ ما في الكون مملوك، ومعلوم، وخاضع له تعالى، وعلى المسلم أن يتذكّر هذا دائماً، ويدرك أنّ الله يعلم ما يكمن في النفوس، سواء أظهره الإنسان، أم أخفاه، من نية سيئة أو صالحة، أو كتمان شهادة أو انحراف عقائدي أو غير ذلك، وانه يحاسب عليه، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، تبعاً لقابليّة المذنبين للعفو أو العقاب، والله على كل شيء قدير.

٢٨٥: إنَّ سبيل الدين واحد في مبادئه الرئيسة، وإنْ أمكن أن ينسخ الدين الجديد الأديان السابقة في أحكامه، ويضيف إلى تصوراتها ومفاهيمها بما يتناسب والتطوّر القابل للبشرية.

وان الرسول(ص) هو المؤمن الأول برسالته الخاتمة، والمؤمنون الذين يتحمّلون هذه الرسالة يؤمنون بأصول الدين الأولى وتصوُّراته الأساس من التوحيد الكامل، والملائكة المطهَّرين، كجزء من عالم الغيب، وصحّة كتب الله وصدق رسله. كما يسلّمون التسليم الكامل لله (سمعنا وأطعنا) ويلتجئون إليه في كلّ الأمور طالبين الغفران. وأخيراً، فهم يؤمنون بالقاعدة المهمّة الأخرى وهي الحياة الممتدّة في ظلّ الله في الآخرة.

وهكذا تصل السورة إلى ختامها، لتؤكد ما بدأت به من قواعد التصوُّر.

٢٨٦: يشير هذا المقطع القرآنيّ إلى أن المشرِّع الحكيم لاحظ الوسع الإنسانيَّ في تشريعه، وهذا مما يطمئن الإنسان إلى قدرته على تجاوز الصعاب، ويدفعه إلى تحقيق هدفه السامي، كما أن المقطع ـ من جهة أخرى ـ يرفع المسؤوليّة عمّا هو فوق الطاقة تعبيراً عن العدل واليسر الإسلاميّين.

الإنسان العامل يلقى نتيجة عمله الخيّر كما يتحمل تبعة ما يكتسبه من إثم.. فهو إذن مسؤول أمام الله عن تنفيذه لأوامره، والإنتهاء عن نواهيه، ولا يتحمل أحد عنه ذلك.

بعد تأكيدهم السابق السمعَ والطاعةَ، يمضي المؤمنون ليطلبوا من الله ان يغفر لهم ضعفهم الإنسانيّ في نسيانهم وخطئهم، ويرجونه ان لا يحمل عليهم نتيجة عملهم عقوبات الأمم السالفة، وأوضاعها الثقيلة الوطء، وهم إذ يسلّمون تمام التسليم، يدعونه ان لا يحمّلهم مالا طاقة لهم به، ويعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم.

وهكذا يأتي ختام سورة البقرة، وفيه تلخيص لروح العقيدة الإسلامية يدعو به المؤمنون المشبعون به. فالله وحده هو مولى المؤمنين المطاع، والمشرِّع الوحيد لهم دون غيره، يطلبون منه هداهم وتوفيقهم لحمل الرسالة الخاتمة والنصر الفكري والعسكري على جحافل الكفر وشبهاته.

سورة آل عمران ٣ — ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

سورة آل عمران

١: مرَّ الحديث عن البسملة والحروف المقطعة.

٢: تقرير الحقيقة الإلهيّة الواحدة المستجمعة للكمال، والتي يقوم بها كل ماعداها.

٣،٤،٥: إنّ القرآن حق في نزوله من قبل الله، وحقّ في أهدافه وما يتضمّنه من تصوّرات وتشريعات، وهو الكتاب المصدّق لما جاء من الحقائق الدينيّة والبشارات بالنبي(ص) في كتب الله المنزّلة قبله على موسى (التوراة) وعلى عيسى (الإنجيل). وكلُّ هذه الكتب المتّحدة في المصدر، إنّما انزلت لتمنح البشريّة (الفرقان) أي المقياس الصحيح لتمييز الحقّ من الباطل، فتسير على هداه إلى السعادة والكمال. اما الكافرون بآيات الله وهداياته فلهم العذاب الشديد، حيث ينتقم الله منهم لا بالتشفّي النفسي (بل يجازيهم على كفرهم) وهو العزيز الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض والسماء، لأنّ علمه مطلق لا يحدُّه شيء.

٦: إنّ حياة الجنين، ونموّه، وتطوّراته التي كشف العلم الحديث عن روائعها وجوانبها الدقيقة، لتعبّر عن قدرة الله المطلقة، وعلمه، ورحمته بالإنسان، وحكمته المبدعة.

٧: المحكم والمتشابه مصطلحان قرآنيان، ويقصد بالمحكم: الآيات الواضحة المعنى التي لا يشتبه في المقصود منها، وبالمتشابه: الآيات التي تتضمن ألفاظاً دالّة على معانٍ معيّنة، ويمكن أن تُجسّد في مصاديق وموارد متعددة، بعضها باطل وغير مقصود. والسرُّ في الإتيان بالآيات المتشابهة ـ رغم أن القرآن كتاب بيان وهداية ـ هو أنّ الكثير من المعاني العالية التي تتوقّف على معرفتها الحياة الإنسانية، تقصر عن استيعابها الألفاظ مهما كانت دقيقة. وتوضيحها بأكثر من ذلك، يحتاج إلى زمن طويل، ومؤلفات ضخمة، ليس من المعقول وحيها ضمن القرآن، الذي هو دستور عام للمسلمين على اختلاف مستوياتهم، هذا بالإضافة لما في وجود المتشابه من تحريك للعقل الإنساني، وامتحان للنفوس ومقدار التزامها وتسليمها.

ولا يؤدي وجود المتشابه في القرآن إلى أيّ اختلاف عميق بعد ان عيَّن الإسلام مرجعين رئيسين، أحدهما: الآيات المحكمة التي هي أم الكتاب، ومرجعه، وأصله، والثاني: الراسخون في العلم، أي النبي وأهل البيت(ع)، فإذا تمسّكت بهما الأمة، لن تضل أبداً، كما في الحديث الشريف[1].

ولكنّ الذين في قلوبهم زيغ (إنحراف واضطراب) استغلّوا التشابه لتطبيقه على بعض الموارد الباطلة، طلباً للفتنة واضلال الناس والتأويل على خلاف الحق، مع ان تأويل الآيات المتشابهة مختص بالله تعالى، واما الراسخون في العلم فقد دفعهم ثبات قلوبهم واطمئنانها ـ على عكس الطائفة السابقة ـ إلى الإيمان بجميع الآيات المحكم منها والمتشابه، إذ كلّها من عند الله تعالى، وبهذا الإيمان والرسوخ في العلم، كان هؤلاء من أولي الألباب والعقول النيّرة.

٨: دعاء للمؤمنين المسلمين لأوامر الله، الواقفين عند حدوده، يطلبون فيه من الله الوهّاب عدم الزيغ (الزلل والإنحراف) بعد الهداية والتوفيق، وأن يهبهم رحمة من عنده تثبّت قلوبهم على الإيمان.

٩: ويستمر الدعاء القرآني، فيلقّن المؤمنين تصوّرات الآخرة، ويجسّدها أمامهم، حيث يجمع الله الناس ليوم موعود آتٍ بلاريب في إتيانه أو في مقاييسه، والله لا يخلف الوعد.

---

١ ـ انظر: الكافي، ج ٢، ص ٤١٤.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

١٠: سار القرآن مع المسلمين في مراحل دعوتهم، يثبتهم ويربيهم، ويحطّم معنويات أعدائهم، وهو هنا يذكّرهم بزيف تفكير الكافرين، وان قواهم المالية والبشرية لا تغني عنهم من الله، ولا تستطيع ايقاف زحف العقيدة، بل ستندحر في الدنيا، وتصبح حطب النار في الآخرة.

١١: لقد كانت قوى فرعون واتباعه والجبابرة من قبله هائلة ـ في نظرهم ـ مالياً وبشرياً، مما دعاهم إلى الكبر والعناد، وأصّل فيهم عنصر تكذيب آيات الله، ولكنّه تعالى أخذهم، وجازاهم على ذلك، وهو شديد العقاب.

١٢: تهديد خطير للمشركين المغرورين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم بأنهم سيهزمون ويُحشَرون إلى جهنّم وهي بئس المحل والمثوى لهم، أمّا النصر فهو حليف الفئة المؤمنة، وهذا تنبؤ قرآني صادق بالمستقبل.

١٣: وهنا يتجلّى التثبيت الإلهيّ لحملة الرسالة حسيّاً في معركتهم مع الكافرين ـ وربّما كانت بدراً ـ إذ يرى المشركون المسلمين ضعفي عددهم ـ عياناً ـ فيهابونهم وينهارون أمامهم. وقد يراد رؤية المسلمين للمشركين ضعفي عدد المسلمين مع انهم في الواقع ثلاثة أضعاف، وذلك لئلا ييأسوا من النصر، ويتم الاحتفاظ بعنصر المقاومة العنيفة. وفي كلّ هذا درس للمتبصّرين الواعين إذا أرادوا معرفة النتائج.

١٤: أودع الله في أعماق الإنسان ـ بشكل طبيعي ـ ميولاً نحو النساء والأولاد والقناطير المقنطرة (الأموال الكثيرة) من الذهب والفضة، وكذا الميل نحو حيازة الثروة الحيوانيّة من الخيل المسوّمة (المدرّبة المزينة المعدّة للرعي وغيره) والأنعام والثروة الزراعية (الحرث). وهذه الميول في أصلها ضروريّة لإبقاء الحياة البشريّة وادامة عمران الأرض، ولكنّ الشيطان والشهوات الجامحة، قد تستغل هذه الميول لإشباعها إشباعاً منحرفاً، وتجعل هذا الإشباع هو الهدف الأعلى في الحياة، رغم انه متاع الحياة الدنيا، ووسيلة لهدف أعلى هو حسن المآب في الآخرة.

١٥: إنّ العطاء الإلهيّ الذي أعدّه للمتقين، خير من كلّ متاع الدنيا. وهل يُقاس المتاع المحدود إلى الخلود في الجنة، حيث الأنهار، وحيث الأزواج المطهّرة من شوائب نساء الدنيا، وفوق ذلك رضوان إلهي عظيم؟ إذن: فلتكن الدنيا سبيلاً، ولتكن الآخرة هدفاً يعمل لها الإنسان، والله بصير بما يعمل المرء ومدى إخلاصه فيه.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

١٦: إنَّ المتقين يدعون ربهم الذي آمنوا به وعبدوه بكل إخلاص، فيرجون منه الغفران، ويسألونه ان يقيهم عذاب النار بتوفيقهم للثبات على الطاعة والسير على الخط الإسلامي القويم.

١٧: من أهمّ صفات المتقين: الصبر. فهو عُدّة المؤمن في مواجهة أي مشكلة. انه يصبر ضد المعاصي والأهواء والمصائب، كما يصبر على مشقة الطاعات والتكاليف وكل ما يعترضه في طريق العمل لله تعالى. والصدق: التزاماً بالحق ومقتضيات الوجدان والفطرة السليمة. والقنوت (الخضوع) لله: وهو مقتضى الإيمان النافذ للمشاعر. والإنفاق: وهو نتاج الإعتقاد بملكية الله، والأخوة الإنسانية. والاستغفار وقت السَحَر: حيث الهدوء وصفاء النفس واحتمال السهر ومشقّة القيام والبعد عن الرياء... وكلُّها تشكّل الجوّ المناسب لمناجاة الله تعالى، واستغفاره، والتضرُّع إليه.

١٨: إنَّ عدالة الله التي تتجلّى في الكون المتناسق المترابط، كما تتجلّى في تشريعاته الواقعية الحقّة، تدفع الفطرة إلى التصديق الكامل بشهادة الله على نفسه بالوحدانيّة. ويتركّز الإيمان بشهادة الملائكة والوحي الذي يحمل الشريعة العادلة للبشريّة. وأخيراً يطمئن القلب والمشاعر إلى الوحدانيّة الإلهيّة عندما يقف أولو العلم وأهله بما فيهم الأنبياء والأوصياء والعلماء إلى صف الشهداء عليها، وهم مؤيّدون بالمعاجز والخبرات والاطلاع على جوانب من أسرار الكون.

١٩: إنَّ وحدانية الألوهيّة، تستوجب وحدة الدين الحقّ الذي يعني التسليم المطلق لله تعالى والإخلاص له. يقول أمير المؤمنين علي(ع) في خطبة له: (الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، الأداء هو العمل)[1].

وقد كان المفروض بأهل الكتاب ان يدينوا الله بالإسلام وتحكيمه في تصوُّراتهم وسلوكهم، ولكنَّ بغيهم وظلمهم دفعهم لإختلاف مصلحي في الدين مع علمهم بحقيقة التوحيد وآيات الله، وسيحاسبهم الله جزاء اختلافهم وكفرهم بآياته.

٢٠: فإذا استمرَّ أهل الكتاب في جدالهم وعنادهم، فليقل النبي(ص) لهم: انه واتباعه المسلمين قد أسلموا وجوههم لله تعالى وحده، وأعرضوا عمَّن سواه. فإنَّ أسلم أهل الكتاب والأميون (المشركون) لله كذلك، فقد اهتدوا وفازوا، وإن تولَّوا وأعرضوا، فليس على رسول الله(ص) شيء بعد ابلاغه رسالته، وليتركهم لله البصير بعباده ليقرِّر في حقّهم ما يراه وفق علمه وحكمته.

٢٢: تعرية لأهل الكتاب وتاريخهم الأسود في كفرهم بالله، وقتل النبيِّين بغير حقّ وهم مشاعل الهداية، بل وقتلهم الآمرين بالعدالة وباجراء قوانين الله من الناس الذين تحدّوا الظلم والطواغيت، وتهديد لهم بما يلاقونه من الشقاء والقلق، وفي الآخرة بما ينتظرهم من المصير السيئ حيث لا ناصر لهم ولا شافع.

---

١ - نهج البلاغة ، ص ٤٩١، الحكمة ١٢٥.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

٢٣، ٢٤، ٢٥: استنكار لموقف اليهود والنصارى المتناقض، فبينما هم ينتسبون للكتاب الذي أوتوا نصيباً وقدراً من علومه، أو اطّلعوا على قسم منه لم يحرف من قبل، تجدهم إذا دعوا لتحكيم هذا الكتاب في تحديد موقفهم من النبي(ص) وتقييم سلوكهم، تولّى فريق منهم، وأعرض مخالفاً ما ادعاه.. وربما كانوا يفترون ويخترعون شيئاً، ثم يخدعون به أنفسهم من مثل ادعائهم بانهم لن يعذّبوا في النار إلا أياماً قليلة. فلا داعي للإلتزام الكامل بالكتاب. ولكن الحقيقة ستنكشف حتماً يوم القيامة، حيث تجازى كل نفس بما عملت بلا ظلم أو اجحاف.

٢٦: تعليم قرآني باللجوء إلى الله المالك المطلق، والتركيز على أنه تعالى مصدر القوي والعزّ والذلّ، يعطي الملك من يشاء، وينزعه ممّن يشاء، طبق ما يعلمه من حكم ومصالح وسنن، وهو تعالى مصدر الخير في الكون وذو القدرة المطلقة على كل شيء.

وفي الآية تهديد للظالمين المغترّين بسلطانهم، وقد فسّر المُلك بالنبوّة التي آتاها الله النبيّ ونزعها من بني اسرائيل نتيجة تهاونهم وعنادهم.

٢٧: ويمضي الدعاء مستعرضاً قدرة الله وحكمته في الأمور التكوينيّة، كظاهرة تداخل الليل والنهار، وتفاوتهما بالقصر والطول، وهي ترتبط أشد ارتباط باستمرار الحياة الإنسانيّة. وكذا ظاهرة إخراج الحيّ من الميت، وبالعكس، كإحياء الأرض الميتة، أو اخراج الأولاد المؤمنين من الآباء الكافرين، وعكسه، وأخيراً ظاهرة الرزق العميم للموجودات.

٢٨: ينهي القرآن كثيراً عن مودّة الكافرين والركون اليهم، مما يفسح المجال للتأثر بهم، وفتح ثغرات لنفوذهم. ويؤكّد ان العواطف يجب أن تبتني على العقيدة، وإذا والى المسلم كافراً، فقد قطع علاقته بربّه، ولم يعد من حزبه المفلحين، فليحذر ـ إذن ـ غضب الله الذي إليه المصير.

للمسلم عند الضرورة ان يبدي ولاءه للكافر قولاً، وحتى عملاً، إنْ تطلّب الموقف ذلك، وإن كان يتبرأ منه قلباً وعقيدة. والتقية، موقف يتخذه كلّ عاقل بفطرته، فيبدي غير ما يخفي حينما يجد خطراً يهدّد نفسه أو ماله أو شركاءه في العقيدة وأمثال ذلك، دون أن يكون للتحدّي أيّ نفع موازٍ للخسارة. وهذا بالضبط هو موقف النبي(ص) في أوائل الدعوة.

وقد جاءت أحاديث النبي(ص) والأئمّة (ع) تؤكّد وجوب التقيّة أحياناً وجوازها، أو حرمتها. ومنها ماذكر في سبب نزول الآية التي تضمنتها سورة النحل لتسويغ موقف عمّار الذي قال كلمة الكفر بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان. وتبعاً لاختلاف الظروف (ظروف التقيّة وعدمها) وجدنا التفاوت في مواقف الأئمة(ع) تجاه الضغط الظالم.

فالتقية لدى الشيعة موقف إنساني اسلامي خالص ينسجم مع الخلق والمنطق والفطرة، انها لحفظ الكيان العقائدي، فإذا توقّف هذا الحفظ على الإستشهاد، فما أرخص النفوس في سبيل ذلك، كما استشهد الحسين(ع) لهذا الهدف الكبير.

٢٩: إنّ الأعمال بالنيّات، والله عليم بذات الصدور، لا يختلف الحال لديه، فسواء أبدى الإنسان ما في صدره من سر، أو أخفاه، فإنه يعلمه الله العليم بما في السماوات والأرض، والقدير على كل شيء.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

٣٠: تخويف لمن يوالون الكافرين بمشاهد القيامة، حيث يلقى الناس أعمالهم الخيِّرة ماثلة أمامهم، بكل عطائها ونورها، في حين يودّون أن يكون بينهم وبين أعمالهم السيئة فاصل زمني بعيد، ثمّ يتكرر التحذير لتشديد النكير على من يوالون الكافرين، وذلك رأفة بهم، ولئلا يبتلوا بعواقب هذا الولاء الوخيمة.

٣١: ادّعى بعض أهل الكتاب، أو بعض المسلمين غير العاملين أنهم يحبّون الله، فجاءت الآية تؤكّد حقيقة أن الحبّ الصادق هو الّذي يتبعه العمل بشوق بكلّ ما يريده المحبوب، وخصوصاً إذا كان هو الكامل المطلق ـ تعالى ـ قال الصادق(ع): (ما أحبّ الله من عصاه).

ولا يصدق العبد في دعواه حب الله إلا إذا اتّبع الإسلام ورسوله الأمين كي يضمن حبّ الله وغفرانه. وتشكّل علاقات الحب بين الخالق والمخلوق، وبين المخلوقين أنفسهم؛ حقيقة هي من أهم حقائق التصور الإسلامي وقد قال رسول الله(ص): (وهل الدين إلا الحب والبغض في الله).

وبعد هذا لا يبقى مجال لاتهامات المستشرقين بأنّ الإسلام يقوم على الجبروت والقهر والحقد!

٣٢: ترشد الآية إلى حكم العقل والفطرة بلزوم إطاعة الله تعالى الخالق الرازق الهادي. وانما تتمّ طاعة الله بطاعة رسوله الكريم. فإذا تولى أحد وأعرض وكفر فإن الله لا يحبّ الكافرين.

٣٣، ٣٤: اختار الله تعالى صفوة من البشرية عقتضى علمه بكفاءتها واخلاصها فجعلها منار الهدى ومحور المسيرة نحو الكمال، وكان أولها آدم(ع) ثم نوح ثمّ باقي الأنبياء المعصومين من آل ابراهيم(ع) ومنهم أفضل الأنبياء محمد(ص)، وكذلك من آل عمران، والظاهر انه والد مريم(ع)... فكانوا جميعاً ذريّة وتسلاً متشابهاً في السير على الحق وحمل مشعل الهداية إلى الله، وهو تعالى محيط بهم يرعى تحركاتهم عبر التاريخ.

٣٥: يعرض القرآن هنا إحدى قصص النبوّة العامرة بالإيمان والتسليم، وهي قصّة عيسى بن مريم(ع) ليؤكّد بشريّته وعناية الله به، واخلاص اسرته واسلامهم لله. فقد نذرت امرأة عمران (أم مريم) باخلاص وانقطاع إلى الله أن تجعل ما في بطنها من حمل محرّراً من كلّ قيد وعبودية بشرية، ليوقف حياته في خدمة (بيت المقدس) والعبادة فيه والقيام بمهامه، وراحت تسأله تعالى ـ بدعاء المؤمن الخاشع ـ أن يتقبّل منها نذرها، وهو السميع بدعائها، العليم بحالها واخلاصها.

٣٦: وعندما وضعت حملها وتبيّن أنّها أنثى صارت في حيرة من أمر نذرها، إذ لا تصلح الأنثى للخدمة الدائمة في المعبد عادة، فلجأت امرأة عمران مرة أخرى إلى ربّها تخبره عن حالها ـ والله أعلم بها وبحالها وبما سيتظر هذه المولودة من مستقبل ـ وأنها أسمتها (مريم) أي المرأة العابدة في لغتهم. وتطلب إليه تعالى أن يصونها برعايته ويعيذها هي وذريتها به تعالى من الشيطان واغواءاته.

٣٧: واستجاب الله الرحيم لدعاء أمّ مريم، وتقبّل مريم بقبول حسن بأن تكون محرَّرة خالصة لعبادته في بيت المقدس، وأنبتها وربّاها تربية حسنة فكانت طاهرة عابدة مخلصة، وأوكل كفالتها إلى النبي زكريا بعد أن وقعت عليه القرعة الآتي ذكرها، وقد رأى فيها زكريا مثالاً للمرأة العابدة المؤيّدة من الله. فكلّما دخل عليها محراب عبادتها وجد عندها طعاماً ـ يبدو أنه من طعام الجنة ـ وحين سألها عن مصدره أجابته جواب المؤمنة العارفة الواعية: انه من عندالله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

٣٨، ٣٩: وقد كان لهذا الموقف الحسّي الرائع أثره البالغ في إنعاش الأمل عند زكريا الذي دعا الله تعالى أن يهب له ذريّة طيّبة صالحة اشباعاً لحسّه الأبوي وتحقيقاً لهدفه الكبير، وقد حقّق الله أمنيته، فبشّرته الملائكة في المحراب أيضا ـ حيث كان يقوم مصلياً عابداً لله ـ بولد اسمه يحيى، من صفاته: أنه يصدّق بكلمة من الله، والمراد بذلك عيسى(ع) حيث ولد بأمر تكويني خارق، وانه سيّد في نفسه وفي قومه بصفاته العالية، وانه حصور (يحصر نفسه عن الشهوات ويرتفع عن التذلُّل لها زهداً بها) واخيراً فهو من أنبياء الله ومن الصالحين العاملين في سبيل الله.

٤٠: وهنا تدرك زكريا طبيعته البشرية فيتساءل عن هذه المفاجأة العجيبة فكيف يولد له ولد وهو شيخ طاعن في السنّ، وامرأته عاقر عقيم؟! ولكنّ الخطاب الإلهي يذكره بطلاقة المشيئة الإلهية من كل قيد أو سنّة طبيعية مألوفة.

٤١: وكما سأل ابراهيم ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى حسّاً ليطمئنّ قلبه، سأله زكريا كذلك بأن يريه آية حسّيّة يطمئنّ بها مع ايمانه بقدرة الله المطلقة، فتستجيب رحمة الله للانسان حين يعطي زكريا آية يسكن إليها، وهي أن يحتبس لسانه عن التكلُّم مع الناس ولكنه ينطلق بذكر الله وحمده وتسبيحه بالعشيّ (أواخر النهار) والإبكار (أوائله).

٤٢: تكريم إلهيّ آخر لمريم العابدة المخلصة، إذ تبشرها الملائكة باصطفائها واختيارها من الله تعالى حين تقبّلها محررة له، وقبل عبادتها في بيته، وبتطهيرها من الكفر والدنس والآثام، وربما من عادات النساء لتصلح للعبادة في المسجد دائماً، وبتقديمها على نساء العالمين، واكرامها بولادة المسيح عيسى(ع) منها دون أن تتزوج ويمسّها بشر، ولا يمنع هذا من أن تكون فاطمة بنت محمد(ص) سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين ـ كما جاءت الروايات ـ ذلك ان تقديم مريم كان من جهة واحدة هي اختصاصها بولادة عيسى من دون أب، في حين تقدمت فاطمة من كل الجهات وعلى الإطلاق.

٤٣: تحمل الملائكة أوامر الله لمريم بالقنوت، أي الخشوع والخضوع في محراب العظمة الإلهية، والسجود والركوع مع قوافل الراكعين العابدين لله تعالى، وكل ذلك شكراً لله على اكرامها وتمهيداً لتلقي نفخة الله وتكريمه لها بابنها المسيح(ع).

٤٤: يذكّر القرآن ـ بهذا العرض الطاهر ـ بنسبه السماوي وتنزُّهه عن خرافات أهل الكتاب، وان النبيّ(ص) لم يكن حاضراً ولكنّه يخبر عن دقائق الأحداث وهنا تشهد الاختصام حول كفالة مريم التي جاءت بها أمها إلى بيت المقدس، حيث ينتهي إلى الإقتراع بالأقلام أو السهام المبرية، يلقونها في النهر ـ كما روي ـ فأيّهم لم يجرف التيّار قلمه أو لم يرسب فهو الكافل، وقد كان ذلك زكريا النبي والقريب لمريم.

٤٥، ٤٦: حملت الملائكة إلى مريم ـ بعد ذلك ـ بشارة الله بولادة ابنها «عيسى» الذي تتجلّى فيه كلمة الله، إمّا تكويناً «كن» لأنه سيُخلق من غير أب، أو لأنه يحمل رسالة الله للناس، أو لانطباق كلام الله المبشّر به في الكتب السابقة عليه. واخبرتها الملائكة بأنه سيكون ذا مقام جليل وفي طليعة الناس في الدنيا والآخرة. ومن المقرّبين إلى الله تعالى، وانه سيكلّم الناس وهو في مهده، ويعيش حياة الصالحين، حتى يصبح رجلاً كهلاً يحمل رسالة الله إلى بني اسرائيل.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

٤٧: وتذهل مريم لهذا الخبر وهي التي لم يمسسها إنسان، فتتساءل عن كيفية ذلك فيذكرُها الوحي بأنّ الله يخلق ما يشاء ولا يحدُّ قدرته شيء، فإذا أراد أمراً وقع الأمر (كن فيكون) وبهذا يفند القرآن مزاعم بعض أهل الكتاب التي تزعم أن المسيح هو ابن الله، ويؤكد أنه خلق بقدرة الله ومشيئته، وان مريم هي المرأة البتول الطاهرة.

٤٨، ٤٩: إن المسيح عبد لله يعلّمه الكتاب والشريعة، وأساليب التفهُّم والحكمة قولاً وعملاً والتوراة والإنجيل. واذ يعدّه للقيادة يبعثه رسولا إلى بني اسرائيل يحمل معه آية إلهية معجزة تثبت صدقه، فكان يصنع طيرا طينياً ثمَّ ينفخ فيه فيكون طيراً حيا بإذن الله، ويبرئ الأكمه (وهو من يعشو في الليل أو من ولد أعمى) والأبرص، بل ويحيي الموتى بإذن الله تأكيداً على عدم استقلاليّته في ذلك ولإقامة المعجزة وتحدّي قومه بأرقى فنون عصرهم وهو الطب.

ومن المعاجز التي جاء بها عيسى إخبارهم عن أمور حياتيّة خاصّة كالأكل والخزن وفي كل ذلك آية وعلامة على صدقه ان كانوا مستعدّين لقبول الحق.

٥٠: بُعِثَ عيسى نبياً إلى بني اسرائيل ليكمل رسالة موسى(ع) وذلك بالعمل بشريعة التوراة الاجتماعية، مع رفع لبعض التضييقات التي فُرِضَت على بني اسرائيل عقوبةً وبشكل مؤقت، بالاضافة لمجيئه بالطاقات الروحيّة الضروريّة لعلاج النفسية اليهودية التي طال عليها الأمد فقست وغرقت في المادة والحس. إلاّ أنّ العداء اليهودي للمسيح أفقد كلاً من المسيحيّة واليهوديّة المنفصلتين قدرتهما على القيام بالمهمّة المشتركة، وهي إيصال البشريّة إلى حيث تصبح ناضجة قابلة لحمل الرسالة الاسلاميّة الخالدة، التي هي وريثة كلّ الرسالات والجهود السابقة عليها، والتي تستوعب مختلف الشؤون الحياتية بنظام كامل خالد.

٥١: بعد أن طلب عيسى من بني اسرائيل العمل بتقوى الله ورفع اليد عن عنادهم، واطاعته هو فيما يبلغه عنه تعالى، أكد الحقيقة التي جاء بها كلُّ الأنبياء وشوّهها أتباعه بعد ذلك، وهي حقيقة التوحيد في الربوبيّة، والتي تعني التوحيد في العبادة أيضاً، وتسليم الأمر إلى الله والسير على صراطه المستقيم الموصل ـ دون غيره ـ إلى الكمال.

٥٢، ٥٣: وعندما جُوبه عيسى بكفر بني اسرائيل وعنادهم راح يطلب النخبة الممتازة من الأنصار لرسالة الله، لينهضوا معه في تبليغها ونشرها وليحملوها من بعده إلى الآخرين، فاستجاب الحواريّون لدعوته، وهم الذين اختصُّوا بعيسى، وتميَّزوا بالإخلاص الذي تجلّى في إعلانهم عن الاستعداد لحمل الرسالة ونصرتها، بعد إيمانهم بالله وتسليمهم له في كلّ شؤونهم، ثمّ توجهوا إلى الله تعالى يؤكّدون إيمانهم بالله وتسليمهم له في كلّ شؤونهم، ثمّ توجهوا إلى الله تعالى يؤكّدون إيمانهم بكتبه تعالى، واتّباعهم لرسوله، ويطلبون منه أن يكتبهم مع الشاهدين قولاً وعملاً لنبيّهم عيسى على تبليغه لرسالته واخلاصه لها، وعلى الأمّة التي كفرت وجحدت آيات الله وكذّبت أنبياءه.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۞ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۞

٥٤: المكر هو التدبير. وقد مكر اليهود بعيسى(ع) فدبّروا قتله بالوشاية إلى الحاكم الروماني، ولكن الله واجههم بمكره وتدبيره (بإبطال مكرهم) فإذا هو هباء، واضافة المكر إلى الله تعالى إنما هو للمشاكلة والمطابقة البلاغية.

٥٥،٥٦،٥٧: وكان إبطال مكر اليهود بوعد الله لنبيّه عيسى(ع) بأن يتوفّاه (يأخذه لا أن يميته) ويرفعه إليه. وان ينزّهه من أرجاس بني اسرائيل الذين كفروا بآيات الله، كما وعده بأن يجعل أتباعه الحقيقيّين فوق اليهود الكافرين بأنعمه، واتباعه هم: المسلمون تسليماً كاملاً لله في مقاييس الله. وفي حياتهم المطمئنة اعلى من اليهود الحاقدين القلقين والاذلاء إلى يوم القيامة، أو هم الذين يؤمنون بنبوّة عيسى وهم المسيحيون والمسلمون.

وفي يوم القيامة حيث يرجع الجميع إلى الله تعالى سيكون الحساب الحق وتنكشف الحقائق، فيعذّب الكافرون عذاباً شديداً في نار جهنم، بعد تعذيبهم بالذلّ والهوان والإنحطاط في الدنيا، في حين يجزي الله المؤمنين العاملين بالرسالة، المضحّين لأجلها، ويوفّيهم اجورهم ويتمّمها عليهم، بعد سعادة دنيويّة واطمئنان قلبي، إذ كانوا موضع حبّ الله ورحمته، اما الظالمون فقد حُرموا من عطاء هذا الحب الإلهي العظيم.

٥٨: كلّ ما سبق من حديث عن القصص النبوي إنما هو آيات كريمة وقرآن حكيم تلاه الله تعالى على رسوله محمّد(ص) وأوحاه إليه ليبيّن الحقيقة التي شوّهتها خرافات أهل الكتاب واباطيلهم التي تسجوها حول أنبياء الله الصالحين المقرّبين.

٥٩: اعتقد النصارى بالوهيّة عيسى أو كونه إبناً لله لأنه وُلد من غير أب، فاحتجّ القرآن عليهم بآدم(ع) ـ وهم لا يدّعون له ما يدّعونه لعيسى(ع) ـ وقد خلقه الله من تراب وأراد له أن يكون فكان، وأمره أعجب من أمر عيسى(ع) الذي خلقه الله بإرادته من غير أب.

٦٠: أنّ الله يهدي البشريّة للحقيقة في التصوُّر والعمل، فلا ينبغي أن يشكّ المسلم في ذلك أو يصغي إلى خرافات أهل الكتاب.

٦١: نزلت هذه الآيات عندما وفد نصارى نجران لمحاجّة النبي(ص) في شأن رسالته، ولما أصرّ هذا الوفد على جداله رغم كلّ الحجج الواضحة طلب القرآن من النبي(ص) أن يباهلهم (يلاعنهم) كحل أخير للموقف، وذلك بأن يدعو الطرفان (النبي والوفد) أشخاصاً يمثّلون أنفسهم ونساءهم وأولادهم ثم يطلبوا من الله تعالى أن يصبّ اللعنة والعذاب على الطرف الكاذب في دعواه.

وهنا جاءت الروايات الكثيرة الصحيحة لتؤكّد ان النبيّ(ص) لم يخرج معه للمباهلة سوى أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرّجسَ وطهّرهم تطهيراً. وهم: عليّ كمعبّر عن نفس النبي، وفاطمة(ع) كأعلى نموذج طاهر لنساء المسلمين، والحسن والحسين(ع) كأسمى مثال لأبناء الأمة.

ومذ أبصر النصارى رسول الله ومعه أعز الناس عليه، يقدّمهم ويباهل بهم، أحسّوا بالخذلان وتراجعوا عن تصميمهم، معترفين بهزيمتهم، ومتأكّدين من ثقة النبي وصدق دعواه، ومصالحين على إعطائه الجزية. وقد أورد القصة كبار المفسّرين والمؤرّخين والمحدّثين كمسلم والترمذي والطبري والزمخشري والدار قطني والرازي والبيهقي والحاكم وأحمد والبغوي وغيرهم وفي الآية أعظم الفضائل لأهل البيت عليهم السلام.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

٦٣،٦٢: هذه هي الحقيقة في قصة عيسى(ع) فلم يكن إلاّ عبداً مخلصاً. أمّا الألوهية فهي لله ـ وحده ـ ذي العزة المطلقة والحكمة التامة. فليتقدم الرسول ـ إذن ـ للمباهلة فان أعرضوا عن الحقّ فالله عليم بفسادهم، وسيجازيهم على ذلك.

٦٤: تركيز على العنصر المشترك بين المؤمنين بالله جميعاً، ودعوة إلى التوحيد من كلّ شائبة وخرافة ـ أُدخلت على الدين ـ انّ: التوحيد في الذات فلا شريك ولا نظير ولا كفء له ـ تعالى ـ وفي العبادة فلا يتّخذ الإنسان له أرباباً من الأنبياء أو الأحبار أو الطغاة أو غير ذلك فيطيع هذه الآلهة الوهميّة من دونه تعالى. امّا إذا أعرض أهل الكتاب وتولّوا عن هذه الدعوة فليشهدوا إذن أنّ الرسول الكريم وأتباعه هم المسلمون حقّاً لله الواحد.

وفي الآية تربية للمسلم على اكتشاف المشتركات مع الآخرين عبر الحوار معهم.

٦٥: لمّا كان ابراهيم(ع) موضع قبول للجميع فقد حاول كلّ من اليهود والنصارى إضفاء طابعهم الخاصّ عليه، فردّ عليهم القرآن بأن ذلك مجرد جهل وعناد بعد معرفة حقيقة نزول التوراة والإنجيل بعده.

٦٧،٦٦: إذا جاز لليهود والنصارى أن يجادلوا بعضهم في ما يعلمونه من نبوّة عيسى وعدم الوهيّته، أو ما جاء في كتبهم، فليس من الجائز منطقياً أن يجادلوا فيما يجهلونه من حقيقة دعوة ابراهيم(ع) التي علم الله أنها لم تكن ملوّثة بتحريفات أهل الكتاب والمشركين، بل كانت حنيفيّة مسلمة لله خالصة له في العبادة والطاعة.

٦٨: إنّ رابطة العقيدة ـ دون غيرها من الروابط الأرضيّة ـ هي الرابطة الحقيقية بين البشر، ولذا كان أولى الناس واقربهم إلى ابراهيم(ع) هم أتباعه الذين ساروا على منهجه، وهذا النبي محمد(ص) ومن آمنوا به لأنهم حملوا راية التوحيد الخالص والتسليم الصحيح لأوامر الله، وراحوا في مسيرة تكامليّة واعية يرعاها الله تعالى ـ عبر التاريخ ـ

قال أمير المؤمنين علي(ع): (إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به) ثم تلا : ﴿إن أولى الناس...﴾ الآية.

ثم قال أيضاً: (ان ولي محمد من أطاع الله وان بعدت لحمته، وان عدوّ محمد من عصى الله وان قربت قرابته)[1].

٦٩: كان بعض أهل الكتاب يعملون على اضلال المسلمين ـ كما يعمل ابناؤهم اليوم ـ وتشكيكهم في معتقداتهم وهم لا يشعرون انهم بهذا يهدمون البشرية الصالحة وهدفها السامي مما يعود عليهم هم بالوبال والخسران.

٧١،٧٠: تنديد بتعصّب أهل الكتاب، وكشف لموقفهم من آيات الله ونبوّة النبي(ص) إذ يكفرون بها رغم شهادة كتبهم وكلّ الدلائل على حقيقتها، لكنهم يلبسون (يخلطون) الحقّ بالباطل، ليشوّهوا الحقيقة ويثيروا التشكيك حولها، وبالتالي هم يكتمون الحقّ رغم علمهم به، ولكنها المصالح الدنيويّة والإستغلال لبساطة الناس.

---

١ – نهج البلاغة، خ ٩٦، ص ٤٨٤، د. الصالح.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

٧٢: ومن محاولاتهم الماكرة: دسُّهم بعض أتباعهم ليدخلوا في عداد المؤمنين في مطلع النهار ثم ليعودوا كفّاراً في آخر النهار، باعثين بذلك البلبلة والتشكيك بين بعض المسلمين الذين لم يتعمّق الإسلام في نفوسهم.

٧٣، ٧٤: يتواصى أهل الكتاب أن لا يؤمنوا (لا يثقوا) إلاّ بمن هو على دينهم عند حديثهم عن ماجاء في الكتاب، وهم يظنون ان ماجاء فيه من الهدى يمكن إخفاؤه عن المسلمين فلا ينتفعون به أو يحتجُّون به عندالله وما هذه إلاّ خيالات وسخف، إذ الهدى الحقيقي من الله تعالى يفيضه على أوليائه المؤمنين ويتفضّل على من يشاء بالنبوة بمقتضى رحمته وحكمته وعلمه اللامحدود، وهو ذو الفضل العظيم.

٧٥: بيان واقعي منصف لحال أهل الكتاب، حيث إن منهم الأمين على أموال الآخرين مهما كثرت ـ والقنطار هو المال الكثير ـ كما أن فيهم من إذا اؤتمن على مبلغ زهيد كدينار لم يرع الأمانة واستحل أكل الدينار بالباطل، إلاّ أن يقوم عليه صاحبه مطالباً وملحّاً.

والأنكى من ذلك ان مثل هؤلاء الخونة يسوّغون تصرّفهم اللا أخلاقي بأنّ الله لم يشرع عليهم سبيلاً (تبعة وذنباً) جراء أي عمل يقومون به بالنسبة للأميين، ويقصدون بهم (العرب) أو الأمم الأخرى غير بني اسرائيل، ولذا فهم يستحلُّون أموالهم. وما هذه النسبة إلاّ كذب مفضوح يعلمون هم بزيفه قبل غيرهم فإن الله لا يأمر إلاّ بالعدل والإحسان والأمانة وأمثال ذلك مما يدرك حسنه الوجدان الانساني نفسه.

٧٦: يؤكّد القرآن حقيقة أن الله لا يأمر إلاّ بالعدل والإحسان وكلّ ما يراه الوجدان حسناً. ومن ذلك: الوفاء بالعهد مع أيّ طرف كان، فإنه من أجمل خصال المؤمنين المتقين الّذين هم موضع حبّ الله وقربه ورحمته ويتجلّى هنا بشكل رائع الربط بين الجوانب الأخلاقية والعاطفيّة والعقائديّة، حيث ينتج الإيمان بالله التقوى الحقيقيّة التي تؤدّي إلى الأخلاقية العالية مما يجعل صاحبها محبوباً لخالقه الرحيم.

٧٧: أمّا الذين لا يقيمون وزناً للعهد الإلهيّ، ولأيمانهم (اليمين هو الحلف) فيبيعونها بالثمن القليل وهو المصالح الشخصيّة الرخيصة، فهؤلاء لا خلاق (نصيب) لهم في الآخرة، ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم . وهذا التعبير الشديد التأثير على النفوس كناية عن طرد هؤلاء الخائنين عن ساحة الرحمة الإلهيّة والثناء الإلهي والتزكية والتطهير، إذ لا يستحقّون ذلك وانما أعدّ لهم العذاب الأليم.

ومن كلّ هذا التهديد والوعيد تتجلّى أهميّة الوفاء بالعهد الفطريّ مع الله تعالى بالايمان به وحده، والعمل بنظامه وتشريعاته وجعلها مقياساً للحياة، وكذلك أهمية الوفاء بالعهد والعمل بمقتضى اليمين والقسم فيما بين الناس وذلك لإشاعة روح الثقة الضروريّة لكلّ مجتمع صالح متعاون بنّاء.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٧٨: يواصل القرآن فضح أساليب أهل الكتاب وطباعهم، ومنها ما يذكره هنا من أنّ فريقاً من علمائهم كانوا يفترون بعض الكلام الذي يكرّس مصالحهم وآراءهم، ويدخلونه بين آيات الكتاب، ثم يلوون (يميلون) ألسنتهم في قراءته ليخيّل لسامعهم أنه من آيات الكتاب، مع انه ليس منها. وقد ورد أنهم كانوا يبدلون صفة النبيّ محمّد(ص) الموجودة في التوراة بكلمات لا تنطبق عليه، ثمّ ينسبونها إلى التوراة كذباً وافتراءً. ويدّعون أنها من عند الله تعالى، وما هي منه، ولكنّه الكذب المتعمَّد على الله سبحانه.

٧٩: يتّجه الكتاب الكريم هنا إلى النصارى ويكْشف تحريفاتهم العقائدية، مؤكّداً أن الإنسان الّذي يؤتيه الله الكتاب الهادي والحكمة والنبوّة فيصل إلى كمال الإيمان، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن ينحرف عن رسالته فيدعو الناس لتأليهه هو وعبادته من دون الله، وإنما عليه أن يدعو الناس ليكونوا ربّانيين في سلوكهم، أي منتسبين إلى الربّ الواحد تعالى، وذلك بواسطة ما يعلّمونه للآخرين ويعمّقونه في وجودهم من مفاهيم الكتاب وتعاليمه الهادية.

٨٠: إنّ النبيّ ـ أيّ نبيّ ـ وهو الإنسان الكامل في وعيه وعبادته، لا يتصوّر منه الدعوة إلى اتخاذ الملائكة والأنبياء أرباباً، إذ كيف يأمر بالكفر بعد أن كان الناس مسلمين بالفطرة والوجدان. وبعد أن ركّز الأنبياء السابقون روح التوحيد والتسليم في البشريّة. وبهذا رفض القرآن أيّ اتباع أعمى من قبل انسان لإنسان، وأيّ عبادة لغير الله تعالى، مركّزاً على عبوديّة الإنسان لله وحده وحريّته في قبال أفراد نوعه.

٨١: في اطار تنزيه الأنبياء من دعاوى أهل الكتاب بنسبة الإلوهيّة والتفرد لهم، يرسم القرآن هذا المشهد العظيم، حيث أخذ الله العهد والميثاق من النبيّين أنه مهما آتاهم من كتاب وحكمة لهداية البشريّة ثمّ جاء بعدهم رسول من الله فانّ عليهم الإيمان به ونصرته وتقوية دعوته، وعلى الأنبياء بدورهم بعد الإقرار بهذا الإصر (العهد) أن يأخذوه من أممهم ويتواصوا به ويكونوا شهداء عليه، والله معهم من الشاهدين.

وهكذا تتجلّى نظرة الإسلام إلى الأنبياء في وحدة دعواتهم ومنهجهم العام فلا تعصّب ولا أنانية ولا تفرد والوهية بل عملية متواصلة تقود الإنسانية نحو كمالها، يبشر السابق منهم باللاحق ويصدق اللاحق بالسابق لتتلاحم حلقات المسيرة المباركة.

٨٢: أمّا الذين تراجعوا من الأمم عن الإلتزام بالميثاق الإلهي وخرجوا عن خطّ التوحيد ووحدة دعواته، وآثروا التعصّب الأعمى فهم الفاسقون (الخارجون) عن أمر الله وميثاقه وهداه.

٨٣: إنّ دين الله هو الإسلام الحقيقيّ، فإذا صدق أهل الكتاب في دعواهم اتباع دين الله فليتجهوا إلى الإسلام الذي تصدّقه الفطرة والأدلّة القاطعة، والذي يعني صوغ الحياة الانسانيّة وفق إرادة الله وتشريعاته، لتكون منسجمة مع الكون بسماواته وأرضه ومافيها من موجودات، حيث أسلم الجميع طوعاً أو قهراً لله الخالق العظيم والغنيّ المطلق، إذن فلتسلّم الانسانيّة أمرها لله خالقها، ولترجع إليه في تنظيم حياتها كما سترجع إليه يوم القيامة فيحاسبها على مسيرتها ومدى التزامها ميثاقه وعهده.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

٨٤: وإذا فسق أهل الكتاب عن عهد الله فليعلن الإسلام على لسان نبيّه العظيم الإلتزام التامّ بالميثاق الإلهيّ الذي يتضمّن الإيمان الكامل بالله وبالقرآن المنزّل على الرسول(ص)، وبكلّ ما أنزل على الأنبياء السابقين ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب، وأحفاده الأنبياء (الأسباط) وموسى وعيسى وغيرهم بلا أيّ تفريق بينهم لوحدة دعواتهم ورسالاتهم. وليعلن الجميع كذلك التسليم العملي التام لله تعالى.

٨٥: إنّ الإسلام الحقيقيّ والمنهج الإلهيّ والسعادة تكمن في اتباع ما أنزل على النبيّ محمّد(ص) اتباعاً فكريّاً وعمليّاً. وأيّ انحراف عن خطّ الرسول الخاتم ورسالته مرفوض من قبل الله، ولن يؤدي إلاّ إلى الإنهيار والضياع في الدنيا والخسران في الآخرة.

٨٦، ٨٧: إنّ أهل الكتاب الّذين علموا من كتبهم بصدق الرسول(ص) وصدق دعوته، وكذلك المرتدون الّذين ذاقوا حلاوة الإيمان واطّلعوا عليه قد أهدروا جميعاً فرصة الهداية الّتي أتيحت لهم، فغدوا يعيشون حالة من الإنحراف والظلم والعناد ـ رغم توفّر الدلائل والبينات ـ لا يتوقّع لهم معها أن يتكاملوا ويصلوا إلى الهداية الإلهيّة، بل سيكون جزاؤهم الطرد من رحمة الله، وانصباب لعنات الله والملائكة والناس أجمعين عليهم، لأنهم شوّهوا وجودهم الانسانيّ بتعصّبهم و ·ادئم، ولأنهم عرقلوا مسيرة الخير الانسانيّة.

٨٨: هؤلاء الذين آمنوا بادئ الأمر، وشهدوا بحقّانية الرسول وجاءتهم العلامات الواضحة، وكفروا رغم كل ذلك، هؤلاء يستحقّون لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود في عذاب هذه اللّعنة المتمثّل في جهنم، بلا أن يخفّف عنهم العذاب ولا ينظرون (يؤجّل عذابهم إلى حين). ويتجلّى استحقاقهم لها العذاب الهائل بعد ملاحظة عنادهم للحقّ الواضح، وهو يكشف عن خبث باطني، واصرار نفسي على الإنحراف مهما طال الزمن، وكذلك ملاحظة ضعتهم كمخلوقات ضعيفة وعظمة خالقهم الذي عصوه بدلاً من شكران نعمه الجزيلة.

٨٩: ولكنّ باب الأمل مفتوح لهؤلاء الضالّين، كي يعودوا إلى صراط الحقّ ويتوبوا نادمين على ما بدر منهم، وعاملين على إصلاح أنفسهم لتشملهم رحمة الله ومغفرته.

٩٠ ، ٩١: وفي قبال التائبين يعرض القرآن هنا نموذجين للعناد:

الأول: نموذج الذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفراً فبلغوا حداً لا يُرجى معه الصلاح والهداية والتوبة.

والثاني: نموذج المصرّين المستمرّين على الكفر حتى الموت، وهؤلاء سوف يجزون عذاباً أليما حتماً، لا ناصر لهم من دونه ولا شفيع، ودون أن ينفعهم ما أنفقوه في حياتهم، لأنهم لم يقصدوا به وجه الله، كما لن ينفعهم أن يتملكوا بعد الموت ـ فرضاً ـ ملء الأرض ذهباً، ثم يتصدّقوا به فداءً من العذاب الخالد. والقرآن يذكر هذين النموذجين محذّراً الكافرين من مغبتهما وقاطعاً تمنّيات التوبة بعد ذلك.

لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

٩٢: بيان لنوعية الإنفاق، وأنه لن يحصل المرء على البر وهو الخير المعبِّر عن الإيمان الكامل - إلاّ بالبذل من كل ما يحبُّه لنفسه، وبذلك تطهر القلوب من الخسَّة والطمع، وتطفح بروح الإيثار والمحبَّة. هذا والله عليم بكل ما ينفقه الإنسان وما يقصده من ورائه. ويذكر لنا التاريخ صوراً رائعة للبذل حققها الفرد والمجتمع المسلم تعبيراً عمّا يتركه الدين في النفس الإنسانية.

٩٣، ٩٤: في مجال فضح مدّعيات اليهود وكشف شبههم يتعرض القرآن إلى شبهة يهوديّة حول تحليل القرآن لبعض الأمور التي زعموا أنها كانت محرّمة في ملة ابراهيم(ع)، رغم أنه مصدّق لها، فيردُّهم القرآن ببيان حقيقة هي أن الطعام كله كان حلالاً لبني اسرائيل، قبل أن تنزل التوراة والذي حدث أن يعقوب (اسرائيل) حرّم على نفسه بعض الطعام لنذر أو ضرر أصابه منه، وجاءت التوراة فحرّمت بعض الطعام عليهم خاصّةً عقوبة على ظلمهم، وهنا يتحدّى اليهود أن يأتوا بالتوراة فيتلوها ليجدوا تصديق ما يقول ان كانوا صادقين في موقفهم، ولكنّهم يفترون الكذب، ومن افترى الكذب بعد وضوح الحقّ فإنّما يظلم نفسه ويظلم الحقيقة. هذا وقد ابتليت الأمة الاسلاميّة - كما اليهود - بوضّاعين باعوا دينهم للسلطات الغاشمة فنسجوا الأكاذيب وشوّهوا التاريخ.

٩٥: إن تراجع اليهود عن الإتيان بالتوراة لكشف الواقع هو اعتراف صريح بصدق الإسلام، وهو يؤكد إلى جنب الدلائل البيِّنة أن القرآن كلمة الله والله أصدق القائلين، وقد أخبر بأن الإسلام هو امتداد أكمل لملّة ابراهيم الحنيفة الخالصة من شوائب اليهود وشرك المشركين، فاللازم اتباع الإسلام ونبذ الخرافات والأكاذيب.

٩٦: شعر اليهود بقيمة تحويل القبلة إلى البيت الحرام في حياة المسلمين فتعمّدوا إثارة الشبهات والأراجيف، ومنها: إنّ اتباع الإسلام لملّة ابراهيم ينافي الإتجاه إلى الكعبة، إذ كان ابراهيم يتّجه إلى بيت المقدس - حسب زعمهم - فردُّهم القرآن بأن الكعبة هي أول بيت وضع للعبادة ببكة (أي مكة التي يبكّ - يزدحم - الناس عندها) فقد رفع قواعدها ابراهيم وابنه اسماعيل، ودعا الناس للحج إليها. امّا بيت المقدس فقد بناه سليمان بن داود بعد ذلك بقرون، ومن ثم أعلن القرآن الكعبة محوراً للهدى العالمي، ومركزاً لبركات الله الماديّة والمعنويّة، فمن المنطقي إذن إتجاه المسلمين إليها باعتبارها أوّل مركز للتوحيد والهدى.

٩٧: وفي بيت الله الحرام آيات وعلامات واضحة تدل على عظمته وحرمته واتصاله بملّة ابراهيم، وأوّلها: مقام ابراهيم، وهو الحجر الذي كان يقف عليه عند بناء البيت أو حين العبادة، والثاني: الأمن لمن دخله، وهي سنّة تاريخيّة متّصلة به(ع) وأقرّها الإسلام ودعا إليها، والثالث: فريضة الحج التي بدأت بأذان ابراهيم ودعوته الناس ليأتوا إليها من كل فج، واستمرّت عند العرب حتى ظهور الإسلام إذ أقرّها بعد أن هذّبها من الخرافات التي علقت بها.

وتتجلى في الحج معان جليلة: كتعميق الإرتباط بالله، وتركيز توحيده بالطواف حول مركز التوحيد، والشعور بالعمل والتضحية في سبيله، وطلب المغفرة والتوبة، واستحضار التاريخ المؤمن، وتجلي عظمة الدين بإثارة مشاعر الوحدة والاخوة والمساواة والتعرّف على مشاكل المسلمين، ونشر المعارف الإسلامية فيما بينهم. والحجّ واجب على المستطيع من حيث القدرة الماليّة والجسديّة، فمن كفر بهذه الفريضة وتركها عامداً فإنما يخسر عطاءها الكبير، ولن يضر الله شيئاً لأنه غني عن طاعة العالمين. قال أمير المؤمنين(ع): (وجعله - أي البيت الحرام - سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للاسلام علَماً، وللعائذين حرماً)[1].

٩٨، ٩٩: توبيخ لأهل الكتاب على كفرهم بآيات الله بتحريفها وكتمانها، وصدّهم (منعهم) عن سبيل الله والطريق الحق الذي يحقّق مصالح البشرية وسعادتها، دون السبيل الاعوج الذي يبغونه ليجرّوا البشريّة إلى الدمار. كل هذا وهم يعلمون بانحرافهم وكأنهم غافلون عن أن الله شاهد عليهم ولا يغفل عما يقومون به.

١٠٠، ١٠١: تحذير للمؤمنين من اتباع بعض أهل الكتاب - ولعلّهم اليهود - إذ يؤدّي ذلك إلى الإرتداد للكفر بعد الإيمان، وكيف يكفر المسلمون بالله والاسلام بعد وضوح الحقّ لهم عبر آيات بينات تُتلى عليهم، وبعد وجود رسول الله(ص) بين ظهرانيهم يحمل دلائل صدقه في سلوكه وأقواله ومعاجزه، ويرسم لهم الطريق الوحيد للهدى، فإذا سار المسلمون عليه فقد اعتصموا بالله وهُدوا إلى صراط مستقيم حتماً.

---

١ - نهج البلاغة، خ١، ص٤٥، د. الصالح.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

١٠٢: إرشاد قرآني لحكم العقل بطاعة المولى الحقيقي والمنعم الوحيد على الكون والانسان بالوجود والخير وسائر النعم، ولا يتم ذلك إلاّ بالتسليم الحياتي الكامل له تعالى والثبات على ذلك حتى الموت، ولما كان الموت غير معروف الأجل فعلى المؤمن أن يمتحن إسلامه دائماً ويراقب سلوكه لئلا يموت وهو غير مسلم. قال الإمام الصادق(ع) في معنى (حق تقاته): (يطاع ـ أي الله ـ فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر)[1].

١٠٣: بعد دعوة القرآن لتقوى الله الحقّة تأتي الدعوة المهمّة للاعتصام الجمعي (الارتباط التام) بحبل الله مما يحقّق الوحدة الانسانيّة التي تشكّل العقيدة أساسها، وهي رابطة تسمو على الروابط القوميّة والوطنيّة والمصلحيّة وأمثالها. وفي الآية تذكير للمسلمين بحالتهم المزرية في الجاهلية، حيث العداوة الطاحنة، وحيث كانوا على شفا (حافّة) حفرة من نار الضياع والضلال الأخلاقي والعقائدي، فأدركتهم نعمة الله فعادوا إخواناً على منهج واحد وإلى هدف واحد، واتصفوا بأروع الصفات الحميدة، وساروا صعداً نحو الهدى بعد أن مدّت السماء اليهم حبلها المتين وهو القرآن الكريم، والرسول الحامل للقرآن، وأهل البيت(ع) الذين جعلهم الله حفظة للشريعة بعده(ص) كما ورد في أحاديث كثيرة، منها: ما عن أبي سعيد الخدري، عن النبي(ص) قال: (اني قد تركت فيكم حبلين: إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، الا وانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)[2].

وفي الآية كذلك درس رائع للمسلمين يدعوهم دائماً لنبذ حالات الجاهلية، والتمزّق، والابتعاد عن حبل الله، ويؤكّد لزوم العودة إلى نعمة الله العظمى (الاسلام).

١٠٤: الإسلام دين الإنسانية القائد، والأمة الإسلاميّة هي الأمينة عليه، فمن الطبيعي أن تعنى بأمر نشره على الصعيد العالمي، وتطبيقه التام في مجالها الحياتي، وتوكل أمر متابعة ذلك إلى أُمة (جماعة) منها، وربّما كان المقصود أن تجعل من نفسها الأُمة الداعية للخير والحضارةالصحيحة، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بعد معرفة المعروف والمنكر بالدقّة واتخاذ أفضل الأساليب في الأمر مع مراعاة عنصر المرونة والموعظة الحسنة. وقد ورد عن النبي(ص) قوله: (لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[3].

١٠٥،١٠٦،١٠٧: تحذير للمسلمين من الفرقة والتنازع، وتذكير بمصير أهل الكتاب الذين لم ينتفعوا بآيات الله الواضحة إذ سيلقون العذاب الخالد يوم القيامة حيث تبيض وجوه المؤمنين، معبّرة عن طهارتهم وإخلاصهم، وتسود وجوه العاصين لظلمهم وتفرّقهم، وذلك بعد أن يؤنّبوا على كفرهم بعد الإيمان، ومما يؤسى له أن بعض المسلمين لم يستفد من هذا التحذير وسلك نفس المسلك، وقد قال رسول الله(ص): (لتركبنّ سنن من كان قبلكم.. حتى ولو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه)[4].

١٠٨،١٠٩: ان القرآن إذ يتحدث عن آيات الله، ويذكّر بالثواب والعقاب الاخرويين بالحقّ، فإنما يهدف لهداية الإنسان وتحذيره من الإنزلاق إلى الهاوية، وحينها يكون العذاب جزاء طبيعياً للمنحرفين، بدون أي شائبة ظلم في البين، وانما يحتاج للظلم الضعيف، في حين إن لله ما في السماوات والأرض واليه مرجع الأُمور كلها.

---

١ – وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٣٥.
٢ – بحار الأنوار، ج ٢٨ ص ٨٣ باب ٣١.
٣ – الكافي ج ٥ ص ٥٦.
٤ – بحار الأنوار ج ٥١ ص ١٢٨.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

١١٠: تكريم للأمة المسلمة بجعلها خير أمم الأرض، لأنها تحمل خاتمة الرسالات لا لنسب أو قومية ـ كما نجد ذلك عند اليهود ـ والمسلمون يحتلُّون هذا المنصب ماداموا يحملون الرسالة، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون حياتهم على الإيمان بالله. والمجال مفتوح للجميع كي يدخلوا في هذه المسيرة الطليعية، إلاّ إننا نجد أن فئة من أهل الكتاب قد وفِّقت لذلك ونكص أكثرهم وفسقوا (أي خرجوا) عن المنطق السليم.

١١١: يضمن القرآن للمسلمين النصر على اليهود ما داموا مؤمنين به آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ويخبرهم ان اعداءهم لن يستطيعوا إلحاق الضرر البالغ بهم إلا ما كان من قبيل الأذى كالسب والجراح وعرقلة الجهود، اما النصر النهائي فهو للمسلمين إذ لا ثبات لأعدائهم في القتال وسرعان مايولون الأدبار (ينهزمون) وليس لهم بعد ذلك من ناصر.

١١٢: عصى اليهود أوامر الله واعتدوا على خلقه حتى انهم كذّبوا بآيات الله وقتلوا الأنبياء المصلحين ظلماً، فحلَّ عليهم غضب الله، وضربت (كتبت) عليهم الذلّة والمسكنة، والإحساس بالحقارة والهزيمة الداخلية أينما ثقفوا (وجدوا) فلا نجاة لهم من ذلك ولا مفرّ إلاّ بحبل (سبب) من الله بأن يعودوا إلى صراطه المستقيم ومنهجه الحق، أو بأن يستفيدوا مما جعله الله لهم من حقوق الذمة في المجتمع الإسلامي، أو بسبب من الناس حين يعقدون تحالفاً مع الآخرين يوفرون به لأنفسهم الحماية والأمن.

١١٣،١١٤،١١٥: القرآن لا يدين جنساً أو شعبا بأكمله وانما يركز على العمل والسلوك. فها هو يوضح ان الذلة التي ضُربت على بني اسرائيل كانت نتيجة أعمالهم وانحرافهم، ولذا فهي لا تشمل القلّة الواعية التي انضمت إلى الرعيل المسلم، نابذة بذلك حقدها وتعصبها الذميم، ومتصفة بسمات المسلمين من القيام بالحق والعمل به، وتلاوة آيات الله في آناء (أوقات) الليل حيث الصفاء النفسي والهدوء، والسجود تضرعا وخضوعاً لله، والإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات، مما يجعلهم من الصالحين عقيدة وسلوكاً وعملاً. ولن يكفر (يُعدم) هؤلاء ثواب ما عملوا من خير واحسان أملاه عليهم صلاحهم وتقواهم الذي يعلمه الله، وسيجزيهم بمقتضاه الجزاء الأوفى والنعيم الخالد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

١١٦: ان كل الذرائع المادية للكافرين، من الأموال والبنين والتي كانت تمهد لهم السيطرة وتمنع عنهم الأذى في الدنيا، لن تغني (تمنع) عنهم عذاب الله يوم الفزع الأكبر حيث يواجهون أعمالهم السيئة وانحرافهم العميق الذي جرّهم إلى الخلود في النار.

١١٧: وربما يقوم الكافرون في الدنيا ببعض الأعمال النافعة كالإنفاق لأغراض خاصة من سمعة أورياء أو عاطفة إلاّ أنها لم تكن نابعة من إيمان ونية خالصة منسجمة مع باقي الأهداف الإنسانية العامة فإنها ليست ذات قيمة أخلاقية في موازين الله، ولذا تشبه الآية مثل هذه النفقات بحرث (حقل) خصب ثارت به ريح عاصفة فيها صرّ (برد شديد) فدمرته عن آخره نتيجة سوء تصرف صاحبه وظلمه لنفسه في عدم اتباعه السبيل الصحيح.

وهكذا فالاسلام يركز على نية العمل قبل العمل نفسه، لأن النية الصالحة تكشف عن تأصل للخير في النفس وسمو معنوي يشكل منبعاً لتكرر العمل في المستقبل.

١١٨،١١٩،١٢٠: تحذّر هذه الآيات المؤمنين ـ أينما كانوا وفي أيّ عصر وجدوا ـ أن يتخذوا من أعدائهم الكتابيين وغيرهم بطانة (مستشارين وموضع ثقة) لأنّ هؤلاء يخالفونهم في العقيدة والهدف ويعملون على اقتناص الفرص لضربهم والقضاء عليهم، فهم لا يألون (يقصّرون) في إلحاق الخبال (الشر وعدم الإتزان) بالمسلمين، وتراهم يتمنّون أن يقع المسلمون في العنت (التعب) نتيجة الأزمات والتفسخ والهزائم. وإذا كانت أفواههم لا تلوح منها إلا بعض امارات البغضاء والحقد فان قلوبهم تحمل حقداً أكبر فاض ـ رغم كل وسائل الإخفاء ـ فبدا بعضه على ألسنتهم، ولكن بعض المسلمين انطلت عليهم حيل الأعداء، ودفعتهم بعض العواطف اللاواعية فمنحوهم حبّا وثقة لا يبادلهم أعداؤهم مثلها.

وقد دعاهم القرآن إلى أن يلتفتوا إلى الفارق العقائدي الكبير المتجلّي في إيمان المسلمين بالكتب المنزلة من الله كلّها والإلتزام بمقتضياتها ورفض الأعداء لذلك وعدم إيمانهم بكامل الشريعة والكتب الإلهية. كما كشف القرآن عن نفاق هؤلاء بأنهم إنما يعلنون الإيمان عند لقائهم بالمسلمين فإذا خلوا إلى أنفسهم أكلهم الحقد وعضّوا أناملهم (اطراف أصابعهم) من الغيظ على المسلمين الذين نصرهم الله على أعدائهم وفتح لهم سبل الخير والكمال. وهذا الحقد لابُدَّ وأن يدفعهم للكيد والتآمر. إلاّ أن الله تعالى يسخر من كيدهم ويدعهم يتعذّبون بهذا الحقد المميت الذي لن يخفى على الله العليم بمكنونات الصدور.

ومن شأن هؤلاء أن يغمرهم الحقد والحزن والأسى فيما إذا فتح الله على المسلمين خيراً أو منحهم نصراً وحسنة، في حين يستولي عليهم الفرح والسرور عندما تنزل بالمسلمين نازلة ومصيبة.

وهكذا يكشف القرآن بوضوح نفسيّة أعداء الدعوة الاسلاميّة وحقدهم وتآمرهم الدائم عليها، ليحذرهم المسلمون فلا يعقدوا معهم أية روابط يمكن أن تشكّل ثغرات ينفذون من خلالها إلى جسم الأمة، ومن هنا يدعوهم القرآن إلى التسلّح بالصبر والطاعة الكاملة لمنهج الله والإعتماد على قوته التي تدع القوى الأخرى هباء وتكشف كل خططها، لأن الله محيط وعالم بها كلّ العلم والإحاطة.

والتاريخ الإسلامي يكشف عن الدور التآمري الكبير الذي لعبه المستشارون اليهود وغيرهم ممن قرّبتهم الأجهزة الحاكمة مما جرَّ على المسلمين الوبال والضياع، وان وجود الجيش الهائل من المستشارين الأجانب في شتى المجالات في الأقطار الإسلامية اليوم لدليل حيّ على بعدنا عن إرشادات القرآن وتحذيراته.

١٢١،١٢٢،١٢٣: كمصداق لما تقدّم من تآمر أعداء الإسلام ونفاقهم، تذكّر الآية بواقعة (أحد) المهمّة، حيث خرج الرسول(ص) غدوة ـ الصباح الباكر ـ من أهله في المدينة يبوّئ (يهيئ) المؤمنين أماكن القتال ويوزّعهم عليها، فانطلقت اشاعات الأعداء التي علم الله بها وفضح مضامينها، وحيث همت (عزمت) طائفتان من المسلمين أن تفشلا وتتراجعا نتيجة التقولات والحرب النفسيّة، ناسيتين ان وليّهما الله الذي يجب أن يتّكل عليه المؤمنون في مسيرتهم الجهاديّة المظفرة، هذا وان عنصر التوكّل ليقوّي أمل الإنسان بالإنتصار، أفلم ينصر الله المسلمين في بدر على الرغم من ذلّتهم ـ أي قلّتهم وضعفهم ـ؟ فليتسلّحوا بتقوى الله التي تجرّهم إلى شكره تعالى بتحقيق مقتضيات الخلافة في الأرض.

إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

١٢٥،١٢٤: وعد النبيُّ(ص) المؤمنين ـ وهم قلّة ـ في بدر بنصر إلهي حسّي يتمثّل في ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لمشاركتهم في معركتهم المصيريّة. فإذا صبر المسلمون، وثبتوا في الميدان، وأطاعوا أوامر الرسول(ص) بمقتضى التقوى فإنّ الله يضمن لهم ـ إذا أتاهم العدو من فورهم (أي بغتة) وهاجمهم ـ أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين (أي لهم علامات مميّزة أو يسومون الأعداء الهوان) وعلى المسلمين أن يعوا هذا في كلّ معاركهم، إذ الإرادة الواعية لهدفها والمعبِّر عنها بالصبر والتقوى هي الشرط الرئيس لطلب المدد الإلهي وتحقيق الإنتصار.

١٢٦: كان المدد الإلهي للمسلمين بالملائكة بُشرى سماويّة تثبّت قلوبهم وتطمئنها، وليعلموا أنّ الأمور كلّها بيده تعالى ولا حول ولا قوة إلا به، وهذا المدد يوجد التوازن النفسي المطلوب بين ثقة المسلم بنفسه وعمله وإيكاله الأمر له ـ تعالى ـ.

١٢٩،١٢٨،١٢٧: إنّ الأمور كلّها بيد الله لا غير، لأنّه المالك الحقيقي لما في السماوات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وفقاً للحقّ والحكمة. ومن هنا فله تعالى – بعد أن نصركم ببدر أن يقطع طرفاً من الذين كفروا ـ أي يضعفهم ويشلّ حركتهم ـ أو يكبتهم ويذلّهم بالهزيمة والرجوع بالخيبة، أو يتوب عليهم، أو يعذّبهم بظلمهم وضلالهم. وهكذا يعيش الإنسان بين خوف من عذاب الله ورجاء لتوبته ومغفرته. ثم إنّ الأمور لما كانت بيد الله فلا معنى لتحميل النبي(ص) أيّ عاقبة أو مسؤولية ليست له يد فيها.

١٣١،١٣٠: وفقاً لأساليب القرآن في علاج الأدواء الاجتماعيّة المختلفة، وللتنوع في العرض نجده ينتقل من الحديث عن الضعف في ميادين القتال إلى الضعف في البناء الداخلي والمتمثّل في (الربا) لينهى عن أكله أضعافاً مضاعفةً، ولعلّه بهذا يحرّم نوعاً من الربا الجاهلي الفاحش متدرجاً في تحريم الربا. أو أنه يشير إلى طبيعة النظام الربوي المؤدية إلى تراكم الديون، خصوصاً على المستهلكين للمال المقترض. هذا وان للربا آثاره الاقتصادية والنفسيّة الأخلاقيّة المدمِّرة للمجتمع، وهو يجعل المرابي يتربّص فرص احتياج المجتمع ليرفع السعر، كما يؤدّي إلى خزن مقدار كثير من المال المقوّم لحياة المجتمع إشباعاً للجشع والطمع. وكعادة القرآن يؤطِّر حكمه هذا بأطار التقوى الإلهية ليتحقّق الفلاح الإجتماعي بعد الإلتزام الكامل به محذِّراً من النار التي اعدت لكلّ من سوّلت له نفسه مخالفة أحكام الله والكفر بها.

١٣٢: لن تصيب الرحمة الإلهيّة مجتمعاً إلاّ إذا توفر على أرضية صالحة هي طاعة الله والرسول المبلّغ عنه، والتي هي أمر طبيعيّ يأمر به العقل قبل كلّ شيء.

﴿وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى‏ ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾

١٣٣: دعوة للتنافس في الخير والفوز بالغفران الإلهي وجعله سمة إجتماعيّة عامّة، تمحو الأنانيّات وتشيع الصلاح، وبإضافة المسارعة للمغفرة تشير الآية لسرعة تحقق نتيجة العمل الخيّر حيث ينعم الإنسان بجنّة هي أقصى ما تكون من السعة المعبّر عنها بـ «عرضها السماوات والأرض». وقد أعدّت لمن سلكوا سبيل التقوى ومراقبة الله. والقرآن بهذا يمهّد لذكر بعض صفات المتقين لإصلاح ما أصاب المجتمع المسلم من انهيار نفسي بعد غزوة احد وإعداده للمعارك المقبلة.

١٣٤: بعد التمهيد السابق يعرض القرآن لبعض أهمّ صفات المتقين الأخلاقيّة وهي: الإنفاق حال العسر واليسر، إذ يعبّر عن وثوق بالله ـ تعالى ـ وقيام بالواجب الإنساني. وكظم الغيظ، وهو كبح الغضب الهائج الذي يحتفظ للإنسان بعقله، ويمنعه من الإنتقام وتقطيع العلائق. والعفو عن الناس، وهي المرحلة الأخلاقية الاسمى التي لو راعاها المجتمع في مواردها الصحيحة لسادته العواطف الواعية. وأخيراً، يدعو القرآن للإحسان بكل معانيه وموارده وجعله إطاراً عاماً للسلوك. مما يجعل المجتمع مجتمع المحسنين الذي يحبّه الله ويغمره برحمته.

١٣٥، ١٣٦: الأصل في المتقين الإحسان، اما أنْ يسيئوا بفعل الفاحشة (وهي الفعل القبيح) ـ كالزنا مثلاً ـ أو يسيئوا بظلم أنفسهم ومنعها ما تستحقّه من سير تكاملي، فهذه حالة طارئة في حياتهم قد يبتلون بها لضعفهم، ولكن سرعان ما يعودون إلى الله ـ تعالى ـ فيذكرون عظمته وآلاءه ووعده بالخير ووعيده بالعذاب، ويستغفرونه ـ ولا غافر سواه ـ ومن ثم يرفضون البقاء على حالة الذنب، وانما يتحوّلون إلى عالم الاحسان بوعي واخلاص وعزم أكبر لينالوا أجر العاملين، وهو التنعّم الخالد في الآخرة بجنّات تجري من تحتها الأنهار.

١٣٧، ١٣٨: يعترف الإسلام بالقوانين التاريخيّة العامّة المتحكمة في المسيرة الإنسانية بمقتضى إرادة الله وحكمته، ودون أن تفقد الإنسان إرادته بل تترك له الخيار في أن يكون موضوعاً لقانون الإنحطاط أو سنّة الكمال. وهذه القوانين التكوينيّة هي لصالح المسيرة الإنسانيّة الصحيحة أصلاً في نظر الإسلام: فالعاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، والفناء الحضاري للمكذبين.- وبهذا الاعلان ـ كما يبدو ـ تطرح خطوات علاج الحالة بعد أحد.

وهكذا نجد القرآن يدفع المسلم لتخطّي محيطه الخاص والسير في آفاق الأرض، ودراسة المجتمعات وأسباب انحطاطها ورقيها ليكون أقرب إلى الواقع، وينتخب السبيل الأصلح لا ليبني متاحف أثريّة جامدة يفتخر بها، ويعود إلى حالة من الوثنيّة التاريخيّة ـ كما نجده عند المسلمين اليوم ـ والواقع ان على الإنسان أن يشخّص هدفه، ثم يكون موضوعاً يتقبّل الهدى الإلهي ليحيله إلى عمل صالح، ولا تتحقق الموضوعيّة إلا بالتقوى.

١٣٩، ١٤٠، ١٤١: سنّة إلهيّة تؤكّد أنّ المؤمن الملتزم هو الأعلى حق في هذه الحياة، وان لا معنى للضعف والهوان والحزن وفقدان الإرادة بعد معرفة سبب الهزيمة الحقيقي وهو فقدان روح الإيمان والإلتزام بمقتضياته. وبهذا ترفع الآية معنويّات المسلمين المنهارة بعد معركة (احد) وتذكّرهم بأنّ القرح (الجرح) الذي أصابهم أصاب عدوّهم أيضاً، فلا معنى للضعف بعد وعد الله بالنصر.

إنّ الأيام يداولها (ينقلها) الله بين الأمم تبعاً لأعمالها واختيارها، وليس هناك نصر أو هزيمة أبديان. وسنّة المداولة قائمة على أساس مصالح عامّة لها دخلها في تحقيق التفاعل الحضاري البشري ودفع الإنسانية للتكامل. كما أن من نتائجها هذا التمحيص الرائع للمؤمنين وانتهاء الأمر إلى تجلّي نماذج ايمانيّة سامية تشكّل الفئة الشاهدة (المقدّمة) على الأمّة والبشريّة. نعم: لهذا التداول أثره في تطهير نفوس المؤمنين وظهور جوهرهم، فيعلم الله الذين آمنوا بإظهار واقعهم ويفني الكافرين.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

١٤٢: إنّ الإنتماء لمعسكر الإيمان، قولاً ونسبةً مجرّدة، لا يكفي لحصول النصر ودخول الجنّة، وإنما جرت سنّة الله في الإمتحان بالبلاء والمصاعب لتبدو الفروق الحقيقيّة بين المؤمنين، فيمتاز واقعاً: المؤمن المجاهد الصابر عن الآر المتخاذل غير الثابت على الحقّ.

١٤٣: تذكير للمسلمين بتمنّيهم السابق للموت في سبيل الله، واستنكار لعدم صدق ذلك التمنّي بالهزيمة في احد، والفشل في الإمتحان وعند الرؤية الحسيّة للموت، حيث حمي الوطيس.

١٤٤: خلال علاج القرآن لنقاط ضعف المسلمين، يتعرّض إلى النظرة الضيّقة لنوعيّة الإرتباط بالنبيّ(ص) والتي جعلتهم يعلّقون ثباتهم بل وإيمانهم على حياته (ص)، وما أن شاع قتله(ص) حتى رأيتهم يفرّون يائسين.

روى ابن هشام: ان أنس بن النضر إنتهى إلى مجموعة من المسلمين آنذاك وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل. وقد صحّحت الآية هذا التصوّر وأعلنت أن المسلمين يجب أن يحملوا الإسلام على مدى العصور للعالم كهدف سام يعمل المسلمون على تحقيقه حتى بعد وفاة الرسول(ص) إذ ما هو إلا رسول أدّى رسالته كما أدى الرسل من قبله رسالاتهم، فلتحمل الأمة رسالته(ص) وتواصل السير بثبات. وأيُّ تراجع وتقهقر إلى الجاهليّة لا يعني إلاّ الشقاء، وتضييع العزّ والهدى، ولن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي تعالى الشاكرين الثابتين على الحقّ والصامدين في معارك الجهاد الجزاء الأوفى.

١٤٥: إنّ عملية الموت تتم وفق آجال مكتوبة ونظام متقن قائم على حكمة إلهيّة، اما الجهاد أو الفرار فلا يؤثّران في ذلك، وعليه فلا ينبغي أن يكون الموت مخيفاً للمؤمن ومانعاً له عن حمل مسؤولياته الكبرى، خصوصاً بملاحظة أهدافه التي تتجاوز الدنيا إلى عالم الخلود. اما ذوو الأهداف الدنيويّة الرخيصة كمن خالفوا أوامر النبي(ص) أو قاتلوا للحصول على الغنائم. فقد يحصلون على شيء منها لا قيمة له في حساب الله، والفائزون حقاً هم الشاكرون الصابرون.

١٤٨،١٤٦،١٤٧: وما أكثر الطلائع المجاهدة في التاريخ، والتي قاتلت تحت ألوية أنبيائها محقّقة بذلك ربيّتها (أي انتسابها الكامل للرب) بلا ضعف ودون أيّ استكانة (تضرع) للظالمين الطواغيت، بل تذرعت بالصبر واحتسبت ما أصابها في سبيل الله، فعادت موضع حبّه الذي يعني الرحمة الفائضة، ولم تهزّها التوازل فتتبرّم وتيأس وتفشل، بل أعلنت شعار اللجوء إلى الله في كلّ شيء وطلب غفران النقص والزلل والإسراف والضعف الذي يصيبها أحياناً، وذلك لتجنّد كلّ حياتها لله، وتثبت على الصراط المستقيم، وتنتصر على عدوّها الكافر.

وهكذا لم تنسَ تربية نفسها واللجوء إلى الله في كلّ المواقف الحرجة فآتاها الله النصر الدنيوي، والعزة والجزاء الأخروي الجزيل لقاء إحسانها. فليعتبر المسلمون ويواصلوا ـ بنفس الروح ـ حمل مشعل (الربّانية).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

١٤٩-١٥٠: دعوة قرآنية لقطع روابط الطاعة والإستماع لنصائح الكافرين والإعتماد على خططهم، بعد وضوح أهدافهم الماكرة في العمل على إرجاع المسلمين إلى جاهليّتهم السابقة. وهل هناك أسوأ من هذه العاقبة والخسران الواضح والحرمان من هدى السماء؟ أمّا روابط الولاء الحقيقي فهي التي تشدُّ العباد بالله مولاهم الحق، خالق الكون، والمنعم عليه، والماسك بيده أسباب النصر، فهو خير الناصرين، وليس بريق الكفار ووعودهم إلاّ السراب الموهوم.

١٥١: إذا صدق المؤمنون في طاعتهم، منحهم الله الثقة بأنفسهم ـ مهما قلّوا ـ وألقى الرعب والهلع في قلوب أعدائهم الكافرين ـ مهما كثروا ـ لأنّ هؤلاء بكفرهم إنما يستندون إلى خيال ووهم يتصوَّرونه شريكاً لله تعالى دون أيّ سلطان (دليل وبرهان) فإذا رجعوا لأنفسهم انكشف لهم وهمهم، وغمرهم الرعب من الله الذي سيجزيهم النار التي أعدّها لهم، نتيجة ظلمهم لوجدانهم وعقولهم.

١٥٢: كان الوعد الإلهي بالنصر وعداً حقيقياً رأى المسلمون صدقه عند ثباتهم وطاعتهم، فراحوا يهزمون المشركين ويحسُّونهم (يستأصلونهم) بإذن الله ونصرته لهم، ولكنّ المسلمين فقدوا شرط النصر والعون الإلهي وهو الصبر والتقوى، وابتلوا بالفشل والتنازع في أمورهم، وعصى بعضهم أوامر النبي(ص) واجتهدوا في مقابل نصه(ص) بالبقاء على الجبل مهما كانت نتيجة الحرب، فتركوا مواقعهم ليحصلوا على جزء من الغنائم الدنيويّة في حين صمد آخرون مؤثرين الشهادة وابتغاء الآخرة.

وكانت النتيجة أن صرف الله المسلمين عن إلحاق الهزيمة بالكافرين، بل دارت الدائرة عليهم، ليمرُّوا بتجربة مرّة وامتحان صعب، فيعودوا إلى ذواتهم، ويكتشفوا مكامن الضعف فيها، فيقوّموها استعداداً لميادين الجهاد المقبلة، وليحصلوا على رضا الله وعفوه عنهم، وينعموا بفضله العميم.

١٥٣: ويستمرُّ القرآن في استعراض صور الهزيمة في (أحد) فيذكّر المسلمين بحالتهم حين اصعدوا (ابتعدوا وأمعنوا في الفرار وهو غير الصعود الذي يعني الإرتقاء إلى المكان العالي) دون أن يلووا (يلتفتوا) على أحد من المسلمين، حتى أنهم خلّفوا رسولهم الذي كان يدعوهم من ورائهم للعودة والقتال إلى جانب من ثبت معه من القلّة المؤمنة الشاكرة.

وقد أثابهم الله بنعمة الندم والغم لينقذوا أنفسهم فلا يحزنوا على النصر الفائت والهزيمة النكراء التي أصابتهم، وربما قيل إنّ الله ابتلاهم بغمّ الهزيمة جزاء على غمّ التنازع فيما بينهم، فيجب أن لا يحزنوا على ما فاتهم من النصر، وما أصابهم من الهزيمة لأنّه نتيجة طبيعيّة لما عملته أيديهم، أو إن الله عاقبهم بغمّ الهزيمة، جرّاء الغم الذي تركوه في نفس النبي(ص).

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

١٥٤: شمل الله طائفة من المؤمنين بفضله، فألقى عليهم أمناً يتمثّل بالنعاس، مما أذهب الكثير من تعبهم، وطمأن قلوبهم فقويت نفوسهم على منازلة العدو.

في حين بقيت طائفة أخرى نهباً للحيرة والخوف، إذ لم تتجاوز همومها الضيّقة إلى الهموم الرسالية الكبرى، وراحت تتساءل عن امكان النصر وهل لهم فيه نصيب، وذلك بالرغم من وعود القرآن بالنصر، وكان هذا تساؤلاً جاهلياً ردّه القرآن بأنّ أمر النصر كلّه بيد الله يؤتيه وفقاً لحكمته وشروطه، ولا ينفع المؤمنين مجرد الإنتساب اللفظي لله تعالى.

وهكذا تخفي هذه الطائفة في نفسها ما لا تبدي وتظهر، وإنها تتساءل أيضاً عن النصر، وعن صحّة تخطيط النبي(ص) وصدق وعوده، وإلاّ فلماذا قُتل رجالها في المعركة، وهذا انكار منهم لحقيقة النصر الإلهي للمؤمنين العاملين، وهي حالة جاهليّة حاول القرآن أن يعالجها ببيان أن أمر النصر كلّه بيد الله، وقد جعل له شروطاً، وان هنالك نظاماً للآجال والموت لا يتعدّاه أيّ انسان، وأنه هو الذي يتحكّم في البين، فحتى لو اختاروا البقاء في بيوتهم لخرج من كُتب عليهم القتل إلى حيث يستشهدون. وأخيراً: لابدّ من الإمتحان الذي يتميّز فيه الثابت من المنهزم، وليكون لهم ذلك درساً جهادياً وتربوياً، وإن بدا قاسياً مرّاً.

١٥٥: ينبّه القرآن المنهزمين في احد بأنهم كانوا قد مهّدوا للهزيمة ببعض ما عملوه من أعمال غير خالصة لوجهه تعالى، مما يوفر جوّاً قابلاً للتأثر بإيحاءات الشيطان ودعواته للزلل والتخاذل عن حمل الرسالة، إلاّ أنّ الآية تعلن العفو الإلهيّ العام عنهم ليستأنفوا حياة جديدة؛ تعتمد على تربية النفس وتدارك الأخطاء والإعتبار بالماضي، وملاحظة مدى حلم الله ـ تعالى ـ وغفرانه ليتمّ الشكر الحياتيُّ المطلوب.

١٥٦: علاجاً لحالة الإنهيار والتصوُّرات الباطلة التي تستتبعها وحالة القاء التبعيّة على الرسول(ص) وانه كان السبب في أن يفقدوا رجالهم، تنهى الآية عن الخيالات الجاهليّة التي يتخيّلها الكافرون، الذين لا يعتقدون بالحكمة الإلهيّة والإخلاص النبويّ والحياة الخالدة، ولذا نجدهم يقولون عن الغزّى (الغزاة في المعارك) والضاربين في الأرض (المسافرين) أنهم لو كانوا أقاموا في مدنهم لم يموتوا!! ولذا فالحسرة تأكل قلوبهم على خروج المتوفين. أما المؤمن المعتقد بأنّ أمر الحياة والموت بيد الله، وانه خبير بما يعمل الناس فلا ينبغي له أن يتخيّل هذه التخيلات أو يصاب بتلك الحسرة.

وقد قيل إنّ الآية تنهي عن التشبهُ بالكافرين في هذا التصوُّر لإبقاء المؤمنين على قوتهم الأمر الذي يبعث الحسرة في قلوب أعدائهم ويوهن قواهم.

١٥٨،١٥٧: بعد تذكير المسلمين بأنّ أمر الإحياء والإماتة بيده تعالى؛ يعلن لهم أنّ الموت هنا ربح لا خسارة. أليس هو في سبيل الله العظيم وتكامل الإنسانية؟ أليست المغفرة والرحمة الإلهيّتان خيراً مما يجمعه الناس من حطام الدنيا؟ ثمّ أليس الموت أو القتل بدءاً لمرحلة جديدة من الرجوع إلى الله الكامل، حيث يرفع الله الشهداء لمقاماتهم السامية، ويجزي العاكفين على الدنيا عذاباً وبيلاً.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

١٥٩، ١٦٠: وخلافاً للتصورات الباطلة فأنّ النبي(ص) هو المتفضّل على المسلمين، وأخلاقه هي مركز وحدتهم وسبب انشدادهم، ولو كان فظّاً قاسي القلب يواجههم بجزاء فرارهم من المعركة لانفضّوا وتفرّقوا عنه، ولكنّه ـ برحمة الله ـ لان لهم، وها هو قرّر الرأي الحاسم هو (ص) وعليه أنْ يمضي في تنفيذه متوكّلاً على الله تعالى.

ويلاحظ هنا أنّ الشورى هي غير الديمقراطيّة الغربيّة، إذ هي تشاور يقوم به ولي الأمر الذي يملك الولاية من الله طبق شروط معيّنة، وذلك في مجال الإدارة العامة وملء مناطق الفراغ التي تركتها الشريعة له، يلزمها بمشاورة الأخصائيين.

كما يلاحظ أنّ لوليّ الأمر الرأي الحاسم دون إلزام باتباع الأكثريّة أو الإجماع من قبل المشاورين، وانما يتّبع الرأي الأصوب في نظره ويتوكّل على الله في تنفيذه.

وهكذا يدعو الإسلام وليّ الأمر للإستماع إلى رأي الأخصائيّين أو كلّ من له رأي كشفاً للواقع وتطييباً للقلوب، وتحميلا اكبر للمسؤولية.

ونلاحظ أيضاً كيف يشكّل التوكُّل عاملاً إيجابياً مثبتاً للمؤمن الذي يعمل دائماً ببصيرة نافذة، ويبذل الجهد ملتفتاً إلى مدد الله وعطائه المتواصل. فهو الناصر الحقيقي للناس ولا ناصر لهم إن سلبهم مدده وعطاءه. وبهذه الروح المستمدّة من الله والواعية للهدف ينطلق المتوكّلون ليبنوا الحياة الإنسانية الكريمة العباديّة.

١٦١: إنّ الأنبياء (وهم أمناء الله على وحيه ورسالته) منزّهون عن الغل (الخيانة) في التبليغ أو في إدارة المؤمنين وتوخّي الخير لهم، والآية تردُّ على التهم الباطلة التي قالت إنّ النبيّ محمداً(ص) أورد المؤمنين موارد القتل، أو إنه ظلمهم في تقسيم الغنائم بينهم، وقد غفل هؤلاء عن عصمة الأنبياء فنسبوا إلى رسول الله(ص) الخيانة والظلم، وهما من أكبر المآثم التي سيحاسب الله مقترفيها يوم القيامة حيث توفّى (تجازى بشكل كامل) كلُّ نفس ما كسبت وعملت بلا أيّ ظلم أو إجحاف.

١٦٢: إنّ النبيّ(ص) هو قائد الفريق المؤمن المتّبع لرضى الله الذي هو الهدف الأسمى للمؤمنين، فلا معنى لتصوّر الغل والخيانة في سلوكه، فهل يستوي من اتبع رضا الله في كلّ خطواته، ومن باء (عاد) بسخط الله وحلّ عليه غضبه؟

١٦٣: تختلف درجات الناس من مطيعين وعاصين، والله تعالى بصير بهذه الدرجات التي حصلوا عليها نتيجة أعمالهم.

١٦٤: تذكير مهم لتجديد الحيويّة ومحو الشكوك التي ساورت بعض المسلمين حول الرسول(ص) ببيان منّة الله العظمى على المؤمنين، حين بعث منهم وفيهم خاتم رسله يحمل لهم آيات الله الهادية، ويطهّرهم من الجاهليّة وضلالاتها، ويفتح أبصارهم على تعاليم الكتاب الإلهي ويعطيهم الحكمة والشريعة الحقّة وبملاحظة الفوارق الكبرى بين حالتي الجاهلية والإسلام يحسُّ المسلمون بمدى الإمتنان الإلهي، فلا تعود للإشاعات المنافقة أي قدرة على النفوذ في صفوف المجتمع المسلم المتراص، وعرقلة مسيرته البنّاءة.

١٦٥: إنّ ما أصاب المسلمين في أُحد إنما كان من قِبَل أنفسهم، حيث عصى الرماة وأخلوا مراكزهم من جهة، وولي الآخرون أدبارهم، مؤثرين الحياة على الشهادة من جهة أخرى. ومع ذلك. فالآية الكريمة تهوّن عليهم المصيبة بتذكيرهم بالنصر والغلبة يوم بدر، حيث ثبتوا وصبروا وأطاعوا الرسول(ص)، فأصابوا المشركين ضعفي ما اصيبوا به هم يوم أُحد، إذ قتَلَ المسلمون في بدر سبعين رجلاً واسروا سبعين آخرين، ولم يُقتل من المسلمين يوم أُحد إلا سبعين رجلاً ولم يؤسر منهم أحد. هذا وان الله قدير على كلّ شيء، فلا ييأس المخلصون من المسلمين ولا يغتر الآخرون بمجرد إنتسابهم غير العملي للإسلام.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

١٦٦، ١٦٧: تأكيد على أنَّ كلَّ ما يجري في الكون إنّما يتم بإذن الله، ومنه ما وقع في أحد بعد أن هيّأ المسلمون أنفسهم للهزيمة بمخالفتهم وتنازعهم، على أنَّ تلك المصيبة قد شكّلت بلاء وامتحاناً ضرورياً تمرُّ به الجماعة المسلمة لينكشف لها إيمانها وثباتها على حقيقته، ولتتوضّح جيوب النفاق من خلال أقوالهم المثبّطة ومواقفهم المتخاذلة، فإذا قيل لهم تعالوا إلى الجهاد في سبيل الله أو إدفعوا العدوَّ عن أنفسكم وأهليكم سوّغوا تقاعسهم بحجج واهية كقولهم: بأنهم لو أدركوا صدق المعركة في قتالها، أو تكافؤها لاتّبعوا المسلمين والحقيقة هي أنهم لا يمتلكون الدافع العقائديَّ للجهاد؛ فهم للكفر أقرب منهم للإيمان، لأنهم ينطلقون من العناد والمصالح التي لم تكن مع القلّة المؤمنة آنذاك.

وهكذا؛ فأقوالهم إنّما هي مجرّد تسويغ لما تنطوي عليه قلوبهم من الشكّ في الإسلام وميلهم إلى الكفر، ولكنّ الله عليم بالنوايا التي كشفها للمسلمين ليتخذوا موقفهم الصحيح من المنافقين فلا يغترّوا بإشاعاتهم ولا يستجيبوا لتثبيطاتهم.

١٦٨: بدت شماتة المنافقين الذين قعدوا عن القتال في قولتهم لإخوانهم ومن يعيشون معهم في المجتمع المسلم: لو كان قتلاكم أطاعونا في عدم الخروج إلى قتال المشركين ما قُتلوا ولتمتّعوا بهذه الحياة، فواجههم القرآن بأنَّ أمر الموت والحياة بيد الله، فلا يؤثّر فيه القعود أو الجهاد، وإلاّ فهل يمكن لهؤلاء أن يدرؤوا (يدفعوا) عن أنفسهم الموت إن حلَّ بهم وهم قاعدون؟

١٦٩، ١٧٠، ١٧١: آية تحمل معاني الأمل للمجاهدين وتنفي موارد الحسرة وتصحّح مفهوم الموت.. فليس القتلى في سوح الجهاد لصالح الإنسانيّة أمواتاً طواهم الفناء ففقدوا متع الحياة، وإنما هم الأحياء حقّاً يعيشون في متع لا يشوبها مايشوب المتع الدنيويّة من كدر، فرزقهم يدر عليهم من رب رحيم، والفرح يغمرهم بفضل الله، وهم يتابعون أحوال المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم وبقوا في الدنيا فيستبشرون بمستقبلهم الوضّاء. وهكذا فلا خوف عليهم من فقدان نعمة، ولا حزن على ما فاتهم، إذ لم يفتهم إلاّ العرض الأدنى الذي بُدّل بالثواب المقيم والله لا يضيع أجر المؤمنين. وفي الآية إشارة واضحة لبقاء الروح الإنسانيّة بعد الموت.

١٧٢: تتحدّث الآية عن بسالة المؤمنين وطاعتهم الجيّدة في غزوة حمراء الأسد، حيث ندمت قريش على عدم استثمارها الكامل لانتصارها في أحد، فصمّمت على الرجوع والقضاء النهائي على المسلمين، فجهّز النبي(ص) جماعة ممن أصابهم قرح (جرح) وانطلق بهم كالأسود الجريحة لمقابلة قريش، وعندئذ خافت قريش من العاقبة ورجعت أدراجها إلى مكّة، وكفى الله المؤمنين القتال، ومدح من انطلق منهم بإخلاص وصدق، ووعدهم بالأجر العظيم المتناسب وعظمته ـ تعالى ـ.

١٧٣: عمل بعض الاشخاص على تخويف المسلمين المجاهدين إلاّ أنهم أعلنوا ثباتهم على الحقّ وازدياد إيمانهم بعدالة قضيتهم وانتصارهم المحتّم، بعد أن وفّروا كلَّ شروط النصر، واستندوا إلى الله وهو نعم الوكيل للمؤمنين المضحّين العاملين في سبيله ـ تعالى ـ.

فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

١٧٤: حصل الجيش المجاهد المنطلق إلى غزوة (حمراء الأسد) على الجزاء الأوفى والنعمة والفضل الإلهيّين دون أن يشتبك مع المشركين في قتال أو يمسّهم سوء. ذلك إنّ هدفهم في كلّ حال هو (رضا الله) والله ذو الفضل العظيم على من اتّبع رضوانه. ومن خلال الموقف نتعرف على الأثر التربوي الذي تركته الهزيمة في أحد في نفوس المسلمين نتيجة النقد الذاتي لسلوكهم واسترشادهم بهدى القرآن وتعليمات النبي القائد(ص). كما كان هذا المدح العظيم توجيهاً قوياً لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من الإصرار والطاعة.

١٧٥: تخويفات الشيطان وإشاعاته خواء وهباء يستهدف بها ضعاف النفوس وأصحاب المصالح الضيّقة فيخوفهم من أتباعه. أما المؤمنون الواعون للحقيقة فلا ينبغي أن يتأثروا بإغراءاته وتحذيراته بل يجب أن ينحصر خوفهم الحقيقي بخشية الله ـ سبحانه ـ والحذر من مخالفة سبيل الهدى الذي رسمه، ووعيده على هذا الإنحراف.

١٧٦: يُطَمئن الله نبيّه ـ وبالتالي المسلمين ـ أن لا يحزنوا للاستجابة السريعة من قبل بعض من أغواهم الشيطان بالكفر وجرّهم إليه، فوقفوا يحاربون الله ورسوله ورسالته، ذلك لأنّ هؤلاء، لن يوفّقوا في حربهم هذه ولن يضروا الله ورسالته شيئاً والعاقبة لها بلاريب، أمّا المسارعون للكفر فسوف يقودهم إنحرافهم إلى حرمان كامل من أيّ حظّ (نصيب) في نعيم الآخرة، وفوق ذلك عذاب عظيم.

١٧٧: إنّها التجارة الخاسرة حقاً أن يستبدل الإنسان ظلام الكفر والعصيان بنور الفطرة والإيمان، على انه يضرّ نفسه لا غير. ولن يضرّ الله شيئاً، لأنه الغنيّ المطلق عن الطاعة والأمن من المعصية، وليس عاقبة المنحرفين عن خطّ الصواب إلاّ الإرتكاس في العذاب.

١٧٨: ظنّ الكافرون أنّ انتصارهم الظاهري في المعركة وكسبهم لشيء من الحطام المادي وتنعُّمهم بمتعها، إنما هو كرامة وخير فازوا به، ولكنه في منطق الإسلام والواقع شر لهم، باعتبار إنّ ذلك الإملاء (الإعطاء والإمهال) سوف يكشف نيّاتهم السيئة، ويؤكّد انحرافهم، ويعمّق بُعدهم عن الرحمة الإلهيّة بازديادهم في الإثم، الأمر الذي يوقعهم في العذاب المهين المذل لهم. وهذه الآية ـ بالإضافة لتحذيرها الكافرين ـ تنفي ما قد يساور المؤمنين جراء تنعُّم المنحرفين، وتؤكّد أن النعم الدنيويّة إنما تكون خيراً إذا كانت في إطار الرضا الإلهي.

١٧٩: للبلايا آثار تكامليّة على حياة الإنسان، إذ تبدي جوهره واستعداداته الكامنة، ومدى ثباته على الخط، وتميّز بين الخبيث المنحرف والطيّب الباقي على الطهارة الفطريّة، فتطهّر المسيرة الإنسانيّة الصاعدة من الحثالات التي تعرقلها. وقد كشفت بلية «أحد» المنافقين بانهزامهم الجبان وإشاعاتهم المغرضة. وربما توقع بعض المسلمين أن تكشف السماء هؤلاء المنافقين لهم رأساً دون أن يروا بهذا البلاء، فرد القرآن بأنّ الله لن يطلعهم على الغيب، ولعلّ ذلك لعدم قابليّتهم لذلك أو لأنه يؤثّر على ما اقتضته الحكمة الإلهيّة من السير الطبيعي التكاملي، والسعي المتواصل بكلّ أمل نحو الأهداف وتجاوز العقبات.

نعم: يجتبي تعالى (أي يختار) من رسله من يطلعهم على الغيب لمصلحة معيّنة، إذ هم الوسائط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، يحملون رسالة الله للناس وعلى الناس الإيمان بهم وطاعتهم. ومتى ما تحقّق الإيمان والتقوى جاء الأجر العظيم.

١٨٠: تؤنّب الآية أُولئك البخلاء بأموالهم الممتنعين عن صرفها في سبيل الله، وهي فضل إلهي كان المفروض بهم أن يوجّهوه لوجهته الصحيحة. إنّ البخل بالمال لا يعبّر عن خير واشباع أفضل للّذة لأنه حسبان من لا يؤمن بالله، بل هو شر تصيبهم عواقبه في الدنيا ويطوّقون بنتائجه الفادحة غداً، حيث تنكشف الحقائق ويرجع ما في السماوات والأرض إليه تعالى ويقفون للحساب العسير.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝

١٨١: لقد استغلَّ اليهود مختلف المواقف لبث سمومهم والكشف عن نفسيَّتهم المخاتلة. ومذ رأوا ابتلاء المسلمين بالعوز المالي وسمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ راحوا يعلنون - بكلِّ صفاقة - أنَّ الله فقير لا ينصر اتباعه بالمال ونحن الأغنياء، فواجههم القرآن بأنَّ الله - تعالى - سيسجِّل عليهم قولتهم ويضمُّها إلى فعلتهم الآثمة في قتل الأنبياء - بغير حق - ليجازيهم عليها بعذاب الحريق يوم القيامة.

١٨٢: العدل الإلهي حقيقة رئيسة في التصوُّر الإسلامي وخصوصاً في مدرسة أهل البيت(ع) حيث اعتبر أصلاً مهمّاً من أُصول مذهبهم. فالوجدان الإنساني يحكم بحسن العدل وقبح الظلم ذاتاً كما يحكم بعدالة بعض الأعمال بالخصوص وحسنها؛ كطاعة الله والوفاء بالوعد، واجراء المعجزة على يد الصادقين، وكون بعض الأعمال ظلماً قبيحاً كالكذب وعقاب المطيعين وأمثال ذلك. والوجدان نفسه ينفي الأعمال القبيحة عن الله تعالى كما يثبت له الصفات الحسنة التي يجمعها عنوان العدل، والقرآن يؤكِّد هذا الحكم الوجداني بأساليب وآيات مختلفة، منها هذه الآية التي تقرر أن ما يصيب العباد من العقاب يوم القيامة إنما هو بسبب ما قدَّمت أيديهم من ذنوب وانه تعالى ليس ظلاماً للعبيد.

١٨٣: عناد وتزوير يهودي آخر ادَّعوا فيه أن الله قد أمرهم أن لا يؤمنوا لرسول إلا أن يأتيهم ببيِّنة خاصَّة هي القربان (أي ما يُتقرَّب به إلى الله من حيوان وغيره) الذي تحرقه النار السماويّة وهذا النبيُّ (ص) لم يأت بذلك.

ويفضح القرآن هذا التزوير بتذكيرهم وبأن الله بعث إليهم من قبل رسلاً حملوا معهم آيات ودلائل واضحة، ومنها ما طلبوا من خوارق إلا أنه لم يمنعهم كلُّ ذلك من تكذيبهم وقتلهم مما يوضح عنادهم وعدم صدقهم في طلبهم هذا وانهم لا يريدون به معرفة الحق.

١٨٤: فليدع النبيُّ التأثر بهذه الأقوال لأن سنَّة اليهود الدائمة هي التكذيب برسالات الله مهما كانت مؤيِّدة بالدلائل البيِّنة والزبر (أي كتب الحِكم والمواعظ) والكتاب السماوي المنير الواضح الدلالة على الحقِّ بما فيه من تشريعات قيِّمة.

١٨٥: تعمِّق الآية في المسلمين حقيقة التعلُّق بالحياة الأخرى وعطائها والترفُّع عن الحرص على الدنيا والشعور بأنَّ الموت هو النهاية التي تذوقها كلُّ النفوس، مما يكشف عن قيمة الدنيا ومتعها الزائلة الخدّاعة، وأن الحياة الحقيقيَّة هي الأخرى التي يُعطى فيها كلُّ انسان أجره كاملاً، والفوز الكامل هناك لمن زُحزح (حُرِّك وأبعد) عن النار والتأثر بجاذبيتها المهولة، وأدخل الجنَّة فحقَّق أعظم أمل للانسان وهو الخلود في النعيم.

وبهذا تهون على المسلم الواعي كلُّ العقبات ويتحرَّر من أسر القيود الماديَّة الرخيصة التي تُكبِّل انطلاقته لبناء الحضارة.

١٨٦: والإنسان موجود متكامل في ذاته وأعماقه بالإضافة إلى تكامله الإجتماعي الحضاري، والتكامل الإنساني يتم من خلال التحدِّي الارادي لكلِّ العقبات التي تزرع في طريقه.. بهذه النظرة يواجه المسلم أيَّ بلاء في المال أو النفس، وأيَّ أذى روحي، وإهانة يوجِّهها المنحرفون من الذين أوتوا الكتاب من قبل فلم يحملوه حقَّ حمله، ومن المشركين المنبتِّين عن أصولهم الفطرية. ولا ريب في أنَّ هذا التحدي الواعي بما يحمله من «صبر» و«تقوى» يؤدي إلى القوة والعزم والنصر في النتيجة.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝

١٨٧: يتابع القرآن بين الحين والحين نقده لتلك الأمم التي شرفت بحمل الكتاب الإلهي، وقدّمت العهد والميثاق بحمله وبيانه للأمم الأخرى وعدم كتمانه، فيصفها بأنها نقضت ميثاقها، وتركت كتابها وراء ظهرها (كناية عن الإعراض عنه) بل راحت تتاجر به لتحقيق مصالح ضيّقة لا تتناسب مطلقاً وعظمة النعمة والمصالح الحضاريّة الضخمة التي يحقّقها. ومن هنا فلا جزاء لها إلا الخسران والبؤس.

١٨٨، ١٨٩: تذمُّ الآية أولئك الفرحين بما عملوا المعجبين بأنفسهم بلا سبب، بل تراهم يحبّون أن يحمدوا على أمر نسبوه إلى أنفسهم زوراً ودون أن يفعلوه فليس هؤلاء بمفازة (نجاة) من العذاب وأنّى لهم ذلك ولله ملك السماوات والأرض ولا يعجزه شيء وسيصب عليهم العذاب الأليم بكفرهم. ولعلّها نزلت في اليهود المعجبين بأنفسهم والطالبين للحمد بلا مسوّغ أو نزلت في المنافقين الفرحين بتخلفهم عن «أحد» والذين يحبّون ان يحمدوا على مازعموه من نصيحة.

١٩٠، ١٩١، ١٩٢: بعد نقد نتائج معركة «أحد» وما تبعها يعود القرآن ليرسم لوحة تمثّل تصوُّرات المؤمنين عن الكون وآمالهم فيه، حيث تتجلّى الإستفادة الرائعة من العقل والفطرة لكشف الحقيقة الكبرى؛ إذ كلّ ما في الكون من ظواهر رائعة التناسق وخصوصاً ما في خلق السماوات والأرض من إبداع وحكمة، وما في اختلاف الليل والنهار (أي تعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر) من آثار تكوينيّة مهمّة على تيسير الحياة على وجه الأرض... كلّ هذا يقود إلى الصانع الحكيم ويتجلّى ذكر الله ويتعمّق التفكير الجاد لدى ذوي الألباب (العقول) في كل حالاتهم ـ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم (مضطجعين).

وعبر ذكر الله تعالى والتفكير في خلقه يسير المؤمنون إلى تصوُّر الهدفية العامّة في الكون وقيامه على الحقّ والعدل فيسبّحونه وينزّهونه عن العبث وبذلك تهديهم فطرهم إلى تصوُّر حياة الخلود والكمال في الآخرة وما فيها من جحيم ونعيم، فتهتزّ مشاعرهم ويطلبون منه ـ تعالى ـ أن يقيهم عذاب النار وما يصحبه من خزي وبعد عن الرضا الإلهي، الأمر الذي يعذّب المؤمنين أكثر من غيره فليجئهم لالتماس العفو وطلب إبعادهم عن طرق الظالمين الذين لا يجدون لهم ناصراً يوم القيامة. وهكذا نجد الإسلام يربي في المسلم روح التعبُّد وذكر الله والتفكير في جميع الحالات، بلا أن يحصر ذلك في نطاق معيّن ضيّق فالكون كلّه مسجد المسلم.

١٩٣: وتستمرُّ مناجاة المؤمنين ـ ذوي الألباب ـ مع ربّهم معلنين له التسليم المطلق استجابة لرسله الصادقين الذين دعوهم للايمان به ـ تعالى ـ ومن ثمَّ يلوذون بالله من حالات ضعفهم ويستغفرون لذنوبهم، ويطلبون توفيقهم للانخراط في سلك الأبرار المجاهدين والوفود على الله معهم.

١٩٤: وقد وعد الله المؤمنين عبر التاريخ ـ على لسان رسله ـ بالنصر والغلبة في الدنيا والغفران في القيامة. وها هم يسألون أن يؤتيهم ما وعدهم، ولا يبتليهم بهذا الخزي نتيجة الإنحراف عن الخطّ الرسالي الصحيح، وهو تعالى لا يخلف الميعاد.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سورة آل عمران

١٩٥: ومن ثمّ تأتي الإستجابة لدعاء المؤمنين مصحوبةً بالتوجيه نحو العمل في سبيل تحقيق الأهداف التي يُدعون لأجلها. فليس الدعاء مجرّد تلفظ لا يسنده عمل متواصل بمضمونه. وقد ركّزت الآية على حقيقة مهمّة هي انفتاح طريق التكامل أمام الجنسين (الذكور والاناث) فكلُّهم أبناء آدم ويرجعون إلى أصل واحد، ويمتلكون إمكانات التكامل، وعليه فهم سواء في المقام الانساني وان اختلفت الوظائف الحياتية لأحدهما عن الآخر. فلا تفاضل إلاّ بالعمل والتقوى، وبهذا يقضي الإسلام على كلّ التصورات الجاهليّة الناقصة عن الانثى ومدى انسانيّتها، حتى ان اوروبا كانت تشكُّ في كونها انساناً، إلى عهد قريب. ولكنّ الإسلام رفع قدرها وسما بها إلى المقام الانسانيّ الحقيقي.

إن الإيمان وحمل الرسالة يتطلّب الجهاد والتحمّل الشديد. فالمهاجرون في سبيل الله، الراحلون عن أهليهم وديارهم بضغط من الكفر ورموزه، والمحتملون للأذى في سبيل الله، والذين قاتلوا وقُتلوا، هؤلاء جميعاً سوف يكفّر الله عنهم سيّئاتهم السابقة، ويدخلهم جناته الخالدة جزاء من عنده والله عنده حسن الثواب.

١٩٦،١٩٧،١٩٨: يواصل القرآن الكريم اسلوبه التربوي للمسلمين، فيزهّدهم بمتاع الكافرين الذين يتقلّبون (يتنعمون) في البلاد، ولكنّه متاع قليل، إذ تواجههم من بعده جهنّم التي مهّدوها لأنفسهم بأعمالهم المشينة في الدنيا وبئس المأوى والمهاد. في حين يعد الله المؤمنين المتقين بأفضل العطاء، وهو الخلود في الجنان وما عند الله خير لهؤلاء الأبرار، ولا تقاسُ به أي نعمة دنيوية.

١٩٩: تستثني الآية هنا من أهل الكتاب ـ الذين تعرّضوا للنقد فيما سبق ـ طائفة نبذت العناد والتعصّب وآمنت بالله، والإسلام، وما أُنزل إليها من قبل، ولم تساوم على آيات الله وأحكامه، فتغيّر فيها وتبدلها نزولاً عند رغبات الحكّام، وتلبيةً للأهواء والمصالح، في مقابل أجر زهيد وثمن قليل، كما كان يفعل بعض الأحبار والرهبان، وإنّما تعمّق ايمان هذه الطائفة، فخشعت لله، فأثابها الله الجزاء السريع والأجر الجزيل.

٢٠٠: يحوي هذا الختام توجيهاً قرآنياً رائعاً لكلّ المؤمنين وفي كلّ الأعصار، فتوجه الآية لهم الخطاب باعثةً فيهم روح التجمع على الإيمان، والاحساس بالوحدة الإجتماعية المتكاملة، وتبيّن لهم العناصر اللازم توفّرها في المجتمع المؤمن، لكي يحقّق أهدافه الإنسانية السامية، وهي:

أولاً: العقيدة الواقعيّة المنسجمة مع الفطرة، والتي يقوم عليها نظام يصلح للحياة الإنسانيّة ويقودها نحو كمالها.

ثانياً: الإيمان التام بتلك العقيدة.

وهذان العنصران مفروضان عند توجيه الخطاب للذين آمنوا.

ثالثاً: الصبر، وهو الإحتفاظ بطاقة العمل بشريعة الله، وتجاوز العقبات الموضوعة في طريق تطبيقها بجهاد النفس ومخالفة الهوى، أو بجهاد الأعداء والطواغيت.

رابعاً: المصابرة، أي الإشتداد الإجتماعي والتعاضد التام بين أفراد المجتمع الإسلامي لخلق جبهة قوية تقارع قوى العدوان وتكسر مقاومتها وعنادها على الباطل وإصرارها على ضرب الوجود الإسلامي.

خامساً: المرابطة، أي الكون بحالة من الحذر الشديد لحفظ الثغور الإسلامية، ومراقبة تحركات العدو الفكريّة والعسكريّة، وسدّ مجالات نفوذه إلى أعماق المجتمع الإسلامي والتخريب فيه وزعزعة ترابطه وايمانه برسالته وثقته بنفسه.

وبعد ذلك كلّه تقوى الله ومراقبته فيما افترض وأمر، فإذا تمّت هذه المقومات، فإنّ لمجتمع المؤمنين أن يتوقع النصر الإلهي والفلاح رغم كلّ الضخامة في معسكرات الأعداء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

سورة النساء

تحدثنا من قبل عن المعاني الرائعة للبسملة باعتبارها أروع آية قرآنية.

وتُركّز سورة النساء على تطهير المسلمين من شوائب الجاهلية وظلمها، كامتهان المرأة، وأكل مال اليتيم، وغيرها من المفاسد والمظالم، وتقرر في قبال ذلك النظرة الواقعيّة المنسجمة مع الفطرة الإنسانيّة من خلال الأحكام والتعاليم الإسلاميّة السامية.

١: تذكير للبشرية كلها بأصلها الواحد وخلقتها من آدم وحواء المخلوقين من طينة واحدة، واللذين منحا قدرة التناسل وإبقاء النوع البشري، وهو الأمر الضروري لاستمرار مسيرة التكامل الإنساني، حيث يتكامل الفرد في مجتمع عادل، قائم على أساس الروابط النسبية، وبهذا تشكّل وحدة الربّ ووحدة الأصل أساساً لبناء إجتماعي متكامل، يتّقي ربَّه، ويحفظ روابطه النّسبية، ولا مجال فيه للدعوات العنصريّة الممزّقة ولا النظرات المستهينة بالمرأة. وقد عادت الآية فأكدت لزوم تقوى الله الذي يسأل بعضهم بعضاً الوفاء بإسمه، وتقوى الأرحام، أي تجنُّب الآثار السلبيّة لقطعها،كل هذا في إطار شعور المجتمع المسلم برقابة الله الدقيقة المركّزة في أعماقه.

٢: دعوة لإرجاع أموال اليتامى إليهم بنفسها دون استبدالها بالأردأ أو ضم شيء منها إلى أموال الولي، حيث يُعتبر ذلك حوباً (إثماً) كبيراً، وبذلك يتحقّق التكامل الإجتماعي، والحفاظ على الحقوق، والوفاء بالعهد، وتقوية العواطف، ونفي العادات الجاهليّة التي تمنح الولي حقّ التصرف المطلق.

٣: تطلب الآية من الأولياء الذين يخافون عدم القسط بحقوق البنات اليتيمات إذا تزوّجوا بهنّ أن يتّجهوا إلى باقي النساء فيتزوجوا بما يطيب لهم منهنّ، على أن لا يتجاوز عددهنّ الأربع في الزواج الدائم، وقد حثت على العدالة بهنّ في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة، فإن خاف الزوج من عدم تحقيق أدنى درجات العدل، فليكتف بواحدة، أو فليتسرّ بالجواري المملوكات. وكل هذه الأحكام لأجل تحقيق العدالة الإجتماعية التي ينشدها الإسلام.

ويلاحظ هنا:

أولاً: إنّ التعددّ يُشترط في الزواج الدائم دون المنقطع (المتعة) وملك اليمين، وذلك لأنّ الزواج الدائم هو الأصل المتعارف والذي يتضمن مسؤوليات كبرى للزوج تجاه أسرته. ولعلّ التحديد لأجل توفير القدرة له على إدارة هذه الأسرة.

وثانياً: إذا لاحظنا الواقع الإنساني من حيث قدرات الرجل، ونسبة عدد النساء والحالات الكثيرة التي يكون التعدُّد فيها هو الحل الظاهر للمشاكل، ولزوم المحافظة على المجتمع من الإنحراف كما انجرّ إليه الغرب، نعرف واقعيّة الحكم الإسلامي، وبطلان الإشكالات التي أثيرت حوله.

وثالثاً: إنّ نظام ملك اليمين كان يعبّر عن ضرورة اجتماعية وسياسية ـ آنذاك ـ لمقابلة العدوّ بالمثل، وعدم تعطيل القدرات الإنتاجيّة للأسرى، ومراقبتهم، والتزوج بأنائهم لحفظ المجتمع من الزنا، ودفعهم للإختلاط بالمجتمع وتطبيعهم بالطابع الإسلامي.

وأخيراً ننبه إلى أنّ الإسلام بريء من كلّ التطبيقات المنحرفة لهذه الأحكام التي جعلها الإسلام لتحقُّق العدالة ونفي العول (الظلم).

٥،٤: نفي الإسلام العادات الجاهليّة في سلب صداق الزوجة (مهرها)، وطلب أن يعطي الزوج المهر لزوجته، فتمتلكه نحلة وهبة خالصة. فإذا سمحت بطيب نفسها أن يأخذ زوجها شيئاً منه، فله أن يأخذه حلالاً طيباً.

٦: إحتياطاً لإرجاع أموال اليتامى والحفاظ عليها، تأمر الآية بامتحانهم لمعرفة ما إذا كانوا قد بلغوا سنّ النكاح (البلوغ) بالإضافة إلى قدرتهم على حسن التصرُّف في المال (الرشد) فإن عُلِمَ منهم ذلك تدفع إليهم أموالهم، أما قبل هذه المرحلة، فإن الآية تنهى عن الإعتداء عليها والإسراف في أكلها بحجّة القيام بشؤون الولاية، والإسراع والمبادرة لصرفها في شؤون الولي قبل أن يكبر الطفل فيطالب بها. وإنّما ينبغي للوليّ الغنيّ أن يستعفف ويزهد فيها، فلا يأخذ شيئاً منها جزاء رعايته، في حين يأخذ الولي الفقير منها بالقدر المتعارف. وحسماً للنزاع، يطلب القرآن الإشهاد على عمليّة إرجاع المال مع التذكير برقابة الله وحسابه الدقيق، ليضمن الدافع الداخلي في النفوس.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

٧: شروع في بيان قواعد نظام الإرث الذي بيّنته السنّة تفصيلاً. وقد اعتمد على أسس فطريّة واقعية، إذ من الطبيعي شعور الإبن بوراثته لأبيه في المال والطباع، وكذلك شعور المورِّث بلزوم مواصلة العمل حتى آخر رمق ليوفّر لوارثه حياة آمنا. وهكذا يحقّق الإسلام أسس التكافل الصغير بين افراد العائلة، ويحاول تفتيت الثروة.

ويعبّر نظام الإرث عن تطبيق للنظرية الإقتصادية في التوزيع، حيث تنقطع صلة المالك بماله، ويترك الأمر للشريعة التي تفضّلت عليه، فسمحت له بأن يوصي بثلث ماله، محركة فيه جوانب الإحسان. وقد استطاع الإسلام بهذا أن ينفي نظم الإرث الجاهلية التي حرمت المرأة والطفل منه، فأول قاعدة فيه هي مسألة إرث الرجال والنساء من الوالدين والأقربين مهما كانت التركة، فلكلّ نصيبه المعيّن.

٨: طلب إلى أولياء الميّت والورثة أن يجعلوا نصيباً من التركة لذوي القربى ممّن لا يرث واليتامى والمساكين، وذلك مع قول جميل، وتطييب للخاطر، لتحكيم الروابط العاطفية، وتحقيق جزء من التكافل الإجتماعي.

٩: للتحذير من أكل أموال اليتامى، وعدم التوزيع الصحيح، أكّدت الآية ضرورة الدقة والمراقبة، وحركت عواطف الموزعين بأن ذكّرتهم بحالهم هم لو تركوا ذريّة ضعافاً يخافون أنْ يتخطّفهم الأقوياء. وربما أرادت الآية تحريك العواطف نحو اليتامى الذين حضروا القسمة، كما رأى بعض الأشخاص أن هذا التحذير يشير للأثر التكويني الذي يتركه التصرّف الخيّر والسيّئ للأب على أبنائه.

بهذا التصوير الرائع يتم التحذير من أكل أموال اليتامى، ممّا دعا المسلمين للإحتياط المفرط، وعزل أموال اليتامى وطعامهم، فنبّهتهم آية أخرى إلى عدم الإفراط، وإنّ التعامل بالإصلاح أفضل من ذلك.

١٠،١١: أوصى الله بجعل نصيب الذكر كنصيب الأنثيين عند اجتماع الذكور والإناث، وربّما كان ذلك على أساس اختلاف وظائف كلّ من الرجل والمرأة في النظام الإجتماعيّ الإسلاميّ، وليس هو قطعاً على أساس الإختلاف الجنسي ـ كما يتوهّم الجاهلون ـ.

وإن انحصر الورثة في الإناث، وكنّ أكثر من اثنتين، فلهنّ ثلثا التركة، ولو كانت بنت واحدة، فلها النصف، أما لو كانتا اثنتين، فلهما الثلثان أيضا، بمقتضى السنّة.

يشارك الأبوان الأولاد في طبقتهم فإن كان للميّت أولاد، فقد فرض لكلّ من الأبوين السدس، وإن لم يكن له أولاد، فإنّ الأم تأخذ ثلث التركة، فإن كان للميت إخوة حجبوا الأم عمّا زاد عن السدس بشروط تُذكر في محلّها من كتب الفقه، ومنها أن يكون الإخوة من الأبوين، أو الأب خاصةً، ومنها كذلك وجود الأب.

وهكذا نعرف أنّ الإخوة يقعون في طبقة ثانية بعد طبقة الابناء، ولكنّ وجودهم يحجب الأم عمّا زاد على السدس.

وهذه الفروض تخرج من التركة بعد تسديد ديون الميت وملاحظة وصيّته في ثلث المال، وربّما كان تقديم ذكر الوصية في الآية لأهميتها.

وهذا المقطع تربوي، يؤكّد للمسلمين أنّ الله هو الذي يعلم الواقع بتمامه، وإنّ أيّاً من الآباء أو الأبناء هو الأقرب نفعاً للإنسان. وعلى ضوء من الواقع قرر تعالى أحكام الارث، وفرضها على الأمّة لتلتزم بهما، فلا أعتراض بعد فرض الله ذلك على أساس من علمه وحكمته التامّة.

> ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾

١٢: يرث الزوج نصف تركة الزوجة إذا لم يكن لها ولد ـ ذكراً أو أنثى ـ حين الموت. وإن كان لها ولد، فللزوج ربع تركتها، يُخرَج بعد اخراج حقوق الناس في التركة (الديون) ولحاظ الوصية. وترث الزوجة ربع تركة الزوج إن لم يكن لها ولد ـ ذكراً أو أنثى ـ وإن وجِدَ الولد، ورثت الزوجة الثمن، وذلك بعد إخراج الدَّين وتنفيذ الوصيَّة.

الكلالة: إسم لما عدا الوالد والولد من الورثة، فهو ليس من أصول الميت ولا فروعه. فالأخ والأخت ـ من الأم ـ يرثون بالفرض السدس لكلّ من الذكر والأنثى، فإن تعددوا اشتركوا في الثلث بالتساوي. وهذا كله إن لم يكن أحد من افراد الطبقة الأعلى موجوداً.

ويعود التأكيد مرة أخرى في موضوع الوصية والدَّين، على أن تكون الوصية لا بقصد الإضرار بالورثة، ولو زادت على الثلث احتاجت لإذنهم، وكذلك الدَّين، كما لو أقر بدَين لا يلزمه.

كما يعود التأكيد على أنَّ هذه الأحكام توصية من الله العليم الحليم، قائمة على أساس من مصالح يعلمها تعالى.

١٣، ١٤: العقيدة هي روح التشريع الإسلامي، وضمان تنفيذه، والموجدة للمسؤوليّة الذاتية في ذلك. والقرآن يركّز على هذه الحقيقة عندما يتعرَّض لأيّ حكم من أحكام الإسلام، وها هو ها يذكّرهم بأنَّ أحكام الإرث حدود إلهيّة يجب أن يسير المجتمع في إطارها، فإذا أطاع الله ورسوله حصل على النعيم المقيم في الآخرة، حيث الخلود في الجنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك هو أقصى أمل للإنسان، وهو الفوز العظيم، في حين أعدَّ للعاصين الخلود في النار والعذاب المهين.

وهذا بالإضافة إلى ما يتحقَّق في الدنيا من حياة سعيدة مطمئنة للمطيعين المراعين لحدود الله، ومن حياة الضنك والقلق للعاصين والمتنكبين للطريق السوي.

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

١٥: توفيراً للجو الإجتماعي النظيف، يأمر القرآن بعزل النساء اللواتي شهد أربعة من رجال المسلمين العدول عليهنّ بالزنا، وهذا يكشف عن استخفافهنّ بالمقررات الدينية الموضوعة لحماية الخليّة الإجتماعية الأساس (العائلة) من التفكك، وهو ما يرفضه الإسلام بشدة. ويتم العزل بحبسهنّ في البيوت حتى الموت. وهنا لمّحت الآية إلى إمكان أن يجعل الله لهنّ سبيلاً في حكم جديد، وهو ما تمّ بعد ذلك حيث حكمت الشريعة بجلدهن مائة جلدة.

١٦: والرجل والمرأة اللذان يأتيان الزنا، يؤذيان ويعاقبان، كي يكون ذلك عبرة للآخرين، ودافعاً لهما إلى التوبة وإصلاح النفس، وحينئذ يعرض المؤمنون عنهما بعد أن تاب الله عليهما. وهذا الحكم المخفّف جاء في مرحلة انتقال من المجتمع الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي النظيف، حيث تهيّأت وسائل العفة، وحيث كان الحكم الجديد المستقر هو جلد الزاني والزانية غير المتزوّجين.

وربما قيل باختصاص الآية السابقة بالمساحقة، وهذه الآية باللواط.

١٧، ١٨: قد يقع الإنسان ـ نتيجة جهله بنتائج عمله أو ضعفه أمام الاغراء ـ في المعصية، فيخرج عن سبيله الفطري القويم. وهنا فتحت له يد الرحمة الإلهيّة باب الرجوع إلى ذاته الحقيقيّة، منقذة له من الضياع والقلق واليأس، ودافعة للإسراع في التوبة، وحامية للمجتمع من تحوّله إلى مجرم محترف. وبهذا تكون التوبة عاملاً إيجابياً بنّاءً. ولا مجال لتوهّم تشجيعها على الإنحراف بعد أن وضع لقبولها شروط، منها: أن لا يكون الدافع لها هو التأكد من الموت برؤية علائمه. فإنّ هذا المذنب وغيره من الذين يموتون وهم كفّار لا تنالهم رحمة الله وغفرانه. وهكذا نجد أن الإنسان لا يقدم على الذنب بعد أن لم يكن يضمن بقاءه حياً، وموفقيّته للتوبة، خصوصاً وأنّ للجريمة أثرها في إبعادها عنها.

١٩: ينفي الإسلام هنا عادات جاهليّة استهانت بإنسانية المرأة وحقوقها الطبيعية، كأن يكره الأبناء زوجات آبائهم ويمسكوهنّ في البيوت حتى الموت ليرثوا أموالهن، أو يتنازلن عن إرثهن، أو أن تكره القبيلة الزوجات اللواتي مات أزواجهن على الزواج باعتبار أنها ترث الولاية عليهن، أو أن يقوم الأزواج بالضغط على زوجاتهم (عظلهنّ) ومنعهنّ من حقوقهن الطبيعيّة والزوجيّة لأجل أن يتنازلن عن شيء من مهورهنّ في قبال الطلاق. وكلّ هذه أمور يرفضها الإسلام، لأنها تعبّر عن استثمار ظالم، وتضييع للحقوق. نعم إذا فعلت المرأة فاحشة، فإنّ لزوجها الحقّ في التضييق عليها، لتتنازل عن شيء من مهرها في قبال الطلاق، لأنها تجاوزت حقوق الزوجيّة الطاهرة التي يريد الإسلام أن يؤطّر بها العائلة، فيدعها تقوم على أساس المعاشرة بالمعروف والحسنى، ويبتعد بها عن الإنفعال الوقتي المهدّم، بعد تذكير الإنسان بأنه قد يكره شيئاً وهو غافل عمّا فيه من خير كثير لعدم إحاطته بكلّ الظروف.

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

٢٠: أما إذا أصرَّ الزوج على الطلاق، وإحلال امرأة أخرى في حياته مكان هذه الزوجة المطلَّقة، فعليه الوفاء بتعهُّداته المالية لها مهما كثرت (القنطار) وعدم غصب شيء منها، لأنَّ ذلك بهتان واضح لا يرتضيه الإسلام.

٢١: إثارة للعواطف الحارة التي كانت قائمة بين الزوجين المتّصلين جسماً وروحاً (أفضى بعضكم إلى بعض) أي تلابسا واتّحدا، تؤكّد الآية لزوم عدم استرجاع الزوج المهر المعطى عند العقد أو بعده لزوجته المطلَّقة، خصوصاً وقد أخذت عليه بعقد الزواج ميثاقاً غليظاً.

٢٢: حرَّم الإسلام على الأبناء نكاح النساء اللاتي تزوجهنَّ الآباء، إلاّ ما كان قد سلف في الجاهلية، فإن تبعاته معفو عنها، وقد اعتبر ذلك من الفواحش، وسبيل السوء، وسبباً لنفور الطبع الإنساني السليم (المقت).

٢٣: لعلَّه مراعاةً للنوازع الفطريَّة الإنسانيَّة التي تنفر من الزواج بالمحارم ـ كما هو واضح في جميع الأُمم ـ وتوفيراً للجو العائلي النظيف، وإقامةً للحياة الزوجية على أسس معقولة وبعيدة عن التنافس الذي قد يحلُّ محلَّ الودّ والعواطف الطاهرة، تأتي أحكام الإسلام لتحرِّم على الإنسان الزواج من بعض النساء المتَّصلات به نسباً أو سبباً، وهنَّ:

الأُمهات والبنات، والأخوات، والعمّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأُخت، والأُمّهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأُمهات الزوجات، والربائب (أي بنات الزوجات اللواتي تمَّ الدخول بهن)، وزوجات الأبناء من الأصلاب (لا الأبناء المتبنين أو الأبناء بالرضاعة)، كما حرَّم الجمع بين الأُختين إلاّ ماتم قبل الإسلام، فهو معفو عنه، وإن كان يجب عدم الجمع بالفعل بالانفصال عن إحداهما أو كليهما.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

٢٤: ومن المحرَّمات: النساء المحصنات، أي اللواتي في عصمة أزواجهن، فلا يجوز إقامة أية علاقة جنسيَّة معهنَّ حفاظاً على الوحدة العائليَّة والتماسك الإجتماعي الصحيح إلا أنه يستثنى من النساء المتزوجات، المسبيّات (ملكت ايمانكم) فانهنَّ لا يعدن في عصمة أزواجهنَّ بعد السبي وانقطاع علاقتهنَّ بالأزواج الكافرين.

إنها الشريعة الإسلامية التي كتبها الله لكم على أساس من المصالح والمفاسد دون التأثر بالعادات والتقاليد والنظرات الضيِّقة.

بعد بيان المحرَّمات من النساء، راحت الآية الكريمة تبيِّن سبيل التكوين العائلي، وتلبية الحاجة الجنسيَّة الفطرية وتصريفها تصريفاً صحيحاً وذلك عبر الاحصان أي الزواج وفق الأُطر الشرعيَّة بالبذل العفيف للمال للزوجة أو الأمة دونما بذله أغراء وسلوكاً للسبل غير الشرعيَّة وهي ما أُطلق عليه لفظ (السفاح) أو الزنا.

تتحدَّث هذه الآية ـ وهي مدنيَّة ـ عن مشروعيَّة نكاح (المتعة) وذلك بملاحظة أن هذا المصطلح كان سائداً بين المسلمين آنذاك، ورأي أئمَّة أهل البيت ـ وهم أحد الثقلين ـ بالإضافة إلى بعض الصحابة بقاء تشريعه إلى وفاة الرسول(ص) وبالتالي ثباته إلى الأبد. أمَّا الاستدلال على تحريمه ورفع مشروعيته ونسخه بآيات أو روايات فليس بصحيح، إذ بعض الآيات التي تذكر إما مكيَّة، أو مدنيَّة سابقة على هذه الآية، وبعضها الآخر لا دلالة فيه على النسخ. أمَّا السُّنة فلا تصلح ناسخة للقرآن الكريم. وعلى أيّ حال: فالمتعة حل إسلامي ناجع لكثير من المشاكل الجنسيَّة والإجتماعيَّة باعتبارها زواجاً شرعيَّاً صحيحاً يتمُّ بعقد ومهر وأجل، والولد الحاصل منه يرث. ولها شروط مستوفاة في الكتب الفقهيَّة.

٢٥: يفتح الإسلام سبيل الزواج من الإماء المؤمنات المؤمنات، مراعياً بذلك الواقع وعدم قدرة الكثيرين على الزواج الدائم من الحرائر اللواتي تحصنهن حريتهن إلى حد كبير عن الإنحراف. وعليه فللمسلم أن يتقدَّم إلى أهل هؤلاء الفتيات المسبيّات ـ أي سادتهنَّ ـ طالباً أيديهنَّ بمهر متعارف، ولا حزازة في هذا الزواج لأنهنَّ مؤمنات ـ والله أعلم بايمان المؤمنين ـ ولا يختلفن عن باقي الناس إلا في أحكام يفرضها الواقع والظروف القائمة. فبعضكم من بعض وكلُّكم بشر.

ويتجلّى إكرام الإسلام لهنَّ أيضاً في تعبيري «فتياتكم» و«أهلهنّ» كما يتجلّى في تركيزه على الوحدة النوعية بين جميع الناس. وهذا الحكم إذ يفتح لهنَّ السبل الصحيحة للتمتُّع الجنسي، يغلق أمامهنَّ سبل الإنحراف كالزنا واتخاذ الخدن، أي الصديق في السر والعلن. ولمَّا كانت الأمة لا تحصنها حرية أو انتساب أو خوف فضيحة من الإنحراف كالحرة، فقد جاء تخفيف في عقابها إذا زنت، فهو نصف عقاب الحرة المتزوِّجة. وأخيراً فإن الإسلام يفضِّل الصبر والزواج بالحرة على الزواج بالأمة، في حالة خوف المشقَّة.

٢٦،٢٧: شاء الله اللطيف أن يبيِّن للبشريَّة منهج الكمال عبر هذه التشريعات العائليَّة المهمَّة التي مشى عليها الركب المؤمن من قبل بتوجيه من الرسالات السابقة. وما التشريعات الإلهية إلاّ لطف وعودة إلهيَّة (توبة) على الإنسانية بالرحمة والتوجيه، لأنه ـ تعالى ـ الأعلم بحالها، والحكيم في علاج أدوائها وتحقيق التوازن المطلوب في مسيرتها، أما أعداء الإنسانية المتَّبعون لشهواتهم الرخيصة من مثل: (الشيوعيين والفرويديين وباقي الفوضويين) فهم يعملون على أن يفقدوها هذا التوازن، ويميلوا بها عن سبيل الفطرة القويم. وما أسوأ عواقب هذا الميل العظيم.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

٢٨: لاحظ التشريع الإلهيّ واقع الإنسان وفطرته، وشرَّع له التشريع الذي لا يكلّفه مشقّة وحرجاً بل يسلك به السبل الميسَّرة لإيصاله إلى كماله، بعد أن لاحظ الشارع ـ تعالى ـ أنَّ الطبيعة الإنسانيّة تلازم الضعف وليست بقادرة ـ على طول الخط ـ على أن تمارس عملية تكامل تربويّ شاق.

٢٩: في سياق التشريعات الإجتماعية جاءت هذه الآية المباركة لتنفي أنماط التداول المضرَّة بالإقتصاد العام، والمقلّلة من فرص نمو الإنتاج، كانتقال الملكية عن طريق القمار والربا وأمثالهما من سبل الباطل، في حين تفتح السبيل النظيف الضروري إجتماعياً، وهو سبيل التجارة التي تقرِّب بين المنتجين والمستهلكين، وتوسع نطاق التعاون الإنساني العام بعد أن تتم عبر الرضا المتبادل من قبل المتعاملين، إحتراماً لحقوق الملكيّة الشخصيّة التي تشكّل إلى جنب الملكيّة العامّة العنصرين الحسّاسين للإقتصاد الإسلامي. أما الإعتداء عليهما فليس إلا اعتداء على المجتمع وقتلاً لحياته الإقتصادية، تماماً كما يشكّل قتل نفس إنسانية قتلاً للناس واعتداءً على وجودهم الحياتي.

وبهذا تتجلّى نظرة الإسلام الإجتماعية وواقعيّتها واحترامها المتوازن للفرد والأمة.

٣٠: إنه التهديد الإلهي لكل من تسول له نفسه الإعتداء القائم على حياة الآخرين وأموالهم، وبالتالي عرقلة المسيرة الإجتماعية المتكاملة بأنه سيصلى ناراً وسعيراً وهو أمر يسير على الله تعالى.

٣١: المعاصي كلّها تعدُّ كبائر لكونها مخالفة لأوامر الله العظيم المنعم، إلاّ أنها إذا قيست إلى بعضها انقسمت إلى كبائر وصغائر، وربّما تميّزت الكبائر بشدّة النهي عنها أو الوعيد عليها بالنار، كما أوضحته الأحاديث. وقد إقتضت الرحمة الإلهية أن تمنّ على من اجتنبوا الكبائر وطهَّروا حياتهم منها بالعفو عن السيّئات العابرة التي قد يقترفها الإنسان في حالة ضعف دونما إصرار وعناد، وإلاّ تحوّلت السيّئة إلى كبيرة. وتشتدُّ الرحمة الإلهية بإدخال العبد بعد العفو إلى الجنة، وهي المدخل الكريم.

٣٢: في الآية الكريمة تعليمات نفسية واجتماعية، فهي تنهى عن تمنّي ما لدى الغير من مزايا ومكتسبات، وتدفع للقيام بالوظائف الحياتية ودفع العجلة الإجتماعية دونما تباغض وتحاسد، وهي تؤكّد وحدة المجتمع الإنساني وتوزيع الوظائف التكوينيّة والإجتماعيّة بين أبعاضه، كما أنها تفسح المجال للإكتساب والإنتاج أمام الرجل والمرأة دون أن يظلم، أحد أحدا خلافاً للمبادئ السائدة آنذاك. وهي تربط الإنسان بالله، وتوجهه إليه، ليسأله من فضله وهو تعالى يمنّ عليه طبق إخلاصه ونواياه. وتختم الآية بذكر ما يحقق طمأنينة الإنسان بصلاحية النظام الشرعي، إذ يقوم على علم الله الشامل لكل شيء.

٣٣: جعل الله لكل واحد من الرجال والنساء ورثة هم أولى من غيرهم بالتركة، وقد ذكرت الآية الأسباب الثلاثة للإرث، وهي: الولادة والقرابة والزواج الذي يتم بعقد الإيمان، فيجب إعطاء الورثة نصيبهم التام.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

٣٤: جعل الإسلام قيادة المجتمع العائلي (أو العام) بيد الرجل، وهو ما عُبِّر عنه بـ(القوامة) وذلك باعتبار ما يتميَّز به ـ نوعاً ـ من قدرات ذاتية، ومن إلزام بالإنفاق، وتوفير متطلَّبات الحياة المعيشيَّة، في حين تنهض المرأة بوظائفها العائليَّة التربويَّة بكلّ أمان واطمئنان بال. والقوامة لا تعني بأيّ حال إلغاء الدور الإجتماعي المؤثِّر للمرأة أو الاستهانة بشخصيتها.

ثم تمضي الآية للحديث عن المرأة الصالحة فتصفها بأنها القانتة، أي المطيعة للأوامر الإلهيّة، والحافظة للغيب والأسرار الشخصيَّة التي أمر الله بحفظها.

أما المرأة التي تأبى القيام بواجبها، ويخاف منها التمرُّد (النشوز) الذي يؤدّي إلى تفكيك عرى العائلة، فإنها توعَظ أولاً، وتُنصح، وإلا فتهجر في المضجع ـ كإجراء عاطفي ـ وأخيراً ربما يحتاج الأمر إلى بعض الضرب الخفيف لتعود إلى الحالة الطبيعية، وحينئذ فلا سبيل عليها، ولا تصحُّ الإستفادة من الموقف للإعتداء عليها وظلمها، بل تجب في كل ذلك مراقبة الله العلي الكبير.

٣٥: وإذا ظهرت علائم الشقاق المستمرّ بين الزوجين بما يهدّد العشَّ العائليّ الرحيم فانَّه يبعث حكم من أهله وحكم من أهلها ليدرسا سرَّ الخلاف بكل عناية وتجرد، ليعود الصلح والوئام بتوفيق من الله العليم بالنوايا، الخبير بالسرائر.

٣٦: يتابع القرآن تعليماته الإجتماعيّة، مقيماً إياها على القاعدة الإسلامية الرئيسة: التوحيد سواء في الذات أو الفعل أو العبادة لله ـ تعالى ـ ومن هذه التعليمات مسألة الإحسان إلى الآخرين والتي تبتني على أسس عاطفيّة واعية بدءاً بالاحسان إلى الوالدين حيث يحمل معاني كثيرة، ومروراً بالإحسان لذوي القربى ثمَّ اليتامى والمساكين للإرتفاع بمستواهم الواطئ، ثمَّ الجار القريب، والجار الأجنبي البعيد. وهكذا ينتهي المسير الإحساني إلى الدائرة الإجتماعيّة الواسعة، محقِّقاً جوّاً عاطفياً رائعاً وتكافلاً إجتماعياً عاماً، وتواضعاً حياً لأوامر الله. وهي أهمُّ مميِّزات المجتمع المسلم الذي يحبُّه الله ويرضاه والبعيد عن كلّ ما يسخطه من اختيال وتكبّر وتفاخر ونفسية ضعيفة.

٣٧: في قبال الصفات الإجتماعية القائمة على الإحسان، يستعرض القرآن بعض الصفات الذميمة، ومنها البخل والبخل الساري، إذ يعبّر عن عدم ايمان كامل بالله وعدم يقين بوعده، فلا يكتفي أمثال هؤلاء بعدم قيامهم بأداء مقتضيات الإنعام الإلهي عليهم من الإنفاق، وإنما تراهم يندفعون لسدّ سبيل المعروف، فيأمرون الناس بالبخل، وينحرفون بالملكيّة الشخصيَّة عن أهدافها الطبيعيَّة. وما أن يطالبهم المجتمع بحقوقه، حتى تراهم يخادعونه، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله.. كلُّ ذلك طمعاً وانحرافاً وحرصاً على منافع رخيصة ما أسرع فقدانها، حيث يواجههم بعد ذلك عذاب مهين لكفرهم بأنعم الله.

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

٣٨: ومذ يرى هؤلاء المنحرفون عن خط التوحيد العملي مصلحة شخصية في الإنفاق، يقدمون عليه مرائين الناس، عاملين على اقتناص استحسانهم وثقتهم لتحقيق أغراضهم الدنيئة التي أبعدت من حسابها الإيمان بالله واليوم الآخر، وراحت تستمرئ حياة الشيطان وتمشي معه على خطوات الضلال حيث الحيوانية الهابطة والدرك الأسفل.

٣٩، ٤٠: نعم! ماذا على هؤلاء؟ وماذا سيخسرون لو استجابوا لنداء فطرتهم وآمنوا بالله تعالى ايماناً متعدياً إلى العمل وأنفقوا مما أعطاهم الله وفي سبيله؟ إذن لسعدوا في الدنيا وعاشوا أروع حياة وأفلحوا في الآخرة، ولشملتهم عناية الله في الدارين، إذ يعلم بكلّ ما يقوم به الإنسان، ولا يخفى عليه مثقال ذرة منه فيجازيه دون أيّ ظلم أو إجحاف، بل يضاعف جزاء الحسنات، ويعقبه بالأجر العظيم.

٤١، ٤٢: يذكّر القرآن هنا بمشهد القيامة الرهيب، حيث يؤتى من كلّ امة بشهيد عليها هو نبيها، ويؤتى بهذه الأمة وشهيدها نبيها(ص). وحينئذ يبدو الخزي العظيم لهؤلاء البخلاء المرائين أمام الخلق، فيودون لو تسوّى بهم الأرض، أي لو يعدموا أمام هذا الموقف الذي لا يستطيعون فيه أن يكتموا الله حديثاً كما كانوا يفعلون في الدنيا فيكتمون فضله ونعمته. وقد يُراد أنهم يتمنّون آنذاك أن لو كانوا قد عُدموا ولم يكتموا حديث الله.

٤٣: نزلت الآية لتمنع من أداء الصلاة في حالة (السكر)، حيث قيل إنّ المراد به الكسل الشديد الذي يعقب النوم وغيره، كما قيل إنها تعبّر عن مرحلة من مراحل التحريم التدريجي للخمر الذي انتهى بالتحريم. وربما منعت الآية من دخول المسجد حال السكر. وعلى أيّ حال؛ فإن الآية تشعر بأنّ الصلاة يراد منها تركيز الإرتباط بالله تعالى، وتجسيد مفاهيم الإسلام ومعطياته، ولن يتم ذلك إلا بعد توفير جو الإطمئنان والخشوع والوعي الكامل لما يُقال ويُفعل.

كما أنّ الآية منعت الجنب من دخول المسجد حتى يغتسل، إلا عابر سبيل، أي يقصد العبور. وفي هذا الحكم تركيز على قدسيّة المسجد واحترامه.

يحتاج المسلم للوضوء أن ابتلي بالحدث الأصغر كالمجيء من الغائط (أي محل التخلي)، وللغسل إن ابتُلي بالحدث الأكبر (كملامسة النساء، أي مجامعتهن). فإنّ فقد الماء أو القدرة على استعماله نتيجة المرض أو السفر، للوضوء أو الغسل فعليه أن يتيمّم بأن يتوجّه إلى صعيد طيّب (أرض طاهرة)، فيضرب عليه بيديه، ثم يمسح بهما ما بين الجبينين من الوجه ثمّ اليدين إلى الزندين. وحكم التيمّم تسهيل من الله للعبد، وتركيز على خضوعه له.

٤٤، ٤٥: ينتقل القرآن هنا إلى الرد على أهل الكتاب ـ واليهود خاصّة الذين أوتوا جزءاً من الكتاب الحقّ نتيجة التحريف ـ ويفضح أساليبهم إذ يعجب منهم وهم يشترون الضلال بدل الهدى الذي تتوفّر لديهم بعض دلائله المؤكّدة صحّة نبوّة النبي(ص). ولا يكتفون بذلك بل يعملون على جرّ المسلمين للضلال بكل وسيلة. أو لربّما كان ذلك بإظهار المودة والنصح، ولكن فليحذرهم المسلمون ويقاطعوهم، باعتبارهم الأعداء التقليديين الذين يعلم الله عداوتهم وما يحملون في نفوسهم من حقد وتآمر، وليعتمد المسلمون على أنفسهم متوكّلين على الله وكفى بالله ولياً ونصيراً لكلّ من يعمل في سبيله. وبهذا يتجلّى تثبيت القرآن للمؤمنين، وتثبيطه لأعدائهم، وكشفه لخططهم الجهنميّة.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٤٦: تأصّلت روح العناد والتحريف اليهوديّة فتجاوزت الأحكام والكتاب إلى الكلام والتعبير، فهاهم يقولون للنبي(ص) تارة: سمعنا وعصينا، فلا داعي إذن لبذل الجهد معهم لإقناعهم، وهذا غاية العناد والجهل، وتجدهم تارة أخرى يقولون له «إسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا» وهي عبارة تعني في ظاهرها (استمع لنا ـ دون أن نأمرك بالسماع منا ـ وأمهلنا بالرعاية) ولكنهم يقصدون معنى إسمع ـ لا سمعت أو ابتُليت بالصمم ـ ووصفُهم له بالرعونة. كلّ ذلك ليّاً وطيّاً لألسنتهم في الكلام للتمويه والطعن في الدين الحق.

والقرآن إذ يذكر لهم هذه الصفة ينفّر المسلمين منهم، ويحذّرهم من تصرّفاتهم الماكرة، ويذكر بعد ذلك البديل الصحيح لهذا التصرّف السيّئ بأن يقولوا: سمعنا وأطعنا فاستمع الينا وامهلنا (أنظرنا) لنتبيّن ماتقول. ولو سلكوا هذا السبيل القويم لكانوا أهلاً للسمع والتعامل معهم، ولكان ذلك خيراً لهم لأنه يهديهم إلى الحق. إلاّ أنها يهود الماكرة ـ الكافرة ـ ولن تسير على طريق الحق إلاّ القليل منها، ممّن وعى الحقيقة فآمن بها وأخلص لها.

٤٧: يدعو القرآن (أهل الكتاب) إلى الإيمان به، كتاباً مصدقاً لما جاء في كتبهم السابقة من تعاليم وبشارات، ويهدّدهم إن هم لم يؤمنوا بطمس وجوههم أي إزالة علائمها الإنسانية، وإرجاعهم عن مسيرهم الفطري وإبعادهم عن رحمة الله، ومسخهم قردة وخنازير كما مُسخ أصحاب السبت، وهم اليهود الذين اصطادوا في ذلك اليوم مع تحريمه عليهم.

٤٨: إنّ الشرك بالله ظلم عظيم، سواء في المجال العقائدي أو المجال العملي، كعبادة الأحبار والرهبان والطغاة، وتلقّي النظم من الكافر وما إلى ذلك. ولن يؤهّل المشرك لرحمة الله إلا أن يرجع إلى سبيل الإيمان، أمّا ما دون الشرك من المعاصي الصادرة نتيجة ضعف إنساني أمام الهوى فهي في معرض الغفران جزاء عمل صالح أو شفاعة شافع وذلك على أسس وموازين تحدّدها الحكمة الإلهيّة (لمن يشاء) ويشكّل الجهل بتوفّرها مانعاً من ارتكاب الجرائم والإعتماد الكلي على الغفران.

وأخيراً ركّزت الآية على الجذور الفطريّة للايمان والتوحيد، أما الشرك فما هو إلا افتراء عظيم على الوجدان والعقل.

٤٩، ٥٠: ابتُلي اليهود بحالة العُجب، أي أن يزكّي الفرد نفسه، ويتصوّر انه مثال الإيمان والإنسانيّة، وهذا إنما يعبّر عن جهل وأنانيّة وغرور دعاهم لأن يصفوا أنفسهم بأنهم شعب الله المختار، وإذا كان عُجب الفرد بنفسه محطّماً لشخصيته، فإنّ عُجب المجتمع يجرّه إلى الإنحطاط الحضاري وعدم مواصلة المسيرة التكامليّة، وهي من إيحاءات الشيطان، وإلاّ فالتزكية عطاء إلهي يتمّ نتيجة عمل إنساني خيّر هادف، ولن يضيع في حساب الله تعالى أيّ عمل مهما كان قليلا (الفتيل هي النقطة على النواة) وهكذا يكشف القرآن عن افتراء اليهود، ويعجب من مدعياتهم التي ينسبونها إلى الله، مبعداً المسلمين عن سلوك سبيلهم المنحط.

٥١، ٥٢: تعرية أخرى لليهود الّذين أوتوا شيئاً من الكتاب بعد تحريف الكثير منه، فاستبدلوا الهدى والايمان باتباع سبيل الضلال وعبادة الجبت (وهو كلّ ما لا أثر له كالصنم) والطاغوت (وهو كلّ ما تمرّد وطغى على أمر الله من شيطان أو حاكم متجبّر وأمثالهما).

وقد بلغ بهم السير مع المصالح إلى أن سوّلت لهم أنفسهم ضرب الوجود الديني الموحّد وذلك عندما شهد جماعة من اليهود لدى المشركين بأنّهم ـ أي المشركين ـ أهدى وأقوم سبيلاً من المسلمين، وهكذا تتّحد مسيرة الإنسان التائه العابد للطاغوت مع مسيرة المشرك، فكلتاهما تبعد عن السير الفطري الإنساني، وتستحق لعنة الله والحرمان من عطائه.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

٥٢، ٥٣: وهكذا يستعرض القرآن صفات اليهود من (البخل والحرص والحسد والتحريف وأمثالها) فهم يستكثرون على النبيّ (ص) أن يؤتيه الله النبوة والمقام الجليل غافلين عن أنّ الملك بيد الله وليس لهم منه نصيب وإلاّ لحرموا غيرهم من أيّ شيء، منه حتى بمقدار النقير (النقرة على النواة).

وهنا يذكّرهم القرآن بما آتاه الله لآل ابراهيم من الحكمة والنبوة والملك العظيم، فكفر بها بعض، وآمن آخرون، فعلام يحسدون الناس (أي النبي(ص) وآله) على أن نقل الفضل والنبوة والإمامة اليهم بعد أن نكل اليهود عن حمل أمانة الله، وراحوا يعنون في الضلال، فجزاؤهم السعير.

٥٤، ٥٥: والحسد صفة أخرى ابتُلي بها اليهود بعد نكولهم عن حمل رسالة الله، ولذا تجدهم يعارضون الرسول(ص) حسداً منهم على نعمة النبوة التي تفضّل الله بها عليه، وربّما كان التعبير بالناس وارادة خصوص الرسول زيادة في التقريع لهم أو باعتبار أن الرسالة تحملها الأمّة والرسول في طليعتها، وقد يكون المراد هو الرسول وأهل بيته بقرينة ذكر آل ابراهيم في الآية، وشهادة الروايات لذلك.

والواقع إنّ الحسد لا معنى له، فالرسالة فضل ونعمة تشمل من له أهليّة حملها، وحين كان آل ابراهيم وبنو إسرائيل بالخصوص مؤهّلين، حملوها، وعندما نكلوا عن ذلك وانقسموا إلى فريقين؛ فبعض ثبت على إيمانه والآخر صدَّ وانحرف عنه، انتقلت إلى الأمة المسلمة لتحملها إلى الأجيال.

والحسد مرض يبدّد طاقات الفرد والأمة، ويسير بهما نحو الانحلال، ويبعدها حتى عن عقيدتها، ويتركها فريسة القلق والأوهام، وقد جاء في الروايات: (إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب)[1].

٥٦، ٥٧: وتلك عاقبة طبيعيّة للفريقين، فالفريق المتنكّر للحقّ والفطرة، المتمرّد على أوامر الله، الناكل عن حمل رسالته ينتهي به الأمر إلى جهنّم يصلونها ـ أي يحترقون فيها بشدة ـ ويستمرّ بهم العذاب بلا انقطاع، فإذا ما احترقت جلودهم بدّلوا غيرها ليستمرّ التنكيل والإحساس بالألم، والله عزيز قادر كما أنه حكيم يجازي كلاًّ بما يستحقه. في حين يعد الله الفريق المؤمن بالخلود في جنّات النعيم التي تتوفّر فيها أسباب الهناء، حيث الأزواج المطهّرة من كل لوث، والظل الظليل (الدائم أو الذي لا حرّ فيه ولا برد).

٥٨: ردّ القرآن من قبل على اليهود الحاسدين بأنهم نكلوا عن حمل الرسالة وهي أمانة الله ففقدوا مكانتهم منها، وها هو يذكّر الإنسانية كلّها بأداء الأمانة سواء كانت أمانة فطريّة أو حضاريّة أو علميّة، وفي طليعة الامانات الاجتماعية أمانة الحكم والولاية الإلهية، والحكم بالعدل الشامل للناس، باعتباره أساساً لكلّ العلاقات الاجتماعيّة.

وقد بلغت العدالة الاسلاميّة في القضاء ـ مثلاً ـ إلى حد قوله(ص) لعلي(ع): (سوِّ بين الخصمين في لحظك ولفظك) ونعم ما يعظ الله به عباده وهو السميع البصير العليم بكلّ ما يصلح الانسانيّة.

وهكذا يدعو القرآن هنا إلى بناء المجتمع على أساس الأمانة والعدل.

٥٩: يقرّر القرآن هنا مبدأ الطاعة كأحد دعائم المجتمع الإسلامي الحامل للأمانة الالهيّة، والطاعة الحقيقيّة لله وحده، وينبثق عنها لزوم طاعة الرسول، والامتداد القيادي له المتمثّل في ولي الأمر من المسلمين. ولما كان الأمر بالطاعة مطلقاً لزم كون الولي معصوماً بالدرجة الأولى، ولذا فسر أولو الأمر بـ(أهل البيت(ع)) الذي أذهب الله عنهم الرجس. ولما كان المبدأ عاماً مستمراً فمن الطبيعي ان يصار إلى طاعة أقرب الناس إلى المعصوم ـ علماً وسلوكاً ـ عند غيبته، وليسوا إلاّ الفقهاء العدول الأكفاء، وهو ما أكدته روايات (ولاية الفقيه). ومن الواضح إنها لذلك لا تشمل الحكّام الظالمين والمتسلّطين دونما مسوّغ شرعي على رقاب المسلمين.

فإن اختلف في الحكم الإسلامي الثابت، فالمرجع الأساس هو القرآن والسنّة النبوية. أما أولو الأمر فليس لهم أن يضعوا أو ينسخوا حكماً ثابتاً بهما، ولذا لم يذكروا عند الرد.

وربّما كان المراد من قوله تعالى ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ ان الشريعة صمّمت على أساس مصالح واقعية تؤول إليها الأحكام، أو توقّف السعادة الإنسانية على الإلتزام بالشريعة.

---

١ ـ الكافي، ج ٢، ص ٣٠٦، ح ٢، وحديث ٣، و ج ٤، ص ٨٩، ح ٩.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۞ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۞﴾

٦٠: تساؤل انكاري يعبّر أروع تعبير عن العلاقة بين الدين والحياة بكلّ شؤونها، من خلال استنكار زعم المنافقين بأنهم يؤمنون بالشرائع الالهيّة كلّها، في حين تجدهم يتحاكمون إلى الطاغوت، الذي يعني ما يقابل الشريعة الإلهيّة من شرائع وضعيّة استمدّت خططها من عقل الإنسان المحدود وغير المؤهّل للتشريع، ولذا كان قيامه بالتشريع خروجاً عن الحدّ الطبيعي وطغياناً وادعاء لصفة من صفات الله تعالى.

ووجه الغرابة في عمل هؤلاء أنّ ايمانهم يدعوهم لتحكيم الشريعة في كلّ حياتهم، ولكنّ سلوكهم العمليّ الماديّ لا ينسجم مع ذلك، فهم يعيشون التناقض بين العقيدة الالهيّة والسلوك الماديّ الطاغوتي، وتلك مكيدة شيطانيّة لإيقاع الفصل بين الدين والسياسة والحياة، وذلك لكي لا يؤدي الدين دوره القياديّ المطلوب.

٦١: إنها صفة النفاق الدائمة.. فمن جانب يدّعي هؤلاء الايمانَ بالشريعة الالهيّة، ومن جانب آخر يُعرضون عن تطبيق تعاليم الله وأوامره. إن الفرد لا يمكنه أن يكون مسلماً ويعمل في اطار الكفر والطاغوت، وكل ما يبتدعه الانحراف من أطر قوميّة ووطنية وعلمانية وغيرها.

٦٢: انّ النتيجة الطبيعيّة لعدم تطبيق منهج الله في الحياة هي الضياع والمصائب والانهيار بلاريب، وحين يحدث ذلك يلجأ المنافقون إلى الرسول كاذبين للمرة الثانية وهم يقسمون بالله ـ وما أعظم جرأتهم عليه ـ إنهم باتجاههم إلى الطاغوت وتحكيمه إنما أرادوا الاحسان والتوفيق وحلّ الأزمة بين الحقّ والباطل!! وإيقاع التصالح بين النظام الالهيّ والنظام الوضعي!!

وهذه حالة منافقة خطيرة نشهدها في كلّ عصر، ويمكن أن يسقط فيها بعض البسطاء من المسلمين الانهزاميين، حيث يسعون جاهدين إلى اضفاء الصبغة الاسلاميّة على مناهج غريبة عنه كالاشتراكيّة والديمقراطيّة بل وحتى الماركسيّة وغيرها، فيلتقطون أحكاماً من هنا وهناك ليشكلوا منها خليطاً غير متجانس مما يوقع المجتمع المسلم في دوّامة القلق ويفقده شخصيّته الإلهيّة المستقلّة.

٦٣: ولكنّ المرض القلبيّ لا يخفى على الله، والنوايا منكشفة أمامه، فلتعاملهم أيّها الرسول معاملة حسنة، فيها الإعراض والرفض لهذا الاسلوب، وفيها الوعظ البليغ النافذ إلى أعماق النفس.

٦٤: إلاّ أنّ الوعظ يُعتبر مرحلة في المواجهة. ومن ثم يأتي التذكير بأنّ الرسول الالهيّ يبلّغ عن الله رسالته ويطبّق شريعته في الأرض حاكماً وقائداً، فتجب طاعته فيما يبلّغ وفيما يأمر به، ليستطيع قيادة التجربة التربويّة للبشر.

وهنا فتح لأبواب التوبة وإراءة للسبيل الصحيح، فبدلاً من ظلم أنفسهم المتمثّل في الكذب والقسم الكاذب، والتذرُّع بالحجج التوفيقيّة الواهية نتيجة مخالفتهم لمقتضيات الإيمان العملية، كان عليهم العودة إلى تطبيق شريعة الله والتوبة وطلب المغفرة من الله مصحوباً بشفاعة الرسول واستغفاره لهم، وحينئذ سيجدون الله تواباً رحيماً بعباده.

٦٥: إنها القاعدة الإسلامية الأساس التي تقرر عدم الإيمان عند عدم التحكيم الإلهي في الحياة بل وعند عدم تقبُّل هذا التحكيم بصدر رحب، والتسليم المطلق له.

وبهذا تقرَّر العلاقة بين النظرة الكونية والمنهج السلوكي كأقوى ما يكون. وقد ورد عن الامام جعفر الصادق(ع): (لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله(ص) ألا صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية، ﴿فلا وربك...﴾ ثم قال ابو عبدالله: عليكم بالتسليم)[1].

---

١ - الاصول من الكافي، ج ١، ص ٣٩٠.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٦٦،٦٧،٦٨: إنَّ حمل الرسالة وابلاغها عمل يتطلَّب التضحيات بالنفس والوطن والراحة، وهو مالا يتحمّله ضعاف الإيمان، إذ يتطلَّب ايماناً عميقاً والتزاماً أكيداً بطاعة الله والرسول، وهو أمر لا يتوفَّر إلا لدى القليل ممَّن وفى بعهد لله. وهنا تؤكّد الآية أهمية طريق التضحيات، وتعد بنتائجه الخيرة التي تعود إلى النفوس تقوية وتثبيتاً، وعلى المجتمع عزة وخيراً، وأجراً عظيماً في الدنيا والآخرة، وهداية إلهيَّة إلى الصراط المستقيم، حيث رضوان الله وانفتاح السبل نحو الكمال أمام المؤمن المجاهد المهاجر في سبيل الله.

٦٩،٧٠: إنّها مسيرة مؤمنة واحدة، يتصل آخرها بأولها، مسيرة الطاعة لله والرسول، مسيرة الذين تمتعوا بنعم الله وفي طليعتهم النبيّون والصدِّيقون قولاً وفعلاً، والشهداء على أعمال الخلائق، والصالحون المتهيِّئون للكرامة الالهية. وما أروع هؤلاء من رفاق في هذه المسيرة الممتدَّة، وانه الفضل الالهيُّ الذي يشمل النفوس المستعدَّة والله عليم بها وبكلِّ ما يهديها إلى الهدف الكبير.

٧١: من توجيهات القرآن العسكريَّة للمسلمين: إلتزام اليقظة والحذر الدائم من العدو، ومن موارده: الخروج الجماعي للقتال (ثُبات: جمع ثُبة، أي بشكل مجموعات، وجميعاً: أي بشكل جيش عام) وعدم الخروج الفردي لقتال العدو، ذلك أن التنسيق والتجمُّع يحمل قوة جديدة وحذراً أشد.

٧٢،٧٣: ولكي يشدَّ القرآن من أواصر الجيش وينفي عنه عناصر الضعف، يذكِّر المسلمين بوجود أُناس مبطِّئين يتثاقلون هم عن القتال ويثبِّطون عزائم الآخرين، والذي تركهم في هذه الحالة انما هو ضعف شخصيَّتهم وتركيزهم على مصالحهم المادية الضيِّقة، وهم بتخلُّفهم هذا يجعلون أنفسهم كما يزعمون بمنأى عن الخطر، فإن نزلت بالمسلمين المحاربين مصيبة اعتبروا عدم اصابتهم بها نعمة إلهيَّة! وما هو إلا الخسران، إذ لم ينالوا حظَّ الشهادة. أما إذا أصاب المسلمين فضل إلهي فانهم يعلنون حسرتهم على عدم حصول فرصة المشاركة والفوز بالغنيمة، وكأنهم كانوا بعيدين عن الجيش المقاتل ولم تكن بينهم أواصر قوية لأنهم تقاعسوا أو انفصلوا عنه لضعف شخصيَّتهم . وهذا التعبير انكار عليهم في عدم انسجامهم العاطفي مع مجتمعهم، فهم يفرحون لحزنه ويحزنون لفرحه.

٧٤: وهنا يحرِّض القرآن المسلمين على الجهاد والقتال من خلال تشخيص الهدف (في سبيل الله) أولاً، ومن خلال بيان حقيقة الحياة الممتدَّة التي يشري (يبيع) فيها المقاتل حياة دنيا زائلة بحياة أُخرى خالدة، وينطلق لتحقيق إحدى الحسنيين على أيِّ حال إما القتل وإما النصر وكلاهما يؤديان إلى أجر إلهيٍّ عظيم.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

٧٥: يواصل القرآن هنا تركيز الهدف، محركاً الحسَّ العاطفي والأُخوَّة الايمانية. فالهدف هو تحقيق رضا الله الذي يتمثل أحياناً في إنقاذ المستضعفين المؤمنين الرازحين تحت نير الكفار والمستغيثين بالله كي يخرجهم من القرية الظالم أهلها (كما كانت مكّة أثناء سيطرة المشركين عليها) ويجعل لهم ولياً ونصيراً من عنده.

٧٦: إنّهما خطان: خطُّ الحقِّ، وخطُّ الباطل. فخطُّ المؤمنين هو القتال في سبيل الله الكامل المطلق، فهم أولياء الله والله وليُّهم، وخطُّ الكافرين هو القتال في سبيل الطاغوت، وما أخسَّ هذا الهدف وأرخصه، فهم أولياء الشيطان بما يمثّله من انحراف، والشيطان وليُّهم على مافيه من ضعف وخسّة. وحينئذ فموقع المؤمنين هو الأعلى وهو الأقوى وعليهم أن يقارعوا خطَّ الشيطان على مدى التاريخ.

٧٧: وفي مجال التذكير بنقاط الضعف، يتعرَّض القرآن إلى حالة أُولئك الّذين كانوا يتوقون إلى القتال والرد العنيف على الأعداء، في ظروف لا تسمح لهم بذلك. ولذلك أُمروا بالكفِّ والعمل على البناء الذاتي عبر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إلا أن الضعف النفسي لبعضهم ظهر حين أمروا بالقتال ـ بعد ذلك ـ إذ راحوا يخافون هجوم الناس كما يخافون الله أو أشد من ذلك، مما دعاهم لأن يدعوا الله كي يؤخرهم في الحياة قليلا، ولا علاج لهؤلاء إلا تقوية إيمانهم بالله والآخرة وتعميق تقواهم إلى الحدِّ الذي يشعرون معه بتفاهة متاع الدنيا وخير الحياة الآخرة حيث العدل العميم، فلا يُظلَم الناس فتيلاً (شيئاً قليلاً).

٧٨: إنّه مفهوم لو تأمّله الإنسان المتقاعس الخائف لأدرك حقيقته وتغلّب على ضعفه هو من خلال ذلك، فإنّ الموت لا يقف أمامه حائل حتى ولو عاش الإنسان في قبب وبروج عالية مشيَّدة بعيداً عن كل خطر ومكروه. وفي حياة الطواغيت أهل البروج والقصور عبر ودروس.

تواصل الآية كشف ضعف تصوُّرات هذا الفريق المتقاعس، فتذكر أنّهم إن أصابهم الرخاء نسبوه إلى الله وإن أصابتهم الشدّةُ تصوَّروا أنها من فعل الرسول، في حين إنّ كلَّ المخلوقات والحالات منسوبة إلى الله تعالى تكويناً، وهو(ص) متّبع لأوامر الله في مجال التشريع، فكلُّ أمر هو بيدالله، ومن الله، يجريه طبقاً للسنن والحكم والمصالح. وأخيراً تعيب عليهم انهم لا يعون ولا يدركون (يفقهون) التصوُّرات الصحيحة.

٧٩: لما كان حُسن الشيء انسجامه مع هدفه الذي خُلِقَ أو جُعِلَ لأجله، فإنّ التناسق العام يشهد بعموميّة الحُسن في الكون، لأنه كلّه تعبير عن لطف الله بالوجود، ويسري إلى عالم التشريع. فكلُّ حكم إلهي هو الحُسن بعينه، وكلُّ ما يُصيب الإنسان نتيجة عمله بحكم الله حسن بلا ريب. أما إذا ابتُلي الإنسان بنقص في اللطف والحسن فذلك بفعل نفسه فعلاً يسدُّ باب القابلية لهذا اللطف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. فعلى الرسول إذن أن يوصل اللطف الالهيَّ ويشهد مسيرة تطبيق رسالة الله، وما عليه ـ إذا لم يؤمن الناس أو ضعفوا عن حمل الرسالة ـ من شيء، إذ ان الله تعالى هو الذي سيحاسب هؤلاء، وكفى به شهيداً وحسيباً.

---

١ ـ الأنفال / ٥٣.

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)

٨٠: فالرسول يقوم بإبلاغ الرسالة الالهيّة، كما يقود الأمّة على أساسها، باعتبارها شريعة تربّي الإنسانية وتنظّم كل شؤونها، وإن طاعة الرسول في أوامره القياديّة هي نفس طاعة الله تعالى في أوامره، ولا يمكن الفصل بين الطاعتين.

أما من أعرض وتولّى فإن الرسول ليس مسؤولاً عنه.

٨١: نقطة ضعف أخرى لدى المنافقين، إذ يعلنون الطاعة المطلقة للرسول(ص)، فإذا خرجوا من عنده راح بعضهم يبيت (يضمر) غير ما يريده الرسول، إلاّ أن كل هذا لا يخفى على الله، إذ يكتب ما يسرّون ويضمرون ويحاسبهم على ذلك. أما الموقف فعلاً فإن على الرسول آنذاك الإعراض عنهم، باعتبار أن المسيرة ستهضمهم والآيات ستتبيّن لهم، ولا ضير في عصيانهم مادام الله هو الوكيل المتكفّل بنصر هذا الدين. هذا وربّما كان عصيانهم نتيجة عدم ايمانهم بمنبع القرآن والوحي. ولذا تأتي الآية التالية فتقر حقيقة النسب الإلهي للقرآن.

٨٢: فالقرآن الكريم إذا لوحظت كيفية نزوله التدريجيّ خلال ثلاث وعشرين سنة، وفي حالات مختلفة متفاوتة، ومعالجته لمختلف الشؤون الحياتيّة معالجة دقيقة فطريّة، فهو متناسق في كل جوانبه، مرن مستوعب للحالات المتغيّرة والثابتة. كل ذلك على وتيرة واحدة لا يأخذه هوى، ولا يتعثر به جهل، معجز في ألفاظه ومعانيه، نافذ إلى أعماق الإنسان وعلاقاته، مخطط لإشباعها الإشباع العادل. يفسّر بعضه بعضاً، ويدل بعضه على بعضه الآخر.

فإذا لوحظ كل ذلك فيه توضّح نسبه السماوي الإلهي دونما ريب أو شك وإلا لتأثر بالحوادث المتغيّرة والعواطف المتفاوتة، والمعلومات المتكثّرة، والبيئة المتطوّرة وغير ذلك، ولحدث فيه الاختلاف الكثير، وهو ما يشهد الوجدان العرفي بعدمه في القرآن، بعد التأمّل والتدبّر ـ أي قراءة ماوراء الظواهر ـ من دلالات بما يتناسب مع قدرات الفرد المتأمل.

٨٣: نقطة ضعف أخرى لدى هؤلاء الذين تركز عليهم الآيات، وهي نشر الأشاعات التي تبعث الذعر والتخويف أو كشف بعض الأسرار المرتبطة بالأمن الاجتماعي، مما يؤثر على المعنويات الداخليّة للمسلمين ويفسح المجال للوهن والضعف، كل ذلك إما عن ثرثرة أو تبجّح غير مسؤول أو نفاق وعداء واتباع لمصالح ضيّقة، إلا أنه كان الأجدر بهؤلاء أن يتأكدوا من الأمر بارجاع الخبر إلى الرسول وإلى أولي الأمر العارفين بالواقع. وحينئذ فإن المتتبّعين للحقيقة (المستنبطين) سوف يعرفونها تماماً وبهذا الاسلوب يسدّ القرآن ثغرة كبرى كانت شياطين الأعداء تنفذ منها لإضعاف معنوية الأمة المسلمة، ولولا هذا الفضل الالهي لأثرت نشاطاتهم على الأكثريّة ولم يسلم منها إلا القليل.

٨٤: وهنا يأتي هذا الأمر القرآني العظيم للرسول ليقرر الموقف الحاسم والحازم ويأمره بالقتال، حتى ولو تقاعس الآخرون عنه وبقي لوحده، فهو تكليف إلهيّ يجب أن يطبّق، وبعده يردّ الله هجوم الكفار وقوّتهم، والله أقوى وأشدّ عذاباً من غيره، وفي هذا الأمر معان كثيرة من التحريض على الجهاد، والاصرار على استمراره، والتعريض بالمتقاعسين، ودفعهم لاستحضار إيمانهم بالقوّة الإلهية المطلقة.

٨٥: في سياق الحديث عن الملابسات التي كان المنافقون يحدثونها بتصرفاتهم، فتارة يقفون في صف الإيمان وأخرى في صف الكفر مما يوجب نوعاً من الريب في قتالهم، وربّما شفع لهم بعض المؤمنين لحمايتهم، في هذا السياق تأتي هذه القاعدة العامة لتطلب التأكد من الشفاعة للآخرين وحسنها، لأن الشفيع يحصل على نصيب من الثواب إن كانت الشفاعة حسنة، ويتكفّل بشيء من جريرتها إن كانت سيّئة. والله تعالى بكل علمه وإحاطته هو (المقيت) الذي يمنح النتائج حسنة أو سيئة.

وربّما كان المراد بالشفاعة أيضا التحريض والتوسّط في دفع المؤمنين للقتال (حسنة) أو تثبيطهم عنه (سيّئة).

٨٦: ورغم أن الجوّ الذي وردت فيه الآية يوحي بلزوم الردّ بالمثل من المسلمين على عروض الطرف الآخر إن بدرت منهم بادرة حسنة، إلاّ أنها تطرح الأمر بشكل قاعدة عامة تطلب من المسلم ان يردّ التحيّة بأحسن منها أو بمثلها على الأقل، وإذا كان هذا بالنسبة للتعامل مع غير المسلمين فهو أولى أن يحصل بين المسلمين أنفسهم. هذا وقد امتاز المسلمون في تحيتهم بكلمة (السلام عليكم) (وربما كانت من مواريث الانبياء أو خصوص ابراهيم(ع)) وتمتاز هذه التحيّة بأنها لا تحمل معاني الخضوع والتذلل وإنما تحمل معاني الثقة المتبادلة والتعهد الإسلامي برعاية الحقوق وتقوية الأواصر، ومن هنا أمر المسلمون بافشاء السلام ووجب الردّ عليه حتى في حالة الصلاة.

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

٨٧: تركّز هذه الآية الاعتقاد بالتوحيد والمعاد باعتبارهما العلاجين الأساسين لكلّ أنماط الضعف النفسي وبالتالي الضعف الاجتماعي اللّذين قد يبتلى بهما المسلمون خلال مسيرتهم. وتجسّد الآية أمامهم صورة يوم القيامة واجتماعهم فيه كحقيقة ثابتة لا ريب فيها ولا شيء، حيث تحدّث عنها الله تعالى ووعد بها، وهل هناك أصدق من الله في كلامه وحديثه؟ وبهذا التصوير تستقرّ في النفس روعة ذلك اليوم وجلاله لتنعكس آثاره الايجابية على شخصية الإنسان المسلم وسلوكه.

٨٨،٨٩: المراد هنا هم أولئك الذين اسلموا بألسنتهم ولكنّهم لم يهاجروا من مكّة بل ظلوا هناك وانسجموا حتى مع عقائد المشركين وعواطفهم فودُّوا أن يكفر المسلمون مثلهم ليكونوا جميعاً سواء، وعلى أيّ حال فأنّ هؤلاء نتيجة نطقهم بكلمة الإسلام اختلفت كلمة المسلمين في نوعية الموقف الذي يجب أن يتّخذ تجاههم، وهذا الاختلاف نقطة ضعف تعالجها هذه الآية فتوضّح أن هؤلاء قد غرقوا في خطاياهم واختاروا طريق الضلال فلا سبيل لهم بعد ذلك للخلاص. ومن هنا ودّوا أن يحيلوا المسلمين كفّاراً لتتساوى الحالات، ومادامو كذلك فيجب قطع كل أواصر المودة حتى يعودوا إلى ذواتهم ويثبتوا ايمانهم من خلال تحمّلهم للأذى في سبيل الله فيما جروا في سبيل الله ومالم يفعلوا ذلك فانّ على المسلمين ملاحقتهم اينما وجدوا باعتبارهم كفّاراً حربيين.

٩٠: ورغبة من الإسلام في توفير فرص أخرى للمعاندين وربّما تجاوزاً لحالة تأليب الأعداء أو تحييداً لبعضهم وتشتيتاً لكلمتهم، نجده في هذه الآية يستثني من المنافقين آنفي الذكر مجموعتين:

الأولى: من لجأوا إلى معسكر بينه وبين المسلمين عهد وميثاق هدنة.

الثانية: من وقفوا على الحياد فلا هم يقاتلون المسلمين مع قومهم ولاهم مع المسلمين ضدّ قومهم، فإنّ همهم وصدورهم لا تتسع لاتخاذ موقف حاسم (وهم نظير بني مدلج كما في الروايات).

إلاّ أن هذه الحالة كانت مؤقتة، فبمجرّد ظهور قوة الإسلام تمّ نفي وجود المشركين مطلقاً.

ربّما كانت الآية توضح الحكم السابق، وان هؤلاء المعتزلين المحايدين كان بإمكانهم أن يشكّلوا قوة قتالية ضدّ المسلمين، فيجب استغلال فرصة الحياد ومنح هؤلاء الأمان، وعدم التعامل معهم بمثل التعامل مع من ذكر من قبل، فلا سبيل للمسلمين عليهم.

٩١: تحذير قرآني من أناس آخرين منافقين يضعون أنفسهم في صف المحايدين لكي يأمنوا خطر المسلمين وخطر قومهم، الا أنهم مراوغون خطرون قد يظهرون بألسنتهم الإسلام ولكنهم راكسون ومنغمسون في عبادة الاوثان، فيجب التأكّد من حيادهم وعدم ميلهم وتآمرهم، وإلاّ فتجب ملاحقتهم وقتلهم أينما كانوا. وللمسلمين الحقّ الواضح في هذا التتبّع قطعاً لدابر الفتنة واستئصالاً لمواطن الخطر المتمثّل في ثنائي الشرك والنفاق.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ۖ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٢: إنَّ المؤمن يرتبط بأعظم الوشائج الأخويَّة بالمؤمن الآخر، وهي وشيجة العقيدة. فمن الطبيعي أن لا يقدم على قتل أخيه متعمداً.. إلاّ أنه قد يقع الخطأ فيؤدي إلى قتل عضو مؤمن من أعضاء المجتمع المسلم، وحينئذ تذكر حالات ثلاث لكلٍّ منها حكمها:

الأولى: أن يكون أهل القتيل المؤمن مؤمنين، فيجب إعطاؤهم الدية. إلاّ أن يعفوا عن القاتل ويتصدقوا بهذا العفو، وتحرير رقبة مؤمنة، وكأنه بهذين العملين يتم تطييب قلوب الأهل. كما يتم تعويض المجتمع المؤمن بإضافة عضو مؤمن حر إليه. ويلاحظ هنا ان الاسلام يعتبر الرقّ موتاً والتحرير احياء، مما يعبّر عن الضرورة التي ألجأت الإسلام للقبول به بمادئ الأمر كحالة استثنائية، ثم العمل على نفيه وفتح ابواب التحرير بشكل واقعي.

الثانية: أن يكون أهل القتيل المؤمن من الكفّار المحاربين للاسلام، وحينئذ فليس هنا إلاّ تعويض المجتمع المسلم بتحرير رقبة مؤمنة وضمّها حرَّة إليه، ولا يدفع أي شيء للأهل المحاربين.

الثالثة: أن يكون القتيل المؤمن من قوم عاهدوا المسلمين (عهد ذمة وهو مختص بأهل الكتاب، أو عهد هدنة) وحينئذ فدماؤهم محترمة، ويجب تسليم الدية إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة أيضاً.

أما من لم يستطع تحرير رقبة مؤمنة. فإنّ عليه صيام شهرين متتابعين (أي يصوم على التتابع شهراً ويوماً على الأقل من الشهر الآخر، ثم يستطيع التفريق). ولعلَّ في ذلك إشارة إلى الفوائد التي يعود بها الصوم على الإنسان، فيسد ما بدر منه من نقص، ويشده إلى ربِّه وغير ذلك.

وهو عودة إلهيَّة بالرحمة على العباد، ففي هذا الحكم رحمة للعبد (القاتل خطأ) وأهل القتيل، والمجتمع المسلم.

٩٣: إنها مكانة المؤمن الرفيعة، باعتباره الموجود المكرَّم السائر في خط الخلافة الالهيَّة، والعامل على تحقيق هدف الخلقة البشريَّة، فأيُّ اعتداء على هذا الوجود يعني اعتداء على كلِّ المسيرة، فهو بالتالي يستتبع الغضب الالهي واللعنة والعذاب الأليم وهو عقاب شديد قلَّما يواجه القرآن به المجرمين فالويل للطغاة الذين يلاحقون المؤمنين بالقتل والتشريد ـ دوماً ـ للحفاظ على عروشهم.

٩٤: تطلب الآية من المؤمنين التبيُّن والتأكد أثناء الضرب (أي التحرك الجهادي) في سبيل الله، وقبول قول من ادّعى الإسلام، وعدم التشكيك فيه للحصول على غنائم ماهي إلاّ غرض دنيوي زائل، لا قيمة له في قبال الهدف الكبير، وهو سبيل الله، حيث المغانم المعنوية كثيرة لاتقاس بها الغنائم الدنيوية، والتخلُّص من تصوّرات الجاهلية التي كانت تستهدف الأهدف الرخيصة فمنَّ الله عليهم بالايمان وحمل الأهداف السامية.

ثم تعود فتؤكِّد مسألة التبيُّن حفاظاً على حياة المؤمنين وتأكيداً على لزوم التعامل بالظاهر معهم، وتؤطر هذا التأكيد بالتذكير بالخبرة والإحاطة الالهية بكلِّ الأعمال.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٦،٩٥: يستمرُّ القرآن في تحريضه على الجهاد عبر وسائل شتى، وهو هنا يذكر أصنافاً ثلاثة من المؤمنين:

القاعدون أولو الضرر: أي الذين يقعد بهم مرضهم عن الجهاد.

والقاعدون غير أولي الضرر: أي الذين ربما شغلتهم أمورهم الخاصة عن الجهاد بعد أن لم يجب عليهم عيناً في حال قيام جماعة فيهم الكفاية بعملية الجهاد.

والمجاهدون: المنطلقون إلى ميدان العمل في سبيل الله.

وإذا كان الأولون معذورين لضررهم وربّما نالوا بنياتهم الدرجات العالية، فإنَّ الفئة الثانية لن تحصل على الدرجة التي تحصل عليها الفئة الثالثة لأنها نتيجة الجهاد. وفي هذا التقسيم بلاريب دفع للتسابق والعمل على الانخراط في سلك المجاهدين، والحصول على الأجر العظيم، رغم أن كلا الطرفين موعود باللطف الالهي والحسنى.

وفي هذه الآية الكريمة دفع أكيد لاعتماد الاستعداد للجهاد دائماً، في سبيل إعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته في الأرض، وعدم القعود عن بذل أي شيء، بعد أن يؤكّد القرآن الثواب العظيم مراراً، فهو يعبّر أولاً بتفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم يذكر تفضيل المجاهدين بالأجر العظيم، ثم يفصّل ذلك بذكر الدرجات الالهيّة والمغفرة والرحمة من الله الغفور الرحيم.

٩٧: وهذا نموذج آخر من القاعدين، إلاّ أنه هنا نموذج مرفوض، محكوم عليه بسوء المصير، وهو نموذج أولئك المسلمين الذين رضوا بالعيش في ظلّ الكافرين، وخضعوا لضغوطهم، فتركوا إقامة الشعائر الاسلاميّة إرضاء للكفر. ويذكر القرآن هنا مشهداً مرعباً حيث تحاسبهم الملائكة وهم يتوفونهم متسائلة عن السبب الذي دعاهم لهذه الحالة، فلا يملكون جواباً إلاّ التذرع بحجّة كونهم مستضعفين من قبل الكفار. وهنا تردُّ الملائكة عليهم بسؤال إنكاري يقول: ألم تكن أرض الله واسعة فتها جروا فيها؟ وبالتالي تتخلصوا من ضغط الشرك، وحينئذ فلا جواب لهم، بعد أن شدّهم الطمع للاحتفاظ بالأموال، أو الخوف من أهوال الهجرة، والكسل عن العمل التغييري إلى البقاء وتحمُّل الضغط الكافر، ولا مصير لهؤلاء إلاّ النار.

٩٨،٩٩،١٠٠: ويستدرك القرآن فيخرج من حكم الآية السابقة أولئك المستضعفين حقّاً، والذين لا يقدرون على الهجرة، ولا يملكون وسيلة (حيلة) يتخلّصون بها من الضغط الكافر، وربما شمل حكم هذا الاستثناء أولئك الذين طلبوا معرفة الرأي الحق فلم يهتدوا إليه سبيلاً، أو اولئك الذين لا يملكون قدرة التحليل والتمييز بين الآراء فركنوا إلى آراء ظنوها صحيحة، فهؤلاء وأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وهو العفو الغفور.

تأكيد قرآني على الهجرة بعد أن يعيّن جهتها (الله ورسوله) ويضمن للمهاجر النتيجة السامية والأجر الالهي إذا ما تعرض للموت في الطريق.

١٠١: من خلال تحريض الآيات على الجهاد تدعو هذه الآية للتقصير والتخفيف من الصلاة حال السفر والخوف من فتنة الكافرين واعتدائهم، وهذا التقصير وإن ذكر هنا بقيدين لكنَّ السنّة عمّمته لكل سفر (وقد قيل أن هذه الآية تتحدث عن صلاة الخوف والمطاردة لا صلاة المسافر). وأكّدت أغلبية المسلمين بما فيهم الإمامية أن القصر عزيمة لا رخصة ولا ينافيه التعبير بلا جناح عليكم، فهو وارد أيضاً في السعي، وهو واجب بلا شك، وربّما كان التخفيف في صلاة الخوف يشمل تحويل الرباعيّة إلى ثنائية، كما يشمل التخفيف الكيفي بتحويل الحركات إلى ايماءات إذا تطلب الأمر ذلك.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)

١٠٢: في سياق الحديث عن الجهاد والقتال تتعرض هذه الآية إلى كيفية الصلاة أثناء مقابلة العدو، مركّزة على أهمية الاتصال الدائم بالله تعالى من خلال الصلاة، وأهمية الصلاة جماعة حتى في حالات الخوف الشديد. ويختلف العلماء في كيفيّة صلاة الخوف واستفادتهم من الآية والراجح ان المراد هو أن ينقسم المسلمون طائفتين فتصلّي إحداهما مؤتمّة بالرسول(ص) في ركعته الأولى، فإذا أتم السجود، نهضت، فأتمت ركعتها الثانية، منفردة مسرعة ومنهية صلاتها ركعتين، ثمّ متجهة إلى موقع الطائفة الأخرى التي وقفت للحراسة فتأخذ موقعها. وتأتم الطائفة الأخرى بالنبيّ في ركعته الثانية، فإذا انتهى السجود وسلّم الرسول، قامت، فأتت بركعتها الأخرى منفردة. وقد رويت صور أخرى لهذه الصلاة، والحكم عام لا يختص بزمن الرسول(ص).

والآية تأمر كلّ طائفة تأتم بالرسول بأخذ أسلحتها، مؤكّدة الحذر والوعي الشديد، مذكّرة بتربص العدو. أما إذا كانت هناك مشقة من مطر أو مرض فقد سمحت لهم بعدم حمل السلاح أثناء الصلاة، ثم كررت عليهم مسألة الحذر الشديد، فإنه شرط ضروري لهزيمة العدو وابتلائه بالتالي بالعذاب المهين المذل.

١٠٣: تأكيد لأهمية الذكر المتواصل لله عقب الصلاة، وفي كلّ حالة من حالات الإنسان (قياماً أو قعوداً أو اضطجاعا على جنب) فذكر الله زاد مسيرته التكاملية ووقودها وسر توازنها ووعيها لهدفها الكبير، وأي غفلة عن ذلك تعني الارتكاس والنكوص والخلل في السير.

فإذا بلغتم محلاً آمناً فأدّوا الصلاة كاملة في كيفيّتها وكميتها.

إنّ الصلاة فريضة ثابتة على مدى الزمان، لا تسقط بحال، وذلك نظراً لأنها تسدُّ حاجة طبيعيّة دائميّة للإنسان في مسيرته المعنويّة، وربما فُسِّرت بأنها فريضة لها وقتها الخاص، إلاّ أنه خلاف الظاهر بملاحظة السياق.

١٠٤: تحمل هذه الآية الكريمة أقوى تحفيز على القتال ومواصلته وتحمُّل مشقته، فهي تأمر بعدم الضعف والتهاون في مطاردة الكفر والطاغوت وأشقائه... وتركز في قناعة المسلم حقيقتين مهمّتين مؤثّرتين في استمراريّة الطغاة.

إنّ الرعيل المؤمن راج منتظر، والإنتظار هنا من الله تعالى القوي العليم الحكيم، والإنتصار الحقيقي طاقة كبرى بها يُضمَن التحرُّك المتواصل والحرارة الدائمة، خصوصاً وان النصر مضمون من الله تعالى، فهو مولى الذين آمنوا، والعليم بسبيل النصر، والحكيم الذي يضع الخطّة الموصلة للهدف بكلّ دقّة. أما الذين لا ينتظرون مستقبلاً حيّا يتحقّق لا محالة فهم إذا تحركوا تحركوا على أمل نصر قصير دونما رصيد من قدرة تسندهم، فالكافرون لا مولى لهم.

١٠٥: وهكذا يتم تنزيل شريعة الله على أساس من الحق الثابت والمصالح الإنسانية الممتدّة مع المسيرة الفطرية لتحكم وتقضي وتقدم أيسر الحلول للمشاكل، وعلى حامل الشريعة أن يحكم بها دونما تهاون أو ميل أو تنازل، ودون أن يكون الحاكم خصيماً، أي مدافعاً عن خونة الحكم الإسلامي.

ولعلّ مورد نزول هذه الآية واقعة سرق فيها أحد المسلمين ورمى بها غيره من اليهود وألحّ قوم السارق على النبي(ص) أن يقضي لهم ضد المتّهم البريء وأصروا عليه في ذلك فأنزل الله هذ الآية لبيان الحق وتوضيح ان معيار الإسلام هو الحقّ حتى لو كان ضدّ أحد الأنصار ولصالح أحد اليهود.

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

١٠٦: إنَّ الاستغفار بمعنى طلب العودة الدائمة إلى الله وطلب المدد منه، وهو أمر يشترك فيه الجميع حتى المعصومون ليغمرهم المدد والغفران ويعطيهم القوة في الوقوف بوجه الباطل.

١٠٧: العصاة يخونون أنفسهم لأنَّ وبال المعصية يعود إلى النفس، وربَّما كان المراد خيانة المجتمع المسلم باعتباره نفساً واحدة، فيجب عدم الدفاع عنهم لأنهم مبعدون عن الرضا والحب الالهي.

١٠٨: إنهم يخفون خياناتهم ويستحيون من الناس في حين كان الأجدر بهم أن يخشوا الله ولا يقدموا على ما قاموا به من معصية وزادوا عصياناً في رمي الغير بها والله تعالى مشرف على كلِّ أعمالهم مطّلع على ما يبيتون (يضمرون) من كلام وتآمر فهو المحيط بكل الأعمال.

١٠٩: دعنا نفترض ان الدفاع عن هؤلاء أدى إلى ستر جريمتهم في الحياة الدنيا، إلا أنه من سيجادل ويدافع عنهم يوم القيامة ويتكفَّل بخلاصهم آنذاك؟

١١٠: بدلاً من لجوء العصاة إلى رمي الغير بالمعصية للتخلُّص من تبعاتها، كان الأجدر بهم أن يعودوا إلى ربهم مستغفرين ومستفيدين من فرصة العفو الالهي عبر التوبة والاستغفار الخالصين.

١١١: الملاحظ في هذه الآية وما قبلها التأكيد على عودة الاثم على النفس نقصاً وضعفاً، وهي حقيقة يجب أن يشعر بها المؤمن دائماً فينسجم بشكل طبيعي مع خط الطاعة ويبتعد كذلك عن خط المعصية.

١١٢: قيل إنَّ الخطيئة هي المعصية التي لا تتجاوز آثارها الإنسان العاصي نفسه، كترك بعض الواجبات كالصوم، في حين أن الاثم معصية يستمر وبالها كقتل النفس بغير حق. وعلى أي حال، فإنَّ الطريق الطبيعيَّ للتخلُّص من الوبال هو التوبة النصوح، فإذا سلك العاصي طُرقاً أخرى وهي رمي الآخرين بهذه المعصية فقد ارتكب إثماً مضاعفاً واضحاً حيث اتبع سبيل البهتان والاتهام الكاذب.

١١٣: إنَّ تسديد الله تعالى دائم للنبي، يعصمه من أيِّ ميل أو إستجابة لتآمر يعمل من خلاله بعض الناس على تشويه الحقيقة، ويظنون انهم يُضلون النبي(ص) في حين أنهم لا يضلون الا أنفسهم ولا يستطيعون الإضرار بالنبي(ص) مطلقاً بعد أن انزل الله عليه الكتاب والحكم وعلَّمه العلوم الواسعة، وهذا هو الفضل الالهي العظيم.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

١١٤: تقلّل الآية من قيمة التناجي وتبادل الحديث سراً بعيداً عن المؤمنين، وتبيين الأمور دون علم المؤمنين وقائدهم، وخصوصاً إذا تمّ هذا من قبل المنافقين والعصاة ومؤيّديهم. إلاّ أن الآية تستثني من التزهيد بالنجوى التناجي والإجتماع الخفي لغرض ابتغاء مرضاة الله تعالى بالقيام بتقديم صدقة في السر أو العمل على نشر المعروف أو الاصلاح بين الناس ممّا يترك آثاره الايجابيّة الطيّبة على المجتمع دون أن يضطر الآخرين لالقاء ماء الوجه أو الخجل فإنّ الإعداد السريّ المسبق للأعمال الصالحة التي يرضاها الله حتماً يوجب الفوز بالأجر العظيم.

١١٥: إنّ من ينفصل عن سبيل الرسول ويتّبع سبيلاً لا يتّفق مع سبيل المؤمنين ـ وهو سبيل الطاعة لله والرسول والتمتّع بالخصائص العامة للأمة الإسلامية من الوسطية والشهادة والقيام بالقسط وغير ذلك ـ مثل هذا يوكّل أمره إلى من يتولاه (وكلّ ما عدا الله ضعيف لا يقدر على شيء) ويصلى جهنّم وبئس المصير.

١١٦: إن مشاقّة الرسول، والانفصال عن سبيله، واتباع سبيل المشركين: تعني في الواقع تولي الأصنام وبالتالي الشرك بالله وهو ذنب عظيم لا يغفره الله ـ وإن كان يغفر ما دونه لمن تتوفّر فيهم شروط المغفرة ـ لأنه الضلال البعيد عن هدى الفطرة ومقتضاها الواضح.

١١٩،١١٨،١١٧: ذكرت الآية السابقة ان الشرك يعني الضلال والوهم البعيد (عن الفطرة ومقتضياتها) وكمثال على ذلك نجد المشركين يعبدون الملائكة وهم يتصوّرون انها اناث!! – وربّما كانت الآية تشير إلى ان الآلهة التي يعبدها المشركون آلهة مؤنّثة بالمعنى اللّغوي للتأنيث وهو الإنفعال والتأثّر. فكلّها مخلوقة متأثّرة لا قيمة استقلالية لها ـ وربّما عبدوا الشيطان واتبعوه رغم انه العدو الأثيم المريد (أي الذي لا خير فيه مطلقاً) مما استحقّ معه اللعنة والطرد الالهي فراح يخطط لاقتطاع جزء من البشرية المؤمنة وابعادها عن السير الصالح من خلال الاضلال والأماني الكاذبة التي تبعدهم عن طاعة الله، استجابة لرغباتهم النفسية الكاذبة. وكذلك من خلال بث خرافات الشرك بينهم لكي يحرّموا الكثير من الثروات الحيوانية بعد تقطيع آذانها، وتغيير الخلق الالهي كما في اخصاء العبيد وأنواع المثلة واللواط وغير ذلك، وكله خروج عن حكم الفطرة السليمة.

وتلك نتيجة طبيعية لمن يتّخذ عدوّه ولياً له، ويترك الوليّ الحقيقيّ الرحيم وهو الله تعالى، وبذلك فانه لن يجني سوى الخسران المبين.

١٢٠: إنّ الشيطان ضعيف جاهل مخاتل معاد، ومن الطبيعي انّ الوعود والأماني الشيطانية رغم سعتها الوهمية هي غرور وتغرير وإيهام لا غير.

١٢١: إنّها العاقبة الطبيعية لمن اتبعوا خطّ الشرك والبعد عن الفطرة، وركضوا وراء العدو الشيطان، واتخذوه ولياً من دون الله وغرقوا في الخرافات القاتلة التي خسروا معها حياتهم الدنيا، وليس لهم في الآخرة مفرّ من جهنم التي ستكون مأواهم ومسكنهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

١٢٢: في الآية السابقة وضّح القرآن وهم الوعود الشيطانية. ذلك لأنها وعود من عدو ضعيف جاهل مخاتل. وفي قبال ذلك فالاعتماد الحقيقي المبتني على قاعدة متينة يجب أن يتم على الوعود الالهية المؤكّدة للمصير المشرق للمؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنة والخلود فيها وهو أقصى ما يمكن أن يتصوّره إنسان من السعادة في ظل رضوان الله. إنه الوعد الالهي الحق باعتباره ثابتاً مطلقاً، مستمداً ثباته من علم الله المطلق وصفاته الكمالية. ومن أصدق من الله قولا ووعداً؟

١٢٣: إنه المعيار الاسلاميُّ الحقُّ الذي لا يتبع الأهواء والأماني والتقولات والادعاءات الكاذبة بأن الانضمام اللفظي أو النسبي أو الطبقي إلى مجموعة يكفي في النجاة حتى ولو لم يستتبع ذلك العمل الصالح والالتزام بالخط الأصيل. فقد يتصوّر المسلم أنه بإسلامه المجرّد اللفظي قد نجا ولا عليه إذا لم يعمل، تماماً كما تصوّر أهل الكتاب من قبل فقالوا «نحن أبناء الله وأحباؤه» و«لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة» وأمثال ذلك. إلاّ ان المعايير الإسلامية المنطقية تأبى كلَّ هذه التصوُّرات الباطلة. فالعاملون بالسوء سيلاقون نتائج عملهم بلا ريب الاّ أن يغفر الله لهم نتيجة استعداد منهم ولطف منه تعالى، ولن يجد المسيؤون من ينصرهم من دون الله من ولي أو نصير.

١٢٤: أمّا العاملون للصالحات في إطار إيمانهم فلهم الجنّة، ولا يُظلمون مطلقاً حتى بمقدار نَقرة الطائر على التمرة، مبالغة في الدقة. ومن هنا يُعلم أن العمل الصالح في غير هذا الإطار لا يؤدي إلى هذه النتيجة الكبرى. وفي الآية تأكيد رائع لانفتاح طريق التكامل أمام الأنثى تماماً كالذكر، وهو أمر لم تكن البشرية آنذاك لتعترف به.

١٢٥: وهل هناك دين ينسجم مع الفطرة أحسن انسجام من الاسلام الكامل لله تعالى، والانطلاق في عمل الاحسان، واتباع طريقة ابراهيم (عليه السلام) وهي الطريقة الحنيفية الخالصة المنسجمة مع الفطرة بكل نقائها. الأمر الذي أهّل ابراهيم لمقام الخلّة الالهيّة، فمهما سما الإنسان في عبوديته وتسليمه، سما في مقامه وقرب من الحقيقة الكونية التي تقررها الآية التالية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

١٢٦: وهي تؤكّد ان الوجود كلّه مخلوق لله، وانه تعالى محيط بكلِّ شيء فيه، ومن الطبيعي ـ بالتالي ـ أن يتوجّه الكون إليه بالطاعة والعبادة والتسليم طوعاً وكرهاً.

١٢٧: كان المؤمنون الذين هداهم الله للإسلام يعملون على تطبيق الإسلام على كلِّ جوانب حياتهم، والتخلُّص من أوضار الجاهلية، ومنها تلك العادة الذميمة: الاستهانة بالنساء واليتامى بالخصوص، حيث يلقي القوي منهم ثوبه على اليتيمة فتصبح تحت تصرُّفه، فهو يتزوجها إن كانت جميلة، ويعضلها ويتركها دون أن يسمح لها بزواج ان كانت دميمة، مستهدفاً أن يرثها ما تملك.

وهكذا كان الحال بالنسبة لليتامى الذكور المستضعفين حيث لا يُشركون في ارث باعتبارهم لا يستطيعون قتالاً وانتاجاً! هذه العادات الجاهلية جاء المؤمنون يطلبون رأي النبي فيها فأعطاهم القرآن رأي الله (الذي يستند إليه الرسول دائماً).

والمعنى ان الله يفتيكم في اليتامى الاناث اللاتي كُتِبَ لهنَّ بشكل طبيعي أن يكنَّ احراراً في الزواج، وكنتم ترغبون عن نكاحهن أن تفسحوا المجال لهنَّ في ذلك، وليس لكم أي ولاية عليهن، وكذلك يُعامل المستضعفون من الذكور (الولدان) معاملة عادلة فيعطون حقوقهم لأنهم أُناس قبل كل شيء، والله تعالى هو العليم بكلِّ خير يفعله الإنسان.

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

١٢٨: عالج القرآن من قبل حالة النشوز لدى الزوجة، وها هو يعالج هذه الحالة لدى الزوج بكلّ واقعيّة. فإذا خافت المرأة من زوجها النشوز والإعراض الذي قد ينتهي إلى الطلاق فإنّ لها أن تصطلح معه بالتنازل عن شيء من حقوقها عملاً على توفير جوّ المحبة بينهما، فإنّ الصلح خير من النفور والفراق، وفيه نفي لبعض البخل الذي يؤدّي بالزوج إلى هذه الحالة، فسماح الزوجة يؤدّي بشكل طبيعي إلى سماح الزوج ويسود الوئام، ثم تأتي دعوة القرآن الأزواج للاحسان والتقوى مؤطرة حياتهما الزوجية بما يمنحها روحها الايمانيّة.

١٢٩: إنطلاقاً من واقعيّته، يذكّر القرآن بأن العدالة التامّة بما يشمل الميل القلبيّ أمر غير ممكن بالنظر لطبيعة الإنسان، ولذا فلن يكلّف المتزوّج بأكثر من واحدة بهذا المستوى اللاإرادي، وإنّما عليه أن يعدل في أعماله الارادية: كالتعامل والقسمة والنفقة، ولا يميل إلى إحداها تاركاً الأخرى لا هي بزوجة ولا هي حرّة مطلقة.. وإنما يحقّق التوازن المطلوب، كل ذلك في إطار من الاصلاح والتقوى.

ونذكر هنا ان بعض الناس حاول الأخذ بصدر هذه الآية ضاماً إليه المقطع القرآني ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1] ليستنتج تحريم الإسلام للتعدّد! وهذا افتراء وتمحّل يبدو بعد ملاحظة الآية بكاملها، فالمنفي هو العدل الحقيقي الشامل، والمطلوب هو العدل التقريبي الارادي، ولا ندري كيف يستنتج هذا الحكم مع صراحة الآية القرآنية ﴿فانكحوا ما طاب لكم..﴾ في تشريع تعدد الزوجات.

١٣٠: وعلى أساس نفس الواقعيّة المشار إليها يفسح الإسلام المجال للطلاق، وذلك بعد أن يستنفد كل الأساليب التي تحفظ لعش الزوجيّة حرارته واستمراريّته. أما حين يصعب الحال فقد يكون الطلاق ـ رغم كونه أبغض الحلال إلى الله ـ هو الحل الأفضل، ولن يعدم أي من الزوجين بعده أن يعيش حياة غنى وسعادة ويُرزق من فضل الله حياة جديدة، والله هو الواسع العليم.

١٣١،١٣٢: فهو تعالى يشمل بلطفه الخلق جميعاً ولا معنى لليأس.

إنها الرحمة الالهيّة والعلم الإلهيّ الذي شرع لهذه الأمّة وللأمم السابقة هذه الأحكام الواقعية، لطفاً بها وتوجيهاً لها نحو السعادة التي لا تُنال إلا بالتقوى.

أما الانحراف والكفر فلا يعودان بالسوء إلاّ على الإنسان نفسه، فالله تعالى له الغنى والحمد وله ملك السماوات والأرض.

١٣٣: تهديد إلهي لأولئك الذين يخرجون عن اطار التقوى ويسلكون سبيل الطغيان والعتو بأنهم لا قيمة لهم، وانه تعالى إن يشأ يذهبهم ويسكن الأرض آخرين فليس ذلك عليه بعزيز.

وقد روى بعض المفسّرين أن الآية لما نزلت، ضرب رسول الله(ص) يده على ظهر سلمان، وقال: (إنّهم قوم هذا)[2].

١٣٤: إنّ الدنيا السامية وان المصلحة الحقيقيّة تكمن في تقوى الله، فعنده تعالى ثواب الدنيا والآخرة، ويتلخّص ذلك في اتّباع دينه، فليتّجه طالبو السعادة إليه لا غير.

---

١ ـ النساء/٣.

٢ ـ جوامع الجامع، ج ١، ٢٩٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ۞ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۞ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۞﴾

١٣٥: دعوة قرآنيّة للمؤمنين جميعاً كي يعدوا أنفسهم للقيام بالقسط دائماً، واداء الشهادة لله تعالى، كما هو الواقع، حتى ولو كان ذلك مؤدّياً لفقدان مصالح شخصيّة، أو مصالح للوالدين والأقربين، ودون أيّ ميل أو اذعان لتحريك عاطفي نتيجة الغنى والفقر، فالله تعالى هو أولى بالمشهود عليهم من الأغنياء والفقراء.

وتتأكد هذه الدعوة بالنهي عن اتباع الهوى ـ عند أداء الشهادة ـ مخافة العدول عن الحقّ والقسط، وكذلك النهي غير المصرّح به عن اللّيّ في الشهادة وتحريفها أو الإعراض عنها، فإنّ الله تعالى يعلم الحقيقة ولابُدّ وأن يجازي كلّ من حرّفها أو أعرض عنها.

١٣٦: تؤكّد هذه الآية القرآنية ضرورة الربط القوي بين عناصر التصوُّر الإسلامي بما فيها (قضايا التوحيد والصفات الالهيّة والايمان بالرسول والقرآن، والرسل الذين سبقوه وكتبهم والملائكة...) فكلّ منها يستلزم الآخر مما يشكّل لدى المسلم وحدة تصوُّريّة لا تنفصم أجزاؤها، وأي قبول لبعضها ورفض للآخرين يعني في الواقع رفضاً لكلّ التصوُّر الإسلامي والدخول في معسكر الكفر والضلال البعيد.

١٣٧: تتحدَّث هذه الآية عن اناس مذبذبين منافقين يتردَّدون بين حالتي الإيمان والكفر قبولاً ورفضاً على اختلاف مصالحهم، ثمّ تزداد حالة الكفر لديهم وتستحكم، فلا يجدون في أنفسهم بعد هذا التذبذب الغريب قدرة على العودة إلى الله والايمان الحقيقي والتمتُّع بمغفرة الله وهداه.

١٣٨: تهديد قرآني للمنافقين بالعذاب الأليم. ولقد كان لهذه التهديدات أثرها الكبير في تثبيط عزائمهم في المجتمع الإسلامي الأوّل، كما ان لها أثرها في تنبيه هؤلاء الذين يسلّمون أنفسهم لأهوائهم ومصالحهم لتقودهم حيث تشاء، فهم هنا مؤمنون وهناك كافرون، فيشكّلون مصدر خطر على حياة المجتمع الإسلامي دائماً.

١٣٩: إنّ مصالح المنافقين قد تقودهم لموالاة الكافرين بدلاً من المؤمنين، لجوء اليهم وكسباً للعزة منهم!! وهو خيال ووهم، فإنّ العزة لله جميعاً

١٤٠: تحذير من مجالسة الكافرين والاستماع إلى كفرهم بآيات الله واستهزائهم بها، وتذكير بما أُنزل من قبل في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾[1] أما المجالسة والاستماع فيعني الانخراط في سلكهم، ويعني النفاق، والكافرون والمنافقون لهم محالُّهم من جهنَّم.

---

١ ـ الأنعام / ٦٨.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

١٤١: صفة وضيعة من صفات المنافقين، فهم يتحيَّنون الفرص مهما كانت، فإن فتح الله على المؤمنين تقرَّبوا اليهم مدَّعين أنهم كانوا يقاتلون إلى جنبهم، وإنْ حانت للكافرين فرصة انتصار راحوا اليهم يتودَّدون لهم، مدَّعين انهم حموا ظهورهم من المؤمنين وسهَّلوا لهم فرصة النصر، إلاّ أنّ القرآن يتوعَّدهم بعذاب الله مثبِّطاً عزائمهم.

وهذه الحقيقة تمتلك بعداً واقعياً، فتذكر أن المؤمنين إذا صدق ايمانهم انتصروا وعلوا، كما تمتلك بعداً تشريعياً بالمنع عن كلّ عمل يؤدي إلى علوّ الكافرين وذلّ المؤمنين أمامهم، والدفع نحو تهيئة كلّ ما يؤدّي إلى علاء المؤمنين.

وهذه الآية ـ من خلال بعدها التشريعي ـ تشكّل قاعدة أساسيّة، سواء على الصّعيد الداخلي للأمة، أو على صعيد العلاقات الدوليّة، فكلُّ عمل أو معاهدة أو ميثاق جعل للكافرين على المؤمنين سبيلا يعدُّ ملغى لا قيمة له، وقد استدلَّت بعض الروايات بهذه الآية فإنها ببعدها الواقعي تبعث اليأس في نفوس المنافقين لئلا يستمرّوا في غيّهم وتلوّنهم.

١٤٢: ولكي تنبِّه المنافقين إلى ضلالهم وتميت عزائمهم تذكّر الآية بالعلم الالهيّ بكلّ ما يصنعون، ظانين أنهم يخادعون الله! والله خادعهم وكاشف كلّ ما يصنعون.

وهذه علامة حسّية على النفاق وعدم تركّز الإيمان في القلوب، وإلا فالصلاة تعني قمّة الوعي والاتصال بالخالق العظيم والاستمداد من منبع الرحمة والنور وهي حالة لا تنسجم مع الكسل والضجر.. إلاّ أنّ الايمان لم يستحكم في القلب، ولذا فالمنافقون يعيشون رياءً متواصلاً، ولا يلجأون إلى ذكر الله إلا قليلاً، وذلك رياء وحيطة لأنفسهم.

١٤٣: تحقير للمنافقين وبيان لوضعهم القلق ونفوسهم المتأرجحة، وهو أمرٌ ينعكس على مجمل الحياة، وما ذلك إلاّ الضلال والبعد عن هدى الله، ولن يجد الضالّون عن هدى الله سبيلاً لحياة انسانيّة كريمة.

وهكذا نجد القرآن يتابع المنافقين، محطّما عزمهم، مضعفاً عقولهم، موقفاً إيّاهم على الضعة والقلق الذي يعيشون، وكلُّ ذلك له أثره العظيم في تنبيههم من جهة وكشف ألاعيبهم من جهة أخرى.

١٤٤،١٤٥: يدعو القرآن المؤمنين إلى عدم القرب من حمى الكافرين وعدم مد علائق الولاء معهم، وذلك لئلا يتأثّروا بأحابيلهم وليتميَّزوا عن خطِّ المنافقين المذبذبين، وإلا فهم سيتعرَّضون لسخط الله، وبالتالي سيلاقون مصير المنافقين في الدرك الأسفل من النار دون أن يكون لهم نصير أو ولي.

١٤٦: وهنا تفتح الآية للمنحرفين والمنافقين باب التوبة والاصلاح والعودة إلى الله والاعتصام بحبله والاخلاص له.

١٤٧: تعبير قرآنيّ رائع عن اللُّطف الالهيّ الشامل وتذكير به، وبالتالي فالانسان هو الذي يحرّم على نفسه لطف الله الفيّاض المطلق.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝﴾

١٤٩،١٤٨: إنَّ الإسلام يعمل على اشاعة روح الثقة والمحبة والظنّ الخير بين أبناء الأُمة الاسلاميَّة. والجهر بالسوء يتنافى مع ذلك التوجُّه الإسلامي الأصيل، إلاّ أن يكون هذا الجهر بالسوء من قبل من طالته يد ظالم فراح ينتصر لنفسه ويكشف موقع الظلم ليتخلَّص منه.

ولكي لا يمعن الظالم في ظلمه ويسرف المظلوم في الرد، فيجب تذكير الطرفين بالعلم الالهي بالنيات، ولزوم مراقبته تعالى فيما يفعلون، مع ترغيب في العفو وستر العيوب.

١٥٢،١٥١،١٥٠: يؤكِّد القرآن في مواضع عديدة أن التصوُّر الالهي كلٌّ مترابط لا يتجزأ، ولا يمكن أن يقع مورداً لتلاعُب الكافرين حسب ميولهم، فهم تارة يكفرون بالله ورسله، وتارة يفرِّقون بين الإيمان بالله والايمان بالرسل، أو يفرِّقون بين الإيمان برسول ما ورسول، سالكين سبيلاً وسطاً!! إنَّ مثل هؤلاء المتوسِّطين ـ كما يزعمون ـ أناس كافرون بالمجموع في الواقع، ولا مصير لهم نتيجة مسلكهم التجزيئي إلاّ العذاب المهين.

أمّا المؤمنون حقاً والواعون والمتَّبعون للتعاليم الاسلاميَّة المنسجمة مع الفطرة والعقل السليم فهم يؤمنون بالله ورسله، ولا يفرِّقون بين أحد منهم من حيث الصدق والتبليغ عنه تعالى، وهم الحائزون على أعظم الأجر يوم القيامة.

١٥٤،١٥٣: تشير هذه الآية إلى عناد اليهود وتاريخهم المليء بالجهل والاسئلة التافهة. فها هم هنا يسألون رسول الله(ص) أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء. ولا ريب في أنّ ذلك مجرَّد عناد لا غير، إذ لو كانوا يرغبون في معرفة الحقّ لفكَّروا في القرآن العظيم الذي تحدّاهم أن يأتوا بمثله، وإذ عجز الجميع عن ذلك فإنّه دليل قاطع على صدقه واعجازه.

ومن هنا فإنَّ القرآن بدلاً من رفض طلبهم يذكِّر بسؤال عنادي أعظم من ذلك لهم وهو طلبهم أن يروا الله جهرة وما هو إلا طلب المحال، وأنّى تحيط به الأبصار وهو المطلق جلَّ وعلا. فما كان جوابهم إلا الصاعقة تأخذهم بظلمهم. وزيادة في عرض عنادهم تعرض الآية صورة قبيحة لهم، فبعد أن جاءتهم البيِّنات الواضحات نجدهم يلجأون إلى عبادة العجل.

ثم يشملهم العفو الإلهيّ رغم كلّ ذلك.

وأعطى الله موسى السلطان المبين وهو القدرة والغلبة على السامري صاحب العجل، أو الألواح الالهيَّة. إلاّ انهم مع كل هذا يستمرون في عنادهم، فيرفع فوقهم الجبل مهدّداً لهم بالسقوط إن لم يؤمنوا ويستسلموا، وحينئذ فلا يجدون بدّاً من الاستسلام والقبول بالميثاق والعهد، وقد تضمن عهدهم الالتزام بدخول بيت المقدس ساجدين، وتعظيم يوم السبت باعتباره عيداً لهم، وكان الميثاق قويّاً متيناً.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

١٥٦،١٥٥: ورغم أنّ الميثاق المأخوذ على بني اسرائيل كان غليظاً، إلاّ انهم نقضوه وراحوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء ومنهم زكريا ويحيى، ويعلنون عدم امكان هدايتهم من خلال قولهم ﴿قلوبنا غُلف﴾ أي مغلّفة لا تنفذ إليها دعوة ولا يتسرّب إليها هدى بطبيعتها.

وهنا يوضح القرآن أن القلب بطبيعته مؤهّل لتلقّي الهدى، إلاّ أن يظلم الإنسان ويكفر فيجازيه الله تعالى بالختم على قلبه.

ويستمرُّ في استعراض مظاهر كفرهم وانحرافهم، فيذكر قولتهم الاجراميّة في مريم الطاهرة واتهامها بالبهتان العظيم.

١٥٨،١٥٧: نتيجة أخرى من نتائج انحراف بني اسرائيل وهي ادّعاؤهم قتل عيسى بن مريم وهو رسول الله، وذلك رغم عدم علمهم بذلك، وضربهم في الوهم والظن. ولكن القرآن يحسم الموقف معلناً أن هؤلاء لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه وإنّما اشتبه عليهم الأمر. فظنّوا شخصاً غير عيسى انه هو فصلبوه. أما عيسى فقد رفعه الله إليه وغيّبه عنهم والله تعالى عزيز حكيم قادر على ذلك.

١٥٩: فعيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب وإنّما تمَّ رفعه وابقاؤه حياً، ولابد أن يؤمن به أهل الكتاب حال حياته. أما كيف يتمُّ هذا الإيمان فقد اختلف فيه المفسرون والله عليم بذلك. إلاّ أن ذكر هذا المعنى إنما هو لتأكيد عدم قتله وصلبه وتشبُّهه لهم، وأن هذه الحقيقة ستتجلّى لجميع أهل الكتاب، وسيكون عيسى يوم القيامة شهيداً على أهل الكتاب، كاشفاً لكلِّ ما انحرفوا به.

١٦١،١٦٠: وهكذا نكل بنو اسرائيل عن خطِّ الرسالة الالهيّة، ونقضوا الميثاق، وقتلوا الصالحين، واقترفوا وادعوا، وتبجّحوا بالإثم، وظلموا، وأخذوا الربا رغم نهيهم عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، فكان جزاؤهم تحريم الطيّبات عليهم في الدنيا – ولولا الظلم لم تحرم فما يفعل الله بعذابهم إن شكروا وآمنوا – وجزاهم الله يوم القيامة بالعذاب الأليم.

١٦٢: ما ذكرته الآيات السابقة من أوصاف منحطّة لبني اسرائيل يمكن أن يمثل الطابع العام، إلاّ أن ذلك لم يمنع من أن يوجد فيهم أناس تعمّقوا في العلم فقادهم ذلك إلى الإيمان بالاسلام والأديان التي سبقتهم، فذكرهم القرآن ومدحهم وخصَّ (المقيمين الصلاة) بذلك، وذكر أنهم ملتزمون بباقي الأحكام الاسلاميّة ومؤمنون بكلِّ تفاصيل العقيدة، الأمر الذي يؤهّلهم للأجر العظيم.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

١٦٣، ١٦٤، ١٦٥: بعد أن تعرّضت الآيات السابقة لأهل الكتاب الذين فرّقوا في الإيمان بين الانبياء وذكرت ان الراسخين في العلم آمنوا بالأنبياء جميعاً، بعد هذا راحت الآية القرآنيّة تؤكّد وحدة الوحي والشريعة والمسيرة المؤمنة والقيادة الالهيّة عبر التاريخ كلّه.

فكلهم يستقي من خالق الكون والمشرّع للبشريّة نظامها الأصلح لها، وكلّهم يبلّغ عنه تعالى، سواء ذكروا في هذه الآية أم ذكروا في آيات أخرى أم لم يذكروا في القرآن. ويبشّرون بالحياة الطيّبة التي تنتظر المؤمنين، وينذرون بالعقاب الأليم في الدنيا والآخرة.

ورغم أنّ الله تعالى أودع في الفطرة استعداد الإيمان بالله، ودوافع الاتجاه إليه، وقدرة التأمّل في مجالات الكون، بل وأودع فيها عقلاً عملياً يدرك حسن العدل وقبح الظلم وبعض مصاديقهما، إلاّ أنّ العقل بعد أن يوصل الإنسان إلى الله ويفرض على صاحبه طاعة المولى الحقيقي يعلن عجزه عن إدراك كلّ حقيقة الكون وخفاياه وروابطه، كما يعلن عجزه أيضاً عن إدراك معالم النظام الأصلح، وهو ما يسبّب إرسال الرسل ليكونوا حجّة من الله على خلقه، يوصلون إليه شرائعه ويقودونه نحو تطبيقها الافضل.

١٦٦: إنّها شهادة الله جلّ وعلا بصحّة الرسالة التي انزلها بعلمه وشهادة الملائكة بذلك وإن كانت شهادة الله العظيم كافية للاثبات. وما الاعجاز القرآني إلا شهادة الهيّة بالرسالة الموحاة إلى الرسول(ص).

١٦٧: بعد وضوح الآيات والبيّنات وقيام شهادة الله والملائكة بالرسول، يتوضّح الضلال البعيد الذي ابتُلي به الكافرون والصادّون عن سبيل الله.

١٦٨، ١٦٩: وطبيعي أن ينتهي أمر الكافرين والظالمين إلى الضلال والضياع والحياة التعيسة، حياة البعد عن الله وغفرانه وهداه، وبالتالي حياة السير على طريق جهنّم والخلود في العذاب.

١٧٠: بعد أن أبطل القرآن مفتريات أهل الكتاب وكشف عنادهم، دعا الناس جميعاً ومنهم أهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول بعد أن جاءهم بالحقّ من ربهم، واعداً اياهم بالخير العميم، موضحاً أنّ هذا الطلب هو بمقتضى فضل الله بهم، وإلاّ فانّ الكفر لن يضرّ الله ـ جلّ وعلا ـ شيئاً فهو مالك السماوات والأرض.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝

١٧١: في اطار تصحيح العقائد واعطاء الصورة العقائديّة الأصلية للتوحيد، يتّجه القرآن هنا إلى النصارى، مصحّحاً ما تسرّب إلى عقائدهم من انحرافات وثنيّة، إذ جعلوا عيسى ابناً لله ـ سبحانه ـ وما ذلك إلا غلو وتجاوز لحدود المنطق الصحيح والتدين الفطري الأصيل، وتقوّل على الله جل وعلا، وربّما يترك هذا المفهوم أثره على المسلمين أنفسهم بأن لا يقعوا ما وقع فيه من قبلهم من الغلوّ في الدين.

المسيح هو المبارك الذي أنعم الله عليه، وهو كأيّ انسان آخر ولدته أمّه وهي مريم ـ التي ذُكر اسمها لرفع أية شبهة ـ كما انه رسول الله، مثله كمثل باقي الرسل الذين أنعم الله عليهم بالرسالة التي تعبّد الناس جميعاً لله. وقد خصّه الله بأن جعله كلمة تكوينيّة من (كن) ألقيت إلى مريم الطاهرة. وهذه الكلمة التكوينية كانت أمراً إلهيّاً وروحاً منه ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وحملها ملك مقرب تمثل لها بشراً سوياً.

فيجب الإيمان الحقيقيّ بالله تعالى ـ الذي ليس كمثله شيء ـ ورسله جميعاً، والانتهاء من عقيدة (التثليث) وهي مما ادخلته الوثنيّة في النصرانيّة، فاعتقدوا بالأقانيم الثلاثة (الأب، الإبن، روح القدس) وهي عقيدة تتنافى مع التصوُّر الفطري السليم الأمر الذي اضطر النصارى لتوجيهها بتوجيهات واهية.

إنّ من الخير للانسان أن يرجع إلى مقتضيات الفطرة والعقل السليم فيبني على أساسها تصوراته عن الكون، ويستمدُّ من عقيدة التوحيد سلوكه الحياتي.

فالفطرة الانسانيّة لن تستريح إلاّ إلى الوجود الحقّ المطلق ـ وهو الواحد الذي لا شريك له ـ والكون الواحد المنظّم الدقيق، والرسل جميعاً يشهدون بوحدانية الله تعالى.

والله تعالى منزّه عن أن يكون له ولد، أو شريك أو شبيه أو مثيل. وكل تصور من هذا القبيل إنما هو من قياس تشبيه المخلوقات بالله وهو باطل. إنّ كلّ ما في السموات والأرض مملوك ومحتاج في ذاته لله تعالى، بل إن الفهم الانسانيّ السليم يؤكّد احتياج كلّ ما سوى الله له تعالى وقيامه به، وكفى بالله وكيلا وقيّماً على الكون كلّه، ومع هذا فما أسخف ادّعاء الولدية لله مهما كان توجيهه وتصويره.

١٧٢ ، ١٧٣: إنّ المسيح، الذي ادّعت بنوته النصارى، والملائكة الذين ادّعى المشركون لهم نظير ذلك؛ موجودات مقرّبة مباركة تعبد الله تعالى، ولا تأنف ولا تتكبر في ذلك، فطريق العبودية لله هي طريق التكامل والتقرب من الحقيقة الكونية الكبرى. وسيحشر الله تعالى العباد جميعاً إليه فيحاسبهم على مواقفهم، فأمّا المؤمنون العاملون للصالحات فيوفيهم اجورهم وفوق ذلك فضل من عنده، وإمّا المستنكفون المستكبرون فلهم العذاب الأليم ولن ينصرهم من دون الله وليّ أو نصير.

١٧٤، ١٧٥: إنّه القرآن العظيم، كتاب البرهان المنطقي الفطري المتين، والعلامة الساطعة من ربّ الخلق، والنور المبين الهادي إلى الحقّ يهدي المؤمنين المعتصمين به إلى الرحمة والرضوان الإلهيّين، وهو الصراط المستقيم إلى السعادة الحقيقيّة للانسان، بعيداً عن أضاليل أهل الكتاب والمشركين.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٧٦: الكلالة هي القرابة، والمراد بها هنا ـ كما تفسّره الروايات ـ الاخوة من الأبوين (الأشقاء) أو من الأب (وإذا وجد الإشقاء لم يرث الاخوة من الأب ويقومون مقامهم إذا عدموا) فإذا توفي شخص ولم يكن هناك فرد من الطبقة الأولى وكانت له اخت فلها نصف ما ترك أخوها، ويعود الباقي (بعد أن تأخذ الزوجة – إن وجدت – حصتها) الى الأخت نفسها إليها بالردّ ـ عند الإمامية ـ والى العصبة عند أهل السنة.

ولو انعكس الأمر فكان الميّت أنثى لا ولد لها ولا والدين فيرثها أخوها كاملاً بالفرض ـ ما عدا سهم الزوج إن وجد فلو كان الوارث أختين فلهما الثلثان فرضاً والباقي يعود اليهما بالرد، – ما عدا سهم الزوج – أما لو كان الورثة إخوة ـ رجالاً ونساء ـ فيقسّم الارث بينهم على القاعدة ﴿للذكر مثل حظ الانثيين﴾ بعد عزل سهم الزوج.

وهنا فروع وتفصيلات أخرى تفهم من الآية أو يستدل عليها من الآية أو يستدل عليها من السنّة وتختم الآية ببيان الحقيقة العامّة وهي أن الشريعة وأحكامها جاءت لهداية البشريّة إلى النظام الأصلح، إذ تقوم على أساس علم إلهي واسع بكل حاجات الإنسان وأساليب اشباعها عادلاً حكيماً.

سورة المائدة

تحدثنا من قبل عن جزئية البسملة للسور القرآنية ومعانيها

وتقل اتفاق الرواة على ان سورة المائدة كانت آخر سورة مفصّلة نزلت على رسول الله(ص) في أواخر حياته، فهي ناسخة غير منسوخة، والملاحظة أنّها ـ عموماً ـ تدعو المسلمين جميعاً لحفظ المواثيق والوفاء بالعهد كصفة انسانية خلقيّة يقوم على أساسها النظام الصحيح، ويمتد العهد والميثاق من المواثيق الفطريّة إلى المواثيق الاعتباريّة ليشكّل الوفاء به صفة من صفات هذه الأمّة المسلمة.

١: والعقد هو شدّ أحد الشيئين بالآخر شداً يصعب انفصاله، وقد أطلق على المقاولات الاعتباريّة تشبيهاً لها بالأمور التكوينية.

فإذا استجمع العقد شروطه، ولم يخالف أي تحديد شرعي وجب الوفاء به حق ولو كان بالتالي يخالف مصلحة أحد الطرفين، وفي هذا المعنى تتجلى أخلاقيّة الإسلام في عهوده وذمّه خصوصاً بعد أن نقارنها بمبتدعات أهل الكتاب وما نراه من دول الاستكبار القائمة اليوم من تحايل ومخاتلة ونقض للعهود والمواثيق الانسانيّة.

والأحكام الالهيّة عقود التزم بها المؤمنون لربهم، وعليهم الوفاء بها بتطبيقها على كلّ شؤون الحياة. ومن هنا يأتي هذا البيان لبعض الأحكام.

فبهيمة الأنعام حلال (أكلها وما ينتفع به منها) للمسلمين وهي الأزواج الثمانية من (الإبل والبقر والضأن والماعز) مع وجود استثناءات ستأتي فيما بعد أشار إليها القرآن بقوله: «إلا ما يتلى عليكم». ومن الاستثناءات حرمة هذه المحلّلات إذا تم اصطياد الوحشي منها في حال الاحرام، والله تعالى يحكم ما يريد هداية للانسانيّة إلى السبيل الصحيح.

٢: شعائر الله هي علاماته الواضحة التي تتميّز بها الشريعة الالهيّة عن غيرها فيجب احترامها، والشهر الحرام هو ما حرّمه الله من شهور السنة القمريّة وهي (المحرّم ورجب وذو القعدة وذو الحجة). و(الهدي) هو ما يساق للحجّ من الغنم والبقر والابل. (القلائد) جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي في عنقه من علامات تشعر بأنه هدي. والمقصود من «آمّين البيت الحرام» أولئك القاصدون له الذين يبتغون الفضل من ربّهم حجاً أو تجارة».

فيجب اذن تعظيم شعائر الله وعدم القتال في الأشهر الحرم، وعدم التعرض للهدي وإنما يترك لينحر يوم النحر، وتأمين القاصدين لبيت الله الحرام. وهكذا يوفر الإسلام للامة المسلمة أجواء من الشريعة الواضحة المعالم والزمان والمكان الآمنين لتسترجع فيها ذاته وتدرس مشاكلها وتسير نحو علاقاتها. وهذا الأمر للإباحة، لأنّه آتٍ بعد المنع فيفيد السماح بالصيد بعد الإحلال من الإحرام، وإن كانت حرمة الصيد في حدود الحرم باقية. صورة خلقيّة رائعة يقدمها الإسلام هنا، فمن الطبيعي أن يحمل المسلمون العداء (الشنآن) لأولئك الذين (صدّوهم) ومنعوهم من زيارة البيت الحرام في صلح الحديبيّة مثلاً. إلا أن هذا الغضب يجب ان لا يحملهم (يجرمنّكم) على الاعتداء عليهم والانتقام منهم عند التسلّط والقدرة.

وبدلاً من ذلك يقودهم نحو التعاون على عمل الخير (البر) والتقوى والتكامل، مع نبذ أي تعاون على الانحراف والاعتداء، بأيّة حجّة تم هذا التعاون المنحرف، تعصباً لقوميّة، أو قبيلة أو ما إلى ذلك. فليس ذلك من صفات هذه الأمة القائمة على الأسس الاخلاقيّة النبيلة. ثم أعطى الإطار العام لكل الأوامر الإسلامية وهو التقوى لتأكيد حقيقة العمل الدقيق بتعاليم الله وهو شديد العقاب.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

٣: بيان لبعض الاشياء المحرّمة في الإسلام والتي أُشير إليها بعبارة «إلا ما يُتلى عليكم». والملاحظ تأكيد القرآن على أن ما حرم إنما هو لما فيه من مفسدة بقرينة قوله تعالى هنا «ذلكم فسق» أي خروج عن المسيرة الطبيعيّة الفطرية للانسان، وكذلك قوله تعالى في مكان آخر معللاً بأنه رجس، والرجس من عمل الشيطان، وأوضح منه قول تعالى: «إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم».

وعلى أي، فالمحرمات المذكورة هي: الميتة: وهي الحيوان الذي لم يمت على الطريقة الشرعية في الذبح، والدم ولحم الخنزير، وما ذبح لغير الله، والمنخنقة (أي البهيمة التي تموت بالخنق) ، والموقوذة (التي تضرب حتى يموت)، والمتردية (أي التي سقطت من مكان عال فماتت) والنطيحة (التي نطحها حيوان فماتت) وما أكل السبع (أي التي افترسها حيوان مفترس كالأسد).

واستثنت الآية ما ذُكّي منها على الطريقة الشرعية اثناء حياتها.

ومن المحرّمات «ما ذُبح على النصب» وهي الحيوانات التي كانت تُذبح للحجارة التي كان الوثنيون يقدّسونها ومنها «الاستقسام» أي اقتسام لحم الحيوان أثناء المقامرة.

أما المقطع القرآني المتحدث عن اكمال الدين فهو يشكّل وحدة قرآنيّة كاملة، ويعبّر عن حقيقة ضخمة تمت في آخر أيام النبي(ص) فكمل بها الدين ويئس لها الكفار، ولا ريب أنها حادثة ضخمة لا تنسجم ومجرّد إعطاء آيات التحريم أو بمجرّد فتح مكّة أو ما إلى ذلك، وإنما تنسجم تمام الانسجام مع التفسير القائل بنزولها بعد رجوع الرسول(ص) من حجّة الوداع ووقوف الناس في مكان يدعى غدير خم (بين مكة والمدينة) في الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة الشريفة حين أعلن الرسول العظيم(ص) علياً ولياً للامة فقال: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)[١].

وهكذا تم أكمال الدين واتمام النعمة عبر تعيين الإمامة والقيادة بعد ختم النبوّة وانقطاع الوحي، لئلا تواجه الأمة الفراغ الهائل بعد موت النبي(ص). وبذلك ضمن استمرار القيادة الدينية والتربية الالهيّة، فلا خوف من انقطاعها وليأس الكافرون المتربّصون بالاسلام والمنتظرون لانقطاع القيادة بموت الرسول العظيم. وعلى هذا دلت الأحاديث المروية بطرق مختلفة من السنّة والشيعة، وهي تنسجم مع حديث الغدير المتواتر المروي عن جم غفير من الصحابة. وقد أعترف بتواتره جمع كثير من العلماء. وبهذه الآية أعلن كمال الدين وقدرته التامّة على تسيير دفة الحياة الإنسانية كلها، فلا حاجة للتطفل التشريعي على موائد الكفر. وانطلاقاً من سماحته يجيز الإسلام للمضطرّ المبتلى بمجاعة (مخمصة) غير مختار (متجانف) لإثم ومقارف للحرام أن يأكل من هذه المحرّمات بما يرفع هذا الاضطرار.

٤: وكما أكدت الآيات السابقة أن المحرّمات إنما حرّمت لأنها فسق، فإن هذه الآية تؤكد ان الأمور المحلّلة إنما كانت كذلك لكونها من الطيّبات، وكأن الآية ترجع الإنسان إلى فطرته وذوقه الطبيعي لتشعره بهذا المعنى.

قيل إن هذه العبارة معطوفة على الطيّبات، فتعني أنه أحل لكم صيد ما علّمتم من الجوارح، وقيل إن (ما) شرطيّة، جوابها: «فكلوا مما امسكن عليكم».

والجوارح: جمع جارحة وهي التي تصيد من الطير والسباع والمقصود هنا الكلاب، والتكليب: تعليمها وتدريبها، فالكلاب المعلمة إذا اصطادت شيئاً من الوحش لصاحبها وقد سُمّي عليه باسم الله فقتلته فذلك له تذكية ولحمه حلال، على أن يتم ذلك في اطار من التقوى الالهية بلا اسراف أو تبذير في الثروة الحيوانية كما يُشعر بذلك قوله «واتقوا الله».

٥: بيان للمنن الالهيّة بإحلال الطيّبات وكذلك إحلال طعام أهل الكتاب، فلا مانع من أن يطعموا منهم أو يطعم أهل الكتاب من طعام المسلمين، وفسر الطعام بالبُر أو غير ذلك، إلا أنه لا يشمل ما يتطلب التذكية من طعامه فإنّه محرم ـ وفق الآيات السابقة ـ لعدم استيفائه لشروط التذكية، إذ هو رجس وفسق فلا يدخل في عداد الطيّبات.

منّة أخرى على المسلمين بالسماح لهم بالزواج من المسلمات العفيفات (المحصنات)، وكذلك العفيفات من أهل الكتاب شريطة أن يكون النكاح بالاسلوب الشرعي ومنه ايتاء المهر والاجر، بعيداً عن جوّ السفاح والزنا المحرم، والمصادقة الحرام (المخادنة). والمسلم الذي لم يعمل بمقتضيات أيمانه بالاسلام من لزوم تطبيق تعاليمه هو ـ في الواقع ـ كافر بايمانه، وخصوصاً إذا استمرّ على العصيان مما يؤدي إلى حبط عمله فلا يعود له أثر في حياته وهو في الآخرة من الخاسرين.

---

١ ـ انظر بحار الانوار، ج ٣٧، ص ٥٢، اخبار الغدير وما صدر في ذلك اليوم، كما راجع كتاب الغدير للأميني.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾

٦: هذه الآية تتضمَّن حكم الطهارات الثلاث (الوضوء وغسل الجنابة والتيمُّم). فأمّا الوضوء فيتمُّ بغسل الوجه ـ أولاً ـ وقد حدَّدته الروايات بأنّه ما بين قصاص الشعر من الناصية وآخر الذقن طولاً، وما دارت عليه الابهام والوسطى عرضاً، ثمَّ غسل اليدين ـ ثانياً ـ إلى مرفقيهما. وقد عيَّنت الروايات عن أهل البيت(ع) اتجاه الغسل من مرفق اليد إلى الأصابع، وهو الحالة الطبيعيَّة المتعارفة في غسل اليد.

وقد نقل صاحب (مجمع البيان) أن الأمَّة أجمعت على صحَّة وضوء من بدأ بالغسل بالمرافق وانتهى إلى أطراف الاصابع، مما يعين ما قلناه من أن المراد بقوله «إلى المرافق» هو تحديد للمساحة المغسولة من اليد دون تعيين الاتجاه وبعبارة أخرى فإن (إلى المرافق) قيد للأيدي لا متعلق (فاغسلوا). أما الثالث فهو مسح بعض الرأس، وقد عيَّنت الروايات انه يجب أن يتمَّ في مقدَّمه؛ والجزء الرابع من الوضوء، هو المسح للأرجل لعطفها على الرؤوس وتأكيد الروايات عن أهل البيت(ع) لذلك. واختلفت روايات أهل السنة فيه.

وهذا الجزء الذي يجب مسحه من الأرجل هو ظاهر الرجل من الأصابع إلى الكعبين، وهما العظمان الناتئان في ظهر القدم.

أما الجنابة ـ وهي الحدث الأكبر الذي يحصل بالجماع أو مطلق خروج المني ـ فالتطهير منها لا يتم بالوضوء وإنما هو بالغسل. هذا في الحالات العادية.

أما في حالات المرض والسفر (وهي مظنَّة لعدم التمكُّن من الماء) وكذلك في حالات العودة من الغائط (وهو تعبير كنائي عن قضاء الحاجة) أو الجماع، فإن الحكم ـ عند فقدان الماء ـ التيمم بصعيد طيِّب أي بوجه الأرض النظيف أو الأصيل الذي لم يتغير بطبخ أو نضج.

ويتألَّف التيمُّم من مسحتين؛ إحداهما للوجه (وهو ما بين الجبينين) والأُخرى لليدين وهي ما دون الزند كما بيَّنته روايات أهل البيت(ع).

الحرج: هو الضيق الشديد، وقد قرَّر القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة يُسر الشريعة الإسلامية وسماحها، فأعلن أن الإسلام لا يدع المسلم في حرج مطلقاً، وهذا يعني أنّ بعض الاحكام الإسلامية شرِّعت رأساً في حالات الحرج كالتيمُّم عند فقدان الماء، كما أنّ أي حكم اسلامي أدّى إلى الحرج يمكن عدم الالتزام به بالمقدار الذي يرتفع الحرج منه.

ومن هنا سُمِّي هذا الباب بباب الأحكام الثانويَّة، وهو يعبِّر أروع تعبير عن مرونة الإسلام المستوعبة لمختلف الحالات. والآية هنا بعد أن تنفي أيَّ حرج تعلن أنّ هدف الإسلام هو التطهير (الظاهري والباطني). فالوضوء تطهير ظاهري ينتج عنه تطهير باطني، وبذلك تتمُّ نعمة الله على العباد باعطائهم الدين الذي يهديهم سواء الصراط ـ لعلّهم يشكرون ربَّهم قولاً وعملاً ـ فيطبِّقونه على كلِّ الحياة.

٧: فليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم، والميثاق والعهد الذي أعطوه بفطرتهم وإسلامهم لله، فأعلنوا السمع والطاعة. وحيث اعتنقوا الإسلام واتَّخذوه ديناً لهم فما عليهم إلا الاهتداء بهدي الله وتقواه وإصلاح ذات الصدور أي النيّات والميول الباطنيَّة ليتحقَّق الأمل الانساني المنشود.

٨: هكذا يريد الإسلام للمؤمنين أن يكونوا في كلِّ وجودهم: قوّامين حقّاً لله، عاملين على تحقيق الأهداف الالهيَّة، شاهدين بالقسط والعدل، مطبِّقين له دون أن يحملهم (يجرمنهم) العداء (الشنآن) لأحد على عدم إقامة العدالة والشهادة لله وللحقيقة، فإنّ إقامة العدل تحقِّق مجتمع المتقين.

٩: وعدٌ إلهيٌّ للمؤمنين العاملين بالغفران والأجر الكريم، ووعد الله لا يتخلَّف، فليعمل له العاملون الملتزمون بالخط الإسلامي الأصيل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

١٠: أما عاقبة الكافرين المكذّبين بالآيات فليست إلا الهلاك والدمار والعذاب الإلهي الخالد في الجحيم.

١١: تذكير الهي من جديد بالنعم على المسلمين بعد أن أنجاهم الله من تآمر الكافرين الذين حاولوا بسط أيديهم والاعتداء على الوجود الإسلامي، فكان التأييد الالهيُّ يمنع أيديهم من الوصول بأذى للمسلمين، وهذه النعمة تتطلّب أن يتّجه المسلمون نحو حياة الشكر والتقوى والتوكل والاعتماد على الله العظيم.

١٢: اعتباراً بقصص الأُمم الماضية، يتحدّث القرآن عن بني اسرائيل الذين اعطوا الله تعالى ميثاقاً وعهداً بحمل رسالته فبعث لهم منهم اثني عشر نقيباً ووليّاً عليهم، ووعدهم بالتأييد المستمر بقوله «إني معكم» وتكفير السيئات ومحوها وادخالهم جنات تجري من تحتها الانهار، شريطة إقامة الصلاة كأقوى رابطة بين العبد وربّه، وايتاء الزكاة لسدّ الفجوات الاقتصاديّة في المجتمع، والايمان بالرسل، وتبعيّتهم ونصرتهم، والتبرُّع لصالح المجتمع باعتباره اقراضاً حسناً لله، فإذا تمّ كلُّ ذلك الالتزام جاء الوعد الالهي بالعاقبة الحسنة. أمّا الكفر فلا يؤدي إلا إلى الضلال.

١٣: إلاّ أنّ بني اسرائيل نكلوا ونقضوا ميثاقهم، ولم يلتزموا بمقتضيات عهدهم لله فابتلوا بالعذاب الأليم الذي لا يصل إليه عذاب، وحلوا صفات الانحطاط الحضاري المقيت، والقرآن يلخّصها بالأُمور التالية:

أ - اللعنة الالهيّة: أي الابتعاد عن رحمة الله، وما أشدّ هذا العذاب لأنه يعني الابتعاد عن خط الحقيقة والانسانية الأصيلة.

ب - القلوب القاسية: بموت العواطف والحرارة الثوريّة والايمانيّة التي تمتعوا بها من قبل فحملوا رسالة الله، وهي من أشدّ الأُمور التي قد تصيب المغيّرين إذا لم يلتزموا برسالتهم التغييريّة الثورية. وهو ما أشارت إليه الآية القرآنية الأُخرى «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون»[1].

ومن عواقب هذه القسوة: الإستهانة بالنصوص الالهيّة، وعدم الارتباط الايماني العاطفي بها، وبالتالي تحريفها لفظاً ومعنى لتحقيق مصالحهم الضيّقة.

ج - نسيان بعض ما كان سر عظمتهم وانطلاقتهم وسعادتهم، وهو بالتالي إلى اتصافهم بالخيانة للمبدأ والشريعة وعلى امتداد تاريخهم الطويل باستثناء القليل ممن وفوا لرعاية الحق منهم. وبهذا يحذر الأُمة الإسلامية الثائرة على طواغيت النفس والمجتمع من أن تُبتلى بهذه الأمراض الحضاريّة عندما تنقض عهدها الذي أعطته لربها كأُمة وسط شاهدة قائدة.

وفي قبال عناد أهل الكتاب يبدو السماح الإسلامي عبر طلب القرآن العفو والصفح عنهم والاحسان اليهم عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ويسيروا في الخط المستقيم.

---

١ - الحديد/ ١٦.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

١٤: ويتوجّه القرآن هنا إلى النصارى بعد أن ذكّر اليهود بنقضهم للميثاق، فيعلن انهم أيضاً نقضوا المواثيق التي اعطوها بإيمانهم بالنصرانية من العمل على نشر السلام والاتجاه إلى الآخرة والإعراض عن الملاذ، وما إلى ذلك من تعاليم الدين الذي جاء به المسيح(ع)، إلاّ انهم أيضاً ابتُلوا بداء النسيان الحضاري لبعض تلك التعاليم، فابتلاهم الله بالعداوة وألصقها (أغراها) بمسيرتهم إلى الأبد. وآية ذلك هو هذا النزاع الدائم بينهم ـ فكرياً وعملياً ـ حتى شهدنا بينهم الحروب المدمّرة على امتداد تاريخهم.

١٥: بعد أن انتقد القرآن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذكّرهم بنقضهم الميثاق، أعلن أنّ الرسول الأكرم محمّداً (ص) جاءهم بالرسالة الاسلاميّة الحقّة التي أظهرت الكثير مما كان يخفيه علماؤهم من الحقّ (وهو برهان جلي على صحة الرسالة خصوصا بعد الالتفات إلى أميّة الرسول) كما أنها تركت الكثير من الاضافات والبدع التي أحدثوها في دينهم.

إنّ الإسلام جاء نوراً في ظلمات الجاهليّة وتخرّصات أهل الكتاب وأوهامهم، فأعطى الحقائق والأحكام المنسجمة مع الفطرة.

١٦: من الطبيعيّ أنّ الهداية لا تؤثّر إلا في أرضيّتها المناسبة. والأرضيّة التي تذكرها الآية تتلخّص في العزم على اتباع رضوان الله كمقياس عام في الحياة، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى التبعيّة التامّة لتعليمات القرآن التي يتجلّى فيها رضا الله. وسبل السلام هي طريق السلامة من كل شقاء وانحراف وظلمات، وكلّها تتأطّر بإطار الصراط المستقيم، صراط السلام.

١٧: ويبدو أنّ القرآن يشير إلى فرقة نصرانيّة مفرطة في الغلوّ بادعاء الاتحاد بين الله والمسيح بدلاً من جعله ثالث ثلاثة.

إلاّ أنّ الرّد على هذا الاعتقاد السخيف سهل، فهؤلاء يعتقدون انه إله بشر (ولذلك عبّروا عنه بأنه ابن مريم) فهو الإنسان المحتاج الى أمه، وهو وأمه وجميع الكون محكومون للقدرة الالهية التي إن شاءت أهلكته هو وأمه ومن في الأرض جميعاً، ولا يمنعها من ذلك مانع، فجميع ما في السماوات والأرض وما بينهما هي من الممكنات، وهي مملوكة محكومة له تعالى يخلق ما يشاء منها وهو على كل شيء قدير. فالواقع هو انهم لم يعرفوا الله على حقيقته ولا المسيح أيضاً. ان الله هو الكامل المطلق الغني عن المكان والزمان وكل شيء غيره، وهو القادر المطلق، فهل القول بوحدته مع مخلوق ممكن ضعيف محتاج إلا ضرب من السخف والضلال؟!

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

١٨: من الإدعاءات الجوفاء التي قال بها أهل الكتاب؛ انهم أبناء الله وأحباؤه وهو إدعاء قادهم للقول بفكرة شعب الله المختار إلاّ ان القرآن الكريم ينقض عليهم هذا القول بذكر حقيقة العذاب الإلهي لهم (وهو أمر يتنافى مع البنوة) ومن هنا ينتقل لذكر الحقيقة العامّة وهي أنهم بشر وان البشر جميعاً مخلوقون له تعالى وعليهم أن يلتزموا بالتعاليم الإلهية وحينئذ يجازى العاصون ويثاب المطيعون، فالبشر جميعاً وما في الكون كله مخلوق ومملوك ـ حقيقة ـ بالتالي له تعالى وإليه مصير الوجود.

ومن خلال هذا المضمون العام ينبغي أن يعي المسلمون أيضاً هذه الحقيقة ولا يصابوا بالغرور الزائف والإدعاء الكاذب.

١٩: توجُّه قرآنيّ آخر لأهل الكتاب، مذكِّراً إياهم بالفترة التي انقطع فيها الوحي، وساد التحريف واتجهت النفوس إلى الرسول الخاتم تنتظره بشوق، وها قد جاءها هذا الرسول، مبيناً الحقائق ومبشراً ومنذراً، مما يقطع الحجّة على الناس، فلا يبقى مجال لادعاء عدم وجود رسالة بعد مجيء الرسول المنتظر، والله تعالى قادر على إرسال الشريعة الخالدة.

٢٠: تذكير قرآني بالنعم الإلهيّة الخاصّة على بني اسرائيل، والتي احتجّ بها موسى(ع) عليهم، فقد شرّفهم الله بجعل بعض الأنبياء فيهم، ومنحهم استقلالهم وملكية القرار في امورهم وبالتالي التفضّل عليهم بما لم يعهد عند غيرهم من الأمم السابقة والمعاصرة لهم.

٢١: بعد تذكيرهم بالنعم يطلب منهم موسى(ع) القيام بحمل المسؤوليّة في قبالها بحمل الرسالة والصراع ضد الطاغوت من خلال دخولهم للأرض المقدّسة (بيت المقدس) وتحريرها وامتلاك أزمّتها لأنهم الوارثون ما داموا حاملين للأمانة ملتزمين الشريعة، اما مع الإرتداد على الادبار والإرتكاس في الرجعية الحقيقية فليس هناك إلا الخسران؛ خسران أهلّية حمل الرسالة، وفقدان النعم الإلهية. وبهذا يتبيّن زيف ادعائهم للأرض المقدّسة دائماً وانها أرض الميعاد. بينما يرتبط هذا بحمل الأمانة دون النكوص عنها.

٢٢: نموذج لحياة الدعة والإخلاد للراحة، والتهرُّب من التضحيات رغم أنهم يرغبون في الفتح وليس الفتح إلا في ظل الجهاد.

٢٣: ومن بين ذلك الحشد تميز رجلان من الفئة المؤمنة فراحا يواجهان المنطق المتخاذل المستسلم، بالموقف الرسالي المنطقي السليم، انهما يخافان الله تعالى فلا يعصيان له أو لرسوله أمراً، وقد أنعم الله عليهما فهما يشكران نعمه بالإلتزام بمقتضياتها، والنعم هنا مطلقة غير مقيّدة وتشمل الرؤية الواضحة والحكمة في اتخاذ القرار الصعب، ويمكن أن تكون النعمة هنا هي نعمة الخوف من الله وحده التي لا تبقي في قلب الإنسان مكاناً للجبن والتردُّد والحيرة، بل يتحوّل المؤمن بهذا الخوف إلى قوة صامدة وطاقة كبرى تزول الجبال ولا يزول، وبمقدار تأصُّل هذا الخوف في القلب تتأصَّل معاني الشجاعة والإقدام والصبر على المكاره والتفاني في سبيل الله تعالى، ومن منطلق هذه القوة طلب الرجلان من بني اسرائيل ان يدخلوا البلدة ويقتحموها ليستفيدوا من ميِّزات الهجوم والمباغتة وعنصر المفاجأة فيأخذوا زمام المبادرة من العدوّ، ولا شك أنهم هم الغالبون في هذه الحالة إذا ما اقترن ذلك بالتوكّل على الله والإعتماد على وسائل النصر التي يحملها عنده فيمن بها على المؤمنين المجاهدين، ويذكّرنا هذا بمقولة للإمام علي(ع): (اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غُزي قوم قطّ في عقر دارهم إلا ذلّوا)[1].

---

١ ـ الكافي، ج ٥، ص ٤. نهج البلاغة، خطبة ٦٩.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

٢٤: ولكنَّ هذا المنطق الصحيح والرؤية الصائبة لم تكن لتؤثّر في نفوس بني اسرائيل التي استمرأت الراحة وسيطر على جوانبها اليأس والهلع والخذلان، كما لم تؤثّر فيهم كلمات نبي الله موسى من قبل، فكرّروا هنا عدم استجابتهم للنداء الإلهي، وأضافوا إلى ذلك ـ بكل صلافة ـ انه إذا كان مصراً على القتال فليذهب هو وربه ليُقاتلا نيابة عنهم، اما هم فقاعدون ينتظرون النتائج وقد يقطفون ثمار النصر في نهاية المطاف. وهذه الروح الإنهزاميّة تـذكّر بموقـف للمسلمين على النقيض من ذلك في يوم بدر حيث وقف أحدهم وهو (المقداد) ليقـول للنبي(ص): «ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون﴾ ولكنا نقول...»[1] اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون).

٢٥: وهنا يلجأ موسى(ع) إلى ربّه معلناً قلّة النصير طالباً منه تعالى أن يفصل بينه وبين هؤلاء القوم المعاندين والفاسقين الخارجين عن الطريق الانساني الأقوم.

٢٦: وتستجيب القدرة الإلهيّة لدعاء موسى(ع) فتحرّم عليهم التنعّم في الأرض المقدّسة، وتفرض عليهم التيه في الصحراء أربعين عاماً، عقاباً لهم على فسقهم وانحرافهم، غير مأسوف عليهم. وهذا بنفسه عذاب أليم ينفي ما ادعوه من قبل من البنوّة والحب بينهم وبين الله تعالى.

٢٧: ولعلّه للتركيز على معياريّة العمل الصالح ونفي أيّ دخل للنسب في التقييم يذكر القرآن القصّة الحقيقية لابني آدم؛ أنهما ينتسبان بمستوى واحد لآدم، إلا أنّ الله تعالى يتقبّل من أحدهما فيكرمه نتيجة إخلاصه، دون أخيه المرفوض قربانه نتيجة انحرافه وحسده وسوء سريرته، مما دفعه لتهديد أخيه بالقتل، إلا أن الأخ يصحّح له خطأه ويعلن القاعدة القرآنيّة العامّة «انما يتقبل الله من المتّقين».

٢٨: ولئن أقدم قابيل على قتل أخيه استجابة لانفعال وحقد، وبسط يده إليه، فإن هابيل يعلن أنه لن يردّ عليه بقتله بنفس الدوافع، لأنّ ذلك يعني معصية الله تعالى وهو يخافه. ولا يعبّر هذا الموقف عن أية سلبية أو انهزامية وإنما هو موقف مبدئي منطقي سليم.

٢٩: ولتتمّ عملية ردع قابيل عن هذه الجريمة يذكّره أخوه هابيل بأنه سيتحمّل إثمه وإثم أخيه المقتول لو أقدم على ذلك مما يؤدّي به إلى النار جزاءً على ظلمه.

٣٠: وهكذا مهّدت له نفسه الشريرة أن يقتحم كلّ العقبات العقائديّة والعاطفيّة، ويستجيب للدوافع الذاتيّة الضيّقة فيقتل أخاه، ويصبح بالتالي من الخاسرين بكلّ ما في كلمة الخسارة من معنى.

٣١: بعد تنفيذ جريمته عاد المجرم حائراً ضعيف الحيلة، لا يدري كيف يواري جريمته، حتى بعث الله غراباً يبحث في الأرض، ليريه كيف يدفن جسد أخيه، وحينئذ وقف على ضعفه وقلّة تفكيره، إذ عجز عن أن يصل إلى ما وصل إليه طائر ضعيف، فتملّكه الندم والأسف بشكل فطري، وأحسّ بالعجز رغم ما أُصيب به من غرور كاذب وطغيان زائف.

---

١ - بحار الأنوار ج ١٩، ص ٢٤٧ و ٢٤٨.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

٣٢: بعد أن ذُكرت قصّة ابني آدم للإعتبار، يعود القرآن في حواره مع أهل الكتاب ليذكرهم بأنهم حملوا خصائص قابيل من الحسد والطغيان، فكتب عليهم ـ في إطار الشريعة التفصيليّة المعطاة لهم ـ أن قتل انسان واحد بغير حق يعني قتل الناس جميعاً، باعتبار ما فيه من خرق للحرمة الانسانيّة، وتحدٍّ لوجودها الخيِّر في حين إن إحياء نفس انسانيّة ـ أحياء ماديّاً أو معنويّاً بهدايتها إلى الحقّ وانقاذها من الموت والضلال ـ يعني تقدير هذا الوجود المكرّم والساعية في تحقيق أهدافه السامية.

وفي تفسير هذه الآية، روى الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي جعفر(ع): قول الله عزوجل في كتابه «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»؟ قال: من حرق أو غرق، قلت: ومن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ قال: ذلك تأويلها الأعظم[1]. وهو حديث مستفيض.

وهذه الآية الكريمة آية على إكرام القرآن للانسان، وتأكيد لوجوده المؤثّر في صنعة أهدافه الكريمة.

ورغم البيّنات والشرائع الواضحة التي حملها الرسل إلى أهل الكتاب، فإننا نجد الكثير منهم ـ نتيجة عنادهم وطغيانهم ـ يفرطون في الإنحراف ويسرفون في الفسق، ويجاوزون الحدود التي كتبها الله عليهم.

٣٣: قال سيّد قطب في تفسير هذه الآية: «وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص، هي الخروج على الامام المسلم الذي يحكم بشريعة الله، والتجمع في شكل عصابة، خارجة على سلطان هذا الامام، تروّع أهل دار الإسلام، وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم. ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيداً عن مدى سلطان الامام. ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة، وأخذها في الإعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة، يجعل النص منطبقاً عليها، سواء خارج المصر أو داخله، وهذا هو الأقرب للواقع العملي ومجابهته بما يستحقه.

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله، المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة (سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد) لا يحاربون الحاكم وحده، ولا يحاربون الناس وحدهم، إنّما هم يحاربون الله ورسوله، حينما يحاربون شريعته، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة. كما أنهم بحربهم لله ورسوله، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبّقها، يسعون في الأرض فساداً. فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة.

كما أن للنص ـ في صورته هذه ـ مفهوماً آخر متميّزاً كهذا المفهوم؛ هو أن السلطان الذي يحقّ له ـ بأمر الله ـ أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله. وليس أيّ سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة، في أية دار أخرى لا يتوفر لها هذا الوصف.

انه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله. وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله؟ انها تغتصب حقّ الالوهية وتدّعيه، فما لها تتحكم بقانون الله وتدّعيه؟!

إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلّحة، التي تخرج على سلطان الامام المسلم المقيم لشريعة الله، وتروّع عباد الله في دار الإسلام، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم؛ أن يقتّلوا تقتيلاً عادياً، أو أن يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسّر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع) أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى من خلاف، أو ينفوا أو يبعدوا عن محل إقامتهم أو محل إرتكاب جرمهم». فالجزاء الذي يلقونه إذن في الدنيا لا يُسقط عنهم العذاب في الأخرة، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى، وهذا كذلك تغليظ للعقوبة، وتبشيع للجريمة.. ذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة ولأن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة، فهذا هو الوسط الخير الرفيع الذي يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره وهذا هو النظام العادل الكامل الذي يجب أن يصان من المساس به».

٣٤: بعد ذلك الوعيد بالعقاب الشديد، يفتح القرآن أمامهم باب التوبة والإرتداع عن الإقدام على التمرُّد، وذلك قبل القبض عليهم، الأمر الذي يكشف عن رجوعهم عن الغي».

٣٥،٣٦: يدعو القرآن المؤمنين إلى الإرتقاء في مدارج الكمال الانساني، عبر التقوى واتباع السبل والوسائل إلى الله تعالى، وهو الكمال المطلق، ويعم هنا كل سبيل مقرّب اليه، ومن الوسائل: التأسي بالرسول العظيم وأهل بيته الطاهرين، والتوسل والإستشفاع بهم باعتبارهم عباداً مقرّبين إليه جل وعلا، وتعطي الآية تركيزاً خاصا على الجهاد باعتباره معاناة واعية في سبيل الوصول إلى الفلاح. واستمراراً لمضمون الآية السابقة يوضح القرآن ان الرقي المعنوي ـ وهو هدف لخلقة الإنسان ـ وبالتالي النجاة من عذاب الله يوم القيامة أمر لا يمكن أن يُشترى بمال الأرض كلها ولو كان مضاعفاً وإنما يتم من خلال التقوى وإبتغاء الوسيلة والجهاد في سبيل الفلاح.

---

١ ـ الكافي ج ٢، ص ٢١٠، ٢١١.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

٣٧: إنه العذاب المطبق المقيم الذي لا مفر منه.

٣٨: تبين الآية حدّ السرقة وهو قطع اليد ومقداره عند الإمامية قطع الأصابع الأربع من اليمين، وعند المذاهب الأربعة قطع اليمنى من المفصل، وهناك تفصيلات وشروط تجعل تنفيذ الحدّ نادر الحصول، إلاّ أنه مع ذلك يبقى رادعاً قويّاً عن الإعتداء على الملكيّة الفرديّة والعامّ إن الأمر الذي يؤكّد احترام الإسلام لهما في حدودهما الشرعيّة، ولا معنى لتوهّم القسوة في هذا الحد وأمثاله، بعد ملاحظة ما كفله الإسلام للمسلم من حياة كريمة عادلة تجعل التفكير في السرقة وأمثالها من الجرائم أمراً معبّراً عن روح التجاوز على الحقوق والإصرار على الإنحراف، فالعقوبة هنا نكال وعبرة ودروس لردع كل من تسوّل له نفسه الإعتداء.

٣٩: ومرة أخرى يفتح القرآن باب التوبة والاصلاح للمجرمين كما فتحها من قبلها للمفسدين في الأرض، وقد قال جمهور الإمامية بسقوط الحدّ عنه لو تاب واصلح قبل ثبوت الجريمة، وقال بذلك بعض السلف من أهل السنّة إلا أن جمهورهم لا يسقطون الحدّ لو تاب وإن سقط عنه العذاب الإلهي.

٤٠: فالله تعالى هو مالك الكون والمشرّع للبشريّة طريقها السليم، وهو يعذّب المنحرفين كما يتوب على العائدين إلى السبيل القويم، فمشيئته تعالى تتعلّق بثواب المطيعين وعقاب العاصين لأنه مقتضى العدل الإلهي.

٤١: كان المنافقون واليهود يثيرون أُموراً تشيع البلبلة والفوضى في المجتمع المدني الأول، مما كان يحزن الرسول لرسالته ومستقبلها، وهؤلاء الذين تجنّبوا طريق الهدى وهو مفتوح أمامهم، إلا أنّ الآية الكريمة تطيّب قلب الرسول وتطمئنه على مستقبل الرسالة، وتذكر له أن هؤلاء ـ والمقصود هم المنافقون ـ اختاروا طريق العصيان والضلال وسارعوا في الكفر ولبسوا ثوب النفاق فهم يؤمنون بأفواههم دون قلوبهم. كما ان اليهود تأصّلت فيهم خاصة الإستماع للكذب ولأقاويل الآخرين ممّن لم يأتوا الرسول ولم يستمعوا للحقيقة، كلما ابتلوا بداء التحريف للكلام والحكم الإلهي عن مواضعه الصحيحة.

ومن صفتهم: أنهم إذا تحاكموا إلى الرسول أخذوا بالحكم ان حقّق لهم هوىً في أنفسهم وإلاّ تركوه وحذّروا اتباعهم من الإستجابة له.

انهم اذن اناس مفتونون قد امتحنهم الله بذنوبهم فارتكسوا في الإنحراف ولا منجي لهم من ذلك بعد أن أغرقت الجريمة قلوبهم بالأدران فلا مجال لطهارتها وحينئذ فالضياع والضلال الحضاري يصيبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

٤٢: تكرّر الآية صفة اليهود وهي كثرة استماعهم للكذب، وتعقب ذلك بأكلهم السحت، وهو المال الحرام الذي يؤخذ بالرشوة وغيرها.. وبالتالي فهي تطلب إلى الرسول(ص) أن يحكم بينهم بحكم الله وبالقسط، أو يعرض عنهم فإنَّ الاعراض عنهم لا يضرُّه بشيء.

٤٣: وفي الآية استفهام انكاري يستهدف توضيح طويّة هؤلاء ونيّتهم في عملية رجوعهم إلى النبي(ص) ليحكم بينهم، فهم لا يريدون حكم الله وإنما يسعون لحكم ينسجم مع أهوائهم، وإلا فكيف يرجعون لتحكيم رسول لم يؤمنوا بعد برسالته، وفي قضية أوضحت التوراة حكمها؟ إلا ان الحقيقة هي أنهم لا يؤمنون بشيء إلاّ بأهوائهم.

٤٤: التوراة كتاب الله، وكتاب الله نور في ظلمات الحياة وهدى للبشريَّة إلى حيث الأهداف العليا، وحكم يحكم به الأنبياء الذين أسلموا أنفسهم لله، لليهود الذين نزلت التوراة لهدايتهم. ومن بعد الأنبياء يحكم بالتوراة اولئك الذين استؤمنوا وجعلوا شهداء عليها وهم الربانيّون الأوصياء ثم الأحبار، أي العلماء المؤتمنون على الشريعة، فالعلماء هم ورثة الأنبياء في رسالتهم، يعملون على تحكيم شريعة الله وتنفيذ التجربة الدينيَّة في الحياة الاجتماعيَّة، وهو ما يؤكد ولاية الفقهاء.

وإذا كان هؤلاء هم المكلَّفين بحفظ الرسالة فانَّ عليهم الا يخشوا أحداً الا الله في تبليغ رسالته وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ .

فليعتبر بذلك وعّاظ السلاطين الذين يسخرون علمهم وفتاواهم لتنفيذ رغبات الحكّام الطغاة والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، بل عليهم أن يقولوا الحق ويطرحوا حكم الله بلا أي خشية من الناس إذا ضُرِبَت مصالحهم الضيِّقة.

وهنا يعلن القرآن هذه الحقيقة الكبرى شعاراً وهدىً، ومعياراً أمام الأجيال جميعاً. ذلك إنّ من لم يطبق شريعة الله في الأرض يفقد عنصر الإيمان بالله ويعدُّ من الكافرين، لأنَّ حقّ التشريع إنما هو له وحده، فإذا لم يستمد الحكم منه جلَّ وعلا واستمدّ من الأهواء والآراء الوضعيَّة فهو في الواقع شرك وكفر. وبهذا تدرك الالتحام الكامل بين الإيمان والعمل فإذا لم يتعدَّ الإيمان إلى العمل فهو في الواقع يفقد صفته الذاتية.

٤٥: وقد جعل الله في التوراة حكم القصاص، فالعين بالعين والسن بالسن والجروح تقابلُ بمثلها قصاصاً، إلا أن يتصدَّق ويعفو صاحب القصاص عن الجاني، فانَّ ذلك يعدُّ كفَّارة له. وهكذا يفتح القرآن باب القصاص ردعاً للجناة وتنفيساً عن المجنيّ عليه، إلاّ أنه يرغِّبه في العفو ويثيبه عليه.

وتأكيداً للاعلان السابق يعلن القرآن أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله يعدُّ ظلماً عظيماً، لأنه يعني عدم القيام بالحقِّ الإلهيِّ في تطبيق شريعة الله، وظلم النفس والمجتمع بتطبيق شريعة الأهواء والعقول الناقصة.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

٤٦: وهنا يتّجه القرآن إلى مرحلة بعثة عيسى بن مريم(ع) وانزال الانجيل الذي صدّق ما قبله من التوراة، وكان مثلها هدىً ونوراً للقافلة الانسانيّة يعطيها التصوُّر التوحيدي الصحيح، وينظّم لها حياتها، ويهذّب من أخلاقها ويغرس فيها التقوى، وخصوصاً بعد الانغماس اليهودي في المادية بشتى مظاهرها.

٤٧: وما كان انزال الانجيل إلاّ ليعمل به الناس ويطبّقوه على حياتهم، عملاً بحاكميّة الله وتسليماً لأمره، أما ترك التطبيق واللجوء إلى القوانين الوضعيّة البشريّة فهو يعني الجاهليّة والخروج عن المسيرة الطبيعيّة للانسان (الفسق).

٤٨: وهنا يصل القرآن إلى المرحلة الاسلاميّة باعتبارها قمّة العطاء الإلهي التشريعي الثابت (الحق) فهو من جهة يصدّق الرسالات السابقة، ومن جهة أخرى يسمو عليها ويهيمن، باعتباره أكمل الرسالات وأكثرها تفصيلاً. فلا حكم إلاّ بالقرآن ولا شريعة الا شريعة الإسلام الوارثة لكلّ الشرائع، فيجب تطبيقها ورفض كلّ الأهواء الانسانيّة الجاهليّة. وماذا بعد الحقّ الثابت إلاّ الضلال والتمزّق!؟

والشرعة والمنهاج هما الاسلوب التفصيليّ الذي ينظّم مجمل الحياة الانسانيّة، ولذلك كانت الشريعة الإسلامية غير الشريعة النصرانيّة، وإن اتفقتا في الروح والمنبع. وحينئذ فقد كان اختلاف الأديان حالة طبيعيّة لتدرّج الانسانيّة في تقبّل الحقائق والنظام الإلهي، وبالتالي فإن كلّ مرحلة بشريّة تمتحن وتبتلي بتطبيق الشريعة الخاصّة بها، ويتميز المحقون عن المبطلين. فلا يجوز مطلقاً أن نساوم على شريعتنا الإسلامية، أو أن نخلط بينها وبين غيرها من الشرائع حتى ولو كانت سماويّة، وإنّما علينا أن نستبق ونسرع إلى الخير في تطبيق الإسلام كلّه على كلّ حياتنا وتقديم أفضل النماذج التطبيقيّة لنحصل على نعيم الدارين.

٤٩: تأكيد مجدّد على لزوم الحكم بما أنزل الله ونبذ الأهواء الجاهليّة والقوانين الوضعيّة، ولزوم الحذر في عمليّة التطبيق من الخداع والتلفيق والتحايل على شيء من الأحكام الشرعيّة، والدقّة في تنفيذها حتى ولو أدّى ذلك إلى إعراض أو نفور من قِبَل ذوي النفوس المريضة، فإنّ ذلك لا يعود عليهم إلاّ بالوبال، وسوف تصيبهم العواقب الطبيعيّة لذنوبهم وانحرافهم وفسقهم، أي خروجهم عن الحدّ الانساني الطبيعيّ. ومن الجدير بالذكر إن هذا التحذير إنّما هو للتهاون في بعض الأحكام، فكيف بمن يعرض عن الشريعة ويستبدل بها نُظماً وضعيّة تافهة.

٥٠: استنكار قرآنيّ يستمدُّ تأييده من الفطرة الانسانيّة، ذلك إنّ الله تعالى هو العليم الخبير بتركيبة الإنسان وروابطها وبيئته وقوانينه الطبيعيّة وما يحتاجه، وهو اللطيف بعباده، يرشدهم إلى خير سبيل منسجم مع أهداف خلقتهم، لا تأخذه عاطفة ولا لومة لائم ولا تؤثّر عليه أيٌّ من المؤثّرات التحريفيّة. أمّا الجاهليّة الانسانيّة فكلها جهل وضعف وهوى وميل، فلا يُقاس حكم الجاهليّة الانسانيّة بحكم الله جلّ وعلا، ومن أحسن من الله حكماً.

وبهذا لا يضع القرآن أيّ فاصل بين حكم الجاهليّة وحكم الله، ويدعو المسلمين جميعاً للتسابق لتطبيق شريعة الله على كلّ الحياة.

وقد قال الامام الصادق(ع):

(الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية)[1].

---

١ - الكافي، ج ٧، ص ٤٠٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

٥١: نهي قرآني صريح للمؤمنين عن أن يقيموا الولاء لليهود والنصارى، وبالتالي عن أن يعتمدوا على وعودهم ودعمهم وخططهم وذلك تحصيناً للمسلمين من فتح نقاط ضعف أمام غيرهم. ثم إنّ انحرافهم العقائديّ لايبقي فيهم محلاً للولاء. على أنهم، نتيجة اشتراكهم في الموقف ضدّ الإسلام، يتضامنون ويتوالون في معسكر واحد، وحينئذ فإنّ الموالي لهم يعدُّ منهم ومن صفّهم وهو صفُّ الضلال والانحراف عن الخط الاسلاميّ الصحيح.

٥٢: إنّ المسلم مؤمن بالله، مصدّق بوعوده، عامل على نصرة رسالته دون وجل. أمّا إذا ضعفت عقيدة الفرد واصيب قلبه بداء القلق والوهن والوجل، فإنه حينئذ سيكون عرضة للانحراف وبالتالي الانضمام إلى صفّ الباطل والمسارعة فيه، خشية أن يأتي يوم يسيطر فيه الباطل، وتصيبه حينئذ دائرة السوء. وما أخسّ مثل هذا الفرد وأضعفه!

ولكي ينسحب هؤلاء من صفّ الكفر والولاء له، ويتخلّصوا من منطقهم الوجل، يذكّرهم القرآن بالقدرة الإلهيّة والفتح الموعود والأمر الالهي الذي لا مردّ له، وبالندم العظيم على ما أخفوه في أنفسهم إذا حلَّ ذلك الفتح العظيم، وبهذا المنطق نفسه تردُّ على كلّ الأنظمة التي تركن إلى هذا المعسكر أو ذاك خشية أن تصيبها دائرة السوء دون أن تعلم إنها تتمتع ـ لو ركنت للحقّ ـ بالدعم الإلهيّ الذي لا يقهر.

٥٣: وحينما يحلُّ الفتح الإلهيّ يفتضح أمر الرجلين المسارعين للحصول على ولاء الكافرين ويبدأ تبكيتهم على أيمانهم الغليظة (جهد الإيمان) المؤكّدة انضمامهم إلى معسكر الإيمان وانها لم تمنعهم من المسارعة في الكفر، الأمر الذي أبطل كلّ أعمالهم الحسنة وعاد عليهم بالخسران المبين.

٥٤: إنّ دين الله باق منتصر رغم كلّ العاديات، وحتى لو رجع بعضهم على أعقابه مرتداً عن خط الإسلام الصحيح فإن الله تعالى يتكفّل بدخول آخرين في هذا الدين وحمل مشعله إلى العالم. وتذكر الآيات أروع الصفات لهؤلاء الحملة لمشعل الإيمان. فعلاقة الحبّ الرائع تقوم بينهم وبين ربهم، ومعنى ذلك أنّهم ـ من جهة ـ أهل لتلك المحبّة الإلهيّة، ومن جهة أخرى ينطلقون في سبيل محبوبهم الوحيد، في سبيل الله، ولا يرتبطون بروابط الولاء إلا له، يتواضعون للمؤمنين ويلبسون لباس العزة على الكافرين المنحرفين، فالله تعالى هو كل شيء في حياتهم؛ في سبيله يجاهدون، ولا يأخذهم أو يمنعهم من الجهاد لوم اللائمين ولا تحذير المثبطين. انّهم حينئذ سيكونون حملة الأمانة الإلهيّة والمؤهّلين للفضل الإلهي العظيم الذي يؤتيه من يشا وهو الواسع (الكريم) العليم بالنفوس.

٥٥: وهذه الآية القرآنية تحصر الولاية على الخلق بالله تعالى وبالرسول وبالذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة حال ركوعهم، وقد وردت الروايات الكثيرة بنزول الآية في حق علي بن أبي طالب(عليه السلام) وقد اشترك في نقلها عدة من الصحابة، واتفق على نقلها علماء التفسير المأثور كأحمد والنسائي والطبري، وأئمة الحديث وأوردها الفقهاء. والروايات الواردة عن أهل البيت في هذا الشأن كثيرة.

٥٦: انها مشخّصة حزب الله الرئيسة وهي تولّي الله والرسول والذين آمنوا، وأيّ نكول عن ذلك يعني فقدان هذا الشرف العظيم والهزيمة أمام الاغراء.

٥٧: تأكيد على لزوم عدم تولّي الذين سخروا من الإسلام من أهل الكتاب ومن الكفار. وهذه هي طبيعة الكافرين واسلوبهم الرخيص في الحرب النفسيّة ضدّ المسلمين.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

٥٨: ولما لم يكن الكفّار يتفهّمون القيمة الحقيقيّة للصلاة، ولا يدركون معنى وقوف العبد في مقام العبودية لله واتصاله بالمطلق واستمداده القوة والعطاء منه، فانهم يتخذون النداء للصلاة ـ وهو الاذان كما قيل ـ مادة للسخرية من الأذان والصلاة وبالتالي من المؤمنين، مما لا يدع مجالاً لمد أواصر الولاء معهم مطلقاً.

٥٩: وهنا يأمر القرآن الرسول بالردّ عليهم وتوضيح الخطل الذي يقعون فيه عندما يقودهم الحقد والتعصب والانتقام الكاذب إلى عداء المؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله والقرآن والكتب التي سبقته، ولو صدقوا مع أنفسهم لجعلوا هذا سبباً للحبّ لا للانتقام، إلا أن أكثرهم انحرفوا عن الوضع الانساني الصحيح وابتلوا بالفسق والخروج على تعاليم الله وأحكامه.

٦٠: وهنا يستهزئ القرآن بهؤلاء الساخرين المستهزئين بالمؤمنين، فيأمر الرسول(ص) بإخبارهم بمن هم أحقّ بالاستهزاء من المؤمنين، وهم أنفسهم بالذات، بعد أن استحقّوا لعنة الله تعالى وطرده لهم من رحمته، وغضبه عليهم ومسخ بعضهم قردة وخنازير، لهم طباع الحيوانات وسلوكاتها الحيوانية، وتركهم أذلة خاسئين يعبدون الطاغوت ويتمرّغون على أعتابه، وما أخسّ مثل هذه الحالة فهي المستحقّة للسخرية والاستهزاء، لأنها ارتكست في شرّ مكان والضلال البعيد.

٦١: هذه هي حال المنافقين، ظاهر براق يخلب الألباب، وباطن خبيث يضمر الكفر، فهؤلاء عندما يلتقون المؤمنين يعلنون الإيمان، في حين أنهم دخلوا كافرين كذلك، ظانين أنهم يخفون ذلك الكفر، والله عليم بما يخفون. وهذا الإخبار ممّا يثبّط عزائم المنافقين ويدعهم في قلق شديد من انكشاف أمرهم، ويقوّي ـ من جهة أخرى ـ عزيمة المؤمنين.

٦٢: ولكي يفضحهم أمام الملأ المؤمن، فإنّ القرآن يستعرض ظاهرة طبيعيّة تنشأ من النفاق والكفر، وهي ظاهرة المسارعة في الانحراف القولي والعملي من الاثم والاعتداء وأكل المال الحرام، وما هي إلا أعمال بائسة تقودهم نحو الخواء والضياع.

٦٣: وهنا تلقي الآية القرآنيّة اللوم على المسؤولين عن الشؤون الروحيّة والدينيّة من العلماء والرهبان، نتيجة سكوتهم عن المعاصي والانحرافات القوليّة والعمليّة بأكل المال الحرام، وتطالبهم بالقيام بمسؤولياتهم الجسيمة من خلال النهي عن المنكرات وتحصين المجتمع من التلوّث بالمحرّمات.

٦٤: رأينا القرآن من قبل يردّ على الانحرافات اليهوديّة في العقيدة والعمل، موضحاً نكولهم عن حمل الرسالة الإلهية، وهنا يردّ على انحراف عقائدي آخر، إذ تصوروا أنّ الله تعالى إذ خلق الخلق فإنّه ـ بعدُ ـ غير قادر على التغيير، وإذ أصدر الحكم فانه غير مستطيع للنسخ، وإذ حمّل امة ما رسالة فانه لا يمكنه نقلها إلى غيرهم ـ والعياذ بالله ـ وهنا يبطل عقائدهم ويدعو عليهم بغلّ اليدين وتقييدهما، واللعنة والطرد من الرحمة الإلهيّة. ويعقّب على ذلك بيان القدرة الإلهيّة المطلقة والرحمة الواسعة، والتي تعود على المؤمنين خيراً وبركة، وعلى الكثير من أهل الكتاب طغياناً وكفراً، وعداوة دائمة بينهم إلى يوم القيامة، وهزائم متلاحقة في الحروب وسعياً في الأرض بالفساد. إلا أن الله لا يحبّ المفسدين فسعيهم يخيب لا محالة، والعاقبة الحقيقيّة للمؤمنين المتقين.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

٦٥: يؤكّد القرآن انفتاح طريق العودة إلى الله أمام أهل الكتاب، وان الله تعالى سيغفر لهم ما تقدّم من سيّئات، إذا دخلوا في معسكر الإيمان والتقوى، ونبذوا حالات الكفر والعناد، وحينئذ فلهم الثواب الأُخروي الجزيل.

٦٦: وفي المجال الدنيويّ تركّز الآية على أن اتباع منهج الله (اقامة الحياة على أسس الكتب السماويّة الحقّة دونما تحريف) يؤدّي للحياة الدنيويّة السعيدة سعادة حقيقيّة بالاضافة للسعادة الأُخروية. وفي الآية تأكيد للعلاقة بين الحياة وفق الشريعة الإلهية وانفتاح النعم الكونيّة وارتفاع المستوى الاقتصادي فيها. باعتبار انسجام الكون مع العدل من جهة، وكذلك باعتبار انّ هذا التخطيط يضمن السلوك الاقتصادي الأفضل وعبارة: «من فوقهم ومن تحت أرجلهم» تعبير كنائي عن النعم السماويّة والأرضيّة.

إنّ في أهل الكتاب مجموعة وعت طريق الحق وسلكت سلوكاً معتدلاً (مقتصداً) في حين راح الكثير منهم يسلك طريق الانحراف، وبهذا تبدو النظرة الاسلاميّة الموضوعيّة بالاعتراف بحقّ الفئة الصالحة بالرغم من كثرة الانحراف في غيرها.

٦٧: تأكيد إلهي قوي على الرسول الكريم لإبلاغ ما أُنزل إليه من ربّه واعتبار تبليغ هذا الأمر المهم بمستوى تبليغ الرسالة كلّها، ووعد أكيد بعصمته من الآخرين المعارضين والمعاندين، وان هؤلاء لن يهتدوا إلى مقاصدهم ولن يوفّقوا في الوقوف أمام هذه الدعوة الكبرى. والملاحظ من النصوص الروائيّة الشريفة في كتب الشيعة والسنة أن الآية نزلت في (غدير خم) حيث امر الرسول العظيم بوصل النبوة بالامامة وإعلان ولاية الامام أمير المؤمنين(ع) وهو ما أعلنه بعبارته المعروفة: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)[1].

وهكذا نعرف أهميّة امتداد القيادة الإسلامية ومواصلتها لتربية الأُمة واعدادها لتحمل أعظم المسؤوليات التاريخيّة.

٦٨: يعود القرآن ليخاطب أهل الكتاب فيقرّر أنّ التدين لا يعني مجرد الانتساب إلى الكتاب والتبجح به، وإنما هو نظام حياتي يشمل كلّ الشؤون ويوجّه كلّ الحياة، ومتى مالم يمتلك الكتاب هذه الخاصية فإنّ الأمة المنتسبة له ـ سواء في ذلك المسلمون وأهل الكتاب ـ لن تملك شيئاً ولا يحق لها أن تدّعيه.

إنّ الهدى الإلهي ـ او أي نعمة أُخرى ـ إذا لم يصادف أرضيّة مساعدة فانّه قد يزيد المعاندين طغياناً وكفراً، وحينئذ لا معنى للأسى على قوم اختاروا طريق الكفر والعناد.

٦٩: تردُّ الآية على دعاوى أهل الكتاب العنصرية، فتقرر أنّ باب الفلاح مفتوح لكل مؤمن بالله واليوم الآخر، متبع لما هو مكلّف به من الشريعة في زمانه. أما بعد ظهور الإسلام فإنّ القرآن يقرّر بأنّ من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهكذا فإنّ أية أُمة تتّبع سبيل الحقّ فانها تنفي عن كيانها الخوف والذلّة والحزن.

٧٠: بالرغم من الميثاق المأخوذ على بني اسرائيل لحمل الكتاب وابلاغ الرسالة إلاّ أنهم اتبعوا الهوى وواجهوا به رسل الله فلم يقبلوا إلا ما يوافق هواهم، فإذا لم يتم ذلك راحوا يكذّبونهم ويقتلونهم.

---

١ ـ انظر بحار الأنوار، ج ٣٧ ـ ٥٢ اخبار الغدير وما صدر في ذلك اليوم، وكذلك كتاب (الغدير) للأميني.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

٧١: ظنّ أهل الكتاب أنهم لن يُختبروا في إيمانهم، وان مجرَّد انتسابهم للكتاب كافٍ لفوزهم، فتركوا العمل مما أوقعهم في عذاب العمى (عدم ابصار الحق) والصمم (عدم سماع العظة) ثم شاءت الارادة الإلهيّة أن تتوب عليهم، ليرجعوا إلى الحقّ، إلا ان كثيراً منهم عادوا إلى حالة العمى والصمم، مما يكشف عن لؤم وعناد نفسي آثم.

٧٢، ٧٣: ان أيَّ اعتقاد بالتجسيم الإلهي، وبحلول المطلق في البشر النسبي الناقص المحتاج وبأيٍّ نحو كان؛ يعدُّ من الكفر والشرك المبين.

فسواء اعتقد المسيحيون بحلول الله في المسيح! أو أنَّ الله ثالث ثلاثة (الله والروح والمسيح) فانهم يكونون قد وقعوا في الكفر، وهكذا نجد كيف يتحول الإيمان بالرسول ـ وهو الدليل على الله ـ إلى عقبة في وجه الإيمان الصحيح بالله تعالى نتيجة الجهل، وعلى أيٍّ فإنَّ المسيح نفسه يكذّب هذا الاعتقاد، ويدعو أتباعه لعبادة الله وهو رب المسيح ورب الجميع، ويعلن أن من يشرك بالله فإنّه لن ينال الجنة والفلاح وإنما يُحشر إلى النار مع الظالمين، ويبتلى بالعذاب الأليم.

٧٤: وهذه دعوة قرآنيّة للتوبة والعودة إلى المنطق الصحيح ومقتضيات الفطرة السليمة، وطلب الغفران الإلهي.

٧٥: تعمل الآية على إعادة العقيدة الصافية حول المسيح وأمه باعتبارهما انسانين مُنح أحدهما الرسالة كسائر الرسل السابقين، وكان الآخر صدّيقا عابداً، وكانت فيهما كل خصائص البشر ومنها الحاجة إلى الطعام، الأمر الذي يُبعد عنهما أيَّ احتمال للربوبيّة، كل هذا من أوضح الواضحات إلا أن العناد قد يدفع بعض الناس لتكذيبها رغم الوضوح.

٧٦: كيف يعبد هؤلاء، وجوداً ناقصاً محتاجاً لا يستطيع ان يضرَّ أو ينفع، ويتركون عبادة الله السميع العليم؟! والقرآن بهذا يردُّ على المشركين جميعاً سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ممن يعبدون ما سوى الله تعالى.

وبهذه الاستدلالات الفطريّة الرصينة استطاع القرآن أن يبطل أباطيل أهل الكتاب وانحرافاتهم العقائدية، كما يصون عقائد المسلمين من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبل، من الشرك والغلوّ وتحويل الشخصيات المقدّسة إلى آلهة تُعبد من دون الله، ويعتقد فيها مالا تملكه من قدرات وطاقات.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

٧٧: تنهى هذه الآية عن أمرين مهمَّين ينحرفان بالفكر الانساني عن مساره الصحيح وهما الغلو، والتقليد الأعمى، فأمّا الغلو في الدين فيعني تحويل الكثير من الأمور النسبيّة إلى مطلقات عامة من خلال تصعيد ذهني لا واقع له، ويعني أيضا منح الكثير من أفراد البشر كالأنبياء، والرهبان والأحبار والصلحاء صفات ألوهية وجعلهم مؤثرين في الكون بالاستقلال، وأما التقليد الأعمى، فيعني عدم التعقل الصحيح والاعتماد على ما يقدّمه الآخرون من أهواء وضلال وربّما كان القرآن يشير بهذا إلى تسرُّب العقائد الوثنيّة من الأمم الكافرة إلى عقائد أهل الكتاب، وما هي إلا أهواء سخيفة ابتعدت بالبشرية عن السبيل المنطقي السوي السليم.

٧٨، ٧٩: لقد تعرَّض الكافرون من بني اسرائيل إلى لعنة وطرد من أنبيائهم كداود وعيسى، نتيجة عصيانهم واعتدائهم وعدم تناهيهم عن المنكرات، وهو بئس العمل.

والقرآن يحذر المسلمين من أن يقعوا في هذه الحالة والاتعرضوا للعقاب واللعنة أيضاً. والواقع ان صفة مقارعة الظلم واجتناب الطاغوت ومحاربة كل مظهر جاهلي هي من خصائص هذه الأُمة الإسلامية الرئيسة. والآيات الشريفة والروايات كثيرة في دفع الأمة لبناء الحياة على أساس اسلامي ومحاربة كل مظاهر الظلم، وقد جاء في (الدر المنثور) عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله(ص) في حديث له:

(... وان رحى الإسلام ستدور فحيثما دار القرآن فدوروا به، يوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا، انه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره، فإن أطعتموهم أضلّوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: يا رسول الله كيف بنا إن أدركنا ذلك؟ قال: تكونون كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير، ورفعوا على الخشب. موت في طاعة خير من حياة في معصية. إن أول ما نقص في بني اسرائيل أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعزير فكان أحدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه كأنه لم يعب شيئاً فلعنهم الله على لسان داود وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم ثم ليدعونّ خياركم فلا يستجاب لكم. والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم فلتأطرنّه عليه أطراً أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم ببعض)[1].

٨٠، ٨١: من الظواهر المرضية في بني اسرائيل أنهم كانوا يوالون الكفّار والمشركين ويعملون لصالحهم، الأمر الذي عرّضهم لسخط الله والخلود في العذاب، ويعلّل القرآن هذه الحالة بعدم ايمانهم بالله والنبي، وفسقهم وانحرافهم عن الخط الأصيل. وبهذا يحذر المسلمين أيضاً من تولّي المعسكر الكافر ومدّ أواصر المودّة معه. وهذا ما نجده اليوم في كثير من الحاكمين وأتباعهم، الأمر الذي يعرّضهم للخلود في العذاب.

٨٢: يتصف اليهود ببعد مفرط عن الدين الإلهي وعناد وتكبّر وغرق في المادية يبعدهم بالمآل عن الخط الإسلامي ويجعلهم أشدّ عداوة له. أما النصارى ـ وخصوصاً في صدر الإسلام ـ فكانوا يتمتّعون بوجود طائفة من القساوسة والرهبان، وبحالة من عدم الاستكبار، الأمر الذي يقرّبهم إلى الحقّ، ويمهّد السبيل لايمانهم وانسجامهم مع الخط الإسلامي الأصيل.

وهذه الآية تبيّن وجود عنصر ايجابي في المسيحيين آنذاك نتيجة قربهم من روحانيّة المسيحيّة بالرغم مما اصيبت به عقائدهم من انحراف.

---

١ ـ الدر المنثور، ج ٣، ص ١٢٥.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

٨٣، ٨٤، ٨٥: امتداداً للعنصر الروحي الذي كان متوفراً لدى النصارى ـ آنذاك ـ فإنهم كانوا يتأثرون بالآيات القرآنيّة فتفيض أعينهم من الدمع ـ كما حدث بالنسبة للنجاشي في الحبشة ـ وذلك نتيجة وقوفهم على الحقّ الذي تعلنه هذه الآيات، ثمّ إنهم يعلنون بعد ذلك إيمانهم وانضمامهم إلى معسكر الشاهدين الصالحين، وهو ما يستتبع لهم الثواب العظيم جزاء للمحسنين. والملاحظ أن الآية تؤكّد أن وجود العلماء، والصالحين المطبّقين للشريعة، وانعدام حالة الاستكبار في أي مجموعة يؤهلها للهداية الإلهية.

هذا؛ ولقد ابتعد النصارى يوماً بعد يوم عمّا كانوا عليه وغرقوا ـ مع الأسف ـ في أوهام الجاهليّة، ونمت فيهم عقد حاقدة ماديّة يهوديّة المنشأ أدّت بهم إلى صليبيّة عمياء وتعالٍ واستكبار على الشعوب الضعيفة.

٨٦: وقد فقد المشركون كلّ أهليّة للهدى فلم تكن فيهم حالة روحيّة ولا علماء ولا صالحون وعاشوا في حالة الاستكبار فابتلوا بسوء العاقبة.

٨٧، ٨٨: ربّما وقع في ذهن بعض المسلمين أن يحرّم بعض الطيّبات التي أحلّها الله له ـ عملاً بتصور منحرف عن الزهد ـ وهذه الآية تمنع هذه الظاهرة المنحرفة وتدعو للتمتّع بالحلال الإلهي، لأنّ الحرام والحلال في الشريعة مبنيّان على أساس من مصالح ومفاسد واقعيّة وعلم إلهي دقيق بالانسان وعلاقاته وحاجاته ونوع اشباعها اشباعاً عادلاً، الأمر الذي جعلها «طيبات» حلالاً فحينئذ يعتبر أيّ تجاوز لهذا التخطيط الإلهي للحياة اعتداءً وتجاوزاً لا يحبّه الله تعالى.

وفي الآية نهي واضح عن الرهبانيّة والانعزال عن الحركة الاجتماعيّة واللذّة المشروعة، ودفع للتمتع بالحياة وفق الأُطر الشرعيّة وهو ما يقتضيه التقوى والايمان.

٨٩: انّ اللغو في الأيمان رغم أنّه عمل غير صحيح لأنه يجعل الله عرضة للقسم به في كلّ موطن، وهو يتنافى والتقديس المطلوب، إلا أن هذا النوع من القسم غير المقصود وغير الصادر عن وعي لا يترك أثراً شرعياً، وإنما يترتّب هذا الأثر على القسم الصادر عن قصد وحينئذ يجب التزامه، فإذا حنث الإنسان فيه فقد استوجب ذلك الكفّارة، وكفّارة القسم كما تبيّنه الآية هي:

التخيير بين اطعام عشرة مساكين من الطعام المتعارف.

أو كسوتهم والباسهم لباساً مناسباً.

أو تحرير رقبة لوجه الله.

فإذا لم يستطع الإنسان ذلك فعليه صيام ثلاثة أيّام تكفيراً عن حنثه وعدم التزامه بقسمه.

وفي الختام تدعو الآية للاهتمام والحفاظ على الأيمان من الابتذال، وعدم عقدها كيفما اتفق، واذ اعقدت يجب الالتزام بها والأفضل أن تسود الثقة بين أبناء المجتمع المسلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

٩٠: الميسر هو القمار، والأنصاب هي الحيوانات التي كانت تذبح وتنضح بها الأصنام والأزلام هي قطع خشبيّة بشكل سهام كانوا يستقسمون بها لحم الحيوان أثناء المقامرة. والآية الشريفة تجمع بين كلّ هذه العناصر التي عادة ما تجتمع في مجالس المترفين والبعيدين عن الوعي الانساني وتصفها جميعاً بأنها رجس مستقذر تفرزه المكائد الشيطانيّة فعلى المؤمنين أجتنابها اجتناباً قاطعاً لعلّهم يطوون بذلك طريق الفلاح.

وهذه الآية كانت المرحلة الاخيرة من عملية تدريجيّة واقعيّة غيّرت الإنسان المسلم داخلياً وايمانياً، ثمّ سارت معه حتى بلغت به التحريم الكامل للخمر وكانت النتائج رائعة وقاطعة حين فشلت النظم الأخرى في عمليّة انقاذ مجتمعاتها من هذا الداء الوبيل.

٩١: في هذه الآية تحسيس للمؤمنين بالأهداف الشيطانيّة عبر اشاعة الخمر والميسر، وتتلخّص في نشر التمزّق والعداء والحقد والابتعاد عن الحياة الإنسانية الواعية المتّصلة بالله، وبالتالي تفقد الأُمّة شخصيتها القويّة الفاعلة، وهذا ما أثبتته الحوادث التاريخيّة، حيث تمزّقت الشخصية الإسلامية بنفوذ الخمر، وما يرافقه من مجون ودعارة، إلى مجالس الأُمراء والحكّام في الماضي ـ كما في الحاضر ـ وكانت المصائب وفي طليعتها فاجعة الأندلس السلبية وما نشاهده اليوم في عالمنا الإسلامي أمر لا يمكن أن يرضى به أيّ مسلم يستمع إلى مثل هذه الآيات الشريفة.

٩٢: تركيز على لزوم طاعة الله وطاعة الرسول فيما يبلغه عن الله وما يصدره من أوامر قياديّة وتحذير من مخالفة خطّ الطاعة وتحميل الأُمّة مسؤوليتها في هذا السبيل: فما على الرسول إلاّ ابلاغ الرسالة ابلاغاً واضحاً.

٩٣: لعلّ هذه الآية الكريمة تعمل على رفع حرج أولئك المؤمنين الذين كانوا يتعاطون الخمر قبل تحريمها، فتعلن لهم عن عدم وجود تبعة عليهم إذا ما ساروا في طريق الإيمان وتعمّق الإيمان في نفوسهم، ولاحت مقتضياته على حياتهم من التقوى، والعمل الصالح، والاحسان.

٩٤: لن يتكامل الإنسان إلاّ عبر الامتحان المتواصل، والعبادات في الإسلام تحوي هذا الجانب المؤثر في التكامل، كما في الصوم والحج، والآية هنا تشير إلى هذا المعنى: إذ يقرب الصيد من المحرمين، بحيث تناله أيديهم ورماحهم، إلاّ أن عليهم الامتناع عن الصيد استجابة لأوامر الله تعالى، وسيطرةً على النزعات النفسيّة، وتوفيراً لجو آمن يأمن فيه الناس والحيوان.

وفي الامتحان يبدو جوهر الإنسان ومدى ايمانه بالغيب وخوفه من الله تعالى.

٩٥: بعد هذا يأتي النهي عن الصيد حال الاحرام، فمن قتل الصيد متعمّداً فعليه أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله، والذي يحكم بذلك شخصان عادلان بعينان المماثلة، ثمّ يوجّه الهدي إلى الكعبة أو يطعم مساكين بقيمته أو يصوم ما يساوي ذلك من الأيام وذلك جزاء هتكه لحرمة الحرم، اما ما كان من الصيد قبل التحريم فمعفو عنه فإذا عاد أحد لهذا العمل بعد التحريم فإنه يعرض نفسه لانتقام الله وهو العزيز المنتقم.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

٩٦: تعلن الآية حلّيّة صيد البحر وطعامه للمحرمين ولغيرهم من القوافل سواء لهم أم لقافلتهم (السيارة) في حين تحرّم على المحرمين صيد البر، وتحذّرهم من مخالفة أمر الله، مذكرة إياهم بالتقوى والعودة إليه تعالى.

٩٧: تبدو من هذه الآية الحقائق التالية:

أولاً: إنّ الإسلام لم يكتف بأن تقوم العبادات بإشباع الجانب المعنوي في وجود الإنسان من اشتراط النيّة ومن علو مضامين الألفاظ وآثرها التربوي، وإنما حاول أن يشبع الجانب الحسّي فيه بجعله أمكنة حسيّة وأزمنة حسيّة منسوبة إلى عالم الغيب، ليقرب إليه الأمور المعقولة ويجعلها محسّة برموزها مما يمنحها التأثير التربوي المطلوب، إضافة إلى إيجاد حالات من الإقبال النفسي عند الفرد والمجتمع، مما يعتبر شرطاً للتكامل الانساني.

ثانياً: إنّ البيت الحرام والشهر الحرام بما يستتبع من عملية الحج ومن توفير الأمان والسلام للانسان والحيوان بما فيه الهدي والحيوانات المقلّدة (التي في عنقها علامة كونها للكعبة) وحتى النبات، ومن جعله مثابة تثوب إليه الأمم وتطوف فيه حول رمز التوحيد، وتتشاور فيه بكل حرية حول مشاكلها وحلولها وتواجه فيه صورة المجتمع المسلم العابد، الآمن، المتحابّ في الله، والسائر وفق تعاليم الله، والنافي لكلّ الطواغيت الداخليّة والخارجيّة، وإعلان البراءة منهم. بهذا التشريع مَنح المسلمين قواماً لحياتهم المتكاملة، وبهذا تبدو عظمة التشريع الالهي القائم على أساس علم غير محدود بالوجود والتاريخ والإنسان وما يصلحه ويوصله إلى كماله.

٩٨: لتحقيق توازن في موقف الإنسان بين الخوف والرجاء تركّز الآية على هذه الحقيقة التصوّرية وهي كونه تعالى شديد العقاب والغفور الرحيم في الوقت نفسه.

٩٩: إنّ الرسول يبلّغ عن الله تعالى رسالته، ويبقى أن يتحمّل الإنسان الفرد والمجتمع مسؤوليّة العمل والطاعة ومراقبة العلم الالهي الدقيق بكلّ الظواهر والخفايا، وقد حاول بعض المغرضين الاستدلال بالآية على نفي حاكميّة الرسول على الأمّة وهو تمحّل، فالآية ليست بهذا الصدد وإنّما هي بصدد نفي تهمة عدم الإيمان والطاعة عليه، ثم إنّ الواقع العمليّ لسيرة الرسول وطبيعة الأحكام الاسلاميّة تنفيان هذا التفسير.

١٠٠: على الفرد المسلم أن يشخّص الخبث من الطيّب بفطرته وباتّباعه لدينه، وحينئذ يتبع الطيبات والأساليب الطيبة ويرفض الأساليب الخبيثة، غير مكترث هذا أو قلّة ذاك، لأنه اتقى الله وأعمل عقله فسار في سبيل النجاح.

١٠١، ١٠٢: تذكر الآية الكريمة المؤمنين بعدم التساؤل عن أشياء يحتملون أنها لو ابديت لهم لأساءتهم، وذلك كالتدقيق في شرائط الأحكام ومحاولة معرفة الأمور المستقبلة، وأمثال ذلك. وربّما كان ذلك نتيجة وسوسة شيطانيّة ينبغي أن يبتعد عنها المسلم، وينتظر ما يأتيه من بيان قرآني ليطبّقه. وتذكّر الآية التالية بوجود مثل هذه الخصلة لدى أقوام سابقين سألوا ولم يعملوا بالجواب المقرّر مما اقتضى السخط الالهي.

١٠٣: البحيرة: الناقة تلد خمسة أبطن. والسائبة: المنذورة للآلهة، فهي تسيب لحالها. والوصيلة: الشاة تصل أخاها لو ولدا معاً فلا يذبح للآلهة. والحامي: الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن. وتنعى الآية على أهل الجاهلية تحريمهم بعض الأنواع من الأنعام، وبالتالي اهدارهم للثروة الحيوانيّة نتيجة جهلهم. وبهذا تُدان كلّ الأساطير التي تتحكّم في الأمة فتمنعها من الاستفادة من نعم الله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

١٠٤: تنكر هذه الآية صفة التقليد التي يتذرّع بها هؤلاء المقلّدة، الذين يدعون لتغيير حياتهم وتطبيق ما أنزل الله، وتحكيم الرسول فيها لتنتظم هذه الحياة وتتغير إلى الأفضل، وتنتهي الآية بسؤال انكاري عميق المغزى إذ تسألهم: هل كانوا يقلّدون آباءهم لو علموا بجهلهم وضلالهم؟ والجواب بالنفي طبعاً، وحينئذ يندفعون لإعادة النظر في الموروثات وإعمال العقول فيها.

والتقليد كما يعبر عن ضعف حضاري لهذه الفئة وبعد عن عنصر التغيير التكاملي فهو يعبر أيضاً عن تذرع وتسويغ للعناد والصدود عن الحق.

١٠٥: إنّ المؤمن مأمور بالتبليغ تبعاً للرسول، وهو المبلّغ الأول، فإذا لم يترك تبليغه الأثر المطلوب فما عليه ضير من ضلال الضالّين وجحد الجاحدين، فإنّ البشريّة سترجع إلى ربّها وتلاقي نتائج عملها.

١٠٦، ١٠٧: يركّز القرآن على كتابة الوصيّة، لما في الوصية من آثار اجتماعيّة وحفظ للحقوق المتبادلة من الضياع والامتهان، وفي هذا السبيل يدعو المسلم إذا سافر أو أراد السفر وحضرته ساعات الموت أن يحضر شاهدين عدلين من المسلمين، وإن لم يكن هناك شاهدان مسلمان، فليحضر شاهدين من غير المسلمين، وإذا ارتاب أولياء الميت في مدى تنفيذهما للوصيّة أخروا الشاهدين إلى ما بعد الصلاة باعتبارها لحظات مقدّسة يقل معها احتمال الكذب ليقسم هذان الشاهدان على صدقهما، وعدم كتمان الشهادة وعدم شراء الباطل بثمن بخس، وعدم إخفاء الحقيقة حتى ولو كان المقسم له من القربى، فإن اكتشف الكذب أو الخيانة في الأمر اتخذ شاهدان آخران من ذوي الأولويّة والاستحقاق في الإرث ليقوما مقامهما في الوصيّة، ويقسما على صحّة شهادتهما وتقدّمها على شهادة الشاهدين السابقين، وانهما لن يعتديا على الحقيقة.

١٠٨: إنّ كلّ هذه الشدّة وهذه الظروف الخاصّة والأغلاظ من القسَم إنما هو لغرض الاطمئنان على أداء الشهادة أداء حقيقياً، وإلا لحدثت الفضائح وردّت الأيمان وفقدت الثقة.

وتعقّب الآية، بالتذكير بالتقوى والطاعة والابتعاد عن النتائج التي تلحق الفاسقين.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۞ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞﴾

١٠٩: بهذه الآية يمهّد القرآن لحوار بلسان الحال بين عيسى وربّه تعالى، ويبدأ التمهيد بجمع مقدّس يجتمع فيه الرسل جميعاً أمام الله تعالى ليسألهم عن نتائج عملهم ومدى استجابة الأمم لهم، فيجيبون تأدّباً واعترافاً بالنقص في العلم بأنهم لا علم لهم في قبال العلم الالهيّ بخفايا القلوب والاستجابات الحقيقيّة للرسالة الالهيّة.

١١٠، ١١١: بعد التمهيد السابق ينتقل القرآن إلى حوار بين الله تعالى وعيسى عليه السلام، ومن الواضح فيه انه يحاول تصحيح العقيدة التي انحرف بها أتباعه بعد ذلك، ويتمُّ هذا التصحيح من خلال ايحاءات هذا الحوار، إذ يبدأ بالتذكير بالنعم الالهيّة على عيسى ووالدته الطاهرة مريم، إذ أيّده بروح القدس، وهو إمّا ملك الوحي واما التأييد الالهي الخاص، الأمر الذي أعطاه خاصّة تكليم الناس في المهد، ليعلن قبل كلّ شيء عبوديته لله وبراءة والدته من التهمة والخطيئة، فكان كلامه هناك إبلاغاً للحقيقة كما كان كلامه وهو كهل إبلاغاً للرسالة، كما تجلّت النعمة الالهيّة في تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل.

وكانت النعمة الثالثة قدرته الاعجازيّة في صنع الطين كهيئة الطير بإذن الله، ونفخه فيها لتصبح طيوراً حية بإذنه تعالى، وكذلك في إبراء الأكمه (أي الأعمى بالولادة) والأبرص، بإذنه تعالى، وبالتالي قدرته الخارقة في إحياء الموتى. كل ذلك بإذن الله تعالى فلا يحدث شيء في الكون إلا بذلك الإذن التكويني. ولعلّ تكرار كلمة (بإذني) جاء لتقرير هذه الحقيقة العامّة، وإبعاد التصوّرات المشركة في حقيقة النبي عيسى(ع) فكلُّ شيء قائم به تعالى ولا يوجد إلاّ بإذنه.

ويعود القرآن إلى تعداد النعم الالهيّة فيذكر منها أنه جاءهم بالبيّنات الواضحات، فردُّوا عليه مهرّجين واصفين إيّاه بالسحر والشعوذة. ومن النعم أيضاً هداية الحواريين للايمان بالله ورسوله فاستجابوا لنداء الإيمان وأسلموا لأوامر الرسول القائد.

١١٢، ١١٣: وبالرغم من إيمان الحواريين وتسليمهم فإنّهم طلبوا إنزال مائدة من السماء، تشكّل دليلاً حسّياً فيأكلون منها وتطمئن معها القلوب، ويتركّز العلم بالتصديق وتتمُّ مقدمات الشهادة بذلك للآخرين من ورائهم. وقبل أن يستجاب دعاؤهم جاء التوجيه الالهي لهم بأن مقتضيات الإيمان الصادق هو التقوى والتسليم والأدب في السؤال وعدم قول ما يستشف منه التشكيك.

وربّما كان في هذا الحوار ـ بالاضافة لبيان النعم الالهيّة على الحواريين وبالرغم من وجود مثل هذا الطلب منهم ـ ما يشعر المسلمين بلزوم الترفّع عن هذه المستويات والاتجاه للأهداف الأسمى.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

١١٤: بعد أن رأى عيسى من أصحابه إخلاصاً في الطلب دعا ربّه بكلّ أدب وخضوع واعتراف بالجميل واستمداد للرزق لينزل عليه وعلى الحواريين مائدة من السماء، تكون سبباً لفرحهم الطبيعي، وتشكّل علامة واضحة على اللُّطف والتأييد الالهي، وهذه حالات طبيعيّة، فإن المعجزة الحسّيّة تقود القلب للاطمئنان وتثير فيه الفرح. وفي الآية إشارة لجواز اتخاذ المؤمنين بعض الحوادث المهمة في تاريخهم عيداً يذكرهم بها.

١١٥: استجاب الله تعالى لدعاء عبده عيسى إلا أنه حذّر هؤلاء الحواريين الّذين آمنوا وأسلموا ثمّ راحوا يطلبون دليلاً حسّياً آخر. وعندما يأتيهم هذا الدليل فانّ مسؤوليّتهم حينئذ تعود أعظم ممّا كانت عليه، الأمر الذي يستدعي عذاباً خاصّاً عند جحودهم وكفرهم، وهو عذاب لا يتناسب مع عذاب الكافرين الآخرين.

ويلاحظ هنا أنّ هذا الحوار كما يركّز على النعم الالهية على الحواريين وبالتالي على كلّ أتباع المسيح، يركّز أيضاً على بنوّة عيسى لمريم مبعداً الأذهان عن مسألة (البنوّة الالهية) ومنزّهاً مريم (عليها السلام) في الوقت نفسه عن تهمة الخطيئة. وكلّ هذا تمهيدٌ لما يراد بيانه في الحوار الآخر التالي.

١١٦: سؤال انكاري يوجّهه الله تعالى لنبيّه وعبده عيسى(ع) بهدف إفهام الأتباع بخطئهم وانحرافهم في تصورهم عن هذا العبد الرسول، فيسأل تعالى عمّا إذا كان قد طلب من الناس أن يؤلّهوه والعياذ بالله. فيردّ عيسى منزّهاً ربّه «سبحانك» معلناً أنه ما كان يملك بكلّ وجوده أن يقول ذلك، وإلاّ فلو كان قاله لعلمه الله. وهو يعلم ما في نفسه، وهو علاّم الغيوب.

١١٧: فلم يقُل عيسى لقومه إلاّ ما أمره الله به، وإلا ما قالته الرسل لأممهم «أن اعبدوا الله» فهو ربّ عيسى وربّ الناس جميعاً، ولم يقم في قومه إلاّ بدور الشهادة والقيادة، فلما توفّاه الله إليه كان هو الحفيظ الرقيب على أتباع عيسى، وهو تعالى على كلّ شيء شهيد عليم رقيب.

١١٨: وبلسان التضرّع والتسليم يعلن عيسى أنّ قومه عباد الله تعالى، فله أن يعذّبهم وله أن يشملهم بالغفران، وهو القويّ العزيز الحكيم في ما يفعل.

وهكذا نلاحظ المفاهيم العقائديّة الأصيلة البعيدة عن كلّ شبهة وشرك، والمركّزة على العبوديّة الكاملة، تُلقى على المسيحيين من خلال هذا الحوار بلسان الحال.

١١٩: إنها الحقيقة التي لامراء فيها، فالقيامة يوم يتجلّى فيه صدق الصادقين ونتائجه الايجابية المتمثلة في جنّات تجري من تحتها الأنهار، وخلود فيها، يسودهم الرضا المتبادل بين الله والعبيد وهو الفوز العظيم، وبهذا يشهد القرآن بصدق عيسى مؤكداً المفاهيم التي طرحها في جواب الله.

١٢٠: وهذه خلاصة الدرس الذي أوصى به هذا الحوار فالجميع عبيد له تعالى، والسماوات والأرض وما فيهما مطويّات بيمينه، فعلى الجميع الطاعة والعبوديّة المطلقة.

سورة الأنعام ٦ — ١٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴿١﴾ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴿٢﴾ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴿٣﴾ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴿٤﴾ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴿٥﴾ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٦﴾ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴿٧﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴿٨﴾

سورة الأنعام

تحدثنا من قبل عن البسملة وأنها جزء لا يتجزأ من السور القرآنية.

١: تبدأ السورة بحقيقة كبرى من حقائق التصور الإسلامي؛ وهي أنّ الحمد كلّ الحمد وبشتى أنواعه إنّما هو في الحقيقة لله تعالى، لأنّه خالق الوجود كلّه برحمته والمنعم عليه بكلّ ما فيه من نعم، ومن هذه النعم خلق السماوات والأرض بما فيها من مظاهر العظمة والدقّة والمدقّية السامية. وكذلك بث النور والظلمات في هذا الكون ليقوم كل منهما بدوره التكويني في تسيير دفة الوجود. فالله تعالى هو خالق كلّ شيء وكلّ مظهر كوني ومرحلة تكاملية. فالعجب إذن من التصور الثنوي الباطل ـ كما هو الأمر عند المجوس ـ ومن أيّ تصوّر مشرك آخر للكافرين بهذه الحقائق ليعدلوا بالله تعالى غيره من مخلوقاته.

٢: بعد التعرُّض لخلق الكون جميعه تركز الآية على خلق الانساني من طين، مذكّرة إيّاه بعظمة المراحل التي قطعها وجوده من الطين إلى هذا الموجود الكريم، ومؤكّدة أن الله تعالى قضى للانسان مدةً معيّنة، وأخفى أجلاً آخر لديه، حيث يتأثّر أحدهما بعوامل المحو والاثبات ـ كالدعاء وبرّ الوالدين ـ في حين يبقى الآخر محتوماً لا تغيير فيه. وبعد كلّ هذه الدقّة فهل للمرء أن يمتري ويتمحّل ويشكّ في هذه الحقيقة؟

٣: الله تعالى محيط بكلّ شيء دونما حاجة إلى مكان ـ فالحاجة ممّا لا تتطرّق إلى الساحة الالهيّة ـ وهو بإحاطته تحضر لديه كلُّ الأشياء، ويتساوى لديه السر والعلن، ويعلم بكل ما تفعله المخلوقات.

٤، ٥: بعد كلّ تلك الحقائق الواضحة لدى الفطرة والوجدان يعرض القرآن صورة هؤلاء المنحرفين المعاندين، فلاتهمُّهم الحقائق ولا نداء الفطرة، وإنما هم مصممون على رفض الآيات الالهيّة والتكذيب بالحق والاستهزاء به، ولكنهم سيعلمون بالحقيقة وسيرون الجزاء الأليم.

٦: ألا يسترجع هؤلاء صورة الأمم السابقة الذين كانوا قد مكّنوا وأعطوا القوة في الأرض بمستوى لم يمنحه هؤلاء المعرضون، وأستمتعوا بالنعم الالهيّة حيث السماء تدرُّ عليهم بالخيرات، والأنهار تجري بالعطاء، ولكنهم لم يشكروا النعم الالهية، ولم يستجيبوا لنداء الحقّ والفطرة مما عرّضهم للهلاك والزوال الحضاري نتيجة ذنوبهم وأحل قوماً آخرين محلّهم، وفي الآية اشارة إلى قوانين حقيقيّة تربط بين العصيان التشريعي والانحلال الحضاري.

٧، ٨: صورة أخرى للعناد تتمثّل في إنكار الواضحات والتمحّل ببعض الطلبات كإنزال الكتاب والملك، فحتى لو أنزل الله كتاباً حسيّاً بحيث يلمسونه بأيديهم فانهم سيكذّبون حسّهم وسيصفون هذا الكتاب بالسحر المبين، ولو أنزل الله ملكاً لرفضوه بلا ريب ووصفوه بصفات اخرى مكذّبين له مما يعجّل لهم بالعذاب.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

٩: ولو أنَّ الله استجاب لطلب هؤلاء المعاندين بإنزال ملك رسولاً إليهم لما استطاعوا أن يبصروه إلاّ رجلاً كغيره من الآدميين، فحينئذ يبقى مجال التشكيك والالتباس خصوصاً وهم المعاندون. ويلاحظ أنه بالرغم من تأكيد المكذِّبين لزوم أن يكون الرسول فوق البشر فإنَّ القرآن يؤكِّد بشريَّة الرسول، ولعلَّ ذلك لأنَّ الرسول يبقى النموذج التطبيقي الأمثل للانسان العبد المطيع، وليستطيع أن يقودهم عملياً نحو الأهداف الانسانيَّة الكبرى، وربَّما كانت الحكمة أيضاً غلق الباب أمام تجريد الرسول من شخصيَّته والعمل على تأليهه، وهذا ما حدث بالنسبة للبشر بالرغم من كلِّ علائم الانسانيَّة فيهم فكيف بالملائكة؟

١٠، ١١: والقرآن هنا يوضح أنَّ هؤلاء المعاندين إنَّما يستهزئون بالحقيقة، وبالتالي فهو يسلِّي الرسول لئلا تؤلمه هذه التمحلات، كما يذكِّر المكذِّبين بمصارع الأُمم المستهزئة من قبلهم وآثارهم مازالت قائمة، ولذا يحثُّ القرآن على القيام بالتأمُّل في مسيرة التاريخ والاعتبار بمصير الأُمم.

١٢: سؤال يطرحه القرآن على هؤلاء فلا يملكون مع الله إلاّ أن يجيبوا بالحقيقة، ذلك أن الكون، بما فيه من عظمة، مخلوق لوجود كامل العلم والقدرة هو الله تعالى، ومن هنا فالجواب يتمُّ على لسان النبي بشكل طبيعي، معبِّراً عمّا يعترف به هؤلاء من وجود الله وإن كانوا يشركون في حاكميَّته.

لم يكن خلق الكون إلا برحمة ملازمة للذات الالهيَّة فكان الله فرض الرحمة على نفسه جلَّ وعلا وبها خلق الكون.

ومن مظاهر الرحمة الالهيَّة جمع البشر في يوم القيامة، باعتباره يمنح الحياة الإنسانية معنى هدفياً، ويقرر العدالة في هذه المسيرة فلا ريب في وجود مثل هذا اليوم.

والخاسرون حقّاً حينئذ هم أولئك الذين فسقوا عن المسيرة الفطريَّة وخرجوا من اطار الإيمان والطاعة فخسروا انفسهم وبالتالي خسروا كلَّ شيء.

١٣: الموجودات في كلِّ الأزمنة (ليلها ونهارها) حاضرة لديه تعالى مملوكة له، فهو عليم بها ولا يخفى عليه شيء منها.

١٤: الله تعالى خالق الكون بسماواته وأرضه، وهو الرازق والمانح لكلِّ نعمة فهو دونما حاجة مطلقاً لأيِّ شيء، وحينئذ فالعجب الغريب أن يتولّى أحد غير الله وهو الولي الحقيقي المستجمع لكلِّ صفات الكمال والجلال.

إنَّ الرسول مأمور بأن يكون في طليعة المسلمين لله والرافضين للشرك، وكلُّ متَّبع له لابُدَّ أن يسير على هذا المنهج القويم، رافضاً منهج التبعيَّة للجاهليَّة بكلِّ مظاهرها الطاغوتية.

١٥: ولبيان عظمة عصيان الله وكونه (ص) أوَّل المكلَّفين بالطاعة، يأمر القرآن الرسول بإعلان هذه الحقيقة: حقيقة الخوف من العذاب العظيم إذا عصى ربَّه.

١٦: إنه عذاب عظيم إذا تخلَّص منه أحد فقد شملته رحمة الله وفاز فوزاً مبيناً.

١٧، ١٨: تأكيد القدرة الالهيَّة المطلقة، فلا يوجد شيء في الكون من خير أو ضر إلاّ بإذنه، ولا راد لقضائه، وهو القاهر القوي، والحكيم الخبير بما يفعل.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

١٩: هكذا يتعامل القرآن مع الفطرة: يسألها فتجيب على التوّ بالحقيقة فينوب عنها في الجواب، مربيّاً لها سائراً بها إلى الوضوح التام.. فترى القرآن يطلب من مخاطبيه أن يوضحوا من هو أكثر الشهداء شهادة بالغة صادرة عن علم وأمانة؟ ولا يجد هؤلاء المخاطبون إلا أن يردّدوا مع القرآن: انه الله، فهو الشهيد الحق، وها هو الله تعالى يشهد بأنه أوحى القرآن للرسول ليقوم بانذار هذه الأمة المخاطبة وغيرها من غير المخاطبين (وَمَنْ بَلَغَ) أي من بلغه الخطاب من الأمم الأُخرى).

أما إذا شهد الكافرون عناداً بالشرك فلا مساومة بين الحقّ والباطل «قل لا أشهد» وإنما يتبرأ خط التوحيد من خطّ الشرك في مختلف المجالات. فالآية تتضمَّن مفاهيم كثيرة، منها: لزوم العامل العقائدي مع الفطرة، ومنها أيضاً: عالمية الرسالة التي تُعلن في مكّة، ومنها: رفض أيّة مساومة بين خطَّي الحقّ والباطل وغير ذلك.

٢٠: بعد استشهاد الفطرة يتوجه القرآن إلى أهل الكتاب مؤكداً انهم يعرفون انطباق صفات النبي الموعود عليه(ص) حق المعرفة، كما يعرفون أبناءهم، وانهم يعرفون ان الإسلام هو النظام الحق الذي ينبغي أن يطبّق، وانه لا تقاوم نور الإسلام سخافاتهم المتبقية، ولكنهم يرفضون الانصياع للحقيقة، وبالتالي يخسرون ذواتهم الحقيقية عبر عدم انسجامهم مع مقتضيات الإيمان.

٢١: نعم، انه الظلم العظيم والصلف الرهيب أن يقف الإنسان أمام الحقيقة الكبرى، أمام الله العظيم المنعم المحيط، فيكذب عليه، أو يكذّب آياته البيّنات الواضحات رجاء الحصول على مكاسب رخيصة. والحقيقة، ان هذه المكاسب الضيّقة هي سبيل الضياع لا الفلاح ـ لو كانوا يشعرون ـ.

٢٢، ٢٣: وفي سياق توضيح الحقيقة للمشركين ينقلهم القرآن إلى يوم الحشر (الذي قررت الآيات السابقة انه الحقيقة التي لا تشكّ فيها الفطرة التي تشاهد الهدفية في هذا الكون) وهناك في ذلك الموقف الرهيب يطالب المشركون بالبحث عن شركائهم المزعومين، فلا يملكون من جواب على هذا الامتحان العصيب إلا إنكار الشرك ـ مقسمين على ذلك ـ فهم يعترفون بأنّهم كانوا يكذبون على أنفسهم وهي متيقنة بحقيقة التوحيد.

٢٤: وهكذا يتركهم القرآن يتخبّطون في موقفهم المخجل هذا وهم يتناقضون مع أنفسهم، ولا يجدون لهم نصيراً مما كانوا يفترونه من أوهام.

٢٥، ٢٦، ٢٧: واستمراراً في عمل القرآن على كشف الضعة النفسية للمشركين واظهار شخصيَّتهم الحقيقيّة في اسلوب جوابي بليغ وتحطيم مقاومتهم، يستعرض صفاتهم التي تتقزّز منها النفس البشريّة، فهم في الظاهر يستمعون للرسول ولكنّ عنادهم واصرارهم على الباطل أدّى لعدم نفاذ كلمة الحق إلى قلوبهم فهي في وعاء يحفظها من الوعي، بل إنّ كلمات الحقّ لا تتجاوز فتحة الاذن وكأنّ بها وقراً عن السماع! انهم معاندون ولذلك فالموقف من أي آية معروف من قبل، ولا منطق لهم إلا الجدال. وان الاتهام الموجّه للآيات الالهيّة بأنّها أساطير الأولين، يعدّ نموذجاً لما نشاهده في كلّ عصر من اتباع الجاهلية العمياء يكذبون ويتهمون بكلّ سهولة.

إنهم ينهون الآخرين عن الاقتراب من الحقيقة لئلا ينجذبوا إليها، كما يبتعدون هم بدورهم عنها تحسباً من أن ينفذ النور إلى قلوبهم المكنونة بالغي والعناد! إن هؤلاء بأعمالهم هذه إنما يلقون أنفسهم في مهاوي الضياع والهلاك دون ان يشعروا، ويبقى الحق والاسلام يجتذب إليه القلوب، ويفضح كلّ الأكاذيب ويبعثها حسرة في نفوس المشركين، حينما يقفون على النار يوم القيامة ليقولوا بكل ألم: ياليتنا نرجع إلى الدنيا وحينها سنكون مؤمنين مطيعين غير مكذبين بآيات ربنا، ولات حين رجوع!

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

٢٨: ولكن الآية الشريفة توضح انه لم يتغير شيء في الموقف سوى أنهم كانوا يخفون استيقان نفوسهم بالله في حياتهم الدنيا وهاهم اليوم يعلنون ذلك خوفاً، فإذا عادوا إلى حياتهم الدنيا عادت مطامعهم واستهواهم العناد وعادوا للعصيان، مما يوضح كذبهم في اعلانهم السابق بأنهم سيعودون مؤمنين.

٢٩: بعد عرض موقف المشركين من التوحيد يستعرض القرآن موقفهم من القيامة (بعد أن قرر من قبل أنهم يدركون بفطرتهم ان الهدفية في الكون تلازم وجود يوم البعث) فهم يعلنون أن الحياة هي هذه الدنيا لا غير، وان الموت فناء لا بعث بعده.

٣٠: ثمّ ينتقل بهم إلى يوم القيامة حيث لا يمكن التكذيب فيعرض سؤالاً إلهياً لهم: أليس هذا بالحق؟ فلا يملكون إلا الجواب بالايجاب (بلى) وبلى هذه هنا تعبّر عن نداء فطرتهم في حياتهم الدنيا بكلّ وضوح ولكنّهم كذّبوا هذا النداء وكذبوا على أنفسهم، فلا مناص من العذاب.

٣١: انه الخسران يذكّر به القرآن اليوم لئلا يبتلي به الإنسان في الغد، فالخاسرون حقاً هم المكذبون بلقاء الله (بالرغم من اتجاه الفطرة الواضح إلى الله) فإذا ما جاءهم يوم القيامة بدت الحسرة في نفوسهم على اضاعتهم وتفريطهم بالفرص الثمينة الموفّرة لهم، وعودتهم بالذنوب الثقيلة أوزاراً يحملونها أسوأ حمل.

٣٢: الحياة الدنيا في التصور الإسلامي إذا فقدت الهدف الاخروي وجعلت بنفسها هدفا عادت مجرد تسلية وقضاء وقت، وابتعاداً عن التعقل السليم. أما إذا اصطبغت بروح الآخرة فأنها تصبح جسراً للعلاء ومرقاة للتكامل. ومن هنا فان تعبير الحياة الدنيا قد يراد به الفرض الأول فيزهد الإنسان فيه ويوجّه اهتمامه للحياة الأخرى باعتبارها خيرا للمتقين، ولا يعني هذا التوجيه الانعزال، بل بالعكس يعني الانخراط في الجمهور الاجتماعي التكاملي المحقق للسعادة الاخروية.

٣٣، ٣٤: من خلال متابعة القرآن للمسيرة الإسلامية وتسديده لخطواتها، يعمل على تقوية فؤاد النبي وتطييب خاطره بعد أن يواجه بهذا التكذيب العارم، فيخبره بأنهم في الحقيقة لا يكذبون الرسول بشخصه وإنما يتبع موقفهم حالة عنادهم للآيات الالهيّة التي حملها إليهم فهم يقفون في قبال الله دائماً، ولذا فقد كذّب خطهم وموكبهم الموغل في القدم موكب الحقّ والأنبياء دائماً، والموقف الايجابي هو الصبر في قبال الكذب والأذى.. هذه هي سنّة الصراع بين الحق والباطل والتي تنتهي دائماً بانتصار الحق لأنّ الله هو واهب النصر لا غير، ولا تبدّل سنّة الله وكلماته أنبأت عنها قصص المرسلين.

٣٥: لقد قست قلوب المعاندين فلا تنفعهم الآيات مطلقاً، ولذا فإن القرآن يؤكد انه مهما عمل الرسول لهدايتهم (حتى ولو اخترق الأرض أو السماء كناية عن القيام بأشقّ الأعمال) فانهم لن يهتدوا باختيارهم وان كان الله تعالى يستطيع اجبارهم عليه ولكنه شاء للبشر أن يؤمنوا باختيارهم.

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

٣٦: إنّ الإنسان الحيّ هو الّذي استيقظت لديه الخصائص الفطريّة وفي طليعتها الاتجاه إلى الحقيقة والاستجابة لندائها. أما أولئك الذين ضعفت لديهم الخصائص الانسانيّة فهم موتى واقعاً وأحياء ظاهراً. ومن هنا يذكّر القرآن بهذه الحقيقة فلا داعي للتألّم لإعراض الموتى، وإنما يتُرك هؤلاء ليبعثوا بعد الموت ويجزوا بما كانوا عملوه.

٣٧: جرت سنّة الله تعالى في خلقه إنه إذا نزلت آية حسيّة خارقة وكذّب بها من طلبوها نزل بعدها العذاب لا محالة، وحينئذ نفهم مضمون هذه الآية حيث تخبرنا بأنهم اقترحوا آية حسيّة غير القرآن متحدّين بها القدرة الإلهيّة ومصرّين على عنادهم، الأمر الذي يؤدّي بهم للهلاك. ومن هنا يؤكّد القرآن على قدرة الله في إنزال هذه الآية الحسيّة ولكنّه ينعى عليهم جهلهم بالعواقب المترتّبة على ذلك، ويدفع الرساليين للمضيّ في دعواتهم دون الركون إلى اقتراحات المعاندين والاكتراث بآرائهم الناقصة.

٣٨: تضمُّ المسيرة الكونيّة أمما حيّة أخرى من الحيوانات تعيش إلى جانب الإنسان وكل منها تؤدّي دوراً مقصوداً وتحكمها سنن كونيّة رائعة «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» تنطلق من بداية وتنتهي محشورة إلى ربّها ليظهر فيها أمره. وهذه الآية الكريمة تبعث العقول والنفوس لاستجلاء مجالات العظمة الالهيّة في عالم الحيوان وهي مما يملأ النفس طمأنينة بالحكمة الالهيّة والهدف الكوني الرائع، وربّما كان التأمّل في حياة نملة يقود الآلاف نحو الإيمان.

٣٩: الكون كله مجالات نيّرة لتجلّي الهدف الإلهي. أمّا الكافرون فهم لا يسمعون الحقّ، ولا ينطقون به، بل يعيشون في عالمهم المظلم الذي اختاره لأنفسهم، فحقّت عليهم المشيئة الألهيّة بالضلال، إلا أن يرجعوا، أو يتهيّأوا فتشملهم رحمة الله.

٤٠: تُرى لو أنّ عذاب الله تعالى انصبّ على هؤلاء المكذّبين أو أتتهم ساعة الحساب فمن ذا يجيرهم منه تعالى؟ هذا السؤال التقريري يوجّه إليهم لتجيب فطرهم بعد استيقاضها أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فكلّ ما دونه محكوم ضعيف. ومن هنا تتوجّه فطرة الإنسان ـ مهما كان ـ في حالات الشدّة إلى الموجود المطلق القادر لينقذها مما هي فيه من الهول العظيم.

٤١: نعم، عند الهول العظيم تتوجّه الفطرة إلى خالقها متجاوزة كلّ الشوائب والأوهام وآلهة الهوى والزيف بكلّ مظاهرها، وحينئذ تشملها الرحمة الإلهيّة الفيّاضة بمجرّد استعداد النفوس للفيض العميم. وهكذا يبقى رصيد الفطرة عاملاً قويّاً يسيّر الإنسان إلى الهدى، ويشجّع الرساليين العاملين، ويبعث فيهم أعظم الآمال لتقرير حاكمية الله في المجتمع.

٤٢: هذه هي سنّة الله: أن يمتحن الأمم المطبّقة لرسالته بالحالات المتنوّعة ـ حالات المسرّة وحالات الصعوبات ـ ليبلوهم ويصوغهم أمماً رساليّة تستوي على الخطّ، لا يرخيها بطر ولا يمزّقها ضرّ أو خطر، يشدّها إلى الله تضرّعها إليه ولجوؤها دائماً لعطائه. ولعل الآية تشير الى الأمم المكذبة لأنبيائها فيصيبها الله بالبأساء والضراء لترجع الى الحق.

٤٣، ٤٤: وعند البلاء يكون التضرّع هو سبيل الخلاص، وبدون التضرّع فالقسوة القلبيّة المتحجّرة سبيل الانحراف والانخراط في سلك الفتنة الشيطانيّة ونسيان الحياة الانسانيّة الحقّة. وعند الرخاء يمتحن الإنسان أيضاً، فإذا أصابه البطر والفرح ابتُلي بانهيار الحضارات والتيه المحيّر.

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)

٤٥: وعندما تقسو القلوب، ويتّبع منهج الشيطان، ويستولي الغرور على الأمم المنحرفة، تنصبُّ عليها لعنة الله فتستأصل شأفتها، ولا تبقي لهم باقية، رحمة بالأرض والمسيرة الانسانيّة الصاعدة. وهذه السُّنّة الالهيّة تدفع المؤمنين للعمل المتواصل لاستئصال الظلم والشرك وكلِّ أنواع التمرُّد على حكم الله تعالى.

٤٦: يواجه القرآن فطرة هؤلاء المكذّبين المشركين بالتساؤل عمّا لو سلبهم سمعهم وأبصارهم، وأعمى قلوبهم فمن القادر على ارجاع ذلك إليهم مما دون الله من القوى الضعيفة المحتاجة إليه تعالى؟ وهكذا ينوّع القرآن الآيات والدلائل لتقريرها في النفوس، ولكنهم نتيجة عنادهم يعرضون عن الحق.

٤٧: فالظالمون متعرِّضون لعذاب الله بغتة وفجأة أو بعد ظهور علائم هذا العذاب (جهرة). فعليهم أن يحسبوا حسابهم ويتخلّصوا من الموقف بالرجوع إلى وعيهم والتفكر في أمرهم.

٤٨، ٤٩: فالأنبياء يثيرون دفائن العقول، ويهدون الفطر إلى الله من خلال البشائر التي يطرحونها، والانذار بالعذاب الأليم، ويبقى الخيار أمام البشر أن يؤمن ويصلح، فيخلص من الخوف من المستقبل، والحزن على الماضي، ويسير بخطى وئيدة نحو الأهداف العليا. أما المكذّبون الضالّون فلهم مسُّ العذاب والضياع الحضاري نتيجة فسقهم وخروجهم عن الخط الإنساني الصحيح.

٥٠: يطلب القرآن من النبي أن يعرض الحقيقة لكيلا تنطرح بعض الأفكار السابقة التي تصعد بالنبي عن المستوى الانساني وتحوّله إلى موجود خارق، مما يفتح مجال التطرُّف والغلوّ من جهة، كما يفتح باب الالحاح في طلب الخوارق من المعاندين، من جهة أخرى. ولذلك فإنه يطلب من النبي أن يعلن انه لا يملك خزائن الله (وإنما عليهم أن يبحثوا عنها بعلم وعمل) وانه لا يعلم الغيب المخصوص به تعالى، وانه ليس بمَلَك يستغني عن الحاجات الإنسانية. وإنما الذي يختلف فيه عن البشر هو أنه انسان طاهر يوحي إليه ويستنير بنور الله، ومن الطبيعي أن تستنير به البشريّة بعد ذلك فلا يستوي مسير العمي الذين لا يلجأون إلى الوحي، ومسير المبصرين المستنيرين.

٥١: ان الوحي إنّما يؤثّر في قلوب أولئك الذين خشعت قلوبهم للحقّ وخافوا العذاب الإلهي يوم الحشر، يوم لا ينفع ولي ولا شفيع، مما يدفعهم للتقوى والطاعة.

٥٢: إنَّ المعيار الاسلاميَّ في التفاضل هو معيار العبادة والدعاء في الصباح والمساء، والاخلاص لله تعالى، وصاحبها أولى بتفهُّم الرسالة والعمل بها. ومن هنا فيجب أن لا يستمع الرسول إلى طلب الكبراء منه بأن يطرد المؤمنين لفقرهم بالرغم من ان حسابهم على أنفسهم، فطردُ هؤلاء المؤمنين إنما يعني الظلم المنهيّ عنه بعينه.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

٥٣: ان تفاوت الناس في الفقر والغنى ليس إلا امتحاناً وفتنةً، ومن ذلك الامتحان أن يتجرّأ أحد فيسخر من الآخرين ويستهين بهم ويتساءل عن امكان أن يمنّ الله بالقرب على من يتصور انه أدون منه، إلا أنّ القرآن يواجه هذا المنطق بأن المعيار هو الشكر والتقوى والعمل لله دونما أيّ دخل للاعتبارات المالية والنسبية وغيرها.

٥٤: ان المؤمنين بآيات الله يشملهم السلام الإلهي وينعمون بالرحمة الالهيّة التي كتبها الله على نفسه فلا تنفك عنه. ومن آثار تلك الرحمة التوبة التي يمنّ بها على من عمل من عباده سوءاً، نتيجة جهل لاعناد، ثم عاد إلى ربّه عوداً حقيقياً، وعمل صالحاً تلافى ما أورده من نقص.

٥٥: وهكذا تأتي آيات الله المفصّلات لتوضح المسيرة بكاملها، فتتوضّح سبيل الحقّ عن سبيل المجرمين المنحرفين، ولا تبقى شبهة في مسيرة العاملين لإعلاء كلمة الله.

٥٦: الملاحظ في الآيات السابقة واللاحقة هو تأكيد الفصل الكامل بين خطّي الحقّ والباطل، وسبيل الله والانحراف، ومنهج صياغة الحياة وفق هدى الله في قبال منهج الأهواء، وبالأصنام الوهميّة. فيأتي هذا التأكيد القرآني للرسول أن يعلن تبرّؤه من عبادة ما سوى الله من الموجودات الضعيفة المخلوقة له تعالى، ثم يعلن رفضه للأهواء والنوازع الوهميّة لأنها تلقي في الضلال والظلام وتُبعد عن الهدى والنور.

٥٧، ٥٨: إنّ أهل الإيمان يملكون أعظم الهدى في طريقهم وأقوى اليقين بحقّانيتهم، وليس المهمّ أن يصدّق بهم الآخرون أو يكذّبوا. أما إذا اقترح المكذّبون العذاب فان جوابهم الواضح هو: «لو أنّ عندي ما تستعجلونَ به» وان الأمر موكول إلى الله تعالى فهو الذي يفصل بين الحقّ والباطل، ولو أن الأمر كان بيد الرسول لقضى بينه وبينهم ولاقى الظالمون مصيرهم ولكنه ـ كما مرّ ـ بيد الله وهو الذي يقرر المصير.

٥٩: ان العلم الإلهي المطلق يشمل كلّ شيء في الكون، فمفاتيح الغيب كلها بيده تعالى والكون كله حاضر عنده، ولا يعزب عن علمه شيء سواء أكان في البرّ أم البحر أم الفضاء، وكلّ صغيرة وكبيرة مشمولة بهذا العلم الواسع. وفي الآية جوانب اعجاز ضخمة لا يحيط بها عقل إنسان.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

٦٠: إنّ العناية الإلهيّة تشمل حياة الإنسان آناً بعد آن، فهو تعالى يلطف بالانسان فيتوفّاه في منامه (ولهذا أثر كبير على حياة الإنسان) ثمّ يعيد إليه الحياة الكاملة بعد النوم ليقوم بنشاطه الحياتيّ اليوميّ (ما تقوم به الجوارح) وهكذا حتى يصل إلى أجله المقضيّ له فيرجع إلى ربّه لينبّئه بما عمل في حياته. وهكذا يجب أن يشعر الإنسان دائماً بعين الله ترعاه وترقبه كما يشعر بالحساب الإلهيّ غداً فليتزم الطريق الأقوم ويبتعد عن طريق العناد والإجرام.

٦١: استمراراً للمفهوم السابق تركّز هذه الآية الحقائق الثلاث التالية: القدرة الالهيّة القاهرة، والعناية واللّطف بالانسانيّة، وضرورة استحضار حقيقة الموت دائماً. فإذا تركّزت في خَلَد الإنسان لم يعد يفكّر في الانحراف والاجرام والابتعاد عن طريق الهدى والنور، وهذا المنهج التربوي ترك أعظم الآثار في المسيرة الفرديّة والاجتماعيّة، في حين يفتقد ذلك أي منهج تربوي وضعي.

٦٢: وعندما يحسُّ الإنسان المسلم بمصيره الواضح حيث تتوفّاه رسل الله دونما إفراط أو تعذر وتعيده إلى الله مولاه الحقيقي، وحيث تتجلّى بكلّ وضوح حاكميّة الله المطلقة وهو أسرع الحاسبين، نعم، عندما يتركز هذا المعنى فانّ المعاد يؤدّي دوره التربويّ الكبير في الحياة والحضارة.

٦٣، ٦٤: يعود القرآن إلى استثارة الفطرة من جديد ويذكّرهم بموقف حسّي حقيقي، إذ يتّجه الإنسان ـ حينما يعاني مشكلة كبرى ـ إلى القدرة الإلهيّة القاهرة التي تستطيع انقاذه إلى ساحل الأمان، وحينئذ فإنه ينسى كلّ تكبره ويلجأ إلى شكر الله على هذه النعمة العظمى. فهو وحده الذي ينجيه من هذه المصيبة ومن كلّ مصيبة. ثمّ إذا حصل الإنسان على الأمان نسي حالته الفطريّة المتيقّظة، ونسي وعوده وعاد متكبّراً طاغياً بعد ان استغنى في الظاهر.

٦٥: إنّ الشرك بالله يقود الأمم إلى الانهيار الحضاري ويؤهلها للعذاب الإلهي المنصبّ عليها من الأعلى ومن الأسفل، ويبتليها بالتفرّق والتحزّب الاعمى، واعتداء القوي على الضعيف، وهكذا فإنّ التاريخ كلّه آيات على هذه السنّة الإلهيّة، إلاّ أنّ البشريّة مازالت لا تفقهها جيّداً ولا تعتبر بها الاعتبار المناسب.

٦٦: إنّ الحقّ أحقّ أن يتّبع، إلاّ أنّ هؤلاء القوم كذبوا به وحينئذ فهم المسؤولون عن انحرافهم، وليس النبي عليهم وكيلاً.

٦٧: وهكذا توضّحت المسيرتان: مسيرة الحقّ المنتصر، ومسيرة الشرك المنخذل، فيجب انتخاب السبيل الأقوم.

٦٨: إنّ الخطّ المؤمن منهيّ عن مجالسة أهل الباطل ومعايشتهم، وهم يخوضون في حديث التكذيب بآيات الله ويعيشون عيشة الانحراف، فيجب الاعراض عنهم حتى يتخلّصوا من حالتهم هذه ويدخلوا في مسيرة طبيعيّة، فإذا ما نسي المؤمن هذا الأمر الالهيّ بفعل الشيطان، فإنّ عليه أن يتذكّر ويصحّح موقفه ويبتعد عن مسيرة الظالمين.

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

٦٩:فإذا تجنَّب المتقون مشاركة الظالمين خوضهم في آيات الله، وقاموا بواجبهم في تذكيرهم بما هم عليه من العصيان، فإنه لن يصيبهم شيء من التبعات التي يحاسب الظالمون عليها، وإنما يأتي التذكير ليرجع المنحرفون إلى صوابهم، ويزداد المتقون تقوىً إلى تقواهم.

٧٠: انه الرفض الكامل لخطِّ الظلم والانحراف والخوض في آيات الله، الخطَّ الذي لا يعبأ بدينه وتعاليمه الحياتية وتطبيقها إلا ليشبع نزوة أو يلهو به (وما الدين إلا طريق التكامل والعلاء لا طريق اللهو واللعب). إلاّ أن هذا الرفض التام ينسجم مع محاولة التأثير الايجابي في هذا الخط من قبل المؤمنين عبر التذكير بالعواقب الوخيمة حيث (تبسل) أي ترتهن النفس وتعاقَب بما قدمت من عمل، فهي لا تملك يوم الجزاء ولياً حامياً، ولا شفيعاً مدافعاً، ولا تستطيع أن تفتدي موقفها بأيّ فداء مهما كان، وإنّما هو العذاب الأليم المتمثّل في شراب من حميم (شديد الحرارة) وعذاب أليم.

٧١: المؤمن واعٍ تمام الوعي لمنطلقه وهدفه ومسيرته نحو الهدف. أما الكافرون فهم غارقون في الضلال والوهم. ومن هنا يقف المؤمن أمام خطِّ الضلال معلناً رفضه لما سوى الله من المطلقات الوهميّة التي لا تستطيع جلب نفع أو إلحاق ضرر (فلا تسدُّ خوفاً أو رجاء)، ومؤكّداً ثباته على خطِّ الصعود نحو الكمال المطلق وتجنُّبه الوقوع في الرجعيّة الحقيقيّة (أي التراجع عن المسيرة الفطريّة الصاعدة) والارتكاس في الحيرة الكاملة نظير من تجاذبته الأهواء الأرضيّة الباطلة فعاد لا يدري أيستجيب لإغراءاتها الزائفة أم يتّبع نداء الحقّ الذي يطلقه أصحابه وزملاء مسيرته الفطريّة الصاعدة، وهم يدعونه لمواصلة السير الانساني المتكامل.. لكنّه يبقى قلقاً حائراً.

إنّ هداية الله هي الهداية الحقيقية لأنه ـ تعالى ـ العليم بواقع الإنسان وظروفه وما يصلحه، واللطيف الهادي إلى ذلك، والقادر على تحقيق ما يسعد به. ومن هنا فإن تصور هذه الحقائق يدفع الإنسان المؤمن لتسليم أمره وحياته ومسيرته وتشريعاته كلّها لله، وتقديم الطاعةالكاملة لربّ العوالم جميعاً، انسجاماً مع مسيرة الكون كلّه.

٧٢: فطريق السعادة الحقيقيّة يتمُّ من خلال إقامة الصلاة كتعبير عن الارتباط بالخالق العظيم، وتقوى الله في كلِّ الأمور، فهو تعالى المحاسب للخلق يوم يحشرون إليه.

٧٣: وهو تعالى خالق الكون بالحقّ وإليه يرجع الكون بالحقّ، وقوله يوم القيامة هو الحقُّ، حيث تبدو المالكيّة الحقيقيّة له عياناً يوم الحشر يوم ينفخ بالصور. وهكذا تستمر الآية في عرضها للعلم والحكمة والخبرة الإلهيّة لتؤكّد عنصري التسليم والتقوى في النفس الانسانيّة.

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

٧٤: يمثّل سيدنا إبراهيم (ع) ـ كما يبدو من مواضع متفرقة من القرآن الكريم ـ الإنسان النموذجيّ الخالص في فطرته، والنافذ في بصيرته، والمنسجم في سلوكه مع وعيه تمام الانسجام، والمتفاني في تحقيق ما تمّت له معرفته. ومن هنا فهو يمثّل النموذج الانسانيّ المسلم عبر التاريخ، ذلك النموذج الذي يستطيع أن يترك تأثيره الحضاريّ الاتمّ، ويتوفق على كل المشاكل التي تعترض المسيرة الانسانيّة، وها هو هنا يقف في مواجهة أبيه آزر (وهو غير والده الحقيقي كما يبدو من التحقيق في الآيات والروايات لأنّه تبرّأ منه بعد أن يئس من هدايته في حين بقي يدعو لوالديه بالمغفرة إلى نهاية حياته) ويعترض عليه في اتخاذه أجساماً معدنيّة وغيرها باعتبارها أصناماً ورموزاً تمثّل ظواهر طبيعيّة معيّنة، والقيام بعبادتها وتقديم الطاعة لها بوصفها شريكة لله تعالى في تدبير أُمور الكون. وإنّ التذكير نفسه بحقيقتها يسوق الذهن إلى أنّ هذا العمل ضلال مبين.

٧٥: وفي سياق حوار إبراهيم الفطري مع قومه يسرح بفكره في الكون من حيث انتسابه إلى الله تعالى (أي في الملكوت) ساعياً بكل موضوعية للوصول إلى اليقين بالله العظيم، نافياً لكل المطلقات الوهمية.

٧٦، ٧٧: وإذ يظلله الليل يرى كوكباً درياً لامعاً فيفترضه تقليداً وتبعاً لعبدة الكواكب أنه رب ثم يكر عليه بالرفض لأنه أفل وغرب وطرأت عليه حالة الاحتجاب مما أفقده أهلية تعلق القلوب به وحبه، ذلك أنه لا يملك الكمال المطلق الذي تسعى إليه الفطرة، وكرر الأمر مع القمر ـ وله من يعبده ـ وعندما يأفل بدوره يتوجه إلى الربّ الحقيقي طالباً منه الهداية لأن الهداية فيض إلهي يتوجه للمحل المستعد له وإلاّ كان العبد من الضالّين التائهين.

٧٨: وبعد التدرج يأتي دور الشمس ويتوقع المشاهد لهذا الاستعراض النتيجة نفسها بالرغم من كبر الشمس، ولكنه تأفل ويتكرر الموقف الرافض ويبدأ طريق العودة الحقيقية إلى الكمال المطلق وحده بعد نفي كل عناصر الشرك الوهمية.

٧٩: وتتوجّه النفس بكلّ نقائها إلى فاطر السماوات والأرض ومبدعها، وتؤمن به إيماناً (حنيفاً) خالصاً من كلّ لوثة مشركة.

٨٠: وهنا تثور في حسّ قومه ما استقر فيها من خرافات ليهددوه بغضب الآلهة الذي سينصب عليه انتقاماً، فيردّ عليهم ـ بعد تلك المسيرة الفطرية التي سلكها إلى الله ـ بأنه يعجب من محاجّتهم ومجادلتهم في الله، وقد أشرقت أنوار الهداية الإلهيّة في قلبه فعاد يبصره بكلّ بصيرته ويطمئن إلى قدرته وجبروته، وبالتالي فهو لا يخشى كل تلك الأوهام، ذلك إنه لن يحدث شيء في الكون إلا بإرادة الله الكامل المطلق وبعلمه الواسع لكلّ شيء، وهو أمر يقود إليه الرجوع إلى النفس والتأمل والتذكر لما تقتضيه.

٨١: إنّه ليعجب من تخويفهم له وتذكيرهم بنقمة الآلهة وهي أوهام، في حين لا يخافون نقمة الله الجبار العظيم (وكانوا يؤمنون به ويشركون به) لأنّهم أشركوا به وجودات لم ينزل من الله برهان على وجودها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ۝

٨٢: بعد أن ردَّ إبراهيم على قومه الذين حذّروه من سخط الآلهة الوهميّة بأنَّ الأمر على العكس من ذلك، فإنَّ الوجود الحقيقيّ الذي يجب أن يخافه المشركون هو الله تعالى، أمّا المؤمنون فهم في ظلّه آمنون، بعد ذلك تأتي هذه الآية الكريمة لتبيّن أن المؤمن ـ حقاً ـ بالله ربّاً لهذا الكون، والذي لا يخلط (يلبس) ايمانه بانحراف عقائدي ـ وهو أعلى أنماط الظلم ـ هو الإنسان الآمن حقاً، والسائر بكلّ أمان في طريق الهداية الفطريّة.

٨٣: لقد امتلك إبراهيم(ع) بصفائه الفطريّ الحجّة البالغة على من جادلهم وحاورهم، وما كان يستطيع ذلك إلا بلطف ومدد إلهي له، والله تعالى يمنح من يشاء الدرجات والمستويات النفسيّة المختلفة وعلى أساس من حكمته وعلمه.

٨٤، ٨٥، ٨٦: في هذا المقطع الشريف ينطلق القرآن من اللطف الإلهي على إبراهيم إذ وهبه ولده اسحاق ثم حفيده يعقوب ليصل إلى حقيقة مهمة من حقائق التصوّر الإسلامي وهي: (وحدة الهداية الإلهية) (ووحدة التشريع الإسلامي) ذلك لأن الهداية من منبع واحد وللخلق متّحد في نوعه وفطرته، فلا غرو أن تكون واحدة في روحها، تشمل كلّ الأنبياء، وهم يحظون بهذا الشرف نتيجة قابليتهم للوحي ورقيهم المعنوي وصلاحهم (وكذلك نجزي المحسنين) الأمر الذي يفضّلهم على العالمين بدرجة الوحي والنبوة، ثم هم يصبحون بعد ذلك نماذج عليا تقود البشرية بالهداية نفسها إلى حيث الكمال المطلوب.

٨٧، ٨٨: وهكذا يمتدّ ضوء الهدى الإلهي ليشمل كلّ نفس تستحقه وتتقبّله ويهديها إلى صراط مستقيم واحد أمام جميع المسيرة البشريّة الصاعدة والعابدة له تعالى، ولن تعترض مسيرتها مشكلة أقوى من الشرك والتصعيد النفسي للأوهام بجعلها آلهة مطلقة، الأمر الذي يوجّه ضربة لتلك المسيرة الحضاريّة، وبالتالي يؤدّي الشرك إلى ضياع الأعمال (حبطها) وانهيار المكتسبات.

٨٩: لقد امتاز خطُّ الأنبياء بالهدى العظيم، إذ مُنحوا الكتب السماويّة المقدّسة التي تحوي الشرائع والنظم التي هي سر سعادة البشرية، وأعطوا الحكم بما يفتح لهم سبيل القضاء العادل بين الناس، وبالتالي فقد اتصفوا بصفة النبوة وتعني الإنباء عن عالم الغيب، فهم حلقة الوصل بين عالمَي الغيب والشهادة.

بعد أن استعرض القرآن خطَّ الأنبياء بما فيه من فطريّة وايمان وأمن واحسان وصلاح وتفضيل بالكتاب والحكم والنبوة، عاد ليعنّف كفّار مكة والمشركين بأنهم إذا اختاروا طريق الضلال فهم الخاسرون، لأن الفلاح كلّه في خط الأنبياء والمعصومين والصالحين عبر التاريخ.

٩٠: في خطّ الأنبياء والصالحين يتجلّى الهدى الإلهي الواحد دائماً، ولذلك فالاقتداء الحقيقي إنّما يتم بذلك الهدى لا غير.

وهذا التعبير هو منطق الأنبياء والمصلحين الإلهيين جميعاً، فهم لا يعملون ولا يدعون الناس إلى الله لقاء أجر دنيوي، وإنّما هو يوصلون الهدى للعالمين ليسيروا إلى هدفهم المنشود.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

٩١: بعد الردّ على مشركي مكّة وتعنيفهم لعدم اتباعهم طريق الأنبياء يتّجه القرآن إلى أهل الكتاب وهم الطائفة الأخرى التي وقفت بوجه الدعوة الإسلامية، فيصفهم بأنّهم أناس لم يعطوا المقام الإلهي حقّه من الربوبية وهداية الناس جميعاً نحو أهدافهم العليا. فقد ادعوا ـ عناداً ـ انه تعالى لم ينزل على بشر شيئاً من الوحي! هذا، وهم يدّعون الانتساب إلى الكتاب والأنبياء الذين جاءوا به.

ولذا فإنّ القرآن يردُّ عليهم بالتساؤل عمّن أنزل الكتاب على موسى بما فيه من نور وهدىً للناس، وبما يحمله من تشريعات إلهيّة هي أكبر من عقول البشر وتصوُّراتهم، لأنها تعلو على كلّ النوازع الإنسانية. إلاّ أن اليهود راحوا ينهلون من تلك العلوم ثم هم يخفون كثيراً منها لعنادهم، ويُظهرون الأمر تبعاً لما تقتضيه مصالحهم الضيّقة ان الجواب الطبيعي عن هذا التساؤل القرآني هو أن الله تعالى هو منبع الهدى ومنزل الكتاب على البشر، فإذا شاء هؤلاء أن يخوضوا في الضلال فهم وشأنهم.

٩٢: وعلى غرار الكتاب الإلهي المنزل على موسى جاء هذا الكتاب الكريم (القرآن) وهو يحمل كلّ علائم صدقه. فهو مبارك يحوي البركات والنعم الإلهيّة التي ترسم للبشرية سبل علائها. وهو مصدّق ومنسجم مع الهداية التي حملتها الكتب السماوية الأخرى، فهو إذن مصداق آخر من مصاديق الهداية الإلهيّة يحمل معه كل معاني البركة.

المراد بأم القرى: مكّة، فهي مركز الانذار الإلهي، ومنها ينطلق النور إلى ما حولها من أرجاء العالم.

ومن الطبيعي أن ينتهي كلّ مؤمن بالمسيرة الانسانيّة الهادفة والسائرة إلى يوم الآخرة إلى الإيمان بالقرآن الكريم نتيجة ما يحمله من خصائص الهدى، ومن ثمّ ينطلق للتسليم المطلق لله، وإقامة الصلاة، والتمتّع بعطائها الدائم ومخزونها الروحي الذي لا ينضب، عبر المحافظة عليها.

٩٣: والقرآن بهذا يرجعهم إلى أنفسهم ليتصوروا أن أعظم الظلم هو الكذب على الله ونسبة الشريك إليه أو ادعاء الوحي كذباً أو ادعاء القدرة على مجاراة الله في كتابه، وكلّها من أعظم أنماط الظلم. فإذا رجعوا إلى الحقيقة اذعنوا بالتوحيد الالهي في الربوبيّة، وانقادت نفوسهم لتصديق الرسول الصادق الأمين، وامتنعوا عن الادعاءات الباطلة بمعارضة القرآن بما يظنّون أنه يضاهيه.

مشهد رهيب يصارع فيه الظالمون غمرات الموت (أمواجه الغامرة) والملائكة تبسط أيديها منذرة بالعذاب، طالبةمنهم أن ينقذوا انفسهم لو كانوا يستطيعون، مهدّدة اياهم بعذاب الهون (الخزي) نتيجة تقوّلهم على الله واستكبارهم عن آياته.

٩٤: فها هم يعودون إلى ربّهم لوحدهم ودونما قوة وشوكة، تاركين كلّ ما خوّلهم وفوّضهم من نعم وقوى وراء ظهورهم، لا شفيع لهم فيركنون إليه ليأمنوا من العذاب، ولا أكاذيب تنفعهم، كلا فالعلائق متقطّعة، والمزاعم باطلة لا قيمة لها، وهناك الهول العظيم، وبهذا الترهيب تعود النفس إلى واقعها، وترجع إلى وعيها، وربّما كان في هذه العودة النهوض من نومة الغفلة.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

٩٥: وعندما ترجع النفس إلى وعيها تتوجّه إلى مظاهر الخلقة وتكتشف من جديد جوانب العظمة في هذا الكون الرائع. ويتجلّى أول ما يتجلّى لديها هذا الاعجاز الطبيعي، حيث ينفلق الحبُّ والنوى (جمع نواة) وهي مواد جامدة لا تبدو فيها حياة. فتنبثق منها الحياة. هذا السر الإلهي الخالد. وتسير الحياة في تقلّبها لتتحوّل مرة أخرى إلى موت ظاهري لتمهّد لحياة أخرى هي حلقة في سلسلة السير الطبيعي نحو الكمال. كل هذه العظمة تشير إلى فالق الحبِّ والنوى الخالق العظيم فلا يبقى أي مجال للإفك والانصراف عن الحق.

٩٦، ٩٧: مظهر آخر من مظاهر العظمة الإلهيّة يتجلّى في هذا التحول الطبيعي من ظلام الليل إلى نور الصباح الذي يفلق ويشق الظلام لتتحرك الأنسانية في مسيرة الأعمار، ثم يأتي الليل بكل سكونه وهدوئه لتسكن النفوس وعند الصباح تكون مستعدة للعمل والبناء بشتى انواعه كل ذلك نتيجة حركة كونية عظيمة الابعاد، متناسقة، تشمل حركة الأرض، وموقع الشمس، وحركة القمر، ومواقع النجوم الثابتة التي يهتدي بها السائرون براً وبحراً. وكل ذلك منسجم أيضا مع ظاهرة الحياة الإنسانية، الأمر الذي يؤدي بالمتأمل إلى تصور الهدف الكبير لخلقة الله العزيز القوي العليم بالواقع، فلا مجال مطلقا لفرض ما يسمى بالمصادفة العمياء.

٩٨: مظهر رائع آخر من مظاهر العظمة الإلهية يتجلى في الخلقة الإنسانية الواحدة، إذ تبدأ من منشأ واحد، ونفس واحدة، ثمّ تسري في مسارها الحضاري، فجيل مستقر في الحياة يقوم بواجبه الإعماري، وجيل مستودع في الأصلاب ينتظر دوره. وهكذا ترقب العناية الإلهية هذا المخلوق الانساني المعدّ لهدف عظيم. أن المتأمل في هذا المظهر والتفقه في معانيه ليجلي أمام المتأمل آيات رائعة من العظمة كلّ حين، وتنبثق منها مفاهيم إسلامية أخرى كمفاهيم الوحدة على صعيد الإنسانية، حيث ينتفي كلّ تمايز عنصري، وتعال طبقي، ويتوجّه الجميع لله، لتحقيق الأهداف العليا.

٩٩: وهنا يتم نقل التأمّل الانساني إلى نعمة الماء منبع الحياة وحامل الرحمة إلى الوجود. إذ ينزله الله من السماء فيروي به الأرض ويحييها، فيخرج منها نبات كلّ شيء، وغذاء الموجودات يسري فيه اخضرار الحياة، ويخرج منه الحبُّ المتراكب (كالسنابل)، والنخل المعطاء حيث طلعها وهو أول ما يظهر من الزهر المؤدّي للثمر، وحيث قنوانها (أي أعذاقها المحمّلة بالثمر) الدانية المتدلّية، والجنّات الأخرى من الأعناب والزيتون والرمّان المشتبه منه (وهو المتساوي في الصفات حتى ليشتبه الرائي فيه) وغير المتشابه بما يميّز أنواعه من صفات.

هذا هو عطاء الله تعالى فلينظر الإنسان إلى رحمته حين تتجلّى في الثمر، وحين تتجلّى في نضجه وتهيئته للأكل، وبالتالي لضمان استمرار الحياة الإنسانية.. وهكذا يسير القرآن بالنفوس إلى الإيمان من خلال هذه الآيات الرائعة.

١٠٠: وعندما يشرق الإيمان عبر السير القرآني السابق يذكّر القرآن بفرية المشركين الذين جعلوا لله من خلقه شركاء، وهم الجن، والله تعالى هو خالق الجميع. إلا أنّ المشركين المخلوقين يعودون فيخرقون (ويختلقون) له أبناء وشركاء، كلّ ذلك دونما علم ولا دليل سوى الظن والهوى والاختلاق. فسبحان الله تنزيهاً عن الشريك وعلواً عن هذه الصفات.

١٠١: إنه تعالى خالق الكون ومبدعه فلا حاجة له إلى ولد، ومحال أن يتصوّر في حقّه ذلك، وهو الوجود المطلق، فلا معنى لتصوّر امتلاكه الصاحبة (الزوجة) والولد وما إلى ذلك. فكلّها من تصوّرات المخلوقين والله تعالى خالق كلّ شيء وهو العليم بكلّ شيء. وهكذا نجد القرآن العظيم يسير بالنفس إلى الإيمان الفطري الأصيل، ثمّ ينفي عن التصوّرات كلّ انحرافات المشركين.

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

١٠٢: بعد نفي الأوهام وتقرير الوحدانيّة والربوبيّة والخالقيّة الإلهيّة لما سواه، يعود من الطبيعي الطلب من الخلق أن يعبدوه ويصوغوا حياتهم وفق هداه ويطبّقوا شرائعه، خصوصاً وإنه تعالى أراد ذلك من الخلق وهو الوكيل عليهم، يمدُّهم بالوجود ويراقب أعمالهم.

١٠٣: نفي لتوهُّم إمكان رؤية الله ـ تعالى عمّا يصفون ـ فإنَّ القول بإمكانها يستلزم بلا ريب الجسمية والاحتياج للمكان، وبالتالي يستلزم نفي الألوهيَّة المطلقة وهي الحقيقة التي لن تستريح النفوس إلاّ بالوصول إليها وتنزيهها عن كلِّ حاجة أو قيد بمقتضى العقل، إنه تعالى فوق الإدراك البشري، وهو العليم بكلِّ مدى يدركه البصر وبكلِّ خفاياه ونواياه، إنه اللطيف من جهة فلا يصل إليه أيُّ بصر وهو الخبير من جهة أخرى فلا تعزب عن علمه مثقال ذرّة.

١٠٤: إنّها الهداية التشريعيّة الإلهيّة التي تضيف إلى بصيرة الإنسان التكوينيّة بصائر ومنافذ جديدة ضخمة يعرف من خلالها مسيرة السعادة والحق، دون أن يجبر على اختيار هذه الطريق، لأنَّ التكامل الانساني رهين الاختيار الحر لطريق السعادة. فإذا أبصر الحقَّ واتّبعه عاد ذلك على وجوده بالخير، ومن عمي عنه عناداً عاد بالوبال عليه. فلا إجبار وإنّما هي الحقيقة التي يجب أن تُتَّبع.

١٠٥: حقيقةٌ يعرضها القرآن بكلِّ وضوح أمام العقول فيكشف أمامها سبل سعادتها، ولا يضير الحقيقة شيئاً أن يطلق المكذّبون شعار تدارس النبي(ص) هذه الآيات مع غيره من علماء الأديان واكتسابها منهم، فإنَّ ذلك لن يسدَّ باب الهدى والتبيين أمام أُولئك الذين يطلبون الحقيقة ويعلمون سبل صلاحهم.

١٠٦: إن الوحي الإلهيّ السبيل الوحيد للسعادة ومعرفة الحقيقة فيجب اتباعه وتطبيق تعاليمه على كلِّ الحياة، أما المشركون المكذّبون المطلقون للشعارات الفارغة فلا قيمة لهم ولا يشكّلون عقبة بوجه عمليّة التطبيق.

١٠٧: وإنَّ باستطاعة القدرة الإلهيّة أن تجبرهم على الإيمان، إلاّ أن مشيئته تعالى تعلّقت بكونهم أحراراً في العقيدة، فإذا لم يختاروا سبيل الهدى فلا داعي لأن يتحسَّر الرسول عليهم فليس موكّلاً بإيمانهم.

١٠٨: تأديب إلهي رائع وتربية للمؤمنين للتحرُّز من سبِّ مقدسات المشركين وما يعبدون من آلهة، لئلا يتجرأ هؤلاء بتوجيه السبِّ للباري جلَّ وعلا اعتداء وجهلاً، وهذا هتك عظيم يجب التحرُّز من أن يؤول إليه هؤلاء المنحرفون بجهلهم وعدوانهم فتزيّن لهم نفوسهم حسن ما يفعلون، بالرغم ممّا فيه من قبح عظيم سيعرفونه يوم يرجعون إلى ربّهم، وتتكشف لهم الحقيقة، ويُخبرون بما كانوا يفعلون.

١٠٩: من علامات النفاق أن يدرك هؤلاء عظمة القسم بالله، بل ويغلّظون الايمان بكلِّ طاقتهم، معلنين كذباً أنهم إذا واجهوا آية مقنعة آمنوا بها، ولكنَّ القرآن يكشف نواياهم معلناً أنَّ الآيات والعلامات كلّها حاضرة لدى الله، معلولة له، مشيرة إليه وإلى آلائه. ولكن ما يدريكم أيها المؤمنون أنَّ الآيات ـ مهما كانت واضحة ـ لن تؤدّي إلى إيمانهم وإذعانهم.

١١٠: وما يدريكم أنهم بعد أن يواجهوا الآيات الواضحة المقنعة يبدأون بالتذرُّع والتقلُّب والتحايل بالقلوب والأبصار ليتخذوا الموقف نفسه قبل مجيء الآية، وحينئذ يرتكسون في الضلالة ويعمهون (يتردّون) في الطغيان.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

١١١: إنّ العناد قد استحكم في هؤلاء الكافرين المكذّبين فلا تنفع الاستجابة لطلباتهم، فحتى لو نزلت عليهم الملائكة، وكلّمهم الموتى، وواجهوا كلّ أصناف المخلوقات، وأدركوا من خلال ذالك عظمة الخلق الإلهي وشهادة الكون على خالقه الواحد، فإنهم لن يؤمنوا إلا أن تدركهم الهداية الإلهيّة ولكن أكثريّتهم غارقة في الجهل والعناد.

١١٢: وهكذا يقف العتاة والشياطين والمتمردون دائماً في وجه خطّ الهداية، ويعملون على إحباط تأثيرها من خلال طرح الشائعات والقيام بحملة نفسيّة وايحائيّة وتمويهيّة، ومحاولة طرح الشعارات البرّاقة لإغراء العامّة والجهلة وذوي الأهواء، وإثارة الغرائز، كلّ ذلك لوضع العثرات أمام خطّ الأنبياء. وإذا تأمل المؤمن هذه الحقيقة لم يعد يخشى هذه الأساليب في الوقت نفسه الذي يكتشفها فيه ويعمل على إحباطها. وهكذا فسح المجال لهذا الصراع لينمو الحقّ ويتكامل، وإلاّ فالمشيئة الإلهيّة تستطيع أن توقف المتمرّدين عند حدّهم.

١١٣: إلاّ أن كلّ تلك الايحاءات لن تترك أثرها إلاّ في قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يشعرون بالمسؤولية، فهم يتبعون كل شائعة أو ايحاء، ويعملون بمضمونها دون تحقيق، ولكن لا يضير خط الحق والأنبياء أن يقترف هؤلاء ما يقترفون.

١١٤: إن الله تعالى هو الحَكَم بين عباده لأنه العليم اللطيف الصادق الرحيم بالبشرية، ولذا أنزل الشريعة لها، مفصّلاً أسلوب مسيرتها، فلا نقص في هذه الحكميّة الإلهيّة مطلقاً، ولا مسوّغ أبداً للرجوع إلى غيره. وهذه حقيقة يعلمها أهل الكتاب بكلّ وضوح بما يلاحظونه فيه من جوانب للعظمة ومجالات للحقّ والانصاف وتقرير كلمة الفصل، فلا مجال لأي تكذيب أو شك أو مراء.

١١٥: إنها كلمة الله الصادقة والعادلة، وشريعته القائمة على أساس من المعرفة الصادقة للواقع الكوني والتاريخي والانساني، والعدالة في إشباع حاجات الإنسان للنظام الأصلح. ومن هنا فهي حقيقة واقعة لا معنى للتبديل والتحوّل فيها. وربّما كانت تشير إلى خاتميّة الرسالة وأنها عرضت بشكل كامل السبيل الوحيد للسعادة الإنسانية. فلتعمل البشريّة على تطبيقها والتزامها دائماً، دونما انحراف إلى خطّ شياطين الجن والإنس ولتستشعر دائماً سمع الله وعلمه بهذه المسيرة فتثبت على الخط.

١١٦: سبيل الله هو سبيل الهدى والحق وما عداه ضياع وتمويه واتّباع للظنون وفرض وتخمين باطل. إنها الحقيقة التي يجب أن تستقرّ في خلد المؤمنين العاقلين.

١١٧: والعلم الإلهي الشامل هو المهيمن على المسيرة وهي حقيقة تمنح مسيرة الحقّ قوّة وثباتاً، كما تبثّ الرعب في مسيرة الضالّين المكذّبين.

١١٨: تقرّر الآية لزوم ذكر اسم الله على الذبيحة حتى تحلّ، وهو حكم من جملة أحكام كلها تؤكّد الشخصيّة المستقلّة لهذه الأمّة، وكلّها تقرّر ربط سلوكها بعقيدة التوحيد، وتبعدها عن خرافات المشركين، وتذكّرها بالنعم الإلهيّة الوفيرة لتقوم بشكرها واداء مقتضيات الشكر.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١١٩: ربّما كانت الآية تردُّ على أولئك الذين يتحرَّجون من أكل الحيوان، معلنة أنه مادام قد أحلَّ بالتسمية ومادامت أحكامه مبيَّنة، فلا مانع من أكله. أمّا تبعيَّة الأهواء والخرافات فما هي إلا اعتداء على الحقيقة والفطرة، والله أعلم بالمعتدين.

١٢٠: إن المجتمع المؤمن يبتعد عن الإثم في الظاهر والباطن فكلُّ انحراف عن خطِّ التوحيد والشريعة هو إثم سواء أكان في العقيدة، أم العمل في الظاهر، أم الباطن، وهو بالتالي يقود أهله إلى العقاب الدنيوي والأُخروي.

١٢١: تأكيد للحكم السابق بلزوم التسمية على الذبيحة، فإنَّ عدم التزامه فسق وانحراف عن خطِّ الشريعة والمسيرة الطبيعيَّة. هذا هو الحكم ولا داعي للمجادلة مع أولياء الشيطان الذين يعملون على افتعال نزاع فرعي في مسألة واضحة أمر بها الله، فيجب عدم الانجراف إلى هذا المأزق وإلا وقع المؤمنون في هوّة الشرك عبر طاعتهم لتآمر أولياء الشيطان.

١٢٢: إنَّ العقيدة هي الحدُّ الفاصل بين الحياة والموت، فمنها تبدأ حياة المعنى وصيرورة المادة سبيلاً للتكامل، وبدونها يتحوَّل الوجود إلى موت لا حركة فيه ولا نمو ولا عطاء. إنها تربط الوجود الانسانيَّ بالكون والحقيقة الكبرى، وتشدُّه إلى أصوله الأصيلة، وحينئذ يتحرك بهداه وبنوره الذي يمشي به مشياً حضارياً بين الناس ينشر الهدى، ويسدُّ النقص، ويبثُّ المعرفة، ويوجد الانسجام بين القوى، ويجمعها، ويوجِّهها إلى الخير. فهل يقاس مثل هذا الوجود الخيِّر بذلك الوجود الميت اللااعتقادي الغارق في الظلام المتراكم بحيث لا سبيل إلى النجاة، وهو يتصوَّر أنه يحيا حياة سعيدة وما ذلك الا من تزيين الشياطين؛ الا أنّ الآية ترسم خطّي النور والظلام أمام الإنسان، ومع ذلك يتخبَّط المتخبطون.

١٢٣: إنَّ المجرمين المتحكِّمين في الامورهم سرُّ البلاء نتيجة نشرهم لسنّة الاجرام، وكبتهم لصوت الحقيقة، وتمكُّن هوى الزعامة من نفوسهم، فهم يمكرون دائماً معبرين عن الضياع بشعارات الهدى. وهم يعملون على تفكُّك عرى الجماعة وهم بالتالي يقضون على وجودهم دون أن يشعروا بذلك.

١٢٤: من مقتضيات العناد أن يندفع هؤلاء المجرمون الكبار لطلب الأمور السخيفة، ومنها أن يوحى إليهم مثلاً، وهو أمر باطل، فالوحي لن ينزل إلا على القلوب المستعدة، والله أعلم حيث يجعل رسالته العظيمة، فهؤلاء إذن لا يدركون حقيقة أن طلبهم هذا محال، وإذا كانوا يمنحون أنفسهم هذا العلو الكاذب فإن القرآن الكريم يهدِّدهم بالصَّغار عند الله والعذاب الشديد نتيجة هذا المكر والخداع والعناد والتكبُّر.

والتهديد القرآني هذا له دوره في كسر شوكة هؤلاء الأكابر، وتمزيق ما يحيطون به أنفسهم من هيبة كاذبة، وفسح المجال للجماهير للتفكير الحر بالحقيقة واتّباعها.

وبهذا ندرك متابعة القرآن الدائبة لحركة الأمة الاسلاميَّة النامية ورفعه المستمر للعقبات من أمامها، ودفعها باستمرار على خطِّ الهدى نحو الإيمان والتكامل.

فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

١٢٥: إذا أراد الله للعبد الهدى فتح قلبه لنور الإيمان بالاسلام، لأنَّ الإسلام هو الحقيقة المضيئة والهادية إلى الكمال، أما إذا أراد الله بعبد الخزي والضلال أغلق كلَّ منافذ النور في وجوده وضاقت عليه نفسه تماماً كمن يضيق عن النفس عندما يرتفع إلى أعالي الجو (وهي حقيقة علمية نتيجتها عدم التناسب بين الضغط الجوي وضغط الدم) وبهذا يتمُّ تناسق بين الحالة المعنوية والمثل المادي.

ويلاحظ هنا ان الارادة الإلهية لا تتمُّ اعتباطاً وإنما تقوم على قاعدة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فالرجس والعذاب ينتظر الذين لا يؤمنون. وعدم الإيمان يتم نتيجة انسداد منافذ النور. وانسدادها يتمُّ بارادة إلهية تأتي نتيجة انحراف الإنسان نفسه عن الحقيقة.

١٢٦: وبعد أن يرسم القرآن ملامح المسيرة الإنسانية التي يريدها الله عبر الآيات السابقة يعلن أن هذا هو الصراط الربوبي المستقيم الذي يراد ترشيد الإنسان فيه ليصل إلى النهاية السليمة، من خلال الآيات المفصّلة الواضحة، والمعالم اللائحة شريطة أن يتمتّع بعنصر التذكُّر والاعتبار.

١٢٧: وطبيعي أن ينتهي الصراط المستقيم إلى دار السلام والأمان في كنف الله وولايته الشاملة جزاءً لهم على ما عملوه من الصالحات.

١٢٨: يوم يقف فيه جميع المخلوقين أمام ربّهم فيخاطب الجنَّ (وربَّما أريد منه الشياطين) بأنهم عملوا على تكثير أتباعهم من الإنس وتوجيههم نحو الهاوية والضلال. ولذا فهم أهل للعذاب؛ وهنا يردُّ أبناء الإنس بأنهم وقعوا في حبائل الجنّ وما أعدُّوه من المتع الزائفة في هذه الحياة الدنيا. وقضوا بهذه التوافه المدّة الثمينة التي كُتبت لهم. وحينئذ يأتي النداء الإلهيُّ معلناً أنَّ النار هي المأوى يخلّدون في عذابها ما شاءت الارادة الإلهيّة وكلُّ أفعاله تعالى ومشيئته تقوم على أساس من الحكمة (ووضع الشيء في محلّه) والعلم بكلّ الحقائق والروابط والنتائج مما ينفي أيَّ شبهة للعبثيّة في الساحة الإلهيّة المقدّسة.

١٢٩: إن الظالمين، نتيجة اتباعهم لمصالحهم الشخصية وانفصالهم عن مركز القدرة والولاء الحقيقي، يحاولون التجمع في قبال الحق، والتساند ضدَّه، وبالتالي ينسحبون جميعاً إلى النتيجة الواحدة والعقاب الأثيم نتيجة ما اختاروه من حياة منحطّة. وهذه حقيقة دائمة؛ أن يجتمع الكفر ويتساند ضدّ القوة والصحوة الإسلامية، ولكنه يفشل أمامها في النهاية.

١٣٠: استمرار في عرض مشهد الحساب الاخروي حيث تقف الخلائق أمام ربّها فيسألها عن إيمانها بالرسل الذين أخبروها بآيات الله وأنذروها وخوّفوها من عقاب الآخرة، فتجيب مقرّة أمامه تعالى بالانحراف نتيجة اغترارها بالحياة الدنيا شاهدة على نفسها بالكفر.

١٣١: وهكذا يقرّر القرآن حقيقة الاختيار الانساني وكون العقاب على أساس من الظلم المتعمَّد الذي يرتكبه الإنسان، لا الغفلة وعدم الشعور.

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ۝ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝

١٣٢: لكلٍّ من الخلائق من الإنس أو الجن درجاتهم المناسبة لأعمالهم بعد أن كانت عين الله ترقب ما يعملون. وعليه، فالعمل هو الذي يحدِّد المستوى عند الله، وهي حقيقة تدفع المسلم للاستزادة، خصوصاً بعد أن يشعر بأن عين الله هي التي ترقبه دائماً.

١٣٣: إنَّ الدرجات المعطاة للعاملين تقوم على أساس من العدالة الإلهيّة وهذا المقطع القرآني يؤكِّد حقيقة هذه العدالة بنفي دواعي الظلم من الساحة الإلهيّة وأهمُّها الحاجة للظلم، والصفات السيّئة المتأصّلة، في حين إن العقل يحكم بأن الله هو الغنيُّ المطلق، وهو الرحيم بعباده، والقادر على إجراء العدالة والشمول بالرحمة، ولذا فهو يعدُّ هؤلاء بالحياة وهو قادر على إفنائهم وإحلال آخرين محلَّهم، تماماً كما تجلّت قدرته في إنشائهم من ذرّيّة قوم آخرين.

ولكلِّ هذه الحقائق أثرها في وعي المسلم، إذ تدفعه نحو العمل وتطمئنه إلى الدرجات التي سيحصل عليها، وتركِّز في خلده معاني العدالة والرحمة والقدرة الإلهيّة، وكلُّها معانٍ لها قيمتها العمليّة المؤثّرة تماماً في صياغة مسيرته وتشعره بضرورة النظر في سنن الله في التاريخ، وحركة الأمم، وتبدُّل الأدوار.

١٣٤: واستمراراً لتقرير المفاهيم الحياتية المؤثّرة تقرِّر الآية بكلِّ تأكيد حقيقة يوم الوعد، يوم القيامة، فلن تستطيع قدرة بشريّة أن توقف مشيئة الله المتعلّقة بمجيء هذا اليوم بكلِّ ما فيه من تبعات، الأمر الذي يدفع بالانسان ليحسب حسابه تماماً.

١٣٥:توجيه قرآني للرسول الكريم ليعلن لقومه اطمئنانه بمسيرته وعاقبتها الخيِّرة سواء في انتشار أضوائها في شتى أنحاء العالم وقيادة الانسانيّة نحو النور أو في الآخرة حيث الثواب والفلاح، في حين ينتظر المشركين المخاطبين المصير الأسود. كل هذه المعاني طُرحت بشكل اجمالي، يقول: فليعمل كلٌّ على حالته ومكانته وسيرى الطرفان النتيجة، ولكنَّ الفلاح هو للمؤمنين، والعاقبة للمتقين.

١٣٦: يعود القرآن إلى خرافات المشركين فيعمل على تطهير النفوس ومنها، خرافة تخصيص جانب من الزرع والأنعام لله وآخر لشركائه المزعومين من الأوثان والأصنام، ويمعنون في السخف فيأخذون مما خصَّصوه لله ويعطونه لسدنة الأوثان، في حين لا يؤخذ من حصَّة الأوثان ليعطى لسبيل الله وهو سخف مضاعف. ويلاحظ هنا دور سدنة الأوثان في سحب أموال المشركين إليهم عبر هذا الابتزاز السيِّئ وهي حالة نلحظها دائماً من قبل المنتفعين بسدانة بعض الأماكن.

١٣٧: ويمعن المنتفعون بسدانة الأصنام في الإضلال حين يزيِّنون للمشركين قتل أولادهم تقرُّباً للآلهة مستهدفين الردى لهم وهلاكهم، عاملين على اقتناعهم جسدياً وعقائدياً بتلبيس الدين عليهم وتزييفه بهذه السخافات الباطلة.

وهذا تأكيد لقدرة الله على ايقاف انحرافهم، ولكن شاءت القدرة الإلهيّة أن يمنح الإنسان حريته في انتخاب طريقه، والابتلاء بنتيجة ما اختاره من طريق، فليترك المشركون غارقين في افترائهم وانحرافهم.

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

١٣٨: يستمر القرآن في نقد الخرافات الجاهلية التي قد تجد لها مصاديق في كلّ عصر وإن كانت بثوب عصري جديد.. فهنا هم يحجرون شيئاً من الثروة الحيوانية والزراعيّة بذريعة أنها مخصوصة لا يطعمها (أي لا يأكل منها) إلاّ من شاؤوا هم، وبالطبع تتمثل هذه المشيئة، زوراً، في إرادة السدنة والنفعيين. ثم هم يحرّمون ركوب بعض الأنعام (حرمت ظهورها) ولا يذكرون اسم الله على بعضها الآخر عند حلبها أو ذبحها وهكذا ينطلقون محللين ومحرمين دونما دليل، وافتراءً على الله، فهم بذلك نظير الانظمة الوضعية المشرعية اليوم تنطلق بعقولها القاصرة مخططة للحياة الإنسانية بالرغم من أنها تجهل أكثر حقائقها. ولكن الله سيجزي كل المفترين بالجزاء المناسب في الدنيا أو في الآخرة.

١٣٩: افتراء تشريعي آخر للجاهلية، يتمثّل في قانون وضعي يخصّص ما تلده بعض الأنعام للذكور في المجتمع دون الاناث، فإذا ولد ميّتاً اشترك فيه الصنفان!! وان اطلاق صفة التشريع على أنفسهم والتحريم والتحليل تعدُّ كلها جرأة على المشرّع الحقيقي لاجزاء لها إلا العذاب الوبيل. ذلك ان الشريعة تقوم على أساس من الحكمة والعلم الواسعين بالانسان والحياة والكون وعلاقتها ببعضها، وهي أمور لا يصل إليها الفهم الانساني القاصر.

١٤٠: وهذه الآية تعلن ـ بكلّ وضوح ـ أنّ الإنسان الرابح هو الذي استفاد من طاقاته البشريّة والماديّة واتبع الشريعة الإلهيّة الواضحة، أمّا الخسران المبين فيتمثّل في السير وراء الأوهام الجاهليّة السفيهة، وإهدار الدماء الانسانيّة، وقتل النسل تقرباً للآلهة، واهدار الطاقات والثروات الحيوانية والزراعية اتباعاً للأساطير الوهميّة، وافتراءً تشريعياً على الله ـ جلّ وعلا ـ وبالتالي وقوعاً في الضلال الذي لا هدى فيه.

١٤١: بعد أن نعى القرآن على الجاهليين تشريعاتهم الاعتباطيّة السخيفة، راح يبيّن النعم الإلهيّة وتنوّعها ليسبح الفكر الانساني في عطاء الله، وتنوُّع النعم من أروع العطاء.. فهذه جنّات ذات عرائش وقوائم تمسك الزرع، وتلك جنّات قائمة على أصولها لوحدها، وهناك النخل والزرع المتفاوت في طعمه (وكلُّ طعم يحقّق غرضاً حياتياً)، والزيتون والرّمان، وهي ثمار قد تتشابه وقد تختلف ولكنها كما قلنا تمدُّ الإنسان بما يتمتّع معه بحياته.. إلاّ أن الإنسان الجاهل قد يلجأ لتحريم ما أُحلّ له وجعله متناسباً مع متطلّباته، ومن هنا يأتي الأمر بالاستفادة من الثمر عند نضجه، ومن ثمّ القيام بالواجب الاجتماعي ودفع حقوق الآخرين في الزرع والثمر إليهم على التوّ (يوم الحصاد) فهي حقوق لهم وليس للزارع منعها، ثم نهوا عن الاسراف، سواء في الاستهلاك أو حق في الانفاق، بحيث لا يبقي المرء لعياله شيئاً، فالاعتدال هو المطلوب حق في الانفاق.

١٤٢: وفي قبال تنوُّع الثمار تذكر الآية بتنوُّع الحيوانات، فمنها الحمولة عالية القوائم والحاملة للأثقال، ومنها (الفرش) الصغيرة المفترشة للأرض، وربّما اشير هنا إلى بعض منافع الأنعام كحمل الأثقال واتخاذ الفرش من أصوافها وأوبارها. فليستفد الإنسان من رزق الله أروع استفادة وليتجنّب الخطوات الشيطانيّة الماكرة التي تسوّل له اهدار الثروة الانسانيّة والحيوانيّة وتسوّغ له التشريع السفيه، لا لشيء إلا لتقضي على مسيرته المتوازنة، لأنّ الشيطان هو العدو المبين للانسان فلا يأمره إلاّ بما ينفي وجوده وحضارته.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٣، ١٤٤: ويمضي السياق القرآني في استعراض سخافات المشرّعين الجاهليين، موضحاً لهم بدقّة تشريعاتهم السفيهة الاعتباطية. فالأنعام ثمانية أزواج: ذكر وانثى من كلٍّ من الضأن والمعز والبقر والإبل، وكلُّها أُحلّت للانسان إلا أنّ الجاهلية تنطلق محرِّمة ومحلِّلة، على اساس من أساطير وأوهام ودونما سلطان من الله المشرّع الحقيقي، وإلا فبأيِّ دليل تحرم الجاهليّة بعضها دون بعض؟! وهل المحرَّم هو الذكران أم الانثيان من الضأن أو المعز، أم هو ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الأجنّة؟! أم ماذا؟ وبأيِّ دليل أو علم؟ وهكذا بالنسبة للابل والبقر يأتي التساؤل نفسه، ثمّ يعقب القرآن عليه بتساؤل استنكاري: أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا؟! وطبيعي ان الجواب هنا ليس إلاّ الوجوم والاقرار بالجهل والافتراء، وما أعظم الظلم! إنه افتراء التشريع ليقع الناس في الضلال والضياع.

والقرآن، بهذا يوجّه خطابه لكلِّ المشرّعين عبر التاريخ معلناً لهم أنهم يظلمون البشريّة ويجرُّونها للهاوية بعملهم وجراتهم هذه مقام المشرّع العليم الحكيم، وموضحاً أن الله لن يهدي الظالمين سبيل السعادة والكمال.

١٤٥: بعد أن أنكر القرآن على المشركين تحريمهم وتحليلهم دونما علم أو دليل، أعلن لهم أن الوحي هو منبع التشريع الحقيقي، والوحي لم يحرّم إلاّ الميتة والدم المسفوح (السائل المنصب) ولحم الخنزير، فإنّ ذلك رجس حرام، وأضاف للمحرّمات (الفسق) أي الحيوان غير المذبوح بالطريقة الشرعية، كأن يذبح للأصنام ولا يُذكر عليه اسم الله، وأمثال ذلك، فإنها أُمور محرَّمة على أساس ما فيها من مفاسد (ويلاحظ هنا أن الآية مكّية وهناك آيات وروايات حرّمت أصنافاً أُخرى من الحيوان).

وتحقيقاً للمرونة والتسهيل واللُّطف فانه سمح للمضطر الذي لم يبغ ولم يعتد (ولم يقصد أكل ما حرّم الله، والتعدي على حدوده) بتناول شيء من هذه المحرّمات غفراناً من الله ورحمة به.

١٤٦: بعد هذا الحصر للمحرّمات يذكر القرآن أن اليهود لمّا بغوا عوقبوا بتحريم كلِّ حيوان له ظفر ـ أي غير مشقوق القدمين كالابل والأنعام والبط ـ وكذلك تحريم شحوم البقر والغنم، إلاّ شحم الظهر والدهن الملتف بالامعاء أو المباعر، والمختلط بعظم. إلاّ أن هذه الأنماط من التحريم لم تكن أحكاماً أوّلية وإنما هي عقوبة معيّنة على الظلم. وهذه هي الحقيقة، لا ما يدّعيه اليهود من خرافات.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٧: فإذا أصرّ اليهود على خرافاتهم واعتبروا تحريم الأمور المذكورة في الآية السابقة على أساس انها شريعة دائمة، لا على أساس انها عقاب لهم، معتبرين ان العقاب يتنافى مع الرحمة الإلهيّة؛ فليواجهوا بحقيقة أنّ الله ذو رحمة واسعة بلاريب، إلاّ أن ذلك لا يتنافى مع عقاب المجرمين لأنه أيضاً مظهر للرحمة والعبرة.

١٤٨: يتوجّه القرآن صوب المشركين مناقشاً بعض ادعاءاتهم الباطلة ومنها تسويغهم لانحرافاتهم العقائدية والسلوكية بادعاء الجبريّة، حيث ادعوا أن المشيئة الالهيّة لو أرادت غير الشرك وغير هذا السلوك الوضعي لحقّقته واقعاً، ولكنها لم تشأ ذلك فهي راضية عنه، وعن تحريم ما حرّموه وبالتالي يبطل ادعاء الرسول بطلان الشرك!! وهكذا نشاهد هذا المنطق الباطل لدى أهل الجاهليّات سواء السابقين أو المعاصرين الذين يلجأون إلى هذا المنطق وهم يعلمون ببطلانه.

ولكنّ القرآن يواجهه أولاً بالتذكير بالمصير الأسوء الذي انتهى إليه المسوّغون السابقون، كما يذكّرهم ثانياً بأن الحديث عن المشيئة الإلهية التي تعلقت ـ كما يزعمون ـ بهذا الوضع المنحرف رجم بالغيب وظنّ ووهم وتخرُّص فليس هناك طريق علمي للمشركين إلى عالم المشيئة الغيبية.

١٤٩: وفي المرحلة الثالثة يردّ القرآن على قول المسوّغين بإرجاعهم إلى فطرتهم ووجدانهم ليشاهدوا الحجّة الإلهيّة البالغة في أنفسهم، حيث يجدون أنفسهم مختارين في فعل الخير والشر، وفي الوصول إلى الحقيقة العقائديّة، وان الله منحهم هذا الاختيار ولم يشأ أن يجبرهم على الهدى وإلا فلو شاء لهدى الناس أجمعين.

١٥٠: وفي المرحلة الرابعة من النقاش مع المشركين المسوّغين يوجّه القرآن خطاباً تعجيزياً لهم بالاتيان بمن يشهد لهم أن الله شرّع انحرافاتهم السلوكية، بل وحتى لو لفّق المشركون بعض شهداء الزور فيجب تعريتهم وفضحهم وعدم الاعتماد على أقوالهم القائمة على أساس من الهوى والتكذيب بالآيات الإلهيّة الواضحة وإنكار الآخرة واتخاذ الندّ (العِدل) والشريك لله الواحد القهّار.

١٥١: بعد إعداد الأرضيّة الذهنيّة المناسبة يطرح القرآن الكريم بعض المحرّمات الرئيسة والعامّة والتي لا تختص بشريعة دون أُخرى وهي:

أولاً: الانحراف العقائدي نحو الشرك بكلّ أنواعه، فإنه أصل الانحراف كلّه، كما أن التوحيد أصل المسيرة الانسانيّة الخيّرة، فالشرك يعني تأليه مطلقات وهميّة وتحكيمها في الشؤون الحياتية، الأمر الذي يمزّق هذه المسيرة ويشيع حاكميّة الطاغوت.

ثانياً وثالثاً: ترك الاحسان بالوالدين وقتل الأولاد خشية الفقر، فإن ذلك يعني تمزيق العلائق العائليّة، وهي أساس النظريّة الاجتماعيّة الاسلاميّة.

رابعاً: التقرُّب إلى عالم الفواحش (وهي السلوكات المفرطة والخارجة عن الحدّ الانساني الطبيعي والممزّقة للعلائق الاجتماعية النظيفة، كالزنا) وقد نُهيت الإنسانية عن التقرُّب إليها لئلا تقع في حبائلها. وشمل النهي التجاوزات الظاهريّة والباطنيّة (أي أن تتمّ في السرّ أو العلن) أو تتناول الظاهر أو الباطن الانساني.

خامساً: قتل النفس دونما جواز شرعي، وإفناء العنصر الفعال في المجتمع.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

١٥٢: والمحرّم الآخر في جميع الشرائع هو التصرّف في مال اليتامى فإنّ فيه تضييعاً لحقّهم وبالتالي تمزيقاً لعلائق الملكية المتوارثة، اللهم إلا أن يكون التصرّف بأسلوب أفضل لصالح حفظه، ويمتدُّ هذا النهي إلى أن يبلغ اليتيم أشدّه، أي حق البلوغ والرشد، وحينئذ يتصرّف في أمواله كأيٍّ مالك.

وبعد هذا يأتي تحريم التطفيف في الميزان وبخس الناس أشياءهم، وعدم رعاية العدل في التعامل، ولكن لما لم يكن الدقة في رعاية هذا الحكم، أو في رعايته مع الحكم السابق، جاءت الآية توضّح كونهما حكمين عرفيين فلا تكلف نفس إلاّ وسعها، فإذا بدرت منها بادرة تجاوز على الحق دونما علم بذلك فالله هو الغفور.

ثم تتعرّض الآية الشريفة لحكم تحريمي آخر هو عدم العدالة في القول، كالشهادة والفتوى وأمثالها، فيجب تحرّي العدالة ونشرها في القول والفعل، دون أن يتأثّر ذلك بعواطف القرابة، والأواصر العائلية، والعشائرية، والعنصريّة وأمثالها.

ثم يذكر الحكم التحريمي الأخير وهو عدم الوفاء بالعهد، ذلك أنّ الوفاء بالعهد مما أكدته الشرائع وركّز عليه الاسلام ﴿إنّ العهد كان مسؤولا﴾[1] فهو دعامة من دعائم العلائق الاجتماعية والدولية السليمة، كما أنه صفة تدفع إلى التزام المواثيق التي أعطاها الإنسان بفطرته لربّه وبعقله للحقيقة.

هكذا إذن يذكر القرآن بالأحكام التحريميّة العامّة التي أعلنتها جميع الشرائع، ويردُّ بذلك على المشركين الذين اخترعوا ووضعوا من عند أنفسهم نظاماً تحريمياً وهميّاً ونسبوه إلى الله ظنّاً وتخرصاً.

ومن الغريب أن يتنكّر عالمنا الإسلامي اليوم لهذه الوصايا الإلهيّة فيشيع فيه كثير من هذه المحرّمات في جميع الشرائع، فيسود فيه حكم الطاغوت، والعقوق، والاجهاض، واباحة الفواحش، بل وتقنينها أحياناً، وقتل النفوس البريئة المطالبة بسيادة الإسلام، والتعدّي على الأموال، والقوانين الوضعيّة المنحرفة، وشيوع الأفكار القوميّة والعنصريّة، وغير ذلك، الأمر الذي يتطلّب من المسلمين تقويماً جديداً لوضعهم على ضوء القرآن.

١٥٣: في ختام البيان القرآني للمحرّمات العامّة في جميع الشرائع يعلن أنها معالم لصراط إلهي مستقيم واحد يجب أن تتّبعه البشرية وتجعله مقياساً لتقدّمها وتقهقرها، فهو سبيل الوحدة والكمال والتقوى، وتتجنّب بذلك اتباع السبل الأُخرى، وهي سبل الشيطان والفرقة والضياع.

١٥٤: بعد أن ذكر القرآن الصفة الاجماليّة للصراط الإلهي في المجال التشريعي بيّن تمامية النعمة على بني إسرائيل حين أحسنوا في عملهم وبلغوا المستوى الرسالي المناسب، فنزل الكتاب الذي فصّل لهم نظمهم التشريعية وهدايتهم بكلّ وضوح، لكي تنسجم حياتهم مع الإيمان بالتوحيد والايمان بالآخرة ولقائه.

١٥٥: والقرآن أيضاً كتاب إلهيّ مبارك لما فيه من هدى عميم وتشريع تفصيلي كامل فيجب اتباعه والتحلّي بالتقوى ليكونوا أهلاً للرحمة الإلهية المتجلّية في سيرهم نحو الكمال.

١٥٦، ١٥٧: ونزول القرآن هذا قطع حجّة بعض المشركين وتعلّلهم بأن الكتاب الإلهي إنما نزل على خصوص اليهود والنصارى فلا يشملنا أو لا نفهمه، أو يدعون أن الكتاب لو كان قد نزل عليهم لحملوا الأمانة بأفضل مما حملها الآخرون.

فها قد جاءتهم البيّنة والهدى والرحمة الإلهيّة ولا سبيل لهم إلا اتباع الحق، فإذا صدفوا وأعرضوا عنه عرّضوا أنفسهم لسوء العذاب.

---

١ – الاسراء/ ٣٤.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

١٥٨: استفهام انكاري على الكفّار المعاندين فماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون الانكشاف التام للحقائق حيث تأتي الملائكة وتظهر العظمة الإلهيّة بكل وضوح أو تظهر بعض الآيات الإلهية الخارقة التي لا تبقي مجالاً للشك؟ ان هذه الحالة إذا حدثت فلا مجال للتبجّح بالايمان والتستّر به لأنه غير نافع حينئذ ان لم تكن النفس قد آمنت قبل ذلك أو عملت خيراً في إطار ايمانها السابق، وحينئذ فلا فائدة لهذا الانتظار.

١٥٩: خط التوحيد خط واحد يتجمع فيه اتباعه على شريعة الله ويعتصمون بحبله، ولا يتم التفرّق إلا بعد الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، وإلا باتباع الأهواء والانحراف عن الخط الذي رسمه الله ورسوله وجعله متمسّكاً لأتباعه، فإذا تمّ ذلك تمزّقت الامّة إلى شيع وأحزاب، وحينئذ فإن الرسول والشريعة منهم بريئان، وإنما يوكل أمرهم إلى الله ليواجههم بالمصير الأليم حين يرجعون إليه.

١٦٠: من نعم الله تعالى على عبيده مضاعفة الحسنات وفتح أبواب الأمل أمامهم. أمّا السيئات فلا تُجزى إلاّ بمثلها تحقيقاً للعدالة فلتسر هذه الأمّة في خط الحسنات، ومن أهمها: الوحدة والتمسك بشريعة الله.

١٦١: من هذه الآية الشريفة حتى آخر السورة نستطيع التعرّف على خلاصة الهدف العام من سورة الأنعام، ويأتي هذا التلخيص في مقاطع كلها تبدأ بكلمة (قل) فتشكّل شعارات إلهيّة للمسيرة المؤمنة عبر التاريخ.

وفي هذا المقطع يعلن الرسول أن الهدى الإلهي قاده إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القيّم على الحياة كلّها، بنظمه المنسجمة مع الفطرة الانسانيّة والمخلصة، لما أودعه الله في الفطرة من مواثيق يرتبط بها الإنسان مع ربّه وخالقه ومبدعه، ويتخلّص بها من الشرك والمشركين.

والملاحظ أن القرآن الكريم يؤكّد في مواضع كثيرة ـ ومنها هذا الموضع ـ طريقة ابراهيم التوحيدية ليجعل الإسلام الوريث الحقيقي لهذه الملّة الحنيفة، ويدعو إليه كلّ من يدّعي الارتباط بشيخ الموحّدين إبراهيم عليه السلام.

١٦٢، ١٦٣: يذكر هنا تسليم ابراهيمي مطلق لله تعالى، فكل الدعاء، وكلّ الأعمال العبادية، وكل التحولات الحياتية من المحيى وحتى الممات متوجهة إلى الله تعالى وبيده سبحانه. فهو ربّ العالمين لاشريك له في ذلك، وبذلك أمر الله، والرسول أول المسلمين العابدين المطيعين لهذا الأمر، وبهذا يعود قدوة لأُمته لتصوغ كلّ حياتها وفق هدى الله، فإذا حادت عن خط التسليم المطلق حادت عن خطّ الرسول والاسلام.

١٦٤: استدلال على التوحيد في العبودية بأن الخلقة كلّها تبدأ من الله فلا مجال لعبادة غيره مطلقاً، ولا مجال لادعاء المشركين بأن هناك أرباباً اخرى تتحمّل أوزار الآخرين، فكل نفس تحمل نتائج عملها، وتعود إلى ربّها العظيم ليسألها عمّا فعلت، ويوضح الموقف الحقّ الذي وقع الاختلاف فيه.

١٦٥: وهكذا تطرح السورة في ختامها مفهوم الخلافة الانسانيّة لله بحالة تنطوي على أثر كبير في الحياة. وإذا كان هناك اختلاف في الطاقات فهو من أجل تنظيم الحياة، والتسابق في تحقيق مقتضيات الخلافة الإلهيّة، والدخول في الامتحان الإلهي الكبير، فإن انحرفوا فالله سريع العقاب، وإن أحسنوا فهو الغفور الرحيم.

سُورَةُ الأَعْرَافِ (٧) — ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

سورة الأعراف

- تحدثنا عن البسملة وجزئيتها للسورة.

١: من الحروف المقطّعة وقد ذُكرت في تفسيرها أقوال أشرنا إليها سابقاً.

٢: إنه كتاب إلهيّ أنزل للرسول حاملاً للبشريّة الهدى، ومتكفّلاً تنظيم الحياة. ومن الطبيعي أن يواجهه كثير ممن تُضرب مصالحهم، فليصبر الرسول على المعارضة ولا يتحرّج مطلقاً من مواجهة الناس، ولينذر به البشرية، وحينئذ ستنجذب إليه النفوس المستعدّة للايمان.

٣: فليتّبع الجميع ما أنزل الله إليهم من شرائع تهديهم سواء السبيل، وليرفضوا ولاية غيره من المطلقات الكاذبة، والآلهة الوهميّة، وتلك حقيقة لا يعيها حقَّ وعيها إلاّ القليل.

والملاحظ أن الآيات في مطلع هذه السورة تعدُّ هذه الأُمة لحمل المسؤوليّة التاريخيّة بكلّ قوة والاخلاص لها، وتحذّرها من الانحراف والنكول.

٤: تذكير بالأُمم السابقة التي حُمّلت رسالة الله فلم تحملها فابتُليت بالعذاب الأليم في وقت استراحتها بياتاً (ليلاً) أو هم قائلون (ظهراً).

٥: وحين يُصدمون بالعذاب والبأس ينتبهون إلى ظلمهم وانحرافهم ويدركون المصير الأليم.

٦: إن البشريّة مسؤولة كلّها ـ بما فيها الأنبياء ـ عن رسالتها وشرائعها، ومدى التزامها مقتضيات الرسالة، ويجب أن تمهّد نفسها لهذا التساؤل الإلهيّ العظيم في ذلك الموقف الرهيب. وقد ورد عن النبي(ص): (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1].

٧: وستخبر البشرية يوم القيامة بما عملته بكل وضوح وحينئذ يكون الفصل الحق.

٨، ٩: والموازين الإلهية يوم القيامة حق بمعنى أن الحق هو الوزن الذي توزن به الأعمال فكل عمل يكتسب قيمته من مدى اشتماله على الحق وحينئذ تفقد السيئات أي وزن لأنها تبتعد عن الحق. وهذا المعنى إذا تصوّرته الأُمة والفرد ترك آثاراً كبرى للمحاسبة والدقّة في السلوك والانضباط في التزام أوامر الله تعالى وتطبيق شرائعه كلّها في الحياة كلّها.

وحينئذ فالمفلحون هم الذين رجحت كفّة أعمالهم الحسنة بما اشتملت عليه من حق، وجاءوا إلى الله بقلب سليم وبوزن انساني راجح، والمعيار في الثقل والخفة هو القرب والبعد عن الحق.

أما أولئك الذين خفّت موازينهم فهم الذين خسروا أعزّ مالديهم وهي أنفسهم، واغتربوا عن ذواتهم، وساروا في السبيل المنحرف عن سبيل الفطرة الصاعد إلى الكمال، فظلموا بذلك أنفسهم والحقيقة معاً.

١٠: يشير القرآن الكريم إلى كلّ النعم الإلهيّة التي تمهّد للانسان مسيرة حياتية متوازنة ومتمكّنة، وتلك من قبيل القوى النفسيّة والظواهر الطبيعيّة التي تتناسق فيما بينها لتوفّر الجوّ الحياتيّ الملائم، وهذا التناسق يشكّل أروع دليل على وجود التخطيط الإلهي الكوني الرائع. الأمر الذي يستوجب الشكر الانسانيّ الوفير والعمل الدقيق بشريعة الله ومستلزمات النعم، إلاّ أن الإنسان قاصر عن أداء حقّ الشكر ومقصّر في كثير من الأحيان.

١١: من هنا يبدأ استعراض بداية الخلقة الإنسانية لتحقيق أهداف تربويّة كبرى فتشهد الخلقة الانسانيّة والتصوير الرائع ثمّ الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم تكريماً لما يحمله من عناصر الإنسان والروح الإلهيّة المودعة فيه، فتسجد الملائكة إلاّ إبليس أدركه التكبّر فعصى أمر ربّه. وفي الآية مافيها من معاني التكريم الانساني والعصيان الشيطاني.

---

١ - مجموعة ورام ج ١ ص ٦.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

١٢: وعندما يُسأل ابليس عن هذه المعصية الأولى للباري جلّ وعلا يعلن أنها الانانية والتعالي والتكبر، فهو يدعي أنه خير من آدم لأنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين، والنار أفضل من الطين، ويترك القرآن للقارئ أن يكتشف خطأ هذا المنطق الاستكباري الذين يعلنه ابليس.

١٣: وحين تكبّر ابليس أمر بالهبوط من مكانته، ووصف بأنه من الصاغرين (الأذلاّء) وهذا هو مصير كلّ المستكبرين الطغاة الذين يظنّون انهم ينازعون الله تعالى رداءه وكبرياءه وسلطانه وحاكميته في الأرض.

١٤، ١٥: وبعد عقاب الهبوط يطلب ابليس من ربّه أن يمهله طول الحياة الدنيا حتى يأتي يوم بعث الخلائق، فيمهله المولى ـ جلّ وعلا ـ لحكمة يراها في ذلك، ولعل منها أن التكامل الانساني لا يتم الاّ من خلال الصراع ضدّ الشياطين والطواغيت.

١٦، ١٧: وهنا يعلن ابليس رمز الاغواء والاضلال أنه سوف يقابل هذا العقاب (لنتيجة عمله هو) بالمضي في إغواء الإنسانية من خلال طرح العقبات أمام المسيرة الإنسانية السويّة، ومنعها من تقدّمها نحو هدف الخلقة المعلن، ورصد حركاتها من أمامها ومن خلفها وعن أيمانها وشمائلها (ايسارها)، وذلك بهدف جرّ البشريّة إلى طريق الكفر بأنعم الله، وترك طريق الشكر المتجلّي في تطبيق شريعة الله على الأرض وتحقيق أصول الحاكميّة الإلهيّة.

وهذا التفصيل في استعراض الوعود الشيطانية والتربُّص والمراقبة الابليسيّة ربّما استهدف تعميق مسألة عداء الشيطان في النفس ليتمثّل أمام الإنسان خطان: خطّ الهداية والشكر والتواضع لله وتطبيق شريعته على كلّ الحياة، وخطّ الشيطان، خط التكبّر والعناد، والحقد والغواية، والتربُّص بالمؤمنين ومنعهم عن امتثال الأوامر الإلهيّة، وتحكيم نظام الظلم والطغيان.

١٨: طرد إلهي وتوبيخ عظيم للشيطان ومن تبعه من الطواغيت والمستكبرين والظالمين. فهم مطرودون بكلّ ذلة وهوان من رحمة الله، ومبعدون عن فضله، وموعودون بجهنم تطحنهم طحناً يوم القيامة.

١٩، ٢٠، ٢١: وتبدأ التجربة الأولى للانسان الأول من خلال اسكان آدم وزوجه في الجنة، وفسح المجال لهما ليشبعا رغباتهما حيث شاءا، مع المنع من التقرّب من شجرة معينة، وإلاّ أوقعا نفسيهما في الظلم، ولم يلزما الصراط السويّ. ومع بدء هذه التجربة يمارس الشيطان مهمّته الاغوائية الأُولى فينفذ إليهما موسوساً وداعياً إيّاهما بصوت خفي (وهو أول أساليب الاغواء) للتقرُّب وعصيان الأمر الإلهي، مستهدفاً كشف ما أُخفي عنهما من سوءاتهما (أي عوراتهما) وربّما كان المراد هنا نزع لباس الحياء والتقوى لتشجيعهما على اختراق حرمة الأمر الإلهي.

اغواء آخر من خلال الاستفادة من نقطة ضعف لتحقيق الهدف الخبيث وتلك هي مسألة الفناء. فادّعى لهما أن الأكل من الشجرة يرفع مقامهما إلى مقام الملك العظيم والخلود الأبدي، وإمعاناً في الاغواء راح ابليس يبالغ في القسم والحلف مؤكداً انه لهما من الناصحين المشفقين.

٢٢: ونجحت عملية الاغواء الشيطاني للانسان الأول آدم وزوجته، فأوصلهما (دلاهما) بإغرائه وغروره إلى ما كان يستهدفه، وقربا من الشجرة المنهيّ عنها وذاقاها فانكشفت لهما عوراتهما، فراحا يسترانها بأوراق شجر الجنة.

وجاء النداء الإلهي الذي أنكر عليهما فعلتهما وعصيانهما، وذكّرهما بالنهي المسبق عن التقرُّب لتلك الشجرة ونبّههما إلى التذكير المسبق بأكاذيب الشيطان وعدائه.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

٢٣: وقد ترك الانكار الإلهي عليهما آثاره الايجابيّة، وتنبّهت النفس إلى الحقيقة وأدركت سرّ الخطأ، واكتشفت مكمن الداء، وعرفت العدو، ولجأت إلى الملجأ الحقيقي وبدأت عملية العودة إلى الله جلّ جلاله: والاعتراف أولاً بالذنب وظلم النفس، ثم السعي لطلب الغفران والرحمة إذ هما فقط المنجيان من حالة الخسران والضياع.

٢٤، ٢٥: بعد تلك التجربة الكبرى يأتي الأمر الإلهيّ للطرفين (آدم وزوجه وفي قبالهما ابليس) ليهبطوا إلى الأرض، ويبدأوا المسيرة الحضاريّة مع ملاحظة مقولتين وحقيقتين واقعيتين تُطرحان هنا كسنن إلهيّة يجب الالتفات إليها دائماً:

أولاهما: هذا العداء الذي لاينتهي بين خطّ الرحمن وخطّ الشيطان، وهذا الصراع له أثره في طريق الكمال الانساني.

وثانيتهما: ارتباط الإنسانية بالأرض «فيها تحيون وفيها تموتون» وقد هيّأ الله تعالى فيها كلّ عناصر الحياة الممكنة (والمتأمّل في هذه العناصر يدرك بوضوح عظمة الصنعة الإلهيّة) ومنها يتمّ حشر البشريّة إلى يوم القيامة. وفي هذه الحقيقة دفع لإعمار الأرض وتطبيق شريعة الله فيها، فالانسان خليفة الله في أرضه.

٢٦: تذكير للانسان بنعمة اللباس والزينة (الريش) التي تستر عورته، وتبديه في حلية مناسبة، إلاّ أن اللباس الأفضل هو اللباس المعنوي (لباس التقوى) فهو يواري سوءات الباطن، وتلك حقيقة هي من آيات الله ودلالاته للانسان لعلّه يتذكّر مسيرته الطبيعية وحقيقته دائماً.

٢٧: تحذير للانسانيّة من الفتنة الشيطانيّة، وتذكير بما جرى لآدم وحواء أبوي الانسانيّة، حيث أغواهما الشيطان وأخرجهما من نعيم الطاعة الإلهيّة إلى حضيض المعصية، ونزع عنهما لباسهما فانكشفت عوراتهما وتكشفت مساوئهما.

وتذكير ثان بالمكر والحيلة والإرصاد الشيطاني. فهو يراقب المسيرة بكلّ خفاء ويتحيّن الفرص لبثّ سمومه، إلاّ أنّ القرآن يؤكّد أن لاولاية للشيطان على المؤمنين المستعيذين بالله، وإنما يبثّ سمومه في النفوس الضعيفة.

٢٨: درس آخر من قصّة الخليقة الآنفة تعرضه هذه الآية الشريفة، فالمنحرفون الذين يمارسون الفحشاء (كالطواف بالبيت الحرام في حالة العري) يؤوّلون ويسوّغون أعمالهم القبيحة والخارجة عن الحياء الانساني بأنهم إنما يفعلون ذلك استمراراً لما كانت عليه سيرة آبائهم، ليعطوا أعمالهم صفة تاريخيّة طبيعيّة، بل ويدعون الكذب على الله مدّعين أنه تعالى أمرهم بالفاحشة، وهو تعالى لا يأمر بذلك بل يحث الإنسان على اتباع سبل الخيرات والأعمال الصالحة، ويهديه إلى الطيبات، ويستره بلباس التقوى.

٢٩: بعد أن نفى القرآن الأمر الإلهي بالفحشاء ـ وهو يعني الخروج عن السيرة السوية ـ أعلن أن الله تعالى يأمر بالقسط والعدل، والاعتدال في المسيرة الإنسانية، واللجوء إلى بيوت العبادة (المساجد) والدعاء الخالص والانقطاع إلى الله عمّا سواه من الشياطين والطغاة. وإذ لاحظنا زمان نزول الآية وهي مكّية أدركنا أن المراد هو اللجوء إلى كلّ ما يذكّر بالله ويركّز طاعته، وكأنّها تريد أن يوسّع الإنسان من نطاق المسجد (محل عبادة الله) ليشمل الحياة كلّها، وهي رؤية تتنافى مع الرهبانيّة من جهة وفكرة فصل الحياة عن المسجد من جهة أُخرى.

٣٠: بدأت البشريّة بخطّين متصارعين؛ خط الحقّ وخط الباطل، وهي على هذه السنّة دائماً حتى تعود إلى ربّها. ففريق أخلص لله فهداه، وآخر عصاه فاستحق الضلال البعيد لأنه والى الشيطان وأتباعه وأولياءه من الطغاة والمستكبرين.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾

٣١: درس آخر متفرع على استعراض قصّة التجربة الأُولى لآدم في الجنة. فقد فُسح له المجال للتمتّع ولكن وضعت له حدود عندها يضمن سيره التكاملي الطبيعي. وهكذا كانت الشرائع الإلهيّة (وأكملها الإسلام) تفسح المجال للاستفادة الطبيعيّة من الطبيعة، فلا تنافي بين العبادة والتزيُّن، وإن الله يحبُّ المؤمن الجميل في تصرُّفاته ولباسه، ولا مانع من التمتُّع بالنعم الطبيعية، إلا أن ذلك يجب أ يتمَّ في حدود الاعتدال ولا يتجاوزه إلى الاسراف وتجاوز الحد الطبيعي.

٣٢: وخلافاً للرهبانيّة وكلّ من يدّعي أن الله حرّم على البشريّة التمتع بنعم الحياة المادية، تصرُّح الآية الكريمة بعدم التحريم، بل هي زينة الله ولطفه أخرجه لعباده وطيِّباته رزقهم بها، وهما من ملازمات الحالة الاجتماعيّة الطبيعيّة. وفي الآية إشعار بوجود جذور فطريّة للتزيُّن والتمايل نحو الطيِّبات وهي حالة تستدعي التأمُّل العميق.. فالزينة والطيّبات خلقت لكل البشر والذين آمنوا يتنعَّمون بهذه الحياة فيلبسونها بأفضل ما لُبست، ويأكلونها بأفضل ما أُكلت (كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي(ع) في «نهج البلاغة» عند حديثه عن مجتمع المتقين) وهم بعد ذلك مختصون بالنعم الإلهيّة يوم القيامة.

٣٣: وقد انصبَّ التحريم الإلهي ـ باعتباره لطفاً بالبشريّة ـ على كلّ تلك الأعمال التي تخرق الحدود الطبيعيّة وتعرقل المسيرة التكامليّة ـ سواء في ظاهرها أو في بواطنها ـ وهي الفواحش والإثم، أي الذنب الموجب للانحطاط والسقوط كشرب الخمر والاعتداء على الآخرين وحقوقهم، ومن أعظم الانحراف: الشرك في العبودية والحاكميّة، ونسبة الأكاذيب إلى الله، واتّباع الظنون.

٣٤: وانطلاقاً من حِكَم قصّة الخلقة الأولى والحقائق التي أعلنها القرآن لمسيرة التاريخ الانساني يقرِّر القرآن حقيقة أعمار المجتمعات الإنسانية وآجالها، وأن عليها أن تستغلّ عمرها للقيام بمقتضى الخلافة الانسانيّة.

٣٥: تأكيد قرآني على مسيرة التقوى والصلاح والهدى الانساني من خلال اتّباع الرسل الذين يبعثهم الله ليخبروا الإنسانية بواجباتها الحياتيّة، ويقودوها في صنع التاريخ، وضمان إلهي للمسيرة أنها إذا لبست لباس التقوى وعملت الصالحات في إطارها المبيَّن من قبل الله، وطبّقت شريعة الله، فإنها لن تحزن على شيء فاتها، ولن تُبتلى بالخوف والقلق من المستقبل.

٣٦: أما الذين كذّبوا بآيات الله الواضحة للعيان، وابتُلوا بنفس الداء الذي ابتُلي به ابليس وأتباعه، وهو داء الاستكبار والتعالي على الأوامر الإلهيّة، ونسيان حقيقة الذات الانسانيّة، والغربة عنها، وبالتالي ظلم البشر وامتصاص دماء الشعوب، فسوف يُبتلون بعذاب الخلود في نار جهنَّم.

٣٧: تقرِّر الآية أنّ الافتراء على الله ونسبة الشرائع الوضعيّة إليه أو ادّعاء سماحه للقوانين الوضعيّة بتنظيم الحياة الانسانيّة، أو تكذيب الآيات الإلهيّة كلها تعدّ أعظم الظلم، وإنها من صفات خطّ الشيطان والمستكبرين من أتباعه، وهؤلاء سينالون ما قدّر لهم في الحياة، وينالون نصيبهم مما كُتب لهم، ثمّ تأتيهم ملائكة الله لتتوفّاهم، وحينئذ يرون الحقيقة عياناً، ويدركون أيّ جناية كُبرى قاموا بها بحقّ الإنسانية، ويواجهون هذا السؤال الرهيب: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أي أين هؤلاء الذين كنتم تلجأون إليهم من دون الله وتقدِّمون لهم الولاء والطاعة مما سوى الله من الأرباب الوهميّة والمطلقات الكاذبة؟ فلا يملكون في قبال هذا السؤال الاستنكاري إلا الاعتراف الفظيع المهين بأن هذه الآلهة سخيفة لا تملك أن تمدَّ يد المساعدة لأتباعها وعملائها ولا تستطيع إنقاذهم من عذاب الله.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۗ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

٣٨: مصير رهيب ينتظر أولياء الشيطان والمستكبرين والطغاة، حيث يأتي النداء الإلهي لهم بالدخول في نار العذاب الإلهي إلى جانب الأمم الأخرى التي سبقتهم من قبل نار العذاب الإلهي إلى جانب الأمم الأخرى التي سبقتهم من قبل وسلكت نفس سلوكهم فابتليت بنفس المصير الأسود، حيث الغضب الإلهي، وحيث اللعنة المتبادلة بين هذه الأمم المنحرفة، حتى إذا أدرك بعضهم بعضاً واجتمعوا في النار جميعاً، انقسموا فريقين: فهنا الفريق الأول فريق الشياطين وأئمة الكفر والحكّام الضالّون، وهنا الفريق الثاني وهم أولئك المنخدعون والذيليّون والسائرون في ركاب الظالمين والممهّدين لهم ظلمهم، ويعلن الفريق الثاني أنهم مخدوعون من قبل الفريق الأول، ويدعون ربّهم كي يصبَّ العذاب المضاعف على هؤلاء الرؤساء المجرمين، وينسون أنهم هم الذين مهّدوا لهم ظلمهم. ومن هنا يأتي النداء الإلهي بأنّ العذاب المضاعف يصيب الفريقين معاً.

٣٩: وهنا يأتي التبكيت والخذلان ويبدو الخبث الاستكباري، حيث يخاطب الفريقُ الأول الفريقَ الثاني بأنهم متساوون في العذاب بلا زيادة لأحد على آخر، فليذوقوا العذاب نتيجة أعمالهم.

٤٠: هذا هو حال المكذّبين بآيات الله والمستكبرين والطغاة المتحكّمين بمصائر الشعوب، فإنهم معزولون عن الرحمة الإلهيّة، ولا تفتح لهم أبواب السماء، ولا ينعمون مطلقاً بالجنّة فذلك محال عليهم، كما أن دخول الجمل في ثقب ابرة الخياطة من المحالات، وذلك هو جزاء المجرمين.

٤١: وإمعاناً في التنكيل والتهديد يعرض القرآن لهؤلاء المكذّبين المستكبرين في الأرض حالتهم في جهنم، حيث تُفرش لهم مهاد وفرش من نار جهنم، وتغطيهم غواشي العذاب الأليم، فهم محاطون بالعذاب والغضب الإلهي من كلّ جانب.

وبهذا يتعمّق الحاجز النفسي بين الاستكبار العالمي التاريخي، وخط الإيمان والصلاح، فلا تكاد تجد أية نقطة التقاء بينهما، ذاك خطُّ العذاب والبُعد عن الرحمة، وهذا خطُّ اللُّطف والعبوديّة.

٤٢: هذه الفئة هي التي تحمل رسالة الله، وتقوم بمقتضيات الخلافة، وتصارع الطاغوت على مرّ التاريخ. فهي تؤمن بالله وتعمل بكلّ الصالحات في شتى المجالات، اللّهم إلا إذا لم تستطع القيام بالأعباء، وناءت تحت ثقل المشكلات والعقبات التي يضعها الخط المستكبر، فحينئذ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها، فتعيش حياة الصبر والتقيّة وتتحين الفرصة لمواصلة عملية التطبيق الكامل لشريعة الله، وتتأمّل بذلك لحياة الخلود في الجنة، وهو أقصى ما يمكن أن يأمله إنسان من خير على الاطلاق، ولا يحقّقه إلا الإيمان بالآخرة والخلود في النعيم.

٤٣: في قبال الصورة الكالحة التي يعيشها خطُّ الاستكبار في جهنّم حيث تلعن كلّ أمة اختها، ويدعو كلُّ فريق على الآخر؛ يعرض القرآن هذه الصورة الرائعة للحياة في الجنة، حيث يسود الحبُّ والوداد، فلا تجد في الصدور غلا وحقداً بعد أن تزعته يد الرحمة الإلهيّة وحيث تجري انهار الجنة تحتهم بأعذب ماء، فتُنشد القلوب نشيد الحمد لله الذي امتنّ على عباده بالهدى، وأوصلهم إلى هذا المقام العظيم، وما كانوا ليهتدوا لوحدهم إليه. ويتجلّى الحقُّ الذي جاءت به الرسل عياناً للجميع، فيشملهم ـ من بعد ـ نداء الرحمة الإلهيّة مهنّئاً إيّاهم بالجنة التي ورثوها بإخلاصهم وأعمالهم الصالحة.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۝ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝

٤٤، ٤٥: في سياق مشاهد القيامة التي يعرضها القرآن هنا يأتي هذا الحوار بين الفئة الطاهرة (أصحاب الجنة) والفئة الكافرة (أصحاب النار) فيعلن الأولون أنهم وجدوا وعد الله للمؤمنين حقاً فهل وجد الكافرون ما كانوا يوعدون به حقاً أيضاً؟ ولا مناصٌ من الجواب بالايجاب ليعلن مناد بينهما أن اللعنة الالهيّة ـ أي الطرد والابعاد عن ساحة اللطف الإلهي ـ منصبة على الظالمين لأنفسهم ولفطرتهم وللآخرين، من خلال وقوفهم عقبات أمام تحقيق ارادة الله وانفتاح سبيله أمام السائرين نحو الكمال، فهم لا يقتصرون على ظلم أنفسهم بل يسعون لتحريف السبيل واعوجاجه، وبالتالي ينكرون المعاد إلى الله.

وبهذا يحمل هذا النصُّ الشريف التبكيت والتخويف والتهديد لكل ظالم في الأرض.

٤٦: وهنا منظر آخر من مناظر القيامة حيث يبدو فيه فاصل بين الفريقين، أهل الجنة وأهل النار، وفي أعلى الفاصل «الأعراف» يقف اناس متميزون بمقامهم، يعرفون كلاً من الفريقين بما يحمله من سيماء العز أو الذل، وهم بالتالي يهنئون أهل الجنّة بمقامهم، ويبعثون لهم السلام، وهم على أهبة الدخول إلى الجنة طمعاً في الثواب العظيم.

٤٧، ٤٨: فإذا اتجه أصحاب الجنة إلى أهل النار استعاذوا بالله داعين أن لا يجعلهم مع هذا الفريق المطرود عن الرحمة، ثم راح أصحاب الأعراف يبكتون أشخاصاً يعرفونهم بسيماهم تبكيتاً شديداً، مذكّرين إيّاهم بما كانوا يعتزُّون به من قوة وجبروت يتفاخرون بها على قومهم ويستكبرون بها في الأرض.

٤٩: وزيادة في التبكيت يتوجّه أهل الأعراف إلى المجرمين من أهل النار مستفهمين عمّا ظنّه هؤلاء بالمؤمنين، إذ تصوّروا خطأً وعناداً أنهم أضاعوا ملذّاتهم ولم يحظوا بالنعم الإلهيّة، إذ لم يسلكوا سبيل الاعتداء والغي وإذ ضحّوا بكل مالديهم في سبيل دينهم وعقيدتهم وتحملوا الأذى والعذاب، فها هم اليوم يتأهّبون لدخول الجنة ليحصلوا على حياة الرضا والأمن، فلا خوف من شيء في المستقبل ولا حزن على شيء مضى سابقاً.

٥٠: ويتصاعد الاذلال لأهل النار إذ يتوسلون إلى أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو الرزق الإلهي، فيأتي الجواب إن الله تعالى حرّم ذلك على الكافرين يوم القيامة لأنه يوم الجزاء لا الإمهال والمراعاة.

٥١: إنهم استهزأوا بالدين وأهل الدين وقوانينه ونظمه، وراحوا يسخرون كلَّ ذلك لتحقيق مصالحهم المُوج ودنياهم الرخيصة، تخدعهم في ذلك ميولهم ومصالحهم وملاذّهم، دون أن يأبهوا بشيء للشعوب الخيّرة والقوى المعثرية المعطلة، والسير الانساني الحضاري إلى الله، فلا شيء أمامهم إلا المصالح، حتى ولو سُحقت في سبيلها النفوس وأُريقت الدماء، وهذا هو ديدن كلّ المستكبرين المتحكّمين بمصائر الشعوب والمتصين لدمائها.

وهو نداء إلهي رهيب يعلن انتهاء اللُّطف والرحمة بالمجرمين، ويصوّر لهم الموقف الأليم الذي سيلاقونه، موقف النسيان والاهمال تماماً، كما نسوا فطرتهم وواجباتهم وشعوبهم ولقاء ربِّهم يوم القيامة وجحدوا بآيات الله برغم وضوحها التام.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)

٥٢: إنهم جحدوا وكذّبوا بآيات الله بالرغم من أنه تعالى أنزل إليهم كتاباً مفصّلا ومبيناً بكلّ وضوح يحمل معالم صدقه، لأنه أُنزل على علم الله فحمل للناس الهدى إلى الهدف والهدى للطريق والسعادة التامّة لمن آمن به.

٥٣: فهل ينتظر هؤلاء المكذّبون أن تتجلّى لهم الحقيقة عياناً؟ وحينما تتجلّى يعلن اولئك الذين جحدوا بآيات الله ونسوا ما شاهدوه من علائم التصديق؛ أنّ رسل الله قد جاءت بالحقّ بلا ريب، فمن ذا الذي يشفع لنا وينقذنا من المصير الأليم الذي صرنا إليه نتيجة عدم التسليم للحقّ الواضح المفصّل؟ وهل لنا من سبيل ترجع فيه إلى الحياة الدنيا؟ لنعمل وفق هذا الهدى ونطبّق شريعة الله في الأرض وهكذا يتجلّى لهم أنهم خسروا ذواتهم واغتربوا عنها حين ابتعدوا عن دين الفطرة ودين السعادة والأهداف المعنويّة الكبرى التي يستهدفها، والتصقوا باللّذات المادية الرخيصة، وغرّتهم الحياة الدنيا، ولم تنفعهم كلّ أساليب الافتراء التي كانوا يطلقونها ضدّ خطّ الدين والايمان.

٥٤: بعد هذه المشاهد الرائعة التي ينقلها القرآن عن القيامة، وهي تحمل الكثير من المعاني التي يُراد غرسها في النفوس والتي تعمل على تحقيق الهدف القرآني الهادي إلى سواء السبيل، تعود الآيات إلى قضيّة التوحيد والخلق وتركز في النفوس عظمة الخلقة الإلهيّة ومراحلها المتعدّدة (في ستة أيام) من أيام الخلقة وأنه تعالى استوى بقدرته وأوامره على (العرش) وهو المركز الذي يُدار منه الكون عبر الملائكة الحافّين به، فإلى العرش تنتهي حلقات الترابط الكوني، وهو سر الوحدة الشاملة، وهو محل تجلّي القدرة واللّطف الإلهيّين، ومن الألطاف حركة الليل والنهار الناتجة من حركة الأرض وموقع الشمس وفق قوانين كونية صارمة رائعة تفرض هذا السير الدوراني الحثيث، الدقيق، المتتابع. وباللطف نفسه جاء خلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله لصالح الإنسان، وهو أكرم موجود، عسى أن تتهيّأ أمامه كلّ سبل الرقيّ والكمال.

فله ـ وحده لا شريك له ـ الايجاد، وإليه يرجع أمر الموجودات في تربيتها وتشريعها كما في تكوينها وتنسيقها وتنظيمها تنظيماً يقف أمامه الفكر الانساني مبهوراً، ويسجد أمامه الوعي مذعناً، ويتجلّى أمام العقول فلا تملك إلا أن تؤمن بكلّ خشوع وتبتّل، وتعلن ان الله تبارك وتعالى وغمر الكون ببركاته ونعمه، وشمل العالمين بربوبيّته وهدايته.

٥٥، ٥٦: وإذ يبلغ القرآن بالنفوس إلى هذا المبلغ يدعوها للدعاء والتضرّع أمام الربّ العظيم بكلّ حياء واستتار، كما ينفّرها من الاعتداء على حقوق الذات وحقوق الآخرين وحقوق الله، فيزكّيها بما لكلمة التزكية من معنى الانماء ومضمون التطهير، ويبعدها عن الافساد في الأرض في الحين الذي يدعوها فيه للارتباط بالله والتعلّق به خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، معلناً أن الفيض الإلهيّ عميم وقريب من النفوس المستعدّة له وهي النفوس المحسنة.

٥٧: وهذه صورة أُخرى من صور الرحمة إذ تنطلق الرياح وفق قوانين الله تحمل بشرى الرحمة الإلهيّة، وتقلّ الغيوم المثقلة بالماء إلى بلد ميّت ممحل لتحييه بالماء، وتخرج الثمرات، وتتم عملية إحياء كونية لتشهد على عملية احياء اخرى يوم القيامة فتصبح عبرة للمعتبرين.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

٥٨: وكما رأينا من قبل تأكيد القرآن لزوم توفير القابليّة في النفوس لتنال رحمة الله فإنّ هذا المقطع الشريف يؤكّد أن العطاء الإلهيّ تام، شريطة أن تكون القابلية تامّة، فالبلد الطيّب يخرج نباته بإذن الله طيباً، في حين لا يخرج نبات الأرض الخبيثة إلاّ نكداً قليل العطاء، وذلك مثل عام يضربه القرآن لكلّ من وعى النعمة الإلهيّة وعمل على شكرها.

٥٩: اسلوب آخر من أساليب تقرير الإيمان في النفوس وتحقيق الأهداف التربوية القرآنية. فبعد أن استعرض القرآن مشاهد القيامة وهنا فيها عواقب الفريق المؤمن والفريق الكافر يقص علينا قصة نوح مع قومه، مبتدئاً بالكلمة التي قالها الأنبياء جميعاً لأممهم ﴿اعبدوا الله مالكُمْ من إله غيرُهُ﴾ نافياً كلّ الآلهة الوهميّة في الكون وكل من يُدَّعى لهم التأثير المستقل ومركّزاً على الإله الواحد وداعياً للتفكير بعذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، حيث ستصير البشريّة إليه. وهكذا يقوم كل التصور على أساس التوحيد والمعاد.

٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣: وكما ردّد المكذّبون عبر التاريخ ردّ عليه الملأ والمترفون مكذّبين دعوته ومعلنين أنه في ضلال بيّن!! على الرغم من أن كلامه كان يحمل كلّ علائم الهدى، فما هو في نفسه إنسان خفيف العقل والمنطق، بل هو الإنسان القويم المهتدي، وهو مع ذلك يحمل رسالة من ربّ العالمين ويبلّغ رسالاته بكلّ وضوحها وجلالها، ويخاطب وجدانهم ناصحاً، وفطرتهم موجّهاً، ويريهم من العلوم الإلهية ما لم يكونوا يعلمون. ولا عجب أن تنزل عليه الرحمة من خلال رجل منهم (عاشوا معه وخبروا حكمته وعقله) لينذرهم ويحذّرهم من عذاب الله، وليوصلهم إلى حالة التقوى، وهي سلّم الكمال الانساني، ويهيئهم حينئذ للعطاء والرحمة الإلهية.

٦٤: إلاّ أن الاستدلال الحكيم لم ينفع مع قومه، فكذّبوه كعادة كلّ المستكبرين، فشملته الرحمة الإلهيّة بإنقاذه هو ومن معه في الفُلك وأهلك المكذّبون عبر ظاهرة الطوفان، بعد أن أفقدوا أنفسهم ظاهرة الرؤية وعادوا قوماً عمين عن النظر إلى الحقيقة.

٦٥، ٦٦: ويستمر القرآن في عرضه قصّة صراع الإيمان مع الكفر، فيذكر المثال الثاني، وهو قصة (عاد) التي بُعث إليها أخوها هود (الذي عرفته وخبرت حكمته أيضاً) ليقول لها ما قاله نوح من قبل لقومه، وهو إعلان كلمة التوحيد ونفي الآلهة المصطنعة، والدعوة للتقوى، وتطبيق شريعة الله في الأرض، ليواجهه الأشراف (الملأ) من قومه متهمين إياه بالسفه والكذب، كعادة كل المكذبين عبر التاريخ، وهذا التكرار في المشهد يترك أثره المثبط لعزائم المشركين المكذبين لرسول الله(ص) كما يترك أثره المثبت لاتباع خط الإيمان.

٦٧: وكما استدلّ نوح على صدقه في رسالته، استدل هود على صدقه بارجاعهم إلى ما يطمئنون إليه في واقعهم ومكنون أنفسهم من عدم وجود سفاهة، وانه يحمل علامات الرسول من ربّ العالمين.

أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴿٦٨﴾ أوعجبتم
أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم
واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم
في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون
﴿٦٩﴾ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان
يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين
﴿٧٠﴾ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب
أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم
ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من
المنتظرين ﴿٧١﴾ فأنجيناه والذين معه برحمة منا
وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين
﴿٧٢﴾ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله
ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم
هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض
الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴿٧٣﴾

٦٨: وهذه هي طبيعة الرسل الإلهيين فهم يبلّغون الحقيقة وينصحون البشريّة بكل أمانة وطهارة، وهما علامة الصدق.

٦٩: وكما استنكر نوح تعجُّب قومه من أن رجلاً منهم يتأهل لتحمل الوحي الإلهي، فان هوداً يستنكر الموقف نفسه من قومه حيال رجل جاء ينذرهم بعذاب الله إن انحرفوا، ويذكّرهم بالمنحة الإلهيّة لهم إذ جعلهم حكام الأرض وخلفاءها بعد نوح، ومنحهم قوة وتقدماً مادياً (مما يشعر بتقدُّم مدني كبير لهم) وكل تلك آلاء، ونعم إلهيّة ينبغي أن تذكر فتشكر بتطبيق شريعة الله وتنفيذ أوامره، فإنّ فيها الفلاح والتقدُّم الحقيقي.

٧٠: ويشتدُّ عناد الملأ المترف من قومه ويتعجّبون من دعوته لعبادة الله وحده وترك آلهتهم المصطنعة برغم كونها مما يعبد آباؤهم!! وكأنَّ ذلك مصحّح منطقي لالوهيّتها الكاذبة، وزيادة في الكفر والجحود، وربّما إمعاناً في إغواء الناس يطالبونه بتنفيذ وعيده وإنذاره.

٧١: وهنا يهدّدهم هود بالعذاب ويعلن أنهم استحقوا وقوع الرجز ـ وهي الظاهرة التي يفرُّ الإنسان منها ويتنفَّر من آثارها ـ وعذاب الغضب الإلهي المبعد عن الرحمة، ولعلّه كان يدعو عليهم ويعلن استنكاره لجدالهم ودفاعهم عن أسماء مصطنعة وآلهة وهميّة صاغوها بأنفسهم لتحقّق لهم مآربهم الوضيعة، ويصعدوا بها إلى مقام الاطلاق والالوهيّة ـ كذباً وزوراً وتخلفاً فكرياً ـ على الرغم من أنها لا تملك من الوجود المطلق أي نصيب أو تأييد أو سلطة.

وهذا هو ديدن النفوس المتخلّفة والمستكبرة؛ تبتدع أسماء وصوراً وتطلق شعارات فارغة، وتطرح نماذج وهمية، ومقاييس كاذبة، ثمّ تعمل على زرعها في نفوس العامة وتصعيدها في الأذهان حتى تبلغ مآربها، وربما انخدعت هي بما صنعت بأيديها فراحت تعبدها وهما ووقوعا في الفخ نفسه.

إن هذا الحوار ليهزُّ نفوس المشركين وينبّههم إلى نقطة الخطأ الكبرى ويسوقهم إلى الإيمان سوقاً.

وبعد هذا التبكيت، يشدّد من وعيده داعياً إياهم لانتظار العذاب.

٧٢: وتكرَّرت العاقبة حين أنجاه الله هو والذين آمنوا معه فشملتهم الرحمة في حين قُطع دابر الكافرين واجتثت أُصولهم.

٧٣: ومثل ثالث يضربه القرآن على الحقيقة التي يسعى لتقريرها، وهي: (حقيقة الصراع بين الكفر والايمان، والنداء الموحَّد للأنبياء، والموقف الموحَّد للمكذّبين وعاقبة الصراع الواحدة) وهذا المثل هو قوم ثمود إذ يبعث لهم أخوهم صالح ليقول لهم ما قاله نوح وهود من قبل، وليستدلَّ على صدقه ببينة إلهيّة واضحة حسّية وهي الناقة المعجزة باعتبارها آية إلهيّة، وكلُّ ما هو مطلوب من القوم أن يعتبروا بهذه الآية، ويدعوا الناقة فإنها تأكل في أرض الله ولا يمسّوها بسوء ليطفئوا بذلك هذا السراج الدالَّ على صدق النبي صالح، وبالتالي يلغو باب الهداية أمام الطالبين، فإذا فعلوا ذلك مسّهم العذاب الأليم.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

٧٤: ويذكّرهم نبيُّهم صالح بتحمّلهم خلافة الأرض بعد أن تحولت القدرة الحضاريّة من عاد إليهم، فهم حينئذ مشمولون بألطاف الله وآلائه يملكون القدرة ويتبوأون من الأرض (يتمكّنون منها) حيث يشاؤون ويستفيدون من مناطقها السهلة لبناء قصورهم وينحتون من الجبال بيوتاً لهم، مما يدلُّ على تقدُّم في المدنيّة وتطوُّر في الذهنيّة العلميّة منحهم الله إياه، وهذه الألطاف تشدِّد من مسؤوليّتهم تجاه تحكيم شريعة الله في الأرض وعدم النكول عن عهود الله والامتناع عن الافساد في الأرض.

٧٥، ٧٦: وبطبيعة الحال فإنّ الملأ الذين ضُربت مصالحهم الضيّقة والذين ينطلقون من منطلقات الاستكبار الذاتي الوضيع، يتوجّهون بالتساؤل لأولئك المستضعفين الذين آمنوا بصالح وصدّقوا برسالته، مشكّكين في صحّة دعوى صالح للنبوّة، إلا أنّهم يواجهون بالموقف الايماني الرائع المطمئن، إذ تُعلن الفئة المستضعفة أنّها مؤمنة تمام الإيمان بالحقيقة، ولم ينفع معهم التشكيك ولا التهديد ولا تكذيب الملأ، فيردّ الملأ بأنهم كافرون مصرّون على الكفر.

٧٧: وهذا الردُّ العنيف من الملأ هو ديدن المستكبرين عبر التاريخ، انهم يستخدمون منطق القوّة والعنف لفرض سلطتهم بعد أن لم ينفع التشكيك، وهكذا قطعوا قوائم ناقة صالح وهي آية إلهيّة ونعمة ربانيّة ـ كانوا قد طلبوها ـ وطغوا وعتوا عن أمر ربِّهم وراحوا يتحدّون الرسول أن ينفّذ ما وعدهم به فانصبَّ عليهم العذاب، وتلك حالة يشهدها الإنسان لدى كلّ متكبّر، وخصوصاً حينما يصاب بخيبة الأمل عند اخفاق خططه الشيطانية، فهو ينسى حتى ما يصدق به وجدانه وتأخذه العزة بالإثم، ويتصوّر انه يستطيع الخلاص من سلطان الله وعذابه.

٧٨: وتلك عاقبة المستكبرين، فهؤلاء الملأ اصيبوا بالرجفة والصيحة والصاعقة ـ حسب التعبيرات القرآنية ـ فإذا بذلك التكبر يتحوّل إلى ذل، وذلك الاطمئنان بالتكذيب يتحوّل إلى اضطراب ووجوم، والتحدّي يتحوّل إلى جثوم وخنوع، فهم ساقطون على وجوههم وركبهم لا يقدرون على شيء.

٧٩: بعد أن أُصيب قوم صالح بعذاب الاستئصال الأليم تولّى عنهم صالح وأعلن انه كان في دعوته لهم ناصحاً ومرشداً ومربياً وقائداً إلى الهدى عبر رسالات الله، وهي السبيل الوحيد للسعادة، إلاّ أن هؤلاء الناس نتيجة عتوّهم وتكبُّرهم لا يحبُّون الناصحين، ويعني ذلك أنهم لم ينسجموا مع عواطفهم الحقيقيّة التي تدعو للميل نحو الناصحين.

٨٠، ٨١: وهنا ينتقل القرآن الكريم إلى مشهد آخر من مشاهد المكذّبين فيستعرض حالة قوم لوط ـ وقيل إنهم أهل منطقة سدوم ـ وقد كان هؤلاء قد ابتلوا بانحراف أخلاقي خطير يتمثل في اللواط، تلك الحالة الرذيلة التي تترك أثرها المخرب على العلاقات الاجتماعيّة فتبعدها عن المسار الفطري الطبيعي لها، وهي حالة ابتُليت بها الجاهليّات المختلفة ومنها الجاهليّة الغربيّة الحديثة، بالرغم من أنها مما تأباه الفطرة الطبيعية ـ كما قلنا ـ إذ تعبِّر عن فحش وخروج عن الحدّ الطبيعي واسراف في تصريف الغريزة يؤدّي إلى التحطيم الاجتماعي، وهو أمر حاربته الأديان السماوية بشدّة، وشجّعت على العلاقة الزوجية لأنها تنسجم ـ من جهة ـ مع اتجاهات الفطرة، ومن جهة أُخرى تعتبر البناء العائلي الطبيعي الحجر الأساس في البناء الاجتماعي الكبير.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

٨٢: وعلى الغرار نفسه مما كان المستكبرون عبر التاريخ يصنعونه ردّ قوم لوط على دعوته التطهيريّة الفطريّة، معتبرين هذه الدعوة ـ وإن كانت تطهيريّة ـ عملاً سلبياً واجراماً يعاقب فاعله بالتبعيد من البلد. ومن هنا نعرف مدى الانحراف الذي أصابهم، فهم يعترفون بكون دعوته تطهيريّة وفطرتهم تجنح إلى التطهير في تركيبتها إلا أن انحرافهم وجموحهم عن الحقّ وانغماسهم في الذنوب يحول بينهم وبين الاستجابة للنقاء، بل يدفعهم للتلوث ومحاربة التطهير.

٨٣، ٨٤ : فنجّاه الله من ذلك الوحل والعذاب، في حين لم ينفع امرأته صلتها السببيّة بالنبيّ مادامت تتصل صلة عقائديّة بالانحراف والبيئة الفاسدة، فاستثنيت من عملية الانقاذ وأُبقيت مع الغابرين المصابين بالهلاك والدمار الذي نزل عليهم كالمطر.

وهذه هي اضاءة العبرة التي تُرى بين الحين والحين لتذكر السامعين بالهدف الانساني من وراء عرض هذه المشاهد، ويتلخّص في تثبيط عزائم المكذّبين المنحرفين بتذكيرهم بالعاقبة السيئة، وتثبيت عزائم المؤمنين وتركيز أقدامهم على صراط الحقّ ودفعهم للثبات.

٨٥: وهذا مشهد آخر يعرضه القرآن عبرة للتاريخ وتقوية لخطّ الإيمان حيث يبعث الله شعيباً إلى مدين ليعلن قبل كلّ شيء كلمة التوحيد: «اعبدوا الله» وهي الأساس والروح لكلّ نظام إلهي، وليأتيهم بآية بينة من ربّه دليلا على صدق دعواه للرسالة. وحينما يقوم الدليل ويتمّ الإيمان بالله تعالى وحده فإنّ من الطبيعي ان تبنى الحياة على أساس من شريعة الله المنسجمة مع الفطرة، وهي تقتضي اعطاء كلّ ذي حقّ حقّه دونما إنتقاص منه، والوفاء بالكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم وحقوقهم فهي قاعدة تدعو إليها الفطرة بكلّ وضوح، تماماً كما تنهى عن كلّ ما يفسد الأرض والعلائق الاجتماعيّة ويخلق التزلزل في البناء الاجتماعي الرصين الذي تصلحه الشريعة الإلهيّة الغراء.

فالايمان الحقيقي بالله يقتضي التزام منهجه، وهذا الالتزام يقيمهم على درب الخير المتواصل، درب التكامل، وهو هدف الخلقة، ولا خير في مجتمع يسوده العدوان والغش والتدليس والغدر.

٨٦: وهذا نهي عن حالة وضيعة يُبتلى بها المنحرفون عن صراط الله، فهم يترصّدون المؤمنين المجاهدين العاملين بمنهج الله، ويحبسون عليهم أنفاسهم، ويقطعون عليهم السبيل، ويهددونهم بترك مبدئهم والانحراف عن سبيل الله والاتجاه نحو الأهداف المعوجة المائلة عن الحق.

وإذ يستفيد شعيب(ع) من نداء الفطرة وتحريك العواطف يذكّرهم بالنعمة الإلهيّة الكبرى، نعمة القوّة بعد الضعف، والكثرة بعد القلّة، كما يدعوهم للتأمّل في التاريخ وملاحظة عواقب المفسدين.

٨٧: وإذ وقع الاختلاف بين قومه في مجال الإيمان به وعدمه، وانقسموا إلى فريقين فإنّ النبي يدعو الجميع للصبر والتروّي وانتظار الحكم الإلهيّ العادل، وفي ذلك توفير للجوّ المناسب، وتقريب إلى الحق، وتركيز لمسألة أنّ الحلّ الحقيقيّ للمشكلة يتمّ عبر حكم الله.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾

٨٨، ٨٩: مرّةً أخرى تواجه الملأ المستكبرين وهم يتوعّدون نبيّهم وأتباعه المؤمنين به بالتبعيد، إلا أن يرجعوا عن خطّ الهدى إلى خطّ الضلال.

وهنا يواجههم منطق النبوة والايمان الذي لا يتزعزع قائلاً: إن كلّ أحاسيسهم تكره حياة الكفر والضلال، وتتنفّر من مظاهره الشيطانية، وكيف يرجّح الإنسان الطبيعي المنسجم مع فطرته حياة الظلام على حياة النور، انه عاهد ربّه على الإيمان وعلى العمل بمقتضيات الإيمان وبناء الحياة وفق الهدى الإلهي، وأيُّ نكول عن هذا العهد يعني التكذيب، ويعني الكفر بنعمة الإيمان، والجحود بآلاء الله المتمثّلة في الانقاذ من الضياع وحكم الطاغوت، إلى حياة العزّة والحريّة الحقيقيّة والنور.

وهذا تأكيد على أن الارادة الإنسانية مهما كانت محكومة للمشيئة الإلهيّة. فهو الأعلم بالمصير الانساني مهما كان التصميم والعزم جازماً وهو العليم بكل شيء، وعلى أساس من هذا التصور يأتي مفهوم التوكّل على الله تعالى ربّ الكون وهاديه، فالله تعالى عليم بكلّ شيء ولطيف بالانسان ومريد لهدايته، فليوكل الأمر إليه ولا يخيب المتوكّلون عليه.

يتوجّه النبي شعيب بهذا الدعاء الرائع في مضمونه معلناً أنّ الفتح والنصر والحكم بيد الله فليفتح الله بالحقّ وليقضي قضاءه فهو خير الفاتحين.

٩٠: بعد أن يئس الملأ من شعيب راحوا يهدّدون المؤمنين به بالخسران نتيجة اتباعهم صراط النبيّ شعيب، وهكذا يفسّر هؤلاء الرقيّ والتكامل تفسيراً عكسياً ليغروا به المؤمنين ويصدّوهم عن الحق.

٩١، ٩٢: وعلى غرار قوم عاد توجّه عذاب الاضطراب والرجفة إلى قوم شعيب وأكبّهم الله على وجوههم وركبهم خاسئين أذلة نتيجة ذلك العتو والاستكبار، وأعلن القرآن حينئذ ان الخاسرين حقّاً هم المكذّبون الذين لم يستجيبوا لنداء الحقّ فأصابهم العذاب ومحاهم من الوجود، بعد كلّ تلك الخيلاء وكأنهم لم يبنوا ما بنوا ولم يكونوا من قبل، وتلك عبرة للمعتبرين.

٩٣: وكما تولّى الأنبياء من قبل عن المكذّبين تولّى شعيب عن قومه معلناً أنه قد بلّغ الرسالة، وحمل الأمانة، وألقى النصيحة، ولكنّهم كفروا بها فذاقوا وبال أمرهم، ولا أسف على القوم الكافرين.

٩٤، ٩٥: بعد استعراض أحوال المكذّبين وما جرى بينهم وبين أنبيائهم من حجاج وما انتهوا إليه من عاقبة، يطرح القرآن هذا التلخيص العام كقانون وسنّة تاريخية لا محيص عنها ليترك بذلك أثره على المسيرة الإسلامية الإنسانية عبر القرون التالية.

إن هذا القانون يتلخص في تقرير حقيقة تاريخيّة تؤكّد ان طريق التكامل الانساني محفوف بالمصاعب، وانه لن يتم إلاّ عبر الامتحان والاختبار والاحساس بواقع الانسانيّة الضعيف أمام الخالق القوي العظيم. فالأنبياء عندما يرسَلون إلى القرى يمرُّ أهلها بحالات الشدّة والضرّ في النفس والمال حتى يتضرّعوا إلى بارئهم ويشعروا بضعفهم، ثمّ تأتي حالة من الرخاء فينسى معها بعضهم ما كانوا عليه من الشدّة ويعتبرونها حالة طبيعية أصابتهم كما أصابت آباءهم من قبل، ولا علاقة لها بأعمالهم وامتحانهم، وحينئذ يأخذهم عذاب الله بغتة ودونما تمهيد سابق.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

٩٦: وهذا قانون تاريخي متمِّم للقانون السابق، وهو يعبِّر عن نوع آخر لم يألفه البشر الغارقون في المادة والحس. إنه يعني الترابط الوثيق بين عالم الغيب والشهادة، وبين الإيمان والتقوى، وبين البركات السماوية والأرضيّة مما يؤدّي إلى التقدّم المادي والحضاري في الوقت نفسه، في حين يؤدّي التكذيب والانحراف إلى العذاب والضياع الحضاريّ أيضاً. وما كلُّ المشاهد التي عرضها القرآن إلاّ دليل ناصع على هذه الحقيقة وما كلُّ ما تشاهده البشريّة اليوم من انحطاط أخلاقي وحضاري لدى المذاهب الماديّة إلا شاهد آخر على هذه السنّة التاريخيّة التي يؤكّدها القرآن.

٩٧، ٩٨، ٩٩: في هذه الآيات تأكيد على لزوم الخوف من عذاب الله والحذر الشديد من الانحراف والضياع، وإلا عرَّض المجتمع نفسه لانطباق السنّة الإلهيّة دون أن يمنع منها مانع، وربّما كان الإنسان غارقاً في نوم أو لعب فيأتيه العذاب بغتة دونما تمهيد سابق. وتلك خصلة سيئة: أن يأمن الإنسان عذاب الله فيتمادى في الغيِّ ثمّ يصاب بالخسران المبين.

١٠٠: وهذا خطاب قرآني لكل أمة ييسر الله لها أن تملك النعمة والقوة وتملك السيطرة لتأخذ حذرها من عذاب الله إذا طغت ولم تقُم بحقّ الخلافة الانسانيّة لله، ولم تطبّق شريعة الله في الأرض، فإنها ستكون حينئذ عرضة لاصابتها بعذابه تعالى نتيجة ذنوبها. والعذاب الشديد يتمثّل بعد ذلك في الطبع على القلوب، وضياع الشخصيّة الانسانيّة حتى لاتعود تسمع نداء فطرتها ولانداء ربّها ولا نداء المصلحين الناصحين.

١٠١: استنتاج آخر من عرض مشاهد البعثة والتكذيب وهو يؤكّد ان الرسل جاؤوا إلى هذه الأمم بالبيّنات والدلائل الواضحة المنسجمة مع كلِّ السبل المؤدّية لليقين الوجداني إلا أنهم كانوا يواجهون بالتكذيب من قبل الملأ المستكبر، لا لشيء إلا لأنهم اعتادوا في مسيرتهم التكذيب بكلِّ ما لا ينسجم مع مصالحهم، فكأنها العزة بالاثم تأخذهم، وكأنَّ الطبع على قلوبهم نتيجة تكذيبهم المستمر لنداءات الحق يمنعهم عن الإيمان بما كفروا به من قبل.

١٠٢: انهم لا يحترمون عهودهم التي قطعوها بفطرهم، ولا مواثيقهم التي أعطوها بأفواههم، ذلك أن الالتزام بالعهد فرع الانسجام الشخصي مع العقيدة والتعهد بالمبادئ، وهؤلاء لا مبادئ لهم. وهذا الانحراف عن الحالة الطبيعيّة هو الحالة التي يعبِّر عنها القرآن بالفسق. وإذا رفض الإنسان الانصياع لنداءات العقل والوجدان خرج عن حالته الانسانيّة ولم يعد من الطبيعي له توقُّع بناء الشخصيّة الفردية أو الاجتماعيّة.

١٠٣: يواصل القرآن هنا الإشارة إلى مشاهد بعثة الأنبياء، ومواجهة الطواغيت والملأ المستكبرين لهم، فيشير إلى قصّة موسى وبعثته إلى فرعون ومَلَئِهِ الذين رأوا الآيات البينات ولكنهم ظلموا بها وانحرفوا عن مدلولها فكانت عاقبتهم عاقبة من سبقهم من المكذّبين.

١٠٤: وقصة موسى تعبّر عن صرخة المستضعفين المحرومين في وجه الطواغيت أروع تعبير. ان الإنسان الضعيف عندما يتصل بالله تعالى يملك أعظم قوة يستطيع بها أن يقارع كلَّ الطواغيت، وهكذا جاءت صرخة موسى بوجه فرعون: ﴿إني رسول من ربِّ العالمين﴾ دونما خوف أو وجل.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

١٠٥: ومن الطبيعيّ جداً أن لا يتوقّع من رسول الله إلا قول الحق وخصوصاً إذا كانت النسبة إلى الله جلّ وعلا. ومن هنا فموسى (عليه السلام) يعمل على كسب الثقة بقوله، كما يذكّر بالبيّنة والمعجزة التي يحملها تصديقاً لكلامه وانتسابه إلى الوحي. وبعد هذا يطلب من فرعون أن يطلق بني إسرائيل لينهض بهم موسى فيحقّق الهدف الرسالي المطلوب ويكسر شوكة الاستكبار الفرعوني بالتالي.

١٠٦: إلاّ أن ذلك الكلام الخالص لم يترك أثره المطلوب في نفس فرعون الطاغية، بل راح يتحدّى موسى أن يُظهر بيّنته التي ذكرها في معرض حديثه، ثم راح يشكّك حتى في صدق هذا الرسول.

١٠٧، ١٠٨: وهنا يظهر موسى(ع) معجزتين احداهما: تحوّل العصا إلى ثعبان حقيقي، والأخرى: تحوّل بشرة يده السمراء إلى بشرة بيضاء ناصعة خارقة للعادة لا يشكّ أحد معها بأنها معجزة إلهيّة خارقة.

والملاحظة في الأمر أن هذا النوع من الإعجاز كان يتناسب مع ماكان يسود ذلك العصر من فن السحر الذي ما هو إلاّ أوهام تنجلي عندما تتجلّى شمس الإعجاز الحقيقية.

١٠٩، ١١٠: وبالرغم من الوضوح فإنّ العناد عن الحق يبدو من أول الأمر، ذلك أنّ الملأ المترف من آل فرعون يطلق تهمة السحر على موسى أولاً، ثم يحذّر كلَّ المستأكلين على موائد الطغيان بأنهم سيفقدون مراكزهم ومساحات نفوذهم إذا فسحوا المجال لموسى لكي يقود قومه نحو الهدف. فكلُّ همهم هو الحفاظ على العروش والنفوذ والأرض، فذلك لدى الظالمين فوق التصديق بالحقيقة والاذعان لربوبيّة ربّ العالمين.

١١١، ١١٢: في قبال هذا الهجوم النبوي على بلاط فرعون لم يجد الملأ إلاّ أن يطلبوا هدنة وفرصة ليدبّروا أمرهم ويحيكوا خيوط مؤامرتهم بتحريك السحرة ضدّ موسى، فأرسلوا مناديهم السحرة في المدن ليجتمعوا في مهرجان عام وينازلوا معجزة موسى.

١١٣، ١١٤: ويستجيب السحرة لنداء فرعون مستهدفين المنافع الماديّة، فيضمنها فرعون لهم، مضيفاً إلى ذلك وعدهم بالتقريب إليه وجعلهم من وعّاظ السلطان، وهي حالة نلحظها لدى الطغاة والمنحرفين من المستأكلين باسم الدين والعلم.

١١٥، ١١٦: وهنا خيّر السحرة موسى في البدء بإلقاء الحبال واستعراض القوة، فطلب منهم أن يبدأوا هم، وفعلاً فقد شرعوا فيه وسحروا أعين الناس، أي صوّروا الخيال والوهم لأعين الناس حقيقة واقعية، وبعثوا الرهبة في النفوس عبر سحرهم العظيم.

١١٧، ١١٨: وأوحى الله إلى موسى أن يلقي عصاه فإذا هي ثعبان حقيقي يأكل كلَّ ما طُرح أمام الناس من سحر، وينفي كلَّ تلك الأوهام، ويمحو كلَّ ذلك الإفك والتزوير. انه الحقُّ وإذا وقع زهق الباطل على الرغم من تضخمه في النفوس.

١١٩: وبدا الصَّغار والذلة على السحرة بعد أن غلبتهم الحقيقة الإعجازية، وراحوا في فكر عميق يشعرون معه بضعتهم أمام ربّ موسى، ربّ العالمين.

١٢٠، واستجابت نفوسهم للحقّ فما وجدوا أنفسهم الاّ وهي ساجدة لهذه العظمة الإلهيّة بعد أن أدركت ضعف تخطيطها أمام الحقيقة.

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

١٢١، ١٢٢: وهذه احدى الصور القرآنيّة الرائعة للايمان والثبات الآتي بعد تبصُّر وإمعان، إذ أعلن السحرة الذين أتى بهم فرعون لإخماد صوت الإيمان، أعلنوا جميعاً إيمانهم بالله رب العالمين، وهو الربُّ الذي يدعو للايمان به موسى وأخوه هارون وكل الأنبياء، أعلنوا ذلك بكلّ صراحة بالرغم من الموقف الفرعوني الرهيب.

١٢٣: وهذه صفة طاغوتية فرعونيّة يتصوّر معها الحكّام الطغاة أن إيمان الناس بالله وتكوينهم لموقفهم من الكون والحياة والانسان يجب أن يتمّ عبر إذن حكومي. ومعنى ذلك أن الحاكم يتصرَّف بكلّ الوجود الشعبي بما يشاء. وهناك صفة طاغوتية اخرى تشير إليها الآية، وهي توجيه الاتهام بالخيانة إلى الفئة المؤمنة، والعمل على الإطاحة بالكيان الحاكم، وإخراج أتباعه من المدينة. وبالطبع فإن اتهام الخيانة يعرّضهم لعقاب مبهم مرعب يعبّر عنه فرعون بقوله (فسوف تعلمون).

١٢٤، ١٢٥: وعلى سُنّة جميع الطواغيت يأتي هذا الوعيد الرهيب بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وربّما أراد به قطع الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى أو العكس، والصلب صلباً جماعياً.

مرّة أخرى يتجلّى الثبات الواعي القائم على أساس من نظرة عميقة إلى الحياة وعلاقتها بالله، فها هم السحرة يواجهون تهديد فرعون بالتذكير بتلك النظرة، نظرة الإيمان بالحياة الأُخرى، والاسراع إلى الجنة فيكون الموت عندها قنطرة الخلود.

١٢٦: وما أروع أن يثير الإنسان نقمة الطغاة عبر إعلانه الإيمان بالله، وعبر اذعانه للآيات الإلهيّة البيّنات!

وهذا هو دعاء المؤمنين عبر التاريخ حينما يواجهون المصاعب والمشاكل، وما يريده الإسلام للفئة المؤمنة أن تعلنه كذلك في كلّ موقف. إنه يعني اللجوء إلى الله كركن ركين، وطلب الصبر الواعي، واستمداد القدرة على الاستقامة على خطّ الحقّ حتى الموت، وهي أقصى ما يتمنّاه، وأصعب امتحان يمرُّ به. واشارتهم إلى التسليم المطلق تؤكّد وحدة المسيرة المؤمنة، ووحدة الشريعة، وهي الإسلام.

١٢٧: وراح الملأ المترف ـ وهو يرى الأرض تهتزُّ تحت قدميه، ومصالحه مهدّدة ـ يحرّض فرعون على هذه الفئة المؤمنة بموسى، ويصوّرها فئة مفسدة في الأرض، تعمل على إبعاد الشعب عن هذا الطاغوت وآلهته الرسميّة! وبهذا فهم يتصوَّرون الأرض ملكاً خالصاً لهم، وأن ثباتها وصلاحها يتمثّل في استمرار حاكميّتهم ومصالحهم فقط، وكلّ ما دون ذلك فهو فساد! ويأخذ فرعون الاعتزاز بقدرته، ويعلن أنه سيتتبّعها بكلّ قسوة مقتّلاً أبناءها، ومستحيياً نساءها، ومحكماً قبضته وقهره عليها في كلّ شؤونها.وعلى الطرف الآخر يقف موسى، قائد المستضعفين، طالباً منهم تقوية الأواصر بالله، والاستعانة به، والصبر على الشدائد، معلناً هذا المفهوم الرائع، وهو أن الأرض بيد الله وطوع أمره، وهو تعالى يمنح أزمّتها لمن يشاء دون أن تتدخّل في إرادته قدرة طاغوتيّة، أو تغيّر منها أهواء صنمية. وأن الله تعالى قرّر بسنّته النافذة أن النهاية الحتمية إنما هي للمتّقين.

١٢٩: وهنا يشكو المستضعفون لنبيهم جور الاستكبار إذ ظلمهم قبل مجيء موسى وبعده، ليجيبهم موسى بالثقة نفسها، راجياً ربّه أن يهلك عدوَّهم ويستخلفهم في الأرض لأنها له، وحين يتسلّمون الخلافة سوف ينظر ماذا تفعل هذه الفئة تجاه مسؤولياتها. ولعلّها إشارة إلى ما حصل بعد ذلك من نكول في حمل الامانة.

١٣٠: وراحت أنماط العذاب الإلهي ـ كالقحط المتوالي سنة تلو أُخرى، ونقص الثمرات ـ تصيب فرعون وآله لعلّهم يرعوون ويعودون إلى الحقيقة.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝

١٣١: ونتيجة للانحراف عن جادّة الفطرة كانت التفسيرات التي يطرحها آل فرعون خرافية، فإذا أصابتهم نعمة إلهيّة نسبوا ذلك إليهم، وربما علّلوها بقدرتهم ومعلوماتهم، كما قال قارون من بعد «إنما أوتيته على علم»، وإذا ابتُلوا بنقمة راحوا يتطيّرون ويتشاءمون من موسى وينسبون إليه ما وقعوا فيه من بلاء. إلا أنّ القرآن الكريم يعلن لهم سرّ خطئهم حينما يذكّرهم بأنّ الأمر كلّه لله، وأن المقادير كلّها بيده، فطائرهم ومستقبلهم إنما هو عند الله بالرغم من أنّ أكثرهم لا يعلم هذه الحقيقة.

١٣٢: وهذا نمط من الاصرار على الانحراف، فهم يعلنون أنهم سيبقون على خطّهم المنحرف مهما تكثّرت الآيات والدلائل التي يزعمون أن موسى يريد أن يسحرهم بها، وهذا نمط من المجتمع المصاب بأمراض الطغيان. إنه قد اتخذ موقفه من قبل دونما رويّة ولا تفكير.

١٣٣: وتتابعت العقوبات الإلهيّة على آل فرعون، ومنها (الطوفان) أي السيل الذي يُغرق أرضهم، والجراد والقمل والضفادع والدم، فتسود منطقتهم بين حين وآخر نماذج من العذاب فلا تدعهم وادعين، كلّ ذلك لكي ينتبهوا ويتذكّروا الحقيقة.

١٣٤: وكلّما كان البلاء يعمهم ويلقي عليهم بكاهله كانوا يلتجئون لموسى كي يدعو ربّه بما له من كرامة عند الله وعهد أن لا يرد دعاءه ليزيل عنهم العذاب، واعدين اياه بالايمان وإطلاق سراح الشعب المسجون من بني إسرائيل.

١٣٥، ١٣٦: ولكي تتمّ الحجّة يستجيب الله دعاء موسى ويكشف عنهم العذاب إلى فترة معيّنة، لكنّهم ينكثون ذلك العهد القاطع الذي منحوه مما أهّلهم للانتقام الإلهيّ الرهيب والغرق في البحر، حيث تتجلّى حقيقة أن العاقبة للمتقين.

١٣٧: وقّت ارادة الله العظيم حين أورث الله المستضعفين مشارق الأرض (وقد يكون المراد الأرض المقدّسة وهي بلاد الشام وحواليها) ومغاربها، وراح يبارك لهم في خيراتها، فالخيرات والبركات تزداد عندما يسود العدل والتقوى والاستغفار، وتحقّق بذلك وعد إلهي قاطع لبني اسرائيل أن سيستخلفهم في الأرض، ويحمّلهم أمانة قيادتها وإعمارها باعتبارهم الفئة المؤمنة المتقية. نتيجة صبرهم ومقاومتهم الجبابرة والطواغيت، في حين توجّه التدمير الإلهي إلى فرعون وقومه وما بنته أيديهم من عمران وتمدّن زائف.

وهكذا يسير القرآن مع هذه الدورة من الصراع بين الحقّ والباطل من مبدئها إلى منتهاها ليرينا منطق الطاغوت ومنطق المستضعفين، فإذا الطاغوت متكبّر متجبّر، يعيش بأوهامه، وتغرّه قدرته، ويفرض سيطرته على الشعب بالحديد والنار، ويستخفّ قومه ويأمرهم باستئذانه حتى في المجال العقائدي، فإذا خالفوه صبّ عليهم أنماط العذاب الأليم، وإذا المستضعفون فئة مؤمنة بربّها، واعية لمصيرها، متدرّعة بالصبر والاستقامة، ناظرة إلى المستقبل حيث العاقبة للمتّقين، فهي لا تخشى في الله لومة لائم، ولا عذاب منتقم. إلاّ أنّ القرآن لا يمنح الامانة لشعب بشكل مطلق وإنما لحمل الأمانة شروط، فإذا نكل عنها ابتُلي بالمصير نفسه.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

١٣٨: وهنا يتحدَّث القرآن عن مرحلة جديدة من حياة بني إسرائيل، وهي مرحلة التحرُّر من ربقة فرعون، حيث يعمل موسى على بناء الأمة التي تحمل الأمانة، وحيث تبدو بين الحين والحين نقائص هذا الشعب، يعمل الرسول على إصلاحها، وأول نقيصة هنا هذه التي يتحدَّث عنها القرآن، إذ تطفو رواسبهم الجاهلية السابقة فيطالبون موسى بتعيين آلهة لنظير تلك التي رأوا قوماً يعكفون عليها. فلا يجد موسى بداً من وصفهم بالجهل بعد أن لم تنفع فيهم كلُّ المواعظ والتوجيهات السابقة التي طرحها عليهم.

١٣٩: ويضيف موسى إن عمل عبّاد الأصنام سخافة لا معنى فيها، وضياع لا هدى فيه، وهلاك لا نجاة منه. إنه سبيل الشرك والتجسيم.

١٤٠: وإن الله خالق الكون وربُّه، وكلُّ ما عداه مخلوق له، قائم به تعالى فكيف يبتغي الإنسان ربّاً غير الله، وكلُّ النعم منه تعالى، ومن نعمه أنه فضّل بني إسرائيل على العالمين بما حمّلهم من الرسالة والأمانة، وهي نعمة يعيشون من افضالها وتطمئنُّ لها نفوسهم.

١٤١: وهنا يعدّ القرآن افضال الله عليهم ويذكّرهم بالنعم المتوالية التي غمرهم بها ربُّ العالمين بما لا مجال معه لتوهُّم الحاجة لمثل هذه الآلهة الوهميَّة. وفي كل تلك النعم ابتلاء وتدريب وتمحيص لمن يراد لهم أن يحملوا الرسالة، وما عليهم إلاّ حملها بصدق مع وعي لأسسها العقائدية دونما جهالة.

١٤٢: ويتّجه موسى(ع) إلى الميقات المحدّد له، ابتداء ثلاثون ليلة ثمّ جاء تتميمه لحكمة إلهيّة بعشر أخرى ليتأهّب لحمل الأمانة وتلقّي الشريعة من قبل رب العالمين، وتبليغها بعد ذلك لبني إسرائيل، وربّما كانت هذه المدّة أمراً ضرورياً لتهيئة النفوس لهذا الأمر العظيم.

وقبل الذهاب إلى الميقات أوصى موسى أخاه بأن يخلفه في القيادة، وأن يكون في إدارته صالحاً. وان يتجنّب طريق المفسدين، وهو تحذير ضروريّ خصوصاً مع وجود مفسدة وكوامن شرّيرة في هذا الشعب.

١٤٣: وفي الميقات يطلب موسى من ربّه أن يتجلّى له بشكل أقرب إلى الحسّ لينتقل من عالم الإيمان العقلي إلى الإيمان الحسّي الذي تطمئنُّ معه القلوب تمام الاطمئنان بالعقيدة، وإن موسى ليتنزّه عن طلب رؤية الله رؤية حسية إذ إنها تستلزم الجسميَّة والتحديد والتركيب والاحتياج للمكان والزمان والادراك، وكلُّها أمور يدرك العقل والفطرة بكلِّ وضوح استحالتها بحقّ الكامل المطلق، والغني المطلق، وربّ الكون الذي لا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء. إنه طلب للتجلّي الأقرب للحس، وهذا مالا يتحمّله موسى، لذا ووجه بالنداء الالهي: «لن تراني» ولكن تستطيع أن تلاحظ ثبات الجبل أمام هذا التجلّي، فإذا استقرَّ مكانه أمكنك ذلك. وحينما تم التجلّي للجبل لم يثبت، بل تحوّل إلى ذرات ترابيّة صغيرة مندكّة، الأمر الذي صعق له موسى فسقط مغشياً عليه. وعندما أفاق موسى راح يستغفر ربّه من سؤاله هذا تائباً، منزهاً معلناً أنه في طليعة المؤمنين.

وهكذا تسلّح موسى بهذه التجربة واستفاد منها أن الطلب يجب أن يتمَّ عند وجود الاستعداد، وأنَّ الساحة الإلهيَّة منزّهة عن أي درجة من درجات الحس، وأنَّ عليه أن يبصر العظمة الإلهيَّة في كلِّ شيء أمامه ويخلص منها إلى الصورة الأصلية.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١٤٤: وهنا يحمّل موسى الأمانة الإلهيّة والمسؤوليّة الكبرى لصياغة المجتمع العابد لله بعد أن تمّ اصطفاؤه واختياره وإعداده لتلك القيادة. وقد حباه الله بتكليمه وأعطاه الوحي المباشر فما عليه إلا أن يحمل هذه الأمانة بكلّ قوة وعزيمة ويمضي في طريق تبليغها وتطبيقها في الحياة فذلك هو الشكر العظيم.

١٤٥: فقد شملت العناية الإلهيّة البشرية على مرّ العصور بإعطائها المنهج اللاحب للهداية، ورسم كلّ ما تحتاجه من ارشادات سماوية تفتح لها آفاق سيرها التكاملي، فكلّ شريعة إلهية تحمل للانسانية في زمانها كلّ ما تحتاجه في هذا المجال، وما على المؤمنين بهذه الرسالة إلا أن يحملوها بكلّ قوة وثبات ويتّبعوا الطريقة الأمثل والحل الأولى ويتجنّبوا طريق المساوئ التي تنحط بالبشرية وتقودها إلى الاضمحلال والضياع، وتلك دار الفاسقين الخارجين عن صراط الحسنى والكمال. وقيل إن المراد بدار الفاسقين الأرض المقدّسة التي كانت آنذاك بيد الوثنيين ـ وهو بعيد ـ.

١٤٦: إنّ الفاسقين عن خط الفطرة يوقعون أنفسهم في عمى وضلال بعيدين فيصرفهم الله عن رؤية آياته وتحول آلائه، ذلك لأنهم ينسون أنفسهم وواقعهم العبودي، ويلبسون رداء التكبّر والتجبّر، فيتصوّرون أنفسهم قادرين على إدارة حياتهم والتشريع لها دونما حاجة لهدى الشريعة الإلهيّة، وبالتالي فهم لا يعيرون بالاً لآيات الله الباهرة، ولا يأبهون لنداء الحقيقة الصارخ، الذي يدعوهم للالتجاء لله سبحانه، القادر بعلمه ولطفه على أن يهديهم سبيل الرشاد. ولكنّهم بالرغم من ذلك لا يتخذونه سبيلاً لكمالهم، بل يزدادون ضلالا عندما يختارون لأنفسهم سبيل الغي والضياع والبعد عن الهدى الإلهي.. إنهم بمخالفتهم لنداء الوجدان والفطرة والواقع ابتلوا بالعمى والعناد التامّين، فراحوا يكذّبون بالآيات ويغفلون عن عطائها الحياتي العظيم.

١٤٧: وتلك عاقبة طبيعيّة لمن لم ينطلق من منطلق التوحيد والايمان بالآخرة لتنظيم حياته تنظيماً واقعيّاً سليماً، فإنه لن يصل مطلقاً إلى المقصود وإن بدا أحياناً في صورة من الانتفاخ والنمو غير الطبيعي كناقة رعت نباتاً ساماً فانتفخت بطنها ثم نفقت، وهذا هو الحبط والضياع الذي سيواجهه هؤلاء أيضاً. وهذا بالضبط ما يؤكّده الوجدان ويثبته تاريخ الأُمم المنحرفة عن خط التوحيد.

١٤٨: وكنموذج للفسق عن خطّ الهداية يطرح القرآن مسألة عبادة العجل كانتكاسة في مسيرة بني اسرائيل أصابتهم بعد غيبة نبيّهم موسى، وهي انتكاسة خطيرة أتت على كلّ مكتسباتهم، فتحوّل الإيمان بالمطلق الحقّ إلى إيمان بعجل مجسّد صيغ من حليّ القوم واحتيلَ له حتى أصبح ذا خوار.

وهكذا تلاعب المفسدون بعقائد القوم فاستغلوا عنصر الذهب (الحلي) وعنصر التزوير (عبر الخوار) فتركوا آثارهم المخرّبة على الامّة التي كُلّفت بحمل رسالة الله، وانحرفوا بها، في حين كانت تستطيع تبيُّن الحقيقة لو استمعت لعقلها ورأت زيف هذا الإله المصطنع الذي لا يستطيع كلاماً ولا يهديهم سبيلاً، فكان موقفهم هذا موقف الظالمين.

١٤٩: إلا أنهم تنبّهوا إلى الخطأ الفظيع وعلموا بضلالهم فعادوا إلى الله يرجون رحمته لينجيهم من الخسران المبين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٥٠: وبكثير من الأسى والغضب عاد موسى إلى قومه من رحلته المقدّسة التي حمّل فيها الوحي الإلهي لهداية قومه، فإذا به يجدهم مصابين بتلك الانتكاسة الضخمة وكأنهم استبطأوا موسى في عودته فمالوا إلى طريق الانحراف، وكتعبير عن الغضب لدين الله وضع الألواح جانباً وراح يقبض على شعر رأس أخيه ويجرّه إليه. فما كان من هارون إلا أن يستثير معاني الرحمة والحبّ فيخاطبه «ابن أم» مذكراً إيّاه بالرحم، ومعلناً أنه قام بواجبه خير قيام، إلا أن استكبار القوم استضعفه واستضعف موقفه، بل كادوا أن يقتلوه. ومن هنا فمن الطبيعي أن لا يثير موسى شماتة الأعداء بهذا العمل الانفعالي وان لا يصنف أخاه النبي إلى جانب القوم الظالمين.

١٥١: ويتجلّى خلق الأنبياء حينما تتضح الحقيقة وتستكين نفس موسى ﷺ فيدعو أن يغفر الله له ولأخيه ما بدر منهما ويدخلهما في رحمته الواسعة وهو أرحم الراحمين.

١٥٢: وهذا خبر قرآني يطرح هنا بشكل قانون تاريخي عام، فكلُّ من اتخذوا طريقاً غير طريق الله، وتشريعاً غير تشريع الله وإلهاً غير الله سبحانه، سيكون مصيرهم الابتلاء بالغضب الإلهي، والانحطاط الحضاري، والذلّة في الحياة الدنيا ـ بالرغم مما يبدون فيه أحياناً من زينة ونعمة فارهة وجبروت ـ إلا انه القانون الالهيّ الذي لا يتخلّف كما تؤكّده الآية، ويثبّته التاريخ، وهو جزاء المفترين دائماً.

١٥٣: إلاّ أن سبيل العودة إلى الله مفتوح دائماً أمام العاصين، وأبواب الرحمة مفتّحة للتائبين المنيبين إليه تعالى في اطار ايمان كامل، وندم على الماضي وتصميم على السير المستقيم.

١٥٤: وبهذا التعبير الأدبي المعجز ينتقل القرآن إلى مرحلة البناء التشريعي التي بدأها موسى، حينما راح يعلمهم ماجاء في الألواح، ويعمل على تطبيقها في حياتهم، وهي لا تحمل إلا الهدى وإلا الرحمة، وهما لا يشملان إلا الذين يخافون ربّهم ويتقون.

١٥٥: مقطع آخر من قصّة بني إسرائيل يطرحه القرآن للاعتبار. وفي هذا المقطع نشهد موسى وقد اختار من قومه سبعين رجلاً ليحضروا معه موقفه في تلقي الوحي الإلهي (الميقات) إلا أنهم أيضا ـ كما يبدو من آيات أخرى ـ عبّروا عن طبيعة بني اسرائيل التجسيمية فطلبوا رؤية الله جهاراً! فكان عقابهم الصاعقة التي نزلت بهم وقضت عليهم لقولتهم الباطلة هذه. وحينما وجد موسى نفسه في هذا الموقف الحرج ـ حيث سيتّهم بأنه تآمر عليهم وهم من علية القوم! ـ راح يسأل ربّه تعالى لو كان أهلكهم قبل هذا الموقف، ويعتبر عملهم ذلك سفهاً، طالباً العفو والتجاوز، معلناً أنه الامتحان الإلهيّ الكبير، يضلُّ به الله من يشاء ويهدي به من يشاء، ويختم دعاءه كأيّ مؤمن مخلص بالايمان بالولاية الإلهيّة، طالباً الغفران والرحمة، والله خير الغافرين.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

١٥٦: وذلك دعاء المؤمن أيضا إذ يدعو ربّه أن يرزقه خير الدارين، الدنيا والآخرة وهما مترابطتان تماماً، شريطة أن يسير الإنسان في الدنيا على منهج الله في كلّ شؤون حياته. وهذا ما يعلنه موسى (ع) متعهداً بالتزام خطّ العودة الى الله. ومن الطبيعي أنّ القابليّة عندما تتم فإنّ الفاعليّة الإلهيّة سوف تؤتّر أثرها، فإذا جاء العصيان جاء العذاب، وإذا تمّت أسس التقوى والإنفاق والايمان الذي يؤطّر كلّ الحياة فانّ الرحمة الإلهيّة تسع كل شيء ولا نقص في فاعليّتها مطلقاً.

١٥٧: وهذه الانتقالة إلى أمّة النبي محمّد(ص) قد تكون باعتبار ما بشّرت به التوراة والانجيل من صفات الرسول الخاتم، كما يمكن تفسيرها باعتبارها مصداقاً لشمول الرحمة الإلهيّة الواسعة لكلّ الأمم حال كونها سائرة على خطّ الحق والسير بها مرحلة مرحلة نحو التكامل. وعلى أيّ حال، فالآية تتحدث عن صفات الرسول العظيم ومنها (الأمية) كظاهرة عظيمة المدلول، وإلاّ فكيف يحمل رجل (أمي) لا يقرأ ولا يكتب أعظم رسالة لإسعاد البشرية إلى الأبد، دون أن يكون متصلاً بمصدر العلم والرحمة؟ كما إن منها (انطباق الصفات التي تذكرها التوراة والانجيل عليه) مما يذكّر أهل الكتاب بلزوم اتباعه وفاء لدينهم وايمانهم، ويكشف للسذّج منهم ما قام به علماؤهم من إخفاء للحقيقة تحقيقاً لمصالحهم الضيّقة.

ومنها: أنه يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو استدلال فطري رائع. فالتأمّل في الشرائع الإسلامية يوصل المتأمّل إلى كونها منسجمة مع نداءات الفطرة الداعية للركون إلى الله والرحمة بالخلق والابتعاد عن خطّ الرجس والظلم والانحراف. وهذه الحقيقة دليل فطري على صدق هذا الرسول العظيم.

ومنها: أنه يحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث وهو ارجاع ثان للفطرة وطلب تصديقها. ومنها: أنه يضع عنهم إصرهم (ثقلهم) والأغلال (القيود) التي قيّدتهم بها الجاهليّة؛ قيود الجهل، والتعصّب، والظلم، والتكبّر، والآلهة الوهميّة، وغير ذلك. ويمنحهم الحرية الحقيقيّة.

وإذا كان الأمر كذلك فخطّ الفلاح الحقيقي هو خطّ اتباع هذا الرسول وتأييده بكلّ ثبات ونصرة في رسالته، واتباع القرآن والاسلام الذي أُنزل معه فهما نور الحياة كلّها وما عداهما الظلام الدامس.

١٥٨: وبعد تلك المقدّمة الرائعة يطلب القرآن من الرسول العظيم أن يعلن عالميّة رسالته، وخلودها، وشمولها لكلّ الأمم والأجيال ونواحي الحياة، وما الحياة إلا ملك لله، خالقها والمشرع الوحيد لها، بيده الأمر التكويني، وله الأمر التشريعي، فلتؤمن البشرية بالله وبهذا الرسول (الأمّي) الذي يجسّد بنفسه الإيمان بالله وشريعته (كلماته) فذلك هو سبيل الهداية الوحيد.

١٥٩: وإنصافاً للحقّ يعلن القرآن أنّ الإنحراف لم يصب كلّ أتباع موسى، فإن جماعة منهم كانت تهدي بالحقّ وتعدل به.

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٦٠: يستعرض القرآن هنا النعم الإلهيّة المتوالية على بني إسرائيل وهي تقسيمهم إلى اثني عشرة جماعة وقبيلة يرجع كلٌ منها إلى ولد من أولاد يعقوب، وجعل كلّ أمة منهم مختصّة بعين ماء تشرب منها دونما تجاوز على حقوق الآخرين، وذلك بعد أن ضرب موسى الحجر بعصاه فتفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً. كما تجلّت النعم الإلهيّة في تظليلهم بالغمام وتوفير المنّ - وهو نوع من الشراب الحلو - والسلوى، وهو طائر السماني، وما عليهم بعد هذه النعم إلاّ أن يستفيدوا منها في سبيل تعاليهم، إلاّ أنهم بانحرافهم ظلموا أنفسهم قبل غيرهم والله تعالى يتنزّه أن يوجّه إلى سلطته وملكه نقص.

١٦١، ١٦٢: ومن انحرافات بني إسرائيل التي تعبّر عن كفرهم بالنعم ما تحدثنا عنه هذه الآيات، فقد أُمروا بدخول بلدة من الأرض المقدّسة شريطة أن يكون الدخول بدعاء خاص وبخضوع وابتهال، ولكنّ العناد الاسرائيلي يدركهم آنذاك فيبدّلون الدعاء الخاص (وهو قول حطّة) إلى دعاء آخر يعبّرون فيه عن ميولهم المادية وطمعهم في ما يشبع البطون دون ما يزكّي النفوس، وبطبيعة الحال فقدوا شرط القابليّة للرحمة الإلهيّة، ولذلك فقد ابتلوا بالرجز والعذاب السماوي الأليم نتيجة ظلمهم وانحرافهم. والملاحظ هنا هذا التأكيد الشديد على العدالة الإلهيّة والرحمة الإلهيّة من جهة، وهذا الاصرار على الانحراف الذي يؤدّي بطبيعة الحال إلى الضياع والاضمحلال الحضاري من جهة أخرى، وتلك فكرة يركّز عليها القرآن كثيراً لكي تعيها البشريّة في طريقها الطويل.

١٦٣: ويذكّر القرآن بني إسرائيل - وهم في وقفتهم المعاندة للرسالة الإسلامية - يذكّرهم بتلك المدينة التي كانت تقع على مقربة من ساحل البحر وقد امتُحن أهلها بامتحان إلهي خرجوا منه خاسرين، ذلك أنهم أُمروا بجعل السبت يوم عبادة لا لطلب المعاش، فمنعوا عن الصيد وامتحنهم الله بالصيد الكثير الذي كان يبدو لهم عياناً (شرعاً) في حين يبتعد عن الساحل ويختفي في غير ذلك اليوم.. وما أن وجد بعضهم ذلك حتى ثارت فيه أطماعه، فراح يضع الحواجز في البحر خلف السمك الظاهر يوم السبت ليقوم باصطياده يوم الأحد.

وهكذا يشير القرآن إلى هذا التحايل المقيت على القانون من قبل ذوي الأطماع، ليؤكّد ان ذلك فسق عن الحق، وخروج عن روح الحكم، وهو أمر لا ينجرّ إليه المؤمن وإنما يتّبع رغبة المولى بكلّ أبعادها، ويتّبعها اتباع العبد الحقيقي للمولى الحق.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

١٦٤: وهذه صورة اجتماعية تلاحظ أحياناً، ذلك ان الله يقيّض للعاصين من ينهاهم عن المنكر ويعظهم لعلّهم يتجهون نحو الصواب، إلاّ أنه قد يظهر فريق آخر من الناس يلوم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ويثبّط من عزيمتهم، معتبراً عملهم هذا ضرباً من العبث بعد أن كان العصاة سادرين في غيّهم لا يرعوون، مما يجعلهم في معرض الهلاك والعذاب الشديد، وهنا تنبري الفئة المؤمنة الآمرة بالمعروف معلّلة إصرارها على عملها بأمرين:

الأول: إتمام الحجّة واسقاط التكليف الإلهي مما يؤهّلها للاعتذار عن أية نتيجة سلبيّة قد تنجم عن ذلك.

والثاني: رجاء عودة المذنبين إلى ساحة التقوى حتى ولو كان ذلك باحتمال ضعيف، وفي الآية لوم لهؤلاء المتقاعسين عن العمل الوعظي وهم يلومون الواعظين.

١٦٥: إن الإنسان عندما يتجرأ على المعصية ويمعن في جرأته هذه يرتكس في حالة النسيان للميثاق الإلهي والحقيقة التي آمن بها من قبل حتى يعود مجرّداً من عقيدته التوحيديّة نتيجة أعماله المنافية لها، وحينئذ يعود قابلاً للعذاب المرّ البئيس لأنه فسق عن طبيعته الصحيحة وخطّه المستقيم ـ أي انه نسي ذكر الله فنسي ذاته الحقيقيّة واستحقّ العذاب الأليم ـ وطبيعي أن ينجو الناهون عن السوء دون أولئك الذين فعلوه أو سايروه ولم ينهوا عنه حتى ولو كان ذلك بحجّة عدم التأثير.

١٦٦: وطبيعي أن العتوّ ـ أي المعصية المستمرّة والتكبّر على الواقع ـ يؤدّي بالانسان إلى الخروج من حالته الانسانيّة بعد فقدان خصائصها الحيّة وفي طليعتها الإتجاه نحو الكمال بإرادة حرّة واعية، وإذا تمّ ذلك تحوّل أفراد الإنسان العاتون العاصون إلى قردة أذلّة بعيدين عن الكرامة.

١٦٧: وأذن الله تعالى أن يبتلي هؤلاء بالّلعنة والطرد عن رحمة الله والابتلاء بمن يعذّبهم العذاب السيّئ الدائم إلى يوم القيامة.

انه عذاب العصاة العتاة يعيشونه واقعاً دائماً رغم ما يبدون فيه من سعادة ظاهرة.

والله تعالى يتّصف بسرعة العقاب إلى جانب اتصافه بالغفران والرحمة الدائمين، الأمر الذي يركّز في خلد الإنسان المسلم معنى متوازناً من (الرغبة والرهبة) وهو ضروري جداً لإيجاد شخصيّة متوازنة تتكامل الدوافع فيها لتوفير جوّ الطاعة والكمال.

١٦٨: وتبقى العين الإلهيّة ساهرة على مسيرة الإنسان دائماً تسدّ نقصها وتعاقب مسيئها وتنفي عنها النفايات دونما تأثير على الإرادة الإنسانية أو انقاص من قدر الحريّة الانسانيّة لتتجلّى بالتالي فئة صالحة مطيعة لأمر الله، عاملة على إعمار الأرض، وفئات اخرى لا تحمل هذا المستوى من الصفات وتأتي الابتلاءات والظروف المختلفة الحسنة والسيئة لتوفّر الظروف التكامليّة الطبيعيّة لتجلّي الارادة الإنسانية والعودة بالتالي إلى الحقيقة.

١٦٩: وهذه حالة أخرى من حالات المجتمع يعالجها القرآن الكريم هنا وهي تمثّل اناساً لم ينسجموا مع مسيرة سلفهم المتكاملة وإنما تلقّوا علمهم فقط، في حين انغمسوا في المجال العملي في الإعراض الدنيويّة الزائلة والشهوات، وراحوا يتحايلون على أنفسهم مسوّغين عملهم بأن الله سيغفر لهم ذنوبهم ويخلّصهم من العذاب مهما فعلوا وأصروا على التهافت المادي الرخيص. هذا، في حين أنهم عرفوا الحقيقة ودرسوا أبعادها وعلموا بالميثاق وأدركوا أن سبيلهم ذلك لا يؤدّي بهم إلا إلى الهلاك. وهنا يؤكّد القرآن أن العاقبة والدار الآخرة السعيدة لا تكون إلا لأولئك الذين سلكوا طريق التقوى والورع وابتعدوا عن طريق الإنحراف، وتلك حقيقة يفهمها الذين يعقلون حقاً لا أولئك الذين اكتفوا بدراسة الحقيقة عن الإلتزام بها.

١٧٠: انه الطريق الصالح، طريق التمسّك بكتاب الله والإتصال بالله عبر الصلاة، وهو بلا ريب سوف يؤدّي إلى الفلاح والأجر الإلهي المضمون.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ۝ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾

١٧١: وهنا يكرّر القرآن الكريم تذكير بني إسرائيل بالخارقة الإلهيّة حيث رفع الله الجبل فوق رؤوسهم كأنه غمامة وطلب منهم الميثاق والإلتزام بالتوراة، وهي حادثة تبقي ذكرى الميثاق قويّة في النفوس وتدفعهم لحمله بكلّ قوة وتلزمهم طريق التقوى، إلاّ أن بني إسرائيل ـ رغم ذلك ـ تنسوا عهدهم ونقضوا الميثاق.

١٧٢، ١٧٣، ١٧٤: وفي السياق الآنف نفسه، أي سياق تأكيد الميثاق الإلهي والإلتزام به على طول الخط الحياتي، يرسم القرآن صورة غيبيّة رائعة تقف منها الأجيال الانسانيّة على مر العصور أمام ربّها بكل ما تحمله فطرتها النقيّة من صفاء، واتجاهات، ويقين بديهي بالقضايا العقلية والعملية، وعندما يأتي النداء الإلهي طالباً الإيمان بالربوبية الإلهيّة للناس تعود هذه الأجيال إلى واقعها فتشهد عظمة الخالق عياناً وتجيب بكلّ قوة ويقين (بلى).

وبهذه الصورة الفريدة، يعلن القرآن الوجود الدائم لهذا النداء الفطريّ في أعماق الإنسان؛ لا تختص به منطقة دون منطقة أوجيل دون جيل أو زمان دون زمان وهو بالتالي يمثّل أعظم ميثاق وجداني يمنحه الإنسان لله جلّ وعلا.

وبهذا لا يبقى أيّ مجال لتسويغ الانحراف عن الخطّ الإلهي بذرائع من قبيل الغفلة فلا مجال للغفلة عن نداء الفطرة القائم، أو من قبيل التأثر بشرك الآباء، والانحراف مع خط المشركين ـ خط الباطل ـ والابتلاء بالتقليد الذي لا محيص عنه وهو تسويغ سخيف، ذلك ان الإنسان بما أوتي من عقل يزن الأمور، وارادة تقرر الموقف، وأضواء فطريّة هادية تسوق إلى الحقيقة لا يستطيع أن يسوّغ لنفسه عملية التقليد العقائدي. وبهذا يسدُّ القرآن الطريق أمام الانحراف عبر التسويغات الباطلة ومن خلال ايقاف الناس على آيات الخلقة في الآفاق والأنفس لعلهم يعودون إلى ذواتهم الحقيقية ويستمعون إلى نداءاتها، ويتخلّصون من حالة الغربة عن الذات والفسق عن الحالة الطبيعيّة.

١٧٥: وهذا تحذير قرآني من حالة انحراف يُصاب بها الأفراد فتقعدهم عن السير في طريق التكامل وتتلخّص هذه الحالة في إنسان وهبه الله تعالى آياته وأطلعه على الحقيقة الصافية فعاد لقمة سائغة للشيطان الغوي لكي يبث فيه سموم الغواية ويدخله في صف الغاوين.

١٧٦، ١٧٧، ١٧٨: ونظراً لما يتمتّع به الإنسان بفطرته من طاقات فإنه مؤهّل للارتفاع والتكامل شريطة أن لا ينساق إلى أهواء ضيّقة وميول أرضيّة وهو ما أبتلي به هذا الإنسان مورد المثل ـ ويقال انه بلعم بن باعورا ـ إذ أراد لنفسه الضياع، والله تعالى لايجبر أحداً على الهدى، وهكذا التصق بالأهواء الأرضية واتبع هواه فعاد حيوانا لاهثاً لا ينفع معه إرشاد، حيث يتأصّل في نفسه حبّ الدنيا ليصبح طبيعة له كطبيعة الكلب إذ يلهث على أيّ حال. وهذه الصورة القصصية تشكّل عبرة للمتفكّرين، انها صورة اولئك المكذّبين بآيات الله والظالمين لذواتهم قبل غيرهم ويبقى طريق الهدى الإلهي الطريق الوحيد ولا يمثّل ما عداه إلا الخسران المبين.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٧٩: ويستمرُّ القرآن في عمليّة إرشاد الإنسان إلى طاقاته الذاتية ونفي الشوائب العارضة على النفس الإنسانية فيؤكد أنّ كثيراً من أفراد الجن والإنس هيأهم الله لجهنم بعد أن أرادوا لأنفسهم الضياع واستهدفوا جهنم من خلال انسلاخهم من طبيعتهم ومسيرتهم الفطريّة رغم بقاء الصورة الظاهرية، إذ إنّ لهم قلوباً ولكنهم لا يفقهون ويعرفون بها، وأعيناً ولكنّهم لا يبصرون بها عظمة الخالق المتجلّية لهم، وآذاناً ولكنهم لا يسمعون بها نداءات الحق العالية، وبذلك يفقدون الحالة الطبيعيّة ويتحولّون إلى أنعام تلهث خلف المرعى، بل ويهبطون حتى عن مستوى الأنعام بعد أن امتلكوا الخصائص العالية وفرّطوا بها، وهكذا يقدّم القرآن مثل الغافلين لينبّه الإنسانية إلى تجنّب هذا المصير.

١٨٠: ولمّا كانت الأسماء معبّرة عن المعاني التي تحملها، ولمّا كان الله تعالى هو الكمال المطلق والمتصف بأقصى المضامين الكماليّة من العلم والقدرة والحياة باعتبارها مظاهر لكمال واحد، فإنّ من الطبيعي أن يُدعى الله بكلّ الأسماء الحسنى وتنفى عنه كل ماعداها من أسماء النقص، لأنّ ذلك يعني الالحاد والخروج عن الحد الطبيعي للحقيقة والوقوع في مهاوي الضياع وهو جزاء الملحدين.

١٨١: في قبال صورة الملحدين نجد هناك أمة من خلق الله دعت الله بأسمائه الحسنى، وأوكلت نفسها إلى الحق وعملت به، وراحت تهدي الآخرين إليه وتقيم موازين العدالة في المجتمع.

١٨٢، ١٨٣: وهذا تحذير آخر من الوقوع في الاستدراج، ذلك إن المكذّبين بآيات الله يقصرون أنظارهم على الملذّات الساقلة ويزداد ولعهم بها شيئاً فشيئاً حتى يصلوا إلى مراحل العمى وهم لا يعلمون أنهم كذلك. وهي حالة قاتلة ابتلوا بها نتيجة الاملاء والامهال الإلهي لأولئك المكذّبين بآيات الله، والمخلدين إلى الأرض، والمهملين لما يملكون من طاقات إنسانية فريدة.

١٨٤: وقليل من التأمّل والتفكير في حياة هذا الرسول العظيم وإيمانه وأقواله وأفعاله وما جاء به من قرآن كريم: يقود الإنسان للإيمان برسالته ونفي التهم التي يلصقها به الأعداء.

١٨٥، ١٨٦: إن النظر إلى موجودات هذا الكون من زاوية اتصالها بخالقها العظيم واحتياجها المطلق له وخصوصاً في جوّ يقترب فيه الأجل وينقطع فيه الأمل بزخارف الدنيا وبهارجها الخداعة يقود الإنسان بكلّ وضوح إلى الإيمان الكامل بالله الغني المطلق وعدم الالحاد في أسمائه.

أما إذا لم تترك هذه الحالة من التأمّل آثارها الطبيعيّة على حياة الإنسان فمعنى ذلك فقدان حالة الوعي الانساني المطلوب والارتكاس في الضلال والعمى السادر في طريق الطغيان.

١٨٧: يشير القرآن هنا إلى إلحاح من قبل بعض السائلين لمعرفة وقت قيام القيامة إلاّ أنّ القرآن يؤكد أن علمها يختصُّ به الله تعالى فلا تعلم إلاّ من قبله تعالى إذ يوضحها في حينها ويؤكّد أن عملها ثقيل ثقل الساعة نفسها وهي تأتي بغتة، كلُّ ذلك، لكي يبقى للساعة تأثيرها التربوي المطلوب ـ كما يبدو ـ.

قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

١٨٨: وهنا يتمّ التأكيد على بشريّة الرسول من جهة وأنّ علم الغيب أصلاً مما يختصّ به الله تعالى حقيقة (لأنّ الماضي والحاضر والمستقبل عنده سواء) من جهة أخرى، اللهم إلا أن يوحي به إلى وليّ من أوليائه المخلصين، ولتحقيق ذلك يؤمر النبي(ص) بأن يعلن للناس أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً وانه رهين المشيئة الإلهيّة، ولكي يركّز هذا المعنى يستدلّ على عدم علمه بالغيب بأنه لو كان كذلك لراح يتجنّب الضرر ويطلب الخير بعلمه هذا وهو ما لايكون. وبهذا، تصفو النظرة إلى الرسول كعبد لله يحمل رسالته نذيراً وبشيراً للمؤمنين.

١٨٩، ١٩٠: واستمراراً لمسألة الميثاق الإلهيّ وضرورة الإلتزام به يسير القرآن مع النفوس فيذكّرها بالحقائق ويثبّت الإيمان في أعماقها، وها هو هنا يشير إلى وحدة الأصل الانساني والنعمة الإلهيّة الكبرى في خلق الزوجين وبثّ الألفة بينهما ليتمّ جو السكينة والعاطفة الفطريّة، وإذ يتم اجتماع الزوجين (المعبّر عنه بالتغشّي هنا) تسير مراحل انعقاد النطفة الانسانيّة من حالة خفيفة تمرّ بها المرأة عبر الأيام إلى حمل ثقيل يتعلّق به الأمل الكبير ليدعو الزوجان ربّهما أن يرزقهما ولداً صالحاً صحيحاً فيسرّها ويشبع رغباتهما الطبيعيّة، وتأكيداً على استجابة الدعاء يعلنان أنهما سيكونان شاكرين لأنعم الله تعالى، إلاّ أن الإنسان أحياناً ينسى عهوده ومواثيقه وحالة ضعفه وحاجته عندما يظن أنه استغنى بالحصول على بغيته، وهانحن نشهد هذا الإنسان المتضرّع لله يعود مشركاً بالله الخالق الواحد المنعم وتعالى الله عما يشركون.

١٩١، ١٩٢: وعجباً ما يفعل المشركون إذ يجعلون لله أنداداً هم مخلوقون له تعالى محتاجون له لا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا يمكنهم إقامة ذواتهم دونما مدد إلهيّ مستمر.

١٩٣، ١٩٤، ١٩٥: إن هؤلاء الشركاء المزعومين لله لا يملكون من أمرهم شيئاً بل لا يعون ما يقال لهم فلا يستجيبون لدعوة إلى هدى، وإذا كانوا كذلك فهم أخسّ من أن يكونوا شركاء وماهم إلاّ مخلوقون كغيرهم من مخلوقات الله العظيم.

وهكذا يمضي القرآن في تبكيت المشركين بالله عاملاً على ايقاظ فطرتهم لتفهُّم الحقيقة والعودة إلى ميثاقها الذي عاهدوا به ربّهم، والسير في طريق الوعي الانساني بعيداً عن الأصنام الوهميّة والشركاء المزيّفين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. ولكي يتمّ التحدي في أقصاه يطلب القرآن من هؤلاء المشركين أن يدعوا هؤلاء الشركاء ليصبوا كيدهم وحقدهم دونما إمهال!! وهم أعجز من أن يفعلوا ذلك. وحينئذ تتكشف الحقيقة بشكل حسّي واضح.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

١٩٦: وهنا يتحدّى الرسول المشركين معلناً إلتجاءه إلى ولاية الله وهو الولي الحقّ بما له من صفات الكمال؛ فهو القدرة والغنى والحياة والعلم عينها، وله الأسماء الحسنى كلها، ومن لطفه تعالى أنه نزّل الكتاب لتهتدي به الإنسانية، وهو بالتالي ولي الصالحين العاملين بكتاب الله والمطيعين لشريعته.

١٩٧، ١٩٨: أما الشركاء المزعومون لله تعالى فهم مبتلون بكلّ نقاط الضعف. فلاهم ينصرون أتباعهم ولا هم ينتصرون لأنفسهم، بل إنهم لا يقبلون الهداية فما هي إلا وجودات جامدة بلهاء، ربّما يحسبها الناظر ذات حياة وبصر، وهي تفقد أقل مقومات الحياة، فهل يصح إذن اللجوء إلى هذه الآلهة الوهميّة وترك عبادة الله ذي الأسماء الحسنى كلها؟ هذا ويحتمل أن تكون هذه الأوصاف للمشركين أنفسهم، إذ لا يعون ما يسمعون ولا يستفيدون من أبصارهم بشكل واعٍ.

١٩٩: ولعل في هذه الآيات خلاصة رائعة للنظام الأخلاقي الإسلامي في مجال سلوك الفرد في المجتمع، قائداً كان أم شخصاً عادياً.

إن عليه وفق هذه الآية أن يحمل شعار العفو عن الإساءة إلى شخصه، فلا يلحّ على الانتقام ولا يتتبع العثرات. وقد ورد عنه (ص) انه لم ينتقم لنفسه من أحد قط[1]. وربما فسر العفو بالتجاوز عن الافراط والتفريط وانتهاج الوسطية في السلوك، وهذا العفو أدعى لنشر المحبّة والسماح بين أفراد المجتمع. وعليه أيضاً أن ينسجم مع (العرف) وهو ما يتعارف عليه العقل الانساني العام ويأمر به، وفي هذا دلالة على كون الأوامر الدينية تنسجم مع مقتضيات الفطرة الإنسانية ودوافعها باعتبارها المنظم العام للسلوكات العقلائية والأمر بالمعروف، وهذا يلاقي بطبيعته قبولاً رائعاً من الآخرين.

أما الأمر الثالث: فهو الإعراض عن الجاهلين، ففي هذا الإعراض تذكير لهم بجهلهم وتوبيخ لهم على إصرارهم على العناد، وعزل لهم عن تعاطف الناس. وكل ذلك قد يقودهم لمراجعة أنفسهم من جديد، ويبعد صاحب الرسالة عن الدخول معهم في جدال لا جدوى منه. فالإعراض إذن فيه ترفير لوقت العاملين عن الصرف في قضايا تافهة.

٢٠٠: وفي حالات السلوك الاجتماعي من الطبيعي أن يواجه الإنسان الرسالي الكثير من الأنماط الغريبة التي قد تحركه وتغضبه وتفقده الرؤية المطلوبة. وهنا لابدّ من تذكر الله تعالى والاستعاذة به من شرّ الشيطان ونفثاته، فذكر الله زاد المؤمن في كل حال، وهو يذكّره بأن الله تعالى يراقب مواقفه دائماً ويعلم ما يجري له وبالتالي فهو يهديه سواء السبيل لأنه وليّه.

٢٠١: وهذه صفة يتميّز بها المتقون دائماً، ذلك أنهم غير معصومين عن الخطأ، فإذا زلّت بهم قدم أو مسّهم الشيطان الذي يطوف حولهم متربّصاً بهم لجأوا إلى ذكر الله واستعادوا وعيهم بكل سرعة وراحت بصيرتهم تتقد فتقودهم نحو سبيل الخير.

٢٠٢: عودة إلى المشركين الجاهلين وتذكير بعناصر السوء التي تمدّهم بالغي والإنحراف وتوسوس لهم بالشر وسوسة دائمة ليردّدها هؤلاء دون وعي.

٢٠٣: كشف لأحد أساليب الشياطين التي توسوس للمشركين، فهم يحركونهم للمطالبة بمزيد من الآيات، لا لغرض الإيمان وتحرّي الحقيقة بل للتلاعب فإذا جاءتهم الآية كذّبوا بها، وإذا لم تأتهم راحوا يتحكّمون ويسخرون طالبين من الرسول أن يختار مما يقدر عليه بعض الآيات ويقوم بها إن استطاع، إلا أن القرآن يعلّم الرسول أن يواجههم بحقيقة أنه يتّبع ما يُوحى إليه من ربّه وإنّ هذا القرآن الكريم يحمل بنفسه كل معاني الإعجاز، فكل ما فيه جلاء للبصيرة وكلّه هدىً ورحمة للمؤمنين.

٢٠٤: ومن الطبيعيّ أن يتمّ الانصات التام للقرآن حتى يترك أثره المطلوب في النفس ويجري فيها مجرى الرحمة الغامرة.

٢٠٥: تأكيد آخر لإدامة ذكر الله في كل حال وكل زمان بالغدو (أوائل كل نهار) والآصال (اواخر كل نهار) وبما له من الخشوع والخوف، ولا داعي للجهر من القول بعد أن كان تعالى عليماً بكل ما في أعماق الإنسان.

٢٠٦: تلك هي حال المقرّبين من الله والذين تذوب الحجب الماديّة بينهم وبينه جل وعلا، فهم لا يستكبرون مطلقاً عن العبادة بل يواصلون حياة التسبيح والتنزيه والسجود في محراب العظمة الإلهيّة.

---

١ - مستدرك الوسائل، ج ٩، ص ٧.

سُورَةُ الأَنفَالِ ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

سورة الأنفال

مرّ بنا أن البسملة جزء السورة

١: سورة الأنفال مدنيّة، نزلت بعد غزوة بدر لتقصَّ بعض احداثها والملابسات التي رافقتها، وتتمحور حول الجهاد وتربية الأمة المجاهدة وإعدادها بتعميق عقيدتها وتركيز رؤيتها، اضافة إلى بعض الأحكام التي تنظّم تعاملها فيما بينها، أو مع الأمم والجماعات الأخرى.

الأنفال جمع نَفَل، وهو الزيادة على الشيء، ومنه سمّيت الصلاة الزائدة على الفريضة بالنافلة، كما تطلق على الغنائم الحربيّة لأنها زيادة على الهدف فهو الانتصار، وقد تشمل الأنفال غير الغنائم مما يسمى بالفيء.

وحكم الأنفال أنها لله ولرسوله لتوضع حيثما أراد الله والرسول من مصالح الإسلام والمسلمين، وقد تفضّل الله على المسلمين بأن أخذه منهم حين اختلافهم في كيفيّة قسمته بعد بدر، ثم ردّه عليهم بعد إخراج الخمس منه.

وقد عالج القرآن حالة الاختلاف في الغنيمة بين المسلمين وهم في حالة جهاد بردّهم إلى التقوى وتذكيرهم بالله وحده، ومن ثم مطالبتهم بإصلاح ذات البين وما يمكن أن يتركه الاختلاف من آثار سيئة على علاقتهم المبنيّة على الاخوّة، لإيجاد المجتمع المتماسك المجاهد المؤمن المطيع لله ولرسوله.

٢: في الآية بيان لبعض الصفات الرئيسة للمؤمن من وجل القلب وخشوعه حين ذكر الله تأثراً بنور الإيمان، وإحساساً بالمسؤولية، والخوف من عدم القيام بها كاملة، ونتيجة للاحساس بعظمة مقام الربوبيّة وجلال هيبتها ومن الازدياد المستمر في الإيمان من خلال تلاوة آيات الله والنظر فيها مما يجعله يواصل السير التكاملي، ومن التوكل على الله تعالى وحده مما يعني السير بخطى ثابتة وبعزم راسخ وارادة قوية.

٣، ٤: والمؤمن يقيم الصلاة بأركانها لتعبّر عن صلته القويّة بالله تعالى، وكذلك فهو ينفق من ماله الذي رزقه الله دون منّ أو أذى، وأصحاب هذه الصفات هم المؤمنون حقّاً، فليس الإيمان بالتشدّق والتمنّي، وإنما هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، ولهؤلاء المؤمنين درجات عظيمة عند الله، ومتفاوتة بحسب استعداد كلّ إنسان للخير والعطاء.

٥، ٦: يذكّر القرآن المسلمين هنا بموقفهم الكاره للحرب قبل البدء بها، وان موقفهم من الغنائم في النهاية يذكّر بالموقف من بداية المعركة، مع أن خروج النبي(ص) من المدينة كان خطوة مدروسة حقّة لابدّ منها وإن كره ذلك بعض المؤمنين الذين لم يروا مستلزمات الدخول في حرب مع المشركين كافية، ومن ثم كان الهلع بادياً على بعضهم حتى كأنهم يتوجّهون إلى الموت وهم ينظرون إليه.

٧، ٨: يبدأ القرآن هنا ببيان سلسلة من الدروس الإلهيّة على المسلمين يوم (بدر) ويبدأ بتذكيرهم بالوعد الإلهي بالاستيلاء على أموال قريش وقافلتهم التجارية، أو الانتصار عليهم في القتال، وكيف أنهم أرادوها غنيمة سهلة لأنها أكثر أموالاً وأقل رجالاً، وهي ليست بذات شوكة وقوة وسلاح، ولكن الله أرادها ملحمة فاصلة بين الحقّ والباطل تقطع دابر (آخر) الكافرين، حيث كانت بدر فاتحة وبداية لبقية الانتصارات التي توّجت بفتح مكّة واستئصال الشرك وتثبيت الحقّ وابطال الباطل على الرغم من مؤامرات المشركين.

وبهذا يعطي القرآن درساً رائعاً للمسلمين كي يفكّروا قبل المصالح الضيّقة بالمصلحة الرساليّة، غير آبهين بالعقبات والتضحيات في سبيل تحقيق الأهداف العليا.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

٩، ١٠: وهنا يستعرض القرآن بعض مظاهر النصرة الإلهية للخط المؤمن مما آل به إلى النصر رغم ضعفه في العدة والعدد. فحين استغاث المؤمنون بربّهم استجاب تعالى لطلبهم وأمدّهم بألف من الملائكة متتابعين، وكانت مسألة نزول الملائكة بشرى إلهية للمؤمنين تطمئن قلوبهم للاسناد الالهي وتدفعهم للتضحية المتواصلة مطمئنين بأن الأمر كله بيد الله تعالى وما عليهم إلاّ بذل أقصى الجهد وتوفير الحالة المستعدة لنزول الفيض والنصر الإلهي من قبل الله القوي الحكيم في أفعاله.

١١: مظاهر أُخرى من اللطف الإلهي والتثبيت الربّاني لهذه الفئة المجاهدة، فتارة يغشيهم النعاس، أي تشملهم حالة من الغفوة تذهب عنهم تعب الطريق وآثار الرعب، فإذا بحالة من الأمن والطمأنينة تخلف حالة التعب والرعب، واخرى ينزل عليهم المطر فيمدّهم بما يغتسلون به فيصلّون طاهرين من كل دنس، وتذهب عنهم الوساوس الشيطانية، وتتقوى قلوبهم، وتثبّت أقدامهم في طريق الجهد الوعر.

١٢: وهكذا تشترك القوى الملائكية في القوة البشرية المؤمنة في المعركة الضارية ضد الكفار وتتجلّى الرحمة هنا من جهتين: اولاهما تثبيت الملائكة لقلوب الذين آمنوا، وثانيتهما الرعب الملقى في قلوب الكفار، وبذلك يتوفر الجو المساعد للهجوم المباغت على الكفار وضرب أعناقهم وقطع أيديهم المقاتلة.

١٣: إن الجاهلية المقاتلة قطعت شوطاً بعيداً في حربها ضد الله والرسول خلال سنوات عديدة وعملت ما استطاعت لإطفاء نور الحق، فكان جزاؤها الحق الابتلاء بهذه الهزيمة الساحقة التي أذلّت كبرياءها وحطّمت غرورها، فكان ذلك مظهراً من مظاهر العقاب الإلهي الشديد لسنّة تنطبق على كل فئة تعاند خط الحق وتعمل على إطفاء جذوته الإلهية المتقدة.

١٤: فإن الهزيمة في الدنيا مقدمة لعذاب خالد في الحياة الأُخرى حيث النار التي سجّرها الله لغضبه، وبهذا التهديد تتخلع قلوب الكافرين ويبعث فيهم الرعب.

١٥: بعد استعراض مظاهر اللطف الإلهي يستخلص القرآن من ذلك درساً يدفعهم للثبات في زحفهم المقدس ضد الكافرين بحيث لا تنطرح في ذهن المجاهد فكرة الفرار والادبار عن المواجهة.

١٦: وربّما يتراجع الخطُ المؤمن المقاتل تراجعاً موقّتاً، للتمويه على العدو، وتغيير الموقع القتالي وانتخاب المواقع الأفضل، أو بالانضمام لفئة مؤمنة وتقوية مواقعها وهذه حالات تراجُع صحيحة. أما الفرار الحقيقي فيعني الذنب الكبير، ويعني البوء والرجوع بغضب إلهي والابتلاء بعاقبة رهيبة.

ذلك ان الفرار هنا يترك آثاره على أمن الأمة الاسلاميّة واستقرار الرسالة في نفوس المؤمنين، كما يعبّر عن ضعف إيمان الفارّ برسالته وعدم انسجامه مع معتقداته بالله القوي العزيز وبالنصر الإلهي للمؤمنين وبالنعم الإلهية التي تنتظر الشهداء في الحياة الأُخرى، كما يعني عدم الإيمان بضعف الخط الكافر رغم عدّته وعدده.

وبهذا البناء والترغيب والترهيب تتبلور شخصيّة الإنسان المؤمن المقاتل المقتحم لصفوف الأعداء واثقاً من احدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧، ١٨: وهذا المعنى من أهمّ مبادئ التصوُّر الإسلامي، ذلك أن الله تعالى هو المؤثّر الوحيد في الكون، فهو الذي يمنح القدرة للفعل الانساني، وهو الذي يأذن له بالتأثير، وهي حقيقة عامة في كل شيء، إلا أنها تتجلّى بكلّ وضوح عندما يأتي النصر الإلهي عياناً كما كان الأمر في معركة بدر.

ومع كل ذلك يبقى للفعل الانسانيّ دوره بإذن الله، حيث يدخل المؤمنون مرحلة البلاء الحسن عندما يجاهدون في سبيل الله، في حين ينتهي كيد الكافرين إلى حالة من الوهن والضعف والهزيمة.

وهذا التصوُّر، مع انسجامه التامّ مع العقيدة التوحيدية، له أثره العظيم في دفع المؤمنين نحو الجهاد والاستهانة بكلّ القوى المتجمّعة ضدّهم، لأنّ كيدهم سيعود ضعيفاً إذا ما أبلى المؤمنون بلاء حسناً.

١٩: يتّجه الخطاب إلى المشركين الذين دعوا الله أن يجعل الدائرة على أبعد الفريقين عن الهدى والخصال الحسنة ويمنح الفتح للفريق الآخر، فيعلن لهم أنهم إن كانوا يطلبون الحقيقة فقد بدت لهم بكل وضوح، فما عليهم إلا الانتهاء والعودة إلى الحق وإلاّ عاد عليهم الغضب الإلهي. أما الإصرار على العناد والاعتزاز بالقوة والكثرة العددية فلن يؤدي إلا إلى الهزيمة، ذلك أن الله والكون كله مع الفئة المؤمنة المقاتلة في سبيل دينها.

٢٠ ، ٢١: يطلب القرآن الكريم من المؤمنين الالتفاف حول دينهم وقائدهم الرسول العظيم، واتباع أوامره بكلّ دقّة وتنفيذها، والابتعاد عن الحالة الجاهليّة التي تسود الفئة المقاتلة، حالة ادّعاء الاستماع في حين لا يبدو أي أثر لأوامر القائد في النفوس.

٢٢، ٢٣: تبكيت رهيب للمشركين فهم أسوأ من كلّ من يدبّ ويمشي على الأرض، فهم رغم ما يدعونه من علم وقدرة وحياة إنسانية، أبعد ما يكونون عن هذه الصفة، بل هم شرّ من الدوابّ الحيوانيّة، لأنها تسير وفق الهداية التكوينيّة الفطريّة، في حين يملك هؤلاء ما يسمو بهم إلى العلاء، ولكنهم يهدرون طاقاتهم ويعيشون في حالات الخمول الفكريّ والضياع واتباع الأهواء الحيوانية الرخيصة. فهم الصمّ البُكم رغم ما يملكون من ألسنة وأسماع، وهم الّذين لا يعقلون رغم قدراتهم العقليّة، وهم الّذين أفقدوا أنفسهم قابليّة استماع الهدى، فلم يعودوا مؤهّلين له، ولو أسمعهم الله ذلك لما كان منهم إلا الإعراض عن الحقّ والاتجاه نحو الأهواء.

٢٤: في قبال اولئك الذين أفقدوا أنفسهم كلّ خصائص الحياة تأتي هذه الآية الكريمة لترسم للمؤمنين طريق الحياة الانسانيّة الحقّة، وهو طريق الدين والإستجابة لله وللرسول. ذلك أنّ الحياة الانسانيّة المتسامية تعني الحركة الدائمة على طريق التعقّل ومعرفة الواقع الانساني، والتكامل المتواصل للتقرُّب من الكمال المطلق، والخلاص من الأهواء الرخيصة، واستكناه القدرات الكامنة، وهو ما يتركه الدين في النفوس من أثر.

إنه تقرير على أن الله تعالى يعلم عمق الشخصيّة الانسانيّة ويوجّهها للحقّ ويهديها سواء السبيل هداية فطريّة فلا مجال إذن للإبتعاد عن الحقيقة أو إخفائها أو التنصّل منها، خصوصاً وأن المصير بالتالي إليه تعالى ليحاسب النفوس ويجزي العاملين.

٢٥: وهنا يحذّر القرآن الأمّة من الفتن والنزاعات الداخليّة داعياً إياها للتساند في دفع هذه الفتن، ذلك أنها لا تعود بالوبال على الظالمين المتسبّبين فيها فحسب وإنّما تصيب كل الأمّة بشرّها، فالآية، إذن تركّز على عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره خصيصة من خصائص الأمّة، ثم هي تحذّر بالتالي من عذاب الله إذا ما تهاون أيّ فرد في أمر يمس مجموع الأمّة ومسيرتها بسوء.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

٢٦: تذكّر الآية المسلمين بالإعجاز الذي صنعه الإسلام فنقلهم من شراذم قليلة مستضعفة على يد المستكبرين والجشعين، لا تأمن على نفسها وعرضها ومالها، إلى أمة تقوى يوماً بعد يوم، وآواهم وأيّدهم الله بنصره، فقامت لهم دولة إسلاميّة وكيان مقاوم وشخصية مستقلة ورزقهم الطيبات وفتح عليهم الخيرات. كلّ ذلك ليحملوا أمانة الله وينهضوا بعبء الرسالة الإسلامية، شاكرين لله أنعمه وأفضاله. وربّما كان هذا مثالا للإحياء الذي أشارت إليه الآية السابقة وهذا التذكير قائم في كلّ حين، يدعو أبناء المسيرة المؤمنة للجوء إلى كنف الإيمان، كي يحيوا حياة العزّ والطمأنينة، في ظلّ شريعة الله وأحكامه.

٢٧: الإنسان المؤمن مؤتمن على أمانات ومواثيق تمتدُّ من مواثيق الفطرة الداعية للجوء لله الواحد القهّار واستمداد التشريع منه وطاعته إلى مواثيق اتّباع الرسول، وهو رحمة الله للعالمين، وبالتالي مواثيق الحقوق الأخوية القائمة بين المؤمنين ومواثيق العبء الذي تتحمّله الفئة المسلمة عبر التاريخ باعتبارها الأمة الوسط والشاهدة، وخيانة هذه المواثيق لا تنسجم مطلقاً مع ادّعاء الإيمان.

٢٨: ومن الطبيعي أن يرتبط الإنسان بالمال والولد ولكن يبقى هذا الارتباط حدوده الطبيعيّة التي لا ترقى لمستوى الارتباط بالأمانة الالهيّة الكبرى فهذه هي المقدّمة على كلّ حال، والأجر الإلهي هو مطمح المؤمنين، وفي سبيله يضحّون بكلّ غالٍ ورخيص.

٢٩: إنّ التقوى الحقيقيّة لله تترك على النفس صفاء ونوراً ورحمة إلهيّة، يفرّق فيها الإنسان المسلم بين الحقّ والباطل، ويكشف بها ظلمات الطريق الصعب، طريق حمل الأمانة الإلهيّة والجهاد في سبيلها. وتتابع الرحمة الإلهيّة إثر تركّز التقوى في النفس، فيكفّر الله السيئات (أي يمحوها) ويغفر الذنوب، فيعود الإنسان طاهراً حكيماً بالأمور، بصيراً في مسيرته الحضاريّة، وذلك فضل إلهيّ عظيم.

٣٠: تذكير آخر بالنعم الالهيّة حيث كان المشركون يمكرون بالرسول ليحبسوه أو يقتلوه أو لينفوه من مكّة ولكنّهم غفلوا عن مكر الله بهم وجزائه العادل لهم حيث أنجى رسوله وبالتالي أنجى العصبة المؤمنة لتنتقل إلى حياة جديدة أسمى.

٣١: صورة من عناد المشركين وادّعاءاتهم الجوفاء، إذ ادّعوا أنهم استمعوا إلى كلام الله فلم يجدوا فيه إلا أساطير الأوّلين الماضين وقصصهم الخرافيّة!! وانهم يستطيعون الإتيان بمثله، وهذا أسلوب آخر من أساليب المواجهة الدعائيّة للرسالة الإسلاميّة، وبلبلة الصفوف والتشكيك في الأصالة القرآنيّة، متناسين العظمة القرآنية وأسرار الإعجاز فيه.

٣٢: وهذه صورة أخرى من العناد الجاهلي، فبدلاً من أن يدعوا ربّهم لهدايتهم للحقّ يطلبون منه تعالى أن يهلكهم إن كان ما يقوله الرسول حقّاً.

٣٣: وعد إلهي بلطف عميم يمنع العذاب عن الأمة مادام الرسول فيهم يمارس مسؤوليّته في هدايتهم ويأمل انقاذهم من الضلال ومادامت الأمة تنهج منهج الاستغفار. فهاتان إذن نعمتان تضمنان للأمة النجاة من العذاب الإلهي.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

٣٤: ان المشركين معرّضون للعذاب الإلهي من خلال ما يقومون من أعمال شنيعة، تذكر الآية في طليعتها مسألة المنع من حج بيت الله الحرام والوقوف بوجه اولئك الذين يقصدونه ليقيموا شعائر الله ويحققوا أهداف الأنبياء وهي تتلخص بعبادة الله واجتناب الطاغوت والمشركون يتذرعون لذلك بولايتهم على المسجد الحرام في حين أن الولاية الحقيقة على البيت للمتقين فقط دون غيرهم. وليست الولاية على البيت الحرام لشخص أو فئة أو قبيلة معينة. وبهذا يضمن الإسلام حرية العبادة والتعبير في المنطقة التي جعلها الإسلام منطقة الأمان لكل المسلمين بعيداً عن بطش الطواغيت وارهاب الظلمة والفاسقين.

٣٥: أما محاولات المشركين لاستخدام الأساليب الدينية المزورة ضد الدين الحقيقي الأصيل، وما يؤدونه من عبادات فهي أمور شكلية جوفاء لا تحمل أي مدلول، بل إنه مجرد صفير وتصفيق لا يتركان أي أثر تربوي في النفس في حين تعمل مناسك الحج على بناء الشخصية المؤمنة المتبرئة من المشركين بكل ظواهرهم ومظاهرهم، والعابدة لله الساعية لتطبيق شريعته في كل الأرض.

٣٦: وهذه هي الصفة الثالثة للمشركين، إنهم يستفيدون من القدرات المالية التي يملكونها ليحققوا أغراضهم الدنيئة وينشروا الدسائس بين المؤمنين وبالتالي ليمنعوا من انتشار النور الإلهي في العالم والحيلولة دون اشعاعه على مختلف جوانب الحياة. إلاّ ان الآية تنذرهم بالحسرة والخيبة وعدم الوصول إلى الأهداف الخبيثة، ومن ثمّ الهزيمة المطلقة، والحشر إلى الدمار والنار والانهيار الحضاري، وبهذا، توضح هذه الآيات صفات نجدها في المشركين وأتباعهم اليوم وهي استغلال (القوة) و(الادعاء الكاذب والتزوير) و(الذهب) للوقوف أمام حركة الإيمان الساعية للطواف الحقيقي حول البيت الحرام واعلان مبادئه واستلام رسالة الحج الاجتماعية.

٣٧: وعد إلهي للمؤمنين بأنه تعالى سيفرّق بين خطّ الحق وخطّ الباطل ليكتشف العالم خبث الباطل وطيب الحقّ وحينئذ لن ينفع الباطل تراكمه وتجمعه، ذلك انه تجمُّع ركام وحطام لا قيمة له، ومصيره إلى جهنّم، وهو الخسران المبين، في حين يعيش خطُّ الإيمان بكلّ صلابة وقوّة وترابط حقيقي لا يأبه لهذه المؤامرات.

٣٨: تهديد للكافرين كي يقلعوا عن تآمرهم ضد خط الإيمان ويستغفروا فيغفر الله لهم ذنوبهم الماضية، أما إذا أصروا على الباطل فإن سنّة الله في إهلاك الظالمين جارية بلاريب.

٣٩: أما خطُّ الإيمان فعليه أن يقاتل الكفر وجنوده، مستهدفاً محو الفتنة من الأرض، وإعلاء كلمة الدين في كل أرجائها، فإذا انتهى الكفار عن غيّهم فليعملوا الصالحات وليعلموا ان الله بصير بما يعملون.

٤٠: أما إذا أصرُّوا على إعراضهم عن الحقّ وعنادهم وصدِّهم عن سبيل الله، فليتأكد المؤمنون من أنّ الدعم الإلهي معهم وأنه تعالى مولاهم وهو نعم المولى ونعم النصير. أمّا الكافرون فلا مولى لهم ولا نصير.

۞وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

٤١: وهذه الآية حلّت نزاعاً جرى بين المؤمنين في الغنائم وأعلنت أن ما يغنمه المسلمون من أيّ شيء يجب تقسيمه إلى هذه الأقسام: قسم لله، وقسم لرسوله، وهكذا لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وعلى الرغم من أن الآية واردة في غنائم الحرب إلاّ أنّ النص الشريف لا يخصص الحكم بالحرب وقد أكدت روايات أهل البيت(ع)[1] أن الخمس يشمل كل ما يغنم ويكسب، وان الأسهم الستّة توزّع بين وليّ الأمر باعتبار منصبه، وبين بني هاشم (يتاماهم ومساكينهم وابن سبيلهم) بعد حرمانهم من الزكاة. ثم إن الآية تذكّر بالجوّ الطبيعي الذي يجب أن يتوفّر للأحكام الاسلاميّة، وهو جوّ الإيمان بالله والرسالة المنزّلة على الرسول (وخير ما يوصف به هنا هو العبودية لله) يومّ الفرقان وهو وصف أعطاه الله تعالى لغزوة بدر ليعلن أنها تفصل بين مرحلتين أساس: مرحلة الباطل ومرحلة الحق.

٤٢: تذكير قرآني باليد الإلهيّة التي صنعت النصر في بدر فقد التقى الفريقان على غير ميعاد سابق وقد نزل المشركون وهم ذو عدة وعدد، بجانب الوادي الأقصى، كما نزل المؤمنون في جانب الوادي الأدنى، وكان الجانب الأقصى ذا أرض صخريّة وماء، في حين كان الجانب الأدنى ذا أرض رخوة وبلا ماء. هذا، في حين تخلّص ركب أبي سفيان من المسلمين إذ اتخذوا طريق الساحل. وهكذا واجه كلٌ فريق الآخر. وليتحقّق قضاء إلهي هو الذي كان في الواقع يدير المعركة والله تعالى سميع عليم بكلّ الأُمور التي تحقّق ذلك.

٤٣: وهنا أيضاً كشف لتدخّل إلهي في المعركة، إذ يرى النبي(ص) المشركين في منامه وهم قلّة ويبشّر أيضا بالنصر والاستيلاء على القافلة فيخبر المؤمنين بذلك ليطمئنوا بالنتيجة.

٤٤: وهذا لطف إلهيٌ آخر إذ يبصر المؤمنون الكفّار ثلّة قليلة فيها فيعودون مطمئنين لقدرتهم على قتالهم، وكذلك يبصر الكفّار المؤمنين قليلين فيستهينون بهم، ولكنّهم يدركون الأمر بعد الزحف إذ يرونهم مثليهم رأي العين ـ كما تقول الآية ١٣ من سورة آل عمران ـ الأمر الذي أفزعهم وأحبط خططهم فكانت الهزيمة. وهذه حقائق رآها البدريّون وأدركوا معها أنّ اليد الإلهيّة هي سرُّ النصر التاريخيُّ العظيم.

٤٥: وهذا هو الدرس الآخر الذي يجب استخلاصه من هذه الواقعة. إنه درس الثبات بوجه العدوّ مهما كانت قوّته، ودرس اللجوء إلى الله، وتذكُّر آلائه ونعمه ودعمه ونصره للمؤمنين. فإنّ ذكر الله هو سبيل الفلاح.

---

١ – تفسير البرهان ، ج ٢، ص ٦٩٠، منشورات مؤسسة البعثة.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٤٦: بالإضافة إلى عاملي الثبات وذكر الله اللّذين ذكرتهما الآية السابقة، تذكر هذه الآية عوامل طاعة الله والرسول، والوحدة الإسلامية في الموقف، وعدم النزاع العملي، والصبر، أي تخزين الطاقات وتحمّل المشاق في سبيل الهدف الأسمى. فهذه هي عوامل الفلاح وبدونها يبدو الفشل وتتبدّد الطاقات.

٤٧: وهذا توضيح لسلوك الفئة المقابلة لخطّ الإيمان، إنها تخرج بطرة متكبّرة ومرائية دون أن تملك إيماناً بما تقاتل من أجله، وساعية لخدمة الباطل والصدّ عن سبيل الله، ظانّين أنهم يستطيعون الوقوف أمام القوة الإلهية وهي بهم محيطة، وبهذا يحذّر القرآن المؤمنين من هذا السلوك، كما يهوّن بذلك قوة عدوّهم.

٤٨: إنّ الفئة المشركة أسلمت قيادها لعدوّ الإنسانية الشيطان، فراح يسير بها نحو الهاوية: يزيّن لها أعمالها حتى لتنسى كلّ عيب فيها، بل يقودها حتى لتأليه نفسها، والاغتراب عن ذاتها، وتصوّر نفسها قويّة غالبة، حتى كأنها لا غالب لها من الناس. وإمعاناً في التغرير يعلن الشيطان انه مجير أتباعه، وهكذا يقود الشيطان هؤلاء المغفلين إلى الهاوية عبر هذه الشعارات الفارغة، وحينما تبدو الحقيقة ويتخاذل جيش الكفر، فمن الطبيعي حينئذ أن يعترف الشيطان بضعفه وكذبه ويتراجع عن شعاراته الفارغة (ينكص على عقبيه) ويعلن انه بريء من هذه الفئة الضالة زيادة في تبكيتها واظهاراً لعدائه. كما يعلن انه يرى الحقيقة التي لا يبصرونها بما له من طاقات وانه يخاف الله ويخشى عقابه الشديد! وهكذا تحيط الخيبة بجيش المشركين فلا يملكون سبيلاً للنجاة منها وتلك عاقبة أتباع الشيطان.

٤٩: وهؤلاء أيضاً نموذج مخذّل لا يبصر من الأمور إلاّ ظواهرها. فعندما شاهدوا الجموع الغفيرة للمشركين وقلّة المؤمنين ادعوا أن الفئة المؤمنة قد أوقعها دينها في المهلكة (وهم بذلك يعبّرون عن المرض الذي في قلوبهم تجاه الإسلام) ولكن الحقيقة سرعان ما تتكشف حيث ينتصر المؤمنون الذين توكّلوا على الله واستندوا إلى عزّته وحكمته فنالوا الفلاح.

٥٠: تهويل للموقف الرهيب الذي ينتظر الكافرين البطرين الذين يتصوّرون أن لا غالب لهم، في حين تتوفّاهم الملائكة وهي تضرب وجوههم وأدبارهم أو تبكتهم وتبشّرهم بعذاب الحريق.

٥١، ٥٢: وهكذا يشير القرآن إلى السُّنّة الإلهيّة التي أعلنها من قبل وهي انّ عاقبة الظالمين هي الهلاك الحضاري، ويذكر لذلك مثلا آخر، وهو عاقبة فرعون ومن ساروا بسيرته ومن كانوا على غراره من الجبابرة البطرين المكذّبين بالله ورسله وشرائعه، والطاغين والساعين في الأرض بالفساد فعاقبهم الله بما جنته أيديهم وهو تعالى شديد العقاب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

٥٣: وهذه الحقيقة نابعة من أُصول العقيدة التوحيديَّة، ذلك أن الله عزوجلّ هو الفياض اللطيف المنعم الكريم مادام الناس قابلين لذلك. فإذا غيّروا وفقدوا قابليَّتهم واستعدادهم لتلقّي النعم، غيَّر الله تلك النعم، وهو تعالى سميع عليم بكل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، وسنته جارية في الكون، فيجب أن تعتبر بذلك الشعوب والأفراد ويشعروا بأنهم إذا شاؤوا أبقوا النعم، وإذا شاؤوا غيروها، فذاقوا العذاب الأليم.

وقد روي عن أهل البيت(ع): إن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة[1].

٥٤: وهذا تأكيد تاريخي للحقيقة السابقة، ذلك أن آل فرعون اعتادوا الانحراف عن خط الفطرة تماماً، كمن سبقوهم من المكذّبين بآيات الله تعالى، فكانوا من الظالمين واستحقّوا الهلاك الحضاريَّ نتيجة ظلمهم وعتوّهم عن الحقيقة.

٥٥: ورغم عمومية لفظ الدوابّ إلا أنه يستعمل في خصوص البهائم، وحينئذ يأتي هذا التعبير ليكشف عن الدرك الأسفل الذي يصل إليه الكافرون المفرّطون بعقولهم ومقتضيات فطرتهم، فيعودون شرّ البهائم لأنهم كفروا بأنعم الله ولم يعودوا يتقبّلون صفة الإيمان.

٥٦، ٥٧: فإنّ هؤلاء الكافرين يفقدون كلَّ خصيصة إنسانية ولا يعرفون أيَّ معنى خلقي، ولذا فهم ينقضون عهودهم التي يعطونها تحقيقاً لمصالحهم ثم لا يلتزمون بها وينقضونها المرّة بعد المرّة. فهم إذن لا يثبتون على عهد ولا يمكن أن يؤمن جانبهم. وحينئذ فلا أمان للمجرمين الخونة، ويجب توجيه ضربة قويَّة لهم، حين الظفر بهم في الحرب، بحيث تتمزّق لها أفئدة من يتّبعون سيرتهم ويتذكّرون النتائج الرهيبة لنقض العقود، فلا يقدمون عليها. وخلاصة المعنى، انه عند الظفر بناقضي العهود هؤلاء يجب القضاء عليهم بتوجيه ضربة يتمزّق بها السائرون على طريقهم.

٥٨: وحين تبدو علامات الخيانة من الكافرين المعاهدين يجب إعلامهم بذلك والتوجُّه لقتالهم بعد هذا الإعلام، معاملة لهم بمثل ما يفعلون من نقض العهد وخيانة له، والله لا يحب الخائنين، ولا يمنحهم أي حق.

٥٩: وهذا تهديد إلهيٌ للكافرين، المتبجّحين بقوتهم وجبروتهم، فهم يتصورون أنفسهم سبقوا إلى النصر عبر خداعهم ونقضهم للعهد، في حين أنهم أعجز من أن يقفوا أمام الإرادة الإلهيَّة القاهرة.

٦٠: وهذا أمر قرآني خالد لكلّ أجيال الأُمة الاسلاميَّة، ينسجم مع طبيعة وظيفتها التاريخية الحضاريَّة، باعتبارها خير أُمة أُخرجت للناس، والأُمة الشاهدة، والأُمة الوسط، فمن الطبيعي أن تمتلك هذه الأُمة كلّ عناصر القوَّة العسكريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة وغيرها، وتمتلك كلّ العناصر التي تؤهلها لإرهاب أعداء الله وأعدائها المعروفين، بل وغيرهم ممن يقفون خلفهم متسترين دون أن يعلنوا العداوة خوفاً من المسلمين. ومن الطبيعيّ أنَّ من عناصر القوَّة الإنفاق في سبيل الله لسدّ الثغرات الاجتماعيَّة ونشر العدالة، وهو يعود على صاحبه بالخير والعطاء الإلهي.

٦١: وإذا بدت من الكفّار علائم الجنوح للسلم والموادعة مع المسلمين، كان على الرسول(ص) الاستجابة لهذه الرغبة، ويرى بعض العلماء أنَّ هذا الحكم كان موقّتاً، وقد جاء الحكم النهائي في سورة براءة.

---

١ – الاسكافي ، ج ٢، ص ٢٧٣.

> وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

٦٢: أما إذا حاول الكفّار الجانحون للسلم أن يخادعوا الرسول ويستفيدوا من حالة الموادعة لغايات خبيثة، فإن الله تعالى يتكفل للرسول بالنصر. وفي الآية إشارات لعوامل الانتصار الإسلامي الأول على كل العقبات وفي طليعتها التأييد الإلهي للرسول بالنصر، وبوقوف المؤمنين خلفه (ص) بكلّ صلابة ووحدة حقيقيّة.

٦٣: إنّ الوحدة الحقيقيّة لا تقوم على أساس المصالح الوقتيّة والعوامل الجغرافيّة، أو الجنسيّة، أو القوميّة، أو غيرها، وإنما تقوم على أُسس العقيدة الواقعيّة، البناءة، النافذة إلى كلّ الوجود الانساني، حيث تربط القلوب وتوجد تلاحما فريداً بينها، وهي حالة لا تتحقّق إلا بالتأييد الإلهي العظيم، ولا يمكن أن توجدها العوامل المادية، حتى لو كان ذلك على مستوى انفاق ما في الأرض جميعاً.

٦٤، ٦٥: بعد تلك المقدّمة التي ركّزت النعمة الإلهيّة والتلاحم العميق بين المؤمنين، يأتي هذا الأمر بالتوكّل على الله تعالى والإعتماد الدائم على دعمه، ومن ثمّ الاعتماد على الطاقة الذاتيّة للمؤمنين المخلصين. وبثُّ روح الحماس فيهم، مع ضمان النصر على العدو رغم القلّة. فإنّ فئة صغيرة من المؤمنين الصابرين يمكنها التغلّب على عشر أضعافها إن حقّقت مفهوم الصبر وانطلقت من خلفياتها العقائديّة وطاقاتها المعنويّة الهائلة، وتلاحمت في وحدة متراصّة حقيقيّة. في الوقت الذي لا يملك الكفّار المقاتلون ما يشدُّهم إلى بعضهم، فهم لا يعرفون السبيل الحقيقيّ إلى التلاحم، ولا يدركون حقيقة الهدف الذي يقاتلون من أجل تحقيقه.

٦٦: وتبعاً لحالات الصبر والوعي تكون المقاومة، وتكون القدرة على المواجهة، ولمّا كان هناك ضعف بين المسلمين لا يقدرون معه على المواجهة المكثّفة، جاء التخفيف القرآني عنهم ليكفل بثبات المجتمع الإسلامي أمام ضعف عدده من الكفّار. وفي الآيتين اشارة واضحة لتناسب نوع المقاومة مع نوع الصبر، والروح المعنوية ونوع الوعي الذي يملكه المقاتلون المدافعون عن حمى العقيدة.

٦٧: والملاحظ في هذه الآية الكريمة ان الجيش الاسلاميّ يجب أن يرتفع في نظرته وتعامله على المنافع القصيرة والعواطف الوقتيّة إلى مستوى الحفاظ على المصالح العليا وتحقيق الأهداف البعيدة للأمة، وحينئذ فإنّ الخطر الداهم يجب درؤه بكلّ حزم وقوة، دونما تفكير بالمنافع الماديّة والعواطف الزائلة. فإذا لم يثبت كيان الإسلام، ولم تتقوّ دعائمه، ولم يثخن المسلمون في الأرض، فإنّ الواجب على النبي وأتباعه المقاتلين أن يشتدوا في قتال الكافرين ومحوهم لكي تطير لهول ذلك القلوب المحاربة، ولا يبقى أمل في النجاة أو استعادة الأسرى عبر بذل الأموال والمفاداة. في حين لا يفكر المسلمون إلا في القضاء على العدو دونما هوادة.

فإذا ما انقلب هذا التصوُّر إلى عمليّة تأسير واسعة رجاء الفداء والحصول على ما يصلح وضعهم الاقتصادي، متناسين الخطر الداهم، فإنّ ذلك سوف يصيبهم بالعذاب العظيم، وربّما يترك أثره الكبير على كيانهم الذي لم يتقوّ بعدُ ولم تضرب جذوره في الأرض.

٦٨: وربّما كانت هذه الآية تشير إلى ان الله تعالى تكفّل لهذه الرسالة أن تنتصر، وللرسول أن يتغلّب على أعدائه. ولولا ذلك لكانت عمليّة التأسير التي رجّحها المسلمون في بدر على القتل خطيرة النتائج على كلّ المجتمع الإسلامي. وقيل: إن المراد هو انّ الله تعالى تكفّل بالغفران والعفو عن أهل بدر، وإلا فإنهم قد يكونون مستحقّين للعذاب نتيجة ذلك.

٦٩: بعد ذلك العقاب الشديد تبيح الآية للمسلمين أن يتمتّعوا بالغنائم باعتبارها حلالاً طيّباً، داعية إيّاهم للتقوى والتمسّك التام بأحكام الله، ومتذكّرين اللّطف والمغفرة والرحمة الإلهيّة العميقة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

٧٠: يتوجّه القرآن هنا إلى أسرى الرسول(ص) ويخاطب قلوبهم، محركاً فيهم الاتجاهات الخيرة، ومذكّراً بالتعامل الإسلامي الجيد معهم، على الرغم من أنهم كانوا يستحقّون القتل نتيجة نياتهم الخيانيّة السابقة للقضاء على الدعوة الاسلاميّة واجتثاثها من اصولها، مع ملاحظة ضعفها وعدم تمكّنها من الأرض آنذاك.. فالآية الشريفة تدعوهم للنيّة الخيرة، مذكّرة إيّاهم بأنّ الله تعالى يعلم ما في القلوب، وواعدة إياهم بالتعويض عليهم كلّ ما خسروه نتيجة الحرب والفداء، إن كانوا يتّجهون الإتجاه الخيّر، بالإضافة لحصولهم على الغفران الإلهيّ عن الذنوب. وفي هذا دفع لهم إلى ساحة الإيمان.

٧١: أمّا عاقبة الخيانة فإنّها الوبال العميم. وقد جرّب الأسرى المشركون ذلك في حربهم ضدّ المسلمين فلينتهوا ويتركوا اسلوب الخيانة وإلاّ لأمكن الله منهم بلا ريب، فهو تعالى عليم حكيم في أفعاله.

٧٢: تركّز هذه الآية الكريمة على رابطة العقيدة والتزام مقتضياتها باعتبارها أهمّ رابطة في المجتمع المسلم، ولما كانت تشير في تطبيقها الأول إلى المجتمع الإسلامي الأوّل، فهي تؤكّد الولاية المتبادلة بين المهاجرين المجاهدين ـ بما يملكون من نفس ونفيس ـ والأنصار المؤوين لهم، وهي ولاية عامة تشمل كلّ ما يمكن تصوره من متعلّقات لها: كولاية الإرث، والتكافل في الديّات، والمغارم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها. وذلك لكيلا يكون هناك عوز في جناح من المسلمين ولتشتدّ الأواصر فيصبح الجميع عائلة واحدة متضامنة متكافلة.

أما أعضاء هذه العائلة من المؤمنين الذين لم يستجيبوا لنداء الهجرة وبقوا في أوطانهم، مؤثرين الإبقاء على مصالحهم هناك، فإنّ هذه الولاية الواسعة لن تشملهم إلا في إطار الدفاع عن وجودهم إذا هدّدهم خطر واستنجدوا بالمسلمين فعليهم مناصرتهم ومقاتلة أعدائهم من المشركين، شريطة أن لا يكون هناك عهد قائم بين هؤلاء المشركين والمجتمع الإسلامي بعدم القتال، فحينئذ ترجّح مصالح المسلمين العليا على مصالح تلك الفئة المسلمة غير المهاجرة.

٧٣: والمجتمع الكافر بدوره متضامن يحاول الحفاظ على وجوده ومقاتلة المؤمنين بشكل متضامن، الأمر الذي يستدعي التلاحم والتكافل لمواجهته. أما إذا لم يتحقّق ذلك ولم ينظر للعلاقة الايمانيّة كوحدة، وللعلاقة الكافرة كوحدة أيضاً، فإنه ستكون هناك نتائج خطيرة وفتنة وفساد كبير.

٧٤: عودة إلى مجتمع الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله والايواء والنصرة، وتركيز على أن هذه الخصائص هي التي تشكّل المجتمع الايمانيّ الحقّ، وتؤهّله للمغفرة الإلهيّة، والتقدّم الماديّ الكريم. وبدونها تفقد الأمة خصائصها، وبالتالي تفقد دورها الحضاريّ المفروض.

٧٥: فإذا هاجر المؤمنون بعد ذلك وانضمّوا إلى دار الهجرة فقد دخلوا في الولاية العامّة المشار إليها آنفاً.

وبعد أن مضت فترة كانت فيها الولاية والتكافل العام هو السائد بين المسلمين في الصدر الأول، حتى في مجال التوارث، جاءت هذه الآية الكريمة لتقرّر الحكم الدائم فتعلن: ان التوارث إنّما يتمّ على أساس الرحم فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضهم في شريعة الله، ولعلّ ذلك باعتبارهم امتداداً طبيعياً لذويهم ليكون الدافع الذاتي للتملّك مستمراً حتى آخر لحظة من الحياة، مما يؤدّي إلى الإعمار المتواصل للأرض.

سورة التوبة

وتسمى بسورة (براءة) أيضاً، وقد اختلف في كونها سورة مستقلة أو أنها تابعة لسورة الأنفال، وقد أتفق على نزولها في السنة التاسعة للهجرة، وهي تحدد، بدقة، العلاقة بين المجتمع المؤمن والكافرين، وقد بلّغها الإمام علي(ع) يوم الحج الأكبر من قِبَل النبي(ص)[1]. ولعل السر في عدم شروعها بالبسملة - إن كانت سورة مستقلة - أنها نزلت لتعلن السخط والغضب الإلهي ضد المشركين، مما لا ينسجم مع البسملة وما فيها من معاني الرحمة.

سورة التوبة ١٢٩ ٩

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝

١، ٢: لما كانت الرسالة الإسلامية قد تأصّلت في النفوس وقويت، ولما كان المشركون - بشكل طبيعي - لا يتّبعون إلا مصالحهم، ويتعاملون من منطق القوة قبل أي إلتزام، ولما كان الإسلام يسعى لتطهير الأرض من لوث الشرك والمشركين الذين لا يستحقون صفة الإنسانية بعد أن خرجوا على مقتضيات فطرتهم، لكل ذلك ولغيره وجدنا القرآن هنا يعلن البراءة من الشرك ويرفض التعايش معه.

والملاحظ هنا أن المشركين المعاهدين كانوا على قسمين كما يبدو، فبعضهم غير ملتزم بعهوده يعمل على نقضها باستمرار متى ما سنحت له الفرصة، والآخرون يلتزمون العهد، وطبيعي أن يكون التعامل معهم مختلفاً. فأما الناقضون فإن القرآن يمهلهم أربعة أشهر، لهم الحق فيها أن يسيحوا في الأرض ثم يختاروا بين الفناء أو الدخول في مجتمع الإيمان، محذراً إيّاهم بأنهم مهما بلغت قوتهم لن يعجزوا الله القدير، بل سيخزيهم الله ويذلّهم.

٣: إنه الإعلان الإسلامي العام الذي حمله الإمام علي(ع) ليقرأه يوم الحج الأكبر، يوم عيد النحر، (والعمرة هي الحج الأصغر) وحين تلتقي الجموع. إنه اعلان البراءة من المشركين، ورفض التعايش معهم ومتابعتهم، والسعي لتطهير الأرض منهم، إلا أن يتوبوا، فذلك طريق الخير الحقيقي، إمّا الإعراض عنه فإنّه سيؤدّي بهم إلى الهلاك، لأنهم سيواجهون قوة الله المتمثلة في قدرة المجتمع المسلم وقيادته، وسيقتلون بالعذاب الأليم.

٤: أما أولئك الذين ثبتوا على عهدهم، والتزموا مواثيقه، ولم ينقصوا منها شيئاً، ولم يساندوا أعداء الإسلام، فإن الإسلام ملتزم عهوده تجاههم، لا يخرقها ولا يخرمها حتى تنتهي المدة المحددة في العقد، والتزام العهد من صفات مجتمع المتقين، حتى ولو كان العهد مع المشركين.

٥: وبعد انتهاء المدة التي حرّم الله فيها قتال الكافرين الناقضين للعهد، فإن المسلمين مأمورون بمتابعة المشركين أينما وجدوهم، وسدّ المنافذ عليهم، وأخذهم ومحاصرتهم والترصّد لهم في كل مرصد، فلا خيار لهم حينئذ من الفناء إلا أن يتوبوا إلى الله، ويرجعوا إلى نداء الفطرة التوحيديّة، ويدخلوا في عداد المسلمين، ويقوموا بكلّ الواجبات التي يقوم بها المسلمون من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحينئذ يغفر الله لهم ما جنوه من قبل، ويُخلى سبيلهم، ويعيشون في أمان كأعضاء في المجتمع المسلم.

٦: وبهذا المقطع القرآني نعرف أن الغاية الرئيسة من تلك الشدّة هي إعادة المشركين إلى صوابهم وإبعادهم عن حياة الخسة والضياع التي جعلتهم ينسون أنفسهم ويقفون أمام خطّ الهداية الإلهية عقبات كبرى لابد من القضاء عليها. فالقرآن هنا، وبالرغم من ذلك الأمر الشديد، يفسح المجال لأي مشرك يريد أن يستمع إلى كلام الله، مستجيرا بالرسول، يفسح المجال له ليفكر ويعي النداء الإلهي، ضامناً له العودة إلى مأمنه ليفكّر ويفكّر، ويتخلّص من جهله، ويعود إلى حياة الإيمان والإنسانية، ولتنعم بعد ذلك البشرية في حياة مطمئنة في ظلّ الدين الإلهي، وعلى أساس من التوحيد، وتتخلّص من جرثومة الشرك وفساده الكبير الخطير.

---

١ - مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٧٣.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

٧: ان التزام العهد والميثاق إنما ينطلق من منطلقات إيمانية وقيم روحية قوية، الأمر الذي يضمن الثبات على مقتضيات العقود والتزام لوازمها، في حين يفقد المشركون كلَّ هذه الاسس الأخلاقية والقيم الروحية، فلا معنى لتصوُّر التزامهم العهود، وفي الآية اشارة واضحة إلى ابتناء الأخلاق على القواعد الايمانية، فلا معنى لكل الإدعاءات الإنسانية التي تتبجح بها المبادئ المادية في حين لا تجد الأخلاق لديها أي مضمون.

ومع ذلك، فإنَّ على المسلمين الوفاء بالعهود الممضاة عند المسجد الحرام باعتبار ما تحمله هذه العهود من ضمانات نابعة من عظمة المكان لدى الطرفين.

ثم إنَّ الالتزام متقابل، فما دام الطرف المقابل ثابتاً، فإن الأمر مضمون من الطرف الإسلامي، لأنَّ ذلك من مقتضيات التقوى والخلق الأصيل، وهو ما يتمتَّع به المسلمون.

٨: يتكرَّر هذا الاستفهام الاستنكاري هنا ليؤكد الحقيقة الآنفة الذكر، وذلك عبر ذكر حقيقة يثبتها تاريخ تعامل المشركين مع الفئة المسلمة. انه تعامل وحشي عبر التاريخ، فالمشركون لا يبالون بشيء من مقتضيات الأخلاق والطبيعة الإنسانية فهم لا يعيرون آيات الله قيمة ويبيعونها بأرخص الأثمان وهذا هو العمل السيّئ، بل يسحقون كل القيم حينما يسيطرون على المسلمين. انهم يرتكبون كل جريمة ولا يلتزمون أي «إلّ» أو «خلق واضح» أو «بند صريح» من بنود العهد، ويرتكبون كل مايُذَم عليه الإنسان بطبيعته إذا ارتكبه.

نعم، قد تنطلق أبواق دعايتهم وألسنتهم بالكلام المعسول والشعارات البراقة المؤمنة والمرضية، إلاّ أن قلوبهم في الواقع تغلي حقداً، مما يدفع أكثرهم للخروج عن مقتضيات الطبيعة الإنسانية والدخول في صفة الفسق عنها.

٩، ١٠: إنهم بخروجهم عن النسق الانساني الطبيعي وفسقهم عن المسيرة الأصيلة، استبدلوا بآيات الله، التي عرضت عليهم سبل النجاة، ثمناً قليلاً، وحياة خسيسة، وراحوا يقفون في وجه السائرين إلى الله، ويقيمون شريعة السوء والانحراف والاعتداء على حقوق الآخرين.

١١، ١٢: أما إذا عادوا إلى سبيل الإيمان والتزموا عملياً بمقتضياته فإنّ الإيمان يجبُّ ما قبله وحينئذ فان علائق الاخوة هي التي تحكم والمحبّة هي التي تسود. أما إذا نقضوا ونكثوا العهد والمواثيق وراحوا يوجّهون ضرباتهم إلى الدين، فانه تجب مقاتلة أئمة الكفر والداعين إليه حتى يرجعوا إلى صوابهم.

١٣: ما المانع من قتالهم بعد ان نقضوا عهودهم وصمموا على اخراج الرسول وابتدأوا بقتال المؤمنين غير الخشية من عدتهم؟ وهذه لا معنى لها في قبال طاعة الله وخشيته والدفاع عن دينه.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

١٤، ١٥: انطلقوا لقتال قوى الشرك واتكلوا على الله ووعده الكريم لكم بالنصر وشفاء الصدور المؤمنة وذهاب غيضها والتوبة، ووعده لتلك القوى بالعذاب والخزي الأليم. انه الأمل الكبير يدفع المؤمنين للجهاد بعد أن تحققت كل عوامله الأخرى من فساد المشركين وارتفاع الخشية إلاّ من الله.

١٦: ان الجهاد بلاء وامتحان، ولابدّ أن يتتابع البلاء لتتم عملية التربية المطلوبة، وتتربى النفوس على الثبات والتضحية في سبيل الله، والتزام منهج الله ورسوله والمؤمنين، دونما أي انحراف أو ضعف نفس يقود للتمسك بسبل الكفر والانخداع بمغرياته والسير في سبله الخادعة. وتنتهي الآية بتأكيد حقيقة العلم الإلهي بخبايا النفوس، لئلا يبقى مجال للتقاعس ومخادعة النفس، ولتسدّ كلّ الأبواب أمام التخاذل في طريق الجهاد.

١٧: هذه الآية وما بعدها تقرران حقيقة من حقائق التصور الإسلامي الأصيل، وهي أن الإيمان والاخلاص روح العمل وأساسه وما لم يتوافرا في الإنسان فإنه لا يستطيع التحدث عن قيمة انسانية وعمل خلقي ممدوح. فالمساجد هي بيوت التربية والتزكية الأخلاقية وليست لأية مساهمة للفئة المشركة في بنائها أثر ولا قيمة مادامت لا تنسجم مع أهدافها وما دامت تشهد على نفسها بالكفر من خلال أقوالها وافعالها، وحينئذ لا عمل ينفعها ولا نجاة لها من النار.

١٨: والمؤمنون بالله والآخرة والمصلّون المزكون والذين لا يخشون أحدا إلا الله هم وحدهم الذين يرفعون قواعد بيوت الله، لأنهم في مسيرتهم ينسجمون مع أهدافها الإنسانية المادية.

١٩: وهذا مثال ثان على تلك الحقيقة، فلا يكفي أن تقيّم العمل بآثاره الايجابية الخارجية، بل يجب ملاحظة الاسس الايمانية التي يحملها العاملون لأنها تمنح العمل أعظم قيمة وتضمن استمراريته من خلال كونه نابعاً من منبع الإيمان الفياض. وقد جاء في الرواية[1] ان الآية نزلت في العباس بن عبدالمطلب وشيبة، إذ كانا يتفاخران بالسقاية والعمارة، وقارنت ذلك بايمان علي بن أبي طالب وجهاده ورجّحته عليهما. وهكذا نعرف أن الهداية إنما تنال المخلصين المؤمنين، أما الظالمون فلا هادي لهم.

٢٠: هذا هو معيار التفاضل ونيل الدرجات عندالله. إنه الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، ولا فوز بدون ذلك.

---

١ – مجمع البيان ج ٥ ص ٢٨.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

٢١، ٢٢: انه الأمل الكبير والبشارة العظمى بالرحمة والرضوان والجنة ذات النعيم الدائم، وبه يضمن الإسلام منبعاً متدفّقاً، لا ينضب، للعمل الصالح والجهاد في سبيل الله.

٢٣: ولكي يتمّ ضمان الدفع التام الدائم للجهاد والعمل الصالح في سبيل الله يعمل القرآن الكريم على رفع أحد أعظم الموانع من طريق المؤمنين وهو مسألة (الولاء) لغير الله. ذلك أن الولاء تستقي جذوره من العاطفة، والعاطفة إذا التهبت غلبت الوعي والعقل، فينبغي أن تهذّب وتوجّه لتعمل منسجمة مع العقيدة الواعية. ومن هنا ينهى القرآن عن الولاء للآباء والاخوان الذين يرجّحون الكفر على الإيمان، لأن الولاء يستتبع التبعية، أو في الأقل، التقاعس في طريق الجهاد، وتمحّل الأعذار، مما يضرُّ بالمسيرة الهادفة ويؤدي إلى ظلم كبير.

٢٤: واستمراراً لذلك التوجيه، توجيه نفي الولاء لغير الله، يركّز القرآن على الحب: فحب المؤمن انما هو لله والله هو الكمال المطلق، والحب مهما تعالى لله ترك آثاره الايجابية على مجمل الوجود الانساني، وارتقى به من المستويات الواطئة، والأهداف الضيّقة، والتعلّق بالدنيا التافهة، والتركيز على المطامع الشخصية وأمثال ذلك. ولذلك يجب أن يلحظ المؤمن هذا المقياس الحسّي الوجداني في نفسه، فهل الله والجهاد في سبيله أحبُّ لديه من الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والمال، والتجارة، والمسكن، أم لا؟! فإن كان الجواب بالنفي ـ والعياذ بالله ـ فإنه التهديد الكبير بالسقوط والضياع والفسق عن طريق الإيمان ومسيرة الفطرة.

٢٥، ٢٦: واستمراراً في تعميق الأمل في النفوس وشد القلوب إلى الله وتأييده، يذكّرهم القرآن الكريم بنصر الله لهم في مواطن كثيرة وحتى في (حنين) التي غفل فيها المسلمون عن السبب الأول للنصر، وهو اللّطف الإلهي، واعتمدوا على كثرتهم، إذ قد اجتمع لهم لأول مرة جيش عدّته اثنا عشر ألفاً[1]. إلا أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض وهي واسعة، ثم انهزموا مدبرين. نعم، حتى في حنين كانت الرحمة الإلهية تتجلّى لهم في سكينة الله ينزلها على رسوله وعلى المؤمنين، وفي جنود غير مرئيين يحاربون الكفّار ويصبُّون عليهم العذاب، فهو جزاؤهم في النهاية، ويتمُّ النصر الإلهي المؤزّر.

---

١ ـ ن.م: ص ٣٢.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

٢٧: ان النصر الإلهي للمسلمين في (حنين) كان رحمة لهم على الرغم مما بدا منهم من ركون للكثرة واعجاب بها. وهو شعور منحرف كان ينبغي أن يتنزّهوا عنه. ومن هنا تأتي هذه الآية لتعلن توبة الله عليهم لأنه تعالى غفور رحيم.

٢٨: هذا الاعلان القرآني المهم يشكّل منعطفاً حساساً في مسيرة الإسلام. إنه يعلن انقطاع صلة المشركين عموماً بالمسجد الحرام لأنه مركز الطهر والطهارة، وهم نجس مستقذر، ترفضهم الفطرة بطبعها، وتستقذرهم الطبيعة الإنسانية، بعد أن فسقوا عنها وخالفوا مقتضياتها. انها النجاسة المعنوية التي قد تستتبعها النجاسة المادية، وانه العام التاسع للهجرة الشريفة، العام الذي اذّن فيه الإمام علي(ع) بالبراءة من المشركين، ومنع الطواف العاري بالبيت، وعاد البيت إلى أحضان المؤمنين لا غير، ليشكّل محور حركة التوحيد في الأرض، كلّ الأرض. ولما كان مجيء المشركين يعني تشكيل موسم له آثاره الاقتصادية على حياة أهل مكة، فان القرآن يرجّح ـ من جهة ـ جانب العقيدة على أيّ شيء آخر، ويضمن ـ من جهة أخرى ـ فضل الله وغناه من طريق آخر، والله يدبّر الأمر بعلم وحكمة بالغين.

٢٩، ٣٠، ٣١: تبدأ هنا مرحلة جديدة في تنظيم العلائق بأهل الكتاب وهم على الأرجح (اليهود والنصارى والمجوس وكل من ثبت لهم كتاب سماوي) فهؤلاء على الرغم من انهم يؤمنون بالله اجمالاً وباليوم الآخر، إلاّ أنهم يشركون بالله في تصوراتهم عن أنبيائهم، فهذا ينسب نوعا من الالوهية إلى عزير والآخر ينسبها إلى المسيح تقليداً لقول المشركين من قبلهم، وآخرون يطيعون أحبارهم ورهبانهم طاعة عمياء وينقادون إليهم انقيادهم لإله، ثم هم لا يؤمنون بتفاصيل الآخرة، إلى الحد الذي يفقدهم حق صفة الإيمان بها عموماً، ثم انهم لا ينسجمون مع المجتمع الإسلامي الذي يعيشون فيه ولا يطبّقون تعاليمه ومراسمه العامة (محرّماته ومحلّلاته) ولا يعترفون بشرائعه الحقّة. لذلك، فان وجودهم عقبة كأداء في قيام مجتمع اسلامي نظيف يطبق تعاليم القرآن وتسوده حكومة الإسلام، فمن الطبيعي أن يرفض الإسلام هذا الوجود بهذا الوصف، ويطلب مقاتلته حتى يذعن لحكومة الإسلام ويعطي ضريبة (الجزية) مستسلماً غير مستكبر، وينسجم مع المجتمع في حدّ الانسجام الأدنى، أي احترام العقيدة الإسلامية، والشعائر الإسلامية، والمساهمة في نفقات المجتمع حتى يمكن القبول بهم مواطنين في هذا المجتمع. وهذا حكم يختصّ بأهل الكتاب، أما المشركون فلا يقبل منهم شيء إلا الإسلام لأنهم لا يستطيعون الانسجام بأيّ حال من الأحوال مع المجتمع المسلم.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

٣٢: يتحدث القرآن هنا عن محاولات أهل الكتاب اليائسة لمحو دين الله واطفاء نوره العظيم عبر الدعايات والأقاويل الباطلة والشائعات الموهومة فيسخر بمن يستخدم فاه الضعيف لإطفاء نور الله العظيم الذي يأبى جلّ جلاله إلا أن يتمه على رغم أنف الكافرين.

٣٣: إن الله تعالى هو منبع هذا الدين الحق وقد أرسل رسوله به ليهدي البشريّة سبيل علائها وسعادتها الحقيقيّة، ولابُدّ من أن يسيطر هذا الدين في النهاية على مجموع المسيرة وينتشر به القسط والعدل القرآني على وجه المعمورة ويجذب إليه كلّ القلوب ويحقّق به مطلوب كلّ ميل طبيعي للتديُّن في أبناء البشرية جمعاء. انه الوعد الإلهي الذي لا يخلف على الرغم من كل تآمر المشركين، وهو ما تنتظره البشريّة بفارغ الصبر ويبعث فيها العزم الدائم على الجهاد المتواصل ضد كلّ العقبات الموضوعة في طريق إعلاء الدين.

٣٤، ٣٥: ويكشف النص القرآني هذا عما يفعله الكثير ممّن نصّبوا أنفسهم أعلاماً للدين في حين انهم ليسوا ـ في الواقع ـ إلا عقبات بوجه تديّن الناس وبوجه ظهور الدين على الأرض كلّها. انهم باسم الدين يعملون على تحقيق مصالحهم الضيّقة، ويربّون الجماهير على طاعتهم طاعة عمياء دون أي تخلّف، كأنما هم أرباب، ويستثمرون النوازع الدينيّة ليجمعوا الأموال الطائلة والثروات الكبيرة ليستخدموها في الصدّ عن سبيل الله، وتحقيق مطامعهم ومطامع أسيادهم وتنفيذ مخطّطاتهم الشيطانيّة، وإقامة وضع اقتصادي مسرف تسحب فيه الأموال ـ من قبيل الذهب والفضّة ـ من مجال التعامل الحيوي والانفاق في سبيل الله إلى الكنوز المتراكمة ليبقى المجتمع مشلولاً عاجزاً عن القيام بدوره.

وهؤلاء يهدّدهم القرآن بأشدّ العذاب، إذ يحمى عليها في نار جهنّم وتلصق بأبدانهم (جباههم وجنوبهم وظهورهم) ثم يأتي التبكيت القاتل: «هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون».

٣٦: وهكذا شاء الله تعالى في كتابه التكويني أن تكون الشهور القمريّة اثني عشر شهراً منها أربعة يحرم فيها القتال هي: (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) وهي سنّة نبويّة سابقة أثبتها القرآن الكريم باعتبارها من سنن الدين المنظم للمسيرة الحياتية والقيّم عليها، واعلن أن أيّ تعدّ فيها على حرمة هذه الأشهر يعني الظلم الاجتماعي، اللهم إلا أن يهاجم العدوُّ الأمة الإسلامية كما يفعل المشركون وحينئذ يجب القتال المعبّأ ضدّهم كما تعبّأوا ضدّ الإسلام. وهكذا نجد القرآن يركّز على محطّات الأمن الزمانيّة (الأشهر الحرم) والمكانيّة (منطقة البيت الحرام)، لغرض حضاري سام.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

٣٧: كانت العادات الجاهليّة تتحكّم أحياناً فتعمل على تغيير أسماء الأشهر لترتفع الحرمة بزعمهم فيستطيعون إشباع رغباتهم في القتال وهذا ما يسمّى بالنسيء، وهو ما هاجمه القرآن باعتباره زيادة في الكفر وتدخلاً إنسانياً في حكم إلهي، فالحلُّ والحرمة إنما هما بيد الله وليس لأحد أن يغيّر اسم شهر بعينه. ولعلَّ مورد الآية أن الاستنفار لغزوة (تبوك) كان في رجب، وهو من الأشهر الحرم إلا أنّ رجب هذا لم يكن رجب الحقيقي بل هو رجب مدّعى على أساس النسيء، فرفض الإسلام أن يرتّب الحرمة إلاّ على رجب الحقيقي، ورفع هذا التوهّم، آمراً بالانطلاق لقتال المشركين كافّة، ورفض كلَّ تبعات النسيء المذكور.

٣٨: هذه الآية وما بعدها نزلت بعد الأمر بالتوجُّه للقتال في تبوك البعيدة عن المدينة، ومع ان الظرف الزمانيَّ والمكانيَّ لم يكن مساعداً إلاّ أنه كان من الضروري أن يتوجّه المقاتلون فيباغتون العدو قبل أن يعدَّ عدته، ولذلك بدت في المسلمين بعض مظاهر الضعف والتثاقل عن القتال الأمر الذي عالجته هذه الآيات، فهي ـ من جهة ـ أكدت عنصر الإيمان الذي أعلنوه فكان سمتهم، ثم ركّزت على سبيل الله الذي يقرّب العبد إليه تعالى وذكرتهم بعظمة الحياة الآخرة بالقياس إلى دناءة الأهداف والمتع الدنيوية، ثم عاتبتهم على التثاقل والتباطؤ في الخروج إلى القتال.

٣٩: وتتصاعد لهجة التهديد الرهيب حين يأتي هذا الوعيد بالعذاب الأليم وثقل مهمّة حمل الرسالة الخالدة إلى قوم آخرين دون أن يلحق بمسيرة الرسالة أي ضرر أو نقص، ذلك ان القدرة الإلهية فوق كلّ قدرة وهي تسدُّ كلَّ نقص.

٤٠: وزيادة في علاج هذا الضعف الذي طرأ على جهاد المسلمين يأتي هذا التبكيت والتذكير بالدعم الإلهي المتواصل لمسيرة الرسالة والرسول وذلك عندما صمم الكافرون في مكّة على اخراجه، ثم ملاحقته ومتابعته للقضاء عليه، حتى التجأ هو وصاحبه أبو بكر إلى غار جبل ثور، ولما كان في متناول القوم فقد انصبَّ الحزن في قلب صاحبه فأكد(ص) له في هذا الموقف ان الله هو ثالثهما. ولا داعي للحزن، وكانت سكينة الله تقوي قلب الرسول، وكان التأييد الإلهي بجنود لم يشعروا بها، وربما كانت هذه الجنود هي خيوط العنكبوت التي غطت أبواب الغار حتى أوهمت المعقّبين بأنهما لم يدخلاه. وراحت كلمة الكافرين وأمانيُّهم وشعاراتهم تغرق في الخزي في حين ظلَّت كلمة الله هي العليا دائماً لأنّها مؤيّدة بالعزّة والحكمة الإلهيّة.

انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿٤١﴾ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴿٤٢﴾ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴿٤٣﴾ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴿٤٤﴾ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴿٤٥﴾ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴿٤٦﴾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴿٤٧﴾

٤١: بعد التمهيد المذكور يأتي الأمر المطلق بالجهاد دون أن يعوقهم عائق، خفافاً أو ثقالاً، أي سواء كانوا مخفّين من علائق الأهل والعيال والحياة اليومية أو مثقلين بها، فإن عليهم الانطلاق ـ دونما معاذير ـ للجهاد بالأموال والأنفس، فإن الجهاد يحقّق الخير للمسيرة الاسلاميّة. وقد تركت هذه الآية أكبر الأثر في التحريك للجهاد وقطعت عليهم التماس الحجج.

٤٢: وهنا تكشف الآية حالة ضعف بين بعض المسلمين آنذاك، فتخبر عنهم أنهم لو كانوا يواجهون مسألة عرض ومتاع قريب وسفر قصير الأمد لا تّبعوا الرسول ابتغاء الغنيمة، إلا أنهم قعدوا عن الجهاد وجبنوا لمّا رأوا بعد السفر، والغريب أنهم يتعلّلون بعدم القدرة على الخروج مع المسلمين، طالبين النجاة بالتخلّف عن القتال وادّعاء العجز، في حين أنهم يهلكون أنفسهم بذلك.

٤٣: ولمّا كان القرآن يعمل على كشف ضعفهم وسوء سرائرهم، فإنه يوجّه العتاب اللطيف المقترن بالعفو إلى الرسول نتيجة الإذن لهم بالقعود، وهذا أسلوب بلاغي رائع في التعبير، وإلاّ فإن عدم الإذن لهم أولى في كشف نواياهم، والحقيقة هي ان القرآن يؤكد بعد بضع آيات ان خروجهم كان سيضرُّ الزحف الإسلاميَّ ويلقي فيه الخور والضعف.

٤٤: وفي قبال أولئك المتخاذلين يأتي هذا النمط الطبيعي من المؤمنين، فهم مندفعون بطبيعتهم إلى الجهاد، بعد أن آمنوا حقاً بالله وصفاته من العلم والقدرة، وتحلّوا بصفات التقوى الرفيعة، وآمنوا بعظمة العطاء الاخروي الجزيل المترتّب على جهادهم.

٤٥: أمّا هؤلاء القاعدون المستأذنون تخاذلاً فانهم يكشفون بذلك عن عدم ايمانهم الحقيقي بالله والآخرة وانغماس قلوبهم بالريب والشك.

٤٦، وعلامة ذلك أنهم لم يعدّوا العدّة للجهاد، ولم يهيّئوا وسائله. فأركسهم الله بذلك، وألقى عليهم عار القعود لما يعلمه من نفاقهم وكسلهم، وهكذا عادوا إلى صف العجزة والمرضى ومن سقط عنهم القتال.

٤٧: إنّ الجهاد لا يتحمّله إلاّ ذوو الهمم والقلوب الحيّة، أمّا هؤلاء المتردّدون في الريب فإنّ انضمامهم إلى الزحف مضعف له، ومسرع في تفتيت عزائمه، نتيجة تقولاتهم واشاعاتهم الباطلة التي قد يستجيب لها بعض الأفراد من ذوي القلوب الساذجة.

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

٤٨: وهنا يذكّر القرآن بماضي هؤلاء المنافقين المتقاعسين عن القتال وأنهم إنما أسلموا ظاهراً بعد سلسلة من التآمر والمكر وتقليب للامور بوجه حركة الإسلام حتى انتصر عليهم على الرغم من كرههم له.

٤٩: ومن معاذير هؤلاء المستأذنين للقعود عن القتال خوف الفتنة والابتلاء بأعراض الدنيا وزينتها! والحقيقة انهم بتخاذلهم قد سقطوا في هاوية الفتنة وحضيض جهنّم.

٥٠: انهم جزء منفصل عن المعسكر والجسم الإسلامي فلا يحسُّ بألمه، ولا يفرح لفرحه، بل هم على العكس من ذلك، إذ يتألمون إذا فرح المسلمون ويفرحون لمصائب المسلمين، معتبرين أنهم احتاطوا للأمر فلم يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة، ثم يعرضون وهم فرحون بهذا الاحتياط!

٥١: وهذه هي عقيدة المؤمن بالله، العامل بواجباته ومهامه. انه ينطلق متوكلاً عليه، عالماً انه لن يصاب بشيء إلا بإذنه وتحت ولايته تعالى، وهل على المؤمن بعد ذلك من غضاضة إن ابتلي بشيء وهو بعين الله؟

٥٢: وهذا هو شعار المؤمنين حقاً فالنتيجة على أي حال هي لصالحهم، فإما النصر وإما الشهادة والفوز بالجنة فلِمَ التقاعس عن الجهاد وعن تحقيق رضا المولى الحقيقي؟! أما عاقبة المتقاعسين المترددين فليست إلا الخذلان والعذاب من عند الله مباشرة أو بأيدي المؤمنين.

٥٣: ويحاول بعض منهم أن يدرأ عنه هذا الواجب ويسوّغ تخلّفه ببذله شيئا من المال للمجاهدين ابتغاء دفع بأسهم، وربّما للحصول على بعض الغنائم لو غنموا في مسيرتهم، ومن الطبيعي أن لا يقبل هذا الانفاق، لأن القبول الإلهي إنما يكون من المتقين المخلصين، لا المنافقين المتقاعسين الفاسقين.

٥٤: إنهم لا يتمتعون بصفة الإيمان بالله والرسول، وبالتالي فإنّ عبادتهم شكلية لا روح فيها يؤدونها درءاً للتهمة عنهم لا غير، ولذلك فالكسل يستولي على وجودهم عند الصلاة والكره يغمر قلوبهم عند الانفاق، وتلك حالة طبيعية في المنافقين. أما المؤمنون فهم يعرجون في صلواتهم إلى العوالم الواسعة وتبهرهم الأنوار الإلهية، وهم يشعرون أنهم ـ من خلال إنفاقهم ـ يتاجرون في سوق الله، وربحهم الجنة والعطاء الوفير.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

٥٥: بعد ان فضح القرآن نيّات هؤلاء المنافقين المتقاعسين عن الجهاد بين يدي رسول الله، راح يحذّر المسلمين من الاعجاب والانخداع بما يملكه هؤلاء من أموال وأولاد باعتبارها نعمة إلهية ولما لم يكونوا في طريق الهدى فإن هذه النعم تتحول بإرادة إلهية الى نقمة عليهم، وعذاب إلهي أليم تزهق به النفوس في الدنيا نتيجة الكفر والانحراف عن طريق التكامل.

٥٦، ٥٧: صورة اخرى من مظاهر الضعف النفسي هؤلاء، إذ نجدهم يلجأون للقسم بالله العظيم مؤكّدين أنهم من المسلمين، إلا أن الحقيقة والتصرُّفات تفضحهم، وتؤكد أنهم يعلنون ذلك من فرقهم وخوفهم ولو وجدوا ما يلجأوا إليه من ملجأ أو مغارة أو نفق لأخفوا أنفسهم فيه هاربين.

٥٨، ٥٩: وها نحن نجدهم هنا يعيبون على الرسول(ص) توزيعه للصدقات، معبرين عن سخطهم لا لشيء إلاّ لكي يحصلوا على نصيب أوفر، ويحقّقوا منافعهم الضيّقة. فإن حصلوا عليها أعلنوا رضاهم وإلاّ بدا السخط والغضب على وجوههم. في حين ان المفروض في المؤمن ـ وهم يدّعون الإيمان والاسلام ـ أن يرضى برضا الله ويقبل قسمته تعالى ـ وهي العدل بعينه ـ ويطمح إلى فضله ولطفه وبالتالي يحوّل حياته كلّها إلى سيرة نحوه ورغبة في التقرُّب إليه.

٦٠: وهنا تذكر الآية مصارف الزكاة وهي للفقراء، والمساكين (وهم كما يبدو من سائر التعبيرات القرآنية أحسن حالاً من الفقراء) والساعين العاملين لجبايتها وسائر مايرتبط بها، والذين يعطون لتأليف قلوبهم، كما تصرف لتحرير العبيد وربما لرفع مستوى معيشتهم، وسداددين الغارمين، أي من ركبتهم الديون فلا يقدرون على دفعها، ثمّ هي تصرف مطلقاً في كلّ شيء يعود بالنفع على الناس ويحقّق رضا الله تعالى، كما تصرف لرفع حيرة المسافرين الذين انقطعت حيلتهم وذهبت أموالهم. وهكذا يبدو من الآية أنّ الصدقات والضرائب المالية إنما تسلّم لوليّ أمر الأمة ـ وهو ما يتناسب مع أمره بأخذ الزكاة ـ ليسدّ بها موارد الخلأ الاقتصادي في المجتمع ويعمل على تحقيق الرضا الإلهي بإقامة مجتمع سليم اقتصادياً لا يعاني من الحرمان والفقر، وهي بذلك تعبّر عن التكامل الاجتماعي والتوازن المطلوب في المجتمع بالاضافة إلى توفير قسط منها لتحقيق مقاصد سياسيَّة واجتماعية، كما في سهم المؤلّفة قلوبهم.

٦١: وهنا أيضاً نشهد المنافقين ينظرون إلى خلق كريم لرسول الله وهو استماعه للشورى والشكوى، فيتّهمونه بأنه سمّاع لكلّ شيء فيردُّ عليهم القرآن بأنه في اصغائه هذا يحقّق الخير لهم إذ يستمع للوحي ويبلّغه ويستمع للمؤمنين ويثق بهم مّما يعود بالرحمة عليهم، أما المؤذون له فهم الذين لا يحصلون إلا على العذاب والهوان.

يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴿٦٢﴾ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم ﴿٦٣﴾ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴿٦٤﴾ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون ﴿٦٥﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴿٦٦﴾ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴿٦٧﴾ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴿٦٨﴾

٦٢: ان المنافقين يلجأون للقَسَم بالله ليحصلوا على رضا المؤمنين، في حين ان الرضا الإلهي هو الغاية الكبرى وابتغاءه هو شرط الإيمان الحقيقي.

٦٣: وتحقيق الرضا الإلهي لا ينسجم مع عملهم وسلوكهم المعاند لله، ولذلك فهم في معرض العذاب والخزي العظيم.

٦٤: والقرآن بهذا يثبّت قلوب المؤمنين ويفتّت من عزائم المنافقين المتربّصين الدوائر بالاسلام إذ يهدّدهم بفضح أسرارهم وإعلان ما يحذرونه وكشف ما يهزأون به.

٦٥: وهذه حيلة المنافقين، فهم يطلقون الشائعات ويحيكون المؤامرات ويبثّون كلمات الوهن والضعف، فإذا حوسبوا عليها راحوا يتذرّعون بأنهم كانوا يمزحون ويلعبون!! وهنا يأتي الردُّ عليهم بأن المزاح واللعب لا يكون بآيات الله وسلامة المسيرة الاسلاميّة وقيادة الرسول العظيم، فما هي اذن إلاّ أعذار واهية لا تستطيع أن تستر نفاقهم.

٦٦: إنه التهديد الفاضح لهم، ولا جزاء لكفرهم بعد الإيمان وتآمرهم على الامّة إلاّ العذاب، وإذا امكن استثناء بعضهم فان أهل الاصرار ورؤوس النفاق والاجرام منهم سيلحقهم العذاب الأليم.

٦٧: وهكذا ينضمُّ المنافقون والمنافقات إلى جبهة واحدة، لها طابعها وسماتها العامّة يسند بعضها بعضاً ويشترك الجميع في جبهة النفاق ليحقّقوا أهدافه الخبيثة؛ من تشجيع المنكرات، ونشر الفواحش، والوقوف بوجه الاصلاح والمعروف، ومنع تحلّي المجتمع بالخلق القويم، والاستحواذ على الأموال، والمنع من بذلها في سبيل قوام المجتمع. وعلّة هذا الانحراف انهم نسوا الله خالق الكون وهاديه فطردوا من رحمته وفيضه العميم وخرجوا بالتالي عن المسير الطبيعي للحياة الإنسانية ودخلوا في عداد الفاسقين.

٦٨: وهكذا تنضمُّ عناصر الانحراف إلى جبهة واحدة (يؤلفها المنافقون والكافرون) لمقاومة المسيرة الإسلامية ولكنها محكوم عليها بالانهيار وجزاؤها الاخروي خلود في النار فيه كفايتها، وحياتها حياة اللعنة والطرد عن الرحمة لأنها حياة العذاب المستمر الذي لا يفتر.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

٦٩: وهكذا هي مسيرة النفاق دائماً، اناس يتمتّعون بالقوّة والمال والولد فتبطرهم النعمة، فيتجبّرون ويطغون ويصدّون عن سبيل الله، ويسلكون سبيل الاستمتاع بما توافر لهم من قوى، ظناً منهم ان هذه الحياة خالدة باقية لهم، ولكن تلك القوى ذهبت ادراج الرياح فلم تبق لها آثار في الدنيا ولم تمنعهم من عذاب الله في الحياة الأخرى، وبالتالي فهم لم يحصلوا من ذلك إلاّ على الخسران الحقيقي.

فهل يا تُرى يفلح المنافقون الذين ساروا على خطهم واتبعوا سيرتهم وظنّوا أنهم بذلك سيحصلون على مكاسب كبرى، على الرغم من كونهم أقلّ قوة ومالاً؟ انه الأمل الخادع!!

٧٠: وهذا التاريخ أمام المنافقين الذين يتقاعسون عن دعم المسيرة ويتآمرون عليها فليتأمّلوه ليعتبروا به ويقلعوا عن عنادهم ونفاقهم؛ أمامهم قوم نوح وقفوا بوجه مسيرته فابتلوا بعذاب الطوفان، وعاد (قوم هود) لم يستجيبوا للهدى فأصابتهم ريح صرصر، وثمود (قوم صالح) ساروا بسيرتهم فأصابتهم الرجفة، وقوم ابراهيم ساروا في خط الطاغوت فهلكوا وهكذا مدين والمؤتفكات، وهي القرى التي عصت أمرَ الله فجعل عاليها سافلها، وهكذا المناطق التي سكنها قوم لوط وعصوا أمر ربّهم.

انها مسيرة النفاق والكفر والعصيان، المسيرة التي أعطاها الله كلّ ما يصلحها وفتح أمامها سبيل الصلاح والتكامل، وجاءتهم الأنبياء بالآيات الواضحات التي يستجيب لها كلّ طالب للحقيقة، إلاّ أنها عميت ولم تشأ الخير واتّبعت أهواءها وظلمت نفسها بنفسها، فيجب أن يعتبر المنافقون في كلّ عصر بهذه المسيرة ويكتشفوا العاقبة إن هم ساروا على نهجها.

٧١: بعد أن تحدّث القرآن عن جبهة النفاق واعلن خسرانها الأبدي الدائم، على الرغم مما يبدو من ظواهر وقتية ينتقل القرآن إلى جبهة الإيمان والحق فيذكر السمة الأولى لمجتمع الإيمان وهي سمة الولاية المشتركة، فكلّ منهم يسدد الآخر ويتولّى أمره في جوّ من الاخاء والثقة المتبادلة، وكلهم في عمل دائب على تحقيق المعروف (وهو ما تهفو إليه الفطرة الصافية ووضحته الشريعة الحقّة) وجميعهم في سعي حثيث للوقوف بوجه انتشار المنكر، وهو المجتمع الذي يعتمد الصلاة معياراً للعلاقة بربّه يستمد منه القوة والتسديد، والزكاة أساساً لتحقيق التكافل والتعاون، وتطبيق أحكام الله شريعة ومنهاجاً للحياة، وهو بذلك يحقّق القابلية اللازمة لنزول الرحمة الإلهيّة والتي تنطلق من منطلق العزّة والحكمة الإلهيّة فلا تترك أثرها الايجابي إلا في المحلّ المستعد لها.

٧٢: وفي قبال ذلك التصوير الرهيب لعاقبة المنافقين في الدنيا والآخرة، يأتي هذا الوعد الإلهي الكريم لكلّ العاملين من المؤمنين والمؤمنات بالجنّة والخلود فيها، وفوق ذلك، بالتنعم بحياة الرضوان والقرب الإلهي، أي القرب من الكمال المطلق مع التمتع بكلّ ما يتصور من لذات ماديّة مضاعفة، وذلك هو الفوز العظيم. ذلك لأنه غاية ما يمكن أن يتصوّرة الإنسان من كمال وما يطمع إليه من أمل، ولما كان هذا مدعوما بالعزة الإلهية والحكمة الربانية فهو محقّق بلا ريب، وله فليعمل العاملون الذين يرجون من الله مالا يرجوه المنافقون والكافرون.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

٧٣: قلنا من قبل إن جو هذه الآيات يوحي بأنها نزلت قبل (غزوة تبوك) وبعدما اصيب بـه المجتمـع المستعد للجهاد مـن ضربات تآمرية من قبل المنافقين. وقـد جـاءت هـذه الآيـات المشجعة للمؤمنين والمثبطة للكافرين لتهيئ الجو للأمر بالجهاد المتواصل ضد الكفر والنفاق والغلظة عليهم وتهـددهم بالعـذاب الأليم.

٧٤: ورغم ما ذكر هنا من روايات جعلت مـورداً لـنزول الآية نجد القرآن يبهم القول ليكون ـ والله العالم ـ شاملاً لتنوع المنافقين خـصوصاً وهـو يتحـدث عـن جبهتـهم العامـة ضـد الإسلام، وهو هنا يشير إلى الكلمـات الـتي يتفوهـون بهـا مما يكشف عن كفرهم بالله ورسوله. فإذا ما اطلع المسلمون على ذلك راحوا ينكرون تلـك الأقـوال أو يعتبرونهـا مـن فـضول الكلام واللعب. في حين يؤكد القرآن ان كلماتهم قيلت حقاً وانها تكشف عن كفرهم بعد ان أعلنوا إسلامهم، وانهم أكدوا كلماتهم المعبرة عن كفرهم بتهيئة بعض المقدمات لتنفيـذ مـا قـالوا ـ وان لم يستطيعوا أن ينـالوا ماهموا به ـ وهكذا كان القرآن وما زال يكشف المنافقين وألاعيبهم.

وعلى الرغم من ان المنافقين قد استفادوا من سماح الإسلام ولطفه وحصلوا على ثـروات وغـنى إلا أنهـم راحوا ينقمون على الإسـلام بدلاً من العمل له. ومع ذلك فان باب التوبـة مفتـوح مـرة اخـرى أمـامهم لكـي يتجنّبوا العذاب الأليم دنيوياً واخروياً، وليعلموا أنّ غضب الإسلام إذا انصبّ عليهم فليس لهم معين ولا نصير. وهكذا نجد الآية تتعامل معهم بلين وشدّة حتى يمكن إطفاء نائرتهم وربّما سحبهم إلى الصف الإسلامي الواحد.

٧٥، ٧٦، ٧٧: وهذه صفة اخرى لبعض المنافقين فهم يعطون العهود على أن يتصدقوا إذا حصلوا على مـا يحقّق ذلك ولكنهم يتخلّفون عن ذلك، معبّرين بذلك عن ضعف في الإيمـان ولا مبـالاة بـالعهود. وتلـك صـفة النفاق الذي يتأصّل شيئاً في القلوب حتى يستقرّ فيها دون مزاولة، مما يعود عليهم بالوبال والعذاب.

٧٨: إن ضعف الإيمان هو سبب النفاق وإلاّ فان من متطلبات الإيمان بالله أن يعلم المـرء بـالاطلاع الإلهـي على السرّ والنجوى وانه تعالى علام الغيوب، وحينئذ فلن يقدم المرء على التلـوّن والاخفـاء والنفـاق بعـد أن كانت الحالتان ماثلتين على الـسواء أمام الله العليم الخبير.

٧٩: ومن أعمال المنافقين أنهم كانوا يثبّطون الآخرين عن عمل الخير، ويـسخرون مـن المـؤمنين الأغنيـاء الذين يبذلون أموالهم صدقات، وكذلك يستهزئون بالمنفقين الضعفاء الذين لا يجدون إلا جهدهم فينفقون بمقدار ما يستطيعون. اذن، فالمنافقون يستخدمون سلاح السخرية ضد المنفقين.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٨٠: وهكذا يقطع القرآن عليهم الطريق هنا لـئلا يطمعـوا في استغفار الآخرين لهم، والحلُّ الوحيد هو ما أشار إليه القرآن من قبل وهو التوبة المخلصة والانضمام إلى معسكر المؤمنين بكلّ صدق، أما الحياة الفاسقة عن مسيرة الفطرة والموت على هذا الخطّ فلن يؤمّل معها النجاة والغفران الإلهي.

٨١، ٨٢: وتستمر الآيات في تعرية هـؤلاء المتخلّفين عـن ركب الجهاد وفضحهم، فهـم يفرحـون بـتخلّفهم عـن ركـب الرسالة، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، ويحـذّرون المجاهـدين من النفير في الحرّ، وبالتالي، فانهم بعيدون عـن خـطّ الإسـلام بعواطفهم وعملهم، ومؤهّلون لعذاب الله وحرّ جهنّم، وهي أشد حراً من الانطلاق في الصيف للجهاد، وسيورثهم هذا التخلف كآبة يقلّ معها ضحكهم وفـرحهم ويعظـم معهـا بكاؤهم وشقاؤهم.

٨٣، ٨٤: وتأمر الآية هنا بنبذ هؤلاء وحذفهم من قائمة القوى المجاهـدة وطـردهم أبـداً حـتى لـو جـاؤوا يستأذنون للاشتراك في صف الجهاد، ذلك لأنهم تخلّفوا أول مرة عن جهاد الأبطال والرجال فلتضرب عليهم ذلّة القعود مع الخوالف الذين لا يستطيعون الجهاد كالنساء والأطفال. وليترك الرسـول(ص) الـصلاة عـلى ميتـهم والدعاء له عند قبره لأنه قد مات على الكفر، وخرج عن مقتضى السير الانساني الطبيعـي، ودخـل في عـداد الفاسقين.

٨٥: ولن يضرّ حركة الجهاد أن يحذف من قوائمها ما يملك هؤلاء المنافقون من أموال وأولاد، بل إن هـذه القوى يحولها الله الى سبل لتعذيبهم في الدنيا، واغواء مستمر تزهق معه النفوس على الكفر وتحـرم مـن نعمـة الإيمان.

٨٦: وعندما يصدر أمر إلهي بالايمـان والجهـاد في ركـب رسـول الله بالمـال والـنفس يـروح ذوو القـدرة والتمكّن منهم يتمحلون الأساليب ويستأذنون الرسول في البقاء والتخلف مع القاعدين.

رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿٨٧﴾ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ﴿٨٨﴾ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴿٨٩﴾ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿٩٠﴾ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴿٩١﴾ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴿٩٢﴾ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴿٩٣﴾

٨٧: ما أسوأ هـؤلاء في الظـاهر والواقـع، فقـد فقـدوا في الظاهر فخر الجهاد ولبسوا ثياب ذلّ التخلّف مـع مـن تفـرض عليهم حياتهم البقاء في المدينة، وفوق ذلك عميت قلـوبهم عـن النظر إلى حياة العز والشرف، حياة الجهاد في ركب يقوده رسول الله، ويسير لتحقيق ارادة الله وتغيير مسيرة التاريخ كلها، فهـم اذن لا يفقهون عظمة هذه الحياة واقعاً، ويفـضّلون عليهـا حيـاة القعود.

٨٨: أما الرسول والمؤمنون معه فهم ماضون على خطّهم لا يثنيهم شيء عن تحقيق رضاالله، ولا يقعدهم تقاعس هـؤلاء عن الانطلاق لتحقيق ارادته تعالى، وهم بذلك يحرزون أعظـم الخيرات، وهم بالتالي المنتصرون المفلحون بعـد أن استجابوا لله وعملوا على تغيير مسيرة الإنسانية.

٨٩: وفوق كلّ ذلك فوز إلهي عظيم، وخلود في الجنان، بما يحقّق أقصى ما يطمع إليه الإنسان بطبيعته وفطرته.

٩٠: وتبدو هنا حالتان متضادتان احداهما مجيء أهل العذر ممن لا يجدون نفقـة أو سـلاحا أو حـق قـدرة بدنية يطلبون من رسول الله ان يأذن لهم بالجهاد تحت لوائه للحصول على ثـواب الجهـاد وعطائـه، والاخـرى قعود المكذبين المنافقين عن التحرك مع الركب الرسالي على الرغم من قدرتهم علـى الجهـاد. وعـرض هـاتين الصورتين إلى جانب بعضهما بعضا يشعر بخسة المنافقين الكافرين.

٩١: وهنا تنفي الآية الحرج والتكليف عن المرضى واولئك الذين لايملكون نفقة الجهاد (وكانت هذه النفقـة تلقى على عاتق المجاهد آنذاك) شريطة أن ينصحوا لله ورسوله ويتيحوا الفرصـة الـسانحة في المـستقبل للقيـام بوظيفة الجهاد.

ان هؤلاء المعذرين محسنون في رغبتهم للجهاد ولا سبيل عليهم في تحميل الجهاد وهذه قاعدة عامة ومؤشر قرآني له آثاره في مختلف الحقول، وقد بنيت على هذه القاعدة استنتاجات فقهية واسعة.

٩٢: انه الإيمان يدفع هؤلاء للجهاد ولكن الضرورة المادية تستلزم ـ أحياناً ـ تخلف هؤلاء المشتاقين للجهاد مما يثير أحاسيسهم، فتفيض أعينهم من الدمع لأنهم لم يوفّقوا لذلك لعدم توفّر المحمل اللازم.

٩٣: أمّا المسؤولية والثقل فهما متوجّهان إلى اولئك الذين يتمحّلون الأعذار على الرغم من تمتعهم بكـلّ المقوّمات المادية للتحرّك للجهاد، ولكنّهم اختاروا القعود مع الخوالف، وغرقت قلوبهم في العمى عن رؤية حياة الجهاد الرائعة.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٤: ويتجلى النفاق مرة أخرى حين يسوقون الاعذار الواهية عند عودة المؤمنين من الجهاد ليبرروا تمردهم وخروجهم عن الصف الواحد، فيؤمر الرسول بالرد عليهم وعدم تصديقهم واعلامهم بأن الله تعالى فضحهم وبين اخبارهم، كما أن سيرتهم ستبدو بكل وضوح امام الله ورسوله وامامهم يوم القيامة حيث تكشف الحجب وينبؤون بما كانوا يعملون. وفي هذا الرد العنيف، والتهديد المرعب ما فيه من تخويف، وتذكير بالمحاسبة ودفع للرجوع عن حالة النفاق.

٩٥: إنه ايضاً من نتائج النفاق أن يتوسل هؤلاء بالحلف بالله وهو القسم بالوجود المقدس المحبوب، لتأكيد أعذارهم الواهية، طلباً للخلاص، والتجاوز عن إساءاتهم مما يزيد الطين بلّة ويكشف عن عدم الإيمان الحقيقي. وهنا يؤمر الرسول ايضاً بالاعراض عنهم لا لأنهم يستحقون ذلك بل لأنهم رجس، ومجموعة قذرة فقدت طهارة الإنسانية وصدق الفطرة وكرامة الوجود، فلتبتعد عنها الفئة الطاهرة، ولتتركها لمصيرها الجهنمي الذي ستلقاه نتيجة لاختيارها لهذا السلوك المُشين.

٩٦: وتوكيداً لتماديهم وتوقعاتهم يذكر قسمهم من جديد وكأنهم يحاولون استرضاء المؤمنين فيأتي التأكيد علي ان المؤمنين حتى لو اشفقوا عليهم ورضوا ان يتجاوزوا عن تخلفهم فإن الله العظيم لن يرضى عنهم لأنهم خرجوا عن الحالة الطبيعية للانسان وعادوا فاسقين. ولعل التعبير فيه شدة وتأكيد على الاعراض عن من شقوا الصف الاسلامي، وقطع الطريق على من يتمادون في ذلك.

٩٧: والمراد منهم ساكنوا البادية من العرب وهؤلاء لم يتغلغل الايمان بعد في نفوس البعض منهم، ولم يمكن محو ظلمات الكفر والنفاق منها اما لقسوتهم وجفائهم او لبعدهم عن أجواء الإيمان والتعاليم النبوية المباشرة مما يشدد الكفر والنفاق ويبعدهم عن معرفة معالم الشريعة. ولا تعدم في كل عصر ومن كل قوم من يبتعد عن اجواء الإيمان، وتترسب فيه العناصر الجاهلية وإن كان ينسب نفسه للمجتمع الاسلامي.

٩٨: واذا اضطر هؤلاء للانفاق ليعدوا من افراد المجتمع المسلم، فإن عدم انغراس الإيمان، وعدم تأصل المفاهيم الاسلامية عن الكون والحياة والمجتمع والمال في نفوسهم تظهر نمطين من السلوك فيهم: الأول اعتبار الانفاق غرامة وخسارة يتحملونها مكرهين، والثاني: عدم الانسجام مع حركة المجتمع الصالح، وانتظار لحظات الانفلات منها بعد تعرض المسلمين للحالات الصعبة. ولكنه الغضب الإلهي الذي يتوعدهم انفسهم بمثل هذه الحالات، بعد ان كانت الرقابة الإلهية تراقب سلوكهم السيئ المريب.

٩٩: وفي حين ينتقد القرآن أولئك المنحرفين ينصف تلك الثلة التي وقفت مع الجماعة المسلمة، لتعيش حياة الايمان وتنفق مالها تنشد به التقرب الى الله والتمتع بدعاء الرسول. ويأتي اللطف الإلهي ليعلن القبول والقربة وشمول الرحمة والغفران. ولعل هذا التخصيص لهذه الفئة بهذا اللطف نابع من كونها انتصرت على اجوائها والتحمت بالمسيرة المؤمنة رغم مقتضيات تلك الاجواء. وهو كذلك اسلوب وتربية قرآنية في عدم اصدار الاحكام المطلقة تجاه الآخرين ، كما هو مع اهل الكتاب وغيرهم.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

١٠٠: وتوضح الآية اصناف المجتمع الاسلامي بعد العودة من معركة تبوك ـ وهي من مفاصل تاريخ الدعوة والحركة ـ وهذه الاصناف هي: أولاً: السابقون الأولون: الذين سبقوا للدعوة وآمنوا بها بصلابة وتحملوا الصعاب وهاجروا، او نصروا الدعوة وسدوا ما تحتاجه من مقتضيات، وثانياً: الفئة التي عملت على الارتفاع الى مستوى الفئة السابقة عبر اتباعها لها بكل صدق واحسان وطلب للحق، وهم جيل ما بعد الصحابة.

هذان الصنفان استحقا الرضا الإلهي لانهما بدءا بالمسيرة الصالحة وحملا همومها وواصلا تحمل المشاق طلباً للرضا الإلهي الدائم. لتعلن الآية مباشرة هذا اللطف والرضا في جو ايماني رائع، انه الرضا المتبادل (رضا الله عن عبده لطاعته، واحساس العبيد بعظمة النعمة الإلهية الغامرة) وإنه النعيم الدائم الذي يحقق اقصى ما يتمناه الإنسان وأعظمه.

١٠١: و هذا صنف ثالث يتكون من الأعراب ومن أهل المدينة موجود في المجتمع يتحرك معه جسداً ولكنه لا يعيش معه روحاً، بل يعمل على ايجاد انسجام كاذب مع المسيرة حتى ليكاد ذلك يخفى على القيادة. وإن كان لا يفلت من عين الرقابة الإلهية. ومن هنا يعذب هؤلاء عذاباً مضاعفاً لأنهم خالفوا اوامر الله في الواقع واعتادوا عليه (مردوا) وعملوا على الباس المخالفة ثوباً يقبله المجتمع. وأمامهم العذاب العظيم في الآخرة.

١٠٢: وهذا صنف آخر تخلف عن التحرك مع الجماعة الإسلامية في جهادها، وأدرك بعد ذلك عظمة جرمه فعاد الى ربه تائباً بعد أن خلط مع عمله الصالح اعمالاً سيئة فقبل الله توبته وضمه الى المسيرة الصالحة لطفاً ورحمة وغفراناً. وقيل إنها نزلت في أبي لبابة ونفر من امثاله بعد أن تخلفوا عن غزوة تبوك، وعندما أدركوا خطأهم ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد فأطلقهم رسول الله (ص) بعد نزول هذه الآية[1].

١٠٣: وسياق الآية يؤكد ان الرسول (ص) أمر بأخذ الصدقة منهم والدعاء لهم، إلا ان الروايات تتظافر في أنها كانت منطلق فرض الزكاة عموماً وكان ذلك في شهر رمضان. والآية تركز في خلد المسلم ان الصدقة تطهير وتزكية للنفس، وخلاص لها من الشح والبخل، بل وتنمية لكمالاتها في نفس الوقت. كما انها تعني مساهمة المسلم في عملية التكافل والقيام بمقتضيات الخلافة. ثم أنها تؤخذ في جو أخلاقي رائع؛ جو الدعاء الذي يسكن النفس لئلا تشعر بضيق الانفاق بعد أن تعيش اجواء اللطف تحت سمع الله وعلمه.

١٠٤: تأكيد على جو الزكاة المطهر والمنمي للنفس بعد أن يقبلها الله بنفسه ويأخذها بيد اللطف ويتوب على الدافعين ويرحمهم برحمته لأنهم تعاملوا معه.

١٠٥: وهكذا ينسجم المؤمنون بعملهم مع المجتمع ليبقى عملهم يراه الله ورسوله والمؤمنون الشهداء على مر التاريخ وليطلعهم الله على حقيقة هذه الأعمال وآثارها يوم الحساب.

١٠٦: وهو صنف لم يتحدد مساره بعد، ربما لتأرجحه بين السلوك الصالح والانحراف دون أن يتصف بالنفاق وانحراف العقيدة، وربما لحالة استضعاف ويتخذ مساره الواضح بعد ذلك فيستحق الجزاء المناسب.

---

١ ـ انظر مجمع البيان ج ٥، ص ١٠١.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ۝ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝

١٠٧: وهذه فئة أخرى معينة يذكرها القرآن ـ ولا نعدم نظائرها على مدى العصور ممن يستغلون المظاهر الدينية لضرب الدين نفسه والتآمر عليه ـ فيذكر أنها تعمل على بناء مسجد (والمسجد منطلق الدعوة وبيت العبادة) وتقسم على أنها لا تريد إلا الأهداف الخيرة، ولكي تكسب المسجد قدسية اضافية في ذهن المؤمنين فهي تدعو الرسو ل للصلاة فيه.

أما الأهداف الحقيقية لهؤلاء وأمثالهم فهي: الحاق الضرر بمسيرة الأمة وبث الكفر والشبهات، ونشر الفرقة والتمزيق بين المؤمنين والارصاد والتآمر عليهم بتشكيل خلية تآمرية تجمّع الفئات الحاقدة المحاربة لله ورسوله وتمدهم بالمدد الكافر (كما تذكر ذلك بعض الروايات)[1] وتعبئهم ضد المسيرة الصالحة.

وهكذا تفضح الآية هذه الفئة وأساليبها وأهدافها دعماً للمسيرة بل وارشاداً لأجيال الأمة لتنتبه لمثل هذه المؤامرات وترصدها بكل دقة، ولاتنخدع بالمظاهر مهما كانت الاقنعة.

١٠٨: ويأتي النهي الإلهي الصارم عن القيام في هذا المسجد الضرار، وافشال خطط المتآمرين باسم الدين. ولعل كلمة (ابداً) توحي بالحذر الدائم من مثل هذا العمل. ثم يقدم القرآن البديل الصالح، انه مسجد (قبا) الذي اقيم على التقوى من أول يوم فهو أحق ان يقوم فيه الرسول، وهو ساحة يقوم فيها المؤمنون بعبادة الله هياماً لقربه، وشوقاً للطهارة وبالتالي يؤهلون انفسهم لشمول المحبة الإلهية وما أروعه من مقام.

١٠٩: النية الصادقة التي تقوم على تقوى الله وتحقيق الرضا الإلهي هي أساس انطلاق المسلم الحق في كل سلوكاته ولا ريب انها اساس لبنيان متين ثابت لا يقاس الى ما يبنى على منحدر رخو يؤدي الى الهلاك الجهنمي الرهيب نتيجة الظلم والبعد عن الهداية الإلهية.

١١٠: إن البناء الذي بني على شفا جرف هار وانحراف وظلم سوف ينهار كما يترك آثاره السلبية في القلوب يملؤها شكاً وحقداً وحسرة لا تفارقها حتى يتم تمزيق تلك القلوب المرتابة، وتلك حقيقة تاريخية ثابتة في علم الله وحكمته.

١١١: نقلة رائعة الى حياة الإيمان: حيث تتم الصفقة الإيمانية بين المؤمنين الراغبين الى الجنة والعطاء، فهم يقدمون لصالح العقيدة ولإسعاد البشرية على امتدادها انفسهم وأموالهم. فالمهم هو القيام بالواجب، وليس المهم أن ينتصروا على عدو المسيرة او يقضي عليهم هذا العدو، وإنما المهم ان ينالوا فيها (الرضا الإلهي) وبالتالي يتأهلون لنيل الثمن الغالي، إنه الجنة والخلود في ظل الرضوان الإلهي، وعداً إلهياً حقاً قدم في الكتب السماوية على امتداد الصراع التاريخي بين معسكري الكفر والإيمان، ومن أوفى بعهده من الله وهو الخير المطلق والصادق المطلق والقادر المطلق، وإنها البشارة التي لا يتصور ما فوقها وانه الفوز العظيم.

---

١ – أسباب النزول (للواحدي)، ج ١، ص ٢٦٤.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

١١٢: تمضي هذه الآية في بيان صفات المتأهلين لنيل الرضا الإلهي فهم التائبون (العائدون الى الله) العابدون (الساعون لتحقيق هدف خلقتهم) الحامدون (الشاكرون نعم الله في وجودهم وأنماط الهداية الداخلية الفطرية والخارجية التشريعية، وفي الطبيعة حيث يتم شكر النعمة بإعمار الأرض وتهيئة الأجواء المساعدة للمجتمع الإنساني الفاضل)، السائحون (بفكرهم سيراً في الأنفس والآفاق وبعلمهم سيراً في نشره، وبدينهم سيراً في تحكيمه وتطبيق شريعته) الراكعون الساجدون (اقامة للصلاة وتعظيماً لشعائر الله، وتوثيقاً للصلات مع الله) الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله (سعياً في تحقيق الطهارة الاجتماعية والأمن الاجتماعي والمسؤولية المشتركة وبالتالي كل أهداف الإسلام الاجتماعية).

فإذا تحققت هذه الصفات في الفرد المؤمن، والمجتمع المؤمن تحقق الخير كله والبشرى الكبرى، وتميزت الأمة المسلمة عن غيرها.

١١٣: وهذه الآية تركز صلة العقيدة وتغلبها على الصلات الأخرى فحتى بعض التصرفات العاطفية أو الميول الطبيعية إذا تعارضت مع السمات الماضية وجب نبذها، ومنها مسألة (الاستغفار)، إنها صفة إيمانية يعمل بها المؤمنون لأنفسهم ولغيرهم ممن هم على نفس المنهج، أما أعداء الله، أصحاب الجحيم فلا معنى للاستغفار لهم ولا يحق للمؤمنين القيام بذلك انطلاقاً من وشيجة القربى وغيرها.

١١٤: أما مسألة استغفار ابراهيم لأبيه المشرك فإنه ـ من خلال خلقه الحميد وحلمه وخوفه من الله ـ تصور ان أباه سوف يتجه نحو باب الغفران الذي انفتح له بعد أن وعده ابراهيم بذلك، ولكن تبين بعد ذلك انه عدو لله فتبرأ منه، وابراهيم كبير العائلة المسلمة وشيخ التوحيد رمز البراءة من المشركين. وفي بعض روايات اهل البيت(ع) ان الاب هنا هو عم ابراهيم[1] باعتبار ان آباء النبي(ص) الى آدم هم من الموحدين.

١١٥: وربما كان المؤمنون الذين استغفروا لبعض المشركين واجهوا هذه الحالة بخوف، وتصوروا انهم بذلك قد ضلوا عن الطريق فجاءت هذه الآية لتوضح الموقف وتعلن ان الهدى قائم وإن هذا النهي إنما يترك مفعوله بعد صدوره بوضوح (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً).

وهي قاعدة (قبح العقاب بلا بيان) استفاد منها العلماء في تقرير الموقف العملي عند غموض الحكم الشرعي.

١١٦: أما الولاء الكامل فإنما هو لله مَلِك السموات والأرض (وهو الوجود كله) ومالك الحياة والموت، فهو الولي المطلق وهو النصير القادر المطلق ولا ولاء لغيره تعالى.

١١٧: إنها العودة الإلهية بالرحمة الى الرسول الكريم والمهاجرين والانصار الذين وقفوا خلفه في لحظات العسر الشديد أثناء المسير الى تبوك. وكاد العسر هذا ان يبعث الشك في قلوب البعض. ولكنها التوبة والعودة المكررة من الله عليهم بالرحمة لتعصم قلوبهم وتثبتها على الحق. ومع ان الشك كاد ان يصيب البعض ولكن مخاطبة الجميع بما فيهم النبي(ص) قد يكون نوعا من تطييب الخواطر وبعث الامل.

---

١ - بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٢.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

١١٨: وهكذا شملت الرحمة الالهية حتى اولئك الثلاثة الذين تخلفوا عن جيش المسلمين المتحرك الى تبوك وارجئ الحكم عليهم – وهم كعب بن مالك وآخران من المسلمين – وقد شكلت حركتهم عصيانا وتقاعساً عن الطاعة في حالة الشدة. فكان ان صدر الأمر النبوي الشريف بالمقاطعة الاجتماعية لهم وكانت هذه المقاطعة شديدة الوقع عليهم حتى لكان الارض الرحبة تضيق عليهم بل ان نفوسهم ضاقت عليهم وغمرهم الهم والكرب وتجلت لهم حقيقة اللجوء الى الله بكل وضوح فتهيأت نفوسهم لتشملها الرحمة الالهية. ان عزمهم على العودة هي لطف من الله وتوبة وان قبول هذه العودة والغفران لطف وتوبة أخرى والله هو التواب الرحيم.

١١٩: ان المفروض بالمؤمن المنخرط في المسيرة الاسلامية ان يكون معها في السراء والضراء وهذا هو مقتضى الايمان ذلك انه يؤمن بصدقها ويعلم بانها المسيرة الحقة التي تحقق رضا الله ومن هنا فان الايمان والتقوى يقتضيان هذا الانسجام والكون مع مسيرة الصادقين.

١٢٠: ذلك ان اهل المدينة ومن حولهم حملوا هم الدعوة من اول الأمر وانطلقوا في هذه العملية التغييرية الكبرى فليس من اللائق بهم ولا هو منسجم مع دعواهم أن يتخلفوا عن رسول الله قائدهم الى تحقيق اهدافهم او ان تهمهم انفسهم اكثر من الاهتمام بنفسه، ولا ينبغي ان يصدر ذلك من اناس يعلمون ان كل ما يبذلونه هو بعين الله. فالضمأ (العطش) والنصب (التعب) والمخمصة (الجوع) في سبيل الله ، وكل خطوة يرفعونها ليغيظوا (ويغضبوا) الكفار ، وكل ضربة يوجهونها لهم، انما هي في حساب الله عمل صالح (تصلح به مسيرة الانسان) ويترتب عليه الاجر الالهي المفروض للمحسنين. ان المؤمن اذ يتذكر هذه الحقيقة تصغر عنده الالام، وتذوي امامه المصالح الضيقة وينشد الى الهدف الكبير الكبير.

١٢١: فما قيمة النفقة صغيرة ام كبيرة، وما اهمية التعب والسفر عبر الوديان اذا كان ذلك بعين الله ورعايته يكتبه لهم باحسن ما يمكن ويجزيهم افضل الجزاء.

١٢٢: وربما كان هذا النهي الشديد عن التخلف عن الجهاد حافزا لكل المؤمنين للتحرك نحوه تماما كما قد يتوهم أن التفقه في الدين وهو ايضا امر صعب ولازم – يتطلب من الجميع التوجه والنفير فجاءت هذه الآية الشريفة لتؤكد أن الامر فيهما امر كفائي اذا قامت به الجماعة الكافية يسقط عن الآخرين . فالاسلام واقعي يضع كل شيء في محله فهناك مجتمع قائم بتسيير الحياة الاجتماعية تقوم طائفة منه – تقل او تكثر بحسب الحاجة – بمهمة الجهاد، واخرى بمهمة التفقه في الدين.

وفي الآية دلالة واضحة على حجية قول الواحد من الفقهاء والرواة اذا رجعوا الى قومهم وابلغوهم بالحقائق التي وقفوا عليها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سورة التوبة

١٢٣: وينتقل القرآن من حوادث تبوك الى الجهاد بمعناه العام ليحض المؤمنين على اداء فريضة الجهاد لتحكيم شريعة الله في الارض.

ويؤكد على التحرك المرحلي من خلال البدء بقتال الذين يلون ويجاورون (دار الاسلام) ومن طبع القتال الغلظة والشدة في ذات الله، ولكنها لا تعني العنف الاهوج الذي رفضته النصوص الاسلامية التي عرضت اخلاقيات الحرب في تصور الاسلام كأروع مايكون ولا ريب ان كل المحاولات لحذف ثقافة الجهاد من تراثنا الاسلامي ستفشل لأن القرآن سيبقى حيا فيه ولان عز هذه الامة في جهادها لاعلاء كلمة الله ولان الله وكل قدراته المطلقة انما هي مع المتقين.

١٢٤: أن السور القرآنية هي كلام الله العظيم وهدىً ورواء للقلوب المستعدة للهدى اما القلوب النافرة والملوثة بالنفاق فلن يزيدها الا نفورا والآية الشريفة تكشف بعض حالات المنافقين الذين يواجهون هذه الحالة (نزول السور) بشيء من التهكم متسائلين عن الأثر النفسي لها لانهم لم يحسوا بلذتها وعطائها في انفسهم ويحسبون الآخرين على منوالهم في حين ان انزال سورة قرآنية يعمق الايمان في النفوس المستعدة للحقيقة ويرفع من مستوى الامل والبشرى فيها.

١٢٥: فالقلوب المريضة كالاراضي البور يتحول المطر فيها الى وحل والعطاء الطاهر الى رجس اضافي وعمى مستمر حتى الموت .

١٢٦: ولعل الآية تذكرهم بالحالات التي يمرون بها في حياتهم باستمرار وهي بطبيعة الحال حالات شدة تهزهم وتدعوهم للعودة الى الله القادر القوي والتوبة اليه ولكن شدة العناد والنفاق تمنعهم من الاستجابة لهذه الحالات والتوبة والتذكّر والاتعاظ مما يزيدهم عمى الى عماهم وبعداً عن الاستجابة لدواعي الفطرة والتنبه الوجداني عبر هذه التجارب النفسية.

١٢٧: فإذا انزلت سورة الهية تحمل المعاني العظام لم ينتبهوا لها بل تغلبهم شقوتهم ويتحينون الفرص متلصصين ليهربوا من الحقيقة. كل ذلك لجهلهم وعماهم عن الحق.

١٢٨: انها رحمة الله الغامرة اذ بعثَ في المسلمين (رسولاً) يحمل كل جلال الرسالة الالهية ولكنه من (انفسهم) وليس غريباً عليهم وليس ملكاً انه بشر منهم يستطيع ان يكون خير قدوة واسوة، يشق عليه ان يلقى قومه في العنت والشدة بل يحرص عليهم ويحنو ويرؤف بهم ويحمل لهم كل معاني الحب والرحمة.

وما احوج البشرية الى القيادة الالهية الرحيمة وما اروع أن تنقاد اليها لتحقق لها العلاء المنشود . وهنا نلاحظ التلاحم بين الاسس العقائدية والجو العاطفي.

١٢٩: اما اذا تولى الجمع ولم يأتمروا بقيادة الرسول الالهية الرحيمة فان الله الذي لا إله الا هو كافيه وناصره والتوكل الكامل عليه لانه مصدر القوى، والقدرة المطلقة ورب العرش العظيم (مركز ادارة الكون كله).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

سورة يونس

تحدثنا من قبل عن جزئية البسملة للسورة.

١: اشارة الى علو مقام القرآن لانه كلام الله النازل بالهدى الحافل بالآيات ذوات المعاني السامية وهو الكتاب الذي تستقر فيه الحكمه فيتعامل مع واقع الفطرة وحقائق الحياة ويوجه المسيرة الانسانية الى هدفها المنشود.

٢: تصوّر البعض انه من الغريب ان يوحى الى الانسان في حين ان هذا التصور هو غريب، فالانسان هو الموجود السامي المفضل القابل لتحمل الوحي وتنفيذ مضامينه في الحياة ليفتح الوحي آفاقاً ضخمة له وليرسم لعقله المعالم التي يجب ان يتحرك فيها ويسخّر القوى الانسانية لتحقيقها. والوحي يحمل الانذار لجميع البشر والبشرى لخصوص المؤمنين بان لهم المقام السامي عند ربهم ان هم ساروا على هدى الوحي، وحينما لا يستطيع الكافرون مقاومة عطاء الوحي وانواره يلجأون للتهم الباطلة ويصفونه بالسحر الواضح.

٣: شروع في الرد على هؤلاء المكذبين، وتوضيح قضية الربوبية ونفي الشرك. فكل هذا التناسق في الكون، وهذه الوحدة في هداية عملية التكامل، وهذه القدرة النافذة الى وعلى كل ذرة فيه، وهذا التدبير الموحد وهذا الكون الذي يمر خلقه بمراحل، كل ذلك يقود الى الايمان بالله رباً يجب ان تدين له البشرية بالطاعة والعبودية ونفي اي تاثير مستقل لأي شيء يعد شفيعاً وللاسباب الاخرى في مسيرته المنسجمة فهذه الاسباب الاخرى انما تعمل باذن الله مسخرة له فهو الخالق المدبر لا غير واليه يجب ان تتوجه العقول والحياة بالذكر والعبادة.

٤: بعد ذكر مبدأ الخلق يأتي التذكير بالمعاد الى الله وحده لا غير وبالوعد الالهي الذي لا يتخلف. فمنه المبدأ والمنطلق واليه المعاد، وليتحقق العدل الالهي ويصل العابدون العاملون الى النعيم في حين ينتظر الكافرين شراب جهنمي وعذاب اليم نتيجة انحرافهم عن الحق.

٥: آيتان الهيتان بارزتان امام الفطرة الانسانية فيهما مثال التحرك الكوني والانسجام الجميل، وروعة الضياء والنور، ومراحل الحركة والعطاء المؤثر على حياة الانسان وتنظيمها عدداً وحساباً والتتابع منذ عرف الانسان نفسه، كلها حقائق تدركها النفس بوضوح ويكتشف العلم الانساني على مر العصور حقائق اعظم واعظم ولكنها كلها تبقى منسجمة مع ظهور هذه الآية وتؤكد الحق الذي يقوم عليه الكون كله ومنه هاتان الظاهرتان. وهذا التناسق الجميل والنظام الرائع الضروري لحياة الانسان الجسدية والاجتماعية ـ بما لا تستغني عنه البشرية ـ يكشف عن الربوبية الواحدة والتدبير الحكيم المتفرد.

٦: وهذه الحركية المنسجمة آية بنفسها رائعة. وهذا التنوع في ماخلق الله في هذا الكون الوسيع من العجائب تشد القلوب الى الرب المدبر الواحد فتدفعها للقيام بحق العبودية بكل معانيه وتحقق التقوى النفسية بكل قوة.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

٧، ٨: امام الحقائق الباهرة التي اشارت اليها الآيات السابقة فاكدت الربوبية الالهية المتفردة، والعدالة والحق السارين في الكون، يقف المنكرون غير الراجين لقاء الله، ولـذا فهم راضون بصورة الدنيا من الحياة ومستسلمون لرغائبهم الدانية، وغافلون عن الآيات بعد أن محو عقولهم وسخروها للأهواء الرخيصة يقفون موقف الضياع والفسق عن الفطرة وانتظار النار والعذاب الاليم نتيجة هذا الموقف الدنيء المنقطع عن الايمان بالآخرة.

٩: يقف هؤلاء المؤمنون في قبال اولئك المنكرين، فهم واعون للحق مستمعون للهدى مؤمنون بالحقيقة الساطعة، عاملون بمقتضياتها من الاعمال التي تصلح المسيرة البشرية، امامهم الهدى الالهي يستهدونه فيرشدهم بايمانهم به نحو السير الصحيح، وتلتحم الحياة الدنيا بالآخرة فهم في الحياتين في جنات النعيم وفي اجواء من الرضا الالهي.

١٠: انه شعار المؤمنين في الحياتين ايضاً: التسبيح، والسلام والتحميد، فالتسبيح تنزيه لله عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من انواع الشرك، والسلام خير كله ومحبة للآخرين، والحمد انعكاس طبيعي لما تشاهده النفس الواعية من نعم الله الغامرة التي تحكي جمال الله وكماله ولطفه العميم بالبشرية في كل حالاتها، اذ الكون كله تجليات لاسماء الله الحسنى وفي هذه العوالم من الحسن لا تجد النفس الا ان تعلن بالحمد لله رب العالمين. وهكذا يتكامل الاطار ببداية التسبيح والتنزيه والتوحيد انتهاء بالحمد له تعالى مرورا بالمحبة والسلام.

١١: ويتمادى المنكرون في انحرافهم فيطلبون تعجيل العذاب ولكن القرآن يذكرهم بالحكمة من تاخيره، وهي ان هذا التأخير لصالحهم من خلال اعطائهم فرصة المراجعة والتوبة، فرغم العناد والظلم تبقى الرحمة الالهية تصر على تنبيههم للحقيقة، وخروجهم من حالة الطغيان والضياع.

١٢: ومن الحالات التي تعبر عن لطف الله ايضا حالات العودة الى الله عند الضر والشدة وانقطاع الوسائل حيث يلجأ الانسان متضرعاً الى الوجود القادر المخلص داعياً في مختلف حالاته، الا ان هذا الانسان سرعان ما ينسى هذا اللطف ويغفل عن باب الرحمة وذلك حينما تنكشف الغمة، فيستهويه الطغيان من جديد، وتزيّن له نفسه حياة السرف والترف فيغرق في العمه من جديد.

١٣: وهي عبرة يجب ان يعتبر بها هؤلاء المسرفون الغافلون المستعجلون لعذاب الله، ليدركوا ان هناك علاقة قوية بين الهلاك والظلم والعناد الطاغي رغم ان الرسل كانت تطرح الآيات البينات، والمنطق السليم يعتبر بالبينات ولكنه الطغيان والاسراف يعمي القلوب ويدفع نحو حياة الاجرام.

١٤: انها نعمة الله عليهم باستخلافهم في محل هؤلاء الهالكين وهو تذكير مؤكد لهم للعودة الى الله والعمل الصالح والخلاص من نفس العاقبة وانه توجيه للنفوس لاستحضار الرقابة الالهية في كل الحالات. وهكذا تتجلى السُنّة الالهية الكونية في تعاقب الحضارات والتداول والاستخلاف وان الجميع مسلمين وغيرهم معرضون للامتحان في اقامة العدل ونفي الظلم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

١٥: ايات القرآن واضحة بينة فيها علو المعنى ودقة التنسيق وسمو الهدف ولذلك وقفوا امامها مبهورين عاجزين عن ان ياتوا بمثلها ولا يسعهم الا التسليم. الا ان العناد وعدم الايمان بالآخرة من قبل البعض دفعهم لطلب عجيب: طلب الاتيان بقرآن غير هذا او تبديله وذلك اما لتنسجم مضامينه مع اهوائهم او للاستهزاء أو للامتحان او لغير ذلك. الا أنه يطلب من الرسول أن يرد عليهم بانه مجرد متلق للوحي، وأنه هو لو تخلف لواجهه العذاب العظيم. وهذه الأثنينية بين الموحي والموحى اليه ظاهرة قرآنية عامة ترد على ادعاءات المشركين، وكل المشككين القدامى والمحدثين الذين يقولون بنظرية (الوحي النفسي) الموهومة.

١٦: استمرار في الرد على طلبهم السخيف بتغيير القرآن. ذلك ان نزول الوحي كان بارادة الهية، ولو شاء تعالى لما انزل القرآن ولا علّمهم الرسول معانيه الرائعة ولقد كان (ص) يعيش بينهم اربعين عاماً قبل نزول الوحي ولم يكن يحدثهم بشيء منه لانه لم يكن قد اوحي اليه. انها لفتة تدعو للتعقل والتأمل لو كانوا يعقلون.

١٧: انه الظلم العظيم أن ينسب الانسان لله شيئاً افتراءً وادعاءً للوحي بالباطل، او يكذّب بآياته الواضحات، وانه لإجرام كبير يؤدي الى الضلال والشقاء.

١٨: ويمضي القرآن في تسخيف هؤلاء وتذكيرهم بانحطاطهم العقلي اذ يقدّمون ولاءهم وخضوعهم لموجودات لا تضر ولا تنفع مدعين انها سوف تشفع لهم وتوصلهم الى الله، والله لا يعلم بمثل هؤلاء الشفعاء المزعومين، بل هو الشرك الذي يتنزه الله تعالى عنه.

١٩: وماذكره القرآن من تصرفات وطلبات سخيفة للمشركين انما هو انحراف عن الحالة الفطرية التوحيدية ووقوع في الضلال وانقسام الناس بالتالي الى مسيرتين مؤمنة وكافرة شاء الله أن تلتحما عبر التاريخ حتى يحكم بينهما يوم الجزاء. فقد اقتضت حكمة الله ان يمهل أطراف الصراع في الدنيا لمزيد من الاختبار وتمتيناً للربوبية والتربية للعالمين.

٢٠: ويستمر المشركون الذين لا يرجون لقاء الله بطلب آية اخرى (غير القرآن) غير مدركين لعظمة القرآن المعجزة الخالدة ويأتي الرد من الرسول المطيع لله: انها ارادة الهية وانه لا يعلم الغيب علماً ذاتياً بل هو ينتظر الوحي فلينتظروا معه ماينزل من الله.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

٢١: تذكير قرآني لهؤلاء المشككين في الرسالة والوحي، والذين جاءتهم الرحمة الالهية المتمثلة ببعثة النبي(ص) فيهم ليخلصهم من الجاهلية والفرقة، ولكنهم راحوا يتذرعون بالطلبات السخيفة والاساليب الماكرة كطلب تغيير القرآن، او طلب آية ومعجزة اخرى وامثال ذلك، تذكير لهم بان الانسان الضعيف عادةً ما يثوب الى ربه ساعة الحاجة فاذا قضيت واستغنى عاد الى مكره ولجاجه، ولكن الله اسرع مكراً ورداً على المكر الذي ترصده رسل الله بكل دقة وحينئذ يكون الرد المناسب.

٢٢: واستمراراً في هذا التذكير يستعرض القرآن هذه الحالة التي تتكرر عادة لدى الناس فهم يتمتعون بنعمة الله وقوانين الطبيعة ويسيرون في البحر تحملهم الفلك وتدفعهم الريح الطيبة فرحين مسرورين وربما غفلوا عن هذه النعمة او تناسوا المنعم ولكن العسرة والشدة تبدو حينما تعمل قوانين الله عملها ايضا فتعصف الرياح وتهاجمهم الامواج من كل طرف ويشعر هؤلاء بالهول الكبير فيتنبهون للحقيقة التي غفلوا عنها حالة الاستغناء فيلجأون بفطرتهم الى الله المنقذ طائعين معلنين انهم ان شملتهم الرحمة فسيكونون من الشاكرين.

والملاحظ ان الآية الشريفة تستفيد من روعة التعبير لتجسد هذا المشهد الوجداني تحقيقا لهدف التذكير.

٢٣: الا انّ الانسان يدركه ضعفه (الا ان يحتفظ بخاصية التذكّر) فيعود الى الطغيان والبغي والظلم واتباع سبيل الضلال ناسياً حقيقة انه يعتدي على انسانيته ووعيه مستمتعاً بمتعة دنيوية رخيصة ومفرطاً بحياة سامية في الدنيا وثواب خالد في الآخرة حين يرجع الى ربه فينبئه بعمله ويجزيه على انحرافه وبغيه.

٢٤: هكذا يريد القرآن ان يعمق نظر الانسان للدنيا فلا يفتتن بها، إنها حالة قد تتغير لاي عارض، كما تغيرت الريح الطيبة الى ريح عاصف فهي تشبه مطراً ينزل بلطف الله فتتلقفه الارض، ويمتصه النبات فيسرع ليشبع الانسان والحيوان وتتزين به الطبيعة وحينئذ ايضا يدرك الانسان ضعفه ويتصور انه القادر ويغفل عن قدرة الله لتغيّر عليه الحوادث في كل آن وليصبح حصيدا يبساً مجدباً وكانه لم يكن بالامس في غاية الزهو والخضرة.

وتتوالى الآيات لتبقي الانسان واعياً للحقيقة مفكراً بالمصير.

٢٥: والمصير الحق يجب ان يكون الى دار السلام والامان الدائم الذي لا يشوبه قلق او زوال وهو ما يدعونا اليه اللطيف الخبير الرحيم، فما اسمى الفرق بين حياتين: حياة متقلبة تتسم بالزوال والنسيان والقلق والمكر واخرى هي السلام بكل معانيه الجميلة.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

٢٦: تتمشى هذه الآية مع مقتضيات الفطرة ككل القرآن، فالمحسنون لهم المثوبة والعاقبة الحسنى بل ولهم من فضل الله زيادة على ذلك قد تفوق تصورهم هم. وسوف لن يواجهوا الاهوال ولن تتغير الوان وجوههم (قتر) ولا تبدو عليها الذلة انهم اصحاب الجنة وقد حققوا اقصى ما يصبون اليه وهو الخلود في النعيم والسلام في ظل الرضوان الالهي.

٢٧: وفي قبال خط الايمان يقف هؤلاء الذين عاشوا الانحراف والخسران يلاقون جزاء سيئة بمثلها وتغشاهم الذلة، ويفقدون مايمنعهم من عذاب الله، ويغرقون في ظلام الندم والضياع ويا لبؤس هؤلاء انهم سيخلدون في عذاب الله وما اعظمه من عقاب. وهكذا يجمع القرآن بين سواد الوجوه الظاهري لاحتراقها بالنار وسواد الذل الباطني لتلوثها بالظلم ليعبر أروع تعبير عن العذاب الغامر الذي سيلاقي اهل المعاصي فعليهم التأمل من جديد في هذه العاقبة الاليمة.

٢٨: وهكذا تحشر الخلائق الى الله المؤمنون والمشركون، ثم يقال للمشركين ومن جعلهم المشركون شركاء لله: قفوا مكانكم انتم وهؤلاء الشركاء ثم يتم الفصل بينهما (فزيلنا بينهم) وينبري الشركاء لتبرئة انفسهم من إثم هؤلاء وشركهم واعلان ان هؤلاء لم يكونوا يعبدونهم في الحقيقة لان الشركاء لم يكونوا شركاء ولم يكونوا يستحقون العبادة وانما توهم المشركون قيامهم بهذه العبودية.

٢٩: ويلجأ هؤلاء الشركاء المزعومون الى الله ليستشهدوا به معلنين انهم كانوا غافلين عن اثم المشركين وفي كل هذا مافيه من تبكيت المشركين وتذكيرهم بعمق الوهم الذي يعيشونه. حيث يتبرأ منهم حتى من كانوا يتوجهون اليهم بالعبادة والتقديس.

٣٠: انها الحقيقة الكبرى والمولوية الحقة تظهر باجلى مظاهرها يوم القيامة فاذا ماعداها زائف، واذا كل انماط العبودية الاخرى وهم وضلال. وهناك تتكشف حقائق الاعمال وتوفّى كل نفس نصيبها مما اسلفت وقدّمت من عمل، وهنالك تبطل الدعاوى الاخرى ولا يجد المشركون من يعصمهم من العذاب الأليم.

٣١: واستهدافاً لنفي الشركاء والشفعاء المزيفين تأتي هذه الآية لتصحيح الموقف لدى المشركين بتذكيرهم بنعم الله العظمى في الكون والنفس حيث تتناسق الطبيعة وشتى القوانين الارضية والسماوية لتشبع مايحتاجه الانسان وتدوم حياته ويتنعم برزق الله بديم مسيرته البناءة لتحقيق الهدف من خلقته. ان ظواهر الرزق من السماء والارض، والحواس، والحياة، تشكل مجموعة متناسقة يقود التأمل فيها الى معرفة اعمق بالوجود الالهي القادر الرحيم المطلق وبدون ذلك فليس أمامنا الا افتراض تجمع مالا يحصى من الصدف وهو المحال الذي ترفضه الفطرة السليمة فليس امامنا الا الايمان بالله وحده ونفي اي تأثير لما عداه ولو كان ذلك بشكل شفاعة مستقلة، وبالتالي العمل بمقتضيات حق المولوية وهي التقوى.

٣٢: انه المولى الحقيقي وماعداه الوهم والخيال الباطل.

٣٣: ولأنهم خرجوا عن حالتهم الفطرية فإنهم لم يستحقوا شرف الايمان.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

٣٤: استمرار في الاحتجاج ضد المشركين، والاستمداد من الفطرة لتقرير حقيقة التوحيد وان الله تعالى بيده الخلق اول مرة واعادة الخلق للحساب واعطاء حياة الخلق الاول معنى وغاية وان لادور لمن يطرحونهم شركاء في العملية مطلقا فينبغي ان لا تنطلي عليهم اساليب الضلال فتصرفهم عن الحق.

٣٥: ذلك ان اتباع الحق حالة فطرية لانها من طرق التكامل، واتباع الهادي الى الحق اتباع للحق نفسه وحينئذ يواجه المشركون بحقيقة مهمة وهي ان هؤلاء الشركاء اضعف من ان يقودوهم الى الحق، وان الهدى الحقيقي هو هدى الله في جميع المجالات بينما لا يملك هؤلاء ان يهتدوا هم فضلا عن ان يقوموا بهداية الآخرين، والفطرة تقتضي وتحكم باتباع الهادي الحقيقي وهو الله.

٣٦: ان هؤلاء المشركين اخطأوا السبيل الى الحق بعد أن اصرّ أئمتهم على اضلالهم – وهم اي القادة يعلمون بالحق ولكن سولت انفسهم الباطل – اما الاكثرية فهم المقلدون التابعون للظنون والاوهام ولو عادوا الى فطرهم وعقولهم لأدركوا ان الظن لا يغني من الحق شيئاً وان عليهم الوصول الى اليقين بالحقيقة واتباعها بعد ذلك، وربما كان المراد ان الاكثرية تتبع الوهم وهناك اقلية مستضعفة لا تملك التفكير اصلا في هذه الامور.

٣٧: وينتقل القرآن الى نقطة ضعف كبرى في نفس المشركين وهي تشكيكهم في نسبه السماوي وهي نقطة سارية في نفوس من لم تستقر العقيدة في وجودهم، كما يعمل الاعداء وحتى اليوم على بث الشبهات حولها ومن هنا فإن اسلوب معالجتها آنذاك ايضا يسري باستمرار ليعالج اي شبهة لاحقة.

ان هذا القرآن لا يمكن ان يفترى على الله لانه مظهر لقدرة الهية لا بشرية، انه بما يملكه من معان سامية، وتناسق بديع وتكامل في الرؤى، واخبار عن عالم الغيب، وعلو عن الزمان والمكان، وروعة خارقة في التعبير واستعصاء على التقليد، وتصديق وتفصيل لحقائق الكتب السماوية السابقة، وانسجام تام مع الفطرة والمنطق السليم، انه مع كل هذه الحقائق لا يقبل الافتراء مطلقا ولا يدخله الشك في انه نازل من رب العالمين خالق الكون بقوانينه، والرحيم للانسان والهادي الى سواء السبيل.

٣٨: نعم على هؤلاء المشككين ان يجربوا انفسهم هم بل يستمدوا من الآخرين قدراتهم ليأتوا بسورة من مثله تحمل نفس السمو والاعجاز ولن يقدروا بل لن تستطيع الاجيال التالية حتى من تشبّعوا باسلوبه ان تأتي بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

٣٩: ان سمو المعاني القرآنية وقصور افهام المكذبين عن ادراك المعاني الكبرى التي تؤول اليها (وهي امور سيطلعون عليها قريبا) هو الذي دعاهم للتكذيب كما دعا من قبلهم لذلك دون ان يفكروا بعقل سليم فابتلوا بعاقبة الظالمين.

٤٠: وهكذا وفق الله البعض للايمان بالقرآن في حين منع البعض فسادهم من هذا التوفيق.

٤١: دعوة للنبي(ص) كي يتبرأ من خط المكذبين.

٤٢: وهناك من يستمعون اليك وهم صم لا يعقلون فهم لا يقبلون الهدى ولا يملكون القابلية له.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٤٣: كما ان هناك من ينظرون اليك ولكنهم في الواقع عمي لا يقبلون الوعي والبصر المؤدي للمعرفة.

٤٤: والعدل الالهي هو احد ركائز التصور الاسلامي التي يختفي عليها الكثير من التصورات الاخرى، ومن هنا فان هؤلاء لم يصبهم ظلم من الله وانما كانواهم الظالمين لانفسهم بتفريطهم بهذه النعم الالهية.

٤٥: ان الحقيقة سوف تتجلى بوضوح يوم القيامة: وسيعرفون ان ما افنوا عمرهم له من الدنيا لا قيمة له في الواقع، انه لا يمثل الا ساعة من النهار تم فيها التعارف ثم انقضت بسرعة فتبين لهم الخسران والبعد عن الهدى، وهكذا يركز القرآن في ذهن الانسان حقيقة الحياة الانسانية الممتدة ليفكر في سعادته على امتدادها ولا يقتصر على مقطع قصير منها، وحينئذ تتغير حسابات الربح والخسارة.

٤٦: انها سنن الله في التاريخ: ان يهدي الله بلطفه الانسان ويرسل له التعاليم التي تقوده الى السعادة فاذا انحرف عن الخط استحق العذاب، وما على الرسول الا البلاغ وفيما عدا ذلك فالامر موكول لله فقد يرى تحقق الوعيد الالهي في حياته، وقد يتوفاه الله قبل ذلك وعلى اي حال فالسنن لا تتخلف والجميع في محضره تعالى فينبغي أن لا يغرهم تأخر العذاب كما ينبغي للنبي(ص) ان يواصل دعوته سواء تحقق الوعيد او تأخر.

٤٧: ان اللطف الالهي عميم، والعدل الالهي حقيقة لامراء فيها فالرسل تبلغ الهدى الالهي لكل الامم وعليها ان تستغل هذا اللطف، فاذا عصت استحقت العذاب.

٤٨: ويتساءل المنحرفون متهكمين: متى يتحقق الوعد والقضاء الالهي الذي وعدتمونا به؟ ويأتي الجواب: انه يتبع السنن والتقديرات الالهية وليس أمره بيد الرسول، بل لايملك هو لنفسه أن يضرها او ينفعها، والمشيئة الالهية وسننها الكونية هي النافذة في التاريخ وتطوي الامم على اساس منها عمرها واجلها فاذا استوفت ذلك تحقق التقدير بالالهي بكل دقة.

٤٩، ٥٠: ان استعجال العذاب لن ينفع المجرمين ولن يخلصهم منه فهو محيط بهم قد ياتيهم ليلا او نهاراً فلا داعي لهذه العجلة.

٥١: وكأن هؤلاء ينتظرون ان تلوح بوادر العذاب ليؤمنوا بالرسالة ولكن القرآن يحذرهم من التمادي في ذلك اذ سوف لن ينفعهم ذلك بعد ان يحيط بهم ما كانوا به يستعجلون.

٥٢: ويوم القيامة يقال لهؤلاء الظالمين هذا القول الاليم وليس ذلك الا بما كسبته ايديهم.

٥٣: انهم يعجبون من اعادتهم الى الحساب والعذاب ويتساءلون عن مدى تحقق ذلك غافلين عن ان وعد الله حق وان القدرة الالهية لا يعجزها شيء.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

٥٤: ان عذاب الله عظيم ولا يقابله اي شيء فاذا حل فان الظالمين سوف يسترخصون مافي الارض (لو كانوا يملكونه) ليقدموه فداء وخلاصا منه، انه الندم العظيم على الظلم وانها الحسرة المكبوتة ولكنه جزاؤهم العادل.

٥٥: ان الايمان بالملكية الحقيقية الالهية الشاملة لما في السماوات والارض والايمان بالقدرة الالهية المطلقة وكذلك الايمان بالصدق الالهي في الوعد (ولا معنى لتصور الكذب فيه) كل ذلك يؤدي بطبيعة الحال الى حقيقة ان وعد الله حق لاشك فيه ولا ينكره الا البسطاء من عامة الناس وهم الاكثرية غالباً.

٥٦: ان امر الحياة والموت بيده تعالى في اطار ملكيته للكون كله وقيمومته على كل من سواه فلا معنى لتصور التخلف في الوعد الالهي، وبالتالي الوقوع في الغرور.

٥٧: عودة لبيان عظمة القرآن يتم فيها التركيز على العطاء الخلقي القرآني فهو موعظة تخرج الانسان من الغفلة والحيرة والشك، وهو شفاء ينزع من الصدور ادواءها وامراضها، وهو هدى تشريعي يعلم الانسان سبل تحقيق انسانيته وعلائها، وهو بالتالي رحمة الهية غامرة تصعد بهذا الموجود ان شاء هو سبل التكامل.

٥٨: انه العطاء والفضل من الله الغني وانها الرحمة العامة للناس وبهما (الفضل والرحمة) جاء الهدى الالهي لا لحاجة الهية للعبادة او لتكريس الذات، بل ليتكامل الانسان ويسلك سبل علائه، وهو الفرح الحقيقي والمتعة التي لا متعة بعدها، واين منها التمتع بما يجمعه الانسان من حطام زائل ومتعة مقطوعة.

٥٩: ان الانسان مغمور بالنعم الالهية في نفسه وفي الكون وكل هذه النعم تحكمها قوانين ولها مقتضيات وروابط لا يعلمها الا الله وربما بلغ الانسان بمعرفته الى شيء يسير منها. ولذلك فلا ينتظم العلاقة بها الا وحي مرشد ودين جامع يعيّن المسموح به وغير المسموح، تحقيقا لمقتضى تلك العلاقات وايجادا للعدالة في الاشباع وبالتالي التزاما بالنظام الاصلح في الحياة، وعليه يجب الرجوع اليه تعالى واستئذانه والا فالوقوع في الافتراء والضلال.

٦٠: ولا ريب ان اتخاذ الانسان صفة المشرع دون اذن الله سوف يؤدي به الى الهلاك والكذب على الله وهو من له حق التشريع وهو المتفضل المنعم، وشكر النعمة يقتضي طاعة المولى المنعم ولكن بساطة العامة وهم الاكثرية تنسيهم هذه الحقيقة.

٦١: ان كل حركة في الكون، وكل حالة يكون عليها الرسول ومنها تلاوة كتاب الله، وكل عمل يصدر من اي فرد ولو كان ذلك سريعاً، حاضر عند الله تعالى، اذ الكون كله تحت امره وعلمه يعلم كل صغيرة وكبيرة فيه.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٦٢، ٦٣: اعلان قرآني خالد، عن حقيقة كبرى فالمقربون من الله هم الاولياء الذين عمر قلوبهم الايمان وملأ وجودهم فاوجد حالة التقوى المستدامة النابعة من الاعماق فسلموا لله كل امورهم واذعنوا له بالربوبية وقدموا له كل مقتضيات العبودية فلا شيء يملأ وجودهم الا التقوى ولا شيء الا هو مملوك له ورضاه هي الغاية القصوى، هؤلاء المقربون لا يعرض عليهم – دنيا وآخرة – خوف من ضرر أو نقص، أو حزن على فقدان شيء تعلقت قلوبهم به كيف والله معهم وجدوه فوجدوا كل شيء وانشدت احاسيسهم به وعاد الخوف والحزن يتمان في اطار الرضا الالهي نفسه.

وقد روي عن النبي (ص) قوله: (لا يحق العبد حق صريح الايمان حق يحب لله ويبغض لله)[1].

٦٤: أولياء الله يعيشون الاستبشار بتحقق الامل، والسعادة المعقولة دنياً وآخرة، لان الله اللطيف القادر الصادق قربهم منه وضمن لهم هذه الحياة الكريمة وان لهم الحسنى على كل حال ولا تغيير ولا تبديل لسنن الله وكلماته في الكون فماذا بعد هذه الحالة من شيء يرجوه الانسان؟ انه اعظم فوز متصور، انه الفوز العظيم.

٦٥: ان الايمان بانه تعالى هو العزيز المطلق وهو السميع العليم باحوال الانسان ومسيرته لايدع للمؤمن اي مجال للحزن على شيء بعد أن لم يتعلق قلب المؤمن بغيره تعالى وبعد ان ضمن له حياة السعادة الحقة والبشرى المستدامة فيجب ان لا تترك المصائب والشدائد ولا مايقال من كلمات الطعن والاهانة اي تاثير في قلوب المؤمنين الذين يعتزون بعزة الله تعالى.

٦٦: ومن مظاهر العزة المطلقة ان كل ذي شعور و احساس في الكون – اقوياتهم وضعفائهم – مملوكون مربوبون له تعالى، بيده امرهم ومايصنعون، والشركاء الذين يتبعون من دونه بمجرد أوهام واباطيل يصنعها التخمين والظنون، والاعتزاز بالاوهام من الامور السخيفة.

٦٧: اشارة الى بعض نعم الله العظيمة على الانسان – وكلها عظيمة – وهما ظاهرتا الليل والنهار بما تملكه هاتان الظاهرتان الكونيتان من خصائص تنسجم كل الانسجام مع حاجات الانسان الطبيعية للسكون في الظلام تارة وللحركة في النور تارة اخرى. ان هذا الانسجام بين ظواهر الطبيعة وهي لا تعدّ ولا تحصي وبين حاجات الانسان الطبيعية – وهي كذلك – يكشف لكل ذي وعي عن التخطيط الكوني الدقيق من الخالق القادر العليم الرحيم، وعندها فلا ينبغي ان يعيش الانسان في اوهام الشرك، والاعتزاز بالظنون، وانما يلجأ الى المنعم الرحيم يشكره على نعمائه، ويعتزّ به ويعيش البشرى الدائمة.

٦٨: واذا كان القرآن نفى صفة الوالدية والولدية عنه تعالى في آيات آخرى باساليب متنوعة فهو هنا ينفيها بالتذكير بالغنى الالهي المطلق ولا معنى لتصور الحاجة في رب الكون ومالكه ليحتاج الى ولد ومعين انه خرص وأدعاء من المشركين لا دليل لهم عليه، وتقول بلا دليل.

٦٩، ٧٠: أن المشركين في تقولاتهم على الله، وكذبهم المتعمد يسيرون في مسير الضلال والضياع ويتجنبون سبيل الفلاح والتعقل والوعي. وقد يتمتعون في حياتهم الدنيا ولكنها حياة زائلة ينتظرها بعدها في الاخرة العذاب الشديد نتيجة ماقدموه من كفر وتكذيب.

---

١ – فتح القدير جزء ٣ ص ٣٩٤، الدر المنثور، جزء ٥ – ص ١٧٩.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٧١: يعود القرآن الى الاشارة الى القرون الخالية للاعتبار منها وتجنب مزالقها ويذكر قصة النبي نوح الذي انطلق يبلغ رسالات الله وحيداً صابراً واعياً معتزاً بربه معلناً لقومه المكذبين باصرار لدعوته التي واصلها طويلا، انهم ان ضاقوا بدعوته فانه لن ييأس ولن يضعف لان الله وليه عدة بالعون والعزة وقوة العزيمة، فليجمعوا امرهم وليضموا اليهم شركاءهم وليتأكدوا من موقفهم وليعلنوه بصراحة ودونما مواربة، ولينفذوه بلا تأجيل.

٧٢: اما اذا ادمتم عنادكم، واعرضتم عن الحق الذي جئتكم به ودعوتكم اليه طويلا وفي كل الاحوال فان ذلك لن يضرني شيئا ولن آسى له لاني لم اسالكم اجراً ولم اطلب نفعاً دنيوياً حتى أحزن عليه (وهنا يبدو الربط الرائع مع الآيات السابقة) لاني اعيش مع الله واطلب اجري منه وهو مضمون لا ريب فيه. وهو مقتضى تسليمي الكامل لله ورضاه وما يقدره لي دونما حزن على فقدان شيء من الحطام او خوف من خطر او ضرر.

٧٣: وكان التكذيب جواب قومه وكانت عاقبته هو والذين آمنوا معه الخلاص منهم وركوب سفينة النجاة ومن ثم امتلاك ناصية الارض وحكمها والاستخلاف عليها بعد أن زال السلف المكذب واصيبوا بعذاب الغرق في الطوفان وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها الكافرون والمؤمنون معا. فالكون يقوم على العدل والحق،واذا كان للباطل جولة فان دولة الحق هي القائمة في النهاية وفي هذا ما فيه من تثبيط لعزائم المكذبين المتولين عن الحق، الذي جاء به الانبياء والنذر، وتقوية لارادة الخط المؤمن وتوسعة لآفاق رؤيته وتعميق لأمله بالله وهو القادر الصادق الرحيم.

٧٤: ثم يشير القرآن الى مجموعة الرسل الذين جاؤوا بعد نوح(ع) الى زمان موسى (ع) وقد حملوا الآيات البينات الواضحات المنسجمات مع العقل والفطرة ولكنه العناد المتاصّل الذي اهلك قوم نوح امتد في هذه الاقوام المتتابعة مشكّلا خطا عاما يرفض ان يؤمن بما كذب به من قبل ويبدو أنه سيبقى ممتدا. فالعناد هو هو والتكذيب والاصنام هي هي وان تغيرت اشكالها وعناوينها وسُنة الله تعالى ان يطبع على قلوب المعاندين.

٧٥: واستمراراً في عرض الخطين المتضادين خط النبوة واولياء الله وخط العتاة المكذبين المعاندين يستعرض القرآن قصة موسى (ع) بما يناسب السياق، فقد بعث موسى واخوه هارون بالحق الى فرعون — وهو رمز الطغيان والعناد — ومعه ملؤه وجماعته الحاكمون، — ويقال انهم الاقباط الذين كانوا مع فرعون — فاستكبروا واستمروا على اجرامهم وهي سمة خط الباطل (الاستكبار والاجرام).

٧٦ ، ٧٧: وراحوا يكذبون بالحق المتمثل بتعاليم الله التي جاء بها موسى(ع) والايات والمعجزات الباهرة ويصفونها بالسحر الواضح ليرد عليهم موسى(ع) بانها الحق المبين — لو تأملوا وتعقلوا ذلك. ان الساحر مشعوذ يوهم الآخرين فهو غارق في الوهم بعيد عن الفلاح والحق في حين يقرب منطق النبوة من العقل والفطرة والوجدان ويقودها نحو الاهداف العليا في نسق منطقي متوازن.

٧٨: وهنا كشفوا عن سر تكذيبهم بالحق، انه الخوف من ان تزوي عنهم امتيازاتهم المبتنية على الخرافات الموروثة التي تمنح فرعون قدرة الاستكبار والظلم وتبقي الرعية خاضعة خانعة.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

٧٩، ٨٠: وكأن الطاغية رآها نقطة ضعف يمكن ان يعارض بها موسى(ع) ويوهم العامة، فدعى امهر السحرة لاجتماع مهرجاني كبير، وعند الاجتماع جاء التحدي فطلب منهم موسى ان يعرضوا سحرهم واوهامهم فطرحوا عصيهم وحبالهم فبدت كانها حيات وثعابين.

٨١: وحين عرضوا سحرهم جابههم موسى(ع) بالحقيقة فما جاءوا به هو السحر وان الله سيبطله بقوته، وانه الباطل الذي يريدون به الفساد ونصرة الطاغوت ومخالفة خط الايمان والحق، والله لا يصلح عمل المفسدين.

٨٢: هذه هي سُنة الله تعالى فهو يحق الحق بكلماته وقضائه الكوني القائم اصلا على الحق، وهو يبطل الباطل فيذهب جفاء وهي حقيقة قائمة رغم انف المجرمين وتهويلهم واستعراض قواهم الوهمية. وهكذا استطاع موسى ان يبطل سحرهم، وكان اول من انتبه الى هذه الحقيقة هم السحرة أنفسهم.

٨٣: وكانت حصيلة هذا الصراع وهذه المباراة أن بقيت الطغمة الفرعونية على عنادها وآمنت به مجموعة ضعيفة من بني اسرائيل متقية مستخفية في ايمانها خوفاً من جبروت فرعون وممن يمالئونه ويداهنونه من اشراف بني أسرائيل (وملئهم) كيلا يفتنوهم عن الحق ويجبروهم على الكفر. وهكذا كان فرعون جبارا عالياً في الارض مسرفاً يتجاوز كل الحدود و لا يسمح حتى للعقول والقلوب ان تؤمن بالحقيقة اذا توضحت لها معالمها.

٨٤، ٨٥، ٨٦: وهنا يقوم موسى بأول ادواره القيادية في امته ينفخ فيها روح الثبات والاصرار على الحق بتذكيرها ان الايمان بالله القادر الحكيم اللطيف يتطلب التوكل عليه، وحينئذ يتصل العبد الضعيف بالمطلق القوي، لترد الفئة المؤمنة المستضعفة بالايجاب فتعلن توكلها على الله وتدعوه أن يحفظ لها ايمانها قبل كل شيء من فتن الظالمين، وينجيها برحمته من الكافرين لتقوم بواجبها في دعم الحق ومواصلة خطه.

٨٧: ويؤمر موسى(ع) ان يبدأ بالخطوة التالية وهي فرز بني اسرائيل واعطائهم شخصية متميزة فتعتزل مجتمعها الفاسد، وتتجمع عناصرها في بيئة صالحة، وبيوت متقابلة فيتم التواصل ويتم التناصر وتتحول حياة البداوة الى حياة الاستقرار والتنمية والتزكية واقامة الصلاة والتعبد لله تعالى، ولتأتي البشارة الالهية بالمستقبل الواعد، والنصر للمؤمنين.

٨٨: ودعاء القائد من لوازم القيادة، ليطهر نفسه وينشر التوعية في امته كما يطلب من الله ان يسهل له الدرب ويقوي منه القلب وهكذا يقف موسى بعد أن يئس من فرعون وملئه داعياً ربه ان يطمس على ما آتى الله فرعون من نعم الزينة والاموال فافسدوا بها البلاد والعباد، ويربط قلوبهم بالباطل حتى يروا العذاب الاليم نتيجة اصرارهم على الافساد والكفر بانعم الله.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

٨٩: وكأن موسى كان يدعو ويؤمن على دعوته هارون لذلك جاءت الاستجابة الالهية للداعيين بالقبول لينطلق موسى لاستدامة تربية الفئة المؤمنة مستجيبا لأمر الله بالاستقامة والثبات على الخط وهي أمر صعب مستصعب رافضا كل السبل المنحرفة والمؤامرات الجاهلة والاقتراحات الباطلة.

٩٠: ويطوي القرآن مراحل البناء والصراع ليصل الى العاقبة التي أبتلي بها خط الطاغوت بعد أن ضيق على بني اسرائيل فتحركوا مهاجرين بقيادة نبيهم، وعندما واجههم البحر (ويقال: إنه البحر الأحمر) امتدت يد العناية من جديد اليهم لتفتح لهم اخدودا في الماء ليعبروا سالمين وليدخل فرعون ذلك المسرب بعد أن تعقبهم ظلماً وتجاوزاً للحد واعتداء، وهنا اطبق البحر عليه فاشرف على الغرق، وعاين العذاب الاليم فراح يعلن ايمانه بما آمنت به بنو اسرائيل لينجو كما نجوا ولكن أوان الايمان والتسليم كان قد فات.

٩١: نعم فات الاوان بعد ان عاش حياة الظلم والفساد والاجرام وانشد قلبه للتفاهات فلم يؤمن حتى رأى الهلاك فتحقق بذلك دعاء موسى وهارون.

٩٢: لقد اعلن النداء الالهي، انه سيموت على كفره وانما سيطفو بدنه وجسمه ليبقى عبرة للمعتبرين على مر العصور وهي تعلن ان هذا العالي المتجبر الطاغية الذي لم يكن يسمح لشعبه حتى بالايمان بشيء الا أن يستأذنوه، عاد بدناً لا روح فيه، وجيفة لا قيمة لها، وان كان الكثير من الناس يغفلون عن هذه الامور ويعيشون غافلين عن حقيقة الموت، وحقيقة العاقبة السيئة للطغاة والمعاندين.

٩٣: وامتنّ الله تعالى على الفئة المؤمنة ورزقها كل ما تطلبه الحياة الانسانية الكريمة من سكن وتمدن وطيبات (مبوأ صدق) الا ان الآية وهي تتحدث عن هذه النعم العظيمة على بني اسرائيل تشير الى النكسة التي اصابتهم ومزقت تجمعهم وافقدتهم احدى اهم خصائص الامة المؤمنة وهي (الوحدة) بعد ان كفروا بهذه النعمة واختلفوا في الحق عالمين عامدين وعادت كل فرقة تدعي انها على الحق والله تعالى اليه مردهم يوم القيامة وسيقضي بينهم في هذا الخلاف الباطل.

٩٤، ٩٥: وهكذا وضّحت الآيات السابقة حقائق كثيرة:

ومنها: ان سنن الله جارية في عاقبة الخطين المؤمن والكافر.

ومنها: ان الاصرار على الظلم والكفر قد يؤدي الى انطباعها بطابعهما فلا تنفع الآيات. ومنها: ان الطغيان والعلو في الارض حالة إستكبارية يجب ان لا تخدع الناس فيستسلموا لها بل يجب ان يلحظوا العاقبة الاليمة ومنها ـ ضرورة الاعتبار بقصص الماضين التي يقصها القرآن الكريم، ولا ريب فيها فهي حقائق لا يمكن ان ينكرها اهل الكتاب لو سئلوا عن ذلك، فهي الحق من الله الحق ولا معنى للتكذيب والمماراة.

وهذا الاسلوب من الخطاب للنبي(ص) متعارف ولا يتضمن أيّ افتراض فعلي للريب عند النبي(ص) فانه مجرد فرض أو إنه خطاب له وارادة المشككين لكي ينجوا من التكذيب والخسران.

٩٦، ٩٧: فهناك تلازم بين الكفر والخسران، وبين العناد وقساوة القلب المانعة من الايمان والاعتبار بالآيات مهما كانت واضحة الا أن يروا بأم اعينهم العذاب الاليم كما رأى فرعون فأعلن ايمانه ولات حين مناص.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٩٨: اما حالة قوم يونس(ع) فانها تنسجم مع القاعدة السابقة (لا قبول للايمان عند حلول العذاب) فقد كذّبوا نبيهم وعصوا حتى تعرّضوا في النهاية لدعائه عليهم ولما لاحت بوادر العذاب أدركوا الخطأ الجسيم وتعلقوا بخيط النجاة المتبقي ولجأوا الى حياة الايمان بصدق واخلاص ونفعهم ايمانهم واعطوا فرصة الحياة من جديد. خلافاً لفرعون الذي علم الله عدم صدقه.

٩٩، ١٠٠: شاء الله تعالى ان يكون الايمان بالاختيار وان ينطلق من عمق الانسان وهو سر تميّز الانسان عن باقي المخلوقات وتكامله الفريد ولو شاء الله ان يؤمن الناس جميعا ولو بشكل جبري لتحققت المشيئة الالهية بلا ريب.

وعليه فلا اكراه في الدين وسبل الخير والشر مشرعة واضحة والاختيار الانساني هو الذي يعين احدها دون الاخر.

أن ارادة التغيير تبدأ من الانسان اما التأثير فبيد الله تعالى فان شاء الانسان الايمان تحققت ارادة الله التكوينية وتحقق الايمان اما اذا شاء الانحراف فمأواه الرجس والشك والضياع لأنه بنفسه لم يستخدم طاقته العقلية الهادية. فمرجع الامور كلها لله تعالى وحده.

١٠١: دعوة لتنمية الطاقات العقلية واعمالها عبر التأمل في خلق الله وعجائبه ودلالاته، وكم كان لتوجيهات القرآن من تأثير ضخم على النهضة العقلية والفكرية لهذه الامة. وتخليصها من حالة العناد الجاهلية التي لا تفتح للنفس اية نافذة للاعتبار والنمو.

١٠٢: وعندما لا تغني الايات والنذر فيجب ان ينتظر المعاندون أياماً مثل ايام السابقين وضياعا مثل ضياعهم.

١٠٣: اما الناجون فهم الرسل : قادة خط الايمان وهم الذين آمنوا بهذا الخط وتلك سنة الهية لا تتغير.

١٠٤، ١٠٥، ١٠٦: ولعل هذه الآيات تلخص اهداف السورة من تقرير الحقائق الكبرى وهي:

اولاً: ان هذا الدين يبتني على التوحيد الخالص لله وهو خالق الكون وبيده مسيرة الحياة والموت. وتركيز الآية على التوفي تلويح الى تهديد المكذبين بالعذاب.

وثانياً: أن الرسول العظيم هو اول المؤمنين واثبتهم على الحق وخط الايمان والمؤمنين.

وثالثاً: ان وجود النبي كله مسخّر للدعوة وعامل بها بكل وعي وحنيفية واخلاص فلا مطمع للمشركين فيه.

ورابعاً: ان هذه الالهة التي يزعمها المشركون وهمية لا تنفع ولا تضر فلا معنى للدعاء لها لانه من سخف القول والظلم للحقيقة والواقع.

وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝

١٠٧: اما النافع الضار في الكون فهو الله تعالى ولا يقف في سبيل نفاذ أمره وسننه اي شيء، فهو القاهر كما انه هو الغفور الرحيم. وحينئذ فلا يعبد في الكون سواه ولا يدعى الاه.

١٠٨: انها الكلمة الفاصلة : فهذه رسالة الحق من الرب الغفور تهدي البشرية الى علائها، ويبقى الانسان مخيراً بين اختيارها والفوز، أو اختيار طريق الضلال والضياع، ولا جبر في البين، وليس الرسول وكيلاً عليه يجبره على الطاعة. وعنصر الاختيار هذا هو الذي يميز الانسان عن غيره ويفتح له طريق الكمال اللامتناهي.

١٠٩: وهكذا تتركز مبادئ العقيدة عبر آيات الكتاب الحكيم ويزول التشكيك في الوحي من قبل الناس ويؤمر الرسول باتباعه حقيقة كبرى، والصبر على هذا الاتباع وتحمل كل التبعات حتى يأتي حكم الله ولن يكون كما توحي به الآية الا لصالح الرسول وتقوية دعوته. لان الله خير الحاكمين فهو الاعلم والاقدر والأرحم من كل من عداه.

سورة هود

قلنا إن البسملة جزء من السورة.

والظاهر ان هذه السورة نزلت في فترة حرجة من المرحلة المكية، وان كل آياتها مكية دون استثناء. وهدفها الرئيس هو التركيز على التوحيد ولوازمه وانه يغطي كل المساحة المعرفية العقائدية.

١: انه القرآن الكريم الذي ترجع آياته رغم تنوعها وتفصيلاتها واختلاف ماتعالجه من موضوعات الى معنى واحد محكم وهو التوحيد ولوازمه، فكان كل تفصيلات العقيدة والشريعة الاسلامية هي مراتب توحيدية وتفريعات لمبدأ واحد ثم تذكر تفصيلاته من قبل الله الحكيم الخبير بكل الحقيقة في الكون، وكل العلاقات والروابط الكونية وما تقتضيه، ومنها الواقع الانساني وسبيل التكامل الصحيح.

٢: انه تعالى الحكيم الخبير بالواقع، فلا مؤثر الا هو ولا معبود الا هو يهدي البشرية بلطفه الى كمالها عبر مايحمله لها الرسول البشير النذير من اوامر ونواه ترسم للانسان سبل الكمال ومقتضيات التوحيد.

٣: منه تعالى يتم طلب الغفران لتتم التوبة والرجوع والطاعة، وحينئذ فالسعادة والحياة الحسنى الى اجل مسمى مقررعنده تعالى. انها الحياة التي تقتضيها الفطرة، ويسودها العدل، ويتفاضل فيها ذوو الفضل لما امتازوا به من عمل صالح لا لغيره من عوامل التفاضل والتمييز الوهمية: العنصرية، والقومية والجنسية واللغوية واللونية وغيرها. فان تولى الانسان واعرض عن هذه الحياة في ظل التعاليم الالهية فانه يخاف عليه من عذاب الآخرة.

٤: ان الخلائق ترجع الى الله تعالى وهو القادر على ارجاعها بلاريب. والايمان بالمعاد يترك اثره على الحياة ويشدها الى الالتزام بطريق الخير والابتعاد عن العذاب الشديد.

٥: ان المشركين الجاهلين يتصورون انهم اذا اعرضوا عن كلام الله ومالوا بصدورهم الى الخلف ليستتروا منه او طأطأوا برؤوسهم واخفوها بثيابهم، فانه لن تلزمهم الحجة وكان بامكانهم الفرار من الحقيقة، ناسين ان الله تعالى عليم بكل شيء عليم بما يسرون او يعلنون او يضمرون في صدورهم من نوايا فهم لديه حاضرون.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾

٦: وهو تعالى العليم بكل مايدبُّ على الارض من انواع الحيوانات والمخلوقات المتنوعة ، وهو المقدّر لها رزقها ويبدو من آية ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] أن عليها ان تطلب هذا الرزق ولا تتقاعس في استكشاف السنن وطلب المتوفر في هذه الطبيعة بما يناسبها بكل دقة متناهية وتنسيق يبعث الوجدان على الايمان بالله المدّبر الرّازق العليم بحركة الكون وحركة المخلوقات فيه، يعلم اين تستقر واين تكمن وكلها حاضرة لديه في كتاب الكون والوجود الواضح لاهل العقول، كما انها تتحرك في مسار معلوم لتحقق الهدف من الخلقة.

٧: اشارة الى التحولات الكونية الهائلة التي تم بها خلق السماوات والارض في ستة مراحل بعد ان لم يكن هناك الا الماء فكان العرش الالهي (وهو النقطة التي يدار منها الكون) قائماً على الماء وهو مادة الحياة لتنطلق بذلك الحياة المناسبة لمسيرة الانسان ويكون كل شيء مسخراً لهذه المسيرة بدقة (وهذا مايشهد له العلم يوماً بعد يوم) ويبدأ التاريخ الانساني في ظل الهدى والاختبار الالهي والتسابق الانساني الحر لاعمار الارض ، وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى الايمان بيوم الجزاء نتيجة التسابق، وهو يوم البعث الذي يحاول الكافرون التكذيب به رغم انه نتيجة طبيعية للمسيرة ولكن هؤلاء يعتبرونه خيالاً وسحراً موهوماً.

٨: وربما خدع هؤلاء بتأخر العذاب عنهم مدة من الزمان فظنوا ذلك تأبيداً لتكذيبهم به، وتساءلوا عما يحبسه ويمنعه من أن يصيبهم؟ ولكن الآية تهددهم بانه اذا جاء امر الله فسوف يشملهم لا محالة وسوف يحيط بهم هذا الذي استهزأوا به من قبل. ان حكمة الله هي التي تؤخر العذاب لمصالح قد يكون منها فسح المجال للتأمل والايمان ورفد المسيرة بالصالحين العاملين.

٩: وهكذا هو الانسان الذي لم يربه الدين وعاش السطحية بلا تعمق وتدبّر فان شملته رحمة الهية ثم نزعت منه عاد يائساً كافراً بأنعم الله.

١٠: وان اعطاه الله نعمة بعد حالة من الضر عاش فرحاً وفخراً غامراً مسكراً ناسياً لطف الله به .

١١: اما الصابرون العاملون بتعاليم الله والذين ربتهم الشريعة الحقة فهم الواعون لحقيقتهم مهما تغيرت الاحوال ولذلك فهم الناجون من اليأس والكفر ومن الفرح والفخر وهم المؤهلون لغفران الله والأجر الكبير. ويلاحظ هنا الربط الرائع بين السيرة السوية المتوازنة في الدنيا والنتيجة الرائعة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

١٢: وتبدو الاثنينية هنا بين المرسل والرسول بما يكذب نظرية (الوحي النفسي) التي طرحها بعض المستشرقين المعاندين، فان التكذيب الكافر بالآيات والتوحيد والبعث، قد يكون من شأنه ان يبعث الرسول على ترك بعض الآيات، وعلى أن يضيق صدره باقتراحاتهم السخيفة من قبيل طلب الكنز او اصطحاب ملك، ولكن الحق تعالى يذكره بانه نذير لهم لا غير وان الامر كله لله تعالى وهو على كل شيء وكيل.

---

١ - النجم/ ٣٩.

أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١٣﴾ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٤﴾ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿١٥﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿١٧﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴿١٨﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ﴿١٩﴾

١٣: مقولة اخرى للكافرين تتهم الرسول بافتراء القرآن مما قد يضيق به صدره. الا ان القرآن يتحداهم هنا وبالتالي يتحدى الاجيال بعدهم ان ياتوا بعشر سور مفتريات تحمل ماتحمله السور القرآنية من فخامة اللفظ وعظمة المعنى فانهم سيعجزون عن ذلك حتى لو استعانوا بغيرهم من دون الله.

١٤: فان لم يستطع هؤلاء المدعوون من دون الله، ان ياتوا بعشر سور تحمل ماتحمله القرآن من سمو فانه ينبغي لهؤلاء المكذبين ان يرجعوا الى الله ويصدقوا بالقرآن والتوحيد الالهي. هذا هو مقتضى الحال فهل ينسجم هؤلاء معه ويعودون مسلمين؟

١٥: من الطبيعي ان يؤدي نظام الاسباب والمسببات الذي اراد الله ان يسود الكون، الى ان كل من يعمل لهذه الدنيا ويهيّئ لها اسبابها فانه يصل الى النتائج المرجوه اما الاخرة فيجب ان تلحظ وتقصد بالنية، وحينئذ فان العاملين للدنيا وحدها قد ينالون زينتها كاملة .

١٦: ولكن هؤلاء العاملين لدنياهم دون أن يقصدوا المعاني السامية وتحقيق مقتضيات الخلافة الالهية وخدمة الانسانية لن يحظوا بشيء من العطاء الاخروي لان اهدافهم كانت دانية وبالتالي فسيقتصر عملهم على زينة الدنيا ويبطل اثره ويحبط في الآخرة فلا يبقى الا العذاب. وبهذا يعمل القرآن على تفسير حصول الكفار على الرقي المادي احياناً لعملهم بنظام الاسباب ولكنه يركز على ان الهدف يجب ان يسمو وذلك لاقامة نظام القيم وهو اغلى من زينة الدنيا. على ان الاخذ بالاسباب بنية سامية يحقق نظاماً انسانياً راقياً معنوياً ومادياً وهو ما نجده في وصف الامام علي (ع) لمجتمع المتقين كماجاء في نهج البلاغة، في كتابه لمحمد بن ابي بكرحين ولاه مصر.

١٧: ويستمر القرآن في الرد على منكري الرسالة مؤكداً على وضوح الرؤية تماماً لدى الرسول والمؤمنين ويعضد هذا الوضوح شهادة الآخرين من اهل البصيرة واليقين. وطبقته بعض الروايات على علي(ع)[1] وهو المؤمن البصير الذي يقول (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) ذلك ان ايمان امثال علي(ع) بهذه الرسالة يكشف بنفسه عن صدقها وعظمتها وسلامة مسيرتها ، ويقوي قلوب المؤمنين . ويقوم كتاب موسى – والذي يحظى بالاسبقية والتقدير – بما يشتمل عليه من معارف وشرائع وبشائر تنسجم تماماً مع المضامين القرآنية شاهداً آخر على صدق هذه الرسالة التي يؤمن بها اتباعها بكل وضوح وطمأنينة. اما الكافرون من الاحزاب والطوائف فليس لهم الا النار جراء مخالفة عقولهم، فلا مراء ولا معنى للشك في القرآن فهو الحق وان انكره اكثر الناس[2].

١٨: ان الكافرين المشركين مفترون على الله فهم الأظلم على الحقيقة الناصعة وسيلاقون نتائج ذلك يوم العرض على الله ومواجهة الحقيقة حيث يشهد عليهم الشهود وتنصب عليهم اللعنة.

١٩: انهم يقفون عوائق في طريق الهدى ويسعون لجر البشرية الى الطريق الملتوي البعيد عن الحق ذلك لانهم لايؤمنون بالآخرة ولا يستمعون الى نداء الوجدان.

١ – انظر نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٤٤.
٢ – إرشاد القلوب، ج ٢، ص ٢١٢.

أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾

٢٠: انه التهديد الرهيب فيجب ان لا يغتر هؤلاء بما لديهم فهم اضعف من ان يقفوا امام القادر المطلق مصدر القوى وخالقها، واضعف من ان ينجدهم من دون الله اولياء. كلا فان عملهم على الصد عن سبيل الله، لاقيمة له من جهة لانهم ضعفاء امامه تعالى كما انه سيؤدي الى مضاعفة العذاب لعدم الايمان والصد عن سبيل الله، ولانهم عطّلوا اماعهم وابصارهم فلم يستخدموها في سبيل الحق.

٢١: انهم اذ سلكوا طريق الاعوجاج والضلال فقد خسروا ذواتهم وتغربوا عنها ولم يعد ينفعهم ماتصوروه من باطل وما صاغوه من اوهام.

٢٢: انه الخسران المبين ان يترك الانسان الخلود في النعيم ويغرق في العذاب الدائم نتيجة اتباع الاهواء في ساعات قلائل.

٢٣: اما المؤمنون العاملون الصالحات المطمئنون الى ربهم المتواضعون له (أخبتوا) الواعون لمسيرتهم فهم اهل النعيم الخالد.

٢٤: انهما مسيرتان على مرّ التاريخ: مسيرة الوعي والاستماع للحق والفطرة، ومسيرة الغباء والعناد والعمى فهل تستوي المسيرتان؟

٢٥: وينتقل القرآن لتبيين المسيرتين من خلال قصص الانبياء ويبدأ بنوح(ع) الذي يعلن كغيره من الانبياء ان هدفه هو الانذار الواضح القوي البينة.

٢٦: انها الدعوة الى صياغة الحياة وفق هدى الله والابتعاد عن خط الضلال والاصنام الذي يؤدي الى عذاب الآخرة الاليم.

٢٧: وهنا انبرى الاشراف من قومه ليعلنوا استكبارهم وليستدلوا على معارضتهم له بانه من البشر فلا موجب لاتباعه، وأن الذين اتبعوه كانوا من الطبقات الاجتماعية السفلى كما يبدو منهم ذلك لأول وهلة، او أنهم اتبعوه دون ترو وتفكير. فاذا اتبعه هؤلاء الشرفاء تدنت طبقتهم، وان نوحاً واتباعه لا يتمتعون بمزايا اضافية على المكذبين، بل اتهموه بالكذب.

٢٨: وبهذا يرد نوح على حجتهم الاولى (البشرية) بقوله انه يختلف عنهم بانه مرسل من ربه، وان لديه البينة والمعجزة على ذلك، وانه يتمتع برحمة الهية هي الكتاب والعلم والقدرة على هداية الآخرين. اما اذا شاؤوا ان يكذبوا عقولهم التي لو تأملوا لادركوا بها صدقه وعظمة ماعنده من منطق حكيم، واذا ركبتهم اهواؤهم واستكبارهم فخفيت عليهم ميزة نوح وما يتمتع به منطقه من روعة، فان الهدى لا يأتي اجباراً والزاماً بعد أن كان الملأ له كارهين. لان الايمان امر قلبي لا يتم الا بالاقتناع به ولا اكراه في الدين.

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٩: وهي حقيقة رددها الانبياء عبر التاريخ لتوضيح بُعدهم عن المطامع الرخيصة فهم لا يريدون أجراً على دعوتهم واذا كانوا يرغبون في امر فهو لصالح قومهم والمسيرة الخيرة، مما ينفي تهمة الكذب الموجهة اليهم. اما ماذكره المكذبون من كون اتباعه من الطبقة الدانية وقد وصفهم هنا بالذين آمنوا احتراماً لهم وتأكيداً على ان غايته هي ان يؤمن الناس دونما تمييز بين غني وفقير. فهؤلاء امرهم الى الله، ولا يستطيع ان يبعدهم عنه طمعاً في ايمان الاغنياء. ثم اعقب ذلك بوصف المعترضين بالجهل اذ يطلبون منه ذلك، لجهلهم بمعايير النبوة، وجهلهم بالمعاد.

٣٠: ان طرد هؤلاء المستضعفين المؤمنين يعني نقضاً لأهداف النبوة وظلماً لهم، والله ينتصر للمظلوم ويدافع عنه.

٣١: اما ماوصفوه به من عدم الفضل عليهم فيرد عليهم بانه لا يفضلهم مادياً فلا كنزله، ولا يعلم الغيب، وليس ملكاً يتنزه عن حاجيات الانسان، كما انه لن يجاري الملأ فيستهين بالضعفاء المؤمنين ويمنع لطف الله بهم لأن الله اعلم بما في نفوسهم. وبهذا يرد على هؤلاء المستكبرين ويزيف معاييرهم فالله ينظر الى النفوس لا المظاهر. فلا يمكن الحكم بها، والا كان ذلك من الظلم. وهكذا يواجههم بعظمة الرسالة ومنطقها لا بالمظاهر الكاذبة.

٣٢، ٣٣، ٣٤: وبعد ان يئسوا من مواجهته منطقياً واخذتهم العزة بالاثم لجأوا الى التحدي وطلب العذاب الذي خوّفهم وحذرهم منه، فواجههم بنفس المنطق قائلاً أن العذاب بيد الله وانه ان اراد تعذيبهم فليسوا يستطيعون ردّ ذلك وحينئذ يحق عليهم الامر ولا أثر لنصيحته في منع ذلك لانهم اختاروا سبيل العذاب والضلالة والغواية، وفقدوا صلاحية الإتعاظ بالنصيحة والهداية فاختار الله لهم ذلك وعلى اي حال فالامر اليه تعالى هو الرب واليه المعاد.

٣٥: وهذه لفتة رائعة ينتقل فيها القرآن من قصة نوح التي عبرت عن نموذج نبوي مستمر في مواجهة المكذبين، الى اعتراض مشركي العرب على الرسول بانه يفتري هذه القصص فيأتي الرد نبويا ايضا مؤكدا انه يتحمل المسؤولية نتيجة هذا الافتراء المدعي ولكنه يتبرأ مما يقومون هم به من اجرام وتهم باطلة وعزوف عن الخضوع للمنطق.

٣٦: استمرار لعرض مقاطع من قصة نوح وحرصه على ايمان قومه حيث يعرض القرآن هنا اخبار الوحي له بأن النفوس المستعدة قد آمنت، اما الباقون فقد فقدوا قابلية الايمان فلا داعي للتألم لذلك بعد فقدان الامل فيهم.

٣٧: ويؤمر نوح بصنع السفينة أو السفن – بالأحرى – تحت العناية الالهية ووفقاً للاوامر المعطاة وان لايشفع لقومه بعد ان حق عليهم العذاب بالغرق والطوفان.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)

٣٨: ويمضي نوح في تنفيذ امر ربه بكل طمأنينة غير آبه بسخرية قومه الجاهلين معلناً ان الاحرى ان يسخر المؤمنون منهم لجهلهم بالحقيقة الكبرى وبما سيحل بهم، وانحرافهم عن طريق الهدى.

٣٩: والمستقبل كفيل بكشف الحقيقة حيث ينجو المؤمنون ويرتكس الكفرة الجاهلون في العذاب المخزي لهم في الدنيا حيث الغرق وفي الآخرة حيث النار والجحيم والدوام فيها.

٤٠: ويحل الوعد الالهي، ويفور الماء بأمر الله من موقده ومنبعه ويتفجر، ويؤمر نوح بأن يحمل في السفينة التاريخية هذه من كل جنس من اجناس الحيوان ذكراً وانثى بما يكفل استمرارية الحياة. كما يحمل معه اهله دون من تقدم العهد الالهي فيه بالهلاك (وهما زوجته وابنه)، وبعد ذلك أمر بأن يحمل معه المؤمنين به وكانوا قلة.

٤١: فأمرهم بالركوب جميعاً لتسري وترسو على اسم الله وكأن المشهد يذكرنا بالحياة الانسانية كلها اذ تنطلق باسم الله وتسري فتتقدم وتقف باسمه تعالى وبمقتضى غفرانه الدائم ورحمته الواسعة وحباه الكريم. انها مسيرة تقودها النبوة باسم الله.

٤٢، ٤٣: وحين تثور الامواج العاتية وتعلو كالجبال يلمح نوح ابنه فتدفعه عاطفته لدعوته لركوب سفينة النجاة هذه وترك صحبة الكافرين، الا أن الغرور والجهل يستبدان بالفتى ليعلن أنه سيلجأ الى جبل يعصمه من الماء، فيرّد عليه الاب الرحيم بأنه امر الله ولا عاصم آنذاك من أمر الله الا أن تشمل الانسان رحمة الله فتنقذه من الغرق. ولكنه العتو والغرور والكفر يدفع الفتى للعصيان فيقف الموج حائلاً بين الاب وابنه العاق فيغرق. وكأن المشهد يكمل الهدف المطلوب : نبوة واعدة بالخير لا يتبعها الا قليل، وسفينة الحياة تقودها النبوة باسم الله، وعصيان وغرور وكفر ينتهي باهله الى الغرق والهلاك وهي عاقبة المكذبين.

٤٤: وتمثل هذه الاية غاية في الاعجاز البياني فهي بتعبيرات مختصرة تصف مشهداً عظيماً من مشاهد التاريخ حيث يغور الماء وتظهر الارض ويتوقف المطر وينقضي الامر العظيم، وتستوي السفينة على جبل (الجودي) ويأتي النداء الرهيب بابعاد الظالمين عن رحمة الله ومسيرة التاريخ.

٤٥: وتعود الى نوح عاطفته وينادي ربه ويستنجزه وعده الحق في نجاة اهله، وابنه من أهله، فهو مشمول بحكم الله في ذلك ـ كما يبدو ـ والله احكم الحاكمين لانه الصادق القادر الحكيم.

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٤٦: ويأتي الجواب الذي يؤكد ان الأهل الموعود نجاتهم هم الصالحون فقط اما الذين تجسّم فيهم الفساد فلا يعدون في الواقع من الأهل وفي هذا تأكيد على كون مسيرة الانبياء هي مسيرة الصالحين التي ترعاها عين الله ولا ينتمي اليها القاسدون حتى ولو انتسبوا الى قيادتها بنسب البنوة او غيرها وفي هذا السياق جاء التذكير الالهي لنوح بان لا يسأل ما ليس له به علم والا كان مع الجاهلين.

٤٧: وهنا ينفض عن نفسه تأثير العواطف ويستعيذ بالله ان يسأله ماليس له به علم او ان يقف مع الجاهلين ويؤكد استغفاره وعودته الى ربه بأنه سيكون من الخاسرين ان لم يشمله الغفران والرحمة الالهية.

٤٨: وبعد انتهاء الطوفان تبدأ المسيرة الطبيعية للانسان اذ يهبط النبي نوح من السفينة التي عبرت به وبالمؤمنين مرحلة الخطر تظلله السلامة الالهية ووعود البركة والنماء له وللمؤمنين الذين ساروا في خطه لتعمر الارض ويقام مجتمع المتقين المتمتعين بنعم الله، وستكون الى جنب هؤلاء امم يتاح لها ان تتمتع ايضاً بهذه النعم لكنها لا تطيع الله ولا تنهج منهج الصلاح وحينئذ ستبتلى بما ابتلي به امثالهم من العذاب الاليم.

٤٩: وتلخص الآية دروس هذه القصة في صدق الوحي الالهي المعبر عن الغيب عبر هذا العرض الرائع السليم من عيوب الكتب الأخرى، ووحدة مسيرة الانبياء السائرة باسم الله، وبعين الله، وتحقق النصر لهذه المسيرة في النهاية بعد الصبر والصمود، وهي سُنة الهية جارية في التاريخ.

٥٠: وعاد هي الامة التالية لقوم نوح والتي يذكرها القرآن عبرةً للمؤمنين. لقد بعث اليهم اخوهم هود وعرض امامهم كلمة الانبياء جميعاً (كلمة التوحيد) ليتألّهوا الله ويتركوا آلهة الشرك التي كانوا يفترونها مطلقات وهميةً بشرية او حجرية تكبل العقل وتمزق المسيرة.

٥١: كما يردد هود شعار الانبياء الآخر (عدم طلب الاجر) لئلا يتهموا بوجود اهداف دنيوية بل هم (عليهم السلام) قادة التاريخ الى هدف الخلقة الاسمى، يعملون على تفجير طاقات الفطرة الانسانية واثارتها لتحقق اثرها المطلوب. ولعل الاشارة الى الفاطر هنا اشارة الى هذه الحقيقة ودعوة للتعقل الصحيح.

٥٢: دعوة لطلب الغفران من الرب ثم العودة المخلصة إليه وضمان لانهمار الرحمة الالهية من السماء ونمو القوة وازديادها — والتلازم بين نمو القوى الروحية ونمو القوى الاقتصادية والسياسية وغيرها سُنة الهية اكدها القرآن مراراً —، والابتعاد عن حياة الانحراف عن الفطرة والاجرام.

٥٣: ويتكرر الرد الجاهلي على تلك الدعوة الخيّرة: العناد وادعاء عدم الدليل اولاً ثم الاصرار على الشرك وعدم الايمان.

إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)

٥٤: واستمراراً في العناد الجاهلي تتهم عاد نبيها بالهذيان والجنون ناسبةً لآلهتها قدرة المس والايذاء. ليأتيها الرد القاطع من نبي الله هود: انه يعلن بقوة ويشهد الله كما يشهدهم على اعلانه انه بريئ من كل هؤلاء الشركاء المزعومين.

٥٥- نعم ان هوداً يتحداهم بالبراءة من الشركاء المزعومين فهل يمكن لشركاء ان يردّوا على هذه البراءة المعلنة؟ كلا انهم اعجز من ذلك كما يتحداهم ـ وكانوا قوماً اشداء ـ أن يصيبوه بأذى أوكيد ودونما امهال او نظرة، انه يتحداهم جميعاً ان يقدروا على ايذائه.

٥٦: وسر هذا التحدي القوي أنه يستند الى توكله على رب الكائنات والقادر على كل شيء والغالب على كل القوى والمسيطر على كل ما في الكون من متحركات، وسُنة الله تعالى هي نصرة رسله ودحر الباطل وكيده، انه تعالى على صراط مستقيم وسُنة ثابتة لا تتغير . فماذا الذي يخشاه هود من قومه؟

٥٧: اما عناد عاد واعراضهم عن هود فلا يضره شيئاً بعد ان ابلغهم الرسالة، كما لا يضر الله تعالى وهو الغني، وانما يعود عليهم بالخسران والهلاك ليقوم بشأن الخلافة في الارض غيرهم حسب السنن الالهية الكونية وهو تعالى حفيظ لا يعزب عن علمه شيء ولا يفلت منه احد.

٥٨: وتقضي سنة الله واوامره حيث تصل الامور الى نهاياتها فينجي الله برحمته هوداً والمؤمنين معه من عذاب غليظ اصاب عاداً بالدمار والهلاك فلم تغنهم قوتهم وغلظتهم من الله شيئاً.

٥٩: هكذا انكرت عاد الرسالة ولم تذعن لآيات الله وعصت رسله واتبعت بدلاً من ذلك الجبابرة العتاة، فهي اذن رفضت هدفي الانبياء معاً وهما (عبادة الله واجتناب الطاغوت).

٦٠: فاستحقت اللعنة الدنيوية والهلاك والابعاد الحضاري كما استحقت اللعنة الاخروية والعذاب المقيم.

٦١: وبعد ذكر عاقبة عاد يأتي ذكر ثمود على نفس النسق (وهي من العرب العاربة) حيث يدعوها اخوها ونبيها صالح(ع) لعبادة الله ونفي الشرك ويعلّمها ان الله تعالى هو الذي اوجدها ورباها وفوض اليها عمارة الارض، وهذا اللطف الالهي العظيم يتطلب استغفاره والعودة اليه وطلب الهدى منه وهو تعالى القريب من عباده والمجيب لدعواتهم.

٦٢: وتكررت المواجهة الجاهلية المتخلفة هنا فثمود تعترف بوجاهة صالح ورجاحتهم فيه الا انها تستغرب النهي عن عبادة ما يعبد الآباء! وهو عندهم منكر يدعو للشك والارتياب.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٦٣: وهنا يتعامل معهم صالح بكل تودد، بعد أن يذكرهم بانهم قومه ثم يرجعهم الى وجدانهم ليحكموا من خلاله على موقفه السليم، فالحق امامه واضح والبينة قائمة على الحقيقة التي تؤكد وحدانية الله وبطلان ما يعبدون ، وها قد اختاره الله لتبليغ رسالته وشملته الرحمة فكيف يترك كل هذه الامور ويعصي الله ارضاءً لقومه؟ انه الخسران المبين.

٦٤: ويعرض صالح(ع) عليهم معجزته وه ناقة اخرجها الله من صخرة صماء وقيل لثمود ان هذه الناقة يجب ان تشرب ماء النبع في يوم ويشرب القوم في اليوم الآخر فاذا كان يومها شربت الماء وارتوى الناس من لبنها – على ماروي[1] – كما طلب النبي منهم ان يذروها لوحدها فإنها ستنطلق لترعى في الأرض دونما مساس بمزارعهم ـ والأرض أرض الله ـ ولا يمسوها بسوء لتكون معجزة مستمرة تشهد لصالح بالصدق . فاذا عصى القوم امر رسولهم اصابهم العذاب القريب.

٦٥: ولكن عتوهم وطغيانهم دفعهم للقضاء على هذه المعجزة وقتل الناقة رغم أنها كانت نافعةً لهم معنوياً ومادياً فابتلوا بالتهديد الالهي وانتظار العذاب القاطع بعد ثلاثة ايام.

٦٦: وحين حل الموعد وجاء الامر شملهم الخزي والعذاب ونجى الله صالحاً والمؤمنين معه برحمة منه، والله هو القوي العزيز.

٦٧: ويشير القرآن هنا الى عذاب الصيحة وفي موضع آخر يذكر الصاعقة والرجفة. وكانت النتيجة ان وقعوا على وجوههم موتى وتكررت عاقبة المكذبين.

٦٨: وهكذا تنطوي صفحة اخرى من صفحات الكفر والعناد وكأنها لم تكن وكأنهم لم يكونوا يتمتعون بالحياة والقوة والغنى . فقد قادهم طغيانهم وجهلهم الى الفناء ونالهم عذاب الابعاد والمحو من صفحة التاريخ فكانوا لا يستحقون الحياة الانسانية .

٦٩: وهنا يُذكر جانب من قصة ابراهيم (ع) وربما كمقدمة للوصول الى قصة لوط التي تكرر المشهد السابق نفسه. فيدخل رسل الله على ابراهيم وهو لا يعرفهم ويسلمون عليه فيجيب ويقدم لهم عجلاً (حنيذاً) مشوياً على الحجارة المحماة.

٧٠: الا أنه يجدهم لا يأكلون مما يبعث في نفسه الريبة والخوف منهم ومن مقاصدهم. الامر الذي دفعهم لتوضيح حقيقتهم ومهمتهم فهم رسل الله الى قوم لوط وينفذون مهمة الهية نعرف من السياق أنها لمعاقبتهم على سوء اعمالهم.

٧١: وكانت امراة ابراهيم وهي تشهد الحادثة قد دخلت في حالة من الطمث ـ على راي ـ او انها ابتهجت لرؤية الحادثة وسماعها بهلاك المنحرفين من قوم لوط ـ على رأي آخر ـ وحينها بشرتها الملائكة بانها ستلد ولداً اسمه اسحق وسوف يولد لاسحق يعقوب وهو (اسرائيل).

---

١ – البرهان، ج ٣، ص ١١٧.

قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا
لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا
إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾
قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا
يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا
مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٧٢: واهتزت امرأة ابراهيم للنبأ والبشرى بانها ستلد خصوصاً وهي عجوز، وزوجها شيخ، وليس من المعهود من مثلهما ان يحصلا على ولد.

٧٣: ولا عجب اذا تحقق امر الله القادر الحكيم . ثم أن بيت ابراهيم خصه الله بخصائص ونعم وهذه احداها، والله تعالى هو اهل الحمد والتمجيد، ومشيئة الله نافذة.

٧٤و٧٥: وهكذا انكشف حال الضيوف فهم رسل الله فلا خوف، وهم المبشرون له بولد وهو شيخ، ومهمتهم اهلاك قوم لوط لانهم ظلموا، ولكن ابراهيم الحليم الكثير التأوه من ضلال الناس، المنيب العائد الى ربه باستمرار، يعمل على صرف العذاب عن قوم لوط – عبر الحوار مع الملائكة – لعلهم يملكون فرصة اخرى للايمان والعودة الى الله.

٧٦: الا ان الملائكة يؤكدون له أنه امر الله القاطع بعذابهم، وانه لامجال لرد العذاب عنهم بعد ان سدّوا على انفسهم طبعاً باب العفو، بكفرهم وعتوهم وانحرافهم عن الفطرة.

٧٧: ويدخل رسل الله على لوط وهو لا يعرفهم، فيسوءه الامر، ويضيق عليه الحال وهو يعرف قومه الشاذين جنسياً عن الحالة الطبيعية الفطرية، وهؤلاء الضيوف – كما يبدو من السياق – اناس في غاية الجمال.

٧٨: ويدخل عليه قومه المنحرفون الملوثون بالسيئات ويرى فيهم رغبة العدوان والشذوذ فينهاهم عنه مقدماً لهم البديل الصالح (ككل مرب حكيم ينهى عن سلوك منحرف ويقدم البديل الافضل المحقق للغرض)، إنه الزواج ببناته او هو الزواج بالنساء من قومه – فهن بناته في الواقع – ويذكّرهم بالله ويدعوهم للخوف منه، كما يحركهم نحو الحمية الخلقية فهؤلاء ضيوف كبيرهم لوط والاعتداء عليهم خزي وعار وبالتالي يدفعهم نحو الرشد والتعقل متسائلاً عن وجود رجل رشيد فيهم.

٧٩: ولكنه العناد، والشهوة القاتلة التي لا تصغي للحق فيردون عليه بانهم لم يعتادوا السبيل الصحيح بل ساروا على المنهج الشاذ الذي يعرفه لوط منهم.

٨٠: وهنا يتمنى لوط ان يمتلك قوة مناسبة، او يسنده ركن شديد من عشيرة او عقلاء اقوياء ليدافع عن ضيوفه. وفي ذلك بيان لضرورة القوة للدفاع عن القيم والمجتمع وقد جاء في النص الوارد انه لو علم بمن معه من الملائكة لعلم انه منصور بركن شديد.

٨١: وكشف الرسل عن حقيقتهم وركنهم الشديد، وانبؤوه بان قومه عاجزون عن الوصول اليه فليسر باهله ليلاً تاركاً قومه دون أن يعيرهم اي اهتمام وأنه ستتخلف زوجته مع قومه لأنها انسجمت مع كفرهم فسيصيبها ما يصيبهم من عذاب في الصباح وهو موعد قريب.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

٨٢: وكما هي الحال مع المكذبين الضالين عن طريق الله والفطرة فقد حل امر الله ودمّر القوم وانقلبوا مادياً كما انقلبوا من قبل معنوياً وأمطروا بحجارة مغطاة بطين ومتراكمة عليهم.

٨٣: انها حجارة هادفة تصيب هدفها بدقة فلا يبعد منها الظالمون العتاة اينما كانوا وحيثما حلّوا.

(وقد جاءت نصوص التوراة بتصورات اخرى كما جاءت روايات تذكر تفاصيل نعرض عنها ونكتفي بما ذكرناه انسجاماً مع الظاهر القرآني الحق).

٨٤: مقطع تاريخي آخر يستعرضه القرآن للاعتبار وتربية الجماعة المسلمة، حيث يرسل النبي شعيب الى اهل مدين وهو منهم ويعلن كلمة التوحيد – كغيره من الانبياء – ويعطف عليها دعوته الى العدالة والامانة وعدم انقاص الكيل والميزان (ولعل تخصيصه بالذكر لشيوعه بينهم) . وهذا ربط رائع بين التصور عن الواقع الكوني المتوازن والسلوك الانساني العادل. خصوصاً وان مدين كانت تتمتع بالخيرات مما يلزمها ان تشكر الله المنعم، فلتستجب اذن لدعوة نبيها، ولتخف من عذاب الله المحيط بها اذا كفرت بأنعم الله.

٨٥: تأكيد للدعوة السابقة وتوضيح لها لعلهم ان يوفوا الكيل تحوطاً لحق الناس وكرماً وتحقيقاً للعدالة واحترازاً من انقاص حقوقهم وبخسهم اياها وابتعاداً عن الظلم الاجتماعي والافساد في الارض. وهذا المشهد يؤكد اهمية العدالة الاقتصادية وترابطها مع باقي المجالات.

٨٦: ان مايتبقى من التعامل الحسن العادل الذي يرضي الله به خير للمؤمنين العاملين بمقتضى ايمانهم الرابطين بين عبادتهم لله وسلوكهم المرضي من قبله تعالى وهو لا يأمر بشيء الا وفيه مصلحة للعباد منسجمة مع حكمته وعدالته تعالى. انه المنطق الذي يجب ان يقود سلوكهم والا فالنبي لا يملك سلطة يجبر قومه بها على الطاعة في هذا المجال. وتستمر بقية الله الخيرة في الامم الى ان تتحقق الوراثة الكاملة للارض ويعمها العدل والقسط.

٨٧: تهكم معاند من قوم شعيب، ترى هل ينطلق من تعليمات صلاته لله لينهاهم عن التقليد السفيه للآباء في عبادتهم للاصنام، والظلم الاجتماعي في عمليات تبادل الاموال . وكأنهم يرون ان العقيدة يجب ان لا تقود الحياة والا كان ذلك سفهاً يتنزه عنه شعيب وهو الحليم الرشيد!

٨٨: وبنفس خُلق الانبياء يتلطف شعيب بهم ويعلن لهم انه وصل الى الحقيقة ببينة من ربه، وان الله رزقه رزقاً حسناً وعلّمه تعاليمه الاصيلة، وأنه لن ينهاهم عن شيء ثم يقوم هو بفعله بل ان هدفه – كهدف كل الانبياء – هو الاصلاح قدر استطاعته. ان هذه الامور جميعاً تكشف عن الوعي الكامل لا السفه – كما يزعمون – فلينطلق شعيب في دعوته الواعية مستمداً التوفيق من الله ومتوكلاً عليه واليه – تعالى – ترجع الامور كلها وله الحكم اولاً واخيراً. وهكذا تجتمع عناصر القوة والتغيير من الايمان والوعي والبينة والاصرار والاستمرار والتوكل على الله وطلب التوفيق منه تعالى.

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا
تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

٨٩: وهنا يحذرهم نبيهم شعيب من أن تدفعهم معاداته الى حالة طغيان وعصيان لله وحينئذ سيبتلون بما ابتليت به الاقوام السابقة (قوم نوح او قوم صالح) وهاهم قوم لوط لا يبتعدون عنكم زماناً ومكاناً وقد رأيتم ما اصابهم نتيجة عصيانهم وكفرهم.

٩٠: وباب التوبة مفتوح امامهم فليطلبوا من الله الغفران وليعودوا إليه تائبين وهو الرب الرحيم الودود المحب لعباده ومن هذا المنطلق تأتي اوامره ونواهيه.

٩١: ولكن الضلال قد يلف القوم فينسلخوا عن منطقهم الانساني امام الحقيقة الواضحة ليأتي التذرع السخيف بانهم لا يفهمون كثيراً من اقواله ثم يأتي التهديد – وهو السبيل اللامنطقي الآخر – فشعيب ضعيف ولولا ما يملك من نفر قليل يدعمونه لقاموا برجمه لأنه لا يملك عزة وقوة تمنعهم من ذلك.

٩٢: فيرد عليهم موضحاً غفلتهم عن عظمة الله وعزته التي لا تقاس بعزة الناس وقوتهم فيجب ان يخشوا غضبه وقد نسوا تعاليمه وخلفوها وراءهم ، والله تعالى هو المحيط بالخلق والعليم بما يصنعون.

٩٣: ثم يأتي التحدي النبوي الواعي في قبال عنادهم الاعمى ليعلن لهم انه مستمر في دعوته وليستمروا هم في عتوهم وتقوية انفسهم والمستقبل كفيل بتوضيح الموقف ومعرفة من سيناله العذاب، ومن هم الكاذبون.

٩٤: وكما كانت سُنة الله في المكذبين حل امر الله وانجى الله شعيباً والمؤمنين في حين شملت قومه الظالمين الصيحة الالهية فاذاهم في ديارهم على وجوههم منكفئون ميتون.

٩٥: وكأنهم لم يقيموا فيها ولم يعمّروها ولم يتمتعوا بقوى كبرى، لقد لفظتهم المسيرة الانسانية وأُبعدوا عن الحياة كما ابعد الظالمون من قبل. وعلى من بعدهم ان يبتعدوا عما وقع فيه اولئك من انحراف وفساد.

٩٦: وبنفس السياق يشار باختصار هنا الى قصة موسى(ع) فلقد حمل رسالات الله مصحوباً بآيات الله وحججه الواضحة وعونه البين .

٩٧: الا أنه ووجه – ايضاً – بعناد فرعون واتباعه من الاشراف وكبار القوم(الملأ) (ولعل عدم الاشارة لباقي افراد الشعب تكشف عن انهم كانوا مسحوقين لا يملكون من امرهم شيئاً) وقد ابتلي هذا الملأ بالتبعية العمياء لفرعون رغم انه كان مستبداً سخيفاً في امره وغير رشيد.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

٩٨: وهذه التبعية العمياء سوف تتجلى في مشهد آخر يوم القيامة حيث يقود فرعون – وهو رمز الطغيان في التصور القرآني – يقود قومه الى النار ليوردهم – كما يورد القطيع – النار، وبئس هذا الورد الذي يشعل الحشا بعد ان كان المفروض ان يطفئ الضمأ.

٩٩: وهكذا تبعتهم اللعنة التاريخية كما تبعت كل المكذبين بالرسالات والمفرطين بنعمة العقل والمنطق الرصين، وفوق ذلك عذاب خالد في الآخرة وهو بئس الرفد (المعين) المرفود لأنه بدل ان يعينهم يلقيهم في العذاب الاليم.

١٠٠: وفي ختام السورة تستخلص العبر من جديد؛ فلقد اوضح هذا السرد التاريخي الموجز الكثير من العبر عن اقوام بقي بعضها اوبقيت آثارهم في حين حصد الزمن الآخرين.

١٠١: فقد فرّطوا بعطاء الله في النفوس حيث الفطرة والعقل وفي الحياة حيث الخير والنعم، فصرفوا عقولهم عن معرفة الله وهو الكمال المطلق واكتشاف الحقيقة في العالم كله عبر هذه المعرفة الأمر الذي لا يكشف عنه الايمان بالآلهة المزعومة والمدعاة من دون الله بل اغرقتهم هذه الالهة في العمى – لانها مطلقات وهمية وكاذبة كبلت مسيرتهم الصاعدة بطبعها نحو الكمال – فابتلوا بالضياع والهلاك والتتبيب كما انها لم تستطع ان تمنع عنهم غضب الله ونقمته.

١٠٢: تلك هي سنة الله في التاريخ : فليس للظلم الاعاقبة الهلاك والعقاب الالهي الشديد . فليعتبر الظالمون عبر التاريخ.

١٠٣: ان العذاب الدنيوي نموذج حسي لعذاب الآخرة ذلك اليوم الرهيب حيث تؤول اليه المسيرة البشرية فيجتمع الناس ويشهد الجميع الحقيقة عياناً آنذاك ولكن قلوب المؤمنين بالآخرة تؤمن به وتخاف عذابه فتقيم حياتها الدنيا ايضاً على هدى الله وتتجنب معصيته وبهذا يتم الربط الجميل بين العقيدة والحياة.

١٠٤: وتأخير يوم القيامة يقوم على اساس تخطيط الهي حكيم يعطي الحياة الانسانية معناها الكبير ويحقق الحكمة من خلق الانسان.

١٠٥: انه اليوم الذي تتجلى فيه للعيان مالكية الله فلا تتكلم اي نفس الا باذنه تعالى ورغم ان الإذن التكويني ضروري في كل آن ولكن الاذن آنذاك محسوس بنفسه. وفي ذلك اليوم تتميز الصفوف: صفوف الشقاء والسعادة نتيجة ماعملوه في الدنيا بملء ارادتهم .

١٠٦و١٠٧و١٠٨: والنار الملتهبة بزفيرها وشهيقها عاقبة الاشقياء يخلدون في عذابها اما السعداء فمصيرهم الجنة يخلدون في نعيمها غير المنقطع (المجذوذ) مادامت السماوات والارض وهي دائمة وان كانت تتبدل فالظاهر انه خلود دائم الا ان يشاء الله.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

١٠٩: فلاشك – اذن – في فساد حياة الشرك التي تعيشها الجاهلية المقلدة لآبائها في عهد الرسول (ص) ولاريب في انها ستؤول الى الضياع وتلك سنة الله كما راينا . ولاشك ان الرسول(ص) لم يكن يساوره أدنى شك ولكن الخطاب من خلاله لبعض المسلمين.

١١٠: ويعود القرآن ليذكر بحالة مَرَضية قد تتعرض لها الجماعة المؤمنة آنذاك وهي الاختلاف في كتاب الله نتيجة اختلاف الاهواء والتفسير بالراي فهي حالة تعرض لها قوم موسى من قبل وقد أقتضت السنن الالهية السماح باستمرار الاختلاف عسى أن يعودوا الى مرجعهم وهو كتاب الله، وان كان قوم موسى يشكون فيه لأن سند التوراة لم يعد متواتراً بل قد لا يملك مايثبت صحته.

١١١: تأكيد على ان الله سيعطي جزاء الجميع ان خيراً فخير او شراً فشر ولا يهمل احدا .

١١٢: انها العبرة التي يجب ان يستفيدها المؤمنون من كل حوادث التاريخ وتقلباته واهواله وهي ثبات المؤمن ورسوخه على خط الحق والتوحيد والفطرة وربما كانت الاستقامة على الخط أصعب من مجرد التواجد عليه الامر الذي يوحي به قول النبي(ص): «شيبتني هود»[1] ولعل ذلك لأنه أمر والمؤمنون معه بالاستقامة، وعدم الانحراف والاستكبار عن الخضوع لله مراعين دائماً حقيقة أنهم دائماً في محضر من الله تعالى.

١١٣: بعد الأمر الايجابي بالاستقامة – على الخط يأتي هذا النهي الصارم عن الاستناد الى الظالمين بدلاً من الله تعالى مما يعني الاشتراك معهم في عقيدتهم أو مسيرتهم المؤدية الى عدم الفلاح في الدنيا، ونار الاخرة، لفقدان النصير الحقيقي وهو الله.

١١٤: وهذا المسير الشاق يتطلب الشحن الروحي الذي تقوم به الصلاة اروع قيام، ان صلوات الليل والنهار هي التي تؤمن باستمرار طاقة الثبات على الحق، كما ان الوعد الالهي بالآثار الرائعة للحسنات حيث تعمل على محو السيئات يقوي عنصر الامل في المؤمن بالفلاح والغفران فيمضي ثابتاً على الخط اللاحب .

١١٥: وهذه شحنة الهية اخرى تدفع المؤمنين لتربية الارادة الواعية وهي: الصبر والصمود الى جانب الامل بالله فهو لا يضيع اجر المحسنين.

١١٦: عودة الى حال الامم السابقة حيث نشهد أكثرية ظالمة مترفة مجرمة تسير نحو الهلاك وأقلية صابرة تنهى عن الفساد وقد ينجي الله الامم لوجود هؤلاء فيها.

١١٧: فان اتجاه الامم نحو الاصلاح ينجيها من الهلاك الحضاري لا محالة.

---

١ – الخصال، ج ١، ص ١٩٩.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

١١٨: هكذا شاء الله أن يكون الإنسان مختاراً فانقسمت الصفوف عبر التاريخ الى خطين احدهما خط الحق والآخر خط الباطل، ولم يشأ ان يجبر الناس على خط واحد، وواضح ان الارادة الانسانية الحرة هيالتي تسير به نحو الكمالات دون ان يشكل ذلك نقصاً في ارادة الله المطلقة .

١١٩: هكذا يفكر المسلم تماماً، فالخلق والهداية تمّا انطلاقاً من رحمة الله، وانفتح امام الانس والجان طريقا الخير والشر، وجاء التحذير من سلوك طريق الشر وأنه سيؤدي الى جهنم التي تنتظر اتباعها المنحرفين الفارين من رحمة الله الواسعة. وقد تكون في الايتين اشارة الى ان الاختلاف في الرأي امر طبيعي اقتضته سنة الله في خلقه ما لم يؤد الى الهلاك والبوار.

١٢٠: ان هذا العرض التاريخي لانباء الرسل يستهدف تقوية قلب الرسول وارادته في مواجهة المحن والتكذيب، فهو يوضح المسيرة الحقة يتعظ بها القائد ويتذكر المؤمنون ولينطلقوا بعزيمة صلبة وأمل واعد في طريقهم الشاق.

١٢١: كما ان فيه تحذيراً لغير المؤمنين وتثبيطاً لعزائمهم وليعمل الصفان والعاقبة للاصلح وللمتقين .

١٢٢: ان الامل يشع في قلوب المؤمنين لأن الله الحكيم القادر وليّهم، وسنن التاريخ معهم فالانتظار يدفعهم للعمل، اما الكافرون فلن ينتظروا الا الدمار.

١٢٣: ذلك ان الله خالق الكون لايغفل عن شيء وله العلم الكامل وبيده القدرة والامر كله فليعبده المؤمنون متوكلين عليه منطلقين على بصيرة لتحقيق رضاه وهو يعلم بكل شيء فلا يجوز التساهل في عبادته والتوكل عليه.

سورة يوسف

ويمكن ان نلخص هدفها بانها تعرض صورة جميلة حساً ومعنىً لرعاية الله لعبيده، فهم يصنعون على عينه، وهو يتولى الصالحين المحسنين وينقذهم مهما كانت الصعاب وتعددت انواع المعاناة.

١ـ لعل المراد كما قلناه أن هذا الكتاب مركب من الحروف المعهودة ولكنه معجزة الرسالة وبينة النبوة.

٢ـ لقد حمل القرآن تعاليم الله بكل سموها، وجاء بلسان عربي واضح، مستهدفاً بناء الحياة العقلية إذ أن الوحي يربي الملكات العقلية كما يفتح آفاق المعرفة امام المتدبرين.

٣ـ وعبر هذا الوحي يطلع النبي وبعده المؤمنون على احسن السير الانسانية وهو امر لم يكونوا على اطلاع عليه. فقصة يوسف نموذج رائع للقصص الهادف .

٤ـ فيرسف الصبي الأثير لدى ابيه يعقوب يرى في المنام احد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين جميعاً له فيقص رؤياه على ابيه.. فهي اذن بشرى الهية سوف تبقى حيةً في ضمير الغلام تقوده نحو الغد الأمثل.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

٥- ويقرأ الاب ماوراء هذه الرؤيا الصادقة من معاني رفيعة ومقام سام ينتظر ولده وانه محفوف بعناية الله ولما كان يعرف ايضاً نفسية اخوة يوسف فانه يطلب منه ان لا يحدثهم عن هذه الرؤيا لئلا يحتالوا عليه ويؤذوه من خلال مايوسوس به الشيطان وهو العدو الواضح للانسان.

٦- ويعد الاب ولده – من خلال نفسه النبوية وعلمه ببركات الله علي آل ابراهيم ومعرفته بسمو نفس يوسف – يعده ان يحظى بعناية واختصاص من الله، وعلم يستطيع معه ان يعرف حقيقة احاديث النفس والاحلام والعلاقات القائمة بينها، ونعمة تامة مستمرة على هذا البيت الذي يشرف بالنبوة وحمل الرسالة الى الآخرين.

٧- بعد ان بدأ القرآن القصة بذكر البشرى التي اشار اليها حلم يوسف يتحدث هنا عن الآيات الالهية والعبر التي تجلت من خلال احداث القصة لاولئك الذين يسألون ويحاولون معرفة هذه الحقائق.

٨- فقد صدق ما توقعه النبي يعقوب اذ تصور اخوة يوسف – وكانوا عشرة من ام واحدة – أنه واخاه من امه استأثرا بقلب ابيهم وعاطفته، وثار الحسد في نفوسهم، وغرتهم قوتهم وتضامنهم وراحو يتهمون اباهم باتباع عواطفه والخطأ في التقييم اذ أحب ولدين صغيرين ضعيفين أكثر منهم وهم الأقوياء النافعون.

٩- وسوّل لهم الشيطان العمل على حذف يوسف من الساحة بقتله او تغييبه ليبأس الاب العطوف ويتركز أمله وحبه في اولاده الاقوياء وحينئذ يصلحون وتصلح امورهم ويتداركون بالتوبة جريمتهم النكراء هذه بحكم الشرع والضمير الانساني.

١٠- وربما صحا ضمير احدهم فاقترح استبعاد فرض القتل، واقترح القاءه في اعماق احد الآبار التي يستقي منها المارة ليعثروا عليه ويبعدوه معهم فيتحقق هدفهم، وربما شككهم في عزمهم على القيام بجريمتهم بقوله «ان كنتم فاعلين».

١١- وبدأ تنفيذ الخطة – الغادرة، فوجهوا استفهاماً استنكارياً لأبيهم مستنكرين منعه يوسف من الذهاب مع أخوته هؤلاء، مما يكشف عن عدم اطمئنانه بقدرتهم على حمايته او تشكيكه في عطفهم عليه مع انهم لاخيهم ناصحون مشفقون!!

١٢- وبعد الاستعطاف والاستنكار قدّموا مقترحهم بارساله معهم لكي يشبع حاجته من السياحة واللعب – وهو صبي – وقدموا التأكيدات المتتالية بصيانته من كل اذى.

١٣- فاعلن لهم يعقوب سر توجسه وأنه يحزن لو ذهبوا به لخوفه من ان يكون طعمة للذئب في لحظة غفلة منهم.

١٤- واستمر التحايل واستعراض القوة والتأكيد والقسم بانهم سيحفظونه بكل ما يستطيعون والا فسيعدون انفسهم خاسرين مع انهم أقوياء لا يخسرون.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

١٥- ويقدم هؤلاء على ارتكاب الجريمة النكراء (وهي تغييب اخ صبي بريء في غاية الصفاء، وفجع اب عطوف عظيم الشأن به) ولكن عناية الله تصنع هذا الطفل وترعاه وهي تؤكد له انه تحت ظلها وانه سوف ينجو ويواجههم بحقيقتهم ولؤم مايرتكبونه بعد أن اعماهم الحسد والطمع.

١٦- وعادوا الى ابيهم في الليل ليبرروا جريمتهم من خلال تفس ما تخوف منه ابوهم ولكن تسبق التبرير حالة كاذبة من البكاء والعويل.

١٧- انه تحايل قاتل على الاب فهم يجيبونه بنفس ما احتمله من قبل. لقد شغلهم السباق تاركين متاعهم عند يوسف ليغتنم الذئب هذه الفرصة ويلتهم يوسف -هكذا وبكل بساطة- قالوها مشككين في تصديق أبيهم لهم.

١٨- وقدموا لابيهم قميص يوسف ملطخاً على سطحه بدم كاذب ليؤكدوا صحة مدعاهم، ولكن الاب الحصيف العارف بمسار الامور يرد عليهم بانهم دبّروا مكيدة وان روايتهم لا قيمة لها عنده الا أنه سيصبر ويتجمل ويلجأ الى الله ويستعين به على أي حال.

١٩- وتمر قافلة على البئر فترسل من يجلب لها الماء فيدلي دلوه وعندما رأى الدلو وقد تعلق به غلام، بشر القافلة بذلك ففرحت بذلك واخفته لئلا ينتزع منها ناوية جعله بضاعة رابحة. كل هذا يجري وعين الله تراقب الحال وترصده.

٢٠- وباعت القافلة الصبي ببعض دراهم وبقيمة زهيدة. وكأن القرآن يلمّح هنا الى جهل الانسان بالقيم والحقائق فلايتعامل معها بما تستحقه.

٢١- اشتري يوسف من قبل رجل مصري فقدمه الى امرأته طالباً منها حسن التعامل معه ولعله توسم فيه النبل فتوقع ان ينفع العائلة واذا تأكدت لها قابليته فقد تتخذه ولدا لها. ومرة اخرى يذكر القرآن بالعناية الالهية التي فتحت ليوسف سبيل التمكين في الارض ودربته على التحقق من حقيقة الامور والحوادث. ذلك أن الله هو الغالب على كل شيء وارادته هي النافذة وان كان اكثر الناس في جهل من ذلك.

٢٢- وهكذا ربت يد العناية يوسف حتى بلغ سن الشباب وهو يتمتع بصفات متميزة فله القدرة على الحكم النافذ وله العلم الجيد بالامور كل ذلك نتيجة اللطف الالهي الشامل للمحسنين.

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠)

٢٣- ويبدأ فصل آخر من حياة يوسف(ع) اذ تقع امرأة العزيز - وهو وزير ملك مصر - في غرامه فتراوده عن نفسه ورغم الاغراءات الكثيرة: من حالة الشباب والحيوية لديه، وحالة الاغراء لدى امرأة العزيز التي هيأت له الاجواء، وحالة الخلوة حيث الابواب مغلّقة، الا أن الايمان القوي والمحبة الالهية والاحساس المتواصل باللطف الالهي، وقبح المخالفة دفعه للوقفة الصامدة واللجوء الى الله.

٢٤- لقد كان الموقف صعباً فالمرأة تهم وتقترب وتغريه بالمعصية، الا أن العناية الالهية المستمرة تريه من الحقيقة برهاناً يمنعه عن ان يقع فريسةً للموقف السيئ فيجره ذلك للفحشاء والمنكر. وهكذا تشمله الرحمة فتبعده عن الاقتراب من المعصية (السوء) وكذلك بالتالي تبعد عنه الفحشاء (الزنا) ذلك لانه كان عبداً مخلصاً لله.

٢٥- وراح يوسف وامرأة العزيز يستبقان ايهما يصل الى الباب، هو للخلاص وهي لا غلاقه. وتعلقت بقميصه فقدته طولاً من خلفه، الا انهما واجها العزيز لدى الباب، وهنا تنقلب المرأة المغرمة الى متهمة ليوسف بانه أرادها سوءاً، ثم هي تطرح موضوع السجن او العذاب الاليم جزاءً لذلك الاتهام.

٢٦و٢٧- وردّ يوسف هذه التهمة موضحاً ان التحرش تم من قبلها، واكد شاهد من اهل المرأة (وتؤكد بعض الروايات انه كان صبياً في المهد انطقه الله) [1] ان القد الذي تم لثوب يوسف ان كان من الامام فهو دليل على صدق التهمة وكذب يوسف، وان كان من الخلف دل على ان المرأة جذبته من الخلف فشقته فهي اذن كاذبة في دعواها في حين صدق يوسف.

٢٨- وحين راى العزيز دليل كذب المرأة برأ يوسف والقى باللائمة عليها مؤكداً ان كيد مثل هذه النسوة عظيم لما يملكن من عناصر التأثير الجنسي على الرجال.

٢٩- انها خطيئة ارتكبتها المرأة بمراودتها لهذا الشاب الذي صار جزءاً من البيت فاستعصم منها، ثم باتهامه بهذا العمل الشنيع فعليها ان تستغفر لذنبها وعلى يوسف ان لا يأبه لهذا العمل ويعرض عنه.

٣٠- وتناقلت نسوة في المدينة حادثة الحب الحرام هذه من سيدة لها مقامها الاجتماعي لفتى يعيش معها في البيت لتعود ولهى به ويحيط الحب بقلبها وهو امر يعد حق في تصور المجتمع الجاهلي من الضلال الواضح.

١ - تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٧٤.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

٣١- ولكن المرأة الماكرة بعد ان سمعت بهذا اللغط والفضيحة تحاول ان تبرر وتعمم المشكلة فتدعو هذه النسوة الى وليمة وتعدُّ لهنَّ نمرقة ناعمة ليتكئن عليها وتقدم لهن السكاكين لتقطيع الفاكهة، وحين تنشغل النسوة بالأكل تطلب من يوسف ان يخرج عليهنَّ فلما ابصرنه اصبن بالدهشة لفرط جماله فرحن يجرحن ايديهن بدل تقطيع الفاكهة، كما رحن يؤكدن انه ليس بشراً بل هو ملك كريم لما لاحظن فيه من جمال صورة وروعة سلوك.

٣٢- وهنا تبرر امراة العزيز سلوكها الذي لمنها عليه وتعترف بانها هي التي راودته فامتنع مؤكدةً ان عليه ان يستجيب للاغراء والا واجه عقوبة السجن والاذلال بالتاكيد.

٣٣- ويشعر يوسف بحراجة الموقف اذ تحولت الفتنة الى حالة مجموعية تطلب منه ان يعصي الله فليس له وهو المغرم بالله الا ان يلجأ اليه تعالى كي يمنَّ عليه بخيار السجن ان كان ولابد منه ويعطيه قوة المقاومة وبدون ذلك فانه سيقع في المعصية وينزع الى الحرام ويدخل في عمل الجاهلين.

٣٤- وكانت الاستجابة الالهية التي انجته من التلوث بصفات هذا المجتمع الجاهلي المتميع، وابقته نقي الثوب يصنع على عين الله وسمعه.

٣٥- ورغم تأكيد الشواهد على براءة يوسف الا ان الحاكمين قرروا ان يسجنوه لبعض الوقت ربما ليتخلصوا من هذه الفتنة.

٣٦- وفي السجن يقوم يوسف بواجبه التبليغي التربوي، ودخل معه السجن عبدان من عبيد الملك فراحا يحكيان له مارأياه في المنام: اذ رأى احدهما انه كان يشتغل بعصر الخمر في حين راى الآخر نفسه يحمل فوق راسه خبزاً تاكل الطيور منه، وطلبا منه ان يفسر لهما هذين الحلمين باعتبارهما تفرسا فيه العلم والاحسان والنفس الطاهرة العارفة بخفايا الامور.

٣٧- وقبل ان يجيبهما ويفسر حلمهما زرع الثقة به في نفسيهما عبر ابدائه شيئاً من العلم الذي منحه الله اياه، فهو يستطيع ان يخبرهما بنوع الطعام الذي سيأتيهما، واثره عليهما مؤكداً انه علم اعطاه الله له بعد ان نأى بنفسه عن مجتمع الشرك والالحاد وانكار الآخرة، وارتبط بالله الواحد العليم الحكيم.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

٣٨- وهنا يكشف لهما نفسه وانه سليل النبوة الموحدة التي يشملها الله بعنايته وهي عناية خاصة بهذا البيت الطاهر، وعامة للناس الذي خلقهم بلطفه ليتكاملوا وارسل لهم التشريعات ليصلوا الى هدف الخلقة الا ان الناس قد لا يدركون ذلك او تطغى عليهم شهواتهم فيكفرون بانعم الله ولا يشكرونها ويعرضون انفسهم للهلاك.

٣٩- ويدخلمع صاحبيه أثناء السجن في حوار فطري جميل، اذ لا يمكن ان تقاس حياة الشرك باربابها المتفرقة المتشاكسة الى حياة التوحيد حيث يقودها الاله الحقيقي الواحد القاهر لاعداه بحكمة ولطف وانسجام.

٤٠- وحقيقة الامر ان الانسان قد يصوغ من اوهامه اسماءً او يقوم بتحويل بعض النسبيات المؤثرة في ظروف خاصة الى مطلقات وهمية، وهي في الواقع لا تملك حولاً ولا قوةً ولم تستمد ذلك من الله القوي القهار صاحب الحكم والسلطان الحقيقي الذي لم يشأ لعباده الا أن يعبدوه ويلتزموا بشرائعه المحيية والقيّمة على الحياة الانسانية والسائرة بها نحو كمالها الا أن اكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق الكبرى.

٤١- بعد ان قام بدوره النبوي التبليغي راح يخبرهما بتأويل حلميهما حيث سيقوم احدهما بوظيفة ساقي الخمر لسيده في حين سيصلب الآخر وتأكل من راسه الطير وان ذلك من امورالقضاء المقطوع به.

٤٢- وهنا طلب من الشخص الذي سينجو أن يذكره عند الملك لعله يأمر باخراجه من السجن – وكان من المفروض أن يكون لبعض الوقت – ولكن الشيطان أنساه ذلك فبقي يوسف اقل من عشر سنين سجيناً.

٤٣- تتحدث الآية عن الرؤيا الملكية الشهيرة وملخصها: انه كان قد رأى في منامه سبع بقرات سمينة تهاجمها وتأكلها سبع بقرات هزيلة وسبع سنابل خضر والى جانبها سنابل يابسات. فطلب من الملأ حوله ان يفسروا هذه الرؤيا ان كانوا يملكون هذه القدرة.

قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين (٤٤) وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون (٤٥) يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون (٤٦) قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون (٤٧) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون (٤٨) ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (٤٩) وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم (٥٠) قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين (٥١) ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين (٥٢)

٤٤- ليجيب الملأ بانها مجرد اخلاط من الاحلام والصور الوهمية وانهم لا يملكون ما يفسرها.

٤٥- وهنا تذكّر صاحب يوسف في السجن ماجرى هناك بعد ان مضت مدة على نسيانه، وانبرى قائلاً: انا اخبركم بتفسير الحلم فارسلوني الى يوسف في سجنه.

٤٦- ويطوي السياق القصة ليواجه يوسف بالسؤال عن الرؤيا الملكية السابقة ويطلب منه تفسيرها — بعد ان وصفه بالصديق لما عرف منه سابقاً — لان الناس ينتظرون ذلك.

٤٧و٤٨و٤٩: وهنا بدا يوسف مرشداً مخططاً لتلافي الازمة التي تكشف عنها الرؤيا فهو لا يخبرهم بالمضمون بل يعطيهم ارشاداته لتلافي الموقف ومنها يعرفون الحقيقة . فعليهم ان يزرعوا سبع سنين متواليات ويتركوا الحصاد في سنابله حفاظاً عليه من الفساد لأنه ستتلوها سبع من سني الجدب والمجاعة يستهلك فيها ما ادخروه الا قليلا يحتاطون به، ويتلو ذلك عام مليء بنصر الله والغيث والمطر والمحصول القابل للعصر والاستفادة .

٥٠- ويأمر الملك — بعد هذا الراي السديد من يوسف — باخراجه وجلبه اليه، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة يوسف: انها مرحلة العز. فقد جاءه رسول العزيز طالباً اليه المثول عند الملك ولكن يوسف الصابر يأبى ذلك الا أن تحل مشكلة النسوة حتى يدخل الحياة الاجتماعية دون ان تشوب سابقته اية تهمة طبعاً مع تأكيده انهنّ صاحبات الكيد وان الله تعالى يعلم ذلك.

٥١و٥٢: وعندما يوجه الملك السؤال لهن يؤكدن — بنوع من اللجوء الى الله — انه بعيد عن السوء، وتعلن امرأة العزيز بصراحة انها هي المذنبة وانه من الصادقين وتضيف مؤكدة: انها لم تخنه في الغيب وربما لتعلن ايمانها بالله وانه لا يهدي كيد الخائنين.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣)﴾

٥٣- وتتابع امرأة العزيز اعترافها ورجوعها الى الحق قائلة انها لا تبرئ نفسها والنفس امارة بالسوء فلا ينجو منها الا من رحم الله وغفر له وهو الغفور الرحيم.

٥٤- وحينئ يصدر الملك أمره بالإتيان بيوسف ليجعله مقرباً ومن خاصته فلما جاءه يوسف وكلمه اكد الملك انه عاد لديه مكيناً متمكناً امينا.

٥٥- وهنا يطلب يوسف ان ينصبه مسؤولاً على الخزائن ويسلمه عصب الحياة الاقتصادية لانه يحمل اهلية ذلك المكونة من: التخصص (العلم والقدرة الادارية) والالتزام (الامانة اللازمة) ولا مانع من هذا الطلب بل هو من الراجح ان يتقدم المؤهلون لحمل المسؤولية بعد ان كانوا يهدفون للخدمة لا لشغل المناصب ارضاءً للاهواء.

٥٦- وهكذا عين يوسف مسؤولاً جديراً متمكناً من الامور، يتخذ منها المكان المطلوب بكل حرية واختيار . وتلك هي الرحمة الالهية التي تفعل ماتشاء، وتتحقق السنة الالهية المؤكدة دائماً (لا اضاعة لأجر المحسنين).

٥٧- وبعد اجر الدنيا يأتي اجر الآخرة وهو الافضل المراد للمؤمنين المتقين.

٥٨و٥٩ – ولما كانت دائرة القحط واسعة فقد شملت ارض كنعان ايضاً وهي البعيدة مما دفع اخوة يوسف للبحث عن الطعام في مصر ولم يكن معهم اخوه من أمه وكان يعقوب يمنعه من السفر معهم . فدخلوا عليه فعرفهم وهم لا يعرفونه ولم يحتملوا فيه ذلك مطلقا. ويبدو انه اكرمهم وسألهم عن حالهم، وعندما جهزهم بمتاعهم طلب منهم ان يأتوه باخ لهم من ابيهم مؤكداً انه يوفي الكيل ويكرم الوافدين ليضمن عودتهم باخيهم هذا.

٦٠- واضاف مهدداً بانهم ان لم يجلبوه معهم فلن يلقوا لديه الاحترام والوفادة بل ليس لهم ان يدخلوا ارضه ويقربوا منه ولا كيل لهم عنده.

٦١- وشعر الاخوة بصعوبة المهمة ولكنهم اكدوا ليوسف دون ان يعرفوه انهم سيحاولون ذلك بكل جد.

٦٢- وطلب يوسف من رجاله ان يدسوا ماجاؤوا به من بضاعة ثمناً للطعام الذي اشتروه في رحالهم بدلاً من الطعام نفسه لعلهم يعرفونها ويدركون ان عليهم العودة من جديد ومعهم اخوهم لكي يحصلوا على الكيل.

٦٣- وعندما عادوا الى ابيهم اخبروه بمنعهم من الكيل الا ان ياخذوا معهم اخاهم متعهدين بحفظه.

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

٦٤- فردّ يعقوب(ع) عليهم مشككا في نواياهم ومذكراً بموقفهم السابق من اخيه يوسف ومؤكداً انه انما يعوّل على الله فهو خير الحافظين وارحم الراحمين.

٦٥- وهكذا وجدوا انفسهم وهم لم يغنموا شيئاً فها هي بضاعتهم اعيدت اليهم ولا طعام لديهم فعادوا متوسلين الى ابيهم مؤكدين انهم لا ينوون بغياً وانما يريدون تزويد اهلهم بالطعام وسوف يحفظون اخاهم ويزداد طعامهم كيل بعير وهو امر ميسور لديهم اذا صحبوا اخاهم. وقيل ان يوسف زودهم بالطعام وارجع اليهم بضاعتهم اكراماً لهم وتشويقاً ليجلبوا أخاهم والا منع منهم الكيل بعد هذه الرحلة وان تعبير (مانبغي) يراد به اننا لا نقصد سوءاً وانما نريد الخير.

٦٦- ويستجيب الاب على مضض شريطة ان يعطوه عهداً وثيقاً يشهدون الله عليه بانهم سيعودون به اليه الا ان تنسد كل السبل امامهم فقدّموا العهد له فاكد لهم ان الله هو الوكيل على ذلك.

٦٧- ثم ان الاب وخوفاً من ان يحسدوا - باعتبار ماهم فيه من العدد الكثير وحسن الهيئة والجمال - أمرهم ان يدخلوا من ابواب متعددة الا انه وفي كل مرة يلجأ فيها الى ترتيباته واحتياطاته يعلن ان الامر كله بيد الله لاراد لحكمه فيجب التوكل عليه والاطمئنان اليه بعد القيام بكل الاجراءات اللازمة.

٦٨- ونفّذ الأبناء وصية الاب وحققوا حاجة في نفس يعقوب الا انّ قضاء الله وقدره هو الغالب وربما كانت الارادة الالهية قد حولت المسير لتحقيق اللقاء المرتقب ، ولقد كان يعقوب حصيفاً مزوداً بتعليم الهي ولكن اكثر الناس بعيدون عن هذه المستويات العلمية.

٦٩- و يدخلون على يوسف، وكان اول السرور أن ضم يوسف اخاه اليه واخبره بالحقيقة طالباً اليه عدم التألم لذكريات الماضي المؤلم. وطمأنه للترتيبات التي سيتخذها فيما بعد.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

٧٠- وحين تجهز القوم أمر بدس كأس الملك الثمينة في الرحل المخصص لأخيه ومن بعد ليعلن مناد لهم: ايتها العير (القافلة) انكم لسارقون.

٧١- وبعد تعجب شديد يتساءل اخوة يوسف بشيء من الاقبال وربما الثقة بعدم وجود ما يستدعي التهمة: ماذا تفقدون؟

٧٢- فقيل لهم: انه صواع (كأس) الملك، وان من يأتي به له حمل بعير ويوسف ضامن لذلك.

٧٣- وطبيعي أن يقسم اخوة يوسف بالله انهم ماجاءوا ليفسدوا في الارض ويسرقوا شيئاً.

٧٤- فيسألهم فتيان يوسف: فما جزاء هذا العمل ان اكتشفت السرقة .

٧٥- قال الاخوة ان عرف السارق فيجب أن يؤخذ هو رهينةً لذلك. وتلك كانت شريعة يعقوب.

٧٦- ولكي تنطلي العملية عليهم ولا يكتشفوا الامر بدأ يفتش أوعيتهم ثم فتش وعاء أخيه ليكتشف وجود الصواع فيه. كل ذلك كان بامر الله وقد استخدمت وسيلة تسمح بها السنن الجارية لكي يضم يوسف اخاه اليه. وكانت سنة الملك (دينه) تقضي بان يجازى السارق بما ارتضاه لنفسه قبل كشف السرقة .

ومرة اخرى يفوز يوسف في العملية بما ملكه من حكمة وعلم والله تعالى يرفع درجات من يشاء وان علمه فوق العلوم .

٧٧- وتتحرك الاحقاد الدفينة على الأخوين (يوسف واخيه) وهما من ام غير امهم فيدفع اخوته من ابيه التهمة عنهم باتهام هذا الفرع بان السرقة عادة فيه متهمين يوسف بالسرقة من قبل فاسر يوسف ذلك في نفسه ولكنه جبههم بعبارة (انتم شر مكانا) مشيراً بشكل عام الى ما اشتملت عليه نفوسهم من حقد وحسد وتعصب، وتاريخهم من خيانة وجفاء.

٧٨- وعندما تذكروا ماجرى بينهم وبين ابيهم راحوا يسترحمون العزيز يوسف بذكر ابيهم الشيخ الكبير ويقترحون استبداله باحدهم، محركين حس الاحسان فيه.

> قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٧٩- وهنا يستعيذ يوسف بالله ان ياخذ الا من وجد الصواع في رحله والا كان ذلك ظلماً.

٨٠- وحين يئسوا من فعل اي شيء راحوا يتدارسون الموقف فذكّرهم اكبرهم سناً بالميثاق الغليظ الذي اخذه ابوهم منهم خصوصاً بعد ما اقترفوه من جريمة بحق يوسف، ثم اعلن لهم انه سيبقى هنا حتى يأذن له ابوه او يقدّر الله له شيئاً وهو خير الحاكمين.

٨١- ثم يطلب اليهم ان يعودوا فيخبروا اباهم بما شهدوه من سرقة ابنه وانهم لا يعلمون الحقيقة ولا الغيب ولم يكونوا يعلمون ذلك عندما تعهدوا بارجاعه.

٨٢- واستشهدوا باهل القرية الذين رافقوكم وبالقافلة التي حملتكم واكدوا على كونكم لا تقولون الا الصدق.

٨٣- وحين اخبر يعقوب ثار به الحزن وردد ماقاله من قبل حين الخبر بمصير يوسف، وربط الواقعة الحالية بالماضية ولكن الموقف لن يعدو الصبر الجميل واللجوء الى الله العليم الحكيم، فقد تقتضي ارادته ان يعيد اليه اولاده الثلاثة. ويشفي صدره المجروح.

٨٤- ويشيح يعقوب بوجهه عنهم، ويرجع الى حبيبه يوسف متذكراً آسفا في حين فقدت عيناه بصرهما من حزن مكتون مكظوم في النفس.

٨٥- ويرد الابناء كلمة قد تكون عن حقد وقد تكون عن ترحم على الاب الشيخ: مستنكرين هذا الترداد المستمر لاسم يوسف والذي قد يؤدي الى الإشراف على الموت او الموت بالفعل.

٨٦- ليرد الاب أنه انما يلتجئ الى الله ويبث إليه لانه يعلم اموراً لا يعلمونها هم فهو لا ييأس من روحه ولا يقنط.

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

٨٧- وهنا يطلب من بنيه العودة الى مصر للمرة الثالثة للبحث عن يوسف واخيه وان لا يدعوا لليأس مجالاً لان المؤمن الموصول القلب بالله لا ييأس من رحمته وروحه الطيب المعطاء. واليأس من رحمة الله التي وسعت كل شيء دليل على الكفر بـه وانكاره.

٨٨- ويرحلليدخلوا على العزيز يوسف مسترحمين طالبين منه ان يلاحظ ماهم فيه من ضرر وما جاؤوا بـه من بضاعة رديئة لكنهم يحملون في قلوبهم رجاءً كبيراً لما لمسوه في العزيز من احسان وسماحة فهم اذن يطلبون كيلاً وافياً وصدقةً عليهم لعلها تعني اطلاق سراح اخيهم. داعين له بحسن الجزاء من الله لتصدقه عليهم.

٨٩- ومن هنا يتغير الموقف وتأتي فترة الصراحة ليسألهم عن مافعلوه بيوسف واخيه نتيجة جهلهم.

٩٠- ويبدو أن سوابق الحالة، ووصية الاب ونبرات الاخ دفعتهم لهذا التساؤل بل التأكد من أنه يوسف ، ليجيبهم بالايجاب وتحدث المفاجأة ويتحقق الوعد الالهي للمتقين الصابرين المحسنين. بعدم تضييع اجورهم.

٩١- فليس امام الاخوة الا الاقرار بالذنب بعد الاقرار بلطف الله بحق يوسف اذ فضله عليهم نتيجه تقواه وصبره.

٩٢- الا ان خطأ الاخوة يقابله صفح كريم وطلب المغفرة لهم من الله وهو ارحم الراحمين. وتلاحظ العودة الى الله في مختلف المواقف.

٩٣- ويتشوق يوسف الى الاب الحبيب الواله فيطلب من اخوته الذهاب بقميصه اليه والقاءه على وجهه ليعود بصيراً باذن الله في سابقة فريدة تظهر التأثير والتأثر بين عالمي المادة والروح، وهذا التأثير يفسر تأثير التبرك وأثره بإذن الله كما يطلب ان يعودوا اليه باهلهم اجمعين.

٩٤- وبينما كانت القافلة تغادر مصر قال الاب المشوق اني لاحس ريح يوسف الا أن تعتبروني خاطئا .

٩٥- ليرد من حوله متعجبين وربما متبرمين من هذا التكرار: انك لفي ضلالك القديم.

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٩٦- وتحصل المفاجأة اذ يأتي البشير مبشراً بيوسف، ويلقي ثوبه على وجه يعقوب ليعود بصيراً ويعلنها يعقوب مرة اخرى أمام أبنائه الذين كانوا عنده انه يعلم من الله ما لا يعلمون.

٩٧- ويطلب ابناؤه اليه ان يستغفر لهم نتيجه خطاياهم التي اتضحت للجميع .

٩٨- فيعدهم بانه سوف يستغفر لهم الله ولعل في هذا التعبير شيئاً من التألم.

٩٩- وتحرك الاب الواله على راس قافلة الأهل ليدخلوا على يوسف وتتحقق انباء الغيب في جو من اللطف الالهي العميم والعواطف المتدفقة والحنان المتزايد ليؤوي اليه ابويه بعد ان تحرك لاستقباله ثم طلب من الجميع دخول مصر آمنين ان شاء الله.

١٠٠- ورفع يوسف ابويه على كرسي الملك وخر الجميع الى الارض ساجدين بعد ان غشيهم النور الالهي الساطع على جبين النبوة، والسجود لله تعالى لأنه لا يكون إلا له وحده، وان كانت قبلتهم جهة يوسف، أو أن يقال أنهم سجدوا له بأمر الله ولا مانع من ذلك. واعلن يوسف الحالة تاويلاً لرؤياه التي ابتدأت بها السورة بعد ان جعلها الله رؤيا حقيقية تعبر عن لطف الله به باخراجه من السجن والاتيان بهم من ارض البداوة والخلاص من عداوة الاخوة الذين تأثروا بإلقاءات الشيطان وهكذا ياتي التذكير المتواصل بالله ولطفه ومشيئته وعلمه وحكمته.

١٠١- ويواصل حديثه داعياً ربه مثنياً على احسانه به اذ اكرمه بالملك وعلّمه من تأويل الاحاديث وتفسيرها، متصاعداً في ثنائه على الله متحدثاً عن كونه تعالى مبدع الكون فله الولاية العامة على الجميع ومنهم يوسف وفي كل الازمان دنياً وآخرة فليمنحه الله الاستقامة على الخط ويتوفه مسلماً ويلحقه بالصالحين.

١٠٢- ويبدأ من هنا التذكير ببعض دروس القصة ويأتي التذكير بكون القصة من انباء الغيب التي وصلت الى الرسول الاكرم (ص) والا فهو لم يكن حاضراً حين عزموا على تنفيذ خطتهم الماكرة.

١٠٣- وهي حقيقة يرددها القرآن فما على النبي الا البلاغ ولا داعي للتحسر على عدم استجابة الناس.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

١٠٤- انها خصلة الانبياء والصالحين والمهم لديهم تذكير العالمين. ومن دون أجر ومنفعة مادية يطلبونها. وهكذا هو الرسول(ص) وهكذا هو القرآن الكريم.

١٠٥- والانسان معرض للغفلة دائماً والا فالآيات كثيرة في السماوات والارض والمهم ان تستجلي لا أن يمر عليها الانسان ناسياً نفسه ووعيه معرضاً متكبراً. وهذا القرآن بمضامينه العليا يجب ان يهديهم ولكنهم يبقون معرضين.

١٠٦- والايمان كما الشرك من حالات القلوب وهما لا يلتقيان اذا كان حقيقيين اما اذا تنزلا عن ذلك فقد يختلطان في بعض مراتبهما حيث يتم الايمان ولكن بشكل باهت يجتمع مع الشرك الخفي عقيدةً او عملاً ومن هنا يلام هؤلاء ويدعى المؤمنون لتنقية ايمانهم من شوائب الشرك وهو ما لاحظناه في حالة اخوة يوسف وكانوا مؤمنين ولكن لا بالشكل المطلوب.

١٠٧- ولكن الانحراف عن خط الله له عواقبه فينبغي ان لا يأمنها المنحرفون فقد تعرض عليهم عارضة من العذاب او يأتيهم يوم الحساب دون ان يشعروا .

١٠٨- أن الخط والهدف والدلائل واضحة والدعوة بينة لا لبس فيها، والرسول واتباعه على بصيرة تامة في دعوتهم إلى الله، فهم يتحركون مسبحين لله وموحدين بعيدين عن مسيرة الشرك بشتى صوره.

١٠٩- وان رسالة النبي(ص) تسبقها رسالات لرجال أوحي اليهم من شتى بقاع الارض فليتأمل المتأملون مسيرتهم المنتصرة في النهاية والعاقبة للتقوى دائماً. فأين المتفكرون؟

١١٠- وقد تتشابك المصائب في حياة الرسول الى حد الاستيئاس من التأثير وانتشار ظاهرة التكذيب ولكن يأتي النصر الالهي في هذه اللحظات فينجي الله من يشاء ويشمل المجرمين بقوته وعذابه.

١١١- هكذا هي قصص الانبياء: عبر لأولي العقول المتأملة. انها الحقيقة التي تؤكد وحدة المسيرة التي يصدق ويؤيد بعضها بعضاً، والتي تفتح الافاق أمام البشرية لتجد فيها الحلول لكل مشاكلها والهدى الالهي والرحمة الواسعة في ظل الايمان بالحقيقة القرآنية الكبرى.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (١) الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٢) وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣) وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٤) وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٥)

سورة الرعد

تحدثنا من قبل عن جزئية البسملة للسورة.

١- سورة الرعد حافلة بالحيوية والتنوع والتقابل الا انها تصب في هدف واحد هو الايمان بالله الحق والكتاب الحق والرسول الحق وان كان اكثر الناس لا يعلمون وقد لخصت هذه الآية كل هذه الحقائق.

٢- آيات متتابعة متقابلة: سماوات ترفع ولكن من دون اعمدة مرئية، وكون يدار من العرش وهو مركزه الذي تتجلى فيه القدرة الالهية، وشمس وقمر مسخران لحقيقة واحدة وان كان كل منهما يمتلك مسيرة ولمدة معينة. انه التدبير الالهي العظيم، وانها الآيات المفصلة الواضحة لعلها تهدي الانسان للايمان باللقاء الالهي الكبير عبر ملاحظة هذا التخطيط الكوني العظيم الذي يستحيل ان يتم صدفة اولا تكون له غاية.

٣- وينتقل المشهد الرائع الى الارض: الممدودة امام الانسان، والتي تنظم حركتها الرواسي الشامخات من الجبال، وتروي بقاعها الانهار الجاريات فتمرع جنباتها بالثمار المتنوعة المتمتعة بالزوجية العامة والمتقلبة بين الليل والنهار يغشى احدهما الآخر في نسق رائع يهب الحياة قيمتها وحاجتها والمسيرة تنوعها والنظام تناسقه لوتامل المفكرون الواعون.

٤- مظاهر تنوع أخرى. قطع متجاورات من الارض منها الخصيب ومنها المجدب ومنها الناعم والصلد، ومنها جنات عامرة بالفواكه والزرع والنخيل ومنها ماله عود واحد ومنها ماله عودان(صنوان) يغذيها ماء واحد ولكنها تتفاوت في الطعم والاكل. انها آيات تبهر العقول تنسيقاً وتحقيقاً للاهداف الحياتية. ان التفسير الوحيد المعقول هو وجود القدرة المبدعة الحكيمة التي مهدت للحياة الانسانية كل هذه الظواهر، والا فيجب افتراض تجمع مالا يحصى من الصدف وهو مستحيل. وفي الآيات حقائق كونية كشف العلماء عن بعضها.

٥- والعجب العجاب منطقهم الاعوج : كيف يتحولون اذا صاروا تراباً الى خلق جديد وتقوم الحياة الآخرة، ناسين خلقهم من تراب أول مرة كافرين بعظمته وقدرته، غارقين في هواهم وجهلهم ممهدين لحياة الذل والأغلال والخلود في الجحيم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٦- يتمادى هؤلاء في التحدي والضلال حينما يستعجلون الرسول مايحذرهم منه، بدل ان يسيروا بشكل طبيعي نحو الحسنات، وينسون ماجرى من قبل من عقوبات قاصمة لأمثالهم. ان عليهم العودة الى الله والاستغفار فانه تعالى ذو مغفرة للناس لكنه شديد العقاب للمعاندين.

٧- وهكذا يمتلئ الكون بالآيات ويأبى الكافرون الا ان تنزل آية مع الرسول والايات لا تنزل الا باذن الله ولكي يتحقق غرض التصديق وما هؤلاء مصدقون بعد ان كانوا لا يفكرون بكل ما يحيط بهم، فما على الرسول الا الانذار وهداية كل البشرية، التي لن تخلو مطلقاً من امام هاد مؤيد من عندالله يقودهم نحو الحق.

٨- جانب آخر من عظمة الله ذلك هو خلق الانسان، وعلم الله بحركة هذا الخلق، يتتبعه ويحيطه بلطفه اينما كان، واستقراره في رحم اي انثى في هذا الكون الفسيح، يعلم تقلباتها حينما تقل (تغيض) دماؤها التي تغذيها او تزداد، فتلفظها خارج الرحم، وكل مسيرة الحياة لها قدرها الدقيق المتوازن.

٩- نعم انه عالم الغيب والشهود، الجميع عنده حضور وهو فوقها بعظمته وتعاليه يرقبها ويمنحها لطفه باستمرار والا اصابها الفناء.

١٠- لا يغيب عنه سر القول ولا جهره، ولا الاستخفاء بالليل ولا السير بالنهار، إن هذا التنوع واقع تحت علمه وبصره.

١١- وسواء اكانت هناك معقبات وموانع أمامه أو خلفه تحفظه من الحوادث التي تقع بأمر الله، فإن القدرة الالهية هي المتحكمة في الكون ولكنها أرادت أن تجري الأمور بأسبابها ومنها مسألة التغيير الاجتماعي، اذ كانت سنة الله ان لا يتم الا اذا أعمل الانسان او المجتمع ارادته التغييرية بنفسه، اما اذا لم يحققوا ما يؤهلهم للخير فإنّ العاقبة السيئة تنتظرهم لا مردّ لها ولا يمنع منها مانع.

١٢و١٣- آيات الهية اخرى: البرق، والسحاب الثقال المطرة، والرعد المسبح بحمد الله - وتسبيح كل شيء بحركته في دائرته المرسومة - والملائكة المتحركة بأمره لتحريك الكون، والصواعق التي تصيب من يشاء الله، كلها مظاهر العظمة التي تجمع بين الخوف والرجاء والحياة والموت لتنتظم الحياة الانسانية عبر هذا التنوع الهائل الهادف فكيف يجادل احد في هذه الحقيقة شديدة الوضوح فهي تقهر ماعداها.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

١٤- إن الاتجاه لله بالدعاء هو الحق، لأنه هو السميع القادر على الإجابة أما الاتجاه الى غيره بالدعوة فهو الباطل الذي لا يصل الى شيء بل هو كرجل ظمآن يمد يده الى الماء صارخاً به ليصل اليه ولكنه لا ولن يصل ، انها صرخةٌ في واد وسير في التيه.

١٥- ان الكون العاقل في سجود وامتثال طواعية وبالاختيار، وكرهاً واجباراً من خلال سيطرة القوانين الكونية والارادة الالهية، وحتى الظلال فهي في سجود عند الصباح حيث امتداد النور وبعد انكساره عند الاصيل، ويخرج هؤلاء الضالون عن كل المسيرة.

١٦- ان العقل والفطرة وكل الظواهر المتناسقة تشهد لله العظيم بالربوبية، ويبقى الاغبياء والخارجون على الفطرة وموجودات الظلام خارج السرب، فهم لا يملكون من دونه من ينفعهم او يضرهم، فلماذا هذا اللجاج وعدم التفريق بين العمى والبصر وبين النور والظلمات، وهل لهم ان يثبتوا لله شركاء لهم مخلوقات كمخلوقات الله فهي توقع الباحث في الشبهة؟ كلا ان الحقيقة الواضحة، والانسجام الكامل بين الظواهر تؤكد وحدة الخالق وقهره لكل من عداه بل هو الوجود الحق وحده.

ويلاحظ التقابل الرائع هنا ايضاً بين الطوع والكره والنفع والضر، والشخوص والظلال، والغدو والاصال، والاعمى والبصير، والظلمات والنور، والخالق القاهر والشركاء العاجزين.

١٧- مظاهر اخرى للتدبير الواحد: نزول الماء من السماء، وسيلان الاودية كل بقدرها، والسيل يحمل الزبد الرابي الطافي ويستر الماء الزلال تحته، وتحرك الفلزات والمواد الارضية التي تصاغ منها ادوات الحياة أو حلي الانسان، تحركها ايضاً سائلةً يعلوها زبد زائد قد يحجب المعدن الاصيل وهكذا هو مثل الحق والباطل، فقد يطفو الباطل ويرهب الناظر، ولكنه يبقى جفاءً لا نفع فيه، اما الحق فهو الماء الزلال والمعدن الكامن النافع الباقي في الارض. وكذلك دعوات الحق الثابتة النافعة ودعوات الضلال التي تذهب جفاء .

١٨- والذين يتجهون الى الله ويستجيبون لدعوته وينسجمون مع الكون هم الفائزون بالعاقبة الحسنى، وهي أقصى مايريده الانسان، اما الخارجون عن السرب الموحد فمهما حصلوا عليه من مكاسب حتى لو كانت ضعف ما في الأرض فإنهم يقدمونها فداءً لخلاصهم ولات حين مناص، بالاضافة الى اهوال الحساب التي تسوؤهم ثم مأواهم النار وبئس المستقر.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

١٩- انَّ اللبيب الواعي والاعمى المتخبط ليسا سواءً: فالعالم بحقيقة ما انزل الى الرسول بالخصوص يمتلك لباً حصيفاً يدفعه للتأمل والتذكر باستمرار وتلك خصيصة اولي الالباب.

٢٠- وهؤلاء اذ يدركون الحق يملأ الحق وجودهم فيمنحون الله ولاءهم وعهدهم بعبادته وحده واجتناب الطاغوت وسوف يثبتون على ميثاقهم هذا بقوة.

٢١- فيندفعون الى حيث امرهم الله ومنه وصل الارحام وطاعة الامام، تملأهم الخشية من الله ومن سوء الحساب فهم ملتزمون بالشريعة بدقة متناهية.

٢٢- والصبر بكل اقسامه لوجه الله يشد من عزائمهم، والصلوة القائمة تربطهم بالله، والانفاق من رزق الله في السر والعلن ديدنهم، والدفع بالتي هي أحسن، والعمل على مواجهة السيئات بالحسنات خلقهم، وحينئذ فهم اهل لتلك العاقبة الحسنى .

٢٣، ٢٤: وهي الجنات الخالدة حيث يصحبهم فيها الصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وتدخل عليهم وتحفهم ملائكة الرحمة من كل باب من ابواب الحياة، وتحييهم بتحية الاسلام والسلام الخالد والعاقبة الحميدة دون أية شائبة وكل ذلك جزاء لصبرهم وثباتهم.

٢٥- أما الذين عموا عن هذا الخط اللاحب، ونقضوا عهد الله المأخوذ بالفطرة ميثاقاً غليظاً يدركه العقل وتتفاعل معه النفس، فمسيرتهم تخالف امر الله، وانما هي قطع الاواصر الصالحة ، والإفساد في الارض فحقيق أن تحل عليهم اللعنة وان يعيشوا سوء الحياة.

٢٦- انهم لا يدركون أن اللجوء الى الله يحقق لهم العيش الدنيوي السليم؛ لانه تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (يضيق) ولكنهم جعلوا همهم الحياة الدنيا يفرحون بلذاتها الزائلة، وماهي كلها إلا مجرد متاع عابر يذهب جفاء والحياة الآخرة هي الحيوان الدائم في ظل الله العظيم.

٢٧- عود الى مقولة اولئك المطالبة بآية من الله وهم ينكرون كل آيات الكون الباهرة. ناسين ان الهدى انما يهبه الله لمن أهّلوا انفسهم للهداية، اما المعاندون فلا تنفعهم الآيات مهما كثرت. ثم ان هذا القرآن هو اعظم آية لو كانوا يهتدون.

٢٨- إنَّ الايمان يمر بمرحلة التعقل والتأمل، وبعد اليقين ينتقل الى كل الوجود الانساني بعواطفه واحاسيسه؛ ليغمرها بالطمأنينة المعنوية وحلاوة الذكر الإلهي، وليعود القلب مطمئناً به متفاعلاً معه؛ لانه يحقق له أعظم أمانيه وهو الاتصال بالمطلق الحقيقي والبعد عن كل المطلقات الموهومة.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

٢٩- إن الحياة لن تكون سعيدة الا اذا كان القلب سعيداً والقلب لا يسعد ولا يطمئن الا اذا ذاق حلاوة الايمان بالله تعالى ، واذا تحقق الايمان نظم السلوك بنظام العمل الصالح، فطوبى لهؤلاء في حياتهم وقرة عين في عيش هنيء يرجعون اليه.

٣٠- ان ارسال الانبياء يتم وفق لطف الله ورحمته وهكذا ارسال الرسول الى هذه الامة، وقد سبقتها امم في ذلك، فهي جزء من المسيرة والتاريخ البشري عليها ان تراجعه وتطالعه بعمق ووعي. وان الرسول يتلو عليها القرآن الكريم رحمة بها في حين يقابل البعض رحمة الرحمان بالكفر والعصيان ويماطلون ويتذرعون بطلب الايات ولكنه يؤمر بتكرار كلمة التوحيد وتمسكه بها وتوكله على ربه الرحمن وايمانه بعودته اليه.

٣١- انهم ينتظرون قرآناً تسيّر به الجبال وتقطّع به الارض او تكلّم به الموتى حتى يؤمنوا ولكن القرآن جاء يكلم الاحياء ويربي النفوس لتقود الحضارة وتغير التاريخ وهو امر اعظم مما طلبوه، وحتى لو تم للقرآن ماطلبوه ما كانوا ليهتدوا الا ان يشاء الله لان الامر كله بيده تعالى وهو لا يهدي هؤلاء المعاندين. ولما كان المؤمنون يرغبون في اهتداء هؤلاء فان القرآن يؤكد لهم انهم لن يهتدوا فلييأسوا منهم وليعلموا ان لو شاء الله هدى الناس جميعاً ولكن الهداية المطلوبة يجب ان تتم بشروطها الارادية.

وسوف يبقى هؤلاء المعاندون معرّضين للكوارث (قارعة) حتى يأتي وعد الله المحتم.

٣٢- ان الاستهزاء بالرسل تم من قبل وفسح للامم المستهزئة ان تتمادى في عملها ولكن العقاب الالهي ادركها على ماكسبت فلماذا لايعتبر هؤلاء.

٣٣- ان كل النفوس حاضرة لديه تعالى وهو محيط بها ويفيض عليها وعلى ماكسبت الوجود وبدون ذلك فهي لاشيء، هذا ما يقتضيه العقل والوجدان الا أن هؤلاء التائهين تصوروا له شركاء وامر النبي ان يطلب منهم ان يعرّفوهم ويصفوهم وهم عاجزون عن ذلك با ثباتاته وادلته. ثم انهم يبدون وكأنهم يكشفون شيئاً لا يعلمه الله!! وهو تعالى القائم على كل نفس بما كسبت ولعلهم يحاولون تزويق القول عن الشركاء دونما برهان.

فهم اذن مدانون على كل حال، والحقيقة الناصعة انهم ليسوا اهل المنطق وانما زُيّن لهم مكرُهم وصُدّوا عن سبيل الله ، ومن يضلله الله فلا هادي له.

٣٤- انهم ارتضوا العذاب الدنيوي بابتعادهم عن هدي الله تعالى ولهم عذاب اخروي أكثر مشقة منه وليس لهم من عذا ب الله مانع وحماية.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

٣٥- اما المتقون فقد وعدوا بالجنة وهي العاقبة الحسنى التي تحقق كل الامل الانساني وهو الخلود في التعيم حيث الأُكُل (النعيم) الدائم والظل المستمر وفي قبالها النار الحارقة وهي عقبى الكافرين.

٣٦- وهنا يتعرض القرآن لبعض من اهل الكتاب - في صدر الدعوة انصافاً منهم او استفتاحاً على المشركين - حيث كانوا يفرحون بظهور هذه الدعوة الجديدة، ومن احزابهم من ينكر بعض ما أنزل الى النبي(ص). وقد امر ان يعلنها صريحة واضحة: انه يدعو للتوحيد بكلا معنييه الذاتي والعبادي وان مآب وعودة البشرية اليه لا غير.

٣٧- وهاهوالقرآن باحكامه الواضحة يفصل ابعاد العقيدة والشريعة بلغة عربية دقيقة. ولكي يسدّ على المشركين باب اقتراحاتهم السخيفة يعلن القرآن ان الرسول لو اتبع اهواءهم وطلب غير هذا القرآن فانه سيبتلى بغضب لا دافع له من الله.

٣٨- واذا كانوا يعترضون على بشرية الرسول فان الرسل من قبله كانوا بشراً لهم ازواجهم وذريتهم ولا يملكون ان يأتوا باي آية مقترحة الا ان يشاء الله لحكمة يراها فكل شيء له حسابه، ولكل وقت كتاب.

٣٩- فلكل مرحلة اقتضاءاتها ولكل زمان احكام مكتوبة تخصه حسب علم الله وارادته فيغير كتاباً بكتاب، واحكاماً باحكام او يثبت الاحكام السابقة ولكن اصل الشريعة وام الكتاب امر ثابت باعتبار انه يعالج حالة ثابتة في مسيرة الانسان وكل الهدف هدايته نحو كماله المنشود وتشمل الآية القضاء الالهي الثابت والمتغير.

٤٠- وعلى ماسبق فقد تتحقق بعض الوعود وقد يتوفى الرسول قبل تحقيقها فان ذلك تابع لارادة الله الحكيم، والمهم ان يؤدي الرسول ما كلف به دون اتباع اهواء الآخرين ويبقى الحساب والنتائج حسب الارادة الالهية فلا عجلة ولا يأس وانما هو العمل بالتكليف.

٤١- ان ارادة الله هي النافذة فقد تحدد قوة امة وتنقص من ثرائها انه حكم الله ولا مردّ له ولا معوق وهو الذي يحاسب الجميع.

٤٢- فينبغي أن لا تغر هؤلاء قوتهم ومكرهم فقد سبقهم الذين من قبلهم ولكن الكون بيد الله والمكر الحقيقي(التخطيط النافذ) كله له، وهو المحيط العالم بالامور وهذه حقيقة ستبدو واضحة للكافرين.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٤٣- رد على من كذبوا رسالة الرسول(ص) بان الله تعالى يشهد بذلك اذ أنزل هذا القرآن المعجزة وشهد فيه برسالته، وكفى بالله شهيداً بالاضافة الى شهادة من عندهم علم الكتب المنزلة من ذي قبل.

سورة ابراهيم

البسملة جزء من السورة، وتحمل معاني جمة.

١- لقد أنزل هذا الكتاب الى الرسول ليهدي الناس به الى نور المعرفة الحقيقية بالكون والحياة والانسان ومن ثم ليبين لهم باذن الله افضل السبل للسعادة والعزة.

٢- واول حقائق هذه المعرفة هي التوحيد وان الكون بمافيه ملك لله فينبغي التصرف فيه طبقاً لاحكامه، اما الكافرون بهذه الحقيقة فلهم الضياع والويل والعذاب الشديد .

٣- انهم يستحبون مافي هذه الحياة ويفضلونها على الآخرة بما فيها من قيم انسانية رفيعة بل ويقفون حجر عثرة امام تحكيم شريعة الله وتقدم سبيله المستقيم، ويصرون على الانحراف، انهم اذن في ضلال وتيه.

٤- وتلك طبيعة الدعوة الواضحة ليفهمها النـاس الـذين يجـب ان يحملوهـا ثم ليبلغوهـا ايـضاً بوضـوح ولينفذوها على بصيرة. وهكذا ينفتح أمام الناس طريقا الصلاح والفساد فمن حقق في نفسه قابلية الوصول الى الحق شملته العناية الربانية وإلا أركسه الله في الضلال، وكلا الامرين يتمان بارادته وحكمته - سبحانه - فهـو العزيز وهو الحكيم.

٥- وهكذا كان الامر مع رسالة موسى اذ الهدف نفس الهـدف وهـو اخـراج قومـه مـن ظلمـات الجاهلية والضياع الى نور المعارف الالهية والحياة الانـسانية المتعاليـة حيـث ذكـرى ايـام الله وهـي الايـام الخاصـة الـتي حملت ذكريات الارتباط بالوجود الالهي المقدس لتبقى هذه الذكرى شاخـصة في ضـمير الامة العارفـة توضـح لهـا المعـالم وترسـم لهـا الـشعائر وتـبين لهـا آيـات الـصبر والثبـات علـى الخـط رغـم المحـن، وتعلمهـا اسـاليب شكر النعم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)

٦- وقد أنعم الله على بني اسرائيل نعماً كثيرة ومنها نعمة النجاة من ظلم آل فرعون حيث العذاب المر المتتابع، وحيث ما يسمى بالتطهير العرقي والابادة الجماعية والتجاوز على الاعراض . ولقد كان ذلك ايضاً بلاءً وامتحاناً عظيماً وتربية على التحمل الواعي للمصائب وفاءً للهدف .

٧- انها سنّة تاريخية – باذن الله – فالشكر يعني القيام بحق النعم ويعني استغلالها بافضل وجه. ولكل شيء زكاة[1] – كما ورد في الحديث – وبالتالي فهو يؤدي بطبيعة الحال الى التنمية والتزكية. اما كفر النعمة فيعني الاستغلال الاعمى لها او التفريط والافراط وبالتالي ضياعها وعدم القيام بما يجب تجاهها والقبول بالعذاب الالهي.

٨- فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه[2] هكذا يقول علي(ع) مستمداً هذا المعنى من كتاب الله المجيد، لان الله غني حميد، وانما الامر كله لصالح المخلوقين فلامنّة على الله بل الله يمن علينا بالهدى، ونحن الخاسرون اذا كفرنا بأنعم الله.

٩- وهذه هي الحقيقة الممتدة مع الزمان والمكان: فهناك خط الهادين من الانبياء وهناك خط المكذبين من عتاة الامم المختلفة المعلنين بالتكذيب بتصرفات واشارات – دونما حشمة ولا ادب – والمشككين في حقيقة واضحة.

١٠- ان الايمان بالحقيقة الكبرى ينطلق بشكل فطري بعدان يلاحظ الانسان هذا التناسق العجيب في هذا الكون الرائع بشكل لايدع مجالاً للالحاد والشرك – هذه هي الحقيقة التي يذكر بها الأنبياء ويتعجبون من انكار الناس لها لشدة وضوحها.

ثم ان الله لم يدع الناس ليكرّس ذاته او لينتفع هو – سبحانه – وانما دعاهم بلطفه ليغفر لهم ويطهرهم من اوضار الجاهلية وانجاسها ثم يمهلهم ويواتر اليهم الرسل ويرسل لهم الآيات البينات ليعيشوا في ظلالها افضل انواع الحياة، ويؤخر مؤاخذتهم إن عصوا الى اجل معين كيما يرعووا ويعودوا الى رشدهم وصلاحهم محبة ولطفا بالعباد.

ولكن الانبياء دائماً يواجهون بالعناد والجهل وأنهم انما يريدون تغيير العادات والعبادات الموروثة وهذا مالايتم الايمان به الا بالاتيان بالخوارق التي ترغمهم على التصديق.

---

١ - الكافي، ج ٤، ص ٦٢.
٢ - نهج البلاغة الخطبة ٩٣.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

١١- ولم ينكر الرسل بشريتهم بل كانوا يؤكدونها دائماً لئلاً تحوّلهم الأوهام من طرق الى الله الى موانع وشركاء كما جرى لبعض الانبياء كعيسى(ع)، والفرق بينهم وبين غيرهم انهم امتلكوا استعدادات انسانية عالية فمنّ الله عليهم من بين العباد بالنبوة . ومن هنا فليس لهم بذواتهم قدرات خارقة الا ان يأذن الله فهو القادر المطلق وعليه يتكل المتوكلون وبه يقوم الكون ويستمر الوجود.

١٢- هذا هو مقتضى العقل والفطرة فما الداعي لعدم اللجوء الى الله وهو القدرة المطلقة بل علينا الصبر الواعي على اذاكم مؤكدين مرة اخرى على عنصر التوكل الواعي لتأثيره الكبير فعلى الله يتوكل المتوكلون واليه يلجأ اللاجئون وبه يتم الاطمئنان.

١٣- ويأتي هنا دور التهديد بالطرد والنفي بعد دور التكذيب ولكن الله على الدوام يثبت رسله ويهدد المكذبين الظالمين بالهلاك .

١٤- ويبشر رسله بانه سيمكّن خطه المؤمن من الارض . فالارض انما خلقت للانسان الانسان، والكافرون يفقدون معالم الانسانية لانهم لا يستجيبون لنداء العقل والوجدان. نعم ان الارض للانسان المعظّم لله والخائف منه ومن وعيده وفي هذا الخوف اقصى معاني الرجاء.

١٥- وراح كلا الطرفين (الطغاة والانبياء) يدعون لتحقيق الفتح، والعاقبة لخط الايمان والخيبة لخط الجبروت والعناد لانه لايستند الى منطق ودليل.

١٦- وتقف من وراء الطغاة جهنم وكانها تنتظرهم لتبلعهم وترهقهم عطشاً ليسقوا من ماء صديد سائل وسخ من الجسوم.

١٧- يسقونه بعنف ويبتلعونه بكره ولايكادون يستسيغونه لقذارته وتنصب عليهم اسباب الموت من كل جانب ولكنهم لا يموتون بل يتواصل عليهم العذاب الشديد. وكل هذه الصور المروّعة تُعرض عسى أن تردعهم عن طريق الغي والانحراف.

١٨- انهم يتصورون لهم قوة وجمعاً وجبروتاً ولكن مثلهم مثل الرماد اذ تهب عليه الريح الشديدة في يوم عاصف فتذروه في الفضاء هباءً فلا يتمالك نفسه او شكله، وهكذا هؤلاء اذ لا تقوم قوتهم واعمالهم على قاعدة ايمانية صلبة يستطيعون بها ان يتمالكوا أنفسهم وهكذا يعمهون في ضلال بعيد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

١٩- نقلة رائعة الى هذا الكون الفسيح، القائم بالحق والمخلوق بالحق على اساس من لطف الله والمنطلق باسم الله والمشير بالتالي الى الله وقدرته المطلقة التي ان شاءت أعدمت هذا الخلق وجاءت بخلق جديد.

٢٠- انه امر هين امام القدرة الالهية المطلقة.

٢١- وينقل القرآن احد مشاهد القيامة: حيث يبرز الخلق جميعاً امام الله العظيم، ويقول ضعاف العقول والشخصية المستضعفون في الدنيا للمستكبرين العتاة ومعهم الشيطان قائد العصاة، لقد كنّا لكم تابعين فهل يمكنكم ان تغنوا عنا اليوم من عذاب الله بعد ان تنازلنا لكم عن ذواتنا وحرياتنا وعصينا الله لاجلكم؟

ويأتي الجواب الطبيعي القاتل: لو هدانا الله لهديناكم، انه المصير الاسود الذي لا ينفع معه جزع او صبر ولا مفر منه في هذا اليوم الرهيب. وفي هذا المشهد ما فيه من تحريك لهؤلاء الضعفاء لئلا يطمعوا في نصرة المستكبرين لهم ولا يديموا هذه التبعية العمياء، ودفع للمستكبرين لاعادة النظر في موقفهم العنيد.

٢٢- وهنا تأتي الحسرة الكبرى حين يعلن الغوي الأول عدم مسؤوليته الكاملة عن هذا المصير الاسود، وانما يعود اللوم عليهم اذ لاحظوا أن الله وعدهم وشهدت الفطرة بأحقية الوعد الالهي ولكنهم اتبعوا وعد الشيطان الغوي الخائن بوعوده. ثم ان الشيطان كان يسوّل ويسوّغ دون ان يملك اي سلطان على هؤلاء المجرمين فاختاروا طريقه واتبعوا الهوى واستجابوا لمغرياته فليس لهم الا ان يلوموا انفسهم باختيارهم بكل حرية هذا الضلال والضياع وهاهو الشيطان اليوم لا يستطيع الاستجابة لصرختهم وانقاذهم كما لا يستطيعون الاستجابة لصرخته وانقاذه.

وهاهو يتبرأ من شركهم ويعلن إن الظالمين لهم عذاب أليم.

٢٣- تلك كانت نهاية خط الضلال الكئيبة وهاهي النهاية السعيدة لخط الايمان والتقوى والعمل الصالح، جنات تجري من تحتها الانهار يظللهم الإذن الالهي والسلام والامان الى الابد.

٢٤- هذه سنّة الهية اخرى تجري في التاريخ باذن الله: فالكلمة الطيبة لن تذهب هباءً انها كشجرة طيبة عميقة الجذور ضاربة في العمق، مرتفعة في السماء تنشر ظلها الوافر على الارض فينعم منه الآخرون وإن الكلمة الطيبة -كلمة الحق- تبقى تنشر عبقها في التاريخ بكل ثبات وقوة وتهزّ قلاع الضلال وتشد من عزيمة المؤمنين وتزرع النور في القلوب.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۝ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝﴾

٢٥- والشجرة الطيبة دائمة العطاء بإذن ربها ومثلها الكلمة الطيبة يمشي عطاؤها عبر الاجيال. وهكذا هي الامثال القرآنية تقرب المفاهيم وتتناول اهم قضايا الانسان وتبقى تذكرة للناس كل الناس.

٢٦- وفي قبال ذلك تشبه الكلمة الخبيثة الشجرة الخبيثة التي لا جذور لها فهي قلقة في مهب الريح، لا ثمر فيها ولا ظل بل لايمكن ان يمر بها مار آمناً رغم انها قد تبدو كثيرة الاغصان وهي هي الكلمة الخبيثة، لا نفع لها ولا استقرار وقد تعصف بها الحقائق فتزيحها من الوجود، ولا يمكن السماح بها احياناً لانها لا تؤمن بوائقها.

٢٧- وفي ظل المثل السابق يأتي الاعلان الرائع من القوي الصادق عن تثبيت المؤمنين بالقول الثابت في الحياتين فلا خلل ولا تراجع ولا وهن ولا تحايل ولا ضرر ولا ضرار وانما النظر البعيد الى الهدف والثبات في الخطى والرحمة للآخرين والمنطق السديد المنفتح على الحياة.

اما الظالمون فوجودهم قلق وضلال وعطاؤهم هباء. وهكذا تقود ارادة الله البشرية نحو الغد الالهي المشرق.

٢٨، ٢٩- يتوجه الخطاب القرآني الى الامة الحاضرة مؤكدا عليها حقيقة كبرى وهي ضرورة شكر النعمة والعمل على استدامتها وهي قضية وجدانية لا ريب فيها، وبالتالي توجه اصابع الاتهام الى اناس يبدلون نعمة الله كفراً ويقودون قومهم الى الضياع والهلاك، والى جهنم المحرقة للابدان وبئس القرار .

٣٠- لقد ترك سادة القوم نعمة الرسول والتوحيد واستبدلوها بالكفر والالهة الوهمية شركاء لله لا لهدف الا ليقفوا بوجه مسيرة الايمان ويضلّوا الناس عن سبيل الله ليتمتعوا بمصالح ضيقة رخيصة مستضعفين الآخرين وسارقين لحقوقهم ولكنها متع قليلة مصيرها الى النار.

٣١- ويؤمر الرسول بالتركيز على خط الايمان: ليقوي رابطته بالله عبر اقامة الصلاة وهي عمود الدين، والانفاق من رزق الله في السر والعلن ليضمن للمجتمع العدالة عبر التكافل والتوازن..كل ذلك في ظل تقوى الله لتعمر بها الآخرة حيث لا مجال هناك للتبادل الاقتصادي ولا للعلاقات والصداقات ويقف الافراد لوحدهم امام الحساب.

٣٢، ٣٣ - نعم كبرى تحيط بالانسان وتسهل حياته ولا مناط له من ان يفسرها بخلق الله ولطفه: خلق السماوات والارض ، وماء ينزل من السماء فتشربه الارض العطشى لتخرج من ثمراتها ما يتغذى به الانسان وفلك (سفن) تسخرها قوانين الله لتجري في البحر، وانهار تحمل الخير الى مسافات واسعة، والشمس والقمر متتابعين على مر العصور والليل والنهار مسخرين لراحة الانسان: كيف تجمعت؟ كيف انسجمت ؟ كيف تعاضدت هذه الدورات الكونية للحركة، والماء، والنور؟ ماهو محور هذه الحركة من قوانين؟ وهل هناك من تفسير منطقي الا رحمة الله بهذا الإنسان؟

وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

٣٤- وخلاصة هذا الحشد الهائل من النعم الالهية تتمثل في هذه الآية: لقد علم الله بكل حاجات المسيرة مادية ومعنوية فهيأها بلطفه وكرمه ليسير الانسان نحو كماله المنشود والمغروس اجمالاً في فطرته. ولكن اين تكمن المشكلة؟ هل هي في نقص الفطرة ام هي في نقص الطبيعة ام هي في عدم الهداية الالهية؟ كلا وحاشا . انها في عنصرين اساسيين: الظلم الواسع والاستئثار والكفر الشديد للنعمة والطغيان.

٣٥- ويكاد المرء يشعر ان الايات السابقة تشكل مقدمة لذكر قصة ابراهيم(ع) النموذج الكامل للانسان الموحد الذاكر الشاكر . حيث تبدأ به داعياً ربه الى جوار بيت الله الحرام وهو يردده، رب ، ربنا يكررها باستمرار طالباً منه تعالى ان يمنح هذا البلد أمناً بتوحيده وأن يبعده وبنيه عن عبادة الاصنام.

٣٦- لانها أضلت الكثيرين من الناس وعلى ذلك انقسم الخلق خطين ليعلن انه يركز على خط الايمان وانهم منه اما الآخرون فيتبرأ منهم ولكنه لايدعو عليهم بالهلاك وانما يرجو أن يعودوا للخط الصحيح فتشملهم الرحمة والمغفرة (وهنا يخاطب القرآن ضمائر اهل مكة الذين يفتخرون بابراهيم ويحدد الموقف بدقة).

٣٧- ثم تنطلق المسيرة الابراهيمية التوحيدية باسكانه من ذريته بهذا الوادي الذي لا يبدو فيه اي مظهر من مظاهر الحياة (ولكنه سوف يغير كل المسيرة البشرية) وذلك كي يقيموا الصلاة في الارض ويطلب من ربه ان يعطف القلوب نحوهم، ويرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون خالقهم العظيم على نعمه. فالهدف تكوين مجموعة عابدة شاكرة لأنعم الله (ولكن اين اهل مكة من هذا الهدف؟).

٣٨- وتتواصل المناجاة ليعلن ابراهيم انهم يعيشون جميعاً بعين الله وتحت ظله وانه لا يخفى عليه في الكون شيء. فالكون جميعاً في محضره.

٣٩- ثم يقدم الحمد كله لله على نعمة استجابة دعائه و اعطائه ولدين مثل اسماعيل واسحق وذلك على كبره، فربه سميع الدعاء.

٤٠- ويعود مكرراً ملحاً ان يهبه الله هو وذريته القدرة على اقامة الصلاة بكل لوازمها ويتقبل دعاءه (واقامة الصلاة أوسع من مجرد ادائها).

٤١- ثم يستغفر لنفسه ولوالديه ولكل المؤمنين يوم يقوم الحساب.

وهكذا يبدو ابراهيم مضحياً لاعلاء كلمة الله، داعياً لرفد مسيرة التوحيد، وربوبية الله ، متبرئاً من المشركين، عاملاً على اقامة المجتمع العابد، معترفاً بحضور الكون في محضر الله حامداً شاكراً متضرعاً مستغفرا لوالديه ولكل المؤمنين مهتماً بذريته وسيرها على خط الايمان. ولكن اين المجتمع الذي يدعي الانتساب الى ابراهيم بل ويعيش على ذكراه من الحالة الابراهيمية هذه؟

٤٢- انها عين الله وعلمه الواسع ترقب مايعمله الظالمون بدقة وتسجل كل تحركاتهم وهي اذا امهلتهم فانما تؤخرهم ليوم هائل مرعب تبقى الابصار فيه مفتوحة مبهوتة.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

٤٣- موقف رهيب رهيب ينتظر الظالمين: فالرؤوس ممتدة الاعناق (مهطعين) والعيون الحائرة التي تنشط وكانها لا تعود لصاحبها، والافئدة المتحولة الى هواء كل ذلك يوضح هذه الرهبة والهول العظيم.

٤٤- انه انذار عظيم للناس وتحذير من يوم يأتيهم فيه العذاب ولا يملك الذين ظلموا حين يرونه الا طلب المهلة من ربهم مخاطبين اياه بالخطاب الصحيح (ربنا) ولكن لات حين مناص اذ يأتيهم الرد بشكل تساؤل قاتل ألستم المقسمين سابقاً انكم خالدون؟

٤٥- ألستم المغفلين الذين سكنوا مساكن الظالمين قبلهم والرائين ما فعلنا بهم ثم الغافلين عن كل مايشهدون وعن الاتعاظ بالامثال .

٤٦- وهكذا يقضي الله على مكرهم فهو مرصود مسيطر عليه مهما كان عظيماً وان كان من الممكن ان تزول معه الجبال.

٤٧- انه الوعد الالهي الذي لا يتخلف والله عزيز ذو انتقام من الظالمين مهما طغوا وبغوا وتجبروا.

٤٨- وسيتحقق الوعد كاملاً يوم الحساب بعد ان تبدل الارض غير الارض وتتغير السماوات ويبرز الجميع امام الله الواحد القهار لا تخفى منهم خافية.

٤٩- ويعرضون في هذا الموقف الرهيب: مشدودين موثقين. ترهقهم الذلة والصغار.

٥٠- وقد غطت ثيابهم مادة القطران الشديدة الاشتعال، والنار تنتظرهم وتلفح وجوههم.

٥١- هنالك يجزى الظالمون بما كسبوا وما صنعوا من مكر ولم تكن مهلتهم ذات بال انه الحساب السريع الذي ينتظرهم فليتعظ هؤلاء الظالمون وليرعووا عن غيهم قبل ان يقفوا تلك المواقف الرهيبة.

٥٢- ويأتي هذا الاعلان التاريخي للبشرية جمعاء:

ليعلم الناس هذا البلاغ وليسمعوا هذا الانذار وليعلموا ان الاله واحد له الربوبية وله العبادة وله الملك والأمر. وليذكر العقلاء هذه الحقيقة دائماً وفي كل الشؤون اذا أرادوا الفلاح.

سُورَةُ الحِجْرِ (١٥) آياتها ٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

سورة الحجر

البسملة آية رائعة تحدثنا عنها وعن جزئيتها للسورة.

١- ان القرآن الكريم مكون من هذه الحروف ولكنه معجز في تركيبه اللفظي ومضمونه المعنوي وبَيّن في خطابه. وعادة ما نجد اشارة للقرآن بعد هذه الحروف.

٢- قد يأتي على الكفار زمان عرون فيه بخطئهم ويودّون لو كانوا مسلمين، فهلا انتهزوا الفرصة السانحة.

٣- ولكنهم الآن مصرّون على الانحراف، لاهون متمتعون بتعهم الرخيصة غارقون في فسحة الامل الكاذب وسوف يرون الحقيقة.

٤- فسنة الله جارية، ولابد ان يهلك الضالون ولكن ذلك يتم طبق قوانين تتحكم باذن الله في مسيرة البشر.

٥- لا تتخلف امة عن هذه السنن الالهية فهناك مجالات ممنوحة وهناك مقاييس تترتب عليها نتائج يعلمها الله فلا اهمال ولا نسيان وعلى الجميع ان يتذكروا ذلك ويعدوا العدة لمستقبلهم المفصل على مقاس العمل. وهكذا فان للامم كما الافراد آجالاً واعماراً.

٦- من اساليب مواجهة الرسول السخرية والاتهام بالجنون لتنفير الناس عنه، انه اسلوب العاجزين .

٧- ومنها: طلب الخوارق كانزال الملائكة عناداً وهزءاً وتنفيراً وتلاعباً بالآيات واستبعاداً لكون الرسول الالهي بشراً.

٨- ولكن الملائكة لاتنزل الا بالحق وتحقيق اوامر الحق تعالى واذا نزلت وكذبت فلا امهال ولا نظرة في العذاب فهل يستعجلونه؟

٩- واذا شاؤوا معجزة قاطعة وحجةً واضحة فهذا هو القرآن الكريم بكل خصائصه الرائعة التي تحقق الايمان بالمنزل اليه وقد تكفل الله بصيانته من التحريف لانه كتاب الامة الخاتمة ودستورها فهو خالد في عطائه وثابت في حروفه وتركيبه.

١٠- ولم يكن الرسول بدعاً فقد سبقته مسيرة الرسل الالهيين.

١١- ولم يكن تكذيب المكذبين المستهزئين بدعاً ايضاً.

١٢- هكذا هو حال القلوب المجدبة فهي كالارض القاحلة لا تقبل المطر الا وحلاً والهدي الامزيداً من الضلال.

١٣- تأصل فيهم العناد فلا تنفعهم الآيات والدلائل الواضحة وقد سبقهم في هذا العناد السابقون من نظرائهم، وجرت فيهم سنة الله.

١٤- ١٥- وحتى لو منحناهم فرصة الصعود الى ملكوت السماوات والاحساس عن قرب بما تخبرهم به الرسل لاعتبروا ذلك من سحر الانظار وتسخير الحواس وإلاّ فلا واقع له، عناداً متأصلاً وانكاراً مهما كانت الدلائل واضحة.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ
فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ
فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا
عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ
لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن
قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ
بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

١٦- اشارة الى احدى مظاهر عظمة الكون التي كان المفروض بها ان تهدي هؤلاء الذين يشككون ويسخرون ويطلبون انزال الملائكة فهذه النجوم بافلاكها العظيمة ومناظرها الخلابة للناظرين وبتناسقها الذي يحرك الذوق الفني في فطرة الانسان، وسموها وعلوها يجب ان توقف الانسان خاشعاً.

١٧- انها سامية عالية لا تدنو منها الشياطين الرجيمة الدنية.

١٨- الا ان يدنو البعض منها ويحاول الحصول على بعض المعلومات ولكن الشهب تلاحقه فلا يكسب شيئاً. وهذه امور يعلمها الله ولا علم لنا بواقعها.

١٩- وهذه الارض العظيمة مدّتها وفرشتها وتفرشها يد القدرة الالهية وألقت فيها الجبال الضخمة الراسية لتنظم حركتها وتنبت فيها من كل شيء له اتزانه وانسجامه الدقيق وتوافقه مع الحاجات الطبيعية والانسانية.

٢٠- وجعلت فيها انماط العيش والحياة للانسان ولباقي الموجودات الحية التي لا يطعمها الانسان بل تسهل الطبيعة رزقها باذن الله.

٢١- وكل مافي الكون والطبيعة له مخازن وخطط وحركة دقيقة مقدرة معلومة ترتبط بالمجموع المنظم.

٢٢- وتتحرك الرياح فتنشر الخير والعطاء ومن عطائها التلقيح النباتي ومن عطائها التلاقح المؤثر في مجال الغيوم والمطر وغير ذلك مما يعرضه العلماء ويدركه قبلهم الناس بحسهم ومعرفتهم حتى البسيطة منها وينزل المطر الطهور فتتحرك الانهار وتمتلئ المخازن الارضية وتتوزع السقيا وتنسجم مع حاجات الانسان والحيوان والنبات كل ذلك بدقة مافوقها دقة. كيف تحركت الرياح، وكيف قامت بدورها في التلقيح، وكيف يخزن الماء دونما جفاف او عفونة او فساد طعم وغير ذلك؟ كلها اسئلة يتابعها العلم بالتحقيق. ويقف منها الوجدان موقف التأمل ثم الاذعان لعظمة المدبر العالم الحكيم ومشيئته النافذة في الكون.

٢٣- انه تعالى مالك الحياة والموت، وتفنى المخلوقات ويبقى وجهه الكريم.

٢٤- وعلمه يشمل من تقدموا في الموت ومن تأخروا فيه وهو بهم جميعاً محيط .

٢٥- واليه يرجع الخلق جميعاً للحساب فيحاسبهم بحكمته وعلمه.

٢٦- اشارة الى خلق الانسان العجيب من طين يابس (صلصال) متخذ من طين آسن.(حما مسنون)

٢٧- واذا اقتضت الحكمة الالهية ان يخلق البشر من طين، فقد خلق الله معشر الجان قبله من نار.

٢٨، ٢٩: ويُؤمَرُ الملائكة بالسجود لهذا الانسان الذي نفخ الله فيه من روحه.

٣٠، ٣١: فيستجيب الملائكة اجمعون الا ابليس وهو منطلق انحرافه وبداية المواجهة بين الخير والشر.

قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ﴿٣٢﴾ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴿٣٣﴾ قال فاخرج منها فإنك رجيم ﴿٣٤﴾ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴿٣٥﴾ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴿٣٦﴾ قال فإنك من المنظرين ﴿٣٧﴾ إلى يوم الوقت المعلوم ﴿٣٨﴾ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴿٣٩﴾ إلا عبادك منهم المخلصين ﴿٤٠﴾ قال هذا صراط علي مستقيم ﴿٤١﴾ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴿٤٢﴾ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴿٤٣﴾ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴿٤٤﴾ إن المتقين في جنات وعيون ﴿٤٥﴾ ادخلوها بسلام آمنين ﴿٤٦﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴿٤٧﴾ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴿٤٨﴾ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴿٤٩﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿٥٠﴾ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴿٥١﴾

٣٢، ٣٣– وعندما يسأل عن سر عصيانه وتمرده على اوامر ربه يجادل بانه افضل من الانسان لانه خلق من نار والنار افضل من الطين فيؤسس بذلك معياراً شيطانياً للتفاضل يقوم على اساس مادي عنصري مقيت.

٣٤– وطبيعي ان يطرد الشيطان الذي كان مع الملائكة يعبد الله لانه عصى الامر الالهي فلا محل له بين العابدين المنفذين امر ربهم بدقة.

٣٥– وان تشمله اللعنة الالهية الى يوم القيامة لانه اختار طريق العصيان استكباراً وغروراً.

٣٦– يطلب الشيطان بعد طرده ان ينظر ويمهل وتستمر حياته الى يوم البعث والقيامة لينفذ حقده الشيطاني.

٣٧و٣٨ – ولأمر يعلمه الله يستجاب لهذا الطلب الى يوم معلوم. ولعله دخيل في وصول المسيرة الانسانية الى اهداف خلقتها عبر الامتحان والصراع مع الباطل العنيد والشوائب والانحرافات التي تعرض عليها فتبعدها عن الثبات على المسير الصاعد. وقد تكون في الآيات اشارة الى ان الحوار اصل مقبول حتى مع ابغض الخلق.

٣٩– وهنا يعلن بدء المعركة وانها تتمثل في التزيين وتجميل الانحرافات والاغواء وتحريك الاطماع والشهوات في كل نفس ضعيفة والنفوذ الى الفراغات وملئها بالعناصر المحطمة.. اما النفوس التي يعمرها الايمان الحقيقي النافذ للأحاسيس والمنتج للاخلاص فلا سبيل للشيطان عليها مطلقاً.

٤٠و٤١– وهذه سنة الله التي لا تتغير، وصراطه الذي يبقى مستقيماً لاعوج فيه وهو يؤكد لكل التاريخ الانساني ان الارادة الانسانية هي نفخة الهية، وجانب من جوانب الروح التي نفخت في طينة الانسان وهي بالطبع لكي تبقى قوية تحتاج للارتباط بالله والوصل بالمطلق لكي تصمد امام التزيين والاغواء، ويبقى ضعاف النفوس هم الذين يجرهم الشيطان الى معسكره ويضمهم باستمرار الى الغاوين الضالين.

٤٢– وعاقبة الغاوين جميعاً هي جهنم حيث تلتقي فيها كل فصائلهم .

٤٣– ولها ابوابها السبعة المفصلة باختلاف هذه الفصائل وعملها وعنادها طبعاً .

٤٤– اما المتقون الذين شكروا النعمة ، واستفادوا من النفحة الالهية وسخروا ارادتهم لتضبط دوافعهم وغرائزهم وفق هدى عقولهم لتحقيق مقتضيات عبوديتهم لله والدخول في معسكر المخلصين، فلهم اروع عاقبة: جنات وعيون.

٤٥،٤٦،٤٧– في هذه الجنات غاية مايمكن ان يتمناه الانسان: السلام والامن، والحب ،والاخوة، والراحة والخلود. ولعلها صفات لما يجب ان يكون عليه المؤمنون في الدنيا.

٤٨،٤٩، ٥٠– هكذا يريد القرآن للمسلم ان يعيش توازناً في التصور والموقف النفسي والسلوك: فهو يتصور ربه العظيم غاية في الرحمة واللطف (وفي الآية تعبيرات رائعة معبرة) كما يتصور عذابه غاية في الرهبة وحينئذ يقف موقفاً موازناً بين الخوف والرجاء في حين ترسم له الشريعة سلوكه الخاص والعام بشكل متوازن رائع.

٥١– ويشار هنا الى ضيوف ابراهيم من ملائكة العذاب لتأكيد عدم الامهال اذا انزلت الملائكة.

٥٢- وعندما دخل الملائكة وسلموا عليه لمح ابراهيم فيهم ما يبعث على الخوف فواجههم بذلك.

٥٣- الا انهم بددوا مخاوفه وبشروه بولد عليم.

٥٤- ويتعجب لهذه البشارة وهو رجل كبير السن وامرأته عجوز عقيم كما يذكر القرآن في موضع آخر.

٥٥- ولكن ذكرته الملائكة بانها بشارة حق لانها من الله القادر الحكيم.

وحينئذ لا معنى لليأس والقنوط.

٥٦- فأكد هو انه لا يقنط من ربه الا الضالون الذين ما عرفوا الله حق معرفته.

اما المؤمنون فهم يؤمنون بقدرة الله ويعيشون في كل لحظة على أمل عطائه.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي
عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ
إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ
﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾
وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا
حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ
هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

٥٧ و ٥٨و ٥٩ و ٦٠- وبعد الاطمئنان الى الملائكة يسألهم عن مهمتهم التي جاءوا من اجلها فيجيبوه انهم ارسلوا لصب العذاب على قوم لوط المكذبين العصاة، والمجرمين بحق الفطرة الإنسانية، وطمأنوه بعدم شمول العذاب آل لوط فهم ناجون الا امرأته فانها ستفنى مع الباقين المعذبين.

٦١و٦٢- ويكرر لوط حينما يواجه الملائكة ابداء خوفه وانكاره لهم خصوصاً وهو يعرف قومه الفاجرين.

٦٣- فتخبره الملائكة بمهمتها وانها جاءت لانزال العذاب الذي كان قومه يمترون به ويكذبونه.

٦٤- ولما كان لوط شديد الخشية والقلق على ضيوفه المتميزين فقد جاءت تأكيداتهم هذه لتبدد مخاوفه.

٦٥- وتطلب منه ان يسير بأهله (ومن تبعوه لانهم من اهله) قبل الصبح وان يكون في مؤخرتهم ولا يدع احداً منهم يرجع او يتلفت او يتلكأ لان موعد العذاب سيكون في الصباح ، ويتجه الى مكان محدد.

٦٦- لقد حق العذاب على قوم لوط والذي سيفنيهم عن بكرة ابيهم عندما يحل الصباح.

٦٧- وفي غفلة مما يخبئه لهم القدر الالهي، جاءوا وقحين مجتمعين مستبشرين بوجود شبان جميلي الوجوه ليعتدوا عليهم في علانية واضحة تتقزز لها النفوس بالفطرة لشدة شذوذها.

٦٨و٦٩- يواجههم لوط الوقور بكل الاساليب الحكيمة مدافعاً عن ضيوفه مستنهضاً فيهم بقايا الشرف والتقوى واحترام الضيافة ومقام كبيرهم لوط.

٧٠- ولكن الغرور والفجور والشذوذ المستحكم دفعهم لتأنيبه هو على استضافة مثل هؤلاء الشباب.

قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

٧١- ثم قدم البديل الصحيح الطاهر لاشباع الحاجة الجنسية وهو التزوج بالنساء من بناته وبنات أمته لأنهن بناته، وهي طريقة ناجعة ينتفع بها المربون والمصلحون.

٧٢- وهنا يقسم القرآن وكأنه يشير الى مجموع الغافلين المستسلمين للشهوات انهم سادرون في الغفلة سابحون في السكرة الحرام.

٧٣، ٧٤- وجاء العذاب عند شروق الشمس وانقلب العمران راساً على عقب وامطرتهم السماء حجارة بركانية قاتلة(سجيل).

٧٥- و ٧٦ و٧٧- وبقيت آثارهم عبرة وذكرى للذاكرين باقية في طريق قائم لم يندرس بعد تشير للمصير الاسود وبذلك يدرك المؤمنون عظمة الله وصدقه في الوعيد.

٧٨- وهكذا صدق الامر مع قوم شعيب اصحاب الشجر الكثير المتشابك (الايكة) وقد كانوا بدورهم ظالمين.

٧٩- فاصابتهم النقمة الالهية وبقيت آثارهم وآثار قوم لوط علامة (إماماً) واضحة على طريق مطروق بين الحجاز والشام.

٨٠- وكذلك فعلت ثمود اذ كذبت صالحاً فاعتبرت مكذبة بالمرسلين.

٨١- وقد جاءتهم الآيات لطفاً بهم اما لتثبت لهم صدق الرسول او لتهديهم الصراط المستقيم، ولكنهم اعرضوا عنها عناداً واستكباراً.

٨٢- وكانوا متحصنين في بيوت وكهوف يعتبرونها آمنة.

٨٣- فعوقبوا بصيحة رهيبة اخذتهم صباحاً.

٨٤- فلم تنفعهم بيوتهم وتحصيناتهم شيئاً.

٨٥، ٨٦- بعد عرض قصص الماضين يعود القرآن لتقرير الحقائق الايمانية وتركيز دلالة الكون عليها. ومنها مسألة قيام خلقه بالحق وانه خلق لغاية ولم يكن عبثاً. والهدفية تبدو واضحة من خلال الترابط التام بين اجزائه ومن هنا تنتقل الاية الى الايمان بالآخرة اذ هي تفسير هدفية المسيرة وعدم عبثيتها لان فيها احقاق الحق، واليها تهفو قلوب المؤمنين وبها تثبت فلا تتأثر بتكذيب المكذبين وتعرض عنهم وتصفح وتعفو دونما عتاب وكل ذلك لان الله هو الخلاق العالم بخلقه.

٨٧- ان الرسول مؤيد باستمرار من ربه يثبته فكراً وقلباً ويذكره دائماً باللطف العميم: وهاهنا تذكير بعطاء سورة الفاتحة التي تحتوي على المعارف الالهية الرائعة المترابطة التي ينعطف بعضها على بعض ويفسر بعضها بعضاً بالاضافة للتذكير بمجموع القرآن الكريم وهو كتاب الهداية الكبرى وهكذا يأتي التذكير بالحقائق القرآنية بعد التذكير بالحقائق الكونية.

٨٨، ٨٩- ومع كل تلك النعم لا معنى للنظر وتمني مالدى الازواج الآخرين من متاع او الحزن لانحرافهم بل النعمة الكبرى تقتضي تدعيم الجبهة الداخلية من خلال الكون مع المؤمنين ورعايتهم، ومن ثم اعلان الهدف من الرسالة وهو الانذار لكل العصاة.

٩٠- ومنهم اولئك الذين عملوا على اطفاء نور القرآن وتبعيضه والتلاعب به.

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النَّحْلِ ١٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٩١- بعّضوا القرآن وقسّموه تلاعباً به وصداً عن سبيل الله.

٩٢،٩٣ - انهم جميعاً مسؤولون عما يعملون من اعمال تقف في طريق دعوة الحق.

٩٤- فليعلنها الرسول دعوة صريحة دونما لبس، وليمض في طريقه معرضاً عن هؤلاء المشركين المتلاعبين بآيات الله.

٩٥،٩٦- فالله تعالى هو الحافظ لعبده ورسالته وقرآنه من شر هؤلاء المستهزئين اللاهين عن الحقيقة المشركين بالله وسوف يعلمون لمن العاقبة وكيف يكون المصير.

٩٧- وقد يضيق صدر الرسول بألاعيب الكفار وإعراضهم عن الحقيقة الواضحة والسبيل القويم، وأقاويلهم السخيفة.

٩٨- وأروع علاج لهذه الحالة هي اللجوء الى الله والتسبيح بحمده والعبادة الخاشعة والسجود حيث القرب من الله المطلق القادر الرحيم.

٩٩- والتزام خط الطاعة والعبودية مدى الحياة والقيام بما يلزمه هذا الخط من سلوك. يتجاوز به مطبات الحياة.

سورة النحل

تحدثنا مراراً عن البسملة.

١- لقد جاء وعد الله الذي يستعجل به المشركون. فلقد حقت كلمة الله ان تدخل البشرية مرحلة الرسالة الخالدة، وان ينقطع دابر الشرك عن قريب . ويشرع القرآن بعد هذا ببيان نعم الله على الانسان.

٢- فهو تعالى ينزل الملائكة وهي تحمل الروح من امره الى الانبياء ليعلنوا كلمة التوحيد ويدعوا الى تقوى الله الواحد المنعم.

٣- وهو تعالى خلق السماوات والارض بالحق، والهدفية في هذا الكون واضحة لوجود هذا الترابط والتنسيق والانسجام في كل الظواهر الكونية مع متطلبات الحياة الانسانية وكل هذا يثبت وحدة الخالق ونفي اي شريك عنه.

٤- وهو — تعالى — خلق هذا الانسان العجيب المتكامل من نطفة قذرة متواضعة ولكن هذا الموجود قد ينسى اصله والمنعم عليه ويتخذ موقف الخصيم المجادل في كل هذه النعم.

٥،٦- وهو — تعالى — خلق هذه الانعام ليشبع حاجة الانسان من دفء ومنافع شتى، واكل، وجمال وزينة وراحة ومعونة على السفر. ان التأمل في هذا الاشباع الرائع لحاجات متنوعة وحده يحقق الايمان التام بالهدفية في الخلق، والنعمة الالهية، ووحدة المنعم الكريم.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

٧- وتبدو هذه النعمة اكثر وضوحاً في بيئة ظهور الاسلام حيث كانت الأنعام الوسيلة الوحيدة التي تساعد الانسان على التنقل بجسمه وبأثقاله ومتاعه وكل هذا يعبر عن رأفة ورحمة وتخطيط دقيق لتدوم هذه الحياة.

٩،٨- وهذه حيوانات لها دورها المستمر في خدمة الانسان، واشباع حاجاته الجمالية ايضاً. وتوجد اشارة الى موجودات وحيوانات اخرى تقوم بوظيفة اشباع حاجات الانسان دونما علم منه ولكن الرحمة والرأفة تدركان الإنسان، وتهيئان له الحياة الكريمة وتذكران بآيات الله ليسير نحو معرفة ربه ويحقق سبيل تكامله مستعملاً كل ماجهزه الله به في فطرته من امكانات الهداية والسير الصحيح لتحقيق التكامل، ولكن قد ينحرف الانسان في مسيرته ويجور ولا يقدر ربه حق قدره وهو بذلك يظلم نفسه في الواقع. فالهداية مفتوحة للجميع وقد شاء الله ان يهتدي الانسان بارادته والا فان الله قادر على الاجبار عليها.

١٠- وهو - تعالى - الذي انزل المطر من السماء نعمةً اخرى تشرب منه الناس وترعى أنعامها في المراعي التي تعيش على المطر.

١١- وهو تعالى الذي انبت بالمطر الزرع والزيتون والنخيل والاعناب وباقي الثمرات نعماً اخرى تسهل للانسان حياته كي يتأمل فيها ويفكر في الحقيقة.

١٢- ومن نعمه هذا الليل والنهار وحركة الشمس والقمر، والنجوم المسخرة بامر الله وما اعظمها من نعم تدفع الانسان لكشف اسرار الكون الرحيب القائم بالحق.

١٣- ومن نعمه ماخلقه الله في الارض من امكانات عظيمة سواء على سطحها أو في باطنها من انواع شتى تتناسب جميعاً مع حاجات الانسان وغيره.

١٤- ومن نعمه هذا البحر المالح الذي لا يشرب ولا يسقي ولكنه يشبع حاجة الانسان ايضاً من لحم طري يغذي به بدنه، وحلية تشبع ذوقه الجمالي الفطري ، ووسائل نقل تمخر وتشق الماء لتنقل للانسان بدنه ومتاعه ويبتغي فوقها رزق الله وفضله ويشكره على نعمائه.

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

١٥- ومن نعمه - تعالى - هذه الجبال الراسيات الثابتات على الارض لتحفظ لها حركتها المتوازنة وتمنعها من الاضطراب، وهذه الانهار التي تنقل الخير معها الى مختلف الامكنة، وهذه السبل والطرق التي تسهل للانسان حركته وبالتالي قدرته الحياتية وتهديه لتحقيق مقاصده.

١٦- ومن نعمه العلامات التي يهتدي بها السالكون في الارض كالمرتفعات والمنخفضات والاشياء الشاخصة، اللغات والاشارات والخطوط، ومنها هذه النجوم التي بها يهتدي السائرون.

١٧- الله - تعالى - هو الذي يخلق كل هذه النعم والظواهر التي تنسجم جميعاً مع الحياة الانسانية وتؤكد الهدفية والحق الذي يقوم عليه الكون، ووحدة الخالق الحكيم (وبدون هذه المعاني يجب افتراض تجمع مالا يحصى حقيقةً من الصدف وهو امر لا يقبله العقل مطلقاً) فكيف يقاس هذا الخالق العظيم الى موجودات عاجزة تافهة.

١٨- وبعد استعراض النعم المذكورة قبل هذه الآية يؤكد القرآن ان النعم اوسع بكثير مما ذكر بحيث لا يمكن احصاؤها وكلها تقوم على اساس من مغفرة ورحمة بالبشرية هداية لها الى اهداف خلقتها. وفي الاشارة الى هذه النعم وتكرارها توجيه للعقول على استكشافها والاستفادة منها لاعمار الحياة.

١٩- كما تقوم هذه النعم التي لا تحصى على اساس من علم الهي شامل بحقيقة الانسان وحاجاته وحركاته الخفية والمعلنة فالمسيرة الكونية ومنها المسيرة الانسانية حاضرة لديه.

٢٠ و٢١- اما الشركاء الذين يدعونهم فهم عاجزون عن اي شيء بل هم مخلوقون له وهم اموات لا قيمة لهم ولا يشعرون متى يبعث اتباعهم للحساب .

٢٢- التوحيد هوالحقيقة كلها وانكار المنكرين للآخرة - باعتبارها من اهم لوازم التوحيد والهدفية في الكون - نابع من عناد واستكبار لا غير .

٢٣- ولكنهم تحت سمع الله وبصره عليم باسرارهم وحركاتهم الظاهرة وهو لا يحب المستكبرين.

٢٤- انهم انطلاقاً من استكبارهم يصفون ما انزله الوحي بالقصص الوهمية وعجيب ان يصف الغارقون في الوهم والخرافات كتاباً كالقرآن بالاساطير.

٢٥- فسيحملون تبعات اعمالهم كاملة وتبعات اعمال من يضلونهم ويقلدونهم بغير علم وهي تبعات تعود عليهم باسوأ العواقب.

٢٦- الا يعتبر هؤلاء بمن قبلهم اذ اسسوا بنيان المكر والاستكبار فحطم الله قواعده فخر عليهم السقف واحاط بهم العذاب من حيث لا يشعرون.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

٢٧- ويقف هؤلاء في الآخرة موقف الخزي ليجيبوا على سؤال يخزيهم اكثر ويطالبهم بالبحث عن الشركاء الذين زعموهم وجادلوا واصروا على وجودهم .

وهنا يعلن اهل العلم - وهم الذين عصمهم الله من الضلال والانحراف - ان الخزي كله والسوء كله على الكافرين.

٢٨- وقد كانوا عند الاحتضار يمارون ايضاً رغم انهم استسلموا للموت فيدعون أنهم لم يعملوا سوءاً فيأتيهم الرد القاطع: بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون.

٢٩- وهكذا تشرع لهم ابواب جهنم ليدخل فيها هؤلاء بما يتناسب واعمالهم جزاء على تكبرهم وعنادهم. والتكبر داء مستشر يصيب الفرد والجماعة بالنظرة المتعالية وغير الواقعية للامور.

٣٠- ويتوجه السؤال في مشهد القيامة صوب المتقين الذين تأصلت التقوى في نفوسهم فيقال لهم: ماذا انزل ربكم؟ وبطبيعة الحال يأتي الجواب أنه أنزل خيراً وهدىً قاد حياتهم في دار الدنيا الى السعادة الحقيقية ثم هم به في الآخرة يرفلون بالخير العميم حيث الدار الافضل والاكمل للمتقين.

٣١- ان الخير كله يتمثل في جنات عدن واستقرار تجري من تحتها الانهار رخاء ومتاعاً طيباً كيفما يشاؤون بلا تحديد كذلك هو جزاء المتقين انه اشباع كامل لاقصى ما يتمناه الانسان بفطرته.

٣٢- لقد مرَّ هؤلاء بمشهد الاحتضار السهل - في قبال احتضار المتكبرين الصعب - حيث تتوفاهم الملائكة في اجواء الطيب والخلوص من خبث الظلم . وفي سلام من اي خوف وحزن ثم تبشرهم بدخول الجنة تعجيلا للخير وبشارة بالنعيم الخالد.

٣٣- يتوجه الخطاب من جديد الى مشركي قريش مهدداً ومتوعداً اياهم بالموقف الصعب المتمثل في مجيء الملائكة بالعذاب او أي أمر يشاؤه الله لتعذيبهم مذكراً اياهم بالظالمين من قبلهم وما لاقوه من عذاب نتيجة ظلمهم لأنفسهم ومخالفتهم لعقولهم وفطرهم.

٣٤- انهم عانوا من نتائج عملهم هم وحلَّ بهم الشيء الذي كانوا ينكرونه ويستهزئون به.

وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من
شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك
فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين
﴿٣٥﴾ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم
من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف
كان عاقبة المكذبين ﴿٣٦﴾ إن تحرص على هداهم
فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴿٣٧﴾
وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى
وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣٨﴾
ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا
أنهم كانوا كاذبين ﴿٣٩﴾ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول
له كن فيكون ﴿٤٠﴾ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا
لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا
يعلمون ﴿٤١﴾ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٤٢﴾

٣٥- مقولة للمشركين بالله يفندها القرآن: فهم يبررون شركهم، وعبادة الاصنام من قبلهم ومن قبل آبائهم وتحريمهم بعض الامور تحريما من دون نهي الهي يبررون كل ذلك بانه مسموح به لان الله لو شاء لمنعهم منه تكويناً. وهي مقولة طرحها مشركون آخرون قبلهم. ومن الواضح سخفها فان الله تكويناً فتح امام الانسان طريقين وترك له الحرية في الاختيار وليس هناك من اجبار تكويني على اي منهما وليستقيم معنى الحساب فلا محاسبة مع الاكراه ونفي الاختيار، وما على الرسل الا تبليغ الهدى الالهي (الارادة التشريعية) لا غير.

٣٦- هذا هو هدف كل الانبياء الذين بعثوا لكل الامم ويتلخص في امرين: بناء الفرد والمجتمع العابد، واجتناب كل مظاهر الطغيان والطاغوت، وتبقى للانسان ارادته الحرة في الاختيار بين طريقي الحق والباطل. وطبيعي ان مسؤولية اختيار طريق الباطل تقع عليه فيستحق العقاب وهو امر ينكشف بوضوح عبر السير في الارض ورؤية عاقبة المكذبين.

٣٧- فلا داعي للحرص على هداهم بعد ان اختاروا طريق الضلال فاضلهم الله ولم يعد لديهم من ينصرهم من دون الله.

٣٨- وهذا قول آخر لهم يفنده القرآن: انهم يقسمون بشدة على انكار البعث، ولكنه حقيقة لا مفر منها لانها من وعد الله الحق وان لم يعلم بها اكثر الناس.

٣٩- حيث تكون هناك في الاخرة الموازين وتنكشف الحقائق التي اختلفوا فيها كما ينكشف كذب هؤلاء المشركين.

٤٠- وليس في الامر اية مشقة على الله فامره التكويني يعني تحقق الشيء ذلك ان مايفيضه من الوجود على الاشياء هو نفس وجودها.

٤١- اما المؤمنون المهاجرون في سبيل الله بعدما ظُلموا فسيوفر الله لهم مكاناً حسناً في الدنيا ولأجر الآخرة اكبر من ذلك بلا ريب، لو كانوا يعلمون. وكأن الآية تحث على تعميق هذا المعنى في نفوس المؤمنين، وتؤكد هذه الحقيقة أمام المنكرين.

٤٢- ذلك لانهم تحملوا وصبروا وتوكلوا على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

٤٣- ان الرسل هم رجال من البشر يوحى اليهم وليس المراد ارسال اناس خارقي العادة يحملون قدرات تكوينية غيبية تعطل قوانين الطبيعة ليستجيبوا لما يطلبه المعاندون بتغييرها انما هم مبلغون لارادة الله التشريعية التي تبقى معها للناس قدرة اختيار الطاعة او المعصية هكذا كانت سنة الله فليسأل اهل الذكر والكتاب والاطلاع على الماضي عنها.

٤٤- والانبياء يحملون للبشرية الآيات البينات الدالة على صدقهم والزبر اي الكتب الهادية الى الشرائع. وهكذا حمل الرسول الى الناس هذا القرآن الهادي الموضح لمنهج الحياة والمربي للمسيرة العقلية والحضارية لهذه الامة ان عملت به.

٤٥- اما الذين يشرعون لانفسهم سبيل السيئات ويعرضون عن القرآن فيجب ان لا يأمنوا الخسف أو أن يأتيهم عذاب الله من حيث لا يشعرون.

٤٦- او يشملهم العذاب في تحولات حياتهم في حلهم وترحالهم والله لا يعجزه شيء.

٤٧- او يأخذهم العذاب حين يحتاطون منه ويتخوفون فيقل تضررهم به والله رؤوف رحيم.

٤٨- ان عليهم الانسجام مع الكون العابد الساجد لله. ذلك أن ظلال الاشياء المتحركة يميناً وشمالاً تعبر عن خضوعها لقوانين الله المنسقة لهذه الحركة الدقيقة المترابطة، فهي ساجدة لله مسبحة شاهدة له بالوحدانية والحكمة والتدبير خاشعة طائعة (داخرون).

٤٩، ٥٠ – والكون كله في سجود رائع انقياداً لامره وكشفاً عن تنزيهه وتعبيراً واضحاً عن حكمته وتدبيره دونما استكبار أو عصيان، ومن هذا الكون الملائكة الذين ينفذون اوامره ويخافونه بكل معنى الكلمة.

٥١- فلينسجم الانسان مع الكون في توحيده، وطاعته والخوف منه .

٥٢- فهو – تعالى – مالك الكون بكل معنى الملكية الحقيقية ولذلك فله الديونة التامة المستمرة (واصباً) ومنه الهداية الكاملة للانسان كي يطوي سبيل تكامله على احسن وجه ولذا فمن العجيب ان يخاف غير الله، وهذا من منابع القوة والعزة عند المؤمن.

٥٣- ان كل النعم التي يحسها او لايحسها الانسان هي من لطف الله. لكنه ينسى هذه الحقيقة ولا يتذكرها الا حينما يمسه الضر وخصوصاً حين تنقطع به السبل ليلجأ اليه ويجأر بصوته داعياً طالباً كشف الضر .

٥٤- فاذا استجاب ربه الرحيم له وكشف مابه من ضرر عاد فريق من الافراد الى نسيانهم القاتل وراحوا يشركون بالله في ذاته او عباداته.

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ
عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا
مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ
مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى
لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى
أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ
لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

٥٥- تهديد لاولئك الذين يكفرون وينكرون لوازم التمتع بنعم الله من الطاعة والشكر للمنعم الحقيقي فان هؤلاء سيعلمون العاقبة المرة التي تنتظرهم.

٥٦- ويربط هؤلاء الكافرون انفسهم بآلهة مدعاة لايعلمون عنها شيئاً فهي تقيد مسيرتهم وهم يخصصون لها بعض مارزقهم الله من الثروات فيبذرونها وهماً وجهلاً. وسيسألون تحقيقاً عما افتروه كذباً وبهتاناً.

٥٧- انحراف آخر ينجر اليه المشركون وهو الايمان بآلهة مؤنثة باعتبارها من بنات الله - تعالى - وهكذا يتحدث القرآن عن سخفهم بتخصيص الله بالبنات في حين ان لهم مما يشاؤون من ذكور. وتعالى الله عن ان يكون له ولد وانما ذلك من قياس التشبيه الباطل.

٥٨، ٥٩ - وهكذا ينعى القرآن على الجاهلين سخافاتهم العقدية كما ينعى عليهم عاداتهم الاجتماعية الباطلة فاذا بشر احدهم بمولودة انثى اسود وجهه وراح يكظم غيظه وحنقه، ويختفي كي لا يراه احد ويخير نفسه بين ان يحتفظ بهذه البنت او يدسها ويئدها في التراب فما اسوأ حكمهم بذلك. وبهذا الاسلوب والنفس الانساني يواجه القرآن النظرة السلبية الظالمة للانثى والتي لازالت تمارس من قبل البعض.

٦٠- ان المشركين ينكرون الآخرة وبالتالي تذوب عندهم معاني الحسن والقبح ويسودهم مثل السوء باعتباره صفة عامة. ذلك ان من لا يطمع في ثواب ولايخاف من عقاب تموت عنده القيم بالتدريج. اما الايمان بالله والخير الكامل ومصدر العزة والحكمة فهو يربي كل القيم الانسانية العليا ويعمقها باستمرار.

٦١- ولوان الله عامل الناس بالعدل وعاقبهم بما يستحقونه نتيجة ظلمهم لأهلكهم جميعاً ولكنه لطف بهم واخرهم الى اجل محدد لا يتخلف.

٦٢- والعجب ان المشركين ينسبون لله مايكرهون نسبته لانفسهم كالبنات ويتلبسون بالكذب مدعين ان لهم الحسنى حياة وعاقبة والواقع انهم سائرون الى النار لا محالة.

٦٣- وها قد سبقت امم اضلها الشيطان عن اطاعة رسل الله وتولاها وساقها نحو الضلال ومازال يقودها حين نزول الآية ليوردها العذاب الاليم.

٦٤- وقد ابتليت تلك الامم بتفاسير واختلافات ونزاعات وجاء هذا الكتاب ليوضح لها الموقف الحق ويهدي هذه الامة رحمة بها الى افضل مسير ومصير على صراط مستقيم.

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٦٥- ويعود القرآن الى تعداد النعم الالهية على الانسان فيتحدث هنا عن خاصية الاحياء الت يملكها الماء النازل من السماء فبعد ان تبدو الارض وقد أماتها الجفاف اذا بها يحييها المطر باذن الله وطبيعي ان الانسان اذا أصغى لمثل هذا المعنى آمن بامكان احياء الموتى للبعث.

٦٦- ونعمة الأنعام تملك دلالاتها هي الاخرى ليتساءل المرء عن روعة التناسق بين الانتاج الحيواني والحاجة الانسانية. فهذا اللبن الخالص السائغ للشاربين ينتج من بين فرث يحتوي عليه الكرش ودم يجري في الشرايين والاوردة لكنه يتميز بينهما بطعمه السائغ وخواصه المغذية ودونما شائبة من طعمهما او رائحتهما لينمي الجسم الانساني بخواصه.

٦٧- ونعمة النخيل والاعناب هي الاخرى مجال للتعقل من خلال انسجامها مع حاجة الانسان الى الرزق الحسن وربما استفيد منها مايؤدي الى اسكار العقل (الخمر) (ولعل في هذا اول خطوة باتجاه التحريم بعد جعله في مقابل الرزق الحسن).

٦٨- ومقطع آخر من عظمة الخلقة يتجلى في النحل هذا الموجود الصغير العجيب. إذ ألهمها الله بفطرتها كيفية بناء بيوتها وخلاياها في مختلف الأماكن في الجبال وعلى الشجر وفي عروش الكروم وغيرها.

٦٩- ثم هاهي تنطلق الى كل الثمرات المتنوعة والممثلة في أول أمرها بأزهارها لتسلك طريقها عائدة الى خلاياها لتودع ماتحول في بطونها من عسل تختلف الوانه حاوياً الشفاء للناس. ويلاحظ بدقة هذا الانسجام الرائع بين هذه السوائل (الماء، اللبن، عطاء الانعام من الرزق الحسن، والعسل) وبين تركيبة بدن الانسان وحاجاته. مما يدفع الى مزيد من التفكير والتدبر.

٧٠- ثم هاهي خلقة الانسان ومسيرته التكوينية العجيبة من النطفة ومراحل حياته ونموه الجسدي والفكري ليصل الى مستويات من العلم ثم قد تعرض الوفاة فيفقد قدراته الحياتية او يسير نحو الشيخوخة بحيث يفقد علمه تماماً، هذه المسيرة تكشف بوضوح عن عظمة الخالق وعلمه وقدرته.

٧١- ثم هذا التفاضل في الرزق آية من آيات الله تحقق غرضاً حياتياً وربما اسيء استخدام هذا الأمر فلم يحاول ذوو اليسار ان يردوا مارزقهم الله على ماملكت ايمانهم من رقيق ليكونوا مثلهم سواء في مستوى المعيشة. فيجب عدم الجحود والانكار للوازم النعم. وفي ذلك بيان لوجوب اشاعة العدل والمساواة المنصفة.

٧٢- ثم هذه الصلة بين الجنسين الزوج والزوجة وما ينتج من بنين وحفدة والرزق الالهي الطيب لمد هذه المسيرة المتنامية وكلها نعم إلهية يجب ان تشكر لا أن يتم الايمان بالباطل والكفر بهذه النعم.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝

٧٣- انه الانحراف الكبير ان يشاهد الانسان كل هذه النعم التي يستحيل أن تجتمع دون تخطيط عظيم ثم يدين بالعبودية لمخلوقات لا تملك له رزقاً من السماوات والارض ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.

٧٤- إنهم يحاولون أن يمثلوا الله ويصفوه تشبيهاً له بهذه المخلوقات وهذا جهل مطبق لا يقاس الى علم الله مطلقاً.

إنهم بهذا يقعون في قياس باطل وتشبيه مرفوض.

٧٥- ترى هل يمكننا أن نقيس مثلاً عبداً مملوكاً لا قدرة له على إنسان آخر يمتلك أمره وقد رزقه الله الرزق الحسن فهو ينفق منه في السر والعلن؟ إنه قياس المعدم من كل شيء إلى الغني القادر على كثير من الاشياء. وهو عمل الجاهلين.

٧٦- وهل يمكننا أن نساوي بين رجل أبكم لا ينطق ولا يسمع ولا يفهم ولا يقدر على شيء يعيش ثقلاً على كاهل مولاه، وأينما يوجهه ليعمل يعود خالي الوفاض وصفر اليدين، وبين من يملك قدرات خيرة فهو يأمر بالعدل وهو يمشي في حياته متوازناً وعلى صراط مستقيم؟ إنه قياس واضح البطلان.

٧٧- إن له تعالى غيب السماوات والارض فهو مالك كل شيء ظهر أوغاب ومن الغيب أمر الساعة وقيام القيامة وما أمرها الا كلمح البصر أو أقرب من ذلك زيادة في تشبيه سهولة الأمر عليه لأنه تعالى القادر المطلق والاشياء جميعاً بالنسبة اليه سواء.

٧٨- عود الى تعداد بعض النعم الالهية التي تخفى على الإنسان ولكنها من الغيب المملوك لله ومن فضل الله على الانسان دون أن يعلمه. فها هو الانسان يخرج من بطن امه لا يعلم شيئاً ولكن اللطف الالهي يمن عليه بوسائل المعرفة: السمع والبصر والفؤاد وهو القلب واللب لعله يعرف ويتعلم ويشكر الله على هذه النعم.

٧٩- وحركة الطيور المسخرة في الاعالي والمتحركة وفق قوانين الله حركة تبعث على التأمل والإيمان بالعظمة الالهية التي نظمتها.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

٨٠- والاستقرار في المسكن والاستفادة من جلود الانعام بيوتاً وخياماً خفيفة الحمل حين الاقامة واثناء التنقل (الظعن) ومن اصوافها واشعارها للاثاث والمتاع كل ذلك يعبر عن نعم الهية تكشف عن التناسب بين الحاجة الانسانية والمنتج الحيواني.

٨١- وكذلك يجد الانسان في الظلال راحة وتسكينا وفي اكنان الجبال وكهوفها وفي السرابيل والألبسة والأغطية والسرابيل التي تحفظ الانسان من الصدمات كالدروع، يجد راحته وطمانينته ويشعر بنعمة الله عليه اذ هيأ له كل هذه الظواهر بما فيها من نتائج ضرورية لحياته وفق تخطيط دقيق كي يسلم لله ويشكره على نعمه.

٨٢- اما اذا اصيب الانسان بداء العناد وتولى عن ذكر الله فلا معنى للأسى عليه بعد ان قام الرسول بوظيفته من البلاغ الواضح.

٨٣- انهم يعرفون نعم الله ويدفعهم عنادهم لانكارها عملاً وربما ابتلي بعضهم بالكفر بها وبلوازمها نظرياً وهم الاكثرية.

٨٤، ٨٥ - وسوف تأتي الامم يوم القيامة ومعها شهداء عليها منها، عاشوا معها ورأوا سلوكها وقد يكونون من الانبياء أو الاوصياء وباقي الأئمة والقادة. وحينئذ فلا يؤذن لها في يوم الجزاء بالكلام والاعتذار بعد هذه الشهادات الحسية كما لا مجال ايضاً للاستعتاب يوم الجزاء وطلب الرجوع للدنيا والعمل بأوامر الله، ولا مجال للمساومة والتخفيف والامهال.

٨٦، ٨٧- وحين يرى المشركون اولئك الشركاء المزعومين لله وهم يواجهونهم بانهم كذبوا في مقولتهم بعود هؤلاء لله وهم يشعرون بمدى الضلال الذي كانوا فيه ويدركون ان ماكانوا يفترونه وهم باطل لا غير.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٨٨- ومن الكافرين من لم يكتفوا بظلمهم لأنفسهم وكفرهم بل راحوا يقفون في وجه الدعوة ويصدون عن سبيل الله فاستحقوا العذاب المضاعف نتيجة هذا الأفساد.

٨٩- تأكيد لما سبق من ذكر الشهداء على الأمم تمهيداً لذكر شهادة الرسول على هذه الامة، فهي تقطع الحجة وتنفي الاعتذار خصوصاً بعد أن جاءهم بالقرآن تبياناً لكل شيء يحتاجونه بشكل عام لبدء مسيرتهم الايمانية وصنع حضارتهم ورحمة وبشارة للمؤمنين به بأنهم سيغيرون التاريخ إذا عملوا به وصاروا شهداء على الامم .

٩٠- بيان لبعض الخطوط العامة للتعاليم الاسلامية التي جاء بها الكتاب الكريم تبياناً وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وتشمل:

العدل: كقاعدة عامة تقوم عليها كل الأحكام والقوانين في المجتمع الاسلامي.

ثم الأحسان: وهو أوسع مدلولاً من حيث المصاديق وفيه إضافة اخرى إذ يعني التفضل وعمل الخير للآخرين دون انتظار المقابل أو زيادة الاحسان لقاء عمل الآخرين او العفو عن اساءتهم.

وإيتاء ذي القربى: ويعني القيام بحقوقهم والإحسان اليهم وتوثيق الصلات بهم لانهم دائرة التماسك الاولى في المجتمع.

والنهي عن الفحشاء : (وهي ماعظم قبحه) والمنكر (وهو ماينكره المجتمع وشريعته) والبغي (الظلم) وهي المقولات المهمة للوعظ الالهي لهذه الامة.

٩١- والوفاء بعهود الله: صفة عامة لمجتمع المتقين، وهو بالتالي يؤدي للألتزام الكامل بمقتضى الأيمان وأنواع القسم ولايتم إلا بالله، ونقض الأيمان المؤكدة أشد من عدم الوفاء بالعهد لأن الأنسان قد جعل الله كفيلاً عليه والله تعالى عليم بما يفعله.

٩٢- تاكيد للوفاء بالعهد وتشبيه للناكثين للعهود بامرأة سفيهة تفتل غزلها ثم تعود لتنقضه، ودفع لعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغدر والخيانة سعياً لكسب الأرباح وإغناء مجموعة وترجيحها على أخرى، وسيمتحن الله التزام المؤمنين بالعهد واليمين ويحاسب أولئك المتخلفين والمختلقين على الحطام.

ويشكل عام فالقرآن يؤكد على ضرورة التزام الامة بالعهد الالهي وبعناصر القوة والمنعة وعدم نقضها بالفرقة والمعصية.

٩٣- هكذا شاء الله أن تختلف الاستعدادات وتختلف الاستجابات لأوامر الله ويوم القيامة يكون السؤال والجزاء وما دامت المساءلة موجودة فالاضلال والهداية انما تكون بعد اختيار الانسان لطريقهما واستعداده لهما.

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

٩٤- ان اليمين علامة مقدسة على الصدق. فاذا اتخذت وسيلة للغش والخديعة كان ذلك ادعي للانحراف وزلل الاقدام بعد ان كان المفروض ان تثبت على الخط. والزلل وقوع في السوء، وتشويه للايمان، واشاعة للتحايل وعدم الثقة وانحراف عن السبيل القويم وتعريض للنفس والمجتمع للعذاب العظيم.

٩٥- ان العهد الذي منحالعبد لربه عبر اسلامه وعبر تأكيده له بالقسم عهد عظيم لا يقدّر بثمن، فكيف به وهو يستخدم لمصالح مادية ضيقة زائلة لا قيمة لها في قبال ما اعده الله للمؤمنين الثابتين على الخط من عطاء خالد.

٩٦- ويستمر القرآن في التذكير بعظمة العهد المعطى لله، وعظمة النتائج التي تترتب على الثبات على الخط والالتزام بالعهد بالتذكير المؤكد على المقارنة بين المنافع الدنيوية الزائلة والعطاء الاخروي الخالد. فالصبر والثبات هو المطلوب للوصول الى النتائج الحسنة الخالدة.

٩٧- واذا كانت هناك بعض الاختلافات في الوظائف الاجتماعية والجسمية فانه لا فرق بين الجنسين الذكر والانثى في مجال امكان التكامل الانساني عبر العمل الصالح شريطة توفر عنصر الايمان. وحينئذ فالنتيجة هي الحياة الطيبة التي ينشدها الانسان – ذكراً او انثى – بفطرته وشوقه نحو الكمال والسعادة في الدنيا ، والثواب في الآخرة المناسب لأفضل ما عملوا. منّة وكرما منه (فالمعيار في الثواب هو أفضل الأعمال دون غيرها). وهكذا يرسخ القرآن النظرة الايجابية وعدم الاستهانة بالمرأة التي اضطهدت في كثير من الحضارات والعصور.

٩٨- ان القرآن الكريم وسيلة الهداية والتربية والثبات على الصراط المستقيم شريطة التوجه لمعانيه والتفاعل الوجداني معه. ولا ريب ان الشيطان يعمل على الوسوسة والالهاء. ومن هنا فعلى من يقرأ القرآن لينهل من نميره ان يلجأ لله ويتوكل عليه ويتعوذ به من الشيطان الغوي الرجيم.

٩٩ ، ١٠٠- ذلك انه لا تأثير للشيطان على المؤمنين المتوكلين على الله . وهو انما يترك أثره في النفوس التي تفسح المجال له وتتولاه وتشركه في عبادة الله.

١٠١- ومن إلقاءات الشيطان ان يبعث المشركين للتشكيك في النسب الالهي للقرآن واتهام الرسول بالافتراء حينما يبدل الله آية مكان آية او ينسخها لانتهاء وقتها واحتياج الامة للآية البديل ـ وفق علم الله ـ .

١٠٢- انها الحقيقة الواضحة فالمنزل هو جبرئيل مبلغاً كلام الله الى الرسول بالحق حاملاً الثبات القلبي للمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين المنقادين لهذا الحق.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

١٠٣- ومن تشكيكات المشركين في القرآن وعدم نسبته الى الله تعالى ادعاؤهم أن الرسول(ص) يتعلمه من بشر وهو غلام رومي في مكة ويأتي الرد واضحاً ان لغة المشار اليه اعجمية (رومية) فكيف تأتي بقرآن عربي في هذا الحد من الاعجاز في الفاظه ومعانيه .

١٠٤- وان أريد به انه (ص) كان يتلقى المعاني من هذا الرجل الاعجمي ويصوغها بهذا الشكل المعجز فجوابهم ان هذا القرآن المعجزة في الفاظه ومعانيه الخالدة على مر الزمن هو من عند الله، والله تعالى لا يجري المعجز على يد الكاذب ولا يهديه الى هذه الالفاظ والمعاني الخالدة بل له العذاب الاليم.

١٠٥- ان الرسول العظيم هو المؤمن الصادق ويشهد على ذلك تاريخه الناصع ومظاهر ايمانه القاطع واعجاز القرآن ودلالته على انه كان يتلقاه بكل ايمان وتعبد وخضوع، اما الكذب فلا يأتي به الا غير المؤمنين.

١٠٦- ان للايمان حلاوة روحية عالية تشد النفس اليها فتستهين بالمصاعب والشدائد في سبيله، وقد يشتد الضغط فلا يجد المؤمن الا ان يظهر الكفر بلسانه - تقية - مع بقاء قلبه على الايمان مطمئناً ثابتاً - كما حدث لعمار بن ياسر اثناء تعذيبه - في حين يستولي الضعف على بعض النفوس فترتد الى الكفر وحينئذ تستحق العذاب العظيم لانها لم تستجب للضغط بقدره بل انهارت تماماً بعد ان ذاقت حلاوة الايمان من قبل.

١٠٧- وهذا الانهيار النفسي والاستسلام للكفر انما هو نتيجة عدم التسامي على الرغبات الدانية والانغماس في حب الحياة الدنيا وترجيحها على الآخرة .

١٠٨ ، ١٠٩- وهكذا كانت عاقبة الاستسلام للشهوات الدنيا أن طبع على قلوبهم فهي غافلة وعلى اسماعهم فهي صماء وعلى ابصارهم فهي عمياء وكان الخسران الأخروي نتيجة طبيعية لذلك.

١١٠- اما من فتنوا واستسلموا - لفترة - للضغوط ولكنهم عادوا الى الحق مخلصين واثبتوا ذلك بأن هاجروا وجاهدوا وصبروا فان لطف الله وغفرانه يشملهم والله هو الغفور الرحيم.

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝

١١١- انه يوم الحشر والحساب، حيث تنشغل النفوس في الدفاع عن ما عملته في الدنيا. وتقتضي العدالة الالهية – مهما كان الدفاع والجدال – ان تجازى كل نفس وفق عملها دونما تنقيص وظلم.

١١٢- مثل قرآني يتناسب مع حال اهل مكة يذكرهم بالنعم الالهية التي ينعمون بها في بيئة يسودها الخوف والجوع. وبدلاً من ان يشكروا الله على هذه النعم فان اهل هذه القرية (البلد) يتخذون سبيل الكفر والعناد فيبتلون بعذاب الجوع والخوف.

ومثل الشكر والكفر جار في كل امة وكل زمان ومكان، فهل من معتبر؟!

١١٣- وهاهي رحمة الله تشملهم فتبعث فيهم رسولاً منهم يعرفونه بالامانة والصدق، لينقذهم من حيرة الضلالة، ويقودهم الى العلاء، ويكمل لهم النعم، لكنهم يتمادون ويكذبونه ظلماً وطغياناً فيشملهم العذاب .

١١٤- وبعد هذا المثل يطلب القرآن من مخاطبيه أن يتنعموا برزق الله الحلال الطيب، ويشكروا هذه النعمة الالهية في اطار تقديم الطاعة والعبودية لله والحياة في ظل أوامره ونواهيه.

١١٥- فالطيبات هي المحللة والخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله هي المحرمة، اكراماً للانسان وصوناً له من الاذى وانسجاماً مع الفطرة، فيجب الالتزام بهذه النواهي الا أن يضطر الانسان فقد يسر الله عليه وسمح له بتناول هذه المحرمات شريطة أن لا يكون اضطراره نتيجة عدوان وبغي وتجاوز.

١١٦- ان علم الله ولطفه هما منطلق التحليل والتحريم الذين يجب ان ينظم الانسان حياته كلها وفقهما. ولا يجوز أن يشرع الانسان لنفسه فيحرم او يحلل وفق هواه وعاداته ثم ينسب ذلك الى الله كذباً وبهتاناً فان ذلك يعني الخسران والضياع .

١١٧- فقد يؤدي هذا الانفلات الى شيء من التمتع القليل ولكنه يؤدي بالتالي الى العذاب الاليم.

١١٨- ولما كان اليهود قد ظلموا أنفسهم فقد عوقبوا بتحريم بعض الامور عليهم بالخصوص فلا يسري ذلك على المسلمين.

والآية تؤكد على العدالة الالهية في التشريع.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

١١٩- التوبة باب مفتوح للافراد والامم، ومصدر للأمل للمسلم يدفعه للعودة الى الحق دائماً والخلاص من تبعات الجهالة التي اوقعته في العمل السيئ. ولابد بعد الوعي والعودة الى الله من اصلاح الخلل واعادة الامور الى نصابها ليعود الله بعد التوبة على العبد بالغفران والرحمة.

١٢٠- ويعود القرآن للحديث عن النموذج التوحيدي السامي وهو ابراهيم ليربط المسلمين به بقوة. فلقد كان لوحده أمة وكان مطيعاً لله بكل اخلاص (حنيفا) واماماً للموحدين العابدين الوسطيين المتوازنين في حياتهم البعيدين عن الشرك والمشركين.

١٢١- وكان الشكر صفة وعلامة له فاختاره الله ليكون نموذجاً للشاكرين ورباه وهداه الى صراط مستقيم.

١٢٢- ولما كان من الشاكرين المهتدين فان الله وهب ابراهيم في الدنيا معيشةً حسنةً وهو في الآخرة من الصالحين، فله إذن جزاؤهم.

١٢٣- وهكذا يرتبط هذا الدين ورسوله بملة ابراهيم ودينه القويم ليكون دين التوحيد والشكر والطاعة لله والوسطية الحنيفية والهدى والصلاح، بعيداً عن الشرك والضياع.

١٢٤- وتحريم العمل في يوم السبت هو من ديانة اليهود الذين اختلفوا فيه فمنهم من قبله ومنهم من رده وليس من ملة ابراهيم ولا شريعة الاسلام والله هو الحاكم والحكم في هذه الموارد يوم القيامة.

١٢٥- ان هذه الرسالة هي رسالة الله والصراط المستقيم فليعلن الرسول دعوته اليها بالحكمة (اي الحجة القوية والاسلوب القويم المناسب لحال المخاطب) والموعظة (اي البيان الهادي للحق والذي يرق به القلب وينسجم مع الفطرة) والحوار بالتي هي احسن وهو منطق الانسان السليم، واسلوب المسلم يلتزم به دون تسرع في الحكم بالضلالة او الهداية فكلاهما علمه الواقعي عند الله تعالى. وهكذا يضع القرآن أسس الحوار السليم.

١٢٦- وفي قمة التعامل الحضاري العادل يطلب القرآن أن يعاقب المشركون بمثل أعمالهم هم دون الانسياق للمشاعر او زهوة النصر ولكن الصبر أجدى وأكثر خيراً وأثراً طيباً.

١٢٧- والصبر تربية للارادة الواعية ولطف الهي بالمؤمن . وثبات على الحق يؤمر به الرسول واتباعه بالطبع دون اكتراث لخط الباطل واهتمام بمكره والاعيبه، وان كان ذلك لايعفي عن الحيطة والحذر.

١٢٨- وتختم السورة بهذا التوجيه العام للمؤمنين أن يدركوا بكل وضوح أن الله معهم بكل قدرته ولطفه ماداموا على خط التقوى والإحسان.

سورة الإسراء (١٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)

سورة الاسراء

١- الاسراء حادثة ورحلة عجيبة وقعت ليلاً للرسول(ص) من المسجد الحرام في مكة الى المسجد الأقصى في بيت المقدس، قبل الهجرة. وهناك اخبار بتكرر هذه الحادثة. واختلف العلماء في كيفيته وكيفية المعراج الذي تم بعده من المسجد الاقصى – المبارك هو وما حوله باعتباره ارض الرسالات – الى السماء وجاءت فيهما اخبار كثيرة. ونحن نجيز فيه مايجيزه العقل القطعي دون ذلك، ونمشي فيه مع الظواهر اذا قويت الاسناد. وعلى أي حال فانه يكشف عن سمو نفسي رفيع له (ص) وعن اختصاص له بالكرامة ورؤية اسرار الخلق وآيات الله. ويبقى متمتعاً بأعلى صفة وهي (العبودية) .

٢- والكتاب هوالشريعة التي اعطيت لبني اسرائيل لتهديهم الى الحياة الامثل حياة العبودية لله والاتكال عليه وحده.

٣- وهكذا يستمر الهدى الالهي لينظم حياة ذرية المؤمنين الذين حملهم نوح بأمر الله معه في سفينته اجيالاً بعد اجيال عناية مستمرة من الله بعبيده المؤمنين وجزاء لخط النبوة العابد الشاكر لأنعم الله.

٤- لقد قضى الله لبني اسرائيل في التوراة انهم سيفسدون في الارض مرتين وسيستكبرون ويعلون ويسيطرون على فلسطين مفسدين طاغين. وبكل اسى فقد عاش بنو اسرائيل على العموم تاريخاً استكبارياً وادعوا انهم شعب الله المختار وأورثهم ذلك حقداً وشغبا حتى مع انبيائهم ورسلهم فكيف بالآخرين.

٥- وعند ما تحين المرة الاولى يبعث الله عليهم عباداً أقوياء ينتقمون من بني إسرائيل يستبيحون طول البلاد وعرضها وكان ذلك أمراً محتماً.

٦- وحين يتعالى طغيان هذه الجماعات ويرجع بنو اسرائيل الى الله ويصلحون امرهم يرد الله لهم القوة البشرية والمالية والتعبوية ليطردوا الظالمين.

٧- وهذه حقيقة يجب أن تعيها البشرية وان كان الخطاب متوجهاً لبني اسرائيل ذلك ان الاحسان والصلاح يعود لنفس المحسن في الدنيا او في الآخرة وكذلك الاساءة وبذلك ينتفي التعارض في منطق المؤمن بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية.

وعندما يعود الاسرائيليون للفساد مرة اخرى تهاجمهم الجيوش الجبارة وتذلهم وتدخل المسجد رمزاً لكل فلسطين وتشوه صورتهم ووجوههم وتدمر وتتبّر كيانهم تدميراً وفي هذه الايات وتحديد ونوع الفساد ومصيره أقوال وآراء تترك للمطولات.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

٨- ان الله تعالى رحيم بعباده ولكنهم احياناً ينحرفون عن الخط السليم فيستحقون العذاب وهكذا يأتي التهديد لبني اسرائيل ان لايعودوا الى الفساد والا ابتلوا من جديد بالعذاب، وحوصروا بجهنم. وهاهم يعودون للفساد اليوم بابشع صوره واذا بهم جزء من مشروع عدائي يستهدف وجود الامة من خلال زرعه في المنطقة. ولاحل الا بالعودة الى حبل الله والوحدة والابتعاد عن الفرقة. فنسأل الله ان يحطم شوكتهم وشوكة من يعينهم.

٩، ١٠- والقرآن الكريم هدي آخر من الكتب السماوية الهادية. الا انه الكتاب الأخير الجامع الذي يطرح الصيغة الأقوم والامثل والاكمل على الاطلاق وفي كل شؤون الانسان ولجميع الاجيال فيهديها للعلاء. وفي الآيات التالية نماذج رائعة لما هو اقوم نفسياً واجتماعياً ان هي التزمت خط الايمان والا فالعذاب الاليم في الانتظار .

١١- هذه هي الحقيقة التي يجب ان يتفهمها الانسان عبر التأمل والتدبر ولكن الانسان غير المتبصر يسير مع هواه واحاسيسه العمياء فيسأل الله الشر والخير متخبطاً عجولا دونما روية.

١٢- وهنا يعود القرآن لتركيز العقيدة واعادة التوازن لهذا الانسان العجول مذكراً له بآيات الله في الكون وبالتوازن والترابط فيه ومنها ظاهرتا الليل والنهار وهما رمزا الظلام والنور المتعاقبان في غاية الدقة والانضباط وهما تعطيان الحياة الانسانية تلوناً وتغايراً وتشبعان فيه الحاجة للنشاط والراحة معاً كما تعينان له الوحدات الزمنية لينظم حياته ويستمر في عمله لاعمار الارض وهكذا تقوم كل الظواهر الكونية وبدقة متناهية بواجباتها وليحيا الانسان بوعي في اطار هذا الكون متأملاً منسجماً منضبطاً دونما عجلة او خمول.

١٣- ويسري هذا الانضباط الى عمل الانسان الذي يلازمه في مسيرته وينفتح امامه يوم القيامة كتاباً منشوراً فلا اهمال ولا باطل في الكون.

١٤- وهناك تنقطع الحجة ويعود الانسان حسيباً على نفسه. حين يواجه الحقائق بكل وضوح.

١٥- تأكيد مجدد على الحقيقة السابقة فالهدى والضلال يعودان للانسان وعليه فلا تتحمل نفس وزرغيرها بعد ان توضح الحق للجميع ببعثة الرسل وبدون وضوح الطريق لا معنى للتعذيب .

١٦- هناك رابطة بين شيوع الترف والفسق والهلاك فالمترفون في العادة يتمردون على الاوامر حفاظاً على مصالحهم الآنية. مما يتطلب العمل على مواجهته.

١٧- ومسيرة التاريخ تؤكد حقيقة هلاك الامم بذنوبها والله تعالى هو الخبير البصير بما يفعلون لانهم عباده وخلقه.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

١٨- والذين ابتلوا بقصر النظرة يركزون على هذه الحياة العاجلة ولذاتها الفانية، وحينئذ وبقدر ما تتعلق به المشيئة والارادة الالهية في المقدار او الافراد، يعطون مرادهم ويغرقون في غواياتها، ولا عاقبة لهم في الآخرة الا النار يصلونها مذمومين مطرودين.

١٩- اما من اختار سبيل التكامل سبيل الاخرة وقام بلوازم هذا الاختيار ايماناً واحتساباً وطاعة لله فقد استحق العطاء الالهي نتيجة سعيه المطلوب.

٢٠- ان اللطف الالهي غامر بلا منع وحظر يمد الجميع، مؤمنهم وكافرهم، ويحقق للإرادة الانسانية ما تريد، وللحياة ان تمتد لينتخب كل ما يريد ويستمر التنافس والصراع.

٢١- وكما يتنافس الجميع على اختلاف طاقاتهم في كسب الرزق فيتفاوتون في الدنيا، فإن التفاوت حاصل في الآخرة نتيجة اختلاف مستويات العمل لها، وواضح أن درجات الآخرة أعظم وأسمى من التفاضل الدنيوي.

٢٢- ان الشرك يعني الانفصال عن الحقيقة، ويعني فقدان التوازن الحياتي ويعني الايمان بالاصنام الموهومة المقيدة لمسيرة التكامل ويعني غير ذلك مما يمزق الحياة ويدع الانسان فريسة للذم والخذلان.

٢٣- وان التوحيد في العبادة اساس المسيرة المتوازنة والعلاقات الطبيعية الفطرية حيث تأتي الرابطة الاسرية بشكل طبيعي مترتبة على الرابطة العقائدية. فيدعو القرآن الى الاحسان بالوالدين ويستثير العواطف بالتذكير بصفة الوالدية ولوازمها ويزداد التأكيد حينما يبلغ الوالدان او أحدهما سناً متقدمة قد تشكل عبئاً على الاولاد، فيأتي النهي حتى عن التأفيف والنهر والزجر وكل ماينم عن عدم الاحترام وانما الأمر بالقول الكريم الرحيم.

٢٤- وخفض الجناح مبالغة في التواضع وهكذا يجب ان يكون الابناء غاية في الرحمة والتواضع داعين الله للوالدين بالرحمة جزاء على مابذلاه من اتعاب التربية حينما كان صغيرا ولايقوى على شيء.

٢٥- انّ الايمان الاصيل هو النافذ الى النفوس والموجه للقلوب وبالتالي الجوارح، وعلم الله نافذ للاعماق وبالتالي يستحق الصادقون فقط ان يشملهم الغفران الالهي عند التوبة والعودة عن اي تقصير بحق الوالدين.

٢٦، ٢٧- وبعد الوالدين يأتي التذكير بالحقوق العائلية الواسعة ثم الحقوق الاجتماعية الاوسع للمساكين وابناء السبيل (المنقطع عن اهله وبلده) ثم النهي عن تبذير الثروة واضاعتها وحرمان المجتمع منها فانه عمل شيطاني كافر.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨- وعندما لا يجد الانسان ما ينفقه على المحتاجين ويضطر للاعراض عنهم مع امل في التمكن فان ذلك يجب ان يتم باسلوب اخلاقي وباقوال لينة وليعدهم الى ميسرة.

٢٩- واستمراراً في إيجاد الشخصية المتوازنة ينهى القرآن عن البخل من جهة وعن الانفاق حتى لا يبقي لديه شيئاً من جهة اخرى لئلا يبقى الفرد يعيش حالة اللوم والضعف والانحسار وعدم الاستمرار في النشاط الاجتماعي.

٣٠- والتفاوت في الرزق سنة ولطف بالعباد لأنه دافع نحو النشاط والعمل. فلا معنى للبخل والتبذير مادام الرزق بيد الله.

٣١- كما انه لا علاقة بين الفقر وكثرة النسل بعد ان كان الله هو الرازق. ومن هنا يأتي التشديد في النهي والانكار على من يئدون ويقتلون اولادهم خشية الإملاق والفقر فانه عمل خاطئ وتصور باطل.

٣٢- ويستمر القرآن في رفض التصورات الخاطئة، الممزقة للنسيج الاجتماعي السليم بالنهي عن الزنا بل النهي عن القرب منه لانه يعني الاشباع الحيواني الاعمى لغريزة اريد منها ان تكون اساساً لقيام العائلة وهي وحدة البناء الاجتماعي الاولى في التصور الاسلامي وعليها قامت نظرياته الاجتماعية واحكامه المتنوعة.

٣٣- وهنا يأتي التأكيد على احترام الحياة الانسانية للغاية ورفض قتل النفس الانسانية الا أن تقوم بعمل فاحش يفقدها احترامها وتستحق الاعدام على ذلك ومن ذلك ان تعتدي على نفس اخرى فيكون لولي هذه الاخيرة ان يقتص من القاتل دون أن يتجاوز الحد ويسرف بعد أن وعده الله بالنصر.

٣٤- وكما جاء النهي عن القرب من الزنا جاء هذا النهي عن القرب من اموال اليتامى الا بما يحفظ مصالحهم باعتبارهم الطبقة الأضعف، حفظا لحقوق الملكية وابقاء لمال اليتيم حتى يبلغ رشده اللازم ويستفيد من ماله. ووفاء للعهد فالعهد في المجتمع الاسلامي يعني المسؤولية والالتزام.

٣٥- وهكذا يجب ان تحترم الحقوق والمعايير والمكاييل والموازين العادلة فان في ذلك الخير الاجتماعي والمصير الاجتماعي الأحسن. من خلال نفي الفوضى واشاعة الثقة والانضباط.

٣٦- فالعلم هو الاحق بالاتباع لأنه انكشاف كامل ومبرر لحمل المسؤولية تجاه الواقع وتجاه كل الوسائل التي تكشف عنه كالسمع والبصر والعقل. وفي الآية دعوة لنبذ الاشاعات وسوء الظن وغيرها مما يفكك النسيج الاجتماعي.

٣٧- وهنا يأتي نهي آخر عن التكبر والاختيال والمشي بتبختر واعتزاز ويأتي التذكير بالضعف الانساني عن خرق الارض او بلوغ الجبال طولاً.

٣٨- ان كل تلك السلوكات السيئة أمور يكرهها الله رحمة بالانسان ولطفا وتحقيقاً للتماسك.

ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٣٩- بعد هذه السلسلة من التعليمات القرآنية الاجتماعية البنّاءة لمسيرة متوازنة وعلى أساس عقائدي متين يأتي التأكيد على أنها من الحكمة الموحى بها ونسيها التوحيدي الالهي فيجب التقيد بها وإلا فالهلاك واللوم والضياع والتأخر.

٤٠- عودة الى تصحيح بعض التصورات الجاهلية وتبيين الواقع والتصور الصحيح. فقد يعتبرون الملائكة بنات لله. ورغم ان تصور البنوة لله امرٌ سخيف في نفسه فان تصور اختصاص الله بالبنات دون البنين امر سخيف آخر وهنا يأتي هذا الاستفهام لينكر عليهم تصورهم ان الله خصهم بالبنين واختص هو بالبنات (والبنات في تصور الجاهلية اقل مرتبة).

٤١- والقرآن الكريم يعمل على صرف النفوس الى الحق بشتى الاساليب لتتذكر مقتضيات فطرتها ولكن هؤلاء المعاندين للفطرة يرتكسون في العناد والنفور عند استماعهم له لعدم قابليتهم للهدى.

٤٢، ٤٣- ومن تصوراتهم الباطلة ان قالوا بوجود شركاء لله في تدبير الخلق وإدارته. ولكن القرآن يذكرهم بلازم هذا القول وهو ان يسعى هؤلاء الشركاء للغلبة وتقليل قدرة الله ذي العرش والقوة سبحانه وتعالى على كل هذه الاقاويل الباطلة الوضيعة الى حد السخف.

٤٤- فالكون بكل مكوناته العظيمة والصغيرة تسبيح متناغم وتنزيه وتعظيم لله وان كنا لا نفقه ولا نفهم كيفية هذا التسبيح، ولا مجال فيه للعصيان والتمرد على امر الله فكلها وجودات ناقصة تحتاج الى موجه والى منسق عليم قدير، ولكن البشر من خلقه قد يسفون في تصوراتهم الباطلة ورغم ذلك فالله حليم غفور.

٤٥، ٤٦- والذي يقرأ القرآن يتفاعل معه ويشعر بعظمته وروحه ولكن من لا يؤمنون بالآخرة وبالتالي لا يؤمنون بالله حقيقة الايمان هؤلاء تقف بينهم وبين الاستجابة لدعوة القرآن حجب نفسية وعاطفية ومصلحية وتعصب مقيت، فقلوبهم في وعاء مقفل وآذانهم مبتلاة بوقر وثقل في السمع، وانفسهم في نفور شديد من كلمة التوحيد.

٤٧- وربما راح بعضهم يلجأ الى بعض، ويقوي بعضهم بعضاً بتناج وهمس خفي وتآمر على المنطق وابعاد عن الاستجابة وكل ذلك تحت علم الله وسمعه اذ يظلمون انفسهم والحقيقة بنسبة السحر الى الرسول(ص).

٤٨- ومن اساليبهم ضرب الامثال وبث الاقوال المشككة اليائسة التي تكشف عن الضلال والتيه والطريق المسدود.

٤٩- ومن اقوالهم المشككة: التشكيك في امكان البعث خلقاً جديداً بعد تحول الانسان الى عظام وبقايا بالية.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

٥٠، ٥١– ان ارادة الله هي النافذة فليكونوا حجارة او حديداً او خلقاً اشد واكبر صلابة من ذلك فان الله سيعيدهم الى خلقتهم الاولى ويبعثهم.

لانه القادر على كل شيء ولانه هو الذي خلقهم اول مرة. وعندما يجابهون بهذا الجواب الواضح يحركون رؤوسهم مستهزئين متسائلين: متى هو؟ قل عسى ان يكون قريباً ولكنه في علم الله محدد.

٥٢– انه اليوم الذي يدعوكم فيه الى الحساب فتستجيبون مدركين لعظمته ونعمته حامدين له، عالمين ان الحياة الدنيا في قبال الآخرة انما هي اقامة قليلة.

٥٣– وفي اثناء الرد على المتهجمين المشككين يلتفت القرآن الى المؤمنين طالباً منهم ان يقولوا التي هي احسن محذراً من نقاط الضعف التي يستغلها الشيطان لخلق النزاع والوقيعة بينهم فهو العدو المبين.

٥٤، ٥٥– ان الله تعالى هو الاعلم بعباده واستعداداتهم للرحمة او العذاب وليس الرسول نفسه موكلاً بهداهم بل الامر بيده تعالى فهو العليم بكل شيء واليه توكل الامور وارادته مطلقة في كل شيء ولقد شاء ان يفاضل بين النبيين ويؤتيهم مايشاء كما آتى داود الزبور وكل ذلك وفق علم مطلق وقدرة مطلقة وحكمة يعلمها هو.

٥٦، ٥٧– أسلوب آخر يحتج به القرآن على المشركين اذ يطلب منهم ان يدعوا هذه الآلهة المزيفة ان تكشف عنهم الضُر او تغير حالهم ولكنهم سوف يكتشفون انها غير قادرة على ذلك مطلقا بل هي نفسها تستمد منه القدرة والوسيلة وتتقرب اليه وترجو رحمته وتخاف عذابه وكل مافي الكون يرجو ربه ويخاف عذابه ويحذره، ومن يقدر على تحمل غضب الله ونقمته؟!.

٥٨– ان القرى (البلاد) جميعاً آيلة الى الهلاك قبل يوم القيامة او العذاب الشديد ان كانت قد آتت ما تستحقه به وكل ذلك مقدر مكتوب.

فيجب الاذعان للحقيقة والاعداد ليوم القيامة وعدم التكذيب به.

وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴿٥٩﴾ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴿٦٠﴾ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ﴿٦١﴾ قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴿٦٢﴾ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴿٦٣﴾ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴿٦٤﴾ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴿٦٥﴾ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴿٦٦﴾

٥٩- لقد كانت الآيات والخوارق تأتي شواهد على صحة الرسالات ولم يكن يؤمن بها الكثيرون مما يجعلهم مستحقين للعذاب ولكن الله شاء لهذه الامة الخاتمة والوارثة ان لايعاجلها بالهلاك فلم يستجب لطلب المعاجز الخارقة من قبل المشركين باعتبارهم سيكذّبون بها فيستحقون العذاب تماماً كما جرى مع الآخرين ومنهم ثمود التي كذبت وعقرت الناقة المعجزة الواضحة ظلما منها وجاءها العذاب.

٦٠- اما الخوارق التي حدثت بعد البعثة كإخبار الرسول بالاسراء والمعراج فلم تجعل بمثابة معاجز لتصديق الرسالة بل كانت امتحاناً لتصديق مايقوله الرسول وكذلك ذكره الشجرة الملعونة في القرآن وقيل انها شجرة الزقوم التي جاء ذكرها في القرآن والتي جعلت فتنة للظالمين وامتحاناً لهم اذ راحوا يكذبون بها متهكمين وقيل انها شجرة النفاق الملعونة التي حذر منها رسول الله والتي يمتحن الناس بها اذ تغويهم وتثبطهم عن الحق. ولكن المنافقين لا يزيدهم التخويف إلا طغياناً.

٦١- وان التكذيب ابتدأ من ابليس استكباراً وعتواً وهو امر يذكر به القرآن في مناسبات شتى تحذراً من اتباعه داعياً للاذعان للحق.

فبعد ان أمر الملائكة بالسجود لآدم استجابوا الا ابليس فقد رفض ذلك بحجة ان آدم خلق من طين وهو مخلوق من نار، ولكنه الحسد والاستكبار .

٦٢- وعندما طُرد ابليس وطلب ان ينظر الى يوم الدين فأمهل الى يوم الوقت المعلوم عند الله راح يعلن عن رفضه لتكريم آدم ويهدد بغواية اكثر ذريته واقتطاعهم عن مسيرة الهدى.

٦٣- ويشاء الله أن يفسح المجال له ويفتح امام الانسان سبيلي الخير والشر ليختار ويتكامل بارادته او يرتكس في الباطل باختياره فجزاؤه الموفور جهنم .

٦٤- وتتنوع وسائل الغواية الشيطانية: اغراء القوة، والضوضاء، والمشاركة في اختيار العقيدة، واكتساب المال والولد، واعطاء الوعود المغرية ولكنها في النهاية وعود زائفة لاحاصل لها سوى الغرور الكاذب.

٦٥- والمهم ان الارادة تبقى حرة لا يقهرها الشيطان خصوصاً اذا حققت العبودية و لجأت لله وتوكلت عليه.

٦٦- عودة لتعميق الايمان باستثارة الفطرة عبر استعراض نعم الله الكبرى. فهاهي الفلك تسوقها القوانين الكونية التي سنها الله لتحمل الانسان طالباً فضله في البحر مستفيداً من رحمته الشاملة.

وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴿٦٧﴾ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴿٦٨﴾ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴿٦٩﴾ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴿٧٠﴾ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ﴿٧١﴾ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴿٧٢﴾ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ﴿٧٣﴾ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴿٧٤﴾ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴿٧٥﴾

٦٧- وهي حالة يؤكد عليها القرآن لينبه الوجدان للحقيقة: ذلك أن الذي يحيط الخطر به في البحر وتتقطع به السبل يدرك بما يقرب من الاحساس أن هناك قوة عظمى تقدر على انقاذه فيلجأ إليها ولا يخدع نفسه باللجوء الى قوى وهمية اصطنعها هو. ولكنه ما ان يزول الخطر حتى يعود الى آلهته الوهمية ويعرض عن الحقيقة الكبرى. فينبغي ان تكون مع الله دائماً في الضراء والسراء وفي كل الحالات والمجالات.

٦٨،٦٩- ولكن الانسان لا يستطيع ان يؤمن له حياة بعيدة عن الخطر كخطر الخسف في البر او خطر العواصف التي ترمي بالحصباء ولا منقذ له، او خطر العودة الى حالة الخطر في البحر فترسل عليه ريح قاصفة تحطم مركبه وتغرقه نتيجة عناده وكفره فلا يجد من ينقذه او يتابع أمره ويتساءل عن علة ما أصابه ويثأر له. فكيف يغفل وكيف يطغى ويأمن.

٧٠- ان الله تعالى كرم الانسان واعطاه كل مايسهل له مسيرته الحياتية بكرامة وعزة، ووفر له كل وسائل النقل التي يحتاجها ليقوم بدوره الاعماري، ووفر له في الطبيعة كل ما ينسجم مع نموه الجسمي من الطيبات المنسجمة مع ذوقه وميوله الفطرية ووهبه امكانات تفضله على كثير من المخلوقات وفوق كل تفضيل نعمة العقل الذي يدرك به الواقع وموقفه منه ويقوم بحق الاستخلاف وهذه النظرة السامية والتكريمية للانسان من الاصول الاساسية في المفاهيم الاسلامية وعلى اساسها تقوم الكثير من الاحكام.

٧١- ان مسيرة الانسانية متواصلة ومقاصدها متنوعة وأئمتها مختلفة. وكلها معلومة عند الله. وسوف تعرض عليه يوم القيامة حيث يدعى كل اناس الى الحشر يقدمهم إمامهم، وكأنه تكرار مجدد للحالة الدنيوية، والفرحون في هذه المسيرة هم حملة صحائف اعمالهم بيمينهم يمرون قارئين لكتبهم بكل فخر اشارة رمزية للثقة بالنفس والقيام بالواجب وأنهم حققوا مقتضيات انسانيتهم وعبدوا ربهم فوفاهم ربهم اجرهم ولم ينقصهم شيئاً.

٧٢- وأما الذين اكبوا على شهواتهم ولم يبصروا الحقيقة في الدنيا فانهم يحشرون يوم القيامة متخبطين في الضلال جزاء لما اختاروه من سبيل.

٧٣، ٧٤، ٧٥- وتشير الآيات إلى محاولات المشركين الخبيثة لتحريف المسيرة النبوية الصادقة وتشكيكها في الوحي وتلويثها بالافتراء، واغراءاتها بالتقريب والخلة الا أن الدعم واللطف الالهي يقف امام كل تلك المحاولات ويمنع تحققها وتحقق نتائجها ومضاعفاتها من العذاب وفي الآيات شواهد على شدة التآمر، ودور العصمة، والاثنينية بين المرسل والرسول مما ينفي قطعاً نظرية الوحي النفسي لبعض المستشرقين واتباعهم.

وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦)

٧٦، ٧٧- واذ عجز المشركون عن تحريف الرسالة واغراء الرسول راحوا يستفزونه ويدفعونه ليترك هذه البلاد وشأنها في غير الموعد الملائم ولو فعل ذلك لحل بهم العذاب. ولكن التسديد الالهي دفعه للتخطيط الدقيق للهجرة فكانت من اروع الخطى. فلم ينزل العذاب على المشركين ولو كانوا اجبروا الرسول على الخروج لشملهم العذاب باعتباره سنة الله التي تجلت في مسيرة الرسالات السابقة، وسنة الله لا تتغير.

٧٨- وازاء الاغراءات واساليب الشيطان الماكرة لا سبيل الا الاتصال المستمر بالله وتوثيق الصلة معه باستمرار ومن هنا يأتي دور الصلاة وهي من الاركان التشريعية بل هي عمود الدين الذي يجب ان يقام بكل لوازمه. والآية تشير الى الفترة مابين الزوال الى منتصف الليل والواقع في هذا الوقت -كما تشرحه الروايات[1] وعاد بديهياً لدى المسلمين - هو اربع صلوات هي الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وتنظم اليها صلاة الفجر المشار اليها بعبارة (وقرآن الفجر) حيث تشهد هذه الصلاة ملائكة الليل والنهار.

٧٩- والتهجد هو السهر بعد النوم في اول الليل والمراد ان الرسول مامور بالسهر مصلياً تالياً للقرآن وهي وظيفة اضافية على الفرائض التي بينتها الروايات[2] واشارت اليها الآية السابقة اجمالاً. وبذلك يستحق المقام المحمود والمميز.

٨٠- دعاء يعلمه القرآن للرسول وبالتالي للأمة . ويحوي معاني رائعة. فهو يؤطر الحياة كلها: مداخلها ومخارجها بالصدق والثبات والطمأنينة والوصل بالله واستمداد القدرة والنصرة منه.

٨١- وهكذا تكون نتيجة الوصل بالله والصدق في الحياة أن ياتي هذا الاعلان الرائع عن مجيء الحق وبطلان ماعداه لأنه لا ينسجم مع الحقيقة ولا يملك مايدعمه من حجة، ولا يقوى على مقاومة مسيرة الحق.

٨٢- والقرآن هو الموجه الاول الصادق للحياة والاشباع الحقيقي لحاجات الانسان والشفاء لادوائه القلبية في مسيرته وفيه كل مظاهر الرحمة الالهية للعباد الذين ساروا على خط الايمان وبطبيعة الحال فان النفوس الظالمة المنحرفة عندما تواجهه تزداد عناداً وخساراً.

٨٣- ان الاسلام يربي الانسان المتوازن الثابت على خط الوصل الالهي مهما تغيرت الاحوال. والآية تنتقد حالة الانسان القلق المنقطع عن الله، فهو يطغى ويعرض عن الحق ويبتعد عن الله اذا تمتع بنعمة الهبة. وهو يعيش اليأس والقلق اذا مسه الشر.

٨٤- وهكذا تكون النتائج العملية منسجمة مع التركيبة الانسانية فاذا تمت التربية الايمانية كان العطاء والا فالنتائج السيئة.

٨٥- الروح حقيقة كبرى وآثارها واضحة ولكن هذه الحقيقة عصية على ان تدركها العقول وخصوصاً العادية ولذلك اكتفى القرآن في جواب السائلين عنها بانها من امر الله وان علم الانسان قاصر عن الاحاطة. وما اكثر المجاهيل في الكون والحياة.

٨٦- لوشاء الله لحرم البشرية من الوحي ولما وصل للرسول شيء منه فالرسول متلق له ومبلغ لا غير.

١ - الكافي ، ج ٣، ص ٢٧١.
٢ - من لا يحضره الفقيه ، ج١، ص ٤٨٤.

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

٨٧- ان نزول الوحي بالهدى القرآني انما هو من خلال رحمة الله ولطفه وفضله على الرسول والامة تبعاً له.

٨٨- ان القرآن معجزة الرسالة الخالدة بالفاظه ومعانيه وتعاليمه المحيية للأجيال الانسانية يسير كالشمس في العقول عبر التاريخ ومهما تعمقت فيه الافكار اكتشفت آفاقاً جديدة فهو اذن يتحدى الجميع ان يأتوا بمثله حتى لو دعم بعضهم بعضاً .

٨٩- لقد وضح القرآن للناس مناهج الرشاد وطرق الفلاح ولكن أكثر الناس ابوا ان يستضيئوا بنوره واختاروا طريق الكفر والضلال.

٩٠، ٩١- وبدل أن يستجيبوا للتحدي راحوا يعرضون عن القرآن ويسألون الرسول أن يفجر لهم ينبوعاً لا ينضب ماؤها او يوجد بالاعجاز جنة من نخيل وعنب تجري فيها الأنهار .

٩٢- او يسقط السماء عليهم قطعاً (كسفاً) او يأتي بالله والملائكة افواجاً دعماً له .

٩٣- او يكون له بيت من المعادن الثمينة او ان يصعد الى السماء ثم يرجع اليهم بكتاب يقرأونه ولا جواب لهذه الاقتراحات الطفولية الساذجة إلا قول الرسول: سبحان الله هل كنت الا بشراً رسولا. فهو بشر يتزه الله ويتلقى وحيه ويبلغ رسالته.

٩٤- ان معجزة القرآن واضحة جلية تدعو الجميع للايمان والتصديق برسالة الرسول ولكن مامنعهم من ذلك هو شبهة عارضة وهي استبعاد ان يكون الرسول بشراً وكأنهم يريدونه ملكاً يتمتع بفعل الخوارق والعجائب.

٩٥- ولكنهم لم يدركوا أن الرسول يراد له ان يبلغ شريعة الله ويقوده تجربة انسانية يكون هو نموذجها الاسمى والمطبق الاول لها فيجب ان تكون هناك سنخية بين الرسول والمرسل اليهم فاذا كان المرسل اليهم ملائكة مثلاً كان من الطبيعي ان يرسل لهم ملك رسول يهديهم بهدي السماء ويصلح لهم نقائصهم المادية الارضية انطلاقاً من علم الله ولطفه.

٩٦- فلا جدال مع هؤلاء الجهلة المتعنتين وانما يكفي ان ينتبهوا الى شهادة الله على الرسالة من خلال اجراء هذه المعجزة القرآنية على يديه وهو تعالى الخبير البصير بكل الامور والشاهد على العباد. ولاول مرة في عالم الرسل والرسالات تستبدل الخوارق في الاعجاز بالكتاب وما فيه من بلاغة وعلم ومفاهيم ترتقي بالبشرية لترى آيات الله في الآفاق والانفس ويتبين لها الحق.

وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

٩٧- ان الهدى والضلال بيد الله وعلى اساس من اختيار العباد واستحقاقهم لذلك، وهؤلاء المعاندون اختاروا طريق الضلال وابتعدوا عن الله فليس لهم اولياء ينصرونهم من دونه وهؤلاء كما اختاروا لمسيرتهم في الدنيا اذ أغلقوا اعينهم وافواههم واسماعهم عن الحقيقة وساروا مكبين على وجوههم سيحشرون كذلك مكبين أذلاء عمياناً وبكماً وصماً يوم القيامة.

ويساقون الى نار جهنم التي لا يخبو ولا يسكن لهيبها.

٩٨- ذلك مصيرهم الذي اختاروه هم بعد كفرهم بالآيات الواضحة وتشكيكهم بامكان البعث وعودة العظام وبقايا الانسان البالية من جديد.

٩٩- في حين ان من الواضح قدرة الله على ذلك وهو خالق السماوات والارض وقد جعل لهم اجلاً يموتون فيه ولكن الظالمين لا يبصرون ولا يفكرون بل يكفرون بالحقائق.

١٠٠- ثم بعد ذلك الطلب للمعاجز والجنات يبصرون لطف الله الواسع ورحمته بهم ولكنهم بدورهم يعيشون البخل والخشية من الفقر. وتلك هي حالة الانسان البعيد عن التربية الالهية اذ يبقى قلقاً شديد البخل خشية الاملاق.

١٠١- ان الاتيان بالخوارق الكثيرة قد يسكت المعاندين لفترة ولكنه لن يربي نفوسهم على الايمان فهذا موسى آتاه الله الخوارق الواضحة كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون وغير ذلك مما يشهد به بنو اسرائيل فما كان جواب فرعون رأس العناد الا انه اتهم موسى بالجنون والابتلاء بالسحر.

١٠٢- ويرد عليه موسى بأنه يعلم أن هذه آيات انزلها الله معه ليتبصر بها الناس فتقودهم الى الحق ولكنه لعناده يكذب بها وسيهلك نتيجة لذلك وله الويل والثبور.

١٠٣- وهنا يعمل فرعون على استفزازهم وتحريكهم ليقوموا بما يوجب القضاء عليهم، فتحركوا هاربين فتتبعهم ليحقق ما يريد ويمحوهم من الأرض ولكنه ابتلي بغرقه هو وقومه. وهذا هو منطق الطغاة وعاقبتهم فليدرك ذلك امثالهم ومنهم طغاة قريش.

١٠٤- ويشاء الله أن يرث بنو اسرائيل ارض فرعون وملكه ليرى الله كيف يعملون ويشكرون هذه النعمة او يكفرون بها - ويوم القيامة - يجمعهم جميعاً للحساب.

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الكَهْف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

١٠٥- واذا كان اثر تلك الخوارق وقتياً فقد جاء هذا القرآن منزلاً بالحق ونازلاً به ثابتاً ثبوت الحق ودوامه على مر الزمان يبشر البشرية بالدين الخالد والشريعة الجامعة وينذرها ويحذرها من سلوك سبل الضلال.

١٠٦- كما جاء مفصلاً يربي الامة آناً وآناً ويربي الاجيال جيلاً فجيلا بكل صبر وتأن ومتابعة.

١٠٧- وسواء آمن به هؤلاء المشركون ام لم يؤمنوا فان هناك فئةً اوتيت العلم من قبل ذلك (وقد تكون اشارة لتصديقه من قبل بعض اهل الكتاب) تدرك عظمة القرآن وتخشع قلوبها عند تلاوته بل لا يملك هؤلاء الا ان يخروا ساجدين معلنين تفاعلهم معه مدركين عمقه.

١٠٨- مسبحين لله ومنزهين ومؤمنين بتحقق الوعد الالهي بالبعث والحساب .

١٠٩ – ويتكرر هنا ذكر السجود و الزيادة في الخشوع لسماع القرآن والبكاء المتفاعل معه .

١١٠- انه تعالى الكمال المطلق، وله كل الاسماء الحسنى المعبرة عن مظاهر الكمال، واليه تنتهي كل معاني الجمال والحق، وعنده فقط تسكن النفس التواقة للكمال، الوهي للحقيقة المطلقة، لتصل الى توحيده في الذات والفعل والعبادة. ولا معنى لجدال الجاهليين حول اسمائه ودعوة الله او الرحمن سواء وكل الى ذاك الجمال يشير.

١١١- وبما انه تعالى هو الحقيقة الكاملة العالمة القديرة فلا داعي للجهر بالصلاة ولا داعي للاخفات، وانما الاليق بالوقوف بين يدي الله هي حالة التوازن بينهما.

انه تعالى خالق الكون ومالكه فهو أهل للحمد وحده ليس له شريك ويتنزه عن أن يكون له ولد أو ولي يسد نقصاً فيه، كلا فهو الكامل الغني المطلق والكبير المتعال.

سورة الكهف

أوضحنا من قبل معاني البسملة وجزئيتها للسورة.

١- الحمد لله وحده وهو اهل له اذ أنزل على الرسول عبده الكتاب الذي لا انحراف فيه بل هو كل متناسق منسجم مع الحق في الكون والفطرة في الانسان هادياً له نحو العلاء.

٢، ٣- انه الكتاب القيم القائم باشباع كل حاجات الانسان التربوية باعتدال وحكمة وتدبير أنزل على عبده لينذر من الانحراف ويبشر باروع العواقب عند الثبات على الخط وتحقيق اقصى مايحلم به الانسان بطبعه وهو الخلود في النعيم.

٤- وينذر المنحرفين المشركين القائلين بان لله اولاداً وبنات جهلاً وزوراً وتأثراً ببعض العناصر الوهمية والنسبية في التأثير .

مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

٥- ان نسبة الولد الى الله كلمة عظيمة الخطأ كبيرة الجرأة على الحقيقة يقولها هؤلاء دون علم لهم ولا لابائهم بها انها تعني فيما تعني التجسيم والنقص والتركيب تعالى الله عن ذلك.

٦- الا ان هذه الكلمات الباطلة وهذا التكذيب والعناد يجب ان لايثبط من عزيمة الرسول ويبعث في نفسه التأثر والتألم والاسف لما عليه هؤلاء من ضلال وعدم ايمان.

٧- فهاهي الارض مترعة بالجمال والزينة والتناسب مع رغبات الانسان وكل ذلك يجب ان يبعث فيهم التأمل في منبع العطاء ومخطط الجمال ولكنهم قد يفشلون في الامتحان ويغلقون بصائرهم عن الحقيقة الناصعة. في حين ان التأمل الصحيح يجب أن يدفعهم للولاء لله والتسابق في الاعمال الحسنة.

٨- وحين يفقدون كل ذلك الجمال وتعود الارض قاحلة لا نبت فيها ولا نضارة يدرك المعاندون سخفهم وضياعهم ونتائج عدم تأملهم وعدم تعاملهم بما هو افضل مع نعم الله في الارض.

٩- وتبدأ من هنا قصة أصحاب الكهف، وهم نموذج الفئة المؤمنة المفكرة المضحية في سبيل عقيدتها متجاوزة كل اغراءات القوة والزينة والراحة. لقد خلد التاريخ هذه القصة في رقيم ولوح قديم وربما تناقلت الشعوب بسالتهم ايماناً واعجاباً ولكنهم يمثلون الحالة الطبيعية في المؤمن فلا عجب في سلوكهم او في قدرة الله.

١٠-ملخص للقصة يعطي اولاً ثم يأتي التفصيل: إنهم فتية تركوا زهو الحياة ولجأوا الى ضيق الكهف يستمدون من الله رحمته ويسألونه الهداية والرشد في مسيرتهم بعد ان ضاقت عليهم الحياة وضاقوا بالباطل.

١١- فأنامهم الله نومة لا يسمعون فيها أي صوت وطالت نومتهم الى سنين عديدة .

١٢- ثم ايقظهم الله من نومهم ليبدأ اختلاف في مدة النوم واحصائها.

١٣- ومن هنا يبدأ تفصيل القصة وبيانها الحق الصحيح فقد كانوا فتية وفقهم الله للايمان بوعي وعمق ونفوذ الى الاحاسيس وحينها يفيض عليهم بهداه المتزايد والمتنامي. فلا يكفي الايمان العقلي فقط.

١٤- لقد اعطى الايمان لقلوبهم رباطة وعزيمة وطمأنينة فقاموا بكل عزم وقالوا بكل اطمئنان ان ربنا هو الله رب السموات والارض ومدبرها فلا شريك له بعد وضوح هذا التناسق الرائع الذي يجعل الشرك شططاً وسخفاً من القول.

١٥- وهو ما ابتلي به قومهم فقالوا بآلهة وهمية لا مثبت لها ولا دليل عليها بل الكون بتناسقه شاهد على التنسيق الواحد. ان الشرك ظلم وافتراء على الحقيقة وكذب على الله.

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

١٦- ولما لم يمكن التعايش بين مجتمع مشرك وفتية مؤمنين فقد قرروا الاعتزال والتخفي وربما اكتشف امرهم ، ولجأوا الى الكهف طالبين لطف الله ورحمته ففيها متسع من الكهف الضيق بعد سلامة الايمان.

١٧- والشمس المتناسقة مع هذه الحركة الايمانية لا تنالهم بأمر الله باشعتها فتتمايل عند الطلوع عنهم الى اليمين فلا تؤذيهم ولكن تنير الكهف واذا غربت تتجه الى الشمال وهم في متسع ولعل ذلك للموقع الجغرافي للكهف لا تناله الأشعة مباشرة فهي اذن تشرق على احد الجانبين عند الطلوع والغروب دون أن تباشرهم بذلك.

لينعموا في نومتهم بلا تأثير للحر. وذلك من آيات الله اللطيف الرحيم والهدى الحقيقي هو هداه والضلال عن سبيله هو الضلال الرهيب الذي لا منقذ منه .

١٨- ويحسبهم الرائي ايقاضاً ولكنهم نائمون وتقلبهم يد العناية الالهية ذات اليمين وذات الشمال وربما لكيلا تركد قواهم وكلبهم عند الباب باسط ذراعيه كأنه يحرسهم ، وهم في حالة تثير الرعب وتبعث على الفرار لمن يراهم ولعل ذلك لئلا ينغص عليهم نومتهم أحد أو ينالهم بسوء.

١٩- وأستيقضوا متسائلين عن المدة التي استغرقها نومهم وهم لا يحسون بطوله ولكنه على اي حال شكل رحمة بهم اراحتهم هذه الفترة. ولم يستغرقوا في الاجابة وانما اكتفوا بانها كانت يوماً او اقل منه، ثم اوكلوا العلم الى الله واهتموا بأمرهم ليبعثوا احدهم بدراهمهم الى المدينة ليختار ازكى الطعام ويجلبه اليهم، وراحوا يوصون الرسول بالحذر واللطف في التعامل.

٢٠- ان الخوف كله من اكتشافهم وغلبة الكفر عليهم وقتلهم او العمل على اعادتهم الى الكفر والارتداد وبالتالي فقدان هذه الجوهرة العظيمة جوهرة الايمان. وعندها يكونون قد ارتكبوا الخطأ الكبير بسبب عدم احتياطهم للأمر. كل هذا دون ان يشعروا بمرور القرون ودوران الزمن وتعاقب الاجيال وفناء الكافرين، وتناقل قصتهم عبر التاريخ الماضي واختلاف الآراء فيها.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢١- ولكن المدينة التي كانت قد تحولت للايمان تكتشف أمرهم وتكبرهم وتعظّمهم. والعبرة من هذه القصة تتجلى في تقديم نموذج حسي للبعث ليعلم الناس انه حق، وان الساعة آتية لاريب فيها. كما يتجلى جانب من قدرة الله على ابقائهم احياء. وينتقل القرآن الى حادثة موتهم بعد ذلك بعدة قليلة - كما يبدو - اذ راح الناس يتنازعون خارج الكهف: هل هناك حياة اخرى بعد الموت خصوصاً وأن هذه الحالة دالة على وجودها مما يرجح رأي المؤمنين بها ؟ وكيف يصنعون لهم؟ وكيف يخلدون ذكراهم؟ وعلى اي دين كانوا.

فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً واتركوهم لحالهم. وقال آخرون ممن يؤمنون بالآخرة: لنتخذ عليهم مسجداً يعبد فيه الله ويبقى ببقاء ذكرهم.

٢٢- ويدور الجدال بين الناس حول اصحاب الكهف وعددهم وراحوا يرجمون بالغيب بين الثلاثة والخمسة والسبعة الا أن القرآن يغلق هذا البحث العقيم موكلاً الامر الى الله فهو يعلمه كما يعلمه القليل ايضا. فلاداعي للدخول في جدل حولهم الا في بحث عابر ولا داعي لاستفتاء احد في ذلك.

ونستفيد من هذا لزوم ان يكون موضوع الحوار المطلوب عملياً ومفيداً.

٢٣، ٢٤- ان الحكم والعلم الحقيقي في الغيبيات الماضية والآتية لله فيجب ان نعيش في الاطار ولا نقطع بوقوع امر في المستقبل الا ان يشاء الله فهو المهيئ للاسباب والمسهل للأمور. والاسباب التكوينية ليست اسباباً ذاتية وانما يمدها الله باقدارها على التأثير واذنه لها بذلك.

وهكذا يلجأ المؤمن الى ربه ويعيش في مجال مشيئته ويتذكر مدده الدائم له بالحياة والحركة ويطلب منه الهدى والرشد .

٢٥- فصل الخطاب في المدة التي لبثها اهل الكهف في نومهم يعلنه القرآن وهو ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً. وقد يكون تحديد المدة بسنينها وعدم تحديد عددهم، لكون طول مدة المكوث ثم البعث بعدها مؤثراً في السامع بخلاف عددهم.

٢٦- وعلى اي حال فالله اعلم بمدة بقائهم نائمين وله غيب السماوات والارض .

٢٧- وهكذا يطلب القرآن من الرسول ان يتلو كتاب الله ويعلن ان لا مبدّل لكلمات الله وسننه وان لا ملجأ الا اليه.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

٢٨- قبس من التربية والرعاية الالهية حيث يطلب القرآن من الرسول ان يثبت نفسه مع صف المؤمنين الذين يواصلون الدعاء صباح مساء يريدون به وجه الله ورحمته وهداه ، ولا يترك ملازمتهم ولا يلتفت الى صف اناس اكبر همهم زينة الحياة الدنيا (وقيل انهم كبراء قريش الذين كان الرسول يطمع في استمالتهم لهذا الدين وكانوا ينفرون من صف الفقراء من المسلمين) وان لا يستمع الى طلبهم فهم الغافلون عن ذكر الله والمتبعون لهواهم والمفرطون المسرفون.

٢٩- وان يعلن بكل صراحة ان الحق هو ما اوحاه الله اليه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، واذا اختار طريق الكفر فقد ظلم وقد أعد الله للظالمين ناراً يحيط فسطاطها بهم ولا مهرب منها. واذا استغاثوا من حرها اغيثوا بماء يغلي كالزيت المغلي او كالنحاس الذائب يشوي الوجوه وساءت متكأ وملاذاً .

٣٠، ٣١- في حين ينعم المؤمنون العاملون للصالحات بعطاء الله الذي لا يضيع اجرهم مطلقاً بل يدخلهم جنات دائمة تجري من تحتهم الانهار ويتمتعون فيها بأروع الحلي والاساور الذهبية ويرفلون بثياب الحرير الأخضر من سندس (ديباج) واستبرق (وهو نوع آخر منه) متكئين في راحة ونعيم وخلود وهو اقصى مايتمناه المرء ثواباً ومآلا.

وتلاحظ المقارنة بين حالة الكبراء المترفين في سرادق النار والمستضعفين المؤمنين في جنات عدن.

٣٢- وكمثل للقيم الزائفة والاخرى السامية يضرب القرآن مثلا لنموذجين من البشر: أحدهما رجل غني تنسيه النعمة منعمها فهو مالك لجنتين من كروم كثيرة يحف بهما النخيل وينمو بينهما الزرع.

٣٣- وقد اثمرت كلتا الجنتين بمحصول وفير ويجري خلال الجنتين نهر غزير.

٣٤- وراح صاحب الجنتين مختالاً يفتخر على صاحبه الآخر الذي لا يبلغ مستواه من الغنى، في حوار له معه قائلاً: انا اكثر منك مالاً وأعز منك نفراً، كناية عن كثرة الولد والاتباع.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٣٥- ويستولي الغرور عليه فيعميه عن الحقائق ، ويدخل الى بستانه مزهواً به ظالماً لنفسه ووعيه تاسياً ان هذه متع زائلة معلناً انه لا يظن زوالها.

٣٦- بل يرتقي به الغرور الى انكار البعث -وهكذا هو الغافل يسلب الحادثة نسبيتها شيئاً فشيئاً ليمنحها التعميم المزيف - ثم هو يقول انه علي فرض وجود الآخرة فان له مقاماً كريماً عند الله باعتبار عناية الله به في هذه الدنيا.

٣٧- وهنا يجيبه صاحبه المؤمن الواعي وهو يحاوره بتذكيره بغروره وضعفه اذ كان اصله تراباً فمنّ الله عليه وتقله الى خلق حيوي اسمى ثم تقله الى خلق اشرف فجعله انساناً فكيف يمكن لعاقل أن يكفر بالله؟

ان تأملاً بسيطاً في مراحل التكامل الانساني يقود الانسان الى الخالق.

٣٨- انه الخالق الرب الذي يتابع امداد الانسان في مراحل تكامله ويفيض عليه الوجود والتكامل وشكر هذه النعم العظمى يتجلى في التوحيد والعبادة.

٣٩- أن البديل الطبيعي لحالة الزهو والكفران السابقة ان يدخل من انعم الله عليه بجنة وفيرة الى جنته واعياً لعطاء الله ومشيئته وقوته ولطفه معلناً ذلك لساناً وقلباً . ويضيف هذا الصاحب المحاور: انه راض بقسمة الله له ان يكون اقل منه مالاً وولداً.

٤٠- ان الامر لله فقد يمنّ على صاحبه الأقل منه مالاً بالمال والولد او يؤتيه خيراً مما لدى الآخر الغني في حين يرسل على جنة الغني سهاماً وشهباً سماوية لتصبح ارضاً يباباً ملساء لانبات فيها.

٤١- او تغورمياهها وتشح ينابيعها فلا ينفع معها حفر او علاج.

٤٢، ٤٣- وجاء امر الله ودمر الثمر وخوت الجنة على قوائمها وساد الندم والاسف على تلك الجهود المبذولة والاموال المنفقة ، وعلى ذلك الكفر بالحقيقة والشرك بالله وعاد المغرور وحيداً فريداً لا ناصر له من دون الله.

٤٤- وهنا يتجلى الولي الحق امام العقول المنكرة فهو وحده المثيب وبيده العقبى الخيرة .

٤٥- انه مثال مصغر لدنيا مكبرة: ماء ينزل رحمة فتشربه الارض لتنبت نباتاً فتعصف به الرياح فيتناثر بقدرة الله القادر المطلق. وهكذا هي هذه الدنيا الفانية التي يركن اليها المغترون.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٤٦- انه الدرس العام المطلوب تركيزه في نفوس المؤمنين. ذلك ان المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا وقوام استمرارها، وقد اودع في الفطرة الانسانية مايشد الانسان اليهما لتستمر الحياة. فالتمتع بهما طبيعي ولكن في الاطار الطبيعي فلا يتحولان الى معبود ومعشوق وآلهة وهية بل هما واسطتان للتكامل والاعمار والقيام بالصالحات فهي الخير المطلوب والهدف المرجو.

٤٧، ٤٨- واستمراراً في تعميق البناء القيمي للمؤمن يعرض القرآن بعض مشاهد القيامة حيث تسير الجبال وتنكشف الارض بكل انحائها وتحشر الخلائق جميعاً فتعرض امام ربها العظيم. تعرض كماهي وعلى حقيقتها بلا اي زينة او تفاضل. ويأتي التأنيب الالهي للمنكرين الزاعمين انه لا بعث ولا موعد للحساب.

٤٩- ويفتح سجل الاعمال الشامل، ويقف امامه المجرمون بضعف وإشفاق مبهوتين لهذه الدقة في الاحصاء بل لهذا العرض المجسد للاعمال فلا مجال لادعاء الظلم او الانكار.

٥٠- انه تذكير بمنطلق خلق الانسان حين امر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا الا ابليس وكان من الجن يخالط الملائكة فادركه الغرور وخرج عن امر ربه وأعلن العداء للانسانية والسعي الدؤوب لاغوائها ولكن الظالمين ابوا إلا ان يتولوا عدوهم وذريته ويستجيبوا لإغراءاته بدلاً من رفضه واللجوء الى الولي الحقيقي.

٥١- ولكن الشياطين – وخلافاً لتوهم المشركين – لايملكون أهلية الولاية فلا قدرة لديهم، ولا علم بخلق السماوات والارض ولا علم لهم بأنفسهم وخلقها، ولا دور لهم في ادارة الكون. وماكان الله أوكل اليهم امراً وهم المضلون الاعداء للبشرية، فلا معنى لتوليهم والركون اليهم.

٥٢- ويأتي التحدي الالهي في ذلك الموقف الرهيب طالباً من المشركين ان ينادوا الشركاء المزعومين لله، وعندما لا يستجيب الشركاء للنداء يدرك المشركون خسرانهم بوضوح وتحول بينهم وبين الشركاء المزعومين هوة الهلاك.

٥٣- وتبرز النار المخيفة امام المجرمين ليعلموا انها مصيرهم المحتوم.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

٥٤- ويعود القرآن الى مخاطبيه ليؤكد انه فتح أمامهم كل السبل ليصلوا الى الحقيقة فلا معنى لهذا الجدل والمراء والتملص.

٥٥- ولم يمنعهم من الايمان والعودة الى الله الا طلبهم ان يطبق عليهم ماجرى على من سبقهم وهو عذاب الاستئصال – استبعاداً لوقوعه – او تأتيهم نذر العذاب فيواجهونها ليؤمنوا حينئذ ولا فائدة بعد من الايمان.

٥٦- ومسألة التعذيب بعد الانكار امر موكول الى الله وما على الرسل الا التبشير بالحياة في ظل الله والانذار والتحذير من مخالفة اوامره. الا أن الكافرين يتخذون اسلوب الجدل وكل الاساليب الباطلة الاخرى ليردوا بها على الحق الثابت ومن اساليبهم الاستهزاء بآيات الله وانذاره وكل ذلك دليل على العجز عن المواجهة المنطقية.

٥٧- إنه لأعلى درجات الظلم ان يواجه احد بآيات الله العليم القادر فيعرض عنها ولا يبالي بما عمله من المعاصي. فكان أن أوقعه الله في حالة عمى القلب فكأنه محبوس في وعاء فلا يفهم. ومبتلى بوقر الأذن وصممها فلا يستجيب لدعوة الهدى والصلاح بل يرتكس باستمرار في الضلال.

٥٨- لقد طلبوا استعجال العذاب ولكن رحمة الله وغفرانه شاءت أن تمنحهم فرصة اكبر والوعد محدد لن يجدوا عنه ملجأ ومفراً.

٥٩- الا يرون حالة من سبقهم اذ جاءهم الهلاك لظلمهم بعد تحديد موعد لذلك وتلك سنة الله.

٦٠- ولكي يدرك هؤلاء المطالبون بتعجيل العذاب ان لله مصالح وحكماً في تأخيره عنهم يأتي ذكر حديث موسى مع العبد الصالح. ويبدأ باعتزام موسى القيام برحلة الى مجمع البحرين – وقيل هما بحر فارس وبحر الروم او البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر او مجمع خليجي العقبة والسويس – وانه كان مصمماً على ذلك حتى لو طالت الرحلة اعواماً ودهراً طويلاً. للاستزادة من العلم والمعرفة ذلك لأنه كان قد وُعد هناك بوعد وأعطي علامة لذلك. وقد اصطحب معه أحد اعوانه وحمل معه سمكة مشوية.

٦١- فلما بلغا المحل الموعود، احيى الله السمكة فسلكت طريقها الى البحر والمرافق يتعجب لذلك ولكنه نسي ان يخبر موسى بذلك كما نسي موسى ان يسأله عن السمكة.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

٦٢- فلما تجاوزا الموعد المحدد للقاء العبد الصالح أدرك موسى التعب فطلب من مرافقه ان يأتيه بالسمكة ليتغديا.

٦٣- ولكن المرافق تذكر الحادثة واخبره بها (وكانت هي العلامة التي اعطيت له للقاء العبد الصالح) وكانت عند صخرة مطلة على البحر وذكر له انه نسي ان يخبره بها رغم انها كانت حادثة عجيبة.

٦٤- فقال موسى أن ذلك كان مقصده فعادا من حيث أتيا يتبعان الأثر.

٦٥- فوجدا عبداً من عباد الله آتاه الله الرحمة وعلّمه علماً لدنياً مباشراً خاصاً. وقيل انه الخضر عليه السلام.

٦٦- فكلّمه موسى بلطف طالباً أن يتبعه فيعلمه من علمه اللدني الخاص لتنمو طاقاته ويزداد رشده.

٦٧ و ٦٨- فاخبره الرجل عن انه لا يستطيع معه صبراً لان علمه ليس من العلم المتعارف والمتداول بل هو علم خاص جداً. ذلك ان الانسان بطبعه لا يستطيع ان يصبر حين يرى امامه حدثاً غريباً وربما كان ظاهره العدوان او السفه ولكنه يصدر من رجل صالح عالم. وبدلاً من محاولة الوصول الى الحقيقة واستعلامها، يقوم بالاعتراض.

٦٩- فاكد له موسى وعاهده أن يكون – بارادة الله – صابراً ولا يعصي له اي أمر يصدره.

٧٠- فطلب الرجل الصالح من موسى انه ان اتبعه فيجب ان لا يسأله عن سر فعلته حتى يكشف هو له عن ذلك. فالعلم والمعرفة يحتاجان الى المصابرة والتحمل.

٧١- فانطلقا معاً – دون ان يصطحبا المرافق معهما – فركبا سفينة فقام الرجل الصالح بثقبها وايجاد عيب فيها فتساءل موسى عن سر هذا العمل العدواني في الظاهر لأنه يؤدي الى غرق السفينة باهلها.

٧٢- فذكّره الرجل بالعهد الذي قطعه على نفسه وانه لا يستطيع الصبر معه.

٧٣- فطلب منه موسى الصفح وعدم المؤاخذة نتيجة نسيانه لعهده وعدم تكليفه بالعسير من امره.

٧٤- وانطلقا في مسيرتهما ليلاقيا غلاماً فيقتله الرجل فيعترض عليه موسى ويعتبره قاتلاً لنفس زكية غير مذنبة لغلام لم يبلغ الحلم وهو امر منكر لا يمكن السكوت عليه.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

٧٥، ٧٦- فذكره الرجل ثانية بانه لا يستطيع ان يصبر معه فطلب موسى معتذراً ان يعطيه الفرصة الاخيرة فان سأله بعدها فله ان ينهي هذه الصحبة وله عذره.

٧٧- وتحركا حتى وصلا الى قرية. ولما كانا جائعين فقد طلبا طعاماً من اهل القرية فرفضوا ان يقدّموا لهما الطعام وهنا رأيا جداراً آيلاً للسقوط فقام الرجل باقامته وتقويته ودعمه فاعترض عليه موسى بانه يصنع خيراً لهم دون مقابل وأجرة رغم جفائهم لهما.

٧٨- ولم يبق لموسى مجال للاعتذار وراح الرجل يعلن الفرقة ويشرح له الحكمة وراء تلك الامور الغريبة.

٧٩- لقد كان خرق السفينة لمصلحة ملاكها وكانوا فقراء مساكين يعملون عليها وكان هناك ملك ظالم يغصب السفن الراسية وبطبيعة الحال فانه سيترك هذه السفينة العاطبة المعطوبة لأهلها رغبة عنها ليقوم المساكين باصلاحها والارتزاق بها. فهو ضرر قليل يدفع ماهو اعظم.

٨٠- واما الغلام فقد كان في حقيقته كافراً طاغياً يستطيع ان يضغط على ابويه المؤمنين ويجرهما جراً الى العناء وربما الكفر وقد شاء الله أن يبدلهما به ولداً صالحاً زكياً يقوم برعايتهما ويصل رحمهما.

٨١، ٨٢- واما الجدار فقد كان مقاماً على كنز ليتيمين لرجل صالح فلو سقط لانكشف الكنز ونهب من قبل الناهبين البخلاء. فشاء الله أن يبقى الجدار ويستتر الكنز حتى يكبرا وبالطبع لديهما مايدلهما عليه رحمة بهما وجزاءً حسناً لابيهما الصالح.

وبعد بيان الغاية من اعماله يوضح الرجل العالم لموسى ان ما عمله كان بارادة الهية خاصة ولا يدخل في الحسابات الظاهرية والتصرفات العادية.

وهكذا تومىء هذه القصة الى ان هناك حكماً خفية لكثير من الظواهر الكونية التي قد تبدو للانسان مبهمة بل تبدو فيها جوانب مظلمة ظالمة رغم ان فيها الصلاح والجمال فيجب ان يوكل الانسان الأمر فيها الى الله العليم القدير الرحيم. كما يمكن ان تكون للتحلي بالصبر والمثابرة لاكتشاف مجاهيل الكون والحياة.

وتأتي القصة – كما اسلفنا – في سياق بيان وجود حكم الهية في امهال الكافرين لا يدركونها وفي سياق ترك الغيب لله كما في قصة اصحاب الكهف.

٨٣- ويأتي هنا الحديث عن ذي القرنين في جواب تساؤل – ربما كان امتحانياً آتياً للمشركين من قبل اهل الكتاب – ولكنه ينسجم مع سياق الإخبار عبر العلم الغيبي .

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

٨٤، ٨٥- انه رجل مكّنه الله واعطاه قوة وسلطاناً ومنحه أسباب العظمة والقدرة والعمران وكل مايوصله الى ذلك فاستفاد من هذه القدرات بشكل مستمر ومتتابع.

٨٦- فانطلق بقواه نحو الغرب حيث منتهى اليابسة المعروفة آنذاك، وحيث كانت تلوح الى منتهى النظر برك مملوءة بالطين الاسود الحار وحينئذ يبدو للناظر على مدى الافق ان الشمس تغرب فيها. ووجد عندها قوماً يسكنون تلك المنطقة. وهنا خيره الله بين تعذيبهم وبين ان يسلك معهم مسلك العفو، ولعل هذا التخيير لما علم من حال القوم ولما عرف منه من خير وصلاح او لعله تخيير امتحان.

٨٧، ٨٨- فما كان منه الا ان اتخذ سبيل العدل إذ وعد الظالمين بالعذاب الدنيوي الذي يتبعه عذاب اخروي اكبر حيث يبدو ان القوم قد تعرفوا من قبل على منذر الهي بيّن لهم سبيل الحق واعطاهم وعي الآخرة، واما من آمن وعمل صالحاً فسوف يكون له الجزاء الحسن والمعاملة الطيبة.

٨٩، ٩٠- وفي رحلته الثانية اتجه ذو القرنين نحو الشرق - اقصى الشرق في نظره - فوجد الشمس تطلع على قوم لا يحجبهم عنها حاجب من جبل او غابة. وربما لا يملكون ما يستترون به عنها او انهم كانوا يعيشون الحياة الهمجية.

٩١- وقد تعامل معهم ذو القرنين بما يعلمه الله من تعامل المؤمن القادر العادل.

٩٢، ٩٣- وفي رحلته الثالثة جهز خبراته وقواه واتجه الى منطقة تقع بين سدين او جبلين فوجد عندها قوما بسطاء ذوي لغة غير مفهومة .

٩٤- ولما كان هؤلاء البسطاء والضعفاء مبتلين بهجمات وغارات من قبل اقوام همجية مفسدة في الارض اسمها يأجوج وماجوج، وقد رأوا في ذي القرنين هذه القدرات الهائلة، طلبوا منه أن يبني لهم سداً مابين الجبلين او الحاجزين الطبيعيين يمنع الغزاة في مقابل اجر يقدمونه له .

٩٥- ولكنه وعدهم ببناء السد دون ان يقبل منهم الأجر وكانت خطته ان يردم مابين الجبلين مستعيناً بقوتهم الجسمية العظلية.

٩٦- وطلب منهم أن يجلبوا له قطع الحديد ويكوموها في الفتحة بين الجبلين حتى كأن جانبي الجبلين صدفتان تحيطان بالحديد المكوم، وتراكم الحديد حتى ساوى القمتين وحينذاك أشعل النار المتوهجة بالمنافخ ثم طلب نحاساً مذاباً فصبه عليه ليسد الخلل بين القطع ويقوي الحديد.

٩٧- وهكذا اغلق الطريق على الاقوام الهمجية فلم تستطع أن تتسلقه او تثقبه.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

٩٨- ولم يغتر ذو القرنين بهذا الانجاز العظيم وانما شكر الله على رحمته ولطفه به اذ أستطاع ان يساعد هؤلاء الضعفاء. واعلن ان هذا العمل الجبار مهما كان فهو صغير الى جانب قدرة الله وسيندك عند حلول يوم القيامة.

فكان بذلك نموذج الحاكم القوي الصالح العامل بالعدل والمعين للضعفاء.

٩٩- وعندما يحين يوم القيامة يجمع الله الناس ليموج بعضهم في بعض ثم يأتي النداء الالهي ونفخة الصور لتنتظم صفوفهم للحساب.

١٠٠- وتعرض جهنم بكل مافيها من رهبة امام الكافرين.

١٠١- ويبصر الغافلون الذين لم يبصروا الحقيقة ولم يستمعوا اليها في الدنيا النار أمامهم الآن.

١٠٢- واذا باولئك الذين تولوا عباد الله من دون الله واطاعوهم يرون أنفسهم اذلة لا ينصرهم احد ويتجلى لهم مصيرهم في النار.

١٠٣، ١٠٤- انهم الأشد خسراناً فأما الدنيا فسعيهم فيها ضلال وضياع في الواقع رغم أنهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ويشبعون فيها اهواءهم.

١٠٥، ١٠٦- واما في الآخرة فلا قيمة لأعمالهم ولا وزن بعد ان كانوا كذبوا بآيات الله ولقائه واستهزأوا بالآيات والرسل فاستحقوا عذاب جهنم.

١٠٧- وفي قبال اولئك الأخسرين اعمالاً يقف المؤمنون العاملون للصالحات وقد حققوا كل آمالهم حيث جنات الفردوس ينعمون فيها بالطيبات خالدين لا يرغبون عنها الى حياة اخرى.

١٠٨- وهكذا جاءت هذه السورة المفعمة بآيات الله وعلم الله وهداه للبشرية الحائرة الجاهلة تقودها نحو صلاحها وتوصلها نحو السعادة بالعلم الالهي المطلق والكلمات الالهية التي لا تنفد ولا تنتهي مطلقاً.

١٠٩- مثال حسي على الاطلاق في العلم والقدره والهدي الالهي فان البحر الواسع الغزير - لو تصورناه حبراً تكتب به الكلمات - يمده بحر مثله سوف ينفد ويفقد ما لديه من طاقات وتبقى الكلمات الالهية اوسع واوسع من ذلك لان فيها اسرار الوجود العظيم وحسبك ان الانبياء والرسل مع كل ما يملكون من مراتب العظمة والسمو انما هم كلمات الهية.

١١٠- وما الرسول الا انسان كالباقين ولكنه يمتاز عليهم بالوحي واعطاء المعرفة التوحيدية مما يسمو به الى اعلى درجات الكمال في الوجود ويبقى امام الانسانية ان تستفيد من هذا العطاء فترجو لقاء ربها وتعمل صالحاً وتقوم بكل مقتضيات التوحيد لتسعد وتنعم بالخلود وهكذا تختتم السورة بالتأكيد على لزوم الالتزام بخط الايمان، والاعتقاد بعظمة الله وعلمه المطلق.

سورة مريم

سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

البسملة آية قرآنية تعبر عن قيام الكون باسمه تعالى.

١، ٢- تبدأ السورة بالحديث عن الرحمة الالهية التي خصّ الله بها زكريا النبي وهذه الروح تسري مع السورة حتى النهاية وبطبيعة الحال فان الرحمة نفسها تقتضي الشدة مع المنحرفين. وربما كان هدفها تركيز عبودية الله وصفاء المطلقة. وتقديم النماذج الرفيعة من الانسانية.

٣- اذ راح زكريا يناجي ربه في معزل عن الناس ويبثه همومه. والدعاء سلاح المؤمن، ووصل له بربه، وتنفيس له عن كربته، وبالتالي فهو سبيل للتكامل.

٤- انه يشكو لربه الوهن والضعف الشديد، والشيخوخة ويعلن لربه أنه عاش مع الدعاء، ونجى به من الشقاء، واستمد منه السعادة باستمرار.

٥- انه يخشى أن يضيع تراثه من بعده، وربما كان يشير الى تركته المعنوية كاستمرار خطه الدعوي التوحيدي ، وقيمومته على مريم، والمادية ايضاً. خصوصاً وهو لا يرى في الموالي من عمومته او كلالته او عصبته الخير المطلوب ولا ولد له لأن امرأته كانت عاقراً لا تلد ولذا فهو يسأل الله ان يعطيه ولداً بقدرته غير المعتادة بعد ان كانت الظروف العادية كلها تأبى حصول ذلك.

٦- انه يطلب الوريث الصالح المرضي المتخلق بالخلق الحسن الذي يرثه في ماله وفي خطه العلمي والعملي الصالح والدعوة الى التوحيد وربما كان يرجو الله ان يجعل في ولده امتدادا للنبوة خصوصاً وهو يشير الى آل يعقوب وهوالخط التوحيدي النبوي المعروف عبر التاريخ.

٧- ويستجيب الله دعاءه، ويناديه مبشراً له بغلام ويعطيه اسماً لم يسم به أحد قبل ذلك (يحيى) ولم يكن له شبيه من قبل.

٨- وهنا يتهيب زكريا الموقف وهذه الاستجابة السريعة لهذا الأمر المستبعد بالنظر الى الواقع القائم: فامرأته عاقر، وهو شيخ كبير جف عطاؤه وفقد قواه. فيتساءل عن كيفية تحقق ذلك.

٩- وطبيعي ان يأتي التذكير الالهي بالقدرة المطلقة، فكل شيء امامه هين سهل خصوصاً بعد التنبه الى ان الله تعالى خلق الانسان ولم يك شيئاً.

١٠- ومسألة الايمان العقلي بهذا الامكان شيء وموضوع الاطمئنان القلبي بمثل هذه الحادثة العجيبة شيء آخر وهوما رأينا شبيهه في قضية ابراهيم وكيفية إحياء الموتى، لذلك يطلب زكريا من ربه آية حسية ، والحس اكثر تاثيراً في تحقيق الاطمئنان . فكانت الآية الحسية أنه يفقد القدرة على تكليم الناس ثلاث ليال بأيامها.

١١- ويخرج زكريا الى قومه وأتباعه من محراب صلاته – وهو اشارة الى محل الحرب ضد الشيطان والشرك – ليطلب منهم بالايماء والايحاء – لأنه لا يقدر على التكلّم – ان يسبّحوا الله صباحاً و مساءً.

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

١٢- ويتوجه النداء ليحيى – وهو صبي – أن يتحمل الامانة الالهية (النبوة) ويأخذ التوراة – أو كتاباً خاصاً به – ويبلّغ بها بعد ان يتفهممعارفها ويطبق تعاليمها وقد آتاه الله القدرة على ذلك رغم كونه صبياً لم يبلغ الحلم بعد. وقد يكون ذلك تمهيداً لولادة المسيح عيسى من دون أب وبمعجزة الهية هي الاخرى.

١٣- وغمره الله بالحنان والنمو الصالح والتقوى وهي عناصر تؤهله لحمل الامانة.

١٤- واتصف ببر الوالدين والتواضع للناس والبعد عن التكبر والعصيان والغلظة يعيش مع الناس، ويلين لهم، ويرحم ضعفاءهم.

١٥- فهو يعيش حياة السلام والايمان من حين ولادته وهو يموت في جو السلام واللطف وسوف يبعث والسلام يحفه ايضاً. وهكذا يشكل يحيى نموذج الانسان المؤمن الصالح: ترعاه الحكمة، وتنميه الرحمة والحنان، وهو بر بوالديه ومن أحسن اليه، ورحيم بالناس، يتقي المعاصي، ويعمل مطمئناً في اطار السلام الالهي. وفي الآية إشارة الى أهمية يوم الولادة ويوم الوفاة.

١٦- وبعد ذكر قصة زكريا ويحيى يأتي الحديث عن عيسى وتتشابه حياتهما وسيرتهما المباركتين كنموذجين انسانيين صالحين على مستوى القمة.

فهذه مريم المرأة المباركة الصالحة العذراء أم عيسى تعتزل قومها متجهة الى منطقة شرقية.

١٧- وتتخذ لها مكاناً تحتجب فيه عن قومها وربما لتعتكف للعبادة. وهنا يتمثل لها جبرئيل بشراً سوي الخلق.

١٨- وبطبيعة الحال فإنها تذعر اذ يفاجئها رجل سوي في هذه الخلوة فتستعيذ بالله الرحمن وتذكره بالتقوى.

١٩- ليجيبها بانه رسول من الله ليهب لها غلاماً طاهراً زكياً نامياً بالخير.

٢٠- ويزداد تعجبها رغم ان روعها يهدأ بعد ان تعلم انه ملك الهي مقدس ولكن أنى يمكن ان يهبها غلاماً وهي عذراء لم يمسسها بشر ولا هي انسانة فاجرة تستجيب للعمل الحرام؟!

٢١- وهنا يأتي نفس التذكير السابق الذي تم لزكريا وهو التذكير بالقدرة الالهية المطلقة بالاضافة للحديث عن الحكمة الالهية من ذلك وهو أن يكون الحادث آية ومعلماً يقود الخلق الى الايمان بالله وقدرته المطلقة ويحقق مقتضيات الرحمة الالهية بالخلق فالرحمة هي سر خلق الكون ومده بالحياة والحركة وهي سر بعث الانبياء ليهدوا البشرية الى اهداف خلقتها. وكل ذلك كان امراً محتم الوقوع.

٢٢- وتعود حاملة بعيسى – بامر الله – وتبتعد عن قومها متجهة الى مكان بعيد.

٢٣- وألجأتها أعراض المخاض والولادة الى جذع نخلة يابس، ولا معين لها وهي تلد لأول مرة. فيستولي عليها الفزع وتتمنى أن لو كانت قد ماتت قبل هذا ونسيها الناس.

٢٤، ٢٥- ويناديها طفلها – على الظاهر – من تحتها ان لا تخاف ولا تحزن فقد جعل الله لها جدولاً سارياً يجري تحت قدميها ثم ان عليها ان تهز النخلة العارية لتساقط عليها رطباً جيداً صالحاً للاقتطاف.

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

٢٦- وهكذا يتجلى جانب آخر من الرحمة الالهية فإذا بمريم تجد الشراب والطعام والطمأنينة (قرة العين) والضمان بعدم أية مشكلة فيضيف طفلها أن لها أن تأكل وتشرب وتطمئن فإذا واجهها قومها فعليها أن تعلن انه نذرت صوم الصمت فلن تكلّم بشراً آناءه.

٢٧- وعندما عادت الى قومها حاملة ولدها بهت القوم فهاهم يشهدون مريم العابدة القديسة العذراء وهي تحمل طفلاً فاتهموها بالعمل المنكر الفضيع.

٢٨- فهي اخت هارون اي المنتسبة الى هذا الفرع المعروف وهو من هو في ورعه وعفته، وهي ابنة عمران الرجل الخير المعروف بالصلاح، وما كانت أمها من المنحرفات. فكيف اذن ترتكب هذا العمل القبيح؟!

٢٩- فأفهمتهم بالاشارة ان عليهم ان يسالوه عن امره فيزدادون تعجباً وحيرة من أمرها اذ كيف يكلمون صبياً يرتضع؟

٣٠- وفي قلب العاطفة وفورانها تحقق القصة هدفها إذ يعلن الرضيع – الذي اتخذه البعض الهاً جهلاً ومكابرة – ويصرح أنه عبدالله خصه الله برحمته فآتاه الكتاب وجعله نبياً.

٣١- ومنحه البركة وهي الخير المتزايد، له وهو يولد وينمو، وللناس اذ يهديهم نحو السعادة ويربيهم تربية زاكية ويقف الى جانب الضعفاء والمحرومين واوصاه الله – مادام حياً – بالصلاة وهي قربان كل تقي وعمود الدين وصلة العبد بالله، والزكاة وهي قيام بحق المال، وسد للحاجات الاجتماعية.

٣٢- فهو اذن نموذج للانسان الصالح الذي يبرّ والدته ويتواضع للناس ولا يشقى به احد وليس من الجبابرة الطغاة.

٣٣- وهو – كما رأينا يحيى من قبل – يولد في سلام ويموت ويبعث في جوالسلام. وهكذا هو المؤمن الحق.

٣٤، ٣٥- هذا هو عيسى ابن مريم على حقيقته. انه العبد الصالح لله وانه الانسان البر المبارك المصلي المزكي المطيع لربه لا ما يفتريه بعض اهل الكتاب من أنه اله او انه ابن الله، فان الله هو الكامل الغني القادر المطلق فلا معنى لنسبة الولد اليه وهو خالق الكون بارادته وينفذ امره بلا تخلف وامتناع.

٣٦- انه رب الكون والانبياء والبشرية جمعاء وعليها ان تقوم بما تقتضيه هذه العبودية من اتباع اوامره ونواهيه فهي الصراط المستقيم نحو الكمال والسعادة.

٣٧- هذه هي حقيقة عيسى رغم اختلاف فرق النصارى فيه، رجماً بالظنون والاوهام واتباعاً للمصالح الرخيصة وتقولاً عليه. والقرآن ينذرهم ويحذرهم من مشهد يوم عظيم.

٣٨- ان البصر والسمع قويان حديدان آنذاك ولكنهما اليوم كليلان يرهقهما الضلال والضياع.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١)

٣٩- انه اليوم الذي تتجلى فيه حسرة الظالمين الذين منحهم الله كل مايمكن ان يحققوا به سعادتهم من عقل باطني ووسائل حسية للمعرفة وانبياء يهدونهم سواء السبيل، ولكنهم فرّطوا في كل ذلك وغفلوا عنه ولم يبق سبيل للنجاة.

٤٠- لقد قضي الأمر وورث الله الارض والخلق، وعادت المخلوقات اليه للحساب.

٤١- وينتقل القرآن الى مظهر آخر للرحمة الواسعة يتمثل في دعوة أبي الانبياء ابراهيم الصديق الصادق مع فطرته ومع ربه ومع عائلته وقومه.

٤٢- وهاهو يحاول مع ابيه - وقد يكون عمه - كي ينتبه عن طريق الوثنية فهو ينكر عليه وهو الانسان السامع المبصر العاقل ان يعبد وثناً لايسمع ولا يبصر ولا يعقل شيئاً كما لا يملك ان ينفع أو يضرّ في شيء.

٤٣- ومن الطبيعي الفطري ان يتبع الجاهل بشيء أمر من يملك العلم به وقد حصل ابراهيم على العلم الواقعي المنسجم مع البرهان والفطرة وهو أمر حرم منه أبوه فينبغي له ان ينفتح على هذا العلم وينتخب السبيل القويم والإنسان مدفوع لذلك.

٤٤، ٤٥- ان الوثنية مسلك شيطاني مضل ينبع من غرور وضياع ووهم يحول الشيء العاجز الفقير الى وجود مطلق وهي مقيد لحركة الانسان وداع اياه لعصيان الله الرحمن المنعم العظيم مما يؤهل المرء لاستحقاق العذاب الالهي والانتقال من ولاية الله تعالى الى ولاية الشيطان وهو ما يخافه ابراهيم على أبيه ناقلاً ذلك بلطف وبكل صدق.

٤٦- ولكن قلب الاب القاسي لا يقبل هذا الكلام الرحيم العطوف وانما يستغرب ويحتج عليه بأنه رغبة وخروج عن المسيرة التي جرى عليها الأب وبالتالي فهو يهدده بالقتل رجماً بالحجارة ان لم يرجع عن هذه الدعوة ويطلب منه الابتعاد عنه لمدة طويلة.

٤٧- ويعود ابراهيم الرحيم ليقول له: سلام عليك دون عنف وتحد، واعدا اياه باستغفار الله الرحيم له لانه تعالى حفي بابراهيم يستجيب دعاءه ويكرمه.

٤٨- اما الاعتزال فهو ما يريده ابراهيم مبتعداً عن مجتمع الشرك والضلال ملتجأ الى الله داعياً أن لا يسلكه في درب الاشقياء المتكبرين. وقد يكون الاعتزال احياناً شكلاً مرحلياً من اشكال المواجهة مع الباطل.

٤٩- وحين اعتزل قومه الضالين، ومسلكهم الوثني الشيطاني شملته العناية والرحمة الالهية ووهبته اسحق وبعده ولده يعقوب وهي اشارة الى استمرار النبوة في ولده وبيته ليكون منار الهدى عبر الازمان.

٥٠- لقد كانت ذرية ابراهيم مهبط الرحمة وبيت التوحيد ومعدن الصدق، ومحور المقام الرفيع في التاريخ.

٥١- ويتم الانتقال هنا الى مظهر آخر من مظاهر الرحمة الالهية.

انه موسى رجل الاخلاص والمثابرة على الحق - ولذلك استخلصه الله - والرسول المبعوث لنشر الهدى بعد ان كان نبيا عنده من انباء الغيب ما يصله بالله باستمرار.

وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

٥٢- وقد ناداه الله من الجانب الايمن من جبل الطور وقربه اليه معنوياً ليناجيه ويقربه من افضاله.

٥٣- وكان من رحمة الله أن اعطاه اخاه هارون النبي ليكون له معيناً ووزيرا.

٥٤، ٥٥- كما كان اسماعيل مظهراً آخر من مظاهر الرحمة ونموذجاً انسانياً سامياً اذ كان صادق الوعد وكان رسولاً هادياً ونبياً متصلاً بالله باستمرار. وكان يحث اهله على الصلاة اهتماماً بشأنها الرفيع ودورها في الحياة، كما كان يؤكد على الزكاة والانفاق لسد الخلل الاقتصادي وتحقيق التوازن المطلوب وبالتالي فهو يحقق في فكره وحياته الهدف الذي يجب ان يطلبه المؤمن دائماً وهو رضا الله لأنه اوسع المعايير واعمقها وادقها في الحياة. (والظاهر انه غير اسماعيل بن ابراهيم).

٥٦، ٥٧- وهكذا يذكر ادريس النبي ويتم التركيز على صدقه المؤكد كما تم التركيز عليه من قبل عند التعرض للانبياء السابقين. وهي صفة يراد تركيزها في المؤمن دائماً لأنها تعني الانفتاح على الحياة والفطرة والآخرين بكل وضوح مما يؤدي لجو الثقة والتوازن والتعالي الاخلاقي وبالتالي استحقاق المكانة الرفيعة عند الله تعالى، كما استحقها أدريس.

٥٨- تأكيد على مسار السورة في تقديم النماذج العلية التي تشملها الرحمة الالهية فتقود المسيرة البشرية الى علائها، وتتركز هذه النماذج في خط المهتدين الصادقين الذي يبتدئ بآدم ويسير في ذريته الصالحين ممن حملته سفينة نوح ويمتد في ذرية ابي التوحيد ابراهيم ومن بعده اسرائيل (يعقوب) انه الخط المهتدي المجتبى من قبل الله لمهمة الهداية العامة، خط الصالحين الواعين المتفاعلين مع آيات الله الكاشفة عن جلاله وجماله وعظمته ورحمانيته فاذا تليت عليهم خرّوا لله ساجدين باكين متضرعين .

٥٩- الا أن البشرية العمياء يغرها الشيطان في فترات اخرى فتقطع الصلة بالله وتضيّع الصلاة فتبتعد عن التقوى وعن ماضيها الصالح وتسيطر عليها الاهواء فلا يبقى لها مصير الا الخواء والغيّ والوهم والانحلال والظلام.

٦٠، ٦١- اما الجانب المضيء في التاريخ فهو مسيرة التائبين العائدين الى الله والمؤمنين به والعاملين للصالحات فانها ستسعد في الدنيا ولها الجنات في الآخرة جنات الثبات والاقامة الدائمة التي وعدها الله بها وكان وعد الله متحققا بلاريب لأنه القادر الصادق.

٦٢- إنها جنات القول الحق والخلو من اللغو والكلام الفارغ، والسلام والأمن والهناء بالرزق الالهي الخالد الدائم.

٦٣- انها عاقبة عباد الله المتقين الواعين للحقيقة.

٦٤- تؤكد الروايات على ان هذه الآية والآية التالية هي قول امر جبرئيل ان يقوله للرسول رداً على استبطائه للوحي، فهو لا يتنازل الا بامر الله الذي يملك الأمر كله وهو تعالى لن ينسى امر الهداية.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

٦٥- انه رب الكون فله العبودية الكاملة والمولوية والطاعة في كل سلوك فردي واجتماعي. وهذا هو مقتضى العقل القطعي فيجب العمل والاصطبار على تحقيق رضاه قياماً بحق المولى والمالك الحقيقي للكون وشكراً للمنعم العظيم والرب الكريم الذي لا يشاركه احد في الربوبية.

٦٦، ٦٧- استمرار في عرض شبهات الكافرين وكشف زيفها، فهم يستبعدون البعث بعد الموت ناسين ان الله خلقهم قبل ذلك دون ان يكونوا شيئاً.

٦٨- انه التهديد الرهيب بالحشر يوم القيامة مع الشياطين والاحضار حول جهنم جاثين على ركبهم أذلاء بعد ان كانوا متكبرين اشقياء.

٦٩، ٧٠: ثم بانتزاع رؤوس الكفر والعناد منهم الاشدّ تمرداً على الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء وقذفهم اولاً باول الى نار جهنم جزاء على سبقهم في العناد واصرارهم عليه.

٧١،٧٢- وهنا يعلن القرآن ان الخلائق جميعها تشهد هذا العرض الرهيب وترد هذه الساحة بشكل قاطع وحينئذ ينجي الله المتقين فيشعرون بعظمة النعمة، ويعبرون الصراط الى الجنة، ويبقى الظالمين امام لهبها جاثين اذلاء ينتظرون العذاب .

٧٣- ومن الشبهات التي كان المشركون يرددونها اغراءً للمؤمنين واعجاباً بمسلكهم هو ماكانوا يقارنون فيه بين نواديهم المزينة بالأثاث والزخارف واللذائذ والمناظر رغم انها تنكر آيات الله في حين يقبع المؤمنون بها في فقرهم وعنائهم وبؤسهم فأيّ الحالتين افضل؟

٧٤- ونسي هؤلاء المتفاخرون بأثاثهم وأبهتهم ومناظرهم ان الله أهلك أقواماً كانوا اكثر تزيناً وأثاثاً وبهاءً فليس ذلك معياراً تقاس به السعادة وتقدر به الحقيقة ويغتر به المغترون.

٧٥- فليستمر هؤلاء في ضلالهم، وليمدّهم الرحمن بما يستمرون به من متع رخيصة زائلة حتى اذا رأوا عذاب الدنيا او موقف القيامة الرهيب فسيعلمون الحقيقة وراء كل الظواهر وسيعرفون ايّ الفريقين (المؤمنين والكافرين) هو الادنى مكاناً والأضعف جنداً.

٧٦- اما الخط المؤمن فهو متكامل يمدّه الله بالهدى المتزايد ويفتح أمامه سبل العمل الصالح الباقية آثاره على مر الدهور والتي ستتحول الى ثواب الهي ومأوى خير يحقق للانسان كل مايصبو اليه من سعادة في الدارين.

أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَـٰطِينَ عَلَى الْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

٧٧- وهذا نموذج من سلوك المشركين واقوالهم انه يكفر بآيات الله ثم يدعي انه سيؤتى مالاً وولداً وكأنه يدعي أن الكفر مدعاة لتوفر الخير والرفاه.

٧٨- وكأنه مطلع على الغيب أو أنه موعود من قبل الرحمن بذلك. ولكن الحقيقة واضحة في انه مجرد ادعاء وتكبّر ومحض افتراء.

٧٩، ٨٠- كلا انها افتراءات وتصورات باطلة يبتلى بها المبطلون باستمرار مكتوب عليهم فتجرهم الى الخيبة والعذاب الممتد معهم الى مابعد موتهم ليواجهوا عواقبها يوم لا ناصر لهم ولا ولي وانما يقفون لوحدهم امام الله العظيم وعذابه الاليم.

٨١- وانما أشرك هؤلاء بالله آلهةً لأنهم تصوروا أنها ستعزهم وتنصرهم.

٨٢- ولكنه الوهم القاتل فستكفر الآلهة نفسها بهذا الشرك وترفضه بل تقف على الضد منه. حيث ستظهر الامور على حقائقها وتنكشف الخفايا.

٨٣- بل الا ترى الشياطين اليوم تحرك الكافرين وتؤزهم نحو الفساد الذي فيه هلاكهم وضياعهم . فهي في الواقع تعمل ضدهم رغم أنهم يعبدونها فكيف تكون لهم عزاً.

٨٤- فلا عجلة في الأمر، ان كل ما يقومون به معدود مسجل عليهم ليوفوا حسابهم يوم الحساب.

٨٥، ٨٦- يوم تتميز الصفوف فهذا وفد مكرم من المتقين يتجه نحو الرحمن وعطائه. وهذه مجموعة مهانة من المجرمين تساق الى جهنم فترد الهوان .

٨٧- واذا كان المشركون يتخذون من دون الله آلهة لتشفع لهم آنذاك فذلك وهم باطل . فالشفاعة لا تتم الا بعهد من الله يعطيه للمقربين .

٨٨- وهذا انحراف آخر يلقي صاحبه في حضيض الشرك: انه ادعاء الولد لله عملاً بقياس التشبيه وهو مزلة الاقدام ونتيجة الضعف في التصور وتصعيد ذهني للمخلوق الى مرتبة الخالق سبحانه.

٩٠، ٩١، ٩٢- فهو أمر فضيع تتفطر السموات لبشاعته وتنشقّ الارض وتخرّ الجبال وتتحطم لفرط انحطاطه لأنه يعني التشبيه لله بمخلوقاته والتجسيم والنقص والحاجة والمحدودية وكلها يتنزه عنها سبحانه.

٩٣،٩٤، ٩٥- فكل من في السماوات والارض عباد لله مطيعون لا يملكون من أمرهم شيئاً وهم في كنفه يعيشون ويُرزقون ، تعدّهم يد القدرة وتحصيهم وكل فرد منهم سيقدم على ربه وحيداً راجيا عونه ولطفه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٩٦- وعلى العكس من المشركين واقوالهم التي تملأ الكون رهبة ورجفة ولعنة عليهم، يتحدث القرآن هنا عن جو المحبة الذي يحيط بالمؤمنين العاملين للصالحات، وعن عهد الرحمن لهم بان يلقي مودتهم في قلوب الناس.

٩٧- وبالتالي فان رحمة الله تجلّت اروع تجل في القرآن الكريم الذي يحمل اعظم المعاني والتعاليم وقد يسرت وسهلت بهذا اللسان العربي المبين ليستقي منه المتقون البشرى بالحياة السامية، وليمكن ان يترك تأثيره في الاناس الذين عاصرهم الرسول فينذرهم عاقبة عنادهم اذ كانوا قوماً يجادلين مخاصمين.

٩٨- ولكن لا مجال للعناد واللجاج بعد هذا التاريخ المفتوح امامهم بكل الامم التي عاندت فرأت وبال امرها ضياعاً في متاهات النسيان فلم يعد لها وجود ولم يبق منها أحد ولا يسمع لها صوت بذكر.

سورة طه

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١، ٢- خطاب للرسول الكريم يعمل على تقليل اندفاع الرسول ومشقته في التعامل مع الرسالة واتعاب نفسه في حمل القرآن بل والقائها في العذاب والمشقة الزائدة سواء في التعبد او في التعامل مع الآخرين.

٣- ان هذا القرآن تذكرة لمن خشي الله واتقاه وشاء الوصول الى الحقيقة والتعبد المطلوب، والاستجابة لما ركز في الفطرة من ميل نحو التدين.

٤، ٥- وهو منزل من خالق الكون والوجود بمقتضى رحمته الواسعة وهدايته للكون تشريعاً عبر ارسال الانبياء والكتب، وتكويناً عبر سيطرته على العرش وهو مركز ادارة الكون.

٦- فله ملكية الكون الحقيقية بما فيه من سماوات وأرض وما بينهما وما تحت الثرى (التراب) وهي حقيقة اذا تقررت في النفوس غيرت النظرة للاشياء ووجهت الانسان نحو الرؤية الصحيحة والمنهج المطلوب.

٧- وهو – تعالى – عليم بكل شيء ومحيط بالاشياء فكلها ماثلة امامه فلا فرق بين جهر وسر بل ان ما هو أخفى من السر وهو حديث الضمير الذي نسيه الإنسان وبقي في لا شعوره، معلوم له. وبالتالي فان الله مع الرسول بعلمه ولطفه يسدد خطاه ويقوي من عزيمته.

٨- انه الله الواحد المتصرف في الكون والمتصف بكل صفات الجمال والجلال وله كل الاسماء الدالة على معاني الكمال والجمال.

٩- ويذكر هنا حديث موسى وتسديد الله له في مسيرته الشاقة انسجاماً مع مطلع السورة.

١٠- هاهو موسى يعود بأهله من مدين – بعدما قضى مدة تعهده لشعيب – الى مصر وفي الصحراء يضل طريقه فيبصر على البعد وهج نار بعيدة فيطلب من اهله ان يمكثوا مكانهم ليذهب هو باتجاه النار عسى ان يجلب منها شعلة او يعرف الطريق الصحيح ممن أوقدها.

١١، ١٢- فلما وصل الى النار نودي بنداء الجلال الالهي وانه في الحضرة الالهية وحظوتها وطلب منه ان يخلع نعليه لأنه في طوى وهو الوادي المقدس لأنه منتسب لله، وكل ما ينتسب لله مقدس.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾

١٣- نداء الاختيار الالهي لموسى ومنطلق الوحي والرسالة.

١٤- ان التوحيد هو اساس الرسالة الالهية ولذا يأتي التاكيد عليه بكل ادوات التوكيد، ومن التوحيد تنطلق العبادات والتشريعات وفي مقدمتها الصلاة فهي عمود الدين، وهي قربان المتقين وهي مثال رائع لذكر الله.

١٥- والايمان بالقيامة هو الركن الآخر للعقيدة ويبقى العلم بها مجهولاً يترقبه الانسان المؤمن ويسعى له كي يدخله طاهراً سليماً وهو يعلم ان كل ما عمله في هذه الدنيا سيواجهه في الآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

١٦- انَّ الايمان بالآخرة سر السير الصحيح على خط التكامل، فيجب التمسك به وعدم الاستماع الى من انكرها لأنه اتبع هواه وشهواته فانكر ان يحاسب وظن ان الامر قائم على العبث فانحط الى الدرك الاسفل.

١٧، ١٨- ويبدأ هنا موضوع اعجاز موسى باعتباره علامة صدقه فالمعجزة لا يقدر عليها الا الله لأنها تخرق القوانين السائدة، والله لا يجريها الاعلى أيدي الصادقين فيسأل موسى عما في يمينه فيجيب بانها عصاه التي يتوكا عليها ويخبط بها اوراق الشجر لاطعام الغنم بالأضافة للمنافع الأخرى وكلها منافع عادية.

١٩، ٢٠- ويؤمر موسى بالقائها فاذا بها تتحول الى حية متحركة تدبّ فيها الحياة.

٢١- وعندما يحس بالرهبة من هذه الحالة يؤمر بأخذها لتعود بأمر الله عصا كسابقها .

٢٢- وأمر ايضاً بوضع يده تحت إبطه ليخرجها بيضاء دونما آفة او مرض.

٢٣- انهما آيتان من آيات الله الكبرى ترتبطان بالتكامل، والتحول والتكامل يعني الانتقال الى حالة اكمل بتأثير قدرة فاعلة تهب الحالة الاكمل ويتوضح الامر بجلاء عندما توهب الحياة وهي السر العظيم.

٢٤- انها وظيفة كبرى ان ينطلق الى فرعون الطاغية فيكسر طغيانه.

٢٥- ولكي يضمن القدرة على تحقيق المهمة على أكمل وجه يسأل موسى ربه ان يمنحه أشياء: في مطلعها شرح الصدر ليتحمل المشكلات مهما عظمت.

٢٦- ومنها تيسير الامر فالله هو الميسر فلا تنفع طاقة الانسان دون تيسيره.

٢٧، ٢٨- ومنها: ان يحل عقدة في لسانه ربما كانت تمنعه من توضيح مقصوده تماماً.

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢- ومنها: ان يعينه باخيه هارون ويشدّ أزره به ويشركه في أمر الرسالة وتحقيق المهمة الكبرى، وليشتركا في التسبيح والذكر الكثيرين .

٣٣، ٣٤ن ٣٥- فالتسبيح والذكر هما مادتا التكامل النفسي وتحصيل القابلية للطف وهما حبل الوصل مع الله الذي يراقب عبده ويبصر تحركاته فهو حاضر عنده يعلم حاجاته ويسدد خطاه.

٣٦، ٣٧- واستجاب الله لموسى هذه الأدعية وذكّره بألطافه عليه منذ ولادته.

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)

٣٨، ٣٩- فهاهو يرعاه رضيعاً اذ يوحي الى أمه ان تضعه في صندوق ثم تقذفه في النهر لينقله النهر الى الساحل ليتسلمه عدو الله وعدو موسى وهو فرعون. وهكذا ينجو الطفل من الموت نتيجة الامر الفرعوني بقتل كل ذكر يولد في بني اسرائيل كما يلقي الله محبة منه عليه فينصرف فرعون عن قتله.

وهكذا يصنع موسى على عين الله ومن كان كذلك لا يمكن ان يمسه سوء. وكذلك ينمو هذا الموجود الضعيف الذي لايجد عند ولادته موضعاً من الارض يستقر عليه، ينمو في قلب القدرة الطاغية ثم يقضي عليها لأنه يصنع على عين الله.

٤٠- ويرعاه الله ايضاً عندما يرده الى أمه من خلال رصد اخته له. وحين رأت رجال فرعون يطلبون مرضعة له اقترحت عليهم امه مرضعة له لتقر عينها بطفلها ولا تحزن. كما يحوطه بعنايته عندما قتل القبطي انتصاراً للاسرائيلي المظلوم فهداه للاستغفار والفرار من القصاص، وما تلى ذلك من حوادث وامتحان وفتن حتى استقر لسنين في ارض مدين. وفي الوقت المقدر يرجع موسى الى مصر وفي الطريق حدثت حادثة البعثة.

٤١- وهذا تشريف عظيم لموسى أن يستخلصه الله لنفسه ولكن ذلك لا يعني تكريساً للذات الالهية فالله هو الغني المطلق وانما يعني تكريساً للطف الالهي بالبشرية باختيار القادة الافضل لقيادتها نحو العلاء.

٤٢- فلينطلق موسى بآيات الله وبراهينه وأحكامه يعينه أخوه دون أن يضعفا أو يفترا في هذه الإنطلاقة عن ذكر الله والتذكير بالله.

٤٣، ٤٤- وليذهبا الى فرعون الطاغية ولكن عليهما ان يتعاملا معه بالقول اللين عسى ان يكون ذلك سببا في تذكره وانتباهه او خشيته من الله. وهذا من الاصول الاولية للتبليغ في الاسلام حيث اللين والمرونة بداية حتى مع اشد الطغاة.

٤٥- وهنا يتخوف الرسولان من ان يتجاوز فرعون حده او ان يشدد العذاب وهو جبار طاغية.

٤٦- ولكن الله يشدّ من ازرهما ويعدهما بالنصر المستمر وهو يراقبهما باستمرار ولاخوف لمن كان الله معه.

٤٧، ٤٨- ويامرهما بان يعلنا لفرعون انهما رسولان من ربه ورب كل المخلوقات ويطلبا منه ان لا يمانع في حركة بني اسرائيل بقيادتهما الى الارض المقدسة، ولامعنى للتمرد وهو يشاهد آية معجزة من الله تدل على صدقهما، وسيكون مشمولاً بالسلام والامن ان هو اتبع الهدى وامتنع عن الظلم والطغيان.

٤٩، ٥٠: وهنا تساءل فرعون عن ربهما وكأنه لا يريد ان يعترف به رباً له فاجابه موسى ان ربه هو الله الذي خلق الاشياء كلها ثم هداها الى كمالها.

٥١- وراح يتساءل ثانية عن الموقف من القرون الماضية التي فنت ومن ربها؟ وماذا سيكون مصيرها؟ وكيف تجازى؟

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا
وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (٥٤) ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ
أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ
فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا
سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
(٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُم
مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا
النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

٥٢- فأحاله موسى الى علم الله الواسع بكل شيء فلا يغيب عنه شيء مطلقاً ولامعنى فيه للضلال والنسيان وكل الاشياء حاضرة لديه، يرقبها ويهديها ويعلم مسيرها ومصيرها.

٥٣ - ويستمر موسى في عرضه المنطقي لنعم الله فيؤكد ان المدى الالهي الشامل واضح لكل بصيرة. فها هي الارض ممهدة للحياة الانسانية باروع تمهيد فلا هي صلبة لايمكن اختراقها او زراعتها ولاهي رخوة لايمكن الاستقرار عليها، وها هي السبل والطرق الممهدة للتواصل، وهذا الغيث الالهي النازل بالرحمة من السماء ليحيي الارض فاذا بها غنية بالنباتات المتنوعة وهي - كسائر الاحياء في الكون - مشمولة لقانون الزوجية الرائع.

٥٤ - ويتواصل هذا التناسق الكوني الشاهد على الهداية والتخطيط الالهي من خلال انسجام المحصول الزراعي مع الحاجة الانسانية والحيوانية اليه. وهو انسجام يبعث ذوي العقول على الخشوع للهادي الحكيم.

٥٥، ٥٦ - ويستمر التذكير بهذا الانسجام الرائع بين الانسان والارض حيث خلق منها وتكونت شخصيته واشبعت حاجاته، ثم هو سيعود فيدفن فيها ليعود جزءاً منها وتراباً فيها، ثم ليخرج منها حياً للحساب، ولتكتمل فصول المسيرة وهدفيتها ورغم هذه الايات والشاهد الواضحة فان الطغيان الفرعوني يلجأ للتكذيب و العصيان.

٥٧ - ويحاول فرعون هنا ان يستخدم سلاح التهمة - بعد ان لم ينجح في التشكيك المنطقي - فيتهمه بالسحر من جهة وبالعمل على تهجيرهم من ارضهم تحريكا للعامة من جهة اخرى.

٥٨ - ويهدده بسحر يقابل سحره (المدعى) ويطلب تحديد موعد لهذا التحدي لايتخلف عن حضوره الطرفان ويكون مكشوفا مفتوحا للجميع وفي مفترق طرق.

٥٩ - وقبل موسى التحدي وأن يتم ذلك يوم عيد الزينة وعند ارتفاع الشمس ليكون المشهد واضحا للعيان.

٦٠- وراح فرعون يستعين بقواه المادية وكل مكره وخداعه وملئه وجبروته ليملأ المشهد رهبة.

٦١- وقبل التحدي راح موسى يعظهم ويحذرهم من عذاب الله واهلاكه لهم ومن خيبتهم نتيجة تكذيبهم بآياته.

٦٢، ٦٣، ٦٤ - وقد ترك الوعظ أثره في بعض النفوس، فراحت تتحدث الى بعضها حديثاً خافتاً الا ان المنحرفين راحوا بغوغائيتهم يحمسون الآخرين ويذكرونهم بما ادعوه لموسى واخيه من انهما يريدان سلب ارضهم بل سلب منهج حياتهم الوثني - و هو المنهج الاصح في نظرهم - ويحرضونهم على شد العزائم وتجميع الكيد ووحدة الصف ويرتفع الشعار الفرعوني الاستكباري (وقد افلح اليوم من استعلى)

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى (٧٦)

٦٥، ٦٦- وخيروا موسى في البدء بهذه المنافسة فترك لهم ان يبدأوا هم - ولعله اراد ان يعرضوا كل ما لديهم ثم ينقض على سحرهم وباطلهم - فالقوا حبالهم وعصيهم فخيل له - وللناس طبعاً - أنها افاع تسعى لتواجه معجزته بخيلاتها.

٦٧- فأحسَّ موسى احساساً خفياً بالخوف من تمويه السحرة على الناس.

٦٨،٦٩- ولكن الله تعالى يذكره بانه المنتصر فليلق بعصاه لتتحول الى ثعبان عظيم يلقف كل هذا الوهم وهو محصول لكيد ساحر، و لايفلح الساحر مطلقا، لانه يبني سحره على التخيل والوهم لا الحقيقة التي يحملها موسى والتي تمحو ما يأفك السحرة من الوجود.

٧٠-وهذه هي لحظة التحول الكبير حيث تتجلى الحقيقة بكل اشراقها ويشعر السحرة بروعتها امام ما كانوا يعرفونه من وهم، فيسجدون لله مؤمنين واعين. اذ انهم استطاعوا أن يميزوا بخبرتهم بين الوهم والحقيقة.

٧١- مقولة فرعونية عجيبة حيث يحاول الطغاة أن يستولوا على كل شيء في حياة الناس فحق الايمان - ومكانه القلب - يجب ان يتم باذنهم ولذلك يعتبر فرعون ايمان السحرة بدون اذنه خروجاً عليه. ثم يوجه التهمة الاكبر لزعيمهم ومعلمهم موسى (ع) بالتآمر والخيانة وكانه رتّب هذه النتيجة من قبل، وبالتالي يهددهم بالعذاب الشديد بتقطيع الايدي والارجل من خلاف (كاليد اليمنى والرجل اليسرى) والتصليب في جذوع النخل. انه منطق الطغاة الدائم: كم الافواه واغلاق العقول والاتهام بالخيانة، والتهديد الرهيب.

٧٢ - وفي قبال ذلك يأتي منطق الايمان الصلب الواعي المستشعر للذة الحقيقية. فالدلائل الواضحة قد فتحت امام السحرة عالماً رائعاً لايؤثرون عليه حياة فرعون الخاوية. والحياة المعنوية اغلى من هذه الحياة المادية فليقض عليها فرعون.

٧٣- لقدسما ايمانهم فراحوا يستغفرون ربهم ويطلبون منه تخليصهم من الحياة الفرعونية التي تكره الناس على السحر والوهم، والملوثة بالفناء، والارتفاع الى الحياة الالهية المفعمة بالخير والبقاء.

٧٤، ٧٥ - ولا تقاس حياة الاجرام التي تعقبها حياة جهنمية مرددة دائماً بين الحياة والموت، الى حياة الايمان والعمل الصالح التي ترقى بهم الى الدرجات العالية.

٧٦- حيث الخلود في جنات الاقامة الرائعة جزاء للتزكية التي تمت في الدنيا. وهكذا يأتي شعار (قد افلح من تزكى) قبالة الشعار الفرعوني (وقد افلح - اليوم - من استعلى)

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)

٧٧ – وعندما يفشل فرعون في موقف التحدي، يبدأ بعملية الترهيب وتنفيذ الوعيد فينزل الوحي على موسى بالسير بقومه ليلاً للخلاص من اذى فرعون، والاتجاه نحو البحر الذي سيوفر الله له فيه طريقا يابساً لاخوف فيه من أن يدركهم فرعون، ولاخشية فيه من الغرق.

٧٨– ويتحرك فرعون بجبروته وجيشه للقضاء على موسى واتباعه ويحاول ان يستفيد من نفس الطريق فيغطيهم الماء ويغرقهم.

٧٩– لقد قاد فرعون قومه الى الضلال وهكذا هم الطغاة دائما لاخير فيهم ولا هدى.

٨١،٨٠ – ويلتفت القرآن الى بني اسرائيل يذكّرهم بنعم الله الدائمة بتخليصهم من عذاب العدو والانتقال الى الجانب الايمن من جبل الطور حيث تحقق الوعد الالهي بانزال التوراة، وانزال المن (وهو طعام حلو يتجمع على اوراق الشجر) والسلوى (وهو طائر السماني) لينعموا به ويسدوا جوعهم في مسيرتهم الطويلة ويشكروا الله ولايسرفوا ويطغوا فيه، اذ ان ذلك يغضب الله والغضب الالهي على قوم يقودهم الى الضياع والهوى.

٨٢– في حين تقود العودة الى الله واكتساب مغفرته، وتعميق الايمان والعمل الصالح الى الهدى والنور والرقي.

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥: ويستمر التذكير بالنعم للتأكيد على شكرها والتحذيرمن الكفر بها وزوالها، وكانت نعمة انزال التوراة من اعظم النعم، وقد سبق موسى المجموعة التي كانت معه، الى مناجاة ربه وتلقي تعاليمه، ولذا اجاب على السؤال عن سبب استعجاله بانه هو الحصول المبكر على الرضا الالهي، وأن قومه على الاثر، في حين اعلمه الله بان قومه الذين تركهم برعاية اخيه هارون قد فشلوا في مطلع التجربة، وسقطوا في الامتحان حيث استجابوا لفتنة السامري بعد ان ابتعد عنهم قائدهم ورسولهم لايام معدودة.

٨٦ – وعاد موسى الى القوم يسوده الحزن والغضب لهذا الفشل المبكر وهذا التراجع، وذكرهم بالوعد الالهي الحسن بانزال التوراة وفيها النور والهدى وتساءل عن علة هذا الانحراف الكبير والانقلاب على الاعقاب أهو طول ابتعاد القائد عنهم أو هو الرغبة في حلول الغضب الالهي وخلف الوعد للقائد بالبقاء على نهجه؟

٨٧ – وهنا تذرع بنو اسرائيل بان هذا الانحراف كان رغما عنهم، فلقد اغراهم السامري الذي جمع ما طرحوه من حلي المصريات التي كانت معهم يحملونها فنبذوها للتخلص منها، فاخذها وصاغ منها عجلاً جسداً من ذهب ودعاهم لعبادته، واثار فيهم الروح المادية وحب الذهب.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

٨٨: وكان عجل الذهب الجامد هذا قد صيغ بشكل اذا هبّت عليه الريح اصدر ما يشبه خوار العجل، وهكذا استطاع السامري أن يغريهم زاعماً هو ومن معه أن المهم واله موسى قد تجسّد في هذا العجل، وقد نسيه موسى هنا وراح يبحث عنه في جبل الطور!! وهكذا عاد القوم الى الصنمية التي فروا منها ثم اتهموا نبيهم بالبعد عن ربه.

٨٩- ويكفي في معرفة سخف هذا الادعاء ان يلاحظ هؤلاء ان هذه الدمية لا تسمع قولهم ولاتستجيب لهم فضلا عن انها لا تملك لهم نفعاً ولاضرراً.

٩٠، ٩١ ـ ولم تنفعهم نصائح هارون وتحذيراته من الفتنة وان ربهم هو الرحمن وان عليهم اتباعه واطاعة امره وهونبيهم ونائب قائدهم، بل اصروا على الانحراف والعكوف على هذه الدمية الذهبية حتى يرجع موسى اليهم.

٩٢، ٩٣: ويتوجه موسى لاخيه هارون باللوم على عدم اتباع امره وطريقته وعدم منعهم من الضلال والانحراف والفساد.

٩٤ ـ وهنا يحاول هارون أن يهدّئ أخاه مذكراً اياه بالرحم طالباً منه عدم الأخذ براسه ولحيته مبرراً عدم الشدة في مقاومة الفتنة بان ذلك كان سيؤدي الى الفرقة والتمزق مع ان موسى كان قد أمره بان لا يحدث فيهم امراً.

وغضب موسى وردة فعله الشديدة هذه امر طبيعي، فهو صاحب رسالة توحيدية منقذة للبشرية وتحتاج الى من يحملها بقوة ايمانية واذا به يواجه الواقع المر والسقوط المريع ومن الخطوة الاولى في وهدة الشرك والضلال.

٩٥،٩٦ ـ وراح موسى يسأل السامري عن امره ليجيب بأنه كان ماهراً في الصياغة فلاحظ الحلي التي اخذت من المصريات بأمر الرسول فكانت من الامور المتعلقة به، فأخذها ونبذها في النار وصاغ منها الدمية الذهبية واعترف بان ذلك تسويل واغراء نفسي لاغير.

٩٧- وهنا حكم عليه موسى بالطرد والابعاد وأمره بعدم ارتباط أي احد به، حتى يأتي وعد الله وعقوبته ثم امر باعدام العجل وسحقه ونسفه والقائه في الماء لتموت هذه الاسطورة الزائفة.

٩٨ ـ ويعود القوم الى رشدهم في ظل الايمان بالله الواحد لاشريك له العليم بكل شيء والمحيط بكل المخلوقات والمطلق الذي لايحده شيء.

وبهذا يسدل الستار على تجربة كبرى وخطأ جسيم ارتكبته جماعة اريد لها ان تصنع التاريخ فارداها العمى الى الحضيض لولا ان تداركتها رحمة الله وهيأت لها القيادة الرشيدة المنقذة.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)

٩٩- وكذلك يعرض القرآن على الرسول – وبالتالي على أمة الرسول – قصص الماضين وصراع خطي الكفر والايمان ، وجهاد الانبياء، وانتصارهم ليقوى بذلك قلب الرسول وتعرف الامة مسيرتها وتلتزم بالخط الذي يرسمه القرآن لها.

١٠٠، ١٠١: ان القرآن سبيل السعادة فأي إعراض عنه في الدنيا يعني الدخول في سلك الاجرام ويعني التعرض لأثقال يوم القيامة واوزارها والخلود في الشقاء وتحمل الاعباء .

١٠٢، ١٠٣: يوم ينفخ في البوق اعلاناً ببدء القيامة فان هؤلاء المعرضين عن الذكر سيحشرون زرق العيون والوجوه من الخوف والهلع، وتسيطر عليهم رهبة الموقف فهم يتخافتون ويتهامسون ويتصورون انهم لم يلبثوا في الدنيا الاعشرة ايام ولكنهم يدركون ان ما عاشوه في الدنيا لا يعد شيئاً في قبال الآخرة، وهكذا فرّطوا في نعيم دائم واستحقوا الخلود في الشقاء لقاء تنعم زائف في وقت محدود.

١٠٤: والله تعالى محيط بهم يعلم نجواهم حيث يذكرهم اعقلهم بان الحياة الدنيا لم تكن الا يوما فقط في قبال هذه الحياة الآخرة الخالدة فليس من المعقول ان تلتذ الذات بيوم قصير وتستسلم للعذاب الخالد بعد ذلك.

١٠٥، ١٠٦، ١٠٧: إنه اليوم الذي يشهدون فيه حساً جواب تساؤلهم عن هذه الجبال العظيمة وما مصيرها؟ حيث ينسفها الله ويذرها ويحولها الى أرض مستوية خالية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع.

١٠٨: وهنا يدعوهم داعي الله الى الحشر فيستجيبون له دون أي تمهل او استنكاف ويسودهم الخشوع لعظمة الرحمن فلا يصدر منهم الا الهمس والصوت الخفي.

١٠٩: انه يوم القضاء بالعدل وتحقق الوعد والوعيد دونما مانع وحيث لاتنفع الشفاعة الا من اذن الله تعالى له بذلك وارتضى قوله وفي الآية اشارة لحصول الشفاعة للمقربين ولكن بأذن من الله وبتحقق شروطها.

١١٠: انه يوم تجلي العلم الالهي المحيط بالانسان من امامه ومن خلفه اما علم الانسان فهو اعجز من ان يصل الى الاحاطة بآفاق العلم الالهي.

١١١: هناك تخشع الوجوه وتذل النفوس امام تجلي الحياة والقيومية الالهية المحيطة والمهيمنة والمسيطرة على كل شيء وحينذاك يخسر الظالمون.

١١٢: اما خط الايمان فهو الفائز آنذاك لايخاف ظلماً ولا يتوقع نقصاً في الثواب.

١١٣: هكذا هو القرآن العربي في الفاظه ومعانيه الواضحة، الموضح للطريق والمحذر من العذاب كيما يمشي الانسان على الصراط السوي ويتذكر الحقيقة دائماً.

فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما ﴿١١٤﴾ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴿١١٥﴾ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴿١١٦﴾ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴿١١٧﴾ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴿١١٨﴾ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴿١١٩﴾ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴿١٢٠﴾ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ﴿١٢١﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴿١٢٢﴾ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴿١٢٣﴾ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴿١٢٤﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴿١٢٥﴾

١١٤: انه الله العظيم المتعالي على كل نقص، والحق الثابت قبل كل شيء ولا حقيقة لغيره الا به، وهو منزل القرآن العربي المبين الذي علّم النبي به اجمالاً من قبل فيجب ان لا يعجل بقراءته قبل اكمال الوحي له، كما يجب ان يطلب من الله ان يزيده علماً باستمرار. وهكذا يدعو القرآن الى الاتجاه الدائم نحو السماء وانتظار الأمر الالهي والاستزادة من العلم.

١١٥: واستمراراً لذكر فضل الله على الانبياء تذكر هنا قصة النبي آدم(ع) اذ شاء الله ان يمر بتجربة الجنة، والالتزام بالاوامر الالهية بدقة، والتحلي بصفة التوبة التي تعيد الانسانية الى حالتها الطبيعية بعد أن تنسى ذلك في لحظة ما وتفقد عزمها وارادتها.

١١٦، ١١٧: ولتعلن في البدء كرامة الانسان، تؤمر الملائكة بالسجود له واعظامه، ويأبى ابليس لطغيانه ان ينفذ الأمر ويأتي التحذير لآدم ليشخص مكمن الخطر له ولزوجه، انه ابليس ووساوسه التي تخرج الانسان من جنته وسعادته وتلقيه في الشقاء.

١١٨، ١١٩: وهاهي الجنة توفرت لآدم بكل نعمها: فلا جوع ولا عري ولا ظمأ ولا شمس حارة فلينعم بها وليسترشد بأمر الله بعدم القرب من شجرة معينة.

١٢٠: ولكنه النسيان وعدم التجربة، اذ يقع فريسة وساوس العدو الذي يركز على ميل انساني فطري للكمال والبقاء والتملك المستمر والخلود وهو ما يتجاوز ما توفر له، فيصور لآدم أن ذلك لا يتوفر الا بسلوك طريق المعصية والاكل من الشجرة المنهي عنها.

١٢١: ولعدم التجربة أكلا من الشجرة وعلى الفور واجها عاقبة المعصية، اذ انكشفت لهما عوراتهما وربما كان ذلك تعبيراً عن انكشاف حالة العصيان وعدم الحياء، او تحرك الغريزة الجنسية فيهما، فراحا يغطيان ذلك بورق الشجر.

١٢٢: وهنا يأتي العطف الالهي ويتوب الله عليه ويهديه الصراط السوي.

١٢٣: وتبدأ هنا مسيرة الانسان في الارض وهو في الاصل قد خلق لها وليكون خليفة لله فيها، ولكنه كان محتاجاً لاجتياز تجربة الجنة لينفتح على الصراع بين الحق والباطل. سائراً نحو الكمال، مسلحاً بتجربة الجنة محفوفاً بالتوبة الالهية والهدى مشخصاً عدوه الطاغي عارفاً أن كماله يكمن في اتباع الهدى الرباني ليبتعد عن الضلال والشقاء . انه خير درس للحياة الانسانية.

١٢٤: اما الاعراض عن الذكر وما انزل الله فليس يستتبع الا الشقاء والحياة الصعبة والعمى الأخروي.

١٢٥: ويعترض الانسان على أن حُشر أعمى وقد كان في الدنيا بصيراً.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

١٢٦: ليجاب بأنه جزاء تصرفه في الدنيا إذ جاءته آيات الله لتفتح قلبه على طريق النور، فتغاضى عنها وتناساها فابتلي بعذاب الإهمال والنسيان يوم القيامة.

١٢٧: انه أسرف وتجاوز الحد الطبيعي للعبودية والتفكير في آيات الله الذي يقود بشكل طبيعي الى الايمان فأصر هذا المنحرف على عناده فعاش حياة الشقاء في دنياه وإن عذاب الآخرة اشدُّ واكثر استمراراً.

١٢٨: ان هؤلاء المكذبين لا يقفون وقفة المتأمل في ماتبين لهم من آيات وعرفوه من سير الامم المكذبة وعواقبها وما وقفوا عليه من آثارهم البائدة ومساكنهم الخاوية فان في كل ذلك ما يدعو ارباب العقول للتأمل.

١٢٩: ان ذلك الاسراف والعناد يستدعي ان يُستأصل هؤلاء لخروجهم عن انسانيتهم ولكن الله يؤخرهم الى اجل معين حكمة منه ولطفاً.

١٣٠: إنه هدف السورة كلها أي تثبيت قلب الرسول ازاء المشاكل والإعراض والتقول والاسراف الذي يواجهه، فالصبر سلاح المؤمن، والتسبيح المتواصل في الصباح والمساء والليل والنهار هو عدته وزاده للوصول الى حالة الرضا بكل شيء: باللطف الالهي والوعد الالهي والعزة في الدنيا والآخرة.

١٣١: والخطاب هنا للامة من خلال خطاب النبي(ص) فان الرضا بما قسمه الله هو النعمة الكبرى، فلا ينبغي الالتفات الى ماحظي به الكفار من ازواج ونعم مادية وان كانت تبدو زاهية ، لكنها كالوردة تذبل عما قليل. انها الفتنة والامتحان والزوال اما العطاء الالهي فهو الخير والبقاء.

١٣٢: ان الصلاة تشدُّ الانسان بالله وتربي الفرد والعائلة والمجتمع على التقوى، فليأمر الرسول أهله بها ويصطبر عليها ويقيمها كاملة، ولتعمل الأمة كذلك، وحينئذ فان عائلة مصلية صابرة على الصلاة خير من كل ما يتمتع به الآخرون من ارزاق، فان الله هو الرزاق وان النتيجة النهائية هي للتقوى والمتقين . وبذلك يعمر الامل في قلب المؤمن مهما كانت الظروف.

١٣٣: وهنا يعود الحديث عن اولئك المكذبين وهم يطلبون البينة والآية ناسين ان القرآن خير آية تشهد على مافي الصحف والكتب الاولى من حقائق.

١٣٤: ولو كانوا قد عذبوا قبل ان ينزل القرآن لتذرعوا بعدم اتيان الرسول وعدم اقامة الحجة والا لاتبعوه قبل ان يذلوا ويخزوا، ولكن هاهي الحجة الدامغة فلماذا يبقون على العناد.

١٣٥: تاكيد على هدف السورة: وليتنظر كل طرف عاقبة الامر وستتكشف الحقيقة ويُعرف المفلحون المهتدون بهدى القرآن.

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

البسملة جزء من السورة.

١- ان البشرية تقترب كل يوم الى عالم الحساب خصوصاً وان الرسول(ص) بعث وهو رسول آخر الزمان، والزمان مهما امتد قصير اذا قيس بالآخرة فيجب ان يعد الناس انفسهم للحساب وينقذوا انفسهم الغارقة في الغفلة.

٢- انهم لا يدركون عظمة الهدى الالهي والذكر الرباني المتجدد لهم باستمرار، ولذلك يقابلونه لاعبين في حين يريد الله ان يقودهم به الى العلاء.

٣- انهم غارقون في الغفلة والاعراض واللعب واللهو والتناجي سراً بالتشكيك – ظلماً – بالنبوة باعتبارانها لا يمكن ان تعطى لبشر مثلهم، وأن ماجاء به الرسول هو السحر فكيف يؤمنون به وهم يبصرون حقيقته؟!

٤- ليعلن الرسول أنه يقول الحقيقة التي يعلم بها الله العالم بما في السماء والارض السميع العليم بنجواهم المشككة هذه.

٥- وتتتابع التهم فما أقوال الرسول الا أحلام غير متسقة، بل هي افتراءات بل هي خيالات شاعر، وإلا فليقم على مايطرحه دليلاً كما اقام المرسلون الدليل وجاءوا بالمعجزات.

٦- كلا انهم لن يؤمنوا مهما جاءت الادلة، فهم مكابرون، وقد سبقتهم امم مكذبة رغم الادلة البينة فأهلكت نتيجة ذلك وهم على نفس الشاكلة.

٧- لقد كان الانبياء الماضون بشراً. وهو وصف يصر عليه الانبياء لئلا يتحولوا في ذهن الجاهلين المغالين الى آلهة، ولا تنافي بين البشرية والنبوة. إن الأولى لهؤلاء الجاهلين ان يرجعوا الى اهل الذكر والعلماء بالامر ومنهم علماء اهل الكتاب ليسألوهم عن الحقيقة والرجوع الى اهل الخبرة هي قاعدة عقلائية.

٨- تأكيد لبشرية الرسل فهم يأكلون الطعام وهم يموتون ولايملكون الخلود ، كباقي أبناء آدم .

٩- انهم يحملون رسالة الله ويبلغون تعاليمه رغم العقبات والموانع. ولكن الله صادق الوعد وقد وعدهم بالنصر العاجل او الآجل فهم الناجون واعداؤهم هالكون لأنهم مسرفون يتجاوزن حد المسيرة البشرية الطبيعية.

١٠- ان هذا القرآن فيه خير الامة وهداها وهو يذكّرها بإنسانيتها فهو افضل بينة على صدق الرسول وهو يحقق للعقول بغيتها لو تم الاحتكام اليه.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

١١- وهاهو التاريخ امامهم فليشهدوا حوادثه وليروا تداول الامم والحضارات فكم قضى الله على القرى التي ظلمت، ليحل محلهم قوم آخرون.

١٢، ١٣- وحينما كانوا يشعرون بالعذاب كانوا يلجأون الى الهروب عساه ينجيهم من عذاب الله. فيأتيهم التقريع الالهي ان لا تهربوا بل عودوا الى عيشكم وترفكم ان كنتم قادرين! لتجيبوا على مايلاحقكم من تساؤلات حول ماقدمتموه من اجرام.

١٤، ١٥- انه جواب المعترفين ولكن بعد فوات الأوان اذ قد حل العذاب وحينئذ فهو لا يكشف عن توبة صادقة، بل هو ترديد اعترافات للخلاص ، ليشملهم العذاب وليعودوا هشيماً تحصده يد الفناء والخمود.

١٦، ١٧- في قبال الغفلة واللهو ولعب المشركين يؤكد القرآن حقيقة الجد الالهي في الكون وابتنائه على الحق والحكمة. وذلك اساس تعذيب الجاحدين كما هو مبنى الايمان بالمعاد اما اللهو واللعب واتخاذ النساء والاولاد فلا سبيل له الى الذات الالهية لانه من قياس الخالق المطلق الغني الى المخلوقات العاجزة الغافلة فلا عبث في الخلق وانما هي السنن والقوانين.

١٨- انها الحقيقة الخالدة فالكون قائم بالحق، والحق غالب على الباطل ومهلك له. اما تصورات المشركين واوهامهم فلها الويل والدمار.

١٩، ٢٠- ان الله خالق الكون ومالكه والمسيطر عليه وهاديه الى الكمال عبر طاعته. فكل من عند الله من المقربين اناساً كانوا أم ملائكة مستغرقون في العبادة وهي سر الكمال، بل كلّما زاده القرب زادت العبادة لأنها علو مرتبة وزيادة معرفة، فلا استكبار عن عبادة ولا ملل منها، بل كل همهم تسبيح الله وتنفيذ أوامره في كل وقت دونما عي او تعب.

٢١- اما هذه الآلهة الارضية المزعومة العاجزة بنفسها فهل تستطيع ان تحيي وتميت؟ والجواب الطبيعي هو النفي.

٢٢، ٢٣- انه من اقوى الادلة على التوحيد ان تدرك ان لازم وجود الآلهة المتعددة المطلقة القادرة هو فساد الكون وعدم تناسقه وعدم سريان ارادة واحدة فيه، وهذه أمور ينفيها الواقع المتناسق الموزون، ويعود الوجدان منزهاً مسبحاً لرب العرش المسيطر الغني المطلق النافذ أمره بلا مسؤولية تتابعه، وإنما يتحمل المخلوقون المسؤولية.

٢٤- ان القرآن وهو جامع لتعاليم الانبياء يؤكد التوحيد ولكن ماهو برهان المشركين؟ انهم لا يملكون الا الجهل بالحق والاعراض والجحود.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

٢٥- ان الانبياء جميعاً دعوا للتوحيد وعبادة الله وحده ويعتبر هذا من أدلة التوحيد. يقول علي(ع) (لو كان لربك شريك لأتتك رسله) [1].

٢٦، ٢٧- من أوهام المشركين اعتبار الملائكة بنات لله فسبحانه وتعالى على ذلك بل هم عباد مكرمون مطيعون لامره عاملون به ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. ومن كان كذلك كيف يكون ولداً.

٢٨، ٢٩- والله محيط بهم وعالم وهم لا يشفعون الا لمن ارتضاه الله. فلا معنى لاتخاذهم شفعاء من قبل المشركين المطرودين من رحمته. كما ان الملائكة خائفون من عذاب الله رغم انهم مطيعون . ولو ادعى احدهم الالوهية - جدلاً - فجزاؤه جهنم تماماً كما هي جزاء الظالمين فلا معنى لتوهم كون الملائكة بنات كما لا معنى لجعل الخلق لله والتدبير المستقل للملائكة وامثال ذلك.

٣٠- ان الكون كله خاضع لارادة حكيمة تنظمه وتوجهه، فليمتد الانسان ببصره الى عجائب الكون، وقوانينه وتحولاتها، فقد كانت السماوات والارض سديماً متحداً ثم حدث الفتق وتنوعت الاشكال بقدرة الله والله اعلم بنوعية هذه التحولات الهائلة التي يكتشف العلم شيئاً فشيئاً بعض اسرارها، وهكذا شاء الله ان تقوم الاحياء بالماء اينما كانت كل ذلك ينبئ عن حقيقة النظام الكوني الرائع فما الداعي لانكار الحقيقة وعدم الإيمان؟

٣١، ٣٢- وهذا التوازن الرائع في الكون. وهذه الجبال التي تنظم حركة الارض لئلا تضطرب، وهذه السبل كالأنهار المنظمة لدورة المياه وحركة الانسان وهي تمهد له الحياة المطلوبة، وهذه السماء العجيبة المحفوظة بقوانينها كل هذا يبصرونه ثم يعرضون عنه وعن دلالاته.

٣٣- وهذا الليل والنهار وحركة الشمس والقمر بكل دقة وتوازن لكل مداره، الا يشد الانسان شداً الى خالقه العظيم؟ وفي كل هذا توجيه للعقول للمزيد من العلم والاكتشاف.

٣٤- انه ناموس الحياة فليس لبشر أن يخلد حتى ولو كان هو النبي فهو ميت والمشركون بالتالي ميتون فليتبصروا حالهم وليعدوا لمصيرهم.

٣٥- هذه هي الحقيقة الصارخة وان أنكرها البعض - عملاً - وتصرّفوا وكأنهم خالدون. ولكنه واقع انساني يجب ان ندركه كما ندرك اننا في حالة امتحان بالشر فنصبر، وبالخير فلا نبطر، وانما نتبع هدى الله في الحالين، مدركين ان هذه الحياة لها هدفها وان هناك يوماً للحساب نعود فيه الى الله فيوفينا ما نستحقه.

---

١ - نهج البلاغة، الرسالة رقم ٣١.

وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٦- كان الاستهزاء من أساليب المشركين الغافلين إذ يستكثرون على الرسول أن يقول الحقيقة عن سخف آلهتهم وتفاهتها في حين أنهم يكفرون بالحقيقة الواضحة اذ ينكرون الرحمن ورحمته تعم الكون والحياة.

٣٧، ٣٨- ثم هم مبتلون بعيب الاستعجال، وان كانت العجلة جزءاً من تركيب الانسان وخلقه وذلك لكي يصلح امره ولكنهم يستغلونه لتكريس عنادهم وتحديهم لما يعد به الرسول من عذاب الله.

٣٩، ٤٠- انهم غافلون لا يعرفون مدى العذاب الالهي وكيف تحيط بهم النار فيحاولون دفعها عنهم مبهورين اذ تأتيهم من امامهم ومن خلفهم فلا ينفعهم ذلك ولا ينصرهم ناصر بل تهاجمهم فجأة فتبغتهم فلا مفرّ حينئذ ولا تأجيل.

٤١- الم يتعظ هؤلاء بمصير الذين استهزأوا بالرسل ـ من قبل ـ وحاولوا اذلالهم فوقعوا هم في الذلة والعذاب.

٤٢- لو أعاد هؤلاء النظر في امرهم لعادوا الى رشدهم فمن الذي يحرسهم ليلاً ونهاراً غير الله؟ وهل يدركهم شيء سوى رحمته وهو الرحمان بالخلق جميعاً، ولا يمنع من عذابه مانع ان اراد بهم ضراً نتيجة عملهم ولكنهم رغم وضوح الجواب عن هذه التساؤلات يعرضون عن الحق.

٤٣- وهل تقدر آلهتهم المزعومة ان تقدم لهم شيئا، أو تمنع عذاب الله، وهي لا تستطيع ان تحمي نفسها او تستمد من غيرها ما يحفظها منه.

٤٤- ان هؤلاء المعاندين غرّتهم حياتهم الممتدة ومتاعهم الزائل فظنوا انهم باقون أقوياء متمتعين غافلين عن مايجري حولهم من تصرم الاعمار وزوال النعم وانقراض الامم وهل يتصورون انهم قادرون على تخطي كل عوامل الفناء.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

٤٥- ان الانذار الذي يعلنه الرسول آت من الوحي الالهي ولذا فهو جدير بالاستماع اليه اذا كانت الاسماع صاغية والعقول واعية، ولكن هؤلاء المغرورين مبتلون بالصمم فهم لايسمعون ولا يفهمون الحقيقة.

٤٦- انهم يحتاجون الى وخزة من العذاب ليعلنوا الويل ويعترفوا بالظلم .

٤٧- ان موازين الله عادلة يوم القيامة وهي تنتظر الجميع فيوفون حقهم بكل دقة فلا يغيب عنها اي شيء مهما كان صغيراً كوزن حبة الخردل مثلاً، والله خير الحاسبين.

٤٨- وتأكيداً للمفاهيم السابقة يبدأ القرآن بعرض صور من حالات الانبياء السابقين وأممهم والذين وقفوا في وجوههم وعواقبهم. فيذكر هنا موسى وأخاه هارون إذ آتاهما الله التوراة فرقاناً وميزاناً يفصل بين الحق والباطل . وضياءاً يكشف الحقائق وذكراً للمتقين.

٤٩- فالمتقون الذين يخشون ربهم بالغيب، والذين يستعدون للآخرة ويخافون اهوالها هم المؤهلون للاستفادة من الفرقان والاستضاءة بنور الإيمان.

٥٠- وهذا القرآن يحمل كل تلك المعاني الوضاءة والذكر المبارك باستمرار فماذا تنكرون منه.

٥١- وهذا ابراهيم الذي سبق موسى، آتاه الله كماله ورشده، والله يعلم مستواه الراقي من الوعي والاخلاص وهما سر الرشد.

٥٢، ٥٣- انه يواجه اباه - ولعله كان عمه - وقومه بسؤال فيه التهكم والتحقير والاستغراب من الجهل والجمود فيتساءل عن الاصنام والتماثيل (لا الحقائق) التي يعكفون عليها عابدين!! ليجيبوه بجواب سخيف انه استمرار لعادة موروثة دونما وعي.

٥٤- وبكل صراحة يجيبهم بالحقيقة، انها عادة ضالة بكل وضوح.

٥٥- ولم يهضم القوم هذه الصراحة ويتساءلون عن مدى جديته في هذا البيان.

٥٦- وهنا يبدأ ابراهيم بتوضيح الأمر، ان الحقيقة التي تملأ الكون المنسق الجميل تشير الى الله رب الوجود كله وفاطره وخالقه. وهو ماتوصل اليه وهاهو يعلنه بكل وضوح.

٥٧- ولكي يؤكد ذلك اعلن لهم أنه سيعمد إلى الكيد بهذه الاصنام بعد ان يغادروها ويتركوها لحالها.

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

٥٨- وفي حالة انشغالهم عمد ابراهيم بفأسه ليحطم الاصنام الا كبيراً لها اذ تركه ليرجعوا الى هذا الصنم متساءلين عن علة التحطيم.

٥٩، ٦٠- وفوجئ القوم بالمنظر فتساءلوا عن الفاعل الذي ارتكب هذا الظلم!، ليجيب البعض انهم سمعوا الفتى ابراهيم يذكر الالهة بسوء.

٦١، ٦٢، ٦٣- وسئل ابراهيم- هل هو الفاعل؟ فاجابهم بما يحاول به ان ينبههم للحقيقة- بل فعله كبيرهم هذا الواقف سالماً فاسألوا الاصنام لتجيبكم ان كانت تنطق!!

٦٤، ٦٥- وكانت ضربة أعادتهم للحظة الى وعيهم وحدثوا أنفسهم بأنهم هم الظالمون اذ يعبدون جماداً لا ينطق، وادركهم الخجل فنكسوا رؤوسهم يقولون له لقد علمت ماهؤلاء ينطقون.

٦٦، ٦٧- وهنا ينبري لهم بكل قوة مستنكراً ان يعبدوا من دون الله مالا ينفع شيئا ولا يضر، متأففا موبخاً لهم على ذلك، داعياً اياهم الى التعقل والوعي.

٦٨- فأيقنوا بانه المحطم ، وادركتهم حمية الكفر والعناد فحكموا عليه بالاحراق انتصاراً للآلهة المحطَّمة وهو سلاح العاجز عن المواجهة بالمنطق والدليل.

٦٩، ٧٠- وشاء الله بقدرته المطلقة ان تكون النار على ابراهيم برداً وأماناً فيبطل كيدهم فيعودوا هم الأخسرين، والعاقبة للمتقين.

٧١- وآمن به لوط وهاجر معه الى ارض الشام ارض البركات الارضية والسماوية لأنها كانت مهبط الوحي والنبوات وهو هدى للعالمين كما هي ارض الخصب والخيرات.

٧٢- وأنعم الله عليه بالذرية الصالحة، باسحق وولده يعقوب عطية منه لهذا النبي المهاجر.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾

٧٣- وهكذا شاء الله ان تستمر الإمامة في نسل هؤلاء الطاهرين لتحقق هدفها التاريخي وهو هداية البشرية بارادة الله نحو كمالها وتحقيق هدف خلقتها، ووصول افراد الانسان الى مقاماتهم الحقيقية، وفعل الخيرات وإقامة الصلاة لتقوية العلاقة بالله، وايتاء الزكاة لتحقيق التكافل، وبالتالي ايجاد المجتمع العابد.

٧٤، ٧٥- اشارة سريعة لقصة لوط وقد اوتي الحكمة والعلم فدعا الى الله ولكن قريته (سدوم) لم تستمع الى دعوته بل راحت تعمل الخبائث اي الفاحشة مع الذكور، وهي خروج على الطبيعة. فنجاه الله منها وأدخله في رحمته لأنه كان من الصالحين.

٧٦، ٧٧- اشارة اخرى لنوح النبي – قبل ابراهيم- وهو يلتجئ الى ربه شاكيا اليه مصائبه مع قومه المكذبين، ليستجيب الله له وينجيه واهله من الهم والمصائب الكبرى وينصره عليهم بعد أن كانوا قوم سوء فيغرقهم اجمعين.

٧٨، ٧٩، ٨٠- صورة آخرى من حياة الانبياء يذكرها القرآن وتفصلها الروايات[1]، حيث تحدث حادثة دخول غنم احدهم في مزرعة كرم (عنب) مملوكة للآخر ليلاً فتأكل كل الزرع ، فيعرض هذان الأمر على داود، وكان هذا النبي حاكماً على بني اسرائيل فرأى – وهو يستشير ولده سليمان – ان تمنح الغنم لصاحب الزرع، ولكن سليمان رأى ان تمنح منافعها – اي الغنم – لصاحب الزرع ، فكان حكم سليمان اكثر رفقاً، وكلا الرأيين ركزا على ضمان ما اتلفته الغنم. وهكذا امتن الله عليهما بالحكمة والعلم، كما امتن على داود بتسخير الجبال لتتجاوب مع تسبيحه (والكون كله تسبيح لله) وكذلك هي الطير في السماء فقد سخرت له مسبحة منزهة لله. كما علم الله داود صناعة الدروع التي تشكل حلقاً تلبس متداخلة لتحافظ على الابدان حالة الحرب. وكان ذلك تقدماً في الصناعة الحربية آنذاك مما يستدعي الشكر لله على هذه المنة.

٨١- وكذلك امتن الله على سليمان بتسخير الرياح العاصفة له ليأمرها بالسير الى الارض المباركة (الشام) محققة له مايريد بامر الله تعالى .

---

١ - راجع مجمع البيان ج ٧ ص ١٠٩.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

٨٢- وكذلك سخرت له الجن لتغوص له في اعماق الارض والبحر ولتحقق له ما يريد من اعمال ربما عجز عنها الانسان العادي. كل ذلك بعلم وقدرة وضبط الهي قوي مما يوضح قدرة الله المطلقة ولطفه بعباده المؤمنين ونصره لمسيرة الانبياء.

٨٣، ٨٤- وهذا ايوب النبي وهو يلتجئ الى ربه متضرعاً كي يكشف عنه ما اصابه من ضر وابتلاء، والله ارحم الراحمين، ليستجيب له ويكشف عنه ضره فاذا هو في صحة وعافية، ويؤتيه ماله واهله وأولادهم واحفادهم نعمة مضاعفة ولتكون تلك ذكرى لخط العبادة؛ انه خط الابتلاء وتحمل المشاكل ولكن العاقبة والنصر له بلاريب.

٨٥، ٨٦- ويستمر القرآن في عرض صور الصالحين بالتذكير باسماعيل وادريس وذي الكفل وكانوا من نماذج الصابرين في طريق الحق فادخلوا في رحمة الله ومظلته للصالحين.

٨٧، ٨٨- وهاهو صاحب الحوت يونس بعد ان بُعث الى قومه فكذبوه فدعا عليهم بالعذاب، وحين أشرف عليهم العذاب تابوا توبة نصوحاً فكشفه الله عنهم في حين ابتلى الله عبده يونس الذي خرج من قومه غاضباً من تكذيبهم ظاناً ان الله سيفتح له آفاقاً أرحب ولا يقتر عليه من رزقه، ابتلاه بالتقام الحوت له -- وهو يركب البحر -- وفي ظلمات جوف الحوت راح العبد الصالح يدعو ربه ويسبحه ويستغفره ويعترف له بظلمه لنفسه وقصوره ليستجيب الله له وينجيه من الغم. وتلك سنة الله في المؤمنين الصالحين ينصرهم وينجيهم ويمنحهم العاقبة الحميدة على مدى التاريخ.

٨٩- وهذا زكريا النبي يلتجئ الى الله شاكياً اليه وحدته وعقمه مسترحماً اياه وهو خير الوارثين.

٩٠- ليستجيب الله له ويهبه يحيى النبي ويصلح له زوجته ويعيد لها حيويتها. وتلك هي حياة الرسل والصالحين- دعوة وجهاد ومسارعة في الخيرات ولجوء الى الله في حالات الرغبة والرهبة ، وخشوع وعبادة دائمين، فيوفيهم اجور الصابرين وما على المؤمنين الا مواصلة الدرب وصناعة التاريخ.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

٩١- وهذه لمحة عن مريم ام عيسى النبي، وهي رمز العفة والعبادة والإخلاص، وقد نفخ فيها الله من روحه فولدت عيسى بأمر الله ليكونا معاً آية وبرهاناً للعالمين.

٩٢- هذه هي حصيلة هذا الاستعراض السريع لشيء من حياة الانبياء. انها تتلخص في ان البشرية امة واحدة، ومسيرة واحدة لها قيادتها الحقيقية المغيرة والسائرة بها نحو الهدف الواحد وهم الانبياء، ودينها هو التوحيد بكل لوازمه وامكاناتها هي الفطرة، وعلى اساس منها تصطبغ المسيرة وتنتظم الهداية ويقام المجتمع العابد.

٩٣- الا ان البشرية تمزقت فرقاً ونحلاً وطرائق وستعود الى ربها وحكمه ولا عودة لها الى الدنيا، حتماً وينكشف الحق لها.

٩٤- أما مسيرة الايمان العامرة بالعمل الصالح فهي المسيرة الناجية التي ستصل الى هدفها قطعاً في الحياتين معاً ولن يذهب سعيها هدراً مطلقاً.

٩٥- واما القرى التي ظلمت فاهلكت فسوف ترجع الى ربها وتواجه مصيرها الاسود حتماً .

٩٦، ٩٧- من اشراط الساعة - كما يشير القرآن في سورة الكهف - خروج يأجوج ومأجوج وانسياحهم في الارض، فاذا انفتحت امامهم السبل وراحوا يتحركون من الاعالي الى كل جهة فحينئذ تكون قد اقتربت القيامة، وحينئذ تنشد عيون الكافرين الى هذا الحدث خوفاً وهلعاً داعين بالويل والثبور لغفلتهم عن هذا اليوم الرهيب ومعترفين بظلمهم.

٩٨- انه مشهد عظيم يصدر فيه وصف الحق - تعالى - لهم ولآلهتهم بحصباء جهنم وحجارتها، هواناً لهم ولما يعبدون من دون الله.

٩٩- ان آلهتهم ضعيفة لا تملك أن تدفع عنها السوء أو أن تمتنع من دخول النار، فلتستعد هذه الالهة وعبادها للخلود في الجحيم.

١٠٠- ان لهم في جهنم زفيراً شديداً وهم لا يسمعون شيئاً نتيجة اغلاقهم اسماعهم عن الحق في الدنيا، وما الآخرة الا انعكاس لتلك المسيرة السابقة.

١٠١- في حين يبقى المؤمنون الذين سبق لهم من الله الوعد بالحسنى والجنة، يبقون بعيدين عن هذا الهول العظيم.

١٠٢- ان المؤمنين الموعودين بالجنة لا يسمعون حسيس جهنم المرعب بل هم ينعمون بالطمأنينة وبكل ما تشتهيه أنفسهم خالدين. وبهذا يشبع القرآن اعظم الآمال الإنسانية وهو ما تعجز عن تقديمه المبادئ الوضعية لأن مداها قصير لاقيمة له في قبال حياة الخلود الاخروية. وبهذا تطمئن نفس المؤمن ولا يبقى مجال لصراع المصالح الذاتية والاجتماعية وهو سر هلاك الامم عبر التاريخ . فالدين هو الحل.

١٠٣- فلا حزن من ذلك الفزع والخوف الاكبر بل تكريم ملائكي رائع وبشرى بتحقق الوعد الصادق.

١٠٤- انها الحقيقة الكونية الهائلة يوم يطوى الكون كما يطوي مالك الكتاب كتابه، ويعود الى هيئته أول مرة. وكل ذلك سهل يسير على يد القدرة الالهية الفاعلة لما تشاء.

١٠٥- وهذه حقيقة كونية تاريخية أخرى اعلنها كتاب الزبور وهو كتاب داود النازل بعد التوراة، وتثبتها الوقائع التاريخية ويقررها القرآن الكريم بقوة وتتلخص في ان التاريخ يسير نحو مجتمع الصالحين - لا محالة - حيث يكون الدين كله لله وتملأ الارض عدلاً كما ملئت ظلماً. وبهذا تنفتح على الدوام امام المؤمنين أبواب الأمل الواعد.

١٠٦- انه اعلان الهي للمسيرة العابدة انها هي المنصورة، وهي الوارثة وهي المرحومة بشرط تعبيد الحياة وتسليمها لله تعالى.

١٠٧- وماجاء هذا الرسول وهذه الرسالة الا بالرحمة لكل البشرية.

١٠٨- انها تنادي بالتوحيد وهو دين المسيرة المؤمنة، وتدعو للاسلام وهو لازم التوحيد. والاسلام بخصائصه العامة يضمن للبشرية كلها السعادة وكل الحقوق الانسانية.

١٠٩- هكذا وبكل وضوح يعلن الرسول مبادئه ، فالكل سواء امام هذه الحقيقة، اما جزاء الانحراف عن الحق فهو غير معلوم الأجل للرسول بل هو موكول الى الله تعالى.

١١٠- والله محيط بالكون والانسان لا فرق لديه بين نداء بصوت عال او أمرمكتوم.

١١١- فلا يعلم سر تأخير العذاب ولعله امتحان وتمتيع الى اجل او استدراج وامهال كي يزدادوا في الإثم.

١١٢- ان الله هو الحاكم بالحق وهو الرحمن بالبشرية جمعاء ولذا يتوجه الرسول اليه تعالى ليفصل بينه وبين قومه ويستعين به لمواجهة ما يصفونه من كذب واستهزاء وافتراء وجهل. وفي كل هذا ثبات لفؤاده وارعاب للكافرين.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سورة الحج ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

سورة الحج

البسملة – كما أكدنا – جزء من السورة.

١، ٢– تبدأ السورة بتخويف الناس من هول يوم القيامة ليترك الاعتقاد بالمعاد أثره في السلوك (وفرق كبير بين مجتمع يؤمن به ويحسب له حسابه وآخر لا يؤمن به) انها دعوة للخوف من الله والاعداد لذلك اليوم الرهيب حيث الزلزال العظيم، وحيث الذهول الشامل بحيث تذهل كل مرضعة عن رضيعها رغم أنه متصل بها معنىً وحساً، وتضع الحامل جنينها، وتسود الدهشة حتى كأن الناس سكارى، ولكنه العذاب الرهيب الشديد.

٣، ٤– في ظل هذا الهول الذي يدعو للتاكد والتأمل نجد اناساً يجادلون جاهلين في الله وصفاته متبعين تشكيكات الشياطين العصاة الغواة الذين يقودون أولياءهم الى الضلال وعذاب النار حتماً.

٥– ولينظر هؤلاء المشككون في المعاد الى مايجري حولهم ليدركوا مدى قدرة الله. فهاهو الإنسان يبدأ تراباً ثم يتحول – بقدرة الله – الى نطفة، ثم الى علقه لقيحة تحمل كل خصائص الانسان، ثم الى مضغة– اي قطعة لحم او دم غليظ – تامة الخلقة او غير تامة تتخذ مسيرها ليتكون الجنين الذي يستقر في الرحم الى اجل معين او يلفظه الرحم، ثم لينمو الجنين ويخرج للحياة طفلاً، ثم ليصل الطفل الى مرحلة النمو البدني والعقلي وهكذا فقد يتوفى وقد يمتد العمر الى مدة طويلة فيفقد الانسان قواه ويهرم بحيث يفقد وعيه وعلمه.

ثم لينظر المشككون الى هذه الارض الهامدة الميتة ينزل عليها المطر فتهتز وتنمو وتنبت أزواج النبات الذي يشيع البهجة في الحياة.

ان المتأمل في هذه الفواصل العظيمة بين البدء والختام، وهذا التكامل من مرتبة ادنى الى مرتبة اسمى يدرك بوضوح وجود وعظمة تلك القدرة التي حققت هذا التكامل ونفخت الحياة وقادت الانسان الى هدفه بدقة متناهية وهيأت له مايديم حياته من امكانات داخلية وطبيعية منسجمة مع هذا الهدف. إنها القدرة المطلقة الحكيمة. واي افتراض للصدفة في البين يعني السخف وترفضه النفس والعقل.

وهكذا يستخدم القرآن لتاكيد المعاد اساليب تحريك المشاعر بالتخويف تارة ودفع العقل للنظر والتعمق تارة اخرى.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

٦، ٧- في هذا الجو النفسي والعقلي تتقرر هذه الحقيقة الكبرى - ان الله هو الحق الثابت وان البعث يتم بقدرته فهو على كل شيء قدير، وان القيامة آتية بلاريب وان المخلوقات سوف تنطلق من قبورها بأمره لتواجه الحساب وحينئذ يكون لمسيرة الانسان معناها وهدفها وعدالتها.

٨، ٩- وفي هذا الجو أيضاً يبدو سخف من يماري ويجادل ويشكك في الله دون ان يستند الى علم عقلي او هدي معين مستند الى حقيقة او وحي وكتاب واضح، وإنما هو اعراض وجدال واشباع للغرور والتكبر والعجرفة لإضلال الآخرين (وكأن هاتين الآيتين تشيران للمضلين في حين اشارت ماقبلهما الى الأتباع الضالّين) وهؤلاء اهل للخزي والهوان الدنيوي، وعذاب النار الاخروي.

١٠- وهو جزاء لما كسبوه والله تعالى لا يظلم عبيده.

١١- نموذج من الأفراد يعرضه القرآن ليبعد المؤمنين عنه؛ انه الانسان المتأرجح على الحافة (الحرف) الذي يؤمن طلباً للربح فان حصل عليه ثبت واطمأن، وان اصيب بامتحان وبلاء انقلب وتراجع، فهو بذلك يعبر عن عدم ايمانه في الواقع وهو الخاسر الحق في الدنيا حيث القلق والتأرجح، وفي الآخرة حيث فقدان الثواب واستحقاق العقاب.

١٢، ١٣- انه غريب في قلقه يتجه الى ماسوى الله ليحقق له مصالحه ولن يحقق له هذه المصالح كما انه غير قادر على الاضرار به وهكذا يغرق نفسه في الضلال البعيد، فهو في الواقع يضر نفسه بدعائه اكثر من ان ينفعها فبئس المولى المتبع وبئس العشير المصاحب.

١٤- اما المؤمنون العاملون للصالحات فأمامهم جنات الخلد وعدهم بها ربهم والله قادر صادق رحيم رؤوف.

١٥- ان الثقة بالله وبنصره هي مقوم الحياة المستوية المتكاملة المطمئنة واليأس من لطف الله كفر وعذاب، واليائسون من نصر الله لهم او للرسول يمكنهم ان يشدوا أنفسهم بحبل الى مكان عال ويخنقوا أنفسهم به او يقطعوه ليهووا الى الارض ويكونوا بذلك قد اشبعوا غيظهم وحنقهم. وكأن القرآن بهذا يبكتهم ويستهزئ بحالتهم البائسة اليائسة.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

١٦- هكذا جاء هذا القرآن بآياته الواضحة ليشكل مصدراً للهدى فاذا اختار الانسان سبيل الهدى هداه الله اليه بعد ان يعرف صدقه.

١٧- تسير كل الامم - سواء المؤمنون المسلمون واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون - سيرها في التاريخ تحت علم الله وسيطرته واحاطته وسترجع اليه ليحكم فيها بحكمه الحق.

١٨- وان الكون كله ساجد الله؛ من في السماء، ومن في الارض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والحيوانات التي تتحرك. وينسجم مع سجود الكون التكويني سجود ارادي لكثير من الناس في حين يخرج كثير منهم عن الحالة المنسجمة فيستحق العذاب ومن أهانه الله بذنوبه فلا عزة له ولا كرامة.

١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢- صورة الخطين المتخالفين (خط الايمان وخط الضلال) يوم القيامة- اما خط الضلال فهو في اشد المحن- ثياب تفصل له من نار، و سائل يغلي يصب على الرؤوس فينصهر به ما تحت الجلود وفي البطون، و اعمدة من حديد، كلما تحركوا للخروج اعيدوا الى جهنم وقيل لهم؛ ذوقوا عذاب الحريق.

٢٣- واما خط الايمان والعمل الصالح فانه ينعم في بحبوحات الجنان تجري من تحتها الأنهار بملابس حريرية ناعمة وحلي من ذهب ولؤلؤ بديع، فأين هذا من ذاك؟!

والقرآن بنزوله التدريجي خلال ثلاثة وعشرين عاماً يستعرض ويكرر هذه الصور بانحاء مختلفة لكي يترك اثره في قلوب مخاطبيه ونفوسهم وتنسجم مع هذا الخط او ذاك.

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

٢٤- إضافة الى جوانب التنعّم المادي يتمتع المؤمنون بالقول الطيب حيث التسبيح والسلام والحمد لله، وبسلوك الصراط الالهي الحميد فلا يصدر منهم الا الفعل الطيب ايضاً.

٢٥- بعد هذه الصور المؤثرة عن خطي الايمان والكفر ينتقل القرآن الى واقع المشركين في مكة. مكة التي قامت على اساس المسجد الحرام - مركز الهداية التوحيدية في الارض - فاذا بهؤلاء يتحكّمون بها، ويعلنون الشرك، ويصدون عن سبيل الله وعن الأداء الصحيح للحج والعمرة - كما فعلوا عام الحديبية - فإن الله اراد لمكة ان تكون دار الأمان للناس لا يختلف فيها مقيم (عاكف) عن وارد من خارجها (باد)، وهدد كل من يعمل - ظالماً - على الوقوف ضد حالة الأمان هذه، بالعذاب الاليم.

٢٦- يعود القرآن - لتأكيد ماسبق - الى أول المسيرة حيث حدد الله مكان البيت الذي اراد الله ان ينسب اليه (والارض كلها بل الكون ينسب اليه لانه خالقه، ولكنها عناية الهية بالبشرية التي تتأثر بمحسوساتها اكثر من معقولاتها) ليعمل ابراهيم على بنائه وتطهيره ليكون مرجعاً وساحة للعابدين لله من الذين يطوفون حوله، والمقيمين للصلاة فيه، والراكعين الساجدين.

٢٧- وأمر ابراهيم بدعوة الناس الى حج بيت الله الحرام واعلان الالتزام بميثاق التوحيد. وراحت دعوته تتردد في جنبات التاريخ . وقد اخبره الله ان المؤمنين سيستجيبون لهذه الدعوة ويتجهون للبيت على اقدامهم او على ظهور رواحلهم التي يضمرها ويضعفها التعب لطول المسير من الفجاج البعيدة.

٢٨- وهنا يجتمع ممثلو كل مجتمعات البشرية المسلمة ليشهدوا منافع كثيرة- منها التعارف والتآلف على منهج التوحيد، ومنها التأكيد على تواصل المسيرة عبر التاريخ، ومنها معرفة آمال الموحدين وآلامهم. ومنها الارتباط بمنهج ابراهيم وليذكروا الله ويعظموه ويؤدوا ميثاقهم له وذلك في زمان واحد ومكان واحد ونداء واحد بلباس واحد في ظل الامان والسلام ثم ليشكروا الله على نعمه وتوفيره لهم اكلهم من بهيمة الأنعام وليتدرّبوا على اطعام البائس الفقير.

٢٩- وبعد انتهاء الإحرام يعمل المؤمنون على اعادة تنظيف وتجميل أبدانهم بالحلق او النتف او قص الاظافر ثم الوفاء بما نذروه لله ثم الإتيان بالطواف الأخير حول البيت القديم الذي منع الله الجبابرة منه.

٣٠- ان حرمات الله هي الحدود التي يجب تعظيمها والوقوف عندها، اما ماحرمته الجاهلية من الانعام فلا قيمة لتحريمها له، وانما المتبع هو محرمات الشريعة ومن أهمها ماذبح للأوثان ، واقوال الزور والباطل المبتدعة من قبل الجاهلية.

والملاحظ ان هناك شوائب جاهلية طرأت على عملية الحج الابراهيمي وعمل الاسلام على نفيها من قبيل تعظيم الاوثان ، وتحريم بعض الثروات الحيوانية، وتلطيخ الاوثان بدماء الاضاحي، واقوال الزور، والتصفيق، والصفير، وتعالي قريش على الناس ونفيرها من دونهم من المزدلفة، واتيان البيوت من خلفها بعد الاحرام، والتلهي بذكر الآباء والتفاخر بهم، والنسيء، والطواف العاري وكلها امور نفاها الاسلام.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

٣١- اراد الله هذه الامة ان تكون موحدة خالصة لله (حنيفة)، وأن تبتعد عن الشرك وهو الوحدة الحضارية الكبرى، فمثل المشرك المبتعد عن الحقيقة مثل من هوى من مكان عالٍ فمزقته طيور الاهواء الجارحة او قذفت به الرياح الى هوة عميقة لا يمكنه النجاة منها.

٣٢- بعد ان تنقي كل الشوائب والبدع تبقى شعائر الله معالم واضحة على طريق الامة، ويبقى الحج علماً للاسلام فيجب تعظيم هذه الشعائر التي جعلها الله، والاعتبار بها، فهي تربي التقوى في القلوب باستمرار وربما اشير هنا الى خصوص البدن (الجمال) التي تساق هدياً وتشعر بعلامة الهدي.

٣٣- فان للبدن – او عموم الشعائر – منافع لكم يمكنكم الاستفادة منها الى حين ذبحها ومنتهاها الى البيت الحرام القديم.

٣٤- وهكذا يقرر القرآن ان الامم المؤمنة كانت لها انواع من العبادات وهي تذكر فيها اسم الله على ذباحها وتشكره وحده على هذه النعمة. انه الاله الواحد الذي يجب ان تسلم له البشرية وتخبت – اي تطيعه بارادتها – لكي تصل إلى الهدف وحينذاك تستحق البشارة بالنعم الدائمة.

٣٥- ان مناسك الحج تربي في الانسان التوحيد، والشكر، والطاعة، وذكر الله، والخشية والصبر، واقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقه الله. فهي تربي الانسان على ان يكون انساناً حقاً.

٣٦- والبُدن هي الابل السمينة التي تقدم هدياً في الحج فتصبح من شعائر الله (التي تحتاج الى جعل الهي) فهي الخير في حياتها وعند نحرها. ويجب ذكر الله عليها بالتسمية وصفّها بنحرها قائمة معقولة الرجل. فاذا نُحرت واستقرت على الارض وماتت أمكن الأكل منها، وإطعام الفقير سأل الطعام (المعتر) ام لم يسأله (القانع).

وهكذا سخرت هذه الثروة الحيوانية للانسان لتشبع حاجاته وليشكر الله على ذلك.

٣٧- كل هذه المناسك ومنها الهدي انما هي لتربية التقوى في النفوس (لا لينتفع الله بهذه اللحوم والدماء فهو غني – سبحانه – عن ذلك) اذ سخرها للانسان ليكبّر الله ويشكره على الهداية، ويحسن السلوك ليصل الى غايته وكماله في الحياة.

٣٨- ان الله العظيم الجبار يدعم المؤمنين ويدافع عنهم، ولا يشمل دعمه الكافرين الذين خانوا مواثيقهم الفطرية. وبهذا يشعر المؤمنون بالامل والقوة اللامتناهية في مواجهة جميع الاخطار.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

٣٩- بعد ان تهيأت الظروف المناسبة في المدينة جاء الاذن بالقتال للمؤمنين بعد أن تحملوا الظلم والاذى الكثير، وضمن الله لهم الدفاع عنهم وتحقيق النصر وهو القادر عليه.

٤٠- لقد اخرجالمؤمنون من ديارهم ظلماً لأنهم رفعوا كلمة الحق والايمان. فيحق لهم الجهاد، ولولا سنة التدافع لهدمت أماكن العبادة- كمحال عبادة الرهبان (الصوامع)، وبيع النصارى (الكنائس)، ومصليات اليهود ومساجد المسلمين باعتبارها معالم الدين وأنها يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقد ضمن الله النصر لمن يدافع عن دينه وينصر الله وهو القوي العزيز. وهذه السنة الكونية تمثل حالة الردع وعدم الفوضى بين الناس. والحفاظ على معالم المسيرة المتدينة.

٤١- هذا هو هدف المنتصرين في مختلف الميادين- انه اقامة الصلاة وهي عمود الدين ومصدر النهي عن الانحراف، وايتاء الزكاة لسد خلة الجماعة، والأمر بالمعروف وهو كل خير، والنهي عن المنكر - وهو كل شر - والامور بعد ذلك موكولة الى الله. واين هذا من اهداف الذين يحتلون البلاد استكباراً وتسلطاً ونهباً للثروات.

٤٢، ٤٣، ٤٤- وليس تكذيب المشركين امراً جديداً فقد صدر من امثال قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين (قوم شعيب) وقوم موسى وكانت العاقبة واحدة- الامهال واعطاء الفرصة ثم العذاب فكيف كان انكار الله لهذا السلوك المنحرف؟

٤٥- لقد نالهم العذاب بعد تكذيبهم فاذا هم آثار تتحدث عن نفسها: قرية مهدمة، وبئر لاوارد لها، وقصر هلك سكانه.

٤٦- فليسر هؤلاء المكذبون في الارض بقلوب واعية وآذان سميعة ليتعضوا بالعواقب. ولكنهم لا يملكون ذلك بعد ان ابتلوا بالعمى الحقيقي وهو فقدان البصيرة وعمى القلوب دون عمى الابصار..

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

٤٧، ٤٨- وكدأب غيرهم يستعجل المشركون العذاب - نخوة وإمعاناً في العناد - وليعلموا ان وعد الله حق لأنه الصادق القادر، طال الزمان او قصر، وهو لا يخاف الفوت.

وربما كان عدد الالف هنا كناية عن طول المدة والزمان.

وما اكثر القرى التي ظلمت فامهلت - رغم ظلمها - ثم عوقبت، والمصير بالتالي الى الله.

٤٩، ٥٠، ٥١- انه خطاب جميع الانبياء يعلنه الرسول منذراً بكل وضوح فان آمن القوم وعملوا الصالحات فلهم الغفران والحياة الطيبة، وان رفضوا وعملوا على اطفاء نور الله بكل ما يملكونه من جهد استحقوا الجحيم.

٥٢- روي عن اهل البيت(ع) أن الرسول من ينزل عليه الوحي والنبي هو من يرى الوحي في المنام[1] وعلى اي حال فان الآية تقرر أن الرسل والأنبياء يتمنون تصحيح المسيرة وقيادة المجتمعات الى النور والعلاء والكمال ولكن الشياطين توسوس وتشكك وتقف في وجه ذلك، وقد تكفل الله بمحو الشبهات، وتحكيم آياته وهو العليم الحكيم.

وما جاء في بعض المنقولات من روايات الغرانيق وامثالها من استجابة الرسول(ص) لاماني الشيطان مرفوض لا يستحق الرد عليه.

٥٣- والقاءات الشيطان تشكل امتحاناً لمن لم يتأصل الإيمان في قلوبهم او استعصت قلوبهم عليه فبعدوا عن الحق وبانوا عنه.

٥٤- اما العلماء المؤمنون فثابتون على الحق لإن علمهم به قد ملأ وجودهم بالايمان ووجه قلوبهم وعواطفهم وصبغها بالطاعة والهداية الالهية، فيضها تام ودائم تشمل القلوب المستعدة فتقودها الى الصراط المستقيم.

٥٥- اما الكافرون فيبقون في التشكيك والمراء حتى يفاجئهم يوم القيامة، أو يشملهم عذاب يوم لاخلاص منه وحينئذ يدركون الحقيقة بعد فوات الاوان.

---

١ - يراجع الكافي ج ١ ص ١٧٦: باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدَّث.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

٥٦، ٥٧- حيث الملك والمالكية والسيطرة الواضحة لله تعالى وهو الحاكم الحق يثيب المؤمنين الصالحين ويدخلهم جنات النعيم، ويعاقب الكافرين المكذبين بالعذاب والهوان.

٥٨، ٥٩- أن الهجرة في سبيل الله واعلاء كلمته تعبر عن اخلاص وتضحية في سبيل الهدف ولذا تهون فيها الصعاب ويجزى المهاجرون بافضل الجزاء، واذا قتلوا او ماتوا فجزاؤهم الدخول الى مدخل يرضونه ويرضاه الله لهم.

٦٠- واذا واجه المعتدى عليه اعداءه وعاقبهم بمثل ما عاقبوه به دون زيادة وتجاوز ثم حصل البغي والظلم منهم عليه ثانية فان الله تعالى سينصره ويدافع عنه مع ان الله تعالى من صفاته العفو والمغفرة، في اشارة الى استحباب العفو عند المقدرة.

٦١- وهكذا يكون التدافع من سنن الحياة كما أن التداخل بين الليل والنهار كذلك. وكلها من لوازمها وهي تحقق بالتالي المسيرة المتوازنة تحت سمع الله وبصره.

٦٢- ان الله هو الحق الثابت المطلق والكون كله يقوم بالحق وعلى الحق بكل سننه وقوانينه، وما عدا ذلك الباطل والوهم والقلق، والله تعالى اسمى واعلى مما يتصورون لأنه المطلق الحي القيوم المريد المحيط بما سواه.

٦٣- بلطفه وحكمته يقوم الكون وتنطلق الحياة وينزل المطر فيحيي الارض الجرداء الميتة، لتصبح بهيجة مخضرة.

٦٤- انه المالك الحقيقي للكون وهو الغني المطلق وله الحمد كله.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٦٥ـ و ظاهرة تسخير ما في الارض من جبال و سهول وبحار وجماد وحيوان ونبات لصالح الحياة الانسانية. والفلك وحركتها في البحر بأمر الله. والسماء بكل ما يمسكها، ويمنع من أن يخرقها شيء فيصيب الانسان بمكروه، الى غير ذلك من النعم والقوانين التي لا تحصى، لايمكن أن تفسر الاعلى أساس الرأفة والرحمة الالهية الحكيمة المدبرة.

٦٦ـ ونفس حركة الحياة بتطوراتها- الحياة الدنيا ثم الموت ثم الاحياء للآخرة ظاهرة تستوجب التوقف طويلا عندها والتأمل في عطائها، لكن الإنسان ـ مع الاسف ـ شديد الكفر لهذه النعمة.

٦٧ـ وهكذا شاء الله ان تتميز كل امة بمنهجها في العبادة والحياة وشعائرها وملامحها انسجاما مع قيمها ومبادئها. فلا معنى لاعتراض غير المسلمين عليهم في ذلك، وأنهم جاءوا بمناسك جديدة. فليثبت الرسول على دعوته الى الله فهو على الهدى المستقيم.

٦٨ ، ٦٩ـ ولئن اعترض المشركون على المناسك التي جاء بها الاسلام، وصحح انحرافاتهم كما في مجال الحج ـ كمامر ـ فليكل الرسول الامر الى الله ولايدخل معهم في نقاش بعد ان اتخذوا منهج الجدال والعناد، والله هو الحاكم الفصل يوم القيامة.

٧٠ـ والله ـ تعالى ـ هو العالم بكل شيء تتساوى لديه الأشياء والأزمان والأماكن، وكل الاشياء مثبتة في علمه وذلك على الله يسير سهل.

٧١ـ ليلتفت هؤلاء المجادلون في المنهج الاسلامي الى خللهم الكبير وهو عبادة امور موهومة لم يأتهم فيها من الله برهان وحجة، ولم يحصل لهم علم بها فلا شيء الا الخرافة والتقليد الاعمى والظلم للحقيقة والعقل والوجدان بلا دليل يدعمهم، ولا منطق ينصرهم.

٧٢ـ وبدلا من الاستناد الى الادلة الواضحة البينة على صحة اقوال الرسول، يلجأون الى الانكار والانفعالات الشديدة، والبطش بمن يتلو عليهم هذه الآيات الكريمة. وهنا يؤمر الرسول بالتبكيت والانذار لهم بالنار الموعودة فهي أعظم مصير سيئ متصور.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝

٧٣ـ تنبيه رائع لوجدان هؤلاء الناس عبر ضرب مثل من حياتهم المألوفة فليستمعوا له بوعي- ذلك ان هذه الاصنام التي تدّعي لها القوة والشراكة لله ضعيفة الى أقصى ما يتصور، بحيث أنها عاجزة عن خلق موجود ضعيف كالذباب، بل لو ان كل هذه الالهة المزعومة اجتمعت بكل ما تملك من قوة لما استطاعت ذلك، بل لو سلبها الذباب شيئا لم تستطع استنقاذه منه!! نعم ان الطالب (الآلهة) والمطلوب (الذباب) في غاية الضعف.

٧٤ـ إنه سخف شديد ان تقاس هذه الموجودات الى الله، وجهل فاحش بعظمة الله وقوته وعزته وبالتالي فهو ظلم فاحش للحقيقة والتقييم المنطقي السليم.

٧٥ـ ان الله لطيف رحيم سميع بصير بالبشرية، هو خلقها، وهو يعلم ما يحقق لها هدف خلقتها ويهديها الى كمالها، ولذا فهو يختار من تتوفر فيه عناصر الصدق والامانة من الملائكة والناس لإبلاغ رسالته ووحيه الهادي لذلك.

٧٦ـ و هو تعالى يراقبهم ويسدد خطاهم ويعلم مسيرتهم وهذا قد يؤدي معنى العصمة باعتبارهم يتحركون تحت عناية الله وبذلك تطمئن الانسانية الى صدق ما يبلغونه وتتخذهم نماذج حياتية سامية فتقتدي بها وهو تعالى مرجع الامور في الكون والمحيط بها.

٧٧، ٧٨ـ نداء للأمة الاسلامية يحمل لها كل واجباتها ووظائفها الفردية والاجتماعية بل والحضارية ايضا. فهي مأمورة ببناء الذات العابدة عبر الركوع والسجود وعبادة الله وفعل كل خير يأمرها به الله وتنتبه إليه فطرتها. وذلك في كل حياتها وسلوكها كي تصل الى فلاحها وكمالها. وهي مأمورة ببذل اقصى جهدها وبما يتناسب مع رسالتها واهدافها الانسانيةالتي اختيرت هي لها وبما تملكه من طاقة لتحقيق ذلك، فلا حرج عليها ولا تضييق بل هو قيام بسنة ابراهيم الحنيفية الخالصة السمحة. فقد كان ابراهيم اول المسلمين وشكلت هذه الامة نموذجاً للأمة التي دعا اليها ابراهيم.

وهي نعمة الهية كبرى على هذه الامة أن منحها هذاالاسم في الكتب السابقة وفي القرآن، لكي تتخذ الرسول قدوتها الكمالية، فتكون بذلك قدوة حضارية للبشرية جمعاء. ولن تكون كذلك الا اذا أقامت الصلاة وآتت الزكاة واعتصمت بمنهج الله و أوامره وحققت مقتضيات المولوية الالهية وهو نعم المولى ونعم النصير.

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

سورة المؤمنون

تحدثنا قبل هذا عن البسملة.

١ـ تركز هذه السورة على الايمان ومستلزماته الأخلاقية كي يحقق الهدف وهو الكمال الانساني والفلاح.

٢، ٣ ـ فأول مستلزمات الايمان هو النفوذ الى الاعماق وصياغة المشاعر فتخشع لله دائما. واسمى حالات الخشوع انما يتم اثناء الصلاة حيث يفرغ الانسان لربه ويناجيه ويعلن له العبودية الخالصة وحينئذ فلا مجال للغو والسفه وانما الوجود كله يصغي للحق وحده.

٤ـ والايمان يربي النفس على البذل في سبيل الله، وسد خلة المجتمع، وتوفير فرصة الحياة للآخرين.

٥، ٦، ٧ ـ كما ان الايمان يدعو لطهارة العلاقات الاجتماعية وقصر العلاقة الجنسية على الحياة الزوجية التي تقتصر على العلاقة مع الزوجة او مع الجواري اللواتي يتملكهنّ المسلمون (على اساس نظام معين راعي فيه الاسلام الظروف القائمة والمعاملة بالمثل، والحفاظ على العفة الاجتماعية وضرورة اختلاط الاسرى بالمجتمع وانفتاح طريق الايمان وبالتالي الحرية لهم كي يندمجوا في المسيرة) ففي هاتين الحالتين لاتوجد ملامة وفيما عداهما يمتنع المؤمنون عن أية علاقة جنسية والا تجاوزوا الحد. (ومن هذا نعلم ان زواج المتعة الذي كان مسموحاً به في عصره(ص) داخل في الحياة الزوجية وان كان دخولاً مؤقتاً) فقد استدل البعض علي حرمتها بهذه الآية حيث قالوا انها ليست زواجاً ولا ملك يمين وبهذا فقد نسخت آية حلية المتعة من سورة النساء(الآية ٢٤) والصحيح أن هذه آية مكية فلا يمكن أن تنسخ تلك وهي مدنية. وثانياً فان المتعة زواج لأنه عقد وصداق وتوارث للولد مع بعض الفروق كالتوقيت مثلاً.

٨ ـ ومن مقتضيات الايمان حفظ الأمانة والوفاء بالعهد. فعلى اساس منهما تنتظم الحياة الفردية والاجتماعية الانسانية في كل عصر.

٩ ـ واستمرارية الصلاة والحفاظ علي اركانها وأوقاتها وعددها هو الذي يحقق غرضها الحياتي المطلوب وتكرار الصلاة مرتين هنا لاهميتها.

١٠، ١١ ـ هؤلاء المؤمنون المتصفون بلوازم الإيمان هم السائرون علي طريق الكمال في الدنيا وهم الحائزون علي الارث الاخروي العظيم. انه الخلود في الجنان وهو اقصى ما يمكن إن يتمناه الانسان من أمل تعجز عن تحقيقه المبادىء المادية.

١٢، ١٣، ١٤ ـ تعميقاً للايمان وتقوية له يأتي التذكير هنا بمراحل خلقة الانسان اذ تبدأ وتعقد من طين جامد ثم تتحول الى نطفة منوية فيها مقدمات الحياة فتستقر في الرحم المهيئة بشكل عجيب لحفظها وتنميتها، وتشكل بامتزاجها مع بيضة الانثى علقة، فتحول هذه الى مضغة (قطعة من دم غليظ) لتتحول الى عظام، ومن ثم لتكتسي العظام لحماً، ثم يأتي الابداع الالهي ليحوله الى جنين انساني. وفي كل ذلك روائع للخلق والتعبير يقف المرء امامها عاجزاً فتبارك الله احسن الخالقين.

١٥، ١٦ ـ وهكذا يتصل الموت والبعث في القيامة بمسيرة الحياة ليتم التدبير الالهي.

١٧ ـ ومن عجائب النفس الى عجائب الآفاق حيث السموات السبع وهي كلها تحت سمع الله وعلمه.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

١٨ ـ ثم ها هو المطر ينزل بقدر يناسب حاجة الإنسان لتجذبه الأرض وتبدأ دورة رائعة من الماء فيها حياة الانسان والارض التي يعيش عليها، والله قادر على منع هذه النعمة. وإذا حدث نقص أو فيض فإنما هو لعدم استثمار المياه من قبل الإنسان بصنع السدود وإرواء الأرض.

١٩ ـ ومن الارض والماء تنشأ الجنات من النخيل والاعناب والفواكة المتنوعة التي تشبع بطون الناس بالاكل وعيونهم بالجمال، بتنسيق وتخطيط جميل يكشف بوضوح عن يد القدرة الرائعة.

٢٠ ـ وها هي شجرة الزيتون التي تنبت كثيرا في طور سيناء تنتج زيتاً فيه الكثير من الخصائص المنسجمة مع حاجة الانسان، كما تنتج أداماً يصبغ الطعام فتلتذ به العيون والبطون.

٢١، ٢٢ ـ والى عالم الحيوان ومنافعه الكثيرة المنسجمة بدقة مع الحياة الانسانية وحاجاتها. فمن حليبها الذي يُشرب إلى لحمها الذي يؤكل والى حمل الانسان من مكان لآخر تماما كالفلك المسخرة طبق قوانين إلهية لتقوم بهذه الوظيفة في الانهار والبحار. والعبرة الكبرى من ذلك هي الايمان بالقدرة المدبرة.

٢٣ ـ بعد تركيز الايمان بالله يأتي الحديث عن دعوة الرسل جميعاً لهذه الحقيقة. فهذا نوح يعلن دعوة التوحيد والتقوى ليجيبه الملأ الكافرون من قومه بالتشكيك في امكان كون الرسول بشرا، وليس من الملائكة وأنهم لم يسبقوا بذلك، وان نوحاً إنما يحاول ادعاء التفضل عليهم لاغير.

٢٤ ـ ثم يتهمونه بالجنون فيجب ان يترك وشأنه حتى يموت.

٢٥ـ ليلجأ نوح الى الله طالباً ان يبدله بتكذيبهم واذاهم بالنصر.

٢٦، ٢٧ـ ويؤمر نوح بصناعة الفلك تحت رعاية الله وهدايته، حتى اذا أتم ذلك انتظر الأمر والحكم الالهي بالطوفان عبر العلامة الخاصة وهي فوران الماء متفجراً بأمر الله من موقده ومنبعه، وحينئذ أمر بأن يحمل معه من انواع الأحياء من كل نوع منها زوجين اثنين كما يحمل معه اهل بيته والمؤمنين به الا الكافرين المستحقين لعذاب الله على ان لا يشفع لهؤلاء المستثنين فيجب ان يلاقوا عاقبة الظلم؛ وهي الغرق في هذا الطوفان العظيم.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾

٢٨ ، ٢٩ ـ وتأتي التعليمات الالهية لنوح أن يعلن الحمد لله على تخليصه من الظالمين ويطلب منه ـ جل و علا ـ أن ينزله على الارض منزلاً مباركاً كثير العطاء وهو خير المنزلين.

٣٠ ـ ان في قصة نوح آيات وعبراً تحوي معاني الصبر، والشكر، ووحدة الدعوة وارتباط التقوى بالتوحيد، ونفور الملأ المترف دائما من الحق، وتوجيهه التهم الباطلة للمخلصين، وتآمره على الدعاة، والنصر الالهي لهم، وهلاك الظالمين دونما شفيع، وحمد الشاكرين المؤمنين لله، وطلبهم العون منه دائماً واستمداد البركة منه، ونجاحهم في امتحان البلاء.

٣١ـ ويستمر القرآن في عرض تجارب الدعوة وما تواجهه من عقبات، فيذكر تجربة جيل آخر.

٣٢ ـ وقد ارسل الله اليه رسولاً من بين افراده ليعلن له كلمة التوحيد والتقوى نفسها.

٣٣، ٣٤ ـ وتتكرر التجربة فيقف في وجهه الملأ الاشراف المنتفعون من الضلال، المكذبون بالآخرة، والمترفون اللاهون في الدنيا، فيشككون في نبوته لانه انسان يأكل ويشرب كالآخرين فكيف يتبع الناس انسانا منهم؟ انه في منطقهم خسران واضح.

٣٥، ٣٦ ، ٣٧ ـ ثم ليستهزئوا بالمعاد يوم القيامة بعد ان يتحول الانسان الى تراب وعظام بالية مستبعدين ذلك مركزين على هذه الحياة الدنيا لاغير ومنكرين للبعث.

٣٨ـ ومتبعين ذلك باتهامه بالكذب ومعلنين اصرارهم على عدم الايمان.

٣٩، ٤٠ ـ ويلجأ الرسول الى ربه طالباً النصر ليعده الله به عن قرب، وحينئذ يندم الكافرون.

٤١ ـ ليأخذهم عذاب الصيحة وليتحولوا الى غثاء مهمل من مهملات التاريخ وتشملهم اللعنة الأبدية.

٤٢ ـ وهكذا تتوالى الاجيال ويتكرر المشهد.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٤٣ ، ٤٤ ـ ولكل امة اجل وزمان وهي تستوفي أجلها في التاريخ. وتتابعت الرسل لطفاً من الله بالبشرية ولكن التكذيب تتابع ايضاً فتشابهت النتائج وتبع المكذّبون بعضهم بعضاً وتحولوا من امم أريد لها التكامل وصناعة التاريخ الى احاديث يلوكها التاريخ وشملتهم اللعنة والبعد والنسيان.

٤٥ ـ وفي نفس السياق السريع تذكر قصة موسى وهارون ومعهما كل ما ينبه الوجدان وتذعن له العقول من آيات وعلامات.

٤٦ ، ٤٧ ـ وعلى غرار كل الملأ والمستكبرين المتجبرين يرفض فرعون وملؤه تلك الآيات البينة، ويحتجون بنفس الحجة، بشرية الرسول، ويضيفون اليها أن قوم هذين الرسولين البشرين يعبدون فرعون فالاحرى بهما أن يشبها قومهما في العمل كما أشبهاهم في البشرية.

٤٨ ـ وتكرّرت سنة الله باهلاك المكذبين.

٤٩ ـ ثم بلغ موسى كتاب الله (التوراة) لبني اسرائيل كي يسيروا على طريق الهدى.

٥٠ ـ وهنا يشار الى عيسى وامه مريم باعتبارهما آية من آيات الله، وقد منَّ عليهما بايوائهما الى مكان مرتفع ومستوٍ يجري فيه الماء وتطمئن فيه النفس.

٥١ ـ خطاب عام لقادة البشرية (الرسل) ليعيشوا كالبشر يأكلون ويعملون ولكنه أكل للطيبات وعمل للصالحات فتقتدي بهم البشرية المؤمنة وتمضي المسيرة تحت علم الله ورعايته.

٥٢ ـ لتتحقق المسيرة الواحدة العابدة المتقية وتسير تحت قيادةالأنبياء الى كمالها المنشود.

٥٣ ـ كذلك اراد الله لهذه البشرية أن تسير وموقفها العملي واحد وعلى خط الأنبياء. الا أنّ الامم تمزقت بعدهم الى فرق وأحزاب يتبجح كل منها بمالديه، ويفرح به ناسياً الهدف الأسمى والمسيرة الواحدة.

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ـ على هؤلاء ان لايحسبوا ان ما يحصلون عليه من نعم ومال وبنين انما هو نتيجة رضا الله عنهم كلا فان الامر على خلاف ما يظنون وان كانوا لايشعرون.

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ـ وعلى الجانب الآخر يقف الخائفون من الله، المؤمنون بكل آياته، البعيدون عن الشرك بكل انواعه.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)

٦٠ ـ إنهم يحسّون بعظمة الله وألطافه ويستقلون طاعاتهم تجاهها، ويخشون ان يقصروا في ذلك فهم ينفقون ويعملون الصالحات وقلوبهم وجلة من يوم الجزاء.

٦١ ـ ولذلك فهم يتسابقون في فعل الخير ويتحينون أسرع الفرص لذلك ـ واذا كان المشركون ينتظرون أن يسارع الله لهم في الخيرات وهم مشركون فان هؤلاء يسارعون فيها وهم وجلون.

٦٢ ـ هذا هو الدين منسجم مع الفطرة، ومنسجم مع القدرة فلا يكلف احدا ما لايطيق. وها هو الكتاب يعرض الحق بوضوح تام امام الفطرة والقدرة، ويهدي للعدل والانصاف دونما ظلم او حيف.

٦٣ ـ ولكن المشركين تغمر قلوبهم الغفلة عن هذه الحقائق، وتزيدهم اعمالهم المنحرفة غفلة عن الآيات البينات.

٦٤، ٦٥ ـ فاذا شمل العذاب المترفين تنبهوا من غفلتهم وراحوا يصرخون مستغيثين ولكن بعد فوات الأوان، فلا ينفع الجؤار والعويل ولا ينصرهم ناصر من عذاب الله.

٦٦، ٦٧ ـ لقد جاءتهم الدلائل والآيات المنبهة للوجدان فلم تزدهم الا تراجعاً عن الحق، واستكباراً وهجراً وامعاناً في الهذيان في نوادي السمر الليلية فهم لا يستحقون النصر.

٦٨ ـ هذه هي حقائق القرآن واضحة بينة فلماذا لا يتدبرون فيها وفي جمال معانيها. انه كتاب يعرض كل ما قاله الانبياء عبر التاريخ من التوحيد والتقوى فلا شيء محدث فيه لم يسمعونه من قبل.

٦٩ ، ٧٠ ـ الا يعرفون الرسول الذي عاش معهم صادقاً اميناً قوي الشخصية مفكرها؟ فلا معنى لتهمة الجنون السخيفة. بل هو الحق الواضح الذي جاءهم به وان كان اكثرهم للحق كارهون.

٧١ ـ ان للحق قيمة قائمة بذاتها لا تتغير بتغير الاهواء والرغبات. والحب والكره ولو كان يتبع الاهواء لانتقض بناء الكون القائم على اساس من علم الله ورحمته وقدرته وعلى انسجام التشريع مع حركة الكون وحاجات الإنسان الحقيقية واشباعها العادل السليم، فما عليهم الا اتباع القرآن المذكّر لهم بالحقيقة. الا انهم يعرضون عن الذكر والوعي ويستمرئون الغفلة والعناد.

٧٢، ٧٣ ، ٧٤ ـ بعد أن فنّد القرآن اعذارهم وتبريراتهم لحالات الاعراض والعناد، أكد هنا انّ النبي(ص) لم يسألهم اجراً وخرجاً على اداء رسالته فاجره على الله وهو خير الرازقين، وان ماجاء به هو طريق الحق المستقيم، و ان المنكرين للآخرة هم المنحرفون عن الحقيقة.

﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٧٥ ـ إنهم تاكبرن منحرفون فاذا انكشف عنهم البلاء والضر برحمة من الله وجدتهم مصممين سادرين في الغي غارقين في الطغيان.

٧٦ ـ ولقد رأوا من قبل عذاب الله فلم يؤدّ بهم ذلك للاستكانة والتضرع لله.

٧٧ ـ فاذا ابتلوا بالعذاب الشديد عادوا يائسين من كل خلاص.

٧٨ ـ عودة قرآنية الى تركيز الايمان عبر تنبيه الوجدان الى دقة الخلقة الالهية. فها هي منابع المعرفة الانسانية ـ وبها يكمل الانسان ويتسامى ـ يركز عليها القرآن. وهي الحواس كالسمع والبصر والافئدة وهي قدرة الادراك والتعقل التي يتميز بها الانسان كأعظم نعمة إلهية لايستطيع ان يؤدي الانسان حقها من الشكر.

٧٩ ـ وقد امتن الله فهيأ له ظروف الحياة في هذه الارض بكل مستلزماتها ليقوم باعمارها وتنفيذ حق الخلافة فيها ولتنتهي المسيرة الى الله حيث الجزاء والحساب.

٨٠ ـ ثم هاتان الظاهرتان العجيبتان: الحياة والموت وهذه الظواهر الكونية الواضحة ومنها الليل والنهار وما تعبران عنه من قوانين وظواهر عجيبة، الا يدعو كل ذلك للتأمل والتعقل؟

٨١، ٨٢، ٨٣ ـ ولكنهم بدلا عن التعقل راحوا يرددون اقوال الضالين القدامى من التشكيك بالبعث واعادة الانسان الى الحياة بعد ان يصير ترابا وعظاماً واعتبار ذلك خرافة مكررة قديمة.

٨٤ ، ٨٥ ـ ويأتي الرد عبر سؤال قاطع عن مالكية هذا الكون ولمن هي؟ ولا جواب لهم ـ وفق مرتكزاتهم ـ الا الاعتراف بها لله. ليعود السؤال القاطع اذن ما معنى التشكيك بقدرة الله على البعث؟

٨٦ ، ٨٧ ـ والاسئلة بعد هذا تترى، فمن هو خالق السماوات السبع ؟ ومن هو المدبر لكل حركة في الكون؟ ولا جواب الا الأعتراف بالله وحينئذ يأتي التساؤل الطبيعي التالي- لماذا اذن لا تتقون الله ولاتخشونه؟

٨٨، ٨٩ ـ ثم هذا التساؤل الكبير الوجداني- لمن الملك وتدبير الاشياء كلها ومن هو المجير الوحيد القادر الرحيم والذي لايمنع منه ومن عذابه مانع؟

ولاجواب لهم الا الاعتراف بالله ليأتي التساؤل الأخير- فلماذا اذن هذا الجري خلف الوهم والخيال؟ وهكذا يتضح ان الكثير من المشركين كان يؤمن بربوبية الله وخالقيته ومالكيته ولكنهم مبتلون بمرض الشرك والخرافات.

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

٩٠ ـ نعم لقد بطلت كل تشكيكاتهم، وتوضح ان ما جاء به الرسول هو الحق وهم الكاذبون.

٩١ ـ ان الله يتنزه عما كان ينسبه اليه المشركون وغيرهم من ولد يحمل صفات الالوهية، وليس هناك من يشاركه في الالوهية، والا لتفرد كل اله بما خلق، باعتبار تفرده بخلقه، ولكان لكل اله امتداده وسيطرته على الكون، وتواجه حينئذ فرضية تنازع الآلهة الوهية، وبالتالي فناء الكون، وما كل ذلك يتسجم مع واقع الكون المنظم بكل دقة ووحدة تدبيرية، فسبحان الله وتنزه عما يصفون.

٩٢ ـ انه تعالى عالم الغيب والحضور بلا فرق بينهما لديه، ومحيط بالكون فلا معنى لادعاء الشركاء، وكل ما عداه يقع تحت علمه وقدرته، فتعالى الله عما ينسبونه اليه.

٩٣، ٩٤، ٩٥ ـ وهكذا يعلم القرآن الرسول ـ ومن بعده كل المؤمنين ـ ان يلجأ دائماً الى ربه ويطلب تأييده وان لا يجعله فيمن يعذبهم من الظالمين بعد أن يأتي الوعد بالعقاب، و الله قادر على تحقيق وعيده.

٩٦، ٩٧، ٩٨ ـ وفي شدة الضغط المشرك يؤمر الرسول بالرد الحسن على إساءتهم تحت علم الله، وفي هذا الامر ما فيه من تربية وفتح مجال للوعي وجذب للقلوب.

كما يؤمر بالاستعاذة من ايحاءات ومؤامرات الشياطين ومن حضورهم وعرقلتهم لمسيرته الخيرة لتكون هذه الصفة – صفة الاستعاذة ديدن أمته من بعده.

٩٩ ، ١٠٠ ـ ان الموت اكبر منبه للانسان المنحرف، فما أن يبصر رسل الله الآتين لقبض روحه، حتى يبدأ بالاستغاثة وطلب المهلة والعودة الى الدنيا لعله يعمل صالحاً، ولكنه يواجه بالرفض وأن لاقيمة لهذه الاستغاثة. فهو اذن يدخل عالم البرزخ الفاصل بين الموت والقيامة ليواجه مصيره المشؤوم.

١٠١ ـ وحين ينفخ في البوق الالهي وتقوم القيامة فانه لن تنفعهم الانساب ولا الاستنجاد والمساءلة بها بل يقفون بمفردهم امام الله العظيم.

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ـ فمن شفعت له اعماله وثقلت موازينه فقد افلح، ومن خف ميزانه عند الحساب فقد خسر وجوده وعانى الخلود في النار يلفحه لهيبها ويحرق وجهه فاذا هو بصورة تكشف القبح الأليم.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا
غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا
فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ
﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ
لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ
لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ
﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سورة النور

١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨ ـ وزيادة في التبكيت وبالتالي تحذيرا للكافرين الذين يواجهون الرسالة تعرض هذه الصورة من صور العذاب حيث يسأل الظالمون عن مدى اطلاعهم على الدلائل ليجيبوا معترفين بالايجاب معتذرين بغلبة الشقاء والتكبر والضلال عليهم، طالبين ان يمنّ عليهم ربهم بالاخراج من النار ومنحهم فرصة جديدة، فان عادوا الى شقوتهم كانوا مستحقين للعذاب لظلمهم، لينهروا بقوة ويزجروا عن الكلام.

١٠٩، ١١٠- أليسوا هم الذين كانوا يستهزئون بفريق من المؤمنين المستغفرين الله الطالبين لرحمته وهو خير الراحمين، يسخرون من ذلك ناسين ذكر الله العظيم.

١١١ ـ ولكن ماذا كانت العاقبة؟ لقد فاز المؤمنون المستضعفون وخسئ المستهزئون.

١١٢، ١١٣، ١١٤ ـ واستصغاراً لمتعة الدنيا في قبال الآخرة يأتي هذا الحوار، فيُسأل الناس يوم القيامة عن مدة بقائهم في الدنيا ليجيبوا أنهم انما لبثوا يوماً او بعض يوم تقليلا للمدة في قبال طول ايام الآخرة، ليأتي التاكيد على قلة اللبث هناك ومن ثم ليحسوا أنهم أشبعوا لذات ذواتهم إشباعا قليلا وبقوا محرومين في حياة الخلود.

١١٥ ـ ان وجود البعث والحساب يخرج مسيرة الانسانية الطويلة بما فيها من هداية وضلال، وطاعة وعصيان، وتقدم وتراجع، وعدالة وظلم، يخرجها من العبث الى المسؤولية والتخطيط ومن الضياع الى التكامل ولامجال للعبث في خلق الله.

١١٦ ـ ان الله ـ جل وعلا ـ هو الملك المطلق، والحق الثابت والواحد المدبر للكون بكرمه ولطفه فلا مجال لتصور العبث في فعله وهو القادر على بعث الناس للحساب.

١١٧، ١١٨ ـ وتاكيداً لما بدأت به السورة من فلاح المؤمنين وخسران الكافرين يأتي ختامها ليعلن ان المشركين لا يستنيرون ببرهان، فحسابهم الى ربهم وهم لايفلحون، في حين يعيش المؤمنون في ظل اللطف الالهي داعين بالغفران والرحمة ليغمرهم بها وهو ارحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

سورة النور

ذكرنا أن البسملة تحمل معنىً عظيماً، وأنها جزء من السورة.

١ـ تهدف سورة النور لبناء الحياة البشرية النيرة الطاهرة المتصلة بالهدى الالهي بتركيز على الحياة الاجتماعية والجانب العائلي خصوصاً، فجاءت تعلن عن نفسها في المطلع أنها أنزلت وفرضت بما فيها من آيات واضحة نيرة لكي تذكر الانسان بفطرته وربه ودينه وشريعته وحياته النيرة وهدف مسيرته.

٢ـ وهنا تطهير للعلاقات الاجتماعية من اكبر آفة ممزقة وهي الزنا المخرب للعائلة.

ولذا فلا هوادة فيه ولامجال للرأفة في حكم الله إن كان المجتمع مجتمع المؤمنين. ويجلد الزاني والزانية غير المحصنين مائة جلدة علناً امام طائفة من المؤمنين للاعتبار.

٣ ـ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن[1] ـ كما جاء في الخبر، وكذلك الزانية، ثم ان الزاني انما يقصد الزانية لا العفيفة. فهما خارجان بعملهما عن الجماعة المسلمة الطاهرة. وهما مرفوضان اذا أشهرا عملهما فاذا حدّا ولم يتوبا ترك تزويجهما طرداً لهما بينما يتكافئان مع المشركين في النكاح.

٤ ، ٥ ـ وتطهيراً للمجتمع وحماية للأعراض وتحوطاً للأمر فان رمي النساء العفيفات أمر عظيم الخطر فاذا لم تؤيده شهادة شهود الزنا الأربعة فان عقوبة الرمي والافتراء هي ثمانون جلدة ليتم الارتداع. ولكن هؤلاء الرامين سوف يعدّون من الفاسقين الذين لا تقبل شهادتهم ابداً، الا أن يتوبوا ويصلحوا فيشملهم الله بالغفران والرحمة.

٦ ، ٧ ـ أما اذا رمى الزوج زوجته بالزنا ولم يكن لديه اربعة من الشهداء، فعليه ان يشهد اربع مرات بالله أنه من الصادقين ثم يعلن في الخامسة ان لعنة الله وغضبه عليّ ان كنت من الكاذبين.

٨ ، ٩ ـ ويدفع العذاب والعقاب عن الزوجة الشهادات الخمس بالله اربعة على كذبه والخامسة بغضب الله عليها ان كان صادقاً.

١٠ ـ أنها احكام تقوم على رحمة الله بالامة ـ لا القسوة كما تبدو ـ وبها يطهر المجتمع ويقوم على اسسه السليمة. وهنا تتجلى ايضا حكمة الله تعالى بفتح باب التوبة والطهارة.

---

١ ـ الكافي، ج ٢، ص ٣١.

إن الذين جاءو بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١) لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين (١٢) لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون (١٣) ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (١٤) إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١٥) ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (١٦) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين (١٧) ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (١٨) إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١٩) ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم (٢٠)

١١- تأتي هنا الاشارة إلى نموذج صارخ من القذف وهو موضوع الإفك اي الكذب الذي قامت به مجموعة متآمرة منافقة من المجتمع المعاصر للرسول بحق فرد من افراد بيت النبي(ص) (روي انها ام المؤمنين عائشة، وروي انها ام المؤمنين مارية القبطية)[1] فهزوا المجتمع آنذاك. باتهامه بالفساد والزنا. ورغم الآثار السيئة فإن القرآن يرى الجانب الايجابي هنا عبر كشف اهل الفساد ووضوح زيف الاتهام وتحصين المجتمع من مثل هذه الانحرافات. أما من تولى معظم المهمة وهو عبدالله بن أبي[2]. رأس المنافقين فهو مستحق للعذاب العظيم.

١٢- كانت الحالة الطبيعية للمجتمع الاسلامي ان يرفض هذه الشائعة منذ البدء فهي ترتبط بكل فرد فرد وهي لا تحمل عناصر التصديق فيجب تكذيبها بكل وضوح.

١٣- ومادام ناشرو الاشاعة لم يأتوا بالشهداء الأربعة فهم محكومون بالكذب.

١٤- مازال القرآن يربّي الامة خطوة بعد خطوة وبفضل الله ورحمته يعبر بها العقبات، ويغفر لها زلاتها وإلا ففي الخوض في مثل هذه الامور عواقب سيئة عظيمة خاصة وانها كانت تحاول تشويه سمعة الرسول(ص) والتأثير على الرسالة.

١٥،١٦- لقد كان كلاماً تلقته الإلسن وتناقلته الافواه دون تثبت وتأكد، ظانة انه أمر عادي ولكنه عند الله عظيم. فكان الصحيح الطبيعي التحرز عن الدخول في الامر بل التبري منه والاستعاذة بالله من هذا الافتراء الصارخ.

١٧- وبالتالي يحذر القرآن المجتمع المسلم أن يكرر هذا الخطأ القادح. ما دام مؤمنا بالله ورسوله.

١٨- تأكيد للطف الله اذ يبين للمجتمع معالم مسيرته باستمرار ويمنحه من علمه وحكمته ما يسدد به خطاه.

١٩،٢٠- انّ المجتمع الاسلامي مجتمع طاهر وأيُّ قصد بل أيّ ميل لنشر الفواحش وإشاعتها فيه وتلويث اجوائه يعني الظلم الكبير المستحق للعذاب الاليم. ولهذا فيجب ان تتعلق النفوس بتعليمات الله فهو العالم بمصالحها ويجب ان تستمد من فضله ورحمته وهو اهل الرأفة والرحمة.

---

١ - البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٥٢.
٢ - راجع مجمع البيان ج ٧ ص ٢٠٦.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾

٢١- أن الشيطان هو العدو المتربص بالانسان يمزقه كفرد ويحطمه كمجتمع عبر تآمره وتخطيطه وخطواته الماكرة. فيجب أن ينتبه المؤمنون لذلك. انه يدعو لاشاعة الفاحشة وهي تعني الخروج عن الحالة الطبيعية، والمنكر الذي يتنكره العرف والطبع والفطرة الانسانية، فيجب استشعار اللطف والرحمة الالهية دائماً والتمسك بشريعة الله ولولاها لما طهر أحد، فمنه الهدى ومنه التزكية وهو يرقب مسيرة الإنسان فهي تحت سمعه وعلمه.

٢٢- ويجب ان يشعر الاغنياء وذوو المكنة بحاجات المجتمع من أولي القربى واليتامى والمساكين ومن تركوا اموالهم واهلهم وهاجروا في سبيل الله، فينفقوا عليهم. كما يجب ان يسود المجتمع الوئام والصفح وبالتالي المحبة لتشملهم محبة الله وغفرانه. خاصة والمجتمع المسلم في بداية تكوينه واختلاف تركيبته وتعقيدها.

٢٣- تأكيد جديد على ضرورة الابتعاد عن تسميم المجتمع عبر التشكيك بالعلاقات الزوجية، واتهام الغافلات عما يحاك لهنّ في الخفاء، والمحصنات اللواتي أنتهجن نهج العفة والمؤمنات الصالحات، اتهامهنّ بالانحراف، وبث الشك والريب في المجتمع. فإن ذلك العمل يؤهل فاعله للطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الدنيا والاخرة.

٢٤،٢٥- ويوم القيامة له خصائصه حيث تشهد الالسن والأيدي والارجل بما عملت فلا مجال للتخلص والإنكار، وهناك يلاقون حقهم من الجزاء ويكتشفون الحقيقة الكاملة. فالله هو الحق وكلماته هي الحق ووعوده هي الحق وهو لا يدعو الا إلى الحق.

٢٦- وكما اسلفنا في الآية الثالثة فإن حالة الزنا حالة غير منسجمة مع المجتمع الاسلامي ومعزولة عنه، وكذلك حالة الخبث والقذر الخلقي تجر اصحابها وصاحباتها بعيداً عن الجماعة التي يحفها الطيب والطهارة فهم مبرأون من التهم بعيدون عن الانحراف مستحقون للمغفرة والرزق الكريم. وفي الآية تأكيد على ضرورة الفصل والتمايز والتكافؤ في الزواج بين مجتمعي الطهر والمعصية. (إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه)[1].

٢٧- توجيه الهي اجتماعي آخر ربما غفل عنه الناس آنذاك، وهو يأمرهم ان لا يقتحموا بيوت الآخرين دونما تعريف واستئذان، فقد يخرقون حرمة اصحابها وقد يطّلعون على مالايجوز لهم الاطلاع عليه، وهكذا تزول بعض عوامل الخلل في العلاقات السليمة.

---

١ - الكافي، ج ٥، ص ٣٤٧.

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٢٨- فلا يجوز دخول دار لم يؤذن في دخولها، فاذا رفض صاحب البيت ذلك وجبت العودة والإنصراف فإن ذلك اطهر للمؤمن الذي يحيى تحت علم الله وبصره.

٢٩- وهناك اماكن توجد قرائن فيها على الاذن العام للداخلين كي يحصلوا فيها على ما يريدونه من متاع وحاجات وضيافة فلا مانع من دخولها. وليعلم المؤمنون بدقة انهم يعيشون بما يظهرونه أو يخفونه تحت علم الله التام بهم.

٣٠- ويستمر القرآن في توجيهاته الاجتماعية المطهرة للعلاقات بنهي المؤمنين عن النظر إلى مالا يحل النظر اليه من النساء . والنظرة باب الفتنة وتهييج الشهوة وبالتالي تدنيس العلاقات. ثم جاء الامر بحفظ الفروج وهي كناية عن عدم صرف الشهوة الجنسية في غير ما أحل لها في الآية السادسة من سورة المؤمنون وذلك ليؤدي الدافع الجنسي دوره الطبيعي في شد المجتمع إلى بعضه، وادامة النسل الانساني دونما تخريب لأسس المجتمع، وبه تتم طهارة المجتمع.

٣١- كما تؤمر المؤمنات بدورهنّ بعدم النظر إلى مالا يحل لهن أيضاً وحفظ انفسهنّ عن الرذيلة، وعدم فعل مايحرك كوامن الشهوة في الجنس الآخر فلا يظهرن مواقع الزينة والفتنة الا الوجه والكفين والقدمين. كما يؤمرن بتغطية فتحة الصدر من الثوب بواسطة غطاء الرأس والنحر وهو (الخمار) لمنع موارد الفتنة. واستثني من النهي عن ابداء الزينة للآخرين كل من الازواج والآباء وآباء الازواج والأبناء وابناء الازواج والاخوة وابناء الاخوة وابناء الأخوات، والنساء المؤمنات وما ملكن من العبيد والاماء والرجال المولّى عليهم الذين لا حاجة لهم لاشباع الشهوة، والأطفال الذين لا تثور فيهم شهوة لعدم اطلاعهم على مواضعها، كما نهين عن الحركات التي تهيج الشهوات من خلال فعل ما يكشف عن وجود انماط من الزينة المخفية.

وتختم الآية بهذا التوجيه العام حيث المطبّات والمزالق الكثيرة في هذه المجالات بالتوبة والانابة إلى الله وذلك مقتضى ايمانهم لكي يصلوا للمجتمع الطاهر السعيد.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

٣٢- وبعد أن اغلق القرآن ابواب الفتنة والانحراف، راح يفتح باب التصريف والاشباع الصحيح للغريزة الجنسية وهو الزواج ، ويدعو لتسهيل زواج من لا أزواج لهم من الاحرار والصالحين للزواج من العبيد والاماء، والتركيز على الصلاح بدلاً من الاهتمام بالعناصر المادية والوهمية، والإنفاق في هذا السبيل واعداً بتوفير الارزاق لهذه العوائل الجديدة بفضله تعالى وهو الغني العليم.

٣٣- في حين يطلب من الذين لم تتح لهم فرص الزواج أن يتحصنوا بالعفة حتى يفرج الله عنهم ضيقهم. ولما كان وجود العبيد في المجتمع بشكل احياناً مصدراً للفساد لعدم تخلقهم بالخلق الاسلامي ولغربتهم عن قيمه فقد هيّأ الإسلام فرص الحرية لهم ومنها أن يطلب العبد من مولاه أن يكاتبه على ان يدفع العبد مالاً معيّنا يكسبه لقاء تحريره. وهنا يؤمر المؤمنون بقبول ذلك تحقيقاً للرأفة ودفعاً للعمل وسداً لباب الفساد بانهاء الرق والعبودية. كما يؤمر الحاكم الاسلامي بمعونة هؤلاء المحررين من بيت المال ايضاً. ثم ينهى القرآن عن عمل الجاهلية من اكراه الفتيات المملوكات على البغاء والتكسب بذلك، فيجب أن لا يحدث هذا في المجتمع الإسلامي. وبهذا يحافظ الإسلام على طهارة المجتمع وسلامته.

٣٤- هذا هو القرآن آيات واضحات وعرض للتاريخ للاتعاظ والاعتبار كما فيه الهدى والرشاد والنور.

٣٥- ان الله هو النور بمعانيه فهو الذي يهب الوجود، ويهدي الخلق لكماله هداية تكوينية وتشريعية، ويطهّر الكون من شوائبه، ويهيئ الحياة للانسان ويطهر الإنسان من شوائبه ويسوقه إلى الكمال. وهنا يركز القرآن على صورة محسوسة تحاكي الصورة المعقولة: انها تنطلق من كوة صغيرة (مشكواة) يوضع فيها مصباح لتوهج نوره وتؤلقه، تحميه زجاجة وتعطيه صفائها فهو ككوكب دري منير شفاف. تغذيه شجرة مباركة زيتونة بدهنها الصافي الذي تعطيه الشمس المشرقة عليه شروقاً وغروباً صفاء خاصاً، فيكاد يضيء قبل ان تمسه النار. فهي اذن عوامل لتلألؤ هذا النور وتألقه ليملأ الكون عطاءً وتهتدي له القلوب المستعدة. وهكذا يأتي المثل القرآني للنور الالهي لينهل من عطائه الجميع فيعبدوا الله ويشكروه.

٣٦- والمساجد محل اشراق النور الالهي واتصال الارواح بالنور فلها العظمة والرفعة وفيها يرفع اسم الله وفي اجوائها يعلو التسبيح لله باستمرار صباحاً ومساءً.

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)

٣٧- ويعمر بيوت الله ومساجده مؤمنون لا تمنعهم تجارتهم ومكاسبهم عن ان يعيشوا ويحيوا بذكر الله قلوبهم وإقامة الصلاة واعطاء الزكاة قياماً بالواجبات وخشية من الله وحسابه في يوم رهيب تحار فيه القلوب والأبصار.

٣٨- ولا ريب ان مثل هؤلاء سيجزون الجزاء الاوفى نتيجة اعمالهم الصالحة، وفوق ذلك فضل عميم ورزق كريم بارادته وكرمه.

٣٩- اما الكافرون فهم محرومون من النور والحياة المتعالية، اعمالهم سراب ووهم يحسبه العطشان المتلهف ماء وحقيقة فيقترب منه ليجده خيالاً خلاباً. فلا شيء هناك الا مايشير إلى الله من دلائل. ولكن العناد والعمى لا يزالان يغمرانه فيستحق العذاب يوم الحساب.

٤٠- وحياتهم الظلام الدامس كظلمات البحر بامواجه المتلاطمة بعضها فوق بعض، و يغطيه السحاب فيحجب عنه أضواء السماء. وهكذا تتراكم الظلمات فلا يبصر الإنسان يده ولا يهتدي طريقه. ذلك لان حياة الكفر لا صلة لها بالنور ولا تعرف طريقها إلى مصدره الوحيد وهو الله – جل وعلا – وهكذا تتوالى الامثال القرآنية كاسلوب بلاغي لتقريب الحقائق.

٤١، ٤٢ – بالله يستنير الكون، وكل مافيه مفتقر اليه في وجوده وسيره، فهو علامة تشير إلى عظمته وتسبيح وتنزيه وحمد له، كل شيء بلغته ووجوده يسبح الله ويتجه نحو غايته وهدفه، ومنها هذه الطيور الصافة بارجلها، والله يحيط بالكون بعلمه ونوره. فمنه يبدأ الكون وبه يقوم، وله المالكية الحقة واليه المصير.

٤٣- فليتأمل المتأملون عجائب الكون ويتدبروا فيه. فقدرة الله هيئت دورة المياه في الطبيعة وهي في كل مراحلها عطاء للانسان؛ حيث تدفع السحاب ليتراكم ويتجمع فيثقل ليخرج الودق اي المطر من خلال شقوقه، او ينزل البرَد (الثلج) ليتجمع كالجبال في بعض المناطق، او يصيب مناطق ويعبر أخرى، والبرق يصحبه بما يكاد نوره يعمي الأبصار . كل ذلك وفق تقدير دقيق وقوانين هائلة وتدبير وحكمة تشد النفوس إلى الله المدبر الحكيم وهكذا تتوجه العقول للنظر والتأمل واكتشاف قوانين الطبيعة.

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

٤٤- وهذا التبادل المستمر بين الليل والنهار الا يشكل عبرة ضخمة لاصحاب الابصار والبصائر؟

٤٥- انها حقيقة يراها الإنسان العادي ويدركها العلم الدقيق: فكل حيوان يدبُّ على الارض مخلوق من ماء، وتختلف احوال هذه الحيوانات فمنها ما يمشي على بطنه كالزواحف ومنها ما يمشي على رجلين كالانسان ومنها ما يمشي على اربع كالبهائم. فرغم وحدة اصلها (وهو الماء) تتنوع اشكالها ووظائفها بمشيئة الله وقدرته، وفق نظام عام شامل متناسق يحقق اهدافاً متجانسة.

٤٦- ان هذا الكون مليء بآيات الله المخلوقة والمنزلة. ويبقى ان يسعى الإنسان للوصول للحقيقة فيستعد لتلقي الهداية إلى الصراط المستقيم.

٤٧،٤٨،٤٩،٥٠- ان الايمان بالله وبالرسول له لوازمه، وبدونها يتكشف عدم الايمان. ولذلك فلا صحة لادعاء المنافقين الايمان ثم هم لا يعملون بأوامر الرسول ولا ينسجمون معه، ولا يتحاكمون اليه، ولا يقبلون حكمه الا اذا كان لصالحهم. ان ذلك يكشف عن ضعف ايماني، ومرض قلبي، وشك في صلاحية النبي للحكم وخوف من أن يظلمهم الله ورسوله. أما الحقيقة الواضحة فهي انهم اذ يخالفون وجدانهم وفطرتهم ويتبعون اهواءهم يقعون في الظلم نفسه.

٥١،٥٢- ان الإنسان المؤمن بطبعه منقاد إلى الرسول مطيع له بكل وجوده خشية لله وتقوى وذلك ضمان لنيله نتائج الايمان والفوز بالفلاح.

٥٣- وربما استعان هؤلاء بالقسم الغموس لإثبات إخلاصهم وطاعتهم لاوامر الرسول في الخروج إلى الجهاد في حين انهم في مقام العمل متقاعسون عن الاستجابة الحسنة متناسون علم الله بسلوكهم.

قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين (٥٤) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٥٥) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (٥٦) لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير (٥٧) يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (٥٨)

٥٤- تأكيد على لزوم طاعة الله وارتباطها بطاعة الرسول، وإقام للحجة عليهم، فإن اعرضوا عن ذلك فإن الرسول قد ادى ما عليه فعليهم ان يواجهوا مسؤولياتهم. وليعلموا أنهم ان ارادوا الهدى فإن طريقه الطاعة ولا إجبار في البين ولا اكراه في الدين.

٥٥- وهذا مبدأ ثابت يؤكده القرآن اكثر من مرة وملخصه ان البشرية تسير بوعد الهي نحو المجتمع الصالح الشامل، يقوده المؤمنون الصالحون تماماً كما حدث من قبل في عهد داود وسليمان، ويتمكن الإسلام من الحياة، ويسود الأمن والسلام والعبادة الخالصة دونما خوف او تقية. هذه هي المسيرة الحقة، أما الكافرون فهم خارجون عن الطبيعة وفاسقون فلا دور لهم في الحياة.

وهذه النهاية السعيدة على مستوى العالم لم تتحقق لحد الآن ، وانما ستتحقق في زمان المهدي (ع). وقد تواتر عن النبي(ص) انّ المهدي من ولده وسيظهر فيملأ الارض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلما وجورا.

٥٦- ان عدة المجتمع المؤمن هو ارتباطه بالله عبر الصلاة، والتكافل فيه عبر الزكاة وتنفيذ اوامر الرسول. وكل ذلك يؤهله لرحمة الله ولطفه وهي سر التكامل.

٥٧- أما الكافرون المتجبرون فهم اعجز من ان يقفوا في وجه مسيرة الحق ووراءهم العذاب ولبئس المصير.

٥٨- تعليم اجتماعي آخر – بعد التعاليم السابقة – وهو يطلب إلى العبيد والاماء والاطفال غير البالغين الاستئذان من الازواج في الحالات المفروض فيها التحرر و نزع الثياب، وهي ماقبل صلاة الفجر وعند القيلولة من الظهيرة وبعد صلاة العشاء باعتبارها اوقاتاً للراحة والخلوة لا ينبغي الاطلاع عليها. اما ما سوى ذلك فإن التعايش البيتي يقتضي التواصل المستمر فلا حرج في عدم الاستئذان.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٥٩- واذا بلغ الاطفال سن البلوغ وجب عليهم الاستئذان كالآخرين. وهذه كلها آيات الهية من عليم حكيم يراد من بيانها تربية المجتمع وتساميه نحو الكمال.

٦٠- ويرتفع وجوب الحجاب للنساء الكبيرات اللواتي لا يرجى لهن النكاح لكبرهن. مع لزوم عدم اظهار الزينة وان كان الافضل لهن ان يتحجبن زيادة في الحصانة والتعفف.

٦١- ولتحكيم التواصل، وتشديد الاواصر، ومساعدة المعاقين والمحتاجين تأتي هذه الآية لتسمح لذوي العمى والعرج والمرضى بالاضافة للأقارب ان يدخلوا إلى بيوت اقاربهم: آبائهم اوامهاتهم، واخوانهم، واخواتهم، واعمامهم، عماتهم، واخوالهم، وخالاتهم ، ومن اؤتمنوا على مفاتيح بيوتهم، واصدقائهم، فيأكلوا منها قدر الحاجة ودونما ضرار بصاحب البيت. سواء كان الاكل جماعياً او منفردين. وحينئذ يوصي المؤمنون بعد الاستئذان بالسلام على هؤلاء فهم جزء من الذات العائلية فإن السلام تحية الهية فيها البركة والطيب والمحبة. وهكذا يتم التأكيد مرة بعد مرة على ان آيات الله هي سبيل التكامل الاجتماعي والتكافل، لو فكر فيها المفكرون.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الْفُرْقَانِ (٢٥) — ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٦٢- هكذا هو المجتمع المؤمن: منضبط مرتبط بقائده خصوصاً اذا كانت المسألة ترتبط بأمر جامع عام. وكل الافراد يتحركون بأوامر القيادة، ولن يخرج فرد الا بعد أن يؤذن له لان ذلك من لوازم الإيمان والاحساس بالمسؤولية. وللرسول(ص) أن يأذن لمن يشاء حسب تقديره للمصلحة، وليستغفر لهم الله ان وجد عندهم شيئا من الوهن تطييباً لخواطرهم فان الله غفور رحيم.

٦٣- ان دعوة الرسول الناس دعوة ملزمة، وليست كدعوة بعض المؤمنين بعضهم الآخر، فيجب الاهتمام بها، وربما كان هناك من يتسلل هارباً من الاستجابة، فليعلم هذا انه تحت علم الله، وليحذر هذه المخالفة لأمر القائد فقد تؤدي للتعرض للفتنة او العذاب الاليم.

٦٤- والكون كله تحت علم الله واحاطته، لانه يملكه ملكية حقيقية ويمده بالوجود، واليه تعود المسيرة، فينبئها بما عملت، فليحذر الهاربون الجاهلون.

سورة الفرقان

البسملة آية قرآنية رائعة، وهي جزء للسورة.

١- جلّت وعظمت وكثرت بركات الله – الذي قدّم هذا القرآن – المتفرقة آياته ولكن مع احكام وتنسيق –للبشرية ليشكل الفارق الفيصل بين الحق والباطل، والجاهلية والاسلام، ومعجزة الإسلام الخالدة التي تنذر كل الارض. وهذه العالمية التي يعلنها القرآن بمكة ترد على من اتهم الإسلام بأنه انطلق محلياً ثم اتجه اتجاهاً اوسع.

٢- انها رسالة للعالمين من قبل مالك الكون الواحد الخالق لكل شيء بلا شريك والمقدر المخطط لسير الكون نحو هدف خلقته بدقة متناهية. وهذا التاكيد بعد التأكيد وفي اكثر من اية وبشتى الصور وانواع الاداء لموضوع التفرد بالملك والخلق والوحدانية انما هو كله لتستقر في النفوس وتشيع على جنباته خصوصيات الايمان ولوازمه باعتباره الحجر الاساس لكل المنظومة المفاهيمية الاسلامية.

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣- اما المشركون فهم في سخف إذ اتخذوا من دون الله آلهة لا تقدر على خلق شيء بل هي مخلوقة، ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً كما أنها لا تملك موتاً ولا حياةً ولا بعثاً فكيف تتخذ اذن آلهة؟!

٤،٥- ثم هم على سخفهم يتهمون الرسول بالكذب والتحايل والاستعانة بأهل الكتاب وتجميع الاساطير القديمة التي تملى عليه باستمرار في الغداة والعشي.

٦- والجواب الواضح على هذا الافتراء ان الله هو منزل القرآن وهو العالم باسرار الكون بما لا يتوفّر ولن يتوفر لغيره، وقد أنزله ليهدي البشرية ويغفر لها انحرافها ويرحمها لتسير السير الصحيح.

٧،٨- ويمعن هؤلاء في الظلم والتزوير فيطرحون شبهة تنافي الرسالة مع البشرية لعدم إمكان اتصال البشر بعالم الغيب، فيجب أن يكون ملكاً او ينزل اليه ملك منذر، أو يلقى اليه كنز يصرفه في طريق رغائبه، او جنة يأكل منها. وأخيراً راحوا يتهمونه بالوقوع تحت تأثير الشياطين والسحرة. وهذه التهمة شبيهة بتهمة المستشرقين له بشبهة (الوحي النفسي) رغم ما يعلمه السابقون واللاحقون من عظمة وعيه، وعلو فكره، واحكام منطقه والإثنينية الواضحة بينه وبين الوحي الالهي.

٩- انها تخرصات وكلام وامثلة سخيفة منطلقة من منبع الضلال والغى الذي اغرقهم فلا سبيل لهم للنجاة لقد تاهوا إذن في تلمّس المنهج الافضل باستخدام الفطرة السليمة والعقل للوصول الى الحق.

١٠- ان الله غني مطلق منه الخيرات والجنات والبركات فلو شاء لأعطى رسوله كل خير وجنة وقصور وليس ان يكون ذلك في الدنيا كما كانوا يتصورون، وقد يكون الله تعالى قد أخرها عنه للاخرة لانها قد تلهي عن القيام بمقتضيات الرسالة وأعبائها.

١١- والحقيقة ان الكافرين ينطلقون من تكذيبهم بيوم الحساب ليكيلوا التهم. وهؤلاء المكذبون سوف يلقون جزاءهم سعيراً يوم القيامة.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

١٢،١٣،١٤- تصوير مرعب لجهنم وهي تستقبل المكذبين بالآخرة من بعد ما جاءتهم الأدلة فهي تزمجر غضباً وتنفث زفراتها . فاذا قربوا منها ألقوا فيها مقيدين في مكان ضيق وراحوا يدعون بالويل والثبور فيأتيهم النداء انه لا يكفي الويل الواحد بل عليهم الدعوة المكررة بالويل والثبور تنكيلا بهم جزاء عنادهم.

١٥،١٦- هلا قورنت تلك النهاية الرهيبة بنهاية المؤمنين المتقين التي تحقق اقصى ما يأمله الإنسان وهو الخلود في الجنة محققين فيها كل رغباتهم . وهو وعد الحي سأله المؤمنون وضمنه رب العالمين الصادق القادر.

١٧،١٨- ويوم المحشر سيحشر هؤلاء ومعهم ما يعبدون من دون الله – مهما كانوا – فتسأل الآلهة المزعومة عن دورها في إضلالهم لتجيب مسبحة لله عائذة به متبرئة من ذلك ناسبة الضلال إليهم بعد أن متّعهم الله ومتّع آباءهم فغرتهم الدنيا ونسوا ذكر الله فاغتربوا عن ذواتهم فعادوا فاسقين فاسدين.

١٩- وهكذا تكذّب الآلهة المزعومة أتباعها، فلا صارف للعذاب عنهم ولا ناصر لهم. والعذاب العظيم ينتظر الظالمين.

٢٠- ان شبهة بشرية الرسول لا قيمة لها، فما كان المرسلون السابقون الا بشراً وهم مسيرة واحدة تقدم نماذج انسانية عالية تحمل رسالة الله ويمتحن بها العباد، ايتبعونهم ام لا؟ ويمتحن هي بالصبر على الشدائد والله تعالى بصير محيط بهذه المسيرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

٢٣،٢٢،٢١- وهذا اعتراض ولجاج آخر للمكذبين بالآخرة مفاده أن الرسول اذا امكن أن يكون بشراً يتلقى الوحي فلماذا لا تنزل عليهم الملائكة ولا يرون هم ربهم ؟ ويجيب القرآن بأنهم ينطلقون من منطلق استكباري وتجبر وظلم كبير فهم يعلمون أنهم بنفوسهم الدنيئة لا يستحقون هذا الشرف.

اما رؤية الله فقد اعرض القرآن عن ذكر جوابها لان عقولهم قاصرة عن ادراك استحالتها، لاستلزامها التجسيم، وأما رؤية الملائكة فسوف تتم لهم في البرزخ او في القيامة فلا تبشرهم هناك الملائكة الا بالعذاب فيستعيذون منها، ولا ملجأ لهم لأنهم مجرمون مطرودون، ولا عمل يشفع لهم بعد أن أبطل الله كل ما عملوه وحوله إلى غبار متطاير.

٢٤- أما اصحاب النعيم فهم الفائزون بأفضل مقر وأروع استراحة ومقيل، بعيداً عن الأهوال والعذاب.

٢٦،٢٥- يوم القيامة يوم رهيب، يوم تجري فيه تطورات ضخمة يعلمها الله وحده ومنها أن تتشقق السماء بما فيها من سحاب متراكم، وتنزل الملائكة برهبة وعظمة. وتتجلى عظمة الرحمن، وملكوته الحق، في حين تشتد الوطأة على الكافرين.

٢٩،٢٨،٢٧- يوم يحيط الندم بالظالم فهو يعضُّ بدبه كلتيهما متمنياً أن لو كان في خط الايمان وطاعة الرسول، وان لو كان ابتعد عن صداقة فلان الذي أضله وأبعده عن ذكر الله بعد ان فتحت له سبل الهداية فأعرض عنها واتبع اهواء الشيطان ووعوده الكاذبة . وهاهو يخذله اليوم ولا يقدر على تخليصه من العذاب.

٣٠- يومئذ يشكو الرسول لربه قومه الذين هجروا القرآن وهو أعظم هدية ثمينة قدمها الله للانسان فلم يعملوا ولم يهتدوا به.

٣١- وهكذا وفي كل زمان يقف المجرمون في قبال خط الانبياء. ولكن الخط الرسالي منصور يهديه الله إلى النصر والكمال.

٣٢- شبهة اخرى يثيرها المكذبون فلماذا لم ينزل القرآن مرة واحدة؟ ويجيبهم القرآن بذكر بعض فوائد التدرج في نزوله فهو يعالج قضايا مختلفة تواجهها الأمة والرسالة ويعطي حلولها كما انه جاء لتقوية الرسول خلال مسيرته ومراحلها وتسديده وتثبيت فؤاده، وكذلك تربية الامة المؤمنة الصابرة الواعية وتهديد اعدائها وهكذا جاء متتابعاً في آياته ليحقق تلك الاهداف.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٣- ثم ان القرآن يتابع شبههم واحدة تلو الاخرى فيفندها ويوضح الموقف الصحيح منها.

٣٤- إنهم ضالّون مغرمون ببث الشبه ضد الرسول والتهم الباطلة، ولكنهم سيلاقون جزاءهم ويحشرون على وجوههم سوقاً إلى جهنم، فبئس المكان وبئس السبيل اليها.

٣٦،٣٥- وهذا موسى آتاه الله الكتاب وجعل اخاه وزيراً ومعاوناً له ، وامرهما بالذهاب إلى المكذبين بآيات الله التي تملأ الوجود. وعندما اصرّوا على عنادهم دمروا أيما تدمير.

٣٧- وهؤلاء قوم نوح لما كـذّبوا الرسالة أغرقوا وبقوا عبرة للتاريخ وهكذا هو مصير الظالمين دائما.

٣٨، ٣٩- وكذلك اهلكت عاد وثمود واصحاب الرس (اسم لاحد الانهار) والامم الكثيرة الاخرى عرضت عليها الدلائل والآيات فاعرضت عنها فقضي عليها وتفتتت ونسيها التاريخ.

٤٠- وهاهي قرية قوم لوط التي أمطرت بالعذاب ، يرونها في طريق تجاراتهم إلى الشام فلا يعتبرون بها، بل كانوا لا يؤمنون بالمعاد فلا يمكنهم الاعتبار.

٤١- ومن أساليب المشركين الخبيثة الاستهزاء بالرسول، والتخفيف من شأنه، وأنه لا يستحق الرسالة، وانه كاد يضلهم ويصرفهم عن السعادة وعبادة الاصنام لولا أنهم صمدوا وثبتوا عليها . ولكن هؤلاء المغرورين سيعلمون حين يرون العذاب أن سبيلهم كان هو الضلال، وان الرسول انما جاء لينقذهم منه لو كانوا يعلمون.

٤٢، ٤٣- إنهم غارقون في شهواتهم، عابدون لأهوائهم، وحينئذ لا تنفع معهم كل اساليب الهداية، وليس الرسول موكلاً بهداية مثل هؤلاء.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

٤٤- لقد فرّط هؤلاء بالاسماع والعقول وبكل وسائل المعرفة لديهم فعادوا كالحيوانات بل تنزلوا حتى عن رتبتها فهي لا تقدم علي ضررها وهم يقدمون، ثم أنهم فتحت لهم سبل المعرفة ولم يفتح لها ذلك.

٤٥، ٤٦- ومن ظلال الهدي إلى ظلال الشمس يربي القرآن النفس والعقل ويقودهما نحو الله. والظل راحة الجسم كما الهدى راحة النفس، وهنا يركز عليه وعلى حركته المرتبطة بحركة الأرض والشمس والأجرام لتمهد جميعاً للانسان اجمل حياة. ولو شاء الله لجعله ساكناً ولكنه اللطف الإلهي المحرك له بحركة الشمس فهو يمتد وينقبض ليبعث البهجة في الحياة.

٤٧- ثم هاهو الليل يلبس الارض ثياب السكون، وهاهو النوم يخلد المرء فيه للراحة وتجديد الطاقة لينشره النهار ويبعثه نحو السعي من جديد.

٤٨، ٤٩- وهاهي الرياح المتحركة وفق نظم دقيقة ارضية وجوية وضوئية وغيرها لتنشر البشرى والرحمة، من خلال المطر وتهيئ لنزول الماء الطهور في نفسه والمطهر لغيره والمشبع لحاجة المخلوقات والمحيي للبلاد الميتة. الا تدعو كل هذه الظواهر للسير نحو المنعم المفضل؟

٥٠، ٥١، ٥٢- انّ لطف الله وحبه للهدى يتجلى في بعثه للرسل، ولو شاء لبعث في كل قرية رسولاً. ولكن الهدى نفسه قد يقتضي أن يبعث رسول واحد للبشرية جمعاء كما هو الحال بالنسبة للرسول الكريم. فلينطلق في دعوته غير آبه بالكافرين مجاهداً بالقرآن ببذل الجهد الكبير في عرض مفاهيمه وهداه، فالجهاد بالقرآن وما فيه هو الاصل والاساس في التصور الاسلامي قبل الجهاد بالسيف والقوة.

٥٣- وحركة المياه وطعمها من الظواهر العجيبة، ولكل طعم دوره في تحقيق هدف حياتي، وهي لا تختلط ببعضها رغم ما يوجد من دواعي الامتزاج ولكن قوانين الطبيعة -بإذن الله- تشكل برزخاً وحاجزاً منه ليتحقق الهدف وتحلو حياة الإنسان وهو غافل عنها.

٥٤- ثم هاهو لطف الله يحول الماء إلى نطفة فيها مظاهر الحياة ليتخلق منها الجنين: ذكراً ومنه يتم النسب، وانثى وبها يتم الإصهار، وتتشابك الحياة ويولد المجتمع الانساني الكبير بقدرة الله فهل من معتبر؟

٥٥- ولكن هؤلاء الكافرين ينكرون كل هذه الدلالات ويعبدون ما لاينفعهم ولا يضرهم. بل يعينون على ربهم في نشر الكفر والضلال.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

٥٧،٥٦- فليمض الرسول مبشراً بالخير والسعادة، ومنذراً من الضياع والهلاك دون ان يهتم بتكذيب هؤلاء المعاندين، ودون أن يسألهم أجراً، فاتحاً لهم طريق الهدى ليختاروه بإرادتهم فيسعدوا، ذلك ان سعادتهم وهداهم هو الأجر المطلوب.

٥٨- والتوكل على الوجود الحي المطلق، والتسبيح بحمده - وهو أهل الحمد - والاحساس بلطفه واحاطته باعمال العباد، كل ذلك زاد المؤمن وقوامه وعدته في مسيرته الجهادية نحو التكامل الفردي والاجتماعي.

٥٩- إنه تعالى خلق الكون في مراحل ست (ومنها مراحل الرتق والفتق والدخان وغيرها)، وأدار الكون من نقطة العرش العظيم رحمة بالخلق والإنسان وخبرة بما يصلحه ويحقق هدف خلقته.

٦٠- هذه مظاهر رحمة الله تملأ الوجود، فينبغي ان يخشع لها الإنسان العاقل، ولكن هؤلاء المعاندين يغلقون أبصارهم عن الحقيقة فإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن؟ أهو الذي تأمرنا أن نسجد له دون ان نؤمن به؟! وزادهم عنادهم ذلك نفوراً وابتعاداً عن الحقيقة الواضحة عبر ما يلاحظونه من مظاهر الرحمة.

٦٢،٦١- هذه الخيرات الكثيرة، وهذه النظم الدقيقة التي تدير الكون، وهذه المنازل التي تتحرك فيها السيارات الهائلة، وهذا القمر بعجائبه المنيرة وهذه الشمس المضيئة للكون ، وتعاقب الليل والنهار، الا تكفي لمعرفة الرحمن وتذكر آلائه والسجود له وشكر نعمته بامتثال اوامره وتحكيم شريعته، والاحساس بقدرته الهائلة؟

٦٧،٦٦،٦٥،٦٤،٦٣- وكما مرَّ فإن القرآن فرقان بين منهجين ونمطين من الحياة: حياة الايمان وحياة الكفر. وهنا نجد تفصيلاً رائعاً لحياة الايمان؛ حياة عباد الرحمن - وما أجملها من نسبة واضافة - الذي أنكره المنكرون ولكنه أعظم الحقائق، وعباده أروع الخلائق: انهم الخاشعون المتواضعون الماشون بتؤدة ووقار، الرادون بسلام على الجاهلين المتعرضين، المحيون ليلهم بالسجود والقيام والارتباط المتجسد بالغيب، المتقون ربهم واللاجئون اليه ليصرف عنهم العذاب الدائم والمقر والمقام السيئ في جهنم، والمقتصدون في الانفاق: فلا اسراف في تبديد ثروة ولا تقتير أو بخل بل هم وسط بين الأمرين.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سورة الفرقان ٣٦٧

٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١- ثم أن عباد الرحمن يربطون العقيدة بالعمل، والتوحيد بالطاعة والسير وفق نهج الله، يحرمون حرماته ويحافظون على حياة عباده فحرام إزهاق النفس- الا ان يقتضي الحق غير ذلك - ويعملون على حماية المجتمع من الزنا المخرب للعلاقات والمؤدي إلى الآثام والعقاب الأليم لفاعله اذ يضاعف له العذاب ويخلد مهاناً فيه إلا أن يتوب إلى الله ويعود الى إيمانه ويعمل صالحاً ، فإنه سيبدل الله سيئاته إلى حسنات ويعفو عنه - وهذا من أعظم روافد الامل - والتوبة الحقيقية والرجوع الخالص لله تؤدي بلطف الله إلى هذه النتيجة السعيدة.

٧٢- وهم بعيدون عن حياة الزور والكذب واللغو، وانما حياتهم الصدق والجد والوعي، وهم لا يشهدون زوراً لأحد، ويعملون على محو اللغو من الحياة باهماله والتكرم عنه.

٧٣- وهم واعون كل الوعي، كل ظاهرة لديهم مادة للدراسة والاعتبار والاكتشاف وتذكر نعمة الله وعظمته، وتذكر رسالتهم في الحياة. فلا صمم في الاسماع او غشاوة على العيون مع كل هذه الآيات الباهرة.

٧٤- وهم يلجأون باستمرار لربهم الرحمن الرحيم ليوفقهم لتكوين العائلة الصالحة بما تقربه العيون، وباداء دورهم في مسيرة البشرية المستمرة بالسير بهم للامام، وبالعمل الصالح الذي يتحولون به أئمة للمتقين وليس من المتقين العاديين فحسب، وفي هذا اعظم تحفيز للرقي والتسامي الى اعلى مستويات الكمال الانساني وللتنافس الخير على طريق بناء مجتمع المتقين (ويصفه الامام علي في كتابه إلى محمد بن ابي بكر أروع وصف)[1].

٧٥، ٧٦- هؤلاء هم عباد الرحمن الحقيقيون الذين ينتظرهم الخلود في الدرجات العالية من الجنة جزاء صبرهم في هذه الدنيا القصيرة الأمد ليحصلوا على حياة السلام الخالد والتحية الالهية الكبرى. وما اروع هذه العاقبة وهذا المقام.

٧٧- ان الدعاء وسيلة تجسيد العقيدة، والارتباط بعالم الغيب، وباب الأمل الكبير، وتعبير عن وصل الضعيف الحقير بالقوي الكبير العزيز، وتهيئة واستعداد معلن لتلقي العطاء الالهي. فالإعراض عنه يعني الحرمان من كل هذا العطاء والاستغناء عن العناية الالهية، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ويحققوا قابليتهم للطف. اما المكذبون المتجبرون فسوف يلازمهم الشقاء والحرمان. وربما كانت الآية تؤكد للمكذبين أن الله لا يعبأ بهم إلا أن دعاهم للإيمان وأتم عليهم الحجة.

١- نهج البلاغة، الرسالة ٢٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

سورة الشعراء

تحدثنا سابقاً عن البسملة.

٢،١- هذه الحروف المقطعة وما فيها من اسرار يتكون منها هذا الكتاب الواضح المعجز الذي لا يستطيع أن يجاريه الآخرون المتمكنون من اللغة .

٣- فلينطلق الرسول في تبليغه، ولا اهمية لتكذيبهم ، ولا داعي لإهلاك النفس لأجلهم.

٤- ان الله قادر على إلجائهم واكراههم على ذلك ولكنه يريد أن يؤمنوا بارادتهم.

٦،٥- إنهم عاشوا على العناد وكلما جاءهم ذكر الهي وتجددت لهم آياته زادوا في إعراضهم، وكذبوا واستهزأوا به وسوف يلقون نتيجة ذلك العمل.

٧- الا يتأمل هؤلاء في هذا الكون وعظمته، وكيف امتن الله على الإنسان فوهبه من الارض ما يشبع له حاجاته، وكل ما يحقق له البهجة من الأزواج النباتية الرائعة.

٨- ان كل ما في الكون ومنها هذه النباتات المتنوعة لآيات للايمان ولكن اكثرهم معاندون.

٩- ان عنادهم لا قيمة له في قبال عزة الله وقدرته، وماهذا الاصرار الالهي على هداية الناس الا تعبير عن رحمة الله لا غير. وهذا التقارن بين العزة والرحمة فيه ايحاءان متكاملان ولذا تركز عليه هذه السورة في مقاطع مختلفة لتثبت قلب النبي(ص).

١١،١٠- وتأكيداً لإيحاءي العزة والرحمة تذكر قصص بعض الأنبياء ومنها قصة موسى اذ بعثه الله للقوم الظالمين قوم فرعون لعلهم يتقون ويستجيبون.

١٣،١٢- ويشعر موسى بعظمة المهمة خصوصاً وهو وحيد، يخشى من عدم سعة صدره لمشكلات المواجهة مع قوم عتاة متجبرين معاندين فيطلب إلى الله أن يدعمه باخيه هارون الأفصح لساناً منه والأقدر على استيعاب مشاكل التكذيب .

١٤- ثم ان قوم فرعون كانوا يطلبون موسى بقتل سابق لرجل مذنب منهم.

١٥، ١٦، ١٧- وهكذا شاء موسى ان يحتاط لمهمته الكبرى ويصحب معه من يعينه فيها بل ويتحمل مهمة مواصلة المسيرة ان حدث له حادث. فيحقق له ربه مايريد، ويعده بالنصر ويأمرهما بالإنطلاق القوي تحت علم الله ومتابعته، ليبلغا فرعون أنهما مبعوثان من رب العالمين، وأن عليه أن يسمح لهما بقيادة بني اسرائيل وتحريرهم من عبوديته واستغلاله لهم لتحقيق العودة إلى الارض المقدسة، والنهوض بالمهمة التاريخية.

١٨، ١٩- وهنا يذكر فرعون موسى بما وفره له سابقاً من تربية، وبما فعله من قبل من قتل القبطي المتخاصم مع الاسرائيلي ، معتبراً ذلك كفراً بالنعمة ، وافساداً لا يستحق صاحبه أن يدعي الرسالة.

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩)

٢١،٢٠- فأجابه موسى بأنّ قتل القبطي تم جهلاً منه بحقيقة الأمر، وأنه فرّ من مصر خوف البطش، وها قد منّ الله عليه بالنظر الصائب والحكمة، وبالتالي جعله من المرسلين.

٢٢- وهل تعتبر نقمتك على بني اسرائيل وقمعهم وبالتالي ما أنتج ذلك من اضطرار أمي لإلقائي في البحر لتلتقطني انت. نعمة تمنّ بها عليّ وقد عاملت قومي كالعبيد؟

٢٤،٢٣- وهنا سأله فرعون – متهكماً – عن ماهية ربّ العالمين ليجيبه موسى بانه ربّ السموات والارض وما فيهما والمدبر لهذا الكون، وهو ما ينتهي اليه كل موقن بهذا التدبير عارف بهذا التنسيق متصف بالحكم.

٢٦،٢٥- وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله سائلاً إياهم: ألا تستمعون؟ وكأنه يتعجب من هذه الحجة العجيبة. فيرد عليه موسى من جديد بأنه رب الجميع، ربهم ورب آبائهم الاولين، وخالق البشرية جمعاء فلا مجال لادعاء فرعون للربوبية.

٢٨،٢٧- وعندما يفشل في التشكيك في صلاحية موسى للرسالة، وفي مفهوم رب العالمين يلجأ لمنطق الاتهام لهذا الرسول – متهكماً به – بالجنون ، ليؤكد موسى الربوبية الواحدة بتعبير أنه – تعالى – رب المشرق والمغرب وما بينهما والشروق والغروب ظاهرتان واضحتان عظيمتان. متسائلاً عن مدى تعقلهم وتأملهم في هذا الكون المتناسق ودلالاته.

٣١،٣٠،٢٩- وبعد الاتهام بالجنون يأتي أسلوب التهديد بالسجن، إن اتخذ إلهاً غير فرعون. فينبهه موسى إلى أنه يحمل معه ما يثبت صحة ما يدعيه بكل وضوح فيطلب منه فرعون – محرجاً – الاتيان به برهاناً على صدقه.

٣٣،٣٢- وهنا يظهر موسى معجزتيه: عصاه التي تنقلب ثعباناً حقيقة هائلة، ويده التي يتحول لونها – بعد ان نزعها من كمه – إلى البياض المبهر للناظرين.

٣٥،٣٤- فما كان من فرعون الا أن يتهمه – أمام الأشراف من حاشيته – بالسحر المتميز مدعياً بأنه إنما يسعى للتآمر على المجتمع، والسيطرة على الارض، واخراجهم منها، مستميلاً لهم ومستشيراً بعد ان كان يدعي الألوهية مما يدل على حراجة موقفه وضعفه امام قوة موسى واعجازه.

٣٨،٣٧،٣٦، ٣٩- فاشاروا عليه أن يمهله إلى مدة معينة – هو وأخاه – ثم يبعث وفوداً إلى المدن الكبرى ليجمعوا له السحرة المميزين، وذلك في يوم معلوم، فتم ذلك ودعيت الجماهير لمشاهدة هذا الحدث الكبير.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)

٤٠- وتم الإيحاء للناس بأنّ السحرة – وبالتالي مايمثلونه من منهج فرعون – هم الغالبون ولكن بشكل قضية مشترطة بأن يكونوا هم الغالبين.

٤١،٤٢،٤٣- وتساءل السحرة عن أجرهم عندما يتغلبون على موسى فضمن لهم الأجر والمكانة المقربة فهم اذن جماعة مأجورة تسخر لتحقق هدف الطاغية.

٤٤- وبلغة الواثق من نفسه – رغم هول الموقف حيث السحرة والسلطة المتجبّرة والناس – طلب موسى من السحرة أن يظهروا مهارتهم فيلقوا مالديهم من حبال وعصي، فالقوها مستندين إلى عزة فرعون (وهو الضعيف الحقير في الواقع) لتحقيق نصرهم.

٤٥- والقى موسى عصاه (مستنداً إلى قوة الله) فاذا بها تتحول إلى ثعبان عظيم يبتلع كل التزوير والسحر الماثل أمام الناس، فلا يبقى للحبال والعصي أثر ليكتشف السحرة أنها المعجزة الحقيقية لا ما يأفكون.

٤٦،٤٧،٤٨- ويخرّ السحرة ساجدين لله، مؤمنين برسالة موسى بقوة وثبات أمام أعين الطغاة والجماهير، معلنين هذا الايمان برب العالمين رب موسى وهارون.

٤٩- وبعد أن آمن السحرة والكهنة، وبطلت وسيلة فرعون وافتضح امره راح ينكر عليهم إيمانهم واستسلامهم قبل أن يأذن لهم (وكأنّ الايمان يحتاج إلى استئذان)، ويتهمهم بالتآمر على النظام ويركز الاتهام على زعيمهم المعلم لهم وهو موسى، فهو الذي تآمر معهم للتمويه على الآخرين؛ وهدّد السحرة باشد العذاب: تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف (اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس) والتصليب.

٥٠،٥١- وما كان من السحرة المؤمنين إلا أن يعلنوا – بكل وضوح – أنهم لا يأبهون بذلك، بعد أن كان المنقلب إلى الله، فيغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم، بعد أن كانوا أول المؤمنين. وهكذا يشرق الايمان في النفس، فتنسى كل الصعاب، طمعاً في الثواب العظيم، ورضوان من الله اكبر.

٥٢- وبعد هذه المواجهة أوحى الله تعالى الى موسى ليسير بقومه ليلاً من مصر وليعلم ان فرعون سيتبعهم ليلحق بهم ويعيدهم الى حكمه.

٥٣،٥٤،٥٥، ٥٦- وهنا عبّأ فرعون الناس بارسال رسله إليهم معتبراً أتباع موسى مجموعة قليلة عاصية مثيرة لغضب فرعون ثائرة ضد امته الكبيرة وانه – فرعون – مدرك للخطر ومحذر منه.

٥٧،٥٨،٥٩- وهكذا مهّد الله لفناء سلطة فرعون وأتباعه وفقدانهم ماكانوا يتمتعون به من جنات وعيون وكنوز ومقامات رفيعة، ليرثها من بعدهم بنو اسرائيل المستضعفون .

٦٠- فتحرك الجيش الفرعوني عند شروق الشمس متعقباً موسى وقومه.

فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)

٦١- فلما لحق جيش فرعون بهم كان أتباع موسى قد وصلوا إلى البحر وليس معهم سفن يركبونها ولا سلاح يدافعون به فاحسوا بالخطر واعلنوا أنهم مدركون لا محالة.

٦٢- ولكن موسى المؤمن الواثق باللطف الالهي اعلن لهم أن الله معه يرعاه ويهديه.

٦٣- وهكذا جاءت بشائر الرعاية الالهية فأوحي له أن يضرب بعصاه البحر فانشق البحر إلى جبلين عظيمين من الماء فدخله موسى وبنو اسرائيل فعبروا إلى الجانب الآخر.

٦٤،٦٥،٦٦- وقرب الله الآخرين من قوم فرعون إلى هذا المكان ليدخلوه أسوة باتباع موسى. ولكن ليغرقوا وينجو قوم موسى اجمعون.

٦٧- وعاد قوم فرعون عبرة للتاريخ ولكن اكثر الناس لا يعتبرون ولا يؤمنون.

٦٨- تأكيد على هدف العرض – كما أسلفنا – وهو اقتران العزة الإلهية بالرحمة دائماً، والتدخل لصالح اهل الايمان وانقاذهم.

٦٩، ٧٠،٧١- وهذا عرض لجانب من حياة ابراهيم وحواره مع قومه. فهو يسألهم عما يعبدونه ليجيبوه بأنهم يعبدون اصناماً يلازمونها ويعكفون عليها .

٧٢، ٧٣- ويأتي السؤال الصارخ فهل تسمع الاصنام الدعاء وهل تنفع او تضر؟.

٧٤- ليجيبوا بأنهم يتبعون سنّة آبائهم لا غير تعصباً من دون حساب وتفكير.

٧٥،٧٦،٧٧- وهنا يوجه ابراهيم ضربته الصارخة ليهزّ وجدانهم في الصميم مبينا انه يعادي ما يعبدونه هم وآباؤهم، وأنه يترك هذه الآلهة الوهمية ليعبد الرب المطلق الحقيقي وهو ربّ العوالم جميعها المتناسقة في مابينها، والكاشفة بنفسها عن ربها الواحد.

٧٨،٧٩،٨٠، ٨١، ٨٢- ان النفس الانسانية تبقى تلح وتتطلب الخالق للكون الهادي المطعم الساقي الشافي المميت المحيي المدبر لهذه المسيرة بتناسق وإحكام والمعيد لها إليه ليحاسبها يوم الدين، ومالم تصل إليه فإنها تبقى متلهفة ضامئة وتبقى الحياة الدنيا عندها مسيرة عابثة.

٨٣- ليرفع يديه بالدعاء والتضرع للخالق العظيم، طالباً منه الرؤية الصائبة، وان يلحقه بركب الانبياء والصالحين وهم البشرية الخيرة الواعية العاملة عبر التاريخ.

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

٨٥،٨٤- انه دعاء من ينظر إلى المستقبل البعيد فيسأل ربه أن يبقيه ومنهجه حياً على امتداده، يذكر بخير، وتقتدي به الأجيال، ويحمل الآخرون دعوته، وبالتالي فهو يدعو ربه ان يمتد مع المسيرة إلى نهايتها في الآخرة وهي جنة النعيم.

٨٦- وهو اذ ينظر للمستقبل يرتبط بالماضي بصلة فيدعو لأبيه - أو عمه - بالغفران رغم أنه من الضالين عسى أن يهديه الله، ولكنه تبرأ منه حين اصرَّ على معاداة الله.

٨٩،٨٨،٨٧- وهو - رغم أمله الكبير - خائف من الخزي والعذاب يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، الا من اقبل على الله بقلب طاهر سليم. والمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، وهكذا يستعرض ابراهيم تصوراته العقائدية بشكل دعاء خالص، وهو ما شهدناه من اساليب الصالحين كالامام زين العابدين علي بن الحسين(ع).

٩٣،٩٢،٩١،٩٠- وهنا ينتقل القرآن لعرض مشهد من القيامة: تبرز فيه الجنة رائعة للمتقين، والنار مرعبة للمعاندين العاصين، وينادون بتحد: اين آلهتكم المزعومة، وهل لها قدرتها اليوم على نصركم وتخليصكم او حتى تخليص نفسها من العذاب.

٩٥،٩٤- وهكذا يركم الجميع في جهنم: الاصنام وعبدتها وكل جنود ابليس.

١٠٢،١٠١،١٠٠،٩٩،٩٨،٩٧،٩٦- ويبدأ النزاع في جهنم بينهم معترفين بغرقهم سابقاً في الضلال الواضح حينما كانوا يساوون بين الاصنام السخيفة وبين رب العوالم كلها، ملقين باللوم على المجرمين، وأئمة الجور، متحيرين حين يرون أنفسهم في العذاب بلا شفيع ولا نصير ولا صديق مخلص يتوسط لهم، متحسرين متمنين ان يفسح لهم المجال من جديد لكي يسلكوا طريق الايمان، ولكن فات الأوان.

١٠٣- ان في كل ماتقدم علائم ومواد للإعتبار والعودة إلى الحق. ولكن الاكثرية تكفر به.

١٠٤- تأكيد مجدد على الاقتران بين العزة والرحمة الالهية دائماً وفي كل مقطع من مقاطع التاريخ.

١٠٨،١٠٧،١٠٦،١٠٥- وهذه تجربة تاريخية أخرى: انه نوح يكذبه قومه بعد أن يدعوهم للتقوى، ويؤكد لهم انه الرسول الامين، وأنَّ عليهم مخافة الله و الطاعة لتوجيهاته.

١٠٩- معلناً انه لا يطلب منهم اجراً مادياً بعد ان كان يستند إلى الغني المطلق رب العالمين، فليعتبروا وليتقوا ويطيعوه.

١١٠، ١١١- وثار الاستكبار فيهم فكيف يؤمنون ويسلمون له وقد اتبعه الضعفاء من أهل الطبقة الدانية؟!

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

١١٣،١١٢- فأجابهم نوح بأنه لا يعلم شيئاً عن عملهم السابق، والله تعالى هو العالم الذي يحاسب طبق العدالة التي لا يشعر بها هؤلاء المتكبرون.

١١٥،١١٤- أما نوح فالمهم لديه ليس الطبقة الاجتماعية، ولا العمل السابق، وإنما هو الإيمان وقد آمنوا فكيف يطردهم من حوله وهو انما جاء يدعو للإيمان وينذر المكذبين.

١١٦- وبعد التشكيك في سلامة الدعوة بإعتبار أن أتباعها من الأراذل، راحوا يتبعون أسلوب التهديد بالرجم بالحجارة حتى الموت.

١١٨،١١٧- فلا يجد نوح بعد استنفاد كل الطرق والسبل لهداية قومه إلا أن يلجأ إلى ربه العزيز الرحيم ليفصل الأمر بينه وبين قومه ويخلصه وباقي المؤمنين من جورهم وأعراضهم.

١٢٠،١١٩- فمنّ الله عليه وعليهم بالنجاة بعد أن ركبوا السفينة المملوءة بنماذج من الأحياء وأغرق المكذبين.

١٢١- وهذه عبرة أخرى ولكن أكثر الناس بعيدون عن الاعتبار.

١٢٢- تأكيد على محور السورة من اقتران العزة الالهية بالرحمة.

١٢٧،١٢٦،١٢٥،١٢٤،١٢٣- وهذه عاد قوم النبي هود وهم من العرب العاربة التي سكنت الاحقاف في جزيرة العرب، وكانت لهم مدنية وثروات، وقد كذّبت بخط الرسالة، بعد أن دعاها اخوها هود إلى الايمان والتقوى، وهو الرسول الأمين دون أن يسألها أجراً مادياً فأجره على الله (وتلاحظ هنا ايحاءات هذه القصص إلى التشابه بينها وبين وضع المشركين في مكة).

١٢٩،١٢٨- إنهم كانوا يبنون ويعمرون فوق الهضاب ولكن لا لهدف إقتصادي إعماري بل للتفاخر والتعالي والعبث، كما كانوا يبنون الحصون والقصور آملين أن يخلدوا على مر الزمان.

١٣٠- واذا اعتدوا او تجاوزا او ردّوا ردّوا بعنف وبطش كما يفعل كل الطغاة والجبابرة.

١٣٥،١٣٤،١٣٣،١٣٢،١٣١- وبعد أن بين أخطاءهم ونقائصهم دعاهم إلى العودة للحالة الطبيعية: حالة التقوى الالهية وطاعة الرسول فالله تعالى هو سر العزة والرحمة اذ منحهم الطاقات ومنها الانعام والبنون والجنات والعيون، فاذا لم تشكر هذه النعم عوقبوا بعذاب يوم عظيم.

١٣٦- إلا أنهم أخذتهم العزة بالقوة والإثم والغفلة فقالوا له: إنه لا قيمة لوعظه لهم ولا أثر.

إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

١٣٧،١٣٨- فهم مصرون على منهج آبائهم وخلقهم في التكبر والبطش والعبث والإعداد للخلود ولا يشعرون بأنهم مقبلون على عذاب.

١٣٩- ولذلك كذّبوا رسولهم فاستحقوا الهلاك . فليعتبر المعتبرون ولكن أكثرهم لا يؤمنون.

١٤٠- نعم ان الله عزيز ورحيم في آن واحد وهذا المعنى هو محور السورة.

١٤١،١٤٢،١٤٣،١٤٤،١٤٥- ثم هذه ثمود وقوم صالح وقد استمرت على التكذيب لدعوة أخيها صالح لها الى التقوى بعد ان كان لها رسولاً أميناً، فعليها الطاعة. وماهو بطالب منها اجراً فأجره على رب العالمين.

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨،١٤٩- ولكن هل أعطيت ثمود هذه النعم العظيمة، وتركت واهملت، لتنعم بما فيها من جنات وعيون وزروع ونخل لها طلع وثمر متجمع سائغ للأكل، وتبني بيوتاً من صخور الجبال فارهة ناعمة فخمة. نعم هل تركت آمنة دونما مسؤولية؟

١٥٠- ان مسؤوليتها الانسانية والفطرية تكمن في الإيمان والتقوى والطاعة لرسولها الكريم.

١٥١، ١٥٢- ورفض منهج الاسراف والمسرفين المبذرين لثروة الله، المفسدين في الارض و غير المصلحين.

١٥٣،١٥٤- فتأصل العناد فيهم واتهموه بأنه واقع تحت تأثير السحرة ومغلوب على أمره، وانه بشر مثلهم فاذا اراد ان يؤمنوا به فليظهر معجزته.

١٥٥، ١٥٦- وكانت معجزته الناقة الاعجوبة شريطة ان تشرب مايرد للقرية من ماء يوماً فتعطيهم لبنها، ويشربون هم في اليوم الآخر دون ان يعتدي احد على الآخر.

١٥٧- ولكنهم نحروها وقضوا عليها بدل ان يعتبروا بها فشملتهم الندامة، حين لاينفع الندم.

١٥٨- فأخذهم العذاب . وفي قصتهم عبر للبشرية ولكن اكثرها لا يؤمن بل ويستمر على الضلال.

١٥٩- عودة إلى تأكيد سر السورة وهو ارتباط العزة الالهية بالرحمة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

١٦٠،١٦١،١٦٢،١٦٣،١٦٤- اشارة تتمشى مع السياق إلى قوم لوط الذين كذّبوا الرسالة ايضاً بعد أن دعاهم نبيهم إلى الإيمان والتقوى والطاعة له وهو الرسول الامين الذي لا يسألهم اجراً فاجره على رب العالمين.

١٦٥،١٦٦- وذمهم على صفتهم الذميمة وهي اللواط والشذوذ وترك السبيل الصحيح وهو الزواج المعروف. فهم بذلك يعتدون على الفطرة والخلق السليم ويدمرون الكيان العائلي والاجتماعي.

١٦٧- وكغيرهم من الطغاة هددوه بالطرد من المدينة.

١٦٨،١٦٩،١٧٠،١٧١- والتجأ إلى ربه يدعوه بالخلاص وأهله من هذا الجو الفاسد فاستجاب له الله ونجّاه وأهله الا امرأته العجوز المشجعة لقومه فبقيت مع الباقين.

١٧٢،١٧٣،١٧٤- فامطر قومه بالعذاب فعادوا عبرة لمن اعتبر ولكن اكثر الناس لا يؤمنون.

١٧٥- ولله العزة والرحمة بهما خلق الكون وأداره وهدى البشرية.

١٧٦،١٧٧،١٧٨،١٧٩،١٨٠-واصحاب الأيكة هم قوم شعيب. وكانت تشتهر بشجرة وارفة ضخمة(الايكة). وقد كذّبوا الرسالة كغيرهم بعد أن دعاهم نبيهم الرسول الأمين إلى الإيمان والتقوى والطاعة دون أن يسألهم اجراً فاجره على الله.

١٨١،١٨٢،١٨٣- كما دعاهم إلى الوفاء بالكيل، والعدل في الميزان، وعدم الإخسار والانقاص فيه لما فيه من السعي في الارض بالفساد وخاصة الاقتصادي منه حيث يؤثر ذلك على مجالات اخرى في المجتمع.

١٨٤- ودعاهم لعبادة الله وتقواه وهو خالقهم وكل البشرية من قبلهم.

١٨٥- وبنفس ما ووجه به الانبياء اتهموه بانه واقع تحت تاثير السحرة.

١٨٦،١٨٧- وانه مجرد إنسان مثلهم وأنهم يظنونه كاذباً والا فليسقط عليهم قطعة سماوية تهلكهم.

١٨٨- فأجابهم ان لا أمر بيده وانما الامر بيد الله وهو الاعلم بما يعملون.

١٨٩- وهكذا كذبوه فأخذهم عذاب السحابة العاصفة المدمرة وهو العذاب العظيم.

١٩٠- وكان الأولى للناس أن يعتبروا بذلك الا انّ أكثرهم لا يؤمنون.

١٩١- والله هو العزة المطلقة والرحمة المطلقة . وتقارنهما هو محور هذه السورة.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

وهكذا يأتي هذا الاستعراض التاريخي لقصص الانبياء ليؤكد: وحدة دعوة الانبياء إلى حد التطابق اللفظي، ودعوتهم للايمان والتقوى والطاعة، وبعدهم عن المنافع المادية، وتركيزهم على اهم النقائص في مجتمعاتهم، وصبرهم على التهم والتشكيك والتهديد بالقتل والنفي والرجم، والتآمر والسخرية وغير ذلك معتمدين في مسيرتهم على رعاية الله وايمانهم باقتران العزة والرحمة الالهية فلا حيف ولا خذلان وانما هو النصر للحق مهما طال الزمان. وفي هذا الاستعراض دعوة للمشركين بان يعتبروا بالماضين وتحذير لهم من تكرار تلك التجارب ونهاياتها وفي الآيات القادمة اشارة لذلك.

١٩٢،١٩٣،١٩٤،١٩٥- عاد القرآن ليثبت فؤاد الرسول ويؤكد للناس انه تنزيل من رب العالمين نزل به جبرئيل الروح الأمين على الوحي، على قلب الرسول فوعاه بكل وجوده ، وانطلق لينذر به بلغة عربية واضحة المعاني. ورغم انها لغتهم الا أن القرآن معجزة لا يقدر أحد أن يجاريها.

١٩٦،١٩٧- وقد اشارت إلى الرسول صحف الأولين ، وعلمه علماء بني اسرائيل، وحدثوا به فلا معنى للتشكيك بنسبه الوحياني.

١٩٨،١٩٩- ولو جاء بعض الاعاجم بمثل القرآن فقرأه عليهم ما آمنوا به متعللين بعدم فهم معانيه ولكنه العناد لا غير.

٢٠٠،٢٠١،٢٠٢، ٢٠٣- ان القرآن يأخذ سبيله إلى القلوب وان كان التكبّر والعناد يمنع من الاهتداء وحينئذ سيعرفون الحق ويتساءلون هل نحن مؤجلون؟

٢٠٤،٢٠٥، ٢٠٦- ان هؤلاء يدفعهم تجبرهم لاستعجال العذاب. وسيعرفون الحقيقة حين تنقضي مدة التمتع والإمهال لسنين فيواجههم العذاب الموعود.

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٢٠٧- إنهم سيعرفون أن ما تمتعوا به لا قيمة له ولا يدفع عنهم العذاب.

٢٠٩،٢٠٨- إن الله تعالى لا يهلك ولا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار وإتمام الحجة والتذكير بالواجب وإلا كان ذلك ظلماً يتنزه عنه الله.

٢١٢،٢١١،٢١٠- وقد اتهم الرسول بأنه تلقى القرآن من الشياطين على طريقة الكهان، وهم الداعون إلى الضلال والعمى والفساد وهذا الكتاب ينزه الإنسان من كل ذلك. أنه من عند الله العزيز الحكيم. وهو لا يعطيه الا للصادق الأمين. والشياطين عناصر شريرة معزولة عن مسير الوحي الطاهر.

٢١٣- فيجب الابتعاد عن حياة الشرك المنتهية بسوء العاقبة.

٢١٤- ولينطلق الرسول في دعوته وليبدأ بعشيرته الأقربين اولاً فهم الدائرة الاولى والأقرب لتقبل الدعوة والتفاعل معها. وفي الروايات ان النبي(ص) قام بذلك ولم يستجب له سوى علي(ع) وكان أصغر القوم سناً[1].

٢١٧،٢١٦،٢١٥-وقد علمه السمة العامة للدعاة وهي التواضع للمؤمنين، والبراءة من عمل العاصين. والتوكل على الله احساساً بقدرته وعزته ورحمته وهو احساس كل الانبياء والمؤمنين كما تقدم في الآيات السابقة.

٢٢٠،٢١٩،٢١٨- انه تعالى يتابع مقامك ونشاطك، وعبادتك وترددك بين الساجدين كما رئاك من قبل وراقب وجودك وتحركك في الأرحام الطاهرة الساجدة فهو السميع العليم بكل الأمور.

٢٢٣،٢٢٢،٢٢١- إنه المحيط بهذا الكون والعليم بكل حركة فيه، يمدها بالوجود رحمة منه.

اما الشياطين فإنها معزولة عن هذه المسيرة النبوية الطاهرة بل تصب شرها على المكذبين الآثمين. لتوحي لها ما تدعيه أنه الحقيقة وما هو الا الكذب.

٢٢٦،٢٢٥،٢٢٤- اما ما اتهمه به الكفار من كون القرآن شعراً فهي تهمة لا قيمة لها أيضاً لأن الشعر تخيلات منظمة، ومشاعر وانفعالات شخصية ، والقرآن منزل من وجود منزه عن ذلك. والشعراء يتبعهم الهائمون في مشاعرهم التائهون في وديان الوهم، الذين تتناقض اقوالهم مع أفعالهم ، وهذا القرآن يبني الامة الواعية العاملة .

٢٢٧- ليس الشعر كله ذميم فمن الشعراء من يقول الحق لانه مؤمن عامل للصالحات ذاكر لله كثيراً، ناصر للحق، منتصر على الظلم. والظلم مصيره وخيم وأمام الظالمين منقلب صعب لا يعلمون مداه.

وفي الآية دعوة واضحة لاستخدام الشعر ومن خلاله الفن وسيلة صالحة لحياة افضل وسلاحاً فاعلاً في معركة الخير والشر.

---

١ - براجع البرهان في تفسير القرآن ج ٥ ، ص ٧٩٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴿١﴾ هدى وبشرى للمؤمنين ﴿٢﴾ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴿٣﴾ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴿٤﴾ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿٥﴾ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴿٦﴾ إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴿٧﴾ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴿٨﴾ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴿٩﴾ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴿١٠﴾ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ﴿١١﴾ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴿١٢﴾ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴿١٣﴾

سورة النمل

تحدثنا من قبل عن معاني البسملة وأكدنا جزئيتها للسورة.

١، ٢- تبدأ السورة بهذا الاعلان الإلهي وبذكر بعض الحروف كما سبق بأن آيات القرآن الكريم جاءت واضحة مبينة سبيل الحق للبشرية الراغبة في معرفة الحقيقة تهديها إلى كمالها وأسلوب تحقيقها لهدف خلقتها، وبالتالي تبشرها بأروع أمل وأروع حياة في الدارين.

٣- انَّ الايمان بالله يفتح القلب لتلقي الفيض والبشرى القرآنية، وان القيام بلوازم الإيمان من الصلاة التي تشد الإنسان بالحقيقة المطلقة، والزكاة التي تشد الاواصر بين المجتمع، كل ذلك يعمق الايمان في القلب، ويرفع الاستعداد النفسي لتلقي العطاء القرآني عند ما يتحقق اليقين بالآخرة والمعاد يوم القيامة.

٤، ٥- اما الذين لا يؤمنون بالآخرة فهم في حيرة تتجاذبهم الأهواء الخداعة فهم يخطئون المسير الحق، دون ان يحسوا بالخطر. وبالتالي ينتظرهم مصير أسود من العذاب والخسران الكبير.

٦- ان القرآن كنز العلوم والمعارف الانسانية ومنهج العلاء لأنه آت من الله الحكيم المطلق والعليم المطلق بكل حقائق الكون والحياة والإنسان وما يحقق له كماله وانسجامه مع الكون القائم بالحق.

٧- ولتقديم بعض الصور الرائعة عن حكمة الله وعلمه يأتي الحديث عن النبي موسى، حيث اعدته يد الحكمة الالهية لينهض بمهمة تاريخية كبرى فيحطم رمز الطغيان فرعون ويقود قومه إلى العلاء. وها هو في طريق عودته من مدين ومعه أهله قاصداً العودة إلى مصر ماراً بصحراء سيناء وقد ضلَّ طريقه في ليلة باردة فأبصر على البعد ناراً فتحرك نحوها ليعرف خبر الطريق او يأتي منها بما يمكن ان يستدفئ به أهله.

٨، ٩- وهنا يتجلى اللطف الالهي اذ ما أن يصل موسى حتى يسمع نداء البركة التي تشمل النار ومن حولها من موجودات، وكلها تسبح الله وتنزهه، ويعلن لموسى ان النداء صادر من الله القوي الحكيم المطلق، وانه مبعوث بالنبوة.

١٠، ١١، ١٢، ١٣: ويطلب من موسى أن يلقي عصاه ليراها تهتز كما تتحرك الحيات السريعة ليهرب منها بلا عودة. وهنا يطلب منه أن لا يخاف من شيء وهو بحضرة الله فلا خوف هناك الا أن يبتلى احد بظلم فيخاف العقاب. فإذا بدل الظلم بفعل حسن نجا من العذاب. فكانت العصا وتحولها الى ثعبان، وتحول يده إلى يد بيضاء معجزتين من معاجز تسع حملها موسى تصديقاً له.

ورغم كون الآيات والمعاجز واضحة الدلالة فقد اتهمه فرعون وقومه الفاسقون بأنه ساحر.

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

١٤- ورغم أنهم تيقنوا في انفسهم من صحتها لوضوحها ووضوح اعجازها لكن ظلمهم واستكبارهم دفعهم للجحود والإنكار وبالتالي الإفساد والضياع والبقاء عبرة للآخرين.

١٥- وهذه صورة اخرى لعلم الله وحكمته تقدم من حياة داود وسليمان الذين يعطيهما الله من علمه وحكمته فيحمدان الله الذي فضلهما بذلك على كثير من المؤمنين.

١٦- ويرث سليمان من داود المال والملك والمهارة في معرفة لغات الطيور ورموزها التي تتخاطب بها فيفتخر أمام الناس بلطف الله الذي منحهما كل ما يستحقانه من نعم مادية ومعنوية وهو من أعظم الفضل وأوضحه.

١٧- وهكذا جمع لسليمان معسكر عظيم فيه من الجن والإنس والطير والكل يدخل تحت نظام عسكري منضبط.

١٨- وعندما وصل إلى وادي النمل طلبت نملة من النمل أن يأوي إلى جحوره والا تعرّض للسحق تحت أقدام الجند المتحرك الذي لا يشعر بوجود النمل.

١٩- وعلم بذلك سليمان وانشرح صدره له وابتسم لهذه الدقة والتنظيم، وراح يدعو ربه أن يلهمه – بكل وجوده – شكر نعمته عليه وعلي والديه وان يتجلّى الشكر في القول والعمل الصالح الذي يحقق الرضا الالهي – وهو غاية ما يبتغيه المؤمن – كما يدعو ربه ان يسلكه برحمته في سلك العباد الصالحين.

٢٠، ٢١- وحين استعرض جنوده لاحظ القائد سليمان أن طائر الهدهد غير متواجد في محله فتساءل عن هذا النقص وهل هو غياب وتخلف يستحق عليه الهدهد العذاب الشديد او الذبح، لتخلفه عن مسيرة عسكرية منضبطة، الا أن يكون غيابه ناتجاً عن حجة بينة تبرّر له ذلك.

٢٢- وبعد مدة قصيرة حضر الهدهد معلناً انه حصل على علم لم يعلمه سليمان وانه جاء من مملكة سبا (باليمن) بخبر قطعي متيقن.

إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

٢٣- انه وجد هناك مملكة تحكمها امرأة توفرت لها اسباب المنعة والقوة والتمدن ولها مركز فيه مظاهر الغنى والتقدم تدير منه المملكة.

٢٤، ٢٥، ٢٦- إلا أنها وقومها كانوا من عُبّاد الشمس. فقد زين الشيطان لها الكفر (وتحويل المؤثر النسبي إلى مطلق وهمي) وتقديم الطقوس للشمس والانحراف عن السبيل القويم وهو عبادة الله المطلق الحقيقي الخالق لكل شيء، يخرجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ويعلم ما هو في السر او العلن فهو المحيط بكل شيء، وهو الواحد الأحد رب العرش العظيم الذي يدار منه الكون كله.

٢٧، ٢٨- فردّ سليمان بأنه سيعمل على التأكد من هذا الخبر في تعليم نبوي واضح لعدم التسرع في التصديق بالاخبار الا بعد التثبت والتحقيق، وامره بحمل كتاب موجه اليهم ثم الركون إلى جانب آخر وانتظار ردّ فعلهم على الكتاب.

٢٩، ٣٠، ٣١- وجمعت الملكة أشراف قومها وأخبرتهم بأن كتاباً كريماً (باعتبار شيوع صيت سليمان آنذاك) قد وصلها. هذا الكتاب كان مبدوءاً بالبسملة ويتضمن أمراً سليمانياً بالطاعة له والاستسلام لله الذي يدعو اليه سليمان والايمان به.

٣٢- وتبدو حكمة الملكة من استشارة ذوي الراي والحل في الأمر معلنة انها لا تصنع شيئاً دون مشورة. ويبدو في ذلك أيضاً اهمية الاستشارة في الأمور.

٣٣- أجابوا معتزين بقوتهم وبأسهم الشديد أولاً وموكلين الامر القاطع اليها.

٣٤- ولحكمتها ذكرت ان الملوك الجبابرة اذا دخلوا مدينة أفسدوها وأذلّوا العزيزين فيها باعتبار ذلك من عادتهم وطباعهم.

٣٥- ولكي تتم معرفة طبيعة سليمان ، وربما لكي يتم اغراؤه بالهدايا فيكف عنهم اعلنت أنها سترسل اليه هدية مع اشخاص ثم أنها ستلاحظ ردود الفعل منه عند عودتهم.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

٣٦، ٣٧- وعندما دخل رسول الملكة ومعه الهدايا على سليمان، استنكر ذلك الاغراء بالمال في حين كانت دعوته للعودة إلى الايمان بالله، واعتبر ان ما آتاه الله من العلم والنبوة والقوة هو خير مما لديهم من مال يفرحون به، فليرجع بها إلى الملكة وقومها وسيواجهون جيوشاً لاطاقة لهم بمقابلتها لتخرجهم من ارضهم بذلة وصغار بعد أن أصرّوا على الكفر.

٣٨، ٣٩-ولعل سليمان لاحظ استعداد الملكة للايمان فأراد ان يظهر لها شيئاً من القدرة التي منحها الله له فسأل جنوده من يستطيع جلب عرشها قبل أن تقبل هي وقومها مسلمين؟ فاجابه مارد جني بأنه سيأتي به قبل انقضاء جلسته.

٤٠- وكأن سليمان أراد عملاً اسرع فنهض شخص يعرف شيئاً من اسرار هذا الكون، وله بأمر الله قدرة تكوينية فوعد بالاتيان به بطرفة عين، وكان ذلك. وحينئذ اعلن سليمان ان ذلك من فضل الله وانه امتحان له لكي يشكره على نعمائه ولا تبطره القوة والعزة فيكفر بالنعمة. وطبيعي ان كفرها يعود بالسوء وإن شكرها يعود بالخير على الإنسان نفسه والله هو الغني الكريم المطلق لا يحتاج لشيء (لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه[1] - كما يقول علي(ع) -).

٤١، ٤٢- واراد سليمان ان يختبر فراستها فطلب أن تـغير معالم عرشها بحيث لا يعرف. فلما جاءت سئلت أهذا هو عرشها؟ وفاجأها الأمر رغم معرفتها به فقالت انه شبيه بعرشها وعقبت على ذلك بأنها كانت قد علمت بعظمة سليمان قبل ذلك ولذلك قررت الاستسلام.

٤٣، ٤٤- ولكنها كانت تعبد الشمس الهاً موهوماً وصدها ذلك - من قبل - عن الإيمان بالمطلق الحقيقي وعندما طلب منها ان تدخل الصرح اي القصر الذي صنع من البلور الصافي ظنته ماء لصفائه فجمعت ثيابها وكشفت عن ساقيها، ولكنها اكتشفت الحقيقة باخبار سليمان لها، ورأت روعة الفن وعظمة القدرة الالهية فرجعت إلى ربها واعترفت بظلمها واعلنت اسلامها مع سليمان لرب العالمين.

---

١ - نهج البلاغة، خ ١٩٢.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٤٥- وهذه صورة اخرى من حياة الانبياء: فهذا صالح يبعث إلى قومه ثمود داعياً إلى عبادة الله لينقسموا إلى فريقين: مستجيب ومعاند.

٤٦- وكان المعاندون يستعجلون العذاب فكان صالح يدعوهم إلى عدم استعجاله والاتجاه نحو الطريق الحسن طريق الاستغفار لتشملهم الرحمة الالهية.

٤٧- وهنا يلجأ المعاندون إلى خرافة التطيّر والتشاؤم لتلازم دعوته مع المحن والبلايا التي مروا بها. فيجيبهم ناهياً أياهم عن هذا السخف فلا قيمة للتطيّر وانما الامر موكول إلى الله بيده المستقبل والمصير، والانسان ممتحن هل يسلك طريق الخير فيرحم ام يسلك سبيل الشر فيصاب بالعذاب.

٤٨، ٤٩- وتجمع تسعة اشخاص متآمرين مفسدين غير مصلحين واقسموا بالله على قتل صالح واهله ليلاً وإخفاء اثرهم وانكار الجريمة أمام أولياء الدم لأنهم لم يروه بسبب الظلام.

٥٠، ٥١، ٥٢- وهكذا يعتبرون انفسهم صادقين، ولكن عين الله كانت ترقبهم وتبطل مكرهم وهم لايشعرون . لقد ابتلوا هم وقومهم المعاندون بالدمار الهائل وضاعوا في متاهات التاريخ وبقيت بيوتهم الخاوية المتهدّمة عبرة للمعتبرين وذلك جزاء الظالمين. والمكر المنسوب إلى الله تعالى في الآية انما هو مواجهة مكرهم بتخطيط حكيم لإبطاله.

٥٣- اما المؤمنون فهم الناجون على مر العصور نتيجة لتقواهم وتحسبهم للعواقب.

٥٤، ٥٥- وهذا لوط النبي ينهى قومه عن الاتيان بفاحشة اللواط المنكرة فطرياً وعرفياً والأنكى أنهم كانوا يفعلونها على مرأى من الآخرين، وماذلك منهم الا عن جهل فضيع.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

٥٦- إنه جواب الطغاة: باخراج لوط وآله من القرية ولا ذنب لهم الا أنهم اناس يتطهرون. قالوا ذلك اما تهكماً، او إنكاراً.

٥٧- ولكن الله نجاه وأهله الا امرأته التي قبلت عمل قومه المنحرفين فكانت من الباقين في العذاب .

٥٨- وأمطر الله المذنبين بحجارة جهنمية قاتلة وما أشد هذا العذاب.

٥٩- بعد عرض الصور الماضية يأتي هذا التوجيه الالهي العام للرسول ومن بعده للمؤمنين أن يقدّموا الحمد كله لله فهو أهله الحقيقي لأن الخير والعطاء كله منه. ثم يتوجهوا بالسلام على قادة البشرية والعباد الذين اختارهم لهدايتها نحو الكمال. ثم يأتي هذا السؤال الصارخ الذي يهز الوجدان: هل الله هو الخير أم مايشركون به من موجودات ضعيفة عاجزة تستمد وجودها منه، ومالديها من خير فهو منه؟

٦٠- إنه تعالى خالق هذه الظواهر الكبرى كالسماوات والارض بكل عجائبها وأنزل الماء في دورة رائعة تنشر الخصب والنبات المتنوع الباعث للبهجة والجمال في كل مكان، كل ذلك ليحيا الإنسان حياة طيبة جميلة فهل للانسان أن يوجد بنفسه هذه الاشجار؟ وهل للشركاء ذلك؟ كلا ان الحقيقة تشير إلى الله فقط اما المشركون فهم منحرفون عن الواقع والفطرة اذ يساوون بين الله وهذه الموجودات.

٦١- ثم من الذي اعطى الارض هذه الحركة المتوازنة وهذا الامكان بحيث تجرى خلالها الأنهار وتثبت توازنها الجبال الراسيات الثابتات، تتقارب البحور بمياهها وطعومها ولكن لا تختلط. ليؤدي كل دوره في حياة الإنسان. انه الاله الواحد ولا معنى لفرض الشريك ولكن اكثر الناس غارقون في الجهل.

٦٢- الا يرجع هؤلاء إلى وجدانهم فيتساءلون عن تلك القوة التي يلجأ اليها المضطرون الواقعون في الشدائد فتكشف الشدة عنهم ثم يمكن الله لهم حياة جديدة في الارض، فهل يبقى بعد هذا مجال للشرك المعبر عن غفلة وبعد عن الوعي والتدبر؟

٦٣- ان الإنسان توصل بما اعطاه الله من ادراك إلى اكتشاف امور تهديه في ظلمات البر والبحر. ولولا لطفه تعالى لما استطاع ذلك. وهذه الرياح تقوم بحركاتها الضرورية لاستمرار الحياة وتلقي الرحمة الالهية. وكلها ظواهر تشير إلى الله فهل هنالك معنى للشرك مع ذلك؟ والله هو السمو والرفعة والنزاهة عن كل ما يدعيه هؤلاء الجاهلون.

أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٦٤- وتتواصل هذه الاسئلة المثيرة للوجدان فمن هو خالق الكون والحياة ومعيدها من جديد؟ ومن هو مبدأ الرزق والعطاء بشتى الوانه؟ انه الله تعالى ولا مجال لفرض الشريك. ان اي ادعاء يحتاج إلى برهان يقتنع معه العقل وتطمئن اليه النفس، ولا يملكون اي دليل على مدّعاهم الباطل بوجود شريك لله.

٦٥- ثم إن كل من في السماوات والأرض، ومنهم هذه الآلهة الموهومة لا علم لهم بالغيب لأنه منحصر بالله فكل الأزمان لديه متساوية. بل هم لا يعلمون شيئاً عن القيامة والبعث.

٦٦، ٦٧، ٦٨- لقد قصر علم هؤلاء المشركين عن ادراك حقيقة الآخرة فهم في شك دائم بل هم عمي عن هذه الحقيقة. إنهم يتساءلون عن امكان ان يحشروا من جديد بعد أن يتحولوا إلى تراب هم وآباؤهم، ثم يعقبون على تساؤلهم هذا بأن الوعد بالآخرة وعد قديم لم يتحقق فهو من أساطير الأقدمين.

٦٩- يجب على هؤلاء ان يتأملوا في عاقبة امر المجرمين حيث ابتلوا بالعذاب والدمار وهي نتيجة طبيعية للظلم والفساد ومن هنا فلابد من يوم للحساب يجازى فيه المسيئون ويثاب فيه المحسنون لتكتسب المسيرة البشرية مضموناً عادلاً.

٧٠- ان هذا العناد والمكر والابتعاد عن الحق يجب ان لا يترك أثره في نفس النبي فيتألم ويتضايق منه. وان كان حزنه في الأساس انما هو لمصلحتهم وعدم الاستجابة لما فيه خيرهم وهدايتهم.

٧١، ٧٢- ويتمادى هؤلاء فيستعجلون العذاب. اذن فلينتظروا شيئاً قريباً منه.

٧٣- انّ فضل الله يعم الوجود والناس وحتى هؤلاء المكذبين إذ أمهلهم ولم يعاجلهم بالعذاب، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

٧٤، ٧٥- فكل الكون والاشياء وما تخفيه الصدور وما تعلنه واقعة تحت علمه واحاطته مسجلة في كتاب علمه، مكشوفة له حاضرة عنده.

٧٦- وهذا القرآن نفسه دليل على علم الله الواسع بكل ماجرى ويجري في الكون، ومن هنا فهو يقص الحق ويعلن الحقيقة والقول الفصل فيما اختلف فيه بنو اسرائيل وما دخل في تراثهم من خرافات وتحريفات.

وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٧٧، ٧٨- انه كتاب الهداية الالهية للبشرية نحو كمالها وعلائها، وكتاب الرحمة التي تنقذ المؤمنين من الضلال، يبين لهم حكم الله الفصل في مختلف الامور بما يحقق لهم الرشاد. فالله تعالى لا يريد لهم الا ذلك وهو القوي الغني عن اي شيء والعليم بكل شيء.

٧٩، ٨٠، ٨١- ومن الطبيعي ان يتشد الرسول إلى ربه ويتوكل عليه ويمضي في دعوته متيقناً أنه على الحق الواضح، وأن لا يأبه لتكذيبهم. إنهم موتى لا يسمعون، وصم مدبرون عن الحق لاتصل إلى عقولهم دعوة، وعمي غارقون في الضلال لا يؤثر فيهم هدى، بعد أن فقدوا القابلية التي لا تتحقق الا عبر الايمان بالآيات الالهية والاستسلام للحقيقة وحينئذ تتحقق ثمار الهداية الالهية.

٨٢- ان هذا النمط من الناس المكذبين بآيات الله المشهودة سيستمرون في موقفهم حتى يقضي الله ان يشهدوا - قبل وقوع القيامة - حادثة ضخمة هي خروج دابة من الارض تكلمهم وتكشف لهم الحقيقة ليذعنوا بها. وتعتبر من علامات الساعة.

٨٣- ويتحدث القرآن هنا عن مشهد يحدث يوم القيامة. يحشر فيه من كل أمة فوج من المكذبين بآيات الله فيحبس أولهم على آخرهم ليتجمعوا وليساق الجميع إلى موقف رهيب.

٨٤، ٨٥- وهنا يتوجه الخطاب الالهي المرعب المذكر لهم بتكذيب آيات الله رغم أنهم لم يحيطوا بها علماً بل انشغلوا بالتكذيب والعناد. وتفرض الرهبة نفسها عليهم فلا يملكون ما يقولونه بعدما قدموه وشاهدوه.

٨٦- ويعود القرآن إلى هؤلاء المكذبين - بعد ان عرض لهم صورة تسبق القيامة - لينبه وجدانهم إلى الظواهر التي أنعم الله بها عليهم ومنها ما تملكه ظاهرة الليل من سكون النفس وارتياحها فيه، وظاهرة النهار المشرقة الدافعة للحركة والسعي.

٨٧- لينتقل إلى يوم القيامة - من جديد - حيث ينفخ في البوق (الصور) وتدعى الأجيال إلى البعث ليفزع الجميع الامن شاء الله ويتحركوا للبعث صاغرين.

٨٨- وهكذا يتحقق التحول الكوني فإذا بالجبال التي تبدو ساكنة تمر مرَّ السحاب وكل شيء في هذا الكون يقع بتقدير متقن ويسير نحو غاية له وبعلم واسع بالواقع.

مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ الْقَصَصِ ٢٨ — ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

٨٩، ٩٠- ان فزع القيامة لن يصيب المحسنين بل سيلاقون ماهو خير من الحسنة، اما المسيئون فامامهم النار يلقون على وجوههم فيها انعكاساً لما عملوا من قبل.

٩١، ٩٢- بعد هذا الحديث عن حكمة الله وعلمه، وعرض صور من حياة الانبياء، ومواقف الامم، ومشاهد القيامة، تأتي خاتمة السورة لتؤكد ان الرسول أمر أن يعبد رب مكة المكرمة التي حرّمها وكرّمها (ولكنهم لم يرعوا حرمتها بل كذّبوا بربها) وهو رب الكون ومالكه، وان يعلن الاسلام، ويتلو القرآن منهجاً للحياة وسبيلاً للهداية ويبقى الخيار أمامهم فأما الهدى وفيه العلاء للنفس، وإما الضلال وفيه الانحطاط لها لا غير وليس على الرسول الا الإنذار وقد أنذر.

٩٣- ان الحمد لله وحده هو الهادي البشرية عبر آياته وهو المراقب لسيرها.

سورة القصص

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١، ٢- ان الكتاب الكريم الذي يرسم للإنسانية مسيرتها مكوّن من حروف يعرفها الجميع ولكن الجميع يعجزون عن الإتيان بمثله لا شكلا ولامضموناً مما يشكل معجزة خالدة لدين خالد.

٣- تهدف هذه السورة لتقوية الفئة المؤمنة المستضعفة من جهة، والى تثبيط عزيمة الفئة الكافرة المستكبرة المعتزة بقوتها وما لها وعديدها، فتذكر قصة فرعون – رمز الطغيان – ومواجهة موسى – رمز الإيمان – له، فتكشف الحقيقة للمؤمنين.

٤- فهذا فرعون يعلو ويتجبر في الارض، وكما يفعل كل الطغاة مزق شعبه إلى فرق لئلا تجتمع كلمتهم على موقف واحد، ثم ركز على بني اسرائيل الذين كانوا يؤمنون بالله وان اصابت عقائدهم بعض الانحرافات، فراح يستضعفهم فيذبح ابناءهم ويبقي النساء كي يقف بوجه تكاثر هذه المجموعة التي لا تؤمن بربوبيته وهذا هو ديدن كل الطغاة المفسدين في الارض.

٥- ولكن الارادة الالهية في التاريخ اقتضت ان تمن – بنعمة كبرى – على المستضعفين في الارض فتجعلهم قادة التغيير التاريخي وورثة الارض بعد فناء المستكبرين وتلك سنة الهية ستقود البشرية الى زمان تملأ الارض فيه قسطاً وعدلاً بإمامة المهدي حيث يوصل الأمة إلى مستوى الامامة الحضارية التي تؤهلها لوراثة الأرض.

> وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

٦- فيتمكنون بقوة في الارض بارادة الله رغم ارادة فرعون وهامان – وهو وزيره – وجنوده التابعين ليذوقوا من هؤلاء المستضعفين ماكانوا يخافونه منهم من زوال الملك والسلطان.

٧- وألهمت أم موسى التي حملت به في هذا الجو الطاغي ان ترضعه بلا خوف فاذا خافت عليه فإن عليها أن تضعه في صندوق وتلقيه في النهر الكبير بلا أن تخاف عليه التلف او تحزن لفقده فإنه – بقدرة الله – سيعود اليها وسيكون بالتالي من المرسلين القادة. انها مشيئة الله النافذة في كل الوجود.

٨- ويلتقطه آل فرعون من البحر لينمو هذا الموجود الضعيف ظاهراً في قلب القوة الطاغية التي كانت تستهدفه أصلاً، ويكون هو العدو المحطم لهم والحزن لقلوبهم. وهكذا أخطأ الطغاة في استخدام اسلوب القتل والتنكيل لتحقيق مآربهم.

٩- وليلقي الله محبة الطفل في قلب امرأة فرعون فراحت تطلب منهم أن لا يقتلوه ليبقى لها ولفرعون قرة عين، فقد ينتفعان به أو يتخذانه ولداً بعد ان لم يكن لهما ولد، فيستجاب لها دون ان يشعر الجميع بالحقيقة، وهي أن موسى يصنع على عين الله ليحقق إرادة الله.

١٠- اما قلب أم موسى فكان فارغاً والهاً حائراً لا يدري شيئاً عن المستقبل ومصير الطفل الحبيب حتى كادت لتشي بالسر للآخرين لولا التثبيت الالهي لتبقى مؤمنة بالوعد الالهي فلا يمزقها الخوف والحزن.

١١، ١٢- وقالت ام موسى لأخته تتبعي أثره ففعلت ذلك لتجده – على البعد – في ايدي جنود فرعون وهم يطلبون له مرضعة. وهكذا تشاء القدرة الالهية الا يتقبل ثدي أية امرأة عرضت عليه فتعرض اخته عرضها الرائع؛ انها تعرف اهل بيت يتمتعون بميزة الكفالة التامة والتربية والنصيحة للطفل وبطبيعة الحال يسلم الطفل إلى هذا البيت الكريم.

١٣- وهكذا تعيد القدرة الالهية موسى إلى أمه، فتقر عينها به ويذهب حزنها على فراقه وتعلم ان وعد الله حق وإن كان أكثر الناس – ومنهم هؤلاء الذين يقفون بتجبر في وجه الدعوة – لا يعلمون بهذه الحقيقة.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ
فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

١٤ـ ولما بلغ موسى مرحلة الشباب والقوة البدنية والعقلية والتوازن بينهما منحه الله تعالى الحكمة والعلم جزاء لكونه سلك سلوك المحسنين باستمرار.

١٥ـ وفي فترة لايكون الناس فيها عادة في الاسواق والشوارع كالظهيرة دخل موسى المدينة الكبرى ليجد أمامه رجلين يتنازعان أحدهما اسرائيلي يشاركه في دينه والاخر قبطي معاد له فاستغاث به الاسرائيلي فانتصر له وضرب القبطي ضربة قضت عليه دون أن يقصد ذلك، وحينئذ أدرك الخطأ ونسبه الى الشيطان وهو العدو الواضح للانسان المتربص به.

١٦، ١٧ـ وعاد الى ربه مستغفرا عائذاً به طالباً منه تخليصه من النتائج السيئة لهذا الخطأ ولما أحس من ربه الغفران تعهّد أن لايكون مطلقاً معيناً للمجرمين الغاوين.

١٨ـ وعاد موسى خائفا ينتظر نتائج عمله الخاطئ ليجد مشهد الاسرائيلي يتكرر مع قبطي آخر، وعندما استغاث به الاسرائيلي ردَّ عليه بأنه ليس راشداً ولايتصرف بتعقل وإنما يثير الآخرين ويحركهم على بني اسرائيل.

١٩ـ ومع ما سبق فان ظلم العدو دفعه للعزم على البطش بالفرد المعادي، وكان هذا قد علم بما فعله موسى بالأمس فذكّره به معتبرا ذلك من عمل الجبارين لا المصلحين.ويحتمل ان القائل هو الاسرائيلي الذي نهره موسى فظن انه يريد البطش به.

٢٠ـ وشاع الخبر وعلم رجال القصر به فراحوا يتآمرون لقتله فانطلق رجل ـ مشفق عليه ـ علم بالتآمر من اقصى المدينة حيث القصر ليخبره بذلك وينصحه بالخروج.

٢١ـ وخرج موسى من المدينة وهو في حالة من الخوف والترقب وتوجه من جديد الى ربه الرحيم ان يحيطه بحفظه وعنايته ويخلصه من القوم الظالمين.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٢٢ـ واتجه موسى الى مدين وتقع في جنوب الشام وشمال الحجاز حيث لاسلطة لفرعون عليها وحيث الصحاري الشاسعة، فدعا ربه ان يهديه السبيل السوي.

٢٣ـ وعندما ورد الى المنطقة التي تقع فيها العين التي يستقي منها اهل مدين وجد الرجال من رعاة الاغنام يستقون في حين تقوم امرأتان بمنع غنمهما عن ورود الماء فسألهما عن امرهما فاجابتا بانهما لا تسقيان غنمهما تعففا حتى يبتعد الرعاة عن الماء وأنهما مضطرتان لرعي الغنم لان اباهما شيخ كبير لايقدر على الرعي.

٢٤ـ فقام لوحده بسقي الغنم عنهما ثم لجأ الى الظل ليستريح وتوجه الى الله تعالى –كما هي عادته ـ ليعلن فقره الدائم اليه ويشكره على ذلك العطاء. والسياق يؤكد على لجوئه المستمر والدائم الى ربه الودود المنعم.

٢٥ ـ ويتجلى لله لطف آخر به حينما تأتيه إحداهما ـ وهي تمشي بكل حياء وعفة – فتطلب إليه ان يجيب دعوة أبيها الشيخ الكبير ليعطيه أجر عمله، فيستجيب لذلك ويلتقي بالشيخ وهو شعيب النبي ويقص عليه قصته، فيبشره بالنجاة من القوم الظالمين. وبذلك تحققت دعوة موسى بالنجاة والهداية والرزق.

٢٦ـ وتقترح احدى البنتين ولعلها تلك التي أخبرته بالدعوة ان يعمل ابوها على استئجاره للعمل معه وتبرر اقتراحها بأنها لاحظت قوته وأمانته معاً وهما اهم ما يطلبه المستأجرون من العمال والموظفين: انها الأمانة والطاقة. بل هما من أهم الخصال التي تحتاج إليها الأمم والبلاد لادارة شئونها واصلاحها.

٢٧ـ وبكل بساطة وصراحة عرض شعيب عليه الزواج بإحدى ابنتيه ـ ولعلها كانت محددة ـ على أن يكون اجيراً عنده ثماني سنوات (وأحييت السنة بالحجة والحج من سنن ابراهيم) فان أتم عشر سنوات فهو أمر موكول اليه، وانه لايريد ان يثقل عليه العمل ويعده ان يكون بارادة الله من الصالحين.

٢٨ـ وقبل موسى العرض مع الاحتفاظ بالتخير بين الأجلين فلا عدوان في البين ولا الزام في الزيادة، وجعل الله وكيلا على هذا العقد. وروي أن موسى قضي الاكثر والأتم[1].

---

١ – وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٢٨١، الكافي، ج ٥ ص ٤١٤.

فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴿٢٩﴾ فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴿٣٠﴾ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴿٣١﴾ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴿٣٢﴾ قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴿٣٣﴾ وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴿٣٤﴾ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴿٣٥﴾

٢٩ ـ وقضى موسى السنوات العشر في حياة عادية بين الناس بعيدا عن حياة القصور، وعاد يحمل أهله معه الى مصر عبر سيناء، وفي ليلة باردة ضل الطريق ولمح من جانب جبل الطور ناراً فطلب من أهله ان يمكثوا مكانهم ليذهب الى مكان النار ليأتي منا بخبر او يقتبس منها جذوة ليتدفؤوا بها.

٣٠ـ وهنا وحينما يصل الى النار يأتيه النداء المقدس من قطعة مباركة من الشاطىء الايمن من الوادي ومن الشجرة التي كانت فيها؛ إنه نداء الله رب العالمين يكلفه بحمل اعظم أمانة وهي النبوة والصراع ضد اعتى الطغاة: فرعون.

٣١ـ وطلب النداء منه أن يلقي عصاه فالقاها فاذا هي حية مسرعة كصغار الحيات ليهرب منها دون ان يفكر بالعودة وتبين الحال ولكن النداء الالهي يؤمنه.

٣٢ـ كما أمر أن يدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ويخرجها ليراها بيضاء دونما مرض أو برص ـ خلافا لما تذكره التوراة ـ وهكذا اعطي موسى علامتين واضحتين يستدل بهما على صحة دعواه أمام فرعون والأشراف من حوله وقد فسقوا وخرجوا عن طبيعتهم الانسانية. فيجب أن ينطلق موسى ضاما يديه الى صدره مطمئناً بالنصر بلا رهبة، عازما على إبلاغ الرسالة، خاشعاً مطيعاً لامر ربه.

٣٣ـ وتذكر موسى ان قوم فرعون يطلبونه بدم مما يخشى معه أن يقتلوه فاعلن ذلك.

٣٤ـ واعلن لربه أنه يحتاج الى اخيه هارون ليكون بفصاحة لسانه أبلغ في الدعوة وليحمي ظهره ويدعم مسيرته ويصدق ويؤمن على دعواه في قبال تكذيبهم له.

٣٥ ـ فاستجاب له ربه ووعده بتأييده باخيه، وأن يمنحهما سلطاناً ومنعة لاتستطيع أية قوة معها أن تصل اليهما، وأن يعطيهما واتباعهما الغلبة عبر ما معهما من آيات الهية.

فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴿٣٦﴾ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴿٣٧﴾ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴿٣٨﴾ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴿٣٩﴾ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿٤٠﴾ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿٤١﴾ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿٤٢﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴿٤٣﴾

٣٦ـ وانطلق موسى حاملا رسالته، واثقاً بنصر الله، مستدلاً بآيات الله البينات على صدقه، ولكنه ووجه بالعناد وتهم السحر والافتراء والابتداع غير المعهود عند الآباء والاجداد.

٣٧ـ ويرد عليهم موسى بان الله هو ربه، وهو أعلم منهم بمنهج الهداية، وصدقه في الدعوة اليه، وهو أعلم بعواقب الامور في الدنيا والآخرة وأن سبيل الظلم لايؤدي الى الفلاح والخير.

٣٨ـ ويبدأ فرعون بالتمويه مؤكداً انه لم يصل إلى وجود إله آخر غيره هو. ولكي يواصل تمويهه يطلب من وزيره هامان أنْ يبني له من الطين الذي تلفحه النار بناءً عالياً مكشوفاً ليصعد إلى أعاليه راصداً وباحثاً عن إله موسى.

هكذا وبتهكم وتلاعب يستسخف عقولهم، ويظهر لهم نفسه باحثاً عن الحقيقة.

٣٩ـ وهكذا سلك فرعون وجنوده سبيل الاستكبار في الارض بغير الحق ظانين أنهم يفلتون من عذاب الله وأنهم لا يرجعون اليه.

٤٠ ـ و تتجلّى القدرة الالهية ـ كما تجلت مراراً في مقاطع السورة ـ فتأخذ فرعون واتباعه بالعذاب فتقذفهم في البحر وتلك عاقبة الظلم.

وهكذا يتحول البحر الى مأمن للطفل موسى ومنبذ للجبار فرعون وجنوده.

٤١ ـ وبذلك كان فرعون واتباعه أئمة ودعاة للضلال والنار عبر التاريخ في الدنيا وأمامهم عذاب الآخرة حيث لاناصر ولاشفيع.

٤٢ ـ فهاهم يحملون عار اللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا، وعار القبح والذم في الآخرة.

٤٣ ـ أما موسى فقد عاد إمام الهدى بعد أن أهلك الله الأمم المكذبة، فعادت التوراة المنزلة هادية للأجيال تجد فيها معاييرها ومنارات سيرها وتسير بهداها إلى علائها وتستقبل الرحمة الالهية وتستذكر الحقيقة باستمرار.

وفي هذا العرض ببعض تفاصيله وجزئياته مافيه من تثبيت للمؤمنين المستضعفين، ومن تثبيط لعزائم المستكبرين المعاندين.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

٤٤ ـ بعد أن ذكر القرآن قصة موسى راح يركّز على صدق الرسول اذ لم يكن شاهداً لأحداثها بنفسه وانما هو الوحي الصادق الذي بيّن له حقائقها، وحتى بعض مافيها من تفاصيل جزئية.

٤٥ ، ٤٦: ورغم مرور زمن طويل وعبور أجيال تمادى بها الزمان فقد قص القرآن قصص أهل مدين وحوادث الطور حيث كان النداء المقدس لموسى والرحمة الالهية له ليتحول من رجل تائه في الصحراء الى إمام هدىً للأجيال. وهكذا هي الرحمة الالهية تعمل على هداية البشرية وقد تجلت في الاسلام لينذر به الرسول قومه الذين لم يأتهم نذير من قبل هذا ومنذ زمن طويل، وليهديهم السبيل الأقوم وليعودوا إلى الحقيقة ويتذكروا الواقع.

٤٧ ـ وهكذا تمت الحجة عليهم بعد كل هذه الآيات البينات فليخشوا أن يبتلوا بالعواقب السيئة والمصائب نتيجة اعمالهم وحينئذ فلا يستطيعون التذرع بعدم ارسال الرسول المنذر وأنهم لوكانوا قد انذروا لاتبعوا الآيات وكانوا من المؤمنين.

٤٨ ـ ولكن العناد مستمر في هؤلاء. فما أن أنزل القرآن الحق حتى راح المشركون يتذرعون بانه لماذا لم يؤت الرسول مثل ما أوتي موسى من الخوارق، او من الالواح التي نزلت عليه مرة واحدة، وهم أنفسهم لم يقبلوا التوراة التي بشرتهم برسالة الرسول فلم يُذعنوا لها وكفروا برسالة موسى، واتهموا موسى والرسول معا بالسحر المتطابق مع بعضه، واعلنوا أنهم يكفرون بهما معاً امعاناً في العناد.

٤٩ ـ ويستمر القرآن في إفحامهم فيطلب منهم أن يبرزوا كتاباً من عند الله هو اكثر هدىً وقوة منطق من القرآن والتوراة ليتبعه الرسول ان كانوا صادقين في دعواهم ومنطقيين في حجاجهم.

٥٠ ـ واذ لم يستجب المشركون لهذا التحدي فان ذلك دليل داحض على اللجاج والعناد المتأصل، وتبعيتهم للأهواء، وابتعادهم عن الهداية الالهية وانّي تشملهم الهداية وقد ساروا سيرة الظلم والفسق عن الطبيعة الانسانية.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

٥١ ـ وها قد تتابعت الآيات وتواصلت الاقوال تدعوهم إلى الحق وتذكر الحقيقة ولكنهم استمروا في العناد.

٥٢ ، ٥٣ ـ وإذ أصرَّ هؤلاء المشركون على عنادهم فإن هناك من أهل الكتاب من آمن بالكتاب الكريم وصدق رسول الله فيه وعندما تتلى آياته عليهم يؤكدون أنه الحق وأنهم كانوا يسلمون به من قبل لأنهم وجدوا ما يؤيده في كتبهم.

٥٤، ٥٥ ـ وإذا كان هؤلاء قد آمنوا بالحقيقة وثبتوا على إيمانهم وتحمّلوا الأذى نتيجة إيمانهم بالإسلام فقد استحقوا الأجر الالهي مرتين ودفعهم ايمانهم للرد على الإساءة بالاحسان، والإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن اللغو وفضول الكلام من هذر وسب، وتحمل مسؤولية عملهم وإلقاء مسؤولية عمل الآخرين عليهم وعدم التعامل معهم بعنف وعدم مجالستهم ومعاشرتهم.

٥٦ ـ لقد هذَّبوا نفوسهم فاستحقت الهدى الإلهي أما الآخرون فإنهم لم يهيئوا أنفسهم لذلك فهي لا تستحق هذه النعمة رغم إصرار الرسول على ذلك حيث كان يحزن على عدم ايمانهم وعدم استجابتهم.

وواضح أن الآية تشير إلى المشركين المعاندين المصرين على استكبارهم من زعماء قريش.

٥٧ ـ وهذه حجة أخرى تذرَّع بها مشركو مكة وهي انهم لو آمنوا به فسيفقدون سلطانهم على القبائل المعظمة للكعبة وأنها سوف تهاجمهم وتمزقهم.

ولكن القرآن يرد عليهم بتذكيرهم ـ اولاً ـ بنعم الله عليهم وهو القوي العزيز الرحيم. إذ وهبهم هذا الحرم الآمن وجعل القلوب تهوي إليه وتحمل من الثمرات المتنوعة لتعرضها فيه. فهو إذن المؤمن الرزّاق الحقيقي وإن كان أكثرهم لايعلمون ذلك.

٥٨ ـ ولتذكر هؤلاء ـ ثانيا ـ بالسنة الإلهية التاريخية القائلة بأن الظلم وكفران النعمة عاقبته الهلاك والضياع والبقاء عبرة للآخرين الذين تهدمت مساكنهم فلم تسكن إلا قليلا ولم تورث وكان الله هو الوارث. وهكذا تنبيههم الى أن خوفهم من الفناء بيد الآخرين يجب أن لا يدفعهم لعدم الإيمان بالحقيقة وبالتالي التعرض للفناء بأمر الله.

٥٩ ـ وتلك سنة اخرى: ان الله لايهلك قرية او قرى حتى يبعث في مركزها رسولاً ـ بحيث يصل النداء إلى الجميع ـ يتم الحجة عليها ويتلو عليها آيات الله، فلا تستحق العذاب إلا لظلمها وعنادها وبعدها عن المنطق السليم.

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

٦٠ ـ ثم يردّ عليهم – ثالثا – بأنه ما قيمة ما يخافون فوته من سلطان ومتاع، إنه متاع وزينة دنيوية زائلة. اما ما عند الله فهو خير من ذلك وأكثر بقاءً وأثراً في الحياة لو كانوا يعقلون.

٦١ ـ إنّ هذا المتاع الدنيوي الزائل مع ما فيه من تبعات ومؤاخذة يوم الحساب لايقاس إلى ما وعد الله به من عطاء عظيم لابد وان يحصل عليه الموعود به.

٦٢، ٦٣ ـ وهناك في الآخرة يعرض موقف يجب أن يحسب له حسابه حيث يطلب من المشركين أن يحشروا عن الشركاء المزعومين لله ويعينوهم، فيجيب الشركاء المزعومون الغاوون عنهم قائلين إنهم وقعوا في الغواية والإنحراف فانجر أتباعهم ايضاً باختيارهم اليها، وأنهم يبرأون الى الله من ذلك العمل الباطل.

٦٤ ـ ومن جديد يؤمر المشركون تبكيتا بدعوة هؤلاء الشركاء فيدعونهم فلا يستجيبون ولايقدّمون دعما لهم فلا يجدون شيئاً الا العذاب وهو أمر كان عليهم ان يتوقعوه لو كانوا يعقلون.

٦٥، ٦٦ ـ ومرة أخرى يسألون عن حقيقة ما ردوا به على المرسلين، فلايملكون جواباً بعد أن كانوا غرقوا في العمى المحيط بهم وفقدوا قدرة التساؤل والإجابة.

٦٧ ـ في قبال صف الكفار المبتلى بالذهول والعمى والعي يبدو صف المؤمنين العاملين بالصالحات راجيا رحمة ربه وعاقبة الفلاح والخلاص.

٦٨ ، ٦٩، ٧٠ ـ ويعقب القرآن بجواب رابع على تبريرهم عدم ايمانهم بالخوف من فقدان سلطتهم لو آمنوا، فيذكر أن الامر كله بيد الله فهو يخلق مايشاء ويختار مايريد سواء في المجال التكويني أو التشريعي وحينئذ فليس لأحد أن يقيم طاعته لله على مصالحه التي يراها هو، لان الامر كله بيده وحده لاشريك له، وهو المحيط بالكون والانسان والعالم بما يخفيه الانسان او يعلنه، أنه الاله الواحد المتصرف المستحق للحمد في الدنيا والاخرة فاليه الامر والحكم تكويناً وتشريعاً واليه المرجع والمنتهى فلا معنى للعصيان والتذرع بالذرائع الواهية.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

٧١، ٧٢، ٧٣ ـ يذكّر القرآن هنا بنماذج في هذا الكون يعيشها الانسان ويألفها مما يستوجب الإيمان والحمد الدائم ولكنه يغفل أو يتغافل عن ذلك، انه تعاقب الليل والنهار. وكل منهما يؤدي أكبر الأدوار في حياة الإنسان ويبعث فيها السكينة والنشاط لتقوم بدورها الكامل. فيتساءل عن هذه الظاهرة ومدى ما يتركه ثبات الليل او النهار الى الأبد من آثار سلبية يشعر بها الإنسان العادي بوضوح، ويدركها العالم بشكل أعمق بكثير، لينبه الى رحمته ولطفه تعالى وتنسيقه لكل الظواهر المناسبة للحياة مما يستوجب أن يسمع الإنسان ويبصر ويتأمل فيشكره على نعماته.

٧٤ ـ ويعود للتذكير بيوم القيامة ونداء التبكيت المتسائل عن الشركاء المزعومين لله، وهل لهم من تأثير او دعم؟

٧٥ ـ ويوم يدعى من كل جماعة فرد شهد أعمالها فيطلب من هؤلاء أن يقدموا ما لديهم من براهين على مدعياتهم الباطلة، ولا أدلة ولابراهين، وليس هناك الا تجلّي الحق الالهي وبطلان الافتراءات المشركة.

٧٦ ـ بعد أن أبطل القرآن تبريرات المشركين وخوفهم من فقدان شوكتهم اذا آمنوا، جاء الحديث عن قارون ـ رمز الطغيان بالمال، كما كان فرعون رمز الطغيان بالقوة. فقد كان هذا من قوم موسى ولكنه سلك سبيل البغي واكتناز المال الكثير ومنعه من دوره الحياتي للمجتمع، وكان ماله كثيرا الى الحد الذي لاتستطيع مجموعة من الأقوياء أن تحمل مفاتيح كنوزه. وقد نصحه قومه بعدم البطر والفرح المفرط بهذا المال فان الله تعالى لايحب اصحاب هذه الحالة.

٧٧ ـ وطلبوا منه الاعتدال، واستخدام امكاناته لتحقيق الفوز بالآخرة مع عدم نسيان حظه من الدنيا والاستمتاع فيها بماله بشكل معقول، واتباع سبيل الإحسان شكراً لله على إحسانه اليه ومنحه هذا المال، والعمل على اصلاح الحالة الاجتماعية وعدم الظلم والبغي والفساد في الارض فالله تعالى لايحب المفسدين ولايشملهم بلطفه الكريم.

٧٨ ـ وازاء هذه النصيحة المبتنية على منطق الشكر لله على إحسانه، يأتي منطق قارون ليعلن بسخف وجهل أنه إنما حصل على هذا المال بسبب علمه وامكاناته الذاتية لاغير، جاهلاً أن هذا منطق الغرور المؤدي بذوي القوة — ومن كانوا أقوى منه واغنى — الى الهلاك والضياع بسبب إجرامهم وكفرهم بالنعمة.

٧٩ ـ وهنا يخرج قارون في زينته وتبختره ليبهر ضعفاء النفوس ممن يعشقون الحياةالدنيا وزينتها فيتمنّون أن يكون لهم هذا الحال، ويعتبرون قارون من ذوي السعادة والحظ العظيم.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

٨٠ ـ اما الواعون فقد أنبّوهم على هذا التمني الوضيع، وأشاروا إلى ثواب الله الواسع الباقي فهو خير من هذا التمتع الزائل، مما يدفع الانسان للإيمان والعمل الصالح والصبر في هذا السبيل للحصول على ثواب الله العظيم.

٨١ ـ وجاء الأمر الالهي فخسفت الارض به وبداره وفيها كنوزه الكثيرة دون أن يعينه أحد وينقذه من عذاب الله والخسران والضياع. وهكذا يخسر المال دوره الايجابي في الحياة فيتحول وبالاً وخسراناً وانحطاطاً.

٨٢ ـ وهنا أدرك المبهورون الضعفاء سخفهم وتفاهتهم حينما تمنوا الحالة القارونية، وعادوا الى رشدهم ووعيهم لقدرة الله وأنه هو الذي يبسط الرزق ويضيّقه كما يشاء. وراحوا يحمدون الله على أن لم يحقق لهم أمنياتهم الباطلة، فلم يرافقوا قارون في نكبته، وعلموا انه لن ينجح الكافرون في مسعاهم الباطل.

٨٣ ـ وهكذا تتقرر هذه الحقيقة الخالدة وهي ان العلاء في الآخرة انما هو لاولئك المتواضعين المصلحين في الارض، وان العاقبة الحق هي للمتقين لا المتكبرين الطغاة.

٨٤ ـ وهذا باب رائع للأمل يفتحه الله للمحسنين فان الحسنة تجزى بخير منها من الثواب اما السيئة فلا تجازي الا بما يعادلها فلا يلقى المسيؤون إلا حقائق أعمالهم الجهنمية.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سورة العنكبوت ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

٨٥ ـ بعد هذه القصص يأتي هذا الوعد الالهي الصادق لرسوله الكريم الذي حمل قرآنه الكريم وعمل به وربّى أتباعه عليه، بأن الله سيعيده الى مكة منتصراً على الشرك والمشركين معلناً أن الله ربّه وأنه الأعلم بمن سار على طريق الهدى ومن أصرّ على الضلال من المشركين.

٨٦ ـ انها رحمة الله الشاملة التي ألقت الكتاب للرسول بعد أن لم يكن يتوقع ذلك وقادته إلى النصر العظيم. وعلى ذلك فان عليه أن يستمر في دعوته ويتبرأ من خط الشرك والاجرام ولايتعاون معه مطلقا.

٨٧، ٨٨ ـ ويجب ان لا تقف في وجه الدعوة وحمل آيات الله الموانع والعقبات مهما كانت. والمنهجان منهج الدعوة ومنهج الشرك متمايزان لايلتقيان.

فيجب الاخلاص الكامل للتوحيد والإيمان بان الله تعالى وصفاته الكريمة من حياة وعلم وقدرة وماينتهي اليها من صفات الفعل كالخلق والرزق هو الباقي واما باقي ما عداه فهو الى زوال، وان الامر والحكم والقضاء النافذ له، وإليه ترجع الخلائق. وبالتالي فهو تعالى القادر النافذ حكمه في الكون، وكل القوى والطواغيت الى فناء.

سورة العنكبوت

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١، ٢، ٣ـ تركّز السورة على مسالة الاستقامة على الخط مهما كانت العقبات وهي تبدأ بالتاكيد على سُنّة الامتحان وأنها ضرورية للمسيرة فيجب ان يكون الجميع مستعدين له، ولايحسبوا إنهم اذ قالوا كلمة الايمان فقد قاموا بما عليهم، كلا فسيمتحنون كما امتحن غيرهم وكانت النتيجة ان امتاز فريقان عن بعضهما: فريق الصادقين، وفريق الكاذبين.

٤ ـ ويجب ان لايتصور الفاسدون المنحرفون أنهم قادرون على الافلات من عذاب الله. فانه تصور سخيف بالنظر لضعفهم، ولان الله أقام الكون على الحق والعدل.

٥ ـ اما الواعون الراجون للقاء الله ونيل عطائه فيجب أن يعمقوا هذاالرجاء في نفوسهم ويطمئنوا له لأنه تعالى هو القوي القادر والسميع العليم بكل شيء.

٦ ـ وليتاكد المؤمنون من ان جهادهم وعملهم بأوامر الله سيعود عليهم أنفسهم بالعطاء. فالله تعالى هو الغني المطلق عن العالمين فلاتضره معصية ولا تنفعه طاعة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

٧ ـ ويرتفع الأمل لدى المؤمنين العاملين للصالحات عندما يعدهم المولى الرحيم بالعفو عن سيئاتهم ـ وكل ابن آدم خطاء ماعدا المعصوم ـ وإيتائهم درجات تناسب أحسن أعمالهم.

٨ ـ وقد يبتلى الإنسان المسلم بأبوين كافرين مصرين على أن يرجعاه الى الشرك وحياة الجهل والضياع. وهي فتنة كبيرة يدور فيها الصراع بين العقيدة والعاطفة وواجب الاحترام الإنساني. ولاريب في لزوم عدم الإنجرار معهما الى الشرك والجهل، وان كان الاحترام ضرورياً والإحسان لازماً. هذا وسيعود الجميع الى الله ليعرفهم حقيقة أمرهم ونتائج اعمالهم.

٩ ـ تأكيد مجدد على مسيرة الصالحين وتحقيق أمل المؤمنين في الانضمام إليها وغفران سيئاتهم ومضاعفة جزاء حسناتهم حتى يلحقوا بالركب الصالح وتحقيق المجتمع المطلوب.

١٠، ١١: فان المواقف الصعبة تفرز وضوحاً وفصلاً بين الفريقين: المؤمنين والمنافقين وهؤلاء ناس يعلنون الإيمان ولكن يدركهم الضعف عندما يواجهون المصاعب في هذا الطريق فيساوون عذاب الناس بعذاب الله تخاذلاً وجهلاً. ولكنهم اذا واجهوا نصراً الهياً يتباهون بانهم كانوا ثابتين على الخط لتشملهم الغنيمة. ولكن يجب ان لاينسى هؤلاء علم الله بما تخفي الصدور لأنه محيط بها وأنه يعلم بخلجات النفوس.

١٢، ١٣ : وهذه لعبة اخرى للكافرين يمتحن بها المؤمنون خصوصا اولئك المستضعفون الذين آمنوا حديثاً. اذ يقال لهم عودوا الى صف الشرك لتحصلوا على امتيازاته في الدنيا فإذا كانت هناك تبعات او خطايا فان المشركين يتعهدون بتحمل هذه التبعات عنهم يوم القيامة. والحقيقة هي أن هذا كذب وافتراء، فالمسؤولية فردية، وسوف لن يحملوا عنهم أية تبعة، بل سيحملون تبعة اغواء الاخرين وثقلها بالاضافة الى تبعة انحرافهم وظلمهم وشركهم وكذبهم. وسيسألون يوم القيامة عن أكاذيبهم.

١٤ ـ ولكي يعطي القرآن بعض النماذج من حياة الانبياء وأممهم يذكر هنا قصة نوح النبي الصابر المثابر على دعوة قومه لابثاً فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً فلايلقى من اكثريتهم القاطعة الا الصدود والظلم وبطبيعة الحال فان عاقبة الظلم هي الفناء حيث عوقبوا بالطوفان.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

١٥ ـ وينجي الله النبي الصابر نوحاً وأصحابه في سفينة جعلت علامة تاريخية وعبرة تعتبر بها الأمم.

١٦، ١٧ ـ وهذا إبراهيم يطلب من قومه أن يعبدوا الله ويتقوا نقمته فيحصلوا على حياة إنسانية تفضل حياة الشرك البائسة، فليتأملوا في الامر فهم لا يعبدون إلا أصناماً وأحجاراً لاقيمة لها، وأوهاماً مكذوبة تافهة، يقيدون بها مسيرتهم، ويغرقون في الخرافة والسخافة. فهذه الالهة المزعومة لاتملك أن تهب الإنسان شيئاً. والتعقل يدعوهم إلى الاتجاه نحو الرزاق الحقيقي وعبادته وشكر نعمائه لتسعد حياتهم ويملكوا ما يحبون به حين يرجعون إليه.

١٨ـ فاذا أصرَّ القوم على التكذيب فقد اختاروا مصير الأمم المكذبة سابقاً وبالتالي فهم يتحملون وزر عملهم وما على الرسول إلا البلاغ الواضح.

١٩ ـ وباستدلال فطري واضح يخاطب القرآن على لسان ابراهيم كل المعاندين. فيذكّرهم بقصة خلق هذا الكون العظيم بكل ما فيه من ظواهر وعجائب متناسقة ومتناغمة تشير جميعاً الى الخالق الحكيم القادر، وبالتالي فان البادىء بالخلق قادر لا محالة على اعادته من جديد، وكل ذلك على القادر المطلق امر يسير.

٢٠ ـ فليسر الانسان في هذه الارض، وليتأمل عجائب الخلق في النفوس والآفاق وعندها سيكتشف روعة التناسق بين الانسان والحيوان والنبات والطبيعة وقوانينها وخصائصها ويؤمن بالله والاخرة (المبدأ والمعاد) والقدرة الالهية المطلقة على كل شيء.

٢١، ٢٢ ـ إليه تعود المسيرة البشرية فيحاسبها على أعمالها فيعذّب من يشاء ويرحم من يشاء، دون تحديد في القدرة وفق موازين العدل والإحسان، ودون أن يمنع من تحقق ارادته مانع من ولي أو نصير ، أو يفلت منها أحد او شيء في الكون كله.

٢٣ ـ وهكذا تتقرر هذه الحقيقة الكبرى وهي أن الفئة الكافرة بالله والمعاد فئة تائهة بائسة من رحمة الله منقطعة عن الحقيقة غارقة في العذاب الاليم.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ
بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى
مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ
وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

٢٤ ـ بهذا المنطق الفطري الرصين واجه إبراهيم قومه، فلم يملكوا معه الا التهديد بالقتل والإحراق، لينجيه الله من نارهم، ويبقى آية تدعم مسيرة الإيمان واليقين.

٢٥ ـ ويقف ابراهيم بصلابة أمام الطغاة المعاندين ليجبههم من جديد بسخفهم اذ اتخذوا أحجارا آلهة، لا لشيء إلا ليجامل بعضهم بعضاً والا ليحافظوا على سننهم واعرافهم الموروثة وتقاليدهم البالية في هذه الدنيا. وهم في الواقع يفرّطون في عقولهم وسعادتهم في سبيل ذلك، أما يوم القيامة فسوف تتساقط هذه المجاملات والتقاليد ويبدأ التلاعن والتنافر الذي لاينفع حينذاك إذ يساق الجميع إلى جهنم دون أن ينصرهم أحد.

٢٦ ـ وكانت حصيلة دعوته أن آمن له لوط النبي، وقد قرر بعد ذلك أن يهاجر من أرض الكلدانيين بالعراق الى ماوراء الاردن معلناً أنه انما يهاجر الى الله لاغير معتمداً عليه. وهو العزيز الحكيم فهو أهل للاعتماد والتوكل.

٢٧ ـ وهكذا كان الجزاء الإلهي لإبراهيم رائعاً وفيراً في المقياس الحقيقي. فقد وهبه الله إسحق وولده يعقوب وهما نبيان كبيران، وجعل في نسله النبوة والكتاب و بهما تهدى الاجيال الإنسانية الى العلاء والكمال. وبذلك نال أجره في الدنيا أن عاد و ذريته مناراً للهدى، وهو في الآخرة من الصالحين الفائزين.

٢٨، ٢٩ـ وهذا نموذج آخر من الامتحان: اذ يبتلى لوط النبي بقوم ابتدعوا الفاحشة وانحرفوا بها عن الفطرة السليمة حيث يشبع الرجال رغبتهم الجنسية باتيان الرجال دون النساء، خارقين بذلك هدف الغريزة الجنسية وهو إبقاء النسل الإنساني لتحقيق هدف الخلقة، قاطعين الطريق على الآخرين. فاعلين ذلك المنكر على رؤوس الأشهاد، وفي النوادي علناً، مما يكشف عن انحراف فطري كبير. ويزداد عنادهم بعد أن يستمعوا لتحذيره فيتحدونه ان يحقق وعيده ويأتيهم بعذاب الله ان كان صادقاً فيما توعدهم به.

٣٠ ـ فلا يرى لوط سبيلاً الا ان يتوجه الى الله طالباً نصرته على القوم المفسدين. ذلك ان الانحراف إذا بلغ مداه ولم يعد من المفيد معه وعظ وبلاغ فلا مناص من العذاب.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

٣١، ٣٢ ـ وهنا يعود القرآن إلى قصة إبراهيم الذي جزاه الله خيراً على جهوده المخلصة بان وهبه إسحق ويعقوب. وكانت هذه بشرى حملتها له الملائكة واخبرته ايضاً بأنها مرسلة لإهلاك أهل قرية لوط(سدوم) لأنهم ظلموا وانحرافوا.

وعندما قال لهم بأن فيها لوطا أكّدوا له أنهم أعلم بمن فيها وأنه سينجو مع أهله إلا امرأته التي كانت تقرّ جرائمهم فكان جزاؤها أن تبقى معهم.

٣٣، ٣٤، ٣٥ ـ وعندما دخل رسل الله على لوط وهم بشكل فتية حسني المنظر وهو يعرف ميول قومه ضاق بوجودهم صدره، وعلم الرسل منه ذلك، فطمأنوه وأعلنوا له أنهم سيصبّون العذاب عليهم بعد أن ينجوه وأهله إلا امرأته من هذا العذاب وهو إنزال حجارة ملوثة بالطين عليهم فتهلكهم نتيجة فسقهم. لتبقى ديارهم عبرة واضحة لمن أراد التدبر.

٣٦، ٣٧ ـ بعد ما سبق تأتي الاشارة الى قصة شعيب وأهل مدين، حيث دعاهم الى الايمان بالمبدأ والمعاد ونهاهم عن الفساد في الارض والاخلال بالموازين. ولكنهم كذّبوه فعوقبوا بعذاب الرجفة والاضطراب الذي أصابهم فعادوا موتى لاحراك لهم.

٣٨ ـ وهذه عاد وثمود كانوا من قبل على دين الفطرة يعبدون الله ولكنهم اتبعوا الهوى والشيطان فانحرفوا عن الخط المستقيم للإنسانية فكان عاقبتهم الهلاك والدمار، وهو ما كان العرب يشهدونه عند عبورهم على ديارهم الخاوية في جنوب الجزيرة وشمالها.

وتكرر هذه المشاهد من تأريخ الانبياء مع أممهم فيما سبق وفيما سيأتي انما هو لوروده في مواقع مختلفة من مراحل الدعوة، وكذلك لتأكيد، وحدة المسير والمصير للاعتبار والتذكر.

> وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٣٩ ـ وتشمل الاشارة قارون ـ رمز التكاثر المالي والبخل والاعتداد، وفرعون ـ رمز الطغيان والعتو والمكر ـ وهامان ـ رمز التبعية العمياء والزهو ـ وكلهم واجهوا الآيات البينات التي حملها موسى بالتكذيب والعناد والاستكبار في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كانوا قادرين على الافلات.

٤٠ ـ وتنوع العذاب لهذه الامم المكذبة: فابتلي البعض بحصباء الارض ، وابتلي الاخر بالصرخة المدوية المهلكة، وخسفت الارض بثالث، واغرق آخرون وكل ذلك نتيجة ظلمهم وفسادهم والا فان الله عادل رحيم.

٤١، ٤٢ ـ هذه هي حقيقة كل من اعتمد على غير الله، فهو ضعيف يركن الى ضعيف واه كالعنكبوت تستند الى نسيجها وهو لايملك أية قدرة أو حماية من حر أو برد أو هواء أو اعتداء أما القوة الحقيقية المطلقة فهي لله وحده، وهو العزيز الحكيم خالق القوى ومدبرها والمحيط بها وبأعمالها فيجب أن تلتجيء البشرية اليه وتستمد منه القوة والهدى.

٤٣ ـ إن العالمين المتأملين ليدركون عمق هذا التمثيل ومدى واقعيته وقوة تصويره للواقع. وان لم يدرك ذلك الآخرون.

٤٤ ـ وهذا هو الكون أمامهم فليتأملوه ويتعقلوه إنه بنظمه ودقته وقوانينه يعلن بوضوح أنه يقوم على أساس من دقة وحكمة وهدف وبالتالي فهو يقوم بالحق ويشير بكل وضوح إلى الحق، وهو مالايدركه إلا المؤمنون.

٤٥ ـ بعد ذكر الامم التي أفسدت في الارض وأشاعت المنكرات فأهلكها الله يؤكد القرآن هنا على السبيل السوي وهو تلاوة الكتاب الموحى به من قبل الله وإبلاغ رسالاته الحبية، واقامة الصلاة وإشاعتها باعتبارها بطبيعتها تنهى عن الخروج عن الحد، وإتيان المنكرات، وتثبت الإنسان على خط الارتباط المستمر بالله، وذكره تعالى، وهو أكبر قيمة في حياة الإنسان واكبر ضمان لاستمراره على خط التكامل؛ خط الاستمداد منه تعالى ومراقبته والحذر من غضبه وهو المحيط العليم بما يصنعه الإنسان.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

٤٦- تفتح الآية الكريمة باب الحوار مع أهل الكتاب على أساس التوصل للتوافق حول الأصول والثوابت وفي جو تتوخى فيه أحسن السبل وأشد الاحترام باستثناء الظالمين المعاندين منهم. وإشاعة للاجواء الايجابية معهم يؤمر المسلمون بأن يقولوا لهم بأننا في الوقت الذي نؤمن بما أنزل الينا (القرآن) فاننا نؤمن ايضاً بما أنزل اليكم (التوراة والانجيل...) اما الثوابت المشتركة بين كل الأديان فهي انها جميعا تمثل دعوة واحدة لعبادة الله الواحد وأن كل اتباعها يشكلون أمة واحدة عابدة لا تفرقها لغة او قومية او مكان او زمان وانما يجمعها التسليم لله الواحد.

٤٧- واستمراراً لإنزال الكتب السماوية السابقة يتزل هذا الكتاب الجامع (القرآن)، ومن الطبيعي أن يؤمن به أهل الكتاب لأنهم يعرفون أن مضامينه تصدق ماجاء في كتبهم، ويدركون عمق معانيه وبعض خلفياتها. كما ان بعض المشركين ينتقلون الى صف المؤمنين به لروعة معانيه وانسجامها مع الفطرة، وان كان البعض الآخر يصر على عدم الايمان لجحوده وعناده وتغلغل الكفر في وجوده.

٤٨- وقد عاش الرسول بينهم عمراً طويلاً وشهدوا أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب ولكنه جاءهم بهذا القرآن العظيم بعرضه وبمعانيه. فلا مجال للتشكيك في صدقه الا من قبل من تركز الباطل في نفوسهم.

٤٩- ان القرآن الكريم يحوي علائم ودلالات تنسجم معها صدور العالمين الواعين الطالبين للحقيقة ولا يمكن أن ينكرها إلا من تأصل الظلم في نفوسهم.

٥٠،٥١- وقد طلب الجاحدون من الرسول أن يأتي بالخوارق المادية متجاهلين أن القرآن يشكل أعظم معجزة إن شاءوا أن يصلوا الى الحقيقة، انه معجزة مستمرة خالدة لرسالة يراد لها أن تكون خاتمة خالدة، إنه الرحمة المستمرة والتذكير الدائم بحقيقة الكون وصحيح الإيمان. اما الخوارق فهي بيد الله إن شاء أعطاها وإن شاء منعها وما النبيّ الا منذر واضح بالحقيقة.

٥٢- وكفى بالله الذي انزل هذا القرآن بمعانيه السامية شهيداً على صحة الرسالة وهو العليم بكل شيء في هذا الكون وبسبل الفلاح الإنساني الحقيقية، وأما الذين تركّز الوهم والباطل والضياع في نفوسهم فهم أشد الخاسرين.

ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب
وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴿٥٣﴾ يستعجلونك بالعذاب
وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿٥٤﴾ يوم يغشاهم العذاب
من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون
﴿٥٥﴾ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون
﴿٥٦﴾ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴿٥٧﴾ والذين
آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري
من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴿٥٨﴾ الذين
صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٥٩﴾ وكأين من دابة لا تحمل
رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿٦٠﴾ ولئن
سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر
ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴿٦١﴾ الله يبسط الرزق لمن يشاء من
عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴿٦٢﴾ ولئن سألتهم
من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها
ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿٦٣﴾

٥٣،٥٤،٥٥- وهكذا يتأصل العناد في نفوس المكذبين فيستعجلون الرسول بإصرار أن يأتيهم بالعذاب الموعود تحدياً وعناداً وكبرا، الا ان هناك اجلاً مسمى يعلمه الله للبشرية وعلى اساسه يتم امهالها، وقد يكون الإمهال لاستدراج الظالمين او امتحان المؤمنين، او الإبقاء على بعض نسلهم من المؤمنين وما إلى ذلك من المصالح، والا فهؤلاء لو كان ينظرون بعين الواقع لأدركوا أن جهنم بمعانيها المختلفة تحيط بهم يوم يغطيهم العذاب ويبكتهم بما كانوا يعملون.

٥٦- ويتوجه القرآن - بعد تعنيفه للكافرين - الى الفئة المؤمنة المستضعفة، بخطاب كله لطف ومحبة بنسبتهم اليه (عبادي) طالباً منهم الهجرة فأرض الله واسعة، والمهم هو التوحيد وعبادة الله وحده فهي طريق الكمال الانساني الذي يجب ان يحافظ عليه اينما حل وارتحل.

٥٧- ولا داعي للخوف من الموت فالكل سيذوقونه حتى الباقون في ديارهم والكل سيرجعون الى الله ليشهدوا الحساب.

٥٨،٥٩- حيث يلقى المؤمنون الصادقون النعيم الأبدي في الجنة وهو خير اجر يمكن أن يحصل عليه العاملون الصابرون المتوكلون.

٦٠- ولا خوف من عدم توفر الرزق - عند الهجرة - فالرزق عند الله وهاهي أمامهم سبل الرزق متوفرة وهاهي الدواب في الارض لا تستطيع أن تعرف اساليب الرزق ولكن الله يوفره لها فلا معنى للخوف من عدم توفر الرزق بعد ان كان الله سميعاً عليماً بكل الحقائق.

٦١،٦٢،٦٣- ان المشركين يعيشون حالة من التناقض العجيب فهم من جهة يؤمنون بخلق الله للسماوات والارض وتسخيره للشمس والقمر وان بيده بسط الرزق او تحديده وانه العليم بكل شيء، وأنه المنزل للمطر من السماء ليحيي به الارض بعد موتها، ولكنهم من جهة اخرى يقعون فريسة للإفك والتمويه والضلال وعدم التعقل فيعبدون غير الله ويصدون عن سبيله.

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ ٣٠ — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٦٤- هكذا يجب ان ينظر العاقلون الى الحياة الدنيا فهي بمجرد لهو ولعب زائل فلا تقاس الى الحياة الأخرى فهي الحيوان الحقيقي والبقاء الذي لازوال له واللذة والسعادة الحقة ولذلك فليعمل العاملون.

٦٥- استمرار في عرض تناقضات المشركين وتخبطهم؛ فما أن يقعوا في موقف مخيف كأن يركبوا الفلك في بحر لجي عاصف حتى يدعوا الله مخلصين له الدينونة والطاعة. ولكنهم يعودون الى سفاهتهم وشركهم حينما ينجّيهم الله الى البر.

٦٦- تهديد بعذاب مجهول سوف يعلمونه بعد حين، بعد كفرهم بنعم الله وغفلتهم عنها وتمتعهم بشهواتهم.

٦٧- وهذه نعمة الحرم والأمان فيه رغم انه في منطقة رهيبة يكثر فيها السلب والنهب والاعتداء. الا تستحق الشكر والعودة الى الله المنعم ورفض الشرك والباطل.

٦٨- انه لظلم ما بعده ظلم أن يكذب هؤلاء ويفتروا على الله بالقول بالشركاء وانكار الحق والقرآن الواضحة حقيقته بعد أن كانوا يؤمنون اصلاً بالخالقية والرازقية والرحمة الالهية ويرون دلائل الصدق في هذه الرسالة ثم تدفعهم اهواؤهم للتكذيب والابتلاء بالتالي بعذاب جهنم فهي محل اقامتهم ومثواهم.

٦٩- اما المجاهدون الصابرون في سبيل الله فسوف تتفتح امامهم ابواب الهدى فيبصرون السبيل الى الكمال والعلاء . ويتمتعون بالقرب الالهي حيث ان الله يلازم المحسنين ليرعاهم ويسدد خطواتهم ويمنحهم الروح والريحان وجنات النعيم.

سورة الروم

تحدثنا عن البسملة وجزئيتها للسورة.

٥،٤،٣،٢،١- يشير القرآن الى حدث عاصر صدر الاسلام وهو انتصار الفرس المشركين على الروم المسيحيين مما اقلق المؤمنين فجاء هذا الوعد القرآني بقرب غلبة الروم على الفرس بعد اقل من عشر سنوات ليفرح المؤمنون بانتصار الجانب الاقرب لهم ولكثرة المشتركات معهم باعتبارهم أهل ديانة سماوية وأهل كتاب وتوحيد بعكس المشركين، ويعلموا أن الامر كله من قبل الغلب ومن بعده انما هو بيد الله وهو الذي يمنح النصر من يشاء واليه العزة والرحمة. والنص يكشف عن اهتمام القرآن بما يجري في العالم والاستفادة منها في تأكيد المفاهيم الاصيلة ومنها رحمة الله المستمرة لخط الإيمان. كما انه يمثل جانباً من الاعجاز القرآني من باب التنبؤ بالغيب وصدقه.

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

٦،٧- إنه وعد الله الذي لا يتخلّف رغم جهل الاكثرية اللاواعية بذلك فليطمئن أتباع الخط المؤمن به، وليثقوا بإيمانهم وليشعروا بأن الله معهم، اما هذه الاكثرية فهي تعلم بالظواهر الدنيوية وتغفل عن البواطن والحياة الآخرة.

٨- يجب ان يعود الغافلون الى وعيهم والا فالغفلة سبب ضياع الافراد والامم، فيتفكرون ويتأملون في نواميس الكون ومافيه من نظم وهدفية واضحة وتخطيط دقيق لأجل مقدّر تسير نحوه الحياة، الا أن الكثير من الناس يغفل عن هذه الحقائق الواضحة، فيكفر بلقاء الله والمعاد إليه. وللمرة الثانية في هذه الآيات كما في اماكن أخرى يلوم القرآن هذه الاكثرية الغافلة المتمسكة بالظاهر والبعيدة عن التعمق والتفكير، وقد تكون الأكثرية احياناً ذات قيمة ايجابية.

٩- نعم يجب أن تهزّ هؤلاء الغافلين عواقب من سبقهم وكانوا أقوى منهم واكثر تأثيراً وحرثاً وإعماراً للارض ولكنهم لما لم يستمعوا لصوت الحق ابتلوا بالعاقبة السيئة وظلموا أنفسهم بأيديهم.

١٠- ولا ريب أن عاقبة العمل السيئ لن تكون الا السوء، وقد يكون المراد ان العمل السيء يقود بالنهاية الى العقيدة السيئة وربما قاد العمل الحسن الى العقيدة الحسنة لوجود التفاعل بين العمل والايمان.

١١- إنها الحقيقة التي يجب إن تدركها البشرية بكل وعي، فهو المبدأ والمنتهى وسوف يعيد الخلق ليرجع اليه فيحاسبه على مسيرته الماضية والا كان الخلق عبثاً والعبثية محال في خلق الله.

١٢،١٣،١٤- حيث ييأس المجرمون فلا شفعاء لهم، ولا قيمة لما كانوا يشركون بالله بل هم معزولون عن بعضهم يعاني كل من مصيره الاسود كما يتميز خط الايمان عن خط الكفر.

١٥- فأما خط المؤمنين العاملين فهو فرح في النعيم.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

١٦- واما الكافرون المكذبون بالآيات والآخرة فسوف يغمرهم العذاب .

١٨،١٧- ان الكون والانسان يجب أن يسبح الله وينزهه ويحمده في كل حركاته وسكناته في صباحه ومسائه وعشائه وظهره وكل آنائه.

١٩- انه تعالى خالق الحياة والموت ومحيي الارض بعد أن تموت فلا معنى لانكار البعث وهو القادر على كل شيء.

٢٠- تذكير بآيات الله ونعمه على الإنسان: فقد خلقه من تراب لا قيمة له فاذا به يصبح انساناً له ميزاته التكاملية وحركته في هذا الكون.

٢١- وامتنّ على الانسان بخلق الازواج من نفس العنصر والمنشأ لايجاد السكينة والاطمئنان بينهما وليشعرا بالمودة والرحمة الخاصة لتقوم عليها العائلة الإنسانية لبنةً لقيام المجتمع الانساني الذي يحقق الخلافة الإنسانية في الأرض. ولا شك أن هذه المحبة التي يشعر بها الزوجان نحو بعضهما بعد علاقة الزواج انما هي من آيات الله التي يجب ان يتوقف عندها المتفكرون.

٢٢- وامتنّ على الانسان بخلق السماوات والارض بما فيها من القوانين التي لا تعدّ ولا تحصى وكلها يهيئ لحياة انسانية هانئة بهيجة متنوعة. وكان من ألطافه هذا الاختلاف في الالسن والألوان ليتم التعارف وتتوزع الادوار وتتحقق الاهداف من خلال الباقة الإنسانية باختلاف عطرها والوانها.

٢٣- ثم يأتي التذكير بنعمة النوم في الليل والتحرك النشط في النهار.

٢٤- والتذكير بالبرق المخيف والمبشر بالمطر الذي يحيي الارض بدورات المياه فيها.

انها آيات كبرى وظواهر لا متناهية تجمّعت كلها ليتحقق للحياة الانسانية الفضاء المناسب للتكامل، فيجب أن يفكر الانسان ويتأمل آياتها بعقله وعلمه ويسمع نداءها ودلالاتها بحيث يستحيل معها تصور الالحاد والعبثية.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

٢٥، ٢٦: ان السماء والارض تقومان وتتحركان بأمره تعالى وفق نظام دقيق لا يتخلف مما يوضح امام العقل دقة التخطيط وعظمة التنظيم وسعة القدرة الالهية ليتقبل بسهولة استجابة الخليقة للأمر الإلهي للخروج من الارض الى الحشر، كما يتقبل فكرة الخشوع الكوني بما في الكون من موجودات لله تعالى.

٢٧- فهو تعالى مبدأ الخلق يخلقه ويعيده من جديد بعد أن يبلى وهو اهون عليه من خلقه من العدم كما يتناهى الى الفهم البسيط والا فقدرته مطلقة لا يختلف فيها الخلق والإعادة. وهو تعالى يمتلك كل صفات الكمال وأعلاها بحيث يتقارن ذلك مع الاطلاق وحينئذ فرغم ان الإعادة للشيء في نفسها اهون من خلقه من العدم لكن ذلك لا يعني الفرق بينهما في الساحة الالهية ذات العزة والحكمة المطلقتين.

٢٨- مثل يضرب من حياة المشركين ملخصه أنهم لا يتصورون مشاركة عبيدهم لهم في الاموال التي رزقهم الله بها، ولا يتصورون ان يحسبوا لعبيدهم حساب الاحرار انفسهم او أن يخافوا منهم، فكيف اذن يتصورون بأن يشارك الله بعض عباده في الأمر وهو خالقهم ورازقهم؟!

٢٩- وحقيقة الأمر هي ان هؤلاء المشركين الظالمين لا ينطلقون من منطق معقول وانما يتبعون اهواءهم الدنيئة دونما علم او منطق، فهم خارجون من جادة الهدى بظلمهم فلا يستحقون الهداية ولا ينفعهم أحد.

٣٠- بعد كل هذا اللوم للمشركين يأتي هذا التوجيه الإلهي الرائع:

فيجب ان يتوجه النبيّ - وبعده المسلمون - بكل وجوده الى الله (حنيفاً) دونما ميل الى يمين او يسار منسجماً مع طبيعة تركيبته الانسانية التي خلقه عليها والتي تهديه الى الله وتوحيده والى عمل الخير وهو ما يتممه الدين المنسجم مع الفطرة لانه منطلق معها من نفس المنشأ ولا تبديل لتركيبة الفطرة بل تتناسق مع القيمومة الدينية على الحياة التي لا يلتفت إليها ولا يعلمها الاكثر من الناس.

٣١، ٣٢- والنتيجة هي الخضوع لله والصلاة والتوحيد والنفور من المشركين المتفرقين شيعاً وجماعات وكل حزب وفرقة منها تفرح بما لديها فقط دون النظر إلى ما عند الآخرين من أدلة وحجج.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٣٣- تعبير عن حالة نفسية إنسانية منحرفة إذ ترجع الى ربها متضرعة داعية عندما يصيبها ضرر مهما كان قليلاً. فإذا شملتها رحمة نسيت حالتها الأولى وربما أشركت بالله.

٣٤- الا أنها حالة انحرافية خطيرة اذ تعني اضطراباً نفسياً وكفراً بنعم الله مما يستوجب التهدد الالهي، وعليه فيجب الثبات على الحق واعتبار اللجوء إلى الله في حالة الضر دليلاً فطرياً على التوحيد.

٣٥- وبتهكم يسأل هؤلاء عن الدليل الذي خولهم ان يقولوا كلمة الشرك.

٣٦- وهذه حالة أخرى تشير الى فرح البعض فرحاً مبطراً عندما يتذوقون رحمة ما فإذا أصابتهم سيئة نتيجة بعض أفعالهم تستولي عليهم حالة اليأس وهي حالة سطحية تكشف عن ضعف في الفهم والعقيدة.

٣٧- والحقيقة أن الرزق بيد الله يبسطه تارة ويحدده أخرى طبق قوانين ثابتة فالمطلوب السعي من جهة وإيكال الأمر إليه دونما بطر أو يأس.

٣٨- ومن هنا ينطلق مبدأ الإنفاق على أساس عقائدي سليم فيطلب من المؤمن أن ينفق على ذوي القربى لتأصيل العلاقات الاجتماعية، واذا كانت الآية مدنية فالخطاب للرسول يعني ايتاء الخمس لذوي القربى وهم اهل البيت(ع) ، وكذلك الانفاق بارادة وجه الله والتقرب إليه على المسكين وابن السبيل المنقطع عن أهله وبلده لسد الخلل الاقتصادي في المجتمع وتحقيق ارادة الله في سريان التكافل الاجتماعي مما يؤدي الى الفلاح والازدهار الفردي والاجتماعي.

٣٩- أن قصد القربة في الانفاق توجهه الوجهة الصحيحة لسد الخلل الاجتماعي لدى المحتاجين وبالتالي يأتي النماء والثواب الإلهي مضاعفاً. أما اذا أريد به أن يؤدي الى عائد مالي اكبر من خلال اعطائه الى الاغنياء او استخدام طرق أخرى من الربا وأمثاله فليس يحظى بالثواب الإلهي ولا يكون هو الانفاق المطلوب.

٤٠- انها حقائق لا يملكون المماراة فيها: فالله هو الخالق والرازق والمميت والمحيي ولكن هل يستطيع الشركاء المزعومون أن يفعلوا ذلك؟! ان الله منزه متعال عن ان يكون له شريك في ذلك.

٤١- وهذه سنة كونية يخبرنا عنها القرآن: فأعمال الناس السيئة تترك آثارها الوضعية في حياتهم المادية بالاضافة لآثارها المعنوية، وهي حقيقة لو أدركها الناس ازدادت دوافعهم للامتناع عن المفاسد والعودة الى طريق الخير.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

٤٢- وتأكيداً للحقيقة المذكورة في الآية السابقة يدعو القرآن للسير والسياحة في الارض للاطلاع على ما أصاب الامم المفسدة من ضياع ومصائب بسبب انحرافهم عن طريق الله والاشراك به، وليستفيدوا من تجارب الآخرين.

٤٣- فالعودة الى الله هي السبيل القويم والتسليم لله ودينه القويم وتحكيم قيمومته على الحياة هو طريق النجاة من مشاكل الحياة قبل أن تأتي اهوال يوم القيامة حيث تصدع الخلائق وتقسم فهذا فريق الى الجنة وذاك الى النار.

٤٤- حيث يتحمل الكافرون وزر كفرهم ويمهّد الصالحون سبيل الفوز لأنفسهم وبذلك يشعر المؤمن بأنه اذ يعمل الخير فانه يحقق مصالحه الذاتية أيضاً.

٤٥- فيشمله فضل الله في حين يطرد الكفار من رحمة الله.

٤٦- ويعود القرآن لبيان فضل الله ورحمته في الكون على الإنسان ويذكر هنا الرياح التي تبشر بالخير والعطاء في حركتها العالمية. فبها تتحرك السحب وبها تنظم الحرارة وبها تجري الفلك وفق القوانين الإلهية في الكون، وبها تهتز الامواج وبذلك تنتظم حركة التجارة البحرية، كل ذلك مما يدعو الانسان الى الشكر واللجوء الدائم الى الله.

٤٧- وإرسال الرسل مظهر عظيم من مظاهر اللطف والرحمة اذ بها تقوى العقول وتتوضح المعالم بالتفصيل ولكن المجرمين يبدلون نعمة الله كفراً فينتقم الله منهم وينصر الخط المؤمن عبر التاريخ. وهذا الانتصار للمؤمنين من الوعد الإلهي الذي لابدّ أن يتحقق وإن بصور مختلفة معنوية أو مادية في الدنيا أو في الآخرة.

وفي هذا مزيد من القوة والأمل عند المؤمنين وهم يخوضون ساحات المواجهة مع الأعداء.

٤٨،٤٩- ويعود القرآن الى نعمة الرياح فيفصل بعض ادوارها المهمة: حيث تحمل بخار الماء من البحار فيتحول الى سحاب منبسط في السماء ثم يتراكم (كسفاً) ويتصادم مما ينتج المطر (الودق) وهو سر الخير والحياة والبشر وطهر الأجواء بعد أن كان الناس الذين ينتظرونه قلقين يائسين (مبلسين).

٥٠- إنها آثار رحمة الله التي تدعو للتأمل في نموذج الاحياء الماثل أمام الناس والمعبر عن قدرته تعالى المطلقة ومنها قدرته على إحياء الخلق ليوم الحساب.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٥١- فإذا جاءت الريح مصفرة فيها تراب او كانت جافة يصفر النبات بعدها فانهم يكفرون حنقا ويأساً بدلا من التسليم لقدر الله .

٥٢،٥٣- فينبغي أن لا يهتم الرسول بالذين فقدوا قابلية الهداية، إنهم كالموتى والصم لا يسمعون مطلقا لأنهم أدبروا عن الحق عناداً فلا سبيل الى دعوتهم فحتى الصم يمكن تنبيههم بالإشارة مثلاً. وكالعمي لا يبصرون فلا أمل فيهم، إنما الامل فيمن أعدّ نفسه للوصول الى الحق اذا تبين له والتسليم له.

٥٤- هكذا هو الإنسان يبدأ من شيء هو في غاية الضعف والمهانة (الخلية) فيعطيه الله القوة حين يبلغ أشده انساناً شاباً قوياً واسع الذهن مفكراً مفتول العضلات ثم يعرض عليه ضعف الشيخوخة والشيبة.

انه قانون الهي للخلقة يجب أن يتأمله المرء في كل حالاته ليؤمن بقدرة الله وعلمه.

٥٥- وحين تكون القيامة يكتشف المجرمون المخدوعون الحقيقة فيؤكّدون أنّ الحياة الدنيا او مدة بقائهم في القبور لا تعدل الا ساعة امام هذا الموقف العظيم الممتد ويكتشفون كم كانوا عليه من إفك وضلال إذ استبدلوا الخلود بتمتع ساعة. وربما تصور هؤلاء أن الحياة الدنيا مازالت مستمرة رغم قصرها بالقياس إلى أيام الآخرة.

٥٦- ليردّ عليهم اهل العلم والإيمان بأنهم انما لبثوا في تقدير الله إلى يوم القيامة الذي كانوا ينكرونه ويغفلون عن حقيقته.

٥٧- ولكن هل ينفعهم اعتذارهم بالغفلة ووقوعهم تحت تأثير الأفاكين؟! وهل يكفي العتاب عليهم؟ كلا انه يوم الحساب والعقاب.

٥٨- هذا هو اسلوب القرآن: يضرب الامثال، ويستخدم مختلف الاساليب، ويعمل على ايقاظ الغافلين وتنبيه النائمين ولكنهم وقد ران على قلوبهم الزيغ والكفر يكذّبون كل آية ويتهمونها بالبطلان .

٥٩- انها القلوب التي استسلمت للعمى وآثرت الضلال فطبع الله عليها وتركها في جهلها المطبق.

٦٠- انه الموقف الذي يؤمر به الرسول بعد هذه الرحلة من التكذيب والعناد: انه الصبر والأمل المؤكد بتحقق الوعد الالهي بالنصر، وعدم الاكتراث او الوهن نتيجة عناد من صمموا على ان لا يؤمنوا.

وقد بدأت السورة وختمت بالوعد بالنصر للمسلمين كما تحقق للروم من قبل.

سورة لقمان

مر بنا الحديث عن البسملة.

٢،١- هذه هي آيات الكتاب المليء بالحكمة والمتناسق بإحكام معجز رغم ان تركيبته من هذه الحروف المعروفة.

٣- انه يهدي البشرية الى سبل علائها، ويربي العقول والمشاعر لتوجد سلوكاً إنسانياً مهتدياً فهو حامل الرحمة ومنبعها لكل من يرغب في سلوك سبيل الإحسان.

٤- انه سبيل متقوم بإقامة الصلاة الرابطة للإنسان بالمطلق الحق، وايتاء الزكاة الكاشف عن الترابط الإجتماعي الحق، واليقين التام المؤكد بالآخرة وحوادثها والذي يصبغ المسيرة بالهدفية.

٥- انها مسيرة الهداية الإلهية الأصيلة والفلاح الإنساني الكامل.

سورة لقمان
بسم الله الرحمن الرحيم
الم ① تلك آيات الكتاب الحكيم ② هدى ورحمة للمحسنين ③ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ④ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ⑤ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ⑥ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ⑦ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ⑧ خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ⑨ خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ⑩ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ⑪

٦- اما الضالون فهم غارقون بطلب اللهو والباطل. والأنكى أنهم لا يكتفون بضلالهم هم بل يعملون على التصدي لمسيرة الهدى بطرح أحاديث اللهو وقصص الفجور في قبال آيات الحق، والاستهزاء بها مما يجعلهم مؤهلين للعذاب المشين والهوان.

٧- ويتمادون في العناد بالاستهانة بآيات الله، والاستكبار عليها وعدم الاستعداد لسماعها وكأن في أذنيهم ثقلاً وكل ذلك يسوقهم للعذاب الاليم.

٩،٨- اما المؤمنون العاملون للصالحات بطبيعتهم فهم السالكون الى جنات النعيم حيث الخلود وهو أقصى ما يتمناه الإنسان.

انه وعد الله الحق والله عزيز حكيم قادر على تنفيذ وعده.

١٠- انه تعالى خلق السماوات وفق قوانين لا تحصى ولا يدركها ولا يراها الإنسان، ومهّد الارض له بحركة متوازنة عبر السلاسل الجبلية التي أقرت على سطحها، وهيأ لبيئة مناسبة لحياة الإنسان تدب عليها مختلف الدواب، وأنزل من السماء مطراً ينبت به أنواع النبات الكريمة في عطائها بمقتضى قانون الزوجية الشامل.

١١- انه خلق الله وتدبيره المناسب لحياة الانسان بدقة متناهية لكن ماذا صنع الشركاء المزعومون؟ لاشيء هناك الا الظلم والضلال.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

١٢- ما يستفاد من الروايات أن لقمان لم يكن نبياً ولكنه كان رجلاً جاداً متعبداً رزق الحكمة[1] بمعانيها السامية وتتلخص في المعرفة النافعة والوعظ الجميل ووضع الشيء في موضعه والشكر الجميل لله. فالحكيم يعي الحقيقة فيشكر المنعم وبالتالي تسمو نفسه اما من لا يشكر فانه لا يضر الا نفسه والله غني عن عباداتنا وشكرنا وله مطلق الحمد.

١٣- ومن هنا كان نهيه لابنه عن الشرك أول وعظه، فهو إنكار للمولوية وظلم للوعي والعقل والفطرة وكفر بكل الهبات التي منحها الله للإنسان وهو مفتاح البلايا والشرور.

١٤- إستطراد قرآني بالتأكيد على حقوق الوالدين لربط شكرهما بالشكر لله لان لهما نوعاً من الإنعام في طول نعمة الله، ولما فيه من تقوية العائلة وهي الحجر الاساس لبناء المجتمع، ويتم التركيز على الأم لشدة عنائها وتحملها لأنماط الضعف الناتج من الحمل والرضاع والفطام بعد عامين والتربية الشاقة. وتختتم الآية بالتذكير بالقيامة وأهوالها ليتأكد الشكر.

١٥- ان للوالدين حقهما العظيم ولكن العقيدة اقوى من هذه الرابطة فإن أمرا بشرك فلا معنى لطاعتهما ولكن من غير جفاء ولا عنف ولا هجر، فليلتحق المسلم بسبيل الصالحين المنيبين الى الله ولكن يصحبهما بالمعروف. وهذا يعبر عن واقعية الاسلام وأخلاقيته.

١٦- ويستمر وعظ لقمان لابنه وتذكيره بعلم الله الواسع الدقيق فلو كانت هناك حبة خردل صغيرة مخلوطة مع غيرها ومخفية في صخرة او تائهة في السماوات الواسعة او الارض الرحيبة فانّ علمه يشملها ويجلبها فهو بها لطيف خبير.

١٧- هذه هي أصول الاخلاق الفاضلة إنها تتلخص في اقامة الصلاة لتذكر دائماً بالله وتبعد عن الغفلة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في الشدائد وبذلك ينطلق المرء قوي القلب ناشراً الخير.

١٨- ثم يأتي النهي عن الاعراض عن الناس تكبراً والمشي بخيلاء تبختراً وافتخاراً بالباطل . وكل ذلك مبغوض من قبل الله لأنه يسبب تفكيك العرى الاجتماعية المبنية على المحبة والتكافل والتواصل وكذلك فانه لا ينسجم مع الخلق الكريم.

١٩- والأمر بالاعتدال في السير والغض والتقليل من علو الصوت تواضعاً وابتعاداً عن التشبه بالحمير والبعد عن الانسانية الرزينة.

١ - راجع بحار الأنوار ج ١٣، ص ٤٢٤.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٢٠- وهكذا يؤكد القرآن في كل مناسبة على عدم الغفلة عن الظواهر التي أعدها الله للانسان والتي لا تحصى وهي تملأ الكون نعماً تامة قد يدركها الانسان وقد تخفى عليه ولكنه يلحظ في هذا النظام التخطيط، الهائل الدقيق الذي يمهد للانسان بقاءه وهناءه. في حين يبلغ السخف بالبعض ان يجادلوا في آلاء الله جهلاً وعمى بلا دليل او برهان.

٢١- فإذا طلب منهم ان يشكروا هذه النعم ويتبعوا أوامر الله التي نزلت هدىً ورحمة اعرضوا بجهلهم وادعوا أنهم يسيرون سيراً أفضل باتباع سنة آبائهم ولكن السؤال: هل من المنطق ان تتبع سنتهم حتى لو كانت تقود الى الضلال والنار؟ اذن يجب التقييم اولاً ثم يتم الاتباع.

٢٢- ان الانسان يجب ان يسلم زمام أموره الى المنعم المتفضل المالك الذي تعود اليه الأمور وهو الله فمن فعل ذلك فقد سلك السبيل المنطقي الأقوم، واستند إلى عروة وثيقة.

٢٣- أما الكافرون فيجب ان لا يأسى النبي عليهم وسوف يعودون الى الله وينبئهم العليم الخبير بمكنونات الصدور بما عملوه ويحاسبهم عليه.

٢٤- انهم في قبضة الله وتحت قدرته فهو يمتعهم قليلاً لحكمة منه ثم يأخذهم الى العذاب الشديد.

٢٥- إنهم من جهة يصدقون بأن الله هو خالق الكون ومن جهة أخرى يقودهم جهلهم الى الشرك والفساد والعصيان.

٢٦- إن الله اذ يأمر وينهى ويرشد الانسان لا يريد أن يكرس ذاته او يحصل على شيء والعياذ بالله فهو الغني وله الحمد المطلق وانما يريد ان يتفضل على الانسان فيصلح نقصه.

٢٧- انه تعالى مصدر النعم والفضل والعطاء كله فلو أمكن التعبير عن افضاله بكلمات، وكانت الاشجار ومكوناتها أقلاماً، والبحار تمدها سبعة اضعافها (تعبيراً عن الكثرة) مداداً لما استطاعت أن تكتب تلك الكلمات ولما نقص من ملكه شيء فهو العزيز المطلق والحكيم المطلق. وقد تكون الكلمات هنا تعبيراً عن اسرار الكون والحياة وقوانينهما.

٢٨- لا يختلف لديه ان يخلق او يبعث من جديد نفساً واحدة او يخلق ويبعث الكون كله إنه العليم السميع البصير بكل شيء.

ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴿٢٩﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿٣٠﴾ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿٣١﴾ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴿٣٢﴾ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴿٣٣﴾ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴿٣٤﴾

سورة السجدة

٢٩- ويتابع القرآن تذكيره للإنسان بالنعم العظمى فيذكر هنا بظاهرتي الليل والنهار واندماجهماالرائع ابداً طولاً وقصراً والمرتبط بحركة الشمس والقمر الذين سخرا بأسمى دقة ولكل منهما مسير محدد لا يتخلف مما يوضح التدبير والقدرة والرحمة الالهية بكل جلاء.

٣٠- كل ذلك لانّ الله هو الحق والثبوت ولطفه وتدبيره وصفاته هو الحق الذي يقوم ويدوم به الكون وأنّ ماذكر وزعم له من شريك هو الباطل الداني فهو تعالى في غاية العلو والكبر وكل شيء مهما كبر وعظم نسبي دانٍ محتاج إليه، وبالتالي فهو عالٍ على كل نقص ومتسع لكل كمال.

٣١- وهنا إشارة لقوانين حركة السفن وما اكثرها واعظمها في الأرض والرياح والمياه بل ومواقع الشمس والقمر فليتأملها الإنسان وليثبت على ايمانه صابراً في الشدائد شاكراً على كل حال.

٣٢- دون أن يكون متقلباً يؤمن بالله ويلجأ إليه عند ما يغطيه الموج كالسحاب فإذا منّ الله عليه وانجاه الى بر الأمان راح البعض يجحد بآيات الله نتيجة غدرهم الشديد وعنادهم وكفرهم.

٣٣- في ختام السورة تأتي الآيات - عادة - لتلخص رسالتها. فيطلب من البشرية هنا أن تتقي الله وتخشى يوم القيامة الرهيب الذي تتقطع فيه العلائق ولا يغني فيه والدعن ولده ولا ولد عن والده شيئا وحيث يتجلّى وعد الله وهو حق لا يتخلف، فلتحذر البشرية من أساليب الشيطان واغراءاته والغفلة التي ينتجها التعلق بالدنيا ووساوسها. وليحذروا حلم الله وأناته وامهاله.

٣٤- ويأتي التأكيد على علم الله الخاص بالساعة والقيامة وحوادث الزمان من نزول المطر وما تحمل كل أنثى وآجال النفوس وما تكسبه فليسلم الخلق امرهم اليه وليرقبوا علمه فيهم وليعلموا أن الكون بماضيه وحاضره ومستقبله حاضر لديه، أماهم فجاهلون بما سيكسبونه في الغد، وفي أي مكان سيموتون، في حين أن علم الله يشمل كل الأمور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

سورة السجدة

مر بنا الحديث عن البسملة.

٢،١- إنه الكتاب المعجز رغم تأليفه من الحروف العربية المعروفة: وأي تأمل فيه ينفي الريب في كون مصدره الهياً وكونه من رب العالمين.

٣- ولاقيمة لتشكيك المشككين لوضوح كونه الحق من الله نزل بلطف منه ليحذر قوماً لم يبعث فيهم نذير من قبل وان كانت دعوة الأنبياء قد بلغتهم، يحذرهم من اتباع الوثنية ويهديهم الى العبودية المطلقة لله.

٤- فهو تعالى خالق السماوات والارض في ستة مراحل يعلمها الله ودبّر الكون من نقطة معينة هي محوره فكل شيء ينسجم مع هذا المحور بأمر الله وحده فلا ولي للكون والانسان إلا هو ولا شفيع بمعنى تسبيب الاسباب ومنح نظامها كله الوجود غيره .

٥- من العرش حيث تمركز القدرة الالهية وتجليها ينطلق التدبير الكوني بمقاييس لا نعهدها وبأيام تفوق تصورنا وتتفوق على أيامنا بكثير فلا ندرك معناه لكننا نقف أمامه مدهوشين كما نقف كذلك أمام هذا الكون الرحيب.

٦- إنه تعالى عالم الغيب كما هو عالم الشهادة له مطلق العزة والرحمة .

٩،٨،٧- منح كل شيء في الكون وجوده وقدره أحسن تقدير ومن الاشياء هذا الانسان المكرّم الذي تدرج به من طين لا قيمة له، ثم استمر تسلل الانسان في عصارة هي ماء مهين (المني) وتكامل في خلقه وتصويره حتى استحق نفخة الروح الإلهية واعطيت له كل وسائل المعرفة وهي السمع والأبصار والافئدة أي القلوب الواعية فبلغ احياناً اسمى مرتبة يمكن ان يصل اليها موجود ممكن كما في مراتب الأنبياء. انها مسيرة يقف امامها الفكر اكباراً واعجاباً وشكراً ولكن يقل الشاكرون.

١٠- وتثور في البعض الوساوس الشيطانية فيشكون في البعث بعد أن يموت الانسان وتضمحل اجزاؤه ضالة في هذه الارض الرحيبة وهكذا ينسى الانسان قدرة الله ويدخل في عداد الكافرين.

١١- ويأتيهم الجواب كامناً في قدرة الله وملك الموت المنفذ لأمر الله فيقبض ارواحهم ثم ليرجعهم جميعاً الى الله.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

١٢- منظر من مشاهد القيامة يبدو فيه المشركون المجرمون مطأطئي الرؤوس أمام ربهم العظيم خجلاً وهواناً معترفين بخطئهم مؤكدين أنهم استوعبوا الحقيقة طالبين العودة الى الدنيا ليعملوا صالحاً بعد حصول اليقين لهم .

١٣- ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ولكن حكمته شاءت أن يختار الانسان الهدى بارادته وبذلك يتم التكامل وتبرز كوامن النفوس ويتميز الإنسان عن غيره ومن هنا خير الانسان بين السبيلين وقام البعث والجزاء وكانت جهنم مثوى الكافرين من الجنة والناس.

١٤- وزجٌ بالمجرمين المنكرين للبعث والناسين ما اقتضته عقولهم فاستحقوا أن ينساهم الله - بتركهم وشأنهم - وأن لا يأبه بهم فيذيقهم عذاب الخلود نتيجة أعمالهم.

١٥- والمؤمن الحق هو ذلك الانسان الذي اذا ذُكّر بآيات الله خر ساجداً وسبح بحمد الله خاضعاً متصاغراً دون استكبار ، وهكذا لا يكون الإيمان أصلاً الا إذا نفذ الى الاعماق والمشاعر. (وفي قراءة هذه الآية سجدة واجبة).

١٦- انهم يتركون النوم في الليل ويلجأون للصلاة والمناجاة والدعاء خوفاً وطمعاً ويؤدون ما عليهم من حقوق مالية تجاه الآخرين مما رزقهم الله تعالى بدوافع إيمانية ذاتية.

١٧- وحينئذ يستحقون ثواباً عظيماً لا يعلمه إلا الله تقر به أعينهم وتتحقق به آمالهم الكبرى.

١٨- من الطبيعي أن يختلف خط الإيمان عن خط الفسق ذلك ان الانسان كل مترابط فأيّ تغيير في القناعة النفسية يترك أثره على العواطف والسلوك بلاريب، والبعد عن الفطرة يقلص الصفات الانسانية حتى يمحوها.

١٩- ومن هنا يحقق المؤمنون بعملهم الصالح كل مسببات الحضور في الجنان .

٢٠- أما الفاسقون فلهم الانحطاط المستمر الذي يوصلهم الى عذاب النار الرهيب الخالد الذي لا مخرج ولا مفرّ منه نتيجة تكذيبهم.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سورة الأحزاب ٣٣

٢١- وسوف يتألم العذاب الأدنى في هذه الدنيا قبل العذاب الأكبر في الآخرة لعلهم يثوبون الى رشدهم ويتوبون ويرجعون الى الله.

٢٢- لا ظلم أكبر من ان ينكر الانسان عقله وفطرته فيتكبّر أمام آيات الله التي تقبلها العقول وتنسجم معها الفطرة، وحينئذ فالإعراض جريمة كبرى وتمزق في الشخصية يجعلها مستحقة للانتقام الالهي.

٢٣- ينتقل القرآن لذكر موسى فيؤكد وحدة المنطلق بين الدينين وحقيقة اللقاء بين الرسولين الكريمين ووحدة الهدى الذي جاءت به التوراة الاصيلة وجاء به القرآن.

٢٤- ويذكر هنا القادة الهداة بأمر الله لبني اسرائيل بعد أن قدّموا امتحانهم العملي بالصبر والفكري باليقين والإيمان بالتوراة وحقائقها. وفي الآية تربية للمسلمين على الانصاف والعدل في التقييم وعرفان الفضل لأصحابه رغم عداء اليهود ومواجهاتهم الحاقدة للاسلام وأهله.

٢٥- وقد حدثت في بني اسرائيل اختلافات والله تعالى سيفصل بينها يوم القيامة كما أنّ القرآن ذكر القول الفصل في بعض ذلك.

٢٦- وهؤلاء المكذبون بحقائق الإيمان وبمجيء العذاب أليس الأهدى لهم أن يلاحظوا آثار القرون المكذبة الماضية وهاهم يتجولون في مساكنهم ويشاهدون آثارهم، وأليس الأجدر بهم أن يعتبروا بها ويستمعوا الى صوت الحق.

٢٧- ألا ينظر الناس الى نعم الله المحيطة بهم ومنها حركة الماء ودورته في الطبيعة حيث يجلب الخير معه الى الاراضي اليابسة (الجرز) فتنبت النبات الذي تأكل وتشبع منه الأنعام والاناس ولولا ذلك لما استمرت الحياة.

٢٨، ٢٩- ثم هم يتساءلون: متى يتم الفصل ويتحقق الوعد الإلهي؟ مكذبين مستبعدين له فيؤمر الرسول باخبارهم بأنه لا ينفعهم إذا جاء فلا مجال حينئذ للإيمان النافع والمنجي من العذاب ولا مجال لتأخير العقاب.

٣٠- فينبغي ان يعرض الرسول عن المعاندين ويهددهم بانتظار العذاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

سورة الأحزاب

مر بنا الحديث عن البسملة

١،٢،٣- خطاب للرسول الكريم - ومن بعده للمؤمنين - بضرورة ملاحظة تقوى الله ورفض طاعة الكافرين والمنافقين ومهادنتهم والاستماع الى آرائهم. وكان بعض الكفار يقترحون أن يتركوا و آلهتهم فيتركوا المسلمين و الههم، فنهى القرآن عن ذلك وأكد على اتباع الوحي والتوكل على الله وكفى به وكيلا.

٤،٥- ان القلب وعاء واحد بتوجهه وقناعاته فلا يجتمع فيه متناقضان وميزانان ولا يمكن الفصل بين قناعات الانسان واحساساته وسلوكه - كما يدعي البعض - والانفصام الشخصية. وهذه النظرة توضح التناقض بين التقوى وطاعة الكافرين كما تشكل مقدمة لرفض الظهار وهو ان يقول الشخص لزوجته: أنت عليَّ كظهر امي، فينفرط عقد الاسرة وهي عادة جاهلية ألغاها الاسلام . وكذلك رفض التبني الجاهلي بحيث تترتب على الدعي احكام الولد الصلبي وبهذا أقام الاسلام مبادئ أسرية جديدة وقاية للعائلة واعترافاً بدورها لبنة اصيلة لبناء المجتمع.

فلا يمكن التلاعب بها بالالفاظ بل توضع الامور في نصابها فيدعى الأفراد بآبائهم الذين ولدوهم فذلك منسجم مع العدالة فإذا لم يعرف آباؤهم فهم اخوة في الدين والموالاة ، وبهذا تقوم الاسرة على أساس طبيعي هو النسب. وقرر القرآن ان لا جناح إذا حدثت أخطاء من قبل، والمهم أن لا يتعمد الإنسان أن يذنب والله هو الغفور الرحيم.

٦- ويتقرر هنا مبدأ اولوية النبي في كل شيء على نفوس المؤمنين حتى في المجال العاطفي حيث يتقدم حبه على حب النفس فهو اولى في الشؤون الدنيوية والأخروية. كما يتقرر مبدأ آخر وهو اعتبار ازواجه امهات للمؤمنين في مجال التعظيم وحرمة الزواج لا في مطلق احكام الأمومة، ثم تم الغاء نظام المؤاخاة الذي قرر لفترة ما بعد الهجرة وبنيت العلاقة على أساس النسب فقط وان كان للفرد أن يوصي لوليه بشيء من المال في حدود الثلث من التركة.

وكل هذه الاوامر قائمة على أساس تشريع إلهي مسبق.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

٧- هذا ميثاق وعهد خاص أخذه الله من النبيين جميعاً بما فيهم الرسول الاكرم وأولو العزم وهو ميثاق قوي لا يقبل التخلف: إنه ميثاق الوحدة والاستقامة والشهادة.

٨- فالجميع مسؤولون: الصادقون عن صدقهم، والكافرون عن انحرافهم.

٩- يشير القرآن هنا الى بعض أحداث غزوة الخندق ودروسها في تحقق مقتضيات العهود. فيذكر بنعمة الله فيها حيث هجوم العدو المدجج بالسلاح وحيث لطف الله بارسال الريح والجنود غير المرئيين وهزيمة العدو، وكون المعركة تحت علم الله وبصره.

١٠- وهكذا اطبق الشرك ومعه الكفر بجنوده على المسلمين من كل جانب فمن الشرق غطفان واليهود ومن الغرب قريش والأحابيش وكنانة وعمّ الهول والكرب ومالت (زاغت) الأبصار وبلغت النفوس الحناجر وكأن الأرواح تحاول الخروج من البدن بالهزيمة وعدم تحقق الوعد الالهي.

١١- فكان البلاء والامتحان العظيم وتزلزل النفوس.

١٢- أما المنافقون وضعاف القلوب فقد اتهموا الله سبحانه ورسوله بالتغرير بهم .

١٣- ونادت طائفة منهم مخذلة المؤمنين من أهل يثرب (المدينة) طالبة منهم العودة إليها، ويقوم فريق منهم بالاستئذان من النبي ليعودوا الى بيوتهم التي ادعوا أنها غير مصونة ومكشوفة للعدو ولم يكن ذلك إلا للفرار.

١٤- وهذا يعني أنهم مستعدون اذا دخل العدو بيوتهم أن يعطوه ما يريد ويرتدّوا عن دينهم بعد قليل من التريث الذي يعقبه الإستسلام.

١٥- في حين أنهم كانوا قد أعطوا الله عهداً في الثبات حتى النصر ومسؤولية العهد مازالت قائمة.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝

١٦- تقرير لمبدأ القدر الالهي وتفنيد لتصور النجاة في الفرار فهو لا ينفع في تأخير الأجل، وإن كان نافعاً فهو الى مدة قليلة، او هو نفع قليل تمتعه.

١٧- وان الشر والخير، والسوء والرحمة إنما هي بأمر الله ولا مفرٌ منها ولا عاصم، فلا سبيل الا إيكال الأمر إليه فهو المولى وهو النصير لاغير.

١٨- اما المثبّطون المخذلون الداعون الى القعود عن القتال والذين لا يمارسون الجهاد الا قليلا يبقي على ماء وجههم فهم تحت علم الله وبصره ومراقبته الدقيقة.

١٩- انهم بخلاء بنفوسهم وعندما يخيم الخوف يفقدون اتزانهم ويستولي عليهم الجبن المقرف فهم كالمغشي عليه من الموت لا تستقر عيونهم في أحداقها. فاذا ذهب الخوف طالت ألسنتهم واحتدَّت وراحت ترتفع وتنتفخ أوداجهم وتتبجح وتنسى انها كانت تحتضر وانها شحيحة على كل عمل خيّر. فكان جزاؤهم احباط اعمالهم وحرمانهم من الثواب عليها وذلك أمر يسير على الله.

٢٠- صورة أخرى من نفسيتهم المهزوزة فهم يحسبون ان الأحزاب المتألبة على المؤمنين مازالت تحاصرهم حتى وإن كانت جيوشها قد غادرت المعركة واذا عادت هذه الجيوش يودُّ هؤلاء المنافقون الجبناء أن لو كانوا من اهل البادية فلا يشاركون أهل المدينة في مصاعبهم وانما يترصّدون الأحداث من بُعد، وحتى لو بقوا في المدينة فإنّهم لن يسهموا في القتال الا قليلاً يبقي على ماء وجوههم.

٢١- لقد كان رسول الله القدوة الرائعة والأسوة الحسنة في الوعي والتخطيط والثبات وقوة الجنان والأمل بالنصر الإلهي والثواب الأخروي والاتصال الدائم بالله فليتأس به المؤمنون بالله وباليوم الآخر الطالبون لهذه الخصال.

٢٢- ان المؤمنين اذا واجهتهم المصاعب قوي تصديقهم بالرسالة وتحقق الوعد الإلهي وارتفعت وتيرة الإيمان والتسليم في نفوسهم، وتحوّل التهديد لديهم إلى فرصة لزيادة الإيمان والتسليم.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ
اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)
يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ
لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

٢٣- هكذا ينغرس الإيمان الصادق فيصدق المؤمنون فيما عاهدوا الله عليه فينطلق منهم من ينطلق الى الشهادة ويبقى الآخرون ينتظرون دورهم، والإيمان والعهد والاخلاص ثابت لا يتغير.

٢٤- والمعيار ثابت فالصادقون لهم الجزاء الأوفى لأنهم صدقوا، أما المنافقون فهم موكولون الى الله ان شاء عذبهم وان شاء منحهم فرصة اخرى وتاب عليهم وهو الغفور الرحيم.

٢٥- وعاد الكفار يقتلهم الحقد والغيض واليأس اذ لم يحققوا ما ارادوه وتحققت ارادة الله كما هي دائماً نافذة وكفى الله المؤمنين قتالهم والله هو القوي العزيز.

٢٦،٢٧- أما اليهود من بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع النبيّ ودعموا المشركين وضيّقوا الخناق على المؤمنين فقد قذف الله في قلوبهم الرعب من هذه النتيجة وحاصرهم المسلمون في قلاعهم الحصينة فاستسلموا لهم فقتل فريق واسر فريق آخر ووزعت أراضيهم وديارهم وأموالهم فكانت أراضي غنمها المسلمون ولم يحاربوا عليها.

٢٨، ٢٩- رأينا ان القرآن اختار لأزواج النبي صفة (أمهات المؤمنين) ولهذه الصفة مقتضياتها فلا مجال لاتباع الرغبات والحصول على متع الدنيا وطلب النفقات الزائدة خصوصاً والمسلمون في الشدائد، فجاءت آية التخيير هذه فإما اختيار الحياة الدنيا وزينتها الزائلة ومعها مفارقة رسول الله بالحسنى ومال يدفع البهن، وإما اختيار زوجية الرسول والعطاء الأخروي وتحمل حياة الزهد وانتظار الأجر العظيم للمحسنات منهن.

٣٠- ان مقام الزوجية للرسول الاكرم مقام رفيع ولكنه في نفس الوقت يرتب مسؤولية كبرى فأيّ عمل فاحش كبير يصدر منهن يستوجب مضاعفة العذاب. وهو أمر يسير على الله.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾

٣١- اما من تلتزم طريق الإيمان والخشوع لله وإطاعة الرسول والعمل الصالح فلها بدورها الأجر المضاعف والرزق الكريم في الجنة.

٣٢- ان نساء النبي يحظين بمكانة سامية ان حافظن على التقوى فيجب ان لا يرق كلامهن مما يدعو للريبة ويحرك مكامن الشهوة لدى مرضى القلوب وانما ينبغي ان يكون كلامهنّ متعارفاً وزيناً.

٣٣- والأصل أن تقرّ نساء النبي في بيوتهن فإذا ماشئن الخروج لحاجة فيجب أن لا تبرز المفاتن (كما تظهر البروج) كما كان الأمر في الجاهلية التي سبقت عصر النبي(ص). وعليهن ان يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن الله ورسوله. وبعد هذا تأتي آية التطهير التي نزلت في خصوص اهل البيت (عليهم السلام) وقد أكدت الروايات الكثيرة من كتب السنة والشيعة على اختصاصها بالنبي وعلي وفاطمة والحسنين دون غيرهم[1] – وكان هذا المعنى شائعاً معروفاً بين المسلمين فهي مقطع قرآني مستقل وضع هنا بأمر النبي(ص) – كما روي–. ويلاحظ هنا ايضاً تغيير الضمير من نون النسوة إلى ميم الجمع عند الخطاب لأهل البيت. ووجود كلمة (انما) تعني إرادة الهية خاصة مقصورة على أهل البيت وهذا المعنى يؤكد العناية الإلهية الخاصة بهم لتطهيرهم من أي دنس وعصمتهم من أي انحراف لتأهيلهم للقيادة والامامة، ولو كانت ارادة عامة للتقوى لما كان هناك معنى للحصر بل لشملت كل المسلمين.

٣٤- عودة إلى نساء النبي والطلب منهن ان يتذكرن دائماً مايتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.

٣٥- تأكيد قرآني رائع المعنى على ان الرجل والمرأة تنفتح أمامهما بالتساوي آفاق التعالي الإنساني. فهما في التكامل الانساني سواء ويتأكد ذلك بتكرار التذكير والتأنيث في مجال الاسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم وحفظ الفروج وذكر الله كثيراً فهم جميعاً يطوون طريق التكامل وبالتالي يحصلون على الغفران والأجر العظيم.

---

١ – يراجع الدر المنثور ج ٦ ص ٦٠٣ الى ٦٠٥.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)

٣٦- اذا صدر أمر من الله وهو مولى الكون اومن الرسول وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم فلا خيرة للمؤمنين في أمورهم في قبال ذلك الأمر الالهي او النبوي، وهو عام يشمل الاحكام التشريعية والأحكام الولائية التي تصدر من الرسول(ص) باعتباره إماماً وحاكماً وعصيان هذه الأوامر ضلال مبين وتستفاد من الآية حجية السنة النبوية.

٣٧- روي[1] ان الآية نزلت في زيد بن حارثة وكان عبداً للنبي ثم حرره وتبناه فاستشار الرسول في تطليق زوجته التي زوجه النبي اياها – وكأن ذلك ليلغي الفوارق الطبقية وهي الشريفة القرشية زينب بنت جحش ابنة عمة النبي وهو العبد المحرر – فنهاه النبي عن ذلك ولكنه طلقها وتزوجها النبي وكان(ص) يخشى ان يقول البعض أنه تزوج مطلقة ابنه بالتبني وهو مالم يكن مقبولاً فجاء هذا العتاب بلطف . وقد فرض الله ان يتزوج بزينب ليرتفع الحرج في تزوج المؤمنين من أزواج الأدعياء بعد طلاقهن حتى لو قضوا منهن وطراً، فما كان النبي يخفيه هو زواجه بزوجة ولده المتبنى لا شيء آخر، إذ هو الذي أبداه الله.

٣٨- انه أمر الله صدر لحكمة اجتماعية فلا حرج على النبي اذا نفّذه. وتلك سنة الله في الانبياء والرسل ولا تبديل لأمر الله.

٣٩- فالأنبياء ومن بعدهم الدعاة والمبلّغون يحملون رسالات الله الى الآخرين بلا خشية من أحد الا الله والله هو الوكيل الحسيب. والابلاغ هنا بمعنى الايصال الدقيق إلى المخاطب لا مجرد الإعلام، لذا فعلى الدعاة ان يتحروا كل الطرق المناسبة للتبليغ.

٤٠- دفع للشبهة السابقة فما كان الرسول أبا احد من رجالهم عند صدور الخطاب ولا تترتب على التبني آثار البنوة الحقيقية، ولكنه كان خاتم النبيين به تختتم النبوة والرسالة.

٤١،٤٢- توجيه إلهي لذكر الله كثيراً وتسبيحه في كل آن وكل تحول زماني من أي نقص او تحول، والذكر والتسبيح زاد المؤمن يبعده عن الغفلة وهي شرُّ ما يبتلى به الافراد والامم.

٤٣- فهو تعالى يتوجه الينا باللطف وملائكته في كل آن ولولا ذلك لكنا في ظلمات العدم والعمى والضياع ولكنه يخرجنا الى النور ويغمرنا بالرحمة فعلينا ان نعيش مع ذكره وتسبيحه.

---

١ – البرهان ج ٤، ص ٤٧١، مجمع البيان ج ٨، ص ٥٦٣.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

٤٤- هكذا تقوم علاقة المؤمنين بالله على اساس اللطف الالهي والمحبة المتسامية والطاعة الكاملة والسلام الحقيقي يحييهم به الله والملائكة عند اللقاء، وبعد ذلك يكون الأجر المتناسب مع كرم الله وعظمته.

٤٥،٤٦- هذه هي سمات النبيّ واهدافه فهو النموذج الأعلى للأمة يربيها لتكون شاهدة على الناس كما هو شاهد عليها، وهو المبشر بكل خير ليسلكه الناس والنذير من كل شر ليتركه الناس، وهو الداعي الى سبيل الله والقائد للانسانية بإذن الله نحو الكمال وهو السراج المنير لها دروبها الحالكة.

٤٧- وهو المبشر للمؤمنين بالفضل الإلهي العميم وتحقق كل آمالهم.

٤٨- فلا تنتبه للخط المنحرف كفّاراً كانوا أو منافقين ولا تأبه بأذاهم والتجئ الى الله فهو الوكيل فحسب.

٤٩- ان النساء اذا نكحت وطلقت قبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق ويجب ان يدفع اليهن شيء من المال - ويقال إنه نصف مهر المثل - ويسرحن سراحاً جميلاً. اما اذا فرض لهن مهر معين فيعطين نصف المهر بمقتضى الآية ٢٣٧ من سورة البقرة.

٥٠- تذكر الآية سبعة أصناف من النساء التي تحل للنبي وهي التي تزوجها بمهر، والتي ملكها من إماء الغنائم والانفال، والمهاجرات من بنات عمه وعماته، وخاله وخالاته، وكذلك المرأة المؤمنة التي تهب نفسها للنبي(ص) ويريد ان يستنكحها.

وأحكام الإسلام واضحة لعامة المسلمين في ازواجهم وما ملكت ايمانهم. وجاءت هذه الآية لترفع الحرج عن النبي ببيان ما يحل له خاصة دون غيره.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

٥١- فللرسول قبول من وهبت نفسها له أو ردّها كما أن له ان يقسم بين نسائه بالنحو الذي يراه كل ذلك لكي تقر أعينهن بما اختاره الرسول ولا يحزنّ ويرتضين خيرته من اعماق قلوبهن والله هو العالم بالمصالح والحليم بالناس .

٥٢- ليس للرسول بعد هذا أن يتزوج أمراة أخرى، وحتى لو طلق بعض نسائه فإنه لا يستطيع تبديلها بأخرى حتى ولو اعجبه حسنها اللهم الا فيما ملكت يمينه.

٥٣- تبين الآية آداب الدخول الى بيوت النبي، فلا يتم الدخول إلا بعد الإذن بتناول الطعام وأن لا يدخلوا قبل الطعام بمدة كثيرة ثم ينتظرونه وإنما يدخلون في الوقت المناسب، ثم يتفرقون بعد انتهاء تناوله دون الاستئناس بالحديث بعده فان ذلك يؤذي النبي فيستحي من المدعوين والله لا يستحي من الحق ووقته (ص) ثمين ثمين.

واذا أراد المدعوون ان يكلّموا زوجات النبي فعليهم ان يكلموهن من وراء حجاب لأن ذلك أطهر لقلوبهم وقلوبهن.

وليس لأحد أن يؤذي الرسول كما يحرم على المؤمنين أن ينكحوا ازواجه من بعده ـ وقد مر انهن بمثابة أمهاتهم ـ فهو أمر عظيم عند الله.

٥٤- وربما تحدث البعض – لكي يؤذي النبي – بشيء عن نكاح ازواجه بعده فجاءت هذه الآية تهددهم بعذاب الله الذي يعلم مايبدون وما يخفون.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٥٥- استثنت هذه الآية من حكم الحجاب. الآباء والاخوان والاخوات وأبناء الأخوان وأبناء الأخوات، ونساء المؤمنين (بدليل الاضافة الى هن) وما ملكت أيمانهن مع الأمر بالتقوى ومراعاة الشهود والرقابة الإلهية.

٥٦- ان الله تعالى يتوجه الى النبيّ بالرحمة وملائكته يدعون له بها ويستغفرون فمن الطبيعي أن يدعو المؤمنون بذلك. وهكذا يرتبط الكون في جو عاطفي بهذا الوجود الطاهر وترتبط الامة بقائدها في جو عاطفي رحيم خصوصاً اذا ضممنا آله إليه كما استفاضت الروايات بذلك[١]، وخاصة ما عرف بالصلاة الإبراهيمية[٢].

٥٧- اما الذين يؤذون الله والرسول فهم ملعونون مطرودون في الدارين وينتظرهم عذاب مهين.

٥٨- كذلك من يتصدون للمؤمنين والمؤمنات بالاذى دون أن يكون لهم مبرر وهم بذلك يرتكبون البهتان والافتراء، والإثم الواضح.

٥٩- أمر لنساء النبي وبناته ونساء المؤمنين جميعاً بأن يتسترن بجلابيبهن وهو ما تشتمل به المرأة فيغطي بدنها أو رأسها ووجهها فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين فذلك أدنى وأقرب أن يعرفن بالعفة فلا يتعرض لهن الفاسقون بالأذى.

٦٠- تهديد للمنافقين ومرضى القلوب والذين يبثون الشائعات بأن يكفوا عن الافساد والارجاف والا أغري الرسول بهم ليطردهم من المدينة فلا يقطنونها الا قليلا.

٦١- إنهم يستحقون الطرد والملاحقة والقضاء عليهم أينما قبض عليهم لأنهم يضعفون الجبهة الداخلية بأراجيفهم.

٦٢- إنها سنة الهية جرت في الماضين وليس لها من تبديل فإذا بالغ المفسدون ومزقوا الصفوف تم العمل على محوهم والتخلص منهم.

---

١ و ٢ - يراجع الدر المنثور ج ٦، ص ٦٤٦ - ٦٥٠.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

٦٣- علم الساعة أختص الله به، وقد حاول البعض رغم ذلك التساؤل عن ذلك ولكن القرآن يذكر دائماً ان علمها عند الله وزيادة في الإبهام يذكر احتمال قربها ليؤكد ان الرسول أيضاً لا يعلم بذلك.

٦٤،٦٥،٦٦- ويأتي هذا التهديد الرهيب للكافرين بالطرد من رحمة الله والسوق الى الجحيم خالدين فيها لا يجدون من يدافع عنهم او ينصرهم وانما يعانون عذابها وتتقلب وجوههم فيها متحسرين على أيام العمل قائلين: ليتنا أطعنا الرسول.

٦٧،٦٨- ويقفون امام ربهم معترفين بالانحراف ناسبين ذلك الى إطاعة السادة والكبراء داعين الله أن يؤتي هؤلاء ضعفين من العذاب ويصب عليهم اللعنة الكبيرة.

٦٩- ويشير القرآن هنا الى بعض الشائعات التي كان بعض قوم موسى يطلقها ضده ويحذر المؤمنين من الحذو حذوهم ولكن الله برأ موسى بعد ان كان وجيها عند الله وكذلك سيبرئ الله نبيه من كل التهم.

ولعل الآية تشير الى الشائعات التي رافقت قصة زيد وزينب .

٧٠، ٧١- وهكذا تلخص آيات ختام السورة مضامينها:

فيطلب من المؤمنين تقوى الله والقول الرصين السديد ليصلح الله اعمالهم ويغفر لهم ذنوبهم وان يطيعوا الله ورسوله ليحصلوا على الفوز العظيم.

٧٢، ٧٣- إنها الامانة الالهية التي تشفق منها السماوات والارض والجبال فلا يستطعن حملها وحملها الإنسان بمقتضى فطرته وعقله وارادته الحرة وهي كما يظهر طي طريق التكامل الارادي وفق القيام بحق المولوية الإلهية وتنفيذ الخلافة الالهية واقامة المجتمع العابد.

ولكن البعض يغلبه جهله ويدفعه هواه الى الظلم فينكل عن حمل الامانة وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات فيبتلون بالعذاب، ويمضي المؤمنون العاملون للصالحات في طريق حمل الأمانة فيتوب الله عليهم ويشملهم بالغفران والرحمة.

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴿١﴾ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿٢﴾ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴿٣﴾ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴿٤﴾ والذين سعو في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴿٥﴾ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴿٦﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴿٧﴾

سورة سبأ

تحدثنا قبل هذا عن البسملة.

١- الحمد لله وحده فهو تعالى مالك الكون حقيقة ومفيض الوجود عليه في كل آن وتتجلى هذه الحقيقة للجميع في الآخرة فيتكرر الحمد والثناء للحكيم الخبير.

٢- هو العليم بكل ما يدخل في الارض وما يخرج منها، وما ينزل اليها من السماء وما يصعد والكل يقع تحت رحمته وغفرانه.

٣- ولأن الكفار لم يدركوا حكمة الله في الكون فقد أنكروا الساعة، فيأتيهم الرد بكل جزم أنها ستأتي حتماً بعد أن كان العلم الإلهي شاملاً لكل صغيرة وكبيرة في الكون فلا يغيب عن علمه شيء ذرة كانت أو أصغر منها أو أكبر وانما هو مشمول بالعلم يحصيه كتاب مبين. ان تصور السعة العلمية والقدرة المطلقة والحكمة التامة يوصل الإنسان بلا ريب للإيمان بالآخرة.

٤- حيث يصل المؤمنون العاملون للصالحات الى أقصى مبتغاهم وهو الغفران الإلهي والنعيم الخالد.

٥- ويلقى المعاندون لآيات الله الساعون لاثبات عجز الله القدير شر العذاب وسوءه.

٦- إن العلماء بالحقائق العلمية يصدقون بوضوح بهذا القرآن ويرون فيه الحق الصراح والهدى الحقيقي الى صراط الله ذي العزة والحمد.

٧- أما الكافرون فهم لسخفهم وجهلهم يثيرون الشبهات الواهية ويهزأون بالحقيقة فيتساءلون عن منطقية البعث والخلق من جديد بعد الموت وتوزع اجزاء البدن وتلاشيها الكامل وكأن الإنسان جسد خال بلا روح وكأن صغر الأشياء يغيبها عن علم الله.

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

٨- وراح المشككون في البعث يتهمون الرسول بالافتراء او الجنون ولكن الردّ يأتي قاطعاً فالمشككون انفسهم مغمورون في العذاب والضلال البعيد.

٩- ألا يبصر هؤلاء مظاهر القدرة الالهية أمامهم ومن ورائهم في هذا الكون الرحيب ولو شاء الله لخسف بهم الارض او أنزل عليهم قطعة محطمة من السماء. ان في هذه المظاهر ما يذكر العباد بلزوم العودة والتوبة لله.

١٠،١١- هذا النبيّ داود من الله عليه بفضله فكانت الجبال والطير ترجع مع تلاوته وتسابيحه (مما يكشف عن تناغم الكون كله في مجال التسبيح لله) ومنحه ما يلين الحديد الصلب ليعمل الدروع الواسعة مع دقة في تركيب الصفائح والحلق ليسهل استخدامها وأوحي اليه والى آله ان يعملوا الصالحات تحت علم الله وبصره. فكان عبداً منيباً.

١٢، ١٣- وهذا النبي سليمان تسخر له الرياح لتقطع به وبعرشه الذي تحمله مسيرة شهرين في اليوم الواحد شهر في الغداة (من الصبح الى الظهيرة) وشهر في الرواح (من الظهر الى آخر النهار). وأسال الله له عين النحاس، وسخر الجن لتعمل له طائعة وإلا عذبت بشدة فكانت تصنع له ما يريد من أماكن العبادة ومحاريبها والتماثيل المجسمة وصحاف الطعام (الجفان) كالأحواض (الجواب) والقدور الضخمة الثابتة وجاء النداء لآل داود أن ينيبوا إليه ويشكروه رغم قلة الشاكرين.

١٤- كل هذه العظمة الخارقة والهيبة التي يدأب الجن في ظلها على عملهم تبقي الإنسان ضعيفاً والجميع ذاهلين امام التدبير الإلهي اذ يقف سليمان متكئاً على عصاه يراقب العمل والعمال فيوافيه اجل الموت دون أن تدرك الجن العاملة ذلك حتى تأتي الأرضة فتنخر عصاه (منسأته) فيسقط وحينئذ تعلم الجنُّ أنها لو كانت تعلم الغيب مالبثت في عذاب العمل المهين.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

١٥- وهذه سبأ وهم قوم سكنوا جنوب اليمن وارتقت بهم سبل التمدن وأقاموا السدود وانشأوا البساتين عن اليمين والشمال وغمرهم الرزق الإلهي بالنعم التي تستوجب الشكر وهل اروع من العيش في بلد طيب في ظل رب ودود غفور.

١٦- ولكنهم أعرضوا عن شكر الله فكان عقابهم ان أرسل عليهم السيل (العرم) الجارف للصخور الهائلة ليحطم السد وتطغى المياه فتغرق تلك المدنية العاتية فلم يبق لهم إلا بعض النباتات البرية- شجر الأراك او شجر الأشواك والطرفاء والنبق (السدر) القليل.

١٧- انه جزاء كفر النعم وهو اكبر مشكلة اقتصادية نتيجة لما كسبته أيديهم .

١٨- ثم أن بلادهم وطرقهم كانت ماتزال في نعمة الأمان متصلة تقريباً بقرى آمنة قدّر فيها السير بحيث لا يستغرق مسافة تبقي المسافر في الصحراء ليلاً لتقارب المدن والمنازل، ولكنه الشقاء غلب عليهم فسألوا ربهم أن يباعد بين اسفارهم فظلموا بذلك أنفسهم فشملهم عذاب الظلم ومزقتهم الأيام كل ممزق وعادوا احاديث يتحدث بها القصاصون ويرويها التاريخ . وفي كل ذلك عبرة وغنىً للصابرين الشاكرين، واليائسين الكافرين أيضاً.

١٩، ٢٠- إنهم لم يستعملوا عقولهم فوقعوا في الغفلة وصدق ظن الشيطان بهم فاتبعوه فانهاروا الا القليل منهم.

٢١- ولم يكن الشيطان ليستطيع أن يحقق مبتغاه بنفسه وسلطانه لو كانوا واعين لظروف الامتحان صابرين شاكرين لنعم الله مؤمنين بالآخرة عاملين للخير شاعرين بإحاطة الله.

٢٢- أمر (ص) بأن يطلب من المشركين أن يدعوا الذين زعموهم شركاء لله ان يحققوا لهم شيئاً ليكتشفوا أنهم لا يملكون مثقال ذرة في هذا الكون ولا يدبرون أيَّ شيء وليس لله منهم أي نصير او ظهير فلا قيمة لهم.

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٢٣- إنهم عاجزون عن فعل أيّ شيء لتعود هذه الشفاعة بخير على أتباعهم إلا أن يأذن الله بذلك لمن يشاء من عباده فالأمر موقوف على إذنه تعالى وإذنه بالطبع انما يشمل من فيه أهلية خاصة لذلك، وفي ذلك الموقف الرهيب يسود الفزع الشافعين والمشفوع لهم وحين ينكشف الخوف ويتساءل الجميع عن القرار الإلهي يكون الجواب انه القرار الحق القائم على المعايير الحقة والله هو العلي على كل شيء والكبير بكل معاني الكبر فله الأمر وهو القائم بالحق.

٢٤- هذه الآية تعبّر عن دعوة القرآن الرائعة لالتزام الموضوعية والإنصاف في الحوار فبعد ان تتساءل عن الرازق في الكون تجيب بكل وضوح وفطرية انه الله تعالى ثم تطلب من الرسول ان يقول للمشركين: ان الامر لايخلو من أن يكون احد الطرفين على الهدى والآخر على ضلال وبهذه الروح يمكن ان يثمر الحوار.

٢٥- ولكي يصل الحوار الى نتائجه المرجوة يجب أن يتجنب الدخول في مطبات ونزاعات جانبية فلاينظر فيه الى الاعمال السابقة والتي لاترتبط بموضوع الحوار فكل طرف مسؤول عن اعماله، كما ان من شروط الحوار الناجح استخدام الالفاظ المناسبة واحترام الآخر وهذا ما يبدو من ملاحظة التغاير بين عبارتي (اجرمنا) و (تعملون).

٢٦- فيجب ان تكون النوايا جادة في الوصول الى الحقيقة خصوصا وان الجميع سيعودون الى الحكم الفيصل العليم الذي يجمع الطرفين ويفتح بينهما بالحق. ولعل الآية تشير الى ضرورة وجود الحكم في عملية الحوار.

٢٧- وبعد توفر شروط الحوار يتم التساؤل عن هؤلاء الشركاء الملحقين بالله وما هو اثرهم وما مدى قوتهم وعزتهم؟ ليعود القرآن مؤكدا على العزة والحكمة الالهية المطلقتين وهما تنفيان الشريك فالمطلق لا شريك له.

٢٨- ان دعوة الاسلام دعوة للناس كافة وهي تستهدف التبشير بالسعادة والإنذار بالهلاك عند الانحراف عنها وهو امر تجهله الاكثرية.

٢٩، ٣٠- ويستعجل المشركون الوعد والوعيد وهو بأمر الله وحده لكنه محدد مقرر لا محيد عنه فلا صدفة ولاتسيب بل الحكمة والعدل هما الاساس.

٣١- ويتجلى العناد في الاصرار على رفض القرآن والكتب السماوية السابقة والالتزام بالكفر والظلم فيهددهم القرآن بمشهد القيامة حيث يقفون بذهول يتلاومون ويتعاتبون ويتبادلون التعنيف والمسؤولية فيتوجه المستضعفون ليلقوا تبعة الضلال على المستكبرين.

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴿٣٢﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿٣٣﴾ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴿٣٤﴾ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴿٣٥﴾ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣٦﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿٣٧﴾ والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون ﴿٣٨﴾ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴿٣٩﴾

٣٢- ويلقي المستكبرون المسؤولية على المستضعفين باعتبارهم اختاروا طريق الاجرام ولم تنفتح نفوسهم للهدى الذي وصلهم بوضوح.

٣٣- وهنا يذكرهم المستضعفون بأساليبهم الخداعة الماكرة في إغواء المستضعفين والتي كانت تستغل كل فرصة للاغواء والاضلال والشرك في ليل أو نهار. وهكذا تعم الجميع الندامة والكمد الدفين حين يرون العذاب المهول والاغلال التي توضع في الأعناق المعاندة وكل ذلك انعكاس لأعمالهم في صورتها الجهنمية.

٣٤- هكذا كانت الحقيقة في كل عصر فما ان يحمل الرسل دعوة الله الا ويجابهم المترفون البطرون بالكفر والتكذيب، وكأنهم يخافون على مواقعهم من الزوال.

٣٥- متبجحين بكثرة الاموال والاولاد وان ذلك يدل على رضا الله عنهم فلا احتمال للعذاب.

٣٦- فيفصل القرآن بين الرضا الإلهي القائم على معايير القيم والالتزام بالاوامر الالهية وبين موضوع التنعم بالنعم المادية التي قد تعطى للعصاة استدراجا لهم وكشفا لما في نفوسهم من شر.

٣٧- فالنعم المادية لاتكشف عن قرب أصحابها من الله والمعيار في ذلك إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذي يجازى بالاجر المضاعف والتنعم بالمقامات العالية بامن وسلام.

٣٨- أما المعاندون الذين يتصورون أنهم خارجون عن قدرة الله فسوف يحضرون عاجزين الى العذاب المهين.

٣٩- تأكيد مجدد على انفصال مسألة الرزق على العباد في معاييرها وأهدافها عن مسألة الجزاء الالهي الذي يقوم على أساس الإيمان والعمل الصالح كالإنفاق الذي يخلفه الله ويبدله بالجزاء الأوفى وهو خير الرازقين.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

٤٠، ٤١- تبكيت آخر للمشركين الذين يعبدون الملائكة وماهم الا عباد مخلصون لله حيث يحشر الجميع يوم الحشر ويسأل المعبودون عن مدى رضاهم بتلك الحالة ليجيبوا مسبحين منزهين معترفين بالولاية لله مؤكدين على توهم العابدين الالوهية في الجن ويلاحظ أن الآية تؤكد إيمان الأكثرية. اما الأقلية - أي الزعماء - فربما روّجوا لذلك رغم عدم إيمانهم لكي يبقوا نفوذهم.

٤٢- وبعد عملية براءة المتبوعين من تابعيهم يأتي النداء الالهي الحق أن ليس هناك في القيامة اي تبادل للنفع والضرر وانما هو العذاب الاليم والنار التي كانوا بها يكذبون فيسلكون مسلك الظلم والانحراف.

٤٣- عودة الى أساليب الكافرين في مواجهة الدعوة الإلهية فما ان تتلى على هؤلاء الآيات الالهية البينات الواضحات حتى يواجه الرسول بتهمة التحريض على رفض العادات القديمة وسنن الآباء، والكذب والافتراء والسحر والتدجيل في حين أنهم لو تأملوا فيه لرأوه الحق بعينه.

٤٤- إن مشركي العرب لم يحصلوا من قبل على ما يؤهلهم لمثل هذه الادعاءات فلم تأتهم من قبل كتب يدرسونها فترفع عنهم اميتهم ولم يأتهم نذير يوضح لهم الموقف فهم في جهل مطبق لايتيح لهم الحكم في الموقف.

٤٥- ولم يؤتوا عشر ما أوتي الذين سبقوهم من قوة ومال وعلم وعمران وقد ابتلوا بالعذاب لما كذبوا فلتتأمل قريش هذا النكير المدمر.

٤٦- وتشير الآية هنا الى شرط آخر من شروط الحوار وهو توفير الجو المنطقي الهادئ، وعدم الصخب والتهويل ففي جو الاتهامات الجمعية الهائجة للرسول بالجنون لامعنى للاستدلال المنطقي فيطلب الى الرسول ان يعظهم بأمر واحد وهو ان يكسروا هذا العقل الجمعي ويتفرقوا اثنين اثنين او فرادى ثم يتفكروا في الأمر بكل اخلاص وصدق وقيام لله ويدرسوا حالة صاحبهم الرسول الذي قضى عمره بينهم فما عرف الا بالأمانة والصدق ورجاحة العقل وان ما يدعو اليه من إنذار لهم من الوقوع في العذاب الاليم إنما هو لصالحهم تماما.

٤٧- ثم انّ الرسول - على سنة من سبقوه من الرسل - لايطلب منهم أجراً شخصيا وكل اجره ان يهتدوا ويتحقق لهم الصلاح اما أجره فعلى الله الذي هو على كل شيء شهيد.

٤٨- ان رسالة الرسول هي الحق الذي يقذفه الله على الباطل وسوف يقضي عليه بعلم الله وهو علام الغيوب.

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٩- نعم جاء الحق فليعلنه الرسول أما الباطل فلامجال لـه ولابدء ولا معاد.

٥٠- وهذه الآية تركز حقيقة الثنائية بين شخصية الرسول الذي يهتدي بهداية ربه فـإذا ضـلَّ فانـه يـضل علـى نفسه، والحقيقة الالهية الموحية بالهدى الى الرسول وهـي سمحـة مجيبـة تراقب خطاه وتستجيب لدعائه وتضرعه.

٥١- وتعطي هنا لمحة قرآنية عـن الآخـرة تهـزّ المـشاعر- فينصب الفزع على هؤلاء المكذبين ليفرّوا منه ولكن لامفرَّ مـن عذاب الله ولا إفلات بل يقبض عليهم بكل يسر وقدرة، ومـن أقرب الأماكن حيث لا يتوقعون.

٥٢،٥٣- وفي هذه الحالة- يعلن هؤلاء الإيمان ولكنهم بعيدون عن الدنيا وهي عالم التكليف والإيمان وقـد عاشوا فيها كافرين معاندين يكفرون بالآخرة وهم بعيدون عنها.

٥٤- وهكذا فقد هؤلاء كل مناهم وآمالهم تماما كما فعل مع اتباعهم وأشباههم كل ذلـك نتيجـة عنـادهم وتشكيكهم وريبهم في الحق.

سورة فاطر

تحدثنا عن البـسملة.

١- لله الحمد كله وهو خالق الكون ومدبره وفاطره من العدم وهو خالق الملائكـة وهـم رسـله ووسـائط وصول النعمة الى الخلق باجنحتها الثنائية او الثلاثية او الرباعية ـ وهذا التنوع من أسرار الخلق الـتي نجهلـها ـ وهو تعالى يعلم حكمة الخلق وله الارادة المطلقة والقدرة التامة على كل شيء.

٢- بيده مصادر الرحمة فاذا فتحها فلا رادّ لها واذا اغلقها فلا فاتح لها وله العزة والحكمة المطلقة.

٣- فيجب ان يرجع الناس الى وجدانهم وقناعاتهم الفطرية ليجدوا أنه تعالى هو الخالق وهو الـرازق دون غيره فلا يسلّموا عنانهم للوهم والإفك وانما يلجأون الى ركن ركين.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤- تثبيت للرسول وتقوية لقلبه وتذكيره بان الامور كلها ترجع الى الله تعالى وان تكذيب الرسل هي حالة متكررة تزول لان الحق ثابت والعاقبة للمتقين.

٥- إن كل وعود الله حق لامراء فيه لأنه العليم القوي القادر الصادق اما هذه المظاهر الدنيوية والوعود الشيطانية والاغراءات الكاذبة فماهي إلا إغراءات زائفة لاثبات لها ولاثبوت.

٦- ان الشيطان هو العدو الاكبر لأنه يعمل على ان يغترب الإنسان عن ذاته وفطرته، وأن يقع فريسة الأهواء العمياء فالحذر الحذر من الاغترار به والغفلة عن أحابيله، وإنما يجب التنبه الدائم لهذه العداوة التي تتحين الفرص لتجر اتباعها لحالة العصيان التي تقودهم الى الجحيم.

٧- فيجب التنبه لخط الكافرين الذي يقودهم الى العذاب الشديد والاعتصام بخط المؤمنين العاملين للصالحات الذي يؤدي بهم الى الغفران الالهي والأجر الكبير.

٨- ان خط الكفر واهم تائه يتصور عمله السيئ حسنا في حين يدرك خط الإيمان الامور على واقعها فيرى السيئ سيئا وبالتالي يلاقي كل طرف مصيره ليهتدي المتبصرون ويضل الواهمون، فلاداعي لتألم الرسول وتحسره على ضلال الضالين بعد ان كان الله بصيرا عليما بما يصنعون.

٩- هذه آيات الله في الكون واضحة بينة كحركة الرياح القائمة على قوانين كونية دقيقة متناهية في العظمة والدقة والتي تستتبعها حركة المياه من البحار الى السحاب الى المطر الى الأنهار التي تحيي البلاد الجافة فاذا بها خضراء يانعة يحيا بها الإنسان والحيوان. إن كل ذلك يكشف عن التدبير الحكيم والتخطيط والهدفية وإمكانية البعث والعودة الى الحياة بعد الموت.

١٠- ومن التخطيط لدعم الحياة الإنسانية الى الدعوة للاعتزاز النفسي والمعنوي بالله فهو العزيز المطلق فإذا استجاب الإنسان لدعوة الفطرة له للاعتزاز والتكامل فان عليه أن يلجأ الى العزة الحقيقية المطلقة مبتعدا عن الأوهام متقربا الى الله بالكلام الطيب يدعمه العمل الصالح، اما الماكرون العاملون للسيئات فأمامهم العذاب والضياع.

١١- فليتأمل الانسان عملية التكامل إذ يتحول التراب الجامد الى نطفة حية الى موجودات متكاملة متزاوجة عاقلة عالمة: مسيرة يعلمها الله ويرعاها.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

١٢- واستمرارا في بيان الظواهر الطبيعية الممهدة للحياة الإنسانية تطرح ظاهرة توفر المياه بطعومها المتفاوتة فهذا العذب الطيب، الفرات الذي يروي العطش، السائغ الذي تتلقاه النفس بلهفة لعذوبته وذاك المالح المقزز او المر، ولكل هذه الطعوم خواصها في إشباع الإنسان وتربية السمك وصنع اللؤلؤ والمرجان وبهما تصاغ حلية الانسان، بالاضافة الى ان خواص الماء تساهم في حركة السفن التي تشق الأمواج لتوصل الانسان ورزقه وما يحمل وتحقق له تجارة نافعة- كل ذلك يستدعي الشكر والتعظيم لا الكفر بانعم الله.

١٣- وهاتان ظاهرتان كونيتان اخريان يشهدهما الانسان ويدرك أثرهما العظيم في حياته وهما ظاهرة تعاقب الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر، وكذلك ظاهرة حركة الشمس والقمر في مدار دقيق وقوانين لاتتخلف يتأملهما الانسان ويدرك انهما مسخرتان بأمر العليم الحكيم الرب المالك للملك والملكوت فلايقيس اليه هذه الالهة الجامدة الموهومة المزعومة التي لاتملك حتى الشيء القليل (قطمير) من القدرة بازاء قدرة الله المطلقة.

١٤- إنها اصنام جامدة لاتسمع دعوة ولو سمعت لما أمكنها الاستجابة. وعندما يحشر الجميع في القيامة فان هذه الآلهة المزعومة سوف تكفر وترفض عملية اشراكها بالله. وتلك حقيقة يكشفها الله وهو الخبير العليم.

١٥- هذه حقيقة يجب أن تتركز في خلد البشرية فهي الفقر كله- المادي والمعنوي في البدء وعند الاستمرار، في الحياة البدنية والاجتماعية والتشريعية انها فقيرة محتاجة حتى في إثارة مكنوناتها الفطرية وهي كنوز الهية. نعم هي فقيرة الى الله والله هو الوجود الواجب والغني المطلق الكامل الحميد.

١٦،١٧- له الإرادة المطلقة في افناء الخلق واستبداله بخلق آخر فذلك عليه سهل يسير.

١٨- ان المسؤولية شخصية وكل يتحمل تبعة ما كلف به فيجب ان لايتكل الأفراد على غيرهم فمهما ثقلت أوزارهم ودعوا غيرهم الى حملها فانهم لن يلقوا آذانا صاغية حتى من الاقارب، ولذا فعليهم محاسبة أنفسهم والاستعداد للآخرة وتربية انفسهم لما يؤهلهم للخشية والخوف من الله وإقامة الصلاة له وبالتالي تحقق أهلية التأثر بالانذار النبوي والتزكية بمعنى التطهير من جهة والنمو من جهة أخرى وبها يحقق الانسان مسؤوليته ومصلحته - فالله غني عن اعمالنا وإنما هي لصالحنا نحن -- وذلك يوم يقوم الحساب قيد أمام الله.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢- إنهما خطان لكل منهما خصائصهما- خط التزكية وهي طريق الفلاح وخط الانحراف وهو طريق الخسران انهما لايستويان كما لايستوي العمي والبصر، والظلمات والنور، والظل البارد والحر السموم، والحياة والموت. فيجب ان يهيئ الإنسان نفسه للهدى فتشمله دعوة الله أما الذين أماتوا نفوسهم فهم البعيدون عن استماع دعوة الله.

٢٣- إنهم أناس معاندون فلا معنى للاسى عليهم بعد ان ادّى الرسول رسالته وأنذرهم بالعاقبة الوخيمة.

٢٤- فهو(ص) مرسل بالحق مبشراً للخير محذراً من الشر مثله مثل كل المنذرين الذين أرسلهم الله برحمته ولطفه، الى كل الامم ليتم عليها الحجة.

٢٥- وإذا كان هؤلاء قد اختاروا سبيل التكذيب فإنه سبقتهم أمم سالفة كانت قد كذبت رسلها رغم أنهم جاؤوها بالآيات المعجزات والصحف المذكرة بالله والكتب المتضمنة للشريعة المثلى.

٢٦- وكانت نتيجة التكذيب والعناد أن أخذها وعذبها العذاب الشديد.

٢٧- واستمرارا للتذكير بنعم الله وتقديره يشير القرآن – من جديد – الى نعمة انزال المطر الذي يسقي الارض فتنتج الثمار المختلفة في ألوانها مما يشبع حاجة الانسان وشوقه للتنوع وذوقه للجمال وهكذا تتم الإشارة الى الجبال الشاهقة التي لها دورها الكبير في التوازن الأرضي من جهة وهي تشبع حاجة الانسان الى انماط معدنية كثيرة بالاضافة لجمالها الخلاب وألوان تربتها البيضاء والحمراء والسوداء وطرقها وسبلها الرائعة.

٢٨- وهكذا يشار الى التنوّع اللوني في الناس والدواب والأنعام وهو ايضا يدخل في دائرة الحاجة الإنسانية المادية والمعنوية لتتم النقلة القرآنية الى حقيقة كبرى وهي أن العلماء بعجائب الطبيعة وانسجامها مع حاجات المسيرة الانسانية يقودهم علمهم الى الإيمان بالله إيمانا يهز مشاعرهم ويزيدها خشية لأنّه العزيز الغفور.

٢٩، ٣٠- ويدعوهم الى التأمل في كتاب الله عند تلاوته وإقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله في السر والعلن وربط آمالهم بالتجارة معه وهي التجارة التي لا تخسر، وبهذا ينسجم كل الوجود الانساني عقيدة وعاطفة وسلوكاً وأملاً فيستحق الأجر وزيادة الفضل من الله وهو الغفور الشكور.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

٣١- وقد جاء القرآن الكريم لهذه الأمة نازلاً بالحق ومعلناً منهجها الحق، مصدقاً بالنبوات السابقة منسجماً معها لأنها جميعاً جاءت من عند خالق البشرية الخبير البصير بواقعها وقوانينها ومصالحها.

٣٢- ولقد جاءت الكتب الالهية يحملها الأنبياء لترسم للبشرية منهجها التكاملي الصاعد. وترك الانبياء كتبهم للامم التي اختيرت لحمل الرسالة وبالنسبة للإسلام حملت الامة رسالتها ممثلة بقادتها الهداة الطاهرين الذين تشبّعوا بالكتاب وعرفوا أبعاد معانيه وتكفّلوا بنشرها، وهم أهل البيت(ع) كما يؤكده حديث الثقلين[1]، إلا أن هذه الامم افترقت على ثلاث طوائف فهناك من ظلم نفسه وآخر على الخط مقتصد سائر وثالث هو السابق للخيرات الفائز بإذن الله – باعظم الدرجات؛ فالكتاب هو محور الحركة ومعيار القرب والسبق والمجسد للفضل الإلهي الكبير.

٣٣- وهل هناك أعظم من تحقيق أعظم آمال الإنسان وهو الخلود في جنان عدن وثبات تحيطهم كل ما تهفو اليه النفوس من الذهب وألبسة الحرير وكلها قيم مادية تعطى في إطار القيمة الأعظم وهو رضوان الله، كما قال تعالى: ورضوان من الله أكبر (التوبة ٧٢).

٣٤، ٣٥- وحينئذ يعلو نداء الحمد لله الذي نجّاهم – الى الأبد – من كل حزن وأحلهم دار الثبات المتنعم من فضله ولطفه فلا ينالهم تعب ولا مشقة (لغوب).

٣٦، ٣٧ – أما الكافرون فأمامهم العذاب الرهيب والخلود فيه فلا هم يميتين لينهي الموت عذابهم ولا العذاب يخفف عنهم جزاءً على عنادهم وكفرهم. إنهم يصرخون ويستعطفون فلا يؤبه بهم ويسألون ربّهم أن يمنحهم فرصة من جديد ليعملوا الصالحات خلافاً لما كانوا يعملونه في الدنيا فيأتيهم الرد القاطع إنّ الفرصة الكافية قد منحت لهم بالمقدار الذي يؤهلهم لتذكر الحقيقة والنذير الواضح أمامهم فلم يستفيدوا منها وعاثوا ظلماً فلا ناصر اليوم للظالمين. وفي هذا المشهد ما فيه من تحريض على اغتنام الفرصة القائمة.

٣٨- إنّ الله تعالى عليم بالنوايا في إطار علمه بكل الكون، وهو إذ يعاقبهم بهذا العذاب الأليم فإنما ذلك لعنادهم المتأصل وإصرارهم على انتهاج منهج الظلم.

---

١ - راجع مسند احمد ج ٢٢، ص ٢٢٦، السنن الكبرى للنسائي، ج ٥، ص ٥١، ١٣٠، المستدرك على الصحيحين ج ١٠، ص ٣٧٧وج ١١، ص ٧٣. سنن الدارمي، ج ١٠ ص ١٩٠ وغيرها.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٣٩- وعندما اصطفى الله الأمم بحمل أمانة الكتاب، اكد عليها أنها مستخلفة على دين الله تعمر به الارض وتبني به المجتمع العابد، مجتمع المتقين، دون أن تأبه للكافرين الذي سيهلكهم كفرهم ويوصلهم الى الغضب الإلهي والخسران الأبدي باعتبار ان الكفر يعني البعد عن المسار الطبيعي والهلاك.

٤٠- وهؤلاء الذين تدعي شراكتهم لله وجودات لا قيمة لها ولا أثر من خلق ولا تأثير لها في حركة السماوات ولا تدبير، وليس لها من توجيه او كتاب منزل يحمل بينات صادقة كلا فما هنالك إلا الوهم والغرور المتبادل.

٤١- ان قدرة الله المطلقة هي التي تحرك الكون بل تمده بالوجود آناً فآناً، وهي تعطي قوانين الوجود قوتها ونفوذها وبها تقوم السماوات والأرض ولو انفصلت هذه الحالة عن الإرادة الإلهية فذلك يعني العدم لاريب لأنها وجودات تعلقية بالوجود الواجب، انه تعالى يجل عن أن يتوهم النقص في قدرته أو الشرك في تدبيره ولكنه يحلم ويغفر لهؤلاء الذين يتوهمون ثم يعودون الى رشدهم.

٤٢- ومن جهالات المشركين إدعاؤهم قبل أن يأتيهم الرسول مقسمين بأقصى الأيمان أنهم أمة موضوعية ومستعدة لحمل الهدى والرسالة اكثر من غيرها فلما جاءهم النذير الإلهي بالبينات الواضحة لم يكتفوا بالتكذيب والنكوص عن ادعاءاتهم السابق بل ازدادوا في العتو والنفور من الحق.

٤٣- إنهم مبتلون بأعظم الادواء وهو الاستكبار، وبه خرج إبليس عن العبودية وهو سر الظلم كله في التاريخ والدافع لكل مكر سيّئ، وقد بني الكون على الحق والعدل وعدم الانسجام مع الباطل ولذلك فإنَّ المكر السيّئ لا يصيب الا الماكرين ولو على المدى الطويل، فهي سنة تاريخية إلهية ثابتة لا تبديل لها ولا تحويل.

٤٤- هاهو التاريخ أمامهم فليسيحوا في الأرض وليروا بأنفسهم عاقبة السابقين من الجبابرة والامم القوية المكذبة بأنعم الله كيف طواها النسيان، تحدت الله فقهرتها قوته وهو العالم والقادر المطلق .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

سورة يس ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٥- ولو ان الله جلت قدرته شاء أن يعذب كل ظالم على الفور مؤاخذة دنيوية نتيجة ما كسبه من ظلم وفساد فإنه لن يبقى على وجه الارض من ديار يدب ويتحرك . ولكنه برحمته وحكمته يمهل الظالمين الى أجل معين فإذا حل هذا الأجل وفاهم جزاءهم بمقتضى علمه وهو البصير الخبير بعباده.

وهكذا انتهت السورة بتقرير الحقيقة التي بدأت بها- حقيقة خلق الله الكون بقدرة ورحمة وحكمة وتدبير.

سورة يس

ذكرنا معاني البسملة وجزئيتها للسورة.

١، ٢، ٣، ٤، ٥- قسم بالقرآن وما أعظم القسم؛ ووصف القرآن بالحكيم يوضح أروع صفة فيه وهي الحكمة وتوضيح حقائق الوجود والاسلوب الأمثل للتعامل معها والسير المتوازن نحو الكمال . ويأتي هذا القسم لتأكيد رسالة الرسول الاكرم الذي حمل هذه المعجزة للبشرية صراطاً مستقيماً لا عوج فيه ولا تمايل. حمله كل المرسلين من قبل وكان(ص) آخرهم وخاتمهم ليبلّغوا الناس رسالة ربهم الذي شاء بعزته وقدرته، ولطفه ورحمته أن يمنّ على أفضل المخلوقات بما يوصله الى كمال خلقته.

٦، ٧- وقد جاءت هذه الرسالة انذاراً يهز الغافلين الذين مرت عليهم دهور طويلة لم ينذروا فيها فانحطوا في هوة الغفلة وهي أشدما تبتلي به اكثرية الامم فتبتعد عن حياة الإيمان.

٨، ٩، ١٠- وإنه لعذاب رهيب؛ أيد مشدودة بالسلاسل إلى الأعناق وقد وضعت تحت الأذقان، ورؤوس مرفوعة إلى السماء فلا يمكنهم أن ينظروا الى الأمام، وسدود وموانع أوجدوها بأعمالهم تقف أمامهم ومن خلفهم فتحطيهم عن رؤية ما يحيط بهم. ولعل في نوع العذاب رمزية لنوع الإعراض والعناد الذي واجهوا به القرآن والرسالة حتى عاد الأمر سواء لديهم أيأتيهم الانذار أم لا، لانهم مصرون على ضلالهم.

١١- إن الإنذار الإلهي كالمطر لا يؤثر الا في أرض خصبة، فإذا كانت النفس مستعدة لمعرفة الحقيقة التي يحملها القرآن، خائفة من الرحمن الذي تشير إليه الفطرة، مثل هذا الأمر يوفر جو الاستفادة من الإنذار والبشارة بالمغفرة والأجر الكريم.

١٢- فالله هو المسيطر على الكون ومحيي الاموات وكل ما يحدث وكل آثاره بل كل شيء يحصيه علمه ويشتمل عليه اللوح (الامام) المحفوظ عنده.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

١٣، ١٤- مثل قرآني يضرب تأكيداً لما سبق وهو يعبّر عن عناية الله الشديدة بقضية الهداية رغم التكذيب والصدود، فهذه قرية (روي أنها انطاكية)[1] يرسل لها رسولان فيتم تكذيبهما فيعززهما الله بثالث ليؤكدوا جميعا على الرسالة.

١٥- وكان التشكيك بذكر شبهة البشرية وكأنها لا تناسب الرسول، ثم انكار الرسالة التي حملوها من الرحمن، واتهامهم بالتالي بالكذب.

١٦، ١٧- فأكّد الرسل رسالتهم بان الله يعلم بذلك وان ما عليهم هو الابلاغ الواضح للرسالة ومن واجب المخاطبين انفسهم التأمل في الخطاب.

١٨- وهنا أثار المكذبون شبهة التشاؤم والتطيّر وتوقع الخلاف وعقبوا ذلك بالتهديد بالرجم والعذاب الأليم ان لم يتركوا الدعوة.

١٩- وأكد الرسل ان التطير سخف ووهم وان الانسان يستطيع أن يؤثر في مستقبله من خلال مايفعله من خير أو شر. فلا ينبغي أن يقابل التذكير بالله والانذار بمثل هذه الشبه والتهديدات فما صدر منهم منبعث من اسرافهم وتجاوزهم الحد الطبيعي، والتصرّف السليم تجاه الامور.

٢٠، ٢١- وهنا يشير القرآن الى رجل أسمي بـ(مؤمن آل يس) اذ جاء من آخر المدينة ساعياً لتأييد الدعوة وحملتها مؤكداً على ضرورة اتباع الرسل، مستدلاً على سلامة نواياهم بعدم طلبهم الأجر من جهة وبوضوح الهدى في الدعوة من جهة اخرى.

٢٢- ووضّح الرجل معالم الهدى هذه بإشارته الى كون الانسان يؤمن بفطرته أن له خالقاً منحه الوجود، وانّ حكمة هذا الخالق تؤدي إلى أنه سوف يحاسب هذا العالم بعد رجوعه إليه فينبغي أن يعبد الخالق لأنه خالق وأن لا يعصى لانه سيحاسب العاصين. فالعبادة هي المنهج الطبيعي السليم.

٢٣، ٢٤- أما المنهج المنحرف فهو منهج من اتبع غير الله من مخلوقات لا قيمة ولا غنى لشفاعتها ولا تستطيع إنقاذ الإنسان مطلقاً، إنه منهج الضلال الواضح والانهيار والضياع.

٢٥- وهكذا اعلن هذا الرجل إيمانه بكل وضوح وتحد فليسمع كل أولئك الطغاة المكذبين.

٢٦، ٢٧- ونودي هذا المؤمن أن يدخل الجنة بعد أن قتل ـ كما يوحي به السياق ـ وكان كل العذاب مما لا يستحق الذكر وإنما المهم أن تقال كلمة الحق ثم يكون العطاء الإلهي الكريم، وهنا يتمنى ان يكون قومه المتكبرون على علم بهذا اللطف الإلهي حيث الغفران والتكريم فيرجعوا عن غيهم ويسلكوا سبيله المستقيم.

---

١ - تفسير القمي، ج ٢، ص ٢١٣.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

٢٨، ٢٩– أما قومه المتجبرون المعاندون فلم تنزل عليهم ملائكة من السماء لتقاتلهم بل كفاهم هواناً أن أهلكتهم صيحة واحدة فإذا هم بائدون.

٣٠– وهنا يتجلى اللطف الإلهي المعبر عنه بالتحسر على العباد الذين كان من المفروض بهم أن يسلكوا سبيل العبودية وهو سبيل تكاملهم ولكنهم انتهجوا منهج تكذيب الرسل والاستهزاء بهم.

٣١– الا يعتبر هؤلاء بفناء العصور السابقة وفقداتها لكل ما كانت تتفاخر وتتكبر به.

٣٢– وانها سترجع جميعاً الى ربها فيحاسبها على ما عملته.

٣٣– وأمام هؤلاء الآيات الإلهية الواضحة، وكلها تتناسب مع حاجة الإنسان ليحيا حياة طيبة؛ فهذه الأرض خلقت بالشكل المناسب فلا هي بالرخوة التي لا يستقر عليها شيء ولا هي بالصُلبة التي لا يخرج منها شيء وإنما هي معدة لتلقي المطر فتحيى به وتخرج نباتاً يتغذى منه الإنسان ويحمل معه حباً يديم وجود النبات ويوفر منبع الغذاء باستمرار.

٣٤– وهذا التنوع الرائع في النبات ، وهذه الجنات من نخيل التمر وانواع العنب، وهذه العيون الرقراقة المتفجرة بالخير هنا وهناك تنشر الحياة وتوزع الارزاق.

٣٥– كل ذلك الذي ينتج أحيانا بشكل طبيعي او عبر العمل البشري إنما هو لإشباع الحاجة الانسانية للطعام والجمال ثم ليشكروا الله عليه شكراً قولياً وعملياً.

٣٦– ان هذه الزوجية الحاكمة في حياة الإنسان والنبات وفي مختلف المجالات التي لا يعلمها الإنسان، تعبر عن وحدة التخطيط والتدبير واللطف مما يدع الكون في تسبيح متناغم.

٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠– وهذا التعاقب الجميل بين الليل والنهار لتتحقق الفوائد المترتبة عليه، وهذه الشمس بعطائها العظيم وحركتها الهائلة بتقدير من العزيز العليم. وهذا القمر بمنازله المتنوعة وحركته الدقيقة وصورته التي يظهر بها هلالاً يكبر قليلاً فقليلاً ليصبح بدراً ثم يتناقص حتى يعود كالعذق القديم (هلالاً مقوساً) وكل يسبح في فلكه بدقة متناهية لتسهل أمور الحياة لهذا الإنسان.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ
فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ
أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ
هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ
لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

٤١،٤٢- وهذه الفلك الجارية في البحار، المملوءة بالناس وأمتعتهم لتحقق لهم طي المسافات البعيدة والمستفيدة من القوانين والنواميس الإلهية في الكون، وللسفن مثيلاتها التي تحقق نفس الأغراض.

٤٣- ولوشاء الله ما ثبتت هذه المراكب بالعواصف وغيرها ولغرقت دون أن ينقذها احد.

٤٤- نعم إن الرحمة الإلهية الشاملة هي التي سهلت هذه الطبيعة وسخرتها لصالح الانسان الى مدة معلومة.

٤٥،٤٦- كل هذه الآيات مما ينبغي أن يثير في نفوس هؤلاء المشركين الرهبة والخشوع لعظمة الله والخوف نتيجة ما يقومون به من معاص تجري أو جرت بين ايديهم وما يتوقعونه من عذاب يواجهونه بعد موتهم ولكنهم يبقون في الغي سادرين، معرضين عن آيات ربهم الواضحات.

٤٧- وعندما طلب منهم أن ينفقوا على عباد الله الفقراء من مال الله الذي امتنّ به عليهم ورزقهم اياه راحوا يستهزئون من ذلك مبررين امتناعهم عن إطعامهم بان الله لو شاء لأطعمهم، ومتهمين من دعاهم لذلك بالضلال الواضح، خلطاً منهم بين إرادة الله التكوينية فهي لا تتخلّف وبين الإرادة التشريعية التي تدعو لقيام من لهم المكنة المالية بمساعدة الضعفاء وإعطائهم من رزق الله.

٤٨،٤٩،٥٠- ويستمرون في لجاجهم مستعجلين عذاب الله ولكن هذا العذاب قائم على اساس من الحكمة وله موعده وليس رهيناً بأهوائهم فاذا حل أخذتهم صيحة واحدة تنسفهم وهم مشغولون في جدالهم وصراعهم فلا يستطيعون ان يوصوا بشيء او يرجعوا الى اهاليهم وأوطانهم.

٥١،٥٢- فإذا نفخ في البوق ايذاناً بالبعث تجدهم ينهضون من قبورهم مسارعين الى المحشر متسائلين عن هذه القدرة التي بعثتهم من جديد مدركين أنها قدرة الله وإرادته التي وعد بها الله وصدق المرسلون بتبليغها.

٥٣،٥٤- صيحة واحدة نقلتهم من عنادهم الى الفناء ثم نقلتهم الى محضر الله ليحاسبوا بكمل عدالة ويواجهوا الحقيقة الجهنمية لأعمالهم دونما ظلم، والظلم لا يعقل في الساحة الإلهية.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨- انها النعمة التي ما بعدها نعمة- حيث الاشتغال بالنعيم واللذائذ وحيث الظلال والإتكاء على الارائك والمساند مع الازواج ، وحيث تستطاب الأطعمة والفواكه وكل ما يدعون وتشتهيه انفسهم، وحيث الرضا الإلهي والأمن والسلام والتحية المهداة من الرب الرحيم.

٥٩- أما المجرمون المعاندون فهم مأمورون بالانعزال عن المؤمنين والانطواء على العذاب.

٦٠،٦١،٦٢- انها جرائمهم هم بحق أنفسهم بعد ان تغافلوا عن أمر الله وعهده المبين إليهم أن يبتعدوا عن خط الشيطان، إذ كان لهم عدواً بيناً يعمل على إغوائهم وإنحرافهم عن خط الفطرة وخط التكامل لتحقيق الهدف الاسمى للخلقة البشرية وهو الخط المستقيم، ولكنهم لم يبأبهوا لذلك ولم يلحظوا المصير البائس للأجيال الكثيرة التي اتبعته فقادهم الى الذل والحضيض، إن هذه النتيجة كانت حرية أن تقودهم - لو تعقلوا - إلى الهدى .

٦٣،٦٤- لقد كذّبوا من قبل بالوعيد الإلهي وهاهم اليوم يبصرون جهنم ويصلونها لقاء كفرهم وتكذيبهم.

٦٥- وهاهم في موقف رهيب؛ أفواه مكممة لا تملك الصراخ والاحتجاج، وايد وأرجل تتكلم وتشهد على أصحابها بالجريمة فلا مجال للانكار.

٦٦- وتزداد الرهبة حين نجدهم عمياناً مطموسين يتزاحمون ويتسابقون لعبور الصراط دونما بصر او وعي وبكل تخبط وضياع.

٦٧- ولو شاء الله لشدهم الى مواقفهم وجمدهم فيها فلا يمكنهم التقدم أو التأخر وفي ذلك الغاية من الخزي والذل والهوان.

٦٨- إنها العبرة التي يجب أن يعتبر بها المعتبرون، ويستغلوا كل فرصة للتكامل والسير في طريق تحقيق الأهداف. ذلك أن الطاقات الشبابية المتفجرة سوف تفنى بامتداد العمر وستنخفض وتيرة الخلق وينتكس هذا العلم الشامخ مما يدفع الانسان للتعقل واستثمار الفرص والتفكير بالمصير.

٦٩- وتبدأ السورة من هنا بتلخيص النتائج فالقضية الأولى هي ان القرآن كتاب الوعي والذكر المبين الهادي ، وليس كما يزعم المعاندون شعرا وخيالا فهو مما لا ينبغي للنبي.

٧٠- وهو إنما يهدي النفوس المستعدة التي تملك مقومات الحياة الحقيقية من التعقل والفكر، والعاطفة المنسجمة والإرادة القوية الواعية. أما المعاندون الكافرون فقد اختاروا لأنفسهم طريق الضلال ولذا يسجل عليهم العذاب.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سورة الصافات

٧١، ٧٢، ٧٣- والقضية الثانية التي أكدت عليها السورة هي قضية التوحيد في الخلق من خلال استعراض النعم المترابطة والمؤثرة في استمرار الحياة الانسانية- حيث- الأنعام التي يسيطر عليها الإنسان ويسخرها لمصالحه ، فهي مذللة يركبها ويأكل من لحومها وينتفع بها ويشرب ويستسقي، ولو شاء الله لما ذلت له وهي أقوى منه احياناً إنها ظاهرة ضخمة تستحق الشكر لا الكفر.

٧٤، ٧٥- وبذلك تتقرر قضية التوحيد في العبادة له تعالى والابتعاد عن الشرك واتخاذ الآلهة الوهمية من دون الله، واللجوء اليها طلباً لحمايتها وهي لا تستطيع أن تحمي نفسها، بل هي ربما اكتسبت قوتها وهيبتها من الجماهير المحتشدة حولها. وفي هذه المعاني توضيح لحقائق كبرى فربما قيدت الجماهير نفسها بقيود وأصنام وفراعنة لا حقيقة لهم ولا قوة وإنما حكموا الجماهير بما اكتسبوه منها.

٧٦- وهذه قضية مترتبة على ما سبقتها- فالنبي ومن بعده المؤمنون يجب ان لا تفت في عضدهم أقاويل المستهزئين وتهديدات الطغاة ذلك إنها جميعاً تحت سمع الله وبصره ، مهما استخفوا بها أو أعلنوها.

٧٧- وهذه قضية اخرى ركزت عليها السورة وهي مسألة البعث فطرحتها باسلوب فطري واضح لا لبس فيه- اذ تبدأ بتذكيره بكونه اول الامر نطفة حقيرة ولكن الله من عليها باعظم المنن حتى عادت انساناً مكرماً عاقلاً. وبدلاً من ان يشكر الله ويتذكر هذا الخلق راح ينساه ويتساءل عن امكان ان يحيي الله هذه العظام بعد ان يموت الانسان وتتحول الى وجودات بالية .

٧٨- هذا هو الجواب القاطع لذلك التساؤل السخيف- أن المحيي من جديد هو المنشئ الأول المبدئ، وهو العليم القادر على إيجاد كل التحولات وبه تتم ومنه تستمد.

٧٩- إنها القدرة الإلهية التي سهلت للانسان حياته واعطته من الشجر الأخضر المليء بالماء طاقة وناراً حارة سخرت له ليوقد منها ما يسهل له أكل طعامه بل يستعين بها على تسهيل مختلف اموره فكلها تتوقف على الطاقة، وهي نعم لا يمكن احصاؤها.

٨٠- وهذا الكون وهذه المجرات وهذه الارض بما فيها من عظمة خلقتها يد القدرة الالهية فهل يستكثر منها أن تعيد الرميم الى حالته الأولى ويبعث الانسان من جديد. نعم سيتحقق الأمر بيد الخلاق العليم.

٨١، ٨٢، ٨٣- هذه هي الحقيقة الكبرى فهو تعالى الوجود المطلق والقدرة المطلقة التي لا تحتاج الى شيء ولا يقف أمامها شيء فتكفي إرادته لتحقق الأشياء وتوجد . إن الكون كله قائم به تعالى مملوك له منقاد اليه مسبح منزه له وعائد بالتالي اليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

سورة الصافات

تحدثنا عن البسملة سابقاً.

١،٢،٣- وهذه السورة هي أول سورة تبدأ بالقسم والقسم هنا كما يبدو بالملائكة التي تصطف لتنفيذ أمر الله والتي تزجر العصاة عن أمره والتي ترتل أمر الله وتتلو ذكره على الأنبياء.

٤،٥- بعد هذا القسم العظيم يأتي التأكيد على الإله الواحد رب الكون كله وكل ظواهره ومنها مشارق الشمس والنجوم وما أعظم هذه الظواهر.

٦- ولكنها عند الله صغيرة، إنها تزين السماء الدنيا وتساهم في تسهيل حركة الكون وتسخيره. وكل هذا الترابط دليل على الاله الواحد المدبر.

٧،٨،٩،١٠- ومن وظائف الكواكب أنها تمنع بشهبها النافذة حركة الشياطين الماردة الى حيث معرفة الاسرار الالهية لدى الملائكة فتدحرها وتدفعها وتعذبها عذاباً اليماً ان حاولت أن تنتهز الفرص لتجاوز الحد. ولهذه الآيات ظواهر نفهمها كما لها بواطن تحتاج إلى المزيد من التفكر والتأمل.

١١- إنها جميعاً مخلوقات الله يدبر امرها ويسيطر عليها ولا تقاس الى عظمتهاخلقة الانسان من طين لزج مهين فيجب أن ينسجم الانسان مع هذا الكون العظيم ويعبد الله الواحد العظيم.

١٢،١٣،١٤،١٥- وإذ يعجب الرسول من سخفهم وعنادهم للآيات الواضحة يستمر هؤلاء في استهزائهم بالحقيقة وغرقهم في الغفلة رغم التذكير، والسخرية من آيات الله البينات، واتهام الرسول بالإتيان بالسحر الواضح ويعنون به القرآن.

١٦،١٧- وطرح الشبهات الواهية وأن البعث بعد الموت والتحول الى تراب وعظام أمر غير ممكن، وهل يمكن أن يبعث آباؤهم الاولون؟!

١٨- ليأتيهم الجواب القاطع المستند الى علم الله وقدرته أن نعم سيتحقق البعث رغم انوفكم لتعودوا اذلاء خاشعين.

١٩،٢٠- إنها زجرة وصيحة واحدة تكفي لبعثهم وإدخالهم الى يوم الحشر لينظروا الحقيقة بأم اعينهم، ويعلنوا الويل وخوف العذاب في يوم الحساب.

٢١،٢٢،٢٣،٢٤- إنه يوم الحقيقة الفاصلة الذي كانوا به يكذّبون ، يوم النداء الرهيب بزج الكافرين الظالمين المعاندين وقرنائهم وآلهتهم المزعومة المعبودة من دون الله، زجهم جميعاً الى النار المتأججة حيث يحاسب الجميع في هذا المسير الرهيب عن مدى قيامهم بمسؤولياتهم.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)

٢٦،٢٥- وزيادة في التبكيت يسألون عن السبب في عدم معونة بعضهم البعض الآخر ليأتي الجواب- ان الكل اليوم مستسلم ذليل للعذاب الرهيب.

٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢- إنه حوار العصاة والغواة وتلاومهم، فالعصاة الأتباع يتهمون الغواة المغررين بهم بأنهم كانوا يخادعونهم بفتح طرق اليمن الوهمي واللذة والسعادة والعزة الكاذبة أمامهم ، ليجيب الغواة بأن العصاة هم أنفسهم لم يكونوا يملكون مقومات الإيمان بل كانوا مؤهلين للغواية والا فلم يكن للغاوين على قلوبهم سلطان بل كانوا قد اتبعوا أهواءهم وطغوا وتجاوزوا حدودهم الانسانية الفطرية فمهدوا لتأثير الغواة عليهم ليستحق الجميع عذاب الله وتسري الغواية الى هؤلاء الاتباع.

٣٤،٣٣- وهكذا يشترك التابعون والمتبوعون في العذاب لأنهم ساهموا جميعاً في دعم مسيرة الباطل وهذا هو قضاء الله في المجرمين المتكبرين المعاندين.

٣٥- لقد تأصل الاستكبار في نفوسهم فانكروا أوضح الحقائق وهو التوحيد .

٣٦- وتمادوا في العناد والتعصب قائلين- أنترك آلهتنا ونتبع شاعراً مجنوناً؟!

٣٧- إلا أن الحقيقة ، وكل الظواهر وملاحظة ماضي الرسول الصادق الأمين والتأمل فيما يطرحه من كلام حكيم كل ذلك يؤكد أنه جاء بالحق واكمل مسيرة النبوة الواعية.

٣٩،٣٨- انهم اذن يستحقون العذاب الأليم لعنادهم ولا يجزون الا ما جنته أيديهم.

٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣- أما عباد الله المخلصون فلهم حياة الوعي والاخلاص ولهم الجزاء الاوفى والرزق المعلوم وما يلتذون به في ظل الإكرام الإلهي في جنات النعيم.

٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧- والأسرّة المتقابلة ، والكؤوس الملأى بالشراب الصافي المشبع للذة الإنسانية بعيداً عن مضار الخمر في الدنيا وفسادها وإذهابها للعقل كل ذلك يضيف لذة رائعة لصورة النعيم في الجنة.

٤٩،٤٨- ويضيف وجود الحور اللواتي تقصر الانظار عن رؤيتهن، واللواتي يتمتعن بالعيون الشديدة السواد والبياض الرائعة الساحرة الجميلة بهاءً وروعة لهذا المنظر. والآيات إنما تعرض نموذجاً لنعيم الجنة لبعض المؤمنين والتي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت.

٥١،٥٠- وفي قبال حوار العصاة يأتي هذا الحوار الواعي ليقول قائل منهم- انه كان معه صاحب يشككه في الآخرة.

يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٥٣،٥٢- ويتذكر كيف كان يعجب منه وكيف يصدق مسألة البعث بعد أن تتحول الأبدان الى تراب وعظام نخرة ليعود الناس ويقوم الحساب .

٥٥،٥٤- وفي التفاتة الى جهنم يرى قرينه هذا في وسط الجحيم.

٥٧،٥٦- فيخاطبه بتبكيت إنه كاد أن يسوقه معه الى الردي والضياع، وانّ الفضل لله تعالى إذ أنقذه من ذلك الموقف الرهيب.

٥٩،٥٨- ويستمر في التبكيت قائلاً ترى أصحيح ماكان يردده قرينه بأننا لن نموت الا موتتنا الأولى المعهودة ولا بعث بعدها ولا عذاب؟

٦١،٦٠- كلا إن الحقيقة التي اتضحت لتؤكد خطأ ذلك التشكيك وصحة الإيمان بالبعث المنسجم مع الإيمان الفطري بعدم العبثية في الكون. ان الإيمان قاد الى هذا الفوز العظيم وهو الخلود في النعيم الأمر الذي ينبغي أن يعمل لمثله العاملون.

٦٦،٦٥،٦٤،٦٣،٦٢- تأكيد على المقارنة بين منزلة الفريقين- المستكبرين والمخلصين- ذلك التكريم الذي لا مثيل له وهذا العذاب المهين للظالمين حيث يطعمون من شجرة الزقوم التي تنمو في اصل جهنم فيفتتن بها الظالمون ويبتلون، نتاجها في اقبح صورة واكثرها رعباً ولكن عليهم أن يأكلوا منها ويملأوا بطونهم من ثمرها المر الكريه.

٦٨،٦٧- يضاف الى ذلك الطعام مزيج بالغ الحرارة واستقرار في النار اللاهبة.

٧٠،٦٩- انه عذاب إهمال العقل والفكر فهؤلاء رأوا آباءهم على طريقة ضالة فاتبعوهم دونما تأمل سائرين بسرعة على نفس الطريقة بلا وعي.

٧٤،٧٣،٧٢،٧١- وهكذا سبقتهم من قبل أمم اعماها التقليد عن رؤية ما عرضها عليهم الأنبياء المنذرون فابتلوا بنفس العاقبة، ونجا المخلصون المفكرون .

٧٦،٧٥- وتضرب قصة نوح وقومه مثالاً لهذه العاقبة- فيتم التذكير بنداء هذا النبيّ الذي طلب فيه النصرة على المكذبين، فاستجاب الله ونجاه وأهله من البلاء العظيم والطوفان العام.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨)
سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠)
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ
مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ
(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ
(٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ
آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ
ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا
فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ
(٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ
الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ
قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)

٧٨،٧٧- وهكذا طهرت الأرض من المعاندين ولم يبق إلا ذرية نوح ليحملوا امانة الخلافة الإلهية جيلاً بعد جيل.

٨٢،٨١،٨٠،٧٩- إنه سلام الله وبركاته على البشرية الخيرة آنذاك وقائدها نوح الذي اختار طريق الإحسان ، والعبودية والإيمان ، وإنه الدمار والغرق للآخرين.

٨٤،٨٣- واستمرت مسيرة التوحيد بعد نوح ليحمل لواءها إبراهيم الذي أسلم وجوده لله.

٨٧،٨٦،٨٥- ورفع نداء الحق معترضاً على قومه في عبادتهم الآلهة المزورة من دون الله. ذلك ان تصورهم عن الله سخيف ولذلك عبدوا غيره وهو الحقيقة والقدرة والوجود المطلق. ولو تصوروه بشكل صحيح لآمنت به فطرتهم بلاريب.

٩٠،٨٩،٨٨- وأراد قومه أن يخرجوا في عيد لهم فتخلف عنهم بحجة أنه سيعتريه مرض وانه اكتشف ذلك من تأمله في حركة النجوم. فتركوه وأسرعوا الى فرحهم.

٩٣،٩٢،٩١- فاتجه الى محل الآلهة وأمامها طعام مقدم لها ليقول لها - بتهكم- كُلي من هذا الطعام وطلب منها أن تجيب وهو يعلم حالها فمال عليها ضرباً بكل قوة.

٩٦،٩٥،٩٤- وحين علم القوم بالأمر اتجهوا إليه مسرعين ومتسائلين. فواجههم بموقفه ومنطقه المتين مستنكراً عليهم أن يعبدوا ما يصنعونه بأيديهم والواقع الفطري يؤكد أن الله هو خالق الجميع- الصانعين والمصنوعات.

٩٧- فصمموا على بناء محل يشعلون فيه النيران ويلقونه فيها عقاباً.

٩٨- وهكذا احتالوا للقضاء عليه فأنجاه الله وإرادته هي النافذة.

٩٩- وصمم على الهجرة ليبدأ مرحلة حياتية اخرى مؤمناً بهداية الله ورعايته.

١٠١،١٠٠- ودعا ربه أن يرزقه ولداً صالحاً فجاءته البشرى بالولد الحليم الصابر الواعي (اسماعيل).

١٠٢- وحين بلغ الولد حد السعي والإرادة الحرة أخبر الوالد ابنه بأنه أمر في المنام (ومنام الأنبياء وأحلامهم حجة لأنها صادقة) أن يذبحه فما هو موقفه؟ ليأتي الجواب الرائع الواثق المؤكد بأنه يمتثل لما أمر به وأنه سيستجيب لأمر الله مع الاعلان بأنه إن صبر على هذا الموقف فإن ذلك بإرادة الله ولطفه وبذلك عبر عن تسليم واع حليم.

فلما أسلما وتله للجبين (١٠٣) وناديناه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) إن هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨) سلام على إبراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) إنه من عبادنا المؤمنين (١١١) وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (١١٢) وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين (١١٣) ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨) وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢) وإن إلياس لمن المرسلين (١٢٣) إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الأولين (١٢٦)

١٠٣،١٠٤،١٠٥،١٠٦– وهكذا تجلّت صورة التسليم الرائعة للأب وابنه معاً حيث مده ارضاً استعداداً للذبح وهنا نودي ابراهيم أنه قد استجاب لأمر الله وحقق ما جاء في الحلم ونجح في الامتحان الصعب، وكان بذلك من المحسنين العاملين المتحملين لكل الظروف مهما كانت صعبة استجابة لأمر الله.

١٠٧،١٠٨– و فدا الله الولد بكبش كبير ليذبحه الأب بدلاً عنه ليمضي إبراهيم مثلاً حياً في تاريخ البشرية الواعية على التسليم لله الواحد.

١٠٩،١١٠،١١١– وهاهو سلام الله يتكرر على إبراهيم وكل المحسنين في الارض، الذين قاموا بحمل أمانة الإيمان والعبودية الحقة.

١١٢،١١٣– وجاءت هذه البشارة الثانية بإسحق بعد البشارة الأولى باسماعيل لتعلن أن البركة شملت إبراهيم وإسحق لتحمل ذريتهما الأمانة الالهية فمن حملها منهم فهو محسن ومن نكص عنها فهو ظالم وهكذا كان شأن بني اسرائيل. وفي هذا تلميح الى بعض أهل مكة المنتسبين الى إبراهيم والمنحرفين عن خطه.

١١٤،١١٥،١١٦– وهذا مثال ثالث لموضوع عاقبة المنذرين، إذ تتم الاشارة الى موسى وأخيه هارون، والمنّة عليهما بالنبوة والنجاة لهما ولقومهما من البلاء العظيم ظلم فرعون وقومه، ونصرهم عليهم.

١١٧،١١٨،١١٩– وقد آتاهما الله الكتاب الموضح للحقائق ووضح لهما الصراط الأقوم، ليبقيا أيضا معالم لائحة في تاريخ الشهادة النبوية على مسيرة الخلافة.

١٢٠،١٢١،١٢٢– ويأتي السلام عليهما لأنهما كانا في مسيرة المحسنين والعباد المؤمنين.

١٢٣،١٢٤،١٢٥،١٢٦– ويستمر ذكر النبوة والأنبياء فيذكر هنا إلياس الذي دعا قومه لتقوى الله واعترض عليهم باتخاذهم الصنم (بعلاً) وتركهم أحسن الخالقين والكون بكل جماله وجلاله يشهد له وهو رب البشرية جمعاء.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ
يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ
﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا
عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ
أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ
إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾
وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

١٢٧، ١٢٨، ١٢٩- ورغم الوضوح والمنطقية في الاستدلال فقد كذبه قومه، ولكنهم سيحضرون إلى الحساب ويستثنى منهم العباد المخلصون، وسيبقى مثلاً حياً للآخرين.

١٣٠، ١٣١، ١٣٢- وهكذا تستمر مسيرة الشهادة النبوية ليبقى إلياس مثلاً تاريخياً حياً لجزاء الله للمحسنين والعباد المؤمنين.

١٣٣،١٣٤،١٣٥،١٣٦- ويستمر العرض السريع للنماذج الشاهدة ورحمة الله الشاملة لها ولمن تبعها فهاهو لوط النبيّ ينجيه الله وأهله الا امرأته العجوز الضالة التي تتخلف فتلقى مع الهالكين فيصيبها الدمار والضياع.

١٣٧،١٣٨- إنها العبرة التي يجب أن يعتبر بها المكذبون في عصر البعثة وهم يمرون على آثارها صباح مساء دون أن يتأملوا أو يفكروا في مثل هذه العاقبة.

١٣٩،١٤٠،١٤١،١٤٢- وهذه لمحة إلى النبيّ يونس الذي كان ينبغي له أن يكون في قمة المطيعين فضاق صدره بقومه المكذبين وتركهم بما لا ينبغي له أن يفعل. فتوجه هارباً إلى البحر، وحين ركب سفينة ضربتها الأمواج فارتأى الركاب أن السفينة معرضة للغرق لثقلها فاقترعوا ورست القرعة عليه فألقوه في البحر وهنا التقطه الحوت وهو مستحق للوم على إباقه.

١٤٣،١٤٤- وهنا يعود هذا العبد الصالح الذي فعل ما كان أولى به أن لا يفعله فلجأ إلى الله مسبحاً مستغفراً معلناً انه كان من الظالمين ليستجيب الله له دعاءه ولولا ذلك لبقي سجينا هناك إلى الأبد.

١٤٥،١٤٦- وعندما اذن الله ألقاه البحر إلى اليابسة عارياً سقيماً في العراء فمنّ الله عليه وأنبت إلى جنبه شجرة القرع بورقها العريض لتظله.

١٤٧،١٤٨- ثم أرسله الله إلى قرية فيها مائة ألف إنسان أو أكثر لينذرهم ويهديهم فآمنوا به وشملتهم الرحمة الإلهية وتمتعوا بها عباداً صالحين إلى أجل معين.

١٤٩،١٥٠- وانطلاقاً من حقيقة عبودية الخلق لله يردّ القرآن على توهم المشركين من كون الملائكة بنات الله، فيسخر من هذه الدعوى فهم يحبون البنين وينسبون لله البنات، وهم يدعون كون الملائكة إناثا وكأنهم شهدوا كيفية خلقهم.

١٥١،١٥٢،١٥٣- إن صفة الكذب الإفك والافتراء هي التي تدفعهم لنسبة الولد لله سبحانه وتعالى عن أن يكون له ولد أو يصطفي البنات على البنين فكل ذلك من توهمات الشرك وضلالاته.

ما لكم كيف تحكمون ﴿١٥٤﴾ أفلا تذكرون ﴿١٥٥﴾ أم لكم سلطان مبين ﴿١٥٦﴾ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴿١٥٧﴾ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴿١٥٨﴾ سبحان الله عما يصفون ﴿١٥٩﴾ إلا عباد الله المخلصين ﴿١٦٠﴾ فإنكم وما تعبدون ﴿١٦١﴾ ما أنتم عليه بفاتنين ﴿١٦٢﴾ إلا من هو صال الجحيم ﴿١٦٣﴾ وما منا إلا له مقام معلوم ﴿١٦٤﴾ وإنا لنحن الصافون ﴿١٦٥﴾ وإنا لنحن المسبحون ﴿١٦٦﴾ وإن كانوا ليقولون ﴿١٦٧﴾ لو أن عندنا ذكرا من الأولين ﴿١٦٨﴾ لكنا عباد الله المخلصين ﴿١٦٩﴾ فكفروا به فسوف يعلمون ﴿١٧٠﴾ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴿١٧١﴾ إنهم لهم المنصورون ﴿١٧٢﴾ وإن جندنا لهم الغالبون ﴿١٧٣﴾ فتول عنهم حتى حين ﴿١٧٤﴾ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴿١٧٥﴾ أفبعذابنا يستعجلون ﴿١٧٦﴾ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴿١٧٧﴾ وتول عنهم حتى حين ﴿١٧٨﴾ وأبصر فسوف يبصرون ﴿١٧٩﴾ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴿١٨٠﴾ وسلام على المرسلين ﴿١٨١﴾ والحمد لله رب العالمين ﴿١٨٢﴾

سورة الصافات

١٥٤،١٥٥،١٥٦،١٥٧– توبيخ للمشركين على توهماتهم وأحكامهم السخيفة وابتعادهم عن المنطق والوعي السليم وإطلاقهم المزاعم دونما دليل واضح او كتاب منزل يستندون إليه.

١٥٨،١٥٩،١٦٠– ردٌ على وهم آخر للمشركين إذ جعلوا لله مع الجن نسباً وهو سبحانه منزه عن ذلك، وماهم إلا خلق من عباد الله يحضرهم يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم، ويؤاخذهم بذنوبهم وينجي العباد المخلصين منهم الذين ينزهون الله عن هذه الصفات ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

١٦١،١٦٢،١٦٣– بعد أن ردَّ القرآن على موهوماتهم أعلن لهم هنا أنهم وكل ما يعبدون من اصنام لا يستطيعون أن يفتنوا أو يغروا أحداً باتباع أضاليلهم إلا من كان مؤهلاً للاغراء وسلوك السبيل المؤدي للنار.

١٦٤،١٦٥،١٦٦– أما الملائكة فإنهم يعلنون عبوديتهم لله ولكل مقامه المعلوم وواجبه المعين يؤدونه، وأنهم يقفون صفاً منفذين ومطيعين لأوامره ومسبحين منزهين له.

١٦٧،١٦٨،١٦٩، ١٧٠– استمرار في الردّ على ادعاءات المشركين فقد كان يعلنون من قبل أنهم لو أنزل عليهم كتاب – كما أنزل على الآخرين – لآمنوا به عابدين مخلصين. وها قد أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم ولكنهم لم يؤمنوا به وبالتالي سوف يرون عاقبة هذا التكذيب.

١٧١،١٧٢،١٧٣– نعم إنها كلمة الله ووعده الصادق لعباده المرسلين أن دعوتهم هي المنتصرة لأنها الحق والعدل، وأن جند الله هم الغالبون على اعدائهم مهما كانوا من القوة والجبروت لأنهم على الباطل.

١٧٤،١٧٥– فليتركهم الرسول على عنادهم حتى يحين العذاب الذي سيراه الجميع.

١٧٦،١٧٧– إنهم يهزأون بالوعيد ويستعجلون العذاب ولكنه حين ينزل بهم سيجدون البؤس والشقاء.

١٧٨،١٧٩– تكرار للتهديد بالعذاب الذي سيشهده الجميع .

١٨٠،١٨١،١٨٢– ختام يوضح كل اهداف السورة: فالله تعالى هو رب العزة المنزه عن كل ما يصفون، ومسيرة الانبياء هي مسيرة السلام والنصر، ويبقى الحمد والشكر والفضل كله لله ربّ العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

سورة ص

ذكرنا من قبل معاني البسملة وأنها جزء السورة.

١- تحدثنا من قبل عن الحروف المقطعة التي تبدأ بها بعض السور وتبدأ السورة بالقسم بالقرآن الذي يتركب من هذه الحروف ويعجز عن الإتيان بمثله الآخرون تأكيداً على وظيفة التذكير والهداية للإنسان والإنذار له. فالقرآن فيه الاقتضاء التام للهداية.

٢،٣- الا ان الكافرين يعرضون عن الذكر والعودة إلى مقتضيات الفطرة من خلال اعتزازهم الاعمى وشقاقهم وعصيانهم فلا يتأملون في عواقب التكذيب التي أصابت من قبلهم فنادوا بالويل دون أن يكون لهم سبيل للخلاص.

٤- لقد دفعهم عنادهم للتعجب من قضية كون الرسول بشراً مثلهم واتهامه بالسحر والكذب في حين انه هو الأمر المنطقي لأنه يجب أن يكون قدوة لهم وقائداً إلى الكمال وهو هدف النبوة.

٥- لقد تأصل العناد والشرك في نفوسهم فراحوا يتعجبون من التوحيد رغم انه ما تقتضيه الفطرة والمنطق السليم.

٦- وجاء اسلوب التحذير فراح اشراف القوم ينطلقون إلى كل مكان للتحذير من هذه المؤامرة! ويطلبون الوقوف ضدها.

٧- ولكي يؤكدوا التحذير راحوا يموّهون على الناس بان اقوال الرسول إنما هي أقوال مبتدعة لم تقل بها الشعوب المعاصرة فهي من أساطير الاولين.

٨- ولكي ينفذوا إلى نفوس الآخرين من السذج يتساءلون عما يتميز به الرسول على غيره حتى يخصه الله بالوحي والحقيقة هي أنهم يشكون في الذكر نفسه فلينتظروا اذن عذاب الله.

٩- انّ الوحي رحمة الله ولطفه ينزله الله على من يستحقه من النفوس الكاملة وعنده خزائن الرحمة وهو العزيز القوي الحكيم الفياض، على النفوس المستحقة .

١٠- ويتهكم يطلب القرآن منهم أن يستخدموا ما يملكون من قدرات في السماوات والارض ويرتقوا الاسباب ليمنعوا نزول الوحي على الرسول!!

١١- كلا انهم فئة مهزومة وآراء متفرقة ومجموعة منبوذة لا قيمة لها رغم ادعاءاتها.

١٢،١٣،١٤- إنهم امتداد لأمم مكذبة اخرى كقوم نوح وعاد وفرعون صاحب الأعمدة والأهرام وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (اصحاب الأيكة)، فقد كانوا احزاباً معاندة كذبت الرسل فاستحقت العقاب.

١٥- نعم ان هؤلاء المستكبرين مجموعة لا قيمة لها تكفيها صيحة تقضي عليها في مدة قصيرة.

١٦- وهي من عنادها تدعو ربها أن يعجل لها نصيبها (قطنا) من العذاب.

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

١٧- إن الصبر هو عدة الانبياء والدعاة إلى الله، به يستعينون وعلى ربّهم يتوكلون. وتذكر حياة الانبياء يمنح الإنسان دروساً فيه، وهذا درس من حياة داوود إنه يملك قوة في الملك والعلم والحرب ولكنه أمام الله تواب أوّاب ضعيف.

١٨- لقد كان مسبحاً ينزه ربه فتسبح معه الجبال ليلاً ونهاراً وهذا من اجمل صور الانسجام بين الإنسان والطبيعة وكلاهما مخلوق لله .

١٩- وكانت الطيور تتناغم مع تسابيحه لطفا من الله به .

٢٠- وجاءه الدعم الالهي بتقوية ملكه ومنحه الحكمة والمعارف الدقيقة والقدرة على معرفة الحقائق وبيان الراي النهائي القاطع في مختلف المسائل .

٢١،٢٢- إن داوود رغم قوته ضعيف محتاج لتسديد الله، فها هو يفاجأ بشخصين يتسوران حائط المحراب الذي كان يتعبد فيه فيفزع من هذا العمل ليطمئناه بانهما انما جاءا ليقضي بينهما بعد ان تعدّى احدهما على الآخر طالبين منه الدقة والعدالة والحكم بالحق.

٢٣- فهما اخوان احدهما يملك تسعاً وتسعين نعجة والآخر يملك نعجة واحدة وقد طلب مالك النعاج الكثيرة من اخيه نعجته الوحيدة لتكون تحت كفالته وشددّ عليه (عزه) في الطلب.

٢٤- واندفع داوود يحكم بما ظهر له – ودون الاستفسار من الخصم – بظلم صاحب النعاج لأخيه وتابع: إن الكثير من الشركاء يتعدى بعضهم على الآخر الا المؤمنين العاملين للصالحات وهم قلة عادة، وبسرعة لاحظ داوود الموقف الصحيح وعلم بأن الامر كان مجرد امتحان (فتنة) (وقد روي ان الخصمين كانا ملكين)[1] فرجع مباشرة إلى ربه مستغفراً عابداً تائباً طالباً التسديد. وفي الآية تربية على التروي في إصدار الاحكام وضرورة الاستقصاء ودراسة حيثيات الموضوع من مختلف جوانبه.

٢٥- ويأتي التسديد والغفران والتأكيد على منزلته وحسن عودته.

٢٦- ويتوجه النداء إلى داود بتذكيره بنعمة الخلافة التي أعطيت له، وأن عليه أن يتخلق باخلاق الله، فيحكم بالعدل، وينبذ الانفعال والهوى الذي يضل عن سبيل الله وواضح أن الضالين عنه سيؤول أمرهم إلى العذاب الشديد لنسيانهم يوم الحساب رغم أن المنطق السليم يؤكد وقوعه.

---

١ – عيون اخبار الرضا، ج ١، ص ١٩٤.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

٢٧- إن الهدفية في الخلق عنصر اساسي في تصور المسلم، وحقيقة يقود اليها العقل المؤمن بالله الحكيم، المتأمل في عظمة الكون وتوازنه وقيامه على الحق، وانسجامه الرائع، وهو ما يعرض عنه الكافرون فيعرضون أنفسهم للنار.

٢٨- وقيام الامر في الكون على الحق والعدل يقتضي التمييز بين خط الايمان والتقوى والعمل الصالح، وخط الفساد والفجور والانحراف، وتتجلى الهدفية في الكون والتمييز بين الخطين في الحياة الآخرة. وهكذا يعرض القرآن هذا الترابط العقائدي الرائع.

٢٩- ان القرآن الكريم كتاب الخير العميم والتعقل والتدبر وصياغة السلوك العقلاني للفرد والمجتمع، والعودة إلى مقتضيات الفطرة.

٣٠- وهنا ينتقل القرآن إلى سليمان ليعطيه اروع صفة فهو نعم العبد وهو التوّاب.

٣١،٣٢،٣٣- وراح سليمان يستعرض قوته الجهادية في آخر النهار متمثلة في خيله الصافنة التي تقوم على ثلاث قوائم (تعبيراً عن استعدادها) والجيدة الاصيلة ، فشغلته هذه الحالة عن صلاة مستحبة يعيش فيها مع ذكر ربه حتى توارت الشمس بالغروب وفات وقت صلاته فتألم لذلك وطلب أن تردّ الخيل من جديد ليربت على سوقها واعناقها لتسبيلها في سبيل الله ويعوض عن ما فاته بالجهاد ويتقرب إلى ربه اكثر فأكثر (وهناك آراء أخرى في الآية).

٣٤- وقد امتحن مرة أخرى اذ ألقي على كرسيه ـــ كما قيل ـــ صبي له قد فقد الحياة وقد كان يأمل فيه خيراً فكانت ارادة الله هي الحاكمة[1]. وكان هذا الإمتحان تدريباً جديداً على الصبر وإيكال الأمر لله. وهكذا عاد سليمان إلى ربه تائباً عابداً مستغفراً.

٣٥،٣٦،٣٧،٣٨- وبعد الخروج من الامتحانات المختلفة وبعد الإنابة والإخلاص في العبودية، طلب من الله ملكاً عظيماً يفوق كل ملك آخر ليسخره في مسيرته الدعوية عالماً ان ذلك يسير عند الله الوهاب، فسخرت له الريح يوجهها حيث يشاء فتنتشر الرخاء، وسخرت له الجن بنائين وغواصين يصنعون العمران والنماء في حين كان البعض من الجن مقرنين بالاغلال لئلا يخربوا ذلك او لأمر آخر .

٣٩- انه عطاء الله الوفير وقد ترك له الخيار بالمنح او المنع عن الآخرين.

٤٠- ولما كان نعم العبد فان له المكانة وحسن المآل عند ربه .

٤١ ، ٤٢- وفي قبال العبد القوي يذكر نبي آخر هو ايوب اذ ابتلي بغاية الضعف نتيجة كيد الشيطان ولكنه يبقى عبداً أواباً يدعو ربّه أن يخلصه من التعب والعذاب فيستجيب الله له ويأمره بالتحرك ـ بعد أن كان قعيداً ـ والاغتسال والشرب من عين ماء فجرت له ليبرأ بإذن الله.

---

١ - الميزان، ج ١٧، ص ٢٠٤.

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

٤٣- وهكذا رحمه الله فوهب له اهله ومثلهم معهم، فصار مثلا و ذكرى لأولي العقول .

٤٤- ولما كان قد حلف من قبل أن يجلد امرأته لذنب أتته أو لأنها تأخرت عليه في رعايته وهو المريض القعيد، فقد أمره القرآن أن يأخذ مجموعة من العيدان بعدد ما حلف به ويضربها برفق مرة واحدة فينفذ القسم ولا يتخلف عنه وبالتالي يصفه القرآن بنفس الصفة السابقة فهو التواب الصابر وهو نعم العبد. ولا يختلف الحال أكان في منتهى القوة أم في غاية الضعف.

٤٥،٤٦،٤٧- ويستمر القرآن في عملية ربط مسيرته (ص) بالمسيرة التاريخية للانبياء بتذكيره بعباده إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين سخروا قدرتهم ووعيهم للرسالة فمنحهم الله خاصية التفاعل الصادق مع ذكر الآخرة وهو من كمال المعرفة الإنسانية، كما جعلهم من الاخيار الذين اصطفاهم لحمل رسالته.

٤٨، ٤٩، ٥٠- وهكذا جاء التذكير بإسماعيل واليسع وذي الكفل وهم من الأنبياء ومن أخيار البشرية وذلك لتحقيق الترابط بين مسيرة الانبياء ورسالة الرسول(ص) وتقوية قلبه وتأكيد عبوديته وصبره مع المتقين وإيمانه بالعاقبة الحسنة حيث جنات الخلد والنعم المتاحة بأبوابها المفتحة للمتقين.

٥١،٥٢- فهم في أتم راحة ولذة واسترخاء وأمامهم الطيبات من الفواكه والشراب والحور العين الجميلات الأقران اللواتي تقصر عن رؤيتهن العيون أو يقصرن عيونهن على أزواجهن.

٥٣،٥٤- إنه الوعد الصادق ليوم القيامة حيث العطاء الإلهي الذي لا ينتهي ولا ينفد.

٥٥،٥٦،٥٧،٥٨- أما الظالمون الذين عبدوا مظاهر الطاغوت المختلفة والمطلقات الوهمية فلهم شرُّ عاقبة تتمثل في نار جهنم بقاسونها وهي شرُّ مكان، شرابهم فيها سائل ساخن يحرق بطونهم، وقيح نتن مقيئ، وازواج أخرى من الاطعمة المشابهة لذلك.

٥٩، ٦٠- وهنا يقتحم النار فوج آخر من أهلها كانوا ربما اتبعوا من سبقهم إليها ليواجههم السابقون بعدم الترحيب بهم والعذاب ينتظرهم، فيرد عليهم المقتحمون بعدم الترحيب المتقابل متهمين إياهم بإغوائهم وإيصالهم إلى هذا المصير.

٦١- ويزداد حنقهم فيدعون الله أن يضاعف العذاب على الغاوين الذين ساقوهم إلى هذا المصير.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

٦٣،٦٢- وراح هؤلاء يتساءلون عن أناس مؤمنين ولكنهم كانوا يعدونهم من الأشرار ويترددون في حالهم بعد ان كانوا يهزأون بهم ترى هل استصغروا مكانتهم او اغفلتهم عيونهم أم ماذا؟ غافلين عن أن هؤلاء المؤمنين يتنعمون في الجنة.

٦٦،٦٥،٦٤- إنه من لوازم المتخلفين عن منهج الله المنتهين إلى النار ان يتخاصموا ويتنازعوا.ولن تهدأ نفس الإنسان ولن تقف عن البحث حتى تصل إلى الحقيقة الواحدة القاهرة، التي خلقت الكون وإدارته بحكمة وعزة ورحمة واسعة.

٦٨،٦٧- إنها الحقيقة العظمى في الكون جاء بها القرآن وفصلها ولكن المشركين يعرضون عنها ويتغافلون .

٧٠،٦٩- إنها حقيقة أوحى بها الله لرسوله فهو لا يعدو أن يكون نذيراً موضحاً للحق وهو لا يبلّغ الا ما أوحي اليه وإلا فهو لا يعلم ما يجري في عالم الغيب من حوار.

٧١، ٧٢- وهنا يعرض القرآن قصة منطلق المسيرة البشرية حيث يخبر الله تعالى الملائكة بأنه سيخلق بشراً من طين فإذا سواه الله ونفخ فيه من روحه فعليهم أن يقعوا له ساجدين. إنه المخلوق العاقل المريد الحر الذي سيحمل الأمانة الإلهية ويبني مجتمع المتقين العابدين بوعي وإرادة حرة وقدرة على التكامل.

٧٤،٧٣- وبطبيعة الحال سجد الملائكة كلهم إلا أن إبليس الذي كان بينهم ولم يكن منهم استكبر ولم يطع أمر ربه وانخرط في سلك الكافرين.

٧٦،٧٥- ولما سئل عن سبب امتناعه عن تنفيذ أمر ربه والسجود للإنسان الذي خلقه الله بقدرته أكان ذلك استكباراً أم أنه رأى أن مقامه أسمى من أن يسجد لبشر؟ أجاب بأنه مخلوق من نار فهو أفضل من الإنسان المخلوق من طين وهكذا كفر ابليس بتكبره وغفلته عن الروح التي نفخها الله في الإنسان فجعلته قابلاً للسمو حتى إلى ما يعلو مقام الملائكة.

٧٨،٧٧- وهنا يطرد إبليس من رحمة الله وتعلن اللعنة عليه إلى يوم القيامة.

٨١،٨٠،٧٩- فيطلب من ربّه أن يبقيه حياً إلى ذلك اليوم وهو يوم البعث. فيجيبه الله بإمهاله الى يوم معين لحكمة يعلمها.

٨٣،٨٢- فيعلن مقسماً بالعزة الالهية أنه سيعمل على إضلال بني آدم أجمعين إلا العباد المخلصين منهم. فلا نجاة من هذه الغواية إلا بالاتجاه إلى طريق العبودية المخلصة طريق التكامل الحقيقي للانسان.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

سُورَةُ الزُّمَرِ (٣٩) (٧٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

٨٤،٨٥- وهكذا يأتي هذا النداء الإلهي الحق عبر التاريخ معلناً أن جهنم ستمتلئ من الشيطان وأتباعه أجمعين.

٨٦- وهنا يتلخص هدف السورة، إن الرسول قد بلغ الحقيقة الناصعة دون أن يبتغي اجراً دنيوياً ودون أن يتكلف شيئاً من عند نفسه.

٨٧،٨٨- وإن هذه الرسالة وهذا القرآن ذكر لكل الإنسانية وطريق لخلاصها وعلائها وهي حقيقة ستتجلى بكل وضوح في المستقبل.

سورة الزمر

تحدثنا عن البسملة.

١،٢- أعلان لحقيقة تؤيدها كل الظروف وهي أن هذا الكتاب نزل من عند الله ذي العزة والحكمة يحمل في طياته كل معاني العزة ومبادئ الحكمة، وتبعاً لهذه الحقيقة فإنه يجب أن يسلك الرسول طريق العبودية والاخلاص والدينونة لله.

٣- إن التوحيد الخالص يملأ وجود الإنسان، عقله وعواطفه وسلوكه فلا مجال لأيّ شرك. ومن هنا يرد القرآن على انحراف خطير إذ تصور المشركون أن هناك اولاداً لله يشاركونه التدبير وأن الاصنام تمثل هؤلاء الأولاد المقربين، فعبادة الأصنام تعني التقرب إلى الله وكل ذلك تخرّص وكذب وانحراف وكفر بالتوحيد الخالص.

٤- إن إرادة الله مطلقة وله ان يصطفي بعض مخلوقاته ولكن فرض الولد يلازم الشرك بالله في الخلق والتدبير وهو محال على الواحد الخالق القهار لكل ما سواه فسبحان الله و تنزه عن أيّ لوثة شرك.

٥- إنه تعالى خالق الكون ومبدع هذا النظام الرائع في كل جوانبه والمقيم له بالحق فالمدقية سمة هذا الكون الفسيح بعجائبه الآخذة بالالباب ومنها هذا التتابع العجيب والتداخل بين الليل والنهار بما يلازمه من ملايين القوانين التكوينية والظواهر الماثلة، وهذا التسخير الدقيق للشمس والقمر، وكل يتحرك في مساره إلى هدف وأجل معين يعلمه الله ذو العزة المطلقة والغفران المضاعف لعباده المؤمنين.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)

٦- وهو تعالى خالق الانسانية من نفس واحدة هي نفس آدم ثم خلق منها (من نفس مادتها وعنصرها) زوجها وهي حواء. وتكفي نظرة واحدة متأملة لهذا الانسجام بين تركيبة الرجل والمرأة وتكاملهما الحكيم وانسجام ذلك مع هدف المسيرة الانسانية ككل لاكتشاف عظمة الخلق والخالق. وهكذا يتعمق هذا الأمر بالنظر إلى خلق ازواج الانعام (ذكرها واناثها) المسخرة لصالح الإنسان وهي الإبل والبقر والضأن والمعز باعتبارها نماذج متاحة ومعاشة لرفد الحياة الإنسانية وتسهيلها إلى جانب الملايين من الظواهر الأخرى وهي تتعاون لتحقيق الهدف المذكور مما يكشف عن دقة هذا التقدير الإلهي الذي يرعى الإنسان ويطوره في بطن أمه مرحلة بعد مرحلة في ظلمات ثلاث هي ظلمات البطن والرحم والمشيمة. إنه اذن الرب الرحيم القادر المالك الذي يجب ان يعبد لوحده ولكن الشياطين والاهواء تنحرف بالإنسان عن هدفه الاصيل.

٧- إن التأمل في وجود الإنسان يوقفه على فقره المطلق واحتياجه الدائم لله الغني المطلق اللطيف بهذا الإنسان والعليم بما يحقق له كماله من قدرات تكوينية وهدايات تشريعية فهو يوفرها له جميعاً ولا يرضى له أن يكفر بالله لأنه بذلك يهدر كل ذلك وإنما يرضى عنه إذا سلك مسيرته الطبيعية مسيرة الشكر والتكامل معتمداً على الله مسؤولاً عن شكر نعمه غير متحمل لأوزار تقصير الآخرين سائراً كادحاً إلى ربّه حيث ينبؤه ربّه بما عمل في مسيرته والله عليم بكل خبايا النفس التي خلقها بلطفه وقدرته .

٨- ويتابع القرآن مسيرة الإنسان ويبين له نقاط ضعفه وقوته مسدداً هذه المسيرة فالإنسان عندما تغلق أمامه ابواب النجاة يلجأ بفطرته إلى المنقذ الحقيقي فإذا فرج الله عنه هذه الحالة وعاد في نعمة منحه الله اياها نسي حالته السابقة وراح يكفر بالله ويجعل له شركاء ويغري الآخرين بالانحراف تحقيقاً لمتعه الزائلة ومثل هذا الفرد الكافر سيقال له: تمتع قليلاً ولكن تذكّر العاقبة الرهيبة وهي النار.

٩- وهل يقاس هذا الإنسان الغافل بذلك الإنسان الواعي الذي ملأ الله قلبه ايماناً وخشوعاً فهو قائم يعبده ويتوسل اليه ويستمد منه خصوصاً في أوقات الليل حيث الصفاء والسجود والقيام وانفتاح النفس على الكون والهدفية إلى العلي نعم هل يقاس هؤلاء العالمون إلى أولئك الجاهلين؟ أنه سؤال يطرح نفسه بقوة أمام ذوي العقول النيرة فيتذكرون ويعتبرون.

١٠- بعد هذا الشد التوحيدي بالله يأتي هذا الخطاب الرحيم الموجه لعباده داعياً أياهم إلى التقوى وشدّ الوجود بكل أحساساته وسلوكه بالله مطمئنين بأن الاحسان سيترك أثره الحسن في الدنيا قبل الآخرة مؤكدين على النظرة الواسعة والاستعداد للتضحية والانطلاق في أرض الله الواسعة متحملين مصاعب الهجرة صابرين على كل المشاق مشتاقين للأجر الإلهي العظيم الذي لا حد له.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١)

١٢،١١- أمر من جديد باعلان التوحيد الخالص والعبادة المخلصة والتسليم المطلق لله وكون الرسول في طليعة الموحدين المطيعين المسلمين باعتباره قائداً وقدوة للاخرين.

١٤،١٣- وأنه يخاف ربّه ويخشى العذاب في القيامة ان هو عصى الله وخالف أوامره، وأنه من جديد يؤكد طاعته وعبادته لله مخلصاً له دينه متبعاً أوامره مسلماً له في كل شيء.

١٥- أمّا المشركون فلهم أن يعبدوا ما شاؤوا ولكن يجب أن يتذكروا أنهم بتجنبون طريق الفلاح ويرتكسون في الخسران المبين إذ سيخسرون ذواتهم الانسانية وأهليهم الذين يجرونهم معهم إلى الشرك فيبتلون بالعذاب يوم القيامة.

١٦- حيث تغطيهم ظلل من اللهيب كما تلفحهم من تحتهم ظلل في مشهد رهيب ترجف له قلوب الواعين العابدين فتعتصم منه بتقوى الله.

١٧- إن كل المصائب الانسانية ترتبط بالمظاهر الطاغوتية المستكبرة والمتمردة على الله فاجتناب الطاغوت هو سبيل الخلاص، والإنابة إلى الله سبيل الكمال البشر بتحقق هدف الخلقة ونيل السعادة.

١٨- إن عباد الله المستحقين للبشرى هم الواعون الحكماء الذين يستمعون لما يقال ويختارون الأحسن فيتبعونه مستحقين بذلك شمول الهداية الإلهية ومستفيدين من نعمة العقل الكبرى. وفي الآية تربية على الإحاطة بما يقال ويعرض من الآراء ومن ثم تمحيصها للوصول إلى الأحسن والأفضل فلا جمود ولا تعصب وإنما هو تتبع واجتهاد.

١٩- أما المعاندون الاشقياء فقد أهلوا أنفسهم للعذاب وارتكسوا في النار، ولا سبيل لانقاذهم منها.

٢٠- في حين فاز الذين اتقوا ربهم بالجنة والغرف المتعالية والأنهار الجارية من تحتها (في قبال ظلل النار المحيطة بالكافرين) وذلك تحقيقاً للوعد الإلهي الذي لا يتخلف.

٢١- يعود القرآن بين الحين والحين للتذكير بالظواهر القائمة أمام الإنسان ليحرك فيه التأمل والتدبر وهاهو يذكره بظاهرة دورة المياه في الطبيعة ونزولها من السماء ومرورها بدهاليز الأرض لتخرج ينابيع غنية بالماء العذب الذي يغذي الزرع لتبدأ دورة الطعام الإنساني النباتية حيث ينمو ويكبر ويفرع ويثمر ويهيج بألوانه الزاهية فيشبع الإنسان ويؤمّن له حاجاته المادية والفنية ليعود مصفراً ثم حطاماً هشيماً بعد أن ساهم في تيسير الحياة الانسانية إنها ظواهر عظمى لو تأملها الإنسان بلبه الواعي لوصل إلى عظمة الله ولطفه وتدبيره.

أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

٢٢- إن الإيمان بالإسلام هو بنفسه لطف إلهي يشرح الصدور لتلقيه والاستنارة بهديه حيث تلين القلوب وتمرع الأحاسيس وتنتعش المشاعر أما البعيدون عن ذكر الله فهم القاسية قلوبهم فلهم الويل والعذاب وهم الغارقون في الضلال المبين.

٢٣- وهذا الكتاب الكريم المنزل من الله هدى ونوراً يمثل أحسن حديث يستمع له ذوو الالباب وأروع عرض لآيات الهداية المتناسقة المتجانسة التي ينثني بعضها على بعض ويفسر بعضها البعض الآخر في تركيبة رائعة المعنى والعرض معاً لتهز معها النفوس وترتجف منها جلود الخاشعين الخائفين لتعود لينة آمنة مطمئنة القلوب ناعمة بذكر الله وهدايته التي تفيض من عطائها على القلوب المستعدة في حين لا تجد القلوب الشاردة عن الله لدى سواه أية بارقة من نور.

٢٤- إن هؤلاء سيواجهون يوم القيامة سوء العذاب ويزيدهم التبكيت الإلهي عذاباً اذ يقال لهم ذوقوا اليوم ما كنتم تكسبونه في دنياكم.

٢٥، ٢٦- إنهم لم يعتبروا بالذين كذبوا من قبلهم فلاقوا العذاب من حيث لم يحتسبوا وارتكسوا في العار الدنيوي في حين ينتظرهم عذاب أكبر في الآخرة لو كانوا يعلمون.

٢٧- إن القرآن كتاب الهداية وهو يتبع الأساليب المتنوعة لتحقيقها ومنها ضربه للأمثال التي تقرب الأمور المعنوية إلى الذهن وتثير لديه عنصر التذكر والوعي.

٢٨- إنه القرآن العربي الواضح المبين بلا لفّ أو دوران إنه يفتح الطريق الرحب المؤدي للتقوى والكمال.

٢٩- وهذا مثل قرآني رائع- فهل ترى يقاس سلوك إنسان عبد مملوك لأسياد متنازعين كل يأمره بالسير إلى جهة فهو حائر قلق، إلى سلوك رجل أسلم قياده لرجل حكيم؟ وهكذا هو حال المشرك التائه في متطلبات الأهواء والآلهة الوهمية المتعددة الحائر في عملية إرضائها وهي عمياء متعارضة فهل يقاس إلى رجل مؤمن بالله الحكيم القادر اللطيف الخبير. فلله الحمد المطلق وان كان اكثرهم غارقين في جهلهم.

٣٠، ٣١- إنَّ الرسول واحد من الناس يموت كما يموتون فلا بقاء الا لله ولكنَّ المهم أن يشعر الجميع بالهدف من هذا الكون، وبالحياة الآخرة حيث الحساب الإلهي والقضاء الذي يعين الحق ويفصل بين الخصوم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾

٣٢،٣٣،٣٤،٣٥- حيث يقف الظالمون في صف والمتقون في آخر اما الظالمون الكاذبون على الله المكذّبون بالحقيقة التي هي الصدق بعينه فتنتظرهم جهنّم مثوى ومأوى لهم، في حين يحقق المتقون سواء الذين بلّغوا الصدق او الذين آمنوا به وصدّقوه يحققون رغباتهم في ظل الرضا الإلهي نتيجة إحسانهم بعد أن يكفّر الله الأسوأ من سيئاتهم ويجزيهم الثواب الأفضل عن حسناتهم وما أروع هذه العاقبة التي تبعث الأمل في القلوب.

٣٦،٣٧- إن الله تعالى هو القادر على دعم عبده وإمداده بما فيه الكفاية، اما الذين هم يعبدون من دونه فلا قيمة لهم ولا خوف منهم ولا يؤبه لهم أنما الخوف الحقيقي أن يأتي الإنسان بعمل يؤهله للغضب الإلهي والضلال وحينئذ لا أمل في الهداية لأنّ الهدى الحقيقي إنما هو من عند الله فحسب فإذا هدى الله أحداً فقد نجا ولا تأثير لأي شيء عليه لأن العزة كلها لله وحده ولن ينجو المعاندون من نقمته.

٣٨- وإذا سئل المشركون آنذاك عن خالق السماوات والارض فإنّهم يجيبون دون تردد: إنه الله وإن كانوا يشركون من دونه في تدبير الأمور. لذلك يأتي هذا السؤال الاستنكاري- اذا اراد الله بعبد ضرراً فهل يستطيع من دونه أن يدفع هذا الضرر؟ وإن شاء أن يصيب احداً برحمة فهل يستطيع احد أن يمنعها؟ ولذا فإنّ الله كاف عبده وعليه يتوكل المتوكلون.

٣٩،٤٠- هذا هو موقف الرسول القاطع فليعمل الآخرون على السير في منهجهم ولا تلاقي بين المنهجين وسيكشف المستقبل الموقف الحق من الموقف الباطل موقف الخزي والعذاب المقيم.

٤١- إنّ هذا الكتاب أنزل على الرسول لهداية البشرية بالحق والصراط الضامن لتكاملها وعلائها وليس الرسول موكلا على الناس فإذا اهتدوا به فقد نفعوا أنفسهم وان انحرفوا وضلوا فقد أضروها.

٤٢- والناس جيعاً في قبضة الله فهو الذي يتوفى ويقبض الأرواح التي حان أجلها فتموت، والنوم حالة تقبض فيها الارواح أيضاً ولكن إلى حين فإذا كان قد حان أجلها فإنه يمسكها فلا يقظة ـ إذن ـ والا فإنّ النفس تعاد إلى البدن. انها حالة انسانية قابلة للتأمل من كل حيث ليصل الإنسان إلى حقيقة النعم الإلهية وأنه ومصيره بيد الله دائماً.

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤٣،٤٤- إنّ التأثير المطلق لله وله أن يتخذ شفعاء وان يقبل شفاعتهم وليس لما سواه ذلك ولكن المشركين توهّموا واخترعوا له شفعاء راحوا يعبدونهم في حين أنّ هؤلاء الشفعاء المزعومين لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ولا قيمة لشفاعتهم ولا تأثير، والله ـ جلّ وعلا ـ مالك الكون ومنه المبدأ وإليه المصير فبيده الشفاعة وله القبول.

٤٥- انّ هذه القلوب المشركة الكافرة بالآخرة لوثت بحب الطاغوت فإذا ذكر الله وحده اشمأزت وتفرت ، وإذا ذكرت الآلهة الوهمية استبشرت فهي قلوب ممسوخة الطباع.

٤٦- وفي قبال هذا المسخ يطلب إلى الرسول ان يعلن انّ الله هو مبدع الكون بكل مافيه، وعالم الغيب والشهادة والحكم الفصل بين العباد ولذلك إليه تهوى القلوب النقية وبه تحيا.

٤٧- انّ هؤلاء المشركين سيلقون جزاءهم الرهيب يوم القيامة ولا مفرّ لهم منه ولا فداء، إنهم آنذاك لو كانوا يمتلكون ضعف ما في الارض من كنوز لقدموه فداءً لأنفسهم وخلاصاً من العذاب الذي لم يكونوا يتصورون فداحته وشدته .

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

٤٨- لقد وضح لهؤلاء ما اقترفوه من سيئات وأحاطت (حاق) بهم ألسنة العذاب التي كانوا يسخرون ويستهزئون بها.

٤٩- هذا هو الإنسان الا من عصم الله إنه حين يحيط به الهول والخطر تنتبه فطرته إلى الخالق العظيم القادر على نجاته فيبدأ بالدعاء وعندما يمنّ الله عليه بنعمة الأمان يبدأ بالغرور فينسب الأمر إلى جهده وعمله. والحقيقة إن النعمة امتحان وان كان اكثر الناس جاهلين بذلك.

٥٠،٥١- إنها ظاهرة متكررة في حياة الإنسان وفي التاريخ مرّ بها الإنسان وأصابه الطغيان وابتلي بالضياع والهلاك ولم يمنعه من ذلك حول ولا قوة . وهي عبرة يجب ان يعتبر بها هؤلاء المشركون في عصر الرسول الذي اغرتهم قوتهم ولكنّهم لا يعجزون الله بل سيبتلون بنفس المصير.

٥٢- إن أمر الرزق بيد الله القادر المطلق يمسكه ويرسله ولا يستطيع أحد غيره أن ينسبه إلى علمه وقدرته وهذه هي إحدى حقائق التوحيد.

٥٣- باب عظيم من الأمل يفتحه الله لعباده، وهو التوبة والعودة إلى الله والتنعم برحمته الواسعة التي لا حدود لها فهو يغفر الذنوب جميعاً لرحمته بعباده ومحبته لهم والتي تشمل حتى الذين اسرفوا على انفسهم فلا يأس ولا قنوط في نفس المؤمن بالله. وفي الآية أكثر من إشارة رحمانية.

٥٤- فليستغل المذنبون هذه الفرصة السانحة ويعودوا إلى الله ويسلّموا له قبل ان يحيط بهم العذاب فلا ينصرهم أحد .

٥٥- وليتبعوا الأفضل والأحسن من السبل المتاحة للنجاة والخلاص قبل أن يفاجأوا بالعذاب دون أن يشعروا به.

٥٦- إنه انذار وتنبيه للعقول والقلوب كي تسارع للتوبة لتتخلص من حالة الحسرة والندم على ما فرطت به تجاه ربها فكانت تسخر من الوعيد.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ
تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا
الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ
لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾
بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

٥٧- وربّما تصور البعض أنّ الهداية الإلهية تأتي اعتباطاً فتصور أنها لو كانت شملته لكان من المتقين الذين يشهدهم سائرين بكل عز إلى الجنّة آنذاك ولكن لا مجال لهذا التصور فيجب ان يستفيد من هذه الفرصة ويهيىء نفسه للهدى في هذه الحياة.

٥٨، ٥٩- كما لا مجال هناك لتمنّي فرصة جديدة يعمل فيها بإحسان فلات حين مناص اذ يقال له ان الآيات الواضحات جاءتك من قبل فقابلتها بالتكذيب والاستكبار والكفر.

٦٠،٦١- وهكذا تتمايز الصفوف فهذا صفّ المكذبين على الله بوجوههم المسودة ينتظر مثواه وملجأه الاخير في النار مع المستكبرين في التأريخ، وهذا صف المتقين وقد نالوا الفوز العظيم فلا يمسهم سوء ولا حزن.

٦٢،٦٣- إنها أكبر حقيقة في الوجود فكل شيء مخلوق لله وهو مستمد بقاءه باستمرار من فيض الله العميم، ومفاتيح الامور وكل العلاقات الكونية بيد الله العظيم، ولا ينكر هذه الحقيقة الا من انفصل عن الواقع وجحد بآيات الله ومآله إلى الخسران المبين.

٦٤- إنّه الجهل المطبق ان يعبد الإنسان غير الله فضلاً عن أن يطلب من الرسول أن يفعل ذلك.

٦٥- وقد أعلن الوحي للرسول وكل الانبياء من قبل أن الشرك بالله والايمان بالآلهة المصطنعة مضيعة للإنسان ومفسدة لكل الاعمال حيث يكون مصيره إلى الضياع الحضاري المدمّر والخسران.

٦٦- وإنّ العبادة والعمل بمقتضيات العبودية لله وشكر نعمه هي لوحدها سبيل التكامل .

٦٧- إنّ العظمة وباقي الصفات الجلالية والجمالية لله، الأمر الذي لم يدركه هؤلاء ولم يقدروه حق قدره، فله القدرة المطلقة الهائلة بحيث تعود الأرض كلها في قبضته وتحت سيطرته والسماوات ورقة مطوية بيد قدرته يوم القيامة، إنّه أمر عظيم لو أدركه الإنسان لغنّي في حب الله وسخر نفسه لطاعته وزوى نفسه عن ما سواه فسبحان الله وتنزه عما يصفه المشركون.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

٦٨- وهنا يتحدث القرآن عن مراحل بدء يوم القيامة فيذكر النفخة الأولى في البوق العظيم (الصور) ليموت بها كل حي آنذاك إلا من شاء الله من الناس أو الملائكة، ويذكر النفخة الثانية ليقوم الجميع للحشر.

٧٠،٦٩- وحينئذ تكون الحقيقة قد أشرقت بنور الله، فتظهر الخافيات وتطرح صحائف الأعمال ويؤتى بالنبيين وكل الشهداء أي النماذج السامية التي تقاس إليها الأعمال والتي شكّلت خط الشهادة على عملية قيام البشرية بمقتضيات الخلافة الإلهية في الأرض ثم يأتي القضاء الإلهي بالحق فلا ظلم ولا إجحاف وتوفّى كل نفس حقيقة أعمالها على أساس من العلم الإلهي المطلق بكل الافعال.

٧٢،٧١- ويبدو هنا تمايز الخطين في منظر هائل، فهاهنا فرق وزمر من الكافرين تساق إلى جهنم حتى إذا كانوا على أبوابها فتحت، وسألهم خزنتها تبكيتاً ألم تأتهم رسل منهم لتتلو عليهم آيات الله وتنذرهم من هذا اليوم؟ فلم يكن بدّ من الإعتراف بالتقصير والعناد والكفر وبالتالي إستحقاق هذه العاقبة فيرد الخزنة - ادخلوا أبواب جهنم لتذوقوا عذاب الخلد نتيجة تكبّركم.

٧٣- وهنا صف المتقين يساق فرقاً وزمراً إلى الجنة حتى إذا وصلوها وفتحت أبوابها واجههم خزنتها بالسلام معلنين أنهم اختاروا سبيل الطيب والطهارة في الدنيا فلينعموا بأقصى ما يتمناه الإنسان وهو الخلود في النعيم.

٧٤- وهنا يعلو نشيد المؤمنين بالحمد لله الذي وعد فصدق فأورثنا الأرض في الدنيا نقيم فيها شرعه وحكمه والجنة في الآخرة - أو أورثنا أرض الجنة - لتنال فيها كل ما نشاء وهو أروع أجر للعاملين.

75- ويتلو عرض المشهد السابق مشهد عظيم حيث يبدو العرش وهو النقطة التي يدار منها الكون وحوله الملائكة التي تدبّر أمر الكون بإذن ربها، والكل في تسبيح، في حين يجري القضاء بالحق ويصدح النشيد الخالد (الحمد لله رب العالمين)، مؤذناً بنهاية دورة بشرية بكل ما فيها من سعادة وشقاء.

وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿٧٥﴾

سورة غافر ٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿٢﴾ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴿٣﴾ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴿٤﴾ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴿٥﴾ وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴿٦﴾ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴿٧﴾

سورة غافر

تحدثنا عن البسملة.

1- من الحروف المقطّعة التي يتألف منها هذا الكتاب المعجز.

3،2- عرض للصفات الإلهية التي جاء على أساسها تنزيل الكتاب العزيز وهي- العزة، والعلم، وغفران الذنب، وقبول التوبة، وشدة العقاب، والإنعام المتواصل، والتوحد في الذات والصفات والأفعال وامتلاك مصير الكائنات. أن هذا الكتاب جاء ليؤكد هذه الصفات ولتسير البشرية إلى كمالها وفق منهجه وتكدح إلى ربّها فتلاقيه في يوم الحساب.

4- إنّ آيات الله واضحات بينات لا يشكك فيها الا الكافرون المعاندون المترفون ولكن هذا الترف زائل باطل ينبغي أن لا يغرّ أحداً.

6،5- وقد سبقهم بالتكذيب قوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد و ثمود وغيرهم وراحوا يحاولون البطش بالرسل، ويجادلون بالباطل ليردّوا على الحق فاستحقوا الأخذ الإلهي والعقاب المدمّر وحق عليهم قضاء الله بأنهم سينتهون إلى النار.

7- وفي الجانب الأعظم من هذه المسيرة يسير الذين آمنوا تظللهم دعوات الملائكة الذين ينفذون أوامر الله طائفين حول مركز القدرة الإلهية مسبحين بحمد ربهم، مؤمنين بعظمته، مستغفرين لخط الإيمان سائلين الله بعلمه و برحمته التي وسعت كل شيء أن يغفر للتائبين السائرين على سبيل الله ويقيهم عذاب الجحيم.

فهناك في الخط المنحرف عدم انسجام مع الحقيقة والكون وكفر وعناد وترف وبطش برسل الحق وجدال بالباطل وبالتالي عقاب اليم، وهنا في خط الإيمان انسجام مع مصدر القدرة وترابط مع المدبرات امر الكون وهم الملائكة التي تدعمهم بالدعاء والاستغفار والنجاة من النار.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

٨،٩- ويستمر دعاء الملائكة كي يدخل الله المؤمنين جنات الإقامة الدائمة التي وعدهم اياها وكل من دخل في مسيرة الصالحين من آبائهم وازواجهم وذرياتهم زيادة في الثواب والإحسان والنعمة، والله هو العزيز الحكيم. ويضيف الملائكة داعين أن يصون الله الخط المؤمن الالهي من السيئات بلطفه ورحمته ويمنحه الفوز العظيم.

١٠- أما الخط الكافر فهاهو يحتقر نفسه التي أوصلته إلى هذا الحضيض، ويأتي النداء معلناً أنّ غضب الله عليكم اكبر من غضبكم على أنفسكم حينما كنتم تدعون إلى الإيمان ولكنكم كنتم تصرّون على الكفر.

١١- ويبدأ التوسل إلى الله أن يحييهم وينقذهم من ذنوبهم هذه المرة بعد أن أحياهم وأماتهم مرتين مرة عند نفخ الروح في الموات او البرزخ وأخرى عند الحشر.

١٢- ولكن لا جدوى من ذلك لأنهم كانوا معاندين فإذا ارتفع صوت التوحيد كفروا وإذا علا نداء الشرك آمنوا به هكذا كانوا في الدنيا اما اليوم فالحكم الفصل لله العلي الكبير.

١٣،١٤- إنّه الله الذي يريكم الآيات البينات لتهتدوا إلى الواقع الحق والذي ينزل برحمته من السماء ما يوفر رزقكم فيجب أن يتأمل الإنسان اللطف ويرجع إلى ربه ويدعوه مخلصاً له الطاعة والعبودية رغم أنّ ذلك يغيض الكافرين.

١٥،١٦- إنّه تعالى أسمى من كل ما سواه وأقدر وله العرش الذي يدار الكون منه وهو الذي ينزل الروح برسالاته على من يشاء من عباده ليتخذهم رسلاً ينذرون الناس ويخبرونهم عن الآخرة حيث تبرز الخلائق على حقائقها دون أن يخفى منها شيء، وهناك يتجلى الملك لله الواحد القهار دونما أي ريب.

١٧- إن يوم القيامة هو يوم العدل، وكل نفس ستلقى جزاءها العادل بما ارتكبته، وكل عمل محفوظ فلا غموض ولا بطء في الحساب.

١٨- إن القيامة حادثة قريبة فيجب أن يحسب لها حسابها. إنها يوم الهول العظيم حيث تصل القلوب إلى الحناجر - كناية عن عظيم الهول - ويرتفع مستوى الغم ويشتد الكرب وتسد السبل على الإنسان الظالم فلا يجد قرابة تنفعه ولا شفيعاً يشفع له.

الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)

١٩، ٢٠- إنه الحساب الحق من السميع البصير العالم حتى بخيانة العين ومكنونات الصدر فلا تخفى عليه خافية فهو يقضي بالحق أما الشركاء المزعومون له - تعالى - فلا قيمة لهم ولا وعي ولا قضاء.

٢١، ٢٢- انّ على مشركي العرب وقد دعاهم إلى ذلك باستمرار أن يراجعوا التاريخ ويدرسوا الأحداث ويلحظوا مصير الأمم التي سبقتهم وكانت اكثر منهم قوة وتأثيراً في الارض ولكنها اذ كذبت بآلاء الله واستكبرت، ابتليت بالقهر الإلهي وآلت إلى الضياع ولم يكن لها من دون عذاب الله أية حماية. ذلك لأنها كانت ترفض دعوات الأنبياء ولا تتأمل في الآيات البينات للرسل الأمر الذي عرضها لعقاب الله والله قوي شديد العقاب.

٢٣، ٢٤، ٢٥- فهذا النبي موسى أرسل إلى قوم فرعون وأتباعه هامان وقارون بآيات بينات واضحات ومعاجز واضحة بينة ولكن هؤلاء واجهوه بتهمة السحر والكذب ثم القهر لكل من آمن به وقتل الأبناء وإبقاء النساء للخدمة أو هتك سترهن ولكن ماذا كانت عاقبة البطش والطغيان والكيد؟ إنه الفشل والضياع وانتصار الحق.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

٢٦- ولما كانت سمعة موسى قد انتشرت فإن بعض الملأ من آل فرعون ربّما كانوا يشيرون عليه بالتأمل والتريث في حين كان استكباره يلح عليه بقتله متبجحاً بأن له أن يدعو ربّه لينصره، وراح يعلل قراره بقتل موسى بأمرين- الأول تبديله لدين الشرك وماهم عليه، والثاني نشر الفساد والاختلاف وهي حجة كل ظالم مستكبر يواجه دعوة منطقية للتغيير.

٢٧- وكان موقف موسى هو اللجوء إلى الله رب الجميع والاستعاذة به من المتكبرين الذين لا يؤمنون بالآخرة. والحقيقة هي أن الطغيان وعدم الإيمان بالقيم المطلقة هو اكبر عامل على تحقق الفساد في التاريخ.

٢٩،٢٨- وهنا يتدخل رجل مؤمن من حاشية فرعون ليوقف قراره بقتل موسى محتجاً أولاً: بأن موسى لم يفعل شيئاً سوى الاقرار بالربوبية لله وأنه قدّم أدلة قوية على مدعاه، وثانياً: بأنه لا يخلو الأمر من حالين فإما أن يكون كاذباً فإن الكذب وبال على صاحبه وإما أن يكون صادقاً في وعيده فانه سيصيبكم شيء من العذاب الذي يعدكم به لأنكم طغيتم وكذبتم، وأضاف هذا المؤمن مذكراً إياهم بالنعم التي يملكونها محذراً من قوة الله وبأسه ولكنّ المنطق الفرعوني منطق عناد وفرض للرأي على الآخرين بحجة أنه هو الحق وأن على الآخرين اتباعه وأنّ الطريق هو ما اختاره الطغاة لأنهم لا يقودون الا إلى الخير.

٣١،٣٠ـ وعاد الرجل المؤمن ليحذّرهم مما أصاب الأمم المكذبة من قبل كقوم نوح وعاد وثمود ومن خلفهم إذ طغوا وظلموا فأصابهم العذاب بظلمهم.

٣٣،٣٢- وعاد الرجل المؤمن يؤكد محذراً قومه من يوم التناد أي يوم تعالي نداءات الاستغاثة ويوم محاولات الفرار من العذاب وهل يمكن ذلك ولا عاصم من الله ولا هادي لمن أضله الله.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

٣٤- ويستمر المؤمن في نصائحه لآل فرعون فيذكرهم برسالة النبي يوسف المدعمة بالبينات وتشكيكهم بها وبعد أن توفاه الله أعلنوا أنه لن يرسل الله بعده رسولاً وها قد جاء موسى مكذباً هذا الزعم. ونعى عليهم إسرافهم وتشكيكهم معلناً إنّ الله لا يهدي من هو مسرف غارق في الريب والشك.

٣٥- إن الاسراف والتكبر يدفع صاحبه للتشكيك في آيات الله دونما مبرر او دليل قاطع ولذلك يتعرّض لكره الله والمؤمنين له ويطبع على قلبه طابع العصيان والعناد.

٣٧،٣٦- ورغم هذه المحاولة الجادة بقي فرعون على عناده وراح يطلب من وزيره هامان أن يبني له بناءً عالياً ليصعده ويصل إلى آفاق السماء فيبحث عن إله موسى مع ظنّه بكذبه وهكذا حاول فرعون التظاهر بالبحث عن الحقيقة بمثل هذا الأسلوب السخيف ، وزيّن لفرعون هذا العمل وأبعد عن فهم الحقيقة الواضحة ولكن هذه الحيلة حيلة فاشلة. وهكذا نجد القرآن يعرض أساليب فرعون باعتبارها أساليب كل الطغاة للوقوف بوجه الحق.

٣٩،٣٨- وعاد الرجل المؤمن من آل فرعون أكثر تحدياً طالباً من قومه رفض طريقة فرعون واتباع طريقه ليهديهم إلى الحق، مؤكداً أن هذه الحياة الدنيا وهذه الزخارف إنما هي متاع زائل وان الآخرة هي دار الخلود والاستقرار .

٤٠- باب واسع عظيم من أبواب الأمل تفتحه هذه الآية على لسان مؤمن آل فرعون ذلك أن السيئة تجزى بمثلها في حين أن العمل الصالح أيّاً كان عامله ذكراً أو أنثى ـ فهما في طريق التكامل سواء ـ إذا تم في إطار الإيمان فإن جزاءه الجنة حيث يرزق المؤمنون بغير حساب.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

٤١،٤٢- وهكذا يقارن بين دعوته لهم إلى النجاة والسعادة ودعوتهم له إلى النار والشقاء، ودعوتهم له إلى الكفر بالله والقول بآلهة موهومة لا يقبلها العقل ولا يؤيدها العلم في حين يدعوهم إلى الإيمان بالقيمة الحقيقية في الكون برب العزة الرحيم الغفور الذي يشير إليه كل الوجود.

٤٣- ثم إن ما يدعونه إليه لا يملك قيمة الدعوة إليه في الدنيا حيث لا يضر ولا ينفع ولا في الآخرة إذ لا يملك ثواباً أو عقاباً، في حين أن كل الكون يشهد لله ويدعو له، ومرد الجميع إليه وحينئذ يكتشف المسرفون مصيرهم الجهنمي.

٤٤- إنها شهادة حق قوية واضحة مبرهنة قالها مؤمن آل فرعون وذكرهم بأنهم سيذكرونها حتماً وأعلن بعدها ما يعلنه كل مؤمن في كل حال، وهي قضية تفويض الأمر إلى الله فهو البصير بالعباد.

٤٥،٤٦- فكانت العاقبة الطبيعية له هي فوزه بالنجاة وخلاصه من حبائل المكر في حين غمر فرعون وآله العذاب المهين الرهيب- إنه النار يعرضون عليها ـ صباحاً ومساءً ـ في عالم البرزخ ولكنهم سيد خلونها في القيامة حيث أشد العذاب.

٤٧، ٤٨- وهنا يعرض مشهد من مشاهد النار فيه الكثير من الاعتبار فهؤلاء الضعفاء المعذبون يطالبون المستكبرين بأن يقوموا بما يخفف عنهم العذاب جزاء تبعية المستضعفين لهم في الدنيا ليرد عليهم المستكبرون بأنهم معهم في العذاب مشتركون بعد أن حكم الله بين العباد.

٤٩- وعندما لا ينفع أهل النار حجاجهم يتوجهون إلى خزنة جهنم طالبين الشفاعة منهم والدعاء إلى الله كي يخفف عنهم يوماً من العذاب.

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)

٥٠ - ولكن جواب خزنة جهنّم جاهز، إنه إرجاعهم إلى أنفسهم وتذكيرهم بموقفهم المعاند، رغم اعترافهم بمجيء الرسل اليهم ومعهم الآيات البينات الواضحات فكذبوهم واستحقوا هذا المصير. ولم يعد ينفعهم دعاؤهم ولا توسلهم فهو سعي خائب ضال لا ينفع.

٥١- خط الرسالة ومبادؤها هو المنتصر في النهاية. إنّها حقيقة يقررها القرآن، ويشهد لها التاريخ ويخلدها رغم ما يلاحظ من نكسات ظاهرية مؤقّتة. فالرسل بما يحملون من مبادئ إنسانية هم القادة الحقيقيون للمسيرة المتكاملة وهم المنتصرون بإرادة الله في الدنيا حيث الذكر الحسن وتعلق الآمال بها وتوجه الناس إليها، كما أنهم هم وأتباعهم الفائزون يوم القيامة.

٥٢- حيث يخسأ الظالمون الواقفون بوجه الأنبياء، فلا ينفعهم اعتذار بل يبقون بعيدين عن رحمة الله غارقين في جهنم وهي أسوأ دار.

٥٣، ٥٤- تذكير بالنصر الإلهي لموسى (الضعيف في الظاهر) وبني إسرائيل على فرعون وقوته وجبروته وملئه. بعد ان اهتدوا بهدى الله وحملوا كتابه. هدى لمسيرتهم وذكرى لذوي العقول الواعية.

٥٥- بعد الحديث عن رحلة الأنبياء وموقف الاشقياء وعاقبة الطرفين يأتي هذا الاستنتاج- إنه الصبر والأمل بالله ووعده الحق والتزود بزاد التقوى والاستغفار والتسبيح بحمد الله في كل آن، في المساء والصباح.

٥٦- أمّا هؤلاء المجادلون المشككون في آيات الله فهم لا ينطلقون من منطق سليم، وإنما من تكبر وعناد دفين في أنفسهم يعملون على التعبير عنه لإبطال الحق، ولكنهم لن يحققوا هدفهم مطلقا. وما على النبي والمؤمنين الا الاستعاذة واللجوء إلى الله السميع البصير.

٥٧- إن هذا الإنسان المتكبر لو تأمل في عظمة هذا الكون الفسيح وأدرك أبعاده العظيمة لوجد نفسه ضعيفاً حقيراً أمامه ولاعترف بالقدرة الالهية المطلقة، ولكن الأكثرية من الناس جاهلة لا تعلم الحقيقة.

٥٨- ولا ريب أن الإنسان الواعي البصير، يختلف عن الاعمى الواهم، وأن المؤمن العامل للصالحات يختلف عن المسيء، فالواعي الصالح هو الإنسان المنتصر لو تأمل المتأملون، ولكن الإنسان قليلا ما يتأمل ويتذكر.

إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩) وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦)

٥٩- إن التأمل في هذا الكون وقيامه على الحق والعدل والحكمة يؤدي إلى الإيمان بلا ريب بالمعاد، وإن كانت الاكثرية تبتعد عن هذه الحقيقة.

٦٠- يأتي هذا الوعد الإلهي بالاستجابة لدعاء الداعين، تركيزاً للأمل، وشداً للعباد بربهم الكامل اللطيف، وإنقاذاً لهم من حالة الاستكبار المدمرة والتي تقودهم إلى جهنم بذلة وهوان..

٦١- وهاهي نعم الله العظيمة معروضة أمام المتأملين، ليل داج ساكن تسكن فيه النفوس، ونهار مشرق مبصر تتحرك فيه للعمل والبناء، ظاهرتان تقومان إلى جانب غيرها من الظواهر التي لا تحصى بتسهيل الحياة الإنسانية، وتكشفان عن مدى الفضل الإلهي على الناس، في حين تنسى الأكثرية شكر هذا الفضل .

٦٢، ٦٣- إن وحدة هذه الظواهر في الكون خلقة وهدفاً تكشف عن وحدة الخالق وحكمته بلا ريب. فلماذا يسلم التائهون أنفسهم للأوهام والتضليل وهكذا يصرف المنكرون لآيات الله عن الهدى الى الضلال.

٦٤- هاهي النعم الالهية تترى؛ قرار الأرض وسكونها المتوازن، وارتفاع السماء بما فيها من العجائب والظواهر المنسجمة مع الحياة، وجمال الصورة الإنسانية، وتتابع الرزق الطيب المنسجم مع حاجات الإنسان ، كل ذلك يهز الوجدان ليعلن عظمة البركة الإلهية لرب العالمين.

٦٥- إنه الحي الحقيقي الذي يحيا به الوجود كله ، وهو الواحد المتفرد بالألوهية والربوبية فلا يدعى ولا يرجى الاهو، ولا تكون الدينونة باخلاص ولا يكون الحمد المطلق لغيره وهو رب العالمين.

٦٦- فلييأس الكافرون لأن العقل والفطرة والحقيقة تركز على عبادة الله بعد كل هذه الآيات الواضحات، وتنهى عن اللجوء إلى اوهام المشركين، وتدفع إلى التسليم المطلق لربّ العالمين، فهو المطلق الحقيقي لا غير.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

٦٧- ثم ليتذكّر الإنسان تكامله العجيب، تراب ثم نطفة ثم علقة (يعلق فيها الجنين بالبيضة) ثم ليولد هذا الطفل الإنسان (وهو ضعيف لا يعلم شيئاً) ثم مرحلة اشتداد الطاقات، ثم مرحلة الشيخوخة. كل هذه المراحل التكاملية تنبئ عن القدرة الكاملة التي توجد العملية، وإلا فمن المحال ان تكون المرحلة الناقصة علة للمرحلة التي هي أكمل منها، وربما توفي الشخص في احدى المراحل وربما استمرّ إلى أجل محدد عند الله. كل ذلك يدفع بجد نحو التعقل والتفكير.

٦٨- وهذا الاحياء والإماتة لا يمكن أن يفسرا إلا بتلك النفخة الإلهية العجيبة عندنا ولكنها عنده متحققة بمجرد إرادته تعالى.

٦٩- إنها مسيرة يعيها الواعون فيصلون إلى الحقيقة، ويشكك فيها المجادلون المعاندون فيبتعدون عنها إلى الضلال.

٧٠- فيكذّبون بكتاب الله الهادي إلى الحق، ورسله الذين يحملون الهدى، فيقعون في أسوأ العواقب.

٧١،٧٢- إنه عذاب الآخرة حيث الأغلال في الأعناق والسلاسل بها يسحبون ذلة وصغاراً إلى حيث الحرارة الشديدة ليصبحوا وقود النار.

٧٣،٧٤- ليقال لهمْ تبكيتا: أين آلهتكم المزعومة من دون الله؟ ليجيبوا: إنهم أضاعونا بل كأننا كنا في أوهام صاغتها أذهاننا فكأننا لم تكن ندعو من قبل شيئاً، وهكذا هو منطق الكفر والضلال.

٧٥- لقد كانت تلك عاقبة الزهو والفرح والمرح بغير الحق ووفق الوهم الباطل.

٧٦- إنها جهنم، وإنه الخلود في العذاب وما أتعس هذا المصير للمتكبرين.

٧٧- من جديد يأتي هذا التذكر بأهمية الصبر، والأمل بالله ووعده الحق. وسواء شهد النبي تحقق بعض الوعيد الإلهي، أم توفي قبل ذلك فانهم سوف يرجعون إلى الله حتماً ويبتلون بالعذاب الموعود.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

٧٨- إنها مسيرة متصلة للأنبياء، والرسل، وقد قصَّ الله أنباء بعضهم ولم يقصَّ أنباء آخرين. وإنها سنّة الله التي لا تتخلف إذ يحمل الرسول الرسالة ويعرض الآية والعلامة على صدقه باذن الله على قومه، ويقف المبطلون أمام الرسالة، ويقضي الله بالحق المصير المحتوم، فينجو الصالحون، ويخسر أنصار الباطل.

٧٩، ٨٠، ٨١- ألا يشهد المبطلون نعم الله التي تمهد لحياة إنسانية سعيدة متكاملة، فهذه الانعام تشبع بشكل رائع حاجة الإنسان للتنقل، وللغذاء، وتحقق له منافع كثيرة، ومقاصد متنوعة ترغب فيها النفس، وهذه الفلك التي تحمل الإنسان وبضاعته فتحقق له أعظم المقاصد، وهي إنما تتحرك وفق قوانين عظيمة أوجدها الله في الطبيعة من هواء وماء وبحار كل ذلك من آيات الله المعروضة بوضوح أمام العقل والوجدان الانساني فهل يستطيع هؤلاء أن ينكروا أياً من هذه الحقائق الباهرة؟

٨٢- ثم هل يستطيعون أن ينكروا سنة الله في التاريخ والتي قضت بإهلاك الاقوام التي كذبت سابقاً بنعمه وكانت أقوى وأشد آثاراً في الأرض من هؤلاء المكذبين، فلم تغنهم قدرتهم عن سوء العذاب.

٨٣- لقد واجهوا رسل الله الذين حملوا الآيات البينات بالتكذيب، واغتروا بما لديهم من قدرة وعلم وعمران، واستهزأوا بوعيد الله فأحاط بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

٨٤، ٨٥- وعندما رأوا بأس الله وعذابه راحوا يعلنون الإيمان بالله وحده والكفر بالآلهة المزعومة، ولكن هذا الإيمان لم ينجهم من العذاب. إنها ـ اذن ـ سنة الله السارية في التاريخ فليسرع هؤلاء للخلاص والا استحقوا الخسران والضياع.

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)

تحدثنا فيما مر عن البسملة.

١- من الحروف المقطعة التي ترمز إلى تركيب القرآن وعجز الآخرين عن الإتيان بمثله .

٢،٣- إن هذا الكتاب الكريم منزل من الله الرحمن الرحيم، مفصلة آياته بكل إحكام وشمول، عربياً في لسانه معرباً عن معانيه لمن يشاء معرفة الحقيقة.

٤،٥- يحمل البشرى بسبيل الكمال المستقيم، وينذر المنحرفين بالعواقب الوخيمة، ولكن الأكثرية انحرفت وعاندت فكأنها لم تسمع نداء الحق الواضح، واعلنت أن قلوبها مغلقة بحجاب يمنعها من وعي الدعوة، وآذانها في صمم منها، وأن هناك حاجزاً يمنعها من الاستجابة، فلتكن هناك مسيرتان إذن، ولا تصالح. كل ذلك عناداً للحق وتيئيساً من تلبية النداء.

٦- الا أن القرآن يطلب من الرسول أن يقول لهم ما يكسر هذه الحواجز الوهمية، فما هو إلا بشر مثلهم، ولكن يوحي إليه من الله، وأنه تعالى الإله الواحد مما يتطلب أن يلجأوا ويسلكوا الطريق المستقيم إليه، ويستغفروه من ذنوبهم. فإذا أصروا على الشرك فلهم الويل والهلاك.

٧- إن الشرك يحطم إنسانية الإنسان فلا يعرف معنى للتزكية ولا يؤدي الزكاة كحق لله في ماله، ولا يدرك معنى الحياة الهادفة، مما يؤدي لإنكار الآخرة.

٨- في حين يحصل المؤمنون العاملون للصالحات على العطاء المستمر والتكامل المطلوب.

٩،١٠- كما أمر(ص) أن يستنكر عليهم كفرهم وشركهم بالله وهو خالق الأرض على مرحلتين وهو ربّ العالمين المنعم عليهم بحركة أرضية متوازنة عبر إرساء الجبال، وبركات كثيرة، وتقدير دقيق لحاجات الإنسان والحيوان والنبات (وهم السائلون) على مرحلتين من الخلق أيضاً (وقيل في اربعة فصول).

١١- ثم توجه الخلق الإلهي إلى السماء، وكانت بشكل دخان وصدر الأمر التكويني للسماء والارض بالانصياع طوعاً أو كرهاً فما كان منهما الا الطاعة الكاملة.

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

١٢- فقضى الله أن يتحول الدخان إلى سبع سماوات على مرحلتين زمانيتين، وقدَّرت القدرة والحكمة الالهيتين في كل سماء تركيبها المناسب، وجاء التقدير للسماء الدنيا أن تزين بالكواكب والنجوم، وأن تحفظ بقوانين خاصة.وكل ذلك يكشف عن تقدير عظيم لمن له العزة والعلم المطلقان.

١٤،١٣- فإن استمرأ هؤلاء العناد، وأعرضوا عن الحق فليستعدوا لهلاك شبيه بهلاك عاد وثمود، بعد أن جاءتهم الرسل تدعوهم بمختلف السبل إلى الله الواحد ولكنهم ردوا عليهم بأنهم لا يعترفون بهم وأن الله لو شاء لأرسل ملائكة، وأنهم يكفرون إذن برسالاتهم.

١٦،١٥- وكان أن استكبرت قوم عاد بغير الحق، وراحت تفتخر بقوتها ـ ناسية أن الله وهو خالقها أقوى منها ـ ولكنه العناد والجحود لآيات الله، فكان أن ابتليت بريح شديدة السموم فأهلكتها في أيام مشؤومات، وذلك عذاب الخزي في الدنيا في حين أن عذاب الآخرة أخزى، ولا يملكون من ينصرهم.

١٧- أما ثمود فقد منَّ الله عليهم بالهدى ولكنهم فضَّلوا طريق العمى فاستحقوا الهلاك والعذاب المهين نتيجة أعمالهم.

١٨- في حين نجى المؤمنون المتقون من ذلك العذاب.

٢٠،١٩- إن أعداء الله يوم القيامة سوف يجمعون ويساقون إلى جهنم بعد أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، فلا يملكون الإنكار.

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

٢١- وعندما يعترض هؤلاء على جلودهم التي بها تمت المعصية لشهادتها عليهم فإنها تجيب بأن الله أنطقها وهو واهب النطق لكل شيء وهو خالق البشرية وإليه تعود وهي بهذا تعطي درساً في التوحيد والمعاد لكل ساعٍ لمعرفة الحقيقة.

٢٢،٢٣- توبيخ للمجرمين يوم القيامة بأنهم ما كانوا يستخفون عند ارتكاب المعاصي لأنهم لا يحتملون أن تشهد عليهم أعضاؤهم أنفسها وما كانوا يخشون ذلك بل كانوا يظنون أن الله يخفى عليه الكثير من أعمالهم، ولكنه الظن الباطل الذي أركسهم في الضياع والخسران.

٢٤- فلا مناص هناك ولا خلاص ، والنار تنتظرهم، ولا ناصر لهم ولا ينفعهم استعطاف .

٢٥- إن هؤلاء، إذ لم يحاولوا الاستماع إلى الحقيقة تهيأ لهم من يقترن بهم ويسول لهم ارتكاب السيئات، يقودهم إلى مستقبل مظلم مما يؤهلهم للانحدار إلى مصير الأمم المفسدة من قبلهم من الجن والانس، والهلاك والضياع.

٢٦- ومن أنماط تزيين قرناء السوء هؤلاء أن دفعوهم لإغلاق أسماعهم لئلا تسمع القرآن وتتأثر به، أو للقيام بجلبة أو ضوضاء من لغو الكلام عسى أن لا يفسح المجال كذلك للآخرين، ليغلبوا الحق بمثل هذه الأساليب.

٢٧،٢٨- ولكن القرآن يهدد أعداء الله هؤلاء بالعذاب الشديد والعاقبة السيئة. وهي الخلود في النار جزاء على تكذيبهم وعنادهم.

٢٩- وهنا تشتد عليهم الحالة فيدعون الله أن يريهم الذين أضلاهم من الإنس والجن لينتقموا منهما ويسحقوهما نتيجة ما عملاه لهم. ولكن ماذا ينفعهم هذا الدعاء؟!

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

٣٠- في قبال خط الطغيان والتكذيب يتحدث القرآن عن خط الإيمان والاستقامة عليه دونما ميل أو انحراف ومهما كانت الظروف والمطبات، هذا الخط تتنزل عليه الملائكة . فلا يحزن على شيء فاته، ولا يخاف أي مكروه يستقبله، قوياً ثابتاً متوازناً منشداً بالجنة مطمئنا بنيلها، متكاملاً في سبيلها.

٣١،٣٢- إنه خط يتولاه الله القوي اللطيف دنياً وآخرة ليسير به نحو الخلود في الجنة يحقق به كل مشتهياته وكل ما يرغبون، لطفا منه وهو الغفور الرحيم . وبهذه الولاية والرعاية الدائمة من الله يتعاظم الشعور بالأمل والقوة عند المؤمنين.

٣٣- وهل هناك أروع من الرسول وأتباعه أصحاب هذا الخط؟ يدعون إلى الله، ويعملون الصالحات، ويعلنون تسليمهم لله.

٣٤- نعم لا يقاس السلوك الحسن إلى السلوك السيئ، فإن الردّ الحسن يغزو القلوب حتى الحاقدة فإذا بها وهي تواجه السلوك الانساني اللطيف تنسى حقدها وتنجذب إلى المحسن وكأنها ولي وصديق حميم.

٣٥- وتلك خصلة لا يمتلكها إلا المحظوظون من البشر الصابرون على الخط.

٣٦- ولكن الشيطان يتربص بالإنسان، ويحرك فيه عناصر الرد العنيف وربما الرد السيئ، فيجب أن يبقى وعي الانسان متيقظاً راصداً. والضمان من وساوس الشيطان يتم باللجوء إلى الله، والاستعاذة به، فهو تعالى السميع العليم بوساوس الشيطان، الضامن لدفعها.

٣٧- عودة للتذكير بأبعاد النعمة الإلهية، إذ تتجلّى آيات الله في الليل والنهار والشمس والقمر، فيجب أن تكون سبلاً لله المطلق الحقيقي لا أن يصعّدها الإنسان في وهمه فيحسبها مطلقات ويعبدها، كلا فالسجود لخالقهن فقط، وعبادته لا تنسجم مع عبادة غيره. (وفي الآية سجدة واجبة).

٣٨- ولا يحسب المستكبرون عن عبادته أنهم يوحشون طريق الحق، فإن هذا الطريق مليء بالعباد المسبحين ليلاً ونهاراً دونما ملل وهم المخلصون والملائكة.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ
عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ
ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ
لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو
عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ
ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ
أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

٣٩- وهذه آية الأرض – بما فيها من عجائب واتقان – تشد القلوب والعقول فليتأملها الإنسان- إنها تبدو ذليلة خاشعة لله تستمد منه الحياة، فينزل عليها رحمته ماءً يهزّها وينميها ويلبسها خضرة الحياة. الا تعبر هذه الظاهرة حساً عن القدرة الإلهية على إحياء الموتى؟

٤٠- إنها آيات الله الباهرة فكيف يمكن إنكارها والميل عنها؟ وإن الملحدين يعرضون أنفسهم لعذاب الله بعد ان كانوا مكشوفين له. إنهم يعرضون أنفسهم للنار في حين أنهم كانوا يستطيعون سلوك طريق الامان عند الحشر بإرادتهم فالاعمال كلها تحت علم الله وبصره.

٤١، ٤٢- لقد جاءهم هذا القرآن ذكراً يعيدهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها ولكنهم كفروا به ولم يتدبروا في آياته والحدوا بها وواضح ماهو مصير الملحدين المعاندين؟ إنه كتاب العزة عزيز في نفسه، ويمنح العزة للمتمسك به، لا تناله يد الأوهام والتحريف، فهو مصون عنها حالاً ومستقبلاً، ولا يمكن أن ترقى إليه شبهة. لأن الذي نزله هو الحكيم المحمود على الاطلاق.

٤٣- إنه كتاب يعبر عن الحقيقة التي صدع بها الأنبياء جميعاً في مسيرة واحدة، ولذلك فإن تكذيب الملحدين هو هو بالنسبة لخط النبوة . فلينعم أهل الإيمان بالغفران ولينتظر المكذبون العقاب الأليم.

٤٤- إنه كتاب عربي واضح ولو جاء أعجمياً مبهماً لاعترضوا عليه وطلبوا شرحه وتفصيله واعترضوا عليه بعدم التناسب بين الخطاب الاعجمي مثلاً والمخاطبين العرب. كل ذلك مراءً وجدلاً كلا، إنه فيض الهدى والنور والشفاء ولكن لمن جلوا قلوبهم بالإيمان، أمّا الذين اختاروا طريق الالحاد، وسدّوا آذانهم لئلا تستمع للحق فانه لا يزيدهم الإعميٌ وكانهم غائبون عن المشهد فلا يأتيهم النداء إلا من مكان بعيد.

٤٥- تذكير برسالة موسى وتكذيب قومه له وإمهالهم إلى يوم الحساب وهي الكلمة والوعد الإلهي، ولولا الوعد لتم الفصل بينهم والقضاء عليهم بعد أن غمرهم الشك والريب فيه. وفي هذا التذكير تسلية للرسول والمؤمنين وتهديد للمكذبين.

٤٦- إن العمل الصالح يعود بالخير على النفس ويعود العمل السيئ بالشرّ عليها فلا ظلم في النظام الإلهي. إن هذا التعليم القرآني يوسع من آفاق النفس لتشمل الحياتين وليدفع الإنسان في نفس الوقت الذي يحب فيه ذاته إلى عمل الخير فيحل بذلك التناقض بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

٤٧- إن علم الله شامل لكل الحقائق ولا يخفى عليه شيء فإليه وحده يرجع علم الساعة وهو يعلم ببواطن الأمور وبالثمرات في أكمامها وأوعيتها، وبالأرحام وما تحمل ومتى تضع من حمل. وهذه الحقيقة يجب أن تتجلّى في وعي الإنسان وعقله ولكن الغافلين يشركون بالله غيره من مخلوقاته، وهؤلاء يواجهون يوم القيامة بالسؤال المحير - أين الشركاء؟ فلا يجدون إلا الإعلان عن العجز.

٤٨- لقد انقطعت الحجة، وغابت عنهم الآلهة المدعاة، وأيقنوا أن لا مفر لهم من العذاب.

٤٩- هكذا هي طبيعة الإنسان الذي لا يهتدي بهدى الله - إنه لايمل من طلب الخير النافع له. فإذا مسه الشر غمره اليأس والقنوط فهو بين نهم ويأس.

٥٠- فإذا منَّ الله عليه بالرحمة من بعد حالة عسيرة نسي حالته وغفل عن شكر النعمة بل راح يتصورها ملكه الدائم وينكر الآخرة بل يتصور لنفسه حظوة خاصة فإذا كانت هناك آخرة فإنه سينعم فيها. ولكن الحقيقة الصارخة تواجهه بأن عاقبة الكفر هي العذاب الغليظ.

٥١- إنها حالة الضعف النفسي للإنسان فإذا شملته النعمة تكبّر وأعرض وطغى، وإذا أصابه الشر راح يتضرع ويستمر في صراخه ودعائه.

٥٢- إن مجرد احتمال صدق القرآن ـ وهو الصادق الحق ـ يجب أن يدفع هؤلاء إلى الاحتياط ودفع الضرر المحتمل وهو أعظم الاضرار.

٥٣، ٥٤- وينطلق القرآن بالعقل الانساني ويعده بالوصول إلى الحقيقة إن هو ثابر على اكتشاف آيات الله في الآفاق وفي النفس نفسها وحينئذ تتبين له بكل وضوح كل الظواهر المنسقة التي تؤكد وجود الخالق المنظم الحق الثابت الذي خلق كل شيء فالاشياء حاضرة لديه وهو عليها شهيد. لا يخرج أي جزء عن التخطيط والطاعة والنظام، فلا معنى للشك والريب في الله والمعاد إليه بعد ثبوت الاحاطة الإلهية الكاملة بكل الوجود، والهدفية التامة في كل الأشياء.

سورة الشورى

سُورَةُ الشُّورَىٰ ٤٢ ـ ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ
وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ
مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

ذكرنا من قبل جزئية البسملة للسورة.

١، ٢- من الاحرف المقطعة.

٣- إن الوحي الإلهي للأنبياء لطف مستمر متناسق بالبشرية من الله القادر على الهداية الحقيقية، الحكيم في تدبيره التكويني والتشريعي وبهذ يتم التأكيد على وحدة المسيرة، ووحدة المنطلق، ووحدة الهدف في إطار حكيم.

٤، ٥- إنه تعالى مالك الكون والوجود، العلي فوق كل شيء، العظيم فلا عظمة لغيره تخشع له السماوات حتى لتتفطّر من الخشية، وتسبح الملائكة بحمده وله مطلق الحمد، وتطلب منه الغفران لأهل الأرض وهو أهل المغفرة والرحمة. إنه جو العظمة والحمد والتسبيح والاستغفار والرحمة فهل يعي الإنسان هذا الجلال فينسجم معه؟

٦- ولكن البعض يغفلون عن هذا الجو فيتخذون لهم أولياء من دون الله، فيغرقون في الانحطاط والضلال، ولكنهم تحت سيطرة القدرة الالهية القاهرة فلا داعي للاهتمام بأمرهم.

٧- وهكذا اقتضت الرحمة الالهية أن يوحي الله هذا القرآن عربياً واضحاً ليتم إنذار أم القرى وهي مكة المكرمة البقعة الطاهرة التي أقيم فيها أول بيت لله فكانت خير مكان لانطلاقة الدعوة إلى من حولها ثم إلى كل الأرض. وقد ركزت الدعوة أول ما ركزت على يوم القيامة لأنه مقتضى المدفية في خلق الإنسان ليتميز الفريقان؛ فريق الجنة وهم الهداة، وفريق النار وهم الطغاة.

٨- إن الله قادر على التوحيد الإجباري للبشرية، ولكن إرادته تعلقت بالمسيرة الإختيارية لأن الإرادة الحرة هي سر التكامل وهي محور المسؤولية. فإذا اختار الإنسان بإرادته التكامل دخل في جو الرحمة أما إذا اختار سبيل العتو والظلم فإنه سيلقى العذاب دون أن يحميه وليّ ولا نصير.

٩- إنه السخف البالغ أن تتخذ أولياء من دون الله، إذ لا قيمة لها ولا تأثير لأن الولاية الكاملة لله واهب الحياة ومحيي الموتى والقادر على كل شيء.

١٠- إنه الحق وله كلمة الفصل وبيده الحكم القاطع ولذلك يجب الرجوع عند الاختلاف إلى حكمه العادل الحق، لأنه الرب العليم الحكيم، عليه يتوكل النبي ومن بعده المؤمنون، وإليه يعودون في كل ما يبتلون به.

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

١١- الله هو مبدع السماوات والأرض، وهو خالق البشرية وراحمها في زوجية متراحمة متناسقة، وتسري هذه الزوجية إلى الأنعام فتشبع حاجة الإنسان وتديم حياته، وكل هذه ظواهر تركز دقة التنظيم واللطف الالهي فيقدر الله حق قدره ولا يتصور له مثيلاً فليس كمثله شيء وهو السميع البصير العليم بكل الأمور.

١٢- بيده تعالى مفاتيح الأمور في الكون وأسرارها وتدبيرها ورزقها كيف يشاء وبالقدر الذي يشاء فهو العليم بكل شيء والمدبر له.

١٣- وكما بدأت السورة بتقرير حقيقة وحدة مسيرة الأنبياء فهي هنا تؤكد ذلك بالتفصيل، فالمنبع واحد استقى منه نوح والرسول محمد وبينهما إبراهيم وموسى وعيسى، والوصية الإلهية الكبرى واحدة هي لزوم إقامة الدين لله وتعميقه في النفوس والانضواء تحت رايته الواحدة وعدم التفرق فيه وبسببه، فالدين عامل وحدة وتأليف للقلوب، ولا عجب أن يكبر ويعظم على المشركين الطغاة ما يدعوهم الرسول إليه من عبادة الله الواحد، وطاعة رسوله دون كبرائهم، لأنها إرادة الله يختار من يشاء ويهدي إليه المطيعين.

١٤، ١٥- لقد كان المفروض باتباع الرسل أن يتحدوا على طريق الهدى ولكن - ورغم علمهم بذلك - أسلموا قيادهم للظلم والبغي فاستحقوا الهلاك لولا أن الله أوكل مسألة الحساب إلى الآخرة، وكانت عاقبة أهل الكتاب الشك في كتاب الله نفسه، ففقدوا أهلية قيادة المسيرة المتدينة وأعطيت هذه القيادة لهذا الرسول وهذه الأمة، فليحمل الرسول هذه الدعوة وليستقم في مسيرته وفق ما أمر وليرفض أهواء المنحرفين وليعلن إيمانه بالله والكتب التي أنزلها، وليقم العدل ونظامه.

وليكن الإيمان بالله رباً للجميع محوراً للحياة ولتكن المسؤولية فردية تابعة للعمل نفسه، ولتنقطع الحجة والصلة ليوكل إلى الله أن يحكم بين الفريقين حين يجمعهم يوم القيامة.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

١٦- وبعد ان استجاب العقلاء والمؤمنون فلا معنى لأقوال المشككين في الله فحججهم واهية لا قيمة لها عند الله وهم مشمولون لغضبه وعذابه الشديد. إنهم يجادلون في امر منسجم مع فطرهم التي جبلت على ضرورة وجود المنظم لهذا الكون.

١٧- ان الله بمقتضى لطفه انزل القرآن بالحق وجعل تعاليمه معياراً له وسبباً في إيجاد التوازن التشريعي فهو بنفسه دليل على الحق، والحق أحق أن يتبع، وهو ميزان الفوز في الآخرة، وماذا يدري الرسول فلعل الساعة قريب. وكأنه إجابة على سؤال عن الساعة وتوقيتها وقد تكرر ذلك منهم.

١٨- هناك موقفان من الآخرة، موقف المشركين المشككين المستعجلين استهزاءً، وموقف المؤمنين الخائفين من هولها المتيقنين بها لأنها مقتضى الهدفية في الكون وهو موقف الواعين المنسجمين مع فطرهم، أما موقف التشكيك فهو الضلال البعيد .

١٩- ويبقى اللطف الالهي يلح على الجميع بالعودة إليه. فهو الرزاق وهو القوي العزيز لا يحتاج إلى خلقه وانما هو اللطف والرحمة الشاملة.

٢٠- ويتمثل هذا اللطف في المن والزيادة على من يريد عطاء الآخرة وهو نتاج العمل الصالح في الدنيا، ويتمثل أيضاً في إعطاء الكافر من عطاء الدنيا أيضاً ولكنه سيفقد النصيب العظيم في الآخرة لأنه لم يشكر المنعم بل طغى وكفر.

٢١- الا يدرك المشركون أن خط الانبياء يدعو إلى رب واحد وأن الآلهة المزعومة لم تقدم لهم شيئاً. فليس التشريع إلا لله ولا يتم إلا بإذنه. إن مزاعمهم هي من اعظم الظلم ولولا أن حكمة الله اقتضت تأجيل العذاب إلى الآخرة لشمل العذاب الاليم هؤلاء الظالمين.

٢٢- انه يوم الهول على الظالمين نتيجة عملهم الذي تحول إلى هذه الحالة القائمة ولكنه يوم النعيم وروضات الجنات للمؤمنين العاملين بالصالحات ينالون فيه ما يشاؤون من نعم في ظل رحمة الله وفضله الكبير.

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ
حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ
الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾
وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ
مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ
مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ
فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

٢٣- إنها البشرى الكبرى للمؤمنين العاملين بهدي الرسول وهو(ص) لا يطلب على رسالته أجراً إلا ما هو لصالحهم أيضاً وهو محبة أهل البيت(ع) ومودتهم باعتبارها من أفضل الاعمال وتقودهم إلى المنهج القويم وهم يشكلون الامتداد الطبيعي للقيادة الصالحة. وهكذا يتجلّ اللطف العميم فمن يعمل صالحاً يزيده الله في ثوابها حسناً ويغفر له سيئاته ويشكره بما يناسب عظمته.

٢٤- تشكيك آخر في أقوال الرسول وأنها مجرد افتراء على الله، ولكن العقل يمنع أن تجري المعجزة على يد الكاذب (وهي هنا كتاب الله) فالله قادر على أن يختم على قلب الرسول، ويكشف الافتراء ويعلن الحق وهو عليم بكل شيء وما تكنه الصدور. إن هذا الاستدلال يؤكد أحقية كلام الرسول وصدقه في دعوته.

٢٥- فليعد الجميع إلى ربهم وهو تعالى قابل التوب والعافي عن السيئات والعليم بكل الأفعال. وهكذا تشكل التوبة إحدى أكبر مظاهر اللطف وروافد الأمل عند الإنسان.

٢٦- إنه تعالى يستجيب للمؤمنين العاملين دعاءهم ويزيدهم من فضله في حين يلاقي الكافرون مصيرهم من العذاب الشديد.

٢٧- ويأتي الرزق الإلهي مقدراً متدرجاً لئلا يطغوا ويظلموا وإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى والله تعالى خبير بصير بعباده.

٢٨- تذكير بلطف آخر من ألطافه. إنه الغيث والمطر الذي تقوم به حياتهم وذلك بعد قنوط ويأس . ألا يشعر الإنسان بعظمة هذه الرحمة من الله الذي يتولاه ويرعاه ويغمره بما يسهل حياته فلله الحمد كله.

٢٩- وهذه عجائب السماوات والخلق وما نشر فيها من دواب وحيوانات وكل ذلك يساهم في توفير الطبيعة الملائمة له ولكنها جميعاً في قبضته فإذا شاء جمعها بأمره.

٣٠- إن المصائب كلها من نتائج عمل الإنسان وضعفه ولكن الله رحيم يعفو عن كثير من الأمور.

٣١- إن الإنسان ضعيف عاجز لولا أن يرفده الله بلطفه ولا ولي ولا نصير له من دونه.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٣٢- ويستمر التذكير بألطاف الله عبر التذكير بالقوانين الكونية التي تسير وفقها السفن في البحر كالجبال المتحركة إذ تتعاون في ذلك الرياح وحركتها، والمياه وأوزانها وكثافتها وعمقها وقوانينها وغير ذلك.

٣٣- ولو شاء الله لسكنت الريح وركدت السفن على صفحة الماء هامدة جامدة فليتأمل المتأملون في آيات الكون بكل صبر وليشكروا الله على كل هذه النعم الباهرة.

٣٤- وقد تبدوا القدرة الالهية الجبارة فتحطم هذه السفن نتيجة جرائم راكبيها وقد يعفو الله عن ذلك فتقدم خدماتها للعصاة أيضاً رحمة من الله.

٣٥- وهكذا يعلم المجادلون المعاندون أنهم في قبضة الله وأن لا سبيل الا العودة إليه وشكره وطاعته.

٣٦- إن العقل السليم المنطقي عندما يتأمل الظواهر الكونية وتناسقها في خدمة الإنسان يؤمن بالله ويدرك المدفية في الكون ويشعر بأن الحياة الدنيا بكل مافيها مجرد تمتع قصير ويتوجه إلى ما يدخره الله في الآخرة للذين آمنوا به وأطاعوه وساروا على منهجه وتوكلوا عليه واستندوا إليه في مسيرتهم كلها.

٣٧- هذه هي صفات المؤمنين المتأملين في الكون؛ إنهم يجتنبون الآثام الكبيرة والفواحش المدمرة كالزنا واللواط فتبتعد مسيرتهم عن كل طغيان أو انحراف عن الفطرة السليمة، وهم لا يندفعون في غضبهم إلى ما يتجاوز الحد بل يغفرون للآخرين وينشرون الرحمة والحب.

٣٨- وهم مطيعون لأوامر ربهم مصلون ذاكرون وهم متصفون بالتشاور في أمرهم وشأنهم المشترك بعيدون عن الاستبداد بالرأي، وهم ينفقون على الآخرين ليقوموا بوظيفة الخلافة والتخويل الإلهي.

٣٩، ٤٠- ولكنهم مقاومون يرفضون الظلم والعدوان بكل قوة وعزيمة تصنع النصر ومع ذلك فهم يجزون السيئة بمثلها وربما عفوا فاستحقوا اجراً إلهياً ولكنهم لن يقدموا على ظلم لأن الله لا يحب الظالمين.

٤١، ٤٢- إن الردَّ على العدوان حق طبيعي، ولا سبيل على المقاومين وإنما السبيل على الظالمين المفسدين في الأرض بغير الحق وجزاؤهم العذاب الأليم.

٤٣- ومع ذلك يدعو القرآن للصبر والغفران ويعتبر ذلك من قوة النفس.

٤٤- إن الهدى هو هدى الله والضالون لاوليٍّ لهم، وهاهم الظالمون يستغيثون حين يرون العذاب طالبين العودة إلى الحياة الدنيا ليتداركوا ظلمهم. ولا مجال بعد لذلك.

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

٤٥، ٤٦- ثم هم يوم القيامة يعرضون على النار يعلوهم الذل والصغار ينظرون بأبصار منكسرة في حين يعلن المؤمنون انتصارهم وخسارة الكافرين لكل شيء كانوا يفاخرون به، لذواتهم وأهليهم وارتكاسهم في العذاب الأليم وفقدانهم لمن يلي أمرهم ويعينهم بعد أن ارتضوا العناد فأضلّهم الله ولا سبيل لهم للخلاص.

٤٧- فلتبادر البشرية للاستجابة لأوامر الله، والسير على منهجه القويم وبدون ذلك لتنتظر يوم الحساب الآتي لا محالة وحينئذ فلا ملجأ إلا إلى الله ولا اعتراض على حكمه النافذ.

٤٨- فإذا أصر هؤلاء على العناد والإعراض فما على الرسول من بأس، وليس مكلفاً بحفظهم من الهلاك وإنما هو مبلّغ لرسالة الله لا غير ولهم أن يختاروا طريق الخير فيفلحوا، أو طريق الشر فيهلكوا. وهكذا هو الإنسان الغافل إذا شملته الرحمة الالهية فرح بها واغتر فإذا أصابته مصيبة نتيجة فعله السيئ راح يكفر بالله العظيم.

٤٩، ٥٠- والله تعالى مالك الكون وخالق كل شيء بقدرته وإرادته وواهب كل النعم ومنها الذرية البشرية فيهب لمن يشاء إناثاً وللآخرين ذكوراً ويزوجهم من الذكور والإناث أو يجعل البعض عقيماً لا يلد. وهكذا تستمر البشرية تحت عطائه ورحمته وقدرته لتحقق أهداف خلقتها بهداية تكوينية وتشريعية منه.

٥١- وقد فتح الله للإنسان الصالح المستعد باب الهداية التشريعية من خلال الوحي أو التكليم من وراء حجاب أو إرسال رسول من الملائكة ليبلغ وحيه بإذنه وإرادته ما يشاء الله من أوامر ونواه ينحصر بها طريق السعادة الإنسانية والله هو العلي على من عداه الحكيم العليم بحقيقة الإنسان وما يصلحه.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

٥٢، ٥٣- وهكذا اوحى الله لرسوله ليعلّمه بواسطة الروح الأمين أوامره ، والا فإن الرسول الكريم لم يكن يعلم ماهي الشريعة وماهي معالم الإيمان التفصيلية إلى أن منّ الله عليه بهذا النور الكاشف عن السبيل القويم ليهدي به عباده الطالبين للحقيقة والسير على الخط المستقيم والصراط الذي رسمه الله الخالق الرحيم مالك الكون وهادي الإنسان نحو العلاء وإليه تصير الأمور كلها ليحكم فيها بحكمه القويم.

وقد جاء ختام السورة كبدئها مركزاً على الوحي و على وحدة الدين، والمنطلق والطريق والهدف.

سورة الزخرف

البسملة آية قرآنية تحمل معاني رائعة.

١- من الحروف المقطعة.

٣،٢- قسم بالقرآن الواضح في دلالاته لتأكيد الهدف من إنزاله وعربيته ووضوحه. إنه تركيز العقلانية في اتباعه بعد أن غرقت البشرية في جهلها وانحرافها الفكري والعملي.

٤- إن للقرآن حقيقة علوية ثابتة في اللوح المحفوظ في علم الله تسمو بحكمتها وتعلو على كل المعاني الأخرى بما تملك من معان وقيم.

٥- ولكن هؤلاء لا يدركون قيمته وسموه ويسرفون في أمره. ورغم ذلك فإن اللطف الإلهي يركز عليه ويدعوهم إلى الهدى ويحذرهم من الضلالة.

٦- ويذكرهم بألطاف الله المتتالية بإرسال الانبياء تباعاً إلى الأمم السابقة.

٧،٨- إلا أنها لم تستفد من الفرص الإلهية واستهزأت بالأنبياء فأصابها الهلاك وكانت أشدُّ بطشاً وقوة فكان هلاكها مثلاً وعبرة للتاريخ.

٩- لقد كان مشركو مكة يعترفون بأن الله خلق الكون بعزته وقدرته المطلقتين ولكنهم لم يحققوا مقتضيات هذا الإيمان من طاعة الله وعبادته وعدم الشرك.

١٠- كل الظواهر الكونية والنعم الكبرى تشهد له بالوحدانية والتفرد ومنها تمهيد الأرض للحياة الانسانية، وواضح أن التمهيد يعني خلق الأرض والقوانين الحاكمة فيها على شكل يحقق كل متطلبات الحياة، والعلم يكشف يوماً بعد يوم عظمة هذا الإنسجام وأبعاده. وكل ذلك يتطلب شكره وطاعته. والاهتداء بهديه.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

١١- ومن هذه النعم الكبرى حركة الماء الموزونة ودورته في الطبيعة، هذه الحركة التي تهب الحياة للعباد والبلاد وتحيي الأرض الميتة فتمنحها الخصب لتدل على أسلوب حي من الإحياء للقيامة.

١٢،١٣،١٤- ومن النعم المتوالية ظاهرة الزوجية التي تدوم الحياة كلها بها، كما أن منها هذه القوانين التي لا تعد ولا تحصى والتي تمهد البحر والأنعام لتمكنّ الإنسان في حركته في الأرض فيركب متنها وبطبيعة الحال ليشكر واهبها معلناً له التسبيح والتنزيه والحمد على هذا التسخير العجيب، معبراً عن عجزه هو عن تحقيق أي شيء من هذه النعم المتوفرة، منتقلاً بعقله من هذا النظام العجيب إلى الهدفية فيه وبالتالي إلى الإيمان بالحياة الأخرى والعودة إلى الله.

١٥- ولكن الإنسان ينسى كل هذه النعم ودلالاتها التوحيدية ويجنح إلى الشرك والأساطير فيزعم لله ولداً من عباده ويعتبره جزءاً منه وهم الملائكة ويعتبرها بنات له وهذا سخف وكفر واضح.

١٦- وإذا كان سبحانه متخذاً من عباده ولداً فلماذا يختار البنات ويخصهم بالبنين.

١٧،١٨- إنهم ينسبون البنات لله الرحمن ويتألمون إذا ولدت لهم بنت وبشّروا بها فيغمرهم الغضب حتى لتسود وجوههم وهم يسترون هذا الغضب خجلاً. لأن البنت إنما تنمو في الحلية والزينة، ولا تملك منطقاً قوياً عند الجدال في حين ينمو الرجال في الفروسية ويمتلكون قدرة الرد في الخصام والجدال.

١٩- هكذا تصور هؤلاء الجاهلون الملائكة وهم عباد الرحمن إناثاً سخفاً من عند أنفسهم وهم لم يحضروا عملية خلق الملائكة فليتحملوا إذن وزر هذه الشهادة الباطلة. وكأنهم حين نسبوا الملائكة إلى الله تعالى وأنهم بناته مع أنهم يتشاءمون من البنت لأنفسهم أرادوا أن ينتقصوا من هيبة الله وقدرته ونسبة العجز والضعف إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

٢٠،٢١- ويستمر هؤلاء، في غيّهم وسخفهم فيزعمون أن الله راض عن عبادتهم للملائكة ولو لم يكن راضياً لما سمح لهم بذلك، متناسين أنهم اختاروا بإرادتهم هذا الضلال والوهم دونما استناد إلى علم أو كتاب يستمسكون به.

٢٢- وحينما تتهاوى هذه الدعاوى الفارغة يلجأون الى حجة سخيفة أخرى وهي مسألة استدامة سيرة الآباء وحفظ التقاليد والاقتداء بها.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ
إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ
مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾
وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٢٣- وتلك حجة كل المترفين المعاندين في مواجهة دعوة الأنبياء المنذرين، إنها التمسك بالتقاليد والسنن الماضية واقتفاء آثار الآباء دونما تدبر وتفكير، أو حفاظاً على مصالح وامتيازات خاصة.

٢٤،٢٥- والقرآن هنا يهز وجدانهم وقناعاتهم القائلة بضرورة اتباع الأفضل على كل حال. متسائلاً- هل كانوا سيبقون على هذا السلوك لو علموا بأن ماجاء به الرسول أهدى وأفضل مما وجدوا عليه آباءهم؟ إذن فعليهم أن يتأملوا في الأمر ليكتشفوا الأفضل . وهنا يصيبهم الفلج ولا يملكون منطقاً إلا العناد وإعلان الكفر، مما أهلهم للانتقام والعاقبة السيئة.

٢٦،٢٧- وهنا يعيدهم القرآن إلى موقف إبراهيم ـ وهم يفتخرون بالانتساب إليه ـ حيث واجه أباه وقومه المشركين بموقفه الرافض لهم المتبرئ من شركهم براءةً لا رجعة فيها، والعائد به إلى ربه الخالق والهادي له. وبذلك يعرض القرآن انحرافهم عن إبراهيم كما يوضح موقف الرسول القوي منهم.

٢٨- إنها كلمة التوحيد والمواقف المبدئية التي تركها إبراهيم خالدة لدى أبنائه وذريته عبر التاريخ لعلّهم يرجعون إلى الحق في كل المسيرة.

٢٩،٣٠- ولكن هؤلاء المشركين الذين ينتسبون إلى إبراهيم والذين متّعهم الله ومتّع آباءهم من قبل بالخيرات حتى جاءهم الحق متمثلاً في القرآن والرسول الواضح ، هؤلاء بدلاً من الإيمان به اتهموه بالسحر وأعلنوا كفرهم به رغم وضوحه.

٣١- وإمعاناً في العناد والتمويه راحوا يعترضون على نزول القرآن على الرسول الكريم باعتبار أنه ليس من زعماء القبائل في مكة والطائف مما يكشف عن تدني القيم لديهم . وتذرعهم بالحجج الواهية.

٣٢- إن الرسالة رحمة إلهية يؤتيها الله من يشاء من النفوس السامية القادرة على حملها. وتتفاوت الاستعدادات لدى البشر فتتفاوت الأرزاق وتختلف الدرجات الاجتماعية كي يستفيد البعض من الآخر لتستمر المسيرة، والأرزاق مادية، ومعنوية منسوبة للتكامل والرحمة الإلهية هي أفضل الارزاق.

٣٣- إن هذه الدنيا لا قيمة لها ولولا خشية افتتان الناس بها واجتماعهم على الكفر لوهب الله للكافرين بيوتاً سقوفها من فضة وسلالمها من ذهب يصعدونها ويظهرون للآخرين.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

٣٥،٣٤- نعم لولا افتتان الناس بالكافرين لوهبنا لهم بيوتاً ولها أبواب كثيرة وفيها سرر للراحة، وزخارف للزينة. كل ذلك مما لا قيمة له بحساب الله، إنه متاع الدنيا ولا يقاس الى متاع الآخرة المعد للمتقين المكرمين عند ربهم بالخصوص فهو القيمة الحقيقية.

٣٦،٣٧- أمامن تعامى عن ذكر الله فقد قرن الله به شيطاناً ملازماً يسوقه نحو الهاوية والانحراف عن السبيل القويم ويزيّن له هذا الضياع.

٣٨- وعندما يعود إلى ربه ويقف على الحقيقة ينفر من هذا الشيطان متمنياً أن لو كان ابتعد عنه بمقدار ما بين المشرق والمغرب فبئس القرين الغاوي.

٣٩- إنها مسيرة مشتركة في خط الضلالة تؤدي الى مصير مشترك في العذاب.

٤٠،٤١،٤٢- وما على الرسول من أمرهم شيء إنهم صم لا يمكن إسماعهم، وعمي لا يمكن هدايتهم بعد أن غرقوا في الضلال الواضح. وإذا فارقهم الرسول فإنهم سيتعرضون للإنتقام الإلهي، وإذا استمر بينهم فسيرى تحقق الوعد الإلهي وتجلي القدرة الإلهية عليهم.

٤٣،٤٤- وليثبت الرسول على خط الحق الموحى إليه فهو الصراط المستقيم، وهو تذكير للرسول وقومه وسوف يسألون جميعاً عن تبعات حمل هذا الذكر ومدى القيام بها.

٤٥- إنها رسالة التوحيد التي حملها جميع المرسلين، فدعوا إلى الله ونبذوا كل ما دونه من آلهة مزيفة ولم يأبهوا لكل العقبات.

٤٦- وهذا النبي موسى أرسله الله بآياته إلى فرعون وقومه المترفين المتكبرين ليعلن لهم رسالته بكل قوة.

٤٧- فما كان منهم إلا أن استهزؤا بهذه الرسالة وهذا هو شأن الطغاة والذين لا يملكون دليلاً وحجة منطقية.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

٤٨- وتتابعت الآيات والدلائل كل آية أكبر من أختها، وحتى أن العذاب كان يتنوع ويتتابع عليهم عسى أن يرجعوا عن غيهم.

٤٩، ٥٠- ولكنهم لا يرعوون وإنما يخاطبونه (يا أيها الساحر) ويطلبون منه أن يكشف عنهم العذاب بدعائه لربه بما عهد عنده، فهم غارقون في العذاب ولكنهم معاندون كافرون رغم أنهم كانوا يعدونه بالإيمان، ولذا نكثوا وعدهم بعد أن كشف عنهم العذاب.

٥١,٥٢- ويحاول فرعون أن يخدع الجماهير بقدرته وملكه لمصر والأنهار التي تجري فيها ليثبت لهم أحقيته بهذه المظاهر الحسية الزائفة التي يفتقدها موسى الفقير المستضعف الذي لا يكاد يستطيع التعبير عن مراده لعقدة في لسانه.

٥٣- وزيادة في التمويه على الجماهير يذكرها بأنه لو كان موسى رسولاً لأمكنه أن يجلب أسورة وأطواقاً من ذهب ولجاءت معه الملائكة مقترنة حافة به.

٥٤- وهكذا هي سيرة الجبابرة إذ يستضعفون الجماهير ويستخفونها ويقللون من قدرتها على التأثير والتفكير والمحاسبة ويسخرونها لمصالحهم فتطيعهم بعد أن تنسى ذواتها وتغترب عن قدراتها وتفسق عن طبيعتها.

٥٥، ٥٦- إنهم أغضبوا الله وآسفوه فاستحقوا النقمة وأغرقوا أجمعين. وهكذا يعتبر القرآن ويصرح بكل وضوح بأن إطاعة الطغاة والجبابرة فسق وخروج عن الطريق السوي والحكم الإلهي ويستحق العذاب في الدنيا والآخرة.

٥٧,٥٨- وعندما ذكر عيسى بن مريم مثلاً للعظمة والقدرة الإلهية والطاعة والعبودية لله راح المشركون يجادلون فيه ويستهزئون ويعرّضون به ويعلنون أن آلهتهم خير منه لأنهم كانوا يعبدون الملائكة فلا يقاس إليها ما يعبده النصارى من شخص عيسى! وربما شككوا في ولادته من غير أب، كل ذلك جدالاً ومراءً وعناداً للحق.

٥٩- والحقيقة الناصعة هي أنه عبدلله أنعم الله عليه بالنبوة والطاعة وتجلت فيه القدرة الإلهية وعاد قدوةً لبني إسرائيل.

٦٠- والملائكة أنفسهم مخلوقات مطيعة لله ولو شاء الله لرفع البعض من الناس إلى مستوى الملائكة ليخلف بعضهم بعضاً في الأرض.

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

٦١- إنَّ ولادة عيسى من غير أب علامة على قدرة الله على إحياء الموتى وإقامة الساعة. وعودة المسيح الى الدنيا من علاماتها، فلا مبرر للإنكار بل يجب الاستعداد لها باتباع الرسول فهو الذي يرسم لهم صراط النجاة المستقيم.

٦٢- هذه هي حقيقة الأمر فيجب أن لا يستمعوا لوساوس الشيطان لأنه ينطلق من عدائه البين ليغوي الإنسان ويصده عن الحقيقة.

٦٣- لقد كان عيسى من أنبياء الله الذين يحملون البينات من الله والحكمة والذين يرسمون للبشرية المنطق الفصل في الحياة فتجب خشية الله واتباع رسوله واطاعته.

٦٤- إنه الله رب الجميع ومن الحق أن يعبدوه بكل معاني العبادة لأن ذلك هو الصراط المستقيم للكمال والنجاة في الآخرة.

٦٥- إلا أن أمة عيسى اختلفت وتوزعت على أحزاب وفرق مؤمنة وظالمة فلينتظر الظالمون منهم العذاب الأليم.

٦٦- أن الساعة والقيامة حقيقة لامراء فيها، ويبقى علمها عند الله وسوف تأتيهم فجاة والناس في غفلة فيجب الإعداد والتنبه لها.

٦٧- إنها حدث عظيم تختلف فيه الظواهر فإذا المتفقون في الدنيا على الانحراف يختلفون يوم القيامة ويتعادون، فلا جامع فيه إلا تقوى الله والمتقون.

٦٨،٦٩،٧٠،٧١- المتقون هناك هم الفائزون، ودادهم مستمر من الدنيا إلى الآخرة، لا يصيبهم الخوف من الآتي والحزن على الماضي لأنهم آمنوا بآيات الله وأسلموا أمرهم له فكان جزاؤهم الجنة لهم ولأزواجهم من أهل الإيمان يعيشون في حبور وفرح دائم وحياة رغيدة يطاف عليهم فيها بصحون ذهبية وأكواب رائعة ويحصلون على كل ما تشتهيه أنفسهم وتستلذه أعينهم خالدين في النعيم.

٧٢،٧٣- إنها جنة الله ورثها المؤمنون العاملون بما فيها من ثمار وإشباع دائم في ظل الرضا الإلهي. وهل يهفو الإنسان إلى أكثر من ذلك؟

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

٧٤،٧٥،٧٦- وعلى الجانب الآخر يعاني المجرمون المعاندون من عذاب جهنم الذي لا يهدأ لحظة ولا يبرد هنيهة فلا أمل بالخلاص وإنما هو اليأس القاتل والخلود في العذاب كل ذلك نتيجة ظلمهم وعنادهم لا غير.

٧٧- ويلجأون إلى مالك خازن النيران والملك الموكل بجهنم طالبين الهلاك والنهاية والقضاء عليهم من قبل الله، ليأتيهم النداء الرهيب- إنكم باقون في العذاب.

٧٨،٧٩- ولقد قاوموا الحق الذي جاءهم في الدنيا وكرهوا اتباعه وهو الأحق بالإتباع وأصروا على موقفهم المعاند وهاهم اليوم يواجهون الموقف الحازم.

٨٠- هل يحسب هؤلاء أن الله لا يعلم سرهم وتآمرهم في الخفاء؟ كلا، إن رسل الله وملائكته يكتبون كل صغيرة وكبيرة فلا يفلت من علم الله شيء.

٨١- وأعظم فرية يفترونها على الله أسوة بالنصارى هي ادعاء الولد لله، والرسول هنا يؤمر ليقول لهم بأنه لو كان لله ولد فهو أول المؤمنين العابدين المطيعين لهذا الولد بمقتضى بنوته لله ولكنه يستحيل ذلك على الله سبحانه.

٨٢- سبحانه فهو رب الكون كله بما فيه النقطة التي تديره كله، سبحانه المنزه عما يصف هؤلاء الجاهلون.

٨٣- إنهم يخوضون في الأوهام ويلعبون بعقولهم حتى يلاقوا يوم الحساب الموعود.

٨٤- إنه تعالى إله السماء وإله الأرض إله الكون كله الحكيم العليم المطلق.

٨٥- إنه العظيم المالك للكون كله المفيض عليه بالبركة والعليم بكل شيء العليم بالساعة حيث ترجع الخلائق إليه.

٨٦- وتتجلى هناك الولاية للحق تعالى ولا تملك الآلهة المزعومة أي قدرة على الشفاعة لهؤلاء، إن الشفاعة إنما تكون للذين آمنوا وشهدوا بالحق عالمين به.

٨٧- لقد كان المشركون يؤمنون بالله الخالق ولكن يزعمون له شركاء إفكاً وزوراً.

٨٨- ويلجأ الرسول إلى ربه شاكياً قومه إليه بأنهم لا يؤمنون رغم الدلائل والبراهين والبينات.

٨٩- ليأتيه التوجيه الإلهي بأن يعفو ويصفح ولا يأبه بذلك وإنما يسالمهم حتى يأتي يوم الحق.

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ والكتاب المبين ﴿٢﴾ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴿٣﴾ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴿٤﴾ أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين ﴿٥﴾ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴿٦﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴿٧﴾ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿٨﴾ بل هم في شك يلعبون ﴿٩﴾ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿١٠﴾ يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴿١١﴾ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴿١٢﴾ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ﴿١٣﴾ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴿١٤﴾ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴿١٥﴾ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴿١٦﴾ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ﴿١٧﴾ أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين ﴿١٨﴾

سورة الدخان

مر بنا الحديث عن البسملة.

١- من الحروف المقطعة التي يتألف منها الكتاب الكريم معجزة الرسالة الخالدة.

٢،٣،٤،٥- قسم بكتاب الله الواضح على إنزاله من الله في ليلة فيها البركة كل البركة على البشرية كلها بعد أن مهّد لذلك كل الأنبياء ليعدوا البشرية للعمل بهذا النهج الخالد المنسجم مع الفطرة. والظاهر هو الإنزال الكمل إجمالاً وفي ليلة القدر المباركة على قلب الرسول لصياغته وتأهيله، ولكن الإنزال التدريجي سار مع مسيرة الدعوة لتربية الأمة، وإنذارها وإعطائها المعيار الفاصل الحكيم بين الحق والباطل، بلغه الرسول الكريم بأمر الله.

٦- إنه المظهر الكامل للرحمة الإلهية بالبشرية وهي أساس إرسال الأنبياء وهداية البشرية إلى أفضل منهج للسعادة قائم على علم الله بالإنسان وعلاقته بالكون وما ينبغي له أن يعرف ويسلك ليحقق هدف خلقته.

٧- إنه تعالى رب الكون الذي تتجه إليه الفطرة وتتيقن منه العقول.

٨- إنه الإله الواحد الحي المحيي والمميت وهو رب البشرية كلها.

٩- أما هؤلاء المعاندون فهم غارقون في أوهام الشك يلعبون ويلهون عن الواجب والتكليف والاعداد للمستقبل.

١٠،١١،١٢،١٣،١٤- تهديد لهم بآية إلهية هي الدخان الواضح الذي يسد عليهم منافذ الحياة ويوقع الناس في عذاب أليم، فيجأرون إلى الله طالبين كشفه عنهم واعدين بالإيمان ولكنهم غارقون في غفلتهم لا يستطيعون أن يتذكّروا بعد أن وقفوا بوجه الرسول المبين عن الحق، والحامل لكل مقتضيات الصدق فاتهموه بكسب العلم من الآخرين ووصفوه بالجنون.

١٥- فإذا كشف عنهم العذاب قليلاً عادوا إلى غيهم وسفههم.

١٦- فاستحقوا الانتقام الكبير والبطش العظيم.

١٧- ألا يعتبر هؤلاء بمصير قوم فرعون – من قبل – الذين غرقوا في الغفلة وأسرفوا في النعمة وكذّبوا برسولهم الكريم.

١٨- الذي دعاهم أن يفرجوا عن عباد الله(بني اسرائيل) الذين كانوا تحت سيطرة وأسر فرعون كما دعاهم للعمل برسالته وأنه رسول أمين علي وحي الله.

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

١٩، ٢٠- ونهاهم عن التكبر على الله حاملاً معه البرهان الساطع مستعيذاً بربه وربهم من أن يرجموه ويعذبوه.

٢١، ٢٢- وإن لم يشاؤوا الإيمان فليعتزلوه ولكنهم أصرّوا على العدوان فدعا ربه عليهم معلناً أن الإجرام قد تأصل فيهم.

٢٣- فأمره الله أن يتحرك بالمؤمنين من عباده ليلاً لأن قوى فرعون تتبعهم.

٢٤- كما أمره بعبور البحر بعد أن انشق له طريق واسع فيه فعبره وتركه كذلك ليدخله جيش فرعون مما يؤدي به إلى الغرق.

٢٦، ٢٧، ٢٥- وهكذا تجلت القدرة الإلهية وغرق الظالمون المسرفون تاركين وراءهم جنات وعيوناً كثيرة ومحاصيل زراعية وافية ومقامات ومساكن زاهية ونعماً كانوا يتفكّهون فيها ويتمتّعون.

٢٨- وكذلك هلك هؤلاء الطغاة وأورث الله ما تركوه للآخرين وهم بنو إسرائيل.

٢٩- لقد رحلوا غير مأسوف عليهم وكأنَّ نتوءاً غريباً تمّ إزالته ولم يكن باستطاعتهم أن يمنعوا ما حل بهم عند حلول أجلهم. فالتأجيل والإمهال إنما يكونان لاحتمال التغيير والاصلاح ولم يكن ذلك متوفراً في فرعون وقومه.

٣٠، ٣١- ومنّ الله بذلك على بني إسرائيل ونجاهم من العذاب المذل الذي كان فرعون يصبه عليهم بكل جبروته وإسرافه في تجاوز خط الاعتدال إلى أعلى درجات الظلم.

٣٢، ٣٣- وقد اختارهم الله لحمل رسالته بعد أن علم فيهم قدرة حملها دون غيرهم وبعد أن امتحنهم بأنواع البلاء ومحصهم فرآهم الأفضل لهذه المهمة الكبرى، ومنحهم كل الآيات التي تحقق هذا الهدف الكبير. وان كانوا نكصوا وانقلبوا على هذه المهمة ولم يستقيموا فواجهوا بتآمرهم رسالة عيسى ورسالة الإسلام.

٣٤، ٣٥، ٣٦- عودة إلى المشركين في عصر الرسالة وردٌ على دعواهم بإنكار البعث والنشور وأن الأمر يقتصر على هذه الموتة الأولى لا غير وإلا فهل يستطيع الرسول أن يحيي آباءهم إن كان صادقاً.

٣٧- وقبل أن يجيبهم يذكرهم بقوم تبّع من ملوك حمير، ومن سبقوهم من الجبابرة الذين كذبوا وأجرموا فاهلكهم الله، مع انهم كانوا أقوى وأشدّ من هؤلاء.

٣٨، ٣٩- هذا هو الرد القاطع على ذلك التكذيب إنه توجيه الفكر إلى الهدفية الرائعة المشهودة حساً في خلق الكون، فلا خلل ولا عبثية بل خلق بالحق وان لم يعلم ذلك أكثرهم.

وتتكشف يوماً بعد يوم عظمة التنسيق الكوني لتمتلئ النفوس بالايمان بالهدفية وبالتالي الإيمان بالآخرة.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سورة الدخان

٤٠،٤١،٤٢- إن القيامة هي يوم الفصل والحساب، وهي ميقات جميع الخلائق، وبه تتحقق المدفية ويعود الحق إلى نصابه ويُجزى الجميع بما عملوا دونما نصير أو شفيع إلا من رحمه الله ونصره وقبل الشفاعة فيه، وهو العزيز الرحيم بعباده.

٤٣،٤٤،٤٥،٤٦- ما أتعس مصير المجرمين هناك في الجحيم- طعامهم شجرة الزقوم كريهة الرائحة الملوثة بالمواد المنفرة السائلة تغلي في البطون كما يغلي النحاس الذائب .

٤٧،٤٨،٤٩،٥٠- ويأتي النداء الرهيب – خذوه وشدوه إلى قلب الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ثم يأتي التنكيل اللائق به- ذق إنك أنت العزيز الكريم، استهزاءً به ونكاية وجزاءً على ما كان يكذب به وما يدعيه من العزة والكرامة.

٥١،٥٢،٥٣،٥٤،٥٥- وفي قبال هذا المنظر الرهيب يعرض هذا المنظر الرائع حيث يقيم المتقون في مقام أمين فلا خوف ولا حزن بل نعمة وجنات وعيون ولباس مريح من حرير ناعم (سندس) وسميك (إستبرق) وجلوس متقابل وسمر، وزواج بالحور العين وتمتع بما تشتهيه الأنفس مع الأمن من انقطاع هذا النعيم.

٥٦- إذ لا موت بعد موتتهم الأولى بل هو خلود دائم في العطاء وبعد عن العذاب.

٥٧- إنه الفضل الإلهي وهو الفوز العظيم.

٥٨- تلخيص لهدف السورة الكريمة وأن هذا القرآن الكريم أنزل على رسول الله فتلاه بلغة واضحة هي العربية لعل هؤلاء يخرجون من غفلتهم ويعودون إلى فطرهم.

٥٩- وإذا لم يتذكروا فلينتظر الجميع أحوال القيامة. وهكذا تركز هذه الآيات كما في غيرها ايضاً وبشتى العبارات والأساليب على موضوع التخويف من الاهوال والعقاب والترغيب في الجنة والثواب وكل ذلك لاعداد الأمة الواثقة من رسالتها ودورها في الحياة.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين (٣) وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (٦) ويل لكل أفاك أثيم (٧) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨) وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين (٩) من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم (١٠) هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم (١١) الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢) وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣)

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١- من الحروف المقطعة

٢- إنه الكتاب المعجز المنزل من الله تعالى ذي العزة والحكمة هداية للبشرية ولطفا بها لتستفيد من هذه الهداية التشريعية وتحقق هدف خلقتها.

٣- وإن التأمل في هذا الكون الفسيح وعجائبه يؤدي إلى الإيمان.

٤- وكذلك يؤدي إليه التأمل في خلق الإنسان وعظمة التنسيق فيه وفي الدواب التي لا تحصى أنواعها وكلها تؤدي وظائفها مسخرة لخدمة الإنسان مما يركز اليقين بالله وعزته وحكمته.

٥- وهذا التناوب الكوني في الليل والنهار ودوره المحسوس في تسهيل الحياة الإنسانية، وهذا المطر الوهوب الذي يحيي الأرض بعد موتها، وحركة الرياح التي تؤدي أدواراً كبرى في حياة الإنسان كل هذا التناسق في قوانين الخلقة يهز الوجدان ويدفع العقل إلى الإيمان.

٦- إنها آيات الله تتلى بالحق وتنسجم مع الواقع والفطرة وتصنع الإيمان وإذا لم تستطع أن توجده بسبب العناد فإن الإنسان سيبقى تائهاً لا يؤمن بأية قيمة وحينئذ فالضياع كل الضياع.

٧،٨- إن الهلاك هو جزاء كل كذاب آثم يرى ويسمع آيات الله البينات تتلى عليه ثم يبقى على عناده مستكبراً وكأنه لم ير الحقيقة فليبشر بالعذاب الأليم.

٩- إنه عندما يستمع إلى آيات الله يستهزئ بها فيستحق العذاب المذل.

١٠- إن هؤلاء سوف تلاحقهم جهنم يوم القيامة ولا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا الآلهة التي زعموها من دون الله ولهم عذاب عظيم.

١١- إن القرآن هدىً ونور أما الكافرون به فلهم العذاب الأليم.

١٢- لقد منَّ الله على البشرية فسخَّر لها ظواهر الكون ومنها البحار حيث تسمح قوانينها المائلة للفلك لتسري بأمر الله وفضله وحكمته فتشبع حاجات البشر وكل ذلك يدفع الإنسان للإيمان والشكر.

١٣- ان هذا التناسق وتوافر الظواهر لتسهيل الحياة الإنسانية يسير بالفكر الإنساني إلى الإيمان بالخالق المنظم الرحيم الحكيم.

قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

١٤- يدعو القرآن المؤمنين إلى الصبر في قبال المشركين، والعفو عن سيئاتهم خصوصاً وهم في حالة ضعف ولجذبهم للاسلام كما حصل، وإيكال أمرهم إلى الله.

١٥- هذه هي الحقيقة، إذ يعود العمل الصالح بالخير على نفس العامل في حين يعود العمل الطالح بالشر عليها وهنا تلتحم المصالح الفردية والاجتماعية ثم يعود الجميع إلى الله وبذلك يتحقق مقتضى الهدفية.

١٦- لقد أوتي بنو إسرائيل الكتاب الإلهي، والقيادة الدينية والدنيوية، وأعطاهم الله الطيبات وفضلهم بذلك على العالمين لأنهم كانوا في البدء مؤهلين لذلك.

١٧- وساروا يحملون النور الإلهي والبينات من أمر الدين والدنيا ولكن علماءهم لم يحفظوا هذه الأمانة جيداً بل دعتهم مصالحهم الضيقة إلى البغي والعدوان والاختلاف في الدين والتمزق في المذاهب والمواقف رغم ماجاءهم من العلم الذي يدعوهم إلى الوحدة في الموقف العملي، وحمل الأمانة بقوة، وحينئذ فقدوا أهلية القيادة في الأرض وسيقضي الله بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا وتنازعوا فيه.

١٨- وتحولت القيادة والأمانة إلى هذا الرسول فليحملها بقوة ولا يأبه لأهواء الجاهلين والطامعين والمساومين.

١٩- فهؤلاء لا قيمة لهم عند الله، وإنما يتولى بعضهم بعضاً دون أن يمنحهم ذلك قوةً ووزناً وتبقى الولاية الحقيقية لله وهو ولي المتقين. وشتان ما بين الولايتين.

٢٠- إن النور والبصائر الهادية والمعايير الحقيقية واللطف والرحمة تكمن في القرآن شريطة أن يوقن الإنسان به ويتفاعل معه، وينظر إلى الأمور بدقة وبصيرة بعيداً عن السطحية والتبسيط.

٢١- هما إذن خطان متمايزان لا يتساويان عند الله يختلفان في المحيى والممات- خط يحمل النور والهدى ويعمل بمقتضاه صالحاً ويؤمن بانه سيعود إلى ربه فيجزيه الجزاء الأوفى، وخط يعيش في عمىً ويرتكب السيئات ويرى أنه يفنى إذا مات فلا حساب. والحكم بتساوي الفريقين عند الله سواء كان في الحياة أو الممات حكم سيئ وسخيف.

٢٢- هذا ما يقتضيه المنطق السليم فإن الكون كله مخلوق لله وعلى أساس من الحق والقيم الثابتة، وستعود الخلائق إلى ربها لتجزى كل نفس بما فعلت بالعدل والفضل فلا يمكن أن يتصور الظلم في هذا النظام.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٢٣- توضيح إضافي للفرق بين الفريقين- ذلك أنّ فريق الباطل يعيش في عمىً وضياع ويفقد معالم الإنسانية وتختل القيم لديه، فهواه إلهه، ولا مجال في سلوكه لعقل أو فكر أو إرادة واعية وإنما هي العواطف الجامحة والضلال، رغم علمه بالحقيقة ولكنه لا يتبع علمه بل يسير أعمى خلف هواه وكل منافذ الهدى لديه مغلقة، سمعه وبصره معطل لأن الاساطير تعطل رؤيته، ولأن الأوهام والأصنام لا تهدي أحداً فالهدى بيد الله لا غير لو تذكّر المتذكّرون.

٢٤- هكذا هو التصور القاصر لهؤلاء السطحيين - قديماً وحديثاً - فالحياة هي هذه الحياة والأجيال تتعاقب على مسرحها والزمان هو الذي يفرض ذلك دونما وعي ولا هدف، إنها هي السخافة والوهم لا غير.

٢٥- فإذا جاءتهم الأدلة القاطعة راحوا يتذرعون بالحجج الواهية ومع ان الحديث عن المعاد وإعادة الموتى انما هو في الآخرة والقيامة فانهم يتحدّون الرسل أن يرجعوا إليهم آباءهم الذين ماتوا في هذه الدنيا إن كانوا صادقين.

٢٦- إن الله هو المحيي والمميت وهو الجامع إلى يوم الحساب الذي لا ريب فيه حق لو أنكره أكثر الناس.

٢٧- فلله القدرة المطلقة وله الملك في الكون يحكم ما يشاء وسيعلم هؤلاء أن الخسران الحقيقي سيكون من نصيبهم يوم القيامة.

٢٨- حيث تجثوا الأمم على ركبها هناك تنتظر مصيرها وتدعى إلى حسابها لتجزى وتواجه حقيقة أعمالها التي تتجلّى عذاباً لها.

٢٩،٣٠،٣١- إن كل ما عملته هذه الأمم محفوظ في كتاب ناطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فأما المؤمنون العاملون فأمامهم رحمة ربهم ولهم الفوز المبين وأما الكافرون فلهم التبكيت والتساؤل القاتل عما بدر منهم إذ كانت آيات الله تتلى عليهم فيستكبرون ويجرمون.

٣٢- وعندما كانت عقولهم تـُذكرهم بأن الله قادر وصادق في وعده وأن القيامة حقيقة لا ريب فيها كانوا يشككون فيها ويدعون أنهم يعيشون الظن ولا يستيقنون.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الأَحْقَافِ ٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

٣٣- هاهي أعمالهم السيئة تبدولهم مجسدة بما لها من عواقب، وهاهي اليوم جهنم التي كانوا يكذبون ويستهزئون بها. تحاصرهم من كل جانب.

٣٤،٣٥- وتنكيلاً بهم يقال لهم: اليوم ننساكم كما نسيتم هذا اليوم فذوقوا عذاب النار من دون وليّ يلي أمركم أو نصير بعد أن كنتم تستهزئون بآيات الله غارقين في الإغراءات الدنيوية فلتغرقوا في العذاب بلا أمل في النجاة ولا قبول للعذر.

٣٦، ٣٧- إنه صوت الحقيقة يعلو بالحمد المطلق لله ربّ الكون وربّ العالمين له العظمة والجلال له وحده العزة والحكمة فلتسبح بحمده الكائنات كلها.

سورة الأحقاف

تحدثنا من ذي قبل عن معاني البسملة وجزئيتها للسورة.

١- من الحروف المقطعة.

٢- تأكيد على أن الله أنزل هذا الكتاب من عنده وعلى أساس من عزته وعلمه وحكمته ليهدي البشرية لأفضل سبيل لعلائها.

٣- وخلق الكون بالحق وكون ذلك إلى أجل معين ولهدف مقدّر يشكل تجلّياً للعزة والقدرة والحكمة الإلهية وهو ما يجب أن يتركز في وجدان الإنسان بعد أن يلاحظ هذا التنسيق الدقيق في الآفاق وفي نفسه.

أما الكافر فهو بعيد عن الوعي معرض معاند يشرك بالله موجودات مزيفة.

٤- وهذه الآلهة المزيفة ما قيمتها وما أثرها في الأرض أو في السماء، وهل جاء ما يدلّ عليها من كتاب أو بقية من علم؟

٥- نعم هو الضلال البعيد أن يدعو الإنسان إلهاً من دون الله لا قيمة له ولا يستجيب لداعيه إلى يوم القيامة لأنه غافل عاجز.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٦- وسوف تكون هذه الآلهة المزيفة اعداءً لعبدتها تكفر بعبادتهم وتستنكرها.

٧- إن العناد يتأصل في نفوس الكافرين حتى إذا ما واجهوا الحق والآيات البينات راحوا يصفونها بالسحر والوهم.

٨- ثم إنهم ينسبون الافتراء إلى الرسول ولكنه يؤمر بالرد عليهم وتذكيرهم بأنه لو كان افترى فمن الذي يحميه من الله القادر على كل شيء والعالم بكل ما يطرحه هؤلاء من افتراء وتكذيب واتهام، فكفى بالله شهيداً بعد أن أنزل إليه هذا الكتاب المعجز، وإجراء المعجزة على يديه شهادة على صدقه وبعد كل ذلك ليعد هؤلاء إلى الله ويستغفروه وهو الغفور الرحيم.

٩- لم يكن الرسول إلا على نهج الرسل السابقين يقول أقوالهم ويدعو إلى ما دعوا إليه، وهو مثلهم عبد مطيع لله لا يعلم إلا ما يعلّمه الله ولا يدري ما يريده الله به وبمخاطبيه، إنه إنما يتبع ما يوحى إليه وما هو إلا نذير ومبلّغ عن الله واضح في إنذاره، وهو يعمل بتكليفه.

١٠- إنه من التهور أن يكفر به هؤلاء المشركون رغم احتمالهم أن يكون من عند الله ـ وهم يعرفون الرسول بالصدق والأمانة ـ خصوصاً بعد أن شهد بعض الشهود من بني إسرائيل على صدق معلوماته وانسجامها مع دعوات الرسل السابقين وبالتالي آمن به وصدقه مما يدعو هؤلاء إلى إعادة النظر في موقفهم فإن لم يفعلوا ذلك ظلموا أنفسهم واستحقوا الضلال.

١١- من مقولات الكافرين وتبريراتهم لتكذيبهم بالرسالة قولهم: أن لو كان فيها خير لم يسبقهم المؤمنون إليه لما يتازون به من مكانة! والواقع هو أنهم ينطلقون من كبر وتعالٍ على الحق ولانهم لم يهتدوا فهم يعتبرون الرسالة إفكاً وزوراً قديماً.

١٢- إن هذا القرآن سبقته كتب إلهية هدت أممها وقادتها للحق وعلى نفس النهج وتصديقاً للرسل جاء القرآن بلسان عربي واضح إماماً ورحمة، منذراً للظالمين ومبشراً للمحسنين.

١٣- إن الذين دانوا لله بالربوبية وعملوا بمقتضياتها واستقاموا على الخط هم الفائزون حقاً فلا يخافون من المستقبل ولا يحزنون على ما فات.

١٤- إنهم ينالون أعظم ما يمكن أن يتمناه إنسان وهو الخلود في النعيم جزاء بما كانوا يعملون.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

١٥- إنها وصية للنوع الإنساني أن يحسن لوالديه ولا ينسى ما بذلاه من تضحيات وخصوصاً الأم في زمان الحمل والوضع حيث المعاناة الشديدة والرضاع ثم الفصال عنه الذي يبلغ جميعه بطبيعة الحال ثلاثين شهراً، وعندما يبلغ الإنسان أربعين سنة يصل إلى أوج نضجه وتكمل طاقاته ويتوجه إلى الله أن يوفقه لشكر النعمة عليه وعلى والديه، وعمل الصالحات، ويدعوه أن يديم نسله في طاعته ـ فالنسل غير الصالح غير مرغوب فيه ـ ويعلن التوبة والاستسلام لربه هذا ولعل الآية تشير الى شخص بعينه دون الحديث عن النوع الإنساني.

١٦- مثل هذا المؤمن مؤهل للقبول، والغفران والدخول في أصحاب الجنة كما وعدوا وعداً صادقاً من الله.

١٧،١٨- وهناك من ردَّ على والديه وتأفف منهما ورفض دعوتهما له للإيمان بالآخرة مشككاً فيها بأن القرون السابقة قد فنت ولن تعود، فيعزُّ عليهما ذلك فيستغيثان بالله ويحذرانه من وعيد الله لأنه حق فيردّ عليهما بأن ذلك من أساطير السابقين، إن مثل هذا سوف يدخل في سلك المكذبين الذين سبقوا من الجن والإنس وحق عليهم القول الإلهي بالخسران والعذاب.

١٩- بعد عرض هذين المثالين للمؤمنين الفائزين والمكذبين الخاسرين يقرر القرآن أن المعايير واضحة منضبطة عادلة فلكل جزاؤه ودرجته نتيجة عمله وسوف يوفى حسابه بلا ظلم.

٢٠- موقف رهيب يواجه الكفار في القيامة إذ يعرضون على النار ويقال لهم بأنهم لم يدخروا من الطيبات لذواتهم في الآخرة شيئاً بل استنفذوها واستمتعوا بها جميعاً في القسم القصير من الطريق ومالهم هنا إلا العذاب المذل في قبال استكبارهم في الدنيا بغير الحق، وفسقهم وخروجهم عن الطبيعة الإنسانية.

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

٢١- وهنا يذكّر القرآن بنبي الله هود الذي أرسل إلى عاد ـ وهو أخوهم ومنهم ـ وكانت عاد تسكن الأحقاف وهي مرتفعات رملية في جنوب الجزيرة العربية قيل أن بعض آثارها باقية. وقد صدع بنفس الدعوة التي صدع بها الأنبياء قبله وبعده، وطلب منهم عبادة الله الواحد الأحد وحذرهم من عذاب الآخرة.

٢٢- فردّوا عليه مثل كل الأمم المكذبة متهمين إياه بالعمل على إبعادهم عن آلهتهم إفكاً وافتراءً متحدين كل ما وعدهم به من عذاب نتيجة التكذيب.

٢٣- فيجيبهم هو بأن أجل العذاب بيد الله، وما عليه إلا الإبلاغ لعليهم أن يتجاوزوا جهلهم ويفكروا في ما دعاهم إليه.

٢٤،٢٥- وحين جاءهم العذاب بشكل سحاب بعد جفاف أصابهم استبشروا به خيراً ليمطرهم ويرعهم، وسرعان ما اكتشفوا أنه عذاب وريح مدمرة بأمر ربها تمحو هؤلاء الظالمين وتطهر الأرض منهم فلا يرى بعدهم إلا مساكنهم الخالية وذلك جزاء المجرمين.

٢٦- لقد مكّنهم الله وأعطاهم القدرة والمال والعلم بأكثر مما مكّن به المشركين في عصر الرسالة ومنحهم كل وسائل المعرفة من السمع والابصار والقلوب فلم يستغلوها كما ينبغي وجحدوا بآيات الله وأحاطت بهم نتائج الجحود والاستهزاء.

٢٧،٢٨- فليتأمل المشركون فيما حوالبهم من القرى كالأحقاف، والحجر، وسبأ، ومدين وغيرها وليعتبروا بهلاكها بعد أن منّ الله عليها بالهدى لعلها تعود إلى ربها فكذبت فأصابها العذاب، ولم تنصرها آلهتها المدعاة من دون الله والتي كانت تعبدها لتقربها إليه، إفكا وافتراءً على الحقيقة. وقد يكون التأكيد على قوم عاد بالخصوص في هذه السورة لقرب مكانهم وآثارهم في الجزيرة من المشركين.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سورة الأحقاف ٢٨

٢٩، ٣٠، ٣١- وهنا ينقل القرآن قصة نفر من الجن استمعوا إلى القرآن خاشعين منصتين ليترك القرآن أثراً كبيراً في نفوسهم وراحوا على إثره إلى قومهم منذرين. قائلين لهم إنهم استمعوا إلى كتاب إلهي جديد أنزل من بعد موسى يصدق ما قبله، ويهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم طالبين منهم أن يجيبوا هذه الدعوة ويؤمنوا بها كي يفلحوا وتغفر ذنوبهم ويجاروا من عذاب أليم.

٣٢- ويستطرد القرآن بأن عدم الاستجابة للهدى الإلهي يمثل نقصاً وسوء حظ للرافضين، ولا يعني القدرة على مقاومة الله بل هم معرضون للضلال الواضح دون أن يكون لهم من ينصرهم من دون الله.

٣٣- أو لا يرى المنكرون للبعث هذه القدرة الإلهية المطلقة التي خلق بها الكون بكل قوانينه وعظمته ولم يصبه بذلك عناء أو عجز، وهي قادرة على إحياء الموتى. نعم إنها مطلقة وقادرة على كل شيء.

٣٤- إنه إحياء ليوم القيامة حيث الحساب العسير، يوم يعرض الكافرون على نار جهنم ويقال لهم- أليس هذا بالحق؟ فلا مناص إلا الاذعان ويقسمون على ذلك ليقال لهم إذن ذوقوا العذاب نتيجة كفركم.

٣٥- وهكذا يطلب القرآن من الرسول أن يصبر كما صبر أولو العزيمة من رسل الله على مر التاريخ والمبعوثون برسالات عالمية –وهم نوح وابراهيم، وموسى وعيسى والرسول آخرهم ـ ولا يستعجل لهم العذاب رغم أذاهم فإنه سيأتيهم ما يوعدون، وحينئذ سيعلمون أن هذه الدنيا ليست إلى جانب الآخرة إلا ساعة من النهار حصل فيها البلاغ وتمت الحجة فلا هلاك إلا للفاسقين المنسلخين عن تركيبتهم الإنسانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)

سورة محمد

البسملة تحمل معاني جليلة وهي جزء السورة.

١- لقد انقسم المخاطبون في صدر الرسالة إلى فريقين- فريق الكفر وفريق الإيمان أما فريق الكفر والصادين عن المسجد الحرام والواقفين في طريق الدعوة فإن القرآن يتوعدهم بالضلال والإحباط في العمل في حين يعد المؤمنين العاملين للصالحات المصدقين لرسول الله محمد (ص) وما أنزل عليه من الحق بالتكفير عن السيئات وإصلاح البال بما فيه من استعداد دائم للتفكير واطمئنان للنفس وراحة للاحاسيس.

٢- والأساس في هذه العواقب هو الفرق بين الباطل والحق، فالباطل لا يستند إلى ركن ولا جذور له وهو شيء تشاز في الخلقة أما الحق فمعه الله والكون كله. وهذا هو المثل والملاك القويم لتقويم الأشياء.

٣،٤،٥،٦- وبعد هذا التقرير يوجه القرآن المؤمنين للقتال فإذا لقوا الكفار قتلوهم فإذا أكثروا فيهم القتل وتم إضعافهم فليوقفوا القتل فازهاق الأرواح ليس هو الهدف وحينها قاموا بأسر الباقين بتقييدهم بقوة ثم يتم النظر في الأسرى وما تقتضيه المصلحة العليا فإما أن يمنّ عليهم فيطلق سراحهم وإما أن تتم مفاداتهم مقابل مال أو إطلاق أسرى المسلمين، حتى تتم الحرب. هكذا إذن شاءت القدرة الإلهية أن يبذل المسلمون جهدهم ويقاتلوا العدو، رغم أن الله قادر على القضاء عليهم ولكنه الامتحان والبلاء الذي يصهر النفوس ويحقق القوة والتكامل فمن قتل في سبيل الله فقد فاز وبلغت أعماله إلى نتيجتها وسيظل الله يتعهدهم برحمته في الملأ الأعلى ويمنحهم هدوء النفس ويدخلهم الجنة التي وضحها لهم من قبل.

٧- تحريض للمؤمنين على طول الخط على الجهاد وتعهد إلهي بالنصر والتثبيت والقوة لمن ينصرون الله ويطبقون منهجه ويدافعون عنه بإخلاص وتفان ونية خالصة.

٨،٩- أما الكافرون فينتظرهم المصير التعيس والإحباط في العمل لأنهم كرهوا رسالة الله وعاندوا الحق.

١٠- ألا يرى هؤلاء سنة الله في الذين مضوا من قبل وكيف دمّرهم وعفا قوتهم فلينتظر هؤلاء نفس العاقبة.

١١- إن الله مصدر القوة والعز وهو الذي يتولى أمر المؤمنين ودعمهم أما الكافرون فلا يستندون إلى ركن ركين ولا مولى لهم.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

١٢- فالمؤمنون العاملون يعيشون الدنيا بكل وعيهم حياة رغيدة في ظل رضا الله وولايته ولهم في الآخرة الجنة بكل نعيمها، في حين يعيش الكافرون حياة وضيعة يأكلون كما تأكل الأنعام بلا معايير ولا إرادة أو هدف ولا هم إلا إشباع البطن، ثم هم في الآخرة ثاوون مقيمون في نار جهنم.

١٣- يجب أن لا يطغى المشركون من أهل مكة بقوتهم وموقعهم إذ أخرجوا الرسول فهناك قرى كثيرة أخرى أقوى منهم طغت فأهلكت دون أن يشفع لها أحَد.

١٤- ولا يقاس المؤمنون الواعون الذين يمتلكون الوضوح والمعايير الدقيقة من الله توضح لهم المسير، إلى أولئك الغارقين في اتباع الهوى والذين فقدوا المعايير فهم يحسبون سيئات أعمالهم حسنات.

١٥- كما لا يقاس مصير المؤمنين المتقين وهو الجنة بما فيها من أنهار من مياه صافية لا يتغير طعمها ولا رائحتها، وأنهار من لبن لا فساد له وأخرى من خمر حلال تحوي ما يستلذه الإنسان وكذلك أنهار من عسل صاف بالإضافة إلى ما تشتهيه أنفسهم من مختلف الثمار وفوق كل ذلك رضوان إلهي وغفران، نعم لا يقاس هذا المصير إلى مصير المعاندين وهو النار والخلود فيها حيث شرابهم الماء الساخن الذي يقطع أمعاءهم.

١٦- ومن هؤلاء المشركين من يصغي إلى الرسول باهتمام حتى إذا خرجوا من عنده راحوا يسألون أهل العلم من الصحابة عما يعنيه الرسول، إما جهلاً أو استهزاءً بعد أن ختم الله على قلوبهم فلم تبق على صفائها لأنهم سلموا أنفسهم للأهواء والنزعات العمياء.

١٧- أما الذين فتحوا قلوبهم للهدي الإلهي فهم الذين تشرق في نفوسهم الآيات التي يتلوها الرسول فتزيدهم هدى إلى هداهم وتثمر فيها تقوى وسلوكاً صالحاً.

١٨- إن على أولئك المستهزئين الضالين أن يتوقعوا حصول يوم الحساب فجأة بعد أن قامت العلامات على حدوثها ولعلها مظاهر الهدفية في الكون المتناسق والتي تشير إلى ضرورة قيام القيامة وحينئذ فهل تنفعهم غفلتهم من قبل وصحوتهم آنذاك.

١٩- فما على الرسول إلا الثبات على منهج التوحيد الخالص، واللجوء إلى الله والاستغفار لذنبه ـ مما يعتبر ذنباً في نظره لشعوره الدائم بالتقصير امام الله تعالى ونعمه والا فهو في الحقيقة وباعتقادنا معصوم من الذنوب المتعارفة لدينا ـ ولمن تبعه من المؤمنين والمؤمنات فإن الله عليم بكل الحركات والسكنات.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)

٢٠- ويتطلّع المؤمنون إلى الوحي لينفذوا أوامره، وعندما تنزل سورة واضحة محكمة تدعوهم إلى القتال في سبيل الله توضح المواقف وصدقها، فهناك الفريق الصادق وهناك الفريق الخائف المتخاذل ذي القلب المريض ينظر إلى الرسول نظر المحتظر وذلك حري بهم وبقلوبهم الضعيفة.

٢١- إن السبيل الأقوم هو الطاعة والتسليم والكلام المعروف المطلوب من المؤمن والانطلاق إذا جد الجد إلى الجهاد والصدق مع الله فذلك هو سبيل السعادة.

٢٢- إنَّ الذين يتقاعسون عن تنفيذ أوامر الله معرضون للنكوص عن سبيل الهدى والعودة للفساد في الأرض وتمزيق العلاقات مع الأرحام وهي التي امر الله بها أن توصل.

٢٣- ومثل هؤلاء معرضون للطرد من رحمة الله والضلالة حيث تصم الآذان وتعمى العيون فلا يبقى أمل في الوعي والهداية.

٢٤- ألا يرى هؤلاء عظمة المعاني القرآنية، ويدركون ماوراءها من آفاق واسعة للهداية، أم أنهم أقفلوا علي قلوبهم ومنعوها من التأمل والتدبر.

٢٥- إن حالة الارتداد والنكوص عن سبيل الحق بعدما توضحت معالمه تمثل انتكاسة كبرى لهم وانتصاراً للشيطان عليهم فهو الذي زيَّن لهم وأملى عليهم ذلك وأمّلهم بسرابه.

٢٦- والذي جرهم إلى الارتداد هو أنهم كانوا يداهنون أعداء الإسلام ويعدونهم بتبعيتهم لهم فيما يتسنى لهم من الأمور ناسين آن الله يعلم بهذا الوعد الخفي.

٢٧،٢٨- إن هؤلاء المنافقين يعرضون أنفسهم لمشهد رهيب إذ تتوفاهم الملائكة عند الموت وهي تضرب وجوههم وأدبارهم، لأنهم ساروا في الطريق الذي يغضب الله، وكرهوا رضوانه فحبطت وبطلت أعمالهم السابقة.

٢٩- إن مرضى القلوب هؤلاء الذين تقاعسوا عن الجهاد وداهنوا أعداء الله وارتدوا عن سبيل الهدى معرَّضون لانكشاف واقعهم وأحقادهم أمام الجميع.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾

٣٠- تهديد لهؤلاء المرضى بتعريفهم للرسول بسيماهم ومنظرهم بالذات وإن كان نفاقهم قد يظهر في أسلوب قولهم وثنايا كلامهم. وعلى أيّ حال فان الله يعلم أعمالهم فلا يظن هؤلاء أن الإسرار يخفي منهم شيئاً.

٣١- إنَّ الامتحان والبلاء سنة إلهية تنجلي فيهما حقائق النفوس فيعرف المجاهدون والصابرون والعاملون بصدق دون غيرهم فإن أخبار كل نشاطاتهم يتم تتبعها واختبارها بدقة.

٣٢- وليعلم الكافرون المعاندون الصادون عن الله والمعادون لرسوله بعد أن توضحت لهم معالم الهدف والصدق فيه، ليعلموا أنّهم أضعف من أن يضرّوا الله بشيء، فلا قيمة لهم تجاه قدرته بل هو القادر المطلق وسوف يجعل ما عملوه هباءً ويفشل كل خططهم.

٣٣- وليعلم المؤمنون أن الإيمان يلازم التسليم والطاعة الكاملة مهما كانت شاقة فلا معنى للتبعيض في الطاعة فإنه يحبط الأعمال.

٣٤- وإذا حبطت الأعمال سقط الإنسان في الكفر والصد عن سبيل الله ومواجهته وبالتالي تنقضي الحياة في ذلك الطريق الضال ويفقد حينئذ قابليته للغفران الإلهي.

٣٥- فلا مجال إذن للمؤمن أن يضعف ويجنح للمسالمة والمساومة على مبادئه ومواقفه وهو يطمئن إلى أنّه الأعلى إيماناً وعزيمة ورؤية للحياة، والله ذو العزة والطول معه يسدده ويكمله ويجازيه خير الجزاء.

٣٦،٣٧- وما قيمة الحياة الدنيا لدى المؤمن المجاهد، إنها مجرد لعب ولهو إذا لم تحمل هدفاً سامياً وتدافع عن قيم عليا فلا تقاس إلى الحياة الأخرى وخلودها ونعيمها، أما حياة الإيمان والتقوى والطاعة فهي الحقيقة المطلوبة وهي التي تؤدي للفلاح والأجر الجزيل ومع ذلك فإنَّ الله لا يطلب منهم أن يبذلوا كل أموالهم لئلا تقعد بهم المشقة والبخل وحب المال عن الاستجابة وتتحرك بعض الأضغان والأحقاد، فبعض النفوس لا تتحمل ذلك.

٣٨- إن الإنفاق في سبيل الله من لوازم الإيمان وتلبية لحاجات المجتمع في الحرب والسلم ولكن البعض قد يقعد به البخل عن ذلك وهو في الواقع يخسر الأجر العظيم بل يفقد نفسه ذلك، والله إذ يطلب ذلك منهم فإنما يريده لهم وإلا فهو الغني المطلق وكل الخلق فقير إليه. وفي الختام يأتي هذا التهديد الكبير فإذا نكص المؤمنون عن القيام بأعباء الرسالة وحمل الأمانة فإنها ستعطى للآخرين القادرين على حملها والذين يعملون بمقتضياتها بخلافهم.

سورة الفتح ٤٨ — ٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

سورة الفتح

تحدثنا مراراً عن البسملة.

١- إن ما وقع من صلح في (الحديبية) بين الرسول والمشركين يعد فتحاً مبيناً لأن قريشاً اعترفت لأول مرة بالرسول والمسلمين باعتبارهم قوة وطرفا يجب التصالح معه. وحاولت أن تدفعهم عنها بالتي هي أحسن ومن دون قتال، وقوي المسلمون في نظر القبائل، واعتذر المتخلفون عن عدم المسير مع المسلمين، وصمت المنافقون، واستعدَّ المسلمون لكسر قوة اليهود المشاغبين عليهم، وبدأت السرايا ترسل إلى مختلف الأماكن، ومهّد ذلك لفتح مكة وغير ذلك.

٢،٣- إن هذه الخطوة الفاتحة مهدت الأجواء لانتشار الدعوة وغطت بإذن الله كل ما صاحبها من تبعات وما اعتبر ذنبا في نظر المشركين وولدت اضغاناًقبل الهجرة وبعدها، وأتمت النعمة الإلهية ورسمت لها في شخص قائدها وأتباعه الصراط المستقيم نحو النصر والعلاء وتغيير التاريخ.

٤- وكان من نتائج الصلح وظهور إيجابياته أن اطمأنت القلوب إلى لطف الله وحكمته وتسديده لرسوله، وانزاحت الشكوك وقوي الإيمان وعلم الجميع أن الحوادث كلها جنود مجندة لله وللحق والله عليم حكيم.

٥- وهكذا يحظى المؤمنين ببشرى النصر والحياة السعيدة في الدنيا وأمامهم في الآخرة خلود في جنات تجري من تحتها الأنهار في ظل الرضوان والغفران أليس هذا هو أعظم فوز يمكن أن يتمناه إنسان ويضحي في سبيله؟

٦- أما المنافقون والمشركون فهم يشككون ويظنون بالله سوءاً وهو مرتد عليهم فمالهم إلا العذاب والغضب الإلهي والطرد من رحمة الله وبالتالي جهنم وما أسوأه من مصيرا

٧- إن الكون كله مسخر لله ينفذ أوامره وهو العزيز الحكيم.

٨- إن خط الشهود والإشراف والرقابة يتمثل في مسيرة الأنبياء ليبشروا وينذروا البشرية لتحقق مقتضيات خلافتها، والرسول الاكرم خاتم الأنبياء وحامل رسالتهم.

٩- فمن الحق أن يؤمن الناس بالله والرسول وأن يعزروه (ينصروه) ويوقروه ويعطوه مقامه اللائق به مسبحين لله في كل آن.

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

١٠- إن بيعة الرسول هي بمنزلة البيعة مع الله والتعهد ببذل الطاعة له ومنحه القيادة وليعلموا ان يد الله وقدرته فوق ايديهم، وحينئذ فاي نقض لها أو إخلال بمقتضياتها هو وبال على النفس وتعريض لها لعقاب الله. أما المضي على العهد فهو يعني تأهيلها للأجر العظيم.

١١- يحاول المتخلفون من الأعراب - الساكنين حوالي المدينة - عن مسيرة الرسول إلى مكة والذي انتهى إلى صلح الحديبية، أن يعتذروا عن ذلك بانشغالهم بأموالهم وأهليهم وخوفهم من ضياعها طالبين من الرسول أن يستغفر الله لهم، ولكن السبب الواقعي لتخلفهم ليس ماقالوه بألسنتهم وإلا فلو كان هذا الخوف هو الداعي لكان جوابهم ان الله إذا شاء أن يصيبهم بضُر أو نفع ماكان لأحد أن يمنع ذلك حتى لو كانوا بين أهليهم وأموالهم ، فليراقب هؤلاء الله فيما يدعون لأنه الخبير بما يعملون.

١٢- إن الداعي الحقيقي الذي تكشفه هذه الآية هو ظنهم أن الرسول والمؤمنين سوف لن يعودوا من رحلتهم هذه إلى أهليهم مطلقا لقوة العدو ولم يدركوا أن المؤمن يجب أن يؤدي واجبه مهما كانت المصاعب. وهكذا كانت قلوبهم بوراً كالأرض البائرة لا حياة فيها ولا خصب ولا حركة ذلك لأنها لم تتفاعل مع العقيدة ولا تحمل حرارتها.

١٣- والذين يفقدون الإيمان بالله ورسوله مصيرهم جهنم وبئس العاقبة. فما قيمة الاموال والأهلين إذا كان المصير إلى السعير.

١٤- إن الله هو مالك الكون وبيده الغفران والعذاب فليختر هؤلاء أهليتهم لأي منهما خصوصاً وأن رحمة الله تسبق غضبه .

١٥- وعد الله أهل البيعة في الحديبية أن يرزقهم غنائم يختصون بها في غزوة أخرى - قيل أنها خيبر[1] - وكانت غنية، وحين علم هؤلاء المخلفون طلبوا من المسلمين أن يشاركوهم في الغزو وهم بذلك سيشاركون في الغنائم رغم أن الله وعد المسلمين بالاختصاص بها، فأمر الرسول برفض طلبهم تبعاً لأمر الله من قبل ومن هنا فسيقول المخلفون: «بل تحسدوننا» وهو قول سخيف لعدم وجود مقتضى الحسد وانما ينم عن جهل بحكمة الله وعلل أمره.

---

١ - تفسير التبيان، ج ٩، ص ٣٢٢.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

١٦- ويتابع القرآن معالجة حالة المتخلفين من أعراب حوالي المدينة فيؤمر الرسول بأن يخبرهم بأنهم سيدعون لقتال قوم أشداء ـ وقد اختلفت الآراء فيهم[١] ـ حتى يسلموا، فإن استجابوا لأوامر الرسول استحقوا الأجر الحسن وإن أعادوا موقفهم السابق من التخلف والتقاعس استحقوا العذاب الأليم.

١٧- الأعمى والأعرج والمريض هم أهل الاعذار ويمكنهم التخلف عن القتال والباقون عليهم الطاعة لله وللرسول لينعموا بالثواب الإلهي، وفي حالة العصيان يعرضون أنفسهم للعذاب.

١٨،١٩- كانت بيعة الشجرة التي سبقت صلح الحديبية موقفاً رائعاً من الرسول والمسلمين بيّن عظمة القائد وارتباط المسلمين به وعهدهم على الطاعة له فاستحقوا هذا الوسام الكبير وهو رضا الله عنهم بالخصوص بعد أن علم ما في قلوبهم من النية الحسنة والشوق لانتصار الرسالة، فمنحهم السكينة وعدم القلق والاضطراب فيما يواجهون ووعدهم بفتح قريب ومغانم كثيرة، وهو ما حدث في خيبر، ليعلموا أن الله هو العزيز الحكيم فيما يفعل.

٢٠- وهكذا عظمت المنّة الإلهية حيث الوعد بالمغانم الوفيرة بعد صلح الحديبية، وأولها ظهور قوتهم وتثبيت مواقعهم وحيث خوف أعداء الإسلام منهم وامتناعهم عن الحاق الأذى بهم، وليكون كل ذلك علامة على نصر الله لعباده المؤمنين وتأكيداً على سيرهم على الصراط المستقيم.

٢١، ٢٢- وهذه بشارة بفتوحات أخرى مازالوا بعد غير قادرين عليها ولكن الله محيط بكل الأمور وهو يعدهم بتحققها وهو القادر على كل شيء، وهذه المعاني تؤجّج الأمل في النفوس فتدفعها لمزيد من الفعل والجهاد.

٢٣- إنها سُنّة الله في التاريخ أن ينتصر أولياء الله إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه وسنة الله لن تتغير.

١ - يراجع تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٢٨١.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

٢٤- ولعل المراد هنا هو صلح الحديبية نفسه أو حادثة أخرى كادت تشعل القتال في مكة إلا أنَّ الله كفَّ أيدي بعضهم عن الآخر وكان في ذلك فتح وظفر للمسلمين، وإن عين الله لترعى هذه المسيرة لتنتهي بها إلى النصر.

٢٥- لقد كان إجرام المشركين في مكة عظيماً بعد شركهم وهو منع المؤمنين من المسجد الحرام ومنع الهدي -وهي القرابين- وإبقاؤها محبوسة عن الوصول إلى أماكن ذبحها المشروعة. وهذه الأمور مستهجنة حتى في الجاهلية. ولولا أن هناك مستضعفين من الرجال والنساء المؤمنين الذين لا يعرفهم المسلمون قد يصابون بالهجوم على مكة ويداسون تحته وتصيبهم معرّة ومكروه، لما كفَّ الله أيديكم عنهم ورحمة الله واسعة شاملة. ولو أمكن أن يتميز الكفار المعاندون عن غيرهم لتم تعذيبهم بعذاب أليم.

٢٦- لقد تعمق في قلوبهم التعصب للجاهلية والسخف فوقفوا بوجه الرسول ونيته لاداء العمرة وصدوه عن ذلك لئلا تقول العرب عنهم أنهم لم يستطيعوا منعه، في حين تنزه الرسول والمؤمنون عن الحمية الجاهلية فأنزل الله السكينة في قلوبهم لتطمئن بذكر الله، ولازمتهم كلمة التقوى وهي من مقتضيات الإيمان بعد أن كانوا أحق بها وأهلاً لها، والله تعالى عليم بالقلوب ودوافعها وهو عليم بكل شيء.

٢٧- كان النبي(ص) رأى في المنام أن المؤمنين سيدخلون المسجد الحرام فبشر المؤمنين بها، وحينما انطلقوا إلى مكة كانوا يتصورون أنهم سيحققون ذلك في سفرهم فلما أن صدوا كان لذلك أثر سلبي في النفوس، وها هو القرآن يبشرهم بأن الله صدق رسوله في رؤياه فلقد كانت صادقة فسوف يدخلون المسجد الحرام -ان شاء الله- آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين أي معتمرين، والله عليم بالأمور في حين يقصر علمهم عنها، وقد جاء فتح الحديبية قريباً بأمر الله، ليمهد لدخول المسجد بعد اشتراط ذلك في عقد الصلح الذي أوجد هذا الأمن ودفع الخوف.

٢٨- ويرتفع هنا مستوى البشرى للمؤمنين حيث يتم الإعلان بأن الله أرسل رسوله بالهدى المطلق وبدين الحق المنسجم مع الواقع والفطرة والعلاء الإنساني ليجعله المنتصر والمتفوق على كل الأديان بحجته وبراهينه ومنطقه وسلطانه لأنه الدين الخاتم الخالد والسبيل الأوحد للسعادة وكفى بالله شهيداً على ذلك وسيشهد العالم ظهور المهدي وتطبيق الإسلام وشرعه وعدله في كل مكان.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سورة الحجرات ٤٩ — ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٢٩– خاتمة رائعة لسورة محمد تعلن أنه(ص) رسول الله — خلافاً لتشكيكات الذين عقدوا صلح الحديبية — وأن صحابته الكرام يعيشون التوازن المطلوب لحمل الدعوة فهم أشداء على الكفار لأنهم اعداء الله والبشرية وحتى انفسهم ولكنهم رحماء بينهم ليتم بناء المجتمع الصالح، وهم يهتمون بقضية الدنيا والآخرة فتراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً ورضواناً إلهياً في المسيرة الحياتية والجهادية، تعلو محياهم مظاهر السجود بما يعبر عنه من عبادة وتواضع ورضا، إنها صورة المؤمن الحق المرسومة في الكتب الإلهية ـ من قبل ـ كالتوراة، والإنجيل الذي وصفهم بالزرع الذي ينمو فيخرج فرعه الذي يقوي الزرع نفسه ليستغلظ ويستوي على سيقانه متوازناً سوياً يعجب الفلاحين والراعين له من جهة ويغيظ الكفار والحاسدين له من جهة أخرى، وهكذا جاءت هذه الصفات الجليلة للجيل الإسلامي الطليعي الأول وجاء معها الوعد — بشكل طبيعي ـ للذين يدعون قوة الإيمان والعمل الصالح منهم إلى نهاية الخط مغفرة وأجراً عظيماً.

سورة الحجرات

قمنا بالحديث من قبل عن البسملة.

يمكن أن يقال إن هذه السورة هي — بحق — سورة بيان قواعد النظام الأخلاقي الإسلامي الرفيع.

١– إن المؤمنين لا يتقدمون الله ورسوله ولا يتجاوزون حدودهم وإنما هم مستسلمون لله ورسوله بكل مافي الكلمة من معنى داخلون في ولاية الله ورسوله، متقون لغضبه تعالى، شاعرون بهيمنته ومراقبته وعلمه بكل ما يجري.

٢– وتبقى منزلة رسول الله في أسمى مقام احتراماً وتوقيراً وحباً فلا يرفع المؤمن صوته فوق صوت رسول الله، ولا يتعامل معه كما يتعامل مع الاخرين وإلا تعرّض لبطلان عمله وهو لا يشعر بذلك.

٣– وعندما يغض المؤمن صوته ـ أي يخفض منه ـ فإنه يكشف عن تعمق التقوى في نفسه مما يؤهله للمغفرة والأجر العظيم.

٤– هذا مصداق من عدم الأدب مع رسول الله، إذ كان بعض الجفاة ينادون النبي باسمه من وراء حجرات بيته دونما رعاية لأدب الخطاب فذمهم القرآن واعتبر العمل كاشفاً في أكثر الأحيان عن عدم التعقل لأنه سلوك ينافي الادب حتى مع سائر الناس.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

٥- إن من الأفضل لهؤلاء الجفاة الذين ينادون الرسول باسمه من وراء الحجرات أن يتريثوا حتى يخرج من بيته، والله بعد غفور رحيم.

٦- وهذه الآية تقرر مبدأ عاماً في قبول الخبر في المجتمع المسلم، فإن جاء به رجل فاسق معروف بعدم الالتزام والتدين وجب التشكيك في خبره والتأكد لكيلا يتعرضوا للآخرين بسوء مستندين إلى خبره جاهلين الحقيقة، مما يؤدي بهم إلى الندم، وإذا أخذنا بمفهومه المخالف فإنه يؤدي إلى عدم لزوم التبين عندما يخبر العادل بشيء، وهذه حالة عقلائية، وهذا يؤدي إلى حجية خبره.

٧-٨- تذكير للجماعة المسلمة بعظمة رسول الله واتصاله بعالم الغيب فعليهم أن يستشعروا هذه الحالة، وأن يسلّموا له ولا يقترحوا ويلحوا على شيء فإن نتيجة ذلك المشقة والعنت والإثم الذي سيصيبهم.

ولينتبهوا إلى نعمة الله الكبرى عليهم إذ هداهم للإيمان وشرح صدورهم له وحببه في قلوبهم وبغض إليهم كل أنماط الانحراف وهي الكفر والفسوق عن الحالة الطبيعية الإنسانية وعصيان الأوامر الإلهية. والذين يعيشون مثل هذا الميل للحق والنفور من الباطل هم الراشدون الواعون. وهو فضل إلهي ونعمة كبرى والله عليم حكيم.

٩- وهذه قاعدة اجتماعية إسلامية تتكفل القضاء على ظاهرة الخلاف العملي المؤدي للاقتتال بين المسلمين، فالمسلمون مكلفون في هذه الحالة بالإصلاح بين طرفي القتال إن حدث، فإن رفض احدهما الصلح أو تجاوز بعد الصلح بنوده المتفق عليها فبغى وتعدى على الآخر فيجب أن يقف المسلمون ضد الباغي حتى يعود إلى أمر الله والصلح والتحاكم المنطقي الشرعي، وحينئذ يتم الإصلاح النهائي وفقاً للعدالة والقسط والقوانين الإسلامية والله يحب المقسطين.

١٠- وهذا هو الإطار العام الذي يحكم العلاقات بين المسلمين وهو الاخوة مما يدعو إلى الصلح بينهم إذ لا يقاتل الاخ أخاه، وتقوى الله في نوعية التعامل، وتوحيد الموقف العملي تجاه التحديات، والعمل على تقريب وجهات النظر باكتشاف المشتركات وكل ذلك يؤهلهم لرحمة الله.

١١- وهذه قاعدة إسلامية أخرى تركز على لزوم الاحترام المتبادل بين المسلمين فلا يسخر أحد من أحد نتيجة معايير سخيفة، كالغنى والمقام الاجتماعي والجنس والعنصر واللون وغيرها فمعايير الله تختلف عنها، والإنسان مكرم وخصوصاً المتقي، وقد يكون من وقعت عليه السخرية خيراً من الساخر، ثم جاء النهي عن اللمز والتنابز بالألقاب لأن الجميع نفس واحدة وإلا جاء احتمال الفسوق بعد الإيمان وهنا جاءت الدعوة للتوبة إلى الله وإلا فهناك مجال التصنيف مع الظالمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

١٢- وهذه قاعدة أخرى لحفظ كرامة المؤمنين وحرياتهم وستر الحرمات ومنع الخلل الاجتماعي- ويلاحظ أن هذا الخلل يبدأ بشكل طبيعي بالمراحل التالية- سوء ظن بالأخ ثم تجسس لاكتشاف الواقع، ثم نشر ما اكتشف في المجتمع. وعلى نفس النسق يعمل القرآن على إيقاف الخلل فهو ينهى عن الظن السيئ بالأخ فإن بعض الظن إثم عبر ترتيب الأثر عليه، ثم ينهي عن التجسس ، ثم إذا اكتشف العيب يمنع من الغيبة أشد المنع وهي ذكر الأخ عند غيبته بما يسوؤه، وبها تتمزق العلائق الاجتماعية ولذا يعتبرها القرآن مثل أكل لحم الأخ الميت وهو مكروه أشد الكره للطبع البشري، وبعد كل هذا يأتي التذكير بالتقوى والعودة إلى الله التواب الرحيم.

١٣- وهذا خطاب إنساني عام يوجهه خالق البشرية لها معلنا لها- أنها خلقت من ذكر وأنثى وجعلت شعوباً وقبائل ليتم التعارف بينها فالتنوع طريق للتعارف لا للصراع أو التمييز، ويبقى الإنسان كريماً بجنسه، ويكتسب كرامة إضافية بتقواه لله وخدمته للبشرية عبر التقرب إلى الله ومراقبته لأوامر الله العليم الخبير.

١٤- تصحيح لمقولة رددها الأعراب بقولهم إنا آمنا وتأكيد على أنهم أسلموا وحسب. فالإيمان أمر قلبي تطمئن له النفس أما الإسلام فيتحقق بأداء الشهادتين فهو قائم باللسان وتحقن به الدماء وتجري عليه المناكح والمواريث فإذا أطاعوا الله ورسوله لم ينقصهم الله من جزاء أعمالهم شيئاً وهو الغفور الرحيم، وطبيعي أن أجر العمل يتضاعف كلما تعمق الإيمان.

١٥- اما المؤمنون حقاً فهم من تأصل الإيمان في قلوبهم واستقرت عليه نفوسهم فلم يشكوا في شيء واستقاموا وانطلقوا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فكانوا من الصادقين في إيمانهم.

١٦- هذه هي حقيقة الإيمان والله تعالى هو العالم بها وينبغي أن لا يتجرأ أحد بتقرير حقيقة دينية من عنده بل يكل ذلك إلى الله العليم بما في السماوات والارض وبكل شيء في الكون.

١٧- من السخف ما منت به الاعراب على الرسول باسلامها فإن المنّة والفضل لله المنان الذي هدى البشرية برحمته وهدى هؤلاء للإيمان إن كانوا صادقين في أقوالهم.

١٨- وهو تعالى المطلع على أسرار النفوس وكل غيب وهو الخبير بما يعمل العباد فيجب أن يراقبوه في كل قول وعمل.

سُورَةُ قٓ ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

سورة ق

سبق الحديث عن البسملة.

٢،١- قسم بهذا الحرف والقرآن والمجيد ذي الشرف الوسيع والسمو في المعاني على كون البعث حقاً أنذر به الرسول ولكن الناس في تعجب من مجيء منذر من جنسهم، ويزداد التعجب من الكافرين إذ يطلب منهم التصديق بعملية الإحياء.

٣- وهم يكررون مقولة السابقين المتسائلة عن امكان عودة الموتى إلى الحياة بعد أن عادوا تراباً واستبعاد هذه الرجعة.

٤- ونسي هؤلاء المشككون بالبعث أن الله عليم بكل شيء وقادر على كل شيء فهو يعلم مدى ما تنقص الأرض منهم، ولديه كتاب حافظ لكل شيء.

٥- والحقيقة هي أن هؤلاء يكذبون بالحق الذي جاءهم يحمل معه علامات صدقه. فتخبطوا بعد ذلك في أمرهم وخالفوا عقولهم التي تشهد الهدفية في الكون فتؤكد قضية المعاد.

٦- هذه هي السماء فوقهم فلتسرح أنظارهم فيها وفي نظامها الدقيق وفي تركيبتها وزينتها دون أن يتخللها خلأ أو فراغات غير منسجمة، إن هذه الدقة في الخلق تقود إلى الهدفية وهي بدورها تستلزم يوم الحساب.

٧- وهذه الأرض بسطها الله ومهدها لحياة الإنسان ووازن حركتها بوجود الجبال الرواسي وجعل فيها ميزات وقوانين تنسجم مع إنبات الحقول الفيحاء والبساتين الغناء لتساهم في إشباع الإنسان كي يديم حياته.

٨- إن تناسق كل هذه الظواهر (والعلم يكشف كل يوم أبعاداً ضخمة منها) يثير بصيرة الإنسان العائد إلى فطرته وربه ويذكره بالمعاني التي يقتضيها التنسيق ويعرفه على قدرة الله وعلمه والهدفية في خلق الكون.

١٠،٩- وهذا الماء المبارك من كل جهة يحمل معه الحياة وهو ينزل من السماء فتنبت به الجنات الغناء ويحصل الحب المحصود لتتكاثر به الزروع، ويتعالى النخيل السامق بطلعه وثمره المنضد المنظم الجميل.

١١- إنه رزق الله لعباده، وإنها الحياة يهبها للبلد الميت وهي علامة على إمكان البعث.

١٤،١٣،١٢- إن تكذيبهم هذا مسبوق بتكذيب قوم نوح وأصحاب الرس (البئر المطوية) وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة (الشجر الملتف مع بعضه) وقوم تبع فماذا كانت العاقبة؟ إنها تحقق الوعيد الالهي وهلاك الطغاة.

١٥- ثم هل تأمل هؤلاء في الخلق لأول مرة إنه تم بأمر الله دون أن تكون هناك مشقة فكيف تصعب الأعادة من جديد؟ إنهم إذن يعيشون حالة من التخبط واللبس.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

١٦- إن الله تعالى خالق الإنسان العليم بكل خفاياه وحركاته وسكناته ومايدور في خاطره وهو أقرب إليه من حبل وريده الذي يجري فيه دمه، فهو إذن تحت علمه ورقابته الكاملة.

١٧،١٨- إشارة إلى الملكين الموكلين بالإنسان الذين يتلقيان كل أعماله ويسجلانها قاعدين عن يمينه وشماله، فهو إذن تحت علم الله ورقابته الدائمة التي تحصي عليه كلماته بشكل دقيق وعتيد (مهيأ لكل حادثة).

١٩- وإن لحظة الانتقال إلى الحياة الأخرى لتحمل معها سكرة وذهولاً عن كل شيء، وهي اللحظة التي كان الإنسان يسعى لتجنبها رغم علمه بكونها آتية لا محالة.

٢٠- وهذه هي النقلة الثانية إلى عالم القيامة حيث ينفخ في البوق ويعلن بدء اليوم الموعود.

٢١- وجاءت كل نفس إنسانية يقودها سائق ومعها شاهد على كل أعمالها، وكل هذه الآيات تثير الحذر الشديد والشعور بالمراقبة الصارمة.

٢٢- وهناك ينتبه الإنسان من غفلته المدمرة، وينكشف الواقع أمامه، ويعود بصره قوياً حاداً نافذاً للحقيقة بأبعادها.

٢٣- ويعلن له الملك المقارن له أن سجلّه معدّ مهيأ دقيق.

٢٤،٢٥،٢٦- وهكذا يصدر الأمر الإلهي العادل للملكين المقارنين أن يلقيا في جهنم هذا الكفّار المعاند المانع بشده من عمل الخير، المعتدي على حقوق الآخرين، المشكك في البعث، المشرك مع الله غيره لينال العذاب الشديد.

٢٧- وهنا يتبرأ منه حتى الشيطان الذي كان قرينه في الدنيا قائلاً إنه لم يجبره على الطغيان ولكنه كان مهيأ للضلال .

٢٨،٢٩- ليأتي هذا النداء الإلهي الرافض لأي خصام هناك فلا نفع فيه بعد أن جاء الوعيد الإلهي في الدنيا بكل وضوح، فلا تبديل لما قضاه الله وهو قائم على العدالة فلا مجال لتصور الظلم عنده.

٣٠- وتشتد الرهبة حين يقال لجهنم- هل امتلأت؟ فتجيب- هل من مزيد.

٣١،٣٢،٣٣- وعلى الجانب الآخر أعدت الجنة للمتقين وقربت لهم، تحقيقاً للوعد المعطى لكل من عاد إلى ربه باستمرار وحافظ على أداء ما عليه بدقة، وخشي الله وجاء بقلب مستسلم عائد إلى ربه.

٣٤،٣٥- فليدخلوا الجنة وليهنأوا خالدين ولينالوا ما يشاؤون، ولدى الله المزيد من اللطف والعناية.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ (٥١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

٣٦- وما أكثر الهالكين من القرون المتمادية في الشرك وكانت أكثر بطشاً وأشد تحركا في الأرض من هؤلاء المشركين المعترضين لمسيرة الرسالة فلا ملجأ ولا مفر من الله.

٣٧- إن هذه الآيات لتهزّ وجدان الإنسان وقلبه وحواسه وتدفعه للتذكّر ورك الغفلة والإحساس بعظمة الله وقدرته المطلقة.

٣٨- فهو خالق الكون في ست مراحل لا يعلم مداها ولم يمسه ـ سبحانه ـ أي تعب.

٣٩- فليصبر الرسول على عنادهم، وليستعن بالتسبيح لله والحمد له قبل طلوع الشمس وقبل غروبها بما تعبّر عنه هاتان الظاهرتان من جلال.

٤٠- أما الليل فهو مجال التسبيح والقيام والسجود لله والتكامل المعنوي.

٤١،٤٢- ولينتظر نداء المنادي من مكان قريب محيط بالخلائق ليعلن بدء يوم الحساب، من خلال الصيحة المقدرة بالحق لتخرج الخلائق إلى ربها.

٤٣- إن الحياة كلها بيد الله فمنه إفاضة الحياة في بدئها وبيده الإماتة وإليه المصير.

٤٤- وتنشق الأرض عما حوت من أجساد لتنهض حية مسرعة إلى الله. وذلك على الله أمر سهل يسير.

٤٥- فلا ييتئس الرسول ولا يكترث بما يقولون فالله أعلم بذلك، وليس عليه إجبارهم على الهدى وإنما عليه إيقاظهم وتنبيه المستعدين منهم بتلاوة آيات القرآن الكريم وتحذير من يخاف الوعيد الإلهي.

سورة الذاريات

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١،٢،٣،٤،٥،٦- قسم بالرياح المثيرة للتراب، والسحب الحاملة للمياه المثقلة بها والسفن الجارية وفق قوانين الله بيسر، (وكلها ظواهر متعاضدة لتسهيل الحياة الإنسانية) ثم يتتابع القسم بالملائكة الذين ينفذون أوامر الله في هذه الكون الوسيع، قسم بكل هذه الأمور العظيمة لتأكيد صدق الوعد الإلهي بوقوع المعاد حيث يوم الدين والجزاء. والملاحظ أن كل ما تم القسم به هو من عوامل تدبير الكون وتنسيقه واستهدافه لهدف عظيم، وهذه الهدفية تقود الإنسان للإيمان بيوم الدين.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا
فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ
﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ
﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٨،٧- يقسم القرآن بالسماء المحبوكة المزينة على أن قول المنكرين مضطرب لا يقوم على أسس مستوية (ويلاحظ أن القسم بشيء منسجم على أمر غير منسجم) إنهم يتناقضون في إنكار الحقيقة، ويتبعهم في ذلك من يتبعهم من أهل الإغراء والمتأثرين بالإفك.

٩،١٠،١١،١٢- إن أقوالهم مبنية على الظنون والأوهام دونما علم ولذا يدعى عليهم بالفناء لأنهم موجودات لا قيمة لها تخوض في الجهالة والغفلة وتتساءل في خبث واستنكار عن موعد يوم الحساب.

١٣،١٤- إنهم سيقبلون على هذا اليوم حيث يعرضون على النار التي كانوا بها يكذبون ويقال لهم- ذوقوا عذاب تكذيبكم الذي كنتم به تستعجلون.

١٥، ١٦،١٧،١٨،١٩- أما المتقون فهم يتنعمون في جنات وعيون ويتلقون عطاء ربهم الوفير لقاء ماقاموا به من إحسان في الحياة الدنيا، وعبادتهم وإحيائهم الليل بالطاعة واستغفارهم في الأسحار وإنفاقهم على السائلين والمحرومين بتخصيص حق خاص لهم في أموالهم. فهم المحسنون العبّاد المستغفرون المنفقون فما أسعد حالهم.

٢٠،٢١- إن أولئك المتقين نظروا في هذا الكون الوسيع ورأوا كل ما يوصل إلى الحق؛ فكل ما في الأرض آيات واضحات لمن يطلب الحقيقة ليوقن بها، والنفس تحوي عجائب الخلقة الباهرة وليس هناك إلا أن يفتح الإنسان بصره متأملاً.

٢٢- وهذه السماء توفر للإنسان أسباب الرزق وتحقق له ما يتمناه ففيها تقديرات الحياة ومتطلباتها أليس ذلك دليلاً على وحدة الخلق والتنظيم.

٢٣- فقسماً برب الكون كله إن ما جاء به الرسول هو الحق الصارخ وهو الغيب النافذ إلى اليقين حتى يعود المعقول كالمحسوس تماماً كما نحس بنطقنا نحن.

٢٤، ٢٥، وفي قصص الأنبياء عبر وتذكير بقدرة الله وحكمته، فهذا إبراهيم يدخل عليه ضيوف كرام فيسلمون عليه فيرد عليهم سلامهم ولكنه ينكرهم.

٢٦،٢٧،٢٨- وراح إلى أهله وأحضر لهم عجلاً سميناً وقربه إليهم فلما وجدهم لا يأكلون – إذ كانوا ملائكة ـ أوجس في نفسه شيئاً وتساءل عن هذه الحالة الغامضة، فكشفوا عن واقعهم وبشروه بولد عالم يرزقه.

٢٩- وعندما أقبلت امرأته وعرفت ما حدث صرخت ولطمت وجهها وتساءلت- كيف تلد وهي عجوز عقيم.

٣٠- فكان جوابهم تذكيرها بأن ذلك من أمر الله وهو الحكيم العليم.

قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧) وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين (٤٦) والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (٤٧) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (٤٨) ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩) ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين (٥١)

٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤- وعندما سألهم عن هدفهم أخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين (قوم لوط) لعقابهم بحجارة طينية معدة للمجرمين المسرفين الخارجين عن الحد الانساني الطبيعي.

٣٥، ٣٦- وشاء الله تجنيب المؤمنين العذاب وإخراجهم من القرية ولكنه لم يكن فيها غير بيت مؤمن واحد هو بيت لوط باستثناء امرأته.

٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠- وهلك قوم لوط وعادوا عبرة لمن اعتبر ممن يخافون عذاب الله الأليم. وهذا موسى أرسله الله إلى فرعون بآيات بينات قوية واضحة فتولى فرعون وأعرض بجانبه عن قبول الحق، واتهمه بالسحر أو الجنون فعوقب بعقاب الغرق هو وجنوده ملاماً على مواقفه المتجبِّرة.

٤١، ٤٢- وهذه عاد عصت أمر ربها فأرسل عليها ريحاً لا تحمل إلا الدمار فتترك ما تأتي عليه كالرميم المتناثر والحطام المتراكم.

٤٣، ٤٤، ٤٥- وكذلك ثمود قوم صالح فبعد أن كذبوا أمهلوا قليلاً ليراجعوا أنفسهم ولكنهم عتوا وطغوا وعصوا أمر ربِّهم فأهلكتهم الصاعقة وهم ينظرون -دهشة- فلم يستطيعوا القيام بأيِّ حركة ولم يقدروا على المقاومة.

٤٦- وهكذا كان الحال مع قوم نوح من قبل هؤلاء بعد أن خرجوا من طبيعتهم الإنسانية ففسقوا فنالوا عقابهم.

٤٧، ٤٨- عودة قرآنية للإشارة إلى آيات الله الدالة على عظمته وحكمته، فهذه السماء بكل عظمتها بنيت بقدرة إلهية ومنحة ربانية، وهذه القدرة تعمل على مدها وتوسعتها. وهذه الأرض مهدت وفرشت لينمو عليها الإنسان فتشبع له كل ما يحتاجه من خلال مالا يحصى من قوانين وميزات.

٤٩- ومن القوانين العامة قانون الزوجية في الكون والأحياء. إنه يكشف عن دقة التنسيق ووحدته وهدفيته.

٥٠- فليتخلص البشر من ربقة الأوهام والأوثان وليفرُّوا ويتوجهوا إلى الله الواحد القهار وليتبعوا الرسول فهو النذير المبين.

٥١- وليرفضوا الشرك بكل أنواعه والآلهة المزيفة منيبين لله مطيعين للرسول متعظين بإنذاره الواضح.

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿٥٢﴾ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿٥٣﴾ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴿٥٤﴾ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿٥٥﴾ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿٥٦﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿٥٧﴾ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿٥٨﴾ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴿٥٩﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿٦٠﴾

سورة الطور (٥٢) — ٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

والطور ﴿١﴾ وكتاب مسطور ﴿٢﴾ في رق منشور ﴿٣﴾ والبيت المعمور ﴿٤﴾ والسقف المرفوع ﴿٥﴾ والبحر المسجور ﴿٦﴾ إن عذاب ربك لواقع ﴿٧﴾ ما له من دافع ﴿٨﴾ يوم تمور السماء مورا ﴿٩﴾ وتسير الجبال سيرا ﴿١٠﴾ فويل يومئذ للمكذبين ﴿١١﴾ الذين هم في خوض يلعبون ﴿١٢﴾ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴿١٣﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿١٤﴾

٥٢- وهكذا هو ديدن المكذبين السابقين فلا يأتيهم رسول إلا اتهموه بالسحر أو الجنون.

٥٣- هل هو تواص وتوافق على ردود الفعل؟ كلا إنه الطغيان والخروج عن الحد الإنساني.

٥٤،٥٥- فلا يأبه الرسول بهذه المواقف ولا لوم عليه، وإنما عليه التذكير والتنبيه من الغفلة، والتذكير ينفع المؤمنين الذين فتحوا قلوبهم للهدى.

٥٦- الهدفية واضحة في خلق الجن والأنس كما هي في كل الخلق. والقرآن يعلن أن الهدف من خلقهما العبادة وتحقيق مقتضى العبودية لله والانصياع لاوامره فهو هدف خلقتهما لأن فيها تكاملهما إلى مستويات سامية قد لا تصلها الملائكة أنفسها.

٥٧، ٥٨- وليس هنك حاجة لديه ـ سبحانه ـ تحققها هذه الخلقة فهو الغني المطلق، ولا تعني العبودية تكريسًا للذات الإلهية والعياذ بالله بل تعني أنه تعالى علم أن الإنسان قادر على التكامل فأفاض عليه الوجود بمقتضى رحمته ومن هنا فلن يحتاج إلى رزق أو طعام أو حق لعبادة كما يتصور الجاهلون فلا تنفعه طاعة من أطاعه وهو الرزّاق القوي المطلق وإنما تعود على المطيع نفسه بالتكامل.

٥٩،٦٠- إن لهؤلاء الظالمين المكذبين المتقولين على الله نصيبا من العذاب كنصيب أمثالهم فلا معنى لاستعجالهم وأمامهم الويل في يوم الحساب.

سورة الطور

قلنا: إن البسملة تحمل معاني عظيمة، وهي جزء من السورة.

١- قسم بالجبل الذي نزلت فوقه ألواح موسى، وهو مقدس لانتسابه إلى الله.

٢، ٣- ثم بالكتاب الذي عرض على الناس وأنزل على موسى في صفحات مكتوبة.

٤- ثم بالبيت الموجود في السماء والذي تعمره الملائكة بعبادتها وتطوف حوله.

٥- ثم بالسماء، وهي مظهر عظمة الله وقدرته.

٦- ثم بالبحر المملوء بالماء، وهو أيضا مظهر للعظمة الإلهية.

٧،٨- كل هذا القسم بمظاهر العظمة لتأكيد قدرة الله على إنزال العقاب الأخروي لا محالة بهؤلاء المكذبين، ولا دافع له ولا مانع منه.

٩،١٠- إنه ليوم عظيم تضطرب فيه السماء، وتموج، وتتحرك فيه الجبال وتهتز ويعم الرعب.

١١،١٢- دعاء بالويل والثبور على المكذبين الخائضين الداخلين في الأباطيل والسخافات اللاعبين بعقولهم والسائرين دونما وعي في تصوراتهم الصبيانية.

١٣،١٤- وهاهم اليوم يزجّون زجاً إلى نار جهنم كالقطعان الهائمة، ويقال لهم انظروا هذه هي النار التي كنتم بها تكذبون متبعين لأهوائكم.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

١٥- أهذا الذي تبصرونه وتحسونه سحر ووهم كما كنتم تدعون .

١٦- هكذا أيضاً عليكم أن تقاسوا العذاب ولا ينفعكم الصبر عليه إنها معاناة صبرتم عليها أم لم تصبروا فهي أعمالكم نفسها ولكن بشكلها الجهنمي .

١٧- وعلى الجانب الآخر يتمتع المؤمنون بجنات الخلود ونعيمها.

١٨- يتلذذون بالعطاء الإلهي الكريم بعد أن صرف عنهم عذاب الجحيم.

١٩- فهنيئاً لهم بهذا العطاء والأكل والشرب عبر ما كنتم تعملونه من الصالحات .

٢٠- وهنيئاً لهم براحتهم واستنادهم على وسائد وضعت على أسرة منظمة وقد زوجوا واقترنوا ببنات جميلات رائعات.

٢١- والحقت بهم عوائلهم المؤمنة حتى ولو قصرت بها أعمالها عن بلوغ درجة المتقين إذ يمنّ الله عليها ويرفع درجاتها دون أن ينقص شيئاً من درجات المتقين كل ذلك رغم أن كل فرد مرهون بعمله ولكنها المنة الإلهية.

٢٢، ٢٣- وتستمر النعم بمدهم بفاكهة ولحم كما تشتهي نفوسهم، ويتعاطون كأساً تنعشهم دون أن يصاحبها ما يصاحب خمر الدنيا من اللغو والهذر والإثم.

٢٤- ويقوم على خدمتهم غلمان هم غاية في الجمال والصفاء والإشراق، فهم كمثل اللؤلؤ الصافي المخزون لئلا يلوثه شيء.

٢٥، ٢٦- ويتسامرون ويتساءلون عن علل هذا الرخاء ويكتشفون أن سببه يعود إلى خشيتهم من الله وتقواهم من عذابه وسعيهم لإنقاذ أهلهم من الضلال.

٢٧- فحصلوا على الامتنان الإلهي ونجوا من عذاب جهنم وحرارتها.

٢٨- بعد أن كانوا يعيشون حياة الدعاء لله واللجوء إليه وهو البرّ الرحيم بعباده.

٢٩- هذه هي الحقيقة الناصعة فلينطلق الرسول في دعوته غير آبه باتهامهم له بالكهانة التي تتلقى أباطيلها من الشياطين ـ كما كانوا يزعمون ـ أو اتهامهم له بالجنون.

٣٠، ٣١- أو اتهامهم له بأنه شاعر تلهمه الجن ما يقول وبالتالي فهم ينكرون النسب السماوي للوحي وهم ينتظرون أن يموت الرسول ويستريحون ولكنه يسفه أحلامهم وتربصهم ليؤكد أن العاقبة الحسنة له وأنهم السفهاء فيما ينتظرون.

أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴿٣٢﴾ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ﴿٣٣﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿٣٤﴾ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴿٣٥﴾ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴿٣٦﴾ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴿٣٧﴾ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴿٣٨﴾ أم له البنات ولكم البنون ﴿٣٩﴾ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴿٤٠﴾ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴿٤١﴾ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ﴿٤٢﴾ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴿٤٣﴾ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ﴿٤٤﴾ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴿٤٥﴾ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون ﴿٤٦﴾ وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٤٧﴾ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴿٤٨﴾ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴿٤٩﴾

سورة النجم

٣٢- أترى عقولهم هي التي دعتهم إلى هذه المواقف المعاندة؟ كلا إن العقل لا يدعو إلى هذه المواقف بل هو الطغيان والسفه.

٣٣- فهم يتهمون الرسول بتكلف القرآن وصياغته من عنده وهذا سفه بعد ملاحظة الجانب الإعجازي فيه ولكن الحقيقة هي أن عدم إيمانهم هو الدافع لمثل هذه الاتهامات .

٣٤- وإلا فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم وهم من فصحاء العرب، ولكنهم عاجزون مما يدل على إعجازه وكونه موحى به من الله وغير متقول عليه.

٣٥- إنه سؤال يهزّ الفطرة- فهل خلقوا من لا شيء وهو محال أم خلقوا من غير علة أم خلقوا أنفسهم بأنفسهم وهو محال وجداناً، إذن عليهم أن يلجأوا للخالق العظيم ويحققوا أوامره ويخافوا عذابه.

٣٦- وهل هم الخالقون لهذا الكون؟ كلا فهم أضعف من ذلك فتجرؤهم على الله ناتج من عدم اليقين والتشكيك الباطل.

٣٧- وهل يملكون خزائن الله وهل لهم القدرة المطلقة حتى يفعلوا ما يشاؤون؟ كلا فينبغي لهم التسليم للقادر المطلق.

٣٨- وهل لهم ما يمكّنهم من الصعود إلى الملأ الأعلى والاستماع إلى أسراره؟ فليكشفوا هذه الأسرار إذن، ولو ادعى أحدهم الاستماع فليأت بما يثبت مدعاه بوضوح. كلا إنهم أضعف من ذلك.

٣٩- وهكذا يستمر القرآن في طرح هذه الأسئلة لإبطال ما يدعون ومنها ادعاؤهم اختصاص الله بالبنات واختصاصهم بالبنين.

٤٠- ثم هل سألهم الرسول أجراً فأوقعهم في مشاكل الغرامة وأثقال الديون مما دعاهم لعدم الإيمان؟

٤١- وهل عندهم قدرة على معرفة الغيب فهم يكتبون في سجله ما يشاؤون من مصير؟

٤٢- وهل يستطيعون أن يخططوا لأمر بعيداً عن علم الله والحقيقة هي أنهم المصابون بآثار الكيد والتآمر.

٤٣- ثم هل يدّعي هؤلاء أن لهم إلها مؤثراً غير الله؟ لقد تنزه الله أن يكون له شريك.

٤٤،٤٥،٤٦،٤٧- إنهم يستسهلون الأمور فإذا رأوا قطعة ساقطة من السماء قالوا إنه مجرد سحاب متراكم. فليدعهم الرسول حتى يواجهوا الحقيقة الصاعقة فلا يغني عنهم كيد ولا ينصرهم ناصر، ولهم عذاب دون ذلك وإن كانوا لا يعلمون.

٤٨،٤٩- فليعتمد الرسول على الصبر لأنه بعين الله وتحت حراسته، وليلجأ إلى التسبيح في كل آن: حين القيام وفي الليل وحين غياب النجوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)

سورة النجم

تحدثنا عن البسملة قبل هذا.

١- قسم بالجرم السماوي وهو مخلوق عظيم تنكشف في كل يوم جوانب العظمة فيه، وإشارة إليه حين يهوي بأمر الله.

٤،٣،٢- وتأكيد على الوعي الكامل لرسول الله ـ وهو صاحبهم الذي يعرفونه بالصدق والامانة وبوضوح الرؤية ـ وإيمانه بحقيقة الوحي، وعدم خروجه عن الصراط السوي فلا ضلال ولا خطأ، ولا حديث عن ما يهواه، وإنما هو الوحي الإلهي الصادق.

٧،٦،٥- حمله إلى الرسول جبرئيل الملَك القوي ذو القدرة والرجاحة في العقل، والمكانة عند الله، وقد ظهر للرسول في صورته الحقيقية، مالئاً الأفق بعظمته.

٩،٨- ثم قرب إلى النبي أشد القرب فهو منه كبعد مابين القوسين أو أقرب من ذلك. وكل ذلك يعبر عن اليقين والإحساس.

١٠،١١، ١٢- فبلَّغ الوحي إلى عبد الله ورسوله بكل وضوح دون أن يكون هناك غبش أو لبس، وإنما هي رؤية بصرية يؤيدها القلب واليقين، فلا مجال ـ إذن ـ للمماراة والوهم بعد تعاضد الحس والعقل.

١٣،١٤،١٥،١٦ ، ١٧، ١٨- كما تمت الرؤية مرة أخرى وفي نزول آخر في ليلة الإسراء والمعراج وذلك عند شجرة السدر التي ينتهي عندها المسير وصحبة جبرئيل للرسول ليرى بعد ذلك آفاقاً من العظمة الإلهية تتجلّى عند هذه الشجرة وتحيط بها. كما رأى هناك الجنة التي تأوي إليها الخليقة. إنها الحقيقة المحسوسة بكل وعي دونما انحراف أو تجاوز للحد وإنها رؤية للآيات الإلهية الكبرى.

١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢- وفي قبال ذلك الوضوح يذكر هنا الغبش والوهم الذي يلفّ الفكرة الصنمية حول (اللات) و(العزى) و(مناة) ـ وهي ثالثة الصنمين ـ حيث الوهم بأنها تمثل الملائكة المؤنثة بزعمهم وأن الله اختص بالأنثى وترك لهم الذكر، فكانت تلك قسمة جائرة واستهزاء بالأمور حسب تصوراتهم.

٢٣- نعم إنها أباطيل وأوهام صاغتها مخيلة المشركين وقسمتها بين الله ومخلوقاته دونما برهان أو دليل وإنما هي ظنون لا واقع لها وأهواء نفسية باطلة لا تقوى على معارضة الهدى الالهي.

٢٤- وليس للإنسان أن يصوغ من خيالاته وأمنياته واقعاً يعتربه وينظم سلوكه على أساس منه.

٢٥- هذا وكل الكون والأدلة تشهد لله وملكيته للدنيا والآخرة.

٢٦- حيث الأمر كله لله أما الملائكة في هذا الكون فهم ينفّذون أمر الله ولا يشفعون ولا ينصرون أحداً الابإذنه ورضاه. فالشفاعة حقيقة ولكن بعد إذن الله ولمن يرتضيه.

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴿٢٧﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ﴿٢٨﴾ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴿٢٩﴾ ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴿٣٠﴾ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿٣١﴾ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴿٣٢﴾ أفرأيت الذي تولى ﴿٣٣﴾ وأعطى قليلا وأكدى ﴿٣٤﴾ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴿٣٥﴾ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ﴿٣٦﴾ وإبراهيم الذي وفى ﴿٣٧﴾ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴿٣٨﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴿٣٩﴾ وأن سعيه سوف يرى ﴿٤٠﴾ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴿٤١﴾ وأن إلى ربك المنتهى ﴿٤٢﴾ وأنه هو أضحك وأبكى ﴿٤٣﴾ وأنه هو أمات وأحيا ﴿٤٤﴾

٢٧، ٢٨- إنه وهم الكافرين بالآخرة إذ يعتقدون بأنوثة الملائكة انطلاقاً من ظنونهم الكاذبة في حين يجب أن تقوم العقائد على العلم لتنسجم مع الحق أما الظن والوهم فهو لا يغني من الحق شيئاً.

٢٩- وما دام هؤلاء غارقين في الوهم والأهواء الباطلة معرضين عن ذكر الله مكبين على الدنيا فليعرض عنهم الرسول وليتركهم لشأنهم.

٣٠- إنهم رضوا بهذا المستوى الداني من العلم والله عليم بالضالين والمهتدين فلن يخفى عليه شيء.

٣١- وهو مالك الكون والقادر العادل يجزي المسيئين بعاقبة سيئة بما عملوا ويجزي المحسنين بالعاقبة الحسنى.

٣٢- إن المحسنين أقاموا حياتهم على اجتناب الانحراف عن الخط الوسط وترك المعاصي والفواحش التي تخرجهم عن منهجهم الإنساني السوي رغم أنهم قد تصدر منهم بعض الهفوات ويلمّون بذنب أحياناً وهم في معرض الغفران، والله واسع المغفرة يفتح ابواب الأمل دائماً، وهو العليم بمسيرة الإنسان يربيه ويرحمه آناً فآناً من المرحلة الجنينية وحتى المراحل الأخرى، وإذ يشعر المرء بهذا اللطف المستمر والمراقبة الدائمة فانه يجب أن لا يزكي نفسه بل يلتجئ إلى ربه دائماً طالباً منه الغفران والتوفيق للتقوى.

٣٣، ٣٤- وإن القرآن ليعجب من إنسان هداه الله للحق فبدأ ينفق قليلا في سبيل الله، فوسوس له شيطان الجن والإنس، وتعهد بأن يحمل عنه ذنوبه، فتولّى عن طريق الحق وأمسك عن الإنفاق.

٣٥- إن هذا الإنسان لا يعلم الغيب ولا يرى الحقيقة فكيف يصدق أن الآخرين يحملون عنه ذنوبه، كلا إن عليه أن يواصل عمل الخير حتى يضمن قيامه بما عليه ونجاته من التبعات.

٣٦، ٣٧، ٣٨- وتلك حقيقة ثابتة في شريعة الأنبياء، في صحف موسى وملة إبراهيم الذي وفى بحقيقة التوحيد والتزم بلوازمها، وهي تعلن أن تبعة الاعمال ووزرها تتبع الأفراد أنفسهم دون غيرهم.

٣٩، ٤٠، ٤١- وأنه لا يلحق بالانسان إلا نتيجة سعيه وأن سعيه سوف تتجلى آثاره في الآخرة وحينئذ يجازى هذا السعي بجزاء واف وكاف وتام.

٤٢، ٤٣، ٤٤- فإلى الله تعود الخلائق وترجع الأمور فيحاسب ويجزي الجميع، إنه مدبر الكون والمسيرة ورازق الحياة بكل لوازمها وقوانينها ونظمها من (الضحك والبكاء، والحياة والموت) بكل ما تحمله هذه الظواهر من تدبير وحكمة ولطف.

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

٤٦،٤٥- ومن ظواهر الحياة خلق الزوجين - وهي ظاهرة عامة سارية في الخلق بشكل دقيق - ومن نطفة تخرج من الإنسان بشكل مني سائل لتتطور الحياة أروع تطور بعده.

٤٨،٤٧- وهكذا تسير الحياة من مبدئها إلى منتهاها تحت علم الله وتدبيره ولطفه، وعطائه وتمكينه (أغنى واقنى).

٤٩- إنّه ربّ الكون كله، وربّ السماء بعظمتها، وربّ الشعرى بالتالي وهي كوكب مضيء من الثوابت كانت تعظمه العرب.

٥١،٥٠- وهو ربّ المسيرة الإنسانية كلها يهديها ويعاقبها إذا عصت كما أهلك عادا الأولى، وثمود فلم يبق منهم أحد.

٥٤،٥٣،٥٢- كما أهلك قوم نوح وقد أمعنوا في الظلم والطغيان وكذلك كل قرية ضلت وكذّبت فاكبها على وجهها فلاقت ما لاقت من العذاب.

٥٥- إنها آيات الله وتدبيراته في الكون فلا مجال للتشكيك والوهم.

٥٦- إن هذا القرآن والوحي نذير من النذر الأولى

٥٨،٥٧- ولقد قربت القيامة ولا كاشف لمصائبها وشدائدها.

٥٩، ٦٢،٦١،٦٠- لا مجال إذن للتعجب من حديث الله وشريعته وهذه الرسالة، ولا مجال للضحك واللهو (السمود) وعدم الاهتمام بل عليهم البكاء لعظمة المسؤولية، وإنما يجب القيام بالمسؤولية الكبرى والسجود لله وعبادته وتنفيذ أمره (وفي قراءة الآية سجدة واجبة).

سورة القمر

البسملة آية قرآنية رائعة.

٣،٢،١- لقد اقتربت القيامة، ووقعت حادثة انشقاق القمر علامة على ذلك، ولعل القرآن يشير الى علامة من علامات القيامة تقع في المستقبل. ولكن المشركين يظلون في عنادهم مهما جاءت الآيات البينة واصفين عمل الرسول بالسحر المتواصل مكذبين له متبعين لأهوائهم دون أن يفكروا في عظمة هذا الكون ودقة التدبير فيه واستقرار كل أمر فيه في موضعه، وبالتالي فسوف يلاقون جزاءهم الطبيعي لأنه من قوانين الكون.

٥،٤- لقد جاءتهم النذر والآيات والأخبار التي تزجر وتمنع العقلاء بطبعها عن الانحراف بعد أن يعرفوا مكامن الحكمة السارية في الكون ولكنهم ماضون في غيهم دون أنْ تنفعهم هذه النذر.

٦- ولما كانوا مستمرين في العناد فلا قيمة لهم فليتركوا إذن ليواجهوا أهوال يوم ينادي فيه المنادي لمواجهة حوادثه المنكرة على الظالمين.

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧)
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ۞ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا
رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ
(١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)
وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ
(١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا
مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ
الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧)

٨،٧- حيث تنطلق الجموع الخارجة من القبور خاشعة أبصارها كأنها جموع الجراد المنتشر، مسرعة مستجيبة لدعوة الداعي، وهنا يستشعر الكافرون الخطر فيعلنون أنه يوم عسير شديد عليهم.

٩- ألا يعتبر هؤلاء بمصير قوم نوح الذين كذبوه واتهموه بالجنون وزجروه بقوة ليرجع عن دعوته.

١٠- فلجأ نوح إلى ربه ليعلن له حاجته وليطلب منه أن ينتصر له وإلا فإنه مغلوب.

١٢،١١- فكانت الاستجابة فانهمر المطر منصباً بشدة وتفجرت الأرض عيوناً فوارة والتقت المياه لتحقق ما قدر لها أن تحققه، ويكون الطوفان.

١٤،١٣- وحملت يد الرحمة الإلهية نوحاً في سفينة مكونة من ألواح خشبية ومسامير لتجري بأمر الله وتحت عينه لينجو هو ويغرق الكافرون، جزاءً له بعد أن أنكر عليه عمله فصمد وثبت على خطه.

١٦،١٥- ولتبقى حادثة الطوفان عبر التاريخ عبرة للمعتبرين وليعرفوا دائما مدى العذاب الالهي وصدق المنذرين.

١٧- وهاهو القرآن يسرت مفاهيمه السامية بعبارات بينة ليتذكر من لديه قابلية التذكر فأين المستفيدون؟

٢١،٢٠،١٩،١٨- وهذه عاد كذبت الرسل فلينظروا مصيرها وعذاب الله لها وصدق المنذرين. إذ أرسلت عليهم ريح باردة قارصة في يوم شؤمه مستدام، فكانت تنزعهم من بيوتهم وتمزقهم وكأنهم بقايا نخل مقلوع من أصله. فليعتبر المعتبرون وليعرفوا مدى العذاب ومدى صدق المنذرين.

٢٢- تأكيد مجدد على أن القرآن يسرت آياته ليعتبر المعتبرون.

٢٥،٢٤،٢٣- تذكير بثمود التي كذبت النذر الالهية متسائلة عن إمكان تبعية بشر هو واحد منهم معلنة أن ذلك يعني الضلال والغرق في أنماط من السعير!! مشككة في الإيحاء إليه بل معتبرة إياه كذاباً طماعاً.

٢٦- ولكنهم سرعان ما يكتشفون في الغد من الكذّاب الطماع؟

٢٧- فهاهي الناقة المعجزة سترسل إليهم امتحاناً ليعلم كيف سيتعاملون معها.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

٢٨- لقد كانت ناقة معجزة وقد أمروا بتقسيم الماء بينها وبينهم فيوم لها تحضره ويوم لهم يحضرونه.

٢٩،٣٠- وهنا ينبري أشقاهم فيتعاطى الخمر فيعقر الناقة فيصيبهم العذاب الذي يجب أن يعتبر به المعتبرون.

٣١- إنه عذاب الصيحة التي هزتهم فكانوا كالاعواد المحطمة، التي يجمعها صاحب الحظيرة.

٣٢- تأكيد على تيسير القرآن للفهم ليعتبر المعتبرون.

٣٣،٣٤،٣٥- وهكذا كذب قوم لوط فارسل الله عليهم ريحاً تجلب معها الحصباء والحجارة فدمرتهم الا آل لوط نجاهم الله بليل وعند السحر رحمة بهم وكذلك هو جزاء الشاكرين.

٣٦،٣٧- أما المكذبون من قومه فقد ذاقوا جزاءهم بعد أن لم يكترثوا بالإنذار والبطشة الإلهية وراحوا يستمرون في فعلتهم القبيحة ويراودون ضيف لوط - وكانوا من الملائكة - فصبَّ عليهم العذاب فاعمى عيونهم جزاء على أفعالهم الشاذة.

٣٨،٣٩- وباغتهم في الصباح عذاب مستقر بينهم ليعرفوا مذاق الاستكبار ومخالفة النذر.

٤٠- من جديد يأتي التأكيد على ان القرآن ميسر للذكر فهل يعتبر المعتبرون.

٤١،٤٢- ويمر الاستعراض على آل فرعون الذين تأتيهم نذر الله فيكذبون النذر كلها ليأخذهم الله أخذ القادر العزيز القهار.

٤٣- بعد استعراض حال الأمم المكذبة واحدة بعد أخرى - يأتي هذا التساؤل- ترى هل كفّار قريش خير منها؟ ام أن لهم ضمان براءة من العذاب جاءت به الصحف المنزّلة من الله؟

٤٤،٤٥،٤٦- أم هل يفتخر هؤلاء بجمعهم وقوتهم التي تحقق لهم الانتصار في زعمهم ولكن هذا الجمع سيهزم قطعا ويولي دبره هارباً، أما عذاب الآخرة فهو أشد بلاءً واعظم مرارة.

٤٧،٤٨- حيث المجرمون محرومون من الخلاص والنعيم راكسون في نار الجحيم، يسحبون على وجوههم تبكّتهم الملائكة أن ذوقوا مسَّ النار وعذابها.

٤٩- لقد قدّر الله كل شي خلقه وأوجد القوانين الضابطة في هذا الكون فلابد أن ينال كل جزاءه، ولا عبثية متصورة في ما قدّر الله.

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥)

٥٠- إنّ أمر الله التكويني يعني وقوعه بلا تخلل فاصل زماني، فهو تعالى ـ وحده ـ مفيض الوجود.

٥١- وبأمره النافذ تم إهلاك أمثالهم من المكذبين فليتذكر المعتبرون.

٥٣،٥٢- فإن كل ما يفعله الناس من صغير أو كبير مسطور ومحفوظ بدقة في كتب الأعمال.

٥٥،٥٤- في قبال حالة المجرمين البائسة في النار تذكر حالة المتقين السعيدة في جنات وأنهار ومقعد حقيقي صادق العطاء في ظل رضوان عميم من الله مالك الدنيا والآخرة والقادر المطلق على إسعاد الإنسان.

سورة الرحمن

تحدثنا عن البسملة.

٤،٣،٢،١- إن الله هو الرحمة الواسعة التي تملأ الوجود وتهديه هداية تشريعية ـ بتعليم القرآن وهو أعظم النعم وأروع تجل للرحمة - وهداية تكوينية بخلق الإنسان وإفاضة الوجود عليه ليحقق كمال خلقته متقربًا إلى الكمال المطلق، مستعينا بقدرته على تبيين أفكاره للآخرين بواسطة اللغة وباقي علامات البيان والتوضيح وما أروعها من نعمة فاضت بها الرحمة الالهية وشكلت أساساً لقيام المجتمع وبناء الحضارة.

٦،٥- وتمام هذا الكون المتناسق ليحقق هدفه بدقة ونظم بالغين وحساب لا يتخلف ينظم حركة الشمس والقمر والنجوم وكل الظواهر الأخرى كالنبات فهي جميعاً تنفذ أوامر الله التكوينية وتلاهجة وتكشف عن عظمة الخالق الرحمن.

٧- وينتظم التوازن التكويني كل الكون، والسماء بكل عظمتها تقوم على هذا التوازن الحكيم العادل.

٩،٨- وهكذا ينسجم الأمر التكويني بالتوازن مع الأمر التشريعي بالعدالة والتوازن وعدم إنقاص الميزان وإقامته على العدل وعدم بخس الحقوق.

١٢،١١،١٠- ويستمر القرآن في عرض مظاهر الرحمة بالإنسان بتذكيره بما في الأرض من خصائص تسهل له حياته الحضارية من نبات وفواكه ونخل له طلع، وحب مغلف بغلاف يحفظ له حيويته وقدرته على استدامة الحياة.

١٣- إنها آلاء الله ونعمه المتناسقة لتوفير حياة أفضل للإنسان فبأيها يستطيع الإنس والجن أن يكذبا أو ينكرا؟

١٦،١٥،١٤- هذا الإنسان بكل خصائصه خلقه الله من طين جامد كالخزف، وهذا الجان خلق من لهب ناري وكل يحمل خصائصه فبأيّ نعم الله وآياته يمكن التكذيب؟

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

١٨،١٧- إنّه ربّ المشرقين (مشرق الشمس والقمر أو الشتاء والصيف) والمغربين وبهما تعمر حياة الإنسان وتسهل مسيرته فبأيّ نعم الله يمكن التكذيب؟

٢١،٢٠،١٩- وقد حرك دورة المياه في الطبيعة لتنقل من بحر مالح – وللملوحة دورها ـ إلى سحاب إلى ماء عذب ـ وللعذوبة أيضاً دورها في الحياة الإنسانية ـ وبين الملوحة والعذوبة موانع من المزج بقوانين لا يعلم عظمتها إلا الله والراسخون في العلم فكيف يمكن إنكار النعم الإلهية المتناسقة ونسبتها إلى الصدف العمياء؟

٢٣،٢٢- ويحوي البحران المالح والعذب الكثير مما تحتاجه الحياة ومنه اللؤلؤ الجميل والمرجان الرائع الالوان فكيف يمكن إنكار هذه النعم؟

٢٥،٢٤- ووفق قوانين الله الهائلة تتحرك السفن الضخمة كالجبال فتخدم مسيرة الإنسان أيّما خدمة فكيف يمكن الإنكار؟

٢٨،٢٧،٢٦- وهنا تأتي الإشارة إلى تعاقب الأجيال بالولادة ثم الفناء وتبقى القدرة الالهية وصفات الله ذي الجلال هي الحقيقة الخالدة التي تنقل الإنس والجن إلى الحياة الآخرة وحسابها مما يحقق إكمالاً للهدفية وانسجاماً مع الرحمة التي أفاضت الوجود وهدته إلى كماله فهل يمكن التكذيب بكل هذه المظاهر؟

٣٠،٢٩- إنه الغني المطلق الذي يحتاج إليه الوجود ويتعلق به فهو محيط به يمده في كل آن برحمته وإلا فالعدم لا غير فاين مجال التكذيب؟

٣٢،٣١- وهكذا تطوى الحياة الدنيا ويقف الجن والإنسان للحساب يوم القيمة فلا مجال لإنكار نعم الله وقدرته وحكمته.

٣٤،٣٣- إن الخلق كلهم في قبضة الله وتحت علمه وسيطرته فلا يمكنهم الخروج منها الا بقدرة وسلطان لا يملكونه فما معنى التكذيب؟

٣٦،٣٥- إن اللهيب والدخان سوف يلاحقان من يظن الفرار فلا ينفعه ذلك ولا ينصره ناصر فكيف يمكن التكذيب بالقدرة والعظمة الإلهية المطلقة؟

٣٨،٣٧- من مظاهر القيامة إنشقاق السماء وتحولها إلى وردة حمراء سائلة كالأديم الاحمر تعبيراً عن التغيير الكوني الهائل وهل يمكن أن ينكر آلاء الله وقدرته وتدبيره أحد؟

٤٠،٣٩- إن الأعمال كلها مسجلة ولا حاجة في بعض مواقف القيامة للسؤال فكيف يمكن التكذيب بآلاء الله وقدرته ونعمه؟

> يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

٤٢،٤١- فالمجرمون معروفون بعلاماتهم الواضحة في وجوههم وأبدانهم. وهنا يجمع شعر نواصيهم مع أقدامهم ثم يزج بهم في نار جهنم ووجودها نعمة إلهية لأنها تزجر العصاة والمجرمين فكيف يمكن التكذيب بآلاء الله ونعمه؟

٤٥،٤٤،٤٣- إنها جهنم وما أعظم هولها! يتقلب المجرمون بين لهيبها وبين سائل حار قائم بالفعل فكيف يكذّب المجرمون؟

٤٧،٤٦- أما من اتقى الله وخاف مقامه فله جنتان مادية ومعنوية تغمره فيهما رحمة الله ولطفه فهل يمكن إنكار ألطاف الله؟

٤٩،٤٨- فيهما أغصان ندية متنوعة، فهل يمكن الإنكار؟

٥١،٥٠- وفيهما عينان فياضتان بالماء الغزير فهل يمكن إنكار آلاء الله ونعمائه؟

٥٣،٥٢- وفيهما من كل فاكهة صنفان فهل يمكن انكار آلاء الله ونعمائه؟

٥٥،٥٤- يتنعمون فيهما ويتكئون على فرش ناعمة بطانتها من الحرير السميك ويتدلّى عليهم قطاف الثمر ليسهل لهم قطفه فما معنى الإنكار؟

٥٧،٥٦- وهناك فتيات حسان تقصر أنظارهنّ على أزواجهنّ أو تقصر الأنظار عن التوجه إليهن مباشرة لشدة جمالهن، لم يمسسهنّ قبل ذلك إنس ولا جان، فهل هناك مجال للتكذيب بآلاء الله ونعمه؟

٥٩،٥٨- إنهنّ يتمتعن بالجمال والبهاء والصفاء والألوان الباهرة فلا مجال للإنكار.

٦١،٦٠- إنّ الاحسان الإلهي يجب أن يقابله الإحسان من العبد، وإنّ إحسان المحسنين لاجزاء له إلا إحسان الله وحنانه فلا معنى للإنكار أو التكذيب.

٦٣،٦٢- وإلى جانبهما جنتان أخريان زيادة في الإنعام الالهي فهل يمكن التكذيب؟

٦٥،٦٤- هاتان الجنتان شديدتا الخضرة متشابكتا الشجر فهل يمكن التكذيب؟

٦٧،٦٦- وفيهما عينان فوارتان فلا معنى لإنكار عظمة آلاء الله.

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ ٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾

٦٩،٦٨- وفيهما من الفواكة المتنوعة وأشجار التمر والرمان فلا معنى للإنكار.

٧١،٧٠- وفي هذه الجنان الأربع أوفي هذهالفواكه الخيرات الحسنة الكبيرة فلا داعي للإنكار.

٧٣،٧٢- وهناك الفتيات الرائعات اللواتي تصونهنَّ الخيام فلا داعي للإنكار.

٧٥،٧٤- نعم هن مصونات لم يتزوجهنَّ من قبل إنس ولا جان فلا معنى للإنكار.

٧٧،٧٦- ويتنعم المؤمنون في هاتين الجنتين أيضاً متكئين على وسائد خضر وطنافس جميلة، فهل يمكن الإنكار؟

٧٨- انها جميعاً مظاهر الرحمة الإلهية عددتها هذه السورة المباركة التي ختمت بمباركة أسماء الله الجليلة والجميلة التي تغمر آلاؤها الكون. والملفت للنظر في هذه السورة تكرار آية «فبأي آلاء ربكما تكذبان» واستغراب التكذيب بنعم الله التي لا تحصى وهو أسلوب بلاغي للتاكيد على أهمية الموضوع حيث يتوالى السؤال بايقاع خاص ليستقر في الوجدان.

سورة الواقعة

تحدثنا من قبل عن البسملة.

٢،١- تصور هذه السورة هول يوم القيامة ومظاهره فهي تعبر عنه بالواقعة والحدث الكبير وتتساءل عنه دون أن تجيب ولكن تؤكد هذا الوقوع فلا ينفع التكذيب.

٣- إنها تهز الكون وتقلب الأمور وتبدي السرائر وتذل الأعزة وتعز الأذلة.

٦،٥،٤- إنها ترجّ الأرض وتهزها وتزلزلها، وتدكّ الجبال فتجعلها ذرات متناثرة هنا وهناك.

١٢،١١،١٠،٩،٨،٧- وتنقسم البشرية إلى أصناف ثلاثة هي-

أصحاب اليُمن والسعادة ، وأصحاب الشؤم والشقاء، والسابقون بالخيرات والإنسانية، لذلك فهم المقربون عند الله وجزاؤهم جنات النعيم. ويبدو أنهم احسن حالاً وتميزاً عن الفئة الأولى.

١٤،١٣- إنهم جمع كثير منتقى من الماضين وقليل من الباقين.

١٦،١٥- إنهم يتنعمون بالخلود في الجنان، يتكئون على سرر منظمة ومزينة، ويتقابلون في التنعم والحديث والمسامرة.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

١٧- ويخدمهم غلمان لا يؤثر الزمان عليهم فهم في شبابهم دائمون.

١٨- بآنية متنوعة فيها خمر حلال صافية.

١٩- إنها خمر لا تصيبهم بالصداع ولا تفقدهم الوعي كخمر الدنيا الحرام.

٢١،٢٠- وأمامهم من الفواكه من كل لون ليتخيروا ما يشاؤون ومن لحم الطير ما يريدون.

٢٣،٢٢- كما وأنهم يحظون بفتيات جميلات رائعات بعيون واسعة بيضاوات كأمثال اللؤلؤ المصون بعيداً عن الثقب أو التلوث.

٢٤- كل ذلك بطبيعة الحال جزاء لهم على أعمالهم الحسنة.

٢٦،٢٥- حيث الحياة الهادئة البعيدة عن كلام اللغو والإثم والمليئة بمعاني السلام والأمان والمحبة.

٢٩،٢٨،٢٧- أما أصحاب اليمن والسعادة فهم تحت أشجار السدر (النبق) الذي قطعت أشواكه، وأشجار الموز ذات الرائحة الطيبة بثمر منظم منسق.

٣٣،٣٢،٣١،٣٠- وفي ظلال لا تزول ومياه مستمرة الجريان وفواكه كثيرة بلا انقطاع ولا حصول موانع من التناول.

٣٧،٣٦،٣٥،٣٤- وعلى فرش ممهدة بعيدة عن الدنس عليها نساء طاهرات باكرات صباح الوجوه متقاربات في السن.

٤٠،٣٩،٣٨- وأصحاب اليمين هؤلاء هم مجموعة كثيرة من الماضين ومجموعة كثيرة من الباقين.

٤٤،٤٣،٤٢،٤١- وأما أصحاب الشمال التعساء فمصيرهم أنهم يلاقون ريحاً حارة تنفذ إلى المسام وماء شديد الحرارة ودخاناً أسود في ظله العذاب الخانق لا البرد ولا الكرامة.

٤٥- ذلك لأنهم استمرأوا حياة الترف وركنوا إلى الدنيا وطغوا وغفلوا عن الحقيقة.

٤٨،٤٧،٤٦- وأصروا على نقض عهودهم مع خالقهم كما تقتضي فطرهم، وأذنبوا واغرقوا وأنكروا الآخرة مستبعدين العود بعد الموت والفناء هم وآباؤهم.

٤٩، ٥٠- فليؤكد الرسول أن الاولين والآخرين سوف يبعثون ويجمعون في ميقات يوم الحساب المعين.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

٥١،٥٢،٥٣،٥٤،٥٥،٥٦- وهكذا اختار هؤلاء طريق الضلال والضياع والتكذيب بالحقيقة، فكانت عاقبتهم السيئة يوم القيامة أن يملأوا بطونهم من نبات تكرهه النفوس والعيون، ويشربوا فوقه من الماء الحار كما تشرب الإبل المصابة بداء العطاش حتى تفق، تلك هي حالتهم البائسة، ومنزلتهم يوم القيامة.

٥٧- إن كل شيء في الكون يشير إلى الخالق العظيم، ومن ذلك خلق الإنسان بكل ما فيه من مظاهر الإبداع والتنسيق والهدفية ولكن هؤلاء ينكرون هذه الحقائق الباهرة.

٥٨،٥٩- ومن أروع الدلائل ما يشهده الإنسان من بدء خلقة الإنسان بكل عظمته من المني وهو سائل مهين ثم ليلتحم مع بيضة المرأة لتتكون اللقيحة وتتطور حتى تكون إنساناً. إن هذا التحول العظيم إنما يتم بأمر الله وقدرته ولا يد للإنسان فيه.

٦٠،٦١،٦٢- وتسير الحياة ويتحرك التقدير الإلهي الرائع موجهاً لها ومنهياً لمرحلة منها بالموت، ولا يد لأحد في هذا الأمر . وتتعاقب الأجيال الإنسانية لتحقق أهداف خلقتها وتقوم بمسؤولياتها، وينتهي أمد نشأتها الأولى ويبدأ أوان نشأتها الأخرى بعد الموت. إنها مسيرة لا يعلم الإنسان أبعادها ويبقى التقدير الإلهي هو كل الحقيقة. فكيف يكذب بها هؤلاء ولا يتذكرون النشأة الأولى باعتبارها دليلاً على النشأة الثانية.

٦٣،٦٤،٦٥،٦٦،٦٧- ومن الدلائل حركة النباتات الرائعة وتطور البذرة ونموها وإشباعها لحاجة الإنسان، إنها تتم برعاية الله وأمره، ولو شاء تعالى لحولها إلى حطام تافه غير مفيد ولبقي الإنسان حائراً جائعاً محروماً لا يستطيع أن يديم حياته.

٦٨،٦٩،٧٠- ومن الدلائل حركة الماء في الطبيعة: بخار، ثم سحاب ثم مطر يملأ الأجواء خصباً، ويملأ مخازن الأرض والأنهار ماء. وهكذا تستمر الحياة بيد القدرة الإلهية، ولو شاءت لأوقفت هذه الحركة، ولجعلت الماء مالحاً لا يصلح للشرب فهلا يعي الإنسان ويشكر هذه النعم؟!

٧١،٧٢،٧٣- ثم حركة الحرارة، وتكون النار التي يورون زنادها فتشتعل وتقوم بها حياة الإنسان دفئاً وطبخاً وصهراً وغير ذلك. هذه النار أشعلتها يد القدرة الإلهية وأعطتها هذه الخاصية، ومنحت النباتات قدرة الاشتعال لتستفيد منها الحياة والمسافرون في البراري ويتذكر الناس نار الآخرة ويشعروا بعظمة النعمة.

٧٤- إنها حقائق ونعم هائلة تستوجب أن يقوم الإنسان بتنزيه الله وتعظيمه.

٧٥،٧٦- ثم هذه النجوم ومواقعها المحيرة وعجائبها التي لا تنتهي فتستحق أن يقسم بها الله وهو قسم عظيم عظيم لو علم الإنسان بأبعاده.

إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سورة الحديد ٥٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

٧٧،٧٨،٧٩،٨٠- هذا القسم العظيم بمواقع النجوم في هذا الكون العظيم يتم على تأكيد شيء عظيم هو كون هذا القرآن كريماً بعطائه الإلهي الذي لا ينقطع، ومصدره ذي العلم والقدرة والكرم، وكتابه ولوحه المحفوظ المصون عن أن تمسه يد التغيير والتحريف فلا يلمسه إلا المطهرون، ولا يقرب منه الملبسون، فهو تنزيل مقدس من رب الكون لهداية الإنسان كل الإنسان.

٨١،٨٢- ومثل هذا الكتاب المقدس يستحق التكريم لا التهاون والتليين وتسهيل الأمر، والاسترزاق بتكذيبه لاحفاظاً على المواقع.

٨٤،٨٥،٨٦،٨٧،٨٣- فليتصور هؤلاء المكذبون حالهم حينما تبلغ أرواحهم حلاقيمهم فيشرفون على الموت وقد يئس منهم الحاضرون فليس لديهم إلا النظر الباهت، وتسليم الأمر لله وقدرته فهو الأقرب والأقدر وهم الأعجز عن صنع أيّ شيء وإرجاع الروح إليهم وإنقاذهم من الجزاء والعقاب.

٨٨،٨٩- كلا فهم مستسلمون للقدرة الإلهية، وللحساب العادل فان كانوا قد عملوا ما يقربهم إلى الله فالروح والريحان والنعيم وتلك درجة المقربين.

٩٠،٩١- وإن كانوا من أصحاب اليمين واليمن فهم يبلغون سلامهم للرسول الكريم على ما بهم من نعمة.

٩٢،٩٣،٩٤- أما المكذبون الضالون فمصيرهم العذاب الساخن والجحيم الحارقة.

٩٥،٩٦- هذه هي الحقيقة الناصعة التي يجب أن يقف عندها الإنسان منزهاً ربه العظيم.

سورة الحديد

تحدثنا قبل هذا عن البسملة.

١- إن الكون كله يسبح لله وينزهه ويسيرونق سننه وقوانينه لأنه الحقيقة كلها والعزة كلها والحكمة كلها.

٢- إنه مالك الوجود والحياة والموت وله القدرة المطلقة.

٣- إنه الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، والأظهر من كل ظاهر، والأخفى من كل خفي، والأعلم بكل شيء، لأنه المحيط بكل الوجود وهو خالقه ومحده في كل آن.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝

٤- وهو تعالى خالق الكون في مراحل زمنية ست وهو الماسك بأزمة الأمور وإدارة الكون من نقطة معينة هي العرش، يعلم دقائق الكون وما يدخل في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يصعد إليها، فهو تعالى محيط بالكون محد للوجود، عليم بكل الأعمال بصير بكل الأمور.

٥- تأكيد على الملكية الإلهية الحقيقية للكون كله وعودته بكل شؤونه إليه تعالى.

٦- إشارة إلى الحركة الكونية التي تنتج تعاقب الليل والنهار واندماجهما طولاً وقصراً، فهو تعالى محيط بها كما أنه محيط بكل حركة نفسية فلا يعزب عنه شيء، في اشارة رائعة للعلاقة بين الكون والانسان.

٧- بعد تلك الإشارات إلى عظمة الله وقدرته وإحاطته وعلمه المطلق يأتي هذا النداء لتعميق الإيمان به وبرسوله والإنفاق مما جعل الناس خلفاء عليه فملكهم إياه ملكية إعتبارية ليقوموا بحق الخلافة ويصرفوه حيثما يأمرهم المالك الحقيقي فينالوا بذلك استحقاق الأجر الكبير.

٨- إن كل العلائم والادلة تقضي بعظمة الحقيقة الإلهية فلماذا يعرض هؤلاء عنها أو لا يعطونها حقها وهاهو الرسول الصادق الامين يدعوهم إليها والى القيام بمقتضيات الإيمان ولوازمه بعد أن اخذ منهم البيعة والعهود.

٩- إنّ هذا الرسول الكريم الصادق المصدق عبدالله يحمل رسالته بآيات واضحات ليخرج البشر من ظلمات الجاهلية وعماها إلى نور الإسلام رحمة من الله ورأفة بهم.

١٠- إن الإنفاق في سبيل الله هو لازم الإيمان بالله ومالكيته للكون، وكلما كان الإخلاص اسمى ـ كما هو الحال في الإنفاق والجهاد قبل فتح مكة أو الحديبية حيث الظروف الشاقة للمسلمين ـ كان اكثر أجراً وكشفا عن سمو الدرجة الإيمانية نسبة لمن جاهد وأنفق بعد ذلك ، وإن كان الإنفاق والجهاد في نفسه يؤدي للعاقبة الحسنة والله تعالى يراقب كل الأعمال فيجزيها.

١١- رغم أن المال مال الله ولكنه يستقرضه من عبيده لينفق على هؤلاء العبيد ثم يضاعفه في مقام الجزاء ويزيد ذلك أجرا كريماً من عنده يوم الحساب وكل ذلك من لطف الله وكرمه.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

١٢- زيادة في الحث على الانفاق يعرض القرآن هنا الجو الذي يجزى به المنفقون في القيامة. إنه يوم يسير فيه المؤمنون والمؤمنات ونورهم يسعى أمامهم وعلى أيمانهم، وتأتيهم البشرى الرائعة بتحقق أقصى ما يتمناه إنسان وهو الخلود في النعيم.

١٣- اما المنافقون والمنافقات فهم يعانون ظلمة العذاب ووحشته فيسألون المؤمنين أن يتريثوا في مسيرهم إلى الجنة حتى يصل المنافقون إليهم ويقتبسوا من نورهم فيأتيهم الخطاب أن ارجعوا وراءكم إلى الدنيا والتمسوا هناك نورا والدنيا هي دار العمل الذي ينتج النور. وهنا يضرب بين الفريقين سور باطنه باتجاه المؤمنين يوحي بالرحمة وظاهره باتجاه الآخرين يوحي بالعذاب.

١٤،١٥- وهنا ينادي المنافقون المؤمنين مذكرين إياهم بأنهم كانوا يعيشون معهم في الدنيا فيحسبهم الرائي أمة واحدة ليأتيهم الجواب أن بلى كان ذلك ولكنكم ألقيتم أنفسكم في الفتنة وعشتم مرددين مشككين مغرورين بالآمال الكاذبة متبعين لإغراءات الشيطان، فلا تنفعكم اليوم فدية كما لا تنفع الكافرين من خلفائكم ومصير الجميع هي النار.

١٦- وهنا يتوجه القرآن للمؤمنين طالباً منهم تعميق الإيمان ليملأ وجودهم فتخشع قلوبهم وأحاسيسهم لذكر الله وآياته النازلة بالحق ويبتعدوا عن نكسة إيمانية أصيب بها أهل الكتاب من قبل حين طال بعدهم عن منبع الرسالة والإيمان فابتلوا بقسوة القلوب والابتعاد عن الفطرة السليمة.

١٧- ولكن الله تعالى وهو يحيي الأرض بعد موتها يبث الآيات والمواعظ ليحيي بها العقول والقلوب.

١٨- عودة للحث على التصدق من خلال مدح المتصدقين والمتصدقات المتعاملين مع الله بإقراضه قرضا حسنا طيباً وأنهم سيحصلون على الأجر المضاعف وزيادة كريمة تتناسب وكرم الله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

١٩- إن الإيمان بالله ورسله إيماناً جامعاً يملأ الوجود يوصل الإنسان إلى مقام الصديقين والشهداء الذين هم نماذج وقدوة للآخرين ويستحقون ما لهم من النور والأجر، في حين تلاحق الكافرين والمكذبين لعنة صحبة الجحيم لأنهم أبعدوا أنفسهم عن السبيل القويم.

٢٠- ولكي تبدو روعة حياة الإيمان يعرض القرآن الصورة الحقيقية للحياة الدانية فما هي إلا لعب كلعب الاطفال ولهو كلهو الشباب وزينة كزهو الاقوياء وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد كما يفعل المترفون دونما هدف سام فهي سراب وخداع زائل، وهي كمثل مطر يعجب الزراع لما يؤدي إليه من نبات ثم ينمو بكثرة استعداداً للحصاد ثم يتحول بعدها إلى هشيم متلاش في لحظة سريعة في حين يتم الحساب يوم القيامة بدقة فإما العذاب وإما الغفران ورضوان الله فلا تقاس به الحياة الدنيا التي هي متاع الخداع. والحديث هنا عن حياة دنيا في قبال الحياة المتسامية للصالحين.

٢١- وعلى أساس من هذه الحقيقة يدعو القرآن لأن تتحول الحياة إلى منافسة حقيقية ـ لا وهمية ـ في مضمار الغفران الالهي حيث الجائزة هي الجنة التي تعدل سعة السماء والأرض ـ والكون أوسع منهما ـ وقد أعدت للمؤمنين بالله ورسله الملحقين بمقام الصديقين وكل ذلك فضل من الله والله ذو الفضل العظيم.

٢٢،٢٣- إن ما يصيب الإنسان من مصائب في الأرض أو في النفس محفوظ معلوم عند الله مقدّر لديه فلا مكان للصدفة في هذا الكون وهو أمر يسير على الله. فينبغي أن يحتفظ الإنسان بتوازنه ووعيه تجاه الحوادث فلا يحزن على ما فاته حزناً يفقده وعيه، ولا يفرح بما يحصل عليه فرحا يفقده توازنه فيعود مختالاً مزهواً فخوراً بل عليه أن يكون زاهداً بالمعنى الإيجابي للزهد.

٢٤- وعلى الإنسان أن يحس بموقعه وعضويته في المجتمع فلا يبخل ولا يأمر بالبخل وإلا اعتبر منحرفاً عن الصراط السوي ، والله هو الغني الحميد.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

٢٥- في هذه الآية بيان لهدف إرسال الرسل ومعهم العلامات الواضحات والكتاب أي الوحي الذي يحمل أوامر الله وهي تحوي معايير الحق والباطل، والخير والشر وهي أمور يعلمها ـ كلها ـ خالق الكون والإنسان ، كل ذلك ليقوم مجتمع العدالة الحقيقية التي يتوق إليها الإنسان بفطرته.

واعطى الله ـ لطفا منه ـ الحديد بما فيه من صلابة وقوة تنفع الإنسان في جميع مسيرته الحضارية شريطة أن يعي الإنسان واجبه ويستخدمه خير استخدام ومنه استخدامه لنصرة الرسل وصنع مجتمع القسط، هكذا شاء الله للإنسان أن يحقق هدف خلقته والا فإن الله قوى عزيز لا ينقصه شيء ولا يحتاج إلى شيء. وبذلك يتلخص هدف الرسالات الإلهية في مجتمع قوامه العدل والقوة اللازمة لاقامته.

٢٦- وهكذا شاءت القدرة والرحمة الإلهية أن تستمر مسيرة النبوة المتناسقة في أهدافها ويذكر هنا نوح وابراهيم ـ نموذجاً ـ كما تذكر مسيرة البشرية المتمثلة في ذريتهما وانقسامها لفضيلي الهدى والضلال.

٢٧- وعلى هذا السياق تتابعت الرسل حتى وصل الأمر إلى عيسى فجاء قومه يحمل إليهم الانجيل فاتبعه المؤمنون وغرس الله في قلوبهم الرأفة والعطف والرحمة، وقد دفعتهم الخشية من الله إلى ابتداع حالة الترهبن والتركيز على العبادة والاعتزال لها رغم أنها لم تكن واجبة عليهم، ولكن هذه الحالة التطوعية لم تبق على أصالتها وفقدت مضمونها التربوي، بانعزالها عن الحياة، ولم تعط حقها لدى البعض وطبيعي أن يجازى المؤمنون المخلصون ويعاقب الفاسقون المنحرفون.

٢٨- بعد ما سبق يتوجه الخطاب للمؤمنين لتاكيد تقواهم وإيمانهم بالرسول ليتأهلوا للرحمة الالهية المضاعفة، ويتصفوا بنور العقل والحكمة والإيمان، وبه يكتشفون سبيل سعادتهم وينالهم الغفران والرحمة. وهكذا يبدو التصور الإسلامي للحياة فلا ترهبن فيها وانما مشي وسير وتفاعل ولكن مع نور يشع بالروح والمعنويات.

٢٩- إن الرحمة الالهية ليست حكراً على أهل الكتاب ـ كما يزعمون ـ فالفضل بيد الله لا غير، تستحقه كل أمة سارت على خط الرسل وحققت مقتضيات الخلافة.

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (١) الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور (٢) والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير (٣) فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٤) إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين (٥) يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد (٦)

سورة المجادلة

مر الحديث عن البسملة.

٤،٣،٢،١- هذه الآية نموذج لعلم الله بكل شيء وحضوره مع كل تحرك فلا يشغله شيء مهما كان عظيماً عن شيء، كما أنها مثال على الرعاية الإلهية لهذه الأمة في كل شيء، فهي تعلن الاستجابة الإلهية لنداء امرأة جاءت تشكو زوجها في ما فعله من (الظهار) إذ قال لها (أنت عليّ كظهر أمي) وما هو بمعناه، وهو أسلوب جاهلي للطلاق المؤبد، ثم عاد عليها ليراجعها فامتنعت حتى يحكم الله. فحكم الله بأن هذا القول زور باطل منكر وأنها لازالت زوجة له، وأن عليه نتيجة ذلك أن يعتق رقبة فمن لم يجد ذلك فصيام شهرين متتابعين وعند عدم القدرة فإطعام ستين مسكينا وذلك قبل أن يتماسا زوجياً. إنه إذن عقاب على اتباع سنة جاهلية برفضها الإسلام فينبغي التقيد بحدود الإسلام فإنه مقتضى الإيمان بالله والرسول، أما الكافرون فوراءهم العذاب الأليم. ويلاحظ في موضوع الكفارة هنا وفي أمثالها من الكفارات الاهتمام بالعتق والتحرير واطعام المساكين والصيام باعتباره تربية روحية وكل منها ذو مفهوم اجتماعي وروحي يمنع من تكرار المعصية.

٥- نعم يجب التقيد بالشريعة الإلهية تحقيقاً للوازم الإيمان وخلاصاً من عذاب الله. أما الذين يعاندون الأوامر الإلهية ويتعدون على الحدود الشرعية فسيكبتون ويذلّون كما تم إذلال أمثالهم من الأمم السابقة الذين دفعهم العناد لتكذيب الحقيقة رغم الآيات الواضحات التي كانت تدل عليها فكفروا بها واستحقوا العذاب المهين.

٦- إنهم يجب أن يعلموا أن الله تعالى يحصي أعمالهم بدقة نتيجة قدرته المطلقة وأنه سيواجههم بها يوم القيامة حين يبعث الناس جميعاً. إنهم ينسون جرائمهم ولكن الإحصاء الالهي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة لأنه تعالى خالق الكون والعليم بما خلق والشاهد الحق عليه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَٰلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝

٧- إنه العليم بكل ما في الكون، وحتى الكلام الخفي الذي يجري بين ثلاثة أشخاص أو خمسة أو اقل أو أكثر فهو تعالى رابعهم وسادسهم فهو مع كل حركة وسكنة في الوجود معية كاملة لأنه محدّ الوجود في كل آن وكل مكان، فالاحصاء دقيق وشامل، وسينبئهم الله بأعمالهم يوم القيامة.

٨- كشف لتحركات بعض المنافقين الخفية لعرقلة مسيرة الدعوة رغم أنهم قد نبهوا إلى عدم القيام بذلك، ورغم تحذيرهم بأنها أعمال مكشوفة أمام الله العليم. لقد كانوا يكررون ويخططون لتخطيطات آثمة وعدوانية، وسلوكات مخالفة لأمر الرسول وأخرى سخيفة كأن يلوون ألسنتهم بالسلام على الرسول ليكون الظاهر هو السلام والباطن هو الدعاء عليه بالفناء. وهو مما تعلموه من حلفائهم اليهود. ثم يكشف القرآن عن حديثهم النفسي بدعوى أنه لو كان صادقاً في دعواه لعذبهم الله نتيجة سلوكهم ولكن الرد الحاسم يأتي ليخبرهم بالمصير الرهيب، إنها العاقبة الجهنمية فبئس المصير.

٩- وبعد نهي المنافقين عن التجمعات السرية المعادية يأتي هذا النهي للمؤمنين عن مثل تجمعات المنافقين وما يدور فيها من تخطيط عدواني آثم، ليصرفها إلى تجمعات منسجمة مع توجهات القيادة الحكيمة ومستهدفة لإشاعة البر والتقوى والعمل البنّاء طلبًا لمرضاة الله وبعداً عن عذابه يوم الحشر، وهكذا يأتي التأكيد على التشاور الجماعي للمؤمنين وعدم التفرد فهو مظنة الانقسام.

١٠- إن انفراد البعض بالتشاور الخفي بعيداً عن الجماعة المسلمة إنما هو تسويل وتسويغ شيطاني لبثّ الفرقة والريب في المجتمع، ولكن الله يعد المؤمنين المخلصين بصيانة المجتمع من مكائد الشيطان وضرره فكل شيء واقع تحت علمه وقدرته. فليتكل المؤمنون عليه وليطمئنوا به.

١١- استمرارا في عملية تهذيب المجتمع المسلم يأتي الأمر بالتفسح أي فسح المجال للقادمين كي يشاركوا في مجالس الخير وطلب العلم، فإن التعاون في ذلك يؤدي إلى أن يفتح الله على المتعاون من عنايته. وكذلك الأمر حينما يطلب من أحدهم ـ عند حضور العالم ـ أن يخلي المكان وينصرف فإن الطاعة سبب للعزة وارتفاع الدرجة، كما أن للعلماء المؤمنين درجاتهم الرفيعة عند الله العليم الخبير بكل ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

١٢- تتعرض الآية لبعض حالات التزاحم للانفراد برسول الله والحديث الخاص معه، ولعل ذلك كان يتم من الأغنياء أكثر من الفقراء، ففرضت هنا ضريبة خاصة عند ارادة النجوى مع النبي فإن لم يكن هناك تمكّن مالي فإن الأمر معفو عنه، وقد عمل الإمام علي(ع) بهذا التكليف وكان معه دينار صرفه إلى دراهم[1] امتثالاً وشكراً لله على نعمة الحديث مع رسول الله(ص).

١٣- ويبدو أن الهدف كان تربوياً وتنبيهاً إلى لزوم مراعاة الآخرين وفسح المجال للرسول (ص)، خصوصا بعد أن امتنع المؤمنون عن ذلك لما يترتب عليه من إنفاق، ولذا جاءت الآية لترفع هذا الأمر والتكليف، عفوا ولطفا من الله فليتم التركيز على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله ومراقبة الله في كل المسير.

١٤،١٥- تركيز على المنافقين وتحركاتهم حيث كانوا يترددون إلى اليهود المغضوب عليهم ويترددون في الانتماء الاجتماعي فلا هم من المؤمنين ولا هم من اعدائهم ولكن هؤلاء المنافقين عندما كانوا يواجهون بهذا السلوك المنافق كانوا يحلفون كذباً على أنهم منسجمون مع المسلمين رغم علمهم بكذبهم مما يؤهلهم لعذاب الله الشديد نتيجة هذا السلوك السيئ.

١٦- إنهم اتخذوا حلفهم بالله كاذبين وقاية لهم من تأنيب المؤمنين، وراحوا يعرقلون مسيرة الإيمان، ولذلك استحقوا العذاب والهوان.

١٧- إنهم أناس تغريهم الدنيا بما فيها من أولاد وأموال ولكن ذلك لا يغنيهم من عذاب الله شيئاً، وما أشدّ هذا العذاب إنه الخلود في الجحيم.

١٨- إنهم سفهاء يكررون غلطتهم وحلفهم حتى حين يبعثهم الله ظانين أن ذلك ينفعهم وهم الكاذبون في حلفهم والواهمون في ظنهم.

١٩- إنهم أسلموا قيادهم للشيطان الذي أنساهم ذكر ربهم فعادوا من حزبه وأتباعه الخاسرين حقا.

٢٠- لقد انضموا إلى المعسكر المعادي لله ورسوله ـ ابتغاء للعزة، ولكنه معسكر الأذلاء.

٢١- اما المعسكر الإلهي ومعسكر الأنبياء والرسل فهو معسكر الغلبة الحقيقية لأن الله هو القدرة المطلقة والعزة الحقيقية.

---

١ - بحار الانوار ج ٣٥، ص ٣٧٧ نقلاً عن الثعلبي والواحدي وغيرهما من علماء التفسير.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

٢٢- إن هناك انفصاماً بين خط الحق والإيمان بالله والآخرة وبين خط الباطل والعناد، ولا معنى لتصور العلاقة العاطفية بينهما، لأن العقيدة هي التي تصوغ العاطفة بل حتى العلائق النسبية كالأبوة والبنوة والأخوة ووحدة القبيلة لن تبقى مؤثرة في إيجاد ربط عاطفي، ذلك لأن الإيمان المتأصل في القلوب يزيح كل ما يتنافى معه، والروح التي يوجدها هذا الإيمان لا تنسجم مع أوضار الجاهلية، وبذلك يستحق أهل خط الإيمان المركز في القلوب ان يؤيدهم الله بروح منه ورعاية مميزة والخلود في الجنان الفيحاء يظللهم الرضوان الإلهي المتبادل بين العبد وربّه وما اعظمها منزلة، ويعودون من حزب الله، وحزب الله هم المفلحون.

سورة الحشر

مر بنا الحديث عن البسملة.

١- إن الوجود كله يسبح لله ذي العزة والحكمة المطلقتين وقد جاء ذكر هذه الحقيقة الإيمانية مقدمة للتعرض لما جرى لبني النضير.

٢- لقد كان بنو النضير قوما من اليهود يجاورون المدينة، وقد طرح الرسول عهده الشهير لينظم العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم فعاهدوه على ذلك ولكنهم خانوا العهد وتآمروا لقتله، وبيّتوا علاقة تآمرية مع المنافقين مما شكل خطراً كبيراً على المجتمع الإسلامي الوليد، فطلب منهم الجلاء والخروج الجماعي دونما عودة، بعد أن خانوا العهد، فرفضوا ذلك وتحصّنوا في حصونهم مستقوين بوعود المنافقين، فأمر رسول الله بمحاصرتهم، ولما طال عليهم الحصار واستولى عليهم الرعب حملوا متاعهم وجلوا بعد أن ضمن لهم الرسول الجلاء الآمن، ولكنهم هدّموا بيوتهم كما قام بعض المؤمنين بهدم بعض البيوت أيضاً، وهكذا أراد الله بعزته أن يقي المسلمين شرهم ويجعلهم عبرة لأولي الأبصار.

٣- ولولا قيامهم بالجلاء لعذّبوا في الدنيا بعذاب العار والهزيمة أو أيّ عذاب آخر وفي الآخرة لهم عذاب النار لأنهم عاندوا ووقفوا في وجه الحق.

> ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

٤- إن العذاب في الدارين نتيجة لحركتهم المعاندة لله ورسوله مما يؤهلهم لعذاب الله الشديد.

٥- ان كل لوازم الحصار وما بسببه من قطع شجرة أو نبتة أو بقائها قائمة بجذورها، فهو بأذن الله وقضائه لأنه سبب لخزي هؤلاء الفاسقين الخارجين على العهد.

٦،٧- ولما كان الجلاء نتيجة الرعب دون أن يقوم المسلمون بإركاض خيلهم أو جمالهم فإن الغنيمة هنا ليست للمسلمين وإنما يوكل أمرها إلى الرسول باعتبارها من الفيء (وحكمه عام) حيث يعود إلى الله والرسول وقرابة الرسول واليتامى والمساكين وابن السبيل وهو حكم إسلامي يهدف إلى أن لا يتداول المال في المجتمع الإسلامي بين الأغنياء خاصة بل يتسع ليشمل كل المجتمع ويوجد التوازن فيه، وهو إضاءة قرآنية اقتصادية رائعة. وقد قسم الرسول هذا الفيء بين المهاجرين ونفر من الأنصار وفق ما رآه من المصلحة. ومن الطبيعي أن يطيع المسلمون الرسول في كل ما آتاهم به وينتهوا عما نهاهم عنه فإن ذلك مقتضى التقوى والإيمان.

٨- إن من حق الفقراء الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم مستهدفين خدمة الرسالة والأهلية لفضل الله ورضوانه، ونصر الله ورسوله، وصادقين في ثباتهم على الخط. نعم إن من حقهم الحصول على ما يقيم أودهم ويضمن معاشهم الطبيعي.

٩- اما الأنصار الذين سكنوا المدينة من قبل وآمنوا بالدعوة فانهم يحملون للمهاجرين الحب الإيماني ولا يحسون في أنفسهم بأي ضيق نتيجة ما يحصل عليه المهاجرون من فيء بل يؤثرونهم على أنفسهم وإن كانت لديهم هم حاجة إلى ما يؤثرون به، ذلك أن الإيمان وسّع من أهدافهم ومن نفوسهم فتعالوا على الصفات الدنيا كالبخل والحسد، وطبيعي أن من يتعالى عليها يسير في درب المفلحين السعداء.

وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

١٠- صورة رائعة لمن يأتي بعد المهاجرين والأنصار من المؤمنين- إنهم في دعاء خالص لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان طالبين الغفران سائلين المولى ـ عزّ وجلّ برأفته ورحمته ـ أن يجعل قلوبهم طاهرة من الغل والعداوة والحقد للمؤمنين جميعاً، وهكذا يبني القرآن هذا المجتمع المتحاب المتآخي المتلاحم.

١١،١٢- وهذه لفتة إلى حالة المنافقين الذين تآمروا مع إخوانهم من بني النضير، حيث شجعوهم على التحصن ومقاومة الرسول مؤكدين لهم أنّهم لو أخرجوا من أماكنهم فسيخرج المنافقون معهم وأنهم في هذا الأمر مصممون لا يستمعون فيه لرأي أحد، وأنهم سينصرونهم إذا نشب القتال بينهم وبين المسلمين، كل ذلك كذبا وتحريكاً وتحريضاً لئيما، فهم لن يخرجوا معهم ولن ينصروهم، ثم أنهم لو اشتركوا في القتال لنصرتهم فسيفقدون من عضدهم لأنهم سيكونون من الفارين المهزومين.

١٣- بيان لسرّ الخور في نفوس المنافقين وهو أنهم يخافون المؤمنين أكثر من خوفهم من الله وهو دليل سخفهم وخفة عقولهم فالله تعالى هو القوة والقدرة المطلقة ولا قيمة لغيره مهما كان في قباله.

١٤- إن هؤلاء الذين يقفون في وجه الدعوة جبناء لا يقاتلون المؤمنين إلا وهم متحصنون في حصونهم أو متمترسون خلف جدر وحيطان تقيهم البأس، وهم فيما بينهم يتفاخرون بالقوة ويتبادلون الادعاءات بها فإذا جد الجد رأيتهم في غاية الخور، إنهم يبدون الصلابة والتلاحم لكنهم في الواقع متمزقون لأن قلوبهم ممزقة وأهواءهم مشتتة.

١٥- إنهم نموذج سبقته نماذج أخرى كبني القينقاع الذين نقضوا العهد فتفاهم الرسول ولم تنفعهم وعود المنافقين وذاقوا عاقبة سلوكهم ووراءهم العذاب الأليم في الآخرة.

١٦- وهذا هو ديدن الشيطان يحرض الإنسان على الكفر، ويغريه بالمتع الدنيوية وعندما يستجيب الإنسان ويغرق في الوحل الجاهلي يتبرأ الشيطان منه معلناً أنه يخاف الله رب العالمين.

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ الحَشْرِ

١٧- وهكذا ضعف الطالب والمطلوب، والغارو المغرور وسقطا في هاوية الهلاك جزاء لظلمهما وهي جزاء لكل ظالم.

١٨- بعد هذا الدرس الذي لخصه القرآن من موقفي بني النضير والمنافقين يتجه إلى المؤمنين موسعاً أفق نظرتهم، داعيا للإعداد المطلوب للمستقبل في إطار من تقوى الله أولاً وآخراً واستشعاراً للمسؤولية الكبرى أمام الله وهو المحيط الخبير بكل الأعمال.

١٩- مؤكداً على نبذ النماذج البشرية المنحطة المتكسة التي نسيت الحقيقة المطلقة التي تدركها الفطرة السليمة وهي وجود الخالق العظيم وحينئذ أنساها الله واقعها هي واغتربت عن ذاتها إلى ذات متكسة وفسقت وخرجت من وضعها الطبيعي.

٢٠- نعم إنهما طريقان لا يستويان فهذا يسير إلى الهاوية على غير هدى فينتهي به الأمر إلى النار، وهذا يسير بكل وعي وهدفية لتحقيق مسؤوليته الكبرى في الحياة فيصل إلى جنة الرضوان الإلهي والفوز بغاية ما يتمناه إنسان.

٢١- وهذا القرآن هو طريق الجنة بما فيه من تعاليم وتوجيهات ونظم تبني الذات الفردية والمجتمع الإنساني الفريد فيجب أن تنفتح له النفس وتتفاعل معه الروح، إنه لو أنزل على جبل شامخ لانهد خاشعاً من خشية الله.

فلماذا لا تستجيب بعض النفوس لهذه العظمة فتعتبر بهذه الأمثال وتنطلق إلى الحالة العقلانية المطلوبة.

٢٢،٢٣- وتختتم السورة بالتذكير بأسماء الله الحسنى، والفطرة الإنسانية لا تستريح حتى تصل إلى هذا الموجود المطلق الذي يخشع له الكون بكل ما فيه.

إنه الواحد بلا شريك، والعالم الذي يستوي لديه الغيب والحضور، والرحمن، الرحيم المالك للكون ملكية حقيقية، أصل القدس والنزاهة، ومصدر السلامة والأمان، المسيطر على كل ما عداه، القوي فلا قوة لغيره، النافذ الإرادة والمشيئة في كل الوجود، الذي لا تصلح الكبرياء والعظمة إلا له، فسبحانه أن يجعل له ندّ أو شريك.

٢٤- إنّه الخالق الموجد للكون، والمنشئ له بتقدير دقيق والمصور للأشياء لتمتاز عن غيرها.

إنها صفات الذات الإلهية الحسنى والفعل الإلهي الأكمل ولله جل جلاله كل ما يتصوره الإنسان من الأسماء الحسنى ولذا فإن الكون كله ينزهه ويقدسه ويخشع له فهو وحده العزيز الحكيم.

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

البسملة آية قرآنية، وهي جزء من السورة.

١- إن خط الإيمان وخط الشرك لا يلتقيان، ولا تقوم بينهما علاقة عاطفية لأن العاطفة تصوغها العقيدة فيجب أن يتحرز المؤمنون وقد خرجوا للجهاد عن أية مودة مع أعداء الله بعد أن كفروا بالحق وأخرجوا الرسول والمؤمنين من بلدهم لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله، وجاهدوا في سبيل الله ولتحقيق مرضاته.

وكان البعض قد جرته روابطه العاطفية لإخفاء مودته لبعض المشركين من الآباء أو الابناء أو الاقارب والاصدقاء مما كاد أن يعود بالخطر على المسلمين، فجاء هذا التحذير مذكراً بعلم الله بالخفاء والعلن على حد سواء ومحذراً من الضلال وهو أسوأ عاقبة.

٢- وتأكيداً للتحذير يذكرهم القرآن بنوايا أعداء الله الحقيقية، فهم يبقون أعداء وتتجلى عداوتهم بوضوح حينما يظفرون بالمؤمنين ويتناولونهم ـ مسيئين ـ بالأيدي والألسن مركزين على عودة المؤمنين لحضيض الكفر.

٣- ولئن كانت هناك وشائج قربى في معسكر الاعداء فيجب أن لا تبعث على المودة وما يلحقها من تبعات تضر بالمسيرة المؤمنة. إن وشيجة العقيدة هي فوق العلائق الأخرى فهي المنجية يوم القيامة ولا قيمة آنذاك لباقي العلائق بل ستقطع فلا ينبغي للانسان أن يتأثر بها اليوم فيضل عن سواء السبيل.

٤- وهنا يضرب المثل بشيخ التوحيد إبراهيم الذي يفتخر المؤمنون بالانتساب إليه. فها هو يقف ومعه أتباعه متبرئين من قومهم ومن عبادتهم لما سوى الله، كافرين بمنهجهم معلنين افتراق الصفين عقيدة وعاطفة إلى الأبد حتى يرجع الكافرون إلى منهج التوحيد لا غير.

أما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك ووعده له بذلك فإنما كان رجاء منه في أن يؤمن كما بيّن ذلك في آية سورة التوبة (١١٤) فلما تبيّن له خلاف ذلك تبرأ منه.

وتشير الآية إلى إنابة ابراهيم لله وتفويض الأمر إليه فهو لا يملك لأبيه نفعاً ولا ضراً ولا قدرة على الهداية، بل إن كل الأمور موكولة إليه، وإليه يتوب المؤمنون وينتهي مسير الخلق.

٥- ويستمر دعاء المؤمنين ليستمدوا من الله قدرتهم على الثبات والاستقامة ويطلبون منه أن لا يسلط أعداءه عليهم ويغفر لهم فهو العزيز الحكيم في كل ما يفعل.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

٦- تأكيد على التأسي بإبراهيم وقومه فهم مثل رائع للمؤمن الذي يرجو الله ولا يرجو غيره ويؤمن بالآخرة بكل أعماقه، أما الذي ينحرف فإنما يضر نفسه والله غني عنه وله ـ تعالى ـ وحده الحمد على هداية البشرية.

٧- وعد للمؤمنين الذين طلب منهم تغليب العلاقات العقدية على العاطفة، بأن الله قد يمنّ على الآخرين ـ الذين عادوهم ـ بقدرته وعفوه ورحمته فيهديهم إلى خط الإيمان وحينئذ تعود المودة وهي أقوى ما يكون، وهو ما تحقق بعد ذلك.

٨- جاءت هذه الآية لتوضح المراد من الأعداء الذين أمروا بقطع علاقات المودة معهم والبراءة منهم بشكل تام لتؤكد أن المراد هم أولئك الذين قاتلوا المسلمين عداء لدينهم وأخرجوهم من ديارهم أو تعاونوا على إخراجهم عناداً، أمّا من عداهم ممن لم يرتكب ذلك أو ممن عاهد المسلمين فلا مانع من البر إليهم والتعامل معهم بالعدل والله يحب المقسطين.

٩- تأكيد لما جاء في الآية السابقة من توضيح للموقف.

١٠- يتعرض القرآن هنا لحكم النساء اللواتي هاجرن إلى المدينة بعد صلح الحديبية وقد كانت قريش قد اشترطت على الرسول أن يرجع أي رجل ينضم للمسلمين إلى مكة، وحدث أن أسلمت بعض النساء وهاجرن إلى المدينة فكانت هناك شبهة اقتضاء المعاهدة الإعادة إلى مكة، وحينئذ سيفتن ويستغل ضعفهنّ، ومن هنا استفيد من عدم قاطعية نص المعاهدة فطلب القرآن أن يمتحنّ لئلا تكون الهجرة لداع آخر فإذا علم إيمانهنّ فلا إعادة ولا يحللن للكفار ولا يحلّون لهنّ فقد انقطعت علقة الزوجية. وحينئذ يعطى الزوج الكافر ما أنفق من المهر، ولا مانع من تزويجها لمؤمن بمهر. أما الزوج إذ أسلم وبقيت زوجته على الكفر فعليه إخلاء سبيلها وعدم الامساك بعصمتها وله أن يطالب بما أنفق بمقتضى التعاهد بين المسلمين والكفار.

١١- فإذا حدث وأن عادت زوجة إلى حظيرة الكفر ولم يردوا مهرها فلكم إن اصبتم بعض الغنائم أن تعطوا الزوج المسلم مثل ما أنفق. وبالتالي يأتي الأمر مكررا بالتقوى ليحقق قاعدة الالتزام الكامل بالحكم الشرعي.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

١٢- تركز الآية على بيعة النساء وتذكر شروطها وهي- التوحيد، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل الاولاد (بالوأد وإسقاط الجنين)، وعدم إلحاق الولد (الذي يسقط بين اليدين والرجلين) بالزوج إن كان من سفاح وهي عادة جاهلية، وعدم عصيان الرسول في أوامره بالمعروف، وحينئذ تتم البيعة ويستغفر لهنّ الرسول والله هو الغفور الرحيم.

١٣- ويشكل ختام السورة كل رسالتها حينما يدعو المؤمنين لعدم مدّ صلة الولاء لكل أولئك الذين استحقوا غضب الله، ويئسوا من الآخرة كما يئس الكافرون من أصحاب القبور وعودتهم إلى الحياة.

سورة الصف

تحدثنا قبل هذا عن البسملة.

١- التنزيه لله يعم الوجود كله لأنه يشهد له بوجوده ونظمه وهدفيته بالوحدانية وكل صفات الجمال والجلال ومنها العزة والحكمة.

٢،٣- إن الإنسان المؤمن بطبعه ينسجم قوله مع عمله، وظاهره مع باطنه، فالله يكره - بشدة - التلون والنفاق والادعاء الباطل فهي حالة مرَضية يجب على المؤمنين التخلص منها، ومن مصاديق ذلك أولئك الذين كانوا يدعون الجهاد ولا يجاهدون.

٤- إن الجهاد الحق هو ما سما هدفه فكان في سبيل الله إعلاء لكلمته، وقويت وسيلته بالتماسك والتلاحم بين المقاتلين دونما خلل أو خور أو ثغرة فهم البنيان المرصوص روحا وشكلا، منسجمين مع القائد وتحركاته لا يعصونه ولا يخذلونه.

٥- تذكير بعلاقة موسى مع قومه وكيف كانوا يؤذونه وهم يعلمون بعظمته ورسالته، ولكن الزيغان والانحراف والعناد يهوي بالإنسان إلى الحضيض وحينئذ يحرف الله قلبه عن الهدى، ويسلخه عن طبيعته الإنسانية فيدعه من الفاسقين .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى الْإِسْلَٰمِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

٦- وهذا الرسول عيسى يواصل درب موسى ويعلن رسالته لبني إسرائيل وهي تصدق بالتوراة وتواصل دربها مع بعض التغيير في مسيرة نبوية يبشر عيسى بأنه سيحمل لواءها -بعده- نبي اسمه أحمد، وهي بشارة أقر بعض علماء أهل الكتاب بها وربما دلت عليها نصوص في التوراة والانجيل المحرفين أيضاً. ولكن الرسول المبشر به ووجه كفيره باتهامه بالسحر المبين رغم ما حمل معه من البينات والمعاجز وأولها القرآن الكريم.

٧- لقد جاء الرسول بالإسلام بكل نقائه ووضوحه وانسجامه مع الفطرة تدعمه آيات القرآن البينات. ولكن هؤلاء لم تهدهم هذه الآيات ولا تلك البشائر في كتبهم بل اتهموه بالسحر فافتروا على الله الكذب بتكذيب رسالة الرسول وهذا هو عين الظلم.

٨- إنَّهم يعملون على طمس الحقيقة وإطفاء نور الله بكل عظمته وسطوعه بنفخة حقيرة من أفواههم الضعيفة، ولكن القدرة الإلهية المطلقة تعلن مشيئتها النافذة في إتمام هذا النور ونشره في الأرض كلها رغم أنف الكافرين.

٩- إنه تعالى أرسل هذا الرسول بالهدى ودين الحق الساطع في حقيقته وهداه، وضمن له أن يكون الدين الأكمل والظاهر والمتفوق على كل الأديان وخاتمها ليقود البشرية إلى تحقيق هدف خلقتها وإن كره المشركون وخططوا للوقوف بوجهه، ولا قيمة لذلك أمام إرادة الله.

١٠- بعد هذه الخلفية الإيمانية والوعد الكبير يأتي هذا التحريض على الجهاد بالإعلان الإجمالي عن تجارة مربحة تنجي المؤمنين من عذاب أليم.

١١- إنها الإيمان بالله ورسوله الذي يستتبعه الجهاد في سبيله وإعلاء كلمته في الأرض بالتضحية بالمال والنفس لتحقيق الخير العظيم لمن يدرك عظمة الهدف.

١٢- إن الجهاد باب للغفران التام ومسيرة إلى الجنة والنعيم الخالد الثابت وذلك هو الفوز والفلاح.

١٣- كما أنه سبيل النصر الإلهي الذي يعشقه المؤمنون ، والفتح القريب والبشارة المضمونة لأمة مستضعفة يراد لها أن تقود الأمم وتغير التاريخ.

١٤- إن صدق النية ومواصلة العمل لنصرة الله هي شرط النصر وهو أمر طلبه عيسى من أصحابه المقربين الحواريين فأعلنوا له ذلك في حين اختلف بنو إسرائيل بين مؤمن وكافر وكان الصراع وانتصر المؤمنون بعون الله وتأييده.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨

سورة الجمعة

تحدثنا مراراً عن البسملة.

١- كل ما في الكون يلهج بتنزيه الله مالك الكون، والمنزه عن كل نقص، والقوي الكامل، والحكيم في كل ما يفعل فهو بالتالي أهل للطاعة وديان الدين.

٢- وقد بعث في العرب ـ وقد سمّوا أميين لقلة من يقرأ ويكتب فيهم آنذاك ـ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويربيّهم ويعلمهم الكتاب الكريم بكل أبعاده البناءة للبشرية، فالتزكية مقدمة على التعليم لأنها هي التي تضمن الغاية من التعليم، والعلم بلا روح ومعنوية قد يقود إلى الدمار، ويعطيهم ما ينيرون به طريقهم، ويقيمون به حياتهم العقلانية الحكيمة، وذلك بعد أن كانوا ـ ضمن وضع بشري عام ـ في ضلال وضياع وفوضى عارمة.

٣، ٤- لقد كان العرب الأمة التي اختارها الله لتحمل الرسالة الإسلامية وستلتحق بهم أمم العالم الأخرى بإذن الله وعزته وحكمته وفضله الذي يشمل الأفراد والأمم قدر صلاحيتها والله ذو الفضل العظيم.

٥- ولقد كلّف بنو إسرائيل من قبل بحمل الرسالة والأمانة ولكنهم نكلوا ولم يقوموا بمقتضيات ذلك وتخلوا عنها فكانوا كالحمار الذي يحمل كتب العلم ولا يعي ما فيها ففرطوا بالتوراة ولم يعملوا بهداها، وكذبوا بآياتها وظلموا أنفسهم فاستحقوا الضلال وسلبت الأمانة منهم وأعطيت لغيرهم.

٦، ٧- أما زعم اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنهم أولياء الله دون سواهم من الناس فهو ادعاء باطل، ولو كان الأمر كذلك فليتمنوا الموت علناً وليضحوا في سبيله لان في الموت لقاء الله الذي يزعمون أنهم أولياؤه ولكنهم لن يقوموا بذلك فهم أجبن الناس وأحرصهم على الحياة لأنهم يعلمون أنهم أجرموا وخالفوا كتاب الله وظلموا مما يؤهلهم لعذاب الله والله عليم بالظالمين.

٨- ولكنهم سيلاقون الموت لا محالة ولن ينفعهم الفرار فسيرجعون إلى الله العليم بما فعلوه في السر والعلن من ظلم وفساد فيحاسبهم عليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)

٩- بعد الآيات التي تحدثت عن نكول بني إسرائيل عن تحمل الأمانة الإلهية وعدم قيامهم بمقتضياتها فحرموا من ذلك الشرف، وحملت الأمة الإسلامية الأمانة فعليها الارتفاع إلى مستواها تأتي هذه الآيات لتؤكد أحد هذه المقتضيات وهو الالتزام بصلاة يوم الجمعة، والإسراع إليها فهي تصلهم بالله وتذكر بعظمته وواجباتهم تجاهه كما أنّها خير مظهر لوحدتهم واجتماعهم وهيبتهم، تاركين ما يشغلهم عنها كالبيع فإن ذلك خير لهم وأزكى.

١٠- فإذا انتهت الصلاة فلينطلقوا إلى طلب رزق الله وفضله مستشعرين ذلك في إطار من تذكر دائم وكثير للنعم الإلهية العظيمة فهو سبيل الفلاح اما الغفلة فهي أكبر انحراف يبتلى به الإنسان.

١١- ومن موارد الغفلة ماحدث لبعض المسلمين الذين حضروا صلاة الجمعة فدخلت المدينة قافلة فيها أموال تجارة وهي تضرب بالدفوف والطبول فانفض هؤلاء إليها وتركوا النبي قائماً يخطب. وهنا يأتي التنبيه لهم على أن ما عند الله من العطاء المادي والمعنوي خير من اللهو ومن التجارة، والإنسان المسلم يجب أن ينظر دائماً إلى الله خير الرازقين.

سورة المنافقون

تحدثنا عن البسملة.

١- لقد شكّل المنافقون في صدر الرسالة عائقاً وخطراً كبيراً أمام تقدم الدعوة الإسلامية، فكان من اللازم الاهتمام بأمرهم وكشفهم وعرض معالمهم وخططهم لئلا يتركوا أثرهم السلبي فهم يعلنون الإسلام ويشهدون بالرسالة والله إذ يؤكد هنا حقيقة الرسالة يؤكد كذبهم في مدّعاهم لئلا يغترّ المسلمون بهم.

٢- إنهم يقسمون على مدعاهم لكي يتترسوا بذلك ويستروا خططهم التي تصدّ عن سبيل الله وهو عمل خبيث سيئ يجب أن يرصد.

٣- وإنّهم متلونون لا يصدقون في واقعهم مع ادعائهم الإيمان. وربما ذاق بعضهم حلاوة الإيمان ثم انتكس إلى الكفر فطبع الله على قلبه ليعود إلى الجاهلية لا يفقه الحقيقة ولا يفهمها.

٤- إنهم ذوو مظهر حسن خلاب، ومنطق جذاب، لكنهم في الواقع خُشب صماء لا تحمل وعياً أو عاطفة، مصفوفة إلى بعضها يسند بعضها البعض دونما رابط عقائدي أو عاطفي إنهم يخافون من كل نداء وصيحة لعلمهم بواقعهم، نعم إنهم العدو المتخفي فليحذرهم المسلمون وليدرك هؤلاء أنهم مبغوضون لله ومشمولون لغضبه لشدة ما يفعلونه من إفك وبهتان وتزوير.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سورة التغابن

٥- وقد تتكشف للمسلمين بعض أساليب المنافقين، فيرفق بهم المسلمون ويطلبون منهم أن يتوبوا على يد رسول الله مستغفراً الله لهم ولكن استكبارهم يدعوهم لرفض هذا الطلب معرضين عن سبيل الحق.

٦- لقد طبع على قلوبهم فعُجنت بالعناد وفقدت أهلية الهدى وفسقت وخرجت عن وضعها الإنساني الطبيعي فلم يعد يختلف لديها استغفار الرسول لها من عدمه.

٧- وهذه خطة خبيثة للمنافقين تطلب من أغنيائهم عدم الإنفاق على فقراء المسلمين دفعاً لهم لترك الإسلام وعدم الالتفاف حول رسول الله والجهاد تحت لوائه، ولكنهم يجهلون حقيقة أن خزائن الأرض هي ملك لله وهو لو شاء لرزقهم وأطعمهم منها.

٨- مقولة أخرى للمنافقين جاءت في غزوة بني المصطلق على لسان عبدالله بن أبيّ بن سلول ـ وهو أبرزهم ـ مهدداً على إثر نزاع بين مكي ومدني بأنهم لو رجعوا إلى المدينة فسوف يعمل الأعز ـ ويقصد نفسه أو أهل المدينة ـ على إخراج الأذل ـ ويقصد رسول الله أو أهل مكة ـ وهنا جاء الرد القرآني كسابقه معلناً ان العزة الحقيقية هي لله ولرسوله والمؤمنين لا غير، ولكن المنافقين جاهلون بهذه الحقيقة.

٩- ينتقل القرآن من كشف المنافقين وصفاتهم إلى ذكر حالة قد تورث النفاق محذراً المؤمنين منها وهي الغفلة عن ذكر الله والالتهاء بمتع الدنيا كالأموال والأولاد إذ تعد نكسة إنسانية عن مسيرة التعالي.

١٠،١١- وإن من نتيجة ذكر الله الدائم أن تسمح نفس المؤمن بالإنفاق بعد أن تتذكر أن المال رزق من الله وأن مالكيته اعتبارية لا غير، أما الغفلة فهي سر الخسران، وسوف يدرك الحقيقة حينما يشرف على الموت ليدعو ربّه أن يؤخر أجله ليعمل عمل الواعين فيتصدق ويكون من الصالحين.

ولكنه دعاء لا يستجاب فإن الله لن يؤخر أجلاً قد حدده فيجب أن يواجه الإنسان عاقبة الغفلة وهي معلومة تماماً عند الخبير العليم.

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

سورة التغابن

تقدم الحديث عن البسملة.

١- إن تنزيه الكون لله ودلالته عليه وعلى صفاته الحسنى إجمالاً حقيقة وجدانية يؤكد عليها القرآن مراراً فله الملك الحقيقي وله الحمد الخالص وله القدرة المطلقة.

٢- إنه خالق البشرية والرحيم بها والمشرع لها بطبيعة الحال ما يصلحها ويحقق لها هدف خلقتها، وتبقى حرة في اختيار طريق الكفر أو طريق الإيمان، وحينئذ فعين الرقابة الإلهية خبيرة بما يعمل الفريقان.

٣- من حقائق التصور الإسلامي الكبرى أن الكون خلق بالحق، وله هدف ثابت، كما أن من هذه الحقائق أن كل شيء وضع في محله وبأسمى حالة ومن ذلك الإنسان إذ هو يمتلك أحسن صورة ممكنة وكل الطاقات وأنماط الهداية التي تحقق إمكان السير إلى الهدف المنشود . ويعود الكون كله إلى الله بعد ذلك.

٤- وكل تلك الهداية والتشريعات إنما تقوم على أساس من علم إلهي مطلق بكل ما في الكون من حركات وسكنات وما يظهر أو يخفى حتى ما يدور في الصدور من خلجات.

٥- إن على هؤلاء الذين يقفون بوجه الدعوة أن يعتبروا بمصير الأمم الكافرة السابقة وقد وصلت أنباؤها إليهم إذ ذاقوا نتائج أعمالهم وضاعوا وضلّوا واستحقّوا العذاب الاليم.

٦- ذلك أن الرسل كانت تأتيهم تباعاً بالآيات الواضحات فكان استكبارهم يمنعهم عن التسليم مدعين أنه لا يمكن أن يحمل هدى الله بشر مثلهم. وهكذا أصرّوا وأعرضوا عن الهدى فاستحقّوا العذاب والله غني عن عباداتهم وله الحمد كله.

٧- إن الإيمان بقيام الكون بالحق والهدفية فيه، والهداية الالهية والعلم المطلق والرقابة التامة تؤدي بالطبع للإيمان بالآخرة والحساب الدقيق وليس ذلك على الله بأمر صعب بل هو أمر يسير.

٨- فلتؤمن البشرية بتشريعات الله، ولتستمد من أنوارها القرآنية ما يوضح لها سبيل الكمال والله تعالى بما تعمل في مسيرتها خبير تماماً.

٩- وسيجمعها يوم القيامة وهو يوم يشعر فيه الناس بالغبن ونقص الحظ، فالمؤمن يتحسر على درجات أسمى كان يمكنه الوصول إليها لو عمل أكثر واستغل كل الفرص، والكافر يتحسر على ما فرط فيه من فرص النجاة، وعلى أي فالفائزون حقاً هم أولئك الذين آمنوا حق الإيمان وعملوا الصالحات فمحا الله عنهم تبعات ما قاموا به أحياناً من سيئات وأدخلهم جنات الخلود.

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ۝ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ۝ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ۝ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ۝ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ۝ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ۝ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ۝ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ۝ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ۝

سورة الطلاق

١٠- في حين خسر الكافرون المكذّبون بآيات الله فكانت عاقبتهم الخلود في النار وما أسوأه من مصير.

١١- لا يؤثر أي شيء في الكون أثراً إلا بإذن الله التكويني فهو وحده مفيض الوجود ومن الأشياء المصائب فكلها تقع تحت قدرته وبإذنه. وقد لا يرضى تشريعاً أن تقع مصيبة ما فيأمر بمقاومتها ولكن عالم التكوين غير عالم التشريع. فليمهد الإنسان عبر إيمانه بالله للهداية القلبية وهو يعيش تحت علم الله.

١٢- وليبن على إطاعة الله وإطاعة رسوله في كل شيء فهي سبيل النجاة وإلا فالانحطاط والضياع وما على الرسول إلا أن يبين بوضوح سبيل الفوز.

١٣- فالله هو المتفرد بالوحدانية في الذات وفي العبادة والطاعة وعليه فليتوكل المؤمنون وليسلّموا أمرهم إليه وليحسنوا الظن به دائماً.

١٤- ويجب أن يتوجه الإنسان بكل مكونات شخصيته إلى الله؛ بعقيدته وبعاطفته وبسلوكه، وقد تقف بعض المعوقات العاطفية كحب الازواج والأولاد والأموال أمامه، فليحذر ذلك تماماً. فإذا ظهرت بعض السلوكات المعادية منهم فللإنسان أن يعفو ويصفح ويغفر ولكنه يجب أن يصلح النقص ولا يتأثر ولا يفتتن مطلقاً.

١٥- تأكيد لمضمون الآية السابقة.

١٦- هكذا إذن يجب أن يبذل الإنسان وسعه للقيام بحق التقوى الإلهية بالسمع والطاعة لله والإنفاق في سبيله فذلك هو السبيل الأقوم لتقويم النفس ذاتها وللخلاص من أمراضها والبخل منها فإذا تمكن الإنسان من التعالي على النقائص وتوقي البخل والامساك فقد أفلح وسعد.

١٧- ويتكرر هذا الأسلوب القرآني الجميل هنا فالمال مال الله، والإنفاق هو على عباد الله لتخليص المجتمع من أمراضه ولكن التعبير يأتي بأن من يقرض الله سيحصل على الرد المضاعف بالإضافة للغفران والشكر الإلهي الرائع في إطار من حلم الله ولطفه بالبشرية.

١٨- وهكذا تسير الإنسانية بهدي من الله العليم بما ظهر وما خفي، العزيز الحكيم إلى غايتها المنشودة إذا قامت بمقتضيات التقوى الإلهية.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝

سورة الطلاق

تقدم منا الحديث عن البسملة

١- يقتضي صفته الواقعية رضي الإسلام بفكرة الطلاق رغم إيمانه بأن العائلة تشكل اللبنة الأساسية للمجتمع الإنساني السليم، ورغم إعطائه العئلة صفة تقديسية، والزواج حالة تطهيرية وصيانية. ولكن الطلاق أحياناً يعود ضرورة، ومع ذلك يعمل على أن لا يقع فينبه إلى الصبر على الزوجة المكروهة، كما يطرح مسألة الصلح فإن لم ينفع ذلك فهو يضع شروطاً لصحة الطلاق فإذا تم فهناك العدة وهي ثلاثة قروء (القرء فترة الطهر بين الحيضتين ظاهراً) للتي تحيض وتلد، ولا عدة للآيسة لكبرها والصغيرة، وفترة الحمل عدة للحوامل، والزوجة غير المدخول بها لا عدة لها، ويجب إحصاء العدة بدقة وعدم تضييع حقوق المرأة، ومنها عدم اخراجهن من البيوت التي كنَّ يسكنَّها قبل الطلاق ومنها كسوتهن ورزقهن. كما أن عليهنَّ أن لا يخرجن. كل ذلك مالم تصدر منهن فاحشة واضحة كالزنا والأذى للأهل، وفي هذا الحكم ضمان لسكن الزوجة وترغيب في الرجوع ويأتي التأكيد على لزوم الالتزام بأحكام الله وحدوده وعدم تجاوزها فذلك ظلم للنفس وايقاع لها في الهلكة، وحرمانها من الكمال ،ولعل الله يحدث شيئاً بلطفه وكرمه فتلين القلوب ويحدث الوئام.

٢،٣- فإذا تمت مدة العدة أي قربت من النهاية فالزوج مخيَّر بين الرجوع في حالة عرفية مقبولة، أو تركها تنقضي تماماً بمعروف أيضاً دونما مضارة أو تحايل. ويجب أن يشهد على الطلاق عادلان مستقيما السلوك. كما يجب أن تتم الشهادة لله تركيداً لها واتعاظاً بوعظه واتقاءً لغضبه وتوكلا عليه والله يتكفل للمتقين المتوكلين عليه ما يخرجهم به من حالات العسر، ويرزقهم به من رزق غير متوقع لأن الاسباب كلها بيده، وله القدرة التامة على بلوغ أمره وفعل ما يشاء، وقد قدّر كل شيء فأحسن تقديره.

٤، ٥- وعدة النساء اليائسات من المحيض مهما كانت العلة في ذلك والشكوك في أسباب اليأس، وكذلك عدة النساء اللائي لم يحضن أصلاً، وهنَّ جميعاً في سن من تحيض ، هي ثلاثة أشهر. أما الحوامل فعدتهنّ هي وضعهنّ للحمل. وجاء التعقيب بالتأكيد مجدداً ودائماً على التقوى فهي ضمان السير الصحيح وهو ضمان اللطف الإلهي بتيسير الأمور وتكفير السيئات وتعظيم الأجور.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا
عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ
وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا
قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

٦- يجب أن يسكن الرجل زوجته المطلّقة بمقدار وسعه وتمكنه بلا أي قصد للإضرار والتضييق، كما يجب الإنفاق عليها وخصوصاً على المطلقة الحامل مدة الحمل وإن طالت. ويجب أن يقدم الوالد للأم أجرة الرضاعة إن قبلت بالرضاعة على أن يتم التشاور بين الوالدين بالمعروف المعتاد دونما إضرار بالأب أو الأم أو الطفل أما إذا عسر الاتفاق فستسترضع له امرأة أخرى.

٧- وتحدد الإنفاق قدرة المنفق وتمكنه، وضيقها فإن الله لا يكلّف نفساً إلا بما مكنها منه واعطاها، والله بلطفه يعد باليسر بعد العسر.

٩،٨- كل ما مرّ هو من حدود الله وأحكامه فيجب الالتزام بها وعدم العتو والعناد وهو ما ابتليت به بعض الأمم فحوسبت حساباً شديداً وعذاباً منكراً ولاقت آثار عملها وابتليت بالخسران. ويلاحظ هنا التحذير الشديد من مخالفة أحكام الله في الطلاق احتراماً للعلاقة بين الرجل والمرأة وكل العلاقات الاجتماعية.

١١،١٠- تأكيد جديد على الالتزام بحدود الله وعدم التعرض لعذابه الشديد الذي أصاب الأمم العاتية وتذكير بالتقوى وضرورة التعقل والاحتفاء، والاهتمام بذكر الله النازل على يد الرسول آيات واضحات لينقذ المؤمنين العاملين بالصالحات من حياة الظلمات إلى حياة النور وبالتالي المصير إلى اسمى ما يمكن أن يتمناه إنسان وهو الخلود في الجنة والتمتع برزق الله الحسن.

١٢- إنها نعم الله المتجلّية في خلقه سبع سماوات وسبع أرضين مثلهنّ أو من جنسهنّ، نفذ في الجميع أمر الله فلا يعجزه شيء ولا يغيب عنه شيء فهو محيط بهذا الوجود وكل هذا يدفع الإنسان إلى التسليم والطاعة لأوامر الله.

سورة التحريم (٦٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١) قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم (٢) وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (٣) إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤) عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا (٥) يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٦) يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون (٧)

سورة التحريم

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١- في هذه السورة دليل واضح على التعددية بين منزل القرآن والمنزل عليه مما يبطل نظرية الوحي النفسي التي روج لها المستشرقون فها هو الله تعالى يخاطب نبيه معاتباً إياه على تحريم شيء على نفسه عبر القسم وقد أحلّه الله له، وذلك طلباً لمرضاة أزواجه، وقد اختلف في ذلك الشيء، أهو الخلو إلى جاريته، أم هو شرب العسل والله أعلم.

٢- بيّن الله تعالى للمؤمنين كيفية التحلل من تبعات ما أقسموا عليه من خلال الإتيان بالكفارة، والله يرعى المؤمنين ويسدد خطاهم وهو العليم بكل شيء الحكيم في كل ما يفعل.

٣- حياة الرسول شفافة واضحة أمام الأمة ومن هنا يعرض بعض ما يجري وبهذا الشكل لحكمة خاصة. فقد أخبر النبي زوجته حفصة بخبر وأوصاها بكتمانه، ولكنها نبأت به غيرها وعرّفه الله ذلك فراجعها وأعلمها ببعض الخبر وعندما سألته عن مصدر علمه أخبرها أنه نبأه به الله العليم الخبير بكل شيء، وهكذا كانت عين الله ترعى نبيه وحياته الزوجية.

٤- ويتوجّه الخطاب إلى زوجتي الرسول حفصة وعائشة طالباً منهما التوبة لأن قلبيهما قد مالا عن الخط المستقيم فتجب التوبة وان لم تقوما بذلك وتعاونتا على إيذائه فلتعلما أن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة من أنصاره وأعوانه.

٥- ثم يتوجّه القرآن إلى أزواج النبيّ (وقد شاع آنذاك أنه طلقهنّ واعتزل) مؤكداً على أنه إن طلقهنّ فعسى أن يبدله الله أزواجاً خيراً منهن متصفات بالصفات النموذجية للصالحات فهنّ- مسلمات مطيعات لله، مؤمنات ايماناً يملأ الوجود، قانتات داعيات، تائبات عابدات سائحات متأملات في هذا الكون صائمات لله، وقد يكنّ ثيبات (في قبال الأبكار) أو أبكاراً.

٦- ثم يتوجه القرآن الى عموم المؤمنين طالباً منهم الاحتياط لأنفسهم وأهليهم من نار مسعرة وقودها الناس والحجارة ويشرف عليها ملائكة لهم غلظة وشدة ينفذون ما يؤمرون بدقة متناهية وكل ذلك يزيد القلوب رهبة وخوفاً.

٧- ويُخاطب الكافرون فيها زجراً: لا مجال للاعتذار فما جزاؤكم هذا إلا مواجهة لحقيقة عملكم بصورتها الجهنمية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

٨- يواصل القرآن هنا دعوته المؤمنين إلى التوبة النصوح الخالصة التي يتبعها العمل على إزالة آثار الذنوب إذ بها تكفر السيئات ويضمن المصير إلى الجنات في الآخرة حيث لا يصيب الخزي والإنكسار ركب النبي والمؤمنين معه بل هم في مسيرة نورانية حافلة يسعى نورهم أمامهم وعلى يمينهم إلى حيث الخلود وهم يستزيدون من النور فيطلبون إتمامه ثم الغفران من الله القادر على كل شيء.

٩- ثم أن مسألة البناء الاجتماعي الداخلي يجب أن يصحبها جهاد لأعداء الأمة من الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فهم منبع الفتنة والشر ومأواهم جهنم وما أتعسه من مصير.

١٠- يتغير مستوى التقييم سلباً أو ايجاباً كلما اختلفت الظروف ، فهاتان زوجتان لنبيين صالحين في القمة لكنهما رغم الظروف الصالحة اختارتا الخيانة فاصبحتا نموذجين للكفر والانحراف. ولم ينفعهما الارتباط الزوجي في الخلاص من عذاب النار فدخلتاها مع الآخرين.

١١- وهذه امرأة فرعون عاشت في قلب الترف والسرف والتجبُّر فرفضت كل الإغراءات وتعلقت نفسها ببيت عند الله وفي ظل رضوانه في الجنة واعتبرت تلك الحياة المرفهة مع فرعون سجناً ثقيلاً طالبة من الله النجاة من الظالمين وأعمالهم فعادت مثلاً ونموذجاً لكل الذين آمنوا من الرجال والنساء عبر التاريخ وهكذا! لا تشكل الأنوثة حاجزاً للارتقاء للمدارج العليا من الكمال الانساني.

١٢- وهذه مريم مثال الطهارة لم تغرها حالة المجتمع المنحرف بل عملت على تزكية نفسها فمنحها الله بنفخة روحية منه مقام الأمومة لعيسى نبي الله، وقد كانت مصدقة من أعماقها بكلمات الله وكتبه مطيعة خاضعة خاشعة لله.

وواضح تناسب ماجاء في الآيات الثلاث الأخيرة مع قضية التحريم، فهي أمثلة تضرب لأزواج النبي ليسرن في طريق البناء الذاتي دون الاغترار بالصلة الزوجية.

سورة الملك ٦٧ — ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

سورة الملك

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

١- الله جلّ وعلا هو البركة المطلقة والمالك الحقيقي والقادر المطلق كل هذه الصفات عندما تنغرس في الوجدان الإنساني تجعله يسبح بكل ووده إلى الله لا غير.

٢- ومن الظواهر المهمة مسألة الموت والحياة وقد خلقها الله امتحاناً للإنسان، وكيفية وفاته لإنسانيته وبالتالي مدى انسجامه مع فطرته التي تدعوه للايمان بالخالق المالك القادر المبارك العزيز الغفور.

٣،٤- إن الفطرة حينما تسرح في هذا الكون الرحيب، وهذه السماوات التي تمثل طبقات لها أبعادها، وهذا النظام الدقيق، والحركة المنسجمة، والتناسق العجيب دونما تخلف أو انفصال أو صدع، تقف منبهرة عاجزة ولا يزيدها التأمل والنظر المتكرر الا انبهاراً وخشوعاً وتصديقاً بالخالق القادر المتبارك برحمانيته.

٥، ٦- وهذه النجوم في السماء الدنيا بمواقعها العظيمة وجمالها الأخاذ وكأنها مصابيح الكون تأسر الألباب والنفوس فتخشع أمام خالقها العظيم في حين تقوم هذه النجوم بوظيفة رمي الشياطين ورجمها ومنعها من العبث بنظم الكون وتحقيق مآربها الخبيثة ولها بعدُ مصيرها الرهيب كمصير الكافرين جميعهم، إنه عذاب جهنم وما أتعسه من مصير.

٧،٨- وزيادة في الرهبة يأتي وصف جهنم هنا فلها شهيق فوار، وهي تهتز من الحقد والغيظ على الكافرين ويقف عليها خزنة غلاظ يسألون الأفواج المذعورة التي تدفع إلى الجحيم عما حدا بهم إلى هذه الحالة ألم يأتهم من قبل نذير يحذرهم مما سيؤولون إليه ويواجهونه؟

٩،١٠،١١- فيجيبون بكل ذلة وضعف: بلى قد جاءنا نذير ولكنا واجهناه بالتكذيب وأنكرنا أن يكون الله قد أنزل شيئاً واتهمنا الرسل بالضلال الكبير وبالتالي لم نتبع نداء السمع والبصر والفطرة وإلا لما بلغنا هذه الحالة. إنه اعتراف بالذنب واستسلام للمصير الرهيب فسحقا لهم.

١٢- أما أولئك الذين انسجموا مع إنسانيتهم وآمنوا بربهم وخشعوا له بالغيب والسر فإن لهم الغفران والأجر الكبير.

وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴿١٣﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿١٤﴾ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴿١٥﴾ ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴿١٦﴾ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴿١٧﴾ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴿١٨﴾ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴿١٩﴾ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ﴿٢٠﴾ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور ﴿٢١﴾ أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم ﴿٢٢﴾ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴿٢٣﴾ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿٢٤﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿٢٥﴾ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴿٢٦﴾

١٤،١٣- إنه عالم الغيب والشهادة ، فلا يختلف الأمر لديه أكان القول في السر أم العلن بل يعلم حق ما يتردد في الصدور من خلجات. ذلك لأنه الخالق الذي يمدّ الخليقة بالوجود دائماً فهو العليم اللطيف الخبير.

١٥- تذكير بنعمة الله في تذليل الأرض وتمهيدها لتوفر للإنسان حياة هانئة رغيدة ينتقل بين ربوعها وسهولها وجبالها ويأكل من نباتها وهو رزق الله ويشكره على نعمه ثم ليعود الجميع إلى الله في هدفية تدركها العقول. ويوماً بعد يوم يكشف العلم عن أبعاد ضخمة وقوانين لامتناهية كلها توفر الحياة الهانئة فسبحان الله.

١٧،١٦- فهل يأمن هؤلاء المكذبون من أن يخسف الله الأرض بهم فهي ترتج تحتهم؟ أم هل يأمن من أن ترسل عليهم ريح تحمل الحصباء فتضربهم بعذابها؟ إن هذا التساؤل يشكل نذيراً للإنسان كي لا تغره الحالات العادية فينسى أبعادها ودلالاتها وبالتالي يكفر بالله.

١٨- وقد سبقت هؤلاء المكذبين أمم مكذبة فلماذا لا يعتبرون بآثار التكذيب والإنكار.

١٩- ألا يلاحظ هؤلاء تلك الطيور التي تطير صافة أجنحتها وقد تقبضها بكل روعة ورشاقة وهل من يمسكها غير الله ذي الرحمة العامة من خلال قوانين الحركة المقدرة أروع تقدير، وهو بكل شيء بصير.

٢٠- وهل لهم أن يجدوا ناصراً لهم غير الرحمن فلماذا إذن يأخذهم الغرور؟

٢١- وهل هناك من يتكفل برزقهم إن منعهم الله رزقه؟ إنهم أذن في طغيان وهروب من الحقيقة.

٢٢- ترى هل يستوي في المدى والسير من يمشي ووجهه مشدود بالأرض لايبصر أمامه ولا يتطلع إلى مسيره، مع من يمشي مستوياً يلاحظ سيره على بصيرة ويخطط لخطاه بتوازن وانسجام على خط مستقيم.

٢٣- فلماذا يقصر هؤلاء في شكر من منحهم كل مصادر المعرفة الحسية والعقلية كالسمع والابصار والافئدة؟

٢٤- إنه هو أعطاكم قدرة التكاثر والانتشار وإليه تعودون.

٢٥، ٢٦- ويتساءلون متى يكون زمان العود والحساب وجوابهم إنّ الله هو العليم بذلك وإنّ الرسول نذير واضح لا غير.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

٢٧- إنهم حين يرون العذاب ويواجهونه فجأة ستسوء وجوههم ويقال لهم هذا الذي كنتم به تكذبون وتدعون عدمه.

٢٨- على هؤلاء المتربصين أن يموت الرسول ومن معه أن يفكروا بعذاب الله ومن يخلّصهم منه قبل كل شيء، نتيجة عنادهم وإلا فان الرسول ومن معه هم بيد الله يهلكهم أو يرحمهم بالبقاء.

٢٩- إن الرسول ومن معه قد آمنوا بالخالق الرحمان وفوضوا أمرهم إلى مولاهم وتوكلوا عليه وهو ذو العزة والجلال فاطمأنوا إلى العاقبة وسيعلم هؤلاء من هو الغارق في الضلال، والمنكر للحقيقة.

٣٠- ويأتي في آخر السورة هذا التساؤل الصارخ: إن غارت المياه وجذبتها الأرض فمن الذي يوفر لكم الماء الصافي الذي يروي عطشكم؟!

سورة القلم

تحدثنا من ذي قبل عن البسملة.

١- ن هي أحد الحروف التي يتشكل منها هذا الكتاب المعجز، ثم يأتي القسم بالقلم والكتابة التي تنقل المعرفة بين بني البشر وكلها نعم إلهية كبرى أراد الله بتعليمها للانسان أن يسير سيرته الحضارية ليحقق هدف خلقته ومسؤولية خلافته عبر إعمال قدراته الفكرية وبهداية من الله.

٣،٢- بهذا القسم الذي يرتبط أكبر الارتباط بقضية الوعي والفكر وتكريم القلم وأهله وما يكتبون يؤكد القرآن سفاهة شبهة الجنون في الرسول فهو يعيش بنعمة الله ويحظى بعطاء الله الدائم المستمر.

٤- ويعلن أن كل معاني النبل والخلق الفطري الكريم تتجلى فيه كأعظم ما يكون وفي هذا شهادة وإشادة وتكريم للنبي(ص) بأسمى اشكاله.

٧،٦،٥- وسينكشف بوضوح من هو الضال المجنون المنحرف عن الفطرة. والله أعلم بسيرة الضالين عن سبيله والمهتدين إلى الصراط المستقيم.

١٣،١٢،١١،١٠،٩،٨- فليثبت الرسول على منهجه ويرفض عروض المكذبين الذين يساومونه على دينه فيتنازل ويتنازلون، ويلين ويلينون، إن خطه الإسلامي يرفض هذا الذي يكثر من القسم تهاونا به وهو نفسه من أهل المهانة، والذي يكثر من تعيير الآخرين وإهانتهم، كما يكثر من المشي بالنميمة بين الناس، ويعمل على سد سبل الخير، ونشر حالة العدوان الآثم على الحقوق والذي يحمل وصف (العتل) وهو مجمع الرذائل والزنيم الذي ضاع نسبه.

١٥،١٤- إنه يجزي نعمة المال والولد عليه بدلاً من شكرها بتكذيب آيات الله ووصفها بأساطير السابقين.

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)

١٦- إنه سيدمغ بوصمة العار على أنفه وهو كأنف الخنزير.

١٨،١٧- إنهم سيمتحنون كما امتحن أصحاب البستان الكبيرة الغناء، وقد أقسموا ليلاً على جني ثمارها في الصباح ومنع المساكين حقهم بها وكان مقرراً من قبل.

٢٠،١٩- فأرسل الله عليها وهم نائمون بلاء يطوف بها ويدعها خواء كالشجر مقطوع الثمر.

٢٤،٢٣،٢٢،٢١- وفي الصباح تحركوا يهمس بعضهم في أذن بعض أن لا يسمح أحد بدخول الفقراء.

٢٥- وظنّوا أنـهم على تنفيذ ذلك الحرمان قادرون.

٢٧،٢٦- وعندما يواجهون ما حدث في جنتـهم يظنون ابتداءً أنـهم ظلّوا الطريق ثم يكتشفون الحقيقة المرّة: حقيقة الحرمان.

٢٩،٢٨- وهنا ينبههم أعقلهم الذي كان قد خالفهم من قبل، إلى وصيته لهم بتقوى الله ورعاية حقوقه فيعترفون بذلك ويندمون على ظلمهم.

٣٠- وهكذا هي طبيعة الخاسرين إذ يلقي بعضهم اللوم على البعض الآخر.

٣٢،٣١- ثم يعودون معترفين بتجاوزهم للحدود وطغيانهم ويعلنون العودة والدعاء لله أن يبدلهم خيراً من جنتهم فهم إلى نعم الله مشتاقون راغبون.

٣٣- هذا هو مصير كفر النعم، فإذا أصرّ الإنسان عليه فأمامه عذاب الآخرة وهو أكبر.

٣٤- اما المتقون فلهم حياة الطمأنينة والخلق القويم ولهم في الآخرة جنات النعيم.

٣٧،٣٦،٣٥- لكل مسير عاقبته المناسبة ولا يستوي مسير المسلمين والمجرمين وكيف يتوقع هؤلاء التسوية بين المسيرين والمصيرين؟ إنه حكم وتوقع باطل وليس له مايؤيده من مستند أو كتاب يدرسونه.

٣٨- يستطيع هؤلاء أن يختاروا منطقا أعوج كهذا.

٣٩- وهل لهم مواثيق أخذوها على الله، إلى يوم القيامة أن يعطيهم ما يريدون، ويصحح ما يختارون؟

٤١،٤٠- وهل هناك من متعهد بذلك، وهل لهم شركاء متعهدون؟ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

٤٢- إن عليهم أن يواجهوا هذه الأسئلة ويعدّوا أجوبتها في يوم رهيب يكنى عنه بيوم كشف الساق، وهو يوم القيامة بأهواله حيث يدعون إلى السجود لعظمة الله فلا يستطيعون ذلك لأنهم لم يسجدوا في الدنيا.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

٤٣- إنهم في منتهى الانكسار والذل: أبصار منكسرة، وصَغار مرهق ذلك أنهم كانوا يدعون إلى الإيمان والسجود في الدنيا وهم سالمون فكانوا يستكبرون ويمتنعون.

٤٤- تهديد إلهي رهيب للكافرين حيث ينصب الغضب العظيم على هؤلاء الضعفاء المستكبرين، إنهم سيجرّون ويستدرجون إلى المصير الأسود من حيث لا يشعرون ولا يعلمون.

٤٥- فيمهلون قليلاً ويعطون نعمة فيكفرون بها فيصب عليهم العذاب إن كيد الله وتدبيره ضدهم قوي محكم ولا يفلتون منه.

٤٦- إن الرسول يدعوهم إلى الهدى والنور ولا يسألهم أجراً على دعوته ليردّوا عليه بأنهم مرهقون بالديون ولا يملكون ما يدفعونه.

٤٧- ثم إن الغيب و عذابه ينتظرهم وهم لا يملكون من أمرهم شيئاً فضلاً عن أن يتصور هؤلاء أنهم يسطرون الغيب ويكتبونه ويخططون له ويتحكمون فيه.

٤٨،٤٩- فليثبت الرسول على خطه ومنهجه مطمئنا إلى نصر ربه ودعمه وليتذكر ـ في هذا الصدد ـ النبي يونس إذ آلمه عناد قومه الممتد فغادرهم مغاضباً وركب سفينة تعرضت للغرق لثقلها فألقي إلى البحر ليلتقطه الحوت، ولولا أن ادركته رحمة الله بعد أن دعاه واستغفره لتركه الحوت منبوذاً على الشاطئ وحيداً لا يملك شيئاً مذموما على فعلته.

٥٠- ولكن الله اختاره وجعله من الصالحين لإخلاصه وحسن نيته وتسبيحه وتوحيده واعترافه في ظلمات بطن الحوت بارتكاب ماكان الأولى به ألا يرتكبه.

٥١،٥٢- إن الكافرين إذ يستمعون للقرآن ينظرون بحقد وحسد إلى النبي ويصفونه بالجنون ولكن القرآن ذكر و هدي للبشرية جمعاء لو فهموه. وهذه الآية دليل على النظرة العالمية للاسلام من أول الأمر.

سورة الحاقة

مرَّ بنا الحديث عن البسملة.

١،٢،٣- تأكيد مكرر على كون القيامة هي الحاقة المحتمة الرهيبة التي يتجلّى فيها الحق.

٤- لقد كذّبت ثمود وعاد بهذه الحقيقة التي تضرب الأسماع والقلوب .

٥،٦،٧،٨- فأماثمود فقد أهلكت بالصاعقة الطاغية على حياتهم، وأمّا عاد فقد أهلكوا بريح باردة شديدة دامت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حاسمة قاطعة فعادوا صرعى مفرقين كأنهم بقايا أصول نخل خاوية من المحتوى، ودمّروا فلم تبق لهم باقية.

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴿٩﴾ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴿١٠﴾ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية ﴿١١﴾ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴿١٢﴾ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴿١٣﴾ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴿١٤﴾ فيومئذ وقعت الواقعة ﴿١٥﴾ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴿١٦﴾ والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴿١٧﴾ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴿١٨﴾ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴿١٩﴾ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴿٢٠﴾ فهو في عيشة راضية ﴿٢١﴾ في جنة عالية ﴿٢٢﴾ قطوفها دانية ﴿٢٣﴾ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴿٢٤﴾ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ﴿٢٥﴾ ولم أدر ما حسابيه ﴿٢٦﴾ يا ليتها كانت القاضية ﴿٢٧﴾ ما أغنى عني ماليه ﴿٢٨﴾ هلك عني سلطانيه ﴿٢٩﴾ خذوه فغلوه ﴿٣٠﴾ ثم الجحيم صلوه ﴿٣١﴾ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴿٣٢﴾ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴿٣٣﴾ ولا يحض على طعام المسكين ﴿٣٤﴾

١٠،٩- وهكذا كان أمر فرعون والمكذبين من قبله وقوم لوط إذ ارتكبوا الإفك والزور والخطايا وعصوا أمر الرسول فأخذهم الله بالعذاب الغامر المدمر.

١٢،١١- وعلى أساس من وحدة المسيرة البشرية المؤمنة يشير القرآن إلى حمل الفئة المؤمنة في السفينة الجارية أثناء الطوفان، إنها حادثة تحمل معنى كبيراً وعبرة لمن اعتبر ووعى واستوعب عبر التاريخ.

١٣- إن هذه المسيرة هادفة وستنتهي إلى يوم الحساب حيث يبدأ بنفخة البوق الواحدة.

١٥،١٤- فإذا بالارض والجبال تحملها يد القدرة الإلهية لتحطمها وحينئذ تحدث تلك الحادثة الكبرى وهي يوم القيامة.

١٦- ويصيب السماء الانشقاق وتفقد ترابطها فإذا هي واهية ضعيفة.

١٧- وتقف الملائكة على أرجاء الكون تجلياً لقدرة الله وسيطرته المتمثلة في عرشه وهو محور إرادة الكون ويحمله ثمانية منهم والله أعلم بإيحاءات هذا العدد.

١٨- وحينئذ وفي هذا المنظر الرهيب وأمام الخلائق يعرض الناس على واقعهم مكشوفين تماماً.

٢٠،١٩- فأما الذين يحملون كتاب أعمالهم بأيمانهم وهم الصالحون فإنهم يعلنون فرحهم برضا الله ويعرضون كتابهم أمام الجميع مؤكدين أنهم كانوا يحسبون ليوم الحساب حسابه.

٢٣،٢٢،٢١- إن الفرد منهم آنذاك يعيش حياة الرضا محققاً أمله في جنة سامية بمضامينها وعطائها وثمارها الطيبة المتدلية المتنوعة.

٢٤- ويقال لهم أن تنعموا بكل هذا نتيجة ما عملتموه في أيام الدنيا الماضية.

٢٧،٢٥،٢٦- أما من يحمل كتابه بيساره تعبيراً عن انحرافه وخسرانه فهو ينادي بالويل ويتمنى أن لم يعط كتابه ولم يدر ما حسابه وأن لو كانت موتته أو قيامته هي النهاية.

٢٩،٢٨- إنه الوحيد الفرد الذي لم ينفعه ماله ولا سلطته الفانية. وتلاحظ حالة اللهاث التي تكشفها هاء السكت.

٣٤،٣٣،٣٢،٣١،٣٠- وهنا يأتي هذا النداء الرهيب- أن يؤخذ ويوثق بالسلاسل ويلقى في الجحيم التي تشبعه عذاباً، ويشد في سلسلة طولها سبعون ذراعاً. كل ذلك لأنه كفر بالله وهو العظيم في تجلّياته، ولم يرحم العباد ولم يرغب في إطعام المسكين. ويلاحظ هنا اختلاف اللحن لاختلاف الموقف.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

سُورَةُ الْمَعَارِجِ (٧٠) آياتها (٤٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)

٣٥، ٣٦، ٣٧- إنه يعاني العذاب ولا يملك من يحنو عليه، ويعاني الجوع فلا يطعم إلا من غسلين وهو غسالة الجهنميين وقيحهم المقزز الذي لا يأكله إلا المجرمون.

٣٨، ٣٩، ٤٠- إنه قسم بكل المحسوسات التي يبصرها الإنسان وبكل مالا يبصره من الكائنات وهي أكثر مما يبصر، ـ في اشارة للمجهولات التي يتوجه لاكتشافها ـ قسم على أن هذا القرآن رسالة جاء بها رسول كريم.

٤١، ٤٢- وليس قولاً لشاعر يعيش في الخيال، ولا لكاهن ينبئ كذباً عن أشياء وهمية بل كل هذه الاتهامات منشؤها عدم الإيمان وفقدان الوعي والتذكر والدقة في الأمور لأن حقائق القرآن واضحة لكل ذي بصيرة.

٤٣- إنه كتاب منزل من رب العالمين، تشهد لذلك كل مضامينه.

٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧- بلّغه الرسول بكل أمانة وصدق، ولو أنه ـ والعياذ بالله ـ تقول على الله شيئا ونسبه إليه لأخذ بقوة وقطع وريد قلبه، ولما منعه من الله أحد.

٤٨- إن هذا القرآن يرفع من وعي المتقين وينجيهم من أخطر أمراض البشرية وهي الغفلة عن حقائق الكون والتاريخ والإنسان.

٤٩، ٥٠- والله يعلم بوجود المكذبين فلتبق الحقيقة حسرة في قلوبهم وليرتكسوا في الغفلة.

٥١، ٥٢- إن هذا القرآن يترك حسرة في قلوب الكافرين إلا أنه عين اليقين والواقع، فليلجأ الرسول للشكر والتسبيح والتمجيد لله.

سورة المعارج

تحدثنا عن البسملة

١، ٢، ٣- لقد بلغ العناد ببعض الكافرين إلى مستوى تحدي الرسول بطلب العذاب وهو واقع بهم ولا دافع له من الله القادر المالك لهذا الكون ومصاعده ودرجاته التي تعرج إليها الملائكة.

٤- وسيأتي اليوم الذي تعرج فيه الملائكة والأرواح إلى الله إنه يوم القيامة وهو مصير الجميع، إنه طويل يعادل خمسين الف سنة من أيام الأرض.

٥- فليثبت الرسول على خطه وليصبر على العقبات والتكذيب والعناد.

٦، ٧- إنهم يرون يوم القيامة بعيداً وربما مستبعداً ولكنه في عين الله والحقيقة قريب واقع.

٨، ٩، ١٠- حيث تسبقه التحولات الكونية الهائلة فتصبح السماء كالمعادن السائلة، والجبال كالقطن المنفوش، وحيث ينشغل الناس بأنفسهم وهول القيامة فلا يسأل قريب قريبه عن حاله.

يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤويه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥) نزاعة للشوى (١٦) تدعو من أدبر وتولى (١٧) وجمع فأوعى (١٨) إن الإنسان خلق هلوعا (١٩) إذا مسه الشر جزوعا (٢٠) وإذا مسه الخير منوعا (٢١) إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥) والذين يصدقون بيوم الدين (٢٦) والذين هم من عذاب ربهم مشفقون (٢٧) إن عذاب ربهم غير مأمون (٢٨) والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١) والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون (٣٥) فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦) عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧) أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨) كلا إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩)

١١،١٢،١٣،١٤- إنهم - أي الناس - يرون أقاربهم ولكنهم منشغلون عنهم، أما المجرم فهو غارق في الهم والرعب حتى ليود أن يفتدي نفسه من العذاب بتقديم بنيه وزوجه وأخيه وعشيرته التي ينتسب إليها من الأقربين له بل كل من في الأرض جميعاً بدلاً عنه لينجو بنفسه من العذاب.

١٥،١٦،١٧،١٨- كلا إنها تمنيات باطلة وأمامه النار المشتعلة التي تنزع الجلود والأطراف وهي تدعو إليها من أدبر عن الفطرة، وراح يعبد هواه ويجمع المال ويملأ به أوعيته ويمنعه عن المستحقين.

١٩،٢٠،٢١- هكذا هو الإنسان، إنه خلق شديد الحرص على ما يهواه فإذا مسّه شرّ جزع وفقد توازنه وإذا مسّه خير تعلق به وكأنه دائم له ومنعه من غيره فهو ضيّق النفس والأفق نتيجة عدم اتصاله بالحقيقة.

٢٢،٢٣- ذاك هو الإنسان المنفصل، فإذا اتصل بالحقيقة الكبرى، بالله العظيم وخضع له وعبده صار موجوداً علوياً اتصل بالمطلق وصلى واستمر في صلاته ليشرق النور في كل وجوده.

٢٤،٢٥- وراح يحقق مقتضى العبودية بالإنفاق المستمر على الفقراء والمحرومين.

٢٦،٢٧،٢٨- واعياً للهدفية في هذا الكون مؤمناً بيوم القيامة، مشفقاً خائفاً من عذاب الله لا غير فعذاب الله غير مأمون ولذا فهو يعيش بين الخوف والرجاء.

٢٩،٣٠،٣١- مدركاً أن الله يريد له حياة طاهرة وعلاقات اجتماعية نظيفة ولذا فهو يحفظ فرجه وعورته إلا في المساحات التي تسمح بها الشريعة حيث توجد علقة الزوجية أو ملك اليمين من الإماء، فانه لن يلام على اشباع غريزته الجنسية في جو من الطهارة دون أن يتعدى ذلك الإطار.

٣٢،٣٣- إنه يعيش اميناً ويحفظ للآخرين حقوقهم وأماناتهم ويشهد لهم بالحق.

٣٤- كل ذلك في إطار حفظ الصلاة بما تحمله من معان فردية واجتماعية.

٣٥- ان أمثال هذا الإنسان هم الواعون الذين سيكرمهم الله بالجنة.

٣٦،٣٧،٣٨، ٣٩- فماذا جرى لهؤلاء الكافرين إنهم ينظرون إليك مستطلعين دون وعي ثم يتفرقون إلى اليمين والشمال يتآمرون ويتهامسون، وهل يطمعون رغم هذا السلوك السخيف أن يدخلهم الله جنة النعيم، كلا فإن الله خلقهم من نطفة وأوصلهم إلى هذا المستوى ليقوموا بحق الإنسانية ولكنهم ارتكسوا في الجهل.

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سورة نوح (٧١) (٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

٤١،٤٠- قسم برب مشارق الشمس ومغاربها إذ لها مشرق ومغرب في كل لحظة نتيجة دوران الأرض حول نفسها، أو مشارق النجوم لتأكيد أن الله قادر على أن يبدل الأجيال ـ كما يبدّل المشارق والمغارب ـ فيحذفهم ـ أي الكافرين ـ من صفحة الوجود ويستبدل بهم من هم خير منهم فإرادته نافذة ولا يعجزه شيء.

٤٢- إنهم ممن لا يؤبه بهم فليتركوا على حالهم يخوضون في الغي ويلعبون كما يلعب الصغار الغافلون حتى يأتيهم اليوم الذي وعدوا به.

٤٤،٤٣- إنهم سينطلقون من قبورهم مسرعين وكأنهم قوم مسرعون إلى صنم يعبدونه وأبصارهم منكسرة يطغى عليهم الذل والصغار وهم يرون اليوم الموعود.

سورة نوح

قلنا إن البسملة تحمل معنىً رائعاً وإنها جزء السورة.

٤،٣،٢،١- لقد أرسل الله نوحاً لينذر قومه ويحذّرهم من سلوك سبيل الانحراف والشرك الذي يؤدي بهم إلى الضياع والهلاك والعذاب، وراح يدعوهم إلى السبيل الأقوم سبيل عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ليغفر الله لهم ما سلكوه وفعلوه ويعطيهم مهلة حياتية جديدة ليصلحوا من أمرهم حتى يأتيهم أجلهم الحتمي المكتوب لهم والذي لا يتأخر.

٧،٦،٥- وبعد أن بذل أقصى ما يستطيع لهدايتهم، وتحمّل ما تحمّل في سبيل ذلك مدة طويلة عاد نوح إلى ربه يشكوهم إليه ويعلن أنه دعاهم ليلاً ونهاراً ولكنهم كانوا يستكبرون ويفرون ويضعون أصابعهم في آذانهم لئلا يستمعوا إلى صوت الحق، ويسترون وجوههم بثيابهم لئلا يروا داعي الله، ويصرون على الضلال، ويستكبرون غاية الاستكبار.

١٠،٩،٨- وأنه واصل عمله الدعوي الخالص معلناً تارة ومسراً تارة أخرى طالباً منهم العودة إلى الله ربهم، ومؤكداً أن الله سيغفر لهم لأنه التواب الغفار ولكنهم كانوا يتمادون في الانحراف.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

١٢،١١- إن الكون وسننه التكوينية مرتبط مع السنن التشريعية فالكل من عند الله والكل يقوم على الحق فمن الطبيعي أن يقوم الترابط . وها هو نوح يدعو قومه للاستغفار ويعدهم بالرخاء حيث تنهل السماء بالمطر، وتزداد الاموال والأولاد وتنمو الزراعة وتسيل الأنهار ويعم الرخاء.

١٤،١٣- حجة قوية واضحة تقوم على أساس التذكير بمراحل التكامل الانساني من النطفة الحقيرة إلى الموجود المفكر الحكيم والتي تنبئ بما لا يقبل الشك عن القدرة والحكمة والمدد الالهي المستمر وتهيئة كل أجواء النمو والتكامل المادي والمعنوي. وحينئذ ألا يستحق هذا الوجود المطلق أن يحترموه ويوقروه.

١٦،١٥- إنه ـ تعالى ـ خالق السماوات السبع طبقات بعضها فوق بعض وخالق القمر بنوره المكتسب، والشمس لتكون منبعاً للنور وكل هذه المخلوقات تترك أثرها الأساسي في نمو الإنسان وتكامله.

١٧- وهو الذي أنعم على الإنسان وأنبته في الأرض ليحيا فيها، وتتركب منها بنيته.

١٨- ثم هو يعيدهم إلى الأرض ثم يخرجهم منها إلى البعث.

٢٠،١٩- إنه جعل الأرض بساطاً مريحاً ميسراً بسبلها ومنافذها. وهذا الفهم الذي قد يبدو بسيطاً كشف العلم أبعاده العظيمة بعد ذلك وكيف تسهم في تيسير الحياة الإنسانية كأروع ما يكون فلا تدع الإنسان إلا أن يؤمن بالخالق.

٢٣،٢٢،٢١- ورغم كل التعب والبيان القوي يؤكد نوح أنهم عصوه واتبعوا من غرته الدنيا وما زاده ماله وولده إلا خسراناً واتبع الأساليب الماكرة الخداعة لإثارة حمية قومه للدفاع عن أصنامهم؛ ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر و هي أصنام يعرفها العرب ولعل ذكرها من باب وحدة الظاهرة الصنمية.

٢٤- وهكذا استطاعوا إضلال الكثيرين ويدعو نوح أن يزيدهم الله ضلالاً لانهم ظلموا أنفسهم.

٢٥- فابتلوا نتيجة خطيئاتهم بعذاب الغرق في الدنيا والنار في الآخرة دون أن ينصرهم أحد من دون الله.

٢٧،٢٦- وهنا يدعو نوح ربه ليطهّر الأرض من الكفر وقادته لأنهم يضلون العباد ولا يلدون إلا الفجار الكفار بعد أن أمعنوا في الضلال.

٢٨- ثم يستغفر لنفسه ووالديه والمؤمنين من قومه وكل المسيرة المؤمنة رجالاً ونساءً عبر التاريخ طالباً أن يزيد الله مسيرة الكفر هلاكاً وضياعاً.

سورة الجن (٧٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴿١﴾ يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴿٢﴾ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴿٣﴾ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ﴿٤﴾ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴿٥﴾ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴿٦﴾ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ﴿٧﴾ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ﴿٨﴾ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴿٩﴾ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴿١٠﴾ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ﴿١١﴾ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ﴿١٢﴾ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴿١٣﴾

سورة الجن

تحدثنا من قبل عن البسملة.

٢،١- أمر الرسول أن يقول للناس أنه أوحي إليه أن عدداً من الجن استمعوا للقرآن ثم عادوا لقومهم فأخبروهم بأنهم سمعوا قرآناً هزّ مشاعرهم بلفظه وبمعناه السامي الهادي إلى الرشد ونمو الوعي والحقيقة مما دفعهم للإيمان به والدخول في مسلك التوحيد.

٣- فهو - تعالى وتمجد - ربنا بحق لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

٥،٤- وأن سفهاءهم كانوا يخرجون عن جادة الصواب حينما كانوا يشركون فكانوا يصدقونهم ظنا منهم أن أحداً من الإنس أو الجن لا يستطيع أن يكذب على الله.

٦- ولقد كان هناك رجال من الإنس يلوذون ويلجأون إلى رجال من الجن طالبين منهم الهدى والعون ولكنهم بدل ذلك زادوهم ضلالا وإثماً.

٧- وقد كان رجال الإنس يظنون - كما ظنّ رجال الجن - أن الله لن يبعث رسولا وهو ظنّ باطل لأن اللطف الإلهي يشمل المخلوقات فيهديها إلى سواء السبيل.

٩،٨- ولعل الجنّ كانوا يسترقون السمع عبر محاولتهم الاتصال بالملأ الأعلى ويأتون ببعض الأخبار إلى أوليائهم من الكهان والمشعوذين مما يعينهم على فتنة الناس وهاهم الآن يخبرون قومهم بانغلاق هذا الباب لأن السماء ملئت حراساً أشداء وشهباً ترصدهم مما ينبئ عن حادثة كبرى.

١٠- وأنهم لا يدرون حقيقة هذه الظاهرة الجديدة أهي شرّ للبشرية أم خير لها؟

١١- تقرير بأن الجنّ كالبشر لهم إرادة ويمكن أن يختاروا أحد الطريقين طريق الهدى وطريق الضلال وهكذا سار بعضهم سير الصالحين العاملين لخير الآخرين وانحرف بعضهم عن السبيل فكانوا مذاهب شتى متفرقة.

١٣،١٢- وهم يؤكدون هنا أنهم يقدرون قدرة الله عليهم وأن لا مهرب منها وأنهم اهتدوا وآمنوا لما سمعوا القرآن، وأن من يؤمن بالله فقد أمن من الظلم والعذاب المرهق أو التكليف بما لا يطاق.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن
لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ
بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى
لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا
بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا
تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ
عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ
مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟
رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

١٥،١٤- تأكيد جديد على انقسام الجن إلى فريقين- فريق مسلم يتحرى الصالحات ويتوخى الرشد والنمو الفكري والهدى، وآخر قاسط منحرف عن الفطرة معاند يعرض نفسه للعذاب لتكون حطباً ووقوداً لجهنم.

١٦- وهذه سنّة يؤكّدها القرآن مراراً فالثبات على الخط والمنهج الإلهي يؤدي للرفاه الدنيوي والنمو بتوفر الرزق والماء الهاطل الشديد.

١٧- ثم ان النعمة المادية نفسها هي امتحان إلهي فإن أدّت إلى الشكر استمرّ العطاء وإن أدت إلى البطر والترف والإعراض عن الخط السليم فان العاقبة هي العذاب المتصاعد في حدته.

١٨- السجود يشكل هيئة عبادية سامية والمساجد سواء أكانت محال العبادة أو الأعضاء التي يتركز عليها الساجدون هي محال مخصوصة لله وحده وتسخر له لا غير.

١٩- والعبادة هي الأسلوب الذي يعبّر به المؤمن عن عبوديته، ولكن المشركين لما لم يفهموا ذلك كانوا يتجمعون ويتراكمون متعجبين من عبادة النبي وهو عبدالله المخلص.

٢١،٢٠- ليوضح النبيّ لهم حقيقة العبادة وعبوديته لله وأنه لا يملك لنفسه ولا للآخرين ما يستطيع به أن ينفع أو يضر بل هو عبد فقير محتاج إلى ربّه.

٢٣،٢٢- وأنه رسول مبلغ عن الله حامل لرسالاته إلى البشرية غير متقول عليه ولا متجاوز لما أمره وإلا فإنه لا ينقذه من الله أحد ولا يحميه وينصره من دونه ناصر، ومن يعصي الله ورسوله ويخرج عن خطه فان جزاءه الرهيب هو جهنم والخلود فيها.

٢٤- وسيعلم الكافرون الذين يحتدّون بعدّتهم وعديدهم حين يرون يوم القيامة وتجلّي القدرة الالهية أن ما يعتزون به لا قيمة له أمام القدرة والجبروت الإلهي.

٢٨،٢٧،٢٦،٢٥- وربما كانوا يستبطئون العذاب ويتساءلون عن موعده فان الرسول يعلن لهم أنه هو لا يعلم موعده أهو قريب أم أنه له أمداً بعيداً فهو مما اختص به الله، وهو وحده عالم الغيب بالإصالة فلا يظهر علي غيبه أحداً إلا من ارتضاه رسولاً له فانه يعلمه علوم الغيب بالتبعية، كما أنه يهيئ لهذا الرسول حراساً ومراقبين من أمامه وخلفه يراقبون مسيرته ويسددونها ليتحقق قيامه بعملية الإبلاغ المبين وتتحقق له العصمة من الانحراف بعد أن كان الله محيطاً بكل شيء، عالماً بأبعاد المسيرة ودقائقها.

سورة المزمل (٧٣) (٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

سورة المزّمّل

تحدثنا عن البسملة.

١، ٢، ٣، ٤: إعداد رائع للرسول لينهض بحمل الرسالة العظمى للبشرية عبر بناء ذاته والارتقاء بمعنوياته من خلال ترك النوم الذي كان قد تزمل له أي التف بثوب لينام وقد كان ذلك بعد نزول الوحي وبداية الرسالة، ودعوته لإحياء الليل إلا قليلاً منه مخيراً بين النصف أو الأقل أو الأكثر من ذلك مصلياً عابداً تالياً مرتلاً للقرآن ترتيلاً تتوضح فيه الحروف ويتفاعل مع الوجود الإنساني فيبنيه ويعده.

٥: إن ذلك الإعداد هو لتحمل ثقل الرسالة التي بين القرآن الكريم أبعادها.

٦: إن العبادة في الليل تعني القوة والثبات في وجه دعوة البدن للراحة والخلود إلى النوم الدافئ، مما يعطي الروح قوتها والإرادة ثباتها، كما أن الذكر والقرآن والدعاء ينفذ إلى الاحاسيس والمشاعر فيملؤها إيماناً وصفاءً ووعياً قوياً.

٧: أما النهار فهو ظرف النشاط والحركة المستمرة.

٨: وفي كل آنائه يعيش المؤمن مع الله يذكره، ويسبحه، ويشكره، ويلجأ وينقطع إليه (يتبتل) تماماً.

٩: فربّه هو ربّ الكون وواهب الوجود في كل آن ومصدر القوة والرحمة ولذا فإن المؤمن ـ والنبي سيد المؤمنين ـ يعيش دائماً حالة التوكل الدائم والاطمئنان التام إليه.

١٠: وعندئذ تهون الصعاب عليه ويعزل خطه عن خط أعداء الله ولكن بكل حكمة وأسلوب جميل.

١١، ١٢، ١٣: ويوكل أمر الذين يقفون في طريقه إلى ربّه وقدرته التي تمهلهم قليلاً ليكفروا بنعمه وتعدهم للأغلال والجحيم، والطعام الذي تغص به الحلوق والعذاب الأليم.

١٤: إنه يوم القيامة الذي يسبقه رجيف الأرض، وتفكك الجبال لتصبح تراباً متراكماً متفتتاً.

١٥، ١٦: إن هذه الرسالة هي امتداد لخط الأنبياء الذي يشهد على مسيرة البشرية ومنهم موسى الذي أرسل إلى فرعون فعصا هذا المتكبر أمر الرسول فابتلي بالعذاب الشديد.

١٧، ١٨: فليحذر هؤلاء المكذبون عذاباً يشيب الاطفال وتتهد له السماء وذلك وعد نافذ لا مردّ له.

١٩: إنه تحذير خطير يجب أن ينبه الإنسان ويذكره فيسلك منهج الله إذا اراد لنفسه الفلاح والنجاح.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾

٢٠: وهنا يقرّر القرآن أن الله يعلم أن رسوله وبعض المؤمنين يقومون الليالي بما هو أقل من الثلثين أحياناً ونصف الليل وثلثه أحياناً أخرى، وهو تعالى ينظم ويقدر حركة الليل والنهار محيط بالكون يعلم ما فيه، كما يعلم بعدم إمكان أن يحصي كل المكلفين ويقوموا كل المقدار المطلوب من قيام الليل بشكل مستمر، ولذلك نظر بعين اللطف والرحمة وخفف عن المؤمنين فطلب أن يقرأوا ما تيسّر لهم من القرآن ومن قيام الليل، وهذا التخفيف يسمح بأن يقوم الجميع بهذا العمل التربوي الرائع كالمرضى والمسافرين والمقاتلين في سبيل الله. فليواظب المؤمنون على أداء واجباتهم من أداء الصلاة المفروضة وإيتاء الزكاة والانفاق لسد الخلل الاقتصادي في المجتمع علماً بأن هذا الإنفاق يعود بالخير على نفس المنفق وبشكل مضاعف مضمون، وكذلك الأمر في كل عمل خير فلينطلق المؤمنون لعمل الخير والإستغفار الدائم من الغفور الرحيم.

سورة المدثر

تحدثنا قبل هذا عن البسملة.

٣،٢،١: يخاطب الله رسوله وقد استراح وألقى على نفسه غطاءه لينام، بعد ان نزل عليه الوحي في غار حراء ورجع إلى البيت وقد شعر برجفة في جسمه من ثقل المسئولية فطلب ان يدثّر، فيأمره أن ينهض وينطلق للإنذار إنذار البشرية من الانحراف المدمّر ودعوتها للعودة إلى الله وتكبيره وهو أكبر من كل شيء، وأكبر من أن يوصف.

٥،٤: والدعوة إلى الله يجب أن تكون في إطار طاهر فالثياب طاهرة والعمل خير والنفس زكية والصلاة بمعناها العام قائمة، والإثم والانحراف مرفوض.

٧،٦: إن الهدف كبير كبير ومهما عظمت التضحيات في سبيله فهي قليلة غير مستكثرة ولا منّة فيها لأحد فيجب الصبر والثبات وتحمل الصعاب في سبيل تحصيل رضا الله.

١٠،٩،٨: ويجب تخويف المكذبين من يوم يبدأ بنفخ البوق لينطلق الموتى للحشر في يوم شديد الوطأة غير يسير على الكافرين.

١٤،١٣،١٢،١١: وهناك سيحاسب الجبار ذلك الطاغي ـ وهو الوليد بن المغيرة ـ الذي خلقه بقدرته وحدها وأمدّه بما ل وفير وبنين حاضرين معه مغنين حياته، في حياة مهدت له كل تمهيد.

١٧،١٦،١٥: ومع كل ذلك فهو يطمع أن يزيده رغم طغيانه وكفره وعناده لآيات الله، كلا، بل إنه سيشدّد عليه في مسيرته الوعرة.

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

٢٠،١٩،١٨: لقد فكر هذا الرجل العنيد في أمر القرآن وعظمته، وحاول أن يقدّر الموقف فلا هو يستطيع أن ينكر العظمة ولا هو يستطيع أن يتنازل عن كفره، وكان تقديره أسوأ تقدير فسحقاً له وسحقاً آخر على تقديره السيئ.

٢٥،٢٤،٢٣،٢٢،٢١: إنه راح يتأمل، ثم أصابه العبوس فقطّب حاجبيه ثم راح يقبض ملامح وجهه وكأنه يتعمق في الأمر ملياً، ثم أدركه عناده واستكباره فأعلن لقومه أن هذا القرآن سحر ساحر يتعلّمه الرسول من السحرة وليس من كلام الله بل هو من كلام البشر.

٢٧،٢٦: وهنا يتجلّى غضب الله عليه معلناً أنه سيتليه بعذاب جهنم ولا يدري أحد ما هذا العذاب.

٣٠،٢٩،٢٨: إنّها النار المحرقة التي لا تبقي شيئاً مما نالته، اللواحة التي تدعو إليها الإنسان بغضب وعليها تسعة عشر من الخزنة الغلاظ الشداد.

٣١: وإذ راح الكفار يستهزئون بهذا العدد أكد القرآن على كون خزنة النار من الملائكة المنفذين لأوامر الله دون تردد، وأن عددهم شكل امتحاناً لردود الفعل فأما أهل الكتاب فقد استيقنوا بصحة ماجاء في القرآن لأنه ينسجم مع مافي كتابهم، وأما المؤمنون فهم مصدقون مطمئنون بصحة القرآن، ويبقى المشككون يتساءلون عماذا يرمز إليه هذا العدد؟ إنهم أناس حائرون جاهلون لا تزيدهم آيات الله إلا ضلالاً في حين يهتدي بها الواعون الذين يوكلون الأمر إلى الله فهو العليم بجنوده وهو المذكّر للإنسانية بحقائق الوجود.

٣٦، ٣٥،٣٤،٣٣،٣٢: إن توهّمات هؤلاء سخيفة، فقسماً بالقمر وبالليل بعد أن يرحل، وبالصبح بعد أن ينجلي للخليقة، قسماً بكل هذه الظواهر العظيمة إن حقائق القيامة والنار والخزنة هي أمور ضخمة يجب أن تهز وجدان البشرية وتنذرها من العذاب.

٣٧: ويبقى الإنسان مخيّراً بين أن يتقدم على طريق الوعي أو يتأخر فينهار في هوة الظلام.

٤٢، ٤١،٤٠،٣٩،٣٨: وكل نفس مرهونة بعملها فأصحاب اليمين وهم الصالحون يعيشون جنات النعيم وهم يتساءلون : ما الذي أدّى بالمجرمين إلى جهنم.

٤٧،٤٦،٤٥،٤٤،٤٣: ليجيبوا بأنهم استحقوا هذه العاقبة لأنهم لم يصلّوا ولم يطعموا المسكين ولأنهم كانوا يسيرون مع السائرين في الضلال، ويكذبون بالآخرة إلى أن جاءهم الموت اليقين.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

٤٨: ولذلك فلم تعد تنفعهم شفاعة لأنهم لا يملكون أية حسنة أو أهلية.

٤٩، ٥٠، ٥١: ما لهؤلاء يعرضون عن الحقيقة ولا يريدون أن يعودوا إلى وعيهم، ويفرون منها كما تفرّ حمر الوحش من الأسد (قسورة).

٥٢: هؤلاء الحمقى الفارون من نداء الوحي يتوقعون أن ينزّل الله إلى كل منهم كتبه وهم على هذا المستوى!

٥٣: إنهم معاندون لا يخافون عذاب الله وحسابه.

٥٤، ٥٥: إن هذا القرآن يذكّر البشرية بكل الحقيقة، ولا يهتدي به إلا من شاء الوعي وتذكّر الحقيقة.

٥٦: إن الله هو الهادي لمن أهّل نفسه للهدى والتذكر، وهو تعالى الوجود المطلق المؤهل لأن يتقى ويستغفر فيمنّ على البشرية بالغفران.

سورة القيامة

مر بنا الحديث عن البسملة.

١، ٢: قسم بيوم القيامة وهو قسم عظيم، وكذلك قسم بالنفس اللوامة وربّما كانت تعبر عن الوجدان الذي عبئ في الفطرة ليلوم الإنسان باستمرار على ابتعاده عن الخط الإنساني الأصيل، كل هذا القسم لتأكيد الهدفية في الكون وعودته إلى الله.

٣، ٤: والهدفية تؤدي للإيمان بالآخرة وتلوّن الحياة الإنسانية بلون العدالة أما من يستبعد قدرة الله على إعادة الموتى إلى الحشر والحساب فهو سخيف الفكر واهم لا غير، فالله تعالى قادر على كل شيء حتى على إعادة رؤوس الأصابع ولعل تخصيصها بالذكر لدقة تركيبها وحساسيتها.

٥، ٦: ولكن سرّ إنكار الكافرين للآخرة نابع من رغبتهم الجامحة للتقدم في ارتكاب الفجور باعتبار أن الإيمان بالآخرة يحجز الإنسان عن الانحراف الأخلاقي، ولذا فهو يتساءل مستنكراً عن موعد القيامة.

٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥ : إن القيامة تسبقها إرهاصات منها: فقدان الأبصار تركيزها، وخسوف القمر، واقتران الشمس والقمر عبر اختلال النظام الكوني، فإذا حدثت فإن الإنسان سيتساءل: أين المفر؟ ولا مفرّ ولا ملجأ وإنما ستعود البشرية إلى ربّها لينبّأ الإنسان بما فعله من حسنات وسيئات، والإنسان نفسه بصير بنفسه ولو حاول أن يصوغ بعض المعاذير الباطلة.

١٦، ١٧، ١٨، ١٩: إن على الرسول أن يتلقّى الوحي ويؤديه حينما يسمح له بذلك فالله هو المتكفل بجمع أجزاء الآية أو السورة والسماح للرسول بعرضها على الناس: وهذا مظهر من مظاهر الإثنينية بين المرسل والرسول.

وتحريك اللسان والاستعجال بالقراءة لمعرفة النبي(ص) المسبقة به حيث نزل عليه كاملاً قبل التدرج في التنزيل.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الْإِنْسَانِ ٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥: إن هؤلاء المكذبين يركّزون على الدنيا العاجلة ولذاتها متناسين أنفسهم في الآخرة وهي مرحلة أعظم حيث توجد هنا وجوه تعلوها النضارة والسعادة وهي تنظر بقلوبها إلى الجلال والجمال الإلهي، وهناك وجوه يسودها العبوس باعتبار أنها تنتظر العذاب الذي يقصم فقرات الظهر.

٢٦،٢٧،٢٨،٢٩،٣٠: كلا إنهم في وهم وضلال فحين تبلغ أرواحهم تراقيهم (عظام العنق) وييأس الجميع من العلاج ويتحقق أمر الفراق وتتجمع أطراف الإنسان وتفقد تماسكها الطبيعي بالتفاف بعضها على بعض، حينئذ سيعلمون أن الموت حق وأنهم سيصيرون إلى ربهم لا محالة.

٣١،٣٢،٣٣: نعم سيذهب هذا خالي الوفاض فلا هو صدق بالحقيقة الإلهية ولا صلّى وتعبد بل اتبع سبيل التكذيب والإعراض عن الحق، وراح يتبختر ويستكبر بين أهله وأقرانه.

٣٤،٣٥: ولكن أولى لهذا الإنسان ثم أولى له أن يتذكر خطله وضعفه وضلاله ويعي ما هو عليه.

٣٦: من الخطل أن يتوهم الإنسان العبثية في الكون فمحال على الله أن يخلق الإنسان عبثاً دونما غاية.

٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠: إن التأمل في مراحل التكامل الإنساني: نطفة منيّ تقذف، ثم علوق ببييضة المرأة تطبع عليه صفات الإنسان ثم تنمو فتستوي لتنقسم إلى ذكر وأنثى وليصل الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع وتستمر البشرية، كل ذلك يُنبئ عن القدرة الالهية على كل شيء ومنه إحياء الموتى كما يوضح الهدفية في هذا المسير.

سورة الإنسان

البسملة آية قرآنية رائعة وهي جزء من السورة.

١،٢: تساؤل تقريري يدفع الإنسان للتأمل في ماضيه، وكيف منّ الله عليه بخلقه من نطفة الرجل بما تحويه من (أمشاج) خليط عجيب، لينتقل من طور إلى طور ماراً بمراحل التكامل ليصل إلى مرحلة السمع والبصر ويصبح موجوداً معقداً متكاملاً.

٣: ثم أعطاه الله القدرة العقلية والإرادة الحرة ليختار سبيل الهدى والشكر أو الضلال والكفر، بعد أن هداه تكويناً وتشريعاً عبر الوحي.

٤: أمّا الذين اختاروا طريق الكفر فأمامهم القيود والأغلال والنار.

٥: وأما الأبرار المهديّون فأمامهم الجنة والخلود والكؤوس بطعومها وروائحها الأخاذة.

عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴿٦﴾ يوفون بالنذر ويخافون
يوما كان شره مستطيرا ﴿٧﴾ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا
ويتيما وأسيرا ﴿٨﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا
﴿٩﴾ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴿١٠﴾ فوقاهم الله شر ذلك
اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ﴿١١﴾ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا
﴿١٢﴾ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ﴿١٣﴾
ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ﴿١٤﴾ ويطاف عليهم بآنية
من فضة وأكواب كانت قواريرا ﴿١٥﴾ قوارير من فضة قدروها تقديرا ﴿١٦﴾
ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ﴿١٧﴾ عينا فيها تسمى سلسبيلا
﴿١٨﴾ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا
﴿١٩﴾ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴿٢٠﴾ عاليهم ثياب سندس
خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا
طهورا ﴿٢١﴾ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴿٢٢﴾ إنا
نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴿٢٣﴾ فاصبر لحكم ربك ولا تطع
منهم آثما أو كفورا ﴿٢٤﴾ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ﴿٢٥﴾

٦: إنها من عين يرتوي منها عباد الله وتتفجر أمامهم بماء غزير كلما أراد الأبرار ذلك.

٧، ٨، ٩، ١٠: وترسم هنا صفات هؤلاء الأبرار ـ والروايات تؤكد نزول الآيات في عليّ وفاطمة والحسن والحسين(ع) حينما نذروا وصاموا وتصدقوا بإفطارهم[1] وهي بالتالي جارية فيمن اقتدوا بهذا السلوك الحسن ـ فهم أهل الوفاء بما ينذرون وهم يخافون يوم القيامة وشره المتزايد، وهم يطعمون الطعام ـ رغم حاجتهم ورغبتهم فيه ـ المسكين واليتيم والأسير مؤكدين أن القصد هو الحصول على رضا الله دون أن يقصدوا الأجر و الشكر ممن يحسنون إليهم وإنما هو الخوف من الله ويوم الحساب بما فيه من عبوس وشدة وصعوبة.

١١، ١٢: فكان جزاؤهم أن كفاهم الله شر ذلك اليوم ومنحهم بهاءً ونضارة وسروراً وجنة ولباساً من حرير نتيجة إيمانهم وإخلاصهم ووفائهم وصبرهم الرائع.

١٣، ١٤: يتكئون فيها على الأرائك في جو ملائم بلا شمس حارقة ولا ريح قارصة (زمهرير) وترفرف عليهم الظلال وتدنو إليهم الثمار الميسّرة المعدة.

١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩: وتطوف عليهم آنية الفضة وأكوابها وقواريرها الشفافة اللامعة بحجوم رائعة لكل منها مقدار معين ممزوجة بشراب الزنجبيل ماخوذة من عين تسمى (سلسبيلاً) فهي كاسها عين رقراقة سائغة رائعة الطعم، ويحمل تلك الكؤوس غلمان مخلدون دائمون في نظارتهم يحسبهم الناظر لؤلؤا منتاثراً.

٢٠، ٢١، ٢٢: إنه منظر رائع للجنة: نعيم ما بعده تنعم وملك كبير لا يقاس إليه ملك، يعيش فيه الأبرار منعمين بلباسهم الحريري الرقيق والسميك، وحليهم وهي أساور من فضة، وشرابهم الطاهر حقاً يسقون به من عند ربهم. ويأتي الإعلان الكريم أن هذا هو الجزاء الأوفى على السعي المشكور.

٢٣، ٢٤، ٢٥: تأكيد مكرر على تنزيل القرآن من عند الله ودفع للرسول للصبر والثبات على الخط ورفض خط الآثمين المجرمين الكافرين، وحث إلهي على الاعتصام بذكر الله بالغدو والعشي.

---

١ ـ تفسير فرات الكوفي ج ١، ص ٥٢١، تفسير الدر المنثور ج ٦، ص ٢٢٩.

ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴿٢٦﴾ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴿٢٧﴾ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴿٢٨﴾ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴿٢٩﴾ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ﴿٣٠﴾ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما ﴿٣١﴾

سورة المرسلات ٧٧ — ٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

والمرسلات عرفا ﴿١﴾ فالعاصفات عصفا ﴿٢﴾ والناشرات نشرا ﴿٣﴾ فالفارقات فرقا ﴿٤﴾ فالملقيات ذكرا ﴿٥﴾ عذرا أو نذرا ﴿٦﴾ إنما توعدون لواقع ﴿٧﴾ فإذا النجوم طمست ﴿٨﴾ وإذا السماء فرجت ﴿٩﴾ وإذا الجبال نسفت ﴿١٠﴾ وإذا الرسل أقتت ﴿١١﴾ لأي يوم أجلت ﴿١٢﴾ ليوم الفصل ﴿١٣﴾ وما أدراك ما يوم الفصل ﴿١٤﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿١٥﴾ ألم نهلك الأولين ﴿١٦﴾ ثم نتبعهم الآخرين ﴿١٧﴾ كذلك نفعل بالمجرمين ﴿١٨﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿١٩﴾

٢٦: ومواصلة للحث يأتي ذكر السجود والتسبيح لله المستمر في الليل الطويل فهو أوقع في النفس.

٢٧: أما هؤلاء الذين انحرفوا فهم يركّزون على الدنيا العاجلة والأهداف الضيقة وينسون الحياة الآخرة حياة الخلود والحساب الشديد.

٢٨: إنهم يكفرون بنعم الله إذ خلقهم وشد من أزرهم وربط أعضاءهم ولو شاء لقضى عليهم واستبدل بهم غيرهم فهم محكومون لقدرته.

٢٩، ٣٠: وإن هذه الآيات تذكرهم بالحقيقة وتهزّ مشاعر من أراد أن يعرفها فيتخذ إلى ربّه منهجاً وسبيلا، وقد شاء الله أن يمتلكوا إرادة حرة في اختيار الطريق وإلا لما ملكوا حتى هذه القدرة إذ كل شيء في الكون يتم بإرادته وتحت سيطرته وعلمه وحكمته.

٣١: فهو يدخل من يشاء في رحمته ـ عندما تكون فيه أهلية الشمول ـ ويوصل الظالمين إلى العذاب بعد أن اختاروا سبيل الضلال.

سورة المرسلات

البسملة آية قرآنية ذات معاني سامية وهي أول آية من السور القرآنية.

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦: قسم بأفواج الملائكة المرسلة بالتتابع، وسرعتها المذهلة كالعواصف، ونشرها للصحف التي تحمل الوحي، ومعاييرها التي تميز الحق من الباطل، وإلقائها الذكر الإلهي بإعذاره وإنذاره. وقيل أن بعض المقسم به يشير إلى الرياح.

٧، ٨، ٩، ١٠: كل ذلك القسم تأكيد على وقوع يوم القيامة الموعود به وستسبقه علامات منها أن ينطفئ نور النجوم، وتتشقق السماء، وتتفجر الجبال مما يعبّر عن تحول كوني هائل ومرعب.

١١، ١٢، ١٣، ١٤: وحينئذ يحل موعد حضور الرسل المؤجل ليوم الفصل بالحق.

١٥، ١٦، ١٧، ١٨: ألا يعتبر هؤلاء بما حدث للأولين من الأمم من هلاك وهو ما تكرر في من جاءوا بعدهم لما كذبوا فكان ذلك جزاء لإجرامهم.

١٩: فالهلاك الهلاك يوم الدين للمكذبين به.

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤: ألا يلاحظ هؤلاء المكذبون مراحل خلقة الإنسان وتجلي قدرة الله فيها، إذ تبتدئ من نطفة قذرة مهينة توضع في مقر محصن هو الرحم وقد وفرت له كل الضمانات التي تهيئ لهذه النطفة وصولها إلى المراحل التالية المقدرة بدقة متناهية بآجال معلومة . إنها قدرة الله الخارقة فويل يوم القيامة للمكذبين بها.

٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨: ثم ألا يلحظون كيف مهدت الأرض بحيث تجمع الأحياء والأموات فلا يؤثر هؤلاء على هؤلاء، وكيف تتحرك بحركتها المنظّمة بعد أن جعلت فيها الجبال الثابتات العاليات والتي تؤثر في تكون السحب التي تتحول إلى مياه عذبة تساهم أكبر مساهمة في حفظ حياة الإنسان مما يكشف بوضوح عن النظام والهدفية ، فالهلاك يوم الدين للمكذبين به.

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤: فلينطلق هؤلاء هاربين من يوم الحساب ولكن إلى ظل كاذب ناتج من دخان جهنم له شعب ثلاث لا يمنع من الحر ولا يغني من اللهيب، إنها النار التي تبدو وكأنها قصر ملتهب ، وألسنة اللهيب التي تبدو وكأنها جمال صفراء ملتهبة. فالهلاك الهلاك يوم الدين للمكذبين به.

٣٥،٣٦،٣٧: إنه اليوم الذي لا يمكنهم فيه أن ينطقوا أو يعتذروا فالهلاك يومئذ للمكذبين.

٣٨،٣٩،٤٠: إنه اليوم الذي يجمع فيه هؤلاء مع كل الأمم السابقة فهل يستطيعون فيه أن ينفذوا مكائدهم؟ فويل يومئذ للمكذبين بيوم الدين.

٤١،٤٢،٤٣،٤٤،٤٥: أما المتقون فهم في ظلال صادقة وعيون دفاقة بالخير وفواكه كما تشتهي أنفسهم ويقال لهم أن كلوا واشربوا هنيئاً نتيجة أعمالكم وجزاء لكم على إحسانكم، أما الهلاك والويل يومئذ فهو للمكذبين بيوم الدين.

٤٦، ٤٧: نعم فليأكل المكذبون وليتمتعوا قليلا في الدنيا ولكنهم مجرمون يستحقون الويل يوم الدين.

٤٨، ٤٩: إنهم كانوا يدعون إلى الصلاة فيرفضون ذلك فويل لهم يوم الدين.

٥٠: إذا لم يؤمن هؤلاء عبر استماعهم لحديث القرآن القوي النافذ فهل يتوقع أن يؤمنوا بأيّ حديث آخر؟ وتتابع التأكيد والتكرار للويل والهلاك يوم القيامة للمكذبين يخلق جواً من الرهبة والخوف عساها تؤثر في تلك القلوب المتوترة.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

سورة النبأ

تحدثنا عن المعاني الرائعة التي تحملها البسملة، وقلنا إنها أول آية من السورة القرآنية.

١،٢،٣: تساؤل من المشركين عن أمر عظيم يختلفون فيه، وكان الأجدر بهم أن لا يختلفوا فيه وكل الشواهد تجيب عنه.

٤،٥: تأكيد مكرر على الاستغراب من طرح هذا التساؤل.

٦: إنّ الكون يجيب بكل وضوح عليه، فهذه الأرض ألم يجعلها الله للإنسان ممهدة معدة لحركته ولزراعته ولحياته وكل ما يحقق له استمرارها من ماء وهواء ورياح وحرارة وهدوء وغير ذلك من شتى أنواع التمهيدات.

٧: وهذه الجبال الضخمة التي تحقق التوازن الأرضي والثبات كالمسامير التي تتحكم في السفينة، والتوازن الجوي وغير ذلك.

٨: وظاهرة الزوجية العامة – كما يبدو من هذه الآية والآيات الأخرى – بما تحمله من عطاء يديم المسيرة الحياتية.

٩،١٠،١١: وظاهرة النوم بما تتركه من آثار إيجابية كبرى تتوقف عليها الحياة وتنسجم معها ظاهرة الليل لباساً للنوم . وظاهرة النهار بخصائصها المنسجمة مع النشاط الإنساني بما يستلزمه من نور وصحوة.

١٢،١٣،١٤،١٥،١٦: وهذه السماوات السبع التي تحكمها القوانين الصارمة، وهذه الشمس بما لها من عطاء عظيم له أثره في استمرار الحياة، وظاهرة السحب في إطار حركة الماء العجيبة حيث تؤدي إلى مطر كثير يديم الحياة وينبت الحبَّ والنبات والجنّات كثيفة الأشجار؟

١٧،١٨: إن الصدفة مستحيلة وكل هذه الظواهر العظيمة توضح حقيقة النظام والهدفية فيه وتستلزم الإيمان بالمعاد حيث الفصل والحسم والحساب ويبدأ حين ينفخ في البوق فيحشر الناس أفواجاً.

١٩،٢٠: وتسبقه إرهاصات، فأبواب السماء تفتح، وتتحول الجبال إلى سراب.

٢١،٢٢،٢٣،٢٤،٢٥: وهناك جهنم تترصد العصاة، وتشكل مأوى للطغاة ليبقوا فيها طويلاً لا يجدون فيها ما يشبع عطشهم ويطفئ حرارتهم إلا السوائل الحارة وما يسيل من جسوم أهل النار .

٢٦،٢٧،٢٨: إنه الجزاء المطابق لعملهم بعد أن كانوا يرفضون يوم الحساب ويكذبون بآيات الله أي تكذيب .

٢٩: فكل شيء عملوه مدوّن في كتاب عند الله بكل دقة.

٣٠: اذن فلتذوقوا جزاءكم عذاباً بعده عذاب متزايد.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

٧٩ سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾

٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥: أما المتقون فلهم الفوز العظيم: حدائق وأعناب، وفتيات ناهدات متماثلات، وكؤوس ملأى بما لذّ وطاب دونما ضوضاء ولا لغو ولا حديث كاذب فارغ، ولا تكذيب ولا تشكيك في حديث الآخرين.

٣٦، ٣٧: إنه الجزاء الإلهي والعطاء المقدر من رب الكون كله الرحمان بكل شيء والحاكم دون أن يسأل عن حكمه فله الأمر والنهي يفعل ماشاء.

٣٨: إنـها العظمة الإلهية المتجلية آنذاك حيث تقف الملائكة والروح صفاً واحداً لا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله ناطقاً بالحق.

٣٩: إنه يوم ظهور الحقيقة وانكشافها وتصوره يدفع الإنسان الواعي للايمان واتباع سبيل الله والحصول على مأوى في كنفه.

٤٠: إنه الإنذار بالعذاب القريب ، والحساب الدقيق الذي يواجه الإنسان بكل ما عمله فيتمنى الكافر أن لو كان تراباً عدماً ولم يكن ليواجه هذا الموقف.

سورة النازعات

تحدثنا من قبل عن البسملة ومعانيها وجزئيتها للسورة.

١، ٢، ٣، ٤، ٥: قسم بانواع الملائكة ـ كما يظهر ـ التي تنزع الأرواح نزعاً مشددة مغرقة في النزع أو تغير الأمور تغييراً شديداً، والتي تنشط في تحريك الكون، والتي تسبح فيه وتمخر عبابه، والتي تسبق وتتسابق في تنفيذ الأوامر والتي تدبّر الكون وأموره.

٦، ٧، ٨، ٩: إنه لقسم عظيم على وقوع يوم عظيم هو يوم القيامة إذ تسبقه رجفة كونية هائلة، تتبعها رجفة أخرى فتترك القلوب في وجوم وأضطراب عجيب والأبصار في خشوع رهيب.

١٠، ١١: إن هؤلاء السفهاء يصعب عليهم الإيمان بهذا اليوم فكيف يمكن أن يعودوا بعد الموت والإقبار، وبعد تحولهم إلى عظام منخورة متفتتة إلى الحياة؟

١٢: إنـها عودة خاسرة بلا ريب.

١٣، ١٤: ولكن الحقيقة أن صرخة الهية واحدة كافية لإخراجهم من بطن الأرض إلى سطحها.

١٥: إشارة تناسب المقام إلى قصة موسى.

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

سورة عبس

١٦، ١٧، ١٨، ١٩: فقد كلمه الله في الوادي المقدّس (طوى) بالذهاب إلى فرعون ليكبح طغيانه ويدعوه للاهتداء إلى الله وخشيته فهي وسيلة التزكية.

٢٠، ٢١: وبطبيعة الحال طرح موسى برهانه على صدق رسالته وهي عصاه التي تحولت بقدرة الله إلى ثعبان، وسائر معاجزه، ولكن فرعون كذّب وعصى أمر الله.

٢٢، ٢٣، ٢٤: وراح يسعى بكل دهائه ليقف بوجه الدعوة، وجمع جماهير الناس ونادى فيهم بأنه الربّ الأعلى، فغرّته جماهيره وتصور نفسه الإله الأكبر وما هو إلا المخلوق الضعيف.

٢٥، ٢٦: فأخذته يد القدرة الإلهية وعذبته عذاب الآخرة والدنيا فتركته عبرة وذكرى لمن شاء أن يتذكّر ويعتبر ويخشى قدرة الله وغضبه.

٢٧، ٢٨، ٢٩: يتوجه الخطاب بعد هذا للمشركين المستكبرين مذكراً إياهم بمظاهر القدرة الإلهية عليهم فإنه خلق الأشد خلقاً منهم، إنه خلق هذا الكون الواسع وهذه السماء التي بناها وأحكم مداراتها ورفع قامتها (سمكها) فسواها أروع تسوية بما فيها من قوانين وما تنتجه حركتها من ليل مظلم (اغطش) ونهار مشرق بترتيب دقيق مدهش.

٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣: وهذه الأرض التي مدّها ومهدها للإنسان بما يخرج منها من ماء ونبات يتغذى منه الإنسان ويحيا، وما فيها من جبال تحفظ توازنها، كل ذلك ليتمتع الإنسان وتحيا الأنعام لصالحه هو.

٣٤، ٣٥: كل تلك الظواهر تبين قدرة الله وحكمته والهدفية في الكون وتؤدي للإيمان بالآخرة حيث الحادثة التي تغطي كل شيء وتعلوه، فإذا جاءت ذكرت الإنسان بالحقيقة وعرفته ما صدر منه تماماً.

٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩: وبرّزت النار الضخمة للرائين وهي تدعو إليها الطاغين الذين اختاروا الدنيا واللذات الزائلة فيها فعادت الجحيم مأواهم.

٤٠، ٤١: وفي قبال الطاغين المتكبرين يأتي ذكر الخائفين من عظمة ربهم الناهين أنفسهم عن اتباع الهوى حيث سيحصلون على الجنة كأروع مأوى.

٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦: وإذا كان المشركون يتساءلون عن القيامة ومتى تكون فإنه يقال لهم وما فائدة أن تعلموا ذلك فإن علمها عند الله، والمهم أن يؤثر فيهم الإنذار فيتذكروا ويخشوا ربهم، إنهم حين يرونها يبدون وكأنهم يتصورون أن حياتهم الدنيا ليست في قبال الآخرة إلا مجرد ليلة واحدة أو صباحها.

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

سورة عبس

ذكرنا من قبل أن البسملة آية تلخص التصور القرآني عن الكون.

١،٢،٣،٤: جاء في بعض التفاسير أن هذه الآية نزلت تعاتب النبي عندما كان منشغلاً بدعوة كبار المشركين فجاءه الأعمى يسأله فعبس في وجهه وقيل ـ وهو الأرجح ـ نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي فجاء ابن أم مكتوم وكان أعمى فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس فجاءت الآية تنكر عليه وتؤكد أن الأعمى ربما كان قد جاء لاكتساب العلم وتزكية النفس وتذكيرها فيجب الاحتفاء به لا العبوس.

٥،٦،٧: اما المتكبر المدعي للاستغناء فان التصدي والإقبال عليه حرصاً على أن يهتدي أمر صحيح ولكن لا داعي للإصرار فإنه إن بقي على موقفه أضرَّ بنفسه وليس عليك شيء.

٨،٩،١٠: أما من جاء يسعى للحصول على ما يحقق به خشيته ويزكي نفسه فيجب الاهتمام به وعدم التلهي عنه.

١١،١٢،١٣،١٤،١٥،١٦: كلا لا داعي للعبوس والاهتمام الزائد بالمستكبرين فالقرآن تذكرة وموعظة بينة مفتوحة للجميع إن شاؤوا أن يتعظوا، محفوظة في كتابات كريمة القدر بعيدة عن الباطل يحملها سفراء كرام أبرار.

١٧،١٨،١٩،٢٠: نفور قرآني شديد من الإنسان المتكبّر على ربّه أو من الإنسان بطبعه ، إنه كفر عظيم أن ينسى الإنسان خلقته ونشوءه من نطفة مهينة هيئها الله لتصل بتقدير دقيق إلى هذا المستوى الرفيع ثم منّ عليه بأن أراه منهجه الدقيق إلى السعادة، وأعطاه الإمكانات التي توصله إليها.

٢١،٢٢: وهكذا لتستمر الحياة إلى الموت وبالتالي إلى النشور والحساب بأمره تعالى تحقيقا لمقتضيات الهدفية.

٢٣: إن الإنسان مازال لم يحقق هدفه الحقيقي الذي أمره الله به.

٢٤،٢٥،٢٦،٢٧،٢٨،٢٩،٣٠،٣١،٣٢: ألا ينظر إلى طعامه وتنوع احتياجاته الجسمية وانسجامها مع مافي الطبيعة والماء الذي صبه الله صباً، واستعداد الأرض لتقبله ثم انتاج الحب والعنب والبقول الطرية والزيتون والنخل والحدائق كثيفة الأشجار والفواكه والكلأ بما يتمتع به الإنسان والحيوان . إن الصدفة في اجتماع هذه الظواهر في خدمة الحياة تدرك الفطرة استحالتها فكيف يكفر الإنسان بالخالق المنظم؟

٣٣،٣٤،٣٥،٣٦،٣٧: ولكن يوم الحساب قادم عندما تنطلق الصيحة الهائلة فحينئذ يفرّ الإنسان من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه لأن لكل منهم ما يتشغل به من هموم.

٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢: وتختلف الوجوه فهذه نيرة ضاحكة مستبشرة، وتلك يعلوها الكدر والاكتئاب إنها وجوه الكفرة الفجرة.

سورة التكوير (٨١)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

سورة الانفطار (٨٢)

سورة التكوير

تحدثنا من قبل عن البسملة.

١،٢،٣،٤،٥،٦: تذكر السورة أشراط الساعة وإرهاصاتها، بتتابع يأخذ بمجامع القلوب إذ تتكور الشمس وتلتف حول نفسها وينطفئ وهجها، وتتكدر النجوم وتتغير أو تتناثر، وتهيم الوحوش وتترك جحورها، وتتفجّر البحار ناراً.

٧،٨،٩،١٠،١١– وتزوج النفوس وتجمع الأرواح المتقاربة، وتسأل البنت المدفونة حية ـ كما كان يفعل بعض جهلة العرب ـ عن ذنبها الذي استدعى ذلك (والتركيز عليها هنا رفض شديد لهذه العادة الجاهلية) وتنشر صحف الأعمال، وتطوى السماء وتنشق.

١٢،١٣: وتتأجّج النار، وتزيّن الجنة استعداداً لأهلها.

١٤: وحينئذ يتم الحساب وتعلم النفوس بما قدمته للقيامة وما أخرته من نصيب.

١٥،١٦،١٧،١٨: قسم بالكواكب الجارية تظهر وتختفي كما تأوي الطيور إلى أعشاشها (كناسها)، والليل المعسعس أي المقبل والمدبر، والصبح الحي المتنفس ضياء وحركة، وكلها مظاهر كونية رائعة وآيات جمالية أخاذة تشعر بألطاف الله ونعمه.

١٩،٢٠،٢١: قسم بتلك الظواهر ونظمها وجمالها على أن هذا القرآن قول لرسول كريم هو جبرئيل يبلغه عن الله وهو ذو مقام منيع عنده، مطاع هناك من قبل الملائكة، أمين على وحي الله.

٢٢: إن صاحبكم النبي الذي عاش معكم ورأيتم رجاحة عقله وأمانته ليس مجنوناً ولا متوهماً.

٢٣: بل رأى جبرئيل بكل وضوح ويقين ، رآه بالأفق الواضح البين.

٢٤: إن النبي لا يبخل ولا يقصر في حمله للوحي بل يؤديه بكل أمانة ودقة ووضوح.

٢٥،٢٦: إنه قول الله العظيم لا إلقاء من شيطان رجيم ـ كما يزعمون ـ فأين تسير بهم الظنون؟

٢٧: إنه تنبيه وذكر ورسالة للعالمين (تلاحظ هنا الصفة العالمية منذ انطلاق الرسالة)

٢٨: إنه هدى لكل من أراد أن يستقيم على خط الإنسانية المتكامل.

٢٩: هكذا شاءت الإرادة الإلهية أن يكون الإنسان حراً في اختياره وبدون إرادته ـ تعالى ـ لا يتحقق شيء في الوجود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ⑯ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑱ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ⑲

٨٣ سورة المطففين ٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥

سورة الانفطار

تحدثنا من ذي قبل عن البسملة وجزئيتها للسورة.

٤،٣،٢،١: تتحدث السورة عن علامات يوم القيامة وأشراطه ومنها: انشقاق السماء وتناثر الكواكب، وانفجار البحار، وتبعثر القبور وانقلابها.

٥: يوم القيامة تعلم النفوس بشكل تام ما قدّمت للآخرة من خير و ما أخرت من أعمال الشرّ ففقدت نصيبها من الحسنات.

٨،٧،٦: عتاب ودعوة للانسان للتأمل في نعم الله وكرمه العميم، إنه منّ عليه بالوجود وسواه بشكل متعادل انسانًا يملك كل فضائل الموجود السوي المتوازن. ويكتشف العلم يوماً بعد يوم جوانب العظمة والقوانين المعقدة في التركيبة الإنسانية ومدى انسجامها مع القوانين الكونية. وتركيبة الإنسان تكشف عن عظمة هدفه: فهناك الجانب الفطري بمكوناته العقلية والعاطفية والغريزية والإرادية وكلها تصنع السلوك السوي المتعادل ليقوم بواجب الخلافة الإلهية.

٩: لكن البعض بدلاً من الشكر يتجه إلى الكفر والتكذيب بنظام الكون وهدفيته والقيامة.

١٠، ١١،١٢: وحينئذ فليعلم أنه مراقب تامًا بملائكة كرام عند الله يسجلون كل حركة وسكنة.

١٦،١٥،١٤،١٣: وهناك في يوم القيامة ينقسم الصفان فالأبرار إلى النعيم، والفجّار إلى الجحيم يصلونها ويبتلون بحرارتها باستمرار وخلود دون أن يغيبوا عنها لحظة واحدة.

١٧، ١٨، ١٩: إن يوم الدين يوم هائل لا يدرك أحد هوله إنه اليوم الذي تنقطع فيه الأسباب. وتنشغل فيه النفوس بشأنها فلا تنفع غيرها، والأمر كل الأمر يبقى لله لا غير متجلّياً ذلك للجميع.

سورة المطففين

مرينا الحديث عن البسملة.

٣،٢،١: الويل والهلاك للذين ينقصون الكيل والميزان إنها سرقة واعتداء على الآخرين عند دفع الحقوق إليهم في حين أنهم يستوفون كل مالهم عندما يأخذون حقوقهم.

٦،٥،٤: إن هذا السلوك المفسد يكشف عن عدم إيمان بيوم الحساب الدقيق عند البعث يوم القيامة، وعدم تصور لعظمة ذلك اليوم حيث تقف الخلائق مكشوفة أمام خالقها العظيم.

كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (٧) وما أدراك ما سجين (٨) كتاب مرقوم (٩) ويل يومئذ للمكذبين (١٠) الذين يكذبون بيوم الدين (١١) وما يكذب به إلا كل معتد أثيم (١٢) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١٣) كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١٤) كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (١٥) ثم إنهم لصالوا الجحيم (١٦) ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون (١٧) كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين (١٨) وما أدراك ما عليون (١٩) كتاب مرقوم (٢٠) يشهده المقربون (٢١) إن الأبرار لفي نعيم (٢٢) على الأرائك ينظرون (٢٣) تعرف في وجوههم نضرة النعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) ومزاجه من تسنيم (٢٧) عينا يشرب بها المقربون (٢٨) إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤)

٩،٨،٧: إن هؤلاء المعتدين على الحقوق خرجوا على المسيرة الطبيعية ففجروا ولذا كتب عليهم أن يكونوا مسجونين في مكان متسافل شديد الهول يعبّر عنه القرآن بقوله: وما أدراك ما سجين.

١٠، ١١،١٢،١٣: فالويل والهلاك للمكذبين بحقيقة كبرى هي يوم الحساب، إذ لا يكذّب بها إلا كل من تجاوز وعيه وخالف فطرته وغرق في انحرافه وفسوقه وراح ينكر آيات الله البينات ويصفها بأنها خرافات السابقين.

١٤: ولكنها في الواقع مواقف ناتجة من صدأ القلوب وعماها وابتعادها عن نداء الفطرة الصافية نتيجة آثار تركتها الأعمال الإجرامية اللاإنسانية السيئة.

١٥: فحجبهم ذلك الصدأ عن رؤية ربهم في مسيرتهم الدنيوية مما أدى لعدم رؤية مظاهر الجلال والجمال وحجبهم عنها في الآخرة.

١٦،١٧: إنهم سيعذّبون بنار حامية ويقال لهم تبكيتاً هذا ما كنتم به تكذبون.

١٨،١٩،٢٠،٢١،٢٢،٢٣،٢٤، ٢٥: وفي قبال مصير الفجّار يكتب الله للأبرار أن يكونوا في محل متعال يحضره المقربون إلى الله فهم في نعيم خالد وراحة وانفتاح على الجمال بكل معانيه تعلو وجوههم النضارة والبهجة والإشراق ويسقون شراباً صافياً رقراقاً لم يصبه لوث ولا قذر.

٢٦: إنه يختم بالمسك الأصيل فيحمل رائحته وخاصيته فما أروع هذه الجائزة الإلهية وهذا النعيم الخالد الذي يمثل غاية ما يمكن أن يتمناه بشر فليتنافس لأجله المتنافسون.

٢٧،٢٨: إنه ممزوج بماء ينبع من (تسنيم) وهي عين في الجنة يشرب منها المقربون.

٢٩،٣٠،٣١،٣٢،٣٣: لقد كان المجرمون يسخرون من المؤمنين ويشيرون إليهم بأعينهم استحقاراً ومهانة لينطلقوا إلى عشيرتهم متفكهين بغمزهم ولمزهم والتندّر بأحاديثهم، إنهم يتهمونهم بالضلال والعمى والتخلف وهي صفات المجرمين أنفسهم، وما كان لهم ذلك ولم يكلفوا بتقييمهم من قبل أحد .

٣٤: أما يوم القيامة فإن الأمور ستنعكس فالضاحكون من الكفار هم المؤمنون وحق لهم أن يستهزئوا بهم.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانْشِقَاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

٣٦،٣٥: إنهم يستمتعون بكل مظاهر الراحة متكئين على أرائكهم يجولون بأنظارهم ويبصرون مصائر الكفار البئيسة نتيجة أعمالهم.

سورة الانشقاق

تحدثنا عن البسملة وأنها جزء السورة.

٥،٤،٣،٢،١: من أشراط الساعة أن تنشق السماء مستسلمة لربّها العظيم حقاً وأن تمتد الأرض وتتسع وتتغير قوانينها، وتلقي ما بداخلها من خلائق مدفونة ومعادن مكنونة، مستسلمة حقاً لربها طائعة مذعنة.

٩،٨،٧،٦: نعم ليعرف الإنسان بوضوح أن الله أراد له أن يسير بقوة واندفاع ومعاناة وتعبر أجياله التاريخ ويحقق هدف خلقته وهو المجتمع العابد لله فهو قمة كماله وقربه من الله الكامل المطلق ثم يعود إلى الله ليحاسبه فأما العاملون بأوامر الله ممن يحملون كتابهم بأيمانهم فسوف يلقون الحساب اليسير وينقلبون إلى أقرانهم وأهلهم في سرور.

١٥،١٤،١٣،١٢،١١،١٠: وأما الذين يؤتون كتابهم من وراء ظهورهم فليس لهم إلا الصراخ والعويل والثبور ودخول النار، بعد أن كانوا مسرورين في أهلهم في الدنيا يظنون أنهم خالدون في ذلك فليخوضوا إذن في الانحراف ولكنهم كانوا ينسون أن عين الله تراقبهم بدقة.

١٩،١٨،١٧،١٦: إنه قسم بالشفق وهو الأفق الممتد للناظر بعد الغروب، وبالليل بكل ما يحمله من أسرار وعوالم، وبالقمر عند ما يكتمل ، قسم على أن المسيرة الإنسانية ستتقلب في أحوالها وستلاقي صنوف الأوضاع لتصل إلى نهايتها المحتومة عند ربّها.

٢١،٢٠: عجباً كيف لا تؤثر هذه الآيات العظيمة في هؤلاء إيماناً وطاعة وكيف لا يسجدون وهم يستمعون إلى القرآن العظيم بكل ما يعبّر عنه من جلال وعظمة.

٢٤،٢٣،٢٢: كلا إنهم فقدوا الحس الإنساني المطلوب وعادوا يكذّبون بالحقيقة مهما كانت واضحة، والله أعلم بما تشتمل عليه صدورهم فليبشروا ـ تبكيتا ـ بعذاب أليم.

٢٥: أما المؤمنون العاملون للصالحات فلهم الأجر غير المنقطع.

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة الطارق

سورة البروج

البسملة تحمل معاني رائعة وتلخص التصور الإسلامي للحياة، وهي جزء من السورة.

٣،٢،١: قسم ببروج السماء وهي مدارات الكواكب في السماء، وبيوم القيامة الموعود وما يقع فيه من حوادث ضخمة ومواقف للشهود وفي طليعتهم الأنبياء والمشهود عليهم وهم الخلائق.

٩،٨،٧،٦،٥،٤: بعد القسم يأتي المقسم عليه وهو انتقام الله من الذين يوقعون المؤمنين والمؤمنات في الفتنة. وهنا تذكر قصة أصحاب الأخدود وهم فئة من المؤمنين عرض عليهم أن يخرجوا عن دينهم فرفضوا فحفرت لهم حفيرة (اخدوداً) واضرمت فيها النار وألقوا فيها والظالمون قعود يتفرجون عليهم شاهدين لعذابهم، ولم تكن نقمتهم عليهم إلا لإيمانهم بالله والله هو ذو العزة والحمد والملك في الكون كله وهو الشهيد القائم عليه.

وهذه القصة بقدر تعبيرها عن وحشية الظالمين تعبر عن صمود المؤمنين بوجه الفتنة.

١٠: تهديد شديد لأولئك الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات إما بالمكر والخديعة أو بالتخويف والعذاب، ولم يرعووا عن غيهم ويتوبوا الى الله بأنهم سيبتلون بألوان العذاب ومنها عذاب الحريق الذي يهددون به المؤمنين.

١١: أما المؤمنون العاملون للصالحات فأمامهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وهو أعظم فوز يمكن أن يتمناه إنسان.

١٦،١٥،١٤،١٣،١٢: إن الإنسان يجب أن يعيش بين الخوف والرجاء بعد أن يؤمن بان عذاب الله شديد إذ بيده القدرة المطلقة في الكون كله وله العظمة كلها ولا يصعب عليه ولا يمنع منه أحد كما أنه هو الغفور الودود الرحيم المتودد لعباده.

١٨،١٧: وليعتبر المعتبرون بحديث جنود الشيطان والطغيان في قصة فرعون وثمود إذ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

٢٠،١٩: إن المشركين إذ يكذّبون برسالة الرسول يجب أن يدركوا أن الله بهم محيط وأن عذابه شديد شديد.

٢٢،٢١: فليعودوا إلى رشدهم وليتأملوا في هذا القرآن الرفيع في أسلوبه وفي معانيه الخالدة والرفيع في مكانته إنه في لوح مصون من الباطل.

بسم الله الرحمن الرحيم

والسماء والطارق (١) وما أدراك ما الطارق (٢) النجم الثاقب (٣) إن كل نفس لما عليها حافظ (٤) فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦) يخرج من بين الصلب والترائب (٧) إنه على رجعه لقادر (٨) يوم تبلى السرائر (٩) فما له من قوة ولا ناصر (١٠) والسماء ذات الرجع (١١) والأرض ذات الصدع (١٢) إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤) إنهم يكيدون كيدا (١٥) وأكيد كيدا (١٦) فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (١٧)

سورة الأعلى ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥) سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) فذكر إن نفعت الذكرى (٩) سيذكر من يخشى (١٠) ويتجنبها الأشقى (١١) الذي يصلى النار الكبرى (١٢) ثم لا يموت فيها ولا يحيى (١٣) قد أفلح من تزكى (١٤) وذكر اسم ربه فصلى (١٥)

سورة الطارق

مر بنا الحديث عن البسملة.

٤،٣،٢،١: قسم قرآني مؤكد بالسماء وبالنجم الذي يظهر ليلاً، ويثقب ستر الظلام على أن هناك رقيباً على كل فرد يراقب مسيرته، ويسجل حركاته وسكناته. وربما كان يحافظ عليه، مما يترك الإنسان يشعر دائماً بالمسؤولية.

٧،٦،٥: فليتأمل الإنسان في خلقه وكيف بدأ؟ إنه بدأ من ماء متدفق خرج من بين صلب الرجل (عظام ظهره) وترائبه (عظام صدره) ليجتمع مع بيضة المرأة في الرحم.

١٠،٩،٨: إن الذي منحه الوجود وطوره حتى أوصله إلى هذا المستوى قادر تماماً على إرجاعه بعد الموت وبعثه يوم الحساب يوم تمتحن النفوس وينكشف ما أخفته من أسرار فتعلن أمام الخلق، وحينئذ يجد الإنسان نفسه وحيداً لا تسنده قوة ولا ناصر ولا معين.

١٤،١٣،١٢،١١: إعادة القسم بالسماء ذات الظواهر المتتابعة كالمطر والبرق والرعد، وبالأرض ذات القابلية للتصدع وبالتالي الإنبات وهي ظواهر تحيي الإنسان، للتأكيد على أن هذا القرآن، وحقيقة البعث هو القول الحق الفاصل بلا مراء ولا هزل ولا باطل.

١٧،١٦،١٥: ان الكفار يكيدون ويتذرعون لإنكار المعاد، والدعوة، ولكن كيد الله فوقهم وسيعطون فرصة ثم يساقون للعذاب.

سورة الأعلى

تحدثنا من قبل عن البسملة.

٢،١: أمر للنبي بتنزيه ربه الذي يعلو على كل ماعداه ويتنزه عن كل نقص، إنه خالق كل شيء بأروع صورة.

٥،٤،٣: والذي وضع كل شيء في محله بقدره وهدى الكل إلى هدف خلقته، والذي أخرج الزرع الذي ترعاه الأنعام ليتحول بعد ذلك إلى نبات يابس أسود وهكذا تستمر مسيرة الحياة.

٧،٦: إن الله يتكفل للنبيّ أن يقرئه القرآن فلا ينساه وتبقى إرادة الله مطلقة وهو العالم بالأمور الظاهرة والخفية.

٨، ١٣،١٢،١١،١٠،٩: كما تكفّل له أن ييسر له مسيرته الدعوية فلينطلق فيها وليتذكر من تذكر وهو من يخشى عذاب الله، أما الأشقى التعيس فهو من يعرض عنها فيعرض نفسه للهيب النار الكبرى حيث يبقى خالداً لا هو يميت ولا حي.

١٥،١٤: إن السعادة والفلاح الانساني يكمنان في تزكية النفس وذكر الله والصلاة الخاشعة.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ ٨٨ — ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

١٦،١٧: إلا أن البعض تغلبهم نزعاتهم ولذائذهم المادية الدنيوية فيقدمونها على عطاء الآخرة وهو خير وأكثر بقاءً.

١٨، ١٩: إنها حقيقة بشربها الأنبياء وكتبهم ومنها كتب إبراهيم وموسى.

سورة الغاشية

قلنا أن البسملة آية قرآنية تبدأ بها السورة.

١: تساؤل لغرض التهويل عن الحادثة التي تحيط بالجميع بالرهبة.

٢،٣،٤،٥،٦،٧: فحينئذ تجد بعض الوجوه ذليلة خاسرة لسعيها متعبة تواجه ناراً ملتهبة وتشرب ماء حاراً لاسعاً، وتأكل طعاماً جهنمياً خبيثا ساماً لا فائدة فيه ولا يسد الجوع.

٨،٩،١٠،١١،١٢،١٣،١٤،١٥،١٦: ووجوها على النقيض ناعمة رضيت سعيها فنالت جنة سامية بلا لغو بل هي التمتع كله بالجمال حيث الماء الجاري، والأسرة المرتفعة، والأكواب المنظمة المعدّة للشراب، والوسائد المصفوفة الجميلة، والبسط المبسوطة وكلها تريح النفس.

١٧،١٨،١٩،٢٠: إن هذا الكون مملوء من مظاهر النظام: فهذه الإبل وما تتمتع به من طاقات عجيبة، ـ وللإبل بالخصوص آنذاك موقع مميز يعيشونه عن قرب ـ وهذه السماء بقوانينها وظواهرها، وهذه الجبال وارتفاعها وآثارها على حياة الإنسان، وهذه الأرض مهّدت غاية تمهيد لتنسجم مع حياته، كل ذلك يشير إلى المنظم الحكيم فالصدفة محال بالفطرة ولا يمكن أن تجتمع هذه الملايين من الظواهر لتخدم الحياة دونما منظم.

٢١،٢٢: وما على الرسول إلا أن ينبه الإنسان إلى هذه الحقائق ليخرج عن غفلته فلا إكراه ولا جبر على العقيدة.

٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦: أما المعرضون الكافرون فأمامهم العذاب المهول بعد أن يعودوا إلى الله ويواجهون الحساب الإلهي العسير.

سورة الفجر

سورة الفجر ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

قلنا من قبل أن البسملة آية قرآنية تلخص التصور القرآني للكون.

١، ٢، ٣، ٤، ٥: قسم بظاهرة الفجر، وبالليالي العشر الأولى من ذي الحجة، وقيل العشر الأواخر من رمضان وقيل الليالي العشر الأولى من محرم[1]. بما تحملها جميعاً من دلالات، وبالأعداد زوجها وفردها لما فيها من ضبط للأمور أو بعض أعداد الصلوات أو الأيام أو الأماكن، وبظاهرة الليل حيث تسري في الكون فتنشر عطاءها، وجواب القسم محذوف يعرف من ما يأتي وهو تعذيب الطغاة. فكل أنماط القسم هذه تثير ذوي الألباب للإيمان بهذه الحقيقة وتجنب الطغيان.

٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤: إن التأمل في قصة عاد إرم الأولى حيث كانت تسكن «الأحقاف» في جنوب الجزيرة العربية، وكانت أقوى قبيلة وأكثرها تحضراً وأقواها بناءً، وكذلك في حال «ثمود» التي سكنت شمال الجزيرة ببيوت صخرية منيعة، وحال «فرعون» المتجبّر المعذّب لخصومه بالصلب وشدّ الأطراف بالمسامير، إن التأمل في مصير كل هؤلاء الطغاة المفسدين وكيف نالتهم يد القدرة الإلهية فصبت عليهم سياط العذاب بعد أن رصدت كل أعمالهم، يقود الإنسان إلى الحقيقة.

١٥، ١٦: هكذا هو الإنسان فإذا امتحنه ربّه وأكرمه بالنعم راح يعتبر ذلك اصطفاء له وهو امتحان، أما إذا ضيّق عليه رزقه امتحاناً أيضاً فإنه يعتبر ذلك إهانة له. والحقيقة هي كيفية أداء الامتحان، والقيام بمستلزمات العطاء أو المنع وفقاً للهدى الإلهي.

١٧، ١٨، ١٩، ٢٠: إن عدم إكرام اليتيم، وعدم التأكيد على إطعام المسكين يعني فقدان التكافل والرحمة، كما أن التهافت على جمع المال طيبا أو خبيثاً بحق أو دون حق حباً وولهاً في جمعه يعبر عن حرص وطمع أعمى بعيد عن الإنسانية السليمة الملتزمة، وطغيان على الفطرة.

٢١، ٢٢، ٢٣: إنهم سيدركون الحقيقة حين تحطم معالم الأرض وتقوم القيامة وتتجلّى مظاهر القدرة الإلهية كاصطفاف الملائكة، وظهور جهنم بكل هولها، نعم يومئذ سيدرك الإنسان الحقيقة ويعود إلى رشده ولكن بعد فوات الأوان.

---

١ - تفسير الميزان ج ٢٠، ص ٢٧٩.

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سورة البلد ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

سورة الشمس ١٥

٢٤: يومئذ يتحسر ويتأوه ويتمنى أن لو كان قدّم لنفسه هو ما يسعدها في الآخرة.

٢٥، ٢٦: ولكن الواقع أن عليه أن يتحمّل عذابه وقيوده وقلقه لوحده دونما نصير.

٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠: في حين يأتي النداء الرحيم للنفوس التي اطمأنت لربّها وربطت نفسها بالمطلق وأطاعته أن ترجع إلى عطاء ربّها وتدخل في مسيرة عباد الله وجنة الله الخالدة.

سورة البلد

ذكرنا معنى آية البسملة التي تبدأ بها السورة.

١، ٢، ٣، ٤: قسم بمكة المكرمة بما فيها من ايحاءات معنوية وتاريخية، خصوصاً مع وجود النبي الكريم فيها، وبعملية التوالد واستمرار الإنسانية لتحقق هدف الخلقة الإنسانية الكبير، قسم على أن الإنسان لم يخلق للراحة والبطر بل خلق في كدّ وتعب ونشاط مستمر لتحقيق هدفه.

٥، ٦، ٧: فيجب أن يبتعد عن السرف والبطر والتكبر ولا يظن أنه أقدر موجود على صنع مستقبله مدعياً أنه أنفق الكثير من ماله ليحصل على ماحصل عليه ظاناً أنه فعل ذلك بقدرته دون أن يراه أو يرعاه أحد.

٨، ٩، ١٠: إن الله هو خالقه وهو معطيه ما يرى به الوجود من عينين عجيبتين وينطق من لسان وشفتين لينقل مافي رأسه إلى الآخرين ويصنع الحضارة والرقي باستخدام الآخرين، كما منحه الهداية الفطرية والتشريعية وعلمه سبيل الخير والشر وأعطاه الإرادة الحرة للاختيار.

١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨: فلينطلق إذن إلى الكد بجد نحو اقتحام المصاعب والموانع بوجه تكامله: إنها الشح النفسي والقساوة القلبية والالتذاذ الوهمي، فليرفضها وينطلق لإطلاق الأسير وعتق الرقاب (العبيد) وإطعام الجياع، واليتامى من الأقرباء، والمساكين الملتصقين بالتراب لشدة حاجتهم، ولينخرط في سلك المؤمنين المتواصين بالصبر وبالتراحم المستمر وهو سلك أصحاب اليمين.

١٩، ٢٠: أما الكافرون بآيات الله فهم أصحاب الشؤم والضياع والتعاسة وستسلط عليهم نار مغلقة الأبواب فلا نجاة لهم منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سورة الليل ٩٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

سورة الشمس

البسملة أول آية من السورة وتحمل معاني سامية.

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨: قسم بالشمس وما تتركه من ضياء باهر على الأرض، وبالقمر الذي يتبعها في الظهور ليلاً ثم يزيّن الليل بذلك النور الجميل، وبالنهار الذي يفتح العيون على مفاتن الأرض ونعمها، والليل الذي يغطي ذلك الجمال ولكن لهدف خير آخر، وبالسماء بكل عظمتها، ويد القدرة والسر الذي بنى هذه السماء، والأرض والسر الذي مهدها للانسان، وبالنفس البشرية والسرّ الذي ركّبها أروع تركيب في فطرة انسانية تتركّب من قدرات عقلية، وعواطف جياشة، وغرائز هادية دافعة، وإرادة حرة مميزة، وألهمها سبل الخير وسبل الشرّ إجمالاً.

٩، ١٠: كل هذه الانواع العظيمة التي أقسم بها القرآن العظيم جيء بها للتأكيد على أن سبيل الفلاح والسعادة هو تزكية النفس، في حين تشكل عملية قتل هذه الاستعدادات وتحريفها وكبتها منحدراً نحو الهاوية والخيبة والضياع.

١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥: هذه ثمود طغت وكبتت فطرتها، وحركت أشقى اشقيائها وتحدت تحذير نبيها صالحاً من أن يمسوا الناقة المعجزة بسوء ويمنعوها من التفرد بيوم شربها، فكذّبوه وقتلوها فاستحقوا غضب الله عليهم لذنبهم ولا يسأله سائل عن سبب عقابه وعاقبة الأمر.

سورة الليل

البسملة تعلن قيام الكون وانطلاق حركته باسم الله، وهي آية قرآنية.

١، ٢، ٣، ٤: قسم بظاهرة الليل الذي يغطّي الأرض، والنهار الذي يتجلّى ويظهر فتبدو فيه الأشياء، وبظاهرة الزوجية وهي من مظاهر العظمة الإلهية، على أن كل نشاطات الإنسان لها آثارها ومصيرها الخاص بها.

٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١: فأما من تسامى على رغبات النفس فاعطى وأنفق متقياً الله، وصدّق بوعده الحسن فسيوفقه الله للعمل الصالح وبالتالي لحياة الخلود، وأما من أصابه البخل وحرص على جمع المال من أي وجه كان، وكذب بوعود الله فسييسر ولكن للانحراف والضياع وحينئذ فلن ينفعه ماله عندما يهوي في جهنم.

١٢، ١٣، ١٤: إن الله تعالى أوجب على نفسه هداية البشرية، وله تعالى الحياة الدنيا والآخرة معاً وهكذا جاء هذا الإنذار بالنار المشتعلة ليتنبه الغافلون.

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

سُورَةُ الضُّحَى ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

سُورَةُ الشَّرْحِ ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

١٦،١٥: وإنما يبتلى بها الأشقياء المكذبون المعرضون عن سبيل الحق والهدى.

٢١،٢٠،١٩،١٨،١٧: أما الأتقياء الصالحون المطيعون لله الباذلون أموالهم المزكّون المطهرون لأموالهم وأنفسهم قربة لله وهو أعلى من كل ما عداه وأكبر، لا ابتغاء لجزاء ممن يعطونه من النعم، فان ربَّهم سيعطيهم حياة الرضا بما قسم واطمئنان النفس والانفتاح على الكون والشكر لله بعد أن يجنبهم عذاب النار.

سورة الضحى

البسملة أول آية في السورة القرآنية وهي تركز أهم مقومات التصور.

٣،٢،١: قسم بالضحى حيث ينتشر نور الشمس رحمة على البشرية، وبالليل حيث الهدوء والسكينة وهي رحمة أخرى بها، على أن الله لطيف برسول الله عبده المخلص لم يتركه ولم يودعه ولم يجفه، بتأخر الوحي إليه، كلا فهو مشمول برحمة ربّه دائماً.

٥،٤: وهو مورد العناية الإلهية في الدنيا، وكذلك هو الحال وبمستوى أسمى وأكثر خيراً في الآخرة إذ سيمنحه كل ما يرضاه مطلقاً لطفا به وكرامة وعطفا.

٨،٧،٦: تذكير بلطف الله به سابقا إذ رعاه وهداه وأكرمه وهو يتيم الأب حينما ولد ويتيم الأم بعد سنتين (وقيل ست سنين) وفاقد الجد الرحيم بعد ثمان سنين ليكفله عمه في جو من الحنان، وتذكير بالهداية الالهية له باستمرار مما ينعكس على نفسه باستمرار وعياً وتزكية وعلماً في جو جاهلي متخلف وكذلك تذكير بما منَّ الله عليه من الغنى بعد زواجه من السيدة خديجة.

٩، ١٠، ١١: فليعكس النبي هذه الرحمة على سيرته بعدم القهر لليتيم وعدم زجر السائل المحتاج ورده، والحديث عن نعمة الله وشكرها لينعكس هذا الأمر على مجموع الأمة.

سورة الشرح

البسملة آية قرآنية رائعة المعنى.

٤،٣،٢،١: وتكمل هذه السورة معاني السورة السابقة حتى روي أنهما سورة واحدة[١]، فتتحدث عن لطف الله على نبيه بمنحه انشراحاً في الصدر وسعة لتحمل المصاعب وهو شرط أساس في الداعية، وكذلك بتخفيف الأعباء عنه في مسيرته الشاقة، ورفع ذكره بين البشرية على مر القرون، واقترانه بالتوحيد.

٨،٧،٦،٥: تطمين مؤكد من الله رسوله أن سيعبر الحالة العسيرة إلى اليسر، فليعمل على التعبد وتربية المعنويات رغبة وشوقاً متصاعداً لرضا ربه العطوف الودود.

---

١ - الاستبصار، ج ١، ص ٣١٨، ح ٤، وسائل الشيعة ج ٦ ص ٥٥.

سورة التين

البسملة آية تفتتح بها السور القرآنية، وتحوي معنىً سامياً.

١،٢،٣: قسم بالتين والزيتون وما يحملان من فوائد جمّة للإنسان وربما أشارا إلى أماكن مقدسة، وبطور سينين وهو الجبل الذي كلّم الله موسى عليه، وبمكّة المكرّمة الأمينة على وحي الله الآمنة لعباد الله.

٤،٥: هذه الحقيقة الكبرى هي المقسم عليه، فقد جعل الله الإنسان عناية به وإكراماً في أحسن تقويم، سواء في تركيبه البدني المادي المعقّد المحكوم لآلاف الظواهر التي تجعله ينسجم مع ظواهر الكون، أو في منظومته الروحية التي ترفعه فوق المخلوقات وتميزه عنها بفطرته. ولكنه قد يردّ إلى أحط هيئة معنوية فينزل حتى عن مستوى الحيوان والجماد فلا يسلم إلا أولئك الذين انسجموا مع إنسانيتهم وآمنوا وعملوا الصالحات إذ سينالون الأجر الدائم.

٦،٧، ٨: ترى ما الذي يدفع الإنسان المخلوق بأحسن تقويم إلى هدف قويم تحت هدى الله الحكيم للتكذيب بيوم الجزاء وهو لازم حتمي للهدفية وحكمة الله وقدرته وهو أحكم الحاكمين.

سُورَةُ التِّين (٩٥) ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧

سُورَةُ العَلَق (٩٦) ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑭ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑰ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑱ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ⑲

سورة العلق

البسملة آية قرآنية تلخص التصور القرآني عن حركة الكون.

١،٢: هذه السورة هي أول ما نزل على الرسول عند البعثة واتصال عالم الشهود بعالم الغيب، تأمره بأن يقرأ الحياة والمسيرة باسم الله الخالق للوجود من العدم والخالق للإنسان من حويمن ذكري يعلق ببييضة أنثوية، ويطوي مراحل كماله الضخمة.

٣،٤،٥: وتجلّى الكرم الإلهي العظيم بمنح الإنسان القدرة العقلية والذهنية على التعلّم والاستزادة من المعلومات، ونقلها إلى الآخرين عبر رموز اللغة والكتابة بالقلم، ليتم التفاهم والتعاون وتسير البشرية لتحقيق هدف خلقتها.

٦،٧،٨: إلا أن الإنسان قد يُسيء استخدام طاقاته ولا يحكم العقل فيها فيخرج عن الحد ويطغى حينما ينسى ضعفه عندما يستغني قليلا ولكنه سيعود إلى ربّه ليحاسبه على سيرته.

٩،١٠،١١،١٢: وغريب أمر هذا الإنسان الطاغي إذ ينهى عبداً مصلياً مهتدياً آمراً بتقوى الله عن فعله!

١٣، ١٤: إنه يكذب ويعصي الله والله محيط عليم به لأنه خالقه ومانحه الوجود في كل آن.

١٥،١٦: إنه إن لم يعد عن سلوكه سنأخذ بجبينه الكاذب الخاطئ ونصرعه فإذا هو ذليل.

١٧،١٨: وليدعُ أعوانه وأنصاره لندعو الزبانية الشداد الموكلين بالنار ليسحقوهم ويصلوهم جهنم.

١٩: فيجب أن لا يقيم الرسول وزناً له وإنما يمضي في بناء نفسه بالسجود والتقرب إلى الله (والسجود عند تلاوة هذه الآية واجب شرعي).

وهكذا نجد في هذه السورة وهي أول ما نزل من القرآن التوجيه إلى القراءة والعلم والقلم عنوانا لرسالة الإسلام وأمته.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

سورة القدر

مرّ بنا الحديث عن البسملة باعتبارها آية قرآنية.

٢،١: إن الله تفضّل على البشرية فأنزل إليها القرآن الكريم ـ إجمالاً على قلب الرسول ـ في ليلة مباركة من شهر رمضان المبارك يعلم الله عظمتها وهي ليلة القدر، التي يفرق فيها كل أمر حكيم وترسم معالم المسيرة الإنسانية الصاعدة إلى الكمال بشكل متجدد.

٣: إنها ليلة نزول القرآن أعظم هدية لأجيال البشرية، ليلة تربّيها لتكون عابدة شاكرة فهي خير من ألف شهر لا قيمة لها في حساب الرقي المعنوي ويرتع فيها الطغيان كأيام بني أمية.

٥،٤: إنها ليلة تتابع بالنزول فيها الملائكة ومنهم جبرئيل وهي تحمل الأمر الإلهي بإذنه تعالى والبشرى للبشرية فهي ليلة السلام والأمان وميدان التكامل والتفاعل الروحي حتى طلوع الفجر.

سورة البيّنة

تحدثنا عن البسملة.

٣،٢،١: إن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين مثلهم لم يكونوا ليتخلّوا عن تصوراتهم الباطلة والمنحرفة عن ما تقتضيه الفطرة الإنسانية والمنطق القويم حتى يأتيهم الدليل الواضح الذي يحمله رسول من الله يقرأ عليهم صحفاً مطهرة من الأوهام والتصورات السخيفة وهي القرآن. إذ فيه كل ما يصحح التصور ويطهر السلوك وينظم الحياة ويؤكد على القيم.

٥،٤: والحقيقة إن أهل الكتاب تفرّقوا بعد أن جاءتهم الرسالة البينة والواضحة الجامعة. وما كان لهم أن يتفرّقوا بعد أن أكّدت رسالتهم على التوحيد وعبادة الله وإخلاص العمل له وإقامة الصلاة وإعطاء الزكاة وكلّها تعبر عن قيم دينية أصيلة تبني المسيرة القويمة الواحدة وهو بالضبط ما أكّد عليه القرآن وبشكل أدق وأكثر تفصيلا واستدلالاً.

٧،٦: ان الكافرين من أهل الكتاب والمشركين بالإسلام وقيمه التي هي قيم كل الرسالات يسلكون السبيل الخطأ ويقفون ضدّ الحق فمصيرهم بالتالي الخلود في جهنم في حين يشكل المؤمنون العاملون بالصالحات والمقتدون برسولهم والطاهرين من أهل بيته خير البشرية وغاذجها.

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ ٩٩ — ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَادِيَاتِ ١٠٠ — ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾

٨: وبالتالي فجزاؤهم عند ربهم الرحيم جنات الاستقرار الدائم والخلود، يظللهم رضوان متبادل بينهم وبين ربهم انعكاساً لحياتهم التي تميزت بطاعة الله والخشية من غضبه.

تحدثنا قبل هذا عن البسملة.

١،٢،٣: تسبق يوم القيامة أشراط وحوادث منها زلزال عظيم يهز الأرض ويخرج ما تحويه من معادن ومكنونات وأثقال فيتساءل الإنسان عن هذا الزلزال الرهيب وماذا دهى الأرض؟

٤،٥: وحينئذ ستتحدث الأرض عن الحقيقة الهائلة بأن الله أمرها بذلك وأنها ستشهد على أعمال الخلق إيذاناً بيوم الحشر.

٦، ٧، ٨: يوم ينطلقون متفرقين كلٌ يعاني مشكلة نفسه ويواجه عمله بكل صفاته الحسنة والقبيحة وتفاصيلها فمن كان قد عمل خيرا ولو بمقدار ذرة رآه، ومن قد عمل بقدر ذرة شراً رآه.

سورة العاديات

ذكرنا معنى البسملة.

١،٢،٣،٤،٥،٦: قسم بالخيل المسرعة الصاهلة، وبالمورية التي ينطلق الشرر من حوافرها، وبالتي تحمل على الأعداء فجأة في الصباح، فتثير الغبار لتدخل قلب صفوف العدو فتربكها. هذا القسم بخيول المجاهدين يتم ليؤكد على أن الإنسان كفور بنعمة ربه المنعم عليه.

٧: وهو إذ يكفر بالله يشعر في قرارة نفسه بعظمة هذه النعم ويشهدها.

٨: ولكنه حريص على تحقيق لذاته وتحصيل رغباته من متع الدنيا.

٩: ألا يعلم هذا الإنسان العنيد الكفور ماذا سيكون مصيره عندما تزلزل الأرض وتلفظ ما في بطنها من أجساد فتبعثرها في العراء؟

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَةِ (١٠١) ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّكَاثُرِ (١٠٢) ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

١٠، ١١: وعندما تتكشف الاسرار وتمزق الأستار وتظهر البواطن سيعلم الجميع أن الله عليم خبير بكل ما فعلوه.

سورة القارعة

البسملة آية قرآنية تفتتح بها السورة.

١،٢،٣: إن القيامة حادثة تهز القلوب والنفوس وتضرب الآذان بهولها المشدد المؤكد عبر التساؤل المكرر عن مدى العلم بأبعاد هذا الهول.

٤،٥،٦: لتجيب السورة ببيان بعض هذه الأهوال: إذ ستكون البشرية المنطلقة من قبورها هائجة مائجة متلاطمة كما يهيج الفراش إلى كل جانب، وستكون الجبال كالصوف المندوف المتطاير بلا وزن يذكر.

٧،٨،٩،١٠، ١١: وحينئذ يتمايز الصفان، صف ثقلت موازينه بالموازين الحقيقية الإلهية فهو في وضع مرضي له ومحبوب عند الله، وصف خفت موازينه فلا قيمة له فعاقبته هي الانحطاط والهلاك الرهيب في النار شديدة الحرارة.

سورة التكاثر

تحدثنا عن البسملة.

١، ٢: تهديد رهيب لكل أولئك السائرين خلف السراب الخادع، والتجميع السخيف للمتع الدنيوية الزائلة، والتكاثر الملهي للبسطاء المتخلفين، فهدفهم التكثير لغرض التكثير دونما وعي لهدف الحياة ومسؤولية الإنسان، ومضوا في عماهم حتى ماتوا فسكنوا المقابر، وربما كان المقصود التكاثر والتفاخر حتى في عدد القبور.

٣،٤،٥: هؤلاء الصم البكم الساهون سوف يكتشفون الحقيقة بكل تأكيد، وبعلم يقيني لا شك فيه.

٦،٧: إنها الجحيم التي تهز وجدان الإنسان وتستعر في وجوده ويحس بها بكل مشاعره.

٨: إن كل ما تكاثروا فيه وجمعوه ثم خلفوه خلف ظهورهم، أمور تتبعها مسؤوليات تجاه الله والنفس والمجتمع، وسوف يسألون بدقة عما قاموا به أو أهملوه وعليهم الإجابة الدقيقة.



سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سُورَةُ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سورة العصر

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

٣،٢،١: قسم بالزمان وقيل هو عصر الرسول وزمن انطلاق الإسلام، على أنّ الإنسان بطبعه خاسر فاقد لأصالته وما يتمتع به من طاقات كبرى إلا إذا استفاد منها وربّاها وفجّرها وتكامل بها، ولا يتم ذلك إلا بالتأمل في الوجود المنظم والوصول إلى الخالق العظيم والإيمان به لتنفتح أمامه آفاق العلم بالكون، وسبل التكامل الإنساني، وتظم السعادة متصلا بالمطلق القادر الحكيم الذي يرسم له المنهج القويم للعمل الصالح بشق أنواعه الممكنة فيعمل به لصياغة الشخصية السليمة الفردية والاجتماعية عبر التوصية المتبادلة بالتزام الحق بعد معرفته، والصبر والاستقامة على الخط الرباني الأصيل مهما كانت الصعاب.

سورة الهمزة

تحدثنا عن معاني البسملة.

٥،٤،٣،٢،١: تهديد لأولئك المستكبرين المترفين الذين لاهمّ لهم إلا تكديس الثروات من أي طريق جاءت، وتعديد الأموال . ظانين أن المال هو سرّ الخلود والسعادة في حين أنه أمانة ومسؤولية يجب أن تؤدي غرضاً معقولاً وتساهم في البناء الفردي والاجتماعي، ولكن هؤلاء يستخدمون مكانتهم على العكس لتحقيق التمزق، وتحقير الآخرين وبث التباغض، وتكبير نقاط الضعف فلا جزاء لهم إلا النار المحطمة لشخصيتهم والمهشمة لمكانتهم.

٦، ٧، ٨، ٩: إنها نار الله الموقدة لهم تحرق قلوبهم كما تحرق أجسادهم، تطبق عليهم فلا مخلص لهم منها في أعمدة وأوتاد تشدهم إلى العذاب.

سورة الفيل

البسملة آية قرآنية تفتتح بها السورة.

٥،٤،٣،٢،١: تشير السورة إلى حادثة توجه الحاكم الحبشي لليمن (أبرهة) بجيشه لهدم الكعبة المشرفة بعد أن بنى بناء في اليمن سعياً لجعل العرب تتجه إليه، فلم يتحقق له ذلك. فوجه جيشه وفي مقدمته (الفيل) ولكن الله كان بالمرصاد فأبطل كيدهم بإرسال طيور جاءت مجموعة مجموعة فرمتهم بحجارة حارقة فأهلكتهم حتى عادوا كورق الزرع الذي عاث به الفساد وأكلته الديدان.

سورة قريش ١٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝

سورة الماعون ١٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝

سورة الكوثر ١٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝

سورة قريش

قلنا إن البسملة آية تفتتح بها السور القرآنية وتحمل معاني رائعة.

١، ٢، ٣، ٤: كان من عادة قريش أن تكون لها رحلتان إحداهما في الشتاء إلى اليمن والأخرى في الصيف إلى الشام. وكانت هاتان الرحلتان تشكلان مصدر تجمّع وتآلف بين أفرادها الذين كانوا يحيطون بالبيت الحرام، ومصدر نماء ورفاه مادي يجلب إليها أنواع الأرزاق، خصوصاً وأن الله منّ عليهم بالأمن حيث كانت القبائل تعتبر مكة محلاً آمناً حتى للحيوانات، تتفق عليه وقد زادت حادثة الفيل من هذا الاحترام والأمن. كل هذه النعم على قريش يجب أن تدفعها إلى احترام الحرم وربّ الحرم الذي امتنّ عليها بذلك فتعطيه حقه من العبادة.

سورة الماعون

ذكرنا سابقاً معاني البسملة.

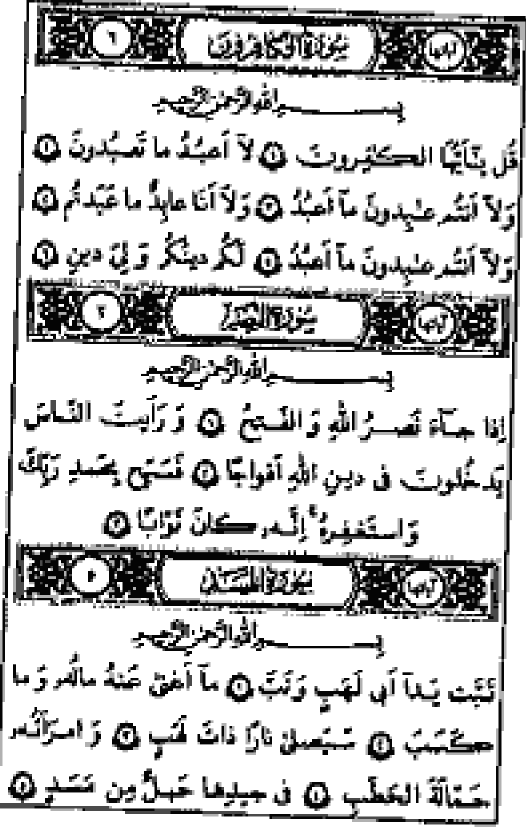
١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧: وهذه السورة توجد ربطاً كاملاً بين العقيدة والعاطفة والسلوك فتؤكد على أن الإيمان بيوم القيامة يتطلب امتلاك الرحمة الإنسانية وبالتالي العطف على اليتيم والترغيب في سدّ جوعة المسكين، والاتصال الواعي بخالق الكون عبر الصلاة والتضرّع إليه، ورفض ماعداه من قوى وضغوط وعدم الرياء ومراعاتها، وبالتالي الإقدام على أنماط التعاون الإجتماعي لسدّ الخلل في المجتمع. فإذا فقدت مثل هذه العواطف وهذه الأنواع من السلوك فإن ذلك يكشف عن عدم نفوذ الإيمان إلى أعماق الوجود.

سورة الكوثر

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

١، ٢: إشارة قرآنية إلى منّة إلهية عظمى على الرسول بعد أن اتهمه بعض المبغضين له (وقيل هو العاص بن وائل) بأنه أبتر لا عقب له، وهذه المنّة تتمثل بأنّه ستكون له ذرية متكاثرة من نسل الزهراء فاطمة وتشكل منبع خير عميم للبشرية علماً وعملاً. (وفسّر الكوثر بالخير الكثير وذكرت له مصاديق أجلاها السيدة الجليلة فاطمة(ع)) ونتيجة لهذه المنّة يطلب القرآن أن يشكرها مصلّياً لربّه رافعاً يديه إلى نحره عند التكبير وبه تفتتح الصلاة ويتم الانتقال من مقطع إلى آخر (وقيل يعني النحر وإطعام الفقير).

٣: أما الأبتر المقطوع الذنب والعقب الذي لا يرجى منه خير فهو عدوك المبغض لك.



سورة الكافرون ١٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ٦

سورة النصر ١١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣

سورة المسد ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ٥

سورة الكافرون

تحدثنا عن البسملة.

١،٢،٣،٤،٥،٦: كان المشركون يؤمنون بالله ولكنهم آمنوا معه بطلقات وهمية كالملائكة أو الجن أو رموز الحجارة والخشب وأمثالها معتبرين ذلك ديناً موروثاً وعندما بعث الرسول بالإسلام ودعم منطقه وكثر أتباعه وعجزوا عن مقاومته حاولوا المساومة معتقدين قرب المسافة بين العقيدتين، مقدمين أنصاف الحلول، كأن يعبدوا الله سنة ويعبد المسلمون آلهتهم سنة أخرى، فجاء النفي القاطع لهذا الاقتراح الوهمي فلا يمكن الجمع بين العقيدتين ولا العبادتين، بل هما مسيران متناقضان تماماً لا يلتقيان قطعاً وقد جاء التأكيد على هذا النفي بأكثر من صيغة.

سورة النصر

ذكرنا من قبل معاني البسملة.

١،٢: وعد وبشرى لرسول الله بنصر وفتح سيمن الله به عليه. قيل إنه فتح مكّة – وهو الأرجح – وقيل إنه استجابة اليمن للدعوة من دون قتال، وقيل نزلت بعد أن استقرت الدولة الإسلامية ودخل الناس في الإسلام، وحل أجل الرسول وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

٣: وهذا الفتح العظيم يجب ان لا يؤدي بالمسلمين المنتصرين إلى الغرور ونشوة النصر وانما يستلزم حمد الله وتسبيحه واستغفاره وتنزيهه وشكره على نعمه المتوالية والله توّاب رحيم يعود على رسوله والأمة باللطف والتوبة والمنة باستمرار.

سورة المسد

البسملة آية قرآنية تحمل معنىً عظيماً.

١، ٢، ٣، ٤، ٥: أبو لهب هو عمّ النبيّ وعدوه اللدود وقد تعاونت معه زوجته (أم جميل) على وضع العقبات في طريقه وإيذائه أشدّ الأذى وباعتباره قريباً من النبيّ وعمّه فقد كان له تأثير سلبي في مسار الدعوة الاسلامية. وجاءت هذه السورة لتصبَّ الويل والهلاك عليه وتعده بعذاب شديد لايدفعه عنه ماله وثروته التي كسبها، فسيبتلى بنار مشتعلة هو وامرأته التي كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق رسول الله، فستنعكس هذه الحالة عليها في جهنم لتحمل الحطب المشتعل مشدودة من عنقها بحبل قوي من ليف جهنمي يشدّها إلى النار جزاء على فعلتها.

سورة الإخلاص ١١٢ (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

سورة الفلق ١١٣ (٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سورة الناس ١١٤ (٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

سورة الإخلاص

تحدثنا عن البسملة.

١: سورة الإخلاص هي سورة التوحيد وتعدل ثلث القرآن باعتبارها تركز على الوحدانية الإلهية والقدرة المطلقة. فالله أحد لا يقبل أيّ تصور للكثرة، إنه الحقيقة الكبرى في الوجود وما عداها قائم بها مستمد منها الوجود في كل آن، فهذه الصفة الذاتية هي أساس صفاته (جلّ وعلا).

٢: إنه القدرة المطلقة في الوجود، والمرجع الأول والأخير فهي أساس الفعل الإلهي. وربما أريد بها الغنى المطلق عن كل ما عداه.

٣، ٤: نفي لتصورات باطلة عن الله ـ تعالى ـ فلا والد له لأنه واجب الوجود الغني المطلق، ولا ولد له لأنه غير مركب وغير محتاج ولا شريك له ولا كفء سبحانه عن الأوهام.

سورة الفلق

ذكرنا من قبل معاني البسملة.

١، ٢، ٣، ٤، ٥: يطلب الله من رسوله أن يلوذ به ويطلب منه الأمان والحماية فهو ربّ الكون والوجود ومنه الصبح الذي ينشق عن الظلام، وبه يحيا الجميع. وهو القادر على دفع أذى الآخرين من المخلوقات أياً كانت قدرتها وتأثيرها وتحت أي ستار جاء الأذى، وقد يأتي تحت جنح الليل وظلامه حينما يغطّي المنطقة. كما قد يتم في إطار السحر الذي تقوم به الساحرات اللواتي ينفخن في خيوط يعقدنها خداعاً وتضليلاً للحواس والمشاعر ، أو يتم في جو من الحسد واستكثار شمول الخير للآخرين. كما قد يدفع الحاسد للتآمر والكيد لسلبه منه. فالله لوحده هو القادر على دفع الشرور.

سورة الناس

البسملة آية قرآنية تعطي أساساً للتصور الإسلامي عن الكون وقيامه بإرادة الله.

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦: يطلب الله من رسوله أن يلجأ إليه وهو ربّ البشرية جمعاء، ومالكها المطلق وإلهها ومعبودها وبالتالي فهو كل الحقيقة في الكون، إنه من يستطيع لوحده أن يكفيه شر التآمر الخفي، والمكر غير المعلن من قبل من لا يكشف نفسه فهو يخنس ويوسوس ويوحي لمن يتقبل الدس والشائعات والتحريك والاستفزاز من أعداء الرسول سواء كانوا من الجن أو الناس.